

تراث الإنسانية

**سلسلة تتناول بالتعريف والبحث والتحليل
روائع الكتب التي أثرت في الحضارة الإنسانية**



الوزارات المشاركة:

وزارة الثقافة
وزارة التخطيط
وزارة السياحة

تصميم الغلاف
وليد طاهر

الإشراف الفني
صبرى عبد الواحد
هشام متولى حامد

تنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

اللجنة العليا

فوزى فهمى رئيساً
أحمد على عجيبة
أحمد زكريا الشلق
جرجس شكرى
جمال الغيطانى
خالد منتصر
خلف عبد العظيم الميرى
سيد حجاب
فاطمة المعدول
محمد بدوى
محمد شعير
محمد عنانى
مصطفى لبيب
نبيل عبد الفتاح
هالة خليل
هيثم الحاج على المشرف العام

تراث الإنسانية

سلسلة تتناول بالتحريف والبحث والتحليل
روائع الكتب التي أثرت في الحضارة الإنسانية

د. أحمد رياض تركي

د. زكي نجيب محمود

إبراهيم زكي خورشيد

د. عبد الحليم منتصر

عالي أدهم

إبراهيم الأبياري



تراث الإنسانية / . - القاهرة: الهيئة المصرية العامة

للكتاب، ٢٠١٦.

مج ٤: ٢٥ سم.

المحتويات: التغيرات أو فلسفة الين واليانج

(القسم السابع - القسم الثاني عشر)

٩٧٨-٩٧٧-٩١٠-٩٠٤-٦

١ - الحضارة - دوائر معارف.

أ - الحضارة - فلسفة.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١٦/١٦٤١٧

I.S.B.N 978- 977- 910-904-6

ديوى ٣٠١.٢

توطئة

الحقيقة المؤكدة التي تنطلق منها «مكتبة الأسرة»، هي أن تجليات الارتقاء في الممارسات المجتمعية، تتحقق عندما ينشط النسق المعرفي والفكري والثقافي للمجتمع ويتسع، بوصفه أهم الدوائر المؤثرة في استمرار المجتمعات وتطورها واستقرارها، حتى لا يصبح المجتمع أسير أجوبة متخسبة جاهزة متوارثة في مواجهة ضغوط احتياجاته، باجترار ثوابت معرفية تجاوزتها فتوحات الزمن المعرفي الراهن، بتنوعات إنجازاته المتجددة، في حين أن رهانات المجتمع لتحقيق تجده تتطلب ليس فقط أن يعرف المجتمع نفسه؛ بل أن يصنع نفسه، ويؤسس ذاته في سياق إدراك دائم أن المجتمع لا يمكن أن يكون إلا بتحرير العقل العام، ليقرأ، ويتمعن، ويستوعب، ويدرك، ويعرف ويتحول مقروءاته، ومعارفه المستجدة إلى شبكة ممارسات يومية تسود كل مظاهر وآليات البنيات الاجتماعية والفردية وعلاقاتها، التي تواجه الصدوع اللامعقولة، وحالات التسلط المغلق التي تغلف وعى الناس بشطحات الارتداد والعزلة.

كما تستند «مكتبة الأسرة» إلى يقين أن إمكانات الإنسان أكثر ثراءً من الواقع، وأيضاً أن لا شيء يتأبد في الحياة الاجتماعية، ليمنع العقل من بناء المعرفة الجديدة؛ إذ شحذ العقل باستخدامه الحر العام - بوصفه أداة الانتصار الإنساني - يشكل إدراكاً معرفياً عماده القراءة، يحور المجتمع من عطالته، ويفتح نوافذ التأمل التي تدفع المجتمع إلى رؤية أشد تحولاً، وتؤسس لتفعيل إرادته وتحرير مصيره، وتضعه إيجابياً في مواجهة صورة الوجود الحقيقي أمام الممكّنات المفتوحة التي ينتجها التواصل، والحوار مع الآخر، واستيعاب الاكتشافات الجديدة؛ إذ غياب القراءة يمنع المجتمعات من تحوّلها المتواصل، وينفيها من التأسيس الفعلي لزمن اجتماعي، فالقراءة هي البداية الكبرى التي إن ظلت مغلقة يصاب المجتمع بالخرس والصمت، حيث في غياب القراءة تتجلى علامات العجز عن إحداث شيء، استناداً إلى أن الصمت عن القراءة يبقى صاحبه خارج موضوع المعرفة، محجوباً عن التكوين الذاتي، والفعل الاجتماعي، إذ المعارف المستجدة تجعل الفرد يتمكن من أن يكون، وأن يفعل، وتؤسس مسيرة إدراك المجتمع لمصيره الآمن، بأن تثرى امتلاكه قدرة إيقاظ ينابيع تخيل صورة وجوده، وإمكانية تحقيقها تصويماً للواقع.

إن «مكتبة الأسرة» تسعى إلى فك احتكار فعل القراءة بالانتشار المتشعب للكتاب، وتقريبه للناس حتى تتحقق جدارة اكتساب الجميع مشروعية المعرفة، ومشروعية الفهم وتداولها، وذلك ما يشكل صميم جهد «مكتبة الأسرة» وتطلعه، تحقيقاً لحيوية مجتمعية تعقلن قبول التغيير باستباق الفهم، وتمارس التحرر من فكرة المعرفة المطلقة، التي تخلق حالات من حصر التفكير وانحصاره، نتيجة هيمنة أفكار مطلقة متسيدة، تؤدي إلى الانغلاق، وعدم الانفتاح على المستقبل.

لا شك أن ثمة تناقضاً بين الدعوة إلى القراءة، وغياب الكتاب عن متناول شرائح اجتماعية لا تسمح ظروفها الاقتصادية باقتنائه، وذلك ما شكل معضلة أصبحت المحك الموضوعي في تحقيق الدعوة إلى القراءة على المستوى المجتمعي، وقد نجحت وزارة الثقافة عام ٢٠١٤ بتفعيل التكايف المؤسسي، وذلك بتجاوز الأطر التقليدية، في دعم «مكتبة الأسرة»، لتبديد التمايز في ممارسة حق القراءة بالنشر المدعوم، الذي يحرر الكتاب من استحالة وصوله إلى شرائح المجتمع، وقد استجابت لهذا التكايف المؤسسي في دعم «مكتبة الأسرة»، كل من وزارة التربية والتعليم، ووزارة التخطيط، ووزارة السياحة، انطلاقاً من أن دعم حق اكتساب المعارف يخلق تغييراً يلبي طموحات الأجيال الشابة الصاعدة والمجتمع بأسره، وهو ما ينعكس فكرياً وثقافياً في ممارسات المجتمع الحياتية.

رئيس اللجنة

فوزى فهمي

تراث الإنسانية

سلسلة تناول بالتعريف والبحث والتحليل
روائع الكتب التي أثرت في الحضارة الإنسانية

الشاهنامة للفردوسي
بقلم الدكتور مجيب الخشاب

اللاذوكون لجوزفون لسيخ
بقلم الدكتور أحمد محمد محمود

عجائب الآثار في التراجم والأخبار
لعماد الدين الجبري
بقلم الدكتور محمد عبد الرحمن طه

تريستان وايزولد

لجوتفريد فون ترسترايسبرج
بقلم الدكتور مصطفى ماهر

مفاتيح العلوم
للخوارزمي
بقلم الأستاذ سعيد زاهد

يشرف على تحريرها

د. عبد الحليم منتصر
على أدهم
إبراهيم الأبيساري

د. أحمد رياض تركي
د. زكي نجيب محمود
إبراهيم زكي خورشيد

الشاهنامه للفردوسى

بمقام
الدكتور محيى الخشاب

- ١ -

دولة فارسية داخل دولته ، فقد تبع ذلك قيام دويلات منها القوية والضعيفة ، الصفارية والسامانية والعلوية والزيارية والبويهية ، وكلها فارسية . ثم جاءت دولتان تركيتان ، الغزنوية والسلجوقية . واستتبع قيام الدويلات الفارسية إحياء الروح الفارسية والحنين إلى إحياء اللغة الفهلوية في صورتها الإسلامية الحديثة لتكون لغة للعلم والأدب والديوان ، ومن هذا الاتجاه الفارسي كان عزم الفردوسى على أن يتفرغ لينظم الشاهنامه . ولم يكن قيام الدويلات التركية ليقف معارضاً لهذا التيار فكثير من وزراء السلاطين الأتراك كانوا فرساً وكانت أمنيته تشجيع الأدب الفارسي واستخدام اللغة الفارسية في أعمال الديوان .

اختلف الكتاب في اسم القرية التي ولد بها الفردوسى ذهب البعض إلى أنها شاداب (دولتشاه) وذهب آخر إلى أنها رزان (مقدمة بايستقر) وذهب العروضى صاحب « جهار مقاله » - وقد زار طوس بعد وفاة الفردوسى بحوالى مائة سنة - إلى أنه ولد في قرية باز من ناحية الطابران . ويأخذ الكتاب المحدثون برأى العروضى في هذا . واختلف الكتاب أيضاً في اسم الفردوسى ،

الفردوسى هو أكبر شعراء القرن الخامس الهجرى وأحد الشعراء الفرس العظام . نظم الشاهنامه فبلغ الأوج في نظمه ، وهى الملحمة الفارسية التى تصور القصص الإبرانى القديم كما تعطى صورة تاريخية صادقة لكثير من جوانب الحياة في العصر الساسانى الذى سبق الفتح العربى لبلاد الفرس . ثم إنه نظم « يوسف وزليخة » متجهاً في نظمه القصة نحو الأدب الإسلامى الخالص .

عنى كتاب السير وأدباء الفرس بالفردوسى وحاكوا حول حياته الكثير من القصص حتى أن استخلاص حقيقة حياة الرجل من هذه القصص المختلفة أصبح أمراً لا جدوى منه ، وإنما على الباحث أن يقرأ كتابى الفردوسى ، الشاهنامه وقصة يوسف وزليخة ، للتعرف على حياة الشاعر الذى كرس حياته للنظم والذى حرص أشد الحرص على أن ينظم الكتاب الإبرانى المعروف في الفهلوية باسم خدائ نامه والذى يعد أعظم أثر أدبى باللغة الفارسية .

والفردوسى حين قام بهذا العمل الأدبى الكبير إنما كان يعمل على إحياء القومية الإبرانية التى بعثها المأمون (١٩٨ / ٨١٣) حين أذن بقيام الدولة الطاهرية ، أول

منصور أو حسن أو أحمد . أما كنيته « أبو القاسم »
فيتفقون عليها . وكذلك يتفقون على لقبه الشعرى
« الفردوسى » ، وفى طوس بستان يعرف باسم الفردوس
ولعله ينسب إلى هذا البستان .

ويذهب العروضى إلى أن الفردوسى كان من دهاقين
(أصحاب الضياع) طوس . ويؤيد هذا قوله فى الشاهنامه .
ولم يذكر كتاب التذاكر تاريخ ميلاد الفردوسى .
ولكن يتبين من بعض أشعاره فى الشاهنامه ما يرجح
هذا التاريخ . فهو يقول إنه فرغ من آخر فصل فى
كتابه فى اليوم الخامس والعشرين من شهر اسفندرامز ،
وكان قد مضى على الهجرة أربعائة سنة ، وكان عمره
فى ذلك التاريخ قد اقترب من الثمانين .

ومن هذا يتضح أنه فرغ من الشاهنامه فى ٢٥
فبراير عام ١٠١٠ (١٤٠٠ هـ) . فاذا ذهبنا إلى أنه كان
فى السادسة والسبعين أو السابعة والسبعين حينذاك فإن
مولده قد يكون بين سنتي ٣٢٠ / ٩٣١ و ٣٢٣ / ٩٣٤ .
وفى الشاهنامه نصوص أخرى قد تغير هذا
التاريخ قليلا ، ذلك أن الفردوسى يذكر السنوات
بالتقريب لا بالتحديد . وقد أخذ الإيرانيون ، حين
احتفلوا بالعيد الألفى للفردوسى ، بهذا التاريخ الأخير
وعلى أساسه أقاموا حفلهم الذى مثل مصر فيه الأستاذان
الراحلان عزام والعبادى . فى هذا الاحتفال قال المغفور
له السيد فروغى « إن الخلاف على تاريخ مولد الفردوسى
ليس أمراً هاماً فإن الخلاف فى سنتين من ألف سنة
لا يقدم ولا يؤخر شيئاً فإذا قلنا إن مدى الخلاف خمس
سنوات فليس هذا شيئاً لأن المهم هو إحياء ذكرى
الفردوسى » . وأقيم العيد الألفى للفردوسى فى يناير
سنة ١٩٣٤ .

ويبدو أن الشاعر كان يعيش فى صباه من غلات
ضيعته ، وأنه كان حريصاً على رى ضيعته رياً معتدلاً
بحيث لا يفرقها الماء إذا فاضت القناة ولا يحرقها الجفاف
إذا امتنع الماء . بهذا يتحدث فى الشاهنامه .

وعرف شاعرنا العربية معرفة جيدة وعرف
الفهلوية معرفة جيدة كذلك . وكانت درايته بتاريخ
إيران دراية عميقة شاملة . أما العربية فهى لغة الثقافة
فى ذلك العصر ، ومهما يكن من ظهور النزعة الفارسية
والانجاء إلى إحياء اللغة الفارسية فإن لغة القرآن لم يهمل
أمرها . وقد كتب العلماء حينذاك باللغتين العربية
والفارسية ومنهم من كان يكتب الكتاب نفسه باللغتين
جميعاً . كتب ابن سينا والغزالي والرازى وغيرهم
باللغتين ومن هنا عرف أن الحضارة العربية الإسلامية
تقوم على العربية والفارسية . والفردوسى نفسه حين
سُم سيرة الملوك فى إيران اتجه إلى القرآن الكريم يأخذ
منه سورة يوسف لينظم قصة دينية فيها الدليل على إتقانه
اللغة العربية . ولا خلاف بين الكتاب على معرفة
الفردوسى باللغة العربية إنما الخلاف على معرفته اللغة
الفهلوية . نولدكه يرى أنه لم يكن يعرفها . أما عزام
وماسيه فيذهبان إلى أنه كان يعرف هذه اللغة ، ونحن
معهما فى هذا . فالفردوسى فى قصة « بيزن و منزه »
يقول إن صاحبه حدثه بقوله : « إن كنت لا تنام فاصنع
إلى حتى أقرأ عليك من الكتاب الفهلوى قصة لتنظمها »
و « كان يقرأ وأنا أنظم » . ويقول « فإن كنت تجهل
الفهلوية فاعلم أن أروند هو دجلة عند العرب » . و « أن
ورز رود هو ما وراء النهر عند العرب » . ويفسر كلمة
بيوراسب - وهى لقب الضحاك - بأن بيور فى
الفهلوية هى ده هزار فى الفارسية (عشرة آلاف فى
العربية) . ويقول إن بيت المقدس يسمى بالفهلوية
كنك دز هوخت . وهكذا .

ويذكر عوفى فى « لباب الألباب » شعراً للفردوسى
يقول فيه إنه اجتهد كثيراً وقرأ كثيراً بالعربية والفهلوية .
وإذا كان مصدر الشاهنامه « الخدايتامه » قد عرف
عنه الكثير باللغتين العربية والفارسية قبل الفردوسى فإنه
من غير المحتمل أن يتم نظم الكتاب كله مما عرف من

أجزائه التي نقلت إلى العربية أو الفارسية . إنما المحتمل أن يكون لدى الفردوسي هذه الترجمات الجزئية بالعربية والترجمة الفارسية له ثم النص الفهلوي أيضاً . إلى هذا رأى الأخير أنجه فون روزن في بحثه الأخير عن التراجم العربية لخداي نامه . وقد انتهى فون روزن إلى أن ترجمة ابن المقفع ، وهي أولى ترجمات الخديانامه ، تلها ترجمات منها ما كان نقلاً صادقا عن النص الفهلوي كالذي عمله محمد بن الجهم البرمكي وزادويه بن شاهويه الإصفهاني ، ومنها ما كان تأليفاً عن طريق الترجمة كالذي عمله محمد بن مطيار الإصفهاني وهشام بن قاسم الإصفهاني ، وقد استعان هذان الكاتبان بنصوص فهلوية من كتب أخرى ، ومنها ما كان تصنيفاً عن طريق الترجمة كالذي عمله موسى بن عيسى الكسروي والموبذ بهرام بن مردانشاه ، وقد أضافا روايات من نصوص أخرى أو مما سمعاه من الموابذة والدهاقين . ويذكر حمزة الإصفهاني في تاريخه أن الموبذ بهرام راجع نيفاً وعشرين من الترجمات العربية لخداي نامه وأن الكسروي لم يجد نصين متفقين من هذه الترجمات .

وتتفق المقدمتان المبكرتان للشاهنامه على أن « أبو منصور المعمرى » ترجم إلى الفارسية - عن الفهلوية - كتاب خديانامه الذي كتبه دانشور وذلك بأمر من « أبو منصور بن عبد الرازق » وإلى طوس في العهد الساماني حوالي سنة ٣٤٧ / ٩٥٧ . وقد ساعد المعمرى في ترجمته أربعة من الفرس هم : تاج الخراساني ، يزدان داد بن شاپور ، ماهويه بن خورشيد ، شادان ابن برزين . ومهما يكن من أمر رواية المقدمتين فإن عزام وماسيه يلاحظان أن الفردوسي ذكر شادان بن برزين في أول قصة كليله ودمنة كأنه الذي حدثه بهذه القصة . ويقول عزام ، نقلاً عن نولدكه ، أن شاهوى الذى يذكره الفردوسي راوياً في مفتتح قصة وضع الشطرنج قد يكون تحريف ماهويه أحد الأربعة المترجمين ، وأن

ماخ مرزبان هراة الذى يروى الفردوسى عنه سيرة هرمز بن أوشروان يمكن أن يكون هو تاج أحد هؤلاء الأربعة . ولاحظ عزام أن الأربعة الذين ترجموا الكتاب كانوا مجوساً « ولم يكن غير المجوس إذ ذاك يعنى بالفهلوية ويجيد قراءتها » ، ولسنا نوافقه على هذا رأى فإن إسلام الرجل لا يحول دون حبه للثقافة أمته ، وأسماء المترجمين الذين ذكرهم حمزة الإصفهاني والبيروني والبلعمي وغيرهم تدل على أنهم كانوا مسلمين . ولكن قد يكون من هؤلاء المترجمين الذين قصدهم أستاذنا عزام مجوس . أما ماسيه فيرى أن هؤلاء الأربعة إيرانيون من الولايات الشرقية ، فهم من هراة وسيستان ونيسابور وطوس .

من هذا يتبين أن آثار الفرس وقصصهم كانت معروفة باللغتين العربية والفارسية وأن الفردوسى كان لديه هذه التراجم ، أو بعضها ، وكان لديه النص الفهلوى أيضاً .

• • •

عهد نوح بن منصور الساماني إلى شاعر شاب ذاع صيته في الشعر الفارسي حينذاك - القرن الرابع الهجرى - اسمه الدقيقى (أبو منصور محمد بن أحمد) بأن ينظم الشاهنامه فبدأ بنظم قصة كشتاسب الذى ظهرت رسالة زردشت في عهده والذى خصته الأوستا (الأستاق) بفصل قصص نصح زردشت له بالإيمان بالدين الجديد ودخول هذا الملك في الزردشتية .

نظم الدقيقى ألف بيت من هذه القصة وحال الموت دون مضيه في نظم الكتاب ، يقول الفردوسى « ولكن سوء الخلق كان خدن شبابه ، فكان يقطع أوقاته بالبطالة وصحبة الأشرار حتى بغته الموت فتوجه بتاجه الأسود . لقد سلط الخلق اللميم على الروح الجميل ، وما نم يوماً بالحياة . ثم انقلب به جده فقتله أحد عبيده » . ويعبر الفردوسى عن ترحيب الفرس بالدقيقى

في نظم الشاهنامه قائلا : « قال الدقيقي سأنظم هذا الكتاب
ففرح الناس به أي فرح » .

...

وعزم الفردوسي على نظم الكتاب فإن ما لقيته
قصص الأبطال من ترحيب الفرس شجعه على المضي
فما أخفق فيه سلفه الدقيقي . « ورغبت في الحصول على
كتاب خدای نامه كي أنقله إلى لغتي وكم من رجل
سألت عن الكتاب دون جدوى . وكنت أخشى مر
الزمان وقصر الأجل فأتركه لغيري ؛ ثم ما آمل من
ورائه من مجد قد يذهب سدى ؛ وقد لا أجد العظيم
الذي يثيني بصلة على قد ما بذلت من جهد ، فإن الدنيا
تعج بالخلف والزمن غر موات لمن يندشون حسن
الثواب . ومضى زمان لم أفض فيه لأحد بمكنون صدرى
فإنى لم أجد من هو جدير بأن أحدثه بسرى . . ثم كان
الصديق الأمين الذى هو قطعة من نفسى فكاشفته
بالأمر فقال : إنها فكرة حسنة ولسوف تسعد بها .
سأتيك بالكتاب الفهلوى (الپهلوى) فامض قلماً
ولا تتوان . إن لك موهبة النظم وإنك على سبك قصص
الأبطال قادر . قص على الناس من جديد حوادث هذا
الكتاب بقدرك أصحاب السلطان وتنازل الجزاء الذى
تبغى » . وجاءه صاحبه بالكتاب فاطمان الفردوسى إلى
أن الطريق بدأ يتفتح لتحقيق رسالته .

كان الفردوسى قد بلغ حوالى الأربعين من العمر
حين بدأ ينظم الشاهنامه ، وكان عليه أن يتفرغ للنظم
والقراءة والاستماع إلى قصص شيوخ المواصلة أو غيرهم
من يعون قصص إيران في صدورهم . كان عليه إذن
أن يترك ضيعته فلا يفلحها بنفسه فإن الفلاحة والأدب
لا يجتمعان . ويتاح له أمر ذكى من ذرية الأبطال ،
له دراية بالشعر وله ولع بأن يرى أجداد أمته منظومة في
سفر باللغة الحديثة ، هذا الأمير هو والى طوس
« أبو منصور محمد » الذى يتعهد الفردوسى ويهين له

من أسباب الحياة ما يجعله في غنى عن سؤال غيره .
« ورعاني رعاية حسنة ولم يكن شئ يكدر صفو حياتى
حتى لقد رقيت من أرضنا الدنيا إلى السموات العلى
بفضل ما غمرنى به من المال ، فقد كان يرى الذهب
والفضة لا يساويان أكثر مما يساوى التراب » .

وأخذ الشاعر في المضي في النظم ، وأخذ الناس
يتناقلون ما نظم من قصص وأصبح الفردوسى ذائع
الصيت في كل مكان حتى أنه هدأ نفساً إذ أصبح من
الخالدين .

واغتيل الأمير « أبو منصور » حاميه وراعيه ،
وكاد النور الذى يضيء له حياته أن ينطفئ لولا أن قبض
الله له حى (حسين) بن قتيبة والى خراج طوس الذى
لم يكن يتلقى شعر الفردوسى دون أن يبعث له بغطاء
جزيل « وهو الذى أعطانى الغذاء والكساء ووهب لى
الذهب والفضة فكنت أدفع ما على من الخراج دون
مشقة وعشت في رغد وهناء » .

ولم تكن الحياة السياسية مستقرة لآل سامان ،
وبدأت القبائل التركية تتطلع إلى الحكم ، والقصة الأثرية
التي تصورها الشاهنامه للحرب بين توران وإيران بدأت
جلية وقد اقترب الفردوسى من الفراغ من كتابه .
وعلائم الإدبار بادية على الدولة السامانية التي احتسب في
ظل حكامها وعلائم الإقبال بدت واضحة للتورانيين
الذين كانوا أمرته للجند السامانيين . ففي ٣٥١ / ٩٦٢
يظهر الب تكين التركى في غزنة . وفي ٣٩٠ / ٩٩٩
يستولى الب على غور وخراسان ، وتأخذ الدولة
الإيلخانية ما وراء النهر . وهذه الأحداث تؤثر أشد
التأثير في حياة الشاعر الذى تخلى عنه الأمراء الذين
ساندوه ، واضطر أن يعتمد على غلات ضيعته مرة
أخرى ، والنظرة السوداء سيطرت على رؤيته للأشياء ،
وجاء ضغثاً على إبالة سقوط الثلج الذى أتلّف الزرع
وأحبال الحياة إلى موات . « وتجمع السحاب وأظلم

القمر وهطل الثلج من السحاب الأسود فلا ترى نهراً ولا سهلاً ولا جبلاً ولست بقادر على رؤية جناح الغراب ولم يبق لي من زاد أطعمه أو وقود أصطلي بناره، وعلى أن أنتظر الموسم القادم للشعب . في هذه الأيام التي أظلم نهارها ، وفي حالة الفزع الذي ينتابني مما على من الخراج ، وبينما كسا الثلج الأرض فكأنها جبل من العاج ، كسدت بضاعتي والأمل معلق بصدقي يأتي لنجدتي .

كانت هذه حالة الفردوسي وهو في الثامنة والخمسين من عمره ، وتحمل الأديب مشاق الحياة ، حاملاً العسر على اليسر ، ولكنه حين قارب الخامسة والستين أوجعه ريب المنون فقد مات ولده وكان في السابعة والثلاثين . وبكى الشيخ ولده وزهد من بعده في المجد الذي كان يرتقب وأصبحت الدنيا لديه لا تساوي شيئاً ، لقد هده الحزن وأحس بأنه لاحق مستتبع . « لقد كانت نوبتي في الرحيل ولكن ولدي الشاب ارتحل فخلف لي الحزن الذي أجالني جسداً بغير روح . إني أحت خطاي عساي أن ألحق به ، ولي معه حين ألقاه كتاب رقيق : لقد كانت التوبة نوبتي في الرحيل فلم ارتحلت يا بني دون إذن مني ورضاً وحرمتني راحة البقاء . لقد كنت لي الفرج عند الشدة فما الذي حملك على أن تسلك طريقاً غير طريق صاحبك الشيخ الكبير . ألفتيت في الشباب رفاقاً فآثرتهم على ومضيت وخطفتني وحدي . »

« إنه حين بلغ السابعة والثلاثين لم تعجبه هذه الدنيا فغادرها . . غادرها وقد ترك لي الحزن والقهر وأغرق في الدم عني . إنه الآن في عالم النور وسيختار لأبيه مكاناً يقربه فيه . لقد انقضى زمن طويل ولم يعد أحد من رفاقه في الطريق ، لعله ينتظرنني ويود أن ألحق به . »

والشاهنامه التي كبرت ونمت وكادت تم والتي كانت رسالة يعمل لها أصبحت شيئاً لا يستحق الجهد

الذي بذل فيها ، فقد قبول عمله المجيد بالصد ونكران الجميل « بلغت الخامسة والستين وإن روحي قلبي كتيب . وأشعر أني كلما مضيت أبحث في سير الملوك يتوقف عن السير نجمي وبأقل . كم من عظيم بلغ الأوج في نسبه وعلمه بفضل كتابي وكم من حاكم اشتهر بكلامي . كلهم يستنسخ شعري بالهجان وأنا في مكان قصي أنظر وأرى . إنهم يحسبونني أجيراً مرتزقاً في أسرهم . لست ألقى منهم غير « أحسنت » ولقد خارت قواي مع هذا الثناء الرخيص ، أما خزائهم العامة فوصدة أمام قلبي الكبير . »

• • •

بعض مخطوطات الشاهنامه تذكر أن الفردوسي أنعمها في هذه الظروف الحزينة سنة ٣٨٤ / ٩٩٤ ، والبنداري مترجم الشاهنامه للعربية (٦٢٠ / ١٢٢٣ - ٦٢٤ / ١٢٢٧) من هذا الرأي . ويرى ماسيه أنه يمكن القول بأن الفردوسي أتم في هذا التاريخ كتابته الأولى للشاهنامه ، ثم إنه استكمل ما فاتته في الكتابة الأولى وفرغ من هذا كله سنة ٤٠٠ / ١٠١٠ .

ويذكر الفردوسي في مقدمة « يوسف وزليخة » أنه مل ذكر الملوك .

وضاقت خراسان في وجه الشاعر ولم ير بداً من التفكير في الهجرة إلى العراق . وكان من الطبيعي أن يفكر الفردوسي في الدولة البويهية ، فأمرأوها فرس يحبون إحياء التراث الفارسي وهم شيعة وهوى الفردوسي معهم . ثم إن دولتهم تمتد إلى الغرب والجنوب من فارس فهي بعيدة عن خراسان . ومهما يكن من أمر الخصومات بين أمراء البويهيين فلإنها أقل خطراً من فن خراسان . وسار الفردوسي إلى مدينة الري (من نواحي طهران) ليتوجه منها إلى إصفهان ثم إلى إقليم الأهواز . كان أمير البويهيين حينذاك « بهاء الدولة أبو منصور فيروز » (٣٧٩ - ٤٠٣) ، وكان من رجاله الموفق

إصفهان ثم إلى موطنه ، طوس ، حيث كانت الدولة
في يد محمود الغزنوى .

لم يكن قد مضى وقت طويل على وفاة الصاحب بن
عباد الذى كان من وزراء البويهيين ، والذى شجع
الشعراء والكتاب . وكانت سيرة الصاحب سنة متبعة
من بعده ، ولعل الفردوسى أراد أن يحظى فى خان
لنجان - من ضواحي إصفهان - بعطف الحاكم الذى
قد يحقق له بعض الرجاء .

جاء فى مخطوطين للشاهنامة أبيات تقول بارتحال
الفردوسى إلى إصفهان وتصوره وقد بلغ بخان لنجان
معدماً لا يقدر على شئ فىأأخذ الحاكم ويكسوه
ويطعمه . ولكن رجل سوء يسعى بالشر ، كالحمار ،
بينه وبين الحاكم ويخاف الفردوسى أن يتغير قلب
الحاكم عليه . ويحدث أن يخرج الشاعر فى رحلة
معه فى نهر « زرین رود » ويقع الفردوسى من القارب
ويكاد يغرق فيشمر الحاكم ويجذبه من شعره وينقذه
ويرده سالماً إلى السفينة ويبدى الفرح بنجاته فيهب
الفقراء ذبيحة فداء له .

ويختلف الكتاب فى نسبة هذه الأبيات للفردوسى .
يرى فروغى أنها منتحلة فهى تم عن أسلوب أحد
النساخ المتأخرين . ويرى تقي زاده أنها صحيحة وكان
نولدكه وشيفر يريان صحتها كذلك . ونحن نؤيد نسبة
الأبيات للفردوسى .

ويخرج الفردوسى من إصفهان قاصداً خراسان ،
طوس ، حيث الدولة التركية ، الغزنوية ، قد استقر
لسلطانها محمود الأمر فى المشرق الإسلامى . ترى هل
يريد الشاعر الذى بلغ من الكبر عتياً والذى يصف
نفسه « بأن دوحة شبابه ذبلت ، وظاهر إهابه تفضن ،
وألّف قامته بعد الاعتدال صارت كاللدا ، وعقد
لآلئ أسنانه آذن بالانسلال والانحلال » هل يريد أن
يعود لوطنه حينئذ إليه ؟ أم أن بلاط السلطان محمود قد

(أبو على حسن بن محمد بن إسماعيل الإسكافى) الذى
حث الفردوسى على نظم « يوسف وزليخة » وذلك بين
سنى ٣٨٠ / ٩٩٠ و ٣٨٦ / ٩٩٦ . وأشرقت آمال
الشاعر من جديد ، فإنه قد يظفر برضا « ملك الإسلام »
وحسبه أن يظفر بإحدى مراتب حاشية بهاء الدولة إذا
ما تقبل شعره قبولاً حسناً .

هكذا يصف المؤرخون والشاعر نفسه إقامته فى
العراق وإلى من كتب يوسف وزليخة . وهناك رواية
أخرى تقول إن الشاعر فى أواخر حياته سار إلى بغداد
حيث طلب إليه الخليفة أن يكفر عن نظمه مجد إيران
المردية بنظم قصة مستمدة من القرآن . وعندنا أن هذه
الرواية وضعت رداً على توهم بعض الكتاب أن الشاهنامة
قامت على أساس من الشعبية ومحاولة رد الشاعر إلى
الطريق المستقيم . والحق أن الشاهنامة عمل فنى رائع
قصد به إحياء تراث إنسانى عظيم حرص العرب على
إخراجه باللغة العربية قبل أن يحرص الفرس على إخراجه
نثراً أو نظماً بالفارسية الحديثة . وأمهات الكتب العربية
ملئية بالكثير من الأخبار الواردة فى الشاهنامة . وإحياء
النص العربى للشاهنامة ، ترجمة البندارى ، كان أول
رسالة للدكتوراه قدمت إلى الجامعة المصرية (جامعة
القاهرة) . والنظر إلى الشاهنامة على أنها وليدة عصبية
معينة يتجافى مع ما لهذا الأثر الخالد من قيمة فنية لا مراء
فيها . وينفى ماسيه رواية توجيه الخليفة للفردوسى لينظم
قصة من القرآن .

أرضت قصة « يوسف وزليخة » الأوساط الدينية
ولكنها لم تستطع أن تعلم على الشاهنامة وتنال شهرتها
وذيوها . وكان الفردوسى ينشد الأمان والسلام فى
العراق ولكنه وجد الأحوال فيه تبدل . والموفق ،
الذى عاونه وهباً له سبيل الاتصال بالأمير البويهى ،
يفقد مكانته عند الأمير الذى يأمر بإلقاء القبض عليه .
 ويفقد الشاعر مكانته أيضاً ويفكر فى الانتقال إلى

استهواه وجذبه إليه . يصور العروضي في جهار مقاله كيف كان محمود يجمع أهل الأدب والعلم في بلاطه ورسالته لخوارزمشاه معروفة ومعروف أن ابن سينا رفض التوجه إليه . ويصور العتيبي في تاريخه أن وزير السلطان : « أبو العباس الفضل بن أحمد » كان يؤثر اللغة الفارسية ويستخدمها في الدواوين والرسائل وأن العربية في عهده أهل شأنها « حتى كسدت سوق البيان وبارت بضاعة الإجابة والإحسان » ، فن الطبيعي أن يلقي الشاعر الذي نظم الشاهنامه بالفاظ تكاد تكون قاصرة على الفارسية عطف هذا الوزير الذي قد يتيح له فرصة القربى من السلطان محمود . مهما يكن فإن الفردوسي سار إلى طوس وفي نيته تقديم كتابه لسلطان الدولة الجديدة التي أدالت من السامانيين . وما أيسر أن يسطر الشاعر أبيات الشعر في مقدمة كتابه وفي ثنياه وخاتمته ، يقول « ما عرف الناس مثل هذا الملك مذ خلق الله العالم . لقد لاح تاجه على العرش فازدانت الأرض كأنها قطعة من العاج وضاعة . كلا لا تجعل الشمس المضيئة مثالا له ، فمحمود قد وضع على تاج الشمس عرشه . . . وقد طلع نجمي به وكان غاربا ، وفاض معين الفكر وكان ناضبا . . . »

وفي طوس لبث بعض الوقت ، لعله كان يكتب مدائح محمود ويوجه النصائح له في ثنياه كتابه ، وفيها لقي أخا محمود حاكم خراسان « الأمير نصر » كما لقي الحاجب أرسلان الجاذب ؛ والفردوسي يحفظ لها حسن لقائه .

ويذكر العروضي في جهار مقاله أن رجلين عاونا الفردوسي في هذه الفترة هما « علي الديلمي » الذي كتب الشاهنامه في سبعة مجلدات و « أبو دلف » الذي كان ينشدها . ومع هذين الصديقين توجه الفردوسي إلى غزنة ، إلى حضرة السلطان محمود ، وإلى وزيره « الفضل بن أحمد » الذي يحب اللغة الفارسية ويؤثرها

في أعمال الديوان . هو إذن يسير قاصداً « محمود ، الملك الشجاع الأصيل ، الذي يغلب على العير برائن الأسد . ملك العالم — محمود — مسعر الهيجاء ، ونائر رؤوس الأبطال على الغبراء » ؛ وقاصداً « الفراش المبسوط على الزمان ، الذي لا يطويه الحدثنان . مكان السرير من ذلك البساط الممهّد ، مجلس « الفضل بن أحمد » الذي نشر في المملكة الطمأنينة ، وأوحى إلى الكبراء العقل والسكينة . ما ظفرت الملوك بمثله وزيراً ، حزماً وجوداً ورأياً منيراً . طاهر اليد ، فصيح اللسان ، مخلص لله وللسلطان . لقد كشف غنى الغم والحزن ذلك الوزير العادل رب الفطن » . وهو في سعيه إلى غزنة ينشد « الجواد المفضل الذي لا تضرب دون نواله الأفعال » ؛ وفي يمينه كتابه « تمر عليه السنين ويتلوه كل حكيم فطين » ، « وطدته قصر أعظم الخطر ، يهزأ بعصافات الريح والمطر » .

ولكن القدر الذي حرم الفردوسي من حياته ورعاته يضمن عليه بالإقبال هذه المرة أيضاً وقد أوشتك على الثمانين . من قبل اغتيال الأمير « أبو منصور محمد » وإلى طوس ، فلما ذهب للبويهيين وحياه « الموفق » لم يلبث هذا أن غضب عليه السلطان فعزله وقتله . وفي هذه الرحلة الأخيرة يظهر الوزير « الميمندي » وهو أفغانى — من غزنة — وينجح في إقصاء منافسه « الوزير الفضل بن أحمد » ويقتله ، وتعود اللغة العربية لغة الديوان ، ويتوارى إلى حين محبو التراث الفارسي واللغة الفارسية ، وعلى أية حال يتغير الجو بالنسبة للفردوسي ، ويذهب الأمل في أن يكون الكتاب « عوفى في الكبر وعمدنى بالمال والمجد والصيت الأغر » يذهب هذا الأمل أدراج الرياح . محمود تركى صميم لا يستطيع أن يتلوق ما ذكره الفردوسي من غلبة أبطال إيران على توران ، مهما تكن روعة هذا القصص الإيراني . ومحمود بنى سياسته على التشدد في التمسك بالدين فلا يستطيع أن يجيز الإشادة بالزردية . والوزير الميمندي يعرف

لشاهانامه قدرها ولكنه لم يكن يستسج استخدام الفارسية في الأدب وفي الديوان فهو لا يستطيع أن يكافئ الفردوسي المكافأة التي يستحقها صاحب هذا العمل العظيم . ثم إن هذا الوزير جاء على أثر ضائقة مالية هي التي أودت بسلفه وكان السلطان محمود في حاجة إلى المال الكثير لغزواته في الهند فلم يكن في مقدور الميمندي أن يشير بإعطاء الفردوسي صلة تتناسب مع قيمة الشاهانامه وهو الحريص على توفير المال للسلطان . وقد رأينا أن الفردوسي ذهب إلى بلاط البوهيين حين رأى ما سبق القضاء على الدولة السامانية من فتن ، فهو إذاً شيعي من طوس ، وهو يلجأ إلى الدولة الشيعية . فهو إذاً شخص غير مرغوب فيه من الدولة الجديدة الغزنوية . ولو أن الميمندي قدر الشاهانامه كعمل فني لا دخل للمذهب الديني فيه فإنه قد يعرض نفسه لمناقضه ولمن يحيطون بالسلطان الذي كان بنفسه حريصاً أشد الحرص على أن يقصى الشيعة من حوله . وقد تعرض رجل من كبار رجال هذا السلطان لسخط خلفه مسعود ولم تكن جريرته تؤدي إلى شتته لولا أنه أتهم بصلته بالخليفة الفاطمي بالقاهرة . فالتشيع كان أمراً غير مرضي عنه من الغزنويين ، ومن هنا كان الوزير الميمندي غير حريص على مكافأة الفردوسي المكافأة التي يستحقها . والفردوسي لم يذكر الميمندي في الشاهانامه ، فقد كان عازماً على تقديمها للسلطان في عهد وزيره القتيل « الفضل » . تحدثنا العروضي في جهاز مقاله بأن السلطان سأل من حوله كم يعطى الشاعر فقالوا خسين ألف درهم واستكثروا هذا المال فأرسل السلطان له عشرين ألف درهم . ولا تعد هذه الصلة شيئاً إذا قيست بما كان يبذله محمود للشعراء الذين يمدحونه . وكان « محمود » لم يلغض إلى الكتاب الذي جمع « تراث الفرس » الذي حرص على إحيائه العرب والفرس جميعاً ، إنما عني بذكر اسمه في الكتاب فتمثل جوده في هذا المبلغ الضئيل مكافأة على حشر اسمه بين أسماء الأبطال الذين أشاد

بهم الفردوسي في كتابه . وكما فكر ابن سينا في أن يلجأ إلى الزياريين فكر الفردوسي ، وهو الخبير بتاريخ إيران القديم ، في أن يلجأ إلى أمير لا شك في صحة نسبه إلى الساسانيين ، وهو أمير تابع في ذلك الوقت للزياريين (ابن الأثير سنة ٣٨٨) . وشد الشاعر ، وهو ضيق الصدر ، رحاله إلى طبرستان . هناك يحكم رجل من أسرة قارن ، إحدى الأسرات الست القديمة في تاريخ إيران ، اسمه شهریار . والمعروف أن طبرستان — كما يقول « لوسترانج » في « بلدان الخلافة الإسلامية » — هي آخر إقليم إيراني دخل في الإسلام . وأن حكامه الذين حملوا لقب اصهبند (مهابد) ظلوا بعد الفتح العربي لبلادهم يحكمون مستقلين ، لم نقودهم الفهلوية ولم دينهم الزردشتي ، وكانوا كما يقول « كريستنسن » فرعاً من الأسرة المالكة الإيرانية القديمة . وظلت أسرة قارن تتمتع بامتيازها في تحديد سلطة الملك ، وفي التتويج بتاج أصغر من تاج الملك ، في العهد البرقي وكانوا يحملون لقب « بهلو » . وشهریار الذي قصده الفردوسي هو « شهریار بن شروين بن رستم بن سرخاب بن قارن بن شهریار بن شروين بن سرخاب بن مهر مردان بن سهراب » . سار الفردوسي إلى طبرستان التي يظنها جبل دنباوند موطن السمرغ الذي تبنى زال والد رستم ، وهما البطالان اللذان أشادت بهما الشاهانامه ، لعله يجد عند أميرها ملاذاً بعد أن اقترب من الثمانين وأصبح خالي الوفاض وإن كان بين يديه أعظم كتاب في الأدب الفارسي . ويأتى بشهریار ويقول : « سأحول هذا الكتاب من اسم محمود إلى اسمك فإن هذا الكتاب كله أخبار أجدادك ومآثرهم » . ولكن شهریار يهدي من روع الشيخ الكبير ، فهو عاطف عليه ، يحب للعمل الرائع الذي قام به ، عازم على أن يمنحه بعض المال ليعينه عوناً ما . خفى على الفردوسي أن الزياريين ، والأمير من أتباعهم ، قد أصبح هوام مع محمود منذ سنة ٤٠٣ / ١٠١٢ ، ولا يستطيع شهریار أن يأتي بعمل

يفضب « محمود » ، والشاهنامه التي لم يقدرها محمود لا يستطيع هو أن يبدى إعجابه بها ولا أن يصل الشاعر بما يتكافأ معها . هون على الفردوسي وأكد له « أن محموداً حمل على هذا وأن الكتاب لم يعرض عليه وأنه سعى بك ؛ ثم أنت رجل شيعي ، وكل من تولى آل البيت لم تستقم له أمور الدنيا إذ لم تستقم لهم أنفسهم . وكان الفردوسي قد نظم مائة بيت في هجاء السلطان محمود فعرض شهریار أن يشتري هذه الأبيات ، كل بيت بألف درهم ، على أن تبقى الشاهنامه باسم محمود وعلى أن يمحو شهریار أبيات الهجاء . وقبل الفردوسي . وبعد قرابة مائة عام يذكر العروضي ستة أبيات من هذا الهجاء تبين مدى غضب الشاعر على محمود الذي خيب أمله فيه . « لقد قالوا طاعنين : إن هذا المنطيق شاب على حب النبي وعلى ، ولئن حكيت لم حبي لأحمين مائة مثل محمود . إن ابن الأمة لا يرجي خبره ولو كان أبوه ملكاً . حتام أطيل الكلام في هذا ، وهو كالبحر لا أعرف له قراراً . لم يكن للملك قدرة على الخير وإلا لرفعني على العرش ، ولم يكن عظيم الأصل فلم يحسن أن يستمع أسماء العظام » .

والأرجح أن محموداً لم يسمع هذا الهجاء فلو أنه لم يمح وعرف به محمود لما عرف لشهریار حقه فكافأه ولما استطاع الفردوسي أن يعود إلى بلده طوس بعد مراضاة شهریار له . ومن المستبعد أن يعيد الفردوسي سطر هجائه لمحمود بعد أن قبل شراء شهریار لهذا الهجاء ، وبعد أن وعد ببقاء الشاهنامه باسم محمود ، وترك مديحه إياه - وهو في جميع مخطوطاتها - .

وعاد الفردوسي إلى طوس مهد شبابه ، جسداً عظيماً وروحاً حزينا : « قليل من الناس يتجاوزون السبعين وأنا أدري أن ليس لهؤلاء غير الألم والبكاء على حياة أية حياة . لقد مس المرض قديمي فأقعدني وأذنى قفيهما وقر . وعدت على السنين وأسلمتني إلى الفقر والعوز » .

ثم يتجه إلى السماء يسألها : « أيتها السماوات العلى لماذا أفقرتني في شيخوختي ، لقد كنت سمحة معي في صباي فلما كبرت تركتني للهوان . . . » .

وفي غزنة كان السلطان محمود قد ندم على سوء تصرفه مع الفردوسي . هل هي وساطة شهریار الذي قدم لمحمود بدأ عظيمة وقد عرف له محمود حقه « كما يقول العروضي ؟ أو هل هو « نصر » والى خراسان الذي تدخل عند أخيه السلطان محمود ليرضى عن الفردوسي ويقدر عمله ؟ أو هل هي قصص الشاهنامه وكان يتغنى بها الناس في كل مكان عرفت فيه ؟ كل هذه الفروض جائزة كما يقول « ماسيه » . ويروى العروضي أنه « سمع سنة ٥١٤ في نيسابور من الأمير معزى أنه سمع من الأمير عبد الزاق بطوس أن محموداً كان في الهند مرة ، وبينما هو عائد منها إلى غزنة عرض له ثائر في قلعة حصينة وكان منزل محمود في اليوم الثاني عند باب هذه القلعة ، فأرسل إليه رسولا أن انت غذاً وقدم الطاعة . فلما كان الغد ركب محمود . وبينما الرئيس الكبير (أحمد بن حسن الميمندي) يسير عن يمينه إذ عاد الرسول وأقبل شطر السلطان . فقال السلطان للرئيس الكبير ، ماذا يكون الجواب . فأشد الرئيس بيت الفردوسي : إن لم يأت الجواب كما أريد فأنا والجرز والميدان وأفراسياب . قال محمود لمن هذا البيت الذي تنبعث الشجاعة منه ؟ قال للمسكين الفردوسي الذي احتمل العناء خساً وعشرين سنة وأتم هذا الكتاب وما جنى أية ثمرة . قال محمود : أحسنت عما ذكرتني فقد آسفني أن محرم عطائي هذا الرجل الحر ، ذكرني في غزنة لأرسل إليه شيئاً . ثم أمر له بستين ألف دينار ، يعطاها نيلجا وتحمل على الإبل السلطانية إلى طوس ويعتذر إليه . ومضت سنون والرئيس في شغل بهذا . وأخيراً وصل النبلج سالماً إلى الطابران . (كانت طوس تتألف من المدينتين التوأمين الطابران ونوقان) .

دون جدوى ، وكان للفردوسى حديقة عند هذه البوابة - اقتناها من صلة شهریار - فدفنوه بها . وزار العروضى قبره فيها سنة ١١١٦/٥١٠ .

أقام أرسلان الجاذب ، حاجب طوس من قبل السلطان محمود ، قبة على قبر الفردوسى . وهدمت القبة وأعيدت فى عهد المغول . وفى القرن العاشر الهجرى كتب دولتشاه أن قبر الفردوسى معروف يزوره المعجبون به . وفى القرن نفسه كتب نور الله الشسترى أن القبر أصبح خراباً كطوس نفسها وأن هدمه كان بأمر من عبيد الله خان الأوزبكي « أن كثيراً من الناس . وخاصة من الشيعة الإمامية ، يزورون هذا القبر الذى شرفت بزيارته » . (تاريخ بخارى ، قاهبرى ، ترجمة السادق) .

ورأى سايكس ، صاحب تاريخ إيران ، القبر وصوره فى كتابه ، ولا يقين فى الصورة إلا أحجار منثورة فى العراء .

ومن بلغ شهرة الفردوسى ، وخلف أثره كالشاهنامة ، هو أس التراث فى أمة ، لا يعنيه قبر مشيد ؛ وكان مولانا الرومى يعنيه حين يقول :

« لا تبحث تحت الثرى عن ترابنا »

فقلوب أحبابنا خير قبورنا »

فى عام ١٩٢٥ تألفت فى طهران جمعية لإحياء ذكرى الفردوسى وتشيد قبر له . وفى سنة ١٩٣٤ احتفلت إيران بمرور ألف عام على الفردوسى وأقامت له قبرا مهيباً حيث دفن ، يراه الزائر على مسافة أربعين كيلو متراً من مشهد ، مدينة الرضا عليه السلام .

- ٢ -

والشاهنامة ستون ألف بيت بالتقريب ، والمطبوع والمخطوطات تختلف فى العدد . وإذا استئنيت الأبيات الألف التى نظمها الدقيقى وأدخلها الفردوسى فى

والمعروف أن الوزير الميمندى عزل سنة ٤١٦ / ١٠٢٥ ، وسبق عزله هزات عنيفة لمركزه ، ورغم أخوته فى الرضاة للسلطان محمود ومع ما بلغه من قوة حين أصبح وزيراً ، فإن خصومه كثر عددهم ، ونجحوا آخر الأمر فى إقصائه وولى مكانه حسنك (أبو على الحسن بن أحمد العباس) .

ويصور سيف الدين حاجى فى كتابه «آثار الوزراء» (منشورات جامعة طهران ١٩٥٨) ما كان من محاولات للإيقاع بالميمندى وقد طالبت سنوات قبل عزله . وحسبك هذا شتى ، كما قلنا ، فى عهد السلطان مسعود بحجة صلته بالخليفة الفاطمى بمصر وكان شقيقه بإيعاز من خليفة بغداد (القائم بأمر الله) . ومن المحتمل إذا أن الميمندى ، مجازة لميل أقوى خصومه ، رق للفردوسى وعمل على كسب رضا السلطان عنه .

ومهما يكن فإن الشاعر الشيخ المصطفى يتوفى قبل أن ينال صلة السلطان « فيينا الإبل تدخل من باب رودبار كانت جنازة الفردوسى تخرج من باب رزان » .

أما صلة السلطان فهناك روايتان عنها . واحدة تقول إن الفردوسى خلف بنتاً عظيمة النفس أرادوا أن يسلموا إليها هبة السلطان فأبت ، حرصاً منها على كرامة أبيها وإجلالا للشاهنامة التى أصبحت بعد موت ناظمها فوق الصلات . قالت « لا حاجة لى لى هذا المال » ، فعمروا به رباط جاده فى حدود طوس . والرواية الثانية تقول إن المال عرض على أخت الفردوسى فأخذته وأنفقته على إقامة جسر على النهر الذى كان يروى أو يطغى على أرض الفردوسى فحققت لأختها أملا طالما تمناه فى أشعاره .

وتلاحق تهمة التشيع جنازة الفردوسى ، يقول العروضى إن واعظ الطبران المتعصب لم يجز حمل جنازة الفردوسى إلى قرافة المسلمين بحجة أنه كان رافضياً وأن الناس أطالوا الحديث إلى هذا الواعظ

ثم الاشكانيين (البرت أو ملوك الطوائف) الذى ينتهى
عهدهم اردشير مؤسس الأسرة الساسانية .

والساسانيون حكموا، حسب الشاهنامه ، ٥٠١ سنة
وملوكتهم ٢٩ . وفى التاريخ أنهم حكموا ٤٤١ سنة
وملوكتهم ٣٦ ملكاً . وتاريخهم ثابت مما كتب عنهم
سواء عند مؤرخى اليونان أو فى الكتب الهلوية ثم
العربية . وفى هذا القسم الأخير تعتبر الشاهنامه مصدراً
تاريخياً للحضارة الإيرانية بوجه عام .

• • •

تصور الفترة الأولى من الشاهنامه التحول الحضارى
لشعب إيران . فالملك قد اختير على أساس القدرة على
فرض المنازعات بين القبائل المتخاصمة أو على الحكم فى
الخلافا بين الأفراد . فهو القاضى الذى يرتضى الناس
حكمه ولذا يجب أن يعرف بالعدل . وهو قريب من
الله وفيه من روحه ولذا فإنه يعبد وهو يقضى بالملك إلى
أبنائه من بعده . والدنيا سكنت بالإنس والجن فكان على
هذا الملك أن يحمى الشعب من الشر الذى يلذعه
الشياطين ، وأن يحارب هذه الشياطين التى تتمثل فى
التنين وغيره من الحيوانات الخيفة المقدسة . وفى هذه
الآفة اكتشف الملوك وسائل الحياة من الملابس والنار
والزراعة والكتابة وأكل لحم الحيوان . كما قسموا
المجتمع إلى طبقات وأقاموا المعائر ونظموا الجيش .

فالملك هوشك مثلاً يجتاز الجبل ذات يوم مع بعض
رجالهم فيرى ثعباناً ضخماً يتطاير الشر من عينيه وتظلم
الدنيا من حر أنفاسه ، فيأخذ حجراً ويلقيه عليه بكل
قوته فاذا الثعبان يجرى ليختبئ ولكن الحجر يقع على
صخرة فتخرج شرارة من تكسرهما ويحمر موضع
الشر . وبدأ ظهور النار . وقد دعا الملك الناس إلى
التوجه بالشكر إلى الله لأنه هداهم إلى النار . وفى الليل
أشعل ناراً عظيمة التف حولها مع صحبه وشربوا
الخمر . وسما هذا الاحتفال سده (السدق) .

كتابه ، فإنها تكون كلها نتاج شاعر واحد . ولا يبارى
الشاهنامه فى طولها كملحمة إلا بعض الملاحم الهندية
ولكن الشاهنامه تمتاز بأنها نظم شاعر واحد .

وهى تتناول قصص وتاريخ أربع أسرآت :
البيشدادية (أهل العدل) ، الكيانية (كى ، كاوى
بمعنى الملك) ، الاشكانية ثم الساسانية .

ولم تشر الشاهنامه إلى الأسرة السلوكية ، خلفاء
الإسكندر .

والقصص الذى يروى تاريخ الأسرتين الأولى
والثانية يكاد يكون خرافياً كله . فلوك الأسرة الأولى
عشرة حكموا ٢٤٤١ سنة ، وملوك الأسرة الثانية عشرة
أيضاً حكموا ٧٣٢ سنة .

وقصص الأسرتين موصولة ومتصلة بالأساطير
الهندية إلى عهد لهراسب الذى كان قد ترك الملك وتفرغ
للعباداة ثم جاء الملك التركى ارجاسب وقتله .

بعد لهراسب يأتى عهد كشتاسب ، الذى ظهر فى
أيامه دين زردشت ، وبه تبدأ القصة التاريخية وتكون
أقرب إلى التاريخ ، ويمكن إدخال الدور الأكمنى
(المخامنشى) فى هذا العهد . فكوروش الكبير (الثانى)
هو كيخسرو وقمبيز هو كيكاوس وبهمن هو
ارت خشر (اردشير الأول - ارنجزرسيس) وهكذا .
والشاهنامه ، على خلاف التاريخ ، تنهى هذه الأسرة
بحكم الإسكندر المقدونى وتجعله ضمن الكيانيين ، فهو
ليس أجنبياً عن إيران حتى يعد غازياً لها إنما هو ابن
داراب ، وداراب هو أخو الملك دارا الثالث الذى
تزوج بنت فيليب ملك الإغريق فانجبت له الإسكندر
الإيرانى .

والأسرة الثالثة ، الاشكانية (دولة البرت) ،
حكمت فى الشاهنامه ٢٠٠ سنة ، ولا تذكر الشاهنامه
أسماء حكامها جميعاً ، وهى تعدهم أجنباً ولا تعنى
بهم . والتاريخ يذكر ، بعد الإسكندر ، السلوكيين

الحيتين . واتخذ إبليس هيئة الطبيب ودخل على الملك فقال له هذا قدر كتب عليك والعلاج أن نطعم الحيتين حتى لا يضيع منهما الملك وطعامهما لا يكون إلا من أدمغة البشر . فأخذ الملك برأى الطبيب وقتل ما لا يحصى من الخلق لإطعام الحيتين بأدمغتهم . كان كل ليلة يأمر بقتل رجلين .

وكان لجمشيد طفل هربت به أمه إلى الهند وأحسن تربيته حتى إذا شب وعرف ما يجريه الضحاك من المظالم في إيران أخذ يستعد لتخليص البلاد من شره . والضحاك في الوقت نفسه يسرف في اللعناء ويتبع أخبار هذا الولد - أفريدون - الذي حدثه المنجمون عن أمره ويجمع الضحاك العلماء والزهاد من حوله عسى أن يدفع عن نفسه بعونهم . وذات يوم يثور « جاوه » وهو حداد قتل أحد ولديه وجاءت التوبة في اليوم التالي على الابن الثاني . ورفع « جاوه » قطعة الجلد التي يغطي بها قلميه عند تطريق الحديد الممجة ونادى من ورائه خلق كثيرون بشعار أفريدون الذي اتجه القوم إلى محبته ليأخذوه ويجلسوه على عرش أبيه . ويقود أفريدون الثوار ويهزم الضحاك وفي اللحظة التي يريد أن يهوى بجرزه على رأسه كالصاعقة يمثل ملك أمامه ويقول « إن الله يأمر بحد أجل هذا الثعبان حتى يعذب طوال الزمان ، شد وثاقه واقفه حبيساً فوق جبل ديباوند » . وبهذا انتهى عهد الضحاك الذي دام ألف سنة .

وظل علم جاوه « درفش كاويان » علم إيران منذ ذلك الزمان .

• • •

وعيد أفريدون يوم ارتقائه عرش إيران أول يوم من ماه مهر ، وعرف هذا العيد باسم المهرجان .

وكان له ثلاثة أبناء ووجههم من ثلاث أنحوات هن بنات ملك اليمن (سرو) . واستقر له ملك الدنيا فأثر الاعتزال للتعب وقسم ملكه بين أولاده الثلاثة . فأعطى

• والملك جمشيد الذي حكم ٧٠٠ سنة استخدم الحديد وأعد منه السيوف والرماح ونسج منه الدروع وعمل الجواشن والتجانيف وسائر أدوات الحرب في زمانه . وعرف الملابس من الكتان والإبريسم وعلم الناس كيف يغزل الغزل وينسج . واستحدث الأبنية وشاد المدن . واستخرج الذهب والفضة والياقوت والفيروز فرصع بها المناطق والأساور والعصائب . ثم استخرج الطبيب ، المسك والكافور والعنبر . وأظهر علوم الطب وخواص الأدوية . وصنع المراكب وجاس بها البحار . وكان يسخر الجن لعمل تختاً مرصعاً بالجواهر ورتب له حملة منهم فكان يجلس عليه وهم يرفعونه في الهواء ويحملونه إلى حيثما أراد . ووضع عيد النوروز فقد كان حمل الجن لتخته أول يوم في السنة والشمس في برج الحمل فعيد اليوم وسماه النوروز . وقد طغى وله في الحكم ٣٠٠ سنة ونسى ربه فنهاه رجال الدين عن ذلك فلم يأبه لقولهم فكان أن غلبه الضحاك وحمله على الحرب ٤٠٠ سنة ثم قده في نهاية الأمر نصفين بمنشار .

والضحاك (ازدهاق) وهو بيوراسب (صاحب عشرة آلاف فرس) ، كان أبوه مرداس ملكاً تقياً في الصحراء التي يسكنها الفرس رماة السهام - العرب - وجاء إبليس إلى الضحاك وزين له قتل أبيه ليرقى عرشه فاستجاب لإبليس وقتل أباه . وكان يحب الأكل فتزيا لإبليس في زى طباط وأخذ يهيئ له خير أنواع الطعام ، وكانت الأطعمة المعروضة قليلة عندهم ، فأثر ذلك في نفس الضحاك وقرب الطباخ منه حتى صار أقرب الناس إليه . وذات يوم قال الضحاك للطباخ : اقترح حاجة أقضها إليك . فقال الطباخ دعني أقبلك بين كتفيك ، فأذن له ، ثم اختفى الطباخ فلم يعد يره الملك ، وخرج من كل واحد من كتفيه حية سوداء ، وجاء الأطباء فقطعوا الحيتين فعدتا ، كغصن الشجرة ، من جديد . وتكاثر الأطباء ولم يجد طبهم في اقتلاع

رأسه . ثم سار إلى حيث سلم ، وكان قارن قد قطع عليه سبل الفرار فقتله أيضاً .

ويعود منوجهر منتصراً إلى جده الأكبر أفريدون الذى يقر به عيناً ، فبصرى الوقت قد آن لأن يبوئه عرش إيران وليجعله خليفته ، ثم إنه يعهد برعايته إلى سام ، البطل الإيراني ، ويشعر بدنو أجله ، بعد أن حكم ٥٠٠ سنة . وموت أفريدون يبدأ عهد الأبطال في الشاهنامة ، وتطفي أخبارهم على أخبار الملوك . ولا تشير الأبتاق (الأوستا) إلى الأبطال بينما تذكر الملوك الخرافيين .

وهؤلاء الأبطال هم سام وابنه زال ثم رسم بن زال وأخيراً سهراب بن رسم .

ولد لسام ولد طالما انتظره ، وتطير حين رأى شعره أبيض فأخذه إلى جبل وتركه فيه . وجاءت السيمرغ (العنقاء) فرأت الطفل فأشفقت عليه وحملته إلى عشها ونشأته مع أفرانها . وكبر الولد ورأته القوافل وهي تسير بجانب الجبل وتحدث الناس عن الإنسى الذى يعيش في شعبة الجبل بين أفران العنقاء . وسمع سام بقصة ابنه ورأى في منامه رسولا يخبره بقصته ، وسار إلى الجبل بنفسه بحثاً عن ولده ورأته السيمرغ فأبلغت الولد ، وكانت تسميه داستان ، ونصحته بأن يقبل أن تحمله إلى أبيه . ونزعت ريشة من جناحها وطلبت إليه أن يحتفظ بها حتى إذا ما حزبه أمر أحرق الريشة فتحضر السيمرغ وتقضى حاجته . وعظم شأن زال وتبناه منوجهر وأبلى بلاء عظيماً في حكم الهند والسند حين ناب عن أبيه سام الذى وجهه الملك للحرب في مازندران .

وأحب زال روذه بنت ملك كابل ، وهي من نسل الضحاك ، وتزوجها بعد مشاورات طويلة وتردد . فقد كان الملك يخشى مصاهرة بيت الضحاك . ولكن زال ينجح في إقناعه بعد أن يجتاز امتحاناً عقده

«سلم» بلاد الروم و «تور» الصين وبلاد الترك و «إيرج» إيران وجعله ولياً للعهد . وتسم كل منهم عرشه . ولكن سلم وتور حقدًا على أخيهما وطعنا في القسمة التي أجزاها أبوهما وقالاً إنهما كانا أحق بولاية العهد من إيرج . وبعثا برسول إلى أفريدون منذرين متوعدين . فلما علم إيرج بهذا عرض على أبيه أن يذهب مسالماً إلى أخويه وأن يعمل على إخماد ما في قلوبهما من الحقد عليه وذلك بأن يترك ملكه قسمة بينهما . وسار إلى أخويه فأحسن استقباله ، وكان يعاملهما معاملة كلها ود وإخاء ، وكما جرى على لسان أحدهما قول جارج قابله بالكلمة الطيبة . والكبراء حول الأخوة يشهدون عتو سلم وتور . وهدوء إيرج وسلامة منطقته ورجاحة عقله وإيثاره السلام وحقق السماء ؛ فكانوا يتحدثون عنه في إكبار وإجلال ويتهايمسون فيما بينهم بأن رأى أفريدون هو الصواب فهذا الشاب أجدر أخوته بولاية العهد . ويشعر الأخوان بما يتهايمس به الناس ويدركان ما كسبه إيرج من تقديرهم . فيشب تور على أخيه ويرميه بكرسى من ذهب فيتوسل إليه إيرج ألا يفلت منه الزمام وأن يبدأ حتى لا تكون فتنة بين التورانيين والإيرانيين ؛ ويقسو قلب تور فيستل خنجره ويطن أخاه فيقتله ويحتر رأسه . ويرسل الأخوان رأس إيرج إلى أبيه .

ويحزن أفريدون حزناً شديداً ويبكيه بكاء مرأ حتى يفقد بصره . ثم يعلم أن جارية بالقمصر حامل من ولده إيرج ، وتلد الجارية بنتاً ، فلما تكبر يزوجه من ابن أخيه فتلد منه منوجهر الذى يسعد جده به ويجد فيه عوضاً عن ابنه إيرج ويرد الله إليه بصره .

ويعد منوجهر جيشاً ومعه قارن (صاحب الأسرة التي ينتسب إليها شهباز) الذى قدم الفردوسى الشاهنامة إليه بعد أن يش من محمود الغزنوى) ، وسار الجيش إلى توران فهزم جيش تور ثم انقض عليه منوجهر واحتز

الموازنة له وسألوه عن اثنتي عشرة أحجية أجاب عنها .
(أوديب له موقف مماثل) .

وحملت روذبه ، فلما جاءها المخاض تعسرت
وأوشكت على الهلاك . وزال واقف ترتعد فرائصه
ويبكي . وفجأة يذكر ريشة السيمرغ التي معه فيخرجها
من جيبه ويحرقها ، فتحضر السيمرغ ومعها الخير
والأمان ، تأمر زال بأن يأتي بحديدة حادة ويعطيها إلى
آس حاذق ليشق بها خاصرة روذبه ثم يستخرج الولد ،
ثم وصفت له الدواء الذي يوضع على الجرح قبل أن
يخيط . وأمرت بأن تسقى الوالدة من الشراب ما يفقدها
الوعي حتى تتم هذه العملية (القيصرية) . ونظرت
السيمرغ في حنان إلى زال ونزعت ريشة من جناحها
تركتها له ثم حلفت . وجاء الآسى وقام بالأمر واستخرج
ولداً لم ير له مثيل ، جالاً وقوة ، كأنه ابن عشر سنين .
ولبت روذبه مغشياً عليها يوماً وليلة فلما أفاقت ورأت
ولدها بجانبها حذقت فيه وحتت عليه وقالت « برسم -
أي نجوت » . فسمى الولد « برسم » .

وجئ للطفل الرضيع بمريضات عشر ، فنام فطامه
كان يأكل أكثر من نصيب خمسة رجال . وفي شبابه
المبكر كان يصرع الفيل الثائر بضربة واحدة .

وامتحنه زال ليرى مدى دهائه بجانب ما أوتي من
قوة ، فكلفه بفتح قلعة حصينة ، فتخفى رسم ورجاله
في زى التجار ونجأ السلاح في أكيسة الملح ، ودخل
القلعة فجعل عاليها سافلها . فاطمأن الوالد إلى قدرة
ولده وكتب بذلك إلى جده سام .

ومات الملك منوجهر وكان قد أوصى بالملك لولده
« نودز » وأوصاه بأن يتبع النبي الجديد إذا ظهر بناحية
المغرب ، وحذره من جنود بشنك ملك الترك وابنه
افراسياب ونصحه بأن يستظل بحماية الأبطال ، سام
وأولاده . ولم يكن نودز جديراً بالملك ، كان لاهياً

عائياً : ويرسل بشنك جنوده وعلى رأسهم ابنه
افراسياب . ويموت سام في زابلستان فيذهب افراسياب
إلى إيران منتزاً فرصة تغيب زال لحضور العزاء في أبيه .
ويؤمر الملك نودز ثم يقتل بعد أن يغلب زال جنود
الترك ويقتل أعيانهم . ويلجأ أولاد نودز إلى زال :
وينصب هذا الملك زو بن طهما سب ، وهو أحد أحفاد
أفريدون . ويلم القحط بالبلاد ويعجز جيشا توران
ولإيران عن متابعة الحرب ويعقد الصلح بين الطرفين :
وتذهب الغمة وتختصر الأرض وتكثر الخيرات ولكن
زو يموت ويعود افراسياب ليجتلب إيران . ويموت الملك
الجديد كرشاسب وترحف طلائع الترك على إيران
ويلجأ الأشراف إلى زال فيعهد إلى ابنه رسم بالأمر
ويطلب إليهم تنصيب ملك على إيران حتى لا يبقى
الملك بغير رجل من آل أفريدون . فأشار انوبد بكيتباد
وسار رسم ليخبره بهذا وليكون في دولته بطل
الأبطال .

ويبدأ عهد الكينيين مع البطل رسم . وحول
رسم روايات كثيرة . منها المخاطر التي اجتازها وهو
مخلص كيكاس من « سيد ديو » - الغرير الأبيض -
وقتل ملك مازندران الذي كان يستعين بالشياطين .
وتذكر القصص دور « الرخش » فرس رسم .

ولكن القصة التي اشتهرت هي قصة صلة رسم
بسيده من توران ومولد ابنه مهرب ثم الحرب بين
الأب وابنه دون أن يعرف أحدهما الآخر . وهي القصة
التي لحصها سانت بيف Sainte-Beuve بالفرنسية
كما نقلها للإنجليزية ماتيو آرنولد Mathew Arnold

قال الفردوسي : خرج رسم ذات يوم للصيد عند
حدود توران ، وبعد الصيد نام وترك « الرخش » يرعى
فجاء جماعة من أهل مدينة سمنجان وسرقوا « الرخش »
فسار رسم إلى هذه المدينة وقابل ملكها وطلب منه أن

يحضر الرخش بالحسنى . وهذا الملك من روعه واستضافه في قصره . وفي الليل جاءت تهيمنه ابنة الملك ، فقعد عليها برضاها . فلما أذنت الشمس بالطلوع أعطاهما خزانة كانت مشدودة على عضده ، وقال لها : « إن رزقت أنثى فاربطها في قرونها ، وإن رزقت ابناً فشدّها على عضده » . ثم إن ملك سمنجان دخل غرفته وبشره بالعثور على فرسه . فسر رسم وركب الرخش وانطلق إلى إيران . ووضعت ابنة الملك ولدأ سمته سهراب ، كان يشب في يوم ما يشب غيره في سنة . فلما كبر سأل أمه عن أبيه وجده فقد وجد نفسه أطول أقرانه قدأ ، وأوسعهم صدرأ ، وأشدهم بأسأ . فقالت له أنت ابن رسم من شجرة زال بن سام بن نيرم . وما استعلاؤك إلا لأن ذلك البيت أصلك . . فقال سهراب : لأجمعن جيشأ عظيماً من الترك ولأخلعن كيكائوس عن عرشه وأنقل تاج إيران إلى رسم ، وأعطف إلى بلاد توران وأنزعها من يد أفراسياب فأكون مع أبى ملكي هذه الدنيا . وبلغ أفراسياب أن سهراب جمع جيشأ حوله وأنه يتصدى لاكتساب المجد . . وبعث أفراسياب برجلين من قناته ليسيرا مع سهراب في مسيرته لإيران ويبدلأ أقصى المكر حتى لا يعرف أباه رسم عند الملاقاة . وكان أمله أن يقتل أحدهما الآخر . وفي الطريق التقى رسم بقائد قلعة واشتبكا في المبارزة ، وكتب رجل فيها إلى الملك كيكائوس ينبئه بهذا الفارس التركي الذي لم ير مثله والذي يشبه سام بن نريمان في عراكه ونبه الكاتب ملك إيران إلى ضرورة الاستعداد لملاقاة جيش هذا الفارس . فلما بلغ الكتاب الملك تشاور مع رجاله واففقوا على استنهاض رسم في زابلستان ليحضر بنفسه ويدفع شر هذا التركي الشجاع .

واستخدم الشاعر وسائل الإنارة في نفسيتي رسم وسهراب ، وكثيرأ من الظروف التي كانت تحول دون معرفة أحدهما الآخر ، واللقاء بين البطلين تم على مراحل ويقترب أمل القارئ من أن البطلين سيعرفان ما بينهما من

صلة الرحم ثم يتبدد هذا الأمل . وتنتهى المعركة بأن يقتل رسم ولده سهراب ويراه وهو محتضر ويستمع إليه يقول : « إن كنت أنت رسم فأنا قتلتني وأنت أعمى القلب ، فكلم تعرفت إليك وتملقت لك فما تحرك عرقك ولا لأن قلبك . فحل الآن معاهد جوشي . . فإن أبى خين ودعتني شدت على عضدى خزانة وقالت هذه من أبيك » . . فلما رأى رسم الخزانة فقد من الحزن الصواب ، فلما تاب إلى رشده أسرع في إرسال رسول يطلب من الملك كيكائوس دواء لإيقاف نزيف ولده . . ويأبى الملك النذل أن يسعف الولد والوالد جميعأ ، غلبه طبعه السيئ . . وعاد الرسول ليخبر رسم بمنع الملك الدواء عن ولده فيسرع بنفسه للملك وفي الطريق يلاحقه الخبير بأن سهراب مات . .

وقد أبدع « عزام » حين نظم ، على مثال شعر الشاهنامه ، سماع أم سهراب بقتله :

وأخبرت الأم أن البطل	بسيف أبيه أتاه الأجل
فزقت الدرع أظفارها	فلاححت تلالأ أبقارها
ثمن ونجار جهد الخزين	وينتابها الفشى في كل حين
تلف أصابعها بالشعر	فتجنز من أصلهن الطرر
وتلدى على الخد دمع الدم	وتكبو وتنفض في المأتم
ومدت لها سنة في العمر	لنوح الليالى وتذب النهر
وأسلمت الروح مما بها	فطارث نحن لسهرابها

وينتقل الفردوسى بعد قصة سهراب ورسم إلى قصة جديدة لسياوخش بن كيكائوس . تزوج كيكائوس من سوزبه بنت ملك هماوران (حمير) ، كما أنجب ولداً من فتاة تركية يتصل نسبها بأفريدون وسمى الولد سياوخش ، وعهد بتربيته إلى رسم . وتكرر القصة التي كانت بين امرأة بوتيفار وسيدنا يوسف (امرأة العزيز وسيدنا يوسف في القرآن) . فتراود سوزبه ابن زوجها سياوخش عن نفسه فلا يجاوب ونخب الملك

كيكاوس بخيانة ولده له فيأمر الملك بأن يجرى الابتهال على ولده ، ويأمر بإشعال النار ويمرق سياوخش بفرسه هذه النار فتكون برداً وسلاماً عليه ويخرج منها سالماً . ويأمر الملك بقتل سوزبه ولكن سياوخش ، مقدراً حب أبيه لما وسيكون من نعمته عليه بعد قتلها ، يناشد أباه أن يعفو عنها ، فيعفو .

ويعود أفراسياب فيحشد الجيوش لغزو إيران ويتقدم ، وينتهز سياوخش الفرصة لينجو بنفسه من جبال كيد سوزبه فيعرض على أبيه أن يخرج لدفع العدو مع رسم . ويخرج البطلان ويضطرب أفراسياب ويرسل رجلاً من قبله يطلب الصلح . ويتشاور بطلا إيران ويقرران القبول . لقد بعث إليهما أفراسياب مائة نفس من الأمراء الكبار تأكيداً لصديق ميله وإثارة السلم . وبعد التشاور أوفد سياوخش رسم ليشرح الأمر لكيكاوس . ويقضب هذا وهين رسم : « أحسب أن سياوخش شاب غر لم تصبه المكارة ولم تعضه النواذب . ألسنت أنت الجلليل الخنك والعذيق المرجب ومن يتعلم منه الملوكة ؟ سأمره أن يهجم غير متلبث على أفراسياب في غيظه ويضع فهم السيف ويوسعهم القتل والأسر . أما الأمراء الذين أوفدهم أفراسياب فيحضرون عندي لأسقيهم كأس المنون » .

وتمسك رسم بأهداب السلم وآداب الحرب وقال لكيكاوس : « ليس بحسن في الأحداث أن ينتشر عن سياوخش أنه أخفر الذمة وغدر بالرهائن » . وبهم الملك رسم بأنه يشير بهذا إثارة للدعة ، وكوناً للرفاهية ويحتد رسم ويخرج غاضباً ويذهب إلى زابلستان .

أما سياوخش فيلقى رسول أبيه الذي يقص عليه ما جرى مع رسم ويحمل إليه أمر الملك بأن يحمل «طوس» محل رسم ، ثم يبين له الرسول مدى حقد أبيه عليه والمصير الذي ينتظره إذا هو عاد دون قتال أفراسياب . فوجم سياوخش لما حزنه من تنكر أبيه عليه وما يخشى من

عاقبة ذلك ، ويأبى أن يسلم الرهائن إلى أبيه . وكان على سياوخش أن يختار أحلى أمرين كلاهما مر . فهو لا يريد أن يذهب إلى إيران حيث أبوه الملك النزق الشرير الضعيف الذي وقع في هوى امرأة لعوب وهو مجبر على أن يختار اللجوء إلى أفراسياب فيتخذ من العدو صديقه . ويشير رجال أفراسياب بوجوب استقبال سياوخش على الرحب والسعة ، ويقبل ملك الترك هذا الرأي بعد تردد شديد فقد كان المنجمون يخشون هذا اللقاء الوديع ، والناصحون يرون أن ملك إيران صائر إلى سياوخش والخير أن يكرمه الترك وهو في محنته . ويلقى سياوخش الود الخالص من أفراسياب الذي يزوجه ابنته فرنكيس ، وهب له ولاية في دولته . هناك يعيش سياوخش ويحكم ويشيد مدينة كنتكذ فتكون كالجنة في الأرض . وكان نجم سياوخش إلى النحاس أميل ، فإنه يشر حقد كراسيوز أخى الملك فيوقع هذا بينه وبين أخيه وينجح مسعى السوء بين الصديقين « إنه قد تقرر عما كان عليه ، وقد تكررت الرسل إليه من أبيه كيكاوس في السر ، وكذلك تأتيه الرسائل من أطراف الروم والصين ، وهو لا يشرب الآن إلا على اسم كيكاوس » ، ويقرر أفراسياب إنه سلم لمن سألته وحرب لمن حاربه . ويقتل سياوخش . أما فرنكيس فتحزن لقتل زوجها وتحاول أبوها إسقاط الجنين الذي في بطنها ولكن أميراً تركياً ينقلها وهو بمكيدة كراسيوز من العالمين ، ويسمى المولود كيخسرو كما أراد أبوه .

أما كيكاوس فيدرك أنه تسبب في قتل ولده فيجلس للتعزاء ويحجى رسم كالأسد الفاضب فيشيع الملك تعنيفاً ولوماً ويسرع إلى بلاطه فيدخل إلى حيث تقيم زوجته سوزبه فيجلسها من شرها ويخرجها ويقدها بسيفه نصفين . ثم يأخذ جيشه ويسير إلى بلاد الترك . ويحتل رسم توران ويأسر ابن أفراسياب . أما هذا فيهرب إلى الصين ويصحب معه كيخسرو بن

سياوخش . وينجح جيو ابن أخى رسم فى اختطاف كيخسرو . وكان كيخسرو ينتظر هذا الخلاص الذى حدثته أمه به وكان نبوءة لأبيه قبل مقتله .

ويحضر كيخسرو إلى إيران ويلاقى جده كيكاوس الذى قام ونزل له عن تخته واعتقه وقبل وجهه ، وحضر جميع الأصهبندية والأمراء وسلموا عليه بالسلطنة عدا « طوس » ، « صاحب الكوس والمداس الذهبى وحافظ الدرفش الجاويانى » فكان يتعصب لعم كيخسرو « فرى برز » ويقول « كيف يجوز أن يكون الخافد وارث التاج والتخت مع وجود الابن . ونحن لا نرضى ملكاً من نسل أفراسياب » . ويختلف الأمراء ويلجأون إلى كيكاوس ليقضى برأيه فيشير بأن من يفتح منهما قلعة بهمن يكون صاحب الحق فى التاج . وينجح كيخسرو فى فتح قلعة الشياطين ويعود إلى إيران فيبايعه الأمراء جميعاً ملكاً عليهم .

وكيخسرو هو كوروش فى (الآثار الباقية) ، للبيرونى ، وهو ثالث الكيانين والثالث عشر من ملوك الشاهنامه . وهو بقية من المقدسين فى الدين الآرى القديم . وهو آخر الملوك الذين تشترك فيهم أساطير الأستاق والفيدا . وقصة ولادة كيخسرو فى توران وتربيته بين الرعاة وما كان من إشفاق جده أفراسياب من زوال ملكه على يده ، وقتل الجلد بيد حافده فى النهاية تشبه كل الشبه ما يرويه هردوت عن ولادة كوروش وما كان بينه وبين جده لأمه استياجس ملك ميديا . (پيرنيا وعزام) . وتدور الحرب بحالا مع الثورانيين أيام كيخسرو ويلعب رسم دور البطل الأعظم فيها . وتجربى وقائع : كاموس الكشاني ، ورسم مع أكووان الجنى ، وحرب الإثنى عشر رخا وغيرها .

وتنتهى حياة كيخسرو فى غموض . فهو يعتزل فى آخر أيامه ويخلو إلى ربه ويطلب إليه أن يأخذه إلى جواره . كان وقد نصره الله ومكنه من أعدائه وأتاح

له الثأر لأبيه وبلغه ملك المشرق والمغرب ، يخشى أن يملك العجب مقاده فيصير مثل الضحاك وجمشيد وأفراسياب ولهراسب الذين كفروا بالله وجعلوا أنفسهم آلهة من دونه . ويجتمع عظماء إيران الذين هالم تصوف الملك وعزلته وانصرافه عن الملك بعد أن استقر له الأمر وهذأت الفن ، وكما كانوا يلجأون إلى زال ورسم فى الحروب والمعارك استعانوا بهما لإقناع الملك بأن يعود إلى الحكم ويترك مناجاة ربه . ويشد زال فى حديثه مع كيخسرو ويصبر هذا ولا يخاشن زال فى الجواب فليس هذا حسناً عند الله وهو لا يأمن موجودة رسم إن هو تطاول على أبيه الشيخ المهيب ، يقول له : « إنى شمت التاج والتخت والأمر والنهى ووقفت بين يدى ربي فى هذه الأسابيع الخمسة أنضرع إليه وأسأله أن يخلص روحى من هذه الأرض المكدره حتى استجاب دعوى وحقق أملى . ولقد رأيت فى المنام كان ملكاً نزل على وهمس فى أذنى : « إنك قد أعطيت ما سألت فتجهز إلى جوار الله الكريم ، ولا تقم فى هذه الدنيا الكثرة ، وفرق الأموال على المحتاجين والفقراء والمساكين . . » فاعتزل زال عما بدر منه ، وأدرك الحاضرون أن كيخسرو ليس بمجنون إنما هو من الواصلين .

وكما انتهت حياة « يدهشتر » وأخوته والذين كانوا فى وداعهم تنتهى حياة كيخسرو ومرافقيه .

تقول « المهاهارة » إن يدهشتر وإخوته يسبرون بعد أن اعتزل الملك ويودعهم الرجال والنساء ثم يرجع المودعون ، ويستمر السائحون فى رحلتهم حتى يبلغوا متاهة يهلكون فى رمالها ما عدا يدهشتر الذى يسير قدماً لا يعبأ بشيء ومن ورائه كلبه حتى يدخل السهائلاً (ورنر) ، وتقول « الشاهنامه » إن كيخسرو صعد إلى جبل وفى أثره العظماء والنساء والرجال زهاء مائة ألف نفس ييكون ويضجون حتى طن بصياحهم السهل

وصمم كشتاسب وأمره مطاع وعصيانه حرام في دين زردشت .

ويبدل رسم الكثير من الود نحو الشاب البطل ويقبل أن يصحبه إلى كشتاسب ولكن دون قيد ، وتلعب الأقدار دورها ويحسب اسفنديار أن رسم يخدعه . وينشب القتال بين البطلين ، ومن حولها رجالها ، ودون إذن بقتال يشبك الرجال ويقتل ولدان من أبناء اسفنديار ، فيفقد هذا صوابه ويعطر رسم وابلا من سهام تصيبه وتضطره إلى أن يعتصم بجبل ويطلب استئناف القتال في الصباح . ويجد أفراسياب أن الليل أقبل بظلامه فلا يلاحق خصمه . ويلجأ زال ، الشيخ الكبير الذي لم يفلح مسعاه للسلام ، إلى الانتقاء فيحرق جزءا من ريشته التي سلمتها له عند مولد رسم ، فتحضر العنقاء وترفرق على رسم وتغمره بحنائها ثم تدخل مقارها في جراحاته وتخرج منها نصالا أربعة ثم تمسحها بجناحها فتلتهم . وصنعت مثل ذلك بالرخش واستخرجت منه ستة نصال . ثم قالت لرسم « لأى معنى تعرضت لقتال اسفنديار . . وقاتله لا يرى الخير بعده . . وتقصر مدته ويلقى العناء بقية عمره ، ويدوق العذاب بعد موته ؟ فإن رضيت بهذه الحالة فاركب وأبصر العجب » . فركب رسم وسار إلى ساحل البحر ، فأسفت العنقاء على شجرة من الطرفاء فقالت له : « اقطع من هذه الشجرة قضيباً مستقيماً . . وركب عليه نصلاً عتيقاً ، واجعل له قدساً . ثم إذا جاء اسفنديار يطلب قتالك فتضرع إليه وابك بين يديه فلعالك تصرفه عن قتالك بحلو لسانك . فإذا لم يفعل فوتر قوسك وسدد نحو عينه هذا السهم . . فإنه يصيب عينه ، ويكون في ذلك حينه » . وأرشدته إلى الطريق ، ثم ودعت « زال » وطار .

ونزل البطلان إلى الميدان فلما تقاربا قال اسفنديار : « أما السجزي ! كأنك قد نسيت صنيعى بك بالأمس ، وكان ظنى أنك تكون اليوم محمولاً إلى الرمس . لأنك لم

والجبل . ثم إن الملك التفت إليهم ونههم إلى أنه يحتاج طريقاً صعباً لا ماء فيه ولا عشب ، فانصرف عنه زال ورسم وجوزر ، وتبعه الباكون . ولما طلعت الشمس ركب الملك وغاب عن أعينهم فهاموا على وجوههم يطلبونه ويبكون . ثم تغيبت السماء واشتد الهواء ومطروا ثلجاً هلكوا تحته أجمعين .

وكان كيخسرو قد بايع لماسب ليخلفه ، ولم يكن زال ورسم عن هذا الاختيار راضين . وبأى بعد لماسب كشتاسب . وفي عهده ظهر زردشت فاعتق ديانته . واشتهر ابنه اسفنديار (أمه كتابون بنت ملك الروم) بالبطولة .

واسفنديار هو بطل قصة المنازل السبعة (مفتخوان اسفنديار) وقد وضعت هذه القصة محاكاة لقصة رسم المعروفة بهذا الاسم . فكما اجتاز رسم ، في مازندران ، سبع عقبات : رخش رسم والأسد ، العطش يضعف رسم ، رسم يقتل الثنين ، قتل رسم امرأة ساحرة ، رسم يأسر أولاد ، حرب رسم أوزنك الجنى . قتل رسم الجنى الأبيض ، يجتاز أفراسياب سبعة خطوب . واسفنديار هو بطل دين زردشت أيضاً ، تعاون في نشره بالسيف وعاون الوزير جاماسب في إحيائه . واسفنديار هو الذى خلص والده كشتاسب أكثر من مرة وهو الذى قتل ملك الترك ارجاسب .

ويلقى اسفنديار من أبيه مثل ما لقي سیاوخش : فإن كشتاسب حريص على الملك حرصاً أنساه الشفقة على ولده البطل ، فهو يستمع إلى كرزم الذى سعى إليه بالوقية وصور له أن ابنه يتآمر عليه ، وقر في نفس كشتاسب أن يتخلص من اسفنديار .

وكان رسم في زابلستان ملكاً لم يبايع ملك الملوك ، فأمر هذا ابنه اسفنديار أن يذهب إلى زابلستان ويأتى برسم أسيراً في القيد . وعبثاً يحاول الابن أن يثنى أباه عن طلبه ، ذاكرأ رسم وحروبه وإنقاذه لإيران .

لا بد من الانتقال الآن إلى فن الفردوسى فى الشاهنامه فالحديث يطول لو تحدثنا عن العهد الساسانى كما تصفه الشاهنامه ، إنما يكون هذا موضوع مقال على حدة .

والشاهنامه وهى تقص وقائع البطولة والانتصارات الكثيرة والمزائم القليلة لا تكتفى بالحرب وحدها ، إنما هى تتحدث عن الحرب والآداب - رزم وبزم - وتتحدث عن الحب حديثاً عذباً كالذى ذكرنا بين زال وروذبه وكالذى كان فى العهد الساسانى بين خسرو وشيرين . وعينت الشاهنامه بالحديث عن الخيل فرخش رسم وبزاد سیاوخش لها نصيب مرموق فى الكتاب . وتتحدث الشاهنامه أيضاً عن الصيد ، وكان رياضة الفرس المفضلة ، ولعب الكرة والصولجان والأدب وتذوق الموسيقى .

والملاحظ فى الشاهنامه أن الكلمات العربية قليلة فيها ، لا تتجاوز ٤٣٠ كلمة . وربما عمد بعض النساخ إلى وضع هذه الكلمات . والفردوسى عمد إلى أن يجعل الشاهنامه لإيرانية خالصة فهى تروى تراث أمة وعلى الشاعر الفنان أن ينظم هذا التراث بلغة هذه الأمة ما استطاع . فليس عن تعصب أن يعمد الشاعر إلى إحياء لغة الإيرانيين . وإذا نحن رجعنا إلى الترجمة العربية لبعض أجزاء الخداى نامه أو لكتاب تنسر فإنا نجد فى هذه الترجمة آيات من القرآن والحكم والأمثال العربية ، لأن المترجم إلى العربية يكتب إلى العرب ويحاول التقريب بين العرب والفرس . أما الفردوسى فينظم الشاهنامه بالفارسية للفرس فلم يكن عليه أن يكثر من الألفاظ العربية . وروعة الشاهنامه فى أسلوبها هذا ، وهى بهذا الأسلوب ، الذى يعد أوج الشعر الفارسى الذى يتحدث عن التراث ، من أيسر النصوص فهما لطلاب الثقافة الفارسية . فهو السهل الممتنع كما يقولون .

تبراً إلا برقية أبىك وسحره . وسأسد عليك اليوم سبيل حيلته ومكره ، فأجعل بدنك كالغربال بصادات النبال فقال رسم : «إلى ما جئت اليوم للقتال ، وإنما جئت لأتضرع إليك عساك تمنح إلى السلم وتطفى من قلبك نار الحقد » . ولكن القدر يدفع أفراسياب إلى الشر ويصوب رسم عليه السهم فيصيب عينه فينقلب عن ظهر فرسه ثم يماسك وينزع السهم ويجرى إليه ولده بهمن . ويختصر اسفنديار ورسم قائم فى مكانه ويلتفت إليه البطال وهو فى نزعه الأخير ويقول له : «لم يقتلنى غير أبى كشتاسب حيث أكرهنى على قتالك والآن فهذا ولدى بهمن تسلمه منى واحمله معك إلى زابلستان وربه تربية الوالد لولده » . ويضع رسم يده فى يد اسفنديار ويعاهده على أن يربى ولده ويسعى له حتى يكون ملكاً . ويموت اسفنديار .

أما رسم فيقتله أخ له من أبيه اسمه شغاز . هياً له حفرة غرز فى قاعها نصولاً معدة ثم غطاها . ودعا رسم إلى الصيد فوق برخشه فى الحفرة فزقته الحراب ولكنه يخرج مثخناً بالجراح القاضية من الحفرة ويطلب إلى أخيه أن يعطيه قوسه ونشابين ليذود بها السباع عن نفسه حتى يموت . وقدم شغاز لأخيه قوسه ووترها فتناولها رسم وخاف شغاز فتعرس بشجرة دلب كانت هناك جوفة قد أتت عليها السنون ، فرمى رسم الشجرة بنشابته فنفلت فيها وخلصت إلى شغاز فخاطته مع الشجرة وأصمته . ويموت رسم وتنتهى حياة أعظم أبطال الشاهنامه .

• • •

ونعنى الشاهنامه بعد ذلك ، فتم تاريخ الأكمينيين وتجعل الغزو الإغريقى لإيرانياً صرفاً فالإسكندر منهم وليس أجنبياً ثم تتحدث عن الأشكانيين ثم الساسانيين فتصور عصورهم الزاهية ثم عصر التحلل الذى جعلهم فريسة سهلة المنال للفتح العربى .

• • •

حيب ، وأترج كأنه يفوح عن مسك حقيق وعنبر
فتيق . ففقد بين يدي يتقر الجلك ويترم ، ويسقي
المدام ويزمزم ثم قال : إن كنت لا تنام فاصنع إلى حتى
أقرأ عليك من الكتاب الفهلوى قصة لتنظمها .

• • •

منوجهر يخبر ذكاء زال :

فأحضر منوجهر موابذته وعقد مجلساً عظيماً ،
وجاءوا بزأل فأمرهم أن يباحثوه ويسألوه : فتصدى
موبذ وسأله عن اثنتي عشرة شجرة جذب بأضباعها
السموق ، ومد من أعضادها البسوق ، قد تشعب من
كل واحدة ثلاثون غصناً لا يرى الناس فيها زيادة
ولا نقصاً .

وسأله آخر عن فرسين أحدهما كبير من القار
والآخر كالبلور النضار ، لا يزالان يتراكضان ،
يتعاقبان ولا يتسابقان .

وسأله آخر عن ثلاثين فارساً يعرضون على
السلطان ، إذا عبروا نقص منهم واحد ، وإذا رجعوا
فلا ناقص ولا زائد .

وسأله آخر عن روضة معشبة يرف نباتها في رونق
الفضارة ، وتروق العيون بالبهجة والنضارة ، ثم ينحى
عليها ذو منجل ينزل بساحتها مكروه الخطب ، ويجمع
في حصدها بين اليابس والرطب .

وسأله آخر فقال : شجرتان من بواسق الأشجار ،
تأبقتان في البحر الزخار ، على كل واحدة منهما وكر
لطائر يصبح على إحداها ويمسى على الأخرى ، إذا
طار من هذه تساقطت أوراقها ، وإذا وقع على الأخرى
راق العيون لإبراقها ، فتكون أبداً أحداها ناضرة
والأخرى ذابلة .

وسأله آخر عن بلدة طيبة حصينة في ذروة جبل ،
تركها الناس وعمدوا إلى أرض تفتت القناد فأرسوا بها
الأوتاد ، وبنوا بها الدور وشيدوا فيها القصور وتناسوا

كان للفردوسى مقلدون كثيرون من الفرس ،
على مدى التاريخ ، ولكن أحداً لم يبلغ بنظمه روعة
شعر الفردوسى ، فشتان بين رجلين أحدهما يتخذ من
عمله رسالة يكرس لها حياته والثاني يقلد مجرد تقليد .
وقد ذكر الكتاب أسماء هؤلاء المقلدين (عزام وندا)
وأما الأدب الأوربي فقد تأثر بترجمة مول للشاهنامة ،
فقد تلتها ترجمات كثيرة بلغات مختلفة . واتخذ بعض
الكتاب قصة من قصص الشاهنامة وأقام عليها قصة
جديدة وقد ذكرنا بعض هذا في ثانيا البحث .

والشاهنامة بأسلوبها هذا السهل الممتنع ، وبروعة
ما فيها من قصص حافز للهمم ، مهذب للنفوس ،
شاهد بالقيم الإنسانية العالية ، لا تزال جديرة بالقراءة
العميقة التي قد تلهم بأدب ينفع الناس . وقد تابه
المصريون لهذا الأثر العظيم فنقله البندارى للغة العربية
في القرن السابع الهجرى ، وكان عزام في القرن العشرين
أول من نبهنا إلى الشاهنامة حين نشر ترجمة البندارى .

— ٣ —

قال قبل أن يكتب قصة بيزن ومنيزه :

« لله ليلة سوداء ذات جناح أحم كأنه طلى بالمداد
أو لبس ثوب الحداد . لا يرى فيه بهرام ولا كيوان
ولا عطار ، وكأن النجوم فيها مثل العيون رواقد .
قد توارى قمرها بالحقاق ، وقطعت ظلمتها أشواط
الأحداق . وقد ألقت على الأرض بالجران ، ووقفت
الفلك فيها عن الدوران . لا حس فيها ولا همس ، كأن
الأحياء فيها حالفوا الموت . فاستوى على السهاد ، ونبا
بنى الوساد . فصحت بالغلام وقلت : قد طال الظلام ،
وشرد عن عيني المنام . فقم وأشعل الشمعة وهي المجلس
وأحضر الشراب واستطلق الجلك والرباب ، فقام
والنعاس يرتق في عينيه ، والترف يميل بعطفه . وجاء
بشمعة كالذهب على رأسها تاج من الذهب . ثم جاء
برحيق ، ورومان كصبر عقيق ، وسفرجل كأنه سرر

ومن قصة مزدك :

واتصل بقباد رجل فصيح اللسان ، غزير العلم ذو رأى وعقل ، اسمه مزدك . وأقبل عليه قباد واتخذهُ دستوراً (وزيراً) وخازناً . فاتفق أن أصاب الناس في ذلك العهد لزبة شديدة احتبس فيها القطر وهلك الزرع فاجتمع أكابر إيران على باب قباد ، وضجوا بما هم فيه من الضيق والشدة وعدم الأقوات . فقال لهم مزدك : إن الملك سيزيل ظلامتكم ويحقق طلبتكم . ودخل على الملك وقال : ماذا تقول في رجل معه جملة من الترياق المحرب ، وعنده رجل قد لدغته الحية وهو على شرف الموت وصاحب الترياق يمنعه عنه ويضن به عليه ويدعه حتى يموت ؟ قال الملك إن صاحب الترياق مأخوذ بدم هذا اللدغ ويحب أن يقتل به . فقام مزدك وخرج وقال للمتظلمين : إني فاوضت الملك في أمركم فانصرفوا الآن وعودوا إلى الدركاه غداً . قال فانصرفوا وعادوا بكرة ، كما سبق الوعد . فدخل مزدك على الملك ودعا له وأثنى عليه ثم قال : قد أجبني أمس عن مسألتى ، وأريد اليوم أن تجيبني عن مسألة أخرى أسألك عنها . فقال : سل . فقال مزدك : ماذا تقول فيمن حبس رجلاً وقيدته ومنعه الطعام والشراب حتى مات ؟ فقال : هذا المسكين متقلد دم لم يسفكه . فخرج مزدك عند ذلك وقال لمن حضر من المتعلمين : إن الملك قد أباحكم ما في الأهراء من الغلات فابسطوا أيديكم وأينما وجدتم منها شيئاً فاستبيحوه . ففعلوا ذلك وطلت المدينة وماجت العامة الذين أخرجتهم المحاجة وانتهبت غلات السلطان وغيره . فأنهى إلى الملك ذلك وأخبر بأن مزدك هو الذى رخص لهم فى ذلك . فاستحضره وسأله عن السبب الذى حمله على ما كان . فقال : إن الجائع هو اللدغ والطعام هو الترياق ، وقد أباح الملك دم صاحب الترياق إذا لم يتدارك حشاشة اللدغ المشرف على الموت وقد رأيت الناس يموتون جوعاً ولا يخبر عند أبواب

تلك البلدة الطيبة ، فبينما هم كذلك إذ خسفت بهم أرضهم ، وقامت عليهم القيامة ، وحالفهم الحمرة والندامة .

قالوا لزال : إن أوضحت هذه الرموز كنت العالم الخبير ، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وأعاد تلك المسائل ، ثم قال :

أما الشجرات الاثنتا عشرة فهى عدة الشهور مع الأيام ، على تعاقب الأزمنة والأعوام .

وأما الفرسان فهما الملوان يتعاقبان ولا يتسابقان .

وأما أعداد الفرسان وما يظهر فيها من النقصان فذلك إلى نقصان الشهر وأنه تارة يكون تسعة وعشرين وتارة ثلاثين .

وأما الشجرتان اللتان عليهما معشش الطائر فإن العالم من وقت حلول الشمس في برج الحمل إلى أن تبلغ إلى الميزان يتبرج كأنه حريفة المعطار ، في حلى الرياحين والأزهار ، ومن حين حلولها العقرب إلى أن تحمل الحوت يقع بين أجناف الحداد وأطوار السواد . فالشجرتان كنايةتان عن عضدى الفلك الدوار والطائر عبارة عن الشمس الباهرة الأنوار .

وأما البلدة الطيبة فهى دار القرار ومنزل الأبرار ، والأرض التى آثروها عليها فهى الدنيا قرارة الأكدار وموطن الأخطار . . بينا أنت إلى نعيمها راكن ، وفى ظلالها وادع ساكن ، إذ تزلزلت من تحتك ، وأمطرت مكارها من فوقك . . إن هذا الإنسان ، وإن طاول الكيوان ، فليس يصحبه منها غير ستره تحت حفرة ، فإن اكتسب فيها الذكر الجميل ، أحرز هنالك الأجر الجزيل ، وإن زرع العدل والإحسان ، حصد الروح والريحان . ثم إن صاحب المنجل كناية عن الأجل يحصدنا كحصد النبات

• • •

الغلات المدخرة من ذلك ، فأباحتهم لإياها على مقتضى
حكم الملك وقوله . فسكت قباد . واستعلى أمر مزدك
وطالت باعه وكثرت أشياعه وأتباعه ، وخالف الأنبياء في
في ملهم وبابن العلماء في طرقهم . وكان يقول : ينبغي
أن تكون أمور العالم على السواء ، ولا يقع تفاوت في
نعم الله بين الأغنياء والفقراء ، ويكون الغنى كالسدى
والفقير كاللحمة . . . (البندارى) .

• • •

ومن حكم بزرجمهر التي يذكرها الفردوسى :
أخلاق العاقل المنجية له خمسة ، وأخلاق الجاهل
المردية سبعة . أما الخمسة المنجية فهي ألا يجزع على
ما فات ولا يفرح بما هوآت ، ولا يرجو ما لا يكون ،
ويحذر من عواقب الأمور ، وإذا حزبه حازب كافحه
من غير جن ولا خور . وأما السبعة المهلكة فأحدها
أن يغضب من غير موجب للغضب ، والثاني أن يعطى
من لا يستحق فيكون غير مأجور ولا مشكور .

والثالث ألا يعرف قدر نفسه فيكفر نعمة ربه . والرابع
ألا يكتم سره ويفشيه . والخامس أن يتكلم بما لا يعنيه
فيقعد ملوماً مهموماً . والسادس أن يأمن غير ثقة
ويصاحب غير ذى مقة . والسابع أن يكذب ويصر على
الكذب . (البندارى) .

ومن وصف الفردوسى للطقس حين تكثر الثلوج ،
رحلة لكيكاوس :

وكان ذلك في أحد أيام الربيع التي تهب القلب
وتنضر الأرض . وفي تلك اللحظة هبت ريح عاصف من
الجبل هلع من هولها قلب كيكاوس . أظلمت الدنيا
كأنها جناح الغراب . وتعلدت معرفة السهل في الأودية
واحتجبت قمم الجبال تحت الثلوج التي كست الأرض
بردائها الأبيض الكثيف . وأخذت الرياح العنيفة تهب
بقوة وتصب جام غضبها على هذا المكان ثلاثة أيام
بلياليها . وتركز البلال على الخيام وما فيها ، وسرى البرد
القارس في الوجود كله فلم يعد لأحد قدرة على شيء .



اللاؤوكون بجوتهولست لسنخ

بمعلم
الكتور احمد محمد محمود

فقد انجبت إلى البحث عن أدب ألماني أصيل يتبع أسلوباً قومياً متميزاً ، ويجعل الألمان إغريق العصر الحديث . فتعمقوا دراسة الحضارة الهلينية ، ولم يقنعوا بالرواسب التي ظلت سائدة في الروايات المتناثرة عن اليونان ، والتي اقتصر عليها الإيطاليون والفرنسيون ، والتي أسموها بالمذهب الكلاسيكي الجديد ، بل درسوا نفائس الحضارة اليونانية ذاتها وأعادوا تقويمها .

وخشوا أن يتحولوا كغيرهم إلى مجرد مقلدين لليونان ، فدرسوا حضارات الشمال والحضارة القوطية ، واكتشفوا أمجادهم في العصور الوسطى وقاموا بدراساتها . وأسفرت هذه الدراسات عن غاية شاقة بحث وهي محاولة التوليف بين كل هذه العناصر المتنافرة . وخذعوا أنفسهم أحياناً ، وتجاهلوا كثيراً من التناقض والتقابلات . فتصوروا شكسبير ، مثلاً ، بمثابة لسوفوكليس ، وتصوروا فلسفة أرسطو في كتاب فن الشعر صالحة للتطبيق على آداب الأمم كافة في شتى العصور . ثم نسبوا لأنفسهم في النهاية هذا المزاج الغريب من المكونات التي قد تعد متنافرة وأسموه أدباً قومياً ، بعد أن قاموا بتطعيمه بأساطيرهم وحكاياتهم الشعبية وأحلامهم وتطلعاتهم لإنشاء أمة موحدة ، فرسموا

الألمان مصابون بداء المثالية بمعناها الفلسفي ومعناها العام : فهم يشقون التأمل لذاته ، ويبغضون كل التصاق بالواقع . وقيل إنهم حرّموا نعمة رؤية الأشياء على حالها . فالنظرة المباشرة في ظنهم دليل على السطحية ولذا غاصوا في أغوار بعيدة تعرضوا بسببها للضلال ، وإلى رؤية الحقائق الواضحة في صورة مشوهة مخاطة بستاثر كثيفة من الغموض : وهم يسرفون في الإطلاع في كافة جوانب موضوعات دراساتهم ، ولكن كثيراً ما حدث تفاوت بين غزارة اطلاعهم وضآلة ما يستخلصون من موضوع البحث .

فالألمان إذن في نظرهم إلى الحياة وفي أساليبهم الفكرية على حد سواء يتميزون بالمثالية بخبرها وشرها . وبوسعنا أن نلاحظ هذه الظاهرة حتى في تاريخ أدبهم الذي لم يبدأ بمعناه الصحيح إلا في القرن الثامن عشر . وعندما بدأ الوعي الألماني الحديث لم يجذ إلا قلة من الألمان ، أغلبهم من الأريستقراطيين ، اتباع الأساليب التي عرفتها البلدان المخاورة لهم ، التي استطاعت الإرتقاء بالفن والأدب بفضل عدم تعرضها لموثرات سياسية مماثلة للموثرات التي تعرض لها الألمان . أما الأغلبية العظمى (وعلى الأخص أبناء الطبقة المتوسطة المتنورة)

بذلك الطريق أمام كل أمة حاولت فيما بعد إنشاء أدب قومي .

هذا الحلم الكبير ، وهذه المهمة العسيرة ، التي قد يسميها البعض معجزة قد تحققت بفضل جهود عدة أدباء ومفكرين قد نسيت أسماء أغلبهم الآن . ولكن أهم الشخصيات التي ساهمت في خلق هذا الأدب الألماني القومي كانت بغير مرأء شخصية جوتنهولت إفرايم لسنج ، الذي تفخر به جميع المراجع الأدبية الألمانية ، بل وجميع المراجع في سائر البلدان ، باعتباره مثلاً أعلى للكفاح والنضال في سبيل تحقيق غاية سامية دون تورط في ردائل أو سخافات .

• • •

ولد جوتنهولت إفرايم لسنج في ٢٢ يناير سنة ١٧٢٩ في بلدة كامنتس في إقليم سكسونيا بألمانيا . وهو ينتمي إلى عائلة من القساوسة كانت شديدة الحرص على أداء رسالتها الدينية في الدعوة للمذهب لوثر ، وإن كان بعض أفرادها قد تميزوا أيضاً بحرية العقيدة . ومن بين هؤلاء جد جوتنهولت ، الذي حصل على شهادة الدكتوراه لبحث قدمه عن الحرية الدينية . أما والد جوتنهولت فكان إلى جانب نشاطه الديني ، من أصحاب الاستعداد الحسن للبحث العلمي ، ومن المتمكنين في اللغتين الفرنسية والإنجليزية وبعض اللغات الشرقية القديمة . وترجم عدة مراجع هامة ، وكان يميل إلى اشتغال ابنه في نفس العمل الذي كرس حياته له .

والحق جوتنهولت بمدرسة كامنتس ، ثم قصد إلى مايسين وهو في الثالثة عشر من عمره حيث تعلم باحدى مدارسها . وهناك بدأت عنايته بالأدب . فقرأ في نهم بلاوتوس وتيرنس ، كما ألف قصيدة شعرية لاتينية في مدح الجنود الساكسونيين .

وفي السابعة عشرة من عمره ، اتجه إلى لايبزج ، والتحق بجامعة و آتم دراسته في خريف عام ١٧٤٦ .

وحرص أثناء إقامته هناك على تهذيب نفسه وصلفها . فتعلم الرقص والمبارزة وركوب الخيل ، وبدأ يشاهد المسرح ، وكتب قصة أسماها الباحث الصغير ، عرضت على مسرح لايبزج وصادفت نجاحاً عند الجماهير . ودفعه الولع بالمسرح إلى تمضية سهراته في رفقة الممثلين من الجنسين . ولم تكن موارده المالية تسمح بأية حياة من هذا النوع فتورط في الدين ، واضطر إلى مغادرة لايبزج والاتجاه إلى برلين ، بحثاً عن عمل . وعرف والداه من رسائله شدة تعلقه بالمسرح ومحاولة تقليد مولير واقتفاء أثره لإنشاء مسرح ألماني على غرار مسرح مولير . كما عرفا بتشككه في التعاليم البروتستانتية ، واعتقاده أن الإيمان مسألة شخصية لا بد أن يقررها كل فرد لنفسه . فغضب أبوه وأرسل إليه ينصحه بالعودة إلى الصراط المستقيم ، ولكن جوتنهولت كان قد قرر اتباع نهج يتوافق مع ميوله وتأملاته ، ولهذا لم يحرص بتاتاً على اتباع مثل هذه النصيحة أو غيرها . فلقد تميز منذ حداثة بشدة الحيوية والقدرة على السخرية وبالميل إلى القراءة والقدرة على استيعاب ما يقرأ في أسرع وقت ، كما كان من بين صفاته الثورة على القيود وسهولة التحرر من الصداقات إن أحس بتعارضها مع أهدافه . واشتهر أيضاً بكرهه للعنف والإيمان بضرورة تقبل الأوضاع على علانها ، وعدم افتعال التغيير والإصلاح . هذه الصفات المتعارضة تفسر قلقه الدائم وعدم استقراره في مكان واحد بمجرد شعوره بالاصطدام مع أية عقبات . وفي أحيان أخرى ، على العكس من ذلك ، فانه كان يرحل من أى مكان بمجرد شعوره بالاستقرار وبأنه قد حقق غايته ، وبأن إقامته في هذا المكان لم تعد مستساغة ! فعندما غادر برونزفيك إلى برسلو مثلاً قال في تقرير مسلكه : « إن هذا لا يرجع إلى نفوري من برونزفيك ، ولكنه يرجع إلى أن البقاء طويلاً في أى مكان يميل إليه المرء لن يعود عليه بالثقة » .

فاذا تتبعنا في إيجاز خطواته سرى أنه قد أنجبه بعد انتهائه من الدراسة في لايبزج إلى برلين في نوفمبر ١٧٤٨ ، ولكنه غادرها مرة أخرى إلى لايبزج سنة ١٧٥٥ ، ثم عاد ثانية إلى برلين سنة ١٧٥٨ . وبعد سنتين نرح إلى برسلاو ولم يستقر فيها طويلا ، بل بارحها إلى هامبورج وأخيراً استقر في سنواته الأخيرة في برونزفك .

وكان طبيعياً أن يصحب هذه الهجرة الدائمة ، تقلب في الوظائف المختلفة ، وتعرض للفشل جملة مرات . فقد اشتغل أحياناً في تنظيم المكتبات ، كما حدث في بداية حياته عندما قام بتنظيم إحدى المكتبات العامة التي يملكها أحد الأثرياء ، وفي نهاية حياته كذلك ، عاد إلى أعمال المكتبات عندما عين في وظيفة صغيرة (١٧٧٠) هي أمانة مكتبة دوق برونزفك في فولفنبوتل .

وأصدر مجلة الرسائل الأدبية (١٧٥٩) وشاركه في تحريرها مندلسون (الذي أصبح فيلسوفاً فيما بعد) والناشر الألماني نيقولاى . وظلت الرسائل الأدبية تظهر حتى سنة ١٧٦٥ ، وإن كان لسنج قد مل الكتابة فيها بعد سنوات قليلة وترك هذه المهمة لكل من مندلسون ونيقولاى .

وفي برسلاو أصبح سكرتيراً للجنرال تاونتسين الذي تعرف إليه عن طريق الشاعر كلايست . وعاش هناك حياة خصيبة مختلفة غاية الاختلاف عن حياته الأولى . فقد أنجز فيها أهم كتبه كالألاؤكون ومينافون بارتهيلم . وتعلم هناك المقامرة ، واستمر يمارسها فترة طويلة .

وأخفق في محاولة شغل عدة وظائف ، كان من بينها إدارة المكتبة الملكية في برلين . وكان اسمه واسم فنكلان من بين الأسماء المرشحة لشغل هذه الوظيفة . ولكن الملك فردريك - وكان مولعاً بالفرنسيين - عدل عن اختيارهما ، وعين فرنسياً في هذه الوظيفة بعد أن استكثر مرتب هذه الوظيفة على أى ألماني .

ولما قتل فنكلان في تريستا ، حاول شغل مكانه في روما ، ولكنه عدل عن هذه الفكرة لعدم عثوره على مال يكفيه لدفع نفقات السفر إلى هناك ، فقد عرف لسنج دواماً بأساءة التدبير ، وبشدة ارتباك أحواله المادية ، حتى اضطر قبل مغادرته برسلاو إلى بيع مكتبة زاخرة بالمؤلفات القيمة ، بأزهد الأسعار ، وندم على ذلك أشد ندم .

ومن الأحداث التي تهمننا في تاريخ الأدب صلة لسنج القصيرة بفولتير . فلقد كان مقبياً ببرلين عندما وصل فولتير إليها سنة ١٧٥٠ . وهناك تعرف إليه عن طريق سكرتيره ريشتر . وأعجب به فولتير في البداية إعجاباً كبيراً . وكلفه بكل أعمال الترجمة التي كان في حاجة إليها . وكان من المتوقع أن تتوطد هذه الصداقة ، وأن تعود بأعظم فائدة على لسنج بسبب الصداقة المشهورة بين الملك فردريك وفولتير ، ولكن العلاقات ساءت بين فولتير ولسنج بسبب حادثة تختلف المراجع المختلفة في تأويلها وفي رواية أحداثها .

والرواية التي أرجحها هي استعارة لسنج مخطوطة كتاب لويس الرابع عشر قبل نشره من سكرتير فولتير - بغير علمه - وتسرب بعض محتويات المخطوطة مما أدى إلى تشكك فولتير (وكان معروفاً بشدة الحرص والدهاء) ومقاطعته لسنج . ويميل المؤرخون إلى رد كل المصائب التي لحقت بلسنج إلى هذه الواقعة ، لأن مقاطعة فولتير كانت تعنى بخطط الملك على لسنج ، واضطهاده له ، وحرمانه من أية وظيفة مرموقة ، كما حدث في حالة وظيفة مدير مكتبة برلين .

ولكن يبدو أن النحس الذي صادفه لسنج كان يرجع إلى ما هو أبعد من ذلك ، كما نستطيع أن نتبين من حادث أليم حدث له عندما كان في قرابة الخمسين من عمره . فلقد تأخر لسنج في الزواج ، إذ تزوج سنة ١٧٧٦ من أرملة تاجر للحبر في هامبورج تعرف إليها

في هذه البلدة ، وكانت تتميز بثقافتها ورقة شعورها . وكان متوقفاً أن يعود زواجه منها عليه بالخير العميم ، لأنه كان سيحقق له الاستقرار الذي يشده . ولكن زوجته مرضت مرضاً خطيراً دام أسبوعين قبل أن تضع مولودها الوحيد الذي لم يعيش أكثر من أربعة وعشرين ساعة . وبعد ساعات من موته ماتت الزوجة كذلك . وكتب لسنج إلى أحد أصدقائه في الفترة القصيرة التي كانت تعيشها زوجته في غيبوبة بعد موت الطفل رسالة حزينة قد تعد من أفضل الرسائل الحزينة الصادرة في الأدب العالمي . فلقد قال في هذه الرسالة : « إنني أنتهز فرصة استغراق زوجتي في غيبوبة لأشكرك على عظيم اهتمامك . . . كانت فرحتي قصيرة إلى أبعد حد . لقد فقدت هذا الابن ، وأنا شديد التعلق به ! لقد بدت عليه ملامح الفطنة ، وكم كان فطناً إلى حد بعيد ! . ألا يدلنا على فطنته أنهم قد اضطروا إلى محبه إلى العالم الخارجي بوساطة ملقط من الحديد ؟ . وألا يدلنا على ذلك أيضاً أنه سرعان ما اكتشف شقاء هذا العالم ، فأنهز أول فرصة وهرب منه ؟ ونجح المخادع في سبب أمه إليه ، لأن الأمل واهن للغاية في بقائها إلى جوارى . . . كم تمنيت أن أسعد مثل الآخرين . ولكن الأمور قد جاءت على غير ما أشتي » .

وبرغم هذه الكارثة ، استمر لسنج في كفاحه واستفاد من المصائب التي حلت به بدلاً من أن ينحني لها ، بل لقد تميزت سنوات حياته التي عاشها بعد ذلك بوفرة ما فيها من إبداع وأصالة ، حتى مات في ١٥ فبراير سنة ١٧٨١ بعد أن وضع الأساس الأول للأدب الألماني معناه الصحيح ، وبعد أن عانى الأمرين من إساءة فهم الكثيرين له . فلم يفهمه على حد قول جوته : « سوى العظماء من أمثاله . أما أوساط الناس فقد رأوه دواماً خطراً يهددهم » .

لم يترك لسنج ناحية من نواحي الأدب إلا طرقها . وتفاوت حظه من النجاح في هذه المجالات المختلفة . وبوجه عام ، يستطيع حصر مؤلفاته في نوعين . النوع الأول : هو أعماله الإبداعية من روايات تمثيلية^(١) (شعرية ونثرية) ودواوين شعر . والنوع الثاني : هو أعماله النقدية . وسوف نتناول النوع الأول في إيجاز شديد . فإن ما حققه لسنج في هذه الناحية قد كان عظيم الأثر في نظر الألمان وحدهم ، لأن لسنج قد عرفهم في رواياته (التي بدا فيها سعة الاطلاع) جوانب لم يعرفوها ، أو عرفوها في صورة ممسوخة . ولكن هذه الروايات لم تترك أثراً يستحق الذكر خارج ألمانيا ، ولم تستطع أن تنافس الروائع الكلاسيكية الفرنسية ، كما ظهرت فيها محاكاة واضحة لبعض القصص والروايات الإنجليزية ، كما حدث مثلاً في رواية « مس سارة سامسون - ١٧٥٥ » ، التي صادفت نجاحاً كبيراً في ألمانيا ، ونبيه المفكرون والنقاد إلى شدة تشابهها مع رواية The Merchant of London « تاجر لندن » تأليف ريتشاردسون ، التي اعتمدت حوادثها أيضاً على شخوص من الطبقة المتوسطة . وكانت هذه النزعة سائدة في القرن الثامن عشر ، واعتبرت انجهاً ثورياً . إذ جرت العادة في ذلك العهد أن تكون أحداث الروايات إما خاصة بالطبقة الأرستقراطية ، أو متجهة إلى السخرية من العوام للترفيه عن الأرستقراطيين .

وفي كوميديا « مينا فون بارنهيلم - ١٧٦٧ » استمر في اختيار شخوص روايته من أبناء الطبقة المتوسطة ، وتميزت هذه الرواية بأصالتها . إذ اختار لها شخصية حقيقية عرفها في حياته . هذه الشخصية هي شخصية الماجور المتقاعد فون تلهام . كما كان من بين شخصيات هذه الرواية : شخصية الأرملة التي ذهبت

(١) أول رواياته هي Der Freigeist (الفكر المتحرر) و Der Schatz (الكز)

تطلب العون من المجاور ، وشخصية خطيبته التي تزوجها رغم أنه ، وشخصية الوصيعة اللعوب (التي تأثر فيها بالأدب الفرنسي) . ولم ينس لسنج في هذه الرواية تمجيد القومية الألمانية والجيش البروسي (الذي اشترك فيه زهاء أربع سنوات) وإظهار الولاء للملك فردريك . كما لم ينس السخرية من الفرنسيين . فن بين شخصيات هذه الرواية شخصية مغامر فرنسي يتكلم الألمانية بلكنة غريبة تثير الضحك .

وبلغت رواياته البورجوازية ذروتها في دراما « إميليا جالوني » ١٧٧٢ التي عرض فيها الصراع بين البلاط والطبقة البورجوازية . وتمشياً مع الروح الجديدة التي اشتهر بها القرن الثامن عشر ، تمثلت في الشخصيات البورجوازية التي ظهرت في هذه الرواية كل المثل العليا للفضيلة عند صراعها مع مؤامرات البلاط ودسائسه ، ومجون أبناء الطبقة الأرستقراطية .

وربما اعتبرت آخر رواياته الشعرية « ناثان الحكيم » ١٧٧٩ أفضل الدرامات التي ألفها . فقد بدأ خلاصة تجاربه ومعتقداته . وفيها دعوة إلى التسامح كدعاية للمساوية واستنكار للجمود الديني وضيق أفق بعض رجال الدين . ولعل نخط رجال الدين البروتستانتين على هذه الرواية كان من أسباب شهرتها في خارج ألمانيا . وحاول لسنج تناول أسطورة الدكتور فاستوس التي تدور حول حب العالم للحقيقة والآلام التي عاناها في سبيلها ، ولكنه عدل عن مشروعه ، بعد عدم اهتدائه إلى قرار حاسم حول دور الشيطان .

هذه الروايات كلها قد أثبتت حقيقة بالغة الأهمية ، وهي أن الإحاطة بالأصول الدرامية والشكل الفني وطرافة الموضوع ليست سبباً كافياً لخلود أي عمل فني . فهناك سر آخر وراء الخلود ، لعلنا ما زلنا بعيدين عن فهمه .

فاذا إنتقلنا إلى النوع الثاني ، وهو الكتابة النقدية التي توافقت أعظم توافق مع شخصية لسنج وجرأته وتعلقه بالحقائق ، والتي تركزت فيها عبقرية لسنج في النقد وكفاحه المستميت لإنشاء أدب ألماني متميز يمكن التفرقة بينه وبين الآداب المحيطة به ، ويجمع خلاصة مميزات الفن في عصوره المختلفة (هذه الكتابات التي دفعت ماكولاى إلى اعتبار لسنج أول ناقد عظيم يظهر في أوروبا وتتأسي في هذا الرأي مونتاني الفرنسي في القرن السادس عشر) - فسرى أصالة حققة وألمعية فائقة قد جعلت كتبه في هذه الناحية جديرة بكل إعجاب وبحث ودراسة واستقصاء . وفي هذه المقالات النقدية التي تناولت أهم قضايا الفن والأدب واللاهوت والتي كتبت في عبارة مشرقة مركزة خالية من الغموض والإبهام اللذين عرفا عن أكثر أدباء ألمانيا ، كتب لسنج نوعين من المقالات . اتجه النوع الأول إلى وضع أسس للأدب الألماني ، كما اتجه النوع الثاني إلى المشاركة في حل مشكلات الاستايقا .

وظهرت مقالات النوع الأول في مجموعة مقالاته ودراساته التي نشرها في (١٧٥٨) في Litterature Briefe « الرسائل الأدبية » كما ظهرت أيضاً في المقالات التي نشرها في هامبورج عن الدراما تحت عنوان Hamburgische Dramaturgie ، والتي قصد بها النهوض بحركة التمثيل في ألمانيا . وكانت هذه المقالات تنشر في مجلة تصدر مرتين في الأسبوع وقصد بها نقد الممثلين ، وتعريفهم بأخطائهم ، كما قصد بها أيضاً تثقيف رواد المسرح والارتقاء بذوقهم الفني .

وكتب لسنج أغلب هذه المقالات . ولكن المشروع توقف بعد سنتين بسبب نفور الممثلين من أية انتقادات توجه إليهم ، وبسبب عدم إقبال الجماهير على المناقشات المجردة التي تناولت الدراما ومهمتها وتاريخها . وإلى جانب ما تضمنته هذه المقالات من انتقادات لجوتشيد

ونبرات صوته ، وبعدم التشبه بالبيغوات ، كما أبدى أكثر من مرة إعجاباً بالممثلين اليونانيين القدامى (اعتماداً على ما ترويهِ المراجع عنهم ، ولو أنه شاهدهم بنفسه لما اختلفت نظرته إليهم عن نظرته إلى معاصريه) وأرجح براعتهم في الأداء إلى تعلمهم البلاغة والخطابة اللتين كانتا في عهد لسنج قد بدأتا في الاضمحلال والتدهور .

وأغلب الانتقادات التي ذكرناها كانت موجهة إلى كورفي بالذات ، وإن كان لسنج لم يرفض غيره من الأدباء الفرنسيين ، وقد يستثنى من ذلك مولير وديدرو وحدهما . ففى هذه المقالات على سبيل المثال نقد وسخرية لاذعان لرواية سميراميس لفولتير (لا أظن أن فولتير قد أحس بهما) وكيف ظن الكلاسيكيون الفرنسيون أن عظمة الدراما تستند إلى فخامة مناظرها وحشد الجموع على المسرح ، وسخر لسنج من الشبح الذي ظهر في سميراميس ، وقارنه بشبح هاملت الشهير ووصفه بأنه لا يثير رعب الأطفال أنفسهم . وعندما جعل فولتير الشبح يقتحم البرلمان في وضع النهار فإنه قد دل بذلك على جهله بطبائع الأشباح ، لأنه قد نسي أن الأشباح لا تتصف بمثل هذه الجرأة . وأية امرأة عجوز تستطيع أن تعرفه مدى خوف الأشباح من ضوء الشمس ومن اقتحام الجموع الكبيرة . وسخر لسنج أيضاً من شدة حرص فولتير على إرضاء السيدات المناققات عند تأليفه مسرحياته .

على هذا النحو ، كتب لسنج مقالات كانت بعيدة الأثر في إثارة اهتمام الألمان بالمسرح ، وكان لها بفضل طرفتها وأصالة نقدها وأسلوبها الساخر أثر عظيم خارج ألمانيا . واليوم هدأت المعركة الحامية الوطيس التي دارت في القرن الثامن عشر حول أي الفريقين أكثر تمثيلاً للروح الكلاسيكية افلينية . واتضح لنا أن كليهما قد انحرف بتأثير روح القرن الثامن عشر عن القيود القديمة

بسبب انجماه إلى محاكاة الكلاسيكيين الفرنسيين ، وانتقاد للشاعر كلوبشتوك بسبب إسرافه العاطفي ؛ تناولت هذه المناقشات عدة مسائل أثارت الإهتمام خارج ألمانيا مثل نقده للأسس التي ابتكرها الأدباء والمفكرون الفرنسيون وقيدوا بها حرية الفن والأدب ، وارتنكوا عند اختراعها إلى بعض ملاحظات عابرة جاءت عند أرسطو كمسألة الوحدات الثلاث التي قدسها الفرنسيون ، ولم ينتهوا إلى أن حالة التمثيل عند اليونان هي التي أرغمتهم على ضرورة التقيد بوحدة الزمن ووحدة المكان ، وإن كان أرسطو ذاته قد اعترف أن وحدة الفكرة هي الوحدة الأساسية في الدراما وأن الوحدات الأخرين تابعتان لها .

واندفع لسنج أحياناً في الدفاع عن وجهة نظره فذكر مثلاً صلاحية تطبيق مذهب أرسطو في الدراما على درامات شكسبير ! . وكان شكسبير هو مثل لسنج الأعلى في الدراما . فهو وحده الذي فهم الإنسان ، وقدم أروع نماذج له كالتى فصا دفيها في شخصيات الملوك والمتسولين والبعلاء والمهرجين . كما أنه أفضل من أحاطوا بالعواطف الإنسانية كالغرفة والحسد والحقد ... الخ . ودافع لسنج عن اتهام شكسبير بالخلط بين الكوميديا والمأساة ، وكان الحياة الإنسانية تعرف أى انفصال بينهما . وأشاد لسنج ببراعته في الربط بين الأحداث ورسم الشخصيات واختيار الشخصيات التي تساعد على توضيح الفكرة التي يسعى لعرضها على عكس ما يحدث في التراجم لبيانات الفرنسية التي لا تعرف فيها سبباً للدخول الممثل المسرح أو خروجه منه ، والتي نفاجاً فيها بأحداث غريبة لا تمت بصلة إلى موضوع الرواية .

وكان لسنج ينصح الممثلين دواماً في هذه المقالات بالاندماج في أدوارهم والابتعاد عن كل آلية وتكلف ، وضرورة التحكم في كلماتهم وتعابيرهم وإيماءاتهم

ولا اختلاف في هذه الناحية يستحق الذكر بين كورني ولسنج . ففي هذا القرن كانت الروح الرومانتيكية قد بدأت تسرب إلى الأدب والفنون في صور مختلفة . وبانت آثارها عند لسنج في شدة محمسه لشكسبير واهتمامه بأشعار المايسترزنجير (أساطين الغناء) ، والمينزنجير ، ومحاولة الربط بينهما وبين القوالب الكلاسيكية القديمة .

ويبدو أن لسنج قد تأثر بالفرنسيين دون أن يدري ، ولقد اعترف هو ذاته بشدة تأثره بديدرو . وكل من يقرأ مقالاته ويعجب ببراعة منطقها وبما فيها من تدرج في عرض قضايا الفكر . إذ لا تستخلص فيها النتائج إلا بعد تربث في عرض خلاصة وجهات النظر ومناقشتها - يلح على الفور مدى تأثره بالفرنسيين وبراعتهم في كتابة المقال .

وإن صح القول بأن اهتمامنا بهذه المقالات قد قل بعض الشيء عن اهتمام القرن الثامن عشر بها ، فإن الأمر لم يكن كذلك فيما يتعلق باللاوكون . فقد تناول لسنج في هذا الكتاب عدة مشكلات إستراتيجية قد أثرت تأثيراً هاماً على الإستراتيجية (الألمانية بوجه خاص) وما زلنا نشعر بآثار هذه المشكلات حتى وقتنا الحاضر . وهذه ناحية سرجي الكلام عنها حتى ننتهي من عرض الكتاب

اللاوكون

لاوكون أمير طرواى أسطوري كان أخاً لأحد الكهنة الأبولونيين . وفي رواية أخرى أنه كان من كهنة بوسيدون . ولقد تناول مأساته كثيرون ، في طليعتهم سوفكليس في رواية لم يبق منها إلا شذرات قليلة .

والرواية التي يقبلها الثقات إلى حد بعيد هي القول بأن لاوكون قد أصر على مقاومة الحصان الخشبي الذي أنشئ لغزو طروادة ، فانتقم منه أبولون بأن دفع

ثعبانين كبيرين من جزيرة تندوس لقتله وقتل إبنيه ، وإن كان السبب الحقيقي لمقتله هو زواجه بغير إذن من أبولون .

واشتهرت القصة بعد ذلك عندما ردها فرجيل في إحدى قصائده ، وعندما صنع تمثال من الرخام يمثل الأب وإبنيه في صراع مرير مع الثعبانين . وهذا التمثال محفوظ حالياً في الفاتيكان وهو من آيات المدرسة البرجمانية ، وقام بنحته ثلاثة مثاليين من رودس هم : اجيساندر وبوليديوروس ، وأتينيديورس (من مدرسة النصف الثاني من القرن الأول الميلادي) . وعرض هذا التمثال في قصر الإمبراطور تيتوس ، وكانت له قيمة فنية عظيمة في ذلك العهد . وعندما أعيد الكشف عن الآثار الرومانية كان من أوائل التماثيل التي ذاعت شهرتها . واختار لسنج لاسم هذا التمثال عنواناً طريفاً لكتابه الذي يتناول قضية إستراتيجية هامة هي إثبات الاختلاف بين التصوير والشعر ، واستحالة تطبيق قواعد واحدة على هذين الفنون . إذ يلزم مراعاة الفروق الكامنة في طبيعة كل منهما .

وما جعل الناس لا ينتبهون إلى هذه الحقيقة هو اعتقادهم أن الشعر والتصوير متشابهان ما دام الاثنان يتركان أثراً حسناً مماثلاً في النفس ، أو اعتقاد الفلاسفة أن قواعد جمال الأجسام التي تراعى في التصوير ، يمكن تطبيقها على الأفعال والأفكار على نحو مشابه لتطبيقها على الأجسام . واندفع بعض النقاد وأرغموا الشعر على طرق مجالات لا يحسن الإفصاح عنها غير التصوير ، وسمح البعض للتصوير بتناول موضوعات لا تناسب مع غير الشعر . وظهرت آثار هذا الخلط في الشعر في صورة افتتان بالوصف ، وفي التصوير في صورة افتتان بالمعاني الرمزية والمجازية . لقد أراد هؤلاء النقاد من المصورين إبداع لوحات مصورة ناطقة ، فكانت النتيجة هي ظهور قصائد شعرية خرساء .

ما قاله فنكلمان إذن لم يكن صحيحاً ، فهو قد خلط بين التربية الأوروبية الحديثة التي تدعو الناس إلى ضبط النفس وعدم إظهار أى انفعال ، وبين أحوال اليونانيين الذين كانوا لا ينجلون من انفعالاتهم أو من أية مظاهر للضعف الإنساني ، بل كانوا يتركون أنفسهم على سجيبتهم . ومع هذا فقد كان اليوناني يبذل قصارى جهده حتى لا يجعل أوجاعه وآلامه تحول دون إقدامه على القيام بأسمى أعمال البطولة التي تتجاوز كل حدود إنسانية ؛ فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا أسمى أبطالهم ، وأخلصهم ذكراً ، يكون في مواضع البكاء ، ويولولون ويندبون بغير شعور بأى خجل . وبوسعنا أن نذكر في هذا المقام هرقل الذي قد تبدو صرخاته وعويله مثيرة للسخرية في وقتنا الحالي ، ومتعارضة مع ما عرف عنه من شجاعة وجرأة وقوة :

خصائص التصوير

وبعد أن أثبت لسنج أن علامات الهدوء التي ظهرت على تمثال اللاووكون لا ترجع إلى خصائص يونانية فحسب ، كما بين فنكلمان الذي خلط بين خصائص اليونانيين وخصائص الفنون التشكيلية ، اتجه في سبيل التمهيد لنظريته إلى الكلام عن خصائص الفنون التشكيلية (التصوير والنحت) ، فقال إن التصوير وفقاً لمفهومه في القرن الثامن عشر ينزع إلى محاكاة الأشياء بغير النضات إلى مميزات الجبالية ، ولكنه كان عند اليونانيين مقصوراً على تصوير الأشياء الجميلة وحدها . فلم ينتج الفنانون اليونانيون إلى تصوير أى شيء غير الجميل ، وكانت أعمالهم الفنية تبعث السرور بسبب اكتمال الأشياء التي تمثلها . ونفروا لهذا السبب من رسم الأشياء القبيحة ، ويدلنا على ذلك إحجام أى مصور عن رسم أى شخصية تنسم بالانحراف أو تدعو إلى النفور ، بعكس ما يصنعه المحدثون (في رأى لسنج) . واشتركت الدولة أيضاً في إرغام الفنانين على ملاحظة الاقتصاد على رسم الأشكال

هذه هي القضية التي تذكرها لسنج عندما قرأ وصف فنكلمان (من أوائل مؤرخي الفن التشكيلي في العصر الحديث) لتمثال اللاووكون ، وقوله عنه إنه يمثل الصفاء والهدوء الروحي والبساطة ، أى الخصائص التي عرفت عن اليونانيين . فتعابير الأعمال الفنية عند اليونانيين - في نظر فنكلمان - برغم اختلاف انفعالاتها لا تكشف إلا عن روح صافية وديعة . فلقد تعرض لاووكون وولده لآلام مبرحة يمكننا أن نتمثلها من منظر الشعبان الملتهبين حول بطنه . ولكن الوجه لا يظهر هذا الألم . ولم ينبعث من جوفه أى شيء خلاف بعض الآثات الصامتة . فهو يتألم ، ولكن أله قد بدا في صورة اتسمت بالنبل والسمو ، بحيث أننا نتمنى تحمل الكوارث والحزن بروح سميحة مماثلة لروح هؤلاء الأبطال اليونانيين . أما الرومان - في نظر فنكلمان أيضاً - فكانوا مختلفين عن اليونانيين : ويدلنا على ذلك أن الشاعر فرجيل قد تناول موضوع اللاووكون نفسه ، ولكننا نستطيع أن نستمع إلى صراخه في كل نبرة من نبرات قصيدته .

فسر فنكلمان إذن الخلاف بين تمثال لاووكون اليوناني وقصيدة لاووكون الرومانية ، بأنه اختلاف بين اليونانيين والرومان . ويرد لسنج على هذه الدعوى بالرجوع إلى أمثلة أدبية أخرى عند اليونان ، ويبين أن هوميروس قد سمح لبعض شخصيات رواياته بالصراخ والعويل (على عكس اعتقاد فنكلمان) . فالأله مارس ذاته عندما تعرض لسهام ديوميد قد صرخ صرخة هائلة وكان عشرة آلاف من المحاربين قد اشتركوا في الصراخ ، وبرغم شدة عناية هوميروس بابرار اختلاف الآلهة عن الآدميين ، إلا أنه قد عمد في مسائل الألم والصراخ ، إلى جعلهم يتأوهون ويولولون كالآدميين سواء بسواء . فهم من حيث السلوك وحده آلهة ، أما من حيث مشاعرهم وانفعالاتهم فانهم يتأوهون ويعبرون مثل سائر البشر .

الجميلة . فقد حثت بعض القوانين اليونانية الفنانين على ضرورة مراعاة الجمال ، ودفعتهم إلى العناية باظهار الأشكال التي يقومون برسمها في صورة مثالية ، ومنعهم من الإساءة إلى كل مقاييس الجمال . وإلى نفس هذه الروح ، يمكن أن يزدى أيضاً تقليد إقامة نصب تذكاري لكل منتصر أولمبي ، وإقامة تماثيل للأبطال الذين ينتصرون في ثلاث مرات متعاقبة .

من هذا يتضح أن الجمال عند القدامى كان أسمى غاية تسعى لتحقيقها الفنون التشكيلية . وأدرك القدامى أن هناك بعض انفعالات تبدو عند تصويرها على شكل تجميعات قبيحة تسيئ إلى جمال الوجه ، ومن ثم عمدوا إما إلى تجنب إظهار هذه الانفعالات ، أو إظهارها في صورة مخففة لا تؤدي إلى تشويه الجمال ومسخه .

وفي سبيل تحقيق هذه الغاية ، تحول تعبير مثل التعبير عن الغيظ والحنق إلى تعبيرات جادة وقورة ، وتحولت الكتابة والغم إلى أسى وأسف ، وانخفضت كل مظاهر سور الغضب من أعمالهم الفنية . وعلينا عندما نشاهد اختلافا بين الأعمال الفنية والأشياء التي تعبر عنها ألا نرجع ذلك إلى عجز الفنانين أو عدم قدرتهم على محاكاة التعابير التي تبدو قبيحة في حالة نقلها إلى التماثيل أو اللوحات ، بل علينا أن نرد ذلك إلى قاعدة أساسية شاعت عند اليونانيين وهي الاكتفاء بالمشاعر التي تجمع بين الجمال والسمو . ولذا كان الفنان يفضل إخفاء أية مشاعر تبدو في صورة غير مستحبة ، تسيئ إلى عمله الفني . فكان لا يظهر مثل هذه المشاعر تاركا للآخرين تأويلها أو استنباطها .

هذه القاعدة نصادفها في تماثيل اللاووكون . فقد حاول مبدعه تحقيق أسمى قدر من الجمال بتوافق مع الآلام التي تعانها شخصيات هذا التمثال . فاضطر إلى تحويل الولولة والصيحات إلى تهديدات ، لا لأن الصيحة تدل على روح تفتقر إلى سمو ، إنما بسبب إساءة

شكل الصيحة إلى الجمال المراد إبرازه في التمثال ، وبمكنتنا أن ندرك ذلك إذا تخيلنا لاووكون فاغراً فمه ، أو متأوهاً . إن شكله في هذه الحالة ، لن يبدو جميلاً حتى إذا عبر عن الجمال والألم في نفس الوقت . ولكننا سنراه شكلاً مفرغاً يثير الإشمئزاز ، لأن منظر الألم من المناظر الكريهة ، ولن يدعونا إطلاقاً منظر المعاناة إلى الشعور بالشفقة . فشكل القم وهو مفتوح سيبدو في أية لوحة مصورة كأنه بقعة سوداء . وفي النحت سيبدو مجرد فجوة قائمة ، وكلاهما من الأشياء التي ينفّر منها العين .

وتغيرت الأحوال في الفن التشكيلي بعد ذلك في العصور الحديثة . فقبل إن غايتها قد أصبحت الحقيقة والتعبير . وكما تضحى الطبيعة بالجمال في سبيل غايتها ، كذلك ينبغي أن يخضع الفنان الجمال لغايات عمله الفني ، وألا يسمح بتغير القدر الكافي من هذا الجمال الذي يتناسب مع الحقيقة والتعبير .

ويعترض لسنج عما يقال عن إمكان تحول غاية التصوير من الجمال إلى التعبير . وأول حجة يسوقها هي القول - أن المصور لن يستطيع أن يرسم أكثر من لحظة عابرة للطبيعة الدائمة التغير والتقلب . وكل ما يهم المصور هو اختيار لحظة موفقة تحقق الغاية التي يسعى إليها ، وهي تقديم موضوع يصلح للمشاهدة والتأمل مراراً . فالتحليل إذن يلعب دوراً كبيراً في التصوير ، لأنه يحاول أن ينتزع من الطبيعة أفضل ما تتضمنه من معان غير عابرة ، كما يحاول أن يصلح من عيوبها حتى يتسم ما ينتقيه منها بالكمال . ومن ثم يستبعد المصور التأوهات والصيحات لأنها مجرد أشياء عابرة لن تستمر طويلاً . ولو ظهرت في أية لوحة ، أو في أي تمثال وعبرت عن معنى ثابت ، لدلت في هذه الحالة على الأتونة بدلاً من دلالتها على الفحولة . وكان هذا المعنى هو الذي جال بخاطر صاحب تماثيل اللاووكون .

وإذا رجعنا إلى تيموماخوس (وكان من المصورين المولعين بتصوير المشاهد الشديدة الانفعال ،

فيلجأ لهذا السبب إلى إضافة مؤثرات أخرى تحقق هذه الغاية . فأحداث التعذيب مثلا عندما تمثل على المسرح قد تدفعنا إلى الاستخفاف بها لشعورنا بأنها غير حقيقية ، ولذا يلجأ الشاعر الدرامي إلى سبل أخرى قد تحقق ما يبتغيه من تأثير ، كأن يعرض البطل للجوع أو العطش ، أو يجعله يشعر بياس قاتل . ومن الشخصيات الخالدة في الأدب اليوناني ، التي استطاعت تحقيق مثل هذا الأثر شخصية فيلوكتيتس الذي ظهر عاطفا بكافة مظاهر الحرمان .

ولم يفهم كتاب الدراما الفرنسيون هذا المعنى ، وكادوا ينجحون في القضاء عليه ، عندما أحاطوا فيلوكتيتس بالرفاق . وزارته في مكان عزلته في الجزيرة القفرء أميرة جميلة نصحبها وصيفتها ! وعلى حد تعبير لسنج : « لست أدرى هل كان الموقف يتطلب مثل هذه الوصيفة أم أن الشاعر الفرنسي هو الذي كان يشتهي مثل هذه الوصيفة لنفسه . . فلا يمكن لأي شاعر فرنسي أن ينسى إظهار امرأة جميلة ذات عينين ساحرتين » .

أما أبطال الدرامات اليونانية فكانوا يعبرون عن كافة المشاعر التي يتعرض لها الإنسان ، فكان من بين هذه المشاعر ما يستدر الشفقة ، كما كان بينها ما يثير الملح والخوف . شيء واحد فقط كان الكاتب الدرامي يحرص عليه وهو عدم إساءة هذه المشاعر إلى بطولة شخص دراماته ، أو استحداثها على إزدرائها .

تمثال اللاؤوكون وقصيدة اللاؤوكون

وبعد أن تحدث لسنج عن الاختلافات العامة بين الفنون التشكيلية والشعر اتجه إلى الحديث عن كيف ظهرت آثار هذه الاختلافات في كل من تمثال اللاؤوكون وقصيدة اللاؤوكون .

ففي قصيدة اللاؤوكون وصف الشاعر الحيتين ، وتعبد المبالغة في إظهار طولها وإثارتها للرعب . إذ

ولوحته التي رسمها لأجاكس في حالة غضب ، والتي رسمها لميديا وهي تقتل أولادها من أخلد اللوحات في الفن اليوناني (سرى إذا تأملنا لوحاته أن المصور قد تجنب إظهار اللحظة العارضة التي يرتفع فيها الانفعال إلى ذروته حتى لا تحدث أثرا سيئا عند من يتأملون الصورة . فاختر لحظة أخرى سابقة لها . فلم يرسم ميديا مثلا وهي تذبح أطفالها ، بل رسم موقفا آخر . إذ فضل خضوعا لغاية الجلال التي ينبغي أن تتحقق في التصوير أن يصور تردد ميديا الذي تغلب عليه عاطفة الأمومة ، على تصوير وحشيتها التي تعارض مع الجلال . كما أن أجاكس لم يرسم في حالة هذيانه وغيباه عن الوعي ، بل رسمه تيمو ماخوس جالسا ، يشعر بالضيق بعد أن مرت نوبة الجنون التي تعرض لها . لقد رأى المصور أن الهدوء الذي يغيب العاصفة أكثر تعبيراً عن الجلال من منظر ثورة أجاكس وهذيانه .

خصائص الشعر

وبعد أن بين لسنج أن غاية التصوير هي الجلال ، انتقل إلى الكلام عن الشعر وذكر أن الشاعر غير مرغى البتة على اختيار لحظة واحدة تمثل موضوعه الفني ، كما هو الحال عند المثال أو المصور ، لأن ما يعنيه هو عرض فكرة واحدة أو فعل واحد يستغرق لحظات متعددة . ففي قصيدة اللاؤوكون قام الشاعر بعرض قصة هذه الصبيحة ، وعرفنا بواعثها . ولم ينس المتحدث عن بطولة لاؤوكون ، وماضيه الوطني المجيد وبذلك أمكنه تعريفنا بأن صبيحاته لا ترجع إلى نقص فيه ، بل هي ترجع إلى ألم تصعب مقاومته .

هذا يدل على أن الشعر لا ينتج إلى تخفيف التعبير أو إخفاؤه كما هو الحال في التصوير ، بل يعتمد إلى إبرازه ، لأنه غاية الأولى . فلا عجب إذن إذا رأينا الشاعر الدرامي في بعض أحيان يخشى ألا تكون الآلام التي يعرضها علينا غير كافية في التأثير على مشاعرنا ،

استطاعتنا الالتفاف حول الإبنين وحول الأب عندما هرع لإغاثنهما . وصور الشاعر الآلام التي لحقت بالجميع في صراعها مع هاتين الحيتين ، وكيف نفثتا السم في وجه الأب عندما حاول تخليص ولديه . وجعل الشاعر الذراعين حرتين طليقتين حتى يتسنى للأب وابنيه مقاومة الحيتين فيزداد من جراء ذلك الأثر الدرامى . فهل ٤٤ المثال إلى محاكاة الشاعر بغير قيد أو شرط ؟ . الواقع أن المثال قد اشترك مع الشاعر في ناحية واحدة فقط وهى عدم تقييد الذراعين . ولكن ثمة اختلافاً بعد ذلك بين التمثال والقصيدة . ففي القصيدة إلتفت الحيتان مرتين حول جسم لاووكون ومرتين حول عنقه ، وكانت رأسهما تحلقان عالياً فوق رأس لاووكون . ونجح الشاعر بهذه الوسيلة في تحقيق غايته ، لأننا نستطيع أن ندرك الأوجاع التي لحقت بلاووكون بتأثير التضاف الثعبانين حول الجسم ، وتأثير السم الزعاف الذى نفث في وجهه . أما المثال ، فكان مضطراً إلى عدم تغطية سائر أجزاء الجسم ، لأن ما بهمه هو إبراز شكل عضلات جسم لاووكون ، وهى تتقلص بتأثير مقاومتها للحيتين . والتضاف الحيتين حول العنق كان سيؤدى إلى إفساد الشكل الهرمى للتمثال الذى ترتاح له العين . وعلو رأس الثعبانين فوق رأس لاووكون سيسبب إلى جمال التمثال بغير شك ، كما نستطيع أن نلاحظ إذا تأملنا الصورة القبيحة التي رسمها أحد المصورين فيها بعد لهذا المشهد .

وتنبه المثالون القدامى إلى ضرورات فهم ، ولذا نقلوا التضافات الثعبانين من العنق وجذع الجسم إلى الألفخاذ والقدمين ، لأن إخفاءهما لن يؤدى إلى إضعاف التأثير الجلالى للتمثال . ولم يؤثر هذا النصرف البتة على معنى التمثال . فن يتأمله يشعر على الفور بمحنة لاووكون وعدم قدرته على الحركة أو تحرير أعضاء جسمه .

ويذكر لسنج اختلافاً آخر بين القصيدة والتمثال : ففي القصيدة ، يرتدى لاووكون ملابس مهيبة . أما المثال فقد اتجه إلى تجريد شخصيات تمثاله من الثياب ، مما أدى إلى توجيه بعض انتقادات إليه بسبب تناسيه الأصول المرعية ، وعرضه مثل هذه الشخصية المهيبة في مثل هذه الصورة غير اللائقة . ولكن هؤلاء النقاد وأمثالهم قد تناسوا ضرورات فن النحت . فنظر أى رداء سميك لن يكون مقبولا عند نحتة بواسطة الأحجار . ولهذا فضل المثالون الإبتعاد عن الحقيقة على عدم مراعاة أصول فهم ، وعلى عدم مراعاة غاية النحت ، وهى الجمال ، لأن الرداء لن يبدو في صورته المنحوتة أجمل منه في الطبيعة على الإطلاق . ولن يتساوى شكل الرداء مع شكل الجسم في الجمال بأية حال . أما في القصيدة ، فلن وجود الرداء لن يفسد البتة من تأثير القصيدة . فهو لن يحول دون شعورنا بالآلام التي عاناها لاووكون ، بل لعله يزيد من هذا الأثر :

وفترض لسنج الرأى المقابل لرأيه ، والذى لجأ إليه كثيرون من النقاد والمفكرين (أى القول بأن المثال قد أبدع التمثال قبل ظهور قصيدة الشعر ، أى أن القصيدة مسئلة من التمثال . وهذه قضية هامة قد تعمقها كثيرون من المفكرين الألمان كان بينهم جوته وشوبنهاور ، ولن نخوض في تفاصيلها هنا) ويقول إنه لو حدث ذلك ما قنع الشاعر فرجيل إطلاقاً بمثل هذه الفكرة البسيطة التي ظهرت في تمثال اللاووكون ، ولصح قول ريشاردسون بأن الشاعر لم يلجأ إلى قصة اللاووكون إلا بوصفها مقدمة للوصف المؤثر للتدمير النهائى للمدينة . ولعل الشاعر قد قصد عندما أبرز الكارثة التي حلت بأحد المواطنين أن يسترعى انتباهنا إلى الكارثة الكبرى التي حلت بالمدينة .

اعتراضات على تناسي المفكرين الفروق بين الشعر والتصوير

وانتقل لسنج بعد ذلك إلى مناقشة المفكرين الذين أصرّوا على تأكيد التشابه بين التصوير والشعر والذين اعتقدوا أن الصلة بين الفنانين والشعراء صلة قائمة منذ الأزل ، فطالما تبادلا التأثير . وفي مساواة هؤلاء المفكرين الشعر والتصوير تناسي للفروق الأساسية بينهما ، وكأنهما فن واحد يخضع لقواعد واحدة . واختار لسنج مفكراً إنجليزياً ثانوياً (لم يعد معروفاً الآن) هو جوزيف سبنس ، وصوب سهام نقده إليه . فقد تعرّس سبنس هذا عندما صادف اختلافات بين الشعر والتصوير عجز عن تفسيرها ، إذ تساءل - في دهشة - عن سر تحلي الإله باكوس بالقرون ، في الشعر ، بينما لا توجد قرون مماثلة في التماثيل . ولجأ سبنس إلى حجج مختلفة لتعليل ذلك كالقول بجهل القدامى ، أو القول بصغر حجم القرون مما جعلها تختفي وراء النيجان أو أغصان الغار التي تحلّ رؤوس الآلهة . . كل هذه الحجج الباطلة قد أبعدته عن التفسير الحقيقي . فقد نسي أن قرون باكوس لم تكن قروناً حقيقية مثل قرون « القون » و« الساتيرات » إنما كانت مجرد حاية توضع فوق الرأس ، ترتدى أو تنزع وفقاً للمشيئة . . والشاعر يستطيع اعتماداً على القرون الإيحاء بأفعال الآلهة ، وصفاتها . أما إظهار القرون في الفن التشكيلي ، فإنه يؤدي إلى إفساد جمال الصورة ، أو جمال التمثال .

ومثل آخر هو وصف الشاعر ستاتيوس والشاعر فاليريوس فلاكوس لفينوس وهي غاضبة ، بحيث بدت في تشبهاتهما أحياناً شبيهة بعاصفة هوجاء ، بدلا من أن تشبه آلهة الحب . ولم يعثر سبنس في الأعمال الفنية القديمة على صورة لفينوس في حالة غضب . وفسر ذلك بالظن أن الشاعر يتميز بحرية أعظم من الحرية التي يتميز بها النحات أو المصور . ولكن غاب

عن فطنته أن كثيراً من الأشياء التي تبدو حسنة في الوصف الشعري ، لا تظهر كذلك في حالة التمثال أو الصورة . وبدلاً من أن ينتهي سبنس إلى هذه النتيجة فإنه قد وجه اللوم إلى الشاعرين المشار إليهما ، وذكر أنهما ينتميان إلى عصر اضمحل فيه الشعر الروماني ، فبدأ لهذا السبب في وصفهما لفينوس قدر كبير من سقم الذوق وفساد الحكم ، على عكس العصور الذهبية للشعر التي لا يصادف فيها أي ابتعاد عن قواعد التعبير الفني .

فلم ينتبه سبنس إذن إلى أن الآلهة والكائنات الروحية لا تظهر في الشعر والتصوير على نحو واحد . فالفن يعرض أشكالا تجمع بين المعاني المجردة والمشخصة ، ويحاول استحثاثنا على الالتفات إلى المعاني المجردة وحدها ، وإلى إقناعنا بأن أي ملامح شخصية تحيط بها إنما جاءت بفعل ضرورات هذا الفن . أما عند الشاعر ، فإن الآلهة كائنات حقيقية فعالة تنصف إلى جانب خصائصها العامة بخصائص ومشاعر شخصية ، قد تغلب في بعض أحيان على خصائصها العامة . وفينوس مثلا لا تمثل في نظر الفنان أي شيء آخر غير الحب . ولذا فإنه مضطر إلى الاقتصاد في تعابيره الفنية على ما يوحي لنا بهذا المعنى . وبإمكانه أن يضيف عليه بقصد استهواننا للنظر إليه بعض الملامح الجميلة الرشيقة - باعتبار أن الحب يقترن بالجمال والسحر . وأي انحراف عن هذه التأثيرات يؤدي إلى عدم تذوقنا للصورة أو التمثال . فإذا أنجز المصور إلى جعل الجلال يتصف بالسمو والجلال بدلا من التواضع فستحول فينوس على الفور إلى آلهة أخرى هي يونون . ولو أنه جعل سحرها نابعا من الجبروت لتحولت إلى ميرا .

من هذا يتضح أن ظهور فينوس في صورة غاضبة أو اتجاهها إلى الانتقام سيبدو في نظر المثال دليلا على التناقض الصارخ :

تضطر إلى ابتكار رموز ، تصبح بمرور الزمن وبسبب كثرة تكرارها أصولاً مرعية في الفن . وواضح أن الشاعر غير مرغى على اتباع مثل هذه الرموز ، لأن لغته تسمح بالتعبير في وضوح عن أى معنى يقصده بغير لجوء إلى رموز أو إشارات متفق عليها . ولذا تظهر في الفن رموز في كثير من الأحيان مثل شكل الأنثى التي تمسك بالأجام في يدها للتعبير عن العفة أو التي تستند إلى عمود للتعبير عن الوفاء . والمصور ربما كان مضطراً إلى الاستعانة بهذه الرموز للتعبير عن مثل هذه المعاني ، ولكن هل هناك ضرورة تتطلب قيام الشاعر بالمثل .

وبعد أن انتهى لسنج من نقد سينس تابع فكرته الأساسية لبيان الاختلاف بين الشعر والتصوير فانتقد الكونت كاييلوس (Caylos) من أشراف فرنسا في القرن الثامن عشر ، وكان مولداً بالآثار والدراسات الكلاسيكية) ، لأنه قد خلط هو الآخر بينهما فظن أن من الواجب أن يلجأ الشاعر إلى الرموز وإلى المعاني الرمزية في شعره ، كما رأى أن الشعراء كثيراً ما تأثروا بالأعمال الفنية وقاموا بمحاكاتها في قصائدهم .

ولو صح هذا الكلام ، ولو صح قيام هوميروس بنقل المعاني التي ذكرها من بعض الأعمال الفنية التي اطلع عليها لأدى ذلك إلى انحطاط منزلته في تقديرنا بغير مراء .

ويميل لسنج إلى الاعتقاد بإمكان استيعاء المصور موضوعه من الشاعر ، وإن كان العكس غير صحيح . وتعليل ذلك هو أن التنفيذ في التصوير أعسر من الإبداع بعكس الشعر ففيه الإبداع هو كل شيء ، لأن انزعاع المعنى الشعري من الخيال أعسر بكثير من التعبير عنه في كلمات . والتعبير في الفنون التشكيلية اعتماداً على مادة بسيطة كالرخام مثلاً أشق بكثير من التعبير بواسطة الكلمات . من هذا يتضح أن التنفيذ (أو الناحية التقنية

أما في نظر الشاعر فإن فينوس لا تمثل الحب وحده بل هي آلهة حب . وإلى جانب هذه الصفة فإن لها صفاتها الأخرى المتصلة بشخصيتها . فلا بأس إذن إذا جعلها الشاعر ثوراً وغضب .. الخ . والشاعر يستطيع أن يلجأ عند الوصف إلى معان سلبية وإلى الجمع بين أية خصائص مختلفة برغم تناقضها . فلا يهيمه أن تظهر فينوس دائماً في صورتها الرشيقية ، أو أن ترتدى ذات لون لازوردي . كل هذه الاختلافات بين الشعر والتصوير يدركها كل من يفهم التصوير فهماً حقيقياً ، ويعرف أن أحكام أى منها لا تلزم بالضرورة في الفن الآخر .

وعند المقارنة بين المصور والشاعر ينبغي الالتفات إلى مدى الحرية التي تتمتع بها الإثنان في إنجازهما لعملهما . فمن الواجب دراسة المؤثرات التي تأثر بها العمل الفني . وكثيراً ما كان للدين مثل هذا الأثر . ويظهر هذا في التماثيل المخصصة للعبادة ، والتي كثيراً ما اتجه المثلثون إلى إلحاقها بالرموز لكي تحدث الأثر المطلوب ، وأدى عدم نقاء العمل الفني أحياناً بتأثير ذلك إلى إساءة تفسيره ، ونسبة أشياء بعيدة عن الفن إليه .

فالقرون التي ظهرت في تماثيل باكوس في معبد لينوس مثلاً ، كان الدافع لإبداعها هو إمساك ابنته بها لإيقاظ أهبها . ولكن الفنانين الذين لم يقصدوا إنشاء تماثيل لكي توضع في المعابد ، قد تمتعوا بحرية جعلتهم لا يلجأون إلى مثل هذا النوع من الرموز أو المسخ . ويستخلص لسنج من ذلك أن العمل الفني هو الشيء الذي أراد الفنان بإبداعه غاية فنية فحسب ، أى كان الجلال هو هدفه الوحيد . أما الأعمال الأخرى التي نشأ منها أية غايات غير فنية فلا يصح نسبتها إلى الفن .

والفنون التشكيلية — كما رأينا — لا تستهدف أى شيء آخر غير الجلال ، ولكنها إذا اضطرت إلى التعبير عن أية معان أخرى بعيدة عن رسالتها الأصلية ، فإنها

في الفن كما نقول حالياً) في الفنون التشكيلية أكثر صعوبة من الإبداع والأصالة .

ويجذب لسنج فكرة استلهاهم الشعر في التصوير ويقول ان المصور الذي اتبع الأوصاف التي ذكرها الشاعر تومسون ، قد صور مشهداً جميلاً يفوق في جماله من اعتمد على الطبيعة اعتماداً مباشراً . فالمصور الثاني لا يصادف أى عناء لأنه يرى الأصل أمامه ، أما الأول فانه يضطر إلى قبح زناد فكره حتى يتمكن من تمثل الشيء الذي أمامه . والأول يبدع عملاً جميلاً اعتماداً على المحسوسات التي يراها ، أما الآخر فإنه لا يعتمد على أكثر من تمثيلات واهنة غامضة .

ولكن لسنج يستدرك ويذكر أن شعور الفنانين بأن الابتكار ثانوى في فهم لم يكن دائماً ذا أثر محمود . فإن معرفة الفنانين اعتماد براعتهم على التنفيذ قد جعلتهم أحياناً لا يبالون بالأصالة . ولهذا لم تتقدم الفنون التشكيلية تقدماً مائلاً لما حدث في سائر الفنون . ولكن هذا التكرار ليس أمراً سيئاً كما يبدو لأول وهلة ، لأنه يساعد كثيراً على سرعة تأثير الفن التشكيلي وفوريته . ولعل السبب الذي دفع الفنانين إلى الخوف من الابتكار ليس صعوبات الناحية الآلية في التصوير واستغراقها وقتاً طويلاً كما ذهب الكونت كايلوس إنما يرجع بمعنى أصح إلى سبب أعمق من ذلك ، وهو التزام التصوير بحكم طبيعته موضوعات محددة كما سئرى .

وثمة اختلاف آخر بين الشعر والفن لأن الشعر قادر على تناول الموضوعات الميثية وغير الميثية على حد سواء . أما التصوير ، فإن موضوعه أساساً هو الميثيات . والمصور قد يتناسى أحياناً الاختلاف بين الميثيات وغير الميثيات فيترتب على ذلك إبداع أشياء ممسوخة أو تدعو إلى الحيرة . ويضرب لسنج مثلاً لبيان الاختلاف بين الشاعر والمصور في هذا الصدد فيذكر أن الشاعر عندما يتناول الصراع بين الآلهة ، فانه يتناول

جوانب كثيرة غير ميثية وينتج للخيال فرصة تأملها وتخيل الآلهة في عظمتهم وفي تسامهم على الآدميين . ولكن المصور مقيد بعوائق فنه التي ترغمه على الاختصار على الميثيات . فهو مرغم في حالة الآلهة على تصويرها في صورة أشخاص . ولو لجأ إلى تضخيمها أو تغيير ملامحها لبدت أقرب إلى الوحوش منها إلى الآلهة . والمبالغات التي قد يطالعنا بها الشر عن قوة الآلهة وقدرتها على زحزحة الأحجار أو تصويبها مهما كان ثقلها - كالحجر الذي ألقاه ميزرفا على مارس مثلاً - تبدو غريبة لا معنى لها إذا أقدم أى مصور على تصويرها . فصور الآلهة قد نستطيع أن نتخيلها لو قرأنا الشعر ، ولكن التصوير يفسدها . ومهما اتصف المصور بالبراعة ، فإنه لن يستطيع تصوير الآلهة في أية صورة أخرى غير صورة البشر .

ويلجأ المصورون عندما يحاولون الإيحاء بالأشياء غير الميثية إلى إحاطة الأشياء العادية بسحب رقيقة . والقصد من هذه الفكرة هو الإيحاء لتأمل الصورة بتناسي ما يرى في الصورة ، وبتخيل هذه الأشياء كأنها غير ميثية . وهذه الفكرة مأخوذة عن الشاعر هوميروس الذي كان يحيط أبطاله بسحابة رقيقة ، أو بالظلام ، عندما يريد إخفاءها من رماح الأعداء . هذا التعبير الشعري اللطيف عندما يتم نقله إلى التصوير فانه يظهر في شكل محابة حقيقية تختفى وراءها البطل ، وكأنه يختفى وراء ستار . مثل هذه الفكرة لن تبدو مستحبة على الدوام في التصوير ، ولن تعنى نفس المعنى المجازي الذي يقصده الشاعر ، لأن ما يقصده الشاعر هو القول : « عليك أن تتخيله وكأنه غير ميثي » .

ويحاول لسنج إثبات عدم صلاحية كل موضوعات الشعر للتصوير بالقول بأننا إذا افترضنا ضياع مؤلفات هوميروس كلها (الإلياذة والأوديسا) ، وأن ما بقى ليذكرنا بها كان مجرد لوحات مصورة تمثل بعض المشاهد التي استشهد بها الكونت كايلوس . فهل نستطيع

بمجرد الاطلاع على مثل هذه اللوحات تذكر ما كتبه
هوميروس ؟

فلنتصور مثلاً قيام أى مصور بتصوير مشهد
الطاعون . كل ما يستطيع المصور فى هذه الحالة أن
يفعله هو رسم جثث ومراسم جنازية ، وإله قابض فوق
إحدى السحب (للإيهام بأنه شىء غير مرئى) . مثل
هذا المعنى سيدو هزيل للغاية بالنسبة لأشعار هوميروس

وناحية أخرى يتميز بها الشعر وهى الموسيقى التى
تردد أصداؤها فى مقاطعه ونبراته ، والتى تعجز فرشاة
المصور عن محاكاتها أو ترديدها . والتصوير لا يتفوق
إلا فى رسم المراتب الثابتة بعكس الشعر الذى يستطيع
أن يصور أى حركات متتابعة متلاحقة ، كصورة
بانداروس مثلاً فى الكتاب الرابع من الإلياذة . وفيها
صور لنا هوميروس بانداروس وكيف أمسك بالقوس
فى يده ، كما صور لنا الحركات المتتالية للسهم ، بحيث
يستطيع من لا يعرف أى شىء عن هذا الموضوع أن
يتعلم فن القوس والسهم بمجرد اطلاعه على هذا الوصف .
من هذا يتضح أن الشعر قادر على وصف المراتب التى
تعرض للتغير . بعكس التصوير ، فإنه لا يستطيع أن
يعرفنا بغير المراتب الثابتة . فالتصوير إذن يعنى بالمكان
وحده وبالأشياء المتجاورة ويتناسى وجود الزمان
والأحداث التى تتعاقب فيه .

التصوير فى المكان والشعر فى الزمان

وبعد هذه المقارنات التفصيلية بين الشعر والتصوير ،
حدد لسنج الموضوعات التى تصلح للتصوير فقال إنها
الأجسام التى تتألف من أجزاء مترابطة تقع فى مكان
واحد . أما موضوع الشعر فهو الأفعال التى تحدث
متعاقبة ومتتالية فى زمان .

ولو حاول التصوير عرض موضوعات الأفعال
المتغيرة ما استطاع أن يقدمها إلا فى مجموعة من الصور

المتعاقبة التى لا تظهر فيها غير أجسام ثابتة . أما الحركة ،
والأفعال وما تتعرض له من تغير ، فإنها تستخلص من
الاختلاف الذى يظهر فى هذه الصور .

والشعر يعنى بالأفعال ، ولكن الأفعال لا تحدث
فى فراغ أو خواء ، بل يضطلع بها أشخاص . وقارئ
الشعر يستطيع أن يدرك صورة الشخص القائم بهذه
الأفعال من خلال وصف الشاعر .

ومن يتأمل هوميروس سبرى أنه لم يصف غير
أحداث متعاقبة ولم يرسم صورة لشخصية أو لأجسام إلا
عندما تطلبت الأحداث ذلك . فالصور التى رسمها لن
تصلح مادة للتصوير - كما توهم النقاد - لأن ما يحتاج
إليه المصور لكى يصوره هو كل مكتمل وليس أجزاء
متعاقبة . ولو أقدم المصور على محاكاة هوميروس لكان
بحاجة إلى عدد لا حصر له من الصور . ويكفى فى هذا
الصدد ذكر مشهد إبحار السفينة ورسوها . مثل هذا
المشهد لن يحتاج إلى ما هو أقل من خمس صور أو ست
لو أريد التعبير بالصور عن كل المعانى التى قصدها
هوميروس . وهوميروس لم يتورط إطلاقاً فى رسم
الموضوعات التى يتفوق فيها التصوير بحكم طبيعته .
فهو مثلاً عندما أراد تصوير الصولجان لم يستطع بالطبع
أن يظهر ألوانه المتعددة الساحرة فلجأ إلى فكرة أخرى
وهى سرد تاريخه وكيف صنعه الإله فولكان ، وكيف
اكتسب بريقاً بفضل جوبيتر ، ثم تحلى به بعد ذلك
الإله ميركورى ، وأصبح يمثل صولجان الحرب فى يد
بثلوب ، كما يمثل عصا اترىوس الراعى المسالم .

ويقارن لسنج بين الشعر والتصوير فى ناحية هامة ،
وهى ناحية البراعة فى الوصف . وهو يرى أن إدراك
معالم أى شىء تتطلب نظرة خاطفة تنتقل بين أجزاء
الشيء المختلفة بحيث تبدو كأنها نظرة واحدة . فالسرعة
لازمة لكى ندرك أى شىء فى كليته وشموله . ولكن
هذه السرعة تتعارض مع رسالة الشاعر ، لأنه فى انتقاله

من وصف جزء إلى جزء آخر غالباً ما يترتب ، وغالباً ما يركز على جزء ما عندما يرى أن التركيز سيحدث الأثر الشعري المطلوب . ويترتب على ذلك في النهاية نسيان المستمعين للشعر ما قيل في أول الأبيات عند استماعهم وصف الأجزاء الأخيرة التي يصفها الشاعر . وما يسفر عنه ذلك هو تغلغل الإحاطة بالكل في السرعة المطلوبة ، اللهم إلا إذا كان المستمعون يتمتعون بذاكرة فذة تساعدهم على نسيان هذه القواصل الزمنية وعلى تجميع الأوصاف الجزئية بحيث تتحقق صورة شاملة واضحة .

إن مثل هذه الصورة الشعرية الجامعة في وصف الأشياء غالباً ما تكون أكثر وهناً وتفككاً من أية صورة مرسومة تعتمد على الخطوط والألوان . صحيح أن اللغة لا تعجز عن تمثيل أى كل مادي ، ولكن يلزم في هذه الحالة مراعاة خاصتين من خصائصها وهي أنها تتألف من ألفاظ لا تدل إلا على أشياء متتابعة وأنها قد نبعت من الأشخاص ولم تنبع من الأشياء ولذا تحتل كثرة من التأويلات . وإذا أمكن للمستمع التفاضل عن هاتين الخاصتين وتناسي أن اللغة لا تنفي بغير الأشياء المتعاقبة في الأزمان ، وليس من شأنها وصف الأجسام المتجاورة في مكان واحد ، فإنه سبى عن الأوصاف التي يقرأها في الشعر ويستفيد منها .

ولكن هل يعد تخلي اللغة عن هاتين الخاصتين (عدم تحديدها وتركيزها على الأشياء المتعاقبة) ميزة لها : إن الشعر في الواقع لا يهدف إلى الأوصاف الواضحة ، لأن هذه هي مهمة النثر . أما ما يرى إليه الشعر فهو استحثاثنا على تخيل المشاعر التي كنا نشعر بها في حضرة الأشياء التي يتحدث عنها الشاعر . فإذا ترك الشاعر مثل هذه المهمة الجليلة كان هذا دليلاً على إفلاسه . فلا عجب إذا نظر بوب في سنواته الأخيرة بازدياد إلى أشعار الوصف التي أضعاف فيها وقته في صباه . كما أن كلايست قد نظر إلى قصيدته «الربيع»

نظرة خالية من كل تقدير . ولو قدر له أن يحيا طويلاً لما كان من المستبعد إقدامه على تغييرها . ويستخلص لسنج من هذه المناقشة قاعدة أساسية هي ضرورة تخصص الشاعر في المتعاقبات في الزمان ، وتخصص المصور في النواحي المتجاورة في المكان .

وتبعاً لهذه القاعدة انتقد قيام بعض المصورين مثل فرانيسكو مازولي لقيامه بتصوير مشهدين في نفس الصورة ، كما إن نقد تيسان لإقدامه على تصوير قصة الابن المنحل وحياته التي سادها الإنحلال ، وتعبه ثم تكفيره عن خطايه ، في صورة واحدة . فتجاوز مهمة التصوير (وهي رسم شيء مكتمل) والقيام برسم أحداث متفرقة متباعدة في الزمان يدل على عدم إدراك المصور لمهمته . ويعمد المصور البارع الذي يدرك قصور التصوير وإضراره إلى التركيز على لحظة واحدة ، إلى اختيار أفضل اللحظات وأغناها بالمعاني ، كما يلجأ إلى البراعة في ترتيب شخوص صورته ، وإلى الاقتصاد في اختيار مكونات الصورة .

والشاعر يحكم هذه القاعدة مضطراً إلى التركيز على جانب من الأحداث أو الأشياء التي يتحدث عنها ، بدلاً من سردا جملة واحدة . ولكن الشاعر ببراعته في اللغة قد يستطيع اختيار كلمات مشبعة بالمعاني تجعلنا نتوهم أنه قد جمع فيها أكبر قدر من الأوصاف التي يرى التعبير عنها . ولنضرب مثلاً لذلك هو وصف الدرع عند هوميروس ، (وهي مسألة قد شغلت كثيرين من المفكرين في القرن الثامن عشر تذكر منهم الشاعر بوب ومدام دافسيه) فهو لم ينس في هذا الوصف الدقيق أن يعرفنا مادته وشكله وكل الصور التي كانت مرسومة على سطحه الرحيب مما ساعد المصورين المحدثين على إبداع رسوم تمثل هذه الأشكال تمثيلاً دقيقاً . ولا يفهم من ذلك أن هوميروس قد اعتدى على حدود الشعر . فهو لم يصف الدرع جملة واحدة ، بل وصف المراحل المتتابعة التي يمر بها صنع الدرع . فنحن

الجمال والدمامة في التصوير والشعر

ونتقل المقارنة بين الشعر والتصوير بعد ذلك إلى ناحية أخرى وهي القدرة على عرض الأشياء الجميلة : والجمال الطبيعي يعنى وجود انساق وانسجام بين الأجزاء المختلفة . ولكي يظهر هذا الانساق ينبغي أن توجد هذه الأجزاء متجاورة . لذا أصبح الجمال هو الموضوع الذى تتميز به الفنون التشكيلية .

أما الشاعر وبحكم اضطرابه إلى عرض الجمال اعتماداً على صور جزئية متعاقبة ، فإنه لا ينجح في إحداث تأثير مماثل لتأثير المصور ، ومن ثم فإنه يتجنب أى وصف للجمال على هذا النحو . فثمة اختلاف بين منظر أى شيء مكتمل الأجزاء ومنظره مجزأ إلى أجزاء متعاقبة . إن الحالة الأخيرة لا تستحثنا إلى الشعور بالجمال ، اللهم إلا إذا تذكرنا حالات مكتملة مماثلة بمجرد رؤيتنا للقطات الجزئية التى يعرضها الشاعر :

وهوميروس هو أفضل من تنبه إلى هذه القاعدة أيضاً . فهو يكتفى بالإشادة بجمال هلين ، ولكنه لا يقحم نفسه في عرض تفاصيل مفاتها ، لأنه واثق أن مثل هذا العرض لن يساعد على إحداث الأثر المطلوب . فلا صحة إذن لاعتقاد بعض النقاد أن الشعراء العباقرة قادرون على تحقيق ما تنجح في إبرازه الأوحة المصورة ويرى لسنج أن ما يمكن الإفصاح عنه على أفضل وجه بواسطة الخطوط والألوان ، هو شيء تعجز الكلمات عادة عن التعبير عنه . فإذا كان دولشي قد أفنى على وصف الشاعر أريوستو لإحدى النساء الجميلات ، فإن لسنج بعد أن قرأ هذا الوصف يرى هذه القصيدة أفضل تحذير لجميع الشعراء بعدم اتباع مثل هذا الاتجاه غير السديد .

ربما استشففنا من بعض قصائد أريوستو بعض قواعد التناسب التى عرفها القداى ، وربما اعتقد البعض أن هذه القصائد قد دلت على معرفة كاملة بالتلوين

لا نتخيل عندما نقرأ الوصف الدرع ذاته ، بل نتخيل العانع البارع عندما قام بصنعه ، فزاه وهو يمسك بالقادوم ، ويقف أمام السندان ، ونرى الحديد عند صهره وسبكه ، كما نرى الصانع الفنان وهو يتخيل الأشكال المختلفة التى ينوى تزيين الدرع بها . ولكن النقاد الذين لم يرضوا عن وصف هوميروس للدرع قد انتقدوا هذا الوصف لعدم درايتهم بما بين الشعر والتصوير من اختلاف . فقل إن هوميروس قد ملأ الدرع بعدد كبير من الأشكال ، ما كان ميسوراً أن يحتويها سطحه : وأثبت بوفان (عالم اليونانيات الفرنسى جان بوفان) ذلك عندما قام برسم تخطيطي للدرع وفقاً للأبعاد التى ذكرها هوميروس ، ولكنه نسي أن الشاعر لا يعنى بالأحداث أو الأوصاف باعتبارها متجاورة في مكان واحد ، بل إن ما يعنيه هو اللحظات المتعاقبة التى قد لا يستوعبها مكان واحد . ولهذا فإننا إذا جمعنا صور هوميروس على شكل لحظات أى حولناها من صورتها الشعرية إلى الصورة التى تناسب التصوير ، لاحتجنا بغير جدال إلى عدد كبير من الصور كل منها تمثل لحظة من الزمان . فكل مشهد من هذه المشاهد العديدة التى صورها الشاعر بأشعاره في حاجة إلى صورة منفردة . هذه المعانى يستطيع الشاعر إدماجها في صورة مركزة غير مقيدة بأى تجاور في المكان ، أو اشتراك في لحظة واحدة كما هو الحال عند المصور .

وظن الشاعر بوب أن هوميروس قد صور هذه المشاهد وفقاً لقواعد التصوير ، أى أنه لاحظ التباين وقواعد المنظور . . الخ . ولكنه تناسى أن فن التصوير أثناء حرب طروادة لم يكن قد توطد بعد كما شهد المؤرخ باليني وآخرون . وبدلاً من أن يعترف بوب بالاختلاف بين التصوير والشعر ، فإنه قد جعل الشاعر يتنبأ بقواعد التصوير التى ظهرت بعد أكثر من ألف سنة من وفاته .

لا تختلف عن معرفة تيسان بها ، ولكن ما هي الفائدة التي سنجنيها من قراءة بعض أشعار تعرفنا بالجمال في صورة مادية ؟ إن الشعر يرى إلى شيء آخر وهو تعريفنا بالجمال الذي ينبض بالحياة ، والقصيدة الشعرية الحقة هي التي تدفعنا إلى الإحساس بالانفعال الصحيح الذي نشعر به في حضرة الجميل . فلا قيمة إذن لترديد الشاعر أوصاف الجلال التي نراها مصورة ، أو لترديده النسب المختلفة لتقاطيع الوجه . وكأن الشاعر مدرس رسم يعرف تلاميذه الصغار كيف يرسمون بعض نماذج الجلال :

وأحسن فرجيل (ولم يكن لسنج عليه كثيراً خصوصاً عندما كان يقارنه هوميروس) عندما أكد عجزه عن تصوير جمال هلين كما ينبغي ، وإن كان هذا لا يرجع إلى خطئه ، بل يرجع إلى حدود فنه . فهو إذن جدير بالثناء لأنه قد عرف كيف يراعى حدود هذا الفن ، لذا لجأ إلى حيلة طريقة لوصف الجلال . إذ تخيل رساماً يرسم معبودته في حضرتها . ولم يكن الشيء الذي يبغيه هو رؤية أجزاء الوجه وهي ترسم أمامه ، بل تخيل المحبوبة حاضرة أمامه وكأنها تتحدث أو تبسم .

والشعر لن ينحسر كثيراً إذا تجنب وصف الأشياء الجميلة لأنه يعوض ذلك بشيء آخر يتناسب مع قدراته وهي وصف الأثر الذي يحدثه الشيء الجميل ، وهكذا يستطيع أن يوحي لنا بوجود الشيء الجميل دون أن يعرض لنا تفاصيله . والشيء الذي تحدثت عنه الشاعرة اليونانية سافو وجعلها تفقد وعيها وصرابها ، لا آخلائنا نتصوره من الأشياء القبيحة . والشعر قادر على منافسة التصوير في وصف الجلال على نحو آخر عندما يحول الجلال إلى سحر . والسحر عبارة عن جمال في صورة متحركة ، ومن ثم لا يصيح من الموضوعات التي تناسب التصوير . . وموضوع الفن التشكيلي يقتصر على الموضوعات الثابتة كما رأينا ، لذا يترك المصور استخلاص الحركة لفطنة المتأملين للوحاته .

ولقد طالب الشاعر أناكريون بالمستحيل من المصورين عندما طالبهم بجعل صورة محبوبته تنسم بالسكر الذي ينبغي أن يشع من ذقنها الرقيقة ومن عنقها المرمرى . فهل كان هذا ميسوراً ؟ . إن التصوير بمعناه الصحيح ليس قادراً على تحقيق ما يبتغيه أناكريون . فالمصور يستطيع رسم الذقن في أكل استدارة ممكنة ، ويستطيع أن يبرز فتنة الوجه وملاعبه ، وأن يختار أفضل الألوان التي تناسب العنق بحيث يجعلها قريبة إلى الحياة ، ولكنه سيعتبر لا محالة إذا حاول أن يخطو أية خطوة بعد ذلك . وبعد أن تحدث لسنج عن الجلال انتقل إلى الدمامة ،

وما تنيه في كل من الشعر والتصوير . ولكي نحكم على أي شيء بالدمامة علينا أن نراه مكتملاً ، لأن الدمامة لا تظهر كما ينبغي في حالة اللقطات الجزئية . وهي في هذه الناحية مماثلة للجمال . وفقاً لذلك ، فإنها ليست من الموضوعات المناسبة للشعر . ومع كل هذا فقد رسم هوميروس الدمامة في أشبع صورها عندما تحدث عن أحد أبطاله . فما الذي دفعه إلى وصف الدمامة مع معرفته أن الشعر يختص بالصور المتلاحقة ، ومع إحجامه عن القيام بفعل مماثل في حالة الجلال ؟ . . ألا تؤدي تجزئة أوصاف الدمامة إلى التخفيف من حدتها ، وإلى إضعاف الوصف كما يحدث في حالة الجلال ؟ . . ويعترف لسنج بصحة هذا الرأي ، وإن كان هوميروس محقاً فيما اتبعه ، لأن تجزئة أوصاف الدمامة تؤدي إلى التخفيف من خصائصها المنفرة (١) ومن ثم يستطيع الشاعر تحويل هذه الدمامة إلى أشياء مثيرة للسخرية أو الرعب . فهو هوميروس قد صور الشخصية (التي أشرنا إليها) قبيحة لكي يجعلها مثيرة للسخرية . ولم يعتمد على الدمامة وحدها لإحداث هذا الأثر ، بل لجأ إلى إظهار التباين بين هذه الصورة القبيحة التي تبين عدم الاكتمال وبين صورة أخرى تمثل الكمال . والشيء المثير للسخرية لا يعتمد على قبح الملامح وحدها ، بل يجب أن تكمله صفات خلقية قبيحة كذلك . فايزوب كان سيتصف

إلى تخفيف نفورنا ، بل سيدهونا إلى التساؤل عما دفع الفنان إلى تخيله مثل هذا المعنى المنفر ، وإلى التشكك في سلامة ذوقه .

وربما قيل اننا قد نعجب بمثل هذه الصور التي تمثل الدمامة باعتبارها تشبع فضولنا وميلنا للاستطلاع . ولكن مثل هذا الشعور مؤقت لا يعتد به ، وسرعان ما يزول ولا يبقى سوى الشعور بالنفور من الأشياء الدميمة أو ما بمائلها .

والأمثلة التي ذكرها أرسطو للدمامة لا تمثل أشياء دميمة في الواقع ، لأن الحيوانات المتوحشة ليست دميمة ولكنها تثير الرعب . وسر شعورنا بالارتياح عندما نتأمل صورها هو أنها لا تماثلها من ناحية إثارتها للرعب ، إنما هي تشبهها من حيث المظهر وحده . وعلى ذلك يرفض لسنج اعتبار الدميم موضوعاً للفنون التشكيلية ، لأن الدمامة تثير النفور على الدوام ، ولا شيء يخفف من وطأتها . فهي قد تثير السخرية أمداً قصيراً في حالة عدم إحداثها أي ضرر ، ولكنها تظل بعد ذلك على الدوام موضع استهجان واستنكار .

والشاعر يستطيع تطعيم مبدعاته ببعض النواحي الدميمة المنفرة التي تتباين مع الطابع العام لشعره فزيد من تأثيره . والأشياء المنفرة تساعد على إشاعة السخرية في حالة مقارنتها بالأشياء الجميلة ، كما يظهر لنا عنه أريستوفان . وأهم شرط عند تقديم المنفر في الشعر هو إحسان اختيار الموضع المناسب الذي لا يتعارض مع الأثر العام للقصيدة الشعرية أو الدراما في صورتها الكلية كما نلاحظ عند هوميروس وعند سوفوكليس .

• • •

واضح من هذا العرض شدة تعلق لسنج بالشعر ، واعتقاده أنه أسنى منزلة من التصوير . ولا أميل إلى إرجاع ذلك كما جاء في كثير من مراجع تاريخ الفن إلى نقص في معرفة لسنج بالفنون التشكيلية . فالأرجح في رأيي هو شدة تعصب المفكرين في القرن الثامن عشر

بقبح مائل لشخصية هوميروس التي تحدثنا عنها ، لولا حكمته وفضله وأثرهما في الخيلولة دون إثارته للسخرية . والدمامة عندما لا يتسبب عنها أي ضرر تثير السخرية ، ولكنها عندما تحدث ضرراً تصبح شيئاً مثيراً للرعب . واستشهد لسنج بشكسبير في هذه الناحية ، وقارن بين شخصيتين من شخصياته اشتهرا بميلهما للشر وهما إدموند الابن الحرام لإيرل جلوستر في رواية الملك لير ، وريتشارد دوق جلوستر الذي لجأ إلى كل الحيل الدنيئة والخبيثة للحصول على العرش ، ونجح وأسمى نفسه ريتشارد الثالث . والشخصية الأولى لا تثير فينا رعباً مائلاً للرعب الذي تحدثه الشخصية الثانية . فإن الشخصية الأولى — برغم شعورنا بما فيها من جوانب شريرة — تستدر شفقتنا وهي تشكو المجتمع وظلمه ، وأحكام الناس الخالية من كل شفقة . ولكن شخصية إيرل جلوستر في صورتها الشرسة المتفطرة لا تمثل أي شيء سوى الشيطان ذاته .

ومن حيث الصلة بين الدمامة والتصوير ، فإن المصور قادر على محاكاة الدمامة ، لأنه يستطيع محاكاة جميع المراتب ، الجميلة والقيحية على حد سواء . ولكن الفن الرفيع يمنع ذلك .

وقد يقال إن صور الأشياء القبيحة كثيراً ما تتحول إلى أشياء مستحبة . ويدلنا على ذلك أن المشاهد المروعة أو المحزنة ليست من المشاهد التي نفجر منها عندما نراها مصورة ، لأننا لا نبغض الشر إلا إذا تصورناه شيئاً حقيقياً ، فإذا عرفنا أن الشرور أشياء موهومة مصطنعة ستتحول مشاعرنا من النفور إلى الارتياح .

ولكن النفور ليس مرتبطاً بحقيقة الشيء المنفر فحسب ، لأننا نشعر بنفور حتى إذا أدركنا أن ما نراه ليس شيئاً حقيقياً البتة . والأمر بالمثل فيما يتعلق بقبح الأشكال ، لأن الأشكال القبيحة تثير الاستمزاز ، وتعد شيئاً متعارضاً مع ميلنا إلى النظام والاتساق . واعتقادنا أن الأشياء التي نراها ليست حقيقية لن يؤدي

للحضارة الهلنسية والرومانية ، وفنونها . هذا التعصب هو الذى دفع لسنج إلى تناسى نقائص الفن التشكيلى الفلمنكى الأقرب عهداً من الفن اليونانى والرومانى . (وهو نفس السبب الذى دفع فنكلمان برغم معرفته الواسعة بالفنون التشكيلية إلى إصدار عدة أحكام يسخر فيها من الفن الفلمنكى) .

وأدى تركيز لسنج دراسته على الفن اليونانى إلى توهمه أن الجمال وحده هو غاية الفنون التشكيلية . هذا الحكم وإن صح عن آثار اليونان والرومان ، فإنه إن يصح إطلاقاً على العصور الذهبية للتصوير سواء عند الإيطاليين فى عصر النهضة ، أو عند الفلمنكيين ، أو عند الأسبان ، أو عند المدارس الفرنسية المتعددة التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ، والتى لم يعرفها لسنج ، والتى أثبتت — كما أثبت رمبرانت من قبل — أن الفن التشكيلى لا يعرض لحظة من الزمان فحسب ، كما اعتقد لسنج متأثراً بالمفكر الإنجليزى كيمز ، بل هو قادر على عرف تاريخ طويل حافل . وما يتميز به المصورون العباقرة هو قدرتهم على رسم لوحات تظهر التغلب على كل معوقات فهم . ففى مثل هذه اللوحات ، لا نرى ألواناً أو أشكالاً ثابتة فحسب ، بل نتوهم أحياناً أنها تتحرك أمامنا . وندر أن تشابهت نظراتنا المتكررة إلى أية لوحة خالدة . ففى كل مرة ننتبه إلى شيء جديد لم نكتشفه فى المرات السابقة .

وربما كان لسنج متشككاً فى صحة ادعائه ، كما يبين من ثانى المختارات التى قمت بترجمتها فى نهاية البحث ، والتى تبين كيف يتحایل المصورون على مظاهر الثبات والسكون فى لوحاتهم ، فتبدو اللحظة الواحدة المشار إليها وكأنها تجمد فى أذيانها جملة لحظات أخرى .

ومن الأفكار الهامة التى تضمنها كلام لسنج وأحدثت أثراً كبيراً فى الاستطيقا ، تفرقه بين فنون المكان وفنون الزمان . والألمان مولعون بمثل هذا النوع من

النظريات ، كما تدلنا على ذلك تفرقة أخرى مشهورة لم يبن النظرية الطبيعية إلى الحياة والواقع ، والنظرية التاريخية ، ولا أستطيع أن أؤكد وجود صلة واعية بين هاتين الفكرتين . ولنا حاجة إلى بيان بطلان هذه الفكرة ، أو إلى القول بتغير نظرتنا إلى المكان والزمان تغيراً شاملاً ، أى أننا نراها الآن فى صورة مغايرة إلى أبعد حد للصورة التى زعمها لسنج .

هذا النقد لا يعنى تناسى قيمة الكتاب وأصالته . فلقد عرض مشكلة هامة بانث أثارها فى تاريخ الاستطيقا وفى تاريخ الفن ، وترتبت عليها عدة نتائج ما زلنا نعانى من أثارها حتى الآن . ففى أغلب الإستطيقيات التى ظهرت بعد لسنج (خصوصاً الألمانية منها) نصادف ثريباً هرمياً للفنون . وهذه الفكرة تعنى وجود شيء مشترك بينها يسمح بمثل هذه المقارنة ، وربما حدث تجاهل الاختلاف بين الفنون على نحو آخر . إذ اعتقد أحياناً أن مضمون الفن واحد والاختلاف هو اختلاف فى الشكل فحسب ، قام الفنانون وفقاً لذلك بنقل موضوعات الفنون الأخرى وإعادة عرضها فى صورة لم تتناسب غالباً مع خصائص فهم .

وأغلب الظن أن الفنون التشكيلية ، كانت أكثر الفنون تأثراً بهذه النزعة . إذ اعتبرتها أكثر المذاهب المثالية الألمانية أخط الفنون مرتبة بسبب شدة تقيدها بالمحاكاة والواقع . وهذا هو ما دفعها إلى التحرر من طابعها . فحاولت تقليد الموسيقى تارة وتقليد فن العبارة تارة أخرى . . . الخ . وما زال التصوير يعانى الأمرين بسبب حيرته التى تورط فيها ، أو بسبب إساءة المفكرين فهمه ، أو تصورهم أنه أخط منزلة من الشعر والموسيقى .

فكتاب لسنج ، برغم علم اكتماله ، (لأن النية كانت متجهة فى البداية إلى تأليف ثلاثة أجزاء فى هذا الموضوع) عظيم القيمة إذن ، لأنه محاولة قيمة للتنبيه

التصوير يستطيع أيضاً أن يحاكي الأفعال ، وإن كان هذا لا يتحقق إلا في صورة غير مباشرة بوساطة الأجسام .

ومن ناحية أخرى ، فإن الأفعال لا تستطيع أن تحدث اعتماداً على نفسها ، بل ينبغي أن تكون مرتبطة بكائنات معينة . فمن حيث أن الكائنات إذن عبارة عن أجسام ، أو ينظر إليها على هذا النحو ، لذا يستطيع القول أن الشعر قادر على تصوير الأجسام ، وإن كان هذا لا يتحقق إلا في صورة غير مباشرة بوساطة الأفعال . فالتصوير بسبب تألف مبدعاته من أشياء متراسة لن يستطيع أن يصور غير لحظة واحدة من اللحظات التي يستغرقها أى فعل ، ومن ثم فإنه مضطر إلى اختيار أنسب اللحظات التي توحى بالفعل ، وتشرح في وضوح ما سبقها وما يعقبها .

وبالمثل ، فإن الشعر في مبدعاته التي تعتمد على أحداث متلاحقة لن يستطيع الإفصاح عن أكثر من خاصية واحدة من خصائص الأجسام ، ومن ثم فإن عليه اختيار الخاصة التي تستطيع أن تعرفنا في أكمل صورة حسية مستطاعة الجسم المقصود ، والناحية التي يراد تمثيلها .

• • •

منى يمكن تجاوز حدود الشعر والتصوير
(من الفصل الثامن عشر)

... مرة أخرى إذن أؤكد أن موضوع الشاعر هو الأحداث المتعاقبة في الزمن ، أما المصور فموضوعه هو ما يظهر في المكان .

وإن عرض حادثتين متباعدتين بالضرورة في نفس الـ ورة الواحدة - (كما فعل فرانشيسكو مازولى عندما صور إغته اب نساء بعض القبائل ، كما بين في نفس الـ ورة مصالحة النساء لأزواجهن وأقاربهن) أو كما حدث عند تيسان الذي صور (قصة الابن المبهتك

إلى ضرورة الالتفات إلى أوجه الخلاف بين الفنون ، وإلى عدم افتعال أى تأثير متبادل بينها . وهو الأمر الذي يعزى أحياناً إلى نبوغ كل الفنون من الإنسان ، أو من روح حضارية واحدة .

نماذج من الكتاب

التصوير فن المكان والشعر فن الزمان
(من الفصل السادس عشر)

... لو صح القول أن التصوير ياجأ فيما يحاكي إلى وسائل أو رموز مختلفة عن الوسائل والرموز المستعملة في الشعر (التصوير يستخدم أشكالاً وألواناً في المكان ، والشعر من ناحية أخرى يستخدم أصواتاً منطوقة في الزمان) ، وإذا سلمنا بأن هذه الرموز ينبغي أن تتصل اتصالاً مناسباً بالأشياء التي ترمز إليها . في هذه الحالة فإن هذه الرموز عندما ترص متجاورة لن تستطيع أن تعبر إلا عن الموضوعات التي تتألف من أجزاء متراسة بجوار بعضها البعض . كما أن الرموز المتتالية لن تعبر إلا عن موضوعات تتألف من أجزاء متتابعة .

والموضوعات التي تتألف من أجزاء متجاورة متراسة تسمى بالأجسام ، ومن ثم فإن الأجسام بخصائصها المرئية هي الموضوع الذي يختص به التصوير والموضوعات التي تتألف من أجزاء متتابعة تسمى بوجه عام بالأفعال . ومن ثم فإن الأفعال هي الموضوع الذي يختص به الشعر .

على أن الأجسام ليست موجودة في مكان فحسب ، بل هي موجودة أيضاً في زمان . فهي مستمرة في الوجود . وقد تظهر في أية لحظة من لحظاتها في مظهر مختلف ، أو تتجمع مكوناتها في صورة مختلفة . وكل مظهر من هذه المظاهر المؤقتة ، أو كل تكوين من هذه التكوينات نتيجة لأشياء سابقة له . ومن ثم فإنه يعد المحور الذي يركز عليه أى فعل . من هذا يتضح أن

وحياته المنحلة وتعاسته ثم ندمه في النهاية) - يعد تطفلاً من ناحية المصور في عالم الشاعر . وهو أمر لا يرضى عنه إطلاقاً أى ذوق سليم .

ومحاولة تعريف القارئ صورة الكل بتعداد الأجزاء المختلفة أو الأشياء المختلفة الواحدة تلو الأخرى (أى الأشياء التى لا يمكن الإحاطة بها في الحياة الفعلية إلا بمجرد نظرة خاطفة لو أريد التأثير بالشئ في شموله) يعد تطفلاً من الشاعر على عالم التصوير ، ويؤدى إلى تبديد قدر كبير من الخيال بغير مبرر .

إن التصوير والشعر يشبهان عالَمين متجاورين متحابين . وبينما لا يسمح الواحد منها للآخر بأى اعتداء على أراضيه ، إلا أنهما قد يسمحان في ترفق بأى أشياء تحدث على حدودهما ، أى أنها يتفاضيان في سلام عن أية اعتداءات صغيرة على حقوقهما بتأثير الظروف أو العجلة .

ولتأييد هذا الرأى لن أذكر ما يحدث في اللوحات التاريخية الكبرى عندما تمتد اللحظة الواحدة بعض الشيء ، ولكننى أكتفى بالقول بأنه قلما توجد لوحة واحدة غنية بالشخص ، تقوم فيها الشخصيات بعرض الحركة المناسبة أو الوضع الذى يتناسب مع حركة الفعل المطلوب . ففى بعضها تبدو الحركة أسرع مما يجب ، وفى البعض الآخر تظهر أبطأ قليلاً . هذه الحرية التى يتمتع بها الفنان ، ينبغى أن يحرص على موازنتها أثناء قيامه بترتيب مكونات لوحته كأن يبرز بعضها إلى الأمام أو يرجعها إلى الخلف وسوف أكتفى بذكر ملاحظة ذكرها الهر منجز عن الأردية التى عرضها رافايل في لوحاته . فهو يذكر أن كل ثنايا الأردية في صوره كان لها ما يبررها . إذ كانت تدل على حركة الأطراف ، كما كانت تدل على اتجاهها . وفى بعض أحيان كانت هذه الثنايا تعرفنا أشياء سابقة للوحة ويمكننا أن ندرك من شكل هذه الثنايا

هل تحركت الساق أو الذراع إلى الأمام أو إلى الخلف . أو هل بدأت حركتها من الانقباض إلى الاستقامة أو العكس . ولا يمكن أن ينكر أن الفنان في مثل هذه الحالات ، يحاول الجمع بين لحظتين في الوقت نفسه . فثلاً عندما تتحرك أية قدم إلى الأمام بعد انثنائها إلى الخلف ، يتبع ذلك على الفور حركة مماثلة في الرداء المحيط بها ، اللهم إلا إذا انصف قماش الرداء بصلابته وفى هذه الحالة فإنه لن يناسب التصوير على الإطلاق . ولا يمكن للرداء أن ينثنى إلا الانثناءات التى تتطلبها وضع الساق على الذراع . وحتى ظهور ثنايا أخرى هو الجمع بين حركة الرداء في هذه اللحظة ، وحركته التى حدثت في لحظة سابقة لذلك . ولكن منذ الذى يصر في هذه الحالة على ضرورة دقة المصور ، الذى ارتأى ضرورة عرض حادثتين ترجعان إلى لحظتين مختلفتين . ومنذ الذى لا ينثنى عليه لأنه قد أدرك ذلك ، وتمتع بالشجاعة التى جماعته بقترف خطأ عديم الأهمية لتحقيق قدر أعظم من انكمال في التعبير .

وينتشر للشاعر اقتراف خطأ مماثل . فهو عندما يحاكي الأشياء المتعاقبة لا يسمح له في أية لحظة بتناول أكثر من جانب أو خاصة من الأشياء التى يعرضها . ولكن إذا تميزت لغته ببراعة تساعده على التعبير عن أكثر من معنى بوساطة أى كلمة واحدة ، فلماذا لا يفعل ذلك إننى لا أبغى من ذلك تبرير ما يقوم به الشاعر والمصور اللذان سبق أن جعلتهما شبيهين بالجارين المتحابين . فان التشبيه ليس برهاناً على صحة هذه القضية ، أو مبرراً لعدم اتباعها . على أننا نستطيع القول بأنه كما تقترب في حالة المصور اللحظة المنفصلتان بحيث نتصورهما بغير تردد وكأنهما لحظة واحدة ، كذلك في حالة الشاعر ، فان الملامح المتعددة التى تصور الأجزاء ، والتى تتبع زمانين بينهما تعاقب سريع ، يضيّق فيه الفاصل الزمنى ، بحيث أننا نتخيل كأنهما قد حدثا في وقت واحد

عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتي

بمقام

الدكتور محمد عبد الرحمن مصطفى

وقد عاش المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي في الوقت الذي نعيم فيه الركود على الوطن العربي ، وبجل في كتابه «عجائب الآثار» تاريخ مصر منذ أواخر القرن السابع عشر حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، وقدم لنا صورة عن مصر لا تكاد تختلف في خطوطها العريضة عن صور الحياة في الحواضر العربية الأخرى : الصورة التي قدمها البديري عن دمشق والغزى عن حلب ومطالع السعود عن بغداد . فصور الحياة في هذه الولايات العربية لا تكاد تختلف إحداها عن الأخرى ، لأن المقومات التي قامت عليها حياة المجتمعات فيها تكاد تكون واحدة ، والأنظمة التي وضعها السلاطين العثمانيون لحكمها كانت واحدة ^(١) . ويسجل الجبرتي أن من أسباب تدهور الكتابة التاريخية في مصر العثمانية تسرب الكتب التاريخية من البلاد : « فلإننا لم نر من ذلك كله إلا بعض أجزاء مدشنة بقيت في بعض خزائن كتب الأوقاف في المدارس » ، كما يربط هاهنا الظاهرة بتعدد الفتن واستفحال النزاع بين الفرق العثمانية والبيوتات المملوكية وما ترتب على ذلك من تلف كثير من المكتبات :

ازدهرت مدرسة التاريخ في مصر في العصور الوسطى وبلغت أوجها في القرن الخامس عشر الميلادي ^(٢) ، وكان هذا الازدهار مرتبطاً بوجه عام بما بلغته الحضارة العربية من تقدم وانتعاش . ثم طرأت عدة عوامل كان لها أثرها في اضمحلال الحضارة العربية ليس فقط في مصر ، بل في قواعدها الأخرى في المشرق والمغرب : فقد استهلكت الحضارة العربية - الإسلامية حيويتها ، ثم تأثرت تأثراً بالغاً بتحول طرق التجارة عن مصر والمشرق العربي - في أعقاب حركة الكشف الجغرافية - إلى المحيطات والدالم الجديد ورأس الرجاء الصالح . وفي النهاية وقعت الكتلة العربية من العالم الإسلامي في أيدي الأتراك العثمانيين الذين آثروا ، لأهباب عسكرية ودينية ، أن يعزلوا ملكهم من العالم الخارجي . وحدث كل ذلك في الوقت الذي عرفت فيه أوروبا النهضة والإصلاح الديني وظهور الملكيات الحديثة التي ضعفت الإقطاع وتحالفت مع الطبقة الوسطى لتدعيم الدولة الحديثة ، مصطنعة أساليب حديثة تقوم على وسائل الكشف والمخترعات .

(١) أحمد عزت عبد الكريم : حوادث دمشق اليومية ،

(٢) انظر محمد مصطفى زيادة : المؤرخون في مصر في

« ثم ذهبت بقايا البقايا في الفن والحروب وأخذ الفرنسيين ما وجدوا إلى بلادهم » - هذا إلى أزورار الخاصة عن كتابة التاريخ : « وعدوه من شغل البطالين وقالوا أساطير الأولين » .

لهذا فإن ظهور مؤرخ كعبد الرحمن الجبرتي يعد ظاهرة متفردة ليس لها تفسير واضح ، وإن يكن هذا متصلاً بالبيئة العلمية التي نشأ فيها وبالظروف المادية التي أحاطت به ، وهي ظروف يسر لم تتح للكثير من الكتاب سواء في عصر الجبرتي أم في غير عصره . هذا إلى وضعه الاجتماعي الذي سهل عليه الإحاطة بأحداث عصره ، وحبه للاستطلاع الذي انتقل به إلى مواطن الأحداث ، وما تميز به من دقة وموضوعية . وأخيراً فإن معاصرته لعصور ثلاثة قد أضفى على تاريخه أهمية خاصة : فقد عاش الجبرتي في أواخر العصر المملوكي - العثماني وشهد الحملة الفرنسية وأوائل حكم محمد علي . وهو أول مفكر في مصر الحديثة نستطيع أن نستخلص من آثاره موقفه من حضارة الغرب ، لا لأنه - كما هو الحال بالنسبة إلى رفاعة رافع الطهطاوي - قد لمس الحضارة الأوروبية في منابعها الأصلية ، بل لأنه عاصر أول عدوان أوروبي على مصر في العصر الحديث ، وسجل انعكاساته لدى المصريين ، وهي انعكاسات يشبهها المؤرخ أرنولد توينبي بموقف بني البشر من أعمال مجموعة من السور من .

عبد الرحمن الجبرتي

ولد عبد الرحمن الجبرتي في عام ١٧٥٤ م ، وكان الوحيد الذي تبقى من الأبناء الذكور الذين أنجبهم الشيخ حسن الجبرتي - وكان من علماء الأزهر . وهو ينتسب إلى أسرة نزح أجدادها من جبرت بالحيشة . وكان الشيخ حسن ذا أوقاف وأملاك تدر عليه موارد غير يسيرة وتضفي عليه مجبوحة من العيش وتمكنه من الإتفاق على كثير من المشايخ الناشئين والمهاجرين الذين

كانوا هم وغيرهم دائبي الرداد على منزله الكائن بجهة الصنادقية بالقاهرة المعزية . وقد لمس الشيخ حسن في ابنه وحيده عبد الرحمن غايل النجابة : فقد حفظ القرآن وهو في سن الحادية عشرة ، وكان يصنف إلى أحاديث والده ويحاول أن يتفهم ويستوعب ما يسمعه . لهذا أخذ الوالد يقص على الابن أحداث العصر وأخبار الولاة والأمراء والمشايخ الذين عرفوه - حتى إذا ما توفي ترك له أموالاً طائلة وصداقات وطيدة أطرافها الأشياخ والمريدون من الطلبة والأصدقاء من الأمراء والكبراء . وما لبث عبد الرحمن أن تخرج في الأزهر بعد أن درس شتى علوم الفقه واللغة . ثم أكب على خزائن والده يستزيد من علوم الفلك والحساب والهندسة وغير ذلك ، وعقد حلقات التدريس وفق ما جرت به عادة المبرزين من مشايخ الأزهر . ولم يكن الجبرتي راضياً عن زملائه في المهنة - وعدم الرضى هذا هو المسئول في كثير من الأحيان عن عادة التفكير الجاد والكتابة ؛ فقد أخذ عليهم أنهم « افتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية . وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء ... واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان وأجروا الحبس والتعزير والضرب بالفلكة والكرايبج . . واستخدموا كتبة الأقباط وقطاع الجرائم والإرساليات للبلاد وقدروا حتى طرفي لأتباعهم ، وصارت لهم استعجالات وتحذيرات وإنذارات عن آخر المطلوب مع عدم سماع شكاوى الفلاحين - ومخاصمتهم القديمة مع بعضهم بموجبات التحاسد والكراهية المحبولة والمركوزة في طباعهم الخبيثة . وانقلب الوضع فيهم بضده ، وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدلبوية والخصص والالزام وحساب المبري والفاظ والمضاف والرماية والمرافعات والمراسلات والتشكي والتناجي مع الأقباط واستدعاء عظماهم في جمعياتهم ولوائجهم والاعتناء بشأنهم والتفاخر بتردادهم والترداد عليهم والمهاداة فيما

بينهم زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة والتفاحم والتكالب على سفاسف الأمور وحظوظ الأنفس على الأشياء الواهية مع ما جبلوا عليه من الشح والشكوى والاستجداء وفراغ الأعين والتطلع للأكل في ولائم الأغنياء والفقراء والمعاتبة عليها إن لم يدعوا إليها ، والتعريض بالطلب وإظهار الاحتياج لكثرة العيال والأنباع واتساع الدائرة وارتكابهم الأمور المخلة بالمروءة المقسطة للعدالة : كالأجتماع في سماع الملاهي والأغاني والقيان والآلات المطربة وإعطاء الجوائز والنقوط بمناداة الخلبوص وقوله وإعلامه في السامر» (١) « وقد زالت هيبتهم ووقارهم من النفوس وانهمكوا في الأمور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية ومشاركة الجهال في المآثم والمسارعة إلى الولائم في الأفراح والمآثم ، يتكالبون على الأسطة كالبهائم - فتراهم في كل دعوة ذاهبين وعلى الحيوانات راكعين وللكباب والمحمرات خاطفين وعلى ما وجب عليهم من النصح تاركين» (٢).

ولا شك أن الجبرتي قد سر حين طلب منه أستاذه محمد مرفضى الزبيدي أن يعاونه فيما بدأ فيه من الترجمة لأعلام المائة سنة المنصرمة : من مصريين وحجازيين ، خاصة وأن عبد الرحمن كان قد نشأ في بيت علم واتصل برجال مصر من أمراء وكبراء ومشايخ وأعيان . وقد أوصاه الزبيدي بالالتفات إلى الأعلام المشهورين و « بالتخير والتحرز » . ووفق الجبرتي بدون الأسماء - وكان من الطبيعي أن يبدأ بالمشايخ ، ومن كان منهم شيخاً للأزهر ، ثم أشياخ الأروقة وأرباب الحلقات ومن كان أبوه يطلق عليهم اسم « الطبقة العليا » ، ثم الطبقة التي تليها من اشتهروا بالعلوم الفقهية والعقلية والنقلية والشعر والأدب والخطابة

(١) ج ٤ ص ٦٨ - ٩ .

(٢) نفس الجزء ص ٢٤٥ .

- وغير ذلك . كما شرع يدون أسماء أمراء الوجاقات والصنائع ومن بلغ منهم مشيخة البلد ومن شاركه في الحكم . وحين اتسع العمل أمامه طلب مساعدة صديقه إسماعيل الخشاب . ولما كان الخشاب من عدول المحكمة ، وبها صكوك وحجج ، فقد طلب منه الجبرتي أن يدون أسماء الناس وأعمارهم - وكان يتردد على الديوان حيث دفتر الكتبة والمباشرين . وقرر الجبرتي الطواف بالقرافات لقراءة المتقوس على القبور ، والاتصال بأقرباء الذين ماتوا للرجوع إلى أوراقهم ، إن كانت لهم أوراق .

وقد تعجل الجبرتي الترجمة لأشهر أعلام المائة المنصرمة ، وبذل جهداً كبيراً في تحرى الأخبار الصادقة والتواريخ الدقيقة وتقصي آثار المترجم لهم لدى أهلهم وأصدقائهم . وجمع هذه التراجم في كرايس عديدة ، كما جمع إلى جانبها كثيراً من الحوادث والوقائع في أوراق متناثرة يسميها طيارات ، تستقل كل منها بحادث معين ينوى تحقيق صحته فيما بعد - وهذه الطيارات لا تكاد تختلف عن « الفيشات » التي يلجأ إليها الكتاب المحدثون .

وتبدو جدية الجبرتي في تحرى الحقيقة التاريخية والدقة الموضوعية من قوله : « وانقضت السنة (١٢٢٥ هـ) بحوادثها التي قصصنا بعضها - إذ لا يمكن استيفائها للتباعد عن مباشرة الأمور وعدم تحققها على الصحة وتحريف النقلة وزيادتهم ونقصهم في الرواية - فلا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار - وغالبها من الأمور الكلية التي لا تقبل الكثير من التحريف . وربما أخرت قيد الحادثة حتى أثبتتها ويحدث غيرها وأنساها ، فأكتبها في طيارة حتى أقيدها في محلها إن شاء الله تعالى عند تهذيب هذه الكتابة - وكل ذلك من تشويش البال وتكدر الحال وهم العيال وكثرة الاشتغال وضعف البدن وضيق العطن (ج ٤ ، ص ١٢٤) .

التركية - وتم ذلك في عام ١٨٠٧ ، بل إن يوسف باشا قد استشف تضلع الجبرتي في علم الفلك فعهد إليه بتحرير التقويم والتوقيت ورتب له مكافأة على قيامه بذلك .

وأغلب الظن أن الجبرتي لم يعتزل الحياة العامة بعد خروج الفرنسيين ، ولم يقتصر نشاطه على العلم والتأليف ؛ بل خاض مع المشايخ فيما خاضوا فيه من الاهتمام بشئون الرعية بقدر ما يسمح له بالالتفات إلى مشاغله الخاصة ، لا سيما وأن الثناء على كتابه «مظهر التقديس» قد قوى عزمه على متابعة مشروعه التاريخي ؛ وفي عام ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) ، وهو العام الذي اشتعلت فيه الثورة في القاهرة ضد فوضى الحكم العثماني وشهد تولية محمد علي ، رأى أن يجمع التاريخ الذي انشغل به خمس عشرة سنة . وقد سهل عليه ما كتبه عن الحملة الفرنسية متابعة مشروعه ، فأخذ يستعين بأوراقه وكراريسه ويكده ذاكرته : فوضع تمهيداً يتحدث فيه عن التاريخ وفائدته ، ثم أتبعه مقدمة ضافية تفلسف فيها في تقسيم طبقات الناس ، ثم بسط النصيحة للحكام بمراعاة العدل وحسن السياسة . ثم ألم إلمامة سريعة بتاريخ مصر حتى الفتح العثماني ، وتدرج منه إلى أواخر المائة الحادية عشرة ، وإن يكن تاريخه يبدأ بالفعل بعام ١١٠٠ هـ (١٦٨٨ - ٩ م) ، بحكم أن نهاية المقدمة ليست بأي حال من الأحوال عرضاً منتظماً للأحداث ، بل إنها لا تحتوى على أية مادة تاريخية إلا في القليل النادر . وبعد المقدمة شرع يتابع السنين واحده فواحدة : يبسط حوادثها ثم يترجم لمن ماتوا فيها . ولما وصل إلى الحملة الفرنسية اكتفى بإثبات كتابه «مظهر التقديس» برمته بعد أن حذف مقدمته وبعض فصوله ، وعاد إلى أمانته التاريخية وقوم بعض الحوادث وصححها . ثم وإلى تنسيق الأحداث على النمط الذي اختطه لنفسه : فقسم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء ، وسار بالجزء الأول حتى آخر عام ١١٨٩ هـ وبالثاني

وحين أنتت إلى مصر الحملة الفرنسية دون كرايسه أعمالها ومنشورات القادة ومراسلاتهم كما وصلت إليه ، خاصة وأنه تردد على بعض منشاتهم وأقام بعض الصلات مع رجال الحملة وأصبح عضواً في الديوان الوطني في عهد الجنرال منو . وحين خرجت الحملة من مصر في عام ١٨٠١ رأى أن يشارك المصريين أفراحهم وأن يحتفى بالعثمانيين الذين عادوا إلى حكم مصر ، فوضع كتاباً سماه «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين»^(١) أهده إلى الوزير العثماني يوسف باشا . ولا يستبعد أن الجبرتي الذي كان قد تعاون مع الفرنسيين قد خشي على نفسه بعد ذهابهم ، خاصة وقد انقلب المصريون على من تعاونوا مع الفرنسيين ، فألف كتاب «مظهر التقديس» ليرى نفسه ويعان ولأهه للدولة العثمانية . وقد أفاض في هذا الكتاب في سرد أحداث الحملة الفرنسية ، ولم يذكر فيه شيئاً عن اتصاله بالفرنسيين وحضور حفلاتهم ومشاهدة تجاربهم العلمية ومفاوضة علمائهم ، وأغفل وثائق محاكمة سليمان الحلبي ، ولم يذكر عن نفسه أنه كان عضواً بالديوان الذي أنشأه منو . وآثر الجبرتي في كتابه أن يكون أسلوبه مراسلاً حين يسرد الأحداث اليومية ، ومسجوعاً حين يصف المعارك والفتن - وهو نفس الأسلوب الذي اتبعه فيما بعد حين وضع كتابه «عجائب الآثار» . وحين عاد الوزير العثماني إلى الآستانة عرض الكتاب على السلطان سليم الثالث الذي أمر كبير أطبائه مصطفى بهجت بنقله إلى

(١) يقال إن المؤرخ الراحل محمد شفيق غربال قد حقق «مظهر التقديس» تحقيقاً علمياً قبل وفاته . وقد نشرت وزارة التربية والتعليم المصرية تحقيقاً للكتاب قام عليه أحمد زكي عطية وعبد المنعم عامر وعبد فهمي عبد اللطيف وحنفي عامر (١٩٦١) . كما قام محمد عطا بنشر مظهر التقديس في جزأين في سلسلة اخترناك (٥٩ - ٦٩ سنة ١٩٥٨) .

وللجبرتي مخطوطة تحت عنوان «تاريخ مدة الفرنسيين بمصر» هي جزء من كتاب مظهر التقديس : يحتمل أنه وضعها في عام ١٧٩٨ بسبب انقماله بمجادة احتلال الفرنسيين لمصر .

حتى آخر عام ١٢١٢ هـ وبالثالث حتى آخر عام ١٢٢٠ هـ - وأسماه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار». وقد انتهى الجبرتي من تدوين هذه الأجزاء الثلاثة في عام ١٢٢١ هـ (١٨٠٦ م) (١).

وقد وقف الجبرتي من محمد على موقف المعارضة العنيفة منذ أوائل حكمه ، وظل حتى عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ - ٦ م) - وهو عام وفاته - يدون الحوادث على الطريقة التي شرحناها ، ويسندها إلى مصدر ثقة أو شاهد عيان أو شاهد سماع . وفيما يتعلق بالأحداث العامة كان يتوجه بنفسه لمعاينتها ، وكان يتصل بمن يأنس فيهم الاتصال بالأحداث . لهذا فإن الجزء الرابع أقرب إلى مذكرات كان يعنى النفس بتهديبها وتنسيقها ، وفصوله مسبهة وسياقه منتظم ، وإن بدت بعض الفصول ممعة في القصر .

وفي عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢ م) قتل ابنه خليل . وقد كثرت الإشاعات والأقاويل بهذا الصدد ، وقيل إن الحادثة متصلة بنقده لحكم محمد علي . وأياً كان الأمر ، فقد تأثر الجبرتي تأثراً عميقاً بهذه الفاجعة ، فلم يقو على استكمال تاريخه - وكان قد وصل فيه إلى أحداث الثورة اليونانية . وظل يندب ابنه حتى ذهب بصره ، وقبع في داره أعمى لا يقرأ ولا يكتب إلى أن أدركته الوفاة - وهذا مما يفسر أن نهاية الجزء الرابع من تاريخه تبدو مبتورة (٢).

وقد بقي تاريخ الجبرتي محظوراً طبعه وتداوله إلى أن رفع الحظر في عهد الخديو توفيق - فطبع الجزءان الثالث والرابع ، ثم طبع الجزءان الأول والثاني في عهد الخديو عباس الثاني . وفيما بين عامي ١٨٨٨ و ١٨٩٦ ظهرت له ترجمة فرنسية كاماة في تسعة أجزاء قام بها شفيق منصور (يكنى) وعبد العزيز خليل وجبرائيل نقولا كحيل وإسكندر عمون تحت عنوان :

Merveilles biographiques et historiques, ou chroniques du Cheikh Abd el-Rahman el-Djabarti.

وترجم بعض الجزئين الثالث والرابع إلى اللغة الروسية ، مع مقدمة وبعض الملاحظات تحت عنوان :

I.M. Fil'shtinsky, Egipet v period ekspektitsii Bonaparta, 1798-1801 ; Kh. I. Kil'berg, Egipet pod vlast'yn Mukhammada Ali, 1806-1821 ; (Moscow, 1962-63).

وصدر لتاريخ الجبرتي فهرس تاريخي وضعه جاستون فييت وعبد الرحمن زكي تحت عنوان «فهرس عجائب الآثار في التراجم والأخبار» (٣). هذا إلى المختصرات التي توخت تبسيط هذا التاريخ وتقديمه إلى القارئ العادي - ومن ذلك «المختار من تاريخ الجبرتي» الذي قام عليه محمد قنديل البقل ونشرته مطابع الشعب في عام ١٩٥٨ في عدة أجزاء .

أهمية تاريخ الجبرتي

لم يقتصر الاهتمام بتاريخ الجبرتي علينا نحن العرب بل إنه أثار الاهتمام في العالم الخارجي حيث أهتم به الباحثان والمستشرقون واعتبروه مصدراً رئيسياً لا غنى عنه بالنسبة إلى تاريخ مصر في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . ومن ذلك أن ماكدونالد - في دائرة المعارف الإسلامية - يقول عن تاريخ الجبرتي إنه «باعتباره صورة تفصيلية للحياة الشرقية له

(١) أنشأ انتشار هذه الأجزاء الثلاثة في حياته إلى عدا بعض المشايخ له بوجه خاص ، وذلك لما احتوى عليه تاريخه من نقد مرير لبعض الناس .

(٢) يذكر موريه في بحثه : Reputed Autographs of Abd al-Rahman al-Jabarti and Related Problem.

أن الجبرتي ظل حتى نهاية حياته يبيع وينسخ الكتب في القاهرة ، وأنه لهذا غط أكثر من نسخة من كتبه التاريخية . قارن هذا بخليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتي .

قيمة اجتماعية عظيمة - وقد أفاد منه لين لهذا الغرض في التعليقات التي وضعها لكتاب ألف ليلة وليلة . وما يجعل كتاب « عجائب الآثار » مصدراً من الدرجة الأولى ما تميز به مؤلفه من دقة واستقصاء للأحداث والتحفظ في ذكرها . كما أنه يتميز بالموضوعية التي نستشفها من تأكيده . أنه يكتب للحقيقة والتاريخ : « ولم أقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير . ولم أداهن فيه دولة بتفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق . . . لميل نفساني أو غرض جسائي » . وهذه الموضوعية لا تجعل من تاريخ الجبرتي عرضاً بارداً للأحداث ، بل إن كتاباته تفيض بالحرارة التي من ورائها عمق انفعاله بالأحداث . ثم إن الجبرتي محب لبلده ، يشاركه أفراحه وأتراحه - فهو لا يقتصر على تسجيل الأحداث والنظر إليها من بعيد بحجة التجرد والموضوعية المطلقة التي هي خرافة في مجال العلوم الإنسانية ، طالما أن من يكتب كائن حي لا بد له ميوله واتجاهاته وانفعالاته . وما يجعل تاريخ الجبرتي صورة نابضة بالحياة أن تاريخ مصر العثمانية أغنى بكثير من تاريخ سوريا أو العراق في نفس هذه الفترة ، وإن يكن هذا لا يقلل من تمكنه كمؤرخ : فقارئ الجبرتي يحس دائماً بالحياة الجياشة التي بصورها وأنه يعيش في أجواء الحقيقى لمصر وللصحرى ، خاصة وأنه تميز بالدخول مباشرة إلى لب الموضوع الذى يدونه ومن رسم صورة كاملة نابضة بالحياة .

وقد امتاز الجبرتي عن تقدمه من مؤرخى مصر بأنه لم يقصر اهتمامه على عالية القوم والأحداث الهامة : فقد عنى بالأمور الجليلية والحقيرة والرفيعة والوضيعة ، ولم يدع شيئاً نغى إلى علمه ، مهما عظم أو صغر ، إلا ودونه في دقة مدهشة . وهو محب للإتقان حيناً ، عجول برم أحياناً . لذلك نراه دقيق التحرى أميناً في النقل نزهاً في الرواية ، يكشف عن آرائه فيما يعرض له : فينبسط وينقبض ويسخر ويتهمك ويشنت ويغضب .

وهو دقيق الملاحظة ألمعى الذكاء نفاذ البصيرة . إلا أنه مهما حاول السمو عن مستوى عصره ، فقد بقى مشدوداً إليه لا يسمو إلى النظرة الشاملة . وهو ضيق الأفق بحكم بيئته ، لا يعرف شيئاً عما نسميه بالسياسة العليا ، ولا يقننه إلى كبار الأوروبيين الذين زاروا مصر في حياته . وقد أولع بالتغنى بالعدل والتشجيع على ظلم الحكام - وهو يفهم أن العدل إنما هو إقامة الشريعة والرفق بالرعية ، مما جعله يقف موقف النقد والتحدى من مستحذات الأمور ، وخاصة ما جاءت به الحملة الفرنسية . فهو من رجال الدين بحكم بيئته ووضعه الاجتماعى ووظيفته ، لا يسمو إلى مستوى فحول الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ممن وصلت بهم حضارتهم إلى درجة من الثقة بالنفس لا تستنكف الأخذ والعطاء ، بل تعده مصدراً من مصادر تجديد الحوافز وشحن المزاج .

وقد تأثر الجبرتي كثيراً بالصدقة والصحة : فهو يعلن ميوله الشخصية وإثاره هذا على ذلك . ولهذا كان لوالده وأصدقاء والده وأشياخه نصيب وافر من تاريخه ، مع محاولة الإنصاف وإجهاد النفس على تحرى الحق أو ما يراه حقاً . وقد أتقن فن الترجمة بقدر ما أتبح له ، وبرع في تصوير الشخصية وإبراز خلق المترجم لهم براعة فائقة . على أن ولعه بالتراجم جعله يترجم لكل من عرفهم ومن لم يعرفهم من كبراء وأمراء ، ومن كل رفيع ووضيع ، حتى إنه ترجم للخدمة النعال في المساجد والوقادين والمجنوبين ، بل لمن لا يعرف لم ترجمه . ولعله انفرد بين المؤرخين بالتوسع في وصف القاهرة ومساجدها وشوارعها وعطفاها وتاريخ ما فيها من قصور وقلاع ومنازه . ولقد أسهب في ذكر الشعراء ، يستشها بالكثير من شعرهم ، وقد يستشهد بشعر بعض المتقدمين ، ولكنه لا يشعر بتضلعه في الأدب والشعر . ثم إنه فقيه صوفى لا بد أن يولى همه مشايخ الصوفية ويشرح معيبتهم وأغلازم . وهو أيضاً

تأخرهم بتفوق حكامهم الجدد - ونلاحظ ذلك كله في الجبرق ذاته ، فإنه يمثل أفكار عصره . ومما يدل على الأثر الجديد الذى امتد إليه أنه بات بعد وفود الفرنسيين إلى مصر أكثر نقداً وجرياً وراء الأسباب والنتائج ، وقد قل تعصبه الدينى للدرجة التى أدت به إلى تمى زوال العثمانيين . كما قل أثر غيبية التضكير في تفسيره للأحداث ، وإن ظل حتى نهاية حياته محدود الأفق : إذ لم يستطع التخلص من إسار الإطار العام الذى شكل تفكيره وبُنيت عليه شخصيته .

وهو يبدأ الجزء الثالث بالكلام عن سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) - عام نزول الفرنسيين أرض مصر ، وبعد هذه السنة «أولى سنى الملاحم العظيمة والأحداث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وقضايف الشرور وتراذف الأمور وتوالى المحن واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع ونتائج الأحوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدبير وعموم الخراب وتواتر الأسباب - وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » . وهذا يلمح الجبرق إلى استحقاق أهل مصر لما نزل بهم من كارثة الغزو الأجنبي . والصفحات القائمة التى خصصها لحكم إبراهيم ومراد في الجزء الثانى من تاريخه لا تترك مجالاً للشك في أنه كان يكن لهذا العهد مقتناً شديداً مرده ألوان المظالم التى أنزلها الحكام بالمحكومين وفساد طوية الرعية . فالأجناد « متنافرة قلوبهم منحلّة عزائمهم مختلفة آراؤهم حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون في ريشهم مغترون بجمعهم محتقرون شأن عدوهم مرتبكون في روبيهم مغمورون في غفلتهم - وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم » . أما الفلاحون فقد سلط الله عليهم « بسوء أفعالهم وعدم ديانتهم وإضرارهم لبعضهم البعض من لا يرحمهم ولا يعفو عنهم . . . وإذا ألزم بهم ذو رحمة ازدروهم في أعينهم واستهانوا به وبخدمه ومطلوه في الخراج وسموه بأسماء

عالم فلكي يجب أن يذكر الأحداث الفلكية ويحاول تفسير الحوادث على ضوءها في بعض الأحيان - ولعل تضلعه في العلوم الحسابية جعله يطيل الجدل في النقود وسكها وما فيها من ذهب وفضة . ولقد عنى عناية خاصة بالسلع وأثمانها وتوفرها ونقصها ، وأصبح يستعيد الذكريات القديمة حتى يصلها بما سبق له تدوينه أيام اشتغاله بالتراجم لشيخه مرتضى الزبيدى : فيسرد حوادث السنة متابعاً ترتيب الشهور ، ثم يختتمها بتلخيص الحالة العامة وتراجم الذين ماتوا .

والجبرق في الجزئين الأول والثانى من « عجائب الآثار » ينقل عن غيره من المؤرخين : كالإسحاق والدمرداشنى وأحمد شلبى عبد الغنى . ولهذا فإن قيمة مؤلفه في هذين الجزئين - باستثناء ما عاصره ودونه في النصف الثانى من الجزء الثانى - لا يعتد بها كثيراً من الناحية العلمية بسبب نقله من عدة مصادر دون تمحيص . وفي بداية الجزء الأول نجدّه متحفظاً إلى أقصى حد فيما يتعلق بمصادر أوائل الحكم العثمانى لمصر - ومن ثم فليس ثمة دليل على إشارته إلى ابن إياس والقرمانى وابن زنبيل باعتبارهم ثقات عن الفتح العثمانى - إذ أن وصفه لهذه الحادثة من القصر بحيث لا يمكننا التحقق من مصادره . ومع ذلك فإنه أسهب في وصف تعادى الفرق العثمانية وتنافس أمراء المالك على الحكم ووسائلهم ومصارعهم . والحملة الفرنسية التى يبدأ بها الجزء الثالث تعتبر حداً فاصلاً في تاريخ الجبرق . فقد كانت مصر حتى الحملة لا تزال غارقة في سبات العصور الوسطى ، إلى أن آذنت الحملة برجعها إلى المشاركة في الفكر العالمى . والفارق كبير بين العقلية الأوروبية التى مثلتها الحملة وبين العقلية الشرقية التى كانت تتمثل في مصر المملوكية - العثمانية بمقدار الفارق الزمنى الطويل الذى قطعناه في تأخر وقطعته أوروبا في تقدم . ولقد حدث الأثر الجديد في مصر في عهد الحملة الفرنسية ذاتها وإن كان قد بدأ ضعيفاً . فالمصريون قد ذهلوا لمقارنة

النساء وتمنوا زوال التزامه بهم وولاية غيره من الجبارين الذين لا يخافون ربهم ولا يرحمهم لينالوا بذلك أغراضهم بوصول الأذى لبعضهم . وكذلك أشياخهم إذا لم يكن الملزم ظالماً يتمكنون هم أيضاً من ظلم فلاحهم لأنهم لم يحصل لهم رواجع إلا بطلب الملزم » . أما العلماء فقد سبق أن أشرنا إلى رأى الجبرتي فيهم ، وهو رأى يدل على انحدار مستواهم وعدم ارتفاعهم إلى مستوى الوضع الذى خلعه على أنفسهم ، أو خلعته عليهم القيم الإسلامية كما كانت عليه في العصور الوسطى .

ويرتبط أثر الحملة الفرنسية في تفكير الجبرتي بما أثارته في آفاق المصريين بوجه عام : فقد كانت بالنسبة إلى المصريين بمثابة تحد ضخم لهم ولقوماتهم . حقيقة إنها فشلت في خلق نظام سياسى - اجتماعى على أنقاض فوضى الممالك ، كما فشلت في تطوير نوع من الحكم الذاتى لم يكن مقصوداً لذاته على أى حال ، بل كان مجرد وسيلة للربط بين الحاكم والمحكوم ، وفي محاولة إرساء دعائم إدارة مدنية حديثة تحت السيطرة الفرنسية . وحقيقة أيضاً إن قصر مدة الاحتلال الفرنسى وعداء السكان للفرنسيين قد عرقل انتشار أية مثرات أوروبية في المجالين الاجتماعى والثقافى . إلا أنها - من ناحية أخرى - هدت قوى الممالك المادية والمعنوية ، ومهدت للقضاء النهائى عليهم وبالتالي أفسحت المجال لإدخال النظم الحديثة . وأهم من هذا أنها أوجدت أمام المصريين نمطاً حضارياً متفوقاً نظروا إليه بعين الشك لخالفته لما ألوفهم ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعوا مدافعة أثره في بعضهم : كالشيخ حسن العطار ويعقوب حنا وغيرهما .

ويستفح الجبرتي ما شاءت له ميوله وتقاليده مستحذات الفرنسيين : كانفلات بعض الرجال والنساء وتحللهم من ائبل الأخلاقية التى انطبع بها المجتمع المصرى خاصة وقد أبيض البغاء العلمى ، وسفرت بعض النساء ولبسن الملابس الملونة واختلطن بالرجال .

وتمردت بعض الفئات الاجتماعية على الأوضاع الموروثة وارتدت ما كان محرماً عليها من ملابس وامتنعت الخيول وتحدثت العرف الإسلامى بالأكل والشرب علناً في رمضان وبتعاطى المسكرات . وتداخل الفرنسيون في صميم حياة الناس فنبهوا عليهم بالامتناع عن دفن الموتى بالقرب القريية من المساكن ، وبشر الثياب والأمتعة والفرش بالأسطحة عدة أيام وبخبير البيوت خوفاً من الطاعون . وهدموا المساطب والبوابات جرياً وراء تحصين القاهرة واشتدوا في الإرهاب والتكيد خاصة كلما نشبت ثورة أو اضطراب . ومع ذلك فهو يندد بالهياج الشعبى وما اتصف به من إسراف - فهو يقول في وصف ثورة القاهرة الأولى : « وخرجت العامة عن الحد وبالقوا في القضية بالعكس والطرء ، وامتدت أيديهم إلى النهب والخطف والسلب ، فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى الشوام والأروام ، وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام ، وأخذوا الودائع والأمانات وسبوا النساء والبنات » .

وتبدو موضوعية الجبرتي من إشاداته بحب الفرنسيين للعلم - فهو يسجل أنهم أفردوا للمدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين حارة الناصرية وأنهم جعلوا بيت حسن كاشف جركسن مكتبة رحبوا بزوارها : « حتى أسافلهم من العساكر إذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعون الدخول إلى أعز أماكنهم ويتلقونه بالباشاة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا لتتفر في المعارف بذلوا له بكل مودتهم ومحبتهم - ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء » وأشاد بأنهم « كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجرهم المعتاد ويصرفونهم بعد الظهر ويستعينون في الأشغال

عمل الشيطان - ويصف هذه الحادثة بقوله : « طلب صارى عسكر بونايرته المشايخ ، فلما استقروا عنده نهض بونايرته من المجلس ورجع ويده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض وأحمر وكحل - فوضع منها واحداً على كتف الشيخ الشرفاوى فرمى به إلى الأرض واستغفى وتغير مزاجه وامتنع لونه واحتد طبعه . فقال الترجمان : يا مشايخ أنتم صرتم أحباب الصارى عسكر وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته ، فإن تمزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة في قلوبهم - فقالوا له : لكن قدرنا بضيع عند الله وعند إخواننا المسلمين . » ورفض العلماء أن يعينوا قاضياً من بينهم بدل القاضى التركى قائلين إن تعيينه من حق السلطان ، وأنكروا عرض بونايرت الوظائف عليهم وقالوا له إن العامة لا يخشون سوى الأتراك . واشتد المصريون في قتال الفرنسيين حين اصطدم تصورهم للحكم ووظيفته ومداه بتصورهم - فقد كانوا لا يكادون يعرفون لهم حكومة حقيقية تحكمهم وكان تدخل الإدارة العثمانية في شئونهم ضيقاً متقطعاً - هذا بينما الفرنسيون قد جاءوا من عالم تطور فيه الحكم إلى حلقة متتابعة من الأنظمة الدقيقة المتصلة بنشاط الأفراد جميعاً . وكان هذا التطور هو الذى وجههم إلى تنظيم الملكية وترتيب الأحوال الشخصية وإعادة ربط الضرائب . وكان هذا كله ، بالإضافة إلى الشعور الدينى ، من وراء ثورة القاهريين مرتين على الحكم الفرنسى واستمرار أعمال التمرد في الأقاليم .

• • •

وجلا الفرنسيون عن مصر في عام ١٨٠١ ، وتعرضت البلاد للقلق العام المترتب على النزاع على السلطة وسوء سلوك الجند العثمانيين الذين اعتبروا مصر بلداً مفتوحاً يسوغ لهم أن يطلقوا فيه العنان لغرائزهم ولصوصيتهم . وخرج الشعب يدافع عن وجوده وكرامته ، فهيات مصر لحركة شعبية إيجابية وصلت

ومرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول المساعدة في العمل وقلة الكلفة » : كاستعمال العربات ذات العجل لنقل التراب بدلا من النقل اليدوى البحث في الغلقان والقصاع وغير ذلك . ومن الأمثلة التى يسوقها الجبرقى لتزخى الفرنسيين احترام القانون ما ذكره من إعدام بعض جنودهم الذين قاموا بأعمال السطو - فقد « قتلوا ثلاثة أنفار من الفرنسيين وبنّدقوا عليهم بالرصاص بالميدان تحت القلعة قيل إنهم من المتسلقين على الدور » . ومنها أيضاً ما ذكره وهو نص بيان الديوان الذى أشار إلى عقاب بونايرت للخارجين على القانون ولو كانوا من جنسه أو ملته : « وقد اقتص من عسكره الذين أساءوا بمنزل الشيخ محمد الجوهري وقتل منهم اثنين بقراميدان وأنزل طائفة منهم من مقامهم العالى إلى أدنى مقام ، لأن الخيانة ليست من عادة الفرنسيين خصوصاً مع النساء والأرامل ، فإن ذلك قبيح عندهم لا يفعله إلا كل خسيس » . وقد استفاض في وصف محاكمة سليمان الحلبي قاتل كليبر وأعجب بطريقة الفرنسيين في المحاكمة التى أحيطت بكافة ضمانات العدالة ، واكتشف أن الإجراءات الجنائية لها قوانين تنظمها ، كما أورد تقرير الطبيب الشرعى والجراح عن إصابات كليبر وسبب وفاته وشهادة الشهود وكل ما ورد بملف القضية من استجوابات في محضر التحقيق وأشاد بعناية المحاكمة .

وهكذا كان الجبرقى من القليلين الذين أعجبوا بما يستحق الإعجاب من أعمال الفرنسيين . فلقد حاول بونايرت أن يترضى المصريين بشئ الوسائل : فهو يفهمهم أنه أتى إلى مصر يرضى السلطان العثمانى ، ويلوح لهم بالحكم الذاتى ، ويستثير فيهم مصر الفرعونية التى تقطعت بها الأسباب ، ويخاطبهم بلغة الثورة الفرنسية الداعية إلى الحرية والمساواة . ولكن العلماء أبوا تزيين صدورهم بالطيلسان المثلث الألوان رمز الثورة الفرنسية الذى كان يتلقفه الأحرار في أوروبا - بل رأوا فيه رجساً من

إلى حد الثورة ، وحاصرت الطوائف الشعبية القلعة وأعلنت خلع الوالى الثماني خورشيد باشا الذى اعترض على ما حدث وعده اعتداء على حقوق السلطان وقال إن الفلاحين لا يملكون حق خلعهم . وركب الجميع إلى بيت محمد على وقالوا له : « إننا لا نريد هذا الباشا حاكماً علينا ولا بد من عزله من الولاية » - فقال : « ومن تريدونه يكون والياً ؟ » قالوا له : « لا نرضى إلا بك وتكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير » . وترجم هذه الحركة قادة المصريين من المشايخ - وعلى رأسهم نقيب الأشراف عمر مكرم - الذين اعتبروا أنفسهم أولى الأمر لأنهم حملة الشريعة المتصدون لرفع الظلم .

وناصب الجبرتي محمد على العداء « لأن في طبعه داء الحسد والشره والطمع والتطلع لما في أيدي الناس وأرزاقهم » ، ولأنه « فتح بابه لنصارى الأروام والأرمن فترأسوا بذلك وعلت أسافلهم ولبسوا الملابس الفاخرة وركبوا البغال والرهوانات وأخذوا بيوت الأعيان التي يحصر القديمة وعمروها وزخرفوها وعملوا فيها بساتين وجنائن وذلك خلاف البيوت التي لهم بداخل المدينة - ويركب الكلب منهم وحوله وأمامه عدة من الخدم والقواسم » - ولأنه « يحب الشوكة ونفوذ أوامره في كل مرام ولا يصطفى ويحب إلا من لا يعارضه ولو في جزئية أو يفتح له باباً يهب منه ربح الدراهم والدنانير أو يبدله على ما فيه كسب أو ربح من أى طريق أو سبب من أى ملة كان » - ولأنه « لم يكن له من الشغل إلا صرف همته وعقله وفكرته في تحصيل المال والمكاسب وقطع أرزاق المسترزقين والحجر والاحتكار لجميع الأسباب ، ولا يتقرب إليه من يريد قربه إلا بمساعدته على مراداته ومقاصده ومن كان بخلاف ذلك فلا حظ له منه مطلقاً ، ومن تجاسر عليه من الوجهاء بنصح أو فعل مناسب ، ولو على سبيل التشفع ، فقد عليه وأبعده وعاداه معاداة من لا يصفو أبداً » :

وضاق الجبرتي بإجراءات الاحتكار التي طبقها محمد على وما كان من « استمرار المبتدعات والمكوس والتحكير وإهمال السوق والمتسبين حتى عم غلو الأسعار في كل شيء » . وبحكم وضعه الطبقي والاجتماعي أخذ يندد بتضييق الوالى الجديد على الطبقات الغنية القديمة : من ملزمين وأعيان ونظار أوقاف وكبار تجار - وغير ذلك . بل إن إبراهيم باشا ، ابن الوالى وحاكم الصعيد ، اشتد على أصحاب الحقوق المكتسبة : « وإذا قال المتشفع والمترجى للمتآمر ينبغي مراعاة مثل هذا ومساعدته لأنه يطعم الطعام وتنزل بداره الضيفان فيقول له : ومن كلفه بذلك ؟ فيقال له : وكيف يفعل إذا نزلت به الضيوف على حسب ما اعتادوه ؟ فيقول : يشترى ما يأكلون بدراهمهم من أكياسهم ويفلقون أبوابهم ويشغلون بأنفسهم وعيالهم ويقتصدون في معاشهم فيعتادون ذلك ، وهذا الذى يفعلونه بتبذير وإسراف ونحو ذلك على حسب حالهم وشأنهم في بلادهم ، ويقول الديوان أحق بهذا ، فإن عليه مصاريف ونفقات ومهمات ومحاربات الأعداء » .

ولكن الجبرتي لا يتخلى عن موضوعيته ، فيشيد ببعض ما قام به محمد على من أعمال كإعادته لاسد الموصل إلى الإسكندرية ، وكان قد تخرّب وزحف منه ماء البحر المالح وأتلف أراضى كثيرة وخربت منه قرى ومزارع . ووصف محمد على بأنه له « ندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذا الزمان » ، وإن يكن قد تحفظ بقوله : « فلو وفقه الله لشيء من العدالة ، على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتبذير والمطاوله لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » . وحين بنى محمد على حائطين في رشيد على عيين البوغاز وشماله ينحصر بينهما الماء فلا تطفئ الرمال وقت ضعف النيل ، أكبره الجبرتي ووصف ما قام به بأنه « من أعظم الحمم الملكية التي لم يسبق لمثلها » . وحدث أن مصرياً - اسمه حسين جلبي عجوه - ابتكر جهازاً يوفر نصف الطاقة الحيوانية

مصادر البحث

أ - العربية

- أحمد عزت عبدالكريم : حوادث دمشق اليومية (١١٥٤ - ١١٧٠ هـ = ١٧٤١ - ١٧٦٢ م) -
 جميعها الشيخ أحمد البديري الحلاق ونقحها
 الشيخ محمد سيد القاسي (القاهرة ١٩٥٩).
 جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن
 التاسع عشر . (القاهرة ١٩٥٨) .
 خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتي - سلطة اقرا :
 رقم ٧٠ (القاهرة ١٩٤٩) .
 صبحي وحيد : في أصول المسألة المصرية (القاهرة ١٩٥٠).
 عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار -
 طبعة بولاق .
 : مظهر التدريس بزوال دولة الفرنسيين -
 نشر وزارة التربية والتعليم المصرية
 (١٩٦١) .
 لويس عوض : المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث
 - المبحث الثاني : الفكر السياسي والاجتماعي
 - القسم الأول : من الحملة الفرنسية إلى
 عهد إسماعيل . (القاهرة ١٩٦٣) .
 محمد أحمد أنيس : مدونة التاريخ المصري في العصر العثماني .
 (القاهرة ١٩٦٢) .
 : حقائق عن عبد الرحمن الجبرتي مستمدة من
 وثائق المحكمة الشرعية - المجلدان التاسع
 والعاشر من مجلة التاريخية المصرية
 (١٩٦٠ - ١٩٦٢) .
 محمد مصطفى زيادة : المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر
 (القاهرة ١٩٤٩) .

ب - الافرنجية

- Ayalon, David, The Historian al-Jabarti,
 in : Historians of the Middle East, edited
 by Bernard Lewis and P.M. Holt. (London,
 1962).
 — Holt, P.M., Al-Jabarti's Introduction to the
 History of Ottoman Egypt (B.S.O.A.S.,
 XXV, part 1, London, 1962, pp. 38-51).
 — Moreh, S., Reputed Autographs of Abd al-
 Rahman al-Jabarti and Related Problems.
 (B.S.O.A.S., XXVIII, part 3, London, 1965,
 pp. 524-540).

اللازمة لدق الأرز ، فشجعه محمد علي واقتنع بأن في
 أولاد مصر نجابة وقابلة للمعارف - فعمل على تعليم
 بعضهم .

وهكذا يقف الجبرتي شامخاً باعتباره المؤرخ المصري
 الذي توخى الحقيقة التاريخية ، ولم يقف من الأحداث
 موقفاً سلبياً ، بل انغمس فيها وعمل على تسجيلها . وهو
 من آخر من كتبوا الحوليات في مصر : إذ ما لبثت أن
 انصبت على البلاد الموجة الغربية التي جرفت الكثير من
 الأساليب والعادات القديمة . وفي مجال التاريخ أخذت
 تظهر المؤلفات التي تتوخى الاهتمام بالأسباب والنتائج ،
 وتنحو منحى الوحدة الموضوعية وربط أطراف
 الموضوعات التاريخية بعضها ببعض . كما ظهرت
 الكتابات التاريخية المتخصصة ، وتطورت كتابة
 التراجم ، وظهرت فيها اتجاهات تنزع إلى التحليل
 النفسي وتبرز أثر البيئة المادية والمعنوية . على أن كل
 ذلك يتصل بتاريخ النهضة الفكرية في مصر الحديثة .

مؤلفات الجبرتي

- ١ - عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٤ أجزاء) .
- ٢ - مظهر التدريس بزوال دولة الفرنسيين .
- ٣ - تاريخ مدة الفرنسيين بمصر .
- ٤ - مختصر تذكرة الشيخ داوود الأنطاكي .
- ٥ - نقد لكتاب ألف ليلة وليلة :

تريستان وايزولد بجوتفريد فون شتراسبورج

بمقام
الدكتور مصطفى ماهر

تمهيد

تريستان وايزولد «Tristan und Isold» ، قصة شعرية أنشأها الشاعر الألماني الفذ جوتفريد فون شتراسبورج Gottfried Von Strassburg حول عام ١٢١٠ ، ولم ينشئ غيرها على قدر ما نعرف ، لا من النثر ولا من الشعر ، بل إنه ترك درته هذه ناقصة ، لم يتمها ، ولا بد أن يد المنون اختطفته ، بعد أن سطرت يده هو البيت رقم ١٩٥٤٨ بقليل . ولكنه صنع للإنسانية تحفة من أعظم تحفها ، لا تقتصر عظمتها على إفادة القارئ المتأمل وامتناعه ، بل تتجاوز ذلك إلى إلهام الأديب الخلاق والشاعر المبدع في كل زمان ومكان . وهي تحفة إنسانية بكل ما في هذه الكلمة اللسمة من معان ، فلم تكن مادة «تريستان وايزولد» ملكاً لجوتفريد ، ولا ملكاً لمن سبقه إلى معالجتها ، ولن تكون ملكاً لمن تبعه ويتبعه إلى معالجتها . إنها ملك الإنسان .

عصر جوتفريد

وينبغي علينا في محاولتنا فهم جوتفريد فون شتراسبورج وعمله أن نضع أنفسنا في زمانه ومكانه حتى لا نعامل الأحياء معاملة الموتى أو الجوامد . جوتفريد

فون شتراسبورج واحد من عمالقة قلائل حملوا عصرهم يعرف في الأدب الألماني بعصر الازدهار الأول أو بعصر الكلاسيكية الأولى أو بعصر القروسية أو بالعصر البلاطي أو بعصر الملوك الاشتوفيين . وهذه الأسماء كلها صحيحة ، وقد تعددت لأنها تذهب في تحديد هذا العصر أكثر من مذهب ، وتبصر به في أكثر من ناحية . تمتد هذا العصر من الربع الأخير للقرن الثاني عشر إلى مشارف القرن الرابع عشر ، أى أنه يعد نحو ثلاثة عشر عقداً أو نحو قرن وربع قرن من الزمان . أما العمالقة الآخرون الذين نهضوا بأدب هذا العصر مع جوتفريد فون شتراسبورج فهم :

- هرتمن فون أوى (بين عام ١١٦٨ و ١٢١٥ على وجه الاحتمال) صاحب القصص الشعرية الجميلة : ايريك - جريجوريوس - هاينريش المسكين - ايفانين .

- فولفرم فون اشينباخ (بين عام ١١٧٠ وعام ١٢٢٠ تقريباً) صاحب القصص الشعرية الفريدة : بارتسيفال - فيلالاهم - تينوريل .

- هاينريش فون فيلديكه (بين منتصف القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر) صاحب الانباده

— قالتر فون در فوجلهايد (بين عام ١١٦٨ وعام ١٢٢٨) صاحب الأغاني والقصائد التي لم يطاؤها من بعده أحد حتى جاء جوتيه .

هؤلاء الأدباء كانوا من غير رجال الدين . فاعظم التغير ! من قبل كان الأدب حرفة رجال الدين يكلفون به ويحتكرونه احتكاراً ويشكلونه بقولهم (اذكر جامع الأناجيل لتاسيان و هلياند أو حياة المسيح المخلص وكتاب الأناجيل وغير ذلك كثير) لأنهم هم الذين أخذوا بنصيب من العلم . أما الآن فحملة الأدب « دنيويون » منخرطون في سلك الفروسية أو مؤمنون بثقافة الفروسية ، مقيمون في بلاط الأمراء أو متصلون بهم ومتخذون أمزجتهم وميولهم . كان أهل أوروبا في القرون القليلة الماضية قد امتصوا مجموعة من الحضارات أنهم على الأغلب عنوة ، امتصوا الفكر المسيحي وما أتى معه من طرف من ثقافة الإغريق والرومان ، وامتصوا الكثير من الثقافة العربية من أسبانيا تارة ، ومن جنوب فرنسا (البروفانس) المتأثرة بحضارة الأندلس تارة أخرى ، وأخذوا عن العرب والمسلمين الكثير عبر إيطاليا وأثناء التحامات الحروب الصليبية . كانت الحياة في ألمانيا من قبل التأثير العربي الإسلامي — سواء من المشرق العربي أو من المغرب العربي — تعرف بلاط الأمير وتعرف طبقة الفرسان ، ولكن الصورة التي تشكل بها بلاط الأمير والقالب الذي ظهر فيه الفارس في ذلك العصر المزدهر ، يحملان على الجزم بتأثير أنماط الحصار العربية . وقد حدثت تطورات سياسية مختلفة في الديار الألمانية شجعت على هذا التحول الذي شهدته المجتمع والذي تهيأ منه ناحية حلول « الدنويين » أو أهل الدنيا محل أهل الدين أو رجال الدين في حمل رسالة الأدب ، وناحية ازدياد قرة ورفاهية الأمراء واهتمامهم بالأدب . ويمكننا أن نلخص هذه التطورات السياسية أو الأحداث السياسية هنا ونستعين بملخصها على التعمق نوعاً ما في فهم

أصول هذه التطورات وعلى تصور المكان الذي اتصلت فيه .

كانت حقبة الملوك الزالين قد انتهت بظهور صراع شديد بين القيصر الألماني الذي كان يعد سلطانه إلى شمال إيطاليا وبين البابا الذي لم يكن يرضى أن يترك السياسة والحكم في الدنيا لأهل الدنيا (قارن هاينريش الرابع وما حدث بينه وبين البابا) . وأصبح البابا طرفاً في انتخاب القيصر الألماني ، وكان القيصر الألماني في حقيقته أميراً من بين الأمراء ، صاحب إمارة من بين أصحاب الإمارات ، ولا يقوى إلا بالجيش والفرسان والاعتماد على إخوانه . وهكذا تمكن البابا من دفع الأمراء الألمان على اختيار قيصر ضعيف هو كونراد الثالث (١١٣٨ — ١١٥٢) حتى نخلو له الجو . وقد تم للبابا ما أراد ، وتعرثر كونراد في ألمانيا وتعرثر أكثر في إيطاليا . هكذا بدأ الأشتوفيون بداية فاشلة . وكونراد الثالث هذا ، القيصر الأشتوفي الأول (كلمة اشتوفي صفة من « شتوف » اسم قلعة في منطقة شفاين بجنوب غرب ألمانيا) هو الذي اشترك مع لويس السابع ملك فرنسا في الحملة الصليبية الثانية التي منيت بالفشل . وإذا كانت سياسة البابا قد نجحت مع كونراد الثالث ، فقد فشلت مع خلفه « فريدريش الأول » بارباروسا ، الذي كان قيصرأ قوياً محنكاً مستنداً على عصبية من أولى القوة والبأس . فأعاد سلطان ألمانيا على شمال إيطاليا ، ودعم قبضته على ألمانيا نفسها ، وحارب البابا الكسندر الثالث فلم يتغلب عليه لتحالفه مع الفرنسيين ، ولكنه مهد للسياسة المستقبلية وهي ضم جنوب إيطاليا إليه عن طريق زواج ابنه مع الأميرة كونستانس ، لكي يضع البابا بين شقي الرعي . وخلف فريدريش بارباروسا ابنه هاينريش السادس (١١٩٠ — ١١٩٧) الذي كان أقوى القيصرية الألمان نفوذاً وأوسعهم ملكاً . وهنا ينبغي أن نتوقف وقفة قصيرة ونشير إلى فشل الحرب الصليبية بعد أن قاد المسلمين صلاح الدين الأيوبي الذي

اسمه ، وما كان يمكن أن يذكر اسمه إلا في آخرها على عادة العصر . ولكن جماعة من الأدباء تناولت القصة وحاولت اكتمالها وذكرت أن اسم المؤلف هو جوتفريد وأنه من شتراسبورج فنسبت القصة إلى اسمه ، نسبة صحيحة لا نكاد نشك فيها ، ولكننا لا نعرف عن الرجل شيئاً . وقد سعى الباحثون في القرن الماضي إلى استجلاء هذا المكنون وظنوا أن جوتفريد كان كاتب مدينة شتراسبورج . ولكن البحث الحديث كذبهم . وما يذكر عن جوتفريد ، استقاء من قصته ، أنه لم يكن من رجال الدين ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل ، وأنه كان يتقن اللغة الفرنسية إتقاناً كبيراً ، وأنه كان من عامة الشعب ولم يكن فارساً أو نحو ذلك فلم يذكره معاصروه ومن أدركوه بما يفيد غير ذلك . لم يسمه أحد « السيد جوتفريد » بل سموه « جوتفريد » مما يقطع بأنه كان من عامة الناس .

رفع جوتفريد فون شتراسبورج يده عن قصته « تريستان وايزولد » حول عام ١٢١٠ أى في الوقت الذي أتم فيه معاصره العظيم فولفرم فون اشينباخ درته « بارتسفال » . ولهذا يمكننا دون التورط في تواريخ بعينها ، أن نقول إن جوتفريد أدرك القيصر فريدرش بارباروسا وعصره المجيد وأدرك القيصر هاينريش السادس وأدرك أوتو الرابع وغريمه فيليب ، وأنه على الأرجح لم يشهد تنصيب القيصر فريدرش الثاني (١٢١٥) . وهذا يعني أنه عاش جزءاً كبيراً من حياته في ظل القياصرة المظفرين ، وفي ظل الاستقرار . وهذا يعني أيضاً أنه عاش مرحلة الحروب الصليبية الحاسمة وأنه تأثر بما كان فيها من تيارات .

أحداث « تريستان وايزولد »

يشمل النص الذي بين يدينا من قصة تريستان وايزولد ١٩٥٤٨ بيتاً تنظمها ٢٤٥ صفحة مزدوجة (أى ذات نهريين) هي طبعة العلامة فريدرش رانكه .

حول الحروب الصليبية إلى نهايتها خاصة بعد انتصاره في حطين عام ١١٨٧ . ونعود الآن إلى هاينريش السادس لنجده يموت مبكراً ولنجد موته يبدأ عهداً جديداً من الفوضى في أوروبا وألمانيا . عاد البابا إلى التدخل في انتخاب القيصر الألماني ، وعاد الانقسام بين الأمراء الألمان . تولى أوتو الرابع (١١٩٨ - ١٢١٥) وهو من حزب البابا ، ونصب حزب الاشتوفيين فيليب ابن بارباروسا . وقامت حروب أهلية انتهت بموت فيليب عام ١٢٠٨ . فلما استتب الأمر لأوتو حارب البابا . فخلعه الأمراء ونصبوا فريدرش الثاني (١٢١٥ - ١٢٥٠) الذي حمل التاج في روما عام ١٢٢٠ واتجه إلى الشرق في محاولة صليبية جديدة باءت بالفشل . ثم حدث له ما حدث لأسلافه ، إذ اختلف مع البابا ، فأخرجه البابا من المسيحية وأعلن خلعه ، فهاجم هو البابا واضطر البابا إلى الفرار إلى فرنسا . ونصب الأمراء الألمان جماعة من الملوك ضد فريدرش الثاني . وشاعت الفوضى والحروب الأهلية . ومات فريدرش عام ١٢٥٠ فأتت الإمبراطورية الألمانية .

يظهرنا هذا العرض الموجز على أسباب ظهور الانحياز الديني في الأدب خاصة منذ عهد بارباروسا ، وعلى أسباب قوة الفرسان الذين كان العصر كله يتحرك نمشيتهم لاتصال النزاع ، وعلى أسباب استقلال الأمراء كسل في إمارته سيد وفي بلاطه ملك . هذا هو الزمان الذي نشأت فيه الكلاسيكية الأولى وهذا هو المكان الذي احتواه . وفي هذا الزمان والمكان عاش جوتفريد فون شتراسبورج وأنتج .

من هو جوتفريد فون شتراسبورج ؟

هذا سؤال لا نعرف له جواباً شافياً . واضح من الاسم أنه من مدينة شتراسبورج الالزاسية . هذا هو كل ما في الأمر . كذلك وصلتنا قصة شعرية ضخمة اسمها تريستان وايزولد لم يتمها صاحبها ، ولم يذكر

(اعتمدنا على الطبعة التاسعة منها التي ظهرت في عام ١٩٦٥ في زيوريخ وبرلين) .

ويمكن أن نقسم الأحداث إلى ثلاثة فصول كبيرة :
نشأة ترستان ورحلته الأولى إلى أيرلنده - رحلة
ترستان إلى أيرلنده للمرة الثانية وهيامه بايزولد - نفي
ترستان ونهايته . وهذا هو التقسيم الذي أخذ به هلموت
دى بور (المجلد الثاني من تاريخ الأدب الألماني ، نشر
هلموت دى بور وريشارد نيفالد ، ميونيخ ١٩٦٠ ،
ص ١٣٠ وما بعدها) . وهناك تقسيم آخر أكثر تفصيلاً
اصطنعه العلامة الفرنسي جوزيف بدييه في رواية
« ترستان وايزولده » هو :

- ١ - طفولة ترستان .
- ٢ - مورولت الأيرلندى .
- ٣ - الحساء ذات الشعر الذهبي .
- ٤ - الشراب السحري .
- ٥ - برانجين والوعول .
- ٦ - شجرة الصنوبر الكبيرة .
- ٧ - القزم فرونسن .
- ٨ - قفزة من الكنيسة .
- ٩ - غابة موروا .
- ١٠ - الناسك أوجرين .
- ١١ - المخاضة العجيبة .
- ١٢ - حكم بالسلاح .
- ١٣ - دعاء البلب .
- ١٤ - الجرس العجيب .
- ١٥ - ايزولد ذات الأيادي البيضاء .
- ١٦ - قاهردين .
- ١٧ - ديناس دى ليدان .
- ١٨ - ترستان مجنوناً .
- ١٩ - الموت .

وقد قسم الناسخ الذي كتب مخطوط هامبورج
الورقي في عام ١٧٢٢ أو الذي كتب الأصل الذي نسخ

هذا عنه ، القصة إلى ٢٦ فصلاً حسب الأحداث
لا الفكرة كما فعل بدييه فيما بعد .

تبدأ القصة بحديث عن الأمير « ريفالين » أمير
بارمينيرلانند وحربه المظفرة ضد واليه « مورجن » وتنتقل
منه إلى وصفه رحلة قام بها إلى الملك الشهير « مارك » ،
ملك كورنيفال وإنجلترا . ولقد أحسن الملك مارك
استقبال ضيفه ريفالين وأقام حفلاً عظيماً تبارى فيه
الفرسان ما شاء لهم التبارى ، وبرز فيه ريفالين وتفوق
على الآخرين بما أوفى من مهارة وسرعة وقوة وبراعة
فأعجبت به النساء كل الإعجاب ، وكان إعجاب
النساء بالفارس أسمى تقدير لفرسيته في ذلك العصر :
وكانت الحساء بلنشفلور أخت الملك مارك أكثر النساء
إعجاباً بريفالين ، بل إنها أحبه وأوسعت له في قلبها
مكاناً ، وما لبث أن أحبا هو أيضاً . ويصف جوتفريد
هذا الحب وصفاً رائعاً :

ريفالين ذو الفكر واللب

حدث له ما بين

أن الروح المحبة

تشبه الطائر الطليق تماماً

الذي ينطلق بالحرية التي لديه

إلى الغصن المدهون بالصمغ (= المخطط) فيحط عليه

وعندما يحس بالصمغ ويتملص منه

ويهم بالطيران

ترداد ساقاه التصاقاً .

فيحرك ريشه وينتفض

فلا يلمس من الفرع

جزءاً مهماً

إلا ويزيد قيده وبحكم وثاقه .

فيضرب بكل ما أوفى من قوة

من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هنا

حتى ينتهي في النهاية

إلى هزيمة ذاته بمقاومته

وإلى الرقود لصيقاً على الغصن

.....

هذا ما حدث لريفالين .

(الأبيات من ٨٤١ إلى ٨٥٨ ثم ٨٧١) وجونفريد فون شتراسبورج يتوسع دائماً في وصف الحب ، وتحليله ، وله فيه نظرية سنعرض لها في جزء خاص . وخرج ريفالين ، على ما كان متبعاً في ذلك العصر ، لمنازلة أعداء الملك مارك . فأبلى في ذلك بلاء حسناً ولكنه أصيب بجرح شديد قرب من الموت . فذهبت إليه بلنشفلور واعتنت به حتى برأ . فلما استعاد قوته أخذها إلى دياره زوجة له . ولكن حياة ريفالين امتلأت بعد ذلك بالمعارك كما كانت ممثلة بها من قبل ، وانتهى أمره فيها إلى إصابة أودت بحياته . وكانت زوجته بلنشفلور حاملاً فوضعت ابناً هو تريستان وماتت عقب الوضع وتركت الصغير يتيم الأبوين .

وشب تريستان في رعاية عامل ريفالين « روال » كأنه من أبنائه ، حتى بلغ الرابعة عشر فغامر حتى نزل بلاطاً هو بلاط الملك ماركة أو مارك ، وهو خاله . ولكنه لم يكن يعلم بأمر القرابة وكذلك الملك لم يكن يدري شيئاً عنها . وتقدم تريستان في الفروسية حتى رسم فارساً وأظهر من الشجاعة والقوة ما لم يستطعه الآخرون . وكان أهم عمل قدر عليه هو منازلة العملاق الهائل مورولت الذي كان يثير الرعب في البلاد ويفرض على الملك مارك أداء أتاوة أو جزية كان هذا يؤدها صاغراً . ولم تكن منازلة هذا العملاق فرداً لفرد أمراً هيناً ، بل أمراً بالغ الخطورة . فقد تلقى تريستان من سيفه المسموم ضربة أحدثت به جرحاً لم يعرف أحد سبيلاً لمداواته .

وعلم تريستان أن العملاق مورولت له أخت هي ملكة أيرلنده وأنها متضلعة من الطباة وأنها وحدها تعرف مرهها إذا وضع شيء منه على الجرح برأ والتأم . فتنكر في زي اللاعب تنناريس وقصد ديار الملكة الأيرلندية واستمال الملكة ببراعته الموسيقية فعالجته حتى شفى وعينه مدرساً

للموسيقى لابلتها الحسنة إيزولد . وجاء اليوم الذي قرر أن يعود فيه إلى بلاده ، فخرج سلباً معافى منتصراً سعيداً ، وسلك طريق الإياب . ولقيه خاله أعظم لقاء ، وسعد لعودته أعظم السعادة ، وعينه وريثاً له مما أثار حقد الحاقدين ممن يعتقدون أنهم أوتوا بسطة في الجسم والمال وأنهم أولى بالعرش منه . فلا عجب إذن أن يكلف الملك مارك ولي عهده تريستان بأكبر وأصعب مهمة ألا وهي مهمة خطبة إيزولد لتكون زوجة له - أي للملك مارك - وهي ابنة العدو القديم . والمهمة صعبة لأسباب كثيرة ، فقد أقام تريستان في بلاط ملكة أيرلنده متنكراً ، وظل مدة طويلة يدعى أنه لا يزيد على أن يكون العازف تنناريس ، وقد أحب تريستان إيزولد وأحبته هي ولم يزد الحب عن مجرد الحب شيئاً ولعل إيزولد منت نفسها أن يعود تريستان إليها يوماً ليخطبها لنفسه ، وقد طلب تريستان عون الملكة فعاونته وشفته من جرح كان لا محالة مهلكه وكان هو قاتل أخيها العملاق مورولت . فكيف يعود الآن إلى الملكة ؟ وبأى وجه يرجع الآن إلى إيزولد ؟ لا بد له من الإتيان بعمل هائل ، بعمل خارق للعادة يكون فيه خير وسعد لأيرلنده وملكها حتى يحق له أن يسلك السبيل إليها . وهكذا جاءت الرحلة الأيرلندية الثانية لتريستان .

نزل تريستان سرّاً ودخل في صراع أليم مع التنانين القظيعة التي كانت تفسد على أهل أيرلنده أمرهم كله أو جله وكانت تجعلهم يعيشون في رعب دائم ، حتى رصد البلاط جائزة رفيعة لمن يخلص البلاد من شر هذه التنانين . ولم تكن هذه الجائزة الرفيعة سوى يد الحسنة إيزولد . من قتل التنانين وخلص البلاد من شرها حق له أن ينال إيزولد ذات الشعر الذهبي . وهكذا غلب تريستان التنانين . فلما تم له ذلك وقع مغشياً عليه من فرط التعب ، فوجدته النسوة وحملته إلى البلاط . وهناك عرفت الملكة أنه هو قاتل مورولت ، عرفت ذلك من سيفه ومن أثر القتلة الباقي فيه . واغتازت

ولما بدت كورنيقال في الأفق أفاقا إلى نفسها، وأحسا
بأنهما، ولكنهما قررا مع الخادم الوفية برنجين أن يستمرا
في جهما وأن يستعينا على أمرهما بالحيلة والخداع، وتعاهد
الثلاثة على الاخلاص حتى الموت بعضهم للبعض .
ووصل الركب . واستقبله الملك أحسن استقبال . وأخذ
الملك يستعد لعقد القران والثلاثة يقررون الخطط
لخداعه . وفي ليلة عقد القران بدأ تنفيذ أول خطة إذ
قاسمته الفراش « برنجين » دون أن يدري ، وبهذا بقي
سر الجريمة التي ارتكبها تريستان وإيزولد في الطريق
مكتوناً . وسرعان ما فكر تريستان وإيزولد في التخلص
من برنجين بالقتل لأنها هي الوحيدة التي تعلم السر
والتي يخشى أن تبوح به . ولكن خطة القتل لم تنجح .
وتعترض القصة حكاية لا تمس صلبها هي حكاية خطف
الفارس « جاندين » لإيزولد، وكثيراً ما تعترض القصص
في العصور الوسطى فصول اعتراضية من هذا النوع .
وسارت حياة تريستان وإيزولد في بلاط الملك
مارك على الحب والخديعة . ظل الاثنان على علاقتهما ،
يتبادلان الحب ، ويطيعان ما يتأجج في دمهما ، وكلما
لاحظ أحدهم شيئاً وحذر الملك ، عرف الاثنان كيف
يكيدان ويحكران ويخرجان من الموقف . وظل الملك
مارك يؤمن بظهر إيزولد ولا يشك فيها أدنى شك ،
وظل يثق في تريستان ولا يرتاب فيه أقل ريبة . ولكن
سرعان ما تغير الوضع ، وكثر الكلام وتردد الملك مارك
بين التصديق والتكذيب ، وأراد أن يلزم جانب العدل
فلا يحكم على إيزولد إلا بعد تثبت . وهنا تبدأ سلسلة من
المحاولات لكشف الحقيقة لا تقصل إلى شيء لشدة مكر
الحبيبين . وأول من وشى بالحبيبين هو تروكسيس الذي
كان له دور مشين أثناء إقامة تريستان الثانية في أيرلندة .
من محاولات مارك مثلاً وقوفه متخفياً في قلب أغصان
شجرة ليفاجئ الحبيبين ، ولكنهما يلاحظان وجوده
فيتحدثان بحديث يبعث عنهما الشبهة تماماً . كذلك هناك
فصل موثر جرت فيه محاولة تحكيم الله باستعمال حديد

الملكة ، ولكن تريستان استطاع ، مستعيناً برنجين
الخادم المخلصة ، أن يهدئ من روعها ويصور لها الأمر
على نحو آخر أقرب إلى صالحه . كذلك تعرض تريستان
في الوقت نفسه إلى محنة أخرى ، إذ ادعى تروكسيس
الجبان أنه هو الذي قهر الثناين . ولكن تريستان لم
يعدم الحيلة ليكشف كذب الجبان وليؤكد قوته
وانتصاره . وأعلن تريستان على الفور مهمته فطلب يد
إيزولد الجميلة لخاله وسيده الملك مارك . ونجحت
المهمة وبدأ الاستعداد للعودة إلى كورنيقال . وكانت
إيزولد ما تزال تحمل في قلبها كرهاً شديداً لتريستان
قاتل خالها مورولت ، حل محل جها الشديد له قدماً .
ولكن الأبر لا ح كانه قد قضى ، فقد تقرر زواجها
من الملك مارك وخرج تريستان من الموضوع . وأعدت
الملكة الأم شراباً سحريراً ليشرب منه إيزولد ومارك .
كان هذا الشراب السحري يؤدي بشاريه إلى التأجج
حباً ، وإلى الارتباط برباطه إلى الأبد ولم يكن هناك
شيء يخفف منه أو يوقف مفعوله .

وفي الطريق ظمئ تريستان وظمث إيزولد فشرب
تريستان وسقى إيزولد من الكأس التي وضعت الملكة
الأم فيها مشروبها السحري . وجاءت الخادم برنجين
الوفية متأخرة ورأت ما حدث ففرعت أشد الفرع
وأخذت الاناء وألقت به في البحر . ولكن المقدر حدث
فتحول كره إيزولد إلى حب عنيف ملتهب وامتلاً قلب
تريستان مثله . وتحدد بهذا مصير الاثنين : الحب الذي
لا تقف أمامه عقبة . . . والحيلة النافذة التي تمهد لهذا
الحب كل طريق . وتمتع الحبيبان بالحب الحرام طوال
أيام الرحلة دون أن يفكر أحدهما في الأثم الذي
يتورطان فيه، فما كان يليق بتريستان أن يفعل ما فعل
وقد كلفه خاله وسيده بالمهمة واتمته عليها ، وما كان
يليق بإيزولد أن ترتكب ما ترتكب وهي في الطريق
إلى من سيصبح زوجها . ولكن ما الحيلة والشراب
السحري يجري في دمايتهما ويصب فيهما لهما لا يهدأ ؟

ويتزل بلاط مارك فلا يعرفه أحد إلا إيزولد ، ومرة أخرى يتخفى في هيئة مجنون ويلتقي بإيزولد . وبينما تريستان يخوض المعارك من أجل الأمير قايدبن ، يصيبه جرح مميت لا يستطيع أحد علاجه إلا إيزولد . فيرسل إليها من يبلغها الخبر ويرجوها الحضور لإنقاذه من موت محقق ، ويرجو الرسول أن يرفع على المركب وهو قادم علماً أبيض اللون إذا كانت إيزولد معه ، وأسود اللون إذا أتى بدونها ، حتى يعرف الخبر قبل أن ترسو السفينة . ولكن إيزولد بيضاء اليدين تغتاض ويتمحرك قلبها بغيره سوداء مقبلة فتكذب على زوجها المحتضر وتدعى أن المركب مقبلة بعلم أسود فيلظ أنفاسه الأخيرة . وتصل إيزولد الشقراء بعد فوات الأوان فتري تريستان جثة هامدة فترتمي عليها وتموت من فورها . ويصل خبر موت تريستان وإيزولد إلى الملك مارك ، ويعلم بقصة الشراب السحري فيغفر للحبيبين ، وكيف لا يغفر لها وقد علم أنهما كانا من تأثير الشراب السحري كالريشة يحركها الريح فلا تستطيع رداً أو صدأ . ويقرر أن يدفنها في مقبرتين متجاورتين ، فإذا بشجرة تخرج من قبر تريستان وتدخل فروعها في قبر إيزولد ، وكلما قطعت الشجرة نمت ومدت فروعها إلى قبر الحبيبة ، فما كان للموت أن يفرق بين اثنين ربطهما الحب .

مادة تريستان وإيزولد

ليس جوتفريد فون شتراسبورج أول من عالج قصة تريستان وإيزولد من الألمان ، فقد سبقه إلى ذلك أيلهارت فون أوبرج بقصته « تريسترانت وإيزالده » . والمعتقد أن أيلهارت من قرية أوبرج قرب مدينة براونشفايخ وأنه كان متصلاً ببلاط هذه المدينة وربما كان متصلاً أيضاً بالبلاط الإنجليزي هنري الأسد وزوجه الثانية ماتيلده (ابنة هنري الثاني واليانور دي بواتر) . ويحتمل أن يكون إيلهارت قد فرغ من قصته « تريسترانت وإيزالده » حول عام ١١٨٠ . وقصته

متأجج ، وفي هذه المحاولة أيضاً تمكنت إيزولد من إثبات براءتها كذباً . وينتهي الأمر بالملك مارك إلى نفى إيزولد وتريستان . فيذهبان إلى الغابة ويعيشان هناك في كهف أجمل عيشة ، يطلقان لأنفسهما العنان ، وينطلقان في الحب لا ينغص عليهما منغص ، ولا يقترب منهما عزول . ويكتشف مارك غباهما في كهف الحب ، ويتصادف أن يجدهما راقدين أحدهما بجوار الآخر وبينهما سيف . وكانت تلك علامة على الطهر في ذلك العصر (راجع النيبلونجليد) فانخدع الملك مارك مرة أخرى ولام نفسه وعفى عن الاثنين وأعادهما إلى البلاط . وعاد الاثنان إلى البلاط ، ولم يكفا عن حبهما الأبدي . وذات يوم فاجأهما الملك مارك في البستان متعاقبين أوثق عناق ، فلم يعد به حاجة إلى دليل . ورأى الاثنان أن الملك مارك قد اكتشف العلاقة ، فقرر أن يبتعد أحدهما عن الآخر .

لم يعاقب الملك مارك إيزولد واتبع في ذلك نصيح أصدقائه ، وترك تريستان ينفي نفسه ويرحل بعيداً . فرحل إلى نورمانديا ، ولكن الحب لم يفارق قلبه ، بل ظل يتأجج به ويورقه ، وظل الحنين إلى إيزولد يملك عليه نفسه ، ولا يفارقه لحظة . وراح تريستان بنازل ويصارع ويقهر العناء ويغلب الغاصبين حتى قربه أمير أرونديل « قايدبن » إليه ، وعرض عليه أن يتزوج من أخته واسمها إيزولد ذات الأيادي البيضاء أو إيزولد بيضاء اليدين .

وهنا تقف قصة جوتفريد فون شتراسبورج .

ولكننا نعرف من المصادر المختلفة بقية القصة . يتزوج تريستان من إيزولد بيضاء اليدين ، ويستمر في حياته المضطربة ، فيكثر من الزوال والصراع ، ولا ينسى إيزولد الشقراء قط ، بل يدفعه حبه لها ، وحنينه إليها ، إلى التماس كل السبل للوصول إليها ويتم له ذلك . مرة يتنكر جاعلاً نفسه مريضاً مصاباً بالبرص يتلمس العلاج على يد إيزولد المتضلعة من الطليابة

هي أقدم رواية كاملة لمادة تريستان وإيزولد . وليس هناك شك في أن أيلهارت استخدم مصدراً أو مصادر مختلفة ، ربما نفس المصدر الذي استخدمه بيرول الفرنسي في قصته التي وصلتنا في ١٤٥٠ بيتاً . في قصة أيلهارت نجد الفصول الرئيسية المختلفة التي في قصة جوتفريد فون اشتراسبورج ونجد أيضاً بقية الأحداث التي لم يعش جوتفريد ليرويها بقلمه . أيلهارت يحكي عن مولد تريستان (تريسترانت) ونشأته ووالديه ريفالين وبلنشفلور (أخت الملك مارك) . كذلك يحكي عن موت الوالدين وتيم تريستان ودخوله في ولاية آخر ويتبعه عندما يكبر ويصارع مورولد (أو مورولت) ويصاب بجرح ثم يسافر إلى الملكة الأيرلندية طالباً الشفاء ، ويلتقي بالحسناء أيزالده (إيزولده) . ثم يعود به إلى خاله الملك مارك الذي يكلفه بالذهاب إلى أيرلنده وطلب يد إيزولده زوجة له . فيذهب إلى هناك ويصارع الثنائين ، وينجح في مهمته ويعود بإيزولد . وفي الطريق يشرب معها خطأ من المشروب السحري وتشتعل نار الحب بين الاثنين . وفي رحاب الملك مارك تتصل سلسلة من الخيانات ، تبدأ بوضع الخادم برنجين (أو برنجينه) في فراشه بدلاً من زوجه حتى لا يعلم بسوء ما حدث ، وتتطور إلى محاولة قتل الخادم الوفية ، ثم إلى تصنت الملك مارك على تريستان وإيزولد وراء شجرة ثم تجارب إثبات براءة البريء ، ثم هرب الاثنين إلى الغابة والحياة في كهف الحب . وتصل إلى نفى تريستان وبقاء إيزولد في معية الملك مارك . ويذهب تريستان إلى الملك دافيلين ويعاونه بقوته ويصادق ابنه كيمينيس وياتقى بإيزولده بيضاء الديدن ، ويعود متخفياً إلى إيزولده الشقراء ويرأها سراً . وتنتهي القصة بموته ، على نحو ما ذكرنا من قبل .

الأحداث مشابهة تقريباً لما في قصة جوتفريد .

والحقيقة أن مادة تريستان وإيزولد تشغل الباحثين منذ زمن طويل يريدون أن يعرفوا مصدرها وأن

يتابعوا تطورها من يد ليد أو على الأصح من قلم إلى قلم . ولا شك في أن مادة تريستان وإيزولد شأنها شأن المواد الأدبية القديمة ترجع في أصلها الأول إلى وقائع تاريخية لا يستطيع البحث أن يكشف عنها دائماً . ثم تتحول هذه الوقائع التاريخية إلى أساطير بإضافة عنصر التحويل إليها وبتغيير أشخاصها وأماكنها أحياناً وبمزج الأشياء المتفرقة المتباعدة بعضها مع البعض الآخر ، كما أوضحنا في مقالنا « النيبولوجيلد » الذي نشر في هذه المحلة منذ بضعة أشهر . والمعتقد أن قصة تريستان وإيزولد تجمع على الأقل أسطورتين رئيسيتين . أولاً أسطورة حب الإنسان لجنية . . وتبدأ هذه الأسطورة عادة باجتناب الجنية للإنسان بقوة السحر - وهذا هو ما يجري على تريستان إذ يتورط في صراع العملاق مورولت ، وهو أخو الجنية الأم (الملكة) ، فيجرح جرحاً يقربه من الجنية ، لأنها هي الوحيدة التي تستطيع علاجه . ثم تحمله سفينة إلى حيث الجنية (الجنية - العملاق - الجرح - السفينة) - والمرحلة الثانية في هذه الأسطورة هي عودة الإنسان إلى جماعة البشر وإلى حب امرأة من البشر . . وهذا هو ما يحدث لتريستان عندما يذهب إلى الملك هافيلين أو الأمير قايلدين ويزوج من إيزولد بيضاء الديدن ، وهي امرأة من البشر . والمرحلة الثالثة هي استعادة الجنية لحبيبها الإنسان والالتجاء وإياه إلى ملكوت الجنيات وكثيراً ما تستعمل الجنية في هذه المهمة السفينة - وفي قصة تريستان شيء من هذا مثلاً : التجاء تريستان وإيزولد إلى الغابة وإلى كهف الحب وكذلك منظر موته وحضور إيزولد الشقراء إليه . ولكن قصة تريستان وإيزولده لا تنتهي هذه النهاية لأنها ممزجة بأساطير أخرى كما قلنا ، نشير منها إلى الأسطورة الرئيسية الثانية وهي أسطورة الخيانة الزوجية وهي قديمة جداً في الثقافة الكلتية ، وتسير في خط واضح هو اثنان رجل آخر على زوجته وخيانة هذا الأمانة .

شيء من الإيجاز طرفاً من مكوناتها الأسطورية والتاريخية الكثيرة المعقدة . والمتخصصون في تريستان وايزولد ينترون وجود أصل قديم للقصص التي عرفت في فرنسا ثم تناقلتها البيئات الأخرى ، ويطلقون على هذا الأصل الافتراضي اسم «أورتريستان» أي الصيغة الأولى لتريستان ويضعونه في منتصف القرن الثاني عشر أو قبله بقليل أو بعده بقليل (بدييه - شوبرله) . هذه الصياغة الأولى أو هذه القصيدة البدائية أو النمط القديم أو الأورتريستان شيء لا طاقة لأحد على وصفه أو تحديده ، وكذلك لا طاقة لأحد على انكار وجوده . ويدفعنا الظن إلى القول بأنه كان أقصر من الصيغ المتأخرة وبأنه لم يكن يضم قصة والدي تريستان ريفالين ويلنشفلور وبأنه لم يستعمل عنصر الشراب السحري الذي يشعل الحب أبداً ، وبأنه كان يقف عند هرب الحبيبين إلى كهف الحب بالغابة . ويرى رانكه أن الصياغة الأصلية لا بد كانت تشتمل على الأجزاء التالية :

(أ) صراع تريستان ومورولت ثم الرحلة الخطيرة إلى الجنة . ثم العودة إلى كورنيغال
(ب) وايزولد هي زوجة مارك ، تقع في هوى تريستان وتريد دفعه إلى الاتصال بها ، فيهرب الاثنان إلى الغابة برفقة كلب أمين . ولكن تريستان يظل مخلصاً لسيدة فلا يمس وايزولد ، بل يدع السيف يفصل بين فراشيهما . ويصل مارك إليهما ويراهما والسيف بينهما .

(ج) ذات مرة يخوض تريستان وايزولد عبر نهر فترفع المياه إلى أعلى ساق وايزولد فتعنفه ، ويتطور الأمر إلى تورط تريستان في خيانة سيدة مارك .

(د) يلتقي تريستان النصل في الماء وهكذا يصل مارك إلى اكتشاف مكانهما . ثم يصيب

وهناك عناصر من أساطير أخرى مثل عنصر فرار تريستان وهو عنصر معروف في الأساطير الأيرلندية وفيها ينبذ المجتمع الحبيب أو الأحباء فيلوذ أو يلوذون بالغابة . كذلك هناك عنصر سفر الشاب بحثاً عن حبيبة أو زوجة ، وعنصر قتال الثنائي ومشروب الحب والعروس المدسوسة ، واغتيال الشريك (هنا برنجين) وعنصر التنكر ، كلها عناصر ربما أخذت من مصادر أيرلندية . وقد أظهر الباحثان زنجير وبورداخ أن شخصية وايزولد بيضاء اليدين مستقاة من مصادر عربية . وليست شخصية وايزولد بيضاء اليدين وهي العنصر العربي الوحيد في القصة ، بل إن القصة مليئة بالعناصر العربية صغيرة وكبيرة ، في الأحداث وفي الشخصيات وفي الأسلوب . أما البحث وراء تاريخية تريستان وايزولد فلم يؤد إلى نتائج حاسمة . تمكن البحث مثلاً من الكشف عن أصل اسم تريستان والحزم بأنه اسم بكئي (نسبة إلى ملوك البكت الذين سكنوا أسكتلندة قبل الكلتيين) كثيراً ما استعمل في القرون السابع والثامن والتاسع وكان أصلاً «دريستان» ومنه تفرعت الأسماء تريستان وتريسترانت وتريستان . أما الملك مارك فقد كان له وجود حقيقي ، كان ملكاً مشهوراً في كورنويل (كورنيغال) . وأما اسم وايزولد فأغلب الظن أنه اسم جرمانى من «ايسلد» أو «اسفالدا» أو «ايشلدا» ومن هذه الأصول تفرعت أسماء وايزولد المختلفة : ايزنت - ايزويت - ايزيه - ايزولت - ايزول - ايزيلت - ايزود - ايزوته .

ومكان قصة تريستان وايزولد هو أرض الكلتيين : أيرلندة (ايزولد ومورولد) وكورنيغال (مارك) وبريتاني (مسقط رأس تريستان وايزولد بيضاء اليدين)

تريستان وايزولد عند الفرنسيين

لم ينشئ جوتفريد فون شتراسبورج ولا سلفه أبلهارت فون أوبرج مادة تريستان وايزولد التي بناها في

مارك تريستان بجرح مميت ، وترغى إيزولد على صدره ويتعانقان فيحتمها ويموتان معاً . من هذه الصياغة الأصلية بصورتها هذه أو بصورة شبيهة خرجت قصص توماس وبيروول وأيلهارت . وقصة الصياغة الأولى وكذلك قصص صياغات توماس وبيروول وأيلهارت مرتبطة بامرأة شهيرة هي «الانور دى بواتو» وابنتها «ماتيلده» . ولدت الانور دى بواتو (في عام ١١٢٢) وسط بيئة مهمة بالأدب والفن ومثله العليا من فرسانية وشهامة وحب وغزل . وكان جدها الدوق وليم التاسع دوق إقليم الأكييتين الفرنسى القريب من أسبانيا ، ولا يخفى أن إقليم بواتو الذى تنتسب إليه الانور هو الإقليم الذى شهدت عاصمته «بواتيه» المعركة الشهيرة بين المسلمين والفرنجية والذى ظل على اتصال بالبيئة الثقافية العربية الإسلامية النشيطة فى أسبانيا . وجد الانور هو أول شاعر بروفنسالى (تروبادور) نسمع به ، أما وليام العاشر والد الانور فقد مات فى عام ١١٣٧ وترك الانور فى سن الخامسة عشرة تصبح أغنى أميرة فى أوروبا وسيدة على أوسع ملك فيها . وفى العام نفسه تزوجت من الملك لويس السابع ملك فرنسا وكانت تعتقد أنها تزوج ملكاً بمعنى الكلمة يعيش فى امة الملوك ويحفل بالأدب والفنون ، فاذا بها تكتشف أنه أشبه شيء بالراهب الزاهد الذى لا يعرف له شيئاً يهم به إلا الحروب الصليبية . وقد اشترك لويس السابع فى الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩) مع القيصر الألماني كونراد الثالث والأمير فريدريش الذى سيصبح القيصر فريدريش بارباروسا ، وأخذ لويس السابع زوجه الانور معه إلى الشرق فى هذه الحملة التى فشلت فشلاً تاماً . ولم تحتمل الانور البقاء مع لويس أكثر مما فعلت فطلقت منه فى عام ١١٥٢ وتزوجت هنرى «بلانتا جينييه» الذى سيصبح هنرى الثانى ملك إنجلترا وكان يصغرها بأكثر من عشر سنين . وكان هنرى يحب الأبهة ويشجع الفنون والآداب .

وهكذا أتيج الحفيدة الشاعر البروفنسالى الأول أن تعيد الحياة التى ألقها فى البلاط فى بواتيه ، إلى بلاط وستمنستر ، واهتمت بالأدباء والشعراء وأشعلت جذوة مبدعة منذ عام ١١٥٤ خاصة عندما أصبحت «ملكة إنجلترا» وسيدة أيرلنده ودوقة نورمانديا والأكييتين وجاسكونيا ، وكونتيسة بواتو وسانتونج وأنجوموا ولجوزان وأوفيرنى وبوردو وآجن وأنجومين وتورين «وابنتها ماتيلده (من هنرى الثانى) تزوجت من هنرى الأسد ، ويعتقد غالبية النقاد أنها كانت «سيدة» الشاعر أيلهارت فون أوبرج ، صاحب تريسرانت وايزالده وملهمته ، فقد مدحها ورفعها ما استطاع . فلما عزل القيصر بارباروسا هنرى الأسد من ساكسونيا ذهبت ماتيلده وزوجها إلى بلاط أبيها وكان لماتيلده هناك تأثير أدبى هام . أما الابنة الأخرى لالانور وهى مارى (من لويس السابع) فقد تزوجت هنرى الأول أمير شامبانيا ، وكانت مارى هذه هى سيدة وملهمة كريستيان دى طروا شاعر فرنسا الشهير فى ذلك الحين الذى يهمننا هو ملاحظة الاتصال الوثيق بين البيئات الأوروبية المختلفة بعضها البعض وارتباطها فى شخصية الانور وبناتها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ملاحظة اتصال هذه البيئات بالشرق وقربها منه على الأقل (الانور فى بواتيه وفى سوريا) . ويكاد العلماء يجمدون على أن الأورترستان أو الصياغة الأولى لترستان وإيزولد نشأ فى بلاط الانور فى بواتيه قبيل منتصف القرن الثانى عشر على يد شاعر مجهول لنا . وقد استند هذا الاجماع على شواهد منها أبيات للشاعر البروفنسالى برنارت دى فنتادور (حول عام ١١٥٠) التى تذكر «العاشق تريستان والعذاب الذى لقيه من إيزوت الشقراء» .

وإذا قلنا إن الأورترستان نشأ فى بلاط بواتيه فعنى ذلك أن واحداً أو كثيرين حملوا المادة من مهدها إلى هناك . وقد أظهر البحث منذ حوالى ثلاثين سنة أن عملية

النقل هذه تمت على يد قصاص يدعى بليزيريكوس أو بليرى أو بريرى ، وأنه فعل ذلك أيام أبى اليانور . وقد ورد ذكر بريرى هذا فى شعر توماس على أنه من العليمين بحكايات الملوك البريطانيين . وإذا كان هذا هو الاسم الوحيد الذى وصلنا ، فليس معنى هذا أن عملية النقل أنجزها هذا الرجل وحده ، فالمؤكد أن بلاط ولیم العاشر كان يعج بالقصاصين العليمين بالأساطير الكلتية وغيرها . المهم أن مادة تريستان وايزولد وصلت إلى هذا البلاط وأنها اختلطت بعناصر من مصادر مختلفة منها المصدر العربى وصيغت على نحو يوافق المزاج الأوروبى فى صياغة قديمة أو فى صياغات قديمة .

وأول من أنشأ قصة حول مادة تريستان وايزولد هو شاعر فرنسا العظيم فى العصر الوسيط كريستيان (أو كرتيان) دى طروا . وقد ضاعت قصته ، ولكن إشارات إلها فى قصصه الذى بقى ، وخاصة فى «كليجيه» يقطع بوجودها ، ويوحى بأنه استعمل صيغة أقدم . وكانت عادة الكتاب المتبعة فى العصر الوسيط عامة هى «الاقتباس» ، هى التباس المادة فى «مصدر» والتشرف بذكر هذا المصدر لا التحرج منه . وصيغة تريستان ، على قدر ما تجمع لدينا من أخبارها ، تتحدث عن الصراع بين الخال وابن أخته على حساء ، ولكنها تتصرف فى أمر الحب المحرم الآثم وتجده له حلا من السحر .

وهناك قصة بيزول ، التى يسمونها أيضاً الصيغة العامة ، التى وصلتنا فى قطع مجموع أبياتها حوالى ٤٥٠٠ بيتاً ، تحكى جل الحكاية ، على ما يبدو لجمهور واسع ، ومن هنا تسميتها بالصيغة العامة . والعلاقة بين قصة بيزول وقصة أيلهارت غامضة . بعض النقاد يذهب إلى أن أيلهارت استمد مادة قصته من بيزول ، والبعض الآخر يرفض ذلك . والرأى الوسط هو أن الاثنين استملا مصدراً ، تالياً على الأوروترستان فى الأغلب ،

هو ما يسمى «بالقصة» . وقد أشرنا من قبل إلى علاقة أيلهارت باليانور التى ارتبط اسمها واسم بلاطها بترستان أوثق ارتباط . وتنقسم قصة بيزول (نشأت بين عام ١١٧٠ و ١١٩٠ أو بعد ذلك أو قبل ذلك ؟) تنقسم إلى قسمين قسم أول (بيزول الأول) وقسم ثان (بيزول الثانى) . فى القسم الأول يعالج بيزول الحوادث إلى حياة الحبيبين فى الغابة ، على نحو يشابه أيلهارت . أما القسم الثانى - بيزول ٢ - فيختلف عن أيلهارت أشد الاختلاف . فلعل بيزول استخدم مصدراً آخر غير «القصة» أو لعل كاتب «بيزول ٢» شخص آخر والقصة الأخرى التى يعرفها تاريخ الأدب الفرنسى هى قصة توماس . والموجود منها حوالى ٣٠٠٠ بيت من الشعر تصل بالحكاية إلى ختامها . توماس البريطانى ألف قصته باللهجة الأنجلو نورمانية فى وقت مناظر لوقت بيزول تقريباً ، ولسنا نعرف هل كان توماس لإنجليزياً أم كان من بلاد أخرى ؟ المهم أنه صاحب فضل كبير فى تطوير مادة تريستان وايزولد وتشكيلها بشكل رفيع متأثر بذوق البلاط ، الذوق الاليانورى ، مصطنعاً أسلوباً ليناً حسن الجرس ، مرهف الغنائية . نجد توماس مثلاً مخفف وصف العاطفة الجياشة من الأصل الوحشى العنيف الغليظ وينتهج نهجاً رقيقاً نافذاً إلى أعماق نفوس شخصياته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وحديث توماس عن الحب حديث مفعم بالمفاهيم البلاطية ، أو حديث يدور حول تحديد مفهوم الحب البلاطى . والحقيقة أن معالجة توماس لتأثير المشروب السحرى على قلب تريستان وايزولد ومارك معالجة جذيرة بالاعجاب . فتوماس يرفض فكرة الحب بغير لقاء سابق ، ففى حين يتورط بعض المؤلفين فى جعل تريستان يحب ايزولد على غير لقاء سابق ، يشترط توماس هذا اللقاء ويتمسك به ، ثم يأتى المشروب السحرى فيقوى علاقة نشأت بالفعل . وإذا كان المشروب السحرى من شأنه أن يثير الحب ، وإذا كانت مقتضيات القصة تفرض أن

يظل مارك على حب ايزولد ، فإن توماس يبقى في كأس المشروب السحري شيئاً يصل إلى مارك ويشربه فيحتل قلبه بحب ايزولد إلى النهاية . لأنك تحس أن توماس رجل تعلم وعرف المنطق واجتهد في أن يربط الأسباب والمسببات .

جوتفريد فون شتراسبورج وتريستان وإيزولد

تأثر جوتفريد فون شتراسبورج بتوماس خاصة ، واتبع نصه اتباعاً وثيقاً . ولكنه كان يعرف المؤلفين الآخرين ونصوصهم ، وخاصة أيلهارت . في الآيات ١٣١ وما بعده يقول متحدثاً عن مصادره :

« أنا أعرف أن هناك كثيرين

قرأوا (وحكوا ؟) عن تريستان .

ولكن ما أقل

أولئك الذين أحسنوا القراءة (والحكاية ؟) .

فلذا كنت أسلك السبيل نفسه الآن

وأقول فيه كلمتي

.....

فاني أنصرف على نحو آخر .

ولا ألومهم . فقد تكلموا

بنية كريمة خالصة

وأرادوا خيري وخير الدنيا .

ولا ريب أنهم تصرفوا عن حسن نية :

وكل ما يفعله الإنسان عن حسن نية

هو أيضاً خير وعمل صالح .

أما ما قلته

من أنهم لم يحسنوا القراءة (والحكاية ؟)

فأمر واقع ، على نحو ما تحدثت .

لم يقص هؤلاء بالحق (= اعتماداً على مصدر)

مثلاً فعل توماس البريطاني ،

الذي كان أديباً سيّداً في القصة

وقرأ في الكتب البريطانية .

حياة الأمراء جميعاً

وحكاها لنا وعرفنا بها .

ومثلاً قال عن تريستان

الصواب وذكر الحقيقة (المصدر ؟) .

بدأت أنا أبحث بحثاً حاراً

في كل أنواع الكتب

الرومانية واللاتينية

ورحت أجتهد وأكّد

حتى أنشئ

هذا الأدب على صواب .

جوتفريد يقرأ إذن مصادر مختلفة باللغات الرومانية

(يعني الفرنسية ؟) واللاتينية — ربما توارىخ الأمراء ،

ويعتمد على توماس البريطاني الذي كان في رأيه الوحيد

الذي لزم الصواب والذي استمد القصة من مصادرها

الحقيقية والذي أنشأ قصة جعلته سيّداً في ميدان الأدب .

ولكن جوتفريد أصيل ، يتحدث عن الحب حديث من

خبره وعرفه ، ويرتب الأحداث ترتيباً يدل على أنه

تصورها على نحو متكامل وأنه اتخذ له فيها مذهباً .

والعنصر الرئيسي في قصة تريستان وإيزولد في

صياغة جوتفريد هو الحب الذي يرتبط به الكيان

الفرساني بمغامرات أخلاقية وغير أخلاقية . وقد شهدت

هذه الفترة من العصر الوسيط اهتماماً كبيراً بالحب ،

وأنشأت له وحوله الكثير من الشعر الغنائي ، وألفت له

الكتب تبحث في أسبابه وأحواله وقواعده . والبحث في

احتمال تأثير البيئة العربية الأسبانية على ظهور هذا الاتجاه

في أوروبا بحث هام خليق بأن يفرد له مقال خاص .

المهم أنه في عصر تأليف تريستان ظهر كتاب أندريه

كايبلان (أو شابلان) أو على الأصح ظهرت كتبه

الثلاثة في الحب (باللاتينية) ، وبها جزء طريف عن

قواعد الحب ، يلخصها فيما يلي :

١ — ليس الزواج مبرراً لعدم الحب .

٢ — من لا يعرف الغيرة لا يقدر على الحب .

٣ - لا يمكن أن يرتبط إنسان بحبين .

٤ - الحب دائم الزيادة أو النقصان .

٥ - ما ينال الحب من محبته ضد إرادتها لا لا طعم له .

٦ - لا يمكن أن يحب الرجل إلا إذا بلغ الرجولة الكاملة .

٧ - ينبغي أن يحزن الأحياء على حبيب مات لمدة عامين .

٨ - لا يحق أن يحرم إنسان من الحب بغير سبب كاف .

٩ - لا يمكن أن يحب إنسان إلا إذا جذبته إغراء الحب إلى ذلك .

١٠ - من عادة الحب تجنب دار البخل دائماً .

١١ - من غير المقبول أن يحب الإنسان من قد ينجل من الزواج بها .

١٢ - الحبيب الحق لا يميل إلى التمتع بحب واحدة سوى حبيته .

١٣ - نادراً ما يدوم الحب بعد أن يكتشف .

١٤ - سهل النال من الحب يصبح مقيتاً ، وصعب النال من الحب يصير عزيزاً .

١٥ - كل حبيب يشحب عادة عندما يرى حبيته

١٦ - قلب العاشق يرتجف عندما يرى حبيته فجأة .

١٧ - الحب الجديد يطرد القديم .

١٨ - حسن الخلق وحده يجعل الإنسان خليقاً بالحب .

١٩ - إذا خفت الحب فما أسرع ما ينتمى وما أنسى ما يعود .

٢٠ - العاشق دائماً خجول .

٢١ - عاطفة الحب تزداد دائماً بالغيرة الصادقة .

٢٢ - اندفاع الحب وعاطفته يزادان عند الشك في المحبوبة .

٢٣ - من أرقه التفكير في الحب قل طعامه وقل نومه .

٢٤ - كل فعل من المحبوب مرتبط بالتفكير في المحبوبة .

٢٥ - الحب الحق لا يستحسن إلا ما يعتقد أنه سيسر محبته .

٢٦ - الحب لا يمنع شيئاً عن الحب .

٢٧ - لا يمكن أن يعمل المحبوب من وصال محبته .

٢٨ - أقل الظن يدفع العاشق إلى الشك في محبته

٢٩ - ما عرف الحب من أرقه الأثم .

٣٠ - العاشق الحق لا يفتأ يتأمل محبته .

٣١ - ليس هناك ما يمنع المرأة من حب رجلين ،

ولا الرجل من حب امرأتين .

هذه القواعد تقرّبنا من مفهوم الحب عند جوتفريد .

الحب عنده شيء قوى ، مائل يتملك الإنسان ويتسلط

عليه ويجرده من إرادته . وما شراب الحب إلا رمز على

هذه القوة المائلة . وما أسعد جوتفريد عندما وجد عنصر

« الشراب السحري » ، فقد حسم به مشكلة العلاقة

بين الحب والأخلاق ، لأن الشراب السحري يجرد

الإنسان من إرادته ، ومن تجرد من إرادته أصبح تأثيمه

عبثاً أو ظلماً . فلا إثم إلا على من كان في وعيه ،

وكان يتصرف عن عمد وإرادة . جوتفريد يجعل الشراب

السحري رمزاً ، ويدخل في مفهومه عن الحب عناصر

من الصوفية ، كما بينت البحوث الحديثة . جوتفريد

فون شتراسبورج يصور حبيين تريستان وإيزولد في

سعيهما نحو الوحدة الصوفية أو الاتحاد الصوفي على

صعيد الحب ونهايتهما نهاية الشهداء ، شهداء العشق ،

لوقوف الدنيا منهما موقف العدو . ولهذا نجد جوتفريد

في مقدمته يتجه بقصة الحب الصوفية هذه إلى أصحاب

« القلوب الكريمة » وخدمهم ، ولا يتجه بها إلى العامة ،

الذين لا يطبقون الصوفية ولا يفهمون الربط بين الحب

والآلم ، بين الحياة والموت في كل واحد ، في وحدة واحدة على طريقة أهل الصوفية .

وجوتفريد بحديثه هذا عن أصحاب القلوب الكريمة يقسم الواقع إلى قسمين ، قسم رفيع وقسم وضعيع ويضع القسمين أحدهما ضد الآخر . والقسم الرفيع هو الذى ذاق الحب ، وخبره خبرة عميقة ، فبلغ الفضيلة وبلغ الشرف والرفعة (انظر القاعدة رقم ١٨ من قواعد كايبلان) . جوتفريد ينقل مفاهيم الصوفية من صعيد الدين إلى صعيد الحب ، ويستعمل مصطلحاتها . هدف العاشقين هنا اتحاد يلدن روحى على أرق مستوى ، ولا شأن له بالمعروف فى الاتحاد الصوفى ، اللهم إلا إذا عطينا المنهج . فى مفهوم الاتحاد الصوفى « الغراى » نقرأ هذه الآيات :

هائم وهائمة

رجل ، امرأة — امرأة رجل ،

تريستان ايزولد — ايزولد تريستان .

نراه يبدأ فى البيت الأول بربط الهائم والهائمة بحرف العطف « و » ، ثم ينتقل إلى التوحيد بينهما فيرفع حرف العطف ، فكأنما تريستان وايزولد كائن واحد . والحب عند جوتفريد شيء يقصد لذاته ، تريستان يحب ايزولد وينالها لا لأنه برع فى المغامرات وأتى بالكثير من أعمال القوة ، وإنما ينالها لأنه جدير بالحب (انظر قواعد كايبلان) ، وايزولد تستجيب للحب وتقابله بحب ولا تفعل ذلك مقدمة ثمناً أو مكافأة ، بل لاحتساسها ببقاء من يملأ قلبها . إنه حب فوق كل شيء ، حب لا حدود له . والحب هنا لا يسعى إلى الزواج ، وأتى له هذا ؟ (انظر القاعدة الكايبلانية الأولى) إنه حب لذاته ، فيه الحس وفيه الروح . وجوتفريد لا يجرد الحب من ناحيته الحسية ، بل يراها جانبها الظاهرى الذى لا بد منه لكمال الحب . وهكذا يخرج جوتفريد بمفهومه هذا عن المفهوم الاجتماعى . والمجتمع لا يعترف من الحب إلا بالزواج . وقد يعترف بالحب

المجرد عن الحس . أما هذا الحب فلا بد له من مكان آخر غير المجتمع بصورته المعروفة . ومن هنا يأتى تقسيم المجتمع إلى قسمين .

وقد كان تقسيم المجتمع إلى قسمين ، واحد معنا وواحد علينا ، شائعاً فى ذلك العصر ، فعاصر جوتفريد الشاعر فولفرم فون اشينباخ يقسم المجتمع إلى قسمين ولكن على أساس آخر هو : المقدرة الفرسانية . وفى قصة جوتفريد نشاط فرسانى ، على عادة العصر ، ولكنه لا يقسم المجتمع ، بل لا يواجه هذه المشكلة أبداً . هذا النشاط الفرسانى ثانوى ، يمهّد للأحداث الرئيسية ، مثلاً الصراع بين تريستان ومورولت : يمهّد للقاء تريستان وايزولد لا أكثر من ذلك ، فلست نجد تريستان يتوسل ببراعته وتفوقه على مورولت ليصل إلى قلب ايزولد ، بل على العكس لا بد لتريستان أن يخفى أمر هذا الصراع لأن مورولت هو خال ايزولد الحسناء . ويؤكد جوتفريد على ثقافة تريستان ، ويصفه بأنه كان يجيد القراءة ويحسن العزف ويتقن الكلام بأنه كان رجلاً يتميز بأدب الندماء . وكذلك ايزولد ، أروع ما يصفه بها جوتفريد هو « أنوثتها » هو طبيعتها الرقيقة . وأن ايزولد لتبقى امرأة فى كل حال ، امرأة بكل ما تتصف به المرأة من صفات مميزة . (قارن صورة المرأة فى النيبلر نجيلد مثلاً) .

والفصل الخاص بكهف الحب ، يصور قمة الاتحاد الصوفى بين الحبيبين اللذين عجز المجتمع بقسمة الوضع عن شمولها . ليس كهف الحب عند جوتفريد ، كما كان عند سابقه ، مكان هارپين طريدين ، بل هو رمز الاتحاد على أعلى مستوى له . الحبيبان عند جوتفريد لا يخرجان طريدين ، بل يسعيان إلى مكان خليق بهما . وجوتفريد يصور هذا المكان ، هذا الكهف ، كأنه الجنة ، ويضع فيه « سريراً من البلور » يرفع به مفهومه عن الحب إلى أعلى درجات النقاوة والصفاء .

ويظهر أن جوتفريد كان مقتنعاً من أن هذا اللون من الحب لا دوام له ، لأنه لا يستند على أساس من الواقع ، وأنه كان يريد أن يسير بقصته إلى المنقلب ، فأسف على سوء ما حدث للمحبين ، ويتابع التراجيديا إلى انحطاط الحب من الرفعة إلى الضعة . وربما أراد جوتفريد بعد مشهد الانحطاط ، أن يصور انتصار مفهومه في النهاية ، بقاء المحبين الخالدين ، واتحادهما في الموت إلى الأبد .

مخطوطات تريستان وإيزولد لجوتفريد

وصلتنا قصة تريستان وإيزولد الشعرية لجوتفريد فون شتراسبورج في مخطوطات أهمها ١١ مخطوطاً ، منها ستة مخطوطات من الرق :

م - مخطوط ميونيخ ويرجع إلى القرن الثالث عشر وهو محلى بالكثير من الصور ، ويرجع إلى القرن الثالث عشر ، ولكنه غير كامل .

هـ - مخطوط هايدلبرج ويرجع إلى القرن الثالث عشر أيضاً .

ب - مخطوط بلا نكهائيم ، وهو محفوظ الآن في الأرشيف التاريخي لمدينة كولونيا ، ويرجع إلى القرن الرابع عشر ، وهو محلى بالصور .

ف - مخطوط فلورنسا ، بالمكتبة القومية هناك ، ويرجع إلى القرن الرابع عشر .

ن - مخطوط برلين ، وهو بمكتبة برلين ، ويرجع إلى القرن الرابع عشر .

ف - مخطوط فيينا بالمكتبة الملكية ، ويرجع إلى القرن الرابع عشر .

أما المخطوطات الورقية الخمسة فهي ترجع غالباً إلى القرن الخامس عشر وهي خالية من الصور وبعضها يحمل عناوين لفصول قسم الناسخ القصص إليها . وهذه المخطوطات محفوظة في مودينا ، وفي كولونيا وفي برلين

وفي بروكسل وفي هامبورج (نسخة هامبورج هذه صنعت في القرن الثامن عشر في عام ١٧٢٢ نقلا عن نسخة خطية قديمة ، وهي تقسم القصة إلى ٢٦ فصلاً لكل عنوان مفصل يلخص مضمونه) .

وهناك مجموعة كبيرة من بقايا المخطوطات أو من المخطوطات الجزئية استعملها العلماء في تحقيق النص وفي الدراسات الفيلولوجية والأدبية المختلفة ، نكتفي بالإشارة إلى وجودها . أما الطبقات التي ظهرت للنص محققاً فنذكر منها طبعة ر. ييششتاين (لا بيتسج ١٨٦٩ وبعد ذلك) وطبعة مارولد (لا بيتسج ١٩٠٦ وبعد ذلك) ثم الطبعة الهامة التي أخرجها ف . رانكه عام ١٩٣٠ والتي اعتمدنا عليها في طبعة عام (١٩٦٥) .

وأول من أخرج نص تريستان وإيزولد في العصر الحديث (وكان أدب العصر الوسيط قد توارى تحت غبار الماضي والنسيان عدداً من القرون) هو كريستيان هاينريش مولر في مجموعته المسماة « سلسلة الآداب الألمانية في القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر » ، المجلد الثاني ، برلين عام ١٧٨٥ . ومنذ ذلك الحين كثرت الطبقات ، خاصة بعد أن أصبحت دراسات الآداب الألمانية في العصر الوسيط علماً خاصاً على يد الأخوين جريم في القرن التاسع عشر .

مكمولو تريستان وإيزولد

علمنا أن جوتفريد لم يتم قصته ، وأنه تركها ناقصة على الأرجح لموته . وقد تناول اثنان من الأدباء القدماء قصة جوتفريد واستعانوا بمؤلفات أخرى مشابهة لأكملها . هذان هما أولريش فون تورهايم (بين ١٢٢٥ و ١٢٣٥) وهاينريش فون فرايبرج (حول عام ١٢٩٠) . ولا شك أن اهتمام جماعة من الأدباء (ربما بإيعاز من الأمراء) باكمال هذا العمل الناقص دلالة على تقدير لقيمه ، وعلى استحسان القراء له . وقد أفدنا من هذا الاهتمام إفادة جوهرية تتلخص في معرفة اسم صاحب

« تريستان وايزولد » لأنه كان من عادة الأدباء ألا يذكروا أسماءهم إلا في آخر مؤلفاتهم (وربما ذكر بعض الأدباء اسمه في مقدمة مؤلفه كما فعل هرتمن فون أوى في « هاينريش المسكين ») ، وهكذا لم يرد اسم جوتفريد في قصته . ولكن أولريش فون تورهايم وهاينريش فون فرايبرج ذكرا اسم جوتفريد فصحت نسبة العمل إليه . وقد اعتمد الأدبيان المكملان على نص أيلهارت رغم اهتمام جوتفريد له بعدم معرفة القصة على حقيقتها ، وكان الأحرى بهما أن يعتمدا على المصدر الذي رجع هو بصفة أساسية إليه وهو نص توماس . ولكن نص أيلهارت كان أقرب مثالا وأكثر إغراء .

والملمح الذي أضافه أولريش فون تورهايم يتميز بالإيجاز الشديد ، وليست له قيمة أدبية كبيرة . ولأولريش فون تورهايم نشاط مشابه في اكمال قصة فيللاهلم للشاعر الألماني العظيم فولفم فون اشيناخ . ويبدو أن العصر عرف اتجاهاً يميل إلى اكمال أعمال الكبار التي لم تنح لهم الفرصة لا كالمها .

تريستان وايزولد بعد جوتفريد

لقيت مادة تريستان وايزولد رواجاً شديداً في البلاد المختلفة . في النرويج مثلاً ظهرت عام ١٢٢٦ قصة تريسترام النرويجي ، وفي إيطاليا ظهرت في مطلع القرن الرابع قصة حول تريستان ، وفي القرن الرابع عشر نشأت قصة تريستان التشيكية . وفي الوقت نفسه تقريباً ظهرت قصة السيد تريستاند في إنجلترا . أما في فرنسا فقد ظهرت — علاوة على ما سبق أن أشرنا إليه — قصة نثرية عن تريستان في النصف الأول من القرن الثالث عشر . وقد حظيت القصة بصيغها المختلفة باهتمام العلماء في فرنسا ، ولا بد أن نشير هنا إلى « رواية تريستان وايزو » التي صاغها جوزيف بدييه من جديد منذ أكثر من ربع قرن ، والتي نقلنا تقسيمها في موضع آخر من هذه الدراسة . والطريف في هذه الرواية أن بدييه

استخدم فيها النصوص الأساسية المعروفة كلها تقريباً ، استخدم توماس وبيرول وأيلهارت وجوتفريد ، واتباع منهاجاً وسطاً بين الترجمة والتأليف ، واصطنع أسلوباً شبيهاً بأسلوب العصر الوسيط .

أما الألمان فقد ألفوا قصة أخرى (قصيرة) عن تريستان في نهاية القرن الثالث عشر أو في مطلع القرن الرابع عشر في براج ، وألفوا في الوقت نفسه أو قبله بقليل في منطقة الألزاس عن الموضوع نفسه بعنوان « تريستان راهباً » وهي قصة مغامرات طريفة . ولما دخلت المطبعة ظهرت في ألمانيا رواية نثرية عن تريستان وايزولده طبعت في أواخر القرن الخامس عشر أكثر من مرة ، وكانت بحالة بالصور ، واعتمد النص على قصة أيلهارت خاصة . وقد ترجمت هذه الرواية الألمانية الشعبية إلى اللغة الدنمركية في منتصف القرن التاسع عشر ، وكانت الدنمرك تعرف رواية دنمركية باسم « تريستان وانديانا » منذ نهاية القرن الثامن عشر لا يعرف مصدرها ، وإن كان المعتقد أن يكون رواية ألمانية ضاعت . وأوحت الرواية الألمانية المطبوعة التي تحدثنا عنها ، إلى الشاعر العامل هانز زاكس بنحس أغان وبيتر اجيديا (عام ١٥٥١ و ١٥٥٣) . وفي عصر الرومانتيكية ظهر اهتمام مجدد بتريستان وايزولد فألف كارل ايمر من قصة شعرية (ملحمة) لم يتمها (١٨٤١) على أن الفضل يرجع إلى ريشارد فاجنر ، الشاعر الموسيقي ، في صياغة مادة تريستان وايزولد الصياغة النهائية في الدراما الموسيقية « تريستان وايزولده » . كتب فاجنر النص في عام ١٨٥٧ ووضع موسيقاه في عام ١٨٥٩ ، ومنلت الأوبرا لأول مرة في ميونيخ في عام ١٨٦٥ . وكان فاجنر في هذا الوقت متأثراً بحب مايلده فيزندونك وما لقيه فيه من خبرة عميقة خلاقة . وقد قرأ فاجنر تريستان وايزولد في ترجمة هـ . كورتنس (عام ١٨٤٤) وترجمة زيمروك (١٨٥٥) وتأثر « بشوبنهاور » وربما « بنوفاليس » ، فقم له من هذه

الموت وفي الموت ، هو الحنين إلى الحب والوصال في الموت ، هو الرمز الخالد لخلاص الإنسانية في وحدة الكل وانسجامه .

أمثلة من قصة تريستان وإيزولد

أعدت الملكة إيزولد الأم مشروب الحب السحري وأعطته للوصيفة برانجين وأوصتها الوصيفة التالية (البيت ١١٤٤٩ وما بعده) :

أخذت السيدة الحكيمة (الملكة إيزولد الأم) الشراب وتكلمت مع برانجين بصوت خفيض ،
قالت لها : « أى برانجين ، يا عزيزتى وبنت أختى أرجو ألا يكون كلامى ثقيلا عليك ،
فقد قررت أن تذهبي مع ابنتي في سفرها .

لذلك فافتحي لى ذهنك

وانتهبي إلى كل ما أقول لك :

اخلنى هذا الكأس بما فيه من شراب

واجعليه فى حفظك وصونك ،

وانتهبي إليه جداً أكثر من كل ما عداه .

حذار أن يأتى كائن من كان على الأرض

ويعمد يده إليه !

احفظيه بكل جد وجهد

حتى لا ينعم به أى إنسان .

واجتهدى أشد الاجتهاد

عندما تقترب إيزولد ومارك

من وصال الحب

أن تقدمي لها هذا الشراب على أنه نبيذ

ليشرباه معاً كله .

.....

لأنه شراب الحب والهيام :

فلا تنسى هذا قط .

وسارت السفينة بإيزولد وتريستان ومن معهما إلى أرض الملك مارك . وكانت إيزولد حزينة وكان تريستان يواسيها (١١٥٤٠ وما بعده) :

وأعطيت السيدة (إيزولد) فى الرحلة

بإشارة من تريستان

حجرة بالسفينة

خفية متوارية

لتقيم فيها .

هناك كانت الملكة

وفتياتها معها

ولا يخلل إليهن رجل أبداً

إلا تريستان من وقت لآخر :

فكان يدخل أحياناً

ويواسى الملكة

عندما كانت تجلس باكية .

كانت تبكى وتنتحب

لأنها تركت هكذا بلدها

الذى تعرف أهله

وتركت أصدقاءها جميعاً

لترحل مع قوم لا تعرفهم

.....

وهكذا كان تريستان يواسيها

على أحلى ما يستطيع

فى كل ساعة .

عندما كان الحزن يحل عليها .

كان يأخذها بين ذراعيه

بكل حلاوة ورفق

بطريقة لا تختلف عن

الزوج مع زوجته .

كان الرجل المخلص يجتهد

فى أن يكون للحساء

تخفيفاً عما بها من هم .
فلما تكرر

تطويقه إياها بذراعيه ،
فكرت ايزولد الجميلة
في موت خالها
وقالت له محنثة :

« كفاك يا ريس » (ريس المركب !) ، ابتعد ،
وابعد ذراعيك عني !
أنت رجل جد شرير ،
فلماذا تلمسني ؟

فيقول : « آه ، أيتها الجميلة ، هل أمسي التصرف ؟
فترد : « نعم ، لأنني أكرهك » .

ويتقرب تريستان إلى ايزولد ويحدث بينهما كلام
وعتاب . وفي الطريق يقتربان من الشاطئ طلباً للراحة ،
ويذهب من بالسفينة كل في ناحية ، ويبقى تريستان مع
ايزولد ، ويعطشان ، ويشربان على غير علم من الاناء
اللى به الشراب السحري ، فلذا بالحـب يشتعل في
قلبيهما . (١١٧٤٥ وما بعده) :

فلما أحس تريستان بالحـب
فكر على الفور

في الاخلاص والشرف

وأراد أن يحسم الأمر حسماً .

ولكنه ما لبث أن ثار على نفسه وقال :

« دع يا تريستان الأمور تجري مجراها
ولا تهتم » .

كان قلبه يريد أمراً

وكان هو يصارع إرادته ،

وكان يشتهي ضد رغبته .

كان يريد هذا ، ثم يريد ذاك .

وفي الطريق حاول الرجل الضائع

مراراً وتكراراً

محاولات كثيرة ، واجتهد في الاستقامة طويلاً .
وكان أمره مع الاخلاص

يضطرب بين حالين متلاصقتين قاسيتين :

كان كلما رآها بعينه

بدأ الحـب الجميل

يؤجج قلبه ويوقد حسه ،

ثم يفكر في الشرف ، فيصرفه فكره عن الحـب ،

ثم ما يلبث الحـب أن يعاوده ،

والحـب صاحب الأمر والنهي ،

فيحتـم عليه الامثال .

اختلجت في نفسه : الرغبة

والاخلاص والشرف في وقت واحد .

ولكن اختلاج الحـب كان أقوى

وكان يحدث به ما هو أشد من الألم ،

وكان يؤرقه

أكثر مما يؤرقه الاخلاص والشرف مجتمعين .

وكان قلبه ينظر إلى الاثنين ويضحك

وتشيع عيناه عنهما .

كان إذا لم يرها

يحس بالقلق أشد القلق .

وكثيراً ما كان يرى نفسه ،

مثل الأسير

الذى يريد الهرب

ثم يعود إلى التفكير ويقول في نفسه :

« قف في وجه هذا ! ورد ذاك !

اصرف هذه الرغبة !

ابعد هذا الحـب ! وفكر في شيء آخر »

ولكنه كان إذا تناول قلبه وحسه

وهو في الطريق

وحاول أن يغيرهما

لم يجد فيهما

إلا ايزولد والحـب .

مفاتيح العلوم

للخوارزمي

بمقام
الاستاذ سعيد زايدي

وضع مصطلحات علمهم ، وهم - فوق ذلك - قد يطلقون لفظاً واحداً في علم واحد على معنيين مختلفين ، ما داموا قد ارتضوا ذلك واصطلحوا عليه ؛ وهم كما يستمدون لفظاً من القصص في أنهم يستمدون آخر من العامية ، وكما يستعينون باللغة الحية فإنهم يستعينون باللغة الميتة .

والمصطلحات العلمية قديمة قدم العلم ، عرفت أيام قداماء المصريين ، وأيام ازدهار حضارة اليونان والرومان وقد عرفها العرب قبل ظهور الإسلام بقدر ما كان لديهم من علوم محدودة تدور في فلك محدود وتناسب مع حياتهم داخل الجزيرة العربية . وازدهرت بظهور الإسلام وما أتى به من نظم تغلغت في حياتهم الخاصة والعامية ونظمت العلاقات الفردية والعلاقات العامة . فوضعت أسس المعاملة في داخل الأسرة ، وأسست الصلة بين أفراد القبيلة وجمهور الأمة ، بل الإنسانية جمعاء ، وما ينبغي أن يسير عليه الفرد بالنسبة لربه وما تقتضيه العبادات من شروط وأحوال . فكما شرع الرسول صلى الله عليه وسلم أسس الأحكام الدينية ، فقد شرع أيضاً أسس الاصطلاح واستعمال الألفاظ ، فنبتت على يديه بلور الاصطلاحات الفقهية في القرن

١ - المصطلح العلمي هو اللفظ الذي يتفق عليه العلماء ليدلوا به على شيء محدود ، ويميزوا به معاني الأشياء بعضها عن بعض . وهو جزء من المنهج العلمي وركن أساسي في كل علم ، فـ « العلم لغة أحكم وضعها » كما قيل قديماً . فهو لغة التفاهم بين العلماء ، وهو الذي يعين على حسن الأداء ويدور عليه تبادل الآراء والأفكار ، وهو أيضاً النافذة التي يطل منها العلماء على غيرهم من الدارسين والمثقفين ، والأساس الذي يتبلور فيه التعاون بينهم ، إذ هو من ضرورات العلم وإحدى وسائله الهامة في التعليم ونقل المعلومات ، وبالمصطلحات العلمية تقرب المسافة ، ويختصر الطريق ، وتوضح الدلالة ، وتستساغ الحقيقة العلمية .

والمصطلحات العلمية تتبع بالضرورة تقدم العلوم وازدهارها ، مما يصاحبها من اكتشافات واختراعات . فليس من شك في أن التقدم والتطور - في مجال العلوم - تنتج عنه أشياء جديدة تقتضي مسميات فيصطلح العلماء على تسميتها تسمية توائم بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي الذي يختارونه أو لا توائم ، فإن العالم حر في اختيار اللفظ الذي يؤدي به الحقيقة العلمية . إذ من البليهي أن علماء كل علم هم ذوو الاختصاص المباشر في

الفرد ، والجوهر والعرض ، والحركة والسكون ، والجسم والروح ، وهى كلها ألفاظ عربية اختبرت فى دقة متناهية بما يلائم المعانى التى يراد التعبير عنها .

أما عصر الترجمة ، فقد مر بدورين : دور النقل المعجل لإشباع اللهم العقلى ، وقد كان من الطبيعى أن تتسلل فى هذا الدور بعض المصطلحات الأعجمية مثل : هيولى وأسطقس ، وفنطاسيا ، وناموس . . . الخ . ودور التمهيص والإيقان فيما تترجم ويترجم ، وفيه ظهر العقل العربى مارداً جباراً مستبصر المدارك مستنير الملكات ، فراجع ما نقل فى هدوء ووضع مصطلحات عربية خالصة بدلا من المصطلحات الأعجمية ، بل جدد وزاد وأبدع وأجاد .

وقد نقل المسلمون عن العبرية والسريانية والفارسية والهندية واللاتينية واليونانية . وترجموا بعض الكتب عدة مرات وفقاً للأصول التى عثروا عليها . وغذت مدارس الإسكندرية وجنديسابور وحران المسلمين بالكتب والمترجمين من مسيحيين ويهود وصابئة وهنود وفرس . وقد تكونت بفضل الترجمة مصطلحات علمية فى الطب والكيمياء والفلسفة والمنطق والسياسة وجميع العلوم التى ترجمت . واعتمد المترجمون فى هذا المجال على اللغة العربية أولاً ، فاستعملوا المجاز باستعارة ألفاظ ذات دلالات لغوية معروفة ، وشاءوا لها تأدية معانى جديدة ، ولجأوا فى بعض الأحيان إلى العلوم الأسبق تكويناً مستعملين بعض مصطلحاتها للتعبير عن المعانى الجديدة ، وبهذا ظهر بعض المصطلحات المشتركة بين العلوم المختلفة عند المسلمين ، كما أشار الخوارزمى ، وكما سنبين ذلك فى جزء لاحق من هذا الفصل إن شاء الله .

ولم يقف العرب عند هذا ، بل نحتوا ، واشتقوا ، واستعملوا المصدر الصناعى . فقالوا بالهوية والماهية وما إلى ذلك ، وضموا « لا » النافية لينشئوا لفظاً جديداً

الأول للهجرة ، وذلك بنقله بعض الألفاظ من معانيها اللغوية إلى حقائق عرفية شرعية . وقد ظهرت آثار هذا الثبت وأبنت فى القرن الثالث الهجرى بفضل المدينة التى ازدهرت من أواخر القرن الثانى الهجرى فأثرت فى كل شىء بما فى ذلك تفكير الناس وتعبيرهم ، وبفضل التدوين ، فإن التدوين يستلزم تحديد المعانى فى ألفاظ تدون للدلالة عليها ، ويقتضى صيغ الأحكام بالصيغة العلمية . ولقد كان للاختلاف بين فقهاء الحجاز وفقهاء العراق أثره الواضح فى إمعان النظر فى أدلة الأحكام ومصادرها وتحديد ما يدل عليه الدليل وتمييزه عن غيره . وقد أدى ذلك إلى وضع كثير من المصطلحات التى كونت ثروة ضخمة ظهر أثرها جلياً فى دراسة العلوم القانونية باللغة العربية .

وكما أثرت مدنية الإسلام فى الدراسات الفقهية ، فقد ظهر أثرها أيضاً فى العلوم الأخرى . فنشأت دراسات أسفرت عن علوم واضحة المعالم منهجية الأسس فى اللغة والدين والقرآن والحديث والشرعية بصفة عامة ، علوم تداولها العلماء وعلموها لطلابهم وذخرت بالمصطلحات العلمية .

ولقد كان لمدرسة المفكرين الأحرار فى الإسلام وهى مدرسة المعتزلة بحوث عقلية هدفها الملاءمة بين العقل والنقل . فكان من الطبيعى أن تظهر فى كتاباتهم مصطلحات واضحة ذات مفهوم محدد ، استعملوها فى مجادلاتهم ومجلوها فى كتبهم ، مثل كتاب المغنى لشيخهم القاضى عبد الجبار الهمداني الذى نشرت أغلب أجزائه أخيراً . فن أصولهم الخاصة اصطلاحات العدل والتوحيد ، والوعد والوعيد ، وما يتبعها من الصلاح والأصلح والحسن والقبيح العقليين والجبر والاختيار وما إلى ذلك ، ثم المنزلة بين المنزلتين ، والقول بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد تبني الفلاسفة المسلمون ، بعد ذلك ، كثيراً من مصطلحاتهم مثل الجزء الذى لا يتجزأ أو الجوهر

فقالوا بالأدرية واللاتهائية وهو ما يسمى بالتركيب المزدوج .

وهكذا نرى أن العرب قد لجأوا في مصطلحاتهم العربية والدخيلة إلى المجاز والاشتقاق والترجمة والتعريب ولم يستعينوا بالنحت إلا في النادر ، ولجأوا أيضاً إلى التركيب المزدوج .

وهناك كتب كثيرة تناولت المصطلحات العربية ، منها كتب عامة أى تعرضت لمجموعة من العلوم ، ومكتب خاصة تخصصت في فن معين . ونذكر منها على سبيل المثال - لا الحصر - كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي المتوفى سنة ١١٥٨ هـ ، وكليات العلوم لأبي البقاء الحسيني المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ ، والتعريفات للجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ هـ ، والبصائر النصيرية في علم المنطق للساوي المتوفى سنة ٣٨٠ هـ . وكتاب مفاتيح العلوم للخوازمي .

٢ - حياة الخوارزمي

إن الخوارزمي الذي نقصده هنا ، هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب البلخي الخوارزمي ، وهو باحث من أهل خراسان . وقد قال عنه ابن خلكان في « وفيات الأعيان » والمقرئ في « خطط المقرئ » إنه محمد بن أحمد بن يوسف ، وانفرد المقرئ بإضافة لقب « البلخي » بدلا من قوله « الخوارزمي » . وهو عالم آخر غير أبي عبدالله محمد بن موسى الخوارزمي ، الرياضي المعروف ، والذي عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجري . إذ أن عالمنا هذا عاش في القرن الرابع الهجري ، وألف كتابه الوحيد وأهداه إلى أبي الحسن عبيدالله بن أبي العتي الذي كان وزيراً من وزراء نوح الثاني الساماني ، فقد كان يشغل منصباً إدارياً في بلاطه بنيسابور من سنة ٣٦٦ حتى سنة ٣٨٧ هـ .

وبقدر ما ذخرت المراجع العامة بأخبار محمد ابن موسى الخوارزمي ، وأفاضت في ذكر أنجازه وكتبه ، فقد ضنت على محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي ، فلم يذكر أغلبها عنه شيئاً ، والذي ذكر عنه لم يزد على مقتطفات هزيلة ، وكذلك الحال بالنسبة للمراجع الأجنبية التي حفلت بذكر أخبار العالم الأول ، فقد نال شهرة عظيمة عند الإفرنج ودخل اسمه المعاجم الإفرنجية فقبل : *Algorithmus Guarismo Algorithm* . وقد تعلم أهل الغرب علم الحساب عن كتابه في الحساب بعد أن ترجم إلى اللاتينية وعن كتب أخرى بنيت على هذا الكتاب . وقد نشر فردريك روزن النسخة العربية لكتاب الجبر والمقابلة للخوازمي سنة ١٨٣١ م وطبعها في لندن ونشر معها ترجمة إنجليزية له مع تعليق باللغة الإنجليزية . وبعد ذلك ترجم « مار » الفصل الخاص بالمساحات معتمداً على النسخة التي حققها روزن . وفي سنة ١٩١٥ نشر كاربنسكي ترجمة عن النسخة اللاتينية التي ترجمها روبرت أوف تشستر عن الأصل العربي . هذا ، وقد حقق الكتاب المرحوم الدكتور علي مصطفى مشرفة والدكتور محمد مرسي أحمد عن نسخة محفوظة بأكسفورد ، ونشر هذا التحقيق في القاهرة سنة ١٩٣٧ . وللخوازمي هذا غير كتاب الحساب وكتاب الجبر والمقابلة كتاب في تقويم البلدان شرح فيه آراء بطليموس وكتاب رابع جمع بين الحساب والهندسة والموسيقى والفلك . (الدليل البيولوجرافي ، ط . مركز تبادل القيم الثقافية ، ص ٣٢٠ ، القاهرة ١٩٦٥) .

ويقول فان فلوطن G. Van Vloten الذي نشر كتاب « مفاتيح العلوم » في ليدن في يناير سنة ١٨٩٥ وقدم له باللغة اللاتينية إن الخوارزمي (أبو عبدالله محمد ابن أحمد بن يوسف) كان يستعمل مقاييس وأوزان أهل خراسان في إشرافه على توزيع المياه في مرو . وكان الخوارزمي على علم تام باللغة الفارسية ، فقد كان يرجع الكلمات العربية إلى أصلها الفارسي . ومن المحتمل أنه

كان يعرف شيئاً من اللغات اليونانية والسريانية والسكربتية . وما لا شك فيه أن معرفته بهذه اللغات أفادته من مؤلفات العلماء أمثال أقليدس ونيقوماخوس وهيرو وفيلون . غير أنه لم تكن من عاداته ذكر أسماء المراجع التي اعتمد عليها إلا فيما ندر ، عدا ما يتعلق بالخليل بن أحمد الذي جاء ذكره في كتابه ثلاث عشرة مرة ؛ وذكر أيضاً أسماء ابن درستويه والأصمعي وابن المقفع ورسائل إخوان الصفاء .

ولم تذكر المراجع تاريخ مولد الخوارزمي ؛ واتفق أغلبها على ذكر تاريخ الوفاة ، فقد ذكر المستشرق فيدمان E. Wiedemann في دائرة المعارف الإسلامية وحاجي خليفة في كشف الظنون وفان فلوتن G. Van Vloten في مقدمته لمفاتيح العلوم وبروكلمان في تاريخ الآداب العربية وجورج سارتون في المدخل إلى تاريخ العلوم Introduction to the History of Science أن الخوارزمي توفي سنة ٣٨٧ هـ . ولكن البغدادى في كتابه تاريخ العارفين قال إنه توفي حوالى سنة ٣٨٠ هـ . وفي رأينا أن التاريخ الأول هو الأصح إذ أنه ظل يعمل في بلاط نوح الثاني الساماني من سنة ٣٦٦ هـ حتى سنة ٣٨٧ هـ .

٣ — مفاتيح العلوم

لم يدلنا أى مرجع من المراجع العامة التي تحدثت عن الخوارزمي أن له كتاباً آخر غير كتاب مفاتيح العلوم . وقد نشر الكتاب في القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ أى منذ ثلاثة وأربعين عاماً في مائة وخمسين صفحة من القطع الكبير ، وذيل بفهرس عام في أربع صفحات . ولم يكتب على غلافه إلا العبارة التالية التي تقول « عنى بتصحيحه ونشره للمرة الأولى سنة ١٣٤٢ هـ إدارة الطباعة المنيرية » . وقد قام النشر على نسخة خطية مكتوبة بخط نسخ متوط واضح القراءة ، على ما يبدو من إحدى ورقات المخطوط التي صورت وظهرت في أول الكتاب . ومن أسف لم يكشف الناشر عن اسم

المخطوط ولا عن المكان الذي حفظ فيه . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإننا لا نستطيع القول بأن هذا النشر محقق ، فهو لا يبدو أن يكون طبعة للمخطوط كما هو بدون تعليق أو شرح أو حتى تصحيح .

وليس صحيحاً أن هذا النشر هو الأول كما ذكرت طبعة القاهرة ، إذ أن كتاب مفاتيح العلوم طبع طبعة علمية أخرى منذ أكثر من سبعين عاماً في لندن ، بتحقيق فان فلوتن G. Van Vloten في يناير سنة ١٨٩٥م معتمداً في نشره على خمس مخطوطات ، متخذاً مخطوطة لندن أساساً ، ومراجعاً لها على أربع مخطوطات أخرى : ثلاث مخطوطات من المتحف البريطاني ، والرابعة هي مخطوطة برلين التي توجد ضمن مجموعة لاندبرج . وقد قدم له الناشر بمقدمة ضافية ، وإن لم يذيله بفهرس عام كما فعلت نشرة القاهرة ، اكتفاء بالتقسيم الذي ذكره المؤلف في أول الكتاب للمقالات والأبواب والفصول وقد وقعت نشرة فلوتن في ثلاثمائة وثمان وعشرين صفحة من القطع الكبير ، منها مائتان وستة وستون صفحة للنص ، وثلاث وخمسون صفحة للمصطلحات التي وردت في الكتاب ، وتسع صفحات لأسماء البلدان عدا مقدمة باللغة اللاتينية في سبع صفحات .

هذا ، وقد نشرت الألفاظ الاصطلاحية التاريخية التي وردت في الكتاب في المجلد السابع من المحلة التاريخية المصرية سنة ١٩٥٨ مضبوطة محققة بمعرفة الدكتور يحيى الخشاب والدكتور الباز العريفي ومقدماً لها بقلم المحرم الأستاذ محمد شفيق غربال . وقد انفرد الدكتور يحيى الخشاب بضبط الفصولين الأول والثاني من الباب الثاني من المقالة الأولى المختص بعلم الكلام : وموضوع الفصل الأول « في مواضع متكلمي الإسلام » ، وموضوع الفصل الثاني « في ذكر أسامي أرباب الآراء والمذاهب الإسلامية » . وأورد شروحاً على ما ورد فيهما من مصطلحات من كتب : كشاف اصطلاحات الفنون للهانوي ، وكتاب تبصرة العوام في معرفة مقالات

الإنعام للسيد المرتضى ، والترجمة العربية لكتاب بيان الأديان ، وكتاب الملل والنحل للشهرستاني ، والترجمة العربية لكتاب شرفنامه ، وكتاب الزيدية ومنشأ نحلهم لأحمد تيمور ، وكتاب تاريخ الزيدية وأصل عقيدتهم لعباس العزاوي ، وكتاب مختصر كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي ، ومختصر كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي بقلم عبد الرازق بن رزق الله الرسغني ، وكتاب الفهرست لابن النديم ، وكتاب أصل الشيعة وأصولها للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، وكتاب تنسر ترجمة يحيى الخشاب عن الفارسية ، وكتاب التبصير في الدين للأسفرائيني ، وكتاب ناصر خسرو (بالفرنسية) ليحيى الخشاب ، وغير ذلك من المراجع .

والإنعام للسيد المرتضى ، والترجمة العربية لكتاب بيان الأديان ، وكتاب الملل والنحل للشهرستاني ، والترجمة العربية لكتاب شرفنامه ، وكتاب الزيدية ومنشأ نحلهم لأحمد تيمور ، وكتاب تاريخ الزيدية وأصل عقيدتهم لعباس العزاوي ، وكتاب مختصر كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي ، ومختصر كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي بقلم عبد الرازق بن رزق الله الرسغني ، وكتاب الفهرست لابن النديم ، وكتاب أصل الشيعة وأصولها للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، وكتاب تنسر ترجمة يحيى الخشاب عن الفارسية ، وكتاب التبصير في الدين للأسفرائيني ، وكتاب ناصر خسرو (بالفرنسية) ليحيى الخشاب ، وغير ذلك من المراجع .

واشترك الدكتور يحيى الخشاب مع الدكتور الباز العريني في ضبط وتحقيق الفصل الخامس من الباب الثاني من المقالة الأولى أيضاً ، وعنوانه « في أسامي أرباب الملل والنحل المختلفة » ، والفصل السادس الذي يتكلم عن « عبدة الأصنام من العرب وأسماهم أصنامهم » ، والباب الرابع بأكمله ويحتوي على ثمانية فصول تتناول الكلام عن الألفاظ التي تستعمل في كتابة الدواوين كديوان الخراج وديوان الخزن وديوان البريد وديوان الجيش وديوان الضياع والتفقات وديوان الماء ، ومواصفات كتاب الرسائل ، وكذلك الفصول الأول والثالث والسادس والثامن والتاسع من الباب السادس الذي يتكلم في الأخبار فيذكر ملوك الفرس وألقابهم وملوك اليمن في الجاهلية وألقابهم ، ويذكر بعض الألفاظ التي يكثر جريها في أخبار الفرس وأخبار عرب الإسلام وملوك عرب الجاهلية وملوك الروم . وقد قام الدكتور يحيى الخشاب بضبط وتحقيق الألفاظ الفارسية وقام الدكتور الباز العريني بضبط وتحقيق الألفاظ العربية معتمدين على بعض المراجع العامة .

قلنا إن الخوارزمي كتب كتابه للوزير أبي الحسن عبيد الله بن أحمد العتبي . وقد بين ذلك في المقدمة

القصيرة التي قدم بها الكتاب . ومفاتيح العلوم - كما يتبين من اسمه - يعد مدخلا للعلوم ومفتاحاً لأكثرها . ويتحدث عن الألفاظ المصطلح عليها في كل علم والتي تواضع عليها العلماء واففقوا على معانيها والمحال الذي تستعمل فيه ، وهي ألفاظ - كما يقول الخوارزمي - خلقت منها أو من جلها كتب اللغة . وقد نحري في مصطلحاته « الإيجاز والاختصار » ، وتوفى التطويل والإكثار ، وابتعد عن ذكر المشهور والمتعارف بين الجمهور ، وكذلك الغامض الغريب الذي يحتاج إلى شرح طويل وتفسير كثير .

وقد قسم الخوارزمي « مفاتيح العلوم » إلى مقاليتين : تحتوى المقالة الأولى على ستة أبواب ، فيها اثنان وخمسون فصلاً ، وتحتوى المقالة الثانية على تسعة أبواب ، فيها واحد وأربعون فصلاً ؛ وبذلك يكون الكتاب كله يحتوي على خمسة عشر باباً ، فيها ثلاثة وتسعون فصلاً . وقد خصص المقالة الأولى بالعلوم الأدبية أو ما يغلب عليها روح الأدب من فقه وعلم كلام ونحو وكتابة دواوين وشعر وعروض وأخبار . وخصص المقالة الثانية بالعلوم التي تغلب فيها روح العلم من فلسفة ومنطق وطب وحساب وهناسة وعلم النجوم وموسيقى وحيل وكيمياء .

ويبدأ الخوارزمي كتابه بالحديث عن الفقه في الباب الأول من المقالة الأولى ، فيتكلم في أصول الفقه والطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج وشروطه والبيع والنكاح والديات والفرضة والنواذر . فهو في أصول الفقه يذكر أنها ستة أصول : ثلاثة متفق عليها وهي الكتاب والسنة والإجماع ، وثلاثة مختلف فيها وهي القياس والاستحسان والاستصلاح ؛ وهو في كل ذلك يضع شروحاً وتعريفات توضح السبيل لمن يشتغل بعلم الأصول . أما فيما يتعلق بالطهارة ، فيعرف الخوارزمي الماء المضاف ، والماء المطلق ، والماء المستعمل ، وسور الكلب ، والنحري ، والاستنثار . وفي فصل

الصلاة والأذان يعرف التثويب والترجييع والتحرير والتشهد . ويتحدث عن الصوم فيعرف القلس والاعتكاف ، والفجر الأول ، والفجر الثاني . ثم يعرف - عند الكلام على الزكاة - الورق ، والنصاب ، والركاز ، والكسعة ، وما إلى ذلك من أوزان ومكاييل تستعمل في مجال القرض الثالث من فروض الإسلام . وعندما يتكلم عن الحج يعرف القران ، والتمتع ، والإفراد ، والاستلام ، والهدى ، والتجمير . وفي الفصل السابع يتكلم عن البيع والشركة ، فيعرف بيع العرايا ، وبيع الغرر ، وبيع المزابنة ، وبيع المحاقلة ، وبيع النجش ، وبيع المضاربة . ثم يتناول الكلام عن النكاح والطلاق في الفصل الثامن ، فيعرف زواج الشغار ، وزواج المنة ، وطلاق الظهار ، والإيلاء ، والملاعة ، والقرء ، والاستبراء ، والمحلل . ويتكلم عن الديات في الفصل التاسع ، فيعرف الغرة والقسامة ، والأرث والشجاج . وفي الفصل العاشر يتكلم في الفريضة فيعرف العصة ، والكلالة ، والأكدرية ، ثم يعرف التناسخ في مجال الوراثة . وعندما يتكلم عن النواذر في الفصل الحادى عشر يعرف اليمين ، والنكول ، والجرح والحجر والتدبير ، والمكاتب ، والتعجيز ، والرقبي .

وهكذا يسير الخوارزمي فيما يتعلق ببقية أبواب وفصول المقالة الأولى من كتابه ، فيعرف المصطلحات التي ترد في علوم اللغة والكلام والنحو والشعر والعروض والأخبار .

أما المقالة الثانية من « مفاتيح العلوم » فهي - كما قلنا - تتناول الفلسفة والمنطق والطب وعلم العدد والهندسة وعلم النجوم وعلم الموسيقى وعلم الحيسل والكيمياء . ويبدأ الخوارزمي مقالته هذه بالكلام في الفلسفة ، وقد اعتبرها من علوم العجم وهي العلوم التي وقف عليها هذا الجزء من كتابه ، وقد قسم الباب الخاص بها إلى ثلاثة فصول : تكلم في الفصل الأول عن

أقسام الفلسفة وأصنافها ، وفي الفصل الثاني عن « جمل ونكت عن العلم وما يتصل به » ، وفي الفصل الثالث عن « ألفاظ ومواضعات يكثر جريها في كتب الفلسفة » أما فيما يتعلق بأقسام الفلسفة ، فيبدأ الخوارزمي الكلام فيها بأن كلمة الفلسفة مشتقة من كلمة يونانية وهي فيلاسوفيا وتفسيرها محبة الحكمة ، « ومعنى الفلسفة علم حقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح » . ثم قسمها قسمين : جزء نظري ، وآخر عملي . والنظري له ثلاثة أقسام : قسم يفحص فيه عن الأشياء التي لها عنصر ومادة ويسمى علم الطبيعة ، وقسم يفحص فيه عن ما يخرج عن العنصر والمادة ويسمى علم الأمور الإلهية ، وقسم يفحص فيه عن أشياء موجودة في المادة لا عن أشياء لها مادة مثل المقادير والأشكال والحركات ويسمى العلم التعليمي والرياضي . وهذا القسم متوسط بين العلم الأعلى وهو الإلهي وبين العلم الأسفل وهو الطبيعي . ثم يتناول الخوارزمي الفلسفة العملية فيقسمها إلى ثلاثة أقسام أيضاً : القسم الأول هو علم الأخلاق ، والثاني تدبير المنزل ، والثالث السياسة . ويرجع المؤلف مرة أخرى إلى الفلسفة النظرية ليذكر الفروع التي تقع تحت أقسامها ، فيذكر أن العلم الطبيعي يندرج تحته علم الطب وعلم الآثار العلوية وعلم المعادن والنبات والحيوان وجميع طبائع الأشياء التي تقع تحت فلاك القمر ، وكذلك صناعة الكيمياء . ويذكر أن العلم التعليمي والرياضي ينقسم إلى أقسام أربعة : الارثماتيقي أي علم العدد والحساب ، والجيومطريا أي علم الهندسة ، والاسطرانوميا أي علم النجوم ، وعلم الموسيقى . هذا فيما يتعلق بأقسام العلم الطبيعي والعلم التعليمي . أما العلم الإلهي فقد أفرد له الخوارزمي فصلاً خاصاً به سماه « في جمل العلم الإلهي » ، فذكر أن « الله تبارك وتعالى وعز وعلا هو موجد العالم وهو السبب الأول والعلة الأولى وهو الواحد والحق ، وما سواه لا تخلو من كثرة من جهة أو جهات ، وصفته الخاصة أنه واجب الوجود ، وسائر الموجودات

ممكنة الوجود . ثم عرف العقل الفعال بأنه القوة الإلهية التي يهتدى بها كل شيء في العالم العلوى والسفلى من أفلاك وكواكب وجناد وحيوان وإنسان . وعرف أيضاً العقل الهبولانى ، والنفس ، والنفس الكلية ، والنفس العامة . ويخلص الخوارزمى بعد ذلك إلى الفصل الثالث الذى خصه بالألفاظ التي تذكر كثيراً في الفلسفة ، فعرف الهبولى ، والصورة ، والأسطقس ، والكيفيات الأولى ، والمكان ، والخلاء ، والزمان ، والمدة ، والجسم الطبيعى ، والجسم التعليمى ، والتجزؤ الطبيعى ، والتجزؤ التعليمى ، وفتطاسيا التي قال فيها إنها القوة الخيلة من قوة النفس وهي التي يتصور بها المحسوسات في الوهم وإن كانت غائبة عن الحس وتسمى القوة المتصورة والمصورة . وعرف أيضاً الأرواح عند الفلاسفة ، ورأى أنها ثلاثة أقسام : الروح الطبيعية وتشترك بين الحيوان والنبات ، والروح الحيوانية وتشترك بين الحيوان الناطق وغير الناطق ومكانها القلب والروح النفسانية وهي تخص الإنسان ومكانها الدماغ . ثم عرف الكون والاستحالة والإرادة والمحال والكيان والنواميس .

أما الباب الثانى من المقالة الثانية فقد خصه الخوارزمى بالكلام في المنطق وقسمه إلى تسعة فصول : تكلم في الفصل الأول عن إيساغوجى أى المدخل ، والثانى عن قاطيغورياس أى المقولات ، والثالث عن بارى ارمينياس أى العبارة ، والرابع عن أنولوطيقا أى القياس ، والخامس عن أفودقبيقى أى البرهان ، والسادس عن طوبيقى أى الجدال ، والسابع عن سوفسطيقى أى السفسطة ، والثامن عن ريطوربيقى أى الخطابة ، والتاسع عن بيوطبيقى أى الشعر . ويلاحظ أنه اتبع التقسيم التقليدى لأجزاء المنطق الذى عرف منذ أرسطو وسار عليه فلاسفة الإسلام : وما كان له أن يفعل غير هذا ، وهو الذى لا يهتم بالموضوع بقدر اهتمامه بالمصطلحات الواردة في العلم .

وقد تناول المؤلف في الباب الثالث من هذه المقالة موضوعات الطب في سبعة فصول : فتكلم في الفصل الأول عن التشريح كما عالج الأمراض والأدواء والأغذية ثم الأدوية المفردة والمركبة وأوزان الأطباء ومكاييلهم في بقية فصول هذا الباب . وقد عرف الشرايين والعروق والعضلات والأعصاب والمشيمة والشبكة والقرنية والاثني عشر وغيرها ، كما عرف من الأمراض السفنة والهبرية والبهق والحصف والقوباء والجذام والسح والسرطان والصرع والبرقان ، كما تكلم عن الأدوية المفردة فقال : إنها إما نباتية وهي ثمر أو جذور أو زهر أو ورق أو قصبان أو أصول أو قشور أو عصارات أو ألبان أو صمغ ، وإما مدنية ، وإما حيوانية ، وشرح الأفاقد والسنبلى الهندى والميعة والساذج والضرو والجنتاياتا والبروج وعصى الراعى وعنب الثعلب ولسان الثور .

وفي الباب الرابع تعرض الخوارزمى لموضوعات الأريثماتيقي ، فعرف الكمية المفردة والكمية المضافة والأعداد والنسبة وحساب الهند وحساب الجمل ومبادئ الجبر والمقابلة .

وتناول في الباب الخامس الهندسة وعالج موضوعاتها في أربعة فصول : الأول في مقدمات الصناعة ، والثانى في الخطوط ، والثالث في البسائط ، والرابع في المجسمات .

وتحدث في الباب السادس عن علم النجوم ، فعرض أسماء النجوم السيارة والثابتة وصورها وتركيب الأفلاك وآلات المنجمين كالاسطرلاب وأنواعه المختلفة من هلالى وكروى وزورقى وصدنى وغيرها .

وخص الباب السابع بالموسيقى وآلاتها وإيقاعاتها . والباب الثامن بالحيل من نحو جر الأثقال بالقوة البسيرة وآلاته ، وآلات الحركات .

وختم الخوارزمى كتابه بالباب التاسع من المقالة الثانية وخصه بالكيمياء وقسمه إلى فصول ثلاثة : فصل

في آلات الصناعة ، وآخر في العقاقير والأدوية من الجواهر والأحجار ، وثالث في تدبيرات هذه الأشياء ومعالجتها .

والخوارزمي في جميع فصول كتابه يعرف المصطلحات تعريفات مختصرة أحياناً ، أو تعريفات تقرب من الشروح أحياناً أخرى ، وإن كان إلى المنهج الأول أميل . وهو في تعريفاته على العموم يراعى الدقة والإيجاز ويضع اللفظ في مكانه المناسب ويستخدم التعبيرات العلمية .

وبما لا شك فيه أن الخوارزمي في كتابه « مفاتيح العلوم » يعد من العلماء المستقرئين ذوى الاطلاع الواسع والقراءة الشاملة ؛ فقد اطلع على ما كتبه غيره من علماء وفقهاء وفلاسفة ومتكلمين ، واستخلص تعريفاته من مجالات استعمالها ؛ وهذا شأن من يريد أن يبرز المصطلح العلمى في الحقل الثقافى ، فهو يهتم أساساً بما تواضع عليه علماء كل علم وبما اصطالحوا عليه ، وباللفظ الذى نال حياة في كتاباتهم ، ثم يسجل هذا كله في قاموس مصطلحاته . فالمهمة الأساسية لواضع القاموس الاصطلاحي هي التسجيل بالإضافة إلى الثقافة الواسعة والتزام المنهج العلمى في التبويب ، وهو ما نلاحظه في كتاب مفاتيح العلوم وما يبدو واضحاً في فصوله المختلفة . فإنه يذكر المصطلح الواحد في أماكن متفرقة في كتابه حسب التبويب الذى سار عليه ، ويفرق - بالطبع - بين استعماله عند طائفة من أهل العلم وبين طائفة أخرى غيرهم . فهو في الفصل الأول من الباب الثانى من المقالة الأولى الذى خصه بالكلام عن « مواضع متكلمى الإسلام » يذكر تعريف « الشيء » عند المتكلمين بأنه « ما يجوز أن يخبر عنه وتصح الدلالة عليه » . وفي مكان آخر من الكتاب يذكر أن « الشيء » في كلام أهل الجبر والمقابلة هو الجذر المجهول ، وذلك في الفصل الخامس الذى عنوانه « في وجوه الحسابات »

من الباب الرابع من المقالة الثانية عند الكلام في الأريطاطيقي .

ويعرف « المعلوم » - عند المتكلمين - بأنه « ما يصح أن يقال فيه هل يوجد ، والمعلوم هو المنتهى الذى ليس بكائن ولا ثابت » ؛ ويقول بصدده - في مجال الكيمياء - « إن الخارصينى جوهر غريب شبيه بالمعلوم » .

ويعرف « الجوهر » - عند المتكلمين بأنه « المحتمل للأحوال والكيفيات المتضادات » ويعرفه - عند الفلاسفة - بأنه « كل ما يقوم بذاته كالسما والكوكب والأرض وأجزائها والماء والنار وأصناف النبات والحيوان وأعضاء كل واحد منها » .

ويذكر معنى « الاسم » - عند النحويين - بأنه أحد أجزاء الكلام الثلاثة . ثم يذكره - عند المنطقيين - بأنه « كل لفظ مفرد يدل على معنى ولا يدل على زمانه المحدود ، كزيد وخالد » .

ويعرف « الخط » - عند المتكلمين - بأنه « المجتمع من الجواهر طولاً فقط » ؛ ويقول - عند الكلام في الأعداد المسطحة والمخسمة - « إن الواحد بمنزلة النقطة لأنه لا يتقسم ، الاثنان بمنزلة الخط لأنهما لا يتقسمان إلا مرة واحدة ، كما أن الخط لا يتقسم إلا طولاً » . وفي مجال علم الجغرافيا يعرف خط الاستواء قائلاً : « إن خط الاستواء من الأرض هو الخط الذى يقابل معدل النهار ، وهو حيث يرى القطبان الجنوبي والشمالي ملاصقين للأرض ، والليل والنهار مستويان فيه أبداً » . وعند الكلام « في آلات المنجمين » يقول : « إن خط الاستواء هو الخط المقسوم الآخذ من المشرق إلى المغرب المار على مركز الصفيحة . وخط نصف النهار هو الخط الذى يقطع خط الاستواء على زوايا قائمة وابتدأه من العروة » .

ويعرف « الرجعة » عند الشيعة - بأنها عند بعضهم رجوع الإمام بعد موته » ، وعند بعضهم الآخر

— في المنطق — « اسم للمقولة السابعة ويسمى النصفة وهي مثل القيام والقيود . . . » .

هذه بعض المصطلحات التي وردت في كتاب « مفاتيح العلوم » والتي تستعمل في علوم مختلفة ، سقناها للدلالة على مدى الدقة التي وصل إليها المصطلح العلمي عند القدماء ، ومدى وضع المعنى الاصطلاحي في تعبير موجز دال ، ومدى أهمية كتاب الخوارزمي في محاولة دراسة شاملة للمصطلحات العلمية عند العرب . وإن المتأمل فيها ليرى تلك العقلية الفذة التي كان لها أثر واضح في كل مجالات العلم الموضوعية وكيف امتد هذا الأثر إلى المجال الاصطلاحي .

٤ — منتخبات من الكتاب

١ — في أصول الفقه : أصول الفقه المتفق عليها ثلاثة : كتاب الله عز وجل ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإجماع الأمة . والمختلف فيها ثلاثة : القياس ، والاستحسان ، والاستصلاح . فأما كتاب الله سبحانه ، فإن سبيل الفقيه أن يعرف تأويله ووجوه الخطاب فيه من الخصوص والعنوم ، والناسخ والمنسوخ ، والأمر والنهي ، والإباحة والحظر ، ونحوها مما شرح في التفسير وكتب الدين . وأما سنة الرسول صلى الله عليه وسلم فهي ثلاثة أضرب : أحدها القول ، والثاني الفعل ، والثالث الإقرار . فالقول ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال . والفعل ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه فعله . والإقرار ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه أقر عليه قومه ولم ينكره عليهم . ثم من الأخبار (خبر التواتر) وهو ما رواه جماعة من الصحابة وقد اتفق عامة الفقهاء على قبوله . ومنها ما هو (خبر الواحد) وهو ما يرويه الرجل الواحد من الصحابة ، وأكثر الفقهاء يقولون بقبوله على شرائط يطول الكلام بذكرها . ومن الحديث ما هو متصل ، وهو الذي إلى النبي صلى الله عليه وسلم

« رجوعه بعد غيبته » . ويقول عنها — عند علماء الفلك — « بأن رجوع الكواكب ورجعتها هو سيرها طولاً على خلاف نضد البروج » . ويعرفها — في ألفاظ ديوان الكتابة — بأنها « حساب يرفعه المعطى في بعض العساكر بالنواحي لطمع واحد إذا رجع إلى الديوان » ، و « الرجمة الجامعة يرفعها صاحب ديوان الجيش لكل طمع من صنوف الاتفاق » .

ويعرف « الردف » — في علم العروض — بأنه « حرف لين قبل الروي مثل ياء . . . » ، ويعرفه — في علم الأخبار — بأنه « هو خليفة ملك الحيرة وكان له المربع من الغنائم وكان يجلس على يمين الملك ويشرب بعده قبل الناس كلهم » ، والردافة هي الخلافة . ويقول عنه — في المنطق — بأن « النتيجة ما ينتج من مقدمتين كقولك كل إنسان حي ، وكل حي نام ، فنتيجة ما بين المقدمتين كل إنسان نام ، ويسمى الردف أيضاً » .

ويعرف « الضرب » — في علم العروض — بأنه « الجزء الأخير من البيت » ، ويعرفه — في الاربطةاطيقى — بأنه « تضعيف أحد العددين بأحد الآخر » . ويعرف « العرض » — في الفلسفة — بأنه « ما يتميز به الشيء عن الشيء لا في ذاته ، كالبياض والسواد والحرازة والبرودة ونحو ذلك » ، ويعرفه — في علم الكلام — بأنه « أحوال الجوهر ، كالحركة في المتحرك ، والبياض في الأبيض ، والسواد في الأسود » .

ويعرف « القلس » — في الفقه — بأنه « هو ما خرج من الخلق ملء الفم أو دونه » ، ويعرفه — في علم الحبل — بأنه « الحبل الغليظ الذي يشد به السفن وغيرها » . ويعرف « القول » — في الفقه — بأنه « ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قاله » ، ويعرفه — في المنطق — بأنه « ما تركب من اسم » .

ويعرف « الوضع » — عند كتاب ديوان الجيش — بأنه « يخلق على اسمه فيوضع عن الجريدة » ، وهو

الرابع المجبرة وهم خمس فرق . . والمذهب الخامس مذهب المشبهة وهم ثلاث عشرة فرقة . . والمذهب السادس المرجئة وهم ست فرق . . . والمذهب السابع مذهب الشيعة وهم خمس فرق .

٤ - في وجوه الإعراب على مذهب فلاسفة اليونانيين - الرفع عند أصحاب المنطق من اليونانيين واو ناقصة : وكذلك الضم وأخواته المذكورة . والكسر وأخواته عندهم باء ناقصة . والفتح وأخواته عندهم ألف ناقصة . وإن شئت قلت الواو الممدودة اللينة ضمة مشبعة والياء الممدودة اللينة كسرة مشبعة والألف الممدودة فتحة مشبعة وعلى هذا القياس . الروم والإشمام نسبتهما إلى هذه الحركات كنسبة الحركات إلى حروف المد واللين أعنى الألف والواو والياء .

٥ - قانون الخراج أصله الذي يرجع إليه وتبني الجباية عليه وهي كلمة يونانية معربة . الرزنامج تفسيره كتاب اليوم لأنه يكتب فيه ما يجري كل يوم من الخراج أو نفقة أو غير ذلك . . . الموافقة والجماعة حساب جامع يرفعه العامل عند فراغه من العمل ولا يسمى موافقة ، ما لم يرفع باتفاق بين الرافع والمرفوع إليه فإن انفرد به أحدهما دون أن يوافق الآخر على تفصيلاته سمي محاسبة .

٦ - الفئ ما يؤخذ من أرض العنوة . . الخراج ما يؤخذ من أرض الصلح . . . العشر ما يؤخذ من زكاة الأرض التي أسلم أهلها عليها والتي أحياءها المسلمون من الأرضين أو القطائع . . . صدقات الماشية هي زكاة السوائم من الإبل والبقر والغنم دون العوامل والمعلوفة .

٧ - التسيب أن يسبب رزق رجل على مال متعذر ليعين المسبب له العامل على استخراجها فيجعل ورداً للعامل وإخراجاً إلى المرتزق بالقلم . . . الحبة سدس سدس مثقال ، وإن شئت قلت ربع تسع مثقال ، والدينار ست وثلاثون حبة ، والشعيرة ثلث الحبة ،

واحد عن آخر من غير أن ينقطع ، والمرسل والمنقطع ما يرويه أحد التابعين الذين لم يروا النبي صلى الله عليه وسلم ، مثل الحسن البصري وابن سيرين وسعيد بن المسيب ، ويقول : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غير أن يذكر من حدث به عنه - وقد قبله كثير من العلماء وزيفه بعضهم . وأما الإجماع فهو اتفاق الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وكذلك اتفاق العلماء في الأمصار في كل عصر دون غيرهم من العامة . وأما القياس فقد قال به جمهور العلماء غير داود بن علي الأصفهاني ومن تبعه . والقياس نوعان : قياس علة ، وقياس شبه . فقياس العلة أن تجمع المقيس والمقيس به علة ، وقياس الشبه أن لا تجمع المقيس والمقيس به علة ولكن يقاس به على طريق التشبيه . وكثير من الفقهاء لا يفرقون بينهما . وطرده العلة هو أن تجعل مطاردة في جميع معلولاتها . وأما الاستحسان فهو ما تفرد به أبو حنيفة وأصحابه ، ولذلك سموا أصحاب الرأي : ومثال ذلك جواز الحمام وإن كان ما يستعمل فيه من الطين والماء مجهول المقدار . وقيل : الاستحسان هو قياس ، لكنه خفي غير جلي . وأما الاستصلاح فهو ما تفرد به مالك بن أنس وأصحابه : ومثاله ما أجاز به من تعامل الصيارفة وتبايعهم الورق بالورق والعين بالعين بزيادة ونقصان ، وإن كان ذلك محظوراً على غيرهم لما فيه من الصلاح للعامة .

٢ - أيس هو خلاف ليس . قال الخليل بن أحمد ليس إنما كان لا في أيس فأسقطوا المزة وجمعوا بين اللام والياء ، والدليل على ذلك قول العرب : أيتني بكذا من حيث أيس وليس

٣ - في ذكر أسامي أرباب الآراء والمذاهب من المسلمين وهي سبعة مذاهب : أحدها المعتزلة ويتسمون بأصحاب العدل والتوحيد وهم ست فرق . . والمذهب الثاني الخوارج وهم أربع عشرة فرقة . . . والمذهب الثالث أصحاب الحديث وهم أربع فرق . . . والمذهب

والدينار مائة وثمان شعيرات ، والشعيرة ثلث ربع تسع مثقال ؛ وقد تختلف هذه المقادير باختلاف البلدان لكن ذكرت ما هو أعم وأشهر .

٨ - الترصيع أن يكون الكلام مسجماً متوازن المباني والأجزاء التي ليست بأواخر الفصول مثل قول أنى البصر : حتى عاد تعريضك تصريحاً وتمريضك نصيحاً . . . التضرير هو ضد الترصيع وهو أن لا تراعى توازن الألفاظ ولا تشابه مقاطعها . المضارعة أن يكون شيئاً بالاشتقاق ولا يكونه ، كما قال بعضهم ما خصصتني ولكن خسنتني .

٩ - العروض هو الجزء الأخير من النصف الأول من البيت وهي مؤنثة ، وبها سمي علم العروض لأنه إن عرف نصف البيت سهل تقطيعه . . . الضرب هو الجزء الأخير من البيت . . . السبب الخفيف حرفان أولهما متحرك والثاني ساكن مثل قد وعلامته ١٥ والسبب الثقيل حرفان متحركان مثل أر وعلامته ٥٥ وذلك أن علامة الحركة عند العروضيين حلقة كالحاء وعلامة الساكن خط كالألف .

١٠ - المرازبة جمع المرزبان وهم ما وراء الملوك ، وهم ملوك الأطراف ، ومرز هو الحد بالفارسية مرزبان وهو صاحب الحد ، وكانت الفرس تسمى صاحب النهر أعني جيحون مرز توران أى حد الترك ، وكان أهل خراسان يسمونه مرز إيران أى حد العراق .

١١ - الله تبارك وتعالى وعز وعلا هو موجد العالم وهو السبب الأول والعلّة الأولى وهو الواحد والحق وما سواه لا يخلو من كثرة من جهة أو جهات وصفته الخاصة أنه واجب الوجود وسائر الموجودات ممكنة

الوجود . . . العقل الفعال هو القوة الإلهية التي تهتدى بها كل شيء في العالم العلوى والسفلى من الأفلاك والكواكب والجماد والحيوان غير الناطق والإنسان لا اجتلاب مصلحته وما به قوامه وبقاؤه على قدر ما تنبأ له وعلى حسب الإمكان ، وهذه القوة التي في الأشياء التي في العالم الطبيعي تسمى الطبيعة . . . العقل الحيولاني هو القوة في الإنسان وهي في النفس بمنزلة القوة الناطقة في العين : والعقل الفعال لها بمنزلة ضوء الشمس للبصر ، فإذا خرجت هذه القوة التي هي العقل الحيولاني إلى الفعل تسمى العقل المستفاد .

١٢ - الشرايين هي العروق النابضة ، واحدها شريان ، ومنبتها من القلب تنتشر فيها الحرارة الغريزية أى الطبيعية وتجري فيها المهجة وهي دم القلب : وأما العروق غير النابضة فنبتها من الكبد وتجري فيها دم الكبد . ومن الشرايين الأبرار وهما يخرجان من القلب ثم يتشعب منها سائر الشرايين .

١٣ - الترياق مشتق من تريون باليونانية ، وهو اسم لما ينهش من الحيوان كالأفاعى ونحوها ويقال له بالعربية أيضاً الدرياق . . . السكنجيين هو المركب من الخل والعسل ثم يسمى بهذا الاسم وإن كان مكان العسل سكر ومكان الخل رب السفرجل أو غيره .

١٤ - علم النجوم يسمى بالعربية التنجيم وبال يونانية اصطرانوميا : واصطر هو النجم ونوميا هو العلم .

١٥ - علم الهيئة هو معرفة تركيب الأفلاك وهيئتها وهيئة الأرض . . . فلك البروج هو الدائرة التي ترسمها الشمس بسيرها من المغرب إلى المشرق في سنة واحدة وهو مقسوم اثني عشر قسماً وهي البروج .

تراث الإنسانية

سلسلة تناول بالتعريف والبحث والتحليل
روائع الكتب التي أثرت في الحضارة الإنسانية

التغيرات أو فلسفة ألين واليانج

بقلم الأستاذ فؤاد محمد شبل

الخزاج

ألفت يوريف
بقلم الدكتور علي حسن الخويطر

الجماعة والمجتمع

بقلم الأستاذ فؤاد محمد شبل

صورة السيدة

بقلم الأستاذ فؤاد محمد شبل

الأشعار القضاية

بقلم الأستاذ فؤاد محمد شبل

يشرف على تحريرها

د. عبد الحكيم منصر
عيسى أدهم
إبراهيم الأبيساري

د. أحمد رياض زكي
د. زكي نجيب محمود
إبراهيم زكي خورشيد

التغيرات أوفلسفة أالين واليانج

بقلم
الأستاذ نؤار محمد شبل

معان محدودة . واتسمت قراءة هذه الشقوق بالصعوبة البالغة ، فكان أن اتخذ العرافون متواليات ثلاثية ، وضعوا لكل متوالية معنى خاصاً .

وشاعت هذه الطريقة لمعرفة الطوالع ، حتى أصبحت الجيوش تستخدمها في المعارك ، ويستعين بها الملوك في رسم سياستهم ، ويعتمد عليها أفراد الشعب في توجيه شئونهم الخاصة .

ثم أقبل العلماء أنفسهم على الاستعانة برموز كتاب التغيرات في أبحاثهم ودراساتهم ، حتى أصبحت عماد الفكر الصيني في السياسة والفلسفة والأداب والأخلاقيات والاجتماع والقانون والطب .. الخ . ولم تبرا مدرسة فلسفية واحدة من الاستعانة بكتاب التغيرات بطريقة أو بأخرى . وما برح لهذا الكتاب تأثيره على الفكر الصيني حتى وقتنا الحاضر .

٢ - المتواليات الثلاثية

قوام كتاب التغيرات أن ظواهر الكون بأسره تتألف في جوهرها من عاملين : إيجابي ، وسلبى . وقد حصر مؤلف الكتاب هذه الظواهر في ثمان أساسية ومثل كلا منها في متوالية ثلاثية الخطوط .

١ - التعريف بالكتاب

يعتبر كتاب التغيرات Yi Ching من أهميات تراث الصين الثقافى التى يحصرها فلاسفتها فى مؤلفات خمسة هى :

١ - كتاب التغيرات

٢ - كتاب التاريخ (أو الوثائق)

٣ - كتاب الأناشيد (أو الأشعار) والموسيقى

٤ - كتاب الطقوس

٥ - حوليات الربيع والخريف

ولكتاب التغيرات منزلة رفيعة عند المفكرين الصينيين ، أنزلته منزلة التقديس . وينسب إلى الملك الحكيم فوهسى Fu Hsi . وترجع الأساطير العهد بتأليفه إلى عام ٣٣٢٢ قبل الميلاد .

والكتاب - فى الأصل - سجل للعرافة والكهانة . إذ يضم بين دفتيه رسوماً اقتبسها مؤلفه - أو مؤلفوه - من الرسوم التى تنشأ عن إحراق صدفة السلحفاة . فهذه الرسوم ، بعضها مستقيم ؛ والبعض الآخر مكسور . فكان أن وضع الكهان والعرافون لكل مجموعة من الخطوط مغزى خاصاً ورموزاً تشير إلى

وترمز المتوالية إلى تلاقى ظاهرة كونية سلبية بأخرى ايجابية ، ونتيجة هذا التلاقى :

فالظاهرة الايجابية يطلق عليها كتاب التغيرات اسم اليانج . ويعنى فى الأصل « الشمس » ويرمز إليها بشرطة متصلة —

ويطلق على الظاهرة السلبية اسم « الين » ويعنى الاصلاح « القمرى » ويرمز إليه بشرطة متقطعة — ويتكون كتاب التغيرات — أساساً — من تجميع ثمانى متواليات ترمز إلى العناصر الثمانية الأساسية : السماء — الرعد — الرياح — النار — الماء — الجبال — المستنقعات . وهاك بياناً بهذه المتواليات ؟

(١)	(٣)	(٣)	(٤)
=====	=====	=====	=====
(٥)	(٦)	(٧)	(٨)
=====	=====	=====	=====

فالمتوالية (١) ترمز إلى السماء . وإذ كانت هي الرب الأعظم ، لأن السماء مصدر الأمطار ، فقد أصبحت ترمز إلى الأب . ونظراً لأن الرب هو رمز الأسرة ، ترمز المتوالية الى ، القوة ، السيادة .. الخ . وتتألف المتوالية من خطوط سليمة (يانج) ، وفى هذا تؤكد مبدأ الذكورة المطلق .

والمتوالية (٢) ترمز إلى الأرض ، وهى الأم التى تنطق الأمطار . وفى مجال المعانى تدل على : الحنان : المودة ، العطف ، الطاعة ... الخ . وتتألف المتوالية من خطوط جميعها متقطع ، تؤكد مبدأ الأنوثة المطلق .

ومن اتحاد المتواتين (١) و (٢) ينتج :

المتوالية (٣) ؛ وتدل على الابن الأكبر . ويلاحظ أن الخط الأسفل سليم مثل الخطوط التى تمثل الأب ، وتشير المتوالية فى مجال المعانى إلى : التحرك والانطلاق والتحفز .

المتوالية (٤) تدل على البنت الكبرى . ويلاحظ أن الخط الأخير من المتوالية متكسر (ين) . وتدل المتوالية فى مجال المعانى على احتراق الأشياء والنفوذ إليها .

المتوالية (٥) ترمز إلى الابن الثانى ؛ وفى مجال المعانى الوعورة وشدة الانحدار .

المتوالية (٦) ترمز إلى البنت الثانية . وفى مجال المعانى إلى السطوع واللمعان ... الخ .

المتوالية (٧) ترمز إلى أصغر الأبناء ؛ وفى مجال المعانى إلى التوقف والصد ... الخ .

المتوالية (٨) ترمز إلى صغرى البنات . وتدل فى مجال المعانى على الرضاء والمسرة والحبور والغبطة .. الخ .

وبعدما تحددت هذه المعانى الأساسية ؛ أخذ الباحثون من شراح كتاب التغيرات ، يقيمون عليها المظاهر الكونية المختلفة ، وشرعوا يطابقونها على جميع الأشياء :

فالعاصفة ابن أكبر يرمز إليه بالمتوالية =====
بينما أن الريح بنت كبرى يرمز إليها بالمتوالية =====.
ويعتبر الماء ابناً ثانياً يرمز إليه بالمتوالية =====
بينما أن النار بنت ثانية يرمز إليها بالمتوالية =====.

ويعتبر الجبل ابناً أصغر يرمز إليه بالمتوالية =====
لكن تعتبر المستنقعات بنتاً صغرى يرمز إليها بالمتوالية =====.

وبعبارة أوضح ، كانت المتواليات الثمان — الثلاثية الخطوط — تمثل لدى قدماء الصينيين عناصر الكون ذات الأهمية القصوى لهم وهى فى السماء الشمس والقمر والرياح والعواصف ؛ وعلى الأرض : الجبال والمستنقعات ، ومن الأشياء : الماء والنار . وقد ربطوا بين هذه المتواليات بعلاقات الأبوة والأمومة والبنوة .

٣ - المتواليات السداسية

من المتواليات الثمان ذات الخطوط الثلاثة -
السافة للذكر - ركبت في العصور التالية متواليات
تتألف الواحدة من ستة خطوط . وتم ذلك عن
طريق مزج متواليتين من ذوات الخطوط الثلاثة -
إحداها بالأخرى . فيتكون - من ثمة - أربع وستون
متواليات جديدة تتألف الواحدة من ستة خطوط .

ويطالعنا كتاب التغيرات بمتواليات سداسية الخطوط
فريدة في نوعها ، وتركيبها :

===== و ترمز إلى القيام بعمل عظيم . فها هنا تبدأ
المتواليات بحالة سكون (خط متقطع - - -)
تتلوه حركة (يانج خط متصل - - -) ، يتلوه ين ثم
يانج ثم ين ثم يانج . وباجتماع الين واليانج تتم عملية
اليانج (أى الحركة والانطلاق) . ويعنى تكرار
الاجتماع ، توكيد عملية الارتقاء .

والأشياء بفطرتها في تغير مستمر . ويحمل
التغير في الكون بين طياته الزيادة والنقصان ، القدم
والذهاب ، الهدم والبناء . . . الخ . فلا نهاية
اطلاقاً لعملية التغير ، لأن ما يأتي ، يجب أن يذهب ؛
وما يذهب ، يجب أن يأتي مرة أخرى :

ومصافاً لهذا الرأي ، يرمز إلى الرخاء واليسر
والرفاهية . . . وما إلى ذلك من المعاني بالمتواليات
السداسية الخطوط :



(أى ثلاثة خطوط ين أسفلها ثلاثة خطوط
يانج) . فان تغيرت الأحوال وحل القحط والإحمال
والضيق . . . وما إلى ذلك من المعاني ، انقلب وضع

ويفسر كنفوشيوس نشوء المتواليات الثلاثة الثمان
بأن « الأول الأعظم » هو مصدر التغير وعلة . وهو
قد قسم نفسه اثنين كونا السماء (اليانج) والأرض
(الين) . وانقسم الاثنان إلى أربع كوتت الفصول :
الربيع والخريف والشتاء والصيف . وعلى أساس فكرة
اليانج والين (الجامد واللين) ، تكونت المتواليات
الثمانية الثمان . وعندما انحلت تلك المتواليات ترتيبها
المناسب توطلد بذلك - كما يقول كنفوشيوس -
مناج السماء والأرض وتحدثت رموز كل من : الرعد ،
الرياح والماء والنار والجبال والمستنقعات .

وباستكمال دورة المتواليات الثلاثة الثمان يتم :
أولاً - تحديد الفوارق بين مواضع جهات البوصلة
الأصلية الأربعة وجهاتها الفرعية .
ثانياً - انجاز عمليات الإنتاج والماء والحصاد
والتخزين :

ثالثاً - التعرف على صور الين واليانج
رابعاً - اضمحاء القدرة على الاختراق والنفوذ
على طاقة الفعل الروحية الخيرة :

خامساً - ابلاغ الأشياء جميعها مرتبة الكمال .
ويربط شراح كتاب التغيرات بين المتواليات الثمان
والفضائل الخمس الثابتة التي عينها كنفوشيوس في
مختاراته : الحب والعدالة والحكمة والحكمة ،
الإيمان الحق :

فالسلوك الصالح : تستثيره المحبة ، وتوطده الحشمة
وتنظم العدالة أوضاعه ، ويحدد الإيمان الحق أبعاده ،
وتكمله الحكمة :

وهذه الفضائل الخمس - وفقاً لـ كنفوشيوس -
هي جماع الفضائل البشرية وهي الروابط التي تصل
السماء بالإنسان ، وعن طريقها يتمكن الحكيم من
فهم دلالة السماء وتنظيم العلاقات البشرية وإدراك
أسمى أشكال السلوك .

٤ — مدرسة الين واليانج الفلسفية

استخدم الصينيون — منذ عهد بعيد — فكرة الين واليانج لتوضيح ظواهر الوجود . فالتاوية (١) — أبان ازدهارها — قد استخدمت الاصطلاحين لشرح مبادئها . ويطلقنا في هذا المقام عبارة تنسب إلى لاو تزو تقول « ان التاو (أى السبيل أو النهج) قد أنتج الواحد ، والواحد أنجب الثنائية ، وتطورت الثنائية إلى الثلاث ، وانبعث عن الثلاث الآلاف المؤلفة من الأشياء . وتضم الأشياء جميعها بين طياتها « الين » وتشتمل على اليانج ، وبفضل الين واليانج ، يتوافر للأشياء التناقض والإنسجام » . وتأسيساً على هذا الرأى ، يرتب كل شيء في الوجود تحت أى من الفصيلتين ، باعتبار الين أنثى ، واليانج ذكر .

وبالتالى :

تنتمى السماء والشمس والنار إلى فصيلة اليانج . وتلحق الأرض والقمر والماء بفصيلة الين . ويدلل كتاب التغيرات على صدق الفكرة بأن العنمة المحرقة تستجلب النار من الشمس ، فى حين أن المرأة — وهى يانج — إذا ما تركت فى العراء ليلاً تلتقط الندى — أى الماء — من القمر .

ونجب ملاحظة أن ثنائية الين واليانج ، لا تعنى تلك الثنائية المألوفة خارج الصين . وتعنى لدينا : الخير والشر ، والروح والمادة . . . وهى ثنائية يتفصل أحد شقيها عن الآخر وبيانه تماماً . فعلى العكس ؛ ينادى المنطق الصينى — كما يسطه كتاب التغيرات — بأن الين واليانج يكمل أحدهما الآخر ، وبفضل هذا التكامل يتوافر للكون انسجامه

خطوط اليانج الثلاثة لتوضع فوق خطوط الين الثلاثة ، على النسق التالى :



كذلك ترمز السداسية :



(وهى عبارة عن خط يانج — تتألف من خمسة خطوط ين — —) إلى عملية التحلل . ويلاحظ أن خط اليانج (ويرمز إلى الحركة والانطلاق) قد تلتته خمسة خطوط ين (ويدل على التفتك والسكون) . فإذا تغيرت الحال بعودة الشيء إلى الحركة ، انقلب وضع السداسية فأصبح :



ومنه يبدو أن اليانج قد تغلب فى نهاية المطاف ، فعاد النشاط وتجددت فى الشيء الحياة . وبالمثل ، ترمز السداسية :



إلى الحركة المنطلقة المستمرة المتواصلة . وفيها خطان متقطعان (— —) رمز الين ، يتلوها خط يانج (—) وهو رمز الحركة . فإذا ما توقفت الحركة ، يرمز إلى العملية بالسداسية :



أى خط يانج (رمز الحركة) يتلوها خطان للين (رمز السكون) يتلوها خط يانج الذى يتلوها بدوره خطان للين .

(١) رجاء مراجعة بحثنا عن لاو تزو — عدد مارس ١٩٦٦ من تراث الإنسانية .

وتناسقه . فالشئاء - وينتسب إلى فضيلة الين -
يتحول إلى صيف وهو من فضيلة اليانج .
فالين هو العنصر السهل ، اللين ، المدعن ،
وهو السالب الساكن .
واليانج هو العنصر المتين الخشن ، وهو الموجب ،
الحامل للحركة .

ويرمز اليانج إلى السيادة ، أما الين فيرمز إلى
التكامل .

وإذا كان اليانج - بحكم طبيعته - هو العنصر
المبدع ، فانه يصبح في حالة سكون وقفا يصدف
عن الإبداع . فاذا ما أخذ يحقق الإبداع ، يغدو في
حالة فعل وحركة .

وإذا كان الين - بحكم طبيعته - على استعداد
للاستجابة لنداء القوة المبدعة . فاذا توافرت لديه
قابلية الاستجابة ، يصبح في حالة فعل وانطلاق .

وجميع الأشياء توضع - أو ان إبداعها - في قائمة
اليانج ، بينما توضع الأشياء - أوقات استجابتها -
في قائمة الين . ويتيسر لكل شيء أن يكون في وضع
« اليانج » كما يتيسر لكل شيء أن يكون في وضع
الين .

وإذا كان لكل من الين واليانج معنى مختلف ،
إلا أنهما مترابطان ولا غنى لأحدهما عن الآخر .
فالشمس تغرب ، فيطلع القمر ، ولكل وظيفة
واحدة هي إضاءة الأرض . كذلك إذا ولى الشتاء
أقبل الصيف ، فاذا راح الصيف وفد الشتاء .
وبتعاقب الصيف والشتاء تم دورة السنة .

وإذا وصل شيء إلى حد التمام ، يكون قد بلغ
- بالضرورة - مكانه السليم . ويقصد بالمكان
السليم ، الموضع الذي يجدر أن يكون فيه ، أى
يصبح كائناً في البيئة المناسبة له . فوضع الزوجة
السليم ، صلتها بشئون الأسرة الداخلية ، ومناطق
موضع الزوج السليم صلاته بشئونها الخارجية . إذ

تمثل العلاقة السليمة ركن العدالة الركين في العالم . فاذا
فحصنا نظام الأسرة ، نجد أن مكان الزوج الطبيعي
أن يصبح - دون بقية أفرادها - الزعيم والمسيطر .
فالأسرة الطبيعية هي التي يكون فيها الوالد والذا
والابن ابناً .

وإذا كانت الكنفوشوسية قد انجذبت في بداية
عهدنا إلى بحث مشكلات السياسة والعلاقات البشرية ،
فلم تعر الموضوعات الميتافيزيقية ما تستحقه من رعاية
واهتمام ، فلقد انبعثت مدرستان فكريتان لسد هذا
النقص في التفكير الصيني ، وتبلورتا في مدرسة الين
واليانج ، والمدرسة التأوية .

ويعبر الفيلسوف « تونج شونج - شو » عن رأى
هذه المدرسة الفلسفية في طبيعة الين واليانج بقوله :

« يوجد الين واليانج في نطاق الكون في حالة
أثيرية وينغمر جميع الناس فيهما على الدوام مثلما
ينغمر السمك في الماء على الدوام . والفارق بينهما وبين
الماء أن جيشان الماء منظور ، في حين أن فوران الين
واليانج غير منظور . على أن وجود الانسان في الكون
مثل ارتباط السمك بالماء . ويوجد هذا الأثير في كل
مكان ، لكن ليست به لزوجة الماء . فالمقارنة بينه
وبين الماء ، كالمقارنة بين الماء والطين . وعلى ذلك
يبدو أن ثمة في الكون عدمية ، ومع ذلك فثمة هيولى :
أن الناس مغمرون على الدوام في هذه الكتلة الدوامة
التي تحملهم قدما في تيار واحد ، بانتظام أو بغير
انتظام » .

وإذا كان الوصف السابق يوحى إلى الذهن باعتبار
كل من « الين » و « اليانج » أثراً - مادياً أو مثلاً -
لكن لا ينظر إليهما بهذه الصورة المادية . فالحق يقصد
من وراء تشبيه هذا الفيلسوف ، تقريب الأمر إلى الذهن .
إذ يصف الين واليانج بموضع آخر من مؤلفه بأنهما
« قوتان متعارضتان تتبعان سير السحاب الراشح لكنهما

لا ينشأ في وقت واحد . وهذا يعني أنه وقتاً ينبعث اليانج ، يراجع الين ، والعكس بالعكس .
 ويخلص فلاسفة الصين من دراساتهم لكتاب التغيرات إلى نتيجة عملية مدارها أنه إذا كان كل شيء في الحياة يتقلب إلى نقيضه - إذا ما وصل منتهاه - فعلى الرجل العاقل أن يتخذ أهبة للأحداث التي تفد مع التغير ويحتاط لصروف الزمان . وعلى السياسي الحصيف أن يضع في ذهنه دائماً المخاطر التي لا بد وأن تفد وفقاً لمنطق التغير . ونجد أحداً حكمائهم « هسي تزو » يقول :

« ان الإنسان الذي يجعل الخطر مائلاً في ذهنه هو الذي يحتفظ بمكانته ، والذي يرى التغيرات قائمة أمام ناظره هو الذي يعيش ، والذي يعمل حساباً للفوضى المتفشية ، يصبح في مكنته السيطرة على المجتمع . ومن تقدر له السيطرة على المجتمع ، يجب أن ينسى إمكانية تعرض حكمه للاضطراب . فالسلطان الحكيم هو من لا ينسى العدوان في أوقات السلم ، والذي يتخذ الحيطة ضد العائدين بالأمن . ويجب أن يتحلى المرء بالتواضع لأن الدنيا إذا أقبلت لا تلبث أن تدبر » .

ويستوقف نظر الباحث في كتاب التغيرات ، ذلك التشابه المذهل بين المذهب الفيثاغوري ودراسة الصينيين للرموز والأعداد وفقاً لكتاب التغيرات :
 ١ - وردت العبارة التالية بالملحق الثالث من كتاب التغيرات « في التغيرات ، ثمة الأول الأعظم الذي أبرز الصيغتين (الين واليانج) إلى الوجود » . إذ تماثل هذه الفكرة القضية الفيثاغورية القائلة « من الجوهر الفرد ينشأ الاتحاد الزوجي غير المحدد » .

٢ - إذا ما اخبرنا بمجموعة عشرة أزواج من المتناقضات التي ذكرها الفيثاغوريون - كالمحدود والمطلق - فواضح أن ما يطلق عليه المحدود يطابق تماماً ما يدعوه شراح كتاب التغيرات باليانج . كما

أن ما يسميه الفيثاغوريون « المطلق » يطابق « الين » الصيني .

٣ - تستمك الفلسفة اليونانية - عامة - بالفكرة القائلة بأن المطلق يكون المادة وأن المحدود يكون الصورة وأن الأشياء الطبيعية هي حاصل تأثير الصورة على المادة . وبالمثل ، يعتنق شراح كتاب التغيرات في الصين فكرة أن اليانج إيجابي ، فيمنح - من ثم - القوة ويضفي القدرة ؛ في حين أن الين سلبي ، فهو - لذلك - يتلقى ويتسلم على أن ثمة فارقاً بين النظريتين الصينية واليونانية يتبين في ناحيتين :

الأولى - يجعل شراح كتاب التغيرات من المحدود (أي اليانج بالاصطلاح الصيني) معادلاً للبرج ، ومن المطلق - أي اللامحدود - (وهو الين في الاصطلاح الصيني) معادلاً للمستطيل . ومن رأيهم أن السماء (وهي مظهر اليانج المعين) مستديرة والأرض - مظهر الين المعين - مربعة .

وهنا تعرض لنا نقطة لا يختلف فيها الفيثاغوريون عن شراح كتاب التغيرات : فإن الفيثاغوريين يعتبرون الأعداد الفردية - وتطابق المحدود - أعداداً مربعة ، بينما أن الأعداد الزوجية - وتطابق المطلق - أعداد مستطيلة . كذلك يعتبر شراح كتاب التغيرات أعداد اليانج (واليانج هو المحدود) فردية وأعداد الين (والين هو المطلق) زوجية . وهذا هو سبب تمثيل اليانج بخط فردي متصل (—) ، في حين يمثل الين بخط زوجي (متقطع - -) .

الثانية - يجعل الفيثاغوريون من المحدود مطابقاً للسكون ، والمطلق معادلاً للحركة . وهذا يخالف وجهة النظر الصينية على طول الخط لمعادلتها اليانج (أي المحدود) بالحركة ، والين (أي المطلق) بالسكون .

٥ - الحكم على مدرسة لين واليانج

تفكير كارل ماركس - وهو يهودى الأصل - بفكرة اللجنة الموعودة ، فكان أن دفعه إلى اعتبار المجتمع اللاتبقى الذى ينتفى منه عنصر الإرغام - ممثلاً فى الدولة - وحيث يحصل الجميع على احتياجاتهم فى يسر وسهولة ووفرة ؛ اعتباره غاية الغايات . أى أنه اللجنة الواردة فى الكتب المقدسة ، تنتصب على الأرض فى دنيا الناس .

وتقر فكرة لين واليانج أن لكل من الاصطلاحين معنى مختلفاً . لكنهما مترابطان ولا يمكن فهم أحدهما بدون الآخر ، ولهذا تأثيره على نظرية التناقضات عند ماوتسى تونج . فانه يعتقد بأن عملية التحول تقوم على تحويل نوع ما - أى نوع - الى نوع آخر ويتم التحول نتيجة للتغير فى العلاقة الكمية بين أوجه التناقض الغالبة وأوجهه الخاضعة المغلوبة على أمرها ، وينجز على طريق لولبي ذى اتجاه واحد . ويقول الزعيم الصينى « الأشياء المتناقضة تكمل وتم - فى نفس الوقت - بعضها بعضاً ، وهى تشكل الدعامة التى بفضلها تسند التناقضات بعضها بعضاً ويحافظ أحدها على بقاء الآخر وجوده . وإذا كانت الأضداد - بحكم طبيعتها - تخالف أحدها الآخر ، فهى - من الناحية الأخرى - مترابطة ترابطاً وثيقاً متداخلة فى بعضها متلاحمة ولا غنى لأحدهما عن الآخر : فلا تفهم السهولة عن غير الصعوبة كذلك بدون السهولة لا توجد صعوبة . فالخلق أنه من غير الواجهة الأخرى التى تعارض الواجهة ؛ تفقد كل واجهة مبرر وجودها » . ويطالب ماوتسى تونج بالعمل على كشف وجهة تطور التناقض ؛ والقاعدة - كما يقول - إن الواجبات المتعارضة تحول نفسها - فى ظل ظروف خاصة - إلى أضدادها ؛ وتتخذ الحركة فى جميع الأشياء : اما وضع السكون النسبى واما التغير المطلق الواضح ؛ وينشأ وضعاً الحركة

تضم نظريات لين واليانج (وهى قوام كتاب التغيرات) الشيء الكثير من السخافات ، لكنها تتضمن - فى نفس الوقت - بدايات العلوم والفنون الصينية . فالخلق ؛ يتبلور هدف الآراء المتصلة بالين واليانج فى إيجاد نظام فكرى شامل جامع إلى أبعد الحدود . وبالأحرى ، خلق مدرسة فكرية تستطيع الإحاطة بظواهر الكون بأسره وتفسيرها . فهما يقل عما فى منهاجها من قصور علمى ، وما يظهر من ضعف فروضها ، لكن تنسب لنا روح علمية من خلال نشأتها تنظيم ظواهر الكون وتنسيقها فى إطار مذهب علمى ، وسعيها إلى معرفة الأسباب والدوافع . وقد يبدو - للوهلة الأولى - زوال تأثير مدرسة لين واليانج من التفكير الصينى ، بفعل اقتحام الفكر الأوروبى - الغربى والماركسى - معاقل الفكر الصينى . غير أن الاقتحام ظاهرى محض ، وحسبى للتدليل على هذا الرأى ، فكرة الثورة الدائمة عند ماوتسى تونج وغيرها .

فالكون عند الزعيم الصينى فى حالة تغير دائم يبنى عليه استمرار قيام التناقضات بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج ، حتى بعد زوال الطبقات . ولا تنأتى تسوية هذه التناقضات إلا بسلسلة « لانهائية » من التغيرات الوصفية (النوعية) . إذ لا مناص من نشوء تناقض بين قوى الإنتاج - نمواً متصلاً - وبين جهود الأفراد لتكثيف أنفسهم وفقاً لهذا النمو . ويجل هذا التناقض على الصراع الطبقي .

وتناقض فكرة ماوتسى تونج عن الثورة الدائمة ، الفكرة الماركسية على طول الخط . فها هنا يتبدى لنا تأثير فكرة لين واليانج ، التى تعنى - فيما تعنيه - انبعث الشيء من قضيضه فى سلسلة من التوالد والتكاثر لا نهاية لها من التفاعلات . بينما قد تأثر

— كلاهما — عن صراع عاملين متعارضين الإتجاه داخل الشيء نفسه^(١) .

ولمدرسة لين واليانج تأثير آخر على تفكير الزعيم الصيني يتبين من قوله إن الريح قد شرعت تهب من الشرق من جديد . بمعنى أن رياح التغير أخذت تنطلق وستقود إلى انتقال النفوذ والسلطان من الغربيين إلى الشرقيين . فان مناط فكرة لين واليانج ، تحول لين إلى يانج وهذا إلى ين ... وهكذا . أى استحالة استدامة وضع من الأوضاع وثبات موقف إلى ما لا نهاية . فالزعيم الصيني يعتبر نهضة الصين الحالية تغييراً في ميزان القوى الدولية يبشر باسترداد الصين مكانتها الحضارية المرموقة التي فقدتها بانتقال القوة غرباً .

٦ — مقتطفات من كتاب التغيرات

١ — عملية التغير الشامل

السماء مرتقة والأرض منخفضة ، وبهذا تتحدد السماء والأرض . ومصداقاً لهذا يتحدد مكان الشريف والوضيع ولكل من الحركة والراحة وضعه الثابت ، ومن هنا يختلف القوى عن الضعيف وتتطابق السبل وفقاً لأنواعها ، وتنقسم الأشياء إلى رتب . لذلك يحدث الحظ الحسن والحظ السيئ . وفي السماء تبدى الظواهر وعلى الأرض تعرض الأشكال . وعن طريق عرض الأشكال يصبح التغير والتحول واضحاً . وهكذا تتفاعل خطوط المتواليات الثلاثية الثمانية الضعيفة والقوية ويؤثر كل منها في الآخر ويتأثر به . إن الأشياء يستغزها الرعد فينبعث موسم برد يتلوّه موسم حرارة . إن طريق السماء يكون المذكر . أما طريق الأرض فيكون المؤنث . تميز السماء الابتداء العظيم ، بينما

تضفى الأرض على الأشياء تمامها . إن ادراك السماء مستمد من السهولة واليسر .

إن تعاقب حركة لين واليانج يؤلف ما يطلق عليه « السبل القويم » . ومنه ينبعث الشيء الصالح . ويبلغ مرتبة الكمال بفضل الفطرة البشرية . وعندما يميز الإنسان « السبل القويم » يطلق عليه « الانسانية » لكن الحكم يطلق عليه الحكمة . وتعاقب لين واليانج هو عامل الانشاء واعادة الإنشاء .

٢ — بدايات الثقافة البشرية

عندما كان فوهسى^(١) يحكم العالم ، تطلع إلى السماء لرصد مظاهرها ، وشخص إلى الأرض ليعاين أشكالها . فلاحظ أشكالها وسماتها وكيف توائم نفسها وفقاً لبيئتها . وأحوت إليه دراسته لبدنه نفسه ؛ طائفة من الآراء ، لكنه مضى أبعد من ذلك فاستخلص أفكاراً قيمة من دراسته للأشياء الأخرى وبفضل دراساته هذه ابتكر الثمانى المتواليات ذات الخطوط الثلاثية ، لكي يفقه فضائل الكائنات الروحانية وليصف أحوال جميع المخلوقات . وهو أول من عقد الحبال وصنع الشباك لصيد الأسماك واصطياد الطير والحیوان . وقد اقتبس الفكرة من دراساته لإحدى المتواليات الثلاثية .

ولما مات « فوهسى » ظهر شين تونج « الذى علم العالم فوائد حرث الأرض وتطهيرها من الأعشاب واقتبس ذلك من دراسة إحدى المتواليات الثلاثية . وهو الذى شيد الأسواق وعلم الناس مبادلة منتجاتهم الزراعية والصناعية بمنتجات غيرهم ، سبياً بدراسته المتوالية ثلاثية .

وبعد موته ظهر في العالم « الامبراطور الأصغر » و « ياو » و « شون »^(٢) وقد استفادوا من معرفتهم بكنه

(١) امبراطور الصين الذى يسلب اليه تأليف كتاب التغيرات .

(٢) هؤلاء أباطرة أسطوريون . وما يزال الصينيون إلى وقتنا الحاضر يقرّبون بهم المثل في فعل الخير وإيثار النفع العام .

(١) رجاء الاطلاع على مقالنا « فلسفة المتناقضات عند ماوتسى تونج » يحدد فبراير ١٩٦٦ من مجلة الفكر المعاصر .

«الين»: فاذا ما بلغ سكونه منتهاه نفذ دورة جديدة من النشاط. ومن ثمة، تتعاقب الحركة والسكون، ويغدو كل منهما منشأ الآخر.

وعن طريق تحول اليانج واتحاده مع الين، تتولد العوامل الخمسة الرئيسية: الماء، النار، الخشب، المعدن، التراب، ويفضل توزيع هذه القوى المادية الخمس توزيعاً متناسقاً، تسلك الفصول الأربعة سبيلها المعروف.

وتؤلف العوامل الخمسة نظاماً واحداً للين واليانج. ويؤلف الين واليانج «الأول الأعلى».

وتكون السماء عنصر التكبير، وتكون الأرض عنصر التأنيت. وبوساطة تفاعل هاتين القوتين الماديتين، يتم تكاثر آلاف الأشياء المؤلفة وتحولها. وتتكاثر ألوف الأشياء وتتوالد في تحول لا نهائي.

والإنسان وحده هو الذى يتلقى القوى المادية في أحسن حالاتها. فهو بذلك أشرف المخلوقات وأذكاه وأبرعها. ويتبدى شكله المادى وينمى روحه الوجدان. ويترتب عن احتكاكه بالعالم الخارجى واستجابته لتحدياته، استثارة المبادئ الخلقية الخمسة الكائنة في طبيعته وهى: الشفقة، العدالة، اللوق، الحكمة، الايمان الصحيح. وهنا ينطلق صوب الحركة والنشاط، ويميز الخير من الشر. والإنسان الحصيف هو من بنى هذه الصفات في ذاته، بينما ينهك حرمتها الإنسان الخسيس.


٥ - الإخلاص


الإخلاص جوهر الحكمة، عظيم هو مبدأ السماء، البارئ. منه تستمد جميع الأشياء بداياتها، وهى منبع الإخلاص. ويتغير طريق مبدأ السماء، ويتحول لكى يحصل كل شيء على فطرته السليمة وينال قسمته ونصيبه، ومناط طريق السماء حركة الين واليانج المتعاقبة، وما ينبعث عن نهج السماء خير، والحكيم هو الإنسان المخلص.

التغير في إراحة الناس من متاعب الحياة. إذ أبانوا للناس أن التغيرات إذا بلغت في سيرها منتهاه، تعدل خط سيرها، فيمكنها هذا من الانطلاق في طريقها إلى أن تصل إلى منتهاه فتعدل سيرها من جديد. وتظل هكذا أبد الأبدين ودهر الدهرين بفضل معونة السماء التى توفر الخير. وبفضل تواضع هؤلاء الأباطرة وسماحتهم، انتظمت أحوال الدنيا، وانبعثت إلى الوجود الابتكارات الهامة مثل استئناس الحيوانات واستخدامها في النقل، كما اخترعت القوارب للنقل المائى.

وظهر بعد هؤلاء الأباطرة حكماء أرشدوا الناس إلى تشييد الدور لحمايتهم من الرياح والأمطار والبرد والحر، وعلموهم دفن موتاهم. وتوجت جهود الحكماء باختراع الكتابة والقراءة. وتم هذا كله بفضل الاستعانة بمنطق التغير.

٣ - سداسية السماء والأرض

جميع خطوط متوالية السماء متصلة  وتعتبر عما هو عظيم ومبدع ونافع وقويم وراسخ. فالسما هي منشأ جميع الأشياء. وبفضلها تنبدى في أشكالها الكاملة. ويتبلور أساب السماء في التغير والتبدل بحيث ينال كل شيء في الكون فطرته السليمة التى تحددها السماء. وعندئذ يتحقق للكون الوحدة والتجانس.

أما الأرض فجميع خطوطها الستة متقطعة  وتدين لها جميع الأشياء بنموها. وهى تتلقى - طائفة - تأثيرات السماء. فهى ساكنة سكوتاً تاماً، صفتها الوداعة والسباحة، وهى تتبع سيدها.

٤ - الأول الأعظم

إن الأول الأعظم يولد - بفعل تحركه - اليانج. فاذا ما بلغ نشاطه منتهاه، يركن إلى السكون. وفى خلال فترة سكونه يولد

الخـراج

لأبي يوسف

بمستلم

الدكتور على حسن الزبوطي

ترجمة حياة أبي يوسف :

كان مولد يعقوب بن إبراهيم ، الذي اشتهر بأبي يوسف ، في عام ١١٣ هـ ، وهو من أسرة عربية ، حريقة في أصلها ، فقيرة في مالها . وينحدر من الصباحي الجليل سعد بن حنيفة ، وهو من أنصار المدينة المنورة . وكان مولد أبي يوسف في العصر الأموي ، وشهد انتشار الدعوة العباسية في العراق وخراسان ، ثم عاصر قيام الدولة العباسية في سنة ١٣٢ هـ وكان حينئذ في التاسعة عشرة من عمره . فشهد مطلع العصر العباسي الزاهر ، وعاصر جهود الخلفاء العباسيين الخمسة الأول تلقى أبو يوسف علومه الأولى في العراق ، فدرس دراسة دنيوية من قرآن وحديث وفقه ، ودراسة أدبية من نحو ولغة وشعر ، وكان ممن تلقى منهم العلوم الدينية محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى . وأبدى أبو يوسف نبوغاً وتفوقاً ، رشحه ليكون في مقدمة تلاميذ إمام عصره أبي حنيفة ، وأدرك أبو حنيفة مواهب تلميذه ونبوغه ، فكان يمدّه بالمال ليسد به حاجات الحياة وحتى يتفرغ لتلقي العلم على يديه . وكان أبو يوسف واحداً من ثلاثة من أبرز تلاميذ أبي حنيفة الملازمين له ، أما

التلميذ الثاني فهو محمد بن الحسن الشيباني ، والتلميذ الثالث هو زفر . وكان أبو يوسف أكثرهم فقراً ، فقد كان الشيباني موسراً حتى إنه أنفق على قلمه النحو والشعر والفقه ثلاثين ألف درهم . كما كان هذيل ، والد زفر ، والياً على البصرة .

وكان أبو يوسف يلازم أستاذه في كل مجالسه ليتلقى عنه الدين والفقه والعلم . وكان أبو حنيفة في سعة من العيش ، يحترف التجارة ، يبيع الخبز ويجلس في السوق ، ولذا كان معاصروه يطلقون عليه اسم النعمان ابن ثابت الخزاز . وشارك أبو يوسف أستاذه مجلسه في السوق ، مما أفاده في حياته العملية إذ اطلع على دقائق النشاط الاقتصادي ، وعرف ما يجري في الأسواق من معاملات تجارية وبيع وشراء ، فتمت معلوماته عن الاقتصاد والضرائب ، وقد بلور هذه المعلومات فيما بعد في صورة علمية منهجية دقيقة في كتابه الخراج .

حتى إذا أتم أبو يوسف دراسته وحاز نصيباً وافراً من العلم ، أخذ يشق طريقه في الحياة ، ترنوه عينا أستاذه ، فتدرج في المناصب حتى تولى منصب القضاء في عهد الخليفة العباسي الثالث المهدي ، وكان هذا المنصب حينئذ من أبرز مناصب الدولة . وقد اشتهر

المهدى بالعدل ، حتى إنه كان أول الخلفاء الذين جلسوا للنظر في المظالم ، مما أتاح الفرصة لأبي يوسف لممارسة وظيفة القضاء في حرية ، وبدون تدخل من الخليفة . وقد خالف أبو يوسف في ذلك مسلك أستاذه أبي حنيفة الذي رفض أن يتولى منصب القضاء في عهد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور ، كما تذكر بعض المصادر التاريخية ، كما رفض من قبل هذا المنصب أيضاً حينما عهد به إليه ابن هبيرة عامل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين . وينسب المؤرخون رفض أبي حنيفة منصب القضاء في عهد الخليفة المنصور إلى ميله إلى العلويين ، كما كان المنصور يتقضى عهوده ، وشعر أبو حنيفة أنه عاجز عن إرضاء المنصور وحاشيته فقال له : « لو هددتني أن تفرقني في الفرات أو أن آلي الحكم لا اخترت أن أغرق ، فلك حاشية يحتاجون إلى من بكرمهم لك ، فلا أصلح لذلك » .

ولم يرض كثير من المعاصرين لأبي يوسف عن قبوله منصب القضاء ، ونجد ذلك في كتابات بعض المؤرخين ، فيقول الطبري : « إنه قد تحايى حديث أبي يوسف قوم من أهل الحديث ، من أجل غلبة الرأي عليه وتفريعه الفروع والأحكام ، مع صحة السلطان وتقلده القضاء » . فقد كان هناك في مطلع العصر العباسي كثير من العلماء والفقهاء ممن يزهدون في تولي الوظائف العامة في الدولة ، حتى يظل الدين بعيداً عن السياسة ، وحتى لا يضطر العالم أو الفقيه أن يخالف دينه أو ضميره ويمالي الخليفة وحاشيته .

وإن كنا نجد العذر لأبي حنيفة في رفضه منصب القضاء ، إلا أننا نجد العذر أيضاً لأبي يوسف في قبوله منصب القضاء في عهد المهدي ثم ولديه الهادي والرشيد . فقد رفض أبو حنيفة تولي القضاء في نهاية عصر الدولة الأموية ، وهي فترة قلقه حرجة تحفل بالاضطرابات السياسية وتيارات الشعوبية بين العرب والفرس ، كما رفض أبو حنيفة أن يلى القضاء للخليفة المنصور الذي

كان يؤسس الدولة العباسية ويدعمها ويقضى على خصومها ، ويعمل بمذهب (الغاية تبرر الوسيلة) وينادى بأن الخليفة هو ظل الله في أرضه . وقد نكل المنصور بالإمام العلوي محمد النفس الزكية وبأخيه إبراهيم ، كما قتل أبا مسلم الخراساني عضيداً للدولة العباسية . أما أبو يوسف فقد تولي القضاء في عهد الخليفة الثالث المهدي ، الذي كان عهده فترة رخاء واستقرار نعمت فيها الدولة العباسية بالهدوء والأمن ، واشتهر المهدي بالتدين والعدل والتسامح ، ويعتبر عهده مرحلة انتقال بين عهد القمع والشدة الذي شهده عهد أبي العباس السفاح والمنصور ، وعهد الدين والتسامح في عهود الرشيد وأولاده .

كما أن أبا يوسف كان رجلاً فقيراً ، في حاجة إلى العمل وتولي مناصب الدولة ، بينما كان أبو حنيفة تاجراً موسراً ليس في حاجة إلى الوظيفة الحكومية . ويعبر أبو يوسف عن رأيه في المال فيقول : « رءوس النعم ثلاثة : أولها نعمة الإسلام التي لا تتم النعمة إلا بها ، ونعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها ، ونعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا بها » . وقد رأى أبو يوسف أن يجمع بين النعم الثلاثة : الإسلام ، والعافية ، والغنى ، ولكن أبا يوسف في عمله القضائي لم ينحرف أو يجحد عن الحق ، بل نراه في كتابه « الخراج » يعظ الخليفة هارون الرشيد في حزم وقوة ، ويتوجه إليه بالنصائح ، وحاز إعجاب ثلاثة خلفاء اختلفوا في مشاربهم ووسائل حكمهم .

بل أتاح تولي أبي يوسف منصب القضاء فرصة له ليفي لأستاذه أبي حنيفة حقه ودينه عليه . فقد حافظ أبو يوسف على مذهبه ، ودونه في كتبه . حتى إذا أصبح قاضياً للقضاة في عهد الرشيد ، عمل على تدعيم مذهب أبي حنيفة وبثه في الأمصار الإسلامية ، وهذه الفرصة لم تنح لغير أبي يوسف من تلاميذ أبي حنيفة العديدين ، فقد جعل أبو يوسف مذهب أبي حنيفة

يتخذ صورة عملية إيجابية . ولذا يقول الحنفية : « إنه يعمل بقول أبي يوسف في القضاء » .

وبعد وفاة الخليفة المهدي ، أقر ابنه الخليفة الهادي أبا يوسف في منصبه القضائي ، اعترافاً بفضله وعدله ، رغم أن الهادي قد بدّل كثيراً من الرجال البارزين في عهد أبيه المهدي . حتى إذا تولى الخليفة هارون الرشيد ، لمع نجم أبي يوسف ، وأنشأ الرشيد منصب « قاضي القضاة » وكان أبو يوسف أول من تولى هذا المنصب . ويشبه المؤرخون المحدثون صاحب هذا المنصب بوزير العدل في أيامنا هذه . فكان قاضي القضاة يقيم في عاصمة الدولة ، ويولى قضاة ينوبون عنه في سائر الأمصار الإسلامية ، واتسعت دائرة سلطات أبي يوسف ، فبعد أن كان ينظر في القضايا المدنية والجنائية ، أصبح يفصل في الدعاوى ، والأوقاف وتنصيب الأولياء ، كما تولى الإشراف على الشرطة والمظالم والحسبة وبيت المال . وتحدث المؤرخ السيوطي عن منصب قاضي القضاة فقال : « كان الخلفاء يولون القاضي المقيم ببلدهم القضاء بجميع الأقاليم والبلاد التي تحت ملكهم ، ثم يستنوب القاضي من تحت أمره من شاء في كل إقليم وفي كل بلد ، ولهذا كان يلقب بقاضي القضاة ، ولا يلقب به إلا هو بهذه الصفة ، ومن عداه بالقاضي فقط . . . » ولقد كان قاضي القضاة إذ ذاك أوسع حكماً من سلاطين هذا الزمان .

حاز أبو يوسف رضا وإعجاب الخليفة هارون الرشيد ووزرائه من البرامكة ، حتى إنهم قدموه على سائر القضاة ، وخاصة القاضي محمد بن الحسن الشيباني ، وهو من تلاميذ أبي حنيفة ، كما تتلمذ أيضاً على أبي يوسف . ويعلل المؤرخون ذلك بأن أبا يوسف كان يداري ويحامل ، كما كان متواضعاً سمحاً ، خبيراً بمعاملة الناس . بينما كان الشيباني متعالياً حتى إنه رفض أن يقوم للرشيد حين قدم إلى مجلس كان فيه . ورغم صداقة أبي يوسف للشيباني في صباهما ، إلا أنه

كانت بينهما وحشة في عهد الرشيد . ورغم هذه الوحشة بين الرجلين العظميين ، فإن الشيباني يذكر في صدر كل باب من أبواب كتابه (الجامع الصغير) : « محمد عن يعقوب (أبي يوسف) عن أبي حنيفة » .

وظل أبو يوسف يتولى منصب قاضي القضاة حتى توفي مدينة بغداد بالعراق في سنة ١٨٢ هـ . وأصبح أبو يوسف قدوة يحتذى سائر القضاة الذين أتوا بعده حذوه ، وأصبحت أحكامه في الخراج نافذة طوال العصر العباسي .

آثار أبي يوسف :

تولى أبو يوسف منصباً من أخطر مناصب الدولة العباسية ، ولكن هذا لم يشغله عن البحث والدراسة والاستقصاء ، فوضع أبحاثاً فقهية عظيمة ، وكتباً قيمة أشادت بها المصادر التاريخية القديمة .

اتصل أبو يوسف بالمحدثين ، وروى عنهم ، وفي ذلك يقول المؤرخ الطبري : « كان أبو يوسف يعقوب ابن إبراهيم القاضي فقيهاً عالماً حافظاً ، ذكر أنه يعرف بحفظ الحديث ، وأنه كان يحضر المحدث ، فيحفظ خمسين أو ستين حديثاً ثم يقوم ويمليها على الناس ، وكان كثير الحديث ، وكان قد جالس محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ليلى ، ثم جالس أبا حنيفة ، وكان الغالب عليه مذهب أبي حنيفة ، وكان ربما خالفه أحياناً في المسألة بعد المسألة » . وكانت هذه الدراية الواسعة بالأحاديث أساساً متيناً لكثير من المؤلفات القيمة .

وكان محلراً لأهل العراق أن يقرنوا بين أبي يوسف والشيباني وزفر ، وكلهم من تلاميذ أبي حنيفة . فقد روى عن المزني صاحب الشافعي أنه جاءه رجل فسأله عن أهل العراق ، قال : ما تقول في أبي حنيفة ؟ قال : سيدهم ، قال : فأبو يوسف ؟ قال : أتبعهم للحديث . قال : فمحمد بن الحسن ؟ قال : أكثرهم تفريعاً . قال : فزفر ؟ قال : أحدهم قياساً .

شهد أبو يوسف أجماع البرامكة في العصر العباسي ،
وأدى توليه منصب قاضي القضاة إلى قيام صداقة وطيدة
بينه وبين الوزراء البرامكة وخاصة يحيى بن خالد
البرمكي ، وزير الرشيد ومربيه . وقد كلف هذا
الوزير أبا يوسف بتأليف « كتاب الجوامع » ، فجعله
أبو يوسف في أربعين كتاباً ، تحدث فيه عن اختلاف
الناس والرأى المأخوذ به .

كما طلب الخليفة هارون الرشيد من أبي يوسف
أن يضع كتاب الخراج ، وفي ذلك يقول أبو يوسف :
« إن أمير المؤمنين أبده الله تعالى سألني أن أضع له كتاباً
جامعاً يعمل به في جباية الخراج ، والعشور والصدقات
والجوالي » .

وبما يؤسف له ضياع جميع المؤلفات التي وضعها
أبو يوسف ، ولم يبق لنا من آثاره سوى « كتاب
الخراج » ، إلى جانب بعض الأقوال التي نقلها عنه
الفقهاء من بعده ، وأبواب نقلها عنه الإمام الشافعي في
كتابه « الأم » .

منهج أبي يوسف في كتاب الخراج :

نلمس في كتاب الخراج مدى تأثير أبي يوسف
بآراء أستاذه أبي حنيفة ، فقد حافظ أبو يوسف على
جوهر مذهبه ، وأهم بتدوينه ، والاستدلال له ،
وترتيب مسائله وتوسيعها . وكان تولى أبي يوسف
منصب قاضي القضاة عاملاً على أن نخدم فيه فقه
أبي حنيفة بسلطانه . كما أن أبا يوسف نقل إلينا أقوال
أبي حنيفة في كل باب من أبواب الفقه وحفظ لنا
ما ضاع من تراثه .

سار أبو يوسف على نهج أستاذه أبي حنيفة في
التشدد في قبول الحديث ، فلم يقبل الخبر عن الرسول
إلا إذا رواه جماعة عن جماعة . وفي ذلك يقول أبو يوسف
« فعليك من الحديث بما تعرف العامة ، وإياك والشاذ
منه . . . وكان عمر فيما بلغنا لا يقبل الحديث عن رسول

تحدث ابن النديم في كتابه « الفهرست » عن آثار
أبي يوسف ، فذكر لنا أسماء كتبه . فقد وضع أبو يوسف
كتباً عن أركان الإسلام وفرائضه ، فكان من كتبه
« كتاب الصلاة » ، « كتاب الزكاة » ، « كتاب
الصيام » ، « كتاب الفرائض » . كما وضع أبو يوسف
كتباً تتناول مسائل فقهية متنوعة ، مثل « كتاب البيوع »
« كتاب الحدود » ، « كتاب الوكالة » ، « كتاب
الوصايا » ، « كتاب الصيد والذبايح » ، « كتاب
الغصب والاستبراء » . كما وضع كتاباً عن مظاهر
الاختلاف في الأمصار الإسلامية بعنوان « كتاب
اختلاف الأمصار » .

وكان العصر الذي عاش أبو يوسف فيه عصر
نهضة فكرية ، ظهر فيه كثير من الفقهاء والمحدثين .
وقد تأثر أبو يوسف بآراء أستاذه أبي حنيفة ، وأهم
بتدوينها وتسجيلها ، مع جانب من التجديد والتطوير ،
دون تعصب أو تحيز ، بل طعم آراء أبي حنيفة بآراء
أخرى تلقاها عن أستاذ آخر له هو : محمد بن عبد الرحمن
ابن أبي ليلى الذي كان خصماً لأبي حنيفة حتى إن
أبا حنيفة كان يجهله في بعض القضايا ويبرز أخطاءه ،
كما تأثر أبو يوسف في كتبه ببعض آراء الإمام مالك بن
أنس وفقهاء الحجاز .

ومن كتب أبي يوسف « كتاب الرد على مالك بن
أنس » . وكان أبو يوسف قد رحل إلى المدينة المنورة ،
والتقى بالإمام مالك وناظره ، وأخذ عنه ورجع عن
بعض آرائه إلى قول مالك وأقوال الحجازيين ، كما
خالقهم في بعض آرائهم . وقد أشاد بعض المحدثين
بأبي يوسف ، وفي مقدمتهم ابن معين وابن حنبل ،
ولكن المحدثين الذين عارضوا الإمام أبي حنيفة عارضوا
بالتالي تلميذه أبي يوسف . فيقول في ذلك ابن عبد البر :
« كان ابن معين يثنى عليه — أي على أبي يوسف —
ويوثقه ، وأما سائر أهل الحديث فهم كأعداء لأبي
حنيفة وأصحابه » .

الله يقولان : ليس في شيء من ذلك شيء لأنه بمنزلة السمك ، وأما أنا فاني أرى في ذلك الخمس ، وأربعة أخماس لمن أخرجه لأننا قد رويناه فيه حديثاً عن عمر رضي الله عنه ، ووافقه عليه عبد الله بن عباس ، فاتبعنا الأثر ولم نر خلافاً .

وكتاب الخراج هو خلاصة ما تلقاه أبو يوسف من علم وثقافة إلى جانب خبرته في شئون الدولة وتجاربته الشخصية . وأبو يوسف يتحدث فيه عن أمور الدولة المالية ، وهو من أصعب الأبحاث وأدقها ، ولم يكن أبو يوسف بقادر على أن يحيط بأطرافها المتعددة لو لم يكن يتولى هذا المنصب الكبير في الدولة العباسية . وساعده على ذلك أيضاً معاصرته لعهود ثلاثة خلفاء من أبرز الخلفاء العباسيين وهم المهدي والهادي والرشيد .

ويظهر في كتاب الخراج سعة اطلاع أبي يوسف ، فقد إطلع على وثائق الدولة ودفاتها القديمة ، كما اتصل بحكم منصبه بكبار الموظفين ، واكتسب خبرة حكومية كما اتصل بشيوخ عصره في سائر الأمصار الإسلامية على اختلاف آرائهم ومذاهبهم ، فهو يروى عن أبي حنيفة ، وعن مالك بن أنس ، وعن الليث بن سعد وغيرهم ، كما يروى عن « بعض أشيائنا الكوفيين » ، وعن « بعض أشيائنا من أهل المدينة » .

وحفظ أبو يوسف لنا الكثير من أقوال صحابة الرسول وأعمالهم ، كما أبرز لنا سيرة الخليفة عمر بن الخطاب وسياسته في الحكم والإدارة والشئون المالية . فقد تمت الفتوحات الإسلامية في عهده ، ووضع أسس النظم الإدارية والمالية التي سار عليها معظم الخلفاء ، كما كان أول من دون الدواوين ، ويراعى أبو يوسف ظروف الزمان والمكان ، فلا يجد حرجاً في مخالفة بعض نظم عمر بن الخطاب ، وخاصة فيما فرضه من ضرائب على الأرض ، ويعلل أبو يوسف هذه المخالفة بقوله : « إن عمر رضي الله عنه رأى الأرض في ذلك الوقت محتملة لما وضع عليها ، ولم يقبل حين وضع عليها

الله (ص) إلا بشاهدين ، وكان على بن أبي طالب لا يقبل الحديث عن رسول الله ، والرواية تزداد كثرة ، ويخرج منها ما لا يعرف ولا يعرفه أهل الفقه ، ولا يوافق الكتاب ولا السنة ، فإياك وشاذ الحديث ، وعليك بما عليه الجماعة من الحديث وما يعرفه الفقهاء ، فقس الأشياء على ذلك ، فما خالف القرآن فليس عن رسول الله (ص) وإن جاءت به الرواية . . . » .

وهذا التشدد في الأخذ بالحديث دفع أبا يوسف إلى التوسع في القياس والاستحسان ، فما لم يكن فيه أثر كتاب ولا أثر صحيح ، فليس فيه أمام المجتهد إلا القياس والاستحسان . وقد ساعده على ذلك خبرته التي اكتسبها من ممارسته شئون القضاء ، فبرز في ذلك على غيره من الفقهاء .

طور أبو يوسف بعض جوانب فقه أبي حنيفة ، فقد رجع عن آراء له إلى الحديث الذي صح عنده ، وضيق حدود الرأي والقياس عما كانت عليه في عهد أبي حنيفة ، نتيجة اتصاله الوثيق بأهل الحديث وفقهائه كما كان لناظرات أبي يوسف مع الإمام مالك وفقهائه الحجاز أثرها في رجوعه عن بعض آرائه إلى آرائهم . كما أدى اتصال أبي يوسف بالحديثين إلى تدعيم مذهب أبي حنيفة بالحديث أيضاً ، وتطعيم المذهب ببعض آراء الفقهاء الحجازيين .

تفقه أبو يوسف بفقه أهل الرأي في الكوفة ، وبفقه أهل الحديث في المدينة وغيرها . ونرى أبا يوسف في كتابه الخراج يفاضل بين الأحاديث ويختار أكثرها ذيوهاً وانتشاراً ، وفي ذلك يقول : « واتبعنا الأحاديث التي جاءت عن رسول الله (ص) في مساقاة خيبر لأنها أوثق عندنا وأكثر وأعم مما جاء في خلافتها » .

كما يخالف أبو يوسف في كتاب الخراج بعض آراء أستاذه أبي حنيفة ، إذ يرى اتباع الأثر ، فيقول : « وسألت يا أمير المؤمنين عما يخرج من البحر من حلية وعنبر . . . وقد كان أبو حنيفة وابن أبي ليلى رحمهما

ما وضع من الخراج إن هذا الخراج لازم لأهل الخراج ،
وحتم عليها ، ولا يجوز لي ولبن بعدى من الخلفاء أن
ينقص منه ولا يزيد فيه . . . » .

اعتمد أبو يوسف فيما جاء في كتابه (الخراج)
من تشريع وأحكام وأخبار على كثير من الرواة نذكر
أشهرهم حسب الترتيب الأبجدي : أبان بن أبي عياش ،
الأحوص بن حكيم ، أبو اسحاق الشيباني ، إسرائيل بن
يونس ، إسماعيل بن أبي خالد ، أشعث بن سوار ،
الأعمش ، ابن جريج ، الحجاج بن أرطاة ، الحسن بن
عمارة ، العري بن إسماعيل ، سعيد بن أبي عروبة ،
سفيان بن عيينة ، شعبة ، عبدالله بن علي ، عبدالله
الزني ، عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان ، عبد الرحمن
ابن عبدالله المسعودي ، عطاء بن السائب ، الكلبي ،
الليث بن سعد ، ابن أبي ليلى ، مالك بن أنس ، المجلد
ابن سعيد ، محمد بن اسحاق ، محمد بن السائب الكلبي ،
أبو معشر ، مغيرة ، هشام بن سعد ، هشام بن عروة ،
يحيى بن سعد ، يزيد بن أبي زياد ، وغيرهم .

الملاحظات العامة لكتاب الخراج :

يذكر معظم المؤرخين أن أبا يوسف كان أول من
وضع كتاباً عن الخراج . ولكن الحقيقة أن معاوية
ابن يسار وزير المهدي ، والمعاصر لأبي يوسف ، كان
أول من ألف كتاباً في هذا الموضوع ، فيقول المؤرخ
ابن طباطبا في كتابه « الفخرى في الآداب السلطانية »
عن هذا الوزير : « وصنف كتاباً في الخراج ذكر فيه
أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده ، وهو أول من صنف
كتاباً في الخراج ، وبعه الناس بعد ذلك ، فصنفوا
كتب الخراج » . ولكن هذا الكتاب ضاع فلم يصل
إلينا . ولذا يمكننا أن نصحح رأى هؤلاء المؤرخين ،
فنقول أن كتاب أبي يوسف عن الخراج هو أقدم
الكتب التي حفظتها الأيام لنا .

ولاشك أن أبا يوسف الذي كان يتولى القضاء في
عهد المهدي قد اطلع على كتاب الوزير ، وربما استفاد
منه في تويب ومنهج كتابه ، وإن كنا لا نستطيع
تأكيد ذلك ، لأن أبا يوسف لم يشر إلى كتاب هذا
الوزير أو إلى شخصه في صفحات كتابه ، رغم أن هذا
الوزير قد أحدث نظاماً جديدة في الخراج تغاير ما كان
متبعاً في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ، إذ يذكر
المؤرخ ابن طباطبا أن المهدي فوض إليه تدبير أمور
الدولة ، وسلم إليه الدواوين ، فكان مقدماً في صناعته ،
وابتكر أموراً كثيرة ، منها أنه نقل الخراج إلى المقاسمة
وكان الخليفة قبله يأخذ عن الغلات خراجاً مقررأ
ولا يقاسم ، فلما تولى هذا الوزير الوزارة قرر أمر
المقاسمة ، وجعل الخراج على النخل والشجر ،
واستمرت الحال على ذلك طوال العصر العباسي .
ولكن من اليسير علينا أن نقرر إهمال أبي يوسف
لكتاب الوزير معاوية بن يسار ، فقد كان الوزير
متكبراً متعالياً ، كم اتهم ابنه بالزندقة فأمر الخليفة
المهدي بقتله ، واضطر الوزير إلى اعتزال الوزارة
فلزم داره حتى مات سنة ١٧٠ هـ .

حذا كثير من الكتاب حذو أبي يوسف في الاهتمام
بموضوع « الخراج » ، فقد وضع يحيى بن آدم كتاباً
في هذا الموضوع وسماه « الخراج » أيضاً . كما تحدث
الإمام الشافعي عن الخراج في كتابه « الأم » . ثم ألف
أبو عبيد بن سلام كتابه « الأموال » وأصبح الخراج
أبرز مواضيع كتابه ، كما نال الخراج اهتمام الماوردي
في كتابه « الأحكام السلطانية » .

وكتاب أبي يوسف ، وغيره من الكتب التي تدور
حول نفس الموضوع ، تمد المؤرخ بكثير من المعلومات
عن أحوال الشعوب الإسلامية ، ونظمهم الإدارية
والمالية ، إذ يطرق هؤلاء الكتاب الجوانب المختلفة من
حياة هذه الشعوب ، وتمدنا بصور اجتماعية واقتصادية
مختلفة ، كما تحوى الكتب كثيراً من الفتاوى في كثير

عرض لكتاب الخراج ومقتطفات منه :

١ - يبدأ كتاب الخراج برسالة وجهها المؤلف إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد ، بدأها بالدعاء للخليفة ، ثم تحدث عن هدفه من تأليف الكتاب ، وأنه قد قام بتأليفه بتكليف من الخليفة .

قال أبو يوسف : « إن أمير المؤمنين ، أيده الله تعالى ، سألني أن أضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج ، والعشور ، والصدقات ، والجواري ، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به ، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته ، والصالح لأمرهم . وفقى الله تعالى أمير المؤمنين ، وسدده وأعانته على ما تولى من ذلك ، وسلمه مما يخاف ويحذر . وطلب أن أبين له ما سألني عنه مما يريد العمل به ، وأفسره وأشرحه ، وقد فسرته ذلك وشرحته » .

والآراء مختلفة حول تفسير كلمة « الجوالي » التي أشار أبو يوسف إليها آنفاً . فهناك تفسير يذهب إلى أن الجوالي هي اختيار الأحسن من كل شيء ، سواء أكان من الممتلكات أم من الشاء ، الخزيل منها الصغير ، وربما كانت هذه هي وظيفة العامل في الزكاة . أما التفسير الآخر لكلمة جوالي فيذهب إلى جمع كلمة « جالية » ، وأصلها الجماعة التي تفارق وطنها وتنزل وطناً آخر ، ومنه قيل لأهل النمة الذين أجلاهم عمر بن الخطاب عن الجزيرة العربية « جالية » ثم نقلت هذه اللفظة إلى الجزيرة التي أخذت منهم ، ثم استعملت في كل جزيرة وإن لم يكن صاحبها جلا عن وطنه . والرأي الثاني أقرب إلى الحقيقة والواقع .

ثم يتوجه أبو يوسف إلى الخليفة الرشيد بالنصيحة والموعظة فيقول : « لا تؤخر عمل اليوم إلى غد ، فانك إذا فعلت ذلك أضعت . إن الأجل دون الأمل ، فبادر الأجل بالعمل ، فانه لا عمل بعد الأجل . إن الرعاية مؤدون إلى ربهم ما يؤدي الراعي إلى ربه . فأقم الحق

من القضايا والمواضيع التي تشغل الأذهان وتختلف فيها الآراء والمشكلات التي يعانون منها . وإن كان كتاب الخراج لأبي يوسف ليس بكتاب تاريخ ، بل كتاب فقه بهم بصفة خاصة بفقه الخراج ، إلا أنه يمدنا بصورة تاريخية تصور تطبيق الأحكام الفقهية في الدولة الإسلامية ويحدثنا عن الفتوح الإسلامية للعراق والشام .

ولندرك تفسر أبي يوسف للخراج ، علينا أن نستعرض بعض الآراء حول كلمة « خراج » . فقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن كلمة « خراج » مشتقة من كلمة (Choregia) الآرامية أو البيزنطية ، ومعناها العام « الضريبة » . أما معاجم اللغة فهي تفسرها تفسيرات مختلفة ، فقد جاء في لسان العرب أن الخراج هو الإتاوة التي تؤخذ من أموال الناس ، كما يوسع لسان العرب نطاق الخراج بحيث يشمل الجزية التي تفرض على أهل النمة ، ثم يلخص معنى الخراج في كلمة واحدة هي « الغلة » . أما « القاموس » فيذكر أن الخراج هو الإتاوة . والخراج في لغة العرب اسم للكرء والغلة ، ومنه قول الرسول : « الخراج بالضمان » ويذكر « جب » و « كرامز » في مختصر دائرة المعارف الإسلامية أن كلمة خراج فارسية اقتبسها الفرس عن الكلمة الآرامية « هلاك » . ويعرف الماوردي الخراج في الإسلام بأنه « هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عليها » . ويذكر الماوردي أيضاً أن هناك فرقاً كبيراً بين الخراج والعشر ، فالخراج مقابل إيجار الأرض ، أما العشر فيؤخذ من المسلمين كزكاة على الزرع والتمر ، كما يذكر أنه لا يجوز أن يجتمع العشر والخراج ، بل يسقط العشر بالخراج . ويعرف ابن آدم أرض الخراج بأنها هي كل أرض مسحت ووضع عليها الخراج ، ويعرفها التويري في « نهاية الأرب » أنها كل أرض روتها أنهار الخراج ، وخصصت لزراعة الغلات المختلفة ، أو جعلت بساتين للنخل والكروم وغيرها ، أو شغلت بالطواحين .

فما ولاك الله وقلمك ولو ساعة من نهار ، فان أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته . ولا تزغ فتزغ رعيته ، وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب وكن من خشية الله على حذر وحذر فإن الحذر بالقلب وليس بلسان ، واتق الله دائماً ومضى أبو يوسف في نصيحته ، فيذكر الخليفة بالآخرة ويوم الحساب ، ويدل على نصيحته بآيات قرآنية كريمة ، ثم يقول : « فلا تلق الله غداً وأنت سالك سبيل المعتدين ، فان ديان يوم الدين إنما يدين العباد بأعمالهم ولا يدينهم بمنزلهم » .

ثم يبين أبو يوسف للخليفة أهمية كتابه ، ويطلب منه أن يتمعن فيه حتى يفهمه ، ثم يضعه موضع التنفيذ ، حتى لا يقع ظلم على أحد ، ويصلح أمر الرعية ، فيقول : « وقد كتبت لك ما أمرت به وشرحت لك وبينته ، فتفقهه وتدبره وردد قراءته حتى تحفظه ، فإني قد اجتهدت لك في ذلك ولم آلك والمسلمين نصحاً ، ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه . وإني لأرجو - إن عملت بما فيه من البيان - أن يوفر الله لك خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد ، ويصلح لك رعيته ، فان صلاحهم بأقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم والنظام فيما اشتبه من الحقوق عليهم . وكتبت لك أحاديث حسنة ، فيها ترغيب وتحضيض على ما سألت عنه ، بما تريد العمل به إن شاء الله . فوفقك الله لما يرضيه عنك ، وأصلح بك ، وعلى يدك » .

ويدعم أبو يوسف نصائحه وتحذيراته بكثير من الأحاديث النبوية ، تحث على العدل وعمل الخير وتحقيق صلاح الأمة ، وتستغرق هذه الأحاديث نحو خمس صفحات . ثم مضى أبو يوسف في تدعيم أقواله ، فيذكر وصية أبي بكر لخلفه عمر بن الخطاب ، ويتبعها بخطبة لأبي بكر يوصي فيها الناس بتقوى الله ويذكرهم بالموت . ثم يذكر خطبة لعمر بن الخطاب يطلب فيها من الرعية تقوى الله وطاعته . ثم يذكر أبو يوسف

وصية عمر لمن يتولى الخلافة بعده والتي جاء فيها : « . . . وأوصيه بأهل الأنصار ، فانهم ردة الإسلام وغيط العدو وجباة المال ، أن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضى منهم » . ثم يذكر أبو يوسف كثيراً من خطب عمر ووصاياهم لولائه في الأمصار . ثم تحدث أبو يوسف عن عثمان وبكائه حينما كان يتذكر الجنة والنار ، كما ذكر وصايا علي بن أبي طالب لعلمائه وولائه . ثم تحدث أبو يوسف عن رد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز المظالم ، وكان هذا الخليفة هو الوحيد من بين خلفاء بني أمية الذي ينال تقدير الخلفاء العباسيين ، مما جعل أبو يوسف يخصه بالحديث من بين الخلفاء الأمويين العديدين .

٢- ثم يبدأ باب « قسمة الغنائم » ، ويوجه أبو يوسف الحديث إلى الرشيد ، فيذكر أحكام قسمة الغنائم كما جاءت في القرآن الكريم ويعدد الآيات القرآنية ، ثم يتحدث عما فعله الرسول في موقعة بدر وغيرها من الغزوات . ثم يذكر رأى أستاذه أبي حنيفة ويتحدث عن تطبيق هذه القواعد في الدولة الإسلامية ، في عهد الخلفاء الراشدين ، وفي عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز . ثم ينتهي أبو يوسف إلى إبداء رأيه الخاص في طريقة قسمة الغنائم .

أما أحكام القرآن الكريم في قسمة الغنائم ، فيقول أبو يوسف عنها : « أما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من قسمة الغنائم إذا أصيبت من العدو وكيف يقسم ذلك ، فان الله تبارك وتعالى قد أنزل بيان ذلك في كتابه فقال فيما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم « واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسة وللرسول ولذئ القرنى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير » . فهذا والله أعلم فيما يصيب المسلمون من عساكر أهل الشرك ، وما أجبوا به من المتاع والسلاح والكراع ، فان في

ذلك الخمس لمن سمي الله عز وجل في كتابه العزيز ، وأربعة أخماسه بين الجند الذين أصابوا ذلك : من أهل الديوان وغيرهم ، يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم ، سهمان لفارسه ، وسهم له ، وللراجل سهم على ما جاء في الأحاديث والآثار .

وبعد أن استعرض أبو يوسف سنة الرسول في قسمة الغنائم ، وآراء الفقهاء ، وما سار عليه الخلفاء ، أبدى رأيه فقال : « فعلى هذا تقسم الغنيمة فإصاب المسلمون من عساكر أهل الشرك وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع وغير ذلك ، وكذلك كل ما أصيب في المعادن من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص ، فإن في ذلك الخمس - في أرض العرب كان أو في أرض العجم - وخمسه الذي يوضع فيه مواضع الصدقات . وفيما يستخرج من البحر من حلية وعنبر والخمس يوضع في مواضع الغنائم » .

٣- والباب الثالث هو باب « الفئ والخراج » ، فذكر أبو يوسف أن المقصود بالفئ هو الخراج في العصر العباسي ، واستشهد أبو يوسف في ذلك بكثير من الآيات القرآنية الكريمة ، ثم تحدث عن سنة عمر بن الخطاب في الفئ ، وخاصة بعد فتح بلاد العراق والشام عرف أبو يوسف الفئ والخراج فقال : « فأما الفئ يا أمير المؤمنين فهو الخراج عندنا ، خراج الأرض ، والله أعلم ، لأن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » ، حتى فرغ من هؤلاء ثم قال عز وجل « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » ، ثم قال تعالى « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا

ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . ثم قال تعالى « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » ، فهذا والله أعلم لمن جاء من بعدهم من المؤمنين إلى يوم القيامة .

وتحدث أبو يوسف عن سياسة عمر بن الخطاب نحو تقسيم أراضي بلاد العراق والشام فقال : « وقد سأل بلال وأصحابه عمر بن الخطاب رضى الله عنه قسمة ما أفاء الله عليهم من العراق والشام ، وقالوا اقسم الأرضين بين الذين افتتحوها كما تقسم غنيمة العسكر . فأنى عمر ذلك عليهم ، وتلا عليهم هذه الآيات ، وقال : قد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم في هذا الفئ ، فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شيء ، ولئن بقيت ليلغن الراعى بصنعاء نصيبه من هذا الفئ ودهه في وجهه » .

وأبو يوسف كعادته يبدي رأيه الخاص في نهاية كل فصل بعد أن يعرض أحكام الدين ، وسنة الرسول ، وسياسة الخلفاء ، فيقول : « والذي رأى عمر رضى الله عنه من الانتاع من قسمة الأرضين بين من افتتحها عندما عرفه الله ما كان في كتابه من بيان ذلك توفيقاً من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين ، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم ، لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس في الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير في الجهاد ، ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنهم إذا خلت من المقاتلة والمرزقة ، والله أعلم بالخير حيث كان » .

٤- ثم يعقد أبو يوسف فصلاً يتحدث فيه عن أرض العراق المعروفة بأرض السواد لما اشتهرت به من خصوبة جعل لوها أسود ، وجعل عنوان هذا الفصل « ما عمل به في السواد » . ونخص أبو يوسف ما تناوله هذا الفصل فقال : « أما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين

من أمر السواد وما الذي كان أهله عوملوا به في خراجهم وجزية رؤسهم ، وما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه فرضه عليهم في ذلك . وهل يجرى في شيء منه صلح ، وما الحكم في الصلح منه والغنوة .

وتحدث أبو يوسف عن سياسة عمر بن الخطاب نحو أرض السواد فقال : « وافتح عمر السواد والأهواز فأشار عليه المسلمون أن يقسم السواد وأهل الأهواز وما افتتح من المدن فقال لهم : فما يكون لمن جاء من المسلمين ؟ فترك الأرض وأهلها ، وضرب عليهم الجزية ، وأخذ الخراج من الأرض » .

وفصل أبو يوسف الحديث عن المحاورات ، والمناظرات التي دارت بين عمر بن الخطاب وكثير من الصحابة حول تقسيم أرض السواد . كما تحدث أبو يوسف عن فتح المسلمين للأراضي الفارسية ولقاء المغيرة للقائد الفارسي رستم ، وعدد انتصارات المسلمين على الفرس في كثير من المواقع الحربية ، وخاصة موقعي القادسية ونهاوند .

وكان بلال بن رباح وعبد الرحمن بن عوف يريدان تقسيم السواد ، بينما رأى عمر وعلى وطلحة غير ذلك . قال عمر : « فكيف أقسمه لكم ، وأدع من يأتي بغير قسم ؟ فأجمع على تركه وجمع خراج وإقراره في أبلى أهله ووضع الخراج على أرضهم والجزية على رؤسهم » .

وأشار أبو يوسف عما انتهجه عمر بعد أن قرر عدم تقسيم السواد ، فقد « مسح السواد فبلغ ستة وثلاثين ألف ألف جريب ، وأنه وضع على جريب الزرع درهماً وقيزاً ، وعلى الكرم عشرة دراهم ، وعلى الرطبة خمسة دراهم ، وعلى الرجل اثني عشر درهماً ، وأربعة وعشرين درهماً ، وثمانية وأربعين درهماً » .

وتحدث أبو يوسف عن تطبيق سياسة عمر ، فقد ولي عمر عثمان بن حنيف مساحة الأراضي ، وجعل أجره على ذلك ربع شاة يومياً . وقام عثمان بمسح

الأرض ، وجعل على جريب العنب عشرة دراهم ، وعلى جريب النخل ثمانية دراهم ، وعلى جريب القصب ستة دراهم ، وعلى جريب الخنطة أربعة دراهم ، وعلى جريب الشعير درهمين ، اثني عشر درهماً . كما فرض الجزية على أهل الذمة ، فكان الموسر منهم يدفع ثمانية وأربعين درهماً ، ويدفع متوسط الحال أربعة وعشرين درهماً ، ويدفع الفقير اثني عشر درهماً ، مع إعفاء النساء والصبيان .

وقد ولي عمر بن الخطاب حذيفة على بعض أراضي السواد ، واستدعاه يوماً هو وعثمان بن حنيف ، وقال لهما : لعلكما حملتما الأرض ما لا تطيق . فقال عثمان : حملت الأرض أمراً هي له مطيقة ولو شئت لأضعفت أرضي . وقال حذيفة : وضعت عليها أمراً هي له محتملة ، وما فيها كثير فضل . فقال عمر لهما : انظرا لا تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق ، أما لئن بقيت لأراهم أهل العراق لأدعهم لا محتجن إلى أحد بعدى . وقبل وفاة عمر أوصى بأهل الذمة « أن يوفى لهم بعدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وأن يقاتل من ورائهم » .

هـ - وانتقل أبو يوسف من بلاد العراق إلى بلاد الشام والجزيرة ، فخصص فصلاً جعل عنوانه « فصل في أرض الشام والجزيرة » تحدث فيه عن شروط الصلح الذي عقده المسلمون مع أهل هذه البلاد ، وذكر أبو يوسف مصدره الذي استمد منه معلوماته ، وهو شيخ من أهل الحيرة ، وهي الإمارة العربية التي قامت على مشارف الشام قبل الإسلام .

فقال أبو يوسف : « وأما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من أمر الشام والجزيرة وفتحهما ، وما كان جرى عليه الصلح فيما صولح عليه أهله منهما ، فإني كتبت إلى شيخ من أهل الحيرة له علم بأمر الجزيرة والشام في فتحهما أسأله عن ذلك » . ثم نقل أبو يوسف رسالة هذا الشيخ ، وهي رسالة مطبولة تستعرض تاريخ إقليم الجزيرة قبل الإسلام ، وسكانه وحدوده ، ثم

تحدث عن رسالته عن الجيوش الإسلامية وقوادها وفتوحاتها ومعاهدات الصلح المختلفة التي وقعها قواد المسلمين مع أهالي هذه البلاد ، وقد اختلفت هذه المعاهدات في نصوصها وشروطها .

٦- عقد أبو يوسف فصلاً بعنوان « كيف كان فرض عمر لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم » ، بدأه بأن تحدث عن سنة الرسول حينما جاءه مال البحرين ، فقد أعطى كل رجل ما كان قد وعده به ، ثم قسم بقية المال « بالسوية على الصغير والكبير ، والحر والمملوك ، والذكر والأنثى » . ثم تحدث أبو يوسف عن سياسة أبي بكر ، فقد قسم المال فساوى بين الناس جميعاً ، واعترض البعض على هذه السياسة وقالوا إن بين الناس « أناس لهم فضل وسوابق وقدم » ، فأجاب أبو بكر : « أما ما ذكرتم من السوابق والقدم والفضل فما أعرفتي بذلك ، وإنما ذلك شيء ثوابه على الله جل ثناؤه ، وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة » . أما عمر بن الخطاب فقد رسم سياسته فقال : « لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه » ، ولذا فضل السابقين في الإسلام وقدماء المهاجرين والأنصار ممد شهدوا موقعة بدر وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر دون ذلك ، أنزلهم على قدر منازلهم من السوابق .

وحاول البعض تملق عمر بن الخطاب فقالوا له : ابدأ بنفسك . ولكن عمر كان عادلاً ، فرفض رأيهم « فبدأ بالأقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففرض للعباس ثم لعلي رضي الله تعالى عنهما ، حتى وإلى بن خمس قبائل حتى انتهى إلى بني عدى بن كعب » .

٧- رأينا أبا يوسف وقد أفرد فصلاً بعنوان « ما عمل به في السواد » أي أنه تحدث عن الماضي ، ثم نراه يعقد فصلاً آخر بعنوان « ما ينبغي أن يعمل به في السواد » ، فقد رأى وجوب تغيير السياسة القديمة المتبعة ، تبعاً لسنة التطور وتغير ظروف الزمان والمكان .

وأراد أبو يوسف أن يدعم رأيه واقترحاته ، فذكر أنه وصل إلى هذه الآراء بعد بحث ودراسة واستشارة المتخصصين في مسائل الخراج .

قال أبو يوسف : « نظرت في خراج السواد وفي الوجوه التي يجبي عليها ، وجمعت في ذلك أهل العلم بالخراج وغيرهم وناظرتهم فيه ، فكل قد قال فيه بما لا يحل العمل به ، فناظرتهم فيما كان وظف عليهم في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في خراج الأرض واحتيان أرضهم إذ ذاك لتلك الوظيفة » .

ثم قارن أبو يوسف بين الظروف التي تمت فيها نظم عمر بن الخطاب ، وظروف العصر الذي يعيش أبو يوسف فيه ، فقال : « فذكروا - أي أهل العلم الذين ناظرهم - أن العامر كان من الأرضين في ذلك الزمان كثيراً وأن المعطل كان يسيراً ، ووصفوا كثرة العامر الذي لا يعمل وقلة العامر الذي يعمل وقالوا لو أخذنا بمثل ذلك الخراج الذي كان حتى يلزم للعامر المعطل مثل ما يلزم للعامر المعتل ثم نقوم بعمارة ما هو الساعة غامر ولا نحدثه لضعفتنا عن أداء خراج ما لم يعمل وقلة ذات أيدينا » .

وتحدث أبو يوسف عن مشكلة الغلاء وارتفاع الأسعار أو انخفاضها ، وعلاقة ذلك بنظرية العرض والطلب ، فقال : « والرخص والغلاء بيد الله تعالى لا يقومان على أمر واحد . وكذلك وظيفة الدراهم مع أشياء كثيرة تدخل في ذلك تفسيرها يطول ، وليس للرخص والغلاء حد يعرف ولا يقام عليه إنما هو أمر من السماء لا يدري كيف هو . وليس الرخص من كثرة الطعام ولا غلاؤه من قلته ، إنما ذلك أمر الله وقضاؤه . وقد يكون الطعام كثيراً وغالياً ، وقد يكون قليلاً ورخيصاً » .

٨- ثم عقد أبو يوسف فصلاً عن القواطع ، فقال « فأما القواطع من أرض العراق فككل ما كان لكسرى ومرازبته وأهل بيته مما لم يكن في يد أحد » . كما تحدث

عن الصوافي فقال عنها : « وهي التي يقال لها صوافي الأثمار ، وذلك أنه - أي عمر بن الخطاب - كان أصفى كل أرض كانت لكسرى أو لأهله أو لرجل قتل في الحرب أو لحق بأرض الحرب أو مفيض ماء أو دير بريد » . ثم شرح أبو يوسف وضع هذه الصوافي والسياسة الواجب اتباعها فيها : « وذلك بمنزلة المال الذي لم يكن لأحد ولا في يد وارث ، فللإمام العادل أن يجز منه ويعطي من كان له غناء في الإسلام ويضع ذلك موضعه ولا يحاي به . . . وإنما صارت القطائع يؤخذ منها العشر لأنها بمنزلة الصدقة ، وإنما ذلك إلى الإمام إن رأى أن يصير عليها عشر آ فعل ، وإن رأى أن يصير عليها عشرين فعل ، وإن رأى أن يصيرها خراجاً - إذا كانت تشرب من أنهار الخراج - فعل ذلك موسعاً عليه في أرض العراق خاصة ، وإنما يؤخذ منها العشر لما يلزم صاحب الإقطاع من المونة في حفر الأنهار وبناء البيوت وعمل الأرض ، وفي هذا مونة عظيمة على صاحب الإقطاع ، فمن ثم صار عليه العشر لما يلزم من المونة . والأمر في ذلك إليك - أي إلى هارون الرشيد - وما رأيت أنه أصلح فاعمل به إن شاء الله » .

٩ - ثم عقد أبو يوسف فصولاً صغيرة ، تحدث في أولها عن أراضي الحجاز واليمن والأراضي العربية التي افتتحها الرسول ، ورأى أبو يوسف أنه « لا يزداد عليها ولا ينقص منها لأنه شيء قلته جرى عليه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكمه » . ثم عقد فصلاً عن أرض البصرة وخراسان فقال : « فانهما عندي بمنزلة السواد وأما ما افتتح من ذلك حنوة فهو أرض خراج وما صولح عليه أهله فعلي ما صولخوا عليه ولا يزداد عليهم ، وما أسلم عليه أهله فهو عشر » . ثم جعل أبو يوسف فصلاً بعنوان « فصل في إسلام قوم من أهل الحرب وأهل البادية على أرضهم وأموالهم » ، وأبدى أبو يوسف رأيه في السياسة الواجب اتباعها نحوهم فقال : « فإن دماءهم حرام ، وما أسلموا عليه

من أموالهم فلهم ، وكذلك أرضهم لهم وهي أرض عشر » .

ثم يعقد أبو يوسف فصلاً عن « موات الأرض في الصلح والغنوة وغيرهما ، ويبدى أبو يوسف رأيه في الأرض الموات فيقول : « فإذا لم يكن في هذه الأرضين أثر بناء ولا زرع ولم تكن فيئاً لأهل القرية ولا مسرحاً ولا موضع مقبرة ولا موضع محتطهم ولا موضع مرعى دوابهم وأغنابهم ، وليست ملك لأحد ولا في يد أحد ، فهي موات ، فمن أحياها أو أحيا منها شيئاً فهي له . ولك - أي للرشيد - أن تقطع ذلك من أحبيبت ورأيت ، وتوأجره وتعمل فيه بما ترى أنه صلاح ، وكل من أحيا أرضاً مواتاً فهي له » .

ويخصص أبو يوسف فصلاً صغيراً بعنوان « الحكم في المرتدين إذا حاربوا ومنعوا الدار » فقال أبو يوسف عن الحكم فيهم : « ولو أن المرتدين منعوا الدار وحاربوا سبي نساؤهم وذراريهم وأجبروا على الإسلام » ثم تحدث أبو يوسف عن الخراج الذي يفرض على ما يخرج من البحر ، فقال : « وسألت يا أمير المؤمنين عما يخرج من البحر من حلية وعنبر ، فإن فيما يخرج من البحر من الحلية والعنبر الخمس ، فأما غيرها فلا شيء فيه » . وخالف أبو يوسف في ذلك أبا حنيفة وابن أبي ليلى فقد اعتبرا كل ما يخرج من البحر بمنزلة السمك ، واعتمد أبو يوسف في رأيه على رأى عمر وعبد الله بن عباس . ثم تحدث أبو يوسف عن الخراج الذي يفرض على العسل والجوز واللوز فقال : « وأما العسل والجوز واللوز وأشباه ذلك فإن في العسل العشر إذا كان في أرض العشر ، وإذا كان في أرض الخراج فليس فيه شيء ، وإذا كان في المفاوز والجبال على الأشجار أو في الكهوف فلا شيء فيه ، وهو بمنزلة الثمار تكون في الجبال والأودية لا خراج عليها ولا عشر » وعقد أبو يوسف فصلاً صغيراً بعنوان « قصة تيجران وأهلها » ، وقد كانت مدينة تيجران قبل الإسلام

مركزاً للجلالية المسيحية في بلاد اليمن . وتحدث أبو يوسف عن سنة الرسول ، والسياسة التي اتبعها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، ويرى أبو يوسف أن يعامل أهل نجران معاملة أهل الذمة فيدفعوا الجزية « ولو اشترى نجراني أرضاً من أرض الخراج كان عليه فيها الخراج » .

١٠ - خصص أبو يوسف فصلاً عن « الصدقات » ويرى أبو يوسف أن يبيع الولاة سنة الرسول ثم سياسة الخلفاء ، فقال : « وسألت يا أمير المؤمنين عما يجب فيه الصدقة في الإبل والبقر والغنم والخيل ، وكيف ينبغي أن يعامل من وجب عليه شيء من الصدقة في كل صنف من هذه الأصناف ؟ فرأى أمير المؤمنين الماملين عليها بأخذ الحق وإعطائه من وجب له وعليه العمل في ذلك بما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الخلفاء من بعده ، وأعلم أنه من سن سنة حسنة كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها من غير أن ينتقص من أجورهم شيء ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شيء » . ويشير أبو يوسف إلى حديث الرسول : « تجاوزت لكم عن صدقة الخيل والرقيق » . ويقول أبو يوسف « فأما الإبل والعوامل والبقر والعوامل فليس فيها صدقة ... ولا تؤخذ الصدقة من الإبل والبقر حتى يحول عليها الحول ... والمعز والضأن في الصدقة سواء » .

ثم يختم أبو يوسف حديثه عن الصدقات فيقول : « لا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر منع الصدقة ولا إخراجها من ملكه إلى ملك جماعة غيره ليفرقها بذلك فتبطل الصدقة عنها بأن يصير لكل واحد منهم من الإبل والبقر والغنم ما لا يجب فيه الصدقة ولا يحتال في إبطال القدمة بوجه ولا سبب » .

١١ - يتحدث أبو يوسف عن عدة مواضع متنوعة ، يبدأ بالحديث عن (بيع السمك في الآجام) ويقول : « فلا يجوز بيع السمك في الماء لأنه غرر وهو الذي يصيده ، فإنه كان يُوخذ باليد من غير أن يصاد

فلا بأس ببيعه » . ثم يتحدث عن « إجارة الأرض البيضاء وذات النخل » فقال : « فإن أصحابنا من أهل الحجاز وأهل المدينة على كراهة ذلك وإفساده ، ويقولون الأرض البيضاء مخالفة للنخل والشجر ولا يرون بأساً بالمساقاة في النخل والشجر بالثلث والربع وأقل وأكثر ، وأما أصحابنا من أهل الكوفة فاختلفوا في ذلك ، فمن أجاز المساقاة في النخل والشجر منهم أجاز المزارعة في الأرض البيضاء بالنصف والثلث ... » . ثم يبدى أبو يوسف رأيه الخاص فيقول : « أن ذلك كله جائز مستقيم صحيح ، وهو عندى بمنزلة مال المضاربة قد يدفع الرجل إلى الرجل المال مضاربة بالنصف والثلث فيجوز هذا وهذا مجهول لا يعلم ما مبلغ ربحه ليس فيه اختلاف بين العلماء » .

ثم يتحدث أبو يوسف عن « الجزائر في دجلة والفرات » واعتبرها بمنزلة الأرض الموات فمن أحيها فهي له ، بشرط عدم الإضرار بالآخرين . ثم يتحدث عن « القنى والآبار والأنهار والشرب » فقال : « وكل نهر له منفعة أكثر فلا ينبغي للإمام أن يهدمه ولا يتعرض له ، وكل نهر مضرته أكثر من منفعته فعلى الإمام أن يهدمه ويطمه ويسويه بالأرض إلا ما كان للشقة » . كما قال « وكل من كانت له عين أو بئر أو قناة فليس له أن يمنع ابن السبيل من أن يشرب منها ويسقى دابته ويعيره وغنمه منها ، وليس له أن يبيع من ذلك شيئاً للشقة ... وله أن يمنع السقى للأرض والزرع والنخل والشجر ... ولا بأس ببيع الماء إذا كان في الأوعية » . ثم يتحدث أبو يوسف عن « الكلا والمروج » فقال : « ولو أن أهل قرية لم مروج يرحون فيها ويحطبون منها قد عرف أنها لهم ، فهي لهم على حالها يتبايعونها ويتوارثونها ويحدثون فيها ما يحدث الرجل في ملكه ، وليس لهم أن يمنعوا الكلا ولا الماء ، ولأصحاب المواشي أن يرحوا في تلك المروج ويستقوا من تلك المياه ... وليس لأحد أن يحدث مرجاً في ملك غيره ، ولا يتخذ

فيه نهراً ولا بئراً ولا مزرعة إلا باذن صاحبه ،
ولصاحبه أن يحدث ذلك كله » .

١٢ - عقد أبو يوسف فصلاً عن « شأن نصارى
بنى تغلب وسائر أهل الذمة وما يعاملون به » . فقال إن
بنى تغلب ضوعف عليهم الصدقة في أموالهم وأسقطت
الجزية عن رؤوسهم وحدد أبو يوسف من تجب عليه
دفع الجزية ومقدارها فقال : « الجزية واجبة على
جميع أهل الذمة ممن في السواد وغيرهم من أهل الحيرة
وسائر البلدان من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين
والسامرة ، ما خلا نصارى بنى تغلب وأهل نجران
خاصة ، وإنما تجب الجزية على الرجال منهم دون النساء
والصبيان . وعلى الموسر ثمانية وأربعون درهماً ، وعلى
الوسط أربعة وعشرون ، وعلى المحتاج الخراج العامل
بيده اثنا عشر درهماً ، يؤخذ ذلك منهم في كل سنة ،
وإن جاءوا بعرض قبل منهم ، مثل الدواب والمتاع
وغير ذلك : ويؤخذ منهم بالقيمة ولا يؤخذ منهم في
الجزية ميتة ولا خنزير ولا خمر » . ثم تحدث أبو يوسف
عن لباس أهل الذمة وزينهم فقال : « لا يترك أحد منهم
يتشبه بالمسلمين في لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته »
واعتمد أبو يوسف في تفسير ذلك على قول عمر بن
الخطاب : « حتى يعرف زينهم من زى المسلمين » .

ويرى أبو يوسف أن تؤخذ الجزية من المجوس
والصابئة والسامرة على ألا يأكل المسلمون من ذبائحهم
ولا يتزوجون معهم . وكان الرسول قد صالح مجوس
أهل هجر « على أن يأخذ منهم الجزية ، غير مستحل
مناكحة نسائهم ولا أكل ذبائحهم » .

١٣ - عقد أبو يوسف فصلاً عن « العشور » ، وقد
حددها فقال : « يؤخذ من المسلمين ربع العشر ، ومن
أهل الذمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر ،
من كل ما مر به على العاشر وكان للتجارة ، وبلغ قيمة
ذلك مائتي درهم فصاعداً أخذ منه العشر ، وإن كانت

قيمة ذلك أقل من مائتي درهم لم يؤخذ منه شيء . . .
وما لم يكن من مال التجارة ومروا به على العاشر فليس
يؤخذ منه شيء » . ثم تحدث أبو يوسف عن سياسة عمر
في العشور وأبدى رأيه الخاص فقال : « فإن عمر بن
الخطاب وضع العشور فلا بأس بأخذها إذا لم يتعد فيها
على الناس ، ويؤخذ بأكثر مما يجب عليهم . وكل ما أخذ
من المسلمين من العشور فسيبله سبيل الصدقة وسبيل
ما يؤخذ من أهل الذمة جميعاً وأهل الحرب سبيل
الخراج ، وكذلك ما يؤخذ من أهل الذمة جميعاً من
جزية رؤوسهم وما يؤخذ من مواشي بنى تغلب فإن
سبيل ذلك كله سبيل الخراج ، يقسم فيما يقسم فيه
الخراج . وليس هو كالصدقة ، قد حكم الله في الصدقة
حكماً قد قسمها عليه فهي على ذلك ، وحكم في الخمس
حكماً فهو على ذلك . فذلك الوجه الذي عليها الصدقات
في المواشي والأموال . وعلى هذا العمل عندنا والله
أعلم » .

١٤ - ثم عقد أبو يوسف فصلاً عن « الكنائس
والبيع والصلبان » فرأى أن يبقى لأهل الذمة كنائسهم
لأنه « كان الصلح جرى بين المسلمين وأهل الذمة في
أداء الجزية ، وفتحت المدن على أن لا تهدم بيعهم
ولا كنائسهم » . ثم عقد أبو يوسف فصلاً « في أهل
الدعارة والتلصص والجنايات وما يجب فيه من الحدود »
ورسم أبو يوسف للخلقة السياسة الواجب السير عليها
فقال : « لا بد لمن كان في مثل حالهم إذا لم يكن له شيء
يأكل منه لا مال ولا وجه شيء يقيم به بدنه أن يجري
عليه من الصدقة أو من بيت المال ، من أي الوجهين
فعلت فذلك موسع عليك ، وأحب إلى أن تجرى من
بيت المال على كل واحد منهم ما يقويه » . ثم تحدث
أبو يوسف عن « الحكم في المرتد عن الإسلام » ،
فقال : « وأما المرتد عن الإسلام إلى الكفر فقد اختلفوا
فيه ، فمنهم من رأى استتابته ومنهم من لم ير ذلك » ،

وعرض أبو يوسف كثيراً من آراء الفقهاء ثم أبدى رأيه وسنده في الرأي ، فقال : « وأحسن ما سمعنا في ذلك والله أعلم أن يستتابوا ، فإن تابوا وإلا ضربت أعناقهم على ما جاء من الأحاديث المشهورة ، وما كان عليه من أدركناه من الفقهاء » .

١٥ - تحدث أبو يوسف في ختام كتابه عن عدة مواضيع متنوعة في فصول صغيرة ، أولها عن مصدر المرتبات التي يدفعها الخليفة لقضاته وعماله ، فقال إنها تدفع من بيت مال المسلمين من جباية الأرض والجزية ، وليس من مال الصدقة . ثم تحدث أبو يوسف « فيمن مر بمسالح الإسلام من أهل الحرب وما يؤخذ من الجواسيس » فقال : « فإن كان هذا الرجل الحربى إذا مر بمسلحة مر ممتنعاً منهم لم يصدق ولم يقبل قوله ، وإن لم يكن ممتنعاً منهم صدق وقبل قوله ، فإن قال أنا رسول الملك بعثني إلى ملك العرب ، وهذا كتابه معي ، وما معي من الدواب والمتاع والرفيق فهذه إاليه ، فإنه يصدق ويقبل قوله إذا كان أمراً معروفاً . . وإن قال هذا الحربى المأخوذ إنما خرجت من بلادى وجئت مسلماً فإن هذا لا يصدق وهو في المسلمين إن لم يسلم ، والمسلمون فيه بالخيار إن شاءوا قتلوه وإن شاموا استرقوه » .

ثم تحدث أبو يوسف عن « قتال أهل الشرك وأهل البغي وكيف يدعون » فقال : « لم يقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً قط فيما بلغنا حتى بدعهم إلى الله ورسوله » . وتحدث أبو يوسف عن الإغارات على بلاد المشركين ، وطريقة توزيع الغنائم التي يفتنهمها المسلمون منهم ، وتحدث عن سياسة الرسول حين فتح مكة ، وشروط المدينة أو الصلح ، وأبرز شروط صلح الحديبية الذي عقده الرسول مع أهل مكة ، كما تحدث أبو يوسف عن السياسة التي انتهجها على بن أبي طالب حين قاتل خصومه السياسيين من المسلمين فقال : « إنه لم يقاتل قوماً قط من أهل القبلة فن خالفه حتى بدعهم ، وإنه لم يتعرض بعد قتالهم وظهوره عليهم لشيء من مواريتهم ولا لنسائهم ولا لذراريهم ، ولم يقتل منهم أسيراً ، ولم يذفف منهم على جريح ، ولم يتبع منهم مدبراً » . ثم تحدث أبو يوسف عن أهل البغي فقال : « ولا يصلى على قتلى أهل البغي ، ويورث قاتلهم من أهل العدل من مواريتهم مثل ما يورث نظرائه ممن لم يقتل من قبل أن القاتل قتله على حق ، ولا يورث الباغى إذا قتل من أهل العدل أحداً ميراً منه إن كان قتله بيده لأنه قتله بباطل » . وكان هذا هو ختام المواضيع التي تحدث عنها أبو يوسف في كتابه الخالد « الخراج » .



الجماعة والمجتمع لفردinand تونيز

بمستم

الدكتور السيد محمد بدوي

أستاذ الاجتماع بجامعة الاسكندرية

منذ عام ١٩١٢ . ولذا فلم يكذب أحد يتوقع - قياساً على الدراسات التي تلقاها - أن يصبح «تونيز» يوماً ما عالم اجتماع ، إذ أنه أثناء دراسته كان يجد ميلاً خاصاً لآراء «سبينوزا» و«نيتشه» ، ثم تأثر بعد ذلك بفلسفة «كانت» و«شوبنهاور» و«أفلاطون» و«أرسطو» .

وفي عام ١٨٧٦ تعرف في برلين على «پاولزن Paulsen» وهو فيلسوف أخلاقى كان له أثر كبير في تشكيل آرائه . فمن صحبته اقتبس الفكرة التي تقول بأهمية علم النفس كأساس لكل دراسة تتخذ الإنسان موضوعاً لها وسنجد بعد ذلك في آرائه أن الطبيعة الإنسانية يجب أن ينظر لها أولاً من زاوية «الإرادة» «كما نجد أثر «پاولزن» في معالجته للمسائل الأخلاقية» ، ومحاولته ربطها بالنشاط الحيوى وينمو الاستعدادات الشخصية للفرد سواء أكانت موروثية أم مكتسبة .

غير أن ما يهتما في هذا المجال ، بصفة خاصة هو توجيه «پاولزن» لتونيز نحو الفلسفة الاجتماعية ، فقد عين له الطريق التي يسلكها في أبحاثه حين نصحه بدراسة «هوبز» و«آدم سميث» و«كارل ماركس»

يعتبر فردinand تونيز ، في محيط الدراسات الاجتماعية في ألمانيا رائداً وأستاذاً.. إذ نجد الأسس الجوهرية لنظريته عند الغالبية العظمى من علماء الألمان المحدثين . كما أن هذه النظرية أصبحت تدرس وتناقش في كثير من جامعات العالم ، وعلى الأخص في هولندا وبلجيكا ، والولايات المتحدة ، واليابان . وفي ألمانيا ذاتها تغفل تأثير الكتاب الذي نستعرضه في هذا البحث وهو «الجماعة والمجتمع» ، في نفوس الجاهل إلى درجة جعلت بعض الحركات السياسية الشعبية تتخذ منه مادة أساسية لبرامجها وخططها التقدمية .

حياته :

ولد تونيز في ٢٦ يوليو ١٨٥٥ في «كبير شيل أولدنزفورت» Kirchspiel Oldenswort بمقاطعة «شلزويج Schleswig» . وعندما بدأ في عام ١٨٧٢ ، دراسته العليا في الفلسفة في جامعة ستراسبورج لم يكن في ألمانيا علم اجتماع بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة . فلم يظهر هناك إلا في أوائل القرن العشرين حيث بدأ تدريسه في الجامعات الألمانية

و «رودبرقوس» و «هيوم» و «سبنسر» و «أوجست كونت». واهتم تونيز بهذه الدراسات اهتماماً جعله يحدد طريقه نحو البحوث الاجتماعية عندما أتم دراسته العليا في عام ١٨٧٧.

ويمكن أن نميز في حياة «تونيز» العلمية مرحلتين أساسيتين. وتمتد المرحلة الأولى من عام ١٨٨١ إلى ١٩١٢، ويتخللها عدد من مرات الفشل. فقد بدأ «تونيز» بالتدريس عام ١٨٨١ في جامعة «كيل»، وفي عام ١٨٨٣ لم يكن يستمع إلى دروسه إلا طالب واحد. وحينئذ ترك التدريس وسافر إلى لندن حيث أقام فيها خلال عام ١٨٨٤، وانتهز هذه الفرصة لتتعمق في دراسة «هوبز» و «سبنسر». وعندما عاد إلى ألمانيا في عام ١٨٨٥ استأنف تدريسه بالجامعة ومنى مرة أخرى بالفشل. وفي عام ١٨٨٧ اعتكف في مكان منعزل وأخرج في العام نفسه مؤلفه الرئيسي «الجماعة والمجتمع Gemeinschaft und Gesellschaft». ولم يصادف الكتاب في بادئ الأمر، من النجاح أكثر مما صادفته محاضراته في الجامعة، بالرغم من أنه يتضمن الأفكار الرئيسية لنظريته الاجتماعية.

وزاده تخففه من أعباء التدريس إمعاناً في البحث والتأليف. وخصصت له إحدى المحلات العلمية باباً يعرض فيه بانتظام آراءه حول الكتب والبحوث التي تظهر في ميدان علم الاجتماع. ومكنت له اتصالاته بمجالات هذه الدراسة في البلاد الأجنبية من أن يصبح عضواً في «المجمع الدولي لعلم الاجتماع بباريس» عام ١٨٩٤. وفي عام ١٨٩٨ حصل بدراسته عن «المصطلحات» الفلسفية من وجهة النظر النفسية الاجتماعية (١) «على جائزة ويلي Welby» ولكن هذه الدراسة لم تنشر إلا في عام ١٩٠٦.

وقام تونيز برحلة إلى الولايات المتحدة حيث اشترك في عام ١٩٠٢ في أعمال «مؤتمر الفنون والعلوم» ونشر مجموعة من البحوث الاجتماعية تذكر منها: «نمو المسألة الاجتماعية» (١٩٠٧). والعادة Die Sitte (١٩٠٨). ثم ذاعت شهرته بعد المحاضرات والبحوث التي ألقاها في «المؤتمر الدولي للفلسفة» في هيدلبرج. وهكذا نرى كيف أخذ تونيز يشق طريقه خطوة فخطوة نحو النجاح. وهنا نقف برهة لنذكر أن فشله في المرحلة الأولى من حياته العلمية كان يرجع لسببين يعتبر الثاني منهما نتيجة للأول: أما السبب الأول فهو نظر الحكومة البروسية إليه بعين الشك والريبة. فشد أن نشر كتابه «الجماعة والمجتمع» اعتبره أقطاب السياسة البروسية أحد أتباع ماركس، واعتبروا نظريته مظهراً من مظاهر الفكر الاشتراكي ولم يفهم هؤلاء السياسيون: بل بتعبير أصح لم يحاولوا أن يفهموا أن هذا الكتاب يعالج نظرية اجتماعية من الناحية العلمية المحضة. وكان علهم في عدم الفهم أن علم الاجتماع لم يكن يدرس بعد في الجامعات الألمانية. أما السبب الثاني للفشل الذي صادفه تونيز في هذه المرحلة، فهو مرتبط بالأول ارتباطاً وثيقاً. ذلك أن جامعات ألمانيا لم تكن تهتم في ذلك الحين إلا بالعلوم السياسية بوصفها أداة للسيطرة البروسية. وكانت المدرسة التاريخية، والفلسفة الهيكلية تقف موقف العداء من كل محاولة لإنشاء نظرية اجتماعية علمية. وبموازرة الحكومة البروسية استطاع علم السياسة أن تكون له الغلبة على الدراسات الاجتماعية الأخرى.

بل إن العلوم الاجتماعية نفسها كانت تقف أحياناً عقبة في سبيل ظهور علم الاجتماع العلمي. إذ كانت تستوحى آراءها من نظريات كونت وآدم سميث وسبنسر. فأدى ذلك إلى تشعب اتجاهاتها وعدم استطاعتها التزام منهج دقيق وتحديد مجالات البحث. فلم يكن من الغريب، في مثل هذه الظروف، أن

Philosophische Terminologie in (١)
Psychologisch-Soziologischer ansicht. Berlin,
K. Curtius, 1906.

يصادف كتاب «الجماعة والمجتمع» عدم الاكتراث في بادئ الأمر. إذ أن هذا الكتاب قد أخذ على عاتقه وضع أسس النظرية الاجتماعية في صورتها التحليلية الصرفة، وكان علماء أواخر القرن التاسع عشر في شغل شاغل عن الاهتمام بمثل هذه الدراسة التحليلية؛ ولذلك لم يجد الكتاب من يهتم به ويقدره حق قدره إلا منذ عام ١٩١٢.

ومنذ هذا التاريخ تبدأ المرحلة الثانية من حياة نونيز العلمية، وهي مرحلة تتميز بالخصب والنجاح المتواصل. فأعيد في السنة نفسها طبع كتاب «الجماعة والمجتمع» بعد أن بدأ المفكرون، في المحيط العلمي، يكتشفون مراميهِ الحقيقية وما احتواه من أسس نظرية عميقة. وفي عام ١٩١٣ عين أستاذاً ولكنه اضطر لتدريس الاقتصاد من ناحيته النظرية والعملية. إذ بالرغم مما ظهر من أبحاثه وأبحاث زميله «زيميل Simmel» - الذي نشر في عام ١٩٠٨ أبحاثه في أشكال المجتمع - فلم يكن قد أنشئ بعد كرسي لعلم الاجتماع في الجامعات الألمانية. غير أن الدراسات والأبحاث الاجتماعية أخذت تتكون وتنتشر في المحيط الهامشي للجامعة. فتأسست في عام ١٩٠٩ «الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع» وانتخب «نونيز» رئيساً لها. وفي عام ١٩١٦ أوقف «نونيز» محاضراته مرة أخرى ليتفرغ تفرغاً تاماً لأبحاثه، ثم عاد إلى التدريس في عام ١٩٢١، وأصبح ما يشغله منذ ذلك الحين هو تحقيق هدفه الرئيسي، ونعني به إرساء قواعد علم الاجتماع العلمي في ألمانيا.

وفي خلال سنوات الحرب أسهم في كتابة عدة مقالات ذات طابع سياسي. نذكر منها: «القيصرية وحلفاؤها» (١٩١٤) - «مكان ألمانيا تحت الشمس» (١٩١٥) - «السياسة العالمية الإنجليزية من وجهة نظر إنجلترا» (١٩١٥) - «الدولة الإنجليزية والدولة الألمانية» (١٩١٧) - «الحرب العالمية وحقوق الشعوب»

(١٩١٧) - «مسألة المسئوليات» (١٩١٩). ومنذ عام ١٩٢٢ بدأ ظهور عدد من مؤلفاته ذات القيمة السبولوجية المتفاوتة. فظهر أولاً «نقد الرأي العام»^(١)، ويعتبر الجزء الأول من مشروع علمي ضخم ظهر منه الجزء الثاني في عام ١٩٣٥ بعنوان «روح العصور الحديثة»^(٢) وظل الجزء الأخير دون إكمال. ومن مؤلفات «نونيز» الأخيرة نذكر مؤلفه الهام الذي ظهر في ثلاثة مجلدات بعنوان «دراسات ومحاولات نقدية في علم الاجتماع»^(٣) وهو مجموعة من المقالات والأبحاث مختلفة تلقي ضوءاً ساطعاً على اتجاهات المؤلف وتعين على فهم نظريته الاجتماعية. وفي عام ١٩٤١ نشر «مقدمة في علم الاجتماع»^(٤). وحظي «نونيز» قبل وفاته بالحد، ونعم بمظاهر التكريم الرسمية والشعبية. وكان أكبر انتصار لجهوده أن شهد دخول علم الاجتماع بصفة رسمية في الجامعات الألمانية. ورأس حتى آخر حياته مؤتمر علم الاجتماع في ألمانيا. وها هي مؤلفاته ونظرياته تدرس الآن في كثير من الجامعات الأجنبية.

وإذا تركنا جانباً القيمة العلمية الأصيلة لمؤلفات «نونيز» من الناحية السبولوجية البحتة، وجدنا أن من العوامل التي أسهمت في نجاح آرائه وذووعها، أنها صادفت توافقاً مع الروح الاجتماعية التي ولدها في ألمانيا نمو الصناعة الكبيرة. فنظرية «المجتمع»، وجدت إلى حد ما صداها في التعارض بين الطبقة الكادحة ورأس المال، وهو تعارض تحول إلى صراع حاد منذ عام ١٨٤٠، وحددت الحكومة البروسية

(١) Kritik der öffentlichen Meinung
Springer, Berlin 1922.

(٢) Geist der Neuzeit, Hans Buske.
Leipzig, 1935.

(٣) Sociologische Studien und Kritiken, Fischer, Jena, 1929.

(٤) Einführung in die Soziologie,
Enke, Stuttgart, 1931.

للعيش في المجتمع لأن حياة المجتمع من أهم الوسائل لحفظ النوع .

وقد تعاقبت بعد ذلك النظريات والآراء التي تقول بأن علاقة الإنسان بغيره ، وتأثيره في الغير أو تأثيره به جزء جوهري من الشخصية الإنسانية ، لا نستطيع إذا أغفلناه أن نفهم الدوافع الأساسية التي تسيطر على نشاط الفرد .

وهناك طائفة من العلماء المحدثين نذكر منها « أوتمار سيان Spann » الألماني ، و« ألفريد إسبيناس Espinas » الفرنسي ، هؤلاء قد حاولوا تصوير هذه العلاقة على أساس اعتبار المجتمع كائناً عضوياً تتعاون الأعضاء المختلفة فيه (وهم الأفراد) على القيام بأوجه نشاطه . فالفرد إذا نظرنا إليه كمختصر منفصل عن الجسم كله أو عن الكيان الاجتماعي بأكمله ، ظهر لنا بوضوح أنه لا يستطيع أن يكفى نفسه بنفسه . وعلى ذلك فالتأثير المتبادل بين الأفراد ، روحياً كان أم مادياً ، هو المبدأ الخلاق الذي تتحقق عن طريقه الشخصية الإنسانية .

والفرق بين « المجتمع الطبيعي » ، و « المجتمع المصطنع » في نظر « سيان » ، وكذلك في نظر « تونيز » - كما سنوضحه بعد قليل - يتركز في أن « المجتمع الطبيعي » أو الجماعة التلقائية تعبر عن وحدة متكاملة ، وتبرز فيها فكرة الاندماج والتعاون التي تتجلى بأجلى معانيها في الكائن العضوي ، وهذه الوحدة المتكاملة هي الشرط الأساسي لظهور القيم الروحية أو إذا شئت فقل إنها تجعل من المجتمع قوة خالقة .

والإنسان بدون اندماجه في هذه الكائن لا يكون إلا إنساناً بالقوة . والمجتمع وحده هو الذي يخرج نشاطه من حيز القوة إلى حيز الفعل ، ويحرك الإمكانات الكافية فيه نحو تحقيق نموه الروحي .

أما « إسبيناس » فلم يقتصر على هذه الفكرة ، بل زاد عليها أن الفردية في جميع مراحلها ليست في

موقفها منه بمحاربتها للاتجاهات الاشتراكية . وحتى بعد أن خفت حدة هذا الصراع فقد وجد جزء من الشعب الألماني في نظريات « تونيز » صدى لآماله ومطامحه . وما يؤيد ذلك أن « تونيز » نفسه قد أوضح التطبيقات العملية لنظريته ، وعرض بصراحة وشجاعة قضية الطبقات الشعبية ، وانتقد في نزاهة لا يشوبها الحقد أو الكراهية مساوئ الرأسمالية العالمية .

وكان استقبال الجماهير لنظريته عن « الجماعة Communauté » أشد حماسة وقوة ، لأنها وجدت فيها تعبيراً عميقاً عن روح الشعب ومزاجه . وإذا كان « المجتمع » يصور مرحلة التدهور العربي ، فإن « الجماعة » تصور على العكس الحالة الاجتماعية التي يجب الرجوع إليها . ومن هذا التعارض بين الواقعي والمثالي استمدت « حركة الشباب Die Jugendbewegung » القوة التي تغذيها واتسع نطاقها في جميع أنحاء ألمانيا منذ عام ١٩١٩ . وهكذا نرى أنه إلى جانب القيمة العالمية لآراء « تونيز » فإنها قد أفسحت المجال لتغيرات ومعان أيديولوجية ظل المؤلف يمتنع ضدها لأنها لا تتفق مع روح البحث العلمي .

نظريته الاجتماعية

كان أرسطو أول من أوضح في العصور القديمة أن الحياة الاجتماعية من جوهر الإنسان ، ولخص ذلك في عبارته المشهورة « الإنسان حيوان سياسي » (أو اجتماعي) . وقد نشر الرواقيون بعد ذلك فكرتهم التي تقول إن الإنسان تتحكم فيه غريزتان أساسيتان . الأولى « أنانية » ، والأخرى « غيرية » . وهاتان الغريزتان تندمجان اندماجاً كلياً في حياة الإنسان بحيث لا نستطيع أن نفصل أثر إحداهما عن أثر الأخرى . فالإنسان لا يرضى بحياة العزلة حتى ولو تهيأت له جميع أنواع الملذات . وهو حين يحافظ على حياته بدافع من الأنانية يسمى ، في الوقت نفسه ،

الواقع إلا درجة من درجات الحياة الاجتماعية .
فالكائن « الحى » مجتمع من الأعضاء بل إن العضو
« مجتمع من الخلايا » فمن غير الطبيعى إذن ألا تنظر
إلى الفرد على أنه عضو فى المجتمع الذى يعيش فيه .
والحقيقة التركيبية للعناصر التى يتكون منها الكائن
العضوى ، ليست من طبيعة أخرى تختلف عن الحقيقة
التركيبية للأفراد الذين يتكون منهم المجتمع وليس
المجتمع نفسه إلا كائناً حياً . . . وعلى ذلك فالشعور
الاجتماعى أو غريزة الاجتماع ليست ، فى الواقع ،
إلا غريزة الحياة نفسها إذ أن الحياة لا تظهر لنا إلا
على شكل تجمعات لعدد من العناصر :

وإذا كان « سبان » و « إسبناس » قد فسرا
العلاقات الاجتماعية على أنها تعاون تلقائى يشبه التعاون
العضوى الذى يدفع بالكائن الحى إلى النمو والتطور ،
فإن « تونيز » على العكس يفسر هذه العلاقات
بالرجوع إلى الحركات الإرادية للأفراد أنفسهم .
وهو يميز بين شكلين من أشكال الإرادة . الإرادة
العضوية « أو إرادة الحياة » (Wesenwille) والإرادة
العقلية (Kurwille) .

والإرادة الأولى لا تنفصل من النشاط العملى لأنها
تعبّر عن الحالة الكاملة لنمو الفرد وتطوره . وهى وثيقة
الصلة بنشاط الجسم ولكنها تتضمن كذلك الفكر ،
أو على الأقل النشاط الفكرى الذى يهدف إلى تأكيد
الكيان العضوى للفرد ، وذلك بمساعدته على التغلب
على الصعوبات التى تثيرها أمامه الطبيعة . وهذه
الإرادة العضوية تتخذ مظاهر ثلاثة رئيسية .

١ - جلب اللذة وإبعاد الألم (وهو المظهر الذى
يعبر عن حياة النمو الصرفة (Vie Végétative)

٢ - تكوين العادات النافعة (وهو المظهر الذى
يعبر عن الحياة الحيوانية) .

٣ - تنمية الذاكرة للإفادة بما تعب فيه فى تقدم
الإنسان (وهذا المظهر هو حلقة الوصل بين الحياة
العضوية والحياة العقلية) .

ويذهب « تونيز » إلى أن هذه الإرادة العضوية
هى مصدر الحاسة الخلقية . لأن الخير ليس إلا نوعاً
من العقل العملى الغرض منه تحقيق الرفاهية للجنس
البشرى :

أما الإرادة العاقلة فلأنها تتمثل فى الفكر الخالص
ومن الغريب أن يدعى « تونيز » أنها تهدف إلى غرض
واحد هو سعادة الفرد دون النظر إلى المجموع . ولذلك
فلأنها أساس البحث عن مظاهر القوة ، والطمع ،
والطموح . ومكانها خارج نطاق الأخلاق لأنها لا تولد
إلا روح العداة .

هذا التناقض الذى قد يبدو فى فكرة « تونيز »
عن الإرادة العضوية وصلتها بالأخلاق والإرادة
العاقلة وصلتها بالأخلاق ، والإرادة العاقلة وصلتها
بالاخلاقية ، لا يفسره إلا تذكر مذهب « نيتشة » عن
فلسفة القوة . فالإنسان بالغريزة قد يميل إلى الخير
(كما قال روسو) . ولكنه بالذكاء والعقل لا يميل
إلا للسيطرة والغلبة .

كما أن هذه التفرقة بين نوعين من أنواع
الإرادة تذكرنا بما جاء فى فلسفة بسكال من تفرقة
بين القلب والعقل ، وبما جاء فى فلسفة برجسون
من تفرقة بين الإنسان الصانع homo faber ،
والإنسان العاقل homo sapiens .

وقد وجد « تونيز » أن المرأة يغلب عندها النوع
الأول من الإرادة (أى الإرادة العضوية) : ولذا
فإن نشاطها يتميز بتغلب العاطفة . أما الرجل فيغلب
عنده النوع الثانى ، ولذا فهو يحكم العقل غالباً ،
ويحسب للأمر حساباً الدقيق .

على أن أهم فكرة استخرجها « تونيز » من هذا
التضاد بين نوعى الرياضة هى تقسيم أنواع التجمع

إلى قسمين كبيرين : التجمع الطبيعي أو الجماعة
(Gemeinschaft) — Communauté ، والتجمع السياسي
(Gesellschaft) — Société .

فالتجمع الطبيعي أو الجماعة أساسها العلاقات
العضوية . وهذه العلاقات العضوية تقوم على عواطف
طبيعية وتلقائية ، ولذلك يتولد عنها الولائم وحسن
المعاشرة . وهي على أنواع ثلاثة :
علاقات الدم (وتتصل بارادة حياة النمو وحفظ
النوع) .

وعلاقات المكان (وتتصل بالحياة الحيوانية) .
وعلاقات الروح (أو العلاقات ذات الطابع
المعنوي) وتتصل بارادة الحياة العليا .
ومعنى ذلك أن العلاقات الجماعية التلقائية الأساسية
هي . علاقة القرابة ، وعلاقة الجوار ، وعلاقة
التعاطف .

والقانون العام الذي يسيطر على التجمع الطبيعي
هو في جوهره قانون الحب .

أما المجتمع السياسي فيقوم ، على العكس ، على
علاقات عقلية بين إرادات مفكرة مدبرة . وإذا
شدت فقل إنه يقوم على حساب وتدبير للمصالح .
والمبدأ الأساسي الذي يسره هو الموازنة الحسابية بين
الوسائل والأغراض . ولذلك تنمو فيه وتنتعش أوجه
النشاط النفعي كالتبادل والتجارة والصناعة والتكنولوجيا .
ومعنى ذلك أن العلاقات الاجتماعية Sociétaires
تقوم في أصلها على التبادل ، وهذا التبادل قد يتم بين
أفراد ليس بينهم أى صلة في الدم ، ولا يستبعد أن
يكونوا أعداء بالطبيعة جمعت بينهم المصلحة .

قانون التملك وقانون التعاقد

ويستخلص « تونيز » من التقسيم السابق لأنواع
التجمع ، تقسيما آخر يقوم على التفرقة بين نوعين من
القانون :

(أ) قانون التجمع الطبيعي Droit Communautaire
ويتميز بفكرة التملك ووضع اليد . وهذا التملك يبدو
في ثلاثة مظاهر أساسية :

١ - تملك الإنسان : ومن أهم مظاهره سلطة
الأب المطلقة على أفراد الجماعة (أو الأسرة الكبيرة) ،
وسلطة الزوج المطلقة على نسائه .

٢ - تملك الأشياء . : ويظهر في الاستحواذ على
كل أرض بواسطة من يفلحها .

٣ - التملك الروحي : وأساسه سيطرة العقيدة
وتسلطها على عقول الأفراد .

(ب) أما قانون المجتمع السياسي فلا يقوم على
العواطف والمشاعر ، بل يعتبر الأفراد وحدات
مجردة . وهو لا يصاغ في شكل حكم أو لائحة
Statut تصدر من الكبير إلى الصغير ، بل يعبر
عن نوع من « التعاقد Contrat » بين الأفراد الذين
يتكون منهم المجتمع .

وفكرة الملكية في المجتمع السياسي لا تتخذ شكل
التملك ووضع اليد ، كما كان الحال في التجمع
الطبيعي ، بل تصبح الصلة بين المالك وبين ما يملكه
صلة قانونية . وامتلاك الأشياء لا يصبح غاية تقصد
لذاتها بل وسيلة لتحقيق أغراض أخرى .

ويبدو لنا أن هذا التمييز بين نموذجين للتنظيم
التشريعي ، نموذج « اللائحة "Statut" » ، ونموذج
التعاقد Contrat « قد اعتمد إلى حد كبير على التقسيم
المائل الذي أورده « السير هنري من Maine » في
كتابه المشهور « القانون القديم . Ancient Law »

فقانون اللائحة يمثل القانون الطبيعي للجماعة
العضوية ، وتحدده العلاقات وأنواع الترابط القائمة
على الإيرادات العضوية الفردية . وهو — كما قلنا —
في أشكاله المختلفة يقوم على فكرة « التملك
Possession » وهو لا يصدر عن الفرد بوصفه

كائناً مجرداً ، بل يعبر عن الإرادة العضوية لمجموعة من الأفراد المرتبطين ، بعضهم مع بعض ، بروابط طبيعية ، ويكونون جماعات قد يضيق نطاقها أو يتسع بطلاق عليها « توتيز » اسم « الكائنات الاجتماعية » ، وأسطها « الكائن الاجتماعي الباطريكي L'être social patriarcal أو الأسرة وقد يتسع نطاق الأسرة فنبتق عنها جماعات أكثر تركيباً كالجاعات الإقليمية أو الجماعات الدينية ، وتتصل بهذه الأشكال الرئيسية الثلاثة للكائنات الاجتماعية ، ثلاثة أشكال من أشكال القانون :

١ - القانون العائلي .

٢ - القانون العرفي .

٣ - القانون الديني .

هذا مع ملاحظة أن الدين ، في الجماعات العضوية ، يداخل في كل شيء وتنسج به جميع النظم التشريعية ، وهو الذي يوجي بها ويوجهها .

والقانون العائلي هو التعبير الصريح للإرادة العضوية للكائن الباطريكي . وأول مظاهره الاتحاد الطبيعي بين الرجل والمرأة الذي يقوم على الغريزة الجنسية وعلى إرادة التناسل . ويبدو أن الزواج منذ أصوله البعيدة كان خاضعاً لتنظيم صارم محدد . وكان قانون الجماعة يحمي المرأة - وفقاً لشعائر وقواعد خاصة - طالما أنها لا تنتمي إلى رجل ؛ فالعلاقات الجنسية يحوطها سياج من التنظيم والمحرمات الصارمة "Tabous" ، والعلاقات الآثمة بين الأقارب L'Inceste ممنوعة لما تجره من شرور وخراب على الجماعة ولكن بمجرد أن يتم الزواج تصبح المرأة ملكاً للرجل .

وتبدو ظاهرة « التملك » أيضاً في القانون العائلي بالنسبة للأولاد ، وهي هنا مظهر من مظاهر الغريزة الطبيعية التي نجدها أيضاً عند الحيوان ، ونعني بها

غريزة الأمومة . غير أنها عند الإنسان تغدو شعوراً بالالتزام ؛ وهذا الشعور قد ظهر أولاً في صورة « النظام الأمي Le Matriarcat » حيث ينتمي الطفل إلى أمه ويحمل اسمها ويتبعها من الناحية القانونية . ويحتل في رأى « توتيز » أن يكون هذا الشكل البدائي للقانون العائلي قد نتج عن دور المرأة الرئيسي في الإنسان واستمرار الحياة (١) .

ولم تتأكد السلطة الأبوية و « النظام الأبوي Le Patriarcat » إلا بصورة تدريجية وبعد تغير ظروف حياة الجماعة وتتخذ صورة « التملك » في هذا النظام ، مظهر القوة بعد أن كانت تقدم على الغريزة الطبيعية عند المرأة . إذ يتمتع الرجل ، الذي يقوده عامل الأسرة Pater Familias بسلطان مطلق يعترف به القانون ، ويمتد هذا السلطان لا إلى زوجته أو (زوجاته) فحسب ، بل إلى أبنائه حتى ولو كانوا متزوجين ، وإلى جميع من يظلمهم سقف بيته من خدم وأرقاء وموالي وأسرى حرب .

ولم يبق اليوم في القوانين الحديثة للأحوال الشخصية إلا صوراً باهتة من القانون العائلي القديم مجردة من سماتها العضوية والعاطفية التي كانت تعطيها كل جوهرها في الماضي .

ويتصل القانون العرفي بالقانون العائلي اتصالاً وثيقاً يعبر عن العلاقات الدائمة بين الاشتراك في المكان والاشتراك في الدم . فالأسرة لا تستطيع أن تعيش دون ارتباط بالأرض التي تستغلها وما يتصل بهذا الاستغلال من روابط وعلاقات قانونية . وينشأ عن « تملك » الأرض وعن العمل الذي يتطلبه هذا التملك عادات اجتماعية تكون في مجموعها ما يسمى بالعرف La Coutume وعلى أساس القانون العرفي الذي يعبر

(١) أيدت الدراسات الأنثروبولوجية التي قام بها « باغونين » وأنتها في كتابه المشهور « حق المرأة » Das Mutterrecht كثيراً من آراء توتيز حول هذا الموضوع .

مكتوب ولكنه فطرى ، لم نعلمه أو نقرأه ولكن تلقيناه عن الطبيعة واستيقنا من مصادرها .

أما بالنسبة للقانون الدينى فإن « تونيز » يميز بين الإيمان والشعائر . وهو يرى أن الإيمان فى جوهره ذو طابع جماعى واضح ، إذ يعبر عن وحدة الجماعة والثقافتها حول مبادئ وأفكار واحدة . وليس التدين فى جملة إلا مجموعة من الأفعال تصدر عن الإيمان .

ويصاحب الدين جميع أشكال ومراسم القانون دون أن يكون بالضرورة أساساً لها . وما ذلك إلا لأن الدين والقانون مظهران من مظاهر الحياة الجماعية أحدهما (وهو القانون) يعبر عن الحياة الواقعية والآخر (وهو الدين) يعبر عن الحياة المثالية . وتبدو هذه العلاقة بوضوح فى القانون العائلى : فالدين يكرس الزواج ويضفى عليه طابع القدسية ، ولكن الزواج ، فى حد ذاته ، نتيجة للغريزة الجنسية التى يكسبها القانون صفة الشرعية . ويتدخل الدين بصفة مستمرة فى كل ما يتصل بالعلاقات العائلية ، فتتم بطابعه جميع المناسبات كالميلاد والوفاة وتقسيم الميراث ، وهو بذلك يدعم ويرفع من الصفة القانونية لهذه المناسبات .

والصفة البارزة فى القانون الدينى هى ، فى الحقيقة ، قيمته الخلقية . فبينما يتميز فى القانون العقلى - حسب رأى كانت وفيخته - الفصل بين « الحق » و « الواجب » ، وبين « الأخلاقية » و « القانونية » ، نجد أن التطابق كامل بين القانون الدينى والأخلاق : وتفسير ذلك نجده فى الصفات الأساسية لحياة الجماعة العضوية ، وهى التضامن الوثيق والتعاطف الروحى بين الأفراد . فالقانون الذى يؤسس على هذه الصفات يجب أن يكون تعبيراً خالصاً عن إنكار الذات أو الغيرية ، أو بمعنى أشمل عن المحبة . ولذا فإن مبادئ هذا القانون يصعب

عن الإرادة العضوية للجماعة ينظم الأفراد سلوكهم وأعمالهم ومسلك الفرد أو الجماعات الخاصة بإزاء هذا القانون يشبه مسلك الأنسجة والأعضاء بالنسبة للكائن الحى فهم محدودون بالإطار العام الذى يسيطر عليهم . وينظم القانون العرفى حياة الجماعة حتى فى أدق تفاصيلها ، فيحدد مثلاً المساحات التى تزرع صيفاً أو شتاء ، ويحدد أجور الزراع فى الحقول والعمال فى القرى ، وينظم العلاقات بين الملاك مقررأ حق الجوار وحق الشفعة ... الخ

والغاية القصوى لهذا القانون - فى رأى تونيز وكما قرر سير هنرى من قبل - هى حفظ السلام للكائن الاجتماعى الذى يعتبر هذا القانون وسيلة الوحيدة للتنظيم . وهو ينجح فى تحقيق هذه الغاية بقدر ما يقوم فى جوهره على « التوافق » ، أى على الانسجام بين عناصر النظام الطبيعى . ولكى يضمن عدم تعكير صفو هذا الانسجام يجهد القانون العرفى أن تتحول العلاقات الفردية ، والخدمات المتبادلة ، والمساعدات الودية إلى « واجبات ملزمة » . ويستمد القانون العرفى سلطته من الاحترام الراسخ فى النفوس لتقاليد السلف . فأعضاء الجماعة يحتفظون بالقواعد التى تلقوها عن أجدادهم ، لأنهم يؤمنون بفائدتها فحسب ، بل وأيضاً لأن العرف مناسبة فريدة لإظهار تقديسهم وتبجيلهم للسلف الصالح .

وعلى هذا النحو يرى « تونيز » أن القانون العرفى قانون عضوى ينبثق مباشرة من الحياة الجماعية . وهو قانون طبيعى وتلقائى كالقانون العائلى سواء بسواء ، لا يصدر عن الإرادة والمعرفة الموضوعية ، بل عن الشعور . وعن الإحساس بضرورة إبعاد الشر وجلب الخير . فهو إذن لا يعبر عن « موقف قانونى » بقدر ما يعبر عن « موقف ضميرى » . وينطبق عليه وصف شيشرون ، المشرع الرومانى بأنه « قانون غير

التعبير عنها وترجمتها في صيغ واضحة ومنطقية كما يحدث بالنسبة للقوانين الفعلية في المجتمع السياسي .

• • •

وخلاصة نظرية « تونيز » أن الإنسان يوجد في « جماعة طبيعية » مع أهله بمجرد ولادته إذ يتحد معهم في الخير والشر . ولكنه يدخل بعد ذلك في « المجتمع » كما لو كان يدخل في أرض غريبة . والأسرة هي التعبير العام عن فكرة الجماعة الطبيعية . أما العلاقات الاجتماعية فلأنها تتكون تحت شعار « كل يعمل لمصلحته » ؛ ولا يتنازل أى إنسان عن أى شئ لزميله إلا إذا تأكد أنه سيتلقى منه شيئاً مساوياً على الأقل لما تنازل عنه ، وعلى ذلك فإن المجتمع تسود فيه فكرة الحساب المفرض (كما كان يرى هوبز) ، والعلاقات القائمة على وزن الأمور يميزان العقل ؛ على حين أن الجماعة تسود فيها العلاقات القائمة على الغريزة وعلى العاطفة .

وتظهر العلاقات « الجماعية » في شكل العرف ، وبحكمها نطاق الدين . أما العلاقات « الاجتماعية » فلأنها تظهر في شكل التجارة والصناعة والعلم .

وقد كان سير التاريخ من الجماعة الطبيعية القائمة على السلطة المطلقة إلى المجتمع السياسي القائم على التعاقد . إذ ساد في العصور الوسطى نظام الاقطاع القائم على التملك والاستحواذ ؛ وكان عصر النهضة بداية التحول نحو الحالة الاجتماعية القائمة على المساواة . أما من حيث التوزيع الجغرافى فإن تونيز يرى أن مجتمعات الغرب تتميز بالمظهر الجماعى communautaire على حين أن مجتمعات الغرب تتميز بالمظهر الاجتماعى sociétaire

ويبدو لنا أن هناك نوعاً من التعسف والتجريد في هذا التقسيم الذى قسمه « تونيز » لأنواع العلاقات الإنسانية . والواقع أن كلا من فكرة « الجماعة » و « المجتمع » كما وصفهما لا تعبر عن حقيقة واقعية .

وتصنيفه على هذا النحو لا يعبر إلا عن « نماذج تقديرية » لا تنطبق إلا انطباقاً جزئياً على المجتمعات الكائنة بالفعل .

وبالرغم من اعتراف تونيز بهذه الحقيقة ، فإنه يؤكد أن لتصنيفه أهمية من الناحية التاريخية ؛ إذ أن التطور الطبيعى للفكر الإنسانى قد أدى إلى طغيان « الإرادة الطبيعية » . ولذلك فإنه لا يسعه إلا أن يقرر (مع الأسف) أن النموذج « الجماعى » يترك مكانه ، في مجتمعاتنا الحديثة للنموذج « الاجتماعى » .

ولقد كان لنظرية تونيز أهمية كبيرة في تاريخ علم الاجتماع بألمانيا ؛ واقتبس كثير من علماء الاجتماع وجهة نظره في التمييز بين الجماعة والمجتمع . ومن هؤلاء « فيركنت Vierkandt ومدرسته . فهذه المدرسة قد أكدت وجود « العاطفة الاجتماعية » أو الغريزة الاجتماعية » وصلتها أساساً لتكوين الجماعة . وإذا كنا نجد في تحليلها لمظهرى الحياة الاجتماعية ، أى الجماعة والمجتمع ميلاً إلى منهج علم النفس ، إلا أننا نلاحظ ، في سهولة مقدار التقدم الذى أحرزته هذه المدرسة ، إذا قارنا ما وصلت إليه من نتائج بما وصل إليه ماك دوجال وتارد وأمثالهما من المتطرفين في التشجيع لعلم النفس الفردى . فالفرد هنا يحقق ذاته كاملة عن طريق العلاقات الاجتماعية ، وعلى ذلك فعلم النفس الاجتماعى له مجاله الخاص وهو لا يمكن أن يؤول إلى علم النفس الفردى بالرغم من اتخاذه أساساً له . ونحن إذا درسنا الفرد الوحيد ، فلا يمكن أن نجد في هذه الدراسة ما يشابه مع موضوعات البحث في علم النفس الاجتماعى .

كتاب « الجماعة والمجتمع » :

Gemeinschaft und Gesellschaft

يشتمل هذا المؤلف على ثلاثة كتب (أو أقسام) وملحق وموضوع الكتاب الأول هو تحديد المعانى

« توجد الإرادات الإنسانية في علاقات متعددة بين بعضها وبعض . وكل علاقة من هذه العلاقات عبارة عن نشاط متبادل ، بحيث إذا كان النشاط يمارس من جهة فانه يستقبل من جهة أخرى . وهذه النشاطات تبدو لنا كما لو كانت تنزع إما للمحافظة وإما للتدمير الإرادة أو الكائن المقابل ؛ فهي إما أن تكون إيجابية أو سلبية » .

« والنظرية التي أعرضها ، وموضوعات بحثها لا تهتم إلا بالعلاقات ذات التأثيرات الإيجابية المتبادلة . وكل من هذه العلاقات تمثل وحدة في التعدد ، وتعدداً في الوحدة . فهي تتألف من متطلبات ، ومسكنات ، وأفعال تذهب وتعود ، وتعد تعبيراً عن الإرادات وعن مدى قوتها .

والجموعة التي تتكون من هذه العلاقات الإيجابية ، بوصفها كائناً أو موضوعاً فاعلاً بطريقة متجانسة في الداخل أو الخارج ، - هذه المجموعة تسمى « تجمعاً association » .

« والعلاقة نفسها ، ومن ثم التجمع ، يمكن أن تفهم على أنها حياة حقيقية أو عضوية ؛ وحينئذ يكون هذا هو جوهر فكرة الجماعة Gemeinschaft وإما أن تفهم على أنها تصور بالقوة يتحقق بطريقة آلية ، وحينئذ يكون هذا هو مفهوم « المجتمع » Gesellschaft » .

« واستخدام المصطلحات التي اخترناها سيوضح أن أساسها هو الاستعمال المشابه في اللغة الألمانية . ولكن بما يؤسف له أن الكتابات العلمية ما زالت تستخدمها دون أي تمييز ، بل إنها قد تخلط عن قصد بين مصطلح وآخر . ولذا يتعين إثبات بعض الملاحظات التمهيدية التي توضح التعارض بين معنى وآخر :

فكل ما يوحى بالثقة والألفة والمعيشة المشتركة يدخل في نطاق حياة « الجماعة » ، (أو هكذا نحن

الأساسية للنظرية وينقسم إلى فصلين كبيرين ، يعالج المؤلف في الفصل الأول نظرية الجماعة ، وفي الفصل الثاني « نظرية المجتمع » . أما الكتاب الثاني فموضوعه « الإرادة المفكرة » ، وهو ينقسم إلى ثلاثة فصول : فصل عن « أشكال الإرادة الإنسانية » ، وفصل ثان عن « التعارض بين شكلَي الإرادة » ، وفصل ثالث يشرح المعاني التجريبية لهذا التعارض كما يظهر عند الرجل والمرأة ، وعند الشباب والشيوخ وهكذا ... وينقسم الكتاب الثالث أيضاً إلى ثلاثة فصول وموضوعه « الأسس السبولوجية للحق الطبيعي » وهو في الفصل الأول يهتم بتحديد بعض المفاهيم كالشخصية والإلزام والتعاقد والتجمع والاتفاق . أما الفصل الثاني فيشرح الصلة بين الطبيعة العضوية والقانون . ويوضح الفصل الثالث كيف تتخذ أشكال الإرادة في المجتمع ، ثم يحدد الصلة بين الكائن الاجتماعي والدولة .

وينتهي المؤلف بملحق يوضح النتائج التطبيقية للبحث ، ومدى ما يمكن التطلع إليه في المستقبل .

وسنحاول الآن إعطاء القارئ العربي صورة متكاملة عن هذا الكتاب من خلال النماذج التي اخترناها من أجزاء متفرقة وراعينا فيها أن تكون معبرة أصدق تعبير عن آراء المؤلف وموضحة للدقائق نظريته^(١) .

العلاقات بين الإرادات الإنسانية - الجماعة والمجتمع في التعبير اللغوي :

يشرح المؤلف في الفصل الأول الفكرة العامة الموجهة لنظريته ويهتم على الخصوص بتحديد معاني المصطلحات الرئيسية التي ترد خلال سرد تفصيلات هذه النظرية فيقول :

(١) اعتدنا في هذا العرض على الترجمة التقرنية التي نشرت بالفرنس التال : Communauté et Société, trad. de J. Leif, P.U.F., 1944.

وحدة الدم ، والمكان ، والشعور ، والقربة ،
والجوار ، والصدقة :

« نزع جماعة الدم ، كوحدة الوجود ، إلى تأكيد
كيانها عن طريق وحدة المكان ، وتصل إلى ذلك
بتعبير مباشر في المسكن المشترك . ويؤدي هذا بدوره
إلى وحدة الشعور عن طريق النشاط والتنظيم المشترك
في اتجاه واحد ولهدف واحد . ووحدة المكان يمكن
اعتبارها الكل المتناسق للحياة الحيوانية ، على حين
أن وحدة الشعور والتفكير يمكن اعتبارها الكل
المتناسق للحياة العقلية — وهذه الأخيرة هي إذن —
في علاقاتها مع الأولى — أكثر أنواع الوحدة تحميلاً
للصفة الإنسانية وأعلها درجة .

وكما أن وحدة الدم تفترض ارتباطات تنصل
بالقربة ، فكذلك نجد أن وحدة المكان تفترض
علاقات بالنسبة للأرض ، ونجد أن وحدة
الشعور تفترض علاقات مشتركة بالأماكن المقدسة ،
وبالألهة المعبودة . وهذه الأنواع الثلاثة من الوحدة
الجماعية يرتبط بعضها ببعض في المكان وفي الزمان ،
ومن ثم ترتبط في نموها وفي كل من ظواهر الخاصة ،
وكذلك بصفة عامة في تأثيرها على الحضارة الإنسانية
وتاريخها .

وكما كان هناك أناس يرتبطون بعضهم ببعض
عن طريق إرادتهم العضوية ، ويقوم بينهم اتفاق
متبادل يمكن القول بوجود « جماعة » من هذا النوع
أو ذاك . ونستطيع أن ننظر إلى هذه الأنواع المختلفة
من الجماعات ، الواحدة بعد الأخرى ، من خلال
أسمائها الأصلية المفهومة :

١ - القربة . ٢ - الجوار . ٣ - الصدقة .

والقربة لها البيت كمكان يجسم حقيقتها ؛ ففيه
تكون المعيشة المشتركة تحت سقف واحد ، وفيه
يكون الاستمتاع المشترك بما تملك الأسرة وخاصة

نتصورها) . أما « المجتمع » فيعني ما هو عام ، وهو
الاتصال بالعالم الخارجي . ونحن نجد أنفسنا في
« جماعة » مع ذواتنا منذ الولادة ، ونرتبط معهم
ارتباطاً وثيقاً في السراء والضراء ؛ على حين أننا ندخل
« المجتمع » كما لو كنا ندخل أرضاً غريبة . ونحن
نحذر اليافع ضد « المجتمع السيئ » ، ولكن تعبير
« الجماعة السيئة » يطارق الأذن كما لو كان فيه تناقض .
صحيح أن المشرعين يتكلمون عن « المجتمع العائلي » ،
ولكنهم حينئذ لا يقصدون إلا المفهوم الاجتماعي
للعلاقة . ولكن « الجماعة العائلية » ، بتأثيراتها اللانهائية
على الروح الإنسانية ، يشعر بها كل واحد ممن ينتمون
إلى هذه الجماعة . وعلى هذا النحو يشعر الخطيبان
أنهما ، بالزواج ، يدخلان في حياة جماعية كاملة
communio totius vitae . أما إذا قلنا إنهما
يدخلان في « حياة مجتمعية » ، فهذا التعبير ينطوي
على تناقض في حدوده .

وتوجد « وحدة جماعية » تم عن الاشتراك في
اللغة أو العادات أو العقيدة ؛ ولكن يوجد « مجتمع »
للعمل أو للعلوم . ومجتمعات التجارة لها من وجهة
النظر هذه دلالة خاصة ؛ وحتى مع وجود الثقة
والترابط بين أعضائها ، فلا نستطيع مع ذلك أن
نسميها « جماعات » التجارة .

ونستطيع بمعنى عام أن نتكلم عن « جماعة »
تضم الإنسانية كلها ، على النحو الذي تدعو إليه
الكنيسة . ولكن « المجتمع » الإنساني يفهم على أنه
مجرد تجاور بين أفراد مستقلين بعضهم عن بعض .
ومجمل القول إن « الجماعة » مفهوم قديم ، أما
« المجتمع » فهو حديث كوجود وإسم . والجماعة هي
المعيشة المشتركة الحقيقية والدائمة ؛ أما المجتمع فإنه
فقط عابر وظاهري . وعلى ذلك نستطيع أن نفهم
الجماعة على أنها كائن حي والمجتمع على أنه تكتل
آلي ومصطنع .

يأنس بعضهم إلى بعض لأنهم يرتبطون برباط واحد أو يشتركون في عمل واحد .

وإذا كانت الحياة المشتركة في المدينة يمكن اعتبارها نوعاً من الجوار ، وكذلك الحياة تحت سقف واحد ما دام يشترك فيها غير الأقارب والخدم ، فإن الصداقة الروحية تشكل على العكس نوعاً من الرباط غير المنظور ، نوعاً من الاتحاد الصوفي يحركه ويغذيه شعور حدسي وإرادة خالقة . والعلاقات بين الأشخاص بوصفهم أصدقاء أو رفاق ليست لها بالضرورة الصفة العضوية التي تجعلها تتأثر بشروط داخلية . فهي أقل ما تكون خضوعاً للفرصة ، وشرط العادة أقل ظهوراً فيها مما هو بالنسبة لعلاقات الجوار . فهذه العلاقات (أى علاقات الصداقة) ذات طبيعة عقلية ، ولذلك فهي إذا قورنت بعلاقات الجوار نجد أنها تقوم إما على الصداقة أو على الاختيار الحر .

الحياة المنزلية — الدوائر الثلاثة

تتكون الأسرة المنزلية من ثلاث طبقات أو دوائر تتحرك كلها حول مركز واحد . فالطبقة أو الدائرة الداخلية هي أقدم الثلاثة وهي تتألف من الرجل والزوجة أو الزوجات إذا كن يتمتعن بمركز مماثل بالنسبة لبعضهن البعض . وتأتي بعد ذلك الذرية ، وأفرادها يكونون دائرة واحدة حتى ولو كان بعضهم متزوجاً . أما الدائرة الخارجية فتتكون من الخدم والأتباع ، وهؤلاء ولو أنهم في الحقيقة نبات خارجي ، إلا أنهم ينتمون إلى الجماعة بقدر ما يندمجون في إرادتها وروحها العامة ، ويقدر ما يشعرون بالارتياح للانتماء إليها والانسياق في تيارها العام . وهذا الوضع أيضاً ينطبق على النساء اللاتي يأتين إلى أزواجهن من الخارج . وبما أن الأولاد هم ثمرة اتحاد الزوج والزوجة فلهم بالقول ، بوصفهم ذرية وأتباعاً ، حالة وسطاً بين السلطة والتبعية . وكذلك يمكن القول

الأغذية المستمدة من مؤن واحدة ، والتي تقسمها الأفراد حول مائدة واحدة . كما أن البيت يمثل وحدة العبادة حيث تقام الشعائر للأسلاف (١) حتى تظل أرواحهم غير المنظورة حامية لأهله وبحيث تكون الرهبة والتقديس المشترك حافزاً أكيداً لحياة عائلية مطمئنة ونشاط مستمر ... ولهذا الأسباب فإن الإنسان السوي يكون عادة في أتم حالات السعادة وهندوء النفس عندما يكون محاطاً بأفراد عائلته ؛ إذ أنه يحس حينئذ بأنه في بيته .

والجوار هو الصفة العامة للمعيشة المشتركة في القرية حيث يكون تقارب المساكن وتجاوز الحدود في الحقل من عوامل الاتصالات العديدة بين الناس وحيث تؤدي عادة الحياة المشتركة والمعرفة الوثيقة المتبادلة إلى ضرورة الاشتراك في العمل وفي التنظيم والإدارة وإلى الإقبال إلى آلهة واحدة . تمنح الخير والبركة وتدفع البلاء . وإذا كان الشرط الجوهري لروابط الجوار هو الاشتراك في مكان الإقامة ؛ إلا أن هذه الروابط قد تظل قائمة في حالة البعد وإن كانت بدرجة أقل من روابط القرابة . وفي هذه الحالة تبحث عما يغذيها في بعض الذكريات المشتركة أو الاجتماعات بين الحين والحين .

وتتميز الصداقة عن القرابة والجوار بهوية ظروف العمل وطرق التفكير التي تغدو نتيجة لها . فهي تنشأ من تشابه الحرفة أو الفن ولكن هذه الرابطة يجب أن تتوطد وتتدعم عن طريق محاولات من التقارب واللقاء بين حين وآخر ويحدث هذا داخل نطاق مدينة واحدة . وهكذا نرى أن أصحاب الفن الواحد وكذلك من يشتركون في عقيدة واحدة

(١) يشير المؤلف إلى عبادة الأسلاف في المجتمع اليوناني القديم

انظر كتاب فوستيل دي كولانج « المدينة القديمة »

La Cité Antique

إن حالة الخدم قد تشبه حالة الأولاد ، ولكنها تنقلب إلى استرقاق عندها تهاون كرامة الإنسان .

وهناك اعتقاد خاطيء راسخ في الأذهان بأن الخدمة مهنية في ذاتها ولذا لها شأنها ضد المساواة الإنسانية . والواقع أن أى إنسان يمكن أن يهبط بنفسه أمام إنسان آخر في ظروف متباينة : إما لأنه جبل على العبودية ، أو بسبب الخوف ، أو بالعادة ، أو التأثير بالخرافة : أو بدافع الحسب المفضل لتحقيق مصلحة ذاتية . وهذا الخضوع يكون أشد وضوحاً كلما ازدادت وقاحة السيد ووحشيته وطفنائه ، أو كلما كان جشعه وحبه للاستغلال يدفعانه لامتثال الأشخاص التابعين له . وعلى حين أنه يتعاقد معهم تعاقدًا حرًا إلا أنه يسمح لنفسه بظلمهم وإيلاهم . وإذا كان من يعامل معاملة سيئة يرضى بذلك ، فإنه « كما سح الجوخ » (أو المتعلق) ذو طبيعة أقرب إلى طبيعة الرقيق ؛ على حين أن الخادم الذى يتقاسم مع الأسرة أفراحها وآلامها ، ويكون سيد الأسرة احتراماً كاحترام الابن الناضج ، ويتمتع بثقته كرفيق يستشيره في أموره الخاصة - هذا الخادم يكون ، على العكس ، إنساناً حرًا من الناحية الحقيقية ، حتى ولو لم يكن كذلك من الناحية القانونية . وينطوى الوضع القانوني للرقيق على الإجحاف والظلم وذلك لأن القانون يهدف إلى أن يكون ، بل يجب أن يكون معقولاً . وهو حين يميز ، على هذا الأساس ، بين « الإنسان » و « الشيء » يتطلب في الواقع الاعتراف بإنسانية الكائن المعامل .

الاقتصاد المنزلى - البيت والمائدة

إن أول شيء يجب الاهتمام به في تنظيم المنزل هو الاقتصاد المنزلى على اعتبار أنه المظهر الذى تبدو فيه الجماعة عاملة ومستمتعة في وحدة متناسقة . والمتعة التى تتكرر دائماً - شبيهة بالتنفس - هي متعة الغذاء . ومن

هنا كان صنع الأغذية وتحضيرها هو أشد الأعمال ضرورة وأكثرها انتظاماً . وتتوزع هذه الأعمال عادة بين الأبناء والأحفاد دون الكبار . وكما أن الغابة والحقل هما المجال الخارجى الطبيعى ، فكذلك يعتبر الموقد (١) وشعلته المتوهجة نواة البيت وجوهره الأساسى إذ أنه المكان الذى يجتمع حوله الرجال والنساء ، والشبان والشيوخ ، السادة والخدم ليستمتعوا سوياً بتناول الوجبة الأساسية ولذلك اتخذ الموقد والمائدة معنى رمزياً : فالموقد يرمز للطاقة الحية للبيت واستمراره في تنابع الأجيال ، والمائدة ترمز لاتحاد أعضاء الأسرة في احتفاظهم وتجديدهم للجسم والروح .

ويمكن القول إن المائدة هي البيت نفسه على اعتبار أن كل فرد في الأسرة يتخذ مكانه منها ويحصل على نصيبه من خيرات الجماعة . وإذا كان الأعضاء يتفرون ويقسمون أنفسهم ليقوموا بالعمل اللازم فانهم هنا (أى حول المائدة) يعاودون التجمع ليقاسموا فيما بينهم ثمار هذا العمل .

ويتعارض التبادل بمعناه الحقيقى مع طبيعة الأسرة وهو لا يوجد إلا خارج القسمة المشتركة للمتعة الأساسية ، ويقدر ما يرغب الأفراد في امتلاك شيء مستقل ؛ وفي هذه الحالة يحققون رغبتهم بتبادل أشياء صنعوها لأنفسهم خارج نطاق النشاط الجماعى ويستطيع البيت ذاته كوحدة - عن طريق رئيسه أو من ينوب عنه - أن يحول الفائض من منتجاته إلى سلع يرى أنها ضرورية عن طريق التبادل . ومثل هذا التبادل لا يمكن تصوره إلا إذا حدث بين أمر تدخل في نطاق جماعة تعتبر نفسها أسرة كبيرة واحدة (كما يحدث في القرية ، وفي المدينة أو بين المدينة والريف في منطقة واحدة) . وحينئذ يتم التبادل في هدوء وسلام

(١) في المجتمع اليونانى القديم كانت الشعلة المقدسة في وسط البيت رمزاً لاستمرار الأسرة ، ولذلك كان يقال « شعلة انطفأت » بمعنى أسرة اندثرت . انظر فوستيل دي كولانج « المدينة القديمة » .

وفق مبادئ يظهر عليها للتفكير السليم ، وتبدو كما لو كانت تعبيراً عن قسمة مشتركة شبيهة بالتمتع المشتركة حول المائدة الخافلة . وسوف نلاحظ أن هذه الحركة البسيطة هي الأصل في فكرة التبادل وفي دورة البضائع . ولكن مظاهر هذه الفكرة قد تغدو بعيدة كل البعد عن الأصل وتبدو تشويها لها مما يضطرنا - لكي نفهم التبادل في صورته الحقيقية - إلى تفسيره بالعودة إلى حاجات الأفراد و اراداتهم .

نظرية المجتمع

المجتمع عبارة عن مجموعة من الناس يعيشون بعضهم مع بعض ، ويحتفظون إزاء بعضهم البعض بعلاقات سلمية (كما هي الحال عند أفراد الجماعة) ، ولكن لا تجمع بينهم أية رابطة عضوية ، بل يظلون دائماً منفصلين عضوياً .

« فبينما يكون الأفراد في الجماعة مرتبطين بالرغم من انفصالهم ، فهم في المجتمع منفصلون بالرغم مما قد يؤدي إلى ارتباطهم . وعلى ذلك فلا يوجد في المجتمع نشاطات تصدر عن وحدة قبلية *a priori* وبصورة ضرورية بل بعمل كل واحد من أجل نفسه ؛ ويصدر سلوكه عن حالة من التوتر والتحفز بإزاء الآخرين . ومثل هذا السلوك السلبي طبيعي في المجتمع ؛ فلا يقبل أى شخص أن يقوم بخدمة للآخر ، أو يعطى أى شئ للآخر ، إلا إذا كان ذلك نظير خدمة مقابلة ، أو عطاء يكون على الأقل مساوياً لعطائه . وقد يكون من الضروري أحياناً أن تكون الخدمة أو العطاء الذى يحصل عليه أكثر فائدة ، في نظره ، من ذلك الذى يقدمه ، وذلك لأن الأمل في الحصول على شئ أحسن هو وحده الذى يدفعه إلى عمل الخير .

والمجتمع المبنى هو في الحقيقة مجتمع تبادل Société d'échange يهتم الاقتصاد السياسى بمعرفة

طبيعته وتصرفاته ؛ والأفراد فيه يمكن وصفهم ، حسب تعبير آدم سميث بأن « كل منهم تاجر » وإمكان العلاقة الاجتماعية لا يفترض شيئاً آخر غير عدد من الأشخاص المجردين ، يكونون قادرين على الإنتاج وبالتالي على بذل الوعود .

والمجتمع من حيث أنه تجمع لعدد من الناس يجب أن يسود بينهم نظام اتفاق من القواعد ، يكون ، بحسب هذا التعريف ، غير محدد بحدود ؛ إذ أنه يستطيع أن يتخطى باستمرار حدوده الحقيقية . أو المحتملة .

وبما أن كل شخص في المجتمع يبحث عن منفعة الخاصة ، ولا يتفق مع الآخرين إلا بالقدر وفي المدة التى يسعون فيها معاً لتحقيق مصلحة واحدة ، فإن علاقة كل شخص بالآخر قبل الاتفاق وخارجه ، وكذلك قبل وخارج أى تعاقب خاص - هذه العلاقة يمكن تصورها على أنها علاقة عداوة بالقوة ، أو حرب كامنة ، وذلك بغض النظر عن اتفاقات الإرادة التى قد تكون بمثابة معاهدات للصلح . فالمشترون والبائعون ، في وجوه نشاطهم المختلفة ، يقف كل منهم إزاء الآخر كما لو كان يرغب ويحاول أن يعطى أقل مما يمكن من ماله الخاص ، ويحصل على أكثر مما يمكن من مال الغير . كما أن التجار الحقيقيين يجرى كل منهم في حلبة السباق . ويحاول أن يتخطى صاحبه ليكون ترتيبه الأول - إذا أمكن - في الوصول إلى الهدف . ومعنى ذلك أن كلا منهم يحاول أن يدفع الآخر بمنكبه حتى يكبو ، وبذلك تكون خسارة الواحد هي في الوقت نفسه مكسباً . للآخر . وهذه هي « المنافسة العامة » التى تحدث في شئ الميادين ؛ ولكنها أشد ما تكون وضوحاً في ميدان التجارة . وقد وصفها بعضهم للتدليل على ما أطلقوا عليه « حرب الجميع ضد الجميع » ، واعتبروا

هذه الحالة ، هي الحالة الطبيعية العامة التي فُطر عليها الجنس البشري^(١) .

غير أن هذه المنافسة ، تحمل في طياتها ككل أشكال الحرب إمكان نهايتها . إذ يقرر الأعداء ولو بتجشم المصاعب أحياناً ، أن بعض المواقف تقتضى منهم الاتفاق لأن ذلك يحقق مصلحة الجميع ؛ وبذلك يتغافى كل منهم لصاحبه عن بعض الأمور بل قد يتحدون لتحقيق هدف مشترك (وفي الغالب يكون هذا الاتحاد ضد عدو مشترك) . وعلى هذا النحو تخف وطأة المنافسة وتتحول إلى تحالف coalition .

« هذه العلاقات التي تقوم على تبادل القيم المادية يحدث ما يناظرها في كل اتفاق اجتماعي يقوم على الكياسة ومراعاة الغير . فتبادل كلمات التناء وعرض الخدمات التي يبدو فيها أن كل شخص يقدر موقف الآخرين ويضع نفسه في موضعهم مثل هذا الموقف في الحقيقة يخفي وراءه تفكير كل شخص في نفسه ، واهتمامه ، على العكس ، بانتصار وجهة نظره وتحقيق مصالحه الذاتية . ولذلك نرى أن كل واحد ينتظر بل يطلب من الآخر قدراً معادلاً على الأقل لما قدمه إليه من صنوف التودد والهجملة ونراه تبعاً لذلك يزن خدماته بدقة وكذلك تملقه وهداياه الخ... على أساس أن هذه الأشياء ستحدد الغايات المطلوبة .

ولكن القول عموماً إن شروط الحياة الاجتماعية أساسها المقارنة بين خدمات ممكنة أو مقترحة وأن العلاقات بين الأشخاص تتصل بموضوعات حسية أو مادية . أما النشاط المزه عن الغرض والكلمات الطيبة

التي تحمل معناها الحقيقي فجهاها هو الجماعة التي يجمع بينها رباط الدم .

التعارض بين الجنسين

يربط « تونيز » التعارض بين الرجل والمرأة بالفرقة الأساسية التي أقامها بين الإرادة العضوية (أو العاطفية) والإرادة الواعية (أو العقلية) . وقد شرح تفاصيل هذا التعارض في القسم الثالث من الكتاب الثاني الذي خصصه لما سماه « المعاني التجريبية لنظريته .

وهو يقول : « من الحقائق الشائعة والهامة في الوقت نفسه أن النساء يتحركن في غالب الأحوال مدفوعات بعاطفتين وأن الرجال يخضعون لما عليه عليهم العقل وأنهم أكثر ذكاء من النساء فهم وحدهم قادرون على العمليات الحسابية المعقدة وعلى التفكير المجرد وربط الأفكار بعضها ببعض في إحكام وفقاً لقواعد المنطق . والقاعدة العامة هي أن النساء قلما يسلكن هذا المسلك . ومعنى ذلك أنه ينقصهن التعبير الجوهري عن الإرادة الواعية .

على أنه ليس بصحيح أن الرجال يلجأون إلى الإرادة الواعية وحدها عندما يقومون بنوع من النشاط الخاص وأنهم يتخذون موقفاً محايداً إزاء الطبيعة وسيطرون سيطرة تامة عليها . بل كل مافي الأمر أن نشاطهم يتطلب استخدام العقل الواعي أو المفكر . وأن هذا الاستخدام ينمى هذه الملكة لديهم .

وقسبر ذلك أن الأنثى لا عند البشر فحسب بل وكذلك عند الحيوانات الثديية تكرر مظهر وقها لرعاية صغارها ؛ أما الذكر فعليه يقع عبء توفير الغذاء والدفاع ضد العدو المهاجم . ووظيفة الهجوم والاعتصاب - ويلخ في ذلك اغتصاب الأنثى ذاتها - تستدعي منه أن يكون حذراً بحسن

(١) يشير تونيز هنا إلى نظرية هوبز التي أعلنها في كتابه « التنين » Leviathan وذكر فيها أن حالة الطبيعة ، أي قبل نشأة المجتمع ، هي حالة « حرب الجميع ضد الجميع » Bellum omnium contra omnes . ومن الواضح أن تونيز يارضى هوبز ، إذ يرى ، على العكس أن حالة الحرب أو على الأصح المنافسة لم تظهر إلا بعد ظهور المجتمع .

عموماً أكثر استقبالا وأكثر إحساساً بالإنطباعات التي تفرض نفسها عليها من الخارج . وتفضل الاستمتاع بالمتعة القريبة ، الحاضرة ، المنتظمة عن البحث لبلوغ متعة بعيدة ، مستقبلية ، ونادرة .

وتتحرك إرادة المرأة بدافع الانفعال بازاء التغيرات الملائمة أو المنفرة ؛ وبالتالي فإن الإحساس لديها هو واسطة التعبير عن مشاعرها الإيجابية أو السلبية وهذا الإحساس يتكون ويزداد إرهافاً بحيث تكمن فيه المقدرة على التمييز بين الخير والشر ، والجميل والقيبح ؛ وهذا التمييز قد لا ينطبق تمام المطابقة مع معرفة الأشياء والظواهر ، وهي المعرفة الموضوعية . فهذه المعرفة نحصل عليها (بوصفها إدراكاً حسيّاً) عن طريق نشاط العين الفاحصة ، ثم الأذن مع الاستعانة باللمس . أما الإحساس الانفعالي فيعتمد أولاً على حواس الشم والذوق ولا يحتاج إلا للملاحظة عابرة ، وهو ما نجده عند المرأة . ويظهر في جميع التعبيرات المحملة بالمشاعر ، وفي تغيرات المزاج ، وفي الأفكار التي يرحى بها الضمير لا العقل .

ومن طبيعة هذا النشاط الذي يقوم على الإرادة العاطفية أنه يتسم بالصراحة والإخلاص والسذاجة ؛ وهي الصفات المباشرة والانفعالية عند المرأة ، وكذلك عند جميع الرجال الطبيعيين^(١) في كل الظروف . وإلى هذه الصفات يرجع إنتاج العقل والإبداع الذي يصبح بواسطة رقة الشعور وحسن الاختيار والتلوق إنتاجاً فنياً ، حتى ولو كان هذا الإنتاج يحتاج - لكي يخلق أعمالاً عظيمة - إلى القوة العضلية والذكاء ، أو إلى دوافع أنانية تحرك وترفع حافز العمل عند الرجل .

المراقبة والترقب ويدرب أكثر حواسه نشاطاً وهي السمع والبصر حتى تصبح من الحدة والإرهاق بحيث تدرك الأشياء البعيدة . ويؤدي ذلك بطبيعة الحال إلى نمو ملكة التنبؤ وإعداد العدة لكل احتمال . وذلك لأن الرجل هو الوجه لكل نشاط يتصل بمواجهة الطبيعة الخارجية . وهذا أمر طبيعي طالما أنه الأقوى والأكثر استعداداً للصراع . وكذلك الأكثر تحركاً والأخف حركة ومقارنتها بالرجل في هذا المجال ، تعتبر المرأة أكثر استكانة وأشد ميلاً للخمول .

ووظيفة الرجل كقائد تستلزم منه كذلك أن يعتاد إصدار الحكم بسرعة ، وأن يقرر في حزم ما يجب عمله ، في ظرف ما ، باعتبار أنه التصرف المناسب . فلا يكاد يشعر بخطر قادم حتى يأخذ لكل احتمال عدته ، ويتخذ من علاقات الخطر دهائم لتقليب الأمر على جميع وجوهه ؛ ومن خبرته السابقة بالأخطار المشابهة أساساً لرسم خطط العمل . وتبرز عند الرجل عموماً ملكة المقارنة . وتتفرع عنها صفات شكلية خاصة : كالقياس ، والوزن ، والحساب بجميع أنواعه وهذه جميعاً تتلخص في تمييز الكميات وعلاقاتها بعضها ببعض .

كما أن أنواع النشاط التي يقوم بها الرجل تستلزم نمو فكرة « العلية » ؛ فعلى أساس هذه الفكرة يقوم كل نشاط علمي .

ولكن إذا كان الذكاء يُعزى بحسب الأفضلية إلى الرجل ، فهو لا يساوي على كل حال القوة الذهنية في عمومها . وبقدر ما تكون هذه القوة خلاقة وتركيبية فإن عقل المرأة هو الذي يبرزها في أجلى معانيها . وتفسير ذلك أنه ، مثلاً يتميز تكوين الرجل بسيطرة « الجهاز العضلي » يتميز تكوين الأنثى بسيطرة « الجهاز العصبي » . ففياً يتصل بنشاطها السلبي المتواصل تتحرك المرأة في دائرة ضيقة وهي

(١) يقصد « تونيز » بكلمة « الطبيعيين » ، الرجال قبل أن تثيرهم حياة المجتمع السياسي .

وتؤدى هذه الكلمة إلى رأى غريب عن العبقريه
يسرد « تونيز » تفاصيله بقوله : « يبدو لنا على هذا
النحو أن نواة العبقريه ، وأن أحسن مافى الرجل يرجع
إلى ما ورثه عن طريق الأم . ولذلك فإن الرجل
العبقري يظل فى كثير من صفاته ، ذا طبيعة أنثوية ،
فهو ساذج مخلص ودبيع ، لمّاح سريع تقلب المزاج ،
هادىء أو ميال إلى الكآبة . وهو بعد ذلك حالم ، شارد
الذهن ، يعيش كما لو كان تحت تأثير نشوة دائمة
يعطى من ذاته للناس بامان وثقة .

ونتيجة لكل هذا قد يبدو مثل هذا الإنسان
المتحمس - فى نظر الناس العاديين الذين يدبرون
أمورهم بعقل بارد - مهجوراً أو مخجولاً ، بل أبلها
أو سخيلاً ، أو كرجل مثل بين رجال واعين . وسلوك
المرأة عندما تكون أحكامها حرة غير مقيدة بقيود ،
لا يختلف كثيراً عما ذكرنا ، ولذلك فالرجال العاديون
لا يفهمونها وتبدو فى نظرهم صفيقة .

وفى الحقيقة تظهر عند الرجل العبقري فى قوة
ونماء ، الصفات التى قد تظهر فى شكل ماعند
الكائنات المزودة بالقدرة على الكلام . وهو أكثر
الغاذج اقتراباً من نموذج الرجل الكامل الذى نريد
أن نصوره كشال أعلى . وذلك لأن القوة العضلية
والشجاعة تتفاضل بها الحيوانات فيما بينها ؛ أما الطاقة
الذهنية أو العبقريه فيختص بها النوع البشرى ، حتى
ولو على سبيل الإمكان لا التحقيق . فالإنسان العبقري
هو الإنسان الفنان ؛ هو الشكل النامى (أو الزهرة)
للإنسان الطبيعى (البسيط والحق) .

وإذا سلكت المرأة وسلك الرجل كل حسب
تكوينه : الأولى ككائن طبيعى ، والثانى ككائن
مصطنع ، فإن الرجل الذى تسود عنده الإرادة
العضوية يكون ، مع ذلك ، ما زال مصطنعاً بالروح
الأنثوية ، وهو يتخلص من هذه الروح عن طريق

الإرادة الواعية ، والمفكرة ، وحينئذ فقط يبدو فى صورة
الرجولة الخالصة . وقد يميل الشعراء والمفكرون إلى
امتداح المجهول فى المرأة ، والعمق الخفى فى كيانها
ومشاعرها ، والصفاء فى روحها . وهذا الميل يدل
على أننا نحتاج ، فى بعض الأوقات لأن نتذكر كل
ما فقدناه عندما أصبحنا نفكر ببرد ، أى عندما
أصبحنا نعمل فى ضوء العقل وحده .

ومع ذلك فالطبيعة لا تدمر نفسها ، إلا لتبنى
بطريقة جديدة عناصر طاقتها . إذ أن الإنسان يعود
إلى لذة التأمل والمحبة اللذين قضى عليهما التدبير
والتطلع ، عن طريق أصفى المعارف وأسماها ،
وذلك حين تصبح المعرفة فلسفة .

تلخيص

وفى ختام هذا البحث نورد ملخصاً للأفكار
الأساسية التى جاءت فى كتاب « الجماعة والمجتمع » ،
وقد أثبت هذا التلخيص المؤلف نفسه فى بعض فصول
الكتاب :

الفروق بين المرأة والرجل	
عند المرأة	عند الرجل
يتميز باللون العاطفى	يتميز بالنشاط المفرغى
الصفة المميزة	
عند المرأة	عند الرجل
سيطرة الشعور	سيطرة العقل
التفكير	
عند المرأة	عند الرجل
يعتمد على الحدس	يعتمد على المعرفة الموضوعية
الفروق بين الجماعة والمجتمع	
الجماعة	المجتمع
الإرادة العضوية	الإرادة الواعية
الأنثى (أو الذات)	الشخصية
الملك (أو الاستعواذ)	الملكية التعاقدية
الاعتماد على الأرض أو التربة	الاعتماد على المال
سيادة القانون المائل	سيادة قانون الالتزام

صورة سيّدة هنرى جيمس

بمّتم

الكتورة أنجيل بطرس سمعان

رفيع وقدسية عمل الفنان الجاد^(١) ، وكرس حياته لتطبيق ما نادى به من مبادئ وآراء في أعماله المبدعة الكثيرة . فقد سعى جيمس لتوسيع إمكانيات هذا الفن مستخدماً في سبيل ذلك جميع الوسائل والأساليب الفنية الممكنة ، مستيراً من بعض الفنون الأخرى كالتصوير والمسرح كل ما من شأنه أن يجعل الرواية أعظم تأثيراً وأكثر قدرة على تصوير الحياة ، ولذا اهتم بتأكيد أهمية الشكل والبناء الفني للرواية :

كان جيمس بالرغم من دقته المتناهية واهتمامه الشديد بالإجادة والارتقاء بعمله إلى أعلى مراتب الكمال ، كاتباً خصباً غريز الإنتاج . امتدت حياته الأدبية إلى ما يقرب من الخمسين عاماً كتب فيها تسع عشرة رواية وتسماً وستين قصة قصيرة وثلاثة أجزاء من السير الذاتية إلى جانب ست مسرحيات وعدد كبير من كتب

يعد هنرى جيمس من أعظم الروائيين في العصر الحديث ومن أهم الأسماء في تاريخ الرواية الإنجليزية بوجه خاص . فبالرغم مما لاقاه في حياته من فتور وما لاقته أعماله من كساد ، كان يعزى في كثير من الأحوال لصعوبتها وتعذر فهمها على القارئ العام ، إلا أنه يشغل الآن مكانة أدبية ممتازة ، وتحظى أعماله باهتمام كبير في الأوساط الأدبية في إنجلترا والولايات المتحدة على حد سواء . وترتكز مكانته الأدبية على سجل حافل من الأعمال الروائية والنقدية . إذ لم يكن جيمس روائياً مبدعاً من الطراز الأول فحسب ، بل كان أيضاً ناقداً هاماً في مجال نقد الرواية ، فكان أول من يمكن أن يقال عنه إنه أقام النقد الروائي على نظام موضوعي . كما أضاف إلى هذا الميدان ثروة كبيرة من الكتابات النقدية والألفاظ والعبارات النقدية التي كان يفتقر إليها .

وهنرى جيمس فنان أصيل واع بقيمة فنه وقدسيته ، اهتم أكثر ممن سبقه من الروائيين الجادين من أمثال جين أوستن وجورج إليوت بتأكيد فكرة الرواية كفن

(١) انظر مقاله « الفن القصصى » في :

"The Art of Fiction" (New York, 1948), pp. 3-23.

أو

"Views on the Art of the Novel", compiled by Angele Botros Samaan (Cairo, 1965), pp. 115-144.

الرحلات والتراجم والدراسات النقدية والمقالات المتفرقة التي جمع منها للآن ستة أجزاء إلى جانب ما طبع من مذكراته . كذلك راسل جيمس عدداً من كبار كتاب عصره وطبعت من رسائله الخاصة والأدبية عدة أجزاء (١).

وقد امتازت أعمال جيمس بطابع خاص نتيجة لميوله الأدبية الشخصية ولظروف نشأته وثقافته من ناحية ولطبيعة مرحلة التطور التي كانت تمر بها الرواية الإنجليزية من ناحية أخرى . فقد جمع جيمس بين ثقافتين عالميتين : الثقافة الأمريكية الحديثة والثقافة الأوروبية العريقة ، كما كتب في فترة تعرضت الرواية الإنجليزية فيها لبعض المؤثرات الأوروبية بحيث جاءت أعماله وليدة تأثره بالتراث الروائي الإنجليزي من ناحية وبعض المؤثرات الخارجية الأوروبية من ناحية أخرى . فلكونه أمريكياً عاش في أوروبا رأى لزماً عليه أن يعالج « موضوعاً عالمياً » وأن يهتم بعلاقة الأمريكي بأوروبا وأثر أوروبا على الأمريكيين . أما تأثره ببعض الاتجاهات في مجال الرواية الأوروبية فلعل أهم مظاهره اهتمامه بالشكل الفني للرواية واحترامه الشديد لبعض الروائيين الأوروبيين من الفرنسيين والروس مثل بلزاك وفلوبير وترجنيف .

نشأته وبدء حياته الأدبية

ولد هنري جيمس في مدينة نيويورك عام ١٨٤٣ وقضى صباه متنقلاً بين الولايات المتحدة وأوروبا ثم عاد إلى أوروبا شاباً يافعاً متفتحاً للحضارة الأوروبية متنقلاً بين مسارحها في إيطاليا وفرنسا وإنجلترا، وأخيراً استقر به المقام في إنجلترا وإن لم يتخذ الجنسية البريطانية إلا في عام ١٩١٥ أي قبل موته بسنة واحدة .

(١) انظر لزيادة التفصيل الثت الجيوجرافي الملحق بكتاب :
F.W. Dupee, "The Question of Henry James" (New York, 1945).

نشأ هنري جيمس في أسرة ثرية مثقفة : فقد ورث أبوه ثروة كبيرة عن والده الإيرلندي الأصل الذي هاجر إلى أمريكا وكون ثروة ارتكز عليها رخاء الأسرة فيما بعد . وقد كانت هذه الثروة أداة لتثقيف الأبناء دون التقيد بالإعداد لمهنة معينة . فقد كان الأب رجلاً مثقفاً بل فيلسوفاً يرى في التقيد بمهنة معينة « تضيقاً » للأفق ، كما حدث عندما أبدى ابنه الأكبر وليم ميلاً للفن ورغبة في دراسته ، ولكنه كان يؤمن بتهيئة الفرصة لأبنائه للحصول على أكبر قدر من الثقافة . ولعل هذا الميل من جانب الأب نحو عدم التحديد بالرغم من عطفه ورقته المتناهية نحو أبنائه يفسر تصميم هنري فيما بعد على كسب عيشه عن طريق الكتابة منذ سن مبكرة بل وتنازله عن نصيبه في ثروة أبيه لأخته .

ومن حسن حظ الدارس لحياة جيمس وأعماله أن ترك لنا هذا الأديب سلسلة من السير الذاتية كتبها في أواخر أيامه ، تعد سجلاً حافلاً لحياة جيمس المبكرة إلى بداية فترة اشتغاله بالأدب هي : « صبي صغير وآخرون » (١٩١٣) ، « مذكرات ابن وأخ » (١٩١٤) و « السنوات الوسطى » التي لم يتمها جيمس ونشرت بعد وفاته (١٩١٧) .

ويبدو واضحاً في هذه الأعمال احترام هنري لأبيه وتقديره له . أما الأم فقد كانت مصدر حب وحنان وإحساس بالجمال وشعور بالأمن لجميع أفراد الأسرة التي بلغ عدد أبنائها خمسة أكبرهم وليم جيمس الفيلسوف المعروف ، يليه هنري الذي يصغره بثمانية عشر شهراً ثم يتبعه ابنان آخرون وابنة تدعى أليس .

وقد شغل الأب بتعليم أبنائه ، وتردد طويلاً بين أوروبا وأمريكا ومزايا كل منهما ، فقد رأى أول الأمر أن يتلقى الأبناء تعليمهم في وطنهم ولكنه عاد فقرر إرسالهم إلى أوروبا عام ١٨٥٥ . فقد كان يريد لأبنائه أن يفيدوا أكبر إفادة من تلك الثقافة الأوروبية العريقة التي تفتقدها أمريكا ولكنه عاد فاستدعاهم للوطن ليعود

فرسلهم مرة أخرى لـسويسرا عام ١٨٥٨ حيث بقوا إلى عام ١٨٦٠ عندما عادوا إلى أمريكا حيث استقر بهم المقام في نيويورك أولاً ثم في بوسطن . وهكذا قضى هنرى طفولته متنقلاً بين أوروبا وأمريكا وتلقى تعليمه في مدارس نيويورك وجنيف وباريس وبولونيا على أيدي مدرسين من مختلف الجنسيات . وبالرغم من أن هذا التغيير المستمر قد أقلق هنرى إلا أنه قد استفاد كثيراً دون شك . لم يبرز هنرى في دراسته إذ لم يكن يستطيع معالجة أصغر مسألة ميكانيكية أو هندسية ، ولكنه قرأ كثيراً واكتسب كثيراً من التجارب .

ومن بادئ الأمر نرى سحر كلمة أوروبا يلهب خيال الصبي الصغير الذى راح يحلم بتلك البلاد إلى أن أصبح الخيال حقيقة عندما أرسله والده إلى سويسرا . وهكذا يظل هنرى الشاب مشدوداً إلى أوروبا مهوراً بثقاتها وكنوزها الفنية ، يعبر عن ذلك كله عندما يعود إليها ليزور إيطاليا لأول مرة كشاب مستقل لا كطفل يذهب إلى المدرسة كما سنى .

أما السنوات التى سبقت بدء حياته الأدبية مباشرة فكانت بداية فترة قلق واضطراب لا نعرف عنها الكثير ، فقد بدأت الحرب الأهلية في ربيع ١٨٦١ وأصيب هنرى في أواخر هذا العام لإصابة في ظهره منعتة من الاشتراك في الحرب ، فأثر ذلك في حالته النفسية ، ومما زاد الحالة سوءاً أن إصابته لم يمكن تشخيصها على وجه التحديد مما أدى إلى إهمال علاجها ، فقامى من جرائها كثيراً من الألم والمرارة .

بدأ نشاط هنرى جيمس الأدبي عام ١٨٦٤ ونشر بين هذا التاريخ وعام ١٨٦٨ اثنتى عشرة قصة قصيرة وحوالى خمسين عرضاً للكتب ، وتعرف ببعض كتاب عصره ممن اتصل بهم بشأن نشر كتاباته مثل لويل ونورتون وبدأ صداقة وثيقة مع و . د . هاولز . ولعل أهم ما يلفت النظر بشأن هذه الفترة ليس نوع كتاباته أو درجة جودتها بالرغم من أنها كانت تحوى الكثير من

دلائل القدرة على الكتابة ، بل استمراره في الكتابة وتصميم جيمس على اتخاذ الكتابة مهنة يكسب منها عيشه ، ولعل هذا يعوض ما يشعر به القارئ من أن جيمس لم يكن لديه شيء ذو بال يقوله ، إذ يدور الكثير من قصصه حول شبان مهزومين حائرين .

لم تدم هذه الفترة طويلاً على أية حال ، ففي عام ١٨٦٩ قام جيمس بزيارة لأوروبا كان لها أكبر الأثر في نفسه وأصبح هذا التاريخ نقطة تحول في حياته وكان هذه التجربة قد فكت عقال نبوغه فأصبح لديه من ذلك الوقت ثروة كبيرة من المادة الهامة للكتابة .

وجدير بنا قبل أن نعالج هذه الفترة الغنية بمصادر الإلهام أن نوضح أن صداقات جيمس أثناء سنوات الحرب الأهلية الصعبة وما بعدها قد تركت في نفسه آثاراً لا تمحى وحيث إنه إلى الأبد بعض نواحي الحياة الأمريكية . فنجد مثلاً في « صبي صغير وآخرون » ذكريات سارة عن صفات الشباب الأمريكي الذين عرفهم عن قرب من عدم تكلف وبساطة وإخلاص وحسن نية وروح اجتماعية . وهو يقارنهم بمن عرفهم من شباب بعض الجهات الأخرى التى زارها بصفاتهم المضادة لهذه الصفات الطبيعية غير المتكلفة ، إذ يبدو هؤلاء أكثر تدريباً واستعداداً وتأهباً وتسلحاً لمواجهة الحياة الاجتماعية من الشباب الأمريكى . ولعل أحب شخصيات هذه الدائرة التى عرفها جيمس لنفسه كانت قريبته ميني تمبل التى قضت في شبانها بدء الصدر ولم تبلغ من العمر أكثر من أربعة وعشرين ربيعاً ، والتى تلوح في كتابات جيمس كرمز وضاء لجميع صفات الفتاة الأمريكية الكاملة والتى أوحى لجيمس باثنتين على الأقل من خيرة بطلاته هما إيزابيل آرثرشر بطلة « صورة سيدة » موضوع هذا المقال وميللى ثيل بطلة « جناحى الحمامة » . وعنها يكتب جيمس :

« لقد كانت طبيعية للدرجة تبلغ حد الكمال . . . كانت طبيعية في عدد من النقط وبخصوص عدد من

الأشياء ويمدَى أكثر اتساعاً من الحرية والبساطة وامتداد الأفق بدرجة تفوق بكثير ما يمكن أن تحلم به الأخريات من نبات الخوولة والعمومة» (١).

لقد كانت «تمثل صورة وقوام ما يشعر به المرء في الحياة من اهتمام ، اهتمام يمتد بعيداً بلطف أو يثبت بألفة وجمال ، كما قد يحدد ذلك رقة إحساسها الرائع المتغير ، إحساسها الخلقى ، الشخصى ، أو العصبى . . . لقد كان جوهر حياتها أن تنغمس بنشاط في الحياة » لقد طالبت بها الحياة واستخدمتها وأزججتها ، وجعلتها تنقل في محسّس طريقها ، طريقها الغض وغير المضى من بداية السلم إلى نهايته» (٢). لقد كان موت ميني تمهل بعد نضال عنيف للتغلب على المرض نهاية مرحلة في حياة هنرى وأخيه ولیم . لقد كانت «نهاية شبابهما» .

أما المصدر الآخر لإلهام جيمس فهو أمريكيته . وهنا نجد جانباً هاماً من جوانب إعدادة . فقد نشأ جيمس في بيئة أمريكية ثم انتقل إلى بيئة أوروبية ولذا أحس بأن لديه القدرة على رؤية هذه البيئة والكتابة عنها من وجهة نظر جديدة ، فهو ككاتب أمريكي يتمتع بامتيازات وفرص لا تتوفر لدواه ، كما يكتب لأحد أصدقائه :

«إننا أمريكيون مولدًا ، وعلينا أن نقوم بدورنا كذلك . إنى أعتبر ذلك عطية عظيمة من السماء . وأعتقد أن كون المرء أمريكياً يعدّه إعداداً عظيماً للثقافة . إننا كشعب نملك صفات جميلة ويبدو لي أننا تفوق الأجناس الأوروبية في أنه يمكننا أكثر من كل منها أن نعالج بحرية أشكالا من الحضارة غير حضارتنا ويمكننا أن نختر وأن نمتص جمالياً ، بل وأن نجد ما نعتبره ملكاً

(١) «سيرة هنرى جيمس

“Henry James Autobiography”, ed. F.W. Dupee (1956), p. 283.

هذا الكتاب يحوى كتب السير الذاتية المشار إليها أعلاه .

(٢) المرجع السابق ص ٥٠٩ .

لنا في أى مكان . . . لا بد أن يكون لنا بالطبع شيء خاص بنا - شيء مميز ومماثل - وأعتقد أننا سنجد هذا الشيء في وعينا الخلقى وفي قوتنا وخفتنا الروحية التي لم يسبق لها مثيل» (٣).

ويمكن ربط مثل هذا القول بما سبق الإشارة إليه من صفات الشباب الأمريكى التي تمثلها ميني تمهل ، وما يمكن أن يطلق عليه فكرة «الأمريكية» . فقد أدرك جيمس في بعد أن لعلاقة الأمريكى بأوروبا وجوهاً مختلفة عبر عنها بقوله «إن كون المرء أمريكياً مصير مغمم بالتركيب والتعقيد» . ويمكن اعتبار رواياته وقصصه عمليات استكشاف للطرق العديدة المختلفة التي يمكن أن يظهر بها هذا التعقيد ، كما يقول د. و. جيفرسون في دراسته لجيمس .

أما زيارته لأوروبا عام ١٨٦٩ فقد حماته إلى إنجلترا ومنها عبر فرنسا وسويسرا إلى إيطاليا بكنوزها الفنية وآثارها ومدنها القديمة وجوها الثقافية الخاص . وقد كان لروما أثر خاص في نفسه كما كتب بنجر أخاه ولیم عن هذه التجربة وما كان لها من أثر «لا يمكن التعبير عنه بالكلام ولا يمكن مقارنته بأي شيء آخر» :

«أخيراً - وللمرة الأولى - أحيأ [إن روما] تفوق كل شيء . . . إنها لا تشبه في شيء روما التي تتخيلها - والتي قرأت عنها - لقد رحلت أتمایل وأئن وسط الطرقات ، في حمى من المتعة . وجبت في ظرف أربع أو خمس ساعات بجميع أنحاء روما ورأيت كل شيء رؤية خاطفة - الفورام والكلوزيوم (الذى يفوق في عظمتة كل شيء) ، البانيون والكايتول وكنيسة القديس بطرس وعد تراجان وقصر سانت أنجيلو - وكل الميادين والأطلال والآثار . إن الأثر الذى

“Selected Letters of Henry James,” ed. Leon Edel, 1956, pp. 51-52.

ص ٥١ - ٥٢ .

بمركه ذلك شىء لا يمكن وصفه^(١).

ولم تكن روما المكان الوحيد الذى ترك في نفسه أثراً قوياً فقد كتب خطابات أخرى تصف تأثره بإنجلترا وبالإنجليز وبمن قابلهم من مواطنين في الخارج . فقد كان جيمس يتمتع بقوة خارقة للاستجابة للأماكن المختلفة وأنواع السلوك المختلفة المرتبطة بها .

كانت زيارته هذه أصلاً للعلاج ولذا عاد إلى أمريكا في نهايتها بعد أن قضى أربعة عشر شهراً في أوروبا . ولكنه عاد فقام بزيارتين أخريين بعد أن تحسنت صحته وفي عام ١٨٧٥ قرر أن يقيم في باريس وتعرف أثناء إقامته بالحياة الأدبية الفرنسية عن قرب ، وخاصة ببعض كبار الكتاب مثل فلوير وترجيف . ولكنه ما لبث أن قرر ترك فرنسا والاستقرار في إنجلترا في عام ١٨٧٦ . وفي إنجلترا قابل بعض الشخصيات الهامة مثل جورج إليوت ولورد تينيسون وشارك في الحياة الاجتماعية الإنجليزية مشاركة خفيفة أول الأمر إلا أنه جمع مادة غزيرة نتيجة لما حققه من صلات اجتماعية كثيرة فيما بعد .

ولعل أهم ما نتج من تأملنا لسيرة جيمس الشخصية هو تلك الصورة القيمة لبزوغ الفنان المبدع ونموه وتطوره ، وذلك السجل الدقيق لما كان يشغله في مستقبل حياته الأدبية من موضوعات هامة .

أعماله الأدبية وتطور أسلوبه الفني

أما أهم نتائج زيارته الأولى لأوروبا فكان مجموعة من القصص التي ترجع أهميتها إلى وصف الأماكن التي زارها مثل « السائح الشغوف » (١٨٧١) و « سيدة المستقبل » (١٨٧٣) ، إلى جانب سلسلة من كتب الرحلات بدأت في الظهور عام ١٨٧٢ .

(١) "The Letters of Henry James," ed. Percy Lubbock (1920), Vol. I, pp. 24-5.

وتمتاز إنتاج جيمس في السبعينات بغزارته وتنوعه فقد بلغ عدد ما نشره في الدوريات في عام ١٨٧٥ نحو سبعين عملاً . فبالإضافة إلى القصص القصيرة وعرض الكتب كان هناك الكثير من أدب الرحلات والنقد الأدبي والمسرحي . وظهرت قدرة جيمس الطبيعية على الوصف البليغ اللامع . وتعكس قصص هذه الفترة ورواياتها قدرة كبيرة على تصوير علاقة الأنماط الأمريكية بجوانب هامة لأوروبا والأوربيين . كما تمتاز بثروة في المادة التسجيلية نتيجة لما تمتع به جيمس من قوة ملاحظة وذكاء فطريين .

وهنا نواجه نقطة طال الجدل حولها وهي إلى أى حد كان جيمس مهتماً بتقديم ما يوصف « بالموضوع العالمى » وإلى أى حد كان مهتماً أصلاً بتقديم أنماط أمريكية . وفي هذا الصدد يقول جيفرسون : « من السهل أن نخطئ باعتبارنا المواقف العالمية في رواياته ذات أهمية هامشية أو جانبية لأنها تنصب فقط بالطبع على أولئك الأشخاص غير العاديين الذين يتزوجون من أجانب أو الذين يصنعون لأنفسهم حياة مصطنعة مختلطة بالحياة في الخارج أو أولئك الذين تدل حريتهم في السفر على عدم ارتباطهم بمجتمعهم . غير أنه يمكن الرد على ذلك بالقول بأن وضع الأمريكيين والأوربيين جنباً إلى جنب ومقارنتهم كان وسيلة مؤثرة جداً أولاً لاكتشاف الأنماط الأمريكية ثم لتقديم هذه الأنماط تقدماً أكثر حدة وتأكيداً . فن صفات القصة العالمية أنها وسيلة « فنية » لتحديد السلوك الأمريكى وتوضيحه . ففى مثل هذه الدراسات الصغيرة مثل « حزمة من الرسائل » ١٨٧٩ و « وجهة النظر » ١٨٨٢ ، حيث يمكن معظم السرور في الملاحظات التي تبديها الشخصيات التي تمثل أنماطاً قومية واجتماعية مختلفة بعضها على البعض الآخر ، يظهر بوضوح كبير فضل وضع الأمريكيين في وسط عالمى . إذ فن ناحية معينة تتطلب المادة ذاتها هذا التطور . إذ يمكن اعتبار الكثير من حاجات الأمريكيين وأمانهم

تحدث بين مرح الزوار وحريرتهم الكبيرة نسبياً وبين جدية حياة الأسرة الأمريكية ووقارها . وتعد « الأمريكي » من أعمال جيمس الناجحة التي تستحق من الاهتمام قسطاً أكبر مما تحظى به فعلاً . ويمكن القول بوجه عام إن أهم موضوعات هذه الفترة هو تصوير الاتجاهات والمواقف الأمريكية في بيئات أوروبية . غير أن هذا الموضوع يعالج بأساليب مختلفة تدل على خصوبة خيال جيمس وثرائه .

أما موضوع الفتاة الأمريكية الذي شغل به جيمس في كثير من أعماله فقد عالج في عدة أعمال أهمها قصتنا « ديزى ميلار » و « حدث دول » وروايتنا "The Reverbrator" و « صورة سيدة » . أما « ديزى ميلار » فهي قصة من النوع الذي يطلق عليه لفظ « نوفيللا » لأنها أطول من القصة القصيرة ولكنها ليست رواية . وتعد « ديزى ميلار » من خير أعماله وأنجحها . ديزى فتاة أمريكية جميلة جذابة ولكنها لا تعرف أصول السلوك في المجتمع التقليدي . وقد رأى جيمس أن خير وسيلة للكشف عن نوع سلوك ديزى أن يقدمها لنا في هذا المجتمع . ويصور لنا كيف تنزع السيدات الأمريكيات المستقرات في أوروبا ويشعرن بالحرج والارتباك من سلوكها . إذ تمثل هذه السيدات إطاراً من السلوك المقبول والمتواضع عليه والذي يعد كل عمل مخالف تأتبه ديزى تعدى إرادى أو لا إرادى عليه . ولكن فن جيمس يتلخص في تقديمه ديزى وحقاقتها من وجهة نظر عريف بطرق هذا المجتمع ولكنه في نفس الوقت متجاوب مع ديزى ، فهو سهل الوقوع تحت تأثيرها ولكنه يقف منها موقف الناقد الذي لا يتقبلها على علاقتها وكأنه يقف منها موقفاً وسطاً يمكنه من الحكم على سلوكها وتفهمه في نفس الوقت . وهذا الشخص مرفه الحس وعلى درجة كبيرة من الذكاء تمكنه من تحليل موقفه بالنسبة لديزى . فهو يشعر مثلاً أنه قد عاش في جنوه بعيداً عن أمريكا فترة من الزمن جعلته يحس

وأوهامهم وإما متصلة اتصالاً مباشراً بأوروبا وعلى الأقل فالتعبير عنها تعبيراً كاملاً أكثر احتمالاً في بيئة أوروبية . وهكذا يمكن الجدل بأن أولئك الأمريكيين الذين تزوجوا فعلاً من أجناب أو الذين أصبحوا أكثر أوروبية من الأوروبيين في مسائل المعرفة بأمور الفن هم أشكال نموذجية وحالات مفيدة ومتصلة اتصالاً مباشراً بدراسة الأمريكية . فعندما أحضر جيمس بعض الشخصيات لأوروبا كان يهيئ لها الفرصة لتبدو بوضوح أكثر أمريكية مما لو فعلت دون ذلك « (١) » .

وبالرغم من أن أعمال هذه الفترة لم تكن كلها ناجحة إلا أنها جميعاً تساعدنا على فهم تطور طريقة جيمس في الكتابة في الفترة المتأخرة . ولعل « مدام موف » ١٨٧٤ أول قصة حقق فيها مستوى رفيعاً من التكنيك أو الأسلوب الفني .

أما « رودريك هدسون » ١٨٧٥ فأول رواية هامة نحوى موقفين أمريكيين كبيرين على الأقل ، وتعالج حياة شاب أمريكي فنان يذهب ليتعلم الفن في روما ولكنه يفشل . تليها « الأمريكي » (١٨٧٦ - ١٨٧٧) وتقدم نيومان الذي يمثل رجل الأعمال الأمريكي ، وتجمع شخصيته النجاح في عالم الأعمال مع سجل مشرف في الحرب الأهلية ، في اصطدامه بالنظام الأرستقراطي الأوربي - تقدم أكثر الأنماط الأمريكية تميزاً . ويلي « الأمريكي » « الأوربي » وفيها يدير جيمس ظهره لأوروبا مسرح المغامرات والمواقف المتطرفة ويقبل على معالجة الحياة العائلية الهائلة لأسرة من أسر بوسطن المحافظة . وينقل لنا بمهارة تدعو إلى الإعجاب جو الجدلية والاهتمام بالحياة الداخلية الذي تتميز به حياة هذه الأسرة . أما الأوربيان فهما شاب وفتاة ينتميان بصلة القرابة إلى هذه الأسرة ، يعودان من أوروبا ويختلفان دون شك في كثير من أوجه سلوكهما . ويجيد جيمس تصوير عملية الملاعة التي

D.W. Jefferson, "Henry James", (١)
(1960), pp. 18-19.

وبطلتها إيزابيل آرثر كما سنبين بالتفصيل من أهم بطلات جيمس وأكثرهن إثارة للعطف والاهتمام .
وتعد « صورة سيدة » علامة على الطريق في حياة جيمس الأدبية لأنها تمثل نهاية المرحلة المبكرة وأعظم أعمالها من ناحية ولأنها آخر أعمال جيمس الهامة قبل وفاة والده في عام ١٨٨٢ وانقطاعه عن زيارة أمريكا إلى أن قام بزيارته الأخيرة في عام ١٩٠٤ ، ١٩٠٥ من ناحية أخرى .

يلي ذلك إعلان هامان هما « أهل بوسطن » ، و « الأميرة كازاماسيا » (١٨٨٥ - ١٨٨٦) وتعالج الأولى أمريكيين في أمريكا ويعتبرها كثير من النقاد من خير أعمال جيمس ، أما الثانية فتعالج المثالية الثورية وتتخذ لندن مسرحاً لأحداثها . ولعل أهم ما يجب الإشارة إليه هنا بشأن هاتين الروائيتين اللتين يتفق معظم النقاد الآن^(١) ، على نجاحهما وروعتهما هو أنهما استقبلتا في الثمانينات استقبالا سيئاً جداً أصاب جيمس بخيبة أمل كادت تحرم الفن الروائي من عبقريته . ولنستمع إليه يحدث صديقه و . د . هاولز في أول ١٨٨٨ قائلا :

« لقد أقيمت على أيام شريرة - ولكن هذا سرّ بيننا - إن هذا يبدو أمراً جلالاً . ولكنه يعنى فقط أنني أترنح تحت وطأة هذه الضريرة الغامضة التي تبدو أنها قد أصابت موقفي عن طريق « أهل بوسطن » و « الأميرة » التي كنت أتوقع منهما خيراً كثيراً ولكنهما لم تعودا على شيء يذكر . فقد قللتا الرغبة في إنتاجي والطلب له للدرجة الصفر - كما أحكم من أنه بالرغم من كتابتي لعدد من الأشياء الصغيرة الجيدة ، فإنها لا تجد لها مكاناً للنشر ، إذ يؤجلها رؤساء التحرير لشهور ، بل

بشيء من الارتباك في هذا الموقف ، فهو يحس أنه قد فقد الصلة بالزواج الأمريكي الشاب . وتبرز استجابته لديزي ما تهدف القصة إلى إبرازه ، نوع جلالها الذي يصعب تحديده والإحاطة به . فكلما صعب تحديدها الجلال بمعناه الواسع والإحاطة به ، وكلما صعب اكتشافه في عمل أعمالها الحمقاء الخاطئة ، زاد السرور عندما ينقذها هذا الجلال في النهاية . فهي قد تبدو كما تقول إحدى تلك السيدات « عادية » أو خالية من علامات التهذيب والرق الاجتماعي ، ولكن هذا الوصف لا يمكن أن يحيط بتلك الرشاقة الطبيعية العجيبة التي تتمتع بها . وهكذا نجد وتربورن مشغولاً تماماً بمحاولة الإحاطة بهذه الظاهرة المائلة وهي سلوك ديزي ، وفي متابعة نشاطه الذهني تبقى القصة حية مثيرة للاهتمام والسرور . وهكذا نرى أن شخصية ديزي تجمع بين جنباتها شيئاً يتندر وجوده في الحياة ، ولعل هذا ما كان يرى جيمس إلى تصويره وما يعنيه عندما قال إن هذا النمط « شعر خالص » . فبالرغم من أنها نشأت في بيئة غير مواتية هي المستولة عما في سلوكها من شطط وحماسة إلا أنها تتمتع بتلك البراعة وعدم التكلف التي تتميز بها الفتاة الأمريكية والتي تنقذها في النهاية من السوقية .

وقد وجد جيمس في موضوع الفتاة الأمريكية مجالاً خصباً يمتاز بالجدّة والنضارة ويتحمل التحديات الفنية في المجال الروائي ، فقد كان في جديتها وعدم تكلفها في وجه التقاليد وأنواع السلوك الاجتماعي الثابتة مجالاً للشعر والمسرح والمثاهة والمأساة ، فخلق على غرار ديزي ميلر عدداً من البطلات الأمريكيات الرائعات . وإذا كانت الفتاة الأمريكية في الأعمال الثلاثة الأولى السالفة الذكر موضوعاً للمثاهة الاجتماعية ، فبالرغم مما يثيره المثاهة فيها جميعاً من أمور جدية ، إلا أنها في الرواية التالية من أعمال جيمس وهي « صورة سيدة » تعالج على مستوى مختلف تمام الاختلاف . فهذه رواية مأسوية من الطراز الأول ،

(١) انظر مثلاً رأى ليفيز في الأول

F.R. Leavis, "The Great Tradition" (1960), p. 153.

ورأى ليونيل تريلنج في الثانية

Lionel Trilling, "The Liberal Imagination" (1961 edition), p. 61.

لسنوات كما لو كانوا ينجحون منها ، وهكذا يبدو وكأنه قد حكم على بالصحّة إلى الأبد .

من هذه « الأشياء الصغيرة الجيدة » درس المعلم ، « الكذاب » و « أوراق أسبيرن » . وفي عام ١٨٩٠ أصدر « ربة المأساة » ثم « التلميذ » ولكن دون أن يحدث أى تغير فى الموقف . ولكن هذا لم يقل من عزيمته جيمس إذ استمر فى العكوف على الكتابة مؤملاً خيراً فى الأيام المقبلة :

« ولكنى على أية حال لا أياس إذ أعتقد أنى أحسن حالاً مما كنت فى أية فترة أخرى من حياتى ، وما زلت أنوى القيام بأعمال كثيرة . ومن المحتمل أيضاً أن نرى المدفون كله سيرفس الشواهد المقامة على قبره ويبحث حياً دفعة واحدة يوماً ما » .

ولكن جيمس بالرغم من ذلك حاول الحرب من مصيره الذى كان يبدو محتوماً بأن كتب للمسرح عله ينال شيئاً من التقدير ويربح شيئاً من المال ، ولكنه سعى هذه المرحلة فيما بعد مرحلة « نشارة الخشب وقشر البرتقال » . كافح جيمس مع هذا النوع الأدنى حتى خيل له أنه تمكن منه . وأثارت بعض مسرحياته شيئاً من الاهتمام ، ولكن ما لبث جمهور المسرح أن انصرف عنه وفشلت المسرحية التى ظنّها خير مسرحياته « جاي دومفيل » فشلاً ذريعاً فى عام ١٨٩٥ .

وتعد هذه الفترة من أسوأ مراحل حياته الأدبية . عبر عن بعض ما عاناه فيها فى بعض قصصه مثل « موت الأسد » (١٨٩٤) ، « السنوات الوسطى » (١٨٩٥) و « المرة القادمة » (١٨٩٥) . وجميع أبطال هذه القصص كتاب مرهقو الحس يؤلمهم إغراض الجمهور العديم الحس ، كما يؤلمهم تماماً اهتمامه الخاطئ بهم . وجدير بالملاحظة أنه وإن صور هؤلاء الأبطال بعض نواحي شخصية جيمس إلا أنهم يختلفون عنه كثيراً أيضاً . ويعتقد النقاد أن هذه الأعمال قد أسهمت بقدر فى الإساءة لسمعته إذ أن هؤلاء الأبطال بإحساسهم

المرهف للدرجة قد تبلغ حد الشذوذ ورقهم وجمال أسلوبهم كانوا قريبى الشبه بأولئك الجمالين الذين كان ينظر إليهم بشيء من الاستنكار . ومن المتناقضات أنه بقدر ما كان لجيمس من قدرة على تصوير مثل هذه الاتجاهات بعنف وحيوية بقدر ما كان هو نفسه شخصاً مختلفاً تماماً .

ولا يسعنا إلا أن نعتبر فشل مسرحية « جاي دومفيل » حدثاً سعيداً إذ دفع جيمس إلى معاودة آماله ومحاولاته بالنسبة لعمله الأصيل وهو الكتابة الروائية ، ففى الفترة التالية وصل فنه إلى أقصى مراحل تطوره ونضجه .

وفى عام ١٨٩٧ أى بعد مرور عامين على فشل هذه المسرحية قام جيمس بعمل يكاد يكون رمزياً فى مدلوله . فقد أدار ظهره لمدينة لندن وحياتها الاجتماعية الحافلة وصلاتها العديدة واتخذ لنفسه بيتاً قديماً فى بلدة راي بمقاطعة سسكس حيث كرس حياته لعمله وفنه غير أن هذه العزلة لم تكن عزلة كاملة . فبالرغم من أنه رفض الانثناء إلى أية جمعيات أو منظمات أدبية ، بل واعتذر عن قبول شرف رئاسة الجمعية الأدبية الإنجليزية إلا أنه ظل محتفظاً بعضوية ناديه فى لندن كما ظل بابه مفتوحاً لاستقبال أصدقائه المقربين من كبار الأدباء والكتاب .

فاذا ألقينا نظرة سريعة على الأعمال الروائية التى تلت « أهل بوسطن » و « الأميرة كازاماسيا » لوجدنا جيمس يوجه اهتماماً خاصاً بالمواضيع الإنجليزية أولاً ثم يعود إلى موضوعه الأثير ألا وهو الأمريكى فى أوروبا . ولا يمكن القول بأن هناك نقطة بداية محددة لمرحلة اهتمامه بالمواضيع الإنجليزية فبعد « السائح الشغوف » تمضى سنرات قبل أن تستأثر هذه المواضيع باهتمامه ، وإن كانت هناك أمثلة لذلك مثل مشهد الافتتاح فى « صورة سيدة » وشخصية لورد واربرتون بها أيضاً ، إلى غير ذلك من أعمال مثل « الحدث الدولى » و « ليدى

باربارينا . إلا أن هذه الدراسات تزداد في النصف الثاني من الثمانينات وتسود في التسعينات كما في قصة « الشيء الحقيقي » (١٨٩٣) و « ربة المساء » (١٨٨٩ - ١٨٩٠) ، و « غنائم بوينتون » (١٨٩٦) و « السن الحرجة » (١٨٩٩) و « النافورة المقدسة » (١٩٠١) .

ويبدى جيمس معرفة تتسم بالدقة والعمق بطرق الحياة في المجتمع الإنجليزي ويتألبده وتزمت وأرستقراطية وماديتة وقيمته وحدوده . ولكنه بوجه عام لا يؤكد النقد الاجتماعي النوعي هنا ، إذ بينما يرى جيمس نقائص هذا المجتمع وعيوبه إلا أنه يرى فيه أيضاً « ثمرة من أنضج ثمار الزمن » . يقول جيفرسون « وإذا كان جيمس لم ينتم تماماً إلى المجتمع الإنجليزي فحد ذلك من عمله في بعض النواحي ، إلا أن ذلك أعطاه ميزة كبيرة ، إذ جعله أكثر قدرة على التركيز بحدة على بعض المميزات التي بدت له مركزية ونمطية ، وعلى بعض الشئون التي قد لا تلفت نظر الكاتب الإنجليزي أو التي قد لا ينظر إليها من وجهة نظر نقدية . . . ويمكن القول بأن جيمس قد صور بعض نواحي المشهد الإنجليزي تصويراً أكثر حيوية وذكاء مما فعله أي كاتب آخر » (١) .

أما الفترة الأخيرة من حياة جيمس الأدبية فتشمل ثلاثة أعمال هامة يعدها كثير من النقاد ذروة ما وصل إليه الفن الروائي من ناحية الأسلوب والصنعة الفنية ، لا يشذ عن ذلك سوى نفر قليل يفضلون عليها بعض الأعمال المبكرة مثل « صورة سيدة » و « أهل بوسطن » . وهذه الأعمال هي « أجنحة الحمامة » (١٩٠٢) ، « السفراء » (١٩٠٣) و « الكأس الذهبية » (١٩٠٤) هذا بخلاف عملين لم يتمهما جيمس ونشرا بعد موته هما « البرج العاجي » و « الاحساس بالماضي » (١٩١٧) .

بدا اهتمام جيمس بالحقائق النفسية والخلقية أو بما

يشار إليه عادة بالحياة الداخلية من بادئ الأمر . وإذا كان من الطبيعي أن تزداد رؤيته للحياة نضجاً وعمقاً بمرور الزمن ، فإن ما يلفت النظر بشكل واضح هو تطور أسلوبه الفني وما يضيفه ذلك على أعماله من إحساس بالعمق وصدق الرؤية وإدراك لدقائق المشاعر والانطباعات . يبدو ذلك واضحاً أشد الوضوح إذا قارنا « ميدان واشنطن » مثلاً « بصورة سيدة » فهما تعالجان موضوعاً متشابهاً بعض الشيء . ولعل أهم ما يلفت النظر أن جيمس استمر فترة طويلة يستخدم الطريقة التقليدية في كتابة رواياته . ولكننا نلاحظ تطوراً في أسلوب التعبير الفني حتى قبل أن يبدأ في استخدام أسلوب « وجهة النظر » القائم على الاعتماد على « وعى مركزي » ، و « عنصر موحد » كما هو الحال في « السفراء » ، ويتطور أسلوبه الفني ازداد أسلوبه اللغوي تعقيداً وتكاثر الصور اللفظية وزاد الاعتماد على الرمز . وكأنما أصبح هدفه الأول الوصول بعمله عن طريق جميع الوسائل المختلفة إلى الكمال الفني الذي يستحقه موضوعه . ولا يفوتنا الإشارة هنا إلى ما يؤكد ليفز من أن أعمال جيمس اتسمت منذ البداية بالنضج والتكامل الفني ، وإن تفاوتت درجاتها ، ووصلت إلى أعلاها في أعماله المتأخرة كما يرى غيره من النقاد .

« صورة سيدة » (١٨٨١) (١)

تعد « صورة سيدة » من خير أعمال جيمس وأنجحها فهي تتسم بكل ما يميز عمله من صفات فنية لم يفسدها بعد إصرافه في الصنعة والاهتمام بمسائل البناء والأسلوب الذين بلغا مبلغاً في أعماله المتأخرة جعل فهمها ومتابعتها أمراً شاقاً على القارئ العادي بل وأضعف — كما يذهب بعض النقاد — الإحساس بالحياة في هذه الأعمال :

(١) ظهرت « صورة سيدة » أولاً في شكل سلسلة في الولايات المتحدة في « مجلة ماكليان » (أكتوبر ١٨٨٠ - نوفمبر ١٨٨١) وإجمالاً في مجلة « أتلانتيك مثنل » (نوفمبر ١٨٨٠ - ديسمبر ١٨٨١) .

(١) المرجع المذكور أعلاه ص ٦١ .

أما هنا فنجد مثلاً رائعاً لتلازم الفن والحياة الذي نادى به جيمس ، كما نجد درجة رفيعة من الفنية وروعة التصوير وثرأه الأسلوب .

كان جيمس يهتم اهتماماً كبيراً بالشكل الفني لأعماله ويسعى نحو الكمال في تنفيذ فكرته بكل ثراء ووضوح ، ولذا نراه يعنى عناية خاصة ببناء قصته ويستبعد منها كل ما لا يمت إليها بصلة الحتمية . وهو إلى جانب ذلك يفضل التصوير أو تقديم المشاهد الحية على الاعتماد على السرد أو تلخيص الأحداث ، كما يؤمن بضرورة تحميل نسج القصة كل ما يرغب في نقله للقارئ دون تدخل من جانبه . ولذلك فهو يسعى إلى الاستفادة بكل إمكانيات فنه وأن يستخلص من كل مشهد أو حدث أقصى ما يمكن استخلاصه من تأثير . قوام ذلك كله شخصيات واضحة متميزة نابضة بالحياة ، ذات وعى رائع وضمائر حية متيقظة ، شخصيات تتكشف أمامنا عن طريق الحدث والديالوج ، بل وعن طريق التأمل الذاتي الذي كثيراً ما يتسم بسمة الحدث الذي يخطو بالقصة خطوات إلى الأمام ، وقدرة بالغة على تصوير الأحداث والأماكن تصويراً تجسيمياً بأسلوب معبر غنى بالصور اللفظية ، يتبع حركة الفكرة ويكون جزءاً لا يتجزأ من مادة الرواية وبنائها .

وتتميز « صورة سيدة » إلى جانب ذلك بأنها تجمع بين جنباتها أكثر من موضوع من الموضوعات التي شغلت اهتمام جيمس طيلة حياته الأدبية ، إذ نجد هنا مثلاً رائعاً للفتاة الأمريكية مما تتميز به من صفات ، كما نجد الموضوع العالمى الذي يتلخص في علاقة الأمريكي بأوروبا يلف الرواية ويكون أحد عناصرها الهامة . كل ذلك في قصة يمكن اعتبارها قصة عن الزواج أو الحرية أو القدر .

« فصورة سيدة » قصة فتاة أمريكية ذكية جميلة مرفهة الحس مستقاة الشخصية تواقه إلى المعرفة ، تؤمن

بحريتها ونعتقد أن الحياة شيء جميل مضيء وأنه ما على المرء إلا أن يستمتع بحريته ليختبر الحياة ويحيا حياة كاملة ، ويحصل على المعرفة والسعادة وتحقيق الذات . ولكنها سرعان ما تكتشف خطأها عندما تقع فريسة خدعة كبيرة في الوقت الذي كانت تظن أنها تمارس حريتها وتختار لنفسها الحياة التي تريدها والتي ترى فيها تحقيقاً لكل آمالها في الحياة الحرة والمعرفة الحقة .

تنشأ إيزابيل آرثرش بطللة هذه الرواية ، كما نعرف من مجرى القصة ، في ولاية آلبنى بالولايات المتحدة في أسرة لا يؤمن ربها بالشدة والصرامة في تنشئة بناته فتتبع هذه الابنة منذ صغرها بقسط وافر من الحرية حتى بالنسبة للفتاة الأمريكية العادية التي لا تنقيد بالتقاليد الاجتماعية الأكثر صرامة والتي تلزم بها الفتاة الأوروبية أو الفتاة الإنجليزية في ذلك الوقت بوجه خاص .

وتبدأ الرواية بذهاب إيزابيل آرثرش إلى أوروبا بصحبة خالة ثرية لها تتوسم فيها الذكاء والاستقلال فتقرر منحها فرصة زيارة عدد من البلاد الأوروبية ، وتحل بها أولاً في إنجلترا في منزل زوجها مبستر تنشيت الذي يعيش معظم الوقت بصحبة ابنه الوحيد . رالف بينما تعيش الزوجة بمفردها في منزل لها بإيطاليا فيها عدا فترة قصيرة من كل عام تزور فيها زوجها وابنها . ثم تصطحبها إلى باريس ثم إلى إيطاليا . وتسعد الفتاة برحلتها وبلقائها بعدد من الناس وبنجاحها الاجتماعى . وتمارس إيزابيل حريتها في رفض خطيبين يتقدمان لها مفتونين بجالها وذكائها وشخصيتها ، أحدهما نبيل إنجليزى يتمتع بالذكاء والوسامة والثراء والجاه وكرم المحند ، والآخر رجل أعمال أمريكى شاب يحبها منذ فترة طويلة ، ولكنها ترفضهما معتمدة دون شك على أن في الحياة مجالاً لأشياء أفضل . ويرى ذلك ابن خالتها رالف تنشيت ، الذي يحبها بدوره ولكن يمنعه المرض بداء الصدر من أن يبوح لها بحبه ، ويدرك أنها لا يمكن أن تتمتع بكامل حريتها واستقلالها مع فقرها ، فيقنع والده

إلى أعلى مراتب الكمال ولتطور هذا الفن على يديه ،
مما لا نستطيع شرحه هنا بالتفصيل ، فهي تلقى لنا بكثير
من الضوء على الروايات الفردية التي قدم لها وعلى
طريقة معالجته لها والأسلوب الفني الذي اتبعه في كل
منها .

يقول جيمس في مقدمته « لصورة سيدة » التي
كتبها في عام ١٩٠٨ أى بعد حوالى عشرين عاماً من
كتابة الرواية نفسها :

« إننى عندما أحاول أن أستعيد هنا البذرة الأولى
لهذه الرواية أرى أنها لم تتكون إطلاقاً من فكرة
حبكة - هذا اللفظ الشرير - أو في وميض من الخيال ،
أو في مجموعة من العلاقات أو في أحد هذه المواقف
التي تبدأ على الفور عن طريق منطق خاص بها في الحركة
أمام عين القصاص ، في مسيرة عسكرية أو في حركة
اندفاعية ، في قفزة من الخطوات السريعة ، بل تكونت
في الإحساس بشخصية واحدة : شخصية ومظهر شابة
معينة فائقة ، شخصية كان لا بد وأن يضاف إليها جميع
العناصر العادية اللازمة للموضوع » ، وللمشهد
بالطبع « (١) » .

ويوضح جيمس أنه كان - مثله في ذلك مثل
صليقه الروائي الروسي المعروف إيفان ترجنيف -
يحس أول ما يحس بالشخصيات التي تحوم حوله وتشد
انتباهه وليس بالمشهد الذي ستظهر فيه هذه الشخصيات ،
وأنه لم يكن يستطيع التفكير إلا قليلاً في أية قصة لا تحتاج
أولاً إلى أشخاص يدفعون بها إلى الأمام ولا التفكير في
أى موقف لا يعتمد في إثارته للاهتمام على طبيعة
الأشخاص وعن طريق ذلك على طريقة سلوكهم في
هذا الموقف .

ويشرح جيمس كذلك أن نوع ودرجة إحساس
الفنان بموضوعه لها أهمية خاصة إذ يعدا التربة التي سينبثق

أن يترك لها الجزء الأكبر من الثروة التي كان سيورثها
له على أن يكفى هو بجزء صغير منها ، ممتناً للنفس
الاستمتاع بمشاهدة إيزابيل وهي تنصرف بحرية في
حياتها بعد أن كفل لها الثراء والاستقلال المادى . ولكن
إيزابيل تخيب أمله عندما تقع - رغم ذكائها وفطنتها
وما تعتقد أنها تتمتع به من قدرة على فهم الناس والتميز
بينهم - في شرك تنصبه لها امرأة أمريكية مستوطنة في
أوروبا هي مدام مرل وعشيقها السابق ، الفنان الأرملة
الفقر جيلبرت أوزموند . وهكذا نجد إيزابيل التي
تؤمن بحريتها وتسعى للاحتفاظ بها فترفض لورد
واربرتون ثم كاسبار جودودود تقع فريسة هذه الجرية
والثالية . تظن إيزابيل أنها وجدت بغيتها في هذا
الرجل الذي ترى فيه إنساناً حراً وفناناً أصيلاً يمكنها أن
تساعده بمالها فتكتشف بعد زواجها أنه إنسان محب
للذات ، عبد للتقاليد ، ومافته ووجهه للحرية وتعالیه
على التقاليد إلا خداع وادعاء ، وأنه ما تزوجها إلا لمالها
وما سيكفله لا بنته من عشيقته مدام مرل من نصيب
محترم يكفل لها زواجاً ممتازاً .

وقبل أن نتابع أحداث هذه المأساة لنرى كيف
تسلق إيزابيل عندما تكتشف حقيقة شخصية زوجها
وتخدعها الكبرى ، لتجد نفسها في عالم مظلم ومجن
ضيق خائى ، وكيف تحقق المعرفة الذاتية التي كانت
تنقصها بعد أن تدفع ثمن تفاؤلها ومثالياتها ورومانسياتها
غالياً ، لتتوقف برهة لتدرس كيف يقدم لنا جيمس
هذه القصة وكيف يعالجها فنياً .

كتب جيمس في الجزء الأخير من حياته ثمان عشرة
مقدمة لبعض أعماله الروائية التي أعيد نشرها في طبعة
نيويورك . وتعد هذه المقدمات في مجموعها مرجعاً هاماً
في فن الرواية وتضارعات في أهميتها في رأى أحد النقاد
« فن الشعر » لأرسطو في مجال النقد الأدبي . وبالإضافة
إلى أهميتها كتعبير صادق عن كثير من آراء جيمس في
فن الرواية وكوصف لمحاولته للبلوغ بهذا الفن عملياً

(١) أنظر "Views on the Art of the Novel" ،
p. 252.

منها هذا الموضوع وتمثل هذه التربة وقدرتها على أن تنبت القصة بالقوة اللازمة والاستقامة اللازمة رؤيا الفنان الخلقية للحياة بقوتها أو ضعفها .

أما بالنسبة « لصورة سيدة » فقد كانت الخطوة الأولى في سبيلها هي « إمساكي بهذه الشخصية الواحدة التي تملكني منذ فترة من الزمن » . فقد كان من الكافي أن يبدو لي أنني كنت أملكها تماماً وقد تملكها لمدة طويلة من الزمن جعلتها مألوفة تماماً لي وإن لم يقل ذلك من سحرها ، فقد كنت أراها بكل وضوح وإيلا م متحركة متقلبة . وهذا يساوي قولي إن رأيتها مصممة على مصيرها - مصير ما - أما أي مصير من بين هذه المصائر الممكنة فقد كان هذا هو السؤال الذي يشغلني . وهكذا كان في حوزتي هذا الفرد المتميز - المتميز بدرجة قوية - بالرغم من كونه ما زال طليقاً وغير مقيد بظروف معينة ، وغير مغموس في الحومة التي ننظر إليها عندما نبحث عن الكثير مما يميز شخصية مثل هذا الفرد (١) .

ذلك إذن هو موضوع « صورة سيدة » . والسؤال الآن هو ما الأسلوب الفني الذي صور به جيمس هذا الموضوع ؟

وللإجابة على هذا السؤال يمكننا الإشارة أولاً إلى قول لجيمس يعبر خير تعبير عن موقف الفنان الجاد من فنه واهتمامه وعكوفه على تقديم موضوعه في خير صورة فنية . يقول جيمس : « إن إحساسي بقيمة هذه الصورة لطبيعة أنني شابة - كانت تحت يدي طيلة هذه المدة - هو الذي جعلني أرغب رغبة دينية في أن أضع (كنزى) في المكان الصحيح . وهذا يذكرني ببائع العاديات الذي يفضل أن يحتفظ بالقطعة الثمينة في حوز حريز ، مهما كلفه ذلك ، على أن يبيعها لأيد لا تعرف قيمتها » .

(١) ص ٢٥٧ .

ثم يستطرد جيمس موضحاً أن النقطة الهامة هي أن حجر الزاوية الصغير الوحيد هذا كان كل ما يملك من عتاد لهذا البناء الكبير « لصورة سيدة » ، والذي صار منزلاً مربعاً فسيحاً ، وبناءً مقاماً بكفاءة هندسية فائقة ، بل إن ما يثير الاهتمام حقاً هو أن هذا البناء كان لا بد له أن يوضع حول هذه الشابة بينما تقف هي في عزلة تامة ، « فبأي عملية منطقية إذن كان لهذه الشخصية الضئيلة التي لا تعدو أن تكون ظلاً رقيقاً لفتاة ذكية جريئة أن تجرد نفسها وقد أضفيت عليها كل الصفات الرفيعة التي تجعل منها موضوعاً لرواية ؟ » ، فالرواية بطبيعتها « عملية حول شيء ما » .

والسؤال الآن هو هل كان من السهل أن تصبح إيزابيل آرتشر موضوعاً لرواية ؟ ولعل هذا السؤال يتضمن بدوره سؤالين آخرين هما : أولاً هل لهذه الشخصية من الأهمية ما يجعلها أهلاً لهذا الاهتمام ؟ وثانياً ليس الاهتمام بها أو وضعها في مركز الاهتمام عملاً شاقاً صعباً ؟ وكأن جيمس يجيبنا على هذين السؤالين بقوله : « لقد أمعنت النظر في هذا الإصراف فكانت النتيجة أن أدركت سحر هذه المشكلة ، فأنت إذا تبصرت أية مشكلة بذكاء لأدركت بسرعة أنها مفعنة بالقيمة . أما العجيب هنا فهو كيف تنمusk الشابات من أمثال إيزابيل آرتشر ، بل والكثيرات ممن هن أقل منها شأنًا بكثير بأنهن ذوات قيمة كبرى » .

ولعل جيمس يكشف لنا هنا عن سر اهتمامه بالشخصيات النسائية في أعماله ، فالمرأة تلعب دوراً هاماً في كثير منها . وكأنه يجيب على سؤالنا الأول عندما يشير إلى قول الروائية جورج إليوت : « إن هذه الآنية الضعيفة تحمل بين جنباتها على مر العصور كنز المحبة الإنسانية » ثم يضيف مؤمناً على ذلك بقرله إنه في مسرحية شكسبير « روميو وجولييت » يجب أن تكون جولييت ذات أهمية كبيرة كما أنه في « آدم بيد » و « ميد لمارش » و « دانيال ديروندا » وغيرها من أعمال

جورج إليوت يجب أن تكون شخصياتها النسائية مثل هيتي سوريل وروزاموند فينسي وجونندولين هارليث شخصيات هامة أيضاً . ثم يضيف وكأنه يجيب على سؤالنا الثاني قائلاً : ولكن هذه الشخصيات تمثل أنمطة من الصعب وضعها في مركز الاهتمام ، بل يمكن القول إن هذه الصعوبة بلغت حداً جعل كتاباً كبيراً مثل ديككنز ووالتر سكوت ، بل وروبرت لويس ستيفنسون يفضلون الإحجام عن محاولة ذلك . بينما يحمي كتاب آخرون وراء القول بأن هذه المحاولة لا تستحق القيام بها وإن كان هذا لا ينقذهم من اللوم ، إذ أن ضعف شعور الفنان بشيء ما لا يبرر تصويره له على أسوأ ما يكون التصوير^(١).

وتتضح الصعوبة عندما نرى - كما يشير جيمس - أنه حتى في حالة شكسبير وجورج إليوت فإن تسليمهما بأهمية جولييتاتهم وكليوباتراتهم يعانى من أن تلك الرقاقات عندما تظهرن كالدعائم الأساسية للموضوع فإنه لا يسمح لمن مطلقاً بالاستئثار بأثارة الاهتمام ، بل يكمل نقصن عن طريق « المساعد الفكاهي » والحبيكات الثانوية كما يقول كتاب المسرح إن لم يكن كلية بحرائم القتل والمعارك والانقلابات العالمية . وإذا أظهرن على أن هن أهمية خاصة إلى أقصى حد ممكن فإن الدليل على ذلك يوجد في مئات من الأشخاص الآخرين الأكثر قوة والذين لهم مئات من العلاقات الأخرى الهامة بجانب علاقتهم الواحدة بهذه الشخصيات النسائية ، كما هو واضح في حالة بطلات شكسبير مثل كليوباترا ، وبورشيا في مسرحية « تاجر البندقية » . ولعل ذلك أكبر دليل على صعوبة المشكلة التي واجهتها جورج إليوت عندما جعلت من آنيها الرقيقة إن لم تكن المركز الكلي من الانتباه فقد جعلت منها على الأقل أكثر مراكز الاهتمام وضوحاً واستثارة .

وهكذا نرى أن « سحر هذه المشكلة » كان يكن دون شك بالنسبة لجيمس في صعوبتها ، تلك الصعوبة التي تجذب انتباه الفنان الجاد وتشغذ همه . فلقد كان من الممكن أن يتجنب تلك الصعوبة وأن يركز اهتمامه لا على هذه الآنية الرقيقة ، بل على علاقتها بالآخرين مثلاً ، ولكنه رفض هذا الشكل بإباء وصمم على البحث عن أصعب الطرق لمعالجته . فهو يحدث نفسه قائلاً :

« لتضع مركز الموضوع في وعى هذه الفتاة نفسها فتحصل بذلك على صعوبة شائقة جميلة بقدر ما تريد . عليك أن تلتزم بذلك - بمركز الاهتمام - ضع الثقل الأكبر في تلك الكفة التي ستكون لحد كبير كفة علاقتها بنفسها . واجعلها تتم بالقدر الكافي فقط ، في نفس الوقت ، فيما يعدو ذاتها من أشياء ، ولا نخشى من أن تجعل هذه العلاقة محدودة جداً . وضع أثناء ذلك في الكفة الأخرى الثقل الأقل وزناً (ذلك الثقل الذي يرجح عادة كفة ميزان الاهتمام) ولتضغط أقل ما تضغط ، باختصار ، على وعى اتباع بطلتك ، وخاصة الذكور منهم ، واجعل من ذلك مجرد مركز اهتمام يسهم في أهمية المركز الأعظم . ولتر على أى حال ما يمكن فعله بهذه الطريقة . وهل هناك مجال أفضل للمهارة اللازمة ؟ إن الفتاة تحلق بشكل لا يمكن اخفائه كمخلوق فائن ، وستكون المهمة ترجمتها إلى أسمى عبارات هذه التركيبة ، وبقدر الإمكان علاوة على ذلك إلى التركيبة كلها . فإذا اعتمدت عليها وعلى شئونها الخاصة اعتماداً كلياً فعليك أن تذكر أن ذلك سيوجب عليك أن تصورها أو أن « تفعلها » بحق : really "doing" her ، كما كان يحلو لجيمس أن يصف عمالية التصوير الفني^(١).

وهكذا نرى كيف استطاع جيمس عن طريق تلك الصرامة الفنية المنظمة الرفيعة التي ألزمها أن يقدم على تلك المساحة من الأرض كومة متناسقة من اللبنة التي تكون من الناحية البنائية أثراً فنياً رائعاً . كذلك فقد كان مصمماً بالرغم من إدراكه لضرورة وضع هذه اللبنة لبنة لبنة ألا يدع مجالاً لشيء يخرج عن المستوى أو المحال الذي اختاره ، وبالرغم من ذلك فإنه — باعترافه — لم يأل جهداً للترفيه عن القارئ : « ولعل هذا هو المشول عن تطور قصتي بما فيها من تعقيدات . فقد كان من الجوهرى أن تكون هذه الفتاة شخصية متعددة الجوانب — كان هذا على الأقل هو الضوء الذي رأيتها فيه — غير أنه كان لا بد من أضواء أخرى متضاربة متصارعة ، وذات ألوان مختلفة . . لاستخدامها لإثبات ذلك . . . وهكذا وجدت نفسي ذات صباح وفي حوزتي جميع تلك الشخصيات الأخرى اللازمة للمساهمة في تاريخ إيزابيل آرثرش . . لقد عرفت فيهم الأجزاء الملموسة لحيكتي » .

أما الآن فلنحاول تتبع كيف حقق جيمس هذه الخطة الفنية في الرواية ذاتها :

أدرك جيمس من بادئ الأمر أن عليه أولاً أن يثبت شخصية بطلته وأن يكشف للقارئ عن حقيقتها ويرسي قواعد علاقاتها بمن حولها ، قبل أن يقذف بها في معمة الدراما الإنسانية التي تزلزل كيائها النفسى والعاطفى ، فقفى وقتاً طويلاً في بداية الرواية للتعريف بها لا عن طريق السرد أو الخبر ، بل عن طريق المشهد الحى والكشف عن الكثير مما يدور بوعيا أو بوعى الآخرين بخصوصها .

قدم لنا أولاً صورة واضحة زاهية للمنزل الريفى القديم الذى ستزول به إيزابيل عندما تحل بالإنجلترا وقدمنا إلى ثلاثة رجال يتلقى اثنان منهما نبأ وصولها في برقية مقتضبة ترسلها زوجة أحدهما — ووالدة الآخر — من أمريكا قائلة إنها ستحضر معها ابنة أخت « مستقلة »

ويعجب الرجال لهذا القول لا يدرون ماذا تعنى مسر تثبت بكلمة « مستقلة » ، اتعنى الاستقلال الاقتصادى أو استقلال الشخصية . ومنذ البداية نجد إشارات عابرة إلى شخصية مسر تثبت ذاتها أيضاً ، فنعلم أنها امرأة شاذة نوعاً ما في معاملتها للناس وفي ميلها إلى الاستقلال والاعتماد على النفس ونكتشف في ذلك أحد أسباب اهتمامها بإيزابيل التي تشبهها في بعض النواحي :

ولكن جيمس يسعى قبل أن يلقى لهؤلاء الرجال بهذا النبأ إلى التعريف بهم . أما الأول وهو رجل مسن يجلس في ظل شجرة كبيرة مغطياً قدميه بغطاء من الصوف ، فيبدو من تقاسم وجهه أنه أمريكى لم يغير كثيراً من طريقة حياته الأمريكية بالرغم من الثلاثين عاماً التي قضاها في إنجلترا ، كما يبدو أنه رجل طيب كريم على معرفة بطباع الناس وخلقهم :

« لا بد أنه عرف كثيراً من الرجال وإن كان وجهه يلم باقتسامه الباهتة عن بساطة تكاد تكون ريفية ، تلك الابتسامة التي تبدو على وجهه الواسع الحاد وقضى عينه المرححة وهو يضع يبطء وعناية فنان الشاى على المنضدة . كان حسن المندام في حلة سوداء ، يغطى رجله بغطاء مطبوع ويلبس في قدميه شيشياً سميكاً مطرزاً . وجلس على الحضرة بجواره كلب « كولى » جميل يلاحظ وجه سيده بنفس الدقة التي ينظر بها هذا السيد إلى البيت الذى يبدو أكثر جلالاً ، بينما كان كلب آخر يوزع اهتمامه بين الرجلين الآخرين » .^(١)

أما الرجلان الآخران فأحدهما « رجل قوى البنية بشكل ملحوظ في الخامسة والثلاثين من عمره يبدو وجهه إنجليزياً بقدر ما يبدو وجه الرجل المسن شيئاً آخر . يتمتع برجه وسم نضر صريح ذى تقاطيع مسقيمة ثابتة ، وعين رمادية اللون تبدو فيها الحبيوية ، ولحية

(١) « صورة سيدة » (طبعة أكسفورد ، ١٩٦٢) ص ٢ من الآن فصاعداً سنشير إلى رقم الصفحة من هذه الرواية بعد الفقرة المستقاة من النص مباشرة .

غزيرة كسنتائية: وكان هذا الشخص يبدو سعيداً لامعاً غير عادي - يشع حوله جو من الزواج السعيد الذي أخصبته حضارة رفيعة - جو يجعل كل من يراه تقريباً يحسده. أما صاحب: فكان مختلفاً تمام الاختلاف وبالرغم مما قد يثيره من حب استطلاع قوى فانه على العكس من الآخر لم يكن ليثير في نفس المرء تلك الرغبة العمياء في أن يجد نفسه مكانه. كان طويل القامة نحيلاً، يبدو عليه ضعف البنية وتفككها - له وجه قبيح، مريض، ذكي، فاتن، ولحية وشارب لا يزيدان من جماله بشكل من الأشكال. كان يبدو ذكياً ومريضاً وهما صفتان لا تبدوان متفقتين (ص ٤).

ومن حديث الرجال الثلاثة يبدو أن الأول وهو لورد واربرتون يدعى السأم بينما يميل الثاني وهو رالف تنشيت إلى السخرية من الأشياء وعدم الثقة بها، ولكنه بالرغم من مرضه دائم المرح ومحاولة التخفيف عن والده المريض الذي يعتقد بدوره أن ابنه لم يتمتع قط بفرصته في الحياة، بالرغم من مرجه الدائم.

ويتطرق الحديث تدريجياً إلى موضوع الزواج فيقول الأب للورد واربرتون إن خير علاج للملأه أن يجد لنفسه امرأة ويتزوجها «إن السيدات هن اللاتي سيخلصننا - غير أني أعني خير السيدات، لأنني أفرق بينهن - تقرب من امرأة طيبة وتزوجها فتصبح حياتك شاققة أكثر مما هي الآن». ذلك بالرغم مما يعلمه ابنه وصديق خبر العلم من أن تجربته هو في الزواج لم تكن ناجحة تماماً. ويحذر مستر تنشيت لورد واربرتون بتصميم وفي شيء من المزاح من التفكير في الزواج من ابنة أخت زوجته. ويعجب لورد واربرتون لذلك لجهله بوجود مثل هذه الفتاة فيخبره صديقه بأمر البرقية التي أرسلتها الخالة من أمريكا: يقول مستر تنشيت:

«يجب ألا تفكر في هذه الفتاة إذ قد لا تصلح لأن تكون زوجاً صالحاً... أو ربما تكون هي مخطوبة فعلاً». وإن لم تكن مخطوبة فهو يرجو ألا تكون قد

جاءت بحثاً عن زوج. ويعد لورد واربرتون تحذير مستر تنشيت قسوة من جانبه ولكنه يقول:

«من المحتمل جداً أن تكون مخطوبة، لقد عرفت كثيراً من الفتيات الأمريكيات وكن دائماً مخطوبات، وإن لم أجد مطلقاً أن هذا يغير من الأمر شيئاً. أما عن كوني زوجاً صالحاً فاني لست متأكداً من ذلك. على كل يمكن للمرء أن يحاول»

ولكن الأب يقول بابتسامة: «حاول كما يحلو لك ولكن لا تحاول مع ابنة الأخت هذه». وتبدو معارضة للفكرة معارضة مقرونة بشيء كبير من الفكاهة:

ويحتم اللورد، بقدر أكبر من الفكاهة «ربما تكون في النهاية لا تستحق المحاولة» (ص ١١).

وببداية الفصل الثاني نعلم أنه بينما كان مستر تنشيت وضييفه يتبادلان هذا الحديث، بغتة يرى رالف تنشيت الذي كان يتجول قليلاً في الحديقة - فتاة غريبة تقف عند مدخل المنزل ويجري نحوها كلبه وهو ينبع نباحاً يرم عن الترحيب أكثر مما يرم عن شيء آخر، ويلحظ رالف كيف تترك الفتاة بسرعة ترحيب الكلب فتتحنى لتلتقطه دون تردد بينما يستمر هو في ثرثرته. ويرى رالف أنها فتاة طويلة القامة ترتدى ثوباً أسود وتبدو جميلة لأول وهلة ويعجب رالف لهذا الأمر إذ يعلم أن المنزل قلماً يرتاده الضيوف نظراً لمرض الأب، وبراهم الرجال الآخرين في نفس الوقت ويتساءلان من تكون، بينما يتقدم رالف نحوها فتسأله وهي ما زالت تحمل الكلب الصغير «هل هذا كلبك يا سيدى؟» فرد قائلاً «لقد كان كلبى منذ لحظة ولكنك تبدين بغتة وكأنه تملكينه».

فرد قائلة «ألا يمكن أن نشترك فيه؟ إنه في منتهى اللطف».

وينظر إليها رالف فيجد أنها جميلة جداً، فيقول «يمكنك أن تعتبره ملكاً لك كلية».

ويلاحظ أن الفتاة تتمتع بثقة كبيرة بنفسها وبالناس ولكن هذا الكرم المفاجئ من جانبها يدفع حمرة الخجل إلى وجهها فتقول « يجب أن أخبرك أني في الغالب ابنة خالك » .

فرد قائلا « في الغالب » ثم يردف وهو يضحك « كنت أظن أن الأمر مؤكد ! » .

وتخبره الفتاة بأنها وصلت منذ نصف ساعة مع والدته التي تطلب إليه أن يذهب لرويتها في الساعة السابعة إلا ربعا . فيشكرها ويرحب بها . ويلاحظ رالف أنها :

« كانت تنظر إلى كل شيء بإدراك واضح - إلى رفيقها وإلى الكلبين وإلى الرجلين اللذين يجلسان تحت الأشجار - وإلى المنظر الجميل الذي يحيط بها » ، ثم تقول « لم أر في حياتي أجمل من هذا المكان . لقد تحولت في جميع أنحاء المنزل . إنه منزل ساحر بلدرجة غير معقولة » . (ص ١٢) .

وعندما تسأله عن رفيقه يخبرها أن أحدهما والده والآخر صديق لها هو لورد واربرتون ، فتبدى سعادة قائلة « لقد كنت أرجو أن يكون هناك لورد . إن هذا تماما كما في الروايات » . ويعتذر رالف لأنه لم يعرف بوجودها قبل ذلك ويشير إلى أن والده مريض ثم يأخذها ليقدمها له فيستقبلها الأب بلطف وطيبة كبيرين . وتبدو إيزابيل ذكية ، سعيدة بماترى ، خالية من التكلف ، فعندما تعلق على جمال المنزل ويرد الأب مجابلا بقوله إنها هي جميلة أيضاً ، تجيب دون تكلف : « نعم إنى جميلة » .

ثم يلي ذلك حديث بينها وبين رالف الذي يتوق إلى مواصلة الحديث معها . يعجب رالف لعدم تقابلها من قبل فتخبره أن السبب هو خلاف نشب بين أبيها وخالتها بعد وفاة والدتها ولكن خالتها قد عادت فزارتها بعد وفاة والدها ثم تضيف :

« لقد كانت لطيفة جداً معنى . واقترحت أن أذهب معها إلى أوربا » .

ويرد رالف « فهمت ، لقد تبنتك » .

« تبنتى ؟ » وتحمل الفتاة بينا تعود الحمرة إلى وجهها تصحبها نظرة سريعة ثم عن الألم ، ينزعج لها محدثا . لقد أساء تقدير وقع كلماته . وأثناء ذلك يقرب لورد واربرتون الذي كانت تلح عليه الرغبة في رؤية إيزابيل عن قرب . وتستقر عينا إيزابيل المتسعتان عليه ثم تقول « آه ، كلا ، إنها لم تبنتاني - إنى لست مرشحة للتبني » . ويتمم رالف « إنى في شدة الأسف - لقد كنت أعنى - أعنى - » ولم يكن يعرف تماماً ما يعنى . « كنت تعنى أنها أبدت اهتماماً بي ، أنها أخذت بيدي . نعم ، إنها تحب أن تتم بالناس وتأخذ بيدهم . لقد كانت لطيفة جداً معى ولكن » ثم أضافت برغبة بادية في الإيضاح . « ولكنى شغوفة جداً بريقى » .

« أتحدثون عن مسز تشيت ؟ » هكذا ابتسروهم الرجل المسن من كرسيه « تعالى هنا يا عزيزتى وحديثي عنها . . . إنى دائماً شاكر لأية معلومات أتلقاها عنها » .

وترددت الفتاة قليلا مبتسمة ثم أجابت « إنها حقاً طيبة جداً » ثم ذهبت لزواج خالتها الذي داعبته كلماتها . أما لورد واربرتون فظل واقفاً مع رالف تشيت ثم قال له بعد برهة « لقد كنت ترغب منذ وقت قصير في أن تعرف فكرتى عن امرأة تثير الاهتمام . . . ها هي ذى ! » . (ص ١٧ ، ١٨) .

ومنذ البداية نجد تركيزاً على فكرة الحرية والاستقلال ، في برقية مسز تشيت أولاً وفي كلمات إيزابيل ذاتها ثانياً ، ثم من فم مسز تشيت في حديثها مع رالف .

وهكذا يقدم لنا جيمس بطلته عن طريق هذه المقابلة بينها وبين عدد من الشخصيات التي ستلعب دوراً هاماً في حياتها والتي تبدو سريعة التأثير بها وباستخلاص الكثير عنها في هذه اللحظات القصيرة التي تعرفها فيها . فنحن نلاحظ كيف يظهر الأب ميلاً لها منذ اللحظة الأولى وكيف تثير اهتمام الشابين الذكيين لورد واربرتون

ورالف تشيت ، كما نلاحظ اعتدادها بنفسها وبجمالها واهتمامها بكل ما حولها .

وينظم جيمس مادته في شكل عدد من المشاهد التي تلقى مزيداً من الضوء على هذه الفتاة . فياخذنا أولاً إلى الوراء (الفصل الثالث) ليقدم لنا مشهد المقابلة الأولى بين الخالة وابنة أختها - وذلك بعد أن يعرفنا بهذه الخالة - ثم يرينا كيف رأت هذه السيدة ما أعجبها في هذه الفتاة الغريبة الضربحة التي تفضل قضاء وقتها بمفردها في غرفة داخلية « حبيس » بعيدة عن بقية المنزل والتي تبادر خالتها عندما تعرفها بنفسها بقولها « لا بد أنك خالتي المخنونة » ، أو التي ترد عندما تقول لها الخالة :

« إذا عرفت أنك ستكونين مطيعة وتفعلين كل ما أمرك به فساخذك إلى فلورنسا » .

« أفعل كل ما تأمريني به ؟ لا أظن أنني أستطيع أن أعد بذلك » .

« لا ، إنك لا تبدين من هذا النوع . إنك تفعلين ما تريدن . ولكني لا أستطيع أن أؤمك على ذلك » .

« ولكن مع ذلك ، فالذهاب إلى فلورنسا يجعلني أعد أن أفعل أي شيء تقريباً » (ص ٢٧)

ثم يأخذنا جيمس إلى حضرة أخت إيزابيل وزوجها (الفصل الرابع) ليسمعنا كيف يتحدثان عن إيزابيل . أما الأخت فتتوق إلى زواج أختها التي تراها فتاة ذكية شغوفة بالقراءة والمعرفة وأن كل ما تحتاج إليه هو الفرصة المواتية . ولكن الزوج يرى أن إيزابيل آخر فتاة يمكن أن يفكر في الزواج منها وأنه لا يفهمها . ويضيف أن آخر ما تحتاج إليه هو فرصة تجعلها تنمو وتتطور أكثر مما هي . ويحتم الزواجان حديثهما بالقول بأن إيزابيل دون شك تشعر بالعظمة منذ زارتها خالتها ، ودعتها للسفر معها إلى أوروبا . . .

ثم ينفذ بنا جيمس إلى ذهن إيزابيل نفسها لثري تأثير دعوة خالتها عليها واستجابتها لتلك الفرصة الرائعة في فقرة من فقرات الرواية الممزة :

« سواء شعرت بالعظمة أم لا ، فإنها على أي حال تشعر بالاختلاف ، تشعر وكأن شيئاً حدث لها . وعندما وجدت نفسها بمفردها في المساء جلست برهة تحت المصباح وبداها خالتيان وقد أهملت أعمالها المألوفة . ثم قامت وتجولت في الغرفة ثم من غرفة إلى أخرى ، مفضلة الأماكن التي لا يصلها ضوء المصباح الشاحب . لقد كانت قلقة ، بل ومضطربة ، وأحياناً كانت ترتجف قليلاً . إن ما حدث لها أهم بكثير مما يبدو ، لقد حدث حقاً تغيير في حياتها . أما ما سيأتي به هذا التغيير فما زال غير محدد على الإطلاق ؛ ولكن إيزابيل كانت في موقف يجعل لكل تغيير قيمته . كانت ترغب في أن تترك الماضي وراءها وأن تبدأ من جديد ، كما تقول لنفسها . ولم تكن هذه الرغبة في الحقيقة وليدة هذه اللحظة ، بل كانت شيئاً مألوفاً لديها كصوت سقوط المطر على النافذة ، كانت هذه الرغبة السبب في بدايتها صفحة جديدة مرات كثيرة جداً . أظنلت عينيها وهي جالسة في أحد أركان حجرة الجلوس المظلمة الهادئة . ولكن ذلك لم يكن نتيجة لرغبتها في أن تغفو وتتناسى ، بل لأنها على العكس من ذلك كانت تشعر بأنها في حالة صحو شديد وترغب في أن تكبح جراح إحساسها بروية أشياء كثيرة في وقت واحد . لقد كان خيالها بطبيعته نشطاً بشكل مضحك ؛ فإذا لم يكن الباب مفتوحاً قفز من النافذة ، ولم تكن معتادة في الحقيقة أن تحبسه وراء الأقفال ؛ وفي اللحظات الهامة ، عندما كانت تفضل أن تستخدم عقلها فقط ، كانت تدفع ثمن إسرافها في تشجيع قدرتها على رؤية الأشياء دون الحكم عليها . أما الآن ، وعندما شعرت أن ناقوس التغيير قد دق فقد حضرها تدريجياً عدد من صور الأشياء التي ستركها وزاها . عادت إليها سنوات حياتها ، وجلست

تستعرضها لفترة طويلة من الوقت : في سكون لا يبدده سوى دقائق الساعة البرنزية الكبيرة . لقد كانت حياة سعيدة جداً كما كانت هي شخصاً محظوظاً جداً حقاً - لقد كانت هذه هي الحقيقة التي ظهرت بكل وضوح . لقد تمتعت بخير الأشياء ، في العالم الذي لا تدعو فيه ظروف كثير من الناس إلى الحسد ، كان عدم تعرضها أبداً لشيء كرهه حقاً ميزة كبيرة . لقد بدا لإيزابيل أن الشر كان مجهولاً لها ، لأنها لمست من معرفتها بالأدب أن ذلك كثيراً ما يكون مصدر الاهتمام والعبرة . ولكن والدها قد جنبها ذلك - والدها الوسيم الذي أحبه كثيراً والذي كان يكره الشر بشدة . لقد كانت سعيدة أشد السعادة بينوتها له ، بل لقد شعرت إيزابيل بالزهو في أبوتها لها . كان يبدو لها منذ وفاته وكأنه يدير لأولاده جانبه الأكثر شجاعة وكأنه قد أفلح في تجاهل القبح الكائن في الحياة العملية بالقدر الذي تمنى تجاهه . ولكن هذا إنما رفع من حنانها نحوه ؛ فلقد كان من المولم أن تفترض أنه كان مسرفاً في الكرم ، مسرفاً في السباحة ، مسرفاً في عدم اهتمامه بالمسائل المادية القبيحة . . . لقد كان والدها ينظر إلى الحياة نظرة كبيرة ، ولم يكن قلقه واضطراب سلوكه في بعض الأحيان إلا دليلاً على ذلك . . . كان يجب أن تكون شريكة لوالدها فقد كانت العضو الوحيد من بناته الثلاث الذي عوضه عن كل الأشياء الكريهة التي لم يذكرها . وفي أخريات أيامه لم يقلل من رغبته العامة في ترك العالم - الذي ازدادت فيه صعوبة سلوك الإنسان كما يحلو له كلما تقدمت به السن - سوى ألم الفراق من ابنته الذكية المتفوقة الممتازة . . أما أختها إيديث فكانت أكثر منها نجاحاً في اجتذاب الآخرين . فتسعة عشر شخصاً من عشرين (بما في ذلك الأخت الصغرى نفسها) كانوا يعترفون بأن إيديث تفوق أختها في جمالها تفوقاً لانهائياً . أما الشخص العشرين فلن يكفني بقلب هذا الحكم ، بل يرفه عن نفسه باعتبار التسعة

عشر الآخرين سوقيين في ميولهم الجالية . كانت إيزابيل في قرارة نفسها ترغب رغبة لا حد لها في الفوز بالاعجاب ، بل إنها كانت تفوق في ذلك أختها إيديث ، ولكن طبيعة هذه الفتاة كانت تقع على عمق بعيد كما أن الاتصال بينها وبين السطح كان يحول دونه عشرات الزوات القوية . . . كانت ترى الفتيان يتهافتون في أعداد كبيرة على روية أختها ولكنهم بوجه عام يخشونها هي ، كانوا يعتقدون أن الحديث معها يستلزم استعداداً خاصاً . كانت معرفة مجها للقراءة فكان ذلك يحيطها بغلاف من السحب كما لو كانت إلهة في ملحمة . كانت الفتاة المسكينة تود أن يظنها الناس ذكية ؛ ولكنها كانت تكره أن تعتبر شديدة الشغف بالكتب ؛ كان من عاداتها أن تقرأ سراً وبالرغم من قوة ذاكرتها إلا أنها كانت تتجنب كل ما قد يبدو مباهاة بمعلوماتها . كانت ترغب رغبة قوية في المعرفة ولكنها في الحقيقة كانت تكاد تفضل على الكتاب أي مصدر آخر للمعلومات ، كان لديها حب استطلاع كبير وكانت دائماً التطلع والتعجب . كانت تجمل بداخلها رصيلاً كبيراً من الحياة ، وكانت أعمق متعها أن تشعر بالاستمرار بين حركات روحها وخلجات العالم . (ص ٣١ - ٣٤) ويذهب جيمس ليؤكد لنا أن كل ذلك لم يبعد عنها الفتيان تماماً فقد كان بينهم من خفي لها قلبه وعقله معاً . وبالاختصار فقد تمتعت إيزابيل بكل ما تتمناه فتاة في مثل سنها من الحنان والاعجاب والحلوى والزهور وفرص الرقص والاستمتاع بالموسيقى والقراءة ، فتاة لم تعرف الألم ولم تمنح الشر . يمر كل ذلك أمام ذاكرتها في شكل مشاهد وأحداث ، وهي تجلس في ذلك الركن المظلم من الغرفة الهادئة .

وكان لا بد لجيمس أن يطلعنا هنا على إحدى علاقاتها بهذا العالم المتصل بكل هذه الذكريات ولذا فهو يقدم ذلك الشاب الأمريكي الذي يحب إيزابيل ويتقدم لها في هذه اللحظة عارضاً حبه بكل عزم وتأکید

ولكن إيزابيل التي ترى في هذا الحب قيда لحريتها ،
ترده خائباً ، وإن كان هو يبدو وكأنه لن يقبل الهزيمة .
ذلك هو كاسبار جودوود الذي يستمر في عرض حبه
وإخلاصه لها إلى النهاية .

ولا يتم هذا التعريف بإيزابيل دون أن نراها كما
يراهها رالف ابن خالتها ، الشاب الذكي الفيلسوف الذي
يمثل أحد أعمدة الرواية لما يتمتع به من وعى فذ وتعاطف
مع البطلة لا يعوقه عن أن يراها بالرغم من حبه لها
بموضوعية نافذة ، ولما يلعبه في حياتها من دور فعال .
يذهب رالف للترحيب بوالدته وقبل أن يدور
بينهما حديث كاشف عن إيزابيل ، يكشف لنا جيمس
أولاً عن شخصية هذا الشاب ، فنعرف أنه جاء إلى
إنجلترا طفلاً بصحبة والديه وتلقى تعليمه في مدارس
إنجليزية ثم في جامعة أمريكية ثم أتته في جامعة أكسفورد
الإنجليزية ، وكان الأب يرغب في خلق توازن بين أثرى
إنجلترا وأمريكا في شخص ابنه . كان الأب أحد
أصحاب البنوك وسرعان ما وجد الابن طريقه إلى عمل
أبيه ولكن مرضه يمنعه من العمل المجدد ، ولذا فهو يحيا
الآن حياة خالية من العمل أو الاهتمام الجدى . « وقد
أنقذه من وطأة قسوة التضحية بالحياة العاملة معين كبير
من عدم الاهتمام ، إلا أن رائحة الفاكهة المحرمة كثيراً
ما كانت تداعب أنفه مذكرة إياه بأن أجمل المتع هي
نشوة العمل » . يشير رالف اهتمام إيزابيل ، كما تشير
هي بذكاها وجهالها وإقبالها على الحياة اهتمامه وتشوقه
إلى معرفة المزيد عنها ، فيخاطب والدته قائلاً :

« أما الآن فحدثيني عن هذه الفتاة . . ماذا تنوين
أن تفعل بها ؟ » .

وتجيب مسر تشيت على الفور « أنوى أن أطلب من
والدك أن يدعوها للبقاء في جاردن كورت ثلاثة أو
أربعة أسابيع » .

ويقول رالف « دعك من هذه الرسميات ، إن
والدى سيدعوها لذلك بطبيعة الأمر ! » .

« ومن أدراك بذلك ! إنها ابنة أختي أنا ، وليست
ابنة أخته » .

« بالله يا والدتي العزيزة ، ما كل هذا الإحساس
بالملكية ! إن هذا أدعى لأن يدعوها والدتي للبقاء هنا
ولكن بعد ذلك - أعني بعد ثلاثة شهور (فن المضحك
أن تدعو الفتاة المسكينة أن تبقى هنا ثلاثة أو أربعة
أسابيع هزيلة) - ماذا تنوين أن تفعل بها ؟ »
« أنوى أن آخذها معي إلى باريس . أنوى أن
أشترى لها ملابس » .

« آه طبعاً . ولكن بخلاف ذلك ؟ » .

« سأدعوها لقضاء الخريف معي في فلورنسا » .

ويقول رالف « إنك لا ترتفعين عن مستوى
التفاصيل يا والدتي العزيزة . إنى أود أن أعرف ماذا
تنوين أن تفعل بها بوجه عام » .

وتعلن مسر تشيت « أفعل واجبي ! » ثم تضيف
« أظنك تشعر بشفقة كبيرة نحوها » .

« لا ، لا أظن أنى أشفق عليها ، إنها لا تبدو لي
وكأنها تثير الشفقة . لكنى أحسدها . ولكن قبل أن
أتأكد من ذلك خبريني قليلاً عما تريه واجبك نحوها » .
« إنى أرى واجبي في أن أريها أربعة بلاد أوروبية -
وسأترك لها اختيار اثنتين منها - وفي منحها فرصة إتقان
اللغة الفرنسية التي تعرفها جيداً الآن » .

ويقطب رالف جيبيه قائلاً « إن هذا يبدو جافاً
بعض الشيء - حتى بالرغم من حرية اختيار اثنتين من
هذه البلاد » .

فتقول الأم ضاحكة « إذا كانت هذه الخطوة جافة ،
فيمكنك أن تترك لإيزابيل أمر ربها ! فهي دائماً مثل
مطر الصيف » .

« أتعني بذلك أنها مخلوقة موهوبة ؟ » .

« لا أدري إذا كانت مخلوقة موهوبة أم لا ، ولكنها
فتاة ذكية - ذات إرادة قوية ، ومزاج حاد . ولا تنوى
أن تشعر بالملل » .

ويقول رالف « يمكنني أن أتخيل ذلك » ثم يضيف بغتة « كيف تتفقان أنهما الاثنان ؟ » .

« أتعني بذلك أني عملة ؟ لا أظن أنها تجدني كذلك ، إنني أعرف أن بعض الفتيات قد يجدنني كذلك ، ولكن إيزابيل أكثر فطنة من ذلك . أظن أنها تجد عندي شيئاً من الترفية . إننا نتفق لأنني أفهمها ، أعرف أي نوع من الفتيات هي . إنها صريحة جداً وأنا صريحة جداً . إننا نعرف تماماً ما نتوقعه الواحدة من الأخرى » .

« آه يا والدتي العزيزة ، إن المرء يعرف دائماً ما يتوقعه منك ! إنك لم تبعثي الدهشة في نفسي إلا مرة واحدة ، اليوم ، عندما قدمت لي ابنة خالة جميلة لم يخطر لي وجودها قط على بال » .

« أنظنها جميلة جداً إذن ؟ » .

« جميلة جداً حقاً ، ولكني لا أصمم على ذلك . إن ما يلفت نظري هو ما توحى به من أنها شخص معين . من هذه المخارقة النادرة وما هي ؟ أين وجدتها وكيف تعرفت عليها ؟ » . (ص ٤١ - ٤٣) .

وهكذا يستمر الحديث بين رالف ووالدته كاشفاً عن اهتمام رالف بإيزابيل واهتمامه بوجه خاص بما تنوي الأم أن تفعله بها ولكن الأم ترد قائلة عندما يكرر سؤالها عن ذلك « إنك تتحدث عنها كما لو كانت متراً من القماش . إنني لن أفعل بها شيئاً على الإطلاق ، وهي نفسها ستفعل كل ما تريد ، لقد عرفتني بذلك » .

ثم نرى رالف يصطحب إيزابيل في جولة حول المنزل لتشاهد إيزابيل اللوحات التصويرية الجميلة بينما يرى رالف أنها أجدر بالنظر والتأمل من هذه اللوحات . فهي إلى جانب ذكائها واستقلالها جميلة جداً .

وهكذا تتضح أمامنا تدريجياً صورة حية واضحة المعالم لشخصية فتاة جميلة ذكية حساسة مثقفة ، تعمد برأيها وحريتها وتسعى لمعرفة المزيد عن العالم والناس وهم بكل ما حولها . أما رالف فيجدها مثيرة جداً للاهتمام وكأنها هبة من السماء قد وهبت له في الوقت

الذي كاد يفقد اهتمامه بكل شيء ، ويعتقد أنها أفضل بكثير من أجود عمل فني ، وأن في رؤيتها متعة تفوق كل شيء في الوجود . « فهي أنفاس من لوحة فنية لتيتيان أو تيمثال إغريقي أو كاتدرائية قوطية » (ص ٦٥) وبالرغم من أنه يقبل على الاستمتاع بهذه الفرصة النادرة إلا أنه يدرك أنه لا يملك مفتاح هذه الكاتدرائية ولا يفهمها تماماً . إنها ذكية وكريمة وطبيعتها جميلة حرة ولكن ماذا ستفعل بنفسها ؟ ولكن هذا سؤال غير عادي ؟ فعظم النساء لا يصنعن شيئاً على الإطلاق بأنفسهن ، بل ينتظرن في سلبية إلى أن يأتي رجل ويقرر مصيرهن في الحياة . ولكن إيزابيل مختلفة . إنها توحى للمرء بأن لها أهافاً شخصية . ويتمنى رالف أن يكون حاضراً لمشاهدتها عندما تنفذ تلك الأهداف .

وتمر الأيام وبالرغم من رغبتها في رؤية عدد أكبر من الناس إلا أنها تستمتع بقضاء الوقت بصحبة زوج خالتها الذي يجلس بجواره يتحدث إليه وتمطره بأسئلتها أو بصحبة رالف الذي يصحبها للتجديف أو التجول بالحديقة الواسعة أو ما حولها في العربة الصغيرة التي يملكها مسر تشيت .

وذات يوم يحل بـ جاردن كورت زائر هو لورد واربرتون الذي كانت إيزابيل قد رآته لمدة نصف ساعة عند وصولها واكتشفت أنه يعجبها . ويبقى الضيف بضعة أيام يدعو في نهايتها إيزابيل لزيارة قصره . وتذهب إيزابيل بعد أن تأتي الأخوات لزيارتها ودعوتها رسمياً . وتعرف إيزابيل أن إحساسها الأول بالنسبة للورد واربرتون كان صادقاً فهي تعجب به بعد أن تعرفه عن قرب نتيجة لجديتها معاً ولجديتها عنه مع رالف الذي يظنه لطيفاً جداً ومحظوظاً جداً ، بينما ترى فيه إيزابيل لأول وهلة بطلاً رومانسياً ثم تكتشف أنه تبيل من آخر طراز ، فهو ديموقراطي الزعة ومعارض للطرق العتيقة ولكنه بالرغم من ذلك يحتفظ بقلبه وأملاكه ومركزه ولا يفكر لحظة في التخلص منها ، ولذا فهي ترى في

وهكذا نرى جيمس لا يألُ جهداً في معالجة موضوعه فهو لا يعتمد على المشهد الحى والصورة المحسمة فقط بل يعتمد على الصورة اللفظية والحدث الرمزى والتلميح ليوفى الموضوع حقه من الناحية الفنية أو التكنيكية . فلينزابيل مثلاً مثل العمل الفنى فى جمالها وإثارتها للانتباه ، ورالف يتنازل عن ملكيته لكلبه مجرد أن تبدى لينزابيل إعجابها به . ومستر تنشيت يقول إن الشخص الوحيد الذى يمكنه أن يجعل من لورد واربرتون شهيداً هو لينزابيل بينما يتمنى ألا تصبح هى بدورها شهيدة . أما فى هذا الموقف بالذات فإنه - بينما تشعر لينزابيل بالضيق لنبا وصول كاسبار وتخشى أن يعكر وصوله صفو الجو الجميل الذى تتمتع به فى جاردن كورت ، فإنها تحس عندما يقف لورد واربرتون أمامها فى الحديقة بعد انتهائهما من قراءة خطاب كاسبار « أن ابتسامته كانت سارة وودية بصفة خاصة وقد بدا شخصه كله وكأنه يشع هذا الإحساس الطيب والحياة الطيبة الذين شعرت بسحرهما فى شعورها الأول نحوه . وكان هذه الابتسامة قد أحاطت به كمنطقة من الجو الصيفى الصحو » (ص ١٠٧) .

ومرة أخرى يطلعننا جيمس على ما يدور بخاطر هذه الفتاة وهى تواجه هذا الموقف الذى تخشى فيه أن تتقدم لها هذه « الشخصية الكبيرة » بطلب يدها للزواج والذى تشعر فيه بشيء من حب الاستطلاع والجزع فى نفس الوقت . أما الجزع فيتكون من عدة عناصر لم تكن كلها غير سارة . فقد قضت لينزابيل فى الواقع عدة أيام تحللها فيها ونجحت فى فصل السار عن المؤلم من هذه العناصر .

« لم تكن متلهفة على إقناع نفسها بأن مالكا عظيماً من ملاك الأرض ، كما سمعت لورد واربرتون يدعى ، قد أصابته سهام حسنها . فقد كان التقدم بهذا الطلب من مثل هذا المصدر يحمل معه حقاً من علامات الاستهزام أكثر مما يجب . لقد أحست إحساساً قوياً بكونه « شخصية كبيرة » ،

موقفه شيئاً من الخداع وعدم المنطق وتتوق لرويته فى بوتقة الاختبار . ولكن مستر تنشيت يؤكد لها أنه وإن قامت بالبلد ثورة فإن أحداً لن يمس لورد واربرتون بسوء ، لأنه محبوب جداً .

وتتهاد لينزابيل قائلة « إذن فلن يمكنه أن يصبح شهيداً حتى ولو أراد ذلك ! إن هذا موقف يدعو إلى الأسى » .

ويرد الرجل المسن « إنه لن يضحى شهيداً أبداً إلا على يدك » .

وتهمز لينزابيل رأسها ؛ قد يبدو أن هناك شيئاً مضحكاً فى أنها فعلت ذلك بلمحة من الحزن :

« لن أجعل من أى إنسان شهيداً » .

« إنى أرجو ألا تصبحى أنت شهيدة » .

« أرجو ذلك . ولكن هل تشعر نحو لورد

واربرتون بالشفقة كما يفعل رالف ؟ » .

ونظر زوج خالتها إليها فترة ، بنظرة عطف ثابتة

« نعم أظن أنى أشعر نحوه بالشفقة فى نهاية الأمر »

(ص ٧٨) .

ويمكن القول هنا بأنه كما تمثل لينزابيل الفتاة الأمريكية فإن لورد واربرتون يمثل الحضارة الإنجليزية بقيمتها وتقاليدها وعراقتها ، بينما يبدو رالف نتاجاً للحضارتين الأمريكية والإنجليزية معاً ، أما كاسبار جودوود فيمثل الحضارة الأمريكية الخالصة .

وتشعر لينزابيل أن لورد واربرتون يعجب بها وتحس نغمة غريبة تزحف فى حديثه معها وتبعث فى نفسها الخوف - الخوف من أن يعبر لها عن حبه لها - هذا فى الوقت الذى تنبها صديقها هنريتا ستاكبول الصحفية الأمريكية بوصول كاسبار جودوود الذى مايلبث أن يكتب لها طالباً رؤيتها ، وبينما تستغرق لينزابيل فى قراءة هذا الخطاب فى الحديقة وهى تشعر بالضيق تلتفت لرى لورد واربرتون واقفاً أمامها .

وشغلت نفسها بتأمل هذه الصورة . وبالرغم مما قد تتعرض له من إضافة دليل آخر على استقلالها الذاتي فإنه يجب القول بأنه كانت هناك لحظات كان يمثل فيها إمكان إعجاب شخصية كبيرة بها درجة من الإهانة ، بل ودرجة من المضايقة فهي لم تعرف شخصية كبيرة من قبل ، ولم يكن في حياتها شخصية كبيرة بهذا المعنى ومن الممكن ألا توجد مثل هذه الشخصيات في بلدها . عندما كانت تفكر في شخصيات ممتازة كانت تفكر في ذلك على أساس الخلق والذكاء وخفة الروح ، وما يمكن أن يحبه المرء في عقل الشخص وحديثه . هي ذاتها شخصية ذات طابع معين — كان يتعين عليها أن تدرك ذلك ، وحتى ذلك الوقت كانت رؤيتها للوعي الكامل تشغل نفسها لحد كبير بالصور المعنوية ، وبما إذا كانت الأشياء تسر روحها السامية أم لا . أما لورد واربرتون فكان يلوح أمامها ضخماً مضيقاً مثل مجموعة من الصفات والقدرات التي لا تقاس بهذه القاعدة البسيطة ، بل تتطلب تقديراً من نوع آخر — تقديراً أحسّت الفتاة التي اعتادت الحكم السريع الحر — أنه يتقصها الصبر اللازم للقيام به . فهو يبدو وكأنه يطلب منها شيئاً لم يجزؤ أحد آخر أن يطلبه منها . وكان ما تحسه هو أن شخصية بارزة في مجال الملكية الأرضية ، ومجال السياسة والمجتمع قد فكرت لاجتذابها في خطة تنسم بشيء من الظلم داخل النظام الذي تعيش وتتحرك فيه . وأحسّت بغريزة معينة ، غير مسيطرة ولكنها مغرية تقول لها أن تقاوم وتتمم لها أن لها في الواقع نظاماً ومداراً خاصاً بها . وتقول لها أشياء أخرى كثيرة متضاربة . كأن فتاة مثلاً لا تخطئ إذا سلمت نفسها لمثل هذا الرجل وإنه لمن الشائق أن ترى شيئاً من نظامه من وجهة نظره هو . وإنه من ناحية أخرى فعلى أى حال من الواضح أن جزءاً كبيراً من هذا النظام سيبدو لها في كل لحظة كمجرد تعقيد للأمور ، بل وإن بالنظام بأكمله شيئاً جامداً ينقسم بالغباء ويجعله حملاً ثقيلاً . وبالإضافة إلى ذلك

فقد كان هناك شاب أمريكي ليس له نظام على الإطلاق ولكن كانت له شخصية مستحيل عليها أن تحاول إقناع نفسها بأن الأثر الذي تركه في نفسها أثر منير » (ص ١٠٧ - ١٠٩) ..

وعرض عليها لورد واربرتون الزواج فعلا ولكنها بالرغم مما تشعر به نحوه من ميل وإعجاب وتقدير وما يبديه هو نحوها من حب خالص نقي — مثل المصباح الذي يضيء باستمرار في مكان لا تهب به رياح — فإنها ترفضه برفق واحترام وشعور بالشكر . إنها لا تستطيع الزواج من لورد واربرتون . « لقد فشلت هذه الفكرة في إثارة أى شعور مستنير في صالح حرية استكشاف الحياة التي تدين بها للآن أو التي كان يقدورها أن تدين بها الآن » (ص ١١٧) .

أما ما ألقها وأثار العجب في نفسها فهو أنها لم تعان إلا قليلاً جداً مقابل رفضها هذه « الفرصة الرائعة » . وتوضح لنا أهمية هذه الفرصة عندما نرى رد فعل أصدقائها لهذا الرفض . أما مسرّ تنشيت الذي تذهب إليه لتنبئه أولاً بهذا الخبر فهو الوحيد الذي يشعر أنها أصابت بالرفض . أما مسرّ تنشيت فتستنكر هذا الرفض ويعجب رالف لما يمكن أن تأمل فتاة ترفض شخصاً مثل لورد واربرتون أن تفعل بحياتها .

ترفض إيزابيل كذلك الشاب الأمريكي كاسبار جودود الذي يتبعها عبر المحيط سعيًا وراء إجابة أفضل مما حصل عليه في ألباني . ترفضه إيزابيل لأن الزواج منه يعنى الحد من حريتها وخاصة بعد أن رفضت في سبيل هذه الحرية رشوة كبيرة هي الزواج من لورد واربرتون . هذا بالإضافة إلى أنه كان يبدو لها « ذاك مربع جداً . وكان قوامه مستقيماً جامداً جداً ، وكانت هذه الأشياء توحى بنقص في سهولة التوافق مع حركات الحياة العميقة » .

وهكذا ترفض إيزابيل ما تقدمه لها الحضارة الإنجليزية العريقة وما تقدمه لها الحضارة الأمريكية

الشابة . وكأنها ما زالت تبحث عن شيء أفضل .

ويبدأ فصل هام في حياة إيزابيل عندما تتعرف بسيدة أمريكية مستوطنة في أوروبا هي مدام مرل صديقة مسر تشيت التي تحضر لزيارتها في الوقت الذي يرقد فيه مسر تشيت على فراش الموت . وتترك إيزابيل لأول وهلة ترى فيها مدام مرل - عندما تسمع شخصاً يعزف البيانو فتذهب إلى حجرة الجلوس لتراها وتظهرها نحوها تعزف بمهارة فائقة - تترك أنه سيكون لهذه المرأة شأن كبير في حياتها . تجد إيزابيل في مدام مرل سيدة ذكية أنيقة جميلة تلفت النظر بمعرفتها وخبرتها وطريقة سلوكها ، وتخبرها خالتها أنها سيدة لا تخطئ أبداً وأن عقودورها أن تتعلم منها الكثير . أما عندما تذهب لاستطلاع رأى رالف فيبدي هذا أنه لا يميل إليها كثيراً ولكن دون أن يذكر لذلك أسباباً معينة . ولذا فإن إيزابيل لا تتقبل آراءه التي لا تغير من علاقتها بـ مدام مرل شيئاً ، بل على العكس نجد هذه الصداقة تنمو وتقوى .

وموت مسر تشيت تاركاً لإيزابيل ثروة ضخمة تقدر بسبعين ألفاً من الجنيهات . ويرجع ذلك إلى تدخل رالف الذي أقنع والده أن يترك لإيزابيل نصف نصيبه من ثروته قائلا « أريد أن أضع بعض الريح في شراعيها . إلى أود أن أمكنها من الوفاء بمطالب خيالها » . وبالرغم من تخوف الأب من وقوعها فريسة في يد زوج يسعى وراء ثروتها إلا أن رالف يرى أن تلك مخاطرة لا مفر منها .

أما إيزابيل التي لم تكن تتوقع شيئاً من هذا القبيل فتكاد تصاب بشبه ذهول تام ، وتمراً يام وهي لا تدرى ما تظن بأمر هذه الثروة الكبيرة . ولكنها بعد أن ترسل شيكاً لكل من أختها في أمريكا ، تبدأ في التفكير في كيفية استخدام هذه الثروة ومدى الفرص التي تمنحها لها ، وما تعنيه من قوة وما تستلزمه من جدية . وتلدى إيزابيل تخوفها من كل هذه الثروة وما تعنيه من حرية

لرالف عندما تسأله عما إذا كان يعلم بأمرها أو بسبب ترك والده لها . فهي تخشى أن تخطئ وتود أن تعلم كيف تستعملها ولكن رالف يقوى عزيمتها قائلاً : « إن الثروة قد تخيف الضعفاء ولكنها قوية » . فتسأل : « ولكن كيف تدرى أنني لست ضعيفة ؟ » فيرد « آه لو كنت ضعيفة ، فاني سأكون قد بعث نفسي » . (الفصل الحادى والعشرون) .

وتعلم مدام مرل في هذه الأثناء بما أصاب إيزابيل من حظ وافر وكأنها تشعر بشيء من الحسد ولكن ذكاءها الشيطاني يرشدها إلى وسيلة تفيد عن طريقها من ثروة هذه الفتاة الساذجة المثالية فتعمل على تقديمها لشخص يدعى جلبرت أوزموند تقول إنه صديق قديم لها وتصفه بأنه فنان وشخصية متميزة يتعين على إيزابيل لقاءها . أما مسر تشيت فتصحب إيزابيل إلى لندن فباريس ومنها إلى فلورنسا حيث يقيم أيضاً هذا الرجل الأمريكي المستوطن بأوروبا دون أن تعلم ما يدور بخلد صديقتها . وفي منتصف الكتاب تقريباً يترك جيمس إيزابيل

تأمل مصيرها وماضيها وحاضرها ، ليقدم لنا أوزموند وابنته بانسى ويكشف لنا عن شيء من العلاقة التي تربط أوزموند بـ مدام مرل . وعلى عادة جيمس يبدأ أولاً بوصف الفيلا الأنيقة التي يقطنها أوزموند وبعض محتوياتها قبل أن يقدمنا لأوزموند نفسه الذي يقدم لنا وصفاً دقيقاً لمظهره (ص ٢٤٦) . أما ابنته فتاة صغيرة ترى بصحبة الراهبتين اللتين قد أتيتاها من المدرسة ، مطيعة ، ربتها الراهبات على الطاعة والخضوع للسلطة . يصفها والدها بأنها زهرة نقية . وهي تمثل نمطاً من الفتيات اهتم جيمس بتصويره في كثير من أعماله . وفي هذا المشهد وبعد انصراف الراهبتين ، يكشف الروائي للقارئ عن العلاقة التي تربط أوزموند بـ مدام مرل وعن شيء من شخصيتهما الحقيقية . أما أوزموند فيتضح من كلام مدام مرل أن أسوأ صفاته ليس حب الذات كما يدعى هو ، بل التكاسل . لكن مدام مرل

تخبره أنها تريد أن يقوم بعمل ما في فلورنسا وتكشف له عن خطتها التي تلتخص في أن يتقرب من إيزابيل ويتزوجها ، مشيرة إلى جمالها وشخصيتها الجذابة و ثروتها الكبيرة . ويتضح من خلال هذا الحديث التفاهم التام بين هذين الشخصين اللذين يبدوان متعاونين متفاهمين وإن لم يكونا متحابين كما كانا في وقت من الأوقات . وبعد أوزموند بزيارة إيزابيل وإن كان يفضل ألا يرى رالف الذي لا يحبه ، أما الحالة فلا يعبأ كثيراً لها .

وفي بداية الفصل التالى (التاسع والعشرين) تشير مدام مرل في حديثها مع إيزابيل مرة أخرى إلى أوزموند ولكن بصورة أقل تأكيداً أو صراحة مما تفعل في إشارتها لأوزموند عن إيزابيل ، معبرة عن رغبتها في أن تتعرف به كواحد من خير معارفها ومن ألطف وأهم الرجال في أوروبا . وتصوره مدام مرل على أنه شخص غير عادى ومثير للاهتمام ويستحق دون شك أن تعرفه إيزابيل .

وخلال هذه الفترة تستمتع إيزابيل بكنوز فلورنسا الفنية وتستسلم في نشوة غامرة لتأثير ما تراه من لوحات فنية وتماثيل رائعة وكنائس قديمة ومبان جميلة ، يقودها لذلك رالف الذى يتجدد حماسه الأول لهذه الأشياء وهو يقدمها لابنة خاله الشابة الممتلئة شوقاً واهتماماً .

ثم يأتى أوزموند لزيارة مدام مرل وتقديم هذه له إيزابيل . ويصور لنا جيمس مشهداً رائعاً غنياً بمدلولاته. تجلس إيزابيل ساكنة بعيداً في الظل لمشاهدة المشهد الرائع بين هذين الشخصين الرائعين وكأنها تنصت لحفلة موسيقية ستفسدها حيناً إن هى تدخلت في الحديث . ومنذ البداية تشعر وكأن هذين الشخصين يقومان بتمثيل دور أعداء خصيصاً لاكتساب هذه الفتاة التي تهرها مهارتهما في الحديث وفي السلوك بحيث لا تكاد تبدى حراكاً .

وبالرغم من أن جيمس يهدف كما يقرر في المقدمة إلى كشف الأمور عن طريق وعى إيزابيل إلا أنه يستخدم أيضاً وعى رالف أحياناً ، بل و مدام مرل أحياناً أخرى . فهنا مثلاً لا ترى إيزابيل ولا يمكن أن ترى ما يدور خلف الستار بين مدام مرل وأوزموند . ولكن لديها فرصة استنتاج شيء عن حقيقتهما من ملاحظات رالف عنهما . وكى يتضح لنا إسراف إيزابيل في الاعتماد على النفس وحرية الاختيار تراها بالرغم من رغبتها في استطلاع رأى رالف في مدام مرل وأوزموند لا تتقبل وجهة نظره . هذا علماً بأن رالف لا يفصح عن رأيه في كليهما وإنما يكفى بالتلميح أولاً ثم بالافصاح فيما بعد (عندما يشعر بخطورة الموقف) . فيقول عن مدام مرل مثلاً إنها سيدة ماهرة جداً وأنها تبدو كاملة بدرجة تقلقه . أما عن أوزموند فيقول إنه يجهل كل شيء عنه فيما عدا كرهه للسوق والابتذال وما يبدو من أن هذا هو شغله الشاغل . ومهما يكن من أمر فانه يبدو من الواضح أن رالف لا يميل إليهما ، بل وإنه بالرغم من رفضه الافصاح عما يدور بخلفه إلا أنه لا يدع مجالاً للشك لدى إيزابيل في أنه لا يوافق عليهما ، ولكنها مبالغة في الاعتماد على رأيا ، ترجع ذلك إلى حالته النفسية ومرضه .

فعندما تسأله إيزابيل مثلاً إذا ما كان يعرف أوزموند يرد قائلاً :

« هل أعرفه ؟ . . . نعم أعرفه ، لا أعرفه جيداً ولكن بوجه عام بالقدر الكافى . لم أعاشره قط كما يبدو أنه لم يجد قط أنه لا يمكنه الاستغناء عن صحبتي . من هو وما هو ؟ إنه أمر يكتفى غامض لا يمكن تفسيره . عاش هنا في إيطاليا طيلة ثلاثين عاماً أو أقل قليلاً . لماذا أقول إنه لا يمكن تفسيره ؟ لا شيء سوى تغذية الجهلى . فأنا لا أعرف ما سبق من حياته ولا أسرته ولا أصله . ومن يدري لعله بالرغم من ذلك أمير متنكر ، فهو يبدو كذلك بعض الشيء . وعلى أى حال فهو يبدو كأمر

« إنها شخصية ممتازة إذا أردت شخصاً تعرفينه .
وما دمت ترغين في رؤية العالم فلن يمكنك الحصول
على دليل خير منها » .
« أظنك تعني بذلك أنها دنيوية ؟ »
« دنيوية ؟ إنها الدنيا الكبيرة المستديرة ذاتها ! »
(ص ٢٧١) .

وواضح أن نعمة رالف التي لا تخلو عادة من
الفكاهة والسخرية تحمل كثيراً من المعنى هنا . وقد
نتساءل لماذا لا يفصح رالف برأيه في مدام مرل .
السبب كما يكشف لنا جيمس هو أن رالف كان يعتقد
أن المرأتين لا تعلمان كل شيء عن بعضهما وأنه بمجرد
أن تكتشف إحداهما شيئاً من ذلك فإن علاقتهما ستفتر
وأن إيزابيل لن يلاحظها من ذلك أدنى ضرر .

وتذهب إيزابيل بصحبة مدام مرل لتناول الشاي
مع أوزموند وابنته وأخته الكونتيسة جيميني ويبدل
أوزموند جهداً خاصاً للحفاوة بإيزابيل دون ابتذال
أو سوقية ، ويربها تحفه وقطعه الفنية ، ويفضي إليها
بشيء غير قليل عن نفسه وعن عدم اهتمامه بالنجاح
أمام العالم واكتفائه بالافعل شيئاً . وترك الزيارة أثراً
قوياً في نفسها بينما يخرج القارئ بشعور لا يمكن التخلص
منه بأن البيت يشبه المتحف ، وأن كل شيء به بما في ذلك
سلوك ضاحكه قد جهز خصيصاً للعرض . ويزورها
أوزموند في بيت خالتها خمس مرات في أسبوعين مما
يلفت نظر الخالة ورالف ولكن رالف لا يعتقد أن
إيزابيل ستقبل أوزموند حتى لو تقدم طالباً يدها .
أما إيزابيل فتشعر أنه مشر للاهتمام — وكان الصورة التي
تركها في نفسها زيارتها لمنزله في أعلى التل تبقى وتقوى
بتكرار لقاءهما . . صورة رجل هادئ الطبع ، ذكي ،
حناس ، ممتاز .

ويذهب الجميع إلى روما حيث تلتقي إيزابيل
صدقة بلورد واربرتون الذي يبدو أنه ما زال يحبها .
ويتكرر لقاء الأخير بأوزموند ويذكر ما يسعى إليه هذا ،

تنازل عن الإمارة في فورة من السخط وبقي في حالة
نأف من ذلك الوقت . كان يعيش في روما ، ولكنه
اتخذ له مقراً هنا في السنوات الأخيرة ؛ أذكر قوله إن
روما أصبحت سوقية . إنه يخشى السوقية بدرجة كبيرة
هذا هو اتجاهه الخاص ، فليس له اهتمام آخر على ما أعلم .
يعيش من دخله الذي لا أظنه كبيراً بدرجة سوقية . إنه
رجل فقير ولكنه شريف — هكذا يصف نفسه . تزوج
في شبابه وفقد زوجته ، واعتقد أن له ابنة . وله أيضاً
أخت ، متزوجة من كونت ما من هذه الناحية . أذكر
مقابلتي لها فيما مضى : إنها ألطف منه ، فها أعتمد ،
ولكن من الصعب تحملها . أذكر أنه كانت هناك بعض
الشائعات عنها ولا أظن أني أشير عليك بمعرفتها . ولكن
لما لا تسألين مدام مرل عن هؤلاء الناس ؟ إنها تعرفهم
خيراً مما أعرفهم أنا » . (ص ٢٦٨) .

أما بخصوص مدام مرل ، فعندما نتحجج إيزابيل بأنه
لا تعجبها الطريقة التي يتحدث بها رالف عنها فانه يقول :
« إنني أتحدث عن مدام مرل تماماً كما أتحدث إليها
باحترام مبالغ فيه أيضاً . . . أفعل ذلك لأن مزايا مدام
مرل مبالغ فيها . . . دعيني أشرح . عندما أقول إنها
تبالغ فاني لا أعني أنها تبالي بالطريقة المبتدلة — أي أنها
تفاخر وتسرف في القول أو تصف نفسها وصفاً رائعاً .
ولكن أعني بالحرف الواحد أنها تذهب بالسعي وراء
الكمال إلى حد بعيد جداً — وأن مزاياها نفسها مبالغ فيها .
فهى طيبة جداً ، وكرامة جداً ، وذكية جداً ، ومتقفة
جداً ، ومهذبة جداً ، وكل صفاتها مبالغ فيها ،
وبالاختصار فهى كاملة جداً » . (ص ٢٧٠) .

ثم يردف رالف مخاطباً إيزابيل :
« إنه من الممكن أن يجد المرء نقصاً أو نقطة سوداء
في كل شخص آخر ، حتى أنت ، أما بالنسبة لمدام
مرل فلا شيء ، لا شيء ، لا شيء » .
وتقول إيزابيل « إنني أتفق معك تماماً . وهذا هو
السبب في حبي الشديد لها » .

فيقلقه الأمر ويشاور رالف الذى يرى أن خير وسيلة لإنقاذ إيزابيل هى عدم التدخل . وينقل إلينا جيمس بمهارة باللغة قلق أصدقاء إيزابيل بشأن أوزموند وتقربه منها عن طريق أحاديثهم الخاصة كما هو الحال بين رالف وواربرتون وملاحظاتهم المباشرة كما هو الحال مع هنريتا التى لا تخفى ضيقها منه .

وقبل أن تترك إيزابيل روما يعبر لها أوزموند عن حبه بمنتهى الاحترام واللياقة ولكنها ترفض مناقشة الأمر معه محتجة بأنها لا تكاد تعرفه وأنه خير لها أن يفرقا . ويعلق جيمس على استجابة إيزابيل لهذا الموقف بقوله : « وعندما انصرف ، وقفت برهة تتلفت حولها ثم جلست ببطء وبشيء من التمعن . جلست هناك إلى أن عاد رفاقها ، ويداها مطويتان ، تحملق في السجادة القبيحة . كان اضطرابها - الذى لم يتناقص - اضطراباً ساكناً جداً ، عميقاً جداً . أما ما حدث فكان شيئاً توقعه خيالها طيلة الأسبوع وتقدم للملاقاته ، ولكن هنا ، عندما حدث ، توقفت ، فبشكل ما تعطل هذا المبدأ السامى . لقد كان سلوك هذه الفتاة النفسى غريباً ، وكل ما أستطيع فعله أن أقدمه لكم كما أراه ، دون أمل فى أن أجعلها تبدو طبيعية » . (ص ٣٣٧) .

وتقوم إيزابيل مع مدام مرل برحلة في الشرق الأوسط ، ولتنتهى بها مرة أخرى بعد عودتها ونزولها بقصر مستر تشيت في فلورنسا في أواخر الربيع أى بعد عام من الأحداث التى روينها . وفي هذا الجزء من الرواية نرى أثر إعلان خطبتها على كاسبار جودوود الذى يحضر خصيصاً من أمريكا لبرأها قبل أن تزوج ويعرف شيئاً عن ذلك الرجل الذى تزوجه (الفصل الحادى والثلاثون) ثم على خالتها التى تستنكر هذه الخطبة وخداع مدام مرل لها وتعد بأن تعمل على إقناع إيزابيل بالعدول عن رأيها بأن تطلب من رالف أن يحاول ذلك ، نرى هذا في عدد من المشاهد المتتالية ، لعل أهمها

المشهد الذى يكشف فيه رالف أخيراً لإيزابيل عن رأيه في خطبتها .

يحد رالف نفسه في حيرة باللغة فهو يعلم أن تدخله لكشف حقيقة أوزموند ومدى خداعه لابنة خالته التى يعزها أكثر من أى شيء آخر في الوجود ، إنما يمكن تبريره فقط إذا تأكد من نجاحه في إقناع إيزابيل ، أما إذا باءت محاولته بالفشل فسيقضى عليه ، إذ ستلومه إيزابيل وتستمر في طريقها . وهكذا قضى رالف وقته شادداً تائهاً منتقلاً بين أنحاء القصر كسفينة بغير دفة في مجرى صخري ، أو جالساً في الحديقة على كرسى كبير من الخيزران ماداً رجله وملقياً برأسه إلى الخلف وبعته تغطى عينيه .

« كان يشعر برودة حول قلبه : لم يكره في حياته شيئاً مثلاً كره هذا الأمر . ماذا يستطيع أن يفعل وماذا يستطيع أن يقول ؟ فسواء جهر برأيه أو تظاهر بغير ما يعتقد فسيكلفه ذلك نفس الجهد . إذ لا يمكنه الموافقة باخلاص أو المعارضة بأمل » . (ص ٣٦٦)

أما إيزابيل فبالرغم من توقعها معارضة رالف لزوجها إذ من الطبيعى أن يكره ابن الخالة الزوج ويعارض ، إلا أنها كانت على استعداد لهذه المعارضة . لن تلوم رالف إذا لم يظهر مشاركة كافية . وتمضى ثلاثة أيام لا يتفوه فيها رالف ببنت شقة .

وذات صباح تعود إيزابيل من نزهتها الصباحية لتجده في بقعة جميلة من الحديقة في جلسته المعتادة فتظنه نائماً . وبالرغم من أنها لضيقها قد اتهمته بعدم الاكتراث إلا أنها لم تغفل عن ظهوره بمظهر من يشغله أمر . ولكنها كانت ترجع شروده جزئياً لسوء حالته الصحية أو لأسباب تتعلق بأعماله المالية . وتقف إيزابيل تتأمله لحظة من الزمن . ولكن رالف يفتح عينيه فتجلس بجواره ويدور بينهما الحديث التالى :

« معذرة ، لقد أبقتك . إنك تبدو متعباً » .

ويقول رالف «إني أشعر بتعب شديد . ولكنى لم
أتم . كنت أفكر فيك» .

«أنعت من ذلك ؟»

«تعبت جداً . فذلك لا يؤدي بي إلى شيء .
فالطريق طويل ولا أصل أبداً» .

ثم قالت إيزابيل وهى تطوى مظلها «وللى أى
شيء تريد الوصول ؟»

«إلى نقطة التعبير كما يجب عما أظنه فى أمر خطبتك»
فأجابت بخفة «لا تفكر كثيراً فى أمرها» .

«أتعنين أن ذلك ليس من شأنى ؟»

«بعد نقطة معينة» . نعم .

«تلك هى النقطة التى أود تحديدها . ظننت أنك
قد تجدينى بمقصراً فى حسن السلوك ، إذ لم أهتمك
بعد»

«لاحظت ذلك طبعاً . وعجبت لماذا التزمت
الصمت ؟» .

«كانت هناك أسبابا كثيرة . سأخبرك الآن» .

وخلع رالف قبعته ووضعها على الأرض . ثم جلس
ينظر إليها . واثكأ إلى الخلف فى ظل تمثال برنيسى
(الموجود فى الحديقة) ورأسه يستند إلى القاعدة

المرمرية ، وتدل ذراعه إلى جنبه ، ويده على جانبي
مقعده الواسع . بدا فى وضع غير رشيق وغير مريح
وتردد طويلاً . ولم تقل إيزابيل شيئاً . كانت عادة تشعر

بالأسف نحو الناس عندما يجدون أنفسهم فى حيرة ،
ولكنها صمت ألا تساعد رالف فى التفوه بكلمة
لا تشرف قرارها الرفيع . وأخيراً قال رالف «لم أفتى

بعد من دهشتي . لقد كنت آخر شخص أتوقع أن أراه
وقد وقع فى الشرك» .

«إنى لا أدري لماذا تقول وقع فى الشرك» .

«لأنك ستوضعين فى قفص» .

فأجابت «فاذا أحيت القفص فيجب ألا يقلقك

هذا» .

«هذا ما أعجب له . هذا ما كنت أفكر فيه» .

«إذا فكرت أنت فيمكنك أن تتصور كيف

فكرت أنا . إنى مقتنعة بأنى على صواب» .

«لا بد أنك تغيرت تغيراً كبيراً . فبذ عام كنت

تقدرين حريتك فوق كل شيء . كنت تريدن فقط

أن ترى الحياة» .

فقال إيزابيل «لقد رأيته . وأعترف أنها لا تبدو

لى الآن كماكان مفر لهذا الحد» .

«إنى لا أدعى أنها كذلك . ولكنى كنت أظن

أنك تنظرين إليها نظرة ودية وتحاولين رؤية الميدان

بأكمله» .

«لقد رأيت أنه ليس بمقدور المرء أن يفعل شيئاً

عاماً هكذا . لا بد أن يختار المرء ركناً ويولي عنايته» .

«هذا هو اعتقادى . يجب على المرء أن يختار خير

ركن . لم أكن أدري ، طيلة الشتاء ، بينما كنت أقرأ

خطاباتك الممتعة ، أنك كنت تختارين . لم تذكرى شيئاً

عن ذلك . لقد جعلنى صمتك أتخلى عن حيطتى» .

«لم يكن هذا أمر محتمل أن أكتب لك عنه . وللى

جانب ذلك ، فانى لم أكن أعلم شيئاً عن المستقبل . فقد

حدث كل هذا حديثاً . وحتى إذا كنت قد أخذت

حيطتك فإذا كنت تفعل ؟» .

«كنت أقول : انتظرى قليلاً» .

«أنتظر ماذا ؟»

فقال رالف وعلى وجهه ابتسامة مضحكة . بعض

الشيء بينما وجدت يده طريقهما المعتاد إلى جيبه :

«تنتظرى نوراً أقوى قليلاً مثلاً» .

«ومن أين كان لهذا النور أن يأتى ؟ منك ؟» .

«ربما كان فى استطاعتى أن أقدح شرارة أو

اثنين» .

كانت إيزابيل قد خلعت قفازيها . وأخذت ترتبهما

وهما على ركبتيها - كانت رقة هذه الحركة عرضية ،

إذ لم تكن نظرتها نظرة مصالحة : «إنك تدور وتلف

يا رالف . . إنك ترغب أن تقول إنك لا تحب مستر أوزموند ولكنك خائف ! » .

« إنى على استعداد لأن أجرح ولكنى أخشى أن أضرب ؟ » « إنى على استعداد لأن أجرحه هو ، نعم — ولكن لا لأجرحك أنت . . إنى أخشاك أنت ولا أخشاه فإذا تزوجته فانه لن يكون من حسن حظى أن صرحت برأى » .

« إذا تزوجته ؟ وهل كان لديك أمل فى أن تثيقنى عن عزى ؟ » .

« بالطبع يبدو لك هذا ضرباً من العبث .
فقلت لإيزابيل بعد قليل « لا ، بل يبدو لى شيئاً يدعو إلى الرثاء » .

« إن هذا لا يغير من الأمر شيئاً . إن ذلك يجمع لى مضحكاً للدرجة الرثاء » .

ربت إيزابيل مرة أخرى على قفازها الطويلين « إنى أعلم أنك تكن لى مقداراً كبيراً من المحبة . . هذا شيء لا يمكننى التخلص منه » .

« بحق السماء لا تحاولى . احتفظى بذلك أمام ناظريك فسيقنعك هذا إلى أى حد أتمنى لك أن تفلحى » .

« ما أقل ثقتك فى ا »

ساد السكون لحظة وبدت الظهيرة الحارة وكأنها تنصت ثم قال رالف « إنى أثق بك ، ولكنى لا أثق به » رفعت عينها ورمته بنظرة واسعة عميقة « لقد قلتها الآن ، وإنى مسرورة لأنك وضحت الأمر بهذه الدرجة ولكنك ستقاسى بسبب ذلك » .

« لن أقاسى إذا كنت عادلة » .

وقالت إيزابيل « إنى عادلة جداً » (ص ٣٧٠ — ٣٧١) .

بصور جيمس هذا الموقف بمنتهى الجمال والركة بحيث تضيف كل لمسة وكل جملة من الحديث الجارى بين هذين الشخصين إلى شعورنا بإحساس رالف المرهف وحبه لإيزابيل ورغبته الصادقة فى تحذيرها وإلى إدراكنا لغضب

إيزابيل وشعورها ببطوليتها لا فى الدفاع عن أوزموند فقط ، بل فى محاولتها للكشف عن فكرتها ورغبتها فى العدل تجاه رالف . يقول رالف معبراً عن مدى خيبة أمله فى مستقبلها :

« إن هذا لا يشبه فى شيء الزواج الذى كنت أتصورك ستعقدينه » . (ص ٣٧٢)

ثم يضيف مفسراً :

« لقد كنت أمتع النفس برويا فائنة لمستقبل . . كنت أسرى عن نفسى بتخطيط مصير رفيع لك . لم يكن به شيء من هذا القبيل . فما كنت لتبهطى بهذه السرعة » .

« أتقول أبط ؟ » .

« إن هذا يعبر عن إحساسى بما حدث لك ، على أى حال . كنت تبدين لى وكأنك تحلقين بعيداً إلى أعلى فى زرقة السماء ، وكأنك تبهرين فى نور وضاء — فوق رموس الرجال . وبغثة يلقي شخص ما بوردة ذابلة لم تفتح أكمامها — بقذيفة كان يجب ألا تفصل إليك أبداً — وبسرعة تهبطن إلى الأرض . . إن هذا يؤلئى ، يؤلئى كما لو كنت أنا الذى سقطت » . (ص ٣٧٣) .

وتتعجب إيزابيل من قوله هذا بقولها : « إنه ما من شيء أرفع للفئة من أن تزوج شخصاً يعجبها » فيجيب رالف :

« إن إعجابك بالشخص الذى نتحدث عنه هو ما أجرو على نقله ، يا ابنة خالتى العزيزة . كنت أتصور الرجل الذى تزوجينه ذا طبيعة أكثر نشاطاً وأكثر اتساعاً وحرية » . وتردد رالف ثم أضاف : « لا يمكننى التخلص من الإحساس بأن أوزموند بشكل ما — لنقل ، صغير » . لقد نطق هذه الكلمة الأخيرة دون ثقة كبيرة ؛ كان يخشى أن تغضب مرة أخرى . ولكن أدهشه أن بقيت هادئة ، وكان منظرها يوحى بأنها تفكر .

« صغير ٩ » لقد جعلت الكلمة تبدو هائلة .

« أظن أنه ضيق الأفق ، محب للذات . يأخذ نفسه

مأخذ الجدل بإسراف » .

ويستمر الحديث وكل يدافع عن وجهة نظره ،
والف بين نقائص أوزموند وإيزابيل تدافع عما تراه من
مزايه ومحاسن ويختم رالف الجزء الأول من هذا الحديث
بقوله إنه ما تحدث بهذه الطريقة إلا لأنه يحب إيزابيل ،
ولكنه يضيف عندما تنهمم بالتحيز نتيجة لذلك بأنه
يحبها حباً لا أمل فيه . وتقول إيزابيل في كلمات تعلق
بذهن القارئ ويذكرها بعد فشل زواجها واكتشافها
حقيقة زواجها :

« إنك تفعل خيراً بتحذيري ، إذا كنت فعلاً منزعجاً
ولكني لا أعد بالتفكير فيما قلت : سأنسى ذلك بأسرع
ما يمكن . حاول أنت أيضاً أن تنساه . لقد أدبت واجبك
ولا يمكن لأى إنسان أن يفعل أكثر من ذلك . لا أستطيع
أن أشرح لك ما أشعر به ، وما أؤمن به ، ولن أفعل
حتى إذا استطعت ذلك . إنى لا أفهم فكرتك عن مستر
أوزموند . لا يمكننى أن أفها حقها ، لأنى أراه بشكل
مختلف تماماً . إنه ليس مهماً - لا ، إنه ليس مهماً ؛
إنه رجل لا يعنيه المركز المهم على الإطلاق إذا كان
هذا ما تعنيه عندما تسميه « صغيراً » ، إذن فهو
« صغير » بالدرجة التى تحلو لك . أنا أسميه « كبيراً » -
إنه أكبر شيء أعرفه . . . هل تشكون من أن أوزموند
ليس غنياً ؟ إن هذا بالذات هو سبب ميلى له . فمن
حسن الحظ أنى أملك مالا كافياً . لقد مرت بي لحظات
كنت أود أن أذهب وأرعى بجانب قبر والدك : لعله
قد فعل خيراً مما قصد عندما مكنتنى من أن أتزوج رجلاً
فقيراً - رجلاً تحمل فقره بغزة وعدم اهتمام . إن مستر
أوزموند لم يجبر ولم يكافح - إنه لم يعبأ بأية جائزة
دنيوية . إذا كان هذا ضيقاً للأفق وحباً للذات ، إذن فكل
شيء على ما يرام . إنى لا أخشى مثل هذه الكلمات .
ولست حتى مستاءة ؛ ولكنى آسفة فقط لأنك

ترتكب خطأ كهذا . قد يخطئ الآخرون ولكنى
أعجب أن تخطئ أنت . فأنت يمكنك أن تعرف الرجل
الكريم إذا رأيت واحداً ، فلك عقل ممتاز . أما مستر
أوزموند فلا يرتكب أخطاء . إنه يعرف كل شيء ،
يفهم كل شيء وروحه أكثر الأرواح رقة وحناناً
وسمواً . لقد كونت فكرة خاطئة . إنه لمن المؤسف ،
ولكنى لا أستطيع أن أقول شيئاً . فهذا شأنك أنت
وليس شأنى » . (ص ٣٧٥ - ٣٧٧) .

ويختم رالف بقوله : « لقد قلت لك في العام الماضى
إذا وجدت نفسك فى مأزق فأسألكم وكأنى قد بعث
نفسى . هذا ما أشعر به اليوم » . ويضيف أنه يظن
الإنسان فى مأزق إذا كان على خطأ . وتجبب إيزابيل
« إنى لن أشكوك من أى مأزق » . (ص ٣٧٧) .

وهكذا تسد إيزابيل أذنها عن سماع النصيحة وتجد
نفسها سعيدة بخطبتها لرجل تحبه وتحترمه ، تستسلم له
بتواضع وتزوجه بفخر وتشعر أنها بزواجها منه
لا تأخذ فقط ، بل تعطى أيضاً . أما أوزموند فكان نجاحه
فى الحصول على إيزابيل أكبر حافز للسلوك المثالى :
فكان محباً مثالياً ، عطوفاً رقيقاً ، واثقاً من نفسه .

أما أول إشارة إلى فشل هذا الزواج فتأتى من مدام
مرل فى حديث لها مع شاب أمريكى وصديق قديم
لإيزابيل ، يود الزواج من بانسى أوزموند ويرى أن
مستر أوزموند أى إيزابيل تستطيع أن تساعد ، ولكن
مدام مرل تنصحه بالأى يكون السبب فى توسيع شقة
الخلاف بين الزوجين . يحب إدوارد روزير بانسى
ويرغب فى الزواج منها ولكن الأب يعتقد أنه ليس
كفاً لها لأنه ليس غنياً بالدرجة الكافية . ولكن مدام
مرل ترى أن تحتفظ به مؤقتاً ، بينما ترفض إيزابيل
مساعدته رغم عطفها عليه لأنها تدرك موقف الأب منه .
تبادل بانسى الحب ولكن أوزموند واثق من أنها لن
تعصى له أمراً فقد رباها تربية صحيحة .

وجدير بالذكر أننا نرى كلا من إيزابيل وزوجها أول ما نراها بعد الزواج من خلال نظرة روزير لها - روزير جامع التحف الذي يدرك أصالة الشيء وقيمته الحقيقية بغض النظر عن قيمته الكتالوجية أو المالية . وبينما يبدى إعجابه بإيزابيل وقلقه على سعادتها فهو الذي ينطق أيضاً بكثير من الأحكام على أوزموند في مجرى تعبيره عن استيائه من موقفه من حبه لبانسي . فعندما يقول مثلاً : « إن بانسي لا تأبه مثقال ذرة بمال الشخص » ، فترد إيزابيل « ولكن أباه يأبه كثيراً » ، يقول « آه لقد أثبت ذلك » . كذلك فأننا نراها من خلال موقفهما بالنسبة لحب بانسي وروزير .

وتسير الأحداث بسرعة أكبر في الجزء الثاني من الرواية وكأن جيمس يعوض عن بقاء الجزء الأول وخاؤه نسبياً من الأحداث ، فيحشد هنا عدداً من المشاهد الرائعة التي تحمل القصة إلى نهايتها المحتومة .

ومرة أخرى يظهر لورد واربرتون على مسرح الأحداث بصحبة رالف الذي يحضره إلى إيطاليا نظراً لاشتداد المرض عليه وحاجته إلى الانتقال إلى جو أكثر دفئاً . ومرة أخرى يبدى الصديقان قلقهما على إيزابيل وشكهما في سعادتها عندما يكتشف كل منهما أن حجة الآخر في الحضور إلى روما لم تكن سوى عذر واه لرؤيتها . ويدرك الاثنان أن إيزابيل لن تشكو تعاسها لأحد ، فهي تضع على وجهها قناعاً سميكاً من المدود والآلية . ثم يحضر إلى روما كاسبار جودوود وهنريتا ستاكبول صديقة إيزابيل وتكمل الدائرة .

وتبدأ الأمور في التعقيد عندما يبدى لورد واربرتون اهتماماً ببانسي ، وتظهر مدام مرل بغتة في روما بعد أن ظلت بعيداً لمدة طويلة بعد زواج إيزابيل . وتلاحظ إيزابيل تغيراً في سلوكها ومبالغة في الابتعاد عنها وكأنها تذكر قول رالف إن مدام مرل تسرف في كل شيء حتى إن كمالها يبدو مبالغاً فيه كما تعجب لما تسرب لها مدام مرل ذات يوم من أنها إنما تبتعد حتى لا تسبب لها

أية مضايقات ، خاصة وأنها صديقة قديمة لأوزموند . وترجو إيزابيل إذا ما وجدت ما يثير غيبتها أن تلومها هي لا أوزموند .

وذات صباح تعود إيزابيل من نزهتها لتجد مدام مرل وأوزموند في وضع يلتقي كثيراً من الضوء على بعض ما ساورها من شكوك عن مدى علاقتهما . إذ تجد أوزموند جالساً بينما تقف مدام مرل وبينهما إحدى النظرات التي تطول بين شخصين رفعت الكلفة بينهما . وقبل أن تنصرف مدام مرل وبعد أن يتركهما أوزموند تفشى هذه لإيزابيل بما يدور بخاطرها بشأن إعجاب لورد واربرتون ببانسي وتشير إلى أنه بمقدورها أن تجعله يتزوج بانسي بما لها من تأثير عليه ، مذكرة إياها بأنها إذا كانت قد رفضت هي الزواج منه فلا أقل من أن تنهي له فرصة الزواج من أخرى .

وفي الفصل التالي نرى إيزابيل تفكر في هذا الأمر وترى أن زواج بانسي من لورد واربرتون سيسعد زوجها . هي تريد أن تسعد زوجها . لماذا لا تساعد إذن على إتمام هذا الزواج ؟ غريب أن يعجب لورد واربرتون ببانسي « الدمية » الصغيرة الهادئة ، ولكن من يعلم ما يعجب الرجال . وفي الوقت الذي تقرر فيه إيزابيل أنه من الجميل فعلاً أن يتم هذا الزواج يدخل أوزموند ويفسد كل شيء . فهو يصمم بدوره أنه بما لها من نفوذ على لورد واربرتون يمكنها أن تساعد على إتمام هذا الزواج وتتساءل إيزابيل فيما بينها وبين نفسها : هل يتصور أوزموند أن إيزابيل ستساعد في جعل لورد واربرتون الذي ما زال يحب زوجة أوزموند على أن يتزوج ابنته ؟ لا لن تفعل ذلك .

وفي الفصل الثاني والأربعين الذي يعد من خير فصول « صورة سيدة » تواجه إيزابيل هذه الصورة كما تواجه صورة مدام مرل وأوزموند كما رأتهما في اجتماعهما الذي يدل على الألفة والقرب . وفي نظرة إلى الوراء تستعرض إيزابيل زواجها ، وكيف خلعت

فيه ، كيف خلدتها أوزموند ، وكيف خلد بها هو بدوره . لقد ظننا سنسلم له ولآرائه وتقاليده . لقد كان أسوأ شيء بالنسبة له أن اكتشف أن لها شخصية خاصة وفكراً خاصاً . كان يتصور أنها ستتقبل آراءه وتجعل منها آراءها . فلما أبدت أنها ستستخدم قدرتها على الحكم على الأشياء ، بل وستظهر احتقاراً لآرائه لم يكن باستطاعته إلا أن يكرهها :

« لم يكن هذا نتيجة لخطئها - إذ لم تمارس هي أي نوع من الخداع ؛ لقد أعجبت وصدقت . خطت الخطوات الأولى بمنتهى الثقة ، وبغثة وجدت أن المنظر اللانهائي للحياة المتكاثرة ، حارة ضيقة في نهايتها حائط كالحج ، وبدلاً من أن توصل إلى أماكن السعادة العالية حيث يبدو العالم للمرء من تحته ، وحيث ينظر إلى أسفل بشعور من الرفعة والامتياز ، وبحكم وبخار ويشعر بالشفقة ، إذا بها توصل إلى أسفل ، إلى الأرض ، إلى الممالك المحدودة ، ممالك الحزن والضيق حيث نسمع من أعلى أصوات حياة أناس آخرين ، حياة أسهل وأكثر حرية ، وحيث تعمل على جعل الشعور بالفشل أكثر عمقاً . كان شعورها العميق بعدم الثقة بزوجها - كان هذا ما أظلم الحياة لها . : : : لقد حدث ذلك تدريجياً - لم يحدث حتى نهاية السنة الأولى من حياتهما معاً ، تلك السنة التي اتسمت أول الأمر بألفة تدعو إلى الإعجاب . ثم بدأت تتجمع الظلال ، كما لو كان أوزموند عن عمد وسوء نية تقريباً قد أطفأ الأنوار ، الواحد تلو الآخر . كان الغسق في بادئ الأمر رقيقاً غير واضح ، وكانت لا تزال ترى طريقها فيه . ثم ازدادت كثافته بصفة مستمرة ، وحتى إذا انقشع من وقت لآخر أحياناً فقد كانت هناك أركان بالذات من المنظر الذي يمتد أمامها - أركان حالكة الظلام لا يمكن اختراقها » . (ص ٤٦١ - ٤٦٢)

ويصور هذا الفصل خير تصوير بويس إيزابيل ووجدتها ، فهي حريصة أشد الحرص ألا يرى أصدقاؤها

وخاصة رالف ما أصاب حياتها من فشل وما حل بها من ظلمة . ويناقش الأصدقاء فيما بينهم بويس وفشلها : لورد واربرتون ورالف ، جودوود ورالف ، أما الوحيدة التي تحدث إيزابيل صراحة كعادتها فصديقتها هنريتا ستاكبول . وعندما يشتد المرض برالف ويقرر العودة إلى إنجلترا فتطلب إيزابيل من كاسبار جودوود أن يصحبه في سفره ، يشعر الجميع أن إيزابيل تود التخلص منهم جميعاً (لا تحرد أن أوزموند يكره أصدقاءها) ، بل لأنها تشعر أنهم جميعاً يلاحظونها ، ويودون اكتشاف دخليتها . تقول هنريتا « إنك مثل الغزال الجريح الذي يسعى بعيداً نحو الظل الداخلي » . (٥٤٦) . أما رالف فأخبر كلماتها لها : « لقد كنت أرغب في الحياة من أجلك . . . ولكن يبدو أنني لا أستطيع أن أقدم لك أية خدمة » . ولكنها إذ تشعر بأن نهايتها قد حانت وعمدى عطفها عليه تقول « إذا استدعيتني فسألبى النداء » فيرد قائلاً « سأبقى هذه المتعة إلى النهاية » .

وسرعان ما تصل برقية من مسر تنشيت تطلب من إيزابيل بناء على رغبة رالف الحضور إذا أمكنها ذلك . تصل هذه البرقية في وقت تشد فيه الأزمة بين إيزابيل وزوجها نتيجة لظن أوزموند أن إيزابيل قد عملت على إبعاد لورد واربرتون عن بانسي ، كما تلومها مدام مرل على ذلك . ويبدى أوزموند عدم موافقته على سفر إيزابيل لرؤية رالف الذي يكرهه . وفي هذه الحالة من البؤس واليأس ، تثير إيزابيل شفقة الكونتيسة جيميني أخت أوزموند التي لا تحبه كثيراً ، فتكشف لها عن حقيقة العلاقة بين أوزموند ودام مرل وأن بانسي ابنتها ، وتؤكد لها أن مدام مرل قد رتبت زواجها من أوزموند كي تحقق لابنتها حياة رغدة .

وتكاد تنهار إيزابيل تحت وقع الصدمة ولكنها تقرر السفر . وتذهب قبل سفرها لزيارة بانسي التي أعادها والدها إلى الدبر الذي تعلمت فيه ليعبدها عن روزير

الذى باع جميع تحفه ليتزوجها ولكن الأب رده خائباً .
وهنا نرى مثالا آخر لقسوة أوزموند ومادينه — إذ
يضحى بسعادة ابنه أملاً فى حصولها على زوج أغنى
وأهم اجتماعياً . ونرى الفتاة الرقيقة ترتعد خوفاً من
والدها وترجو إيزابيل ألا تهجرها وتعد إيزابيل بالعودة
وهناك أيضاً تقابل إيزابيل مدام مرل بعد أن عرفت
حقيقتها . ولكن مدام مرل التى تستنتج ما حدث تخبرها
أن ابن خالتها رالف هو فى الحقيقة المسئول عن كل
ما حدث لها ، فهو الذى أقنع والده أن يترك لها كل
تلك الثروة .

وقبل وفاة رالف تشكره إيزابيل على عطفه عليها
ومساعدته لها وتعترف له ببؤسها وبمحاولتها لإخفاء ذلك
عنه ، ولكنه يخبرها أنه كان يعلم طيلة الوقت ما تعانیه .
وهكذا يقترب الصديقان فى لحظة من السعادة العميقة
والرضا . ويؤكد لها رالف بأخيراً أنفاسه تقريباً . أنها
« وإن كانت موضع كره فقد كانت أيضاً موضع
حب ، لا بل عبادة » .

وللمرة الأخيرة يجتمع الأصدقاء حول وفاة رالف
ويواجهنا السؤال : ماذا تفعل إيزابيل الآن؟ تعلم إيزابيل
أن لورد واربرتون على وشك الزواج من فتاة
أرستوقراطية وإن كان سلوكه نحوها لا يقنعها تماماً أنه
تغلب على حبه لها . أما كاسبار جودوود فيظهر أمامها
مرة أخرى ليعرض عليها حبه ويرجوها ألا تعود
لزوجها وتبقى معه . ولكنها ترفض . وكأن جيمس
يدرك ما قد يشهده قرار بطلته من شكوك فى أذهان
القراء ، فيقدم لنا لمسة إنسانية بارعة عندما يصور
إيزابيل وقد احتضنها جودوود فى فورة من الحب
البارم ، فتشعر بضعف مفاجئ وكأنها تصبوا للاستسلام ،
وتحس لأول مرة مدى إخلاصه — وكأن حبه « يلفها
ويرفعها عن الأرض » فى الوقت الذى تشعر فيه بثقل
من الرصاص يشدها إلى أسفل . ولكنها تتخلص من

بن ذراعيه لتندفع فى الظلام نحو المنزل بسرعة ودون
تردد .

وهكذا نرى إيزابيل ترفض الحب والخلاص من
السجن المظلم الذى تحولت إليه حياتها لتعود إلى زوجها ،
لأن ذلك هو الطريق الوحيد الذى تراه أمام الزوجة التى
تتمتع بضمير رائع وإحساس بالواجب ، وتقبل نتائج
عملها الخر واختيارها وخطئها . طالما نوقشت هذه النهاية
وادعى القراء أنها لا تتمشى مع بقية الأحداث ولا تتفق
مع شخصية البطلة . فهم يتوقعون إيزابيل الحرة المستقلة
التي لا تخضع للتقاليد أن تترك زوجها . ولكن الواقع
غير ذلك ، فإيزابيل الحرة الطليقة هى إيزابيل الفتاة
الجزئية التى لم تختبر الحياة ، أما إيزابيل التى تعود إلى
روما فهى إيزابيل الزوجة التى عرفت الحياة والتى
فقدت حريتها ولكنها ما زالت تحتفظ بفكرتها عن الحق
والواجب ، بل وعن نفسها وعن نزاهتها وقيمتها . فكما
نجد كلمتى الحرية والاستقلال تسودان الجزء الأول من
الكتاب نجد كلمتى الشرف والواجب تتكرران بشكل
ملفت فى الجزء الأخير منه .

تلك إذن لمحة عن صورة السيدة التى يقدمها لنا
جيمس فى بناء متناسق مترابط يحكم التنظيم ونسيج فى
يفيض حيوية وثراء ، ويعتمد على اللفظ المعبر والصورة
والرمز . لقد أصاب ف . ر . ليفز عندما أطلق على
جيمس تعبير « الروائي الشاعر » وفسر ذلك بالإشارة
إلى قول هوثورن الروائي الأمريكى « إن جيمس دائم
البحث عن صور تتخذ مكانها فى تقابل تصويرى جميل
مع الحقائق النفسية التى يعنى بها . فهذا البحث بالطبع
من جوهر الشعر »^(١) . فإذا أضفنا إلى ذلك قول
جوزيف كونراد أن جيمس « مؤرخ الضمير الرائع »^(٢)
لوجدنا أن عمق اهتمامات جيمس وجدتها تتضح أولاً فى

(١) انظر "The Great Tradition," p. 129.

(٢) انظر "Views on the Art of the Novel", pp. 227-282.

نوع المسائل النفسية والخلقية التي تشغله وفي عكوفه على تصويرها فنياً خير تصوير ثانياً ، فهذا في الواقع جوهر اهتمامه بالحياة والفن .

وهكذا نرى أن روعة « صورة سيدة » لا تكمن فقط في أهمية الموضوع الذي عالجته وفي روعة شخصية البطلة ، بل وفي المقرة الفنية التي صور بها هذا الموضوع . أما من ناحية البناء ، فبالرغم من تعدد الشخصيات وثنائها مثلاً فإنها جميعاً لازمة وهامة بالنسبة للخطة الكلية للرواية . ففي تقابلها وتضادها توضح بعضها بعضاً وتسهم بنصيبها في الخطة الكلية . ففي تقابل لورد واربرتون وأوزموند ، وكاسبار جودوود وأوزموند ، ورالف وأوزموند مثلاً تتضح لنا شخصية أوزموند وما قد يمثله . فهو من ناحية الفنان المدعى والإنسان الأناني الضيق الألق ومن ناحية أخرى الأمريكي المستوطن في أوربا الذي تنقصه صفات الأوربي الحقيقي والأمريكي معاً ، بينما يمثل واربرتون نتاج الثقافة الإنجليزية الحقيقية الذي تغلب عليه صفاتها الحميدة ، ويمثل جودوود الحياة الأمريكية بما يمتاز به من صراحة واستقامة وما قد يصحبهما من حاجة إلى الصقل ، بينما يجمع رالف صفات كل من الحضارتين إلى جانب صفاته الشخصية من ذكاء ورقة ووعى رائع . كذلك الحال بين الشخصيات النسائية في الرواية . فدامرول المغتربة الأمريكية الكاملة لا تملك من الصفات الأمريكية شيئاً ولكنها تملك صفات الحضارة الاجتماعية التي تمثلها وكأنها - في سعة تجاربها ومعرفتها الاجتماعية وضعوبة الإمساك بها - العالم الكبير المستدير بأكمله كما يصفها رالف ، تقابلها مسز تشيت بصراحتها وحدتها وسلوكها الذي يترك كما يشير ليفيز أثراً كحد السكين . ثم هناك الكونتيسة جيبيبي سيدة المجتمع التي فشلت في إخفاء أمر مغامراتها ولكنها ما زالت تحمل قلباً رقيقاً يحن لإيزابيل في محبتها وإن كانت لضعف شخصيتها وسيطرة دمام مرل عليها لم تتمكن من تحذير إيزابيل في

الوقت المناسب . هناك أيضاً هنريتا ستاكبول الصحفية الجريئة الحرة التي تمثل المرأة الجديدة ونوعاً آخر من استقلال الشخصية يقابل استقلال إيزابيل ، كما تمثل البراة الأمريكية التي تزدهر في تعرضها الحر للعالم . يقابلها نمط الزهرة النقية والبراءة التي يسبح حولها بسياج من العناية والحيلة الذي يمثله بانسى .

أما استخدام جيمس للصورة والرمز في روايته هذه للتعبير عن الحقائق النفسية والخلقية والكشف عن حقيقة الشخصيات وتطورها فيحتاج لمقال مستقل . فإذا اتخذنا على سبيل المثال تصويره لشخصية إيزابيل في مراحل مختلفة من قصتها لوجدنا مثلاً كيف يراها رالف بادئ الأمر كعمل فني رائع ألقت به المقادير في طريقه ، ثم كيف تشعر إيزابيل بعد عودتها من رحلتها الطويلة في الشرق الأوسط من أنها أكبر سناً وأنها كالعمل الفني تزداد قيمته بمضي الوقت ، ثم كيف ياملها روزير جامع التحف الخبير وهي تقف في أحد أبواب بيتها المذهبة في روما ، ثم كيف نشعر أن أوزموند قد أفلح في إضافة تحفة نادرة إلى مجموعته ، تحفة خدع هو في حقيقتها ، إذ لم يدرك مدى أصالتها وكأنه حطمها بلمسته ، إذ نلاحظ كيف يحلو لإيزابيل بعد فشل زواجها أن تجلس بين أطلال روما وآثارها التي تهدمت وتحطمت وكأنها واحدة منها .

ومن ناحية أخرى يراها رالف في بادئ الأمر كسفينة يود أن يضع شيئاً من الريح في شراعها ثم نراها في النهاية كسفينة تنقاذها الأمواج في بحر عاصف . كذلك يتصورها رالف طائراً حلقاً فوق رعوس الجميع ثم يشير عند خطبتها إلى أنها أمسكت وستوضع في قفص ، بينما نشعر طيلة الوقت بوجود فكرة الفخ الذي تسعى دمام مرل لإيقاع إيزابيل فيه والتي تسعى نحو تديجة لثاليتها وجهلها بالحياة . وفي النهاية تشعر إيزابيل بأنها سحينة ذلك القصر الكبير الذي أنه أوزموند تبعاً لذوقه الخاص والذي أصبح رمزاً لذلك الزواج

الفاشل القائم فعلا على التقاليد التي تسحقها كالرحي
كما يقول رالف . وترى إيزابيل نفسها بدلا من ذلك
الإنسان الحر الذي كانت تتخيله ، مجرد أداة حديدية
معلقة استخدمتها مدام مرل وأوزموند لأغراضهما
الخاصة . وعندما تفكر في وفاة رالف تحسده ، وترى
في فكرة العدم الكلي فكرة جميلة كرويا حمام بارد في
حوض من المرمز في حجرة مظلمة ، في بلد حار . .
وفي النهاية عندما يعرض عليها كاسبار جودوود فكرة
البقاء معه بعيداً عن زوجها قائلاً إن العالم مكان كبير
جداً وترد قائلة لا بل العالم صغير جداً ، يبدو لها العالم
في الواقع أكثر اتساعاً منه في أي وقت آخر ، يبدو
وكأنه يمتد ويتسع أمامها كبحر هائل ، حيث تطفو هي
في حياة لا قاع لها . وتشعر وكأن المساعدة التي كانت
تنوق لها قد جاءت في سيل جارف . ولكنها ترفض هذه
المساعدة . وعندما تتخلص من ذراعي كاسبار في
الحديقة وتذهب بعيداً عنه نحو باب المنزل يعبر جيمس
عن لحظة الرؤيا التي تلتقي أمام إيزابيل بهذه الكلمات

البسيطة الجميلة ، التي تضع اللبسة النهائية لبطلته ذات
الضمير الرائع :
« تلفتت حولها من كل ناحية ، وأنصتت قليلاً ،
ثم وضعت يدها على المزلاج . لم تكن تدرى من قبل أين
تتجه ؛ ولكنها عرفت الآن . عرفت أن هناك طريقاً
مستقيماً جداً » .

غير أن تصوير جيمس للشخصيات واستخدامه
للصورة والرمز والأسلوب المعبر ليست إلا بعض
جوانب عدته الفنية . ولعل ليفيز يعبر عن ذلك خير
تعبير عندما يقول : « إن اهتمام جيمس الدائم والعميق
بالحقائق النفسية يجد تعبيراً لا فيما يجب أن يسمى
باستخدام الرمز فحسب ، بل أيضاً في معالجته
للشخصيات والأحداث والحوار وفي كلية الحبكة ،
حتى إنه عندما يبدو وكأنه يقدم لنا رواية سلوك فهو
يعطينا شيئاً أكبر شيئاً يلعب فيه الشر دوراً أساسياً » (١)

Leavis, "The Great Tradition," p. 129. (١)



الأشعار الغنائية لسافو

بماتم

الدكتور ابراهيم بكر

وايوريجيوس Eurygyos . وكان الأول يعمل ساقياً للخمر بقاعة المدينة ، وكان هذا العمل مقصوراً على شباب الأسر الكريمة الذين يتميزون بحسن المظهر . ونحدثنا أخبار الرواة بأنها هاجرت من مسقط رأسها إلى مدينة ميتليني Mytilene عاصمة الجزيرة حيث عاصرت الفترة العصبية التي كانت تفتح المدينة في ذلك الوقت ، إذ كانت الديمقراطية تعمل على الإطاحة بطبقة النبلاء القديمة ، وذلك تحت زعامة جماعة من الباحثين عن الشهرة والمجد على رأسهم ميلانخروس Melanchros وميرسيلوس Myrsilos والحكيم بتاكوس Pittakos . وليس هناك ما يدعو إلى الشك في صحة الرواية التي تقول إنها لجأت إلى صقلية فراراً من حالة الاضطرابات التي سببتها تلك الثورات في جزيرة ليسبوس ، فقد كانت صقلية وطناً ثانياً لكثير من المنفيين السياسيين ؛ ومما لا شك فيه أن أهل سيراكوز Syracuse بصقلية قد أقاموا تكريماً لها تماثلاً هو قطعة رائعة من أعظم ما نحتة الفنان سيلانيون Silanion في القرن الرابع ق. م . ، وقد ظل هذا التمثال يزين قاعة مدينتهم حتى سرقة فيرس Verres في القرن الأول ق. م. Cf. Cic. In ver. II. iv. 126-127

سافو هي أعظم شعراء الشعر الغنائي اليوناني ، وقد وضعها ديونيزيوس الهاليكارناسي (Lit. comp. 23) على رأس قائمة شعراء هذا اللون من الشعر ، وجعل أناكريون Anacreon وسيمونيديس Simonides في المرتبة الثانية بعدها .

كانت سافو معاصرة للشاعر ألكايوس Alcaeus وعلى معرفة به ، وإن فاقت شهرتها شهرته ؛ وكان لها معاً أثر كبير على أسلافهما . كان اسم سافو يلقى نوعاً من السحر على الأجيال التي جاءت بعدها من إغريق ورومان ، فنسجوا حول حياتها وأعمالها القصص والروايات ، حتى أصبح من الصعب الآن التمييز بين ما هو حقيقي منها وما هو مخفلق .

ولدت سافو Sappho (أو Psappho) باججاع معظم الآراء في الأولمبياد الثاني والأربعين (أي حوالي عام ٦١٢ - ٦٠٩ ق. م. قارن سويداس ، تحت اسم سافو) بمدينة إريسوس Eresos في جزيرة ليسبوس Lesbos ، من أبوين كريمين ينتميان إلى طبقة ملاك الأراضي . كان أبوها يسمى سكاماندرونيوس Skamandronymos وأمه Kleis . وكان لها ثلاثة إخوة: لارنخوس Larichus ونخاراكسوس Charaxos

وفي ميتلبي عاشت سافو حياة رائعة مدهشة ، فقد جمعت حولها جماعة من بنات جنسها في معهد خاص قد برهن فيه على فنون الشعر والموسيقى ، وكانت تطلق على معهدها هذا اسم *μοισονόλων οίκια* أى بيت راعيات الفنون (cf. fr. 108) ولكن يبدو أن هذا المعهد كان يعنى شيئاً أكثر من مجرد مدرسة يجتمع فيها الفتيات لتلقى بعض المحاضرات عن الشعر والموسيقى فقد كانت عضواته تشكلن ما يسمى *θιασος* ، أى اجتماع ديني مقصور على الفتيات وكان مكرساً للإلهة أفروديت . ولم تكن جماعة سافو هي الوحيدة من نوعها في ميتلبي . كانت هناك جماعات أخرى تحت إشراف بعض المنافسات لسافو مثل جورجو Gorgo وأندروميذا Andromeda . ولم تكن علاقة سافو بهن علاقة طيبة ، إذ قامت بينهن وبينها منازعات مصدرها الحقد والغرة ، الأمر الذى ساعد على نشر الشائعات عنها ، فاحتذت الكوميديا من ذلك موضوعاً للفكاهة والتسليه ، مما جعل البعض بسيفون الظن بها ويصدرون ضدها أحكاماً قاسية . وكان يربط جماعة سافو ببعضهن وبراللسن روابط صداقة متينة وحب ومودة . ولم يكن ماكسيموس التري على خطأ حين قارن علاقة سافو بتلميذاتها بالعلاقة التي كانت تربط سقراط بأتباعه (Max. Tyr. 24) . ووجه الخلاف بينهما أنه بينما كان سقراط يجمع حوله الشباب بتأثير شخصيته وسحر موضوع البحث عن الحقيقة ، كانت سافو مرتبطة مع فتياتها بروابط دينية أو نصف دينية على الأقل . لم يكن إذن بيت خادومات الإلهة أفروديت وراعيات ربات الفنون Muses مدرسة أو كلية للموسيقى والشعر ، بقدر ما كان أولاً وقبل كل شيء اجتماعاً لبعض الفتيات تحت زعامة إحداهن ، وقد كرسن أنفسهن جميعاً لعبادة الإلهة أفروديت . وكانت جماعة سافو هذه تختلف في طابعها عن جماعات الفتيات في إسبرطة ، اللاتي كن يقمن ببعض الطقوس الدينية الخاصة بالإلهتين أرتميس Artemis وهلين Helen فمن الواضح أنهن لم يكرسن حياتهن كلية للعبادة ، كما

ومن العجيب ألا نرى فيما وصلنا من أشعار سافو ما يشير إلى هجرتها لصقلية . ويبدو أن سافو كانت صغيرة عندما كانت في صقلية ، حتى أنها لم تترك في نفسها أثراً عميقاً ، أو أنها كانت منغمسة في حياتها الخاصة لدرجة أنها لم تلاحظ العالم الجديد الذى دخلته . وعلى أية حال فقد عادت سافو إلى ليسبوس وأنفقت باقى أيامها في مدينة سيتلبي .

وقد تزوجت سافو وأنجبت بنتاً أطلقت عليها اسم أمها Kleis . فهي تقول في إحدى شذراتها (٣٠) (١) : « إلى ابنة صغيرة لطيفة تشبه الزهرة الراضاء ، ألا وهى محبوبتى Kleis ، التى لا أرضى بغيرها بديلاً ، حتى ولو أعطيت كل ليديا أو ليسبوس البديعة » .

ورغم أن اسم زوجها وهو كيركيلاس Kerkylas من جزيرة أندروس Andros ما هو إلا أسطورة في نظر البعض ، إلا أنه لا يوجد أدنى سبب يجعلنا نعتقد أنها لم تزوج ، لمجرد أن عدم الزواج كان تقليداً شائعاً بين مثيلاتها في ذلك العصر . ولكن الأمر الذى لا يقبله العقل ، إذ يبدو بعيداً عن الواقع ، هو القصة التى تخكى أنها أحبت شخصاً يدعى فاون Phaon ، وأنها ألفت بنفسها من فوق صخرة ، لتتخلص من تباريح الهوى . وحقيقة الأمر تتضح بجلاء عندما نعلم أن فاون Phaon لم يكن رجلاً ، بل قوة إلهية مرتبطة بالإلهة أفروديت Aphrodite (Cf. Ath. 2. 69 d) . ويبدو أن رواية حب سافو لفاون قد شاعت على أثر ظهورها في الكوميديا الحديثة ، كما جاء في ميناندر (Fr. 312, Koch) ومن المحتمل أنها جاءت نتيجة تفسير خاطئ لبعض أشعار سافو نفسها ، التى جاء فيها وصف لجمال هذا الإله Phaon . وعلى أية حال فإن تاريخ وفاتها غير معروف ، ومن المحتمل أنها قد عمرت طويلاً ، هذا إن صح الزعم القائل بأنها كانت تقصد نفسها عندما شكت من بياض الشعر ووهن أعضاء الجسم (Fr. 118, appendix, p. 434; cf. fr. 42)

١ - أرقام الشذرات لأشعار سافو حسب ترتيبها في طبعة Lyra Graeca by J.M. Edmonds

مثل ما كان يحدث في الاحتفال بأعياد الإله هيرا في أولمبيا (cf. Paus. V, 16, 2-8) ، أما في ليسبوس فقد اتخذ الاحتفال بأفروديت شكلاً أبسط وأكثر اتصالاً بالإلهة ، فلم يكن النشاط الأساسي في الرياضة ، بل في الغناء . كانت أفروديت تكرم ربات الفنون ، وكان من المعتقد أن الاحتفال بهن يتطلب الأغاني ، وكانت سافو تدرب الفتيات المكرسات لأفروديت على الغناء .

لم تكن أفروديت الإلهة الوحيدة للحب ، كما أنها لم تكن إلهة الحب فحسب . فقد كانت الشهوة وجميع الرغبات الجسدية من اختصاص إروس Eros ، أما أفروديت فكان اختصاصها أعم وأشمل ويختلف عن ذلك ، فهي إلهة الجمال أكثر منها إلهة الرغبة فيه ، كما أنها إلهة الأزهار والبحر الباسم ، وقوتها تكن في الهبة والفتنة التي تلقها بسحرها على المراثيات ، ومن ثم فإن Eros الرغبة و Peitho الاغراء تابعان لها ، كما صورهما فيدياس Pheidias في أولمبيا Olympia .

ولكن حيث إن جمال التكوين الإنساني يصور أروع وأعظم ما في الكائنات من فتنة ، فلا بد وأن تكون واهبه مسئولة أيضاً ، ولو مسئولة غير مباشرة ، عن السحر الذي ينزل بكل من يقع نظرهم عليه . ومن ثم اعتبر الإغريق هبة أفروديت كنوع من الجنون واعتقدوا أن زناها يحتوى على فنون الغواية « التي تسلب حتى لب الحكيم » (cf. Paus. V, 16, 216-217) وكما تمثل أرتميس Artemis المثال الكامل للمرأة ، فإن أفروديت تمثل اللحظات المفاجئة للجمال المذهل الذي يطرأ على المراثيات فيغوى من يقع نظرهم عليها ويجعلهم في حالة بعيدة كل البعد عن خبرتهم العادية . وحتى يوربيديس Euripides كان يراها قوة حقيقية للطبيعة ، قوة ، وإن كانت قاسية ، إلا أنها منصفة . واعترف سوفوكليس Sophocles بقوتها التي لا يستطيع أحد الصمود أمامها . أما سافو فكانت نظرتها إليها تختلف عن ذلك ، فإن سحر الجمال

كانت تفعل تابعات سافو ، وإن كان يبدو من أغنية ألكمان Alekman المسماة « أغنية العذراء » أن فتيات إسبرطة كن يعشن في جو من المودة العاطفية ، وهذا يشير إلى احتمال وجود تشابه بين الحالتين .

كانت سافو وفتياتها يحرقن دائماً على الاحتفال بالإلهة أفروديت والإلهات التابعات لها ، أعنى إلهات الرشاقة Χάριτες ، وربات الفنون al Mousai ، وإن لم يكن هذا هدفهن الوحيد من الحياة ، فقد كن يؤهلن أنفسهن للزواج ، وكان عندما يأتي تكتب لهن سافو أغنيات الزفاف ، وبعد ذلك تقطع علاقتها بهن . ولكن حتى يحين هذا اليوم ، فقد كن يعشن حياة منعزلة بعيدة عن مجتمع الجنس الآخر ، وأفكارهن وعواطفهن كانت متجهة ناحية بعضهن ورائدتهن سافو . وقد أشرفت سافو على رغباتهن الناضجة وتمكنت من توجيهها الوجهة الصالحة ، بأن تسلت في نفوسهن بالتعاطف معهن وبالفهم الصادق لمشاعرهن وإحساسها العميق بضرورة انجذابها نحوهن . وما بقى لنا من أشعارها بين لنا إلى أى مدى دخلت سافو حياة فتياتها ، وتحم كانت تبادلهن الحب والمودة ، وكيف استطاعت أن تعبر عن روح رغباتهن .

قد لا يستطيع البعض ، من وجهة النظر الحديثة ، تقدير مثل هذا النوع من المجتمعات تقديراً صحيحاً . فلم تكن العقيدة فيها شعوراً ذاتياً بالجمال ، بل عبادة حقيقية لإلهة تؤمن بها سافو وفتياتها كل الإيمان ، إذ كانت أفروديت إلهة موجودة في نظر سافو وفتياتها ، وعبادتهن لها كانت تفرض عليهن اتخاذ موقف معين تجاه الحياة . كانت أفروديت تعتبر راعية جمال المرأة ، ومن ثم فإن جمال من يعبدنها أمر معترف به وجددير بالتكريم ، وكان هذا الجمال يناقش بحرية ويقبل على أنه سبيل للحب والإخلاص . إن عقيدة الجمال هذه غالباً ما كان يساء توجيهها ، ولكن يبدو أنها كانت تطوراً طبعياً في ديانة تقبل العطايا الطيبة عندما تأتي من الآلهة . وما لا شك فيه أن مثل هذه المجتمعات في إسبرطة كانت تعقد فيها مسابقات رياضية بين الفتيات ،

هواك ، رضيت أم أبت . » تعالى إلى الآن كما فعلت من قبل ، وخلصيني من المهوم القاسية ، وحققى كل ما يتطلع إليه قلبي ، حققى ، وكوفى حليفتى فى المعركة .»

إن الغرض من كتابة هذه القصيدة واضح إلى حد كبير . فإن سافو تستنجد بأفروديت ، لعلمها أن الإلهة قد أسرعت لتجديتها من قبل . فى وقت آخر ، كان يمكن لثل هذه الأبيات أن تعد تعبيراً عن بعض المشاعر كتبها شاعرة لتخفف بها عن نفسها من ضغط أفكارها عليها . ولكن فى حالة سافو ، وقد كانت تكتب أشعارها لتغنيها هى أو أفراد جماعتها ، فلا بد أن تكون هذه الضراعة لأفروديت قد ألقت لثل هذا الغرض . إنها ضراعة حقيقية موجهة إلى إلهة حقيقية عاشت سافو على خدمتها . إن الصديق واضح فى القصيدة بصورة لا تقبل الشك ، فالقصيدة تتحدث عن حادثة وقعت فى حياة سافو ، ولكن سافو ، على غير ما هو متوقع ، لا تذكر اسم المحبوبة ، بل تترك الموقف غامضاً . القصيدة وصلتنا كاملة ، وليس هناك ما يدعو إلى القول بأن اسمها ذكر بعد ذلك فيما لم يصلنا من القصيدة ولعل السبب فى عدم ذكر الاسم هو أن سافو كانت قد غنت هذه القصيدة فى حضور الفتاة المحبوبة بين باقى أفراد الجماعة ، وأنها كانت معروفة لدى جميع الحاضرات (Cf. Wilamowitz, Sappho und Simonides, p. 48)

هذه القصيدة توصلنا إلى قلب الحياة فى جماعة سافو ، فهى تربنا كيف أن هذه الحياة كانت تسيطر عليها الإلهة أفروديت التى تعبدها وتكرمها تلك الجماعة . فطالما كانت الفتيات عضوات فى هذه الجماعة ، فقد كان فى إمكانهن تبادل الحب مع بعضهن ومع سافو . وليس فى مثل هذه العلاقة أى غضاضة من وجهة النظر الأخلاقية اليونانية ، وحيث إنه لا يوجد أى دليل أكيد على أن هذا الحب كان مشروباً بالأثانية أو البحث عن المتعة الجسدية ، فليس هناك ما يدعو إلى توجيه أى اتهام ضد هذا الحب ، جزيئاً وراء قواعد أخلاقية أكثر

الفيزيقي بكل أشكاله ، والعواطف التى يوقظها هذا الجلال فى الفتيات اللاتى لم تطمس مشاعرهن بالزواج والولادة ، كل هذا كان بالنسبة لسافو المادة التى تصوغ منها أغانيها .

كان شعر سافو يعنى أساساً بالحياة فى جماعتها ، فقد كانت تكتب فى مناسبات محددة ولأفراد معينين ، وكانت أشعارها تعكس مشاعرهم نحو جماعتها ونحو أفراد هذه الجماعة . ويتحتم على من يريد منهم قصيدة من أشعارها أن يحاول أولاً أن يعرف الظروف التى كتبت فيها هذه القصيدة . قد يكون صواباً ، وهو أمر سهل ميسور ، تعميم معنى أشعارها وتطبيقه على مواقف إنسانية عامة ، ولكن سافو كتبت لأفراد معينين لهم صفات وطباع محددة ويختلفون عنا كثيراً ، وهذا ما يجب أن يوضع فى الاعتبار . إن طبيعة هذه المسألة يمكن أن ترى بوضوح فى القصيدة الأولى من كتابها الأول ، وهى عبارة عن أنشودة موجهة إلى أفروديت : « أى أفروديت الخالدة ، يا ذات العرش الوضاء ، يا بنت زيوس ، يا مدبرة الأمور ، إليك أتقدم بالضراعة : أى ملكتى ، لا تفعمى قلبى بالآم والأحزان ، بل أقبلنى إلى هنا ، إن كنت قد استمعت من قبل إلى صوتى ذات مرة عن بعد وأنت تطلين من عل ، إن كنت قد تركت بيت أبيك الذهبى وأقبلت بعد أن ملكت زمام عربتك . إن بجعتيك المليحتين السريعتين قد أحضراك فوق الأرض المعتمة ، وهما ترفرفان بأجنحتيهما القوية عبر السماء خلال الهواء ، وسرعان ما وصلتا . وأنت ، أيتها المباركة ، والابتسامة تعلق وجهك الخالد ، قد سألت عم ألم فى ، ولماذا أدعوك ، وماذا فى قلبى الثائر أريده أن يحدث أكثر من أى شيء آخر : » من تلك التى تودين الآن أن يوقعها الإغراء فى حبك ؟ من تلك التى تلحق بك الأذى ، أى سافو ؟ وحتى لو كانت تفر منك الآن ، فانها سرعان ما سوف تسعى إليك ، وإذا كانت لا تقبل منك هداياك ، فانها مع ذلك سوف تعطيك ، وإذا كانت لا تحبك ، فانها سوف تقع سريعاً فى

وكان من دواعي الفخر لنساء عصرها أن يقال عنهن
 لهن كسافو في الثقافة والحكمة وكتابة الشعر. (Luc. Merc.
 Cond. 36) ولعل وجود سيدة ساقطة في ليسبوس تحمل
 نفس اسم الشاعرة سافو. (cf. Ael. V.H. 12, 19 ; Suid.
 SV. Phaon) من الأمور التي أدت إلى إشاعة الخلط
 بين الشخصيتين عند بعض الرواة . كما أن التفسير
 الخاطئ لكلمة *ἑταῖρα* التي تحمل في الغالب معنى
 « محظية » من الأمور التي أدت إلى نفس الشيء ،
 فالكلمة تحمل أيضاً معنى « صديقة حميمة » وقد
 استعملتها سافو نفسها في هذا المعنى في إحدى قصائدها
 (Ath. 15, 571 d)

...τάδε νῦν ἑταῖραις

(شذرة ١٢) *ταῖς ἑταῖραις τέρπναις κάλως ἀείσω*
 « سأغني الآن لصديقاتي هذه الأغنيات غناء متقناً » .
 أما عظمتها كشاعرة فأمر يكاد يكون متفقاً عليه من
 جميع الرواة والنقاد ، فقد رفعها البعض إلى مصاف
 الإلهة واعتبرها إلهة عاشرة لربات الفنون التسعة Muses
 (cf. Anth. Pal 71, 407, 718 ; 9, 66, 506; Plut.
 Amat. 18) وأشعارها في رأى البعض الآخر
 تفوق كل شعر دبجه براع امرأة ، كما يفوق
 شعر هوميروس كل شعر جاء على لسان رجل
 (cf. Anth. Pal. 7, 15) وكان من عادة سقراط أن يطلق
 عليها اسم « سافو الجميلة » أثناء حديثه عنها ، رغم أنها
 كانت ضئيلة وسمره ، وذلك لجمال أشعارها وروعها ،
 (Max. Tyr. 24 (18), 7) ، تلك الأشعار التي تمنى
 سولون الحكيم ذات يوم أن يحفظ بعضاً منها ثم لتأت
 المنية (Stob. Fl. 58, 29) .

إن طبيعة عواطف سافو يمكن أن ترى بوضوح
 من هذه الأبيات الرائعة التي تتحدث فيها عن فتاة رحلت
 عنها ، وتستعيد أيام حياتهما معاً في شكل محادثة دارت
 بينهما قبيل الرحيل (شذرة ٨٣) .

« إذن فاني لن أرى أنتيس مرة أخرى » .

صرامة من القواعد اليونانية . فهذا الحب كان يختلف
 تماماً عن اللواط الذي كان موجوداً في بلاط
 بوليكراتيس Polycrates (طاغية جزيرة ساموس
 في النصف الأخير من القرن السادس ق . م) ، وبالرغم
 من أن الجامعتين كلتيهما لهما طبيعة تكاد تكون واحدة ،
 وهي انزال الجنس اجتماعياً عن الجنس الآخر ، إلا أن
 الحب في جماعة سافو كان أسمر بكثير عن مستوى
 الحب في البلاط السالف الذكر . فقد كان الحب في
 جماعة سافو تطوراً طبيعياً بين جماعة تؤمن إيماناً صادقاً
 بالحب وإلهته ، هذا إلى جانب أن الحب بينهن كانت
 تصونه قيود صرامة من القيم الروحية ، وتسمو به حاسة
 سافو الأخلاقية الخاصة . حقاً كانت مشاعرها تجاه
 العذارى في كثير من الأحيان مشاعر عاطفية ، ولكنها
 لم تكن بحال مشاعر جنسية . فشاعرها كانت مليئة
 بالركة والود ، فهي تحس بلوعة الفراق وذل المجران ،
 ولكن هذه كلها مشاعر طبيعية لشخصية كسافو تحس
 إحساساً عميقاً وتعبير بوضوح عما تحس . وإنه لمن سوء
 الحظ لطبيعة سافو الغريبة وعبقريتها الفذة أن الشذرات
 الباقية من أشعارها محوطة بالغموض ومليئة بالأنكار
 المتضاربة ، فهي أحياناً لودعية ، وأحياناً أخرى
 خيالية ، وفي بعض الحالات عاطفية ، بل وعاطفية
 جداً حتى تبدو مرضية سوداوية ، مما دعا البعض ،
 ممن لا يتوخون الدقة في إصدار أحكامهم ، إلى اتهامها
 بالخلاعة والخبون ، واعتبارها امرأة ساقطة ؛ وهذا
 يتنافى تماماً مع الاحترام الذي كان يبداه كتاب العصور
 القديمة أثناء حديثهم عنها . فأرسطو (Rhet. 1398 B)
 يحدثننا عن تقدير معاصريها واحترامهم لها ، حتى إن
 حكومة بلدها قد مجدها ونقشت صورتها على قطع
 العملة . (Pollux IX, 84) . ويضعها سقراط في
 مصاف الحكماء (Plat. Phaen. 235 B) ولا يملك
 المرء ، عند سماع أغانيها ، إلا أن يتوقف عن
 الشراب ويخفي كأسه خجلاً (Plut. Symp. VII, 8, 2)

«إني حقاً أود أن أموت . لقد تركني وهي تبكي بدموع غزيرة وقالت لي «وأسفاه ! كم نحن تعساء ! على الرغم مني ، يا سافو ، أرحل عنك ، أقسم لك» . وأجبتها بهذه الكلمات «أذهبي وابتهجي ، فقط اذكريني ، فأنت تعرفين مدى شغفي بك . وإن كنت لا تذكرين ، فإني أذكرك بما نسيت ، أذكرك بالأوقات السعيدة البهيجة التي أمضيناها معاً . فكم من مرة ، وأنت بجانبني ، قد زينت خصل شعرك المهدلة بجداول من زهر البنفسج والورد البهيج ، وعقدت حول عنقك الرقيق قللثد من مئآت الأزهار ، وضمخت جلدك البض ، وأنت في صدري ، بكثير من العطور الملكية الثمينة ، وكل ما تتمناه (فتاة أبونية ناعمة) حصلت عليه ، وأنت تجلسين على حشية لينة ، من أبلدى وصيفات رفيفات . وليس هناك من (تل) أو مكان مقدس أو (جدول ماء) لم نذهب إليه ، ولم (علأ) الريح (المبكر) أى غابة بشدو (البلابل) المتنوعة (إلا وتجولت فيها معي)»

وبالرغم من أن القصيدة لم تصلنا بدايتها ولا نهايتها ، وكثير من أبياتها متناثرة ، إلا أنها مع ذلك تمدنا بطبيعة الحياة بين سافو وجماعتها . فالقصيدة تسجل محادثة استعادت فيها سافو الساعات الحلوة التي أمضتها مع صديقتها التي اضطرت إلى الرحيل عنها والتي قال عنها بعض المعلقين إنها كانت تسمى أثيس . فهي تبدأ بكلمات مختصرة غير منمقة يتجلى فيها الأسى بوضوح ، ثم تنتقل سافو إلى ذكر ألوان المتع المختلفة التي كانت تخشى فيها حياتها مع صديقاتها : في الاحتفالات ، حيث كن يترين بالزهور ويتضمخن بالطيب ، وفي يارة الأماكن المقدسة حيث يحتفلن بأعياد الإله أفروديت ، وفي التجوال بين المناطق الخلوية التي حبتها الطبيعة بجمال فتان وبين الأحراش وجدول المياه حيث تصلح البلابل بشدوها العذب الذي يبعث في النفس الذنوة والطرب .

إن الإلهة ، التي كانت سافو وصوحيباتها يقيم على خدمتها ، هي أفروديت ، ولكن التفاصيل الدقيقة

للطريقة التي كانت تقدم بها طقوس عبادتها تكاد تكون مجهولة تماماً . وأفضل ما وجد فيها وصلنا من شعر سافو ، وله صلة بهذه الطقوس ، شذرة تتألف من أربعة أبيات (شذرة ١١٧) تصف مذبحاً من الأغصان نصب تكريماً للإلهة أفروديت وإلهات الرشاقة Χάριτες أما أنت ، يا ديكا ، فانسجي بيديك الرقيقتين جدائل بدیعة واجدلنها معاً بأغصان الزهور . فان الإلهة (أفروديت) تهتم بكل ما أبدعت زينته بالأزهار ، وكذلك ربات الرشاقة المباركات يزاد استحسانهن له ، ولكنهن يتحولن عن كل الأشياء التي لا تتوجها الزهور .

ويبدو من هذه الأبيات أن طقوس الإلهة أفروديت كانت تتم في الهواء الطلق . وربما في أحد الأحراش المقدسة . وهناك بيتان يؤكدان هذه الفكرة (شذرة ١١٢) .

«لقد طلع البدر علينا ، وانخلت العذارى أماكنهن حول المذبح»

وربط إلهات الرشاقة بالإلهة أفروديت أمر طبيعي ومعروف ، فهو ميروس في الإلياذة (٥ ، ٣٣٨) يجعل إلهات الرشاقة ينسجن رداء مقدساً للإلهة أفروديت ، وفي الأوديسا (٩ ، ٣٦٤) يتغنى ديمودوكوس Demodocus بالطريقة التي كن يغسلن بها الإلهة أفروديت ويضمخنها بالزيت عند ذهابها إلى قبرص .

وكانت الإلهة تستدعي لحضور هذه الطقوس بالأغنيات . ولدينا شذرة (٦) تدل على أن هذه الطقوس كانت عبارة عن «أدبة تدعى إليها الإلهة لتشارك فيها :

«أى إلهة الحب ، أقبل ، أيتها القبرصية ، وصبي برقة لرفيقتي ورفيقاتك الرحيق المزوج بالبهجة في الكؤوس الذهبية» .

ولا بد أن تكون هذه الأبيات جزءاً من أنشودة ابتهاج من سافو إلى أفروديت . ومن المحتمل أن تكون

الكؤوس الذهبية كؤوساً خاصة بالطقوس الدينية تستعمل في المناسبات الكبيرة ، كالأواني الذهبية التي يصفها بنيدار وهي تستعمل في حفلات الزفاف (Ol. vii. I ff) . وأفروديت نفسها هي التي تصب الخمر ، وإسناد الوظيفة إليها شخصياً يجعلنا نعتقد أن شرب الخمر كان جزءاً من الطقوس . وهي باعتبارها إلهة للنماء ، فقد كانت ، كالإله ديونيزيوس Dionysius مرتبطة بالخمر واهب الحياة . وكانت إلهات الرشاقة تستدعى أيضاً بمثل هذه الكلمات (شذرة ٦٨) .

«أى إلهات الرشاقة ، ذوات الأذرع الوردية الطاهرة ، أقبلن ، يا بنات زيوس» وكانت ربات الفنون مرتبطة بإلهات الرشاقة ، والربط بينهما طبعى ومعقول ، فعبادة إلهات الرشاقة تشتمل على الغناء ، وهو من اختصاص ربات الفنون ؛ ومن ثم فإن ربات الفنون كانت هي الأخرى تستدعى لمثل هذه الولايم (شذرة ١٢٩) .

«أى ربات الفنون ، أقبلن أيضاً ، واتركن (ماواكن) الذهبى» .

وهذا البيت يجمع بينها (شذرة ١٠١) .

«والآن ، أقبلن ، أى إلهات الرشاقة الرقيقات ، وأنئن أيضاً ، أى ربات الفنون الشقراوات» .

وكان يرتبط بعبادة أفروديت أيضاً حبسها الصغير أدونيس Adonis . وكان روحاً من أرواح النماء ، ولد من شجرة الآس (Ovid. Met., x, 512) التي أصبحت رمزاً تدل عليه . كانت القرابين التي تقدم إليه هي ثمار الخريف ، وكانت أحواض الزهور يطلق عليها اسم «حدائق أدونيس» (Plat. Phaed., 276 b) وكان أدونيس يحيا ويموت كل عام . وبالرغم من أن عبادته لم تلق رواجاً في معظم أنحاء العالم اليونانى ، إلا أنها كانت ذات أهمية كبيرة في ليسبوس . ولا بد وأن تكون سافو قد كتبت عن عبادته بعض الأغنيات ، فان ديوسكورديس Dioscorides قد كتب يحدثنا عنها بأنها كانت «تشارك أفروديت في نحيبها ،

عندما كانت تنوح من أجل سليل كينيراس الصغير (وهو أونيس ، cf. Ox. Class. Dict., p. 193) في الدغل المقدس للآلهة المباركة» (Anth. Pal. vii. 407) إن النحيب من أجل أدونيس يعبر عن النحيب لغروب شمل الحياة عن الحقول والحدائق ، والأغنية التي كتبها سافو لهذه المناسبة تحمل طابع الأغنية الشعبية ، وقد وصلنا من هذه الأغنية بيتان (شذرة ١٠٣) هما حوار بين أفروديت ووصيفاتها اللاتي ربما كن درائس الغاب . ومن المحتمل أن هذه الأغنية كانت تغنىها سافو متخيلة أفروديت ويرد عليها فتيات جماعها يمثلن نباتات أفروديت . ويمكن أن ترتب على النحو التالى :

الدرائس : أى كينيريا (اسم لأفروديت) ، إن أدونيس الرقيق في الزرع الأخير ، ماذا ينبغي علينا أن نفعل ؟

أفروديت : أضربن صدوركن ، يا فتيات ، ومزقن ثيابكن .

إن رنة الحزن والنحيب على الإله المحتضر تبدو بجلاء في الأغنية ، ومثل هذه النغمة الحزينة تظهر أيضاً في العبارة «ὦ τὸν Ἀδωνιν» ويلاه لأدونيس (شذرة ٢٥) .

كانت جيرينا Gyrinna وأتيس Atthis وأناكتوريا Anaectoria أحب الفتيات إلى قلب سافو (Max. Tyr. 24, [18]) والقصيداء التالية تبين مدى شغفها بالأخيرة (شذرة ٣٨) .

«في رأى البعض أن أحسن ما على الأرض السوداء جيش من الفرسان، وفي رأى البعض الآخر جيش من المشاة ، وفي رأى غيرهم أسطول من السفن ، ولكن بالنسبة لى فهو من محبة المرأة . ومن السهل توضيح ذلك لأى إنسان . فان هيلين ، التي كانت تفوق كل البشر جلالاً ، فضلت على أفضل الرجال (وهو زوجها مينلاوس) من دمر كل شرف طرواده (باريس) دون أن تفكر مطلقاً في طفلها (هيريون) ووالدها الأعراء ، ولكن أضلها الحب فجعلها تذهب بقلبها

مقامها الجديد وهي تتذكر أثينس بشوق وحنين (شذرة ٨٦) .

« أثينس ، إن عزيزتنا أناكتوريا تسكن بعيداً في سارديس ، ولكنها كثيراً ما تبعث بأفكارها إلى هنا ، وتفكر في الأيام التي كنا نحياها معاً ، عندما كنت بالنسبة لها إلهة مجيدة ، وأغانيك أحب الأغاني إليها . ولكنها الآن تضيء بين نساء ليديا ، كالقمر بعد غروب الشمس ، كالقمر ذي الأصابع الوردية وهن من حولها كالنجوم ، كالقمر الذي ينشر ضوءه عبر البحر الأجاج وفوق الحقول المزهرة أيضاً ، بينما الظل ينزل جميلاً على الأرض ، والورود تحيا من جديد وكذلك الحشائش الرقيقة والنباتات المزدهرة . وهي غالباً ما تروح وتغدو عندما تتذكر حبا لأثينس الدمشقة ، ويتحرق قلبها الرقيق بلا شك شوقاً وحنيناً ، وتصرخ بنا عالياً أن نذهب إليها هناك ، وما تود أن تقوله ، فنحن نعرفه جيداً ، أنا وأنت ، لأن الليل ، الذي تنسج خيوطه الأزهار والذي يملك أذاناً كثيرة ، يطلعنا على كل ما بيننا . »

إن المناسبة التي أثارها سافو لكتابة هذه الأبيات يمكن تخمينها على النحو التالي : ترى سافو القمر يطلع من البحر عبر ميتلين ويجعل ليديا على مرأى البصر ، الأمر الذي يذكرها بصديقها التي تعيش في سارديس تحت ضوء نفس القمر . ومشاعرها هنا ليست مشاعر الحب بقدر ما هي مشاعر التعاطف والمشاركة الوجدانية فقد أثارها الحب الذي تكنه الفتاة البعيدة لأثينس . وتدخل سافو في الموضوع مباشرة حتى تبدو القصيدة وكأنها رد فعل لحبا هي . وطبيعة عاطفتها تظهر من التشبيه بالقمر ، فهذا التشبيه بين كم كانت سافو تجد المتعة في جمال الفتاة ، وتصويرها لرفعة شأنها بين الفتيات اللديات بالقمر بين النجوم تصوير رائع ، لا لأنه تصوير مناسب وجميل فحسب ، بل لأنه تصوير فرضه عليها القمر نفسه وهو يتلألأ فوقها مضيئاً في كبد السماء ، إن الفتاة التي تشير إليها هذه القصيدة هي أثينس ، والفتاة الأخرى التي رحلت إلى ليديا هي أناكتوريا .

بعيداً ، فمن السهل دائماً أن نسأل المرأة ، عندما تفكر باستخفاف فيها هو قريب وعزيز . وهذا ما يجعلني أتذكر الآن أناكتوريا ، التي رحلت عنا ، والتي أفضل سماع وقع خطاها الجميل وروية وجهها المشرق الوضاء ، على جميع عجلات ليديا الخريبة ومشاتها المسلحين . إنني أعلم علم اليقين أن المرأة لا يستطيع أن يحصل على الأكل ، ولكن أن يرغب فيما يشاركه فيه غيره ، أفضل من أن يفساه .

هذه القصيدة تلقي ضوءاً على عواطف سافو وفها ، فهي قصيدة عن الحب ذاته . وما تربده سافو هو حضور أناكتوريا الذاتي ، والجملة التي تعبر فيها عن هذه الرغبة هي بيت القصيد ، وعلى الرغم من بساطة هذه الجملة ، إلا أن الكلمات فيها قد أحسن اختيارها ، حتى إن كلامها يعطي التأثير المطلوب في الحال . ولهذا القصيدة أهمية أخرى ، فهي تلقي ضوءاً على رأى سافو في الحب من خلال ذكر هيلين . واسم هيلين بالذات له أهمية كبيرة ، لأنه يفسر طبيعة الحب . إن سافو لم تهمل هيلين ، كما تهملها ألكابوس عندما قارنها بثيتيس Thetis (شذرة ١٢٠ من ألكابوس في Lyra Graeca) ، ولم تمتدحها ، ولكنها تقرر أنها فعلت ما فعلت بسبب الحب وحده . وسافو في موقفها هذا تجاه هيلين أقرب إلى موقف هومر من أي شاعر آخر من شعراء الإغريق ، والفرق بينهما أن فهم هومر لمشكلة هيلين يأتي من الخارج ، أما فهم سافو لها فمن الداخل . فسافو تفهم هيلين ، لأنها هي نفسها تحب ، وتعلم جيداً أن المرأة عندما تحب ، فإن كل شيء ، فيما عدا الحب ، لا يعني شيئاً بالنسبة لها .

إن الدور الذي لعبه الليدون في هذه القصيدة يبين لنا إلى أي مدى كانت ليسبوس قريبة من آسيا العظيمة القوية ، وتقدير هذه القوة حق قدرها عندنا محل لفهم قصيدة أخرى تتعلق بفتاة أخرى من تلميذات سافو وصديقاتها وهي أثينس ، الموقف هنا واضح تمام الوضوح . فتاة ما قد رحلت إلى سارديس Sardis في ليديا Lydia ، وسافو تفكر فيها وهي في

تلخص فيها حبها القديم لأنتيس . وفي هذه القصيدة بيت من أجمل ما كتب في هذا المعنى (شذرة ٤٨) :
« أى أنتيس ، كنت أحبك ذات يوم ، منذ أمد بعيد » .

وهي في نفس القصيدة تصفها عندما رأتها لأول مرة ، وكانت سافو ما تزال في ريعان صباها ، بأنها كانت صغيرة غير مكتملة

« وعندما كان شبابي في أوج ازدهاره ، كنت في نظري مجرد طفلة صغيرة غير مكتملة » .

وهناك بيتان في نفس الوزن ، وربما كانا من نفس القصيدة ، يشيران إلى قصة الحب القديم بينهما (شذرة ٨٩) .

« لقد أحسنت صنعاً إذ أتيت ، فقد كنت في شوق إليك ، فأنت تشعلين قلبي غراماً بك » .

فهذه الأبيات المتناثرة تشير إلى قصة عاطفية ، فإن سافو وهي في ريعان شبابها ترى أنتيس ، ولا تأبه لها في أول الأمر ، ولكنها تقع في حبها ، وتبادلها أنتيس العاطفة ، ثم ترحل عنها إلى أندروميديا ، فتغضب سافو وينكسر قلبها إلى حد كبير .

هذه الحادثة تكشف لنا عن مشاعر سافو نحو فتيات جاعتها . ومثل هذه العلاقة كانت تصل إلى ذروتها عندما ترحل عنها إحدى الفتيات إلى بيت الزوجية . ففي هذه الحالة كان يتنازع سافو عاملان . الأول مشاعرها الخاصة لانفصال إحدى صديقاتها عنها ، وكانت هذه المشاعر تلهمها كتابة قصيدة تغير فيها عن أحاسيسها الخاصة . ولكن كان عليها أيضاً أن تكتب أغنية الزفاف ، وكانت هذه تصور بروح مختلفة تماماً . وأحسن ما يصور الحالة الأولى قصيدة مشهورة ، كتبها سافو في حفل عرس ، عندما رأت الغروس تجلس بالقرب من عريسها ، وهذه القصيدة ترينا كيف أن سافو أحست الموقف إحساساً عميقاً (شذرة ٢) .

« يبدو لي أن هذا الرجل ند للألفة ، إذ يجلس أمامك ويستمتع ، وهو قريب منك ، إلى نفاث صوتك

وهناك أشعار أخرى جاء فيها ذكر أنتيس ، والدليل على حب سافو لها هو أشعارها . فبعد كتابة القصيدة السابقة ، تركت أنتيس سافو وانضمت إلى جماعة أندروميديا Andromeda منافسة سافو . فكتبت سافو تقول (شذرة ٨١) .

« انظري ، إن الحب ، الحلوى المر ، مفكك الأعضاء ، ذلك المخلوق الذي لا يقهر ، يعصف في ، بينما أصبحت أنت ، يا أنتيس ، تكرهين التفكير في ، وهربت إلى أندروميديا بدلا مني » .

كانت أندروميديا مثل سافو ترأس جماعة من الفتيات . وكان الخروج من جماعة إلى أخرى يعتبر خيانة شخصية . وقد قارن أحد النقاد (Max. Tyr. 24 [18])

علاقة سافو مع أندروميديا بعلاقة سقراط مع السفسطائيين بروديكوس Prodicus وجورجياس Gorgias وبروتاجوراس Protagoras ، وقال « كانت في بعض الأحيان تخططن ، وأحيانا أخرى تدحض دعواهن أو تتجاهلهن ، تماماً كما كان يفعل سقراط » . وقد وصلنا من أعمال سافو مثلان يوضحان هذه العلاقة . في الأول مخاطب سافو فتاة معجبة ، بأندروميديا وتوضح لها أخطاء منافستها (شذرة ٩٨) « أى امرأة ريفية في ملابس ريفية تلك التي تلهب صدرك ، مع أنها لا تعرف كيف تسدل رداءها إلى ما فوق خلاخيل أقدامها » .

وفي مناسبة أخرى توجه خطابها إلى أندروميديا في سخرية مريرة (شذرة ١٢١) :
« إنني أنشرف بتقديم أزكى تحياتي إلى ابنة الملوك الكثرين » .

كما جاء ذكر أندروميديا في بيت آخر (شذرة ١٢٥) « لقد حصلت أندروميديا على صفقة رابحة » .

وليس هناك ما يشير إلى طبيعة هذه الصفقة ، وإن كان من المحتمل أن يكون المقصود بها ذهاب أنتيس إلى جاعتها . وإذا كانت سافو تعامل منافستها أندروميديا بطريقة عاجلة ومرتبلة ، فإنها تعامل عدم وفاء أنتيس لها بمجدية كبيرة . ويبدو أن سافو قد كتبت قصيدة

تكاد تقضى عليها ، حتى إن الموت لا يبدو أمراً حتمياً فحسب ، بل ومرغوب فيه أيضاً . ولا بد أنها كانت في مثل هذه الحالة عندما قالت : « وإني لتسيطر على رغبة ملحة في أن أموت ، وأرى ضفاف نهر أنخبرون التي تغطيها أزهار اللوتس الندية » . (شذرة ٨٥ ، ١٠ - ١٢) وعندما قالت « إني حقاً أود أن أموت » (شذرة ٨٣ ، ٢) .

وإذا كانت هذه مشاعر سافو عندما رأت إحدى فتيانها الأثيرات تجلس بجوار عريسها ، فإن الشذرات الباقية لنا من أهازيج العرس *ἑρπαια* التي كتبها تؤكد لنا أنها كانت تستطيع أن تكبح جراح عاطفتها الشخصية ، وتكتب أغنيات في غاية الجمال والشفافية لتغني في حفل الزفاف التقليدي .

كانت لأهازيج العرس أنواع مختلفة تبعاً لزمان ومكان الحفل الذي ستغني فيه . وكانت حفلات العرس تبدأ عادة بوليمة العرس ، التي كان يحضرها العريس وعروسه ، وكانت هذه الوليمة تقام بمنزل والد أحدهما ، وكان يمكن للسيدات الحضور . وكان لهذه الوليمة طابع ديني ، إذ كان والد العروس يقدم القرابين للآلهة الزواج ومن بينها الإلهة أفروديت ، ومعرفة سافو لهذه الطقوس تتضح من وصفها لإحدى هذه الولائم في الأولمب (شذرة ١٤٦) .

« كان هناك وعاء من الأمبروزيا المخلوطة معداً من قبل ، وقد أخذ هيرميس إبريق الخمر وصب للآلهة . وعندئذ رفع الجميع أقداحهم ، وأراقوا قرباناً من الخمر وتمنوا للعريس أطيب التمنيات جميعها » .

وأما كان العريس والعروس المقام لهما هذا الحفل في الأولمب ، فلا شك أنه صورة طبق الأصل لحفل على ظهر الأرض . وليس من الواضح أن الأغنيات كانت تغنى عادة أثناء هذه الولائم ، وليس في أغنيات سافو الخاصة بحفلات الزواج ما يشير إلى ذلك بصورة واضحة . ويبدو أنها كانت تبدأ في نهاية الوليمة . وكان

العذبة وضحكائك الساحرة ، التي تجعل قلبي يخفق بين جراحني . فعندما أنظر إليك ، أي بروخيا ، تعزني الألفاظ أو تخونني تماماً ، ويتعقد لساني عن الكلام ، وفي الحال تسرى في بدني نار هادئة ، وتغيم عياني ، وقطن أذناي ، ويتصبب مني العرق ، وتنتاب جسدي كله رعدة ، وأصبح شاحبة كالعشب ، حتى لأبدو وقد صرت قاب قوسين أو أدنى من الموت » .

لا شك أن المناسبة التي أثارت سافو لكتابة هذه الأبيات هي حفل عرس ، لا لأن كلمة *ἑρπαια* تحمل معنى « زوج » ، ولكن لأنه في حفلة الزفاف فحسب يمكن للفتاة أن تجلس بجوار الرجل وتتحدث معه في حرية . ومن المحتمل أن تكون الفتاة محبة والحفل مقام في منزل أبيها . ووجود سافو بالحفل يرجع إلى أنها أستاذة الفتاة ورئيسة الجوقة التي ستغني أغنية الزفاف . ولكن فيما يخص مشاعر سافو الخاصة ، فإنها منفصلة عن واجبات حيال العروس ، فهي تشعر بالخسارة التي حاقت بها كنتيجة حتمية لهذا الزواج . والآثار الناجمة عن عواطفها المتأججة أثار فيزيقية ، كما هو واضح من ألفاظ القصيدة ، وقد جاءت مثل هذه التعبيرات في شذرات أخرى لسافو . فهي تصف الحب (شذرة ٢٨) بأنه « مسبب الألم ، ناسج خيوط الأفاصيص » (قارن شذرة ٤٢ ، ٧ - ٨) . وفي مكان آخر تقول (شذرة ٥٤) :

« أما بالنسبة لي ، فإن الحب يعصف بروحي ، كما تعصف ريح عاتية بشجرة عالية » . وفي نهاية القصيدة تقول بأنها موشكة على الموت . والتعبير طبيعي وصادق بعد الأعراض الفيزيكية التي انتابتها . إن الرغبة في الموت تعبير شائع بين الشعراء منذ العصر الهلنستي ، وبالرغم من أنه قائم على عواطف حقيقية ، إلا أنه أصبح « كليشيه » ينقصه الإخلاص الصادق . أما بالنسبة لسافو ، فإنها عندما تقول إنها تود أن تموت ، فهي تغني ما تقول ، لأن تبايح الهوى بسبب الهجران

الحفل ينتهى عندما تصل إلى منزل الزوجية الجديد عربية العروس التي كان ثقلها وبجانها العريس وبالجانب الآخر الإشيبي المسمى *πορνούπιος* . وقد وصف لنا لونجوس Longus ، وهو أحد الشعراء العارفين بتقاليد ليسبوس الذين قرأوا أشعار سافو ، نموذجاً ريفياً لمثل هذه الحفلات (Longus, Daph. & Ch. IV. 40) «وعندما يأتي الليل ، كان المدعوون يصحبونهما إلى مخدع الزوجية ، كان البعض يعزفون بالآلات والبعض الآخر يعزفون بالزامير ، وآخرون يحملون في أيديهم الزوانييس والمشاغل وهم يسرون في مقدمة الموكب . وعندما يصلون إلى عتبة المخدع كانت تنطلق الأغاني في نغمات جافة خشنة تشبه أصوات القنوس والمعاول » .

والأغنية التي كانت تغنى على هذا النحو هي أغنية الزفاف الحقة (*ὕμνος*) وقد ورد وصف مماثل في هومر (It. XVIII 491-496) :

« كان هناك أعراس وولائم ، وكانوا يخرجون العرائس من حجراتهن ، ويسرون بهن خلال المدينة تحت أضواء المشاغل ، وكانت أغاني العرس التي كانت تتردد إذ ذاك عظيمة ، كان الفتية الراقصون يدورون ، ومن حولهم ترتفع أصوات النابات والزامير ، وكانت كل واحدة من السيدات تقف مشدوهة عند الباب الأمامي » .

لم يصلنا من شذرات سافو ما يشير إلى هذا الموكب وإن كان بعضها يمكن ربطه باللحظات الأخيرة منه ، عندما يتوقف الجمع أمام مخدع العرس . وكما جعل لونجوس المختلفين بالعرس الريفي يغنون في « أنغام جافة خشنة » فقد تركت سافو في هذه الأغاني أساليبها الشاعري المعتاد ، واستخدمت أساليباً مغايراً قريباً من لغة الحوار المتداول بين الناس . ولعل السبب في وجود الصخب والتهريج وفحش القول في حفل الزفاف يرجع إلى فكرة إبعاد الحظ السيئ عن العروسين بجعلهما

يبدوان أقل سعادة مما هما . ومثل هذا الفحش والصخب يرى بوضوح في أغنية الزفاف الموجودة في نهاية مسرحية « السلام » لأرستوفانيز ، ولكن هناك من أشعار سافو ما يكفي لتوضيح ذلك . كان الهزل عند سافو أقرب إلى المداعبة منه إلى الفحش . كان «البواب» شخصية هامة ، ومن ثم يستحق المداعبة بالتهكم عليه . كان على البواب أن يوصد الباب على العروسين ويمنع أصدقاء العروس من الدخول لمساعدتها ، إذا ما صاحت مستنجدة . وقد جعله ثيوكريتوس Theocritus يقول وهو يباشر عمله «الجميع بالخارج» (*ἔνδοι πᾶσαι*) ثم يوصد الباب (cf. Theoc. XV. 77) وكان هناك بالطبع بعض أفراد الجوقة من أصدقاء العريس الذين كانوا يتهكمون عليه . وفي هذه الأبيات تهكم سافو من أقدامه الضخمة (شذرة ١٥٤) :

« إن أقدام البواب يبلغ طولها سبعة أذرع ، ونعالة مصنوعة من جلد خمسة من الحيوان ، واشتغل بها عشرة من صانعي النعال » .

وبمثل هذه الروح المرححة تداعب العريس وتهكم على طول قامته وتقول إن السقف يجب أن يرفع عندما يخل (شذرة ١٤٨) :

« ارفعوا السقف عالياً، مرحباً بالزواج Hymen ارفعوها عالياً ، أيها العمال المهرة ، مرحباً باله الزواج Hymen

فالعريس قادم وكأنه أريس ، مرحباً باله الزواج Hymen .

وهو أطول من أطول رجل ، مرحباً باله الزواج Hymen » .

ومن ناحية أخرى فإنه من الطبيعي أن تمتدح سافو العروس ، وهي صديقتها ، وتبين كم هي جميلة ، وكيف أن العريس محظوظ بالزواج منها . وهنا سرعان ما يتحول موقفها من الهزل إلى الثناء . وأحسن مثال لهذا الانتقال يمكن أن يرى بوضوح من بعض الأبيات

التي تبدأ بتهته العريس وتنتهى بأنشودة تتغنى فيها بالعروس (الشذرات ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨) :

« أيها العريس السعيد ، هنيئاً لك ،

فقد تحققت لك الزواج كما تمنيت ،

وحصلت على العروس العذراء كما تمنيت ،

إن وجهها البديع بفيض رقة وعذوبة .

وأنت أيها العروس ، إن شكلك بديع للغاية .

عينك ذات لون عسلي ، ووجهك يغمره الحب .

وقد جئتك أفروديت بالتحريف والتكريم » .

ويبدو أن مثل هذه الأغاني كانت تنتهى بمثل هذه الكلمات (شذرة ١٦٢) :

« إلى الملتقى أيها العروس ، إلى الملتقى أيها العريس الموقر » .

وهناك لون آخر من أغنيات الزفاف قد لا نجد له

مثيلاً لدى شعراء الإغريق في غير أعمال سافو . ففى

إحدى الشذرات التي وصلتنا نجد حواراً بين العروس

وفتاة أخرى تمثل العذرية (شذرة ١٦٤) :

العروس : أى عذرتى ، أى عذرتى ، إلى أين

هربت وذهبت بعيداً عني ؟

العذرية : إلى حيث لن أعود إليك ثانية ، إلى حيث

لن أعود إليك ثانية » .

ومثل هذه الأغنية لا بد وأن تكون مستمدة من

الأغاني الشعبية ، وهي تذكرنا بالحوار الذي يتبادل

فيه أفروديت وتابعاتها النحيب على أدونيس (شذرة

١٠٣) . ومن المحتمل أن العروس كانت تقوم بدورها

في الأغنية ، وترد عليها إحدى زميلاتها من فتيات

سافو .

لم يلعب الرجال إلا دوراً ضئيلاً في حياة سافو ،

ومن ثم لم يأت لهم ذكر في أشعارها إلا نادراً . فقد جاء

ذكر لأخيها خاراكسوس Charaxus في بعض

الأشعار . وقد حدثنا هيرودوت (II. 135) عن القصة

التي أثارت سافو لكتابة هذه الأشعار . رحل خاراكسوس

إلى ناوكراتيس Naucratis المستعمرة اليونانية في دلتا النيل بمصر . وهناك التقى بمحظية مشهورة يطلق عليها اسم رودوبيس Rhodopis ووقع في غرامها ، وصرف مبالغ طائلة من أجل تحريرها ، وعندما عاد إلى وطنه ، عثفته أخته سافو على تصرفه هذا في إحدى قصائدها .

كانت ناوكراتيس إحدى المراكز الهامة للتجارة

اليونانية ، ومن المحتمل أن خاراكسوس كان قد رحل

إلى هناك لأموار تتعلق بتجارة التبذير من ليسبيا (cf. Ath. 396 b) . ولكن أهم ما في القصة هو الجدية والصرامة

التي قابلت بها سافو تصرف أخيها ، وإن في معارضتها

لهذا التصرف الطائش مع امرأة من هذا النوع للدلالة

أكيدة على رفعة مستوى سلوك سافو نفسها . ولعل

الاسم الذي عرفها به هيرودوت ، وهو رودوبيس ، هو

اسم الشجرة الذي كان يطلقه عليها المحبون ، والاسم الحقيقي ،

وهو ماجاء ذكره في أشعار سافو ، هو دورنخا Doricha

(cf. Stob. XVII, 808; Pap. Oxy. XV, 1800, I.

Phot. s.v 'Ροδωνιδος ἀνδρῶν) 7-13 . وإذا لم

تكن القصيدة التي أشار إليها هيرودوت قد وصلتنا ، فقد

وصلنا على الأقل شذرات تشير فيها سافو بعداء إلى

دورنخا . فقد جاء في إحدى الشذرات (٣٧) :

« أيها القبرصية (أفروديت) لعل دورنخا تجدك

أكثر مرارة ، ولا تفاخر مرة ثانية بقولها إنها قد

وصات إلى الحب الذي كانت تتوق إليه نفسها » .

لقد كان يكفي سافو أن تعيد إليها دورنخا حب

أخيها لها ، وقد عبرت عن هذا الأمل بتمنيها لدورنخا

أن تجد الحب مراراً . ومن المحتمل أن هذه الشذرة جزء

من القصيدة التي أشار إليها أثينايوس (xiii. 596 b)

بأن سافو عثفت فيها دورنخا لأنها نخلت وبر أخيها .

وإذا كانت سافو تستخدم في الحديث عن دورنخا

ألفاظاً قاسية ، فإنها سرعان ما تصفح عن أخيها . ولدينا

شذرة هي افتتاحية لقصيدة ترجو فيها سافو لأخيها عوداً

حبيداً إلى الوطن ، وتعهده بأنها ستغفر له كل أخطائه

(شذرة ٣٦) :

لسانك لا يهفو إلى قول ما هو سئ : فلن يملأ الحياء عينيك ، بل ستحدث عنه بحكمة .
وذلك رداً على أشعار ألكايوس يقول فيها (شذرة ١٢٤) :

« أى سافو الطاهرة ، يا ذات الخصل البنفسجية والابتسامة العذبة ، بنفسى كلام أود لو أقوله لك ، ولكن الحياء يمنعنى » .

وربما جاء ذكر لزوجها في بعض الأشعار المفقودة (cf. Rose, H.B. G. L. p. 96)

وبالرغم من أن الجزء الأكبر من أشعار سافو كان يتصل بحياتها الخاصة ، إلا أن هناك بعض الشلرات التى لا علاقة لها بها . الحياة .

من هذه الشلرات :

« إن من يبدو جميلاً فهو جميل المظهر ، ولكن الفاضل سرعان ما يكون جميلاً أيضاً » . (شذرة ٥٨)
« إن الثراء بلا فضيلة ليس رفيقاً مأمون الجانب ، ولكنهما لو اجتماعاً معاً يكونان قمة الحظ السعيد » . (شذرة ١٠٠)

« إن الموت بلاء ، هكذا يعتقد الآلهة على الأقل ، وإلا لكانوا قد ماتوا هم أنفسهم منذ أمد بعيد » . (شذرة ٩١)

هذه هى سافو وهذه هى بعض الشلرات التى وصلتنا من أعمالها التى يقال إنها كانت تملأ تسعة كتب . ومن الواضح أنها كانت واقفة كل الثقة من نفسها وفنها ، وقد عاشت أثمارها كل هذه القرون الطويلة وما زالت تحمل نفس الروعة والبهجة والطرافة التى كانت عليها وقت كتابتها لأول مرة ، ومن ثم فهى تعتبر أعظم امرأة شاعرة أنجبها الطبيعة حتى الآن ، فإن ذوقها السلم ، وصداقتها المتناهى في التعبير ، وخيالها البديع ، وقوة عاطفتها ، لمى مميزات وهبتها لها إلهات الفنون وربات الرشاقة ، فجعلن منها شخصية خارقة تفوق مستوى البشر ، ولذا نراها قد كرس معظم حياتها وفنها لمن ، كما أن أشعارها تفوح دائماً برائحة غير وحيين .

« أى عرائس البحر الشقراوات ، أرجو أن تسمحوا لأخى أن يعود سالماً ، وأن تحققوا له كل رغبات قلبه الصادقة ، كما أرجو ، وقد زالت عنه كل أخطائه السابقة ، أن يصبح بهجة لأصدقائه ، وخطراً على أعدائه ، ولعل بيتنا لا يصيبه الخزي بسبب أى رجل . كما أرجو أن يكون راعياً في أن يجعل أخته تمتلئ فخرأ به ؛ ولعله ، عندما يعود في يوم قريب ، يعمل ، وهو في عز فرحة مواطنيه به ، على إزالة الألم المرير والكلمات الجارحة للشعور ، التى أصر قبل رجوله أن يملأ بها قلبي ، ولعله يحصل ، إن أراد ، على زوجة جذيرة به وبعتقد شرعى ؛ أما أنت ، أيها الكلبة السوداء المؤذية (والمقصود بها دورخيا بلا شك) ، فلعل سموم شرك تذهب هباء ، وتسعين لاصطياد فريسة أخرى »
لم يقتصر احتقار سافو لدورخيا ، بل تعداها إلى أخريات . فلدينا شذرة (٧١) يقال إنها موجهة إلى امرأة غير متعلمة (cf. Stob. Flor. IV, 12) .

« عندما تموتن فسوف ترقدين في عالم النسيان ولن يذكرك أحد ، لأنك لم تقوى بدور نجاة الورود نتاج بيريا Pieria ؛ فهناك الظلام ، وفي الظلام سوف تجوسن في منزل الموت ، وتتجولين بين أشباح عديمة القيمة لا وزن لها » .

ولهذه الأبيات أهمية خاصة ، لأنها تطلعننا على رأى سافو بأن الخلود الحقيقي/ في كتابة الشعر والأغاني ، وهى أول من عبر عن هذا الاعتقاد . كانت سافو تؤمن بهذا الزأى إيماناً صادقاً ، حتى إنها كتبت بفخر ولكن ببساطة (شذرة ٧٦) :

« إلى أقول إن شخصاً ما سيتذكرنا حتى في الأيام المقبلة » .

كما تقول أيضاً (شذرة ١١) :

« ولكنى حصلت على النجاح الحق من إلهات الفن الشقراوات ، وعندما أموت لن أصبح نسياً منسياً » .

ومحدثنا أرسطو (Rhet. 1.9) بأن ألكايوس هو الشخص الذى كتبت له سافو تقول (شذرة ١١٩) :
« إذا كنت ترغب فيما هو عف ونبل ، وإذا كان

تراث الإنسانية

سلسلة تناول بالتعريف والبحث والتحليل
روائع الكتب التي أثرت في الحضارة الإنسانية

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

لابن تقي الدين

بنهم الأستاذ إبراهيم إبياري

مدام بوقاري في جوتان فلوري

بنهم الأستاذ علي أدهم

رسالة منطقية فلسفية

للودفيج فيتغنشتاين

بنهم الدكتور عزيز اسلام

فن الحب لافريد يوسف

بنهم الدكتور محمد عبد الوهيد أبو زيد

رحلات مول العالم فيمن كون

بنهم الدكتور سليم الطول

بشرح علي محمد علي

عبد الحكيم مختار

عبد الله أحمد

إبراهيم الأبي سارقا

أحمد رياض تركي

ترك نجيب محمود

إبراهيم تركي حور شيد

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والفاهرة بجمال الدين أبي المحسن يوسف ابن تغري بزرگ

بمقام
الأستاذ إبراهيم الإبياري

تمهيد

واعلم علم التاريخ في نشأته نشأة الأمة العربية ، فكان حديثاً عن أنساب الناس حين كانوا قبائل مترحلة لم تستقر الأماكن تحت أرجلها ، كما كان حديثاً عن أيامهم ومآثرهم حين تشاحنوا على مواقع الحيات حيث الخصب ، وحين ظهر من بينهم الأنجاد والأجداد : وعندما استوت لهم مدن كان حديثهم عنها يمثل التاريخ الجامع لشئونهم الكثيرة ، وشاعت عصية الوطن بعدما اختفت عصية النسب وإذا هذه الأوطان مختصها المؤرخون بكتب خاصة .

ومن أقدم ما انتهى إلينا من ذلك - أعني الحديث عن البلدان - أخبار الحيرة لهشام بن محمد الكلبي (٢٠٤ هـ) . وقد أخذ مؤرخو كل إقليم منذ القرن الثالث في جمع ما يتصل بتاريخ إقليمهم ، فكان من ذلك تاريخ مصر والإسكندرية للواقدي أبي عبدالله محمد بن عمر (٢٠٧ هـ) ، وأخبار مكة للأزرقي أبي الوليد محمد بن عبدالله (٢٢٣ هـ) ، ثم فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم أبي القاسم عبد الرحمن بن عبدالله (٢٥٧ هـ)

وما إن أهل القرن الرابع الهجري حتى انضمت إلى هذه المدرسة التاريخية مدرسة أخرى تعنى بالحديث عن خطط البلاد ، وكان أول من ألف في ذلك أبو عمر محمد بن يوسف الكندي (٣٥٠ هـ) . ومضت هاتان المدرستان المختصتان بالمدن تتسعان للكثير مع القرون اللاحقة ، وكان ممن كتبوا عن مصر في الجانب التاريخي :

١ - ابن يونس عبد الرحمن بن أحمد الصديقي (٣٤٧ هـ) وله تاريخان : أحدهما لأهل مصر ، والثاني للغرباء الواردين عليها .

٢ - أبو عمر محمد بن يوسف الكندي (٣٥٠ هـ) وله : فضائل مصر المحروسة .

٣ - ابن زولاق الحسن بن إبراهيم (٣٨٧ هـ) وله : الدليل على تاريخ الصديقي .

٤ - المنجم علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس (٣٩٩ هـ) وله : تاريخ أعيان مصر .

٥ - الحضرمي أبو القاسم يحيى بن علي (٤١٦ هـ) وله : ذيل أيضاً على تاريخ الصديقي .

٦ - المسبحي عز الملك محمد بن عبدالله (٤٢٠ هـ) وله : تاريخ مصر .

٧ - أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي (٥٢٩هـ) : وله : الرسالة المصرية ، ذكر فيها من اجتمع بهم من أهل مصر وما شاهد من آثارها .

٨ - ابن الصيرفي أبو القاسم علي بن منجب (٥٥٠هـ) : وله : الإشارة إلى من نال الوزارة .

٩ - إبراهيم بن وسيط شاه (٥٩٩هـ) : وله : جواهر البحور ووقائع الدهور في أخبار الديار المصرية .

١٠ - موفق الدين عبد اللطيف البغدادى (٦٢٩هـ) : وله : أخبار مصر .

١١ - ابن أبي طي يحيى بن حميد الحلبي (٦٣٠هـ)

١٢ - القفطي جمال الدين علي بن يوسف (٦٤٠هـ)

وله : تاريخ مصر .

١٣ - التيفاشي أحمد بن يوسف (٦٥١هـ) : وله :

سجع المديبل في أخبار النيل .

١٤ - أبو المظفر وحيد الدين منصور بن سليم

الإسكندري (٦٧٤هـ) : وله : تاريخ الإسكندرية .

١٥ - ابن ميسر المصري أبو عبدالله محمد بن علي

(٦٧٧هـ) : وله : أخبار مصر ، وهو يعد ذيلًا على تاريخ

مصر للمسيحي .

١٦ - ابن دانيال شمس الدين أبو عبدالله محمد

الخزاعي (٧١٠هـ) : وله : عقود الجواهر فيمن ولي مصر

١٧ - الأدفوي أبو الفضل جعفر بن ثعلب

(٧٤٩هـ) : وله : الطالع السعيد الجامع لأسماء فضلاء

الصعيد .

١٨ - ابن الدرهم الموصلي تاج الدين علي بن

محمد (٧٦٢هـ) : وله : الانصاف بالدليل في أوصاف

النيل .

١٩ - ابن مرزوق التلمساني شمس الدين محمد بن

أحمد (٧٨١هـ) : وله : أشرف الطرف للملك الأشرف .

٢٠ - ابن الطولوني حسن بن حصين بن أحمد

(٨٣٢هـ) : وله : النزهة السنية في أخبار الخلفاء والملوك

المصرية .

٢١ - المقریزی تقى الدين أحمد بن علي (٨٤٥هـ)

وله : عقد الجواهر الأسفاط من أخبار مدينة القسطنطينية والسلوك .

٢٢ - ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي (٨٥٢هـ)

وله : الإعلام بمن ولي مصر في الإسلام .

٢٣ - الباعوني أبو الفضل محمد بن أحمد (٨٧١هـ)

وله : فرائد السلوك في تاريخ الخلفاء والملوك .

٢٤ - ابن تغرى بردى جمال الدين يوسف

(٨٧٤هـ) : وله : النجوم الزاهرة ، الذي سنحدثك عنه

وعن كتابه .

٢٥ - السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن

أبي بكر (٩١١هـ) : وله : حسن المحاضرة في أخبار مصر

والقاهرة ، وتحفة الكرام بأخبار الأهرام .

٢٦ - الباعوني محمد بن يوسف (٩١٦هـ) : وله :

الإشارة الوافية .

٢٧ - ابن لباس محمد بن أحمد (٩٣٠هـ) : وله :

بدائع الزهور في وقائع الدهور .

وتتالي من بعد ذلك في هذا الميدان مؤلفون بأساليب

تقارب وتباعده من المنهج الذي بدأه السابقون .

أما عن مدرسة الخطط فقد بدأها - كما قدمت -

الكندى (٩٥٠هـ) ثم جاء من بعده :

١ - ابن زولاق الحسن بن إبراهيم بن الحسين

(٩٨٧هـ) وعنه يقول ابن خلكان : وله كتاب في

خطط مصر استقصى فيه .

٢ - القضاعي أبو عبدالله محمد بن سلامة (٩٥٤هـ)

وله : المختار في ذكر الخطط والآثار .

٣ - أبو عبدالله محمد بن بركات النحوي (٩٥٠هـ)

وهو تلميذ القضاعي . وقد ذكره حاجي خليفة فيمن

كتب في خطط مصر ولم يذكر اسم مؤلفه .

٤ - الشريف محمد بن إسماعيل الجواني ، وله : النقط

لمعجم ما أشكل من الخطط ، قال عنه حاجي خليفة :

وقد نبه فيه على معالم قد دثرت .

٥ - ابن نشوان محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر (٦٩٢ هـ) وله : الروضة البهية الزاهرة والخطط المصرية القاهرة .

٦ - ابن المتوج تاج الدين محمد بن عبد الوهاب (٧٣٠ هـ) وله : إيقاظ المنفعل وإيعاظ المتوسل ، بين فيه أحوال مصر وخططها إلى سنة ٧٢٥ هـ .

٧ - المقرئ تقي الدين أحمد بن عبد القادر (٨٤٥ هـ) وله : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

٨ - علي مبارك (١٣١١ هـ) وله : الخطط التوفيقية .

ابن تغري بردى

بالقرب من مدرسة السلطان حسن (حى القلعة الآن) وفي دار كانت للأمير سنجك اليوسفى ، وفي حدود سنة (٨١٢ هـ) كان مولد مؤلفنا يوسف بن الأمير تغرى بردى .

على هذا تلميذه أحمد بن حسن التركمانى ، المعروف بالمرجى ، فى ترجمته للمؤلف بآخر كتاب المنهل الصافى . ويشاركه هذا رأى ابن العماد الحنبلى فى كتابه شذرات الذهب عند الكلام على حوادث سنة (٨٧٤ هـ) ، وابن إياس فى تاريخه .

ويعتقد السخاوى فى كتابه الضوء اللامع فيقول : « ولد فى شوال تحقياً سنة ثلاث عشرة وثمانمائة تقريباً » . ويعتدنا أن نقول إن الذى ذكره تلميذه التركمانى كان نقلاً عن المؤلف نفسه ، فهو يقول : سأله عن مولده فقال : مولدى بالقاهرة . . . فى حدود سنة اثنتى عشرة وثمانمائة تقريباً . . .

وكان أبوه تغرى بردى مملوكاً رومياً جميل الطلعة اشتراه السلطان برقوق وجعله من مماليكه ، وحين شب أعتقه وضمه إلى إحدى فرق الممالك السلطانية .

وبعد أن توفى برقوق وتولى ابنه فرج بن برقوق الأمر مكانه ، نبه شأن تغرى بردى فتولى نيابة دمشق ، إلى أن كان دخول تيمور لترك إلى الشام وانهمز فرج ابن برقوق بجيوشه أمامه ورجوع تغرى بردى معه . ثم عاد تغرى بردى إلى نيابة دمشق للمرة الثانية بعد خروج التتار عن الشام ، غير أنه ما لبث أن أتهم بالخيانة العظمى ، فهرب إلى التركمان وبقي هناك إلى أن عفا عنه السلطان ، وتزوج من كبرى بناته فاطمة وولده نيابة دمشق للمرة الثالثة ، فبقي عليها إلى أن وافته منيته سنة ٨١٤ هـ . وحين ترك هذا الأب دنياه خلف من ورائه أبناء ستة - كان أبو المحاسن أصغرهم ، وكان عندها فى الثانية من عمره - وبنات أربعاً منهن : خوند فاطمة ، زوج السلطان فرج : وبيرم ، وكانت زوجة لقاضى القضاة ناصر الدين بن النديم الحنفى ، وبعد وفاته تزوجت قاضى القضاة جلال الدين البلقينى الشافعى .

ونشأ رجلنا أبو المحاسن يتيماً ، ذاق اليتيم مبكراً ، فقد توفى أبوه وهو فى الثانية من عمره كما مر بك ، فتولى تربيته زوج أخته بيرم قاضى القضاة ناصر الدين محمد بن النديم إلى أن مات ابن النديم سنة تسع عشرة وثمانمائة ، فتولى تربيته الزوج الثانى لبيرم وهو قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن البلقينى الشافعى ، فأخذ فى تحفيظه القرآن الكريم ، وما إن أتم حفظه حتى كان الفتى قد كبر وترعرع واستعد للتلقى والتعلم ، فحفظ مختصر القدورى فى فروع الحنفية ومضى يستزيد فى دراسة المذهب الحنفى ، وهو منهج زوج الأخت الراحل ابن النديم ، ولم يلتفت للمذهب الشافعى وهو مذهب زوج أخته البلقينى ، فتنفخ بالشيخ شمس الدين محمد الرومى ، وبقاضى القضاة بهاء الدين أبى البقاء الحنفى قاضى مكة ، وبقاضى القضاة بدر الدين محمود العيني الحنفى ، ودفعه ميله إلى المذهب ألا يأخذ النحو وغيره من علوم أخرى إلا عن أحناف إن وجد ، فأخذ النحو عن تقي الدين الشُّمْنَى الحنفى ، وقرأ

المقامات الحبرية على قوام الدين محمد بن محمد الحنفى ، وأخذ البديع والأدبيات عن شهاب الدين أحمد بن عمر شاه الدمشقى الحنفى .

وكانت له ملازمة لمشايخ عصره وإفادة من أديهم ومن علمهم مثل : شهاب الدين أحمد بن حجر ، وقاضى القضاة جلال الدين أبى السعادات بن ظهيرة قاضى مكة ، والعلامة بدر الدين بن العليف ، وقطب الدين أبى الخير بن عبد القوى ، وكان هذان الأخيران شاعري مكة فأخذ عنهما أبو المحاسن الكثير من شعرهما وتأدب بأدبهما ، وكانت له غير هذا سماعات كثيرة على مشايخ كثيرين يخاف أن نقل بذكر أسمائهم .

ثم حُتِبَ إليه علم التاريخ فلازم مؤرخى عصره مثل قاضى القضاة بدر الدين محمود العيني ، والشيخ تقي الدين المقرئى :

وكان له ولع بالفروسية فأجاد فنونها ، كلعب الرمح ورمى الشباب ولعب الكرة ، كما حذق فنون النغم والضروب والإيقاع وفاق في ذلك أهل زمانه :

وكان إلى هذا كله ورعاً دينياً عفيفاً مع حسن محاضرة ولطف منادمة وحشمة زائدة ، وحياء كثير وميل إلى الخير ومحبة لأهل العلم والفضل والصلاح .

وهذه الحياة الجامعة بصَّرت أبا المحاسن بأن يشارك في أمور كثيرة وأن يخاطب فئات مختلفة ، وحين أخذ في التأريخ استقامت له من تلك الحصيلة الكبيرة مادة غزيرة ومكنته هذه المنافذ المختلفة من أن يسلك سبلاً ممنوعة :

ولقد كان هذا القرن التاسع الهجرى من أهم القرون التاريخية ، فلقد أظلم مع أبى المحاسن جملة من مشهورى المؤرخين في مصر ، منهم من نشأ فيها ومنهم من ألم بها مثل ابن خلدون والمقرئى وابن حجر والعيني وابن عرب شاه و خليل بن شاهين والخالدى بهاء الدين بن محمد العمري ، وابن الصدى ، والسخاوى ، وابن

إياس ، والسيوطى وعبد الباسط بن خليل الحنفى ، وابن الطولونى حسن ، وابن زنبلى أحمد الرَّمَّال .

هذا العصر الحافل بالمؤرخين والكتب التاريخية هو الذى أظلم أبا المحاسن ، وقد عاش أبو المحاسن بين أجيالهم فلقد عاصر المقرئى والعيني وابن حجر وعاصره ابن الصيرفى والسخاوى وابن إياس .

وحيث قبض الله إليه المقرئى ثم العيني أصبحت زعامة التاريخ في مصر لأبى المحاسن .

مؤلفاته

١ - المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى . وهو يضم تراجم الأعيان والناهبين من أوائل الدولة التركية من المعز أيبك التركمانى إلى زمن المؤلف . وقد أراد به مؤلفه أن يجعله ذيلًا للوافى ، تأليف الصفى . وقد أخذت دار الكتب المصرية في طبعه وتولته عنها دار التأليف والترجمة .

٢ - الدليل الشافى على المنهل الصافى ، وهو مختصر للمنهل الصافى ، ومنه مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

٣ - مورد اللطافة في ذكر من ولى السلطنة والخلافة . اقتصر فيه على ذكر الخلفاء والسلاطين ، وهو اختصار للدليل الشافى . ومنه مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

٤ - منهل الظرافة للدليل مورد اللطافة . ويشمل أسماء أمراء مصر إلى سنة ٨٨٤ هـ ، ومنه نسخة بمكتبة برلين .

٥ - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور . جعله مؤلفه ذيلًا لكتاب السلوك للمقرئى فبدأه من حيث انتهى ، أى من سنة ٨٥٦ هـ ، وقد خالف المقرئى في طريقته فأطال في التراجم إلا ما جاء ذكره في كتابه المنهل الصافى . ومنه مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

٦- نزهة الرائي في التاريخ . وهو تاريخ متصل على السنين والشهور والأيام وفي مجلدات عدة ، منها الجزء التاسع في مكتبة أكسفورد . ويضم حوادث السنين من ٦٧٨ - ٧٤٧ هـ .

٧- البحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر . مرتب على السنين . ومنه جزء صغير بالمكتبة الأهلية بباريس يحوى حوادث السنين من ٣٢ - ٧٢ هـ .

٨- منشأ اللطافة في ذكر من ولى الخلافة . يؤرخ لمصر من أقدم أزمانها إلى سنة ٧١٩ هـ . ومنه نسخة بالمكتبة الأهلية بباريس .

٩- نزهة الألباب في اختلاف الأسماء والألقاب .

١٠- حلية الصفات في الأسماء والصناعات ، مرتب على الحروف يشتمل على مقاطيع وتواريخ وأدبيات .

١١- البشارة في تكملة الإشارة ، وهو ذيل على كتاب الإشارة للحافظ الذهبي .

١٢- الانتصار للسان التتار ، وهو في معاني اللغة التركية .

١٣- كتاب في الرياضيات والموسيقى .

١٤- السكر الفاضح والعطر الفائح ، في التصوف ؛ ومنه نسخة بمكتبة الإسكوريال . ثم كتابه :

١٥- النجوم الزاهرة .

وهو من أهم ما ألف أبو المحاسن ، يؤرخ فيه لمصر منذ الفتح الإسلامي إلى الدولة الأشرفية سنة ٥٨٧ هـ مع استطرادات كثيرة في أخبار البلاد المحاورة ، وهو مرتب على السنين وفي آخر كل سنة تراجم من مات فيها وزيادة النيل ونقصانه . . يقول ابن تغرى بردى في خطبة هذا الكتاب :

«أما بعد فلما كان لمصر مزية على كل بلد بخدمة الحرمين الشريفين ، أحبت أن أجعل تاريخاً للملوكها مستوعباً من غير ميتين ، فحملني ذلك على تأليف هذا الكتاب وإنشائه ، وقمت بتصنيفه وأعبائه ، واستفتحت

بفتح مصر وما وقع لهم في المسالك ومن حضرها من الصحابة ومن كان المتولى لذلك ، وعلى أى وجه فتحت : صالح أم عنوة من أصحابها ، وأجمع في ذلك أقوال من اختلف من المؤرخين وأهل الأخبار وأربابها ، وذلك بعد اتصال سدى إلى من ولى عنه منهم رواية ، ليجمع الواقف عليه بين صحة النقل والدراية ، وأطلق عنان القلم فيما جاء في فضلها وذكرها من الكتاب العزيز ، وما ورد في حقها من الأحاديث وما اختصت به من المحاسن فصار لها على غيرها بذلك التميز ، ثم أذكر من ولها من يوم فتحت وما وقع في دولته من العجب ، واحداً بعد واحد لا أقدم أحداً منهم على أحد باسم ولا كنية ولا لقب ، ثم أذكر أيضاً في كل ترجمة ما أحدث صاحبها في أيام ولايته من الأمور ، وما جرده من القواعد والوظائف والولايات في مدى الدهور ، ولا أقصر على ذلك ، بل أستطرد إلى ذكر ما بنى فيها من المباني الزاهرة ، كالمبادين والجوامع ومقياس النيل وعمارة القاهرة ، أولاً بأول أذكره في يوم مبناه وفي زمان سلطانه ، مستوعباً لهذا المعنى ضابطاً لشأنه ، على أننى أذكر من توفى من الأعيان في دولة كل خليفة وسليمان باقتصار ، بعد فراغ ترجمة المقصود من الملوك مع ذكر بعض الحوادث في مدة ولاية المذكور في أما قطر من الأقطار ، وأبدأ فيه بعد التعريف بأحوال مصر بولاية عمرو بن العاص في المملكة الإسلامية ، ثم مليك بعد ملك كل واحد على حدته ، وما وقع في أيامه إلى الدولة الأشرفية الإبنالية ، وسميته :

«النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» .

والله الموفق والمنان ، وبالله المستعان .

ويقال إن الصحبة التي كانت بين المؤلف والأمير محمد بن جقمق هي التي حملته على أن يأخذ في تأليف هذا التاريخ ، وكان في نيته أن يختتم بحكمه غير أن المنية عاجلت ابن جقمق قبل أن يأخذ المؤلف في تأليف هذا

التاريخ الكبير ، فلقد كانت وفاة ابن جقمق نحواً من سنة ٨٣٢ هـ .

ولما فتح السلطان سليم العثماني مصر ووقع له هذا الكتاب أمر بنقله إلى التركية فنقله شمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا قاضي العسكر بالأناضول يومئذ . ويقول شمس الدين سامي في كتابه قاموس الأعلام التركي أنه ترجم إلى اللغة اللاتينية وإلى لغات أوروبية أخرى .

وقد ذكر حاجي خليفة أن المؤلف قد لخص هذا الكتاب وسماه « الكواكب الباهرة في النجوم الزاهرة » وقال : وهو مجلد أوله الحمد لله الذي زين السماء الدنيا بالنجوم الزاهرة . . . الخ . ثم قال : ذكر أنه اختصره حلدراً من أن يختصره غيره على تبويبه وفصوله وافتدى في ذلك جماعة من العلماء كالذهبي والمقريزي ، فإن الذهبي اختصر تاريخ الإسلام بسير النبلاء ، ثم اختصر سير النبلاء بالعبر : ثم اختصر العبر بالإشارة إلى وفيات الأعيان .

وقد اهتم بنشر كتاب النجوم الزاهرة المستشرقون منذ زمن بعيد ، فأخرج منه المستشرق الهولندي جونبل مجلدين كبيرين في أربعة أجزاء مع مقدمة وملاحظات باللغة اللاتينية طبعت بمطبعة بريل في مدينة ليدن من سنة ١٨٥١ - ١٨٥٥ م .

ويشمل إجلد الأول السنين من ٢٠ - ٢٥٣ ، والثاني ٢٥٤ - ٣٦٥ هـ

كما أخرج المستشرق الأمريكي وليم بوير منه عشرة مجلدات مع مقدمة باللغة الإنجليزية وقد طبعت بكاليفورنيا من سنة ١٩٠٩ - ١٩٢٩ وتشتمل على السنين من ٣٦٥ - ٥٦٦ ، ومن سنة ٨٠١ - ٨٧٢ هـ . ومن هذا نرى أن الجزء الخاص بالسنين من ٥٦٧ - ٨٠٠ ، لم يخرج . وقد أخذت دار الكتب المصرية في طبع هذا الكتاب كله طبعة محققة فصورت للنسخة الخطية المحفوظة منه بمكتبة أباصوفيا وقد

أصدرت الجزء الأول سنة ١٩٢٧ وينتهي سنة ١٤٣ هـ ومضت تخرجه مع الأعوام أجزاء كل جزء يضم حقبة من السنين - وقد ذيل كل جزء بفهارس واسعة مختلفة وقد انتهت إلى الجزء الرابع عشر .

ثم تولت دار التأليف والترجمة بوزارة الثقافة الأجزاء الباقية ، وسوف تخرج قريباً . وقد أعادت دار التأليف طبع الأجزاء الأولى التي طبعت في دار الكتب واقتطعت منها الفهارس لتضمها كلها معاً في آخر الكتاب بعد تمام طبعه . وهذا شيء مما جاء في كتاب النجوم الزاهرة عن ولاية الظافر :

ذكر ولاية الظافر على مصر

الظافر بالله أبو منصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن الأمير محمد ، ابن الخليفة المستنصر معد بن الظاهر علي بن الحاكم منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد ، التاسع من خلفاء مصر من بني عبيد ، والثاني عشر منهم ممن ولي من أجداده خلفاء المغرب .

بويغ بالخلافة بعد موت أبيه الحافظ في جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وهو ابن سبع عشرة سنة وأشهر ، لأن مولده في يوم الأحد منتصف شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسمائة . وأمه أم ولد تدعى ست الوفاء ، وقيل : ست المنى .

قال العلامة شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي سبط ابن الجوزي في تاريخه مرآة الزمان - بعد أن سباه يوسف ، والصواب ما قلناه أنه إسماعيل - قال : « وكانت أيامه مضطربة لحدائث سنة واشتغاله باللهو ، وكان عباس الصنهاجي لما قتل ابن سلاور وزير له واستولى عليه . وكان له ولد اسمه نصر ، فأطعم نفسه في الأمر وأراد قتل أبيه ، ودس إليه سماً ليقتله . فعلم أبوه واحترز وأراد أن يقبض عليه فاقدر ، ومنعه

والجامع الظافرى هو المعروف الآن بجامع الفاكهانيين على الشارع الأعظم بالقرب من حارة الديلم .
وقال ابن القلانسى : « إن الظافر لما قتل أخواه يوسف وجبريل وابن عمهما صالح بن الحسن . »
قلت : وهذا القول يؤيده قول ما نقله أبو المظفر من أن عباساً قتل أخوى الظافر وابن عمه صبرا (أعنى لما بلغه قتلهم للظافر قتلهم به) غير أن جمهور المؤرخين اتفقوا على أن قاتل الظافر نصر بن عباس المقدم ذكره .
قال : وكان الظافر قد ركن إليهم (يعنى أخويه وابن عمه) وأنس بهم فى وقت مسراته ، فاتفقوا عليه واغتالوه ، وذلك فى يوم الخميس سلخ صفر . وحضر العادل عباس الوزير وابنه ناصر الدين نصر وجماعة (من) الأمراء والمسلمين (للسلام) على الرسم . فقيل لهم : إن أمر المؤمنين ملثاث الجسم . فطلبوا الدخول إليه فتمنعوا ، فألحوا فى الدخول بسبب العيادة فلم يمكنوا . فهجموا ودخلوا القصر وانكشف أمره ، فقتلوا الثلاثة وأقاموا ولده عيسى وهو ابن ثلاث سنوات ، ولقبوه بالفائز بنصر الله وبابيعوه . وعباس الوزير إليه تدبير الأمور . ثم ورد الخبر بأن طلائع بن رزيك فارس المسلمين قد امتنع من ذلك وجمع وحشد وقصد القاهرة : وكان من أكابر الأمراء . وعلم عباس أنه لا طاقة له به ، فجمع أمراء وأسبابه وأهله وخرج من القاهرة فلما قرب من عسقلان وغزة خرج عليه جماعة من خيالة الفرنج ، فاغتر بكثرة من معه : فلما حمل عليهم قتل أكثر أصحابه وانهزموا ، فانهزم هو وابنه الصغير وأسر ابنه الكبير الذى قتل ابن سلا مع ولده وحرمه وماله وكرامه ، وصار الجميع للفرنج ، ومن هرب مات من الجوع والعطش . ووصل طلائع ابن رزيك إلى القاهرة ، فوضع السيف فيمن بقى من أصحاب عباس ، وجلس فى منصب الوزارة . انتهى كلام ابن القلانسى . وما نقله غالبه مخالف لغيره من المؤرخين . والله أعلم .

مؤيد الدولة أسامة بن منقذ وقبح عليه ذلك ، وقال : إن فعلت هذا لم يبق لك أحد ويفر الناس عنك : فشرع أبوه يلاطفه (يعنى الوزير عباس يلاطف ابنه نصرا) وقال له : عوض ما تقتلنى اقتل الظافر . وكان نصر ينادم الظافر ويعاشره ، وكان الظافر يثق به وينزل فى الليل إلى داره متخفياً . فنزل إليه إلى داره وكانت بالسيوفيين داخل القاهرة ومعه خادم له : فشربا ونام الظافر ، فقام نصر فقتله ورمى به فى بئر . فلما أصبح عباس (يعنى الوزير أبا نصر المذكور) جاء إلى باب القصر يطلب الظافر : فقال له خادم القصر : ابنك يعرف أين هو (ومن) قتله . فقال عباس : ما لا بينى فيه علم . وأحضر أخوى الظافر وابن أخيه فقتلهم صبرا بين يديه ، وأحضر أعيان الدولة وقال : إن الظافر ركب البارحة فى مركب فانقلب به فغرق . ثم أخرج عيسى ولد الظافر . ففترقوا عن عباس وابنه ، ونار الجنود والعبيد وأهل القاهرة وطلبوا بثار الظافر من عباس وابنه نصر . فأخذ عباس وابنه نصر ما قدرا عليه من المال والجواهر وهربا إلى الشام . فبلغ الفرنج فخرجوا إليهما : وقتلوا عباساً وأسروا ابنه نصراً ، وقتل نصر فى السنة الآتية . انتهى .

وقال القاضى شمس الدين أحمد بن خلكان : « بويح يوم مات أبوه بوصية أبيه ، وكان أصغر أولاد أبيه سنّاً . كان كثير اللهو واللعب ، والتفرد بالجوارى ، واستباح المغانى . وكان يأنس بنصر بن عباس . فاستدعاه إلى دار أبيه ليلا سرّاً بحيث لا يعلم به أحد ، وتلك الدار فى المدرسة الحنفية السيوفية الآن ، فقتله بها وأخفى أمره . قال : وقصته مشهورة ، وذلك فى نصف المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة . وكان من أحسن الناس صورة . والجامع الظافرى الذى بالقاهرة داخل باب زويلة منسوب إليه ، وهو الذى عمره وأوقف عليه شيئاً كثيراً . انتهى كلام ابن خلكان . قلت :

وقيل غير ذلك : أن خدام القصر كتبوا إلى طلائع ابن رزيك وهو والى قوص وأسوان والصعيد يخبرونه بقتل الظافر ويستنجدونهم على عباس وابنه نصر . وكتب إليه فيمن كتب القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز ابن الحباب قصيدته الدالية التي أولها :

دعني عن نظم القريض غواذى

وشف فؤادى شجوه المهادى

وأرق عيني والعيون هواجع

هموم أقضت مضجعى ووسادى

بمصرع أبناء الرضى وعرة الذ

سجى وآل الداريات وصاد

فأين بنو رزيك عنهم ونصرهم

وما لهم من منعة وذباد

أولئك أنصار الملى وبنا الردى

وسم العدا من حاضرين وباد

لقد هد ركن الدين ليلة قتله

بخبر دليل للنجاة وهاد

تدارك من الإيمان قبل دثوره

حشاشة نفس آذنت بنفاد

وقد كاد أن يطفى تألئ نوره

على الحق عاد من بقية عاد

فلو عاين عيناك بالقصر يومهم

ومصرعهم لم تكتحل برقاد

وهى طويلة كلها على هذا المنوال فى معنى النجدة .

وقد نقلتها من خط عقد لا يقرأ إلا بجهد . فلما بلغ ذلك طلائع بن رزيك جمع ودخل القاهرة فى تاسع شهر ربيع الأول ، وجلس فى دست الوزارة ، وتلقب بالملك الصالح ، وهو صاحب الجامع خارج بابى زويلة وأخرج جسد الظافر من البئر التى كان رى فيها بعد قتله وجعله فى تابوت ومشى بين يديه حافياً مكشوف الرأس ، وفعل الناس كذلك ، وكثر الضجيج والبكاء والويل فى ذلك اليوم .

وقال بعضهم وأوضح الأمر ، وقوله : إن الظافر كان قد أحب نصر بن عباس حباً شديداً ، وبقي لا يفارقه ليلاً ونهاراً . فقدم مؤيد الدولة أسامة بن منقذ من الشام ، فقال لعباس الوزير يوماً : كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول ! قال عباس : وما يقولون ؟ قال يقولون : إن الظافر بنى على ابنتك نصر . فغضب عباس من ذلك ، وأمر ابنه نصرأ ، فدعا الظافر لبيته فوثب عليه وقتله ، وساق نحواً مما سقناه من قول أبى المظفر وابن خلكان . وانتهى كلامه وقال صاحب كتاب المقتل فى أخبار الدولتين : « ولما تم أمر الظافر ركب بزى الخلافة وعاد إلى القصر ، ولم يقدم شيئاً على انتقامه من ابنى الأنصارى لما كان يبلغه عنهم فى أيام والده الحافظ » .

وخبر ابنى الأنصارى أنهما كانا من جملة الكتاب وتوصلا إلى الحافظ ، فاستخلمهما فى ديوان الجيش قصداً لتمييزهما ، وهما غير قانعين بذلك ، لما يعلمانه من إقبال الحافظ عليهما ، فوثبا على السادة من رؤساء الدولة مثل الأجل الموفق أبى الحجاج يوسف كاتب دست الخليفة ومشورته ، ومن يليه مثل القاضي المرتضى الخنك ، والخطيرى البواب ، فتجراً على المذكورين وغيرهم من الأمراء مع قلة دربة . فتنبع القوم عوراتهم ، والخليفة الحافظ لا يزداد فيهما إلا رغبة . ووقع لهما أمور قبيحة ، والقوم يبلغون الخليفة خبرهم شيئاً بعد شيء ، وهو لا يلتفت إلى قولهم . ولا زال ابنا الأنصارى حتى صار الأكبر شريك الأجل الموفق فى ديوان المكاتبات ، ولكن خصص الموفق بالإنشاء جميعه . ولما تولى ابن الأنصارى نصف الديوان نعت بالقاضى الأجل سناء الملك ، بعد أن وصاه الخليفة الحافظ أن يقنع مع الموفق بالرتبة ويدع المباشرة ، ويخدم الموفق . وصبر الأجل الموفق على ذلك مراعاة لخطر الخليفة . وأما ابن الأنصارى الصغير فانه تجند فتأمر فى يوم ، وخلع عليه بالطوق وما يلزم

الأمرية ، وصار أمير طوائف الأجناد . فقال الناس : هو الأمير الطارى بن الأنصارى ! وبينما هم في ذلك مرض الخليفة الحافظ ومات ، وآلت الخلافة لولده الظافر هذا . فخرج لما كنا عليه من أمر الظافر مع ولدى الأنصارى المذكورين . فركب الخليفة الظافر بعد العشاء الآخرة في الشمع بالقصر ، ووقف على باب الملك بالإيوان المحاور للشباك ، وأحضر ابنى الأنصارى واستدعى مولى السر ، وهو صاحب العذاب ، وأحضرت آلات العقوبة ، فضرب الأكبر محضوره بالسياط إلى أن قارب الملك ، وفنى بأخيه كذلك ، وأمر بإخراجهما وقطع أيديهما وسل ألسنتهما من قفيهما ، وصلبا على بابى زويلة الأول والثانى زماناً .

وأقام الظافر ابن مصال المغربى وزيراً مدة شهرين فخرج عليه ابن سلال ، وكان والياً على البحيرة والإسكندرية ، ولم يرض بوزارة ابن مصال المذكور ، وتابعه عباس وكان والياً على الغربية ، وهو ولد زوجته ، فلما بلغ الوزير ابن مصال ذلك ، خرج إلى الصعيد لكونه لم يطق لقاء ابن سلال ومن معه على غير موافقة من الخليفة الظافر . ودخل ابن سلال إلى القاهرة وزيراً ، فما طابت به نفس الخليفة الظافر بالله ، فباشر الأمور مباشرة بمجد . وأقام الظافر خليفة إلى أوائل سنة تسع وأربعين وخمسة ، ولم يصف بين الخليفة والوزير عيش قط ، وجرت بينهما أمور ، وثبت عند ابن سلال كراهة الخليفة فيه ، فاحترز على نفسه منه ، وأقام كذلك أربع سنين وبعض الخامسة ، حتى قتله نصر بن عباس اغتيالاً في داره . وذكر أن ذلك بموافقة الخليفة الظافر على ذلك ، لأن هذا نصراً كان قد اختلط بالخليفة اختلاطاً دائماً أدى إلى حسد أكثر أهل الدولة له على ذلك . وخشى عباس على نفسه من ولده نصر المذكور لما تم منه في حق ابن سلال ، فرمى بينه وبين الخليفة بموهومات قبيحة ، حتى قتل نصر الخليفة أيضاً ودفنه في داره التى بالسيوفيين ، وقتل أستاذين معه .

ولما علم الخليفة استخلف ولده بعده ، وهو أبو القاسم عيسى ، ونعت بالفاتر بنصر الله ، وكان عمره يومئذ خمس سنين . أخرجه الوزير عباس من عند جلسته أم أبيه الخليفة يوم قتل عميه يوسف وجبريل ابنى الحافظ — وهما مظلومان — بتهمة أنهما قتلا أخاهما الخليفة الظافر حسداً على الرتبة لينالها بعده . وليس الأمر كذلك ، بل عباس الوزير وولده نصر قتلاه . فراهما الخليفة هذا الصغير مقتولين ، فتفرع واضطرب وغشى عليه . ولازمه ذلك وكثر به .

قلت : وقول هذا عندى في قتل الخليفة الظافر أثبت الأقاويل . وبكلامه أيضاً يعرف جميع ما ذكرناه في أمره من أقوال المؤرخين ، فإنه ساق أمره على جلسته من غير لإدخال شيء معه .

وأما تفصيل أمر عباس الوزير وابنه نصر فإن عباساً كان رجلاً من بنى تميم ملوك الغرب ، ودخل عباس القاهرة فاجتمع بالخليفة ، فأكرمه وأنعم عليه بأشياء ثم خلع عليه بالوزارة على العادة ولقبه ، فباشر عباس الوزارة وخدم الأمور وأكرم الأمراء وأحسن إلى الأجناد لينسبهم العادل ابن سلال . واستمر ابنه نصر على مخالطة الخليفة الظافر ، حتى اشتغل الظافر عن كل أحد بابن عباس المذكور ، وأبوه عباس يكره خلطته بالخليفة . وانتهى الخليفة معه إلى أن يخرج من قصره لزيارة ابن عباس بداره التى بالسيوفيين ، بحيث لا يعلم عباس بذلك . فلما علم استوحش من الخليفة لجرأة ابنه ، وتوهم أنه ربما بحملة الخليفة على قتله . فقال عباس لابنه سراً : قد أكثرت من ملازمة الخليفة حتى تحدث الناس في حقك مع بما أزعج باطنى ، وربما يتناقل الناس ذلك ويصل إلى أعدائنا منه ما لا يزول ، ففهم ابنه نصر عنه وأخذته حدة الشباب ، فقال نصر لأبيه : أيرضيك قتله ؟ فقال : أزل الهمّة عنك كيف شئت . فخرج الخليفة ليلة إلى نصر بن عباس على عادته فقتله بالجماعة الذين قتل بهم الوزير ابن سلال ، وقتل

ففيها مطرت اليمن مطراً دماً ، وبقي أثره في الأرض
وفي ثياب الناس .

وفيها في المحرم نزل الملك العادل نور الدين محمود
ابن زنكي صاحب الشام على دمشق وحاصرها ، فراسله
صاحبها مجير الدين ، وخرج إليه هو والرئيس ابن
الصوفي وبذلا له الطاعة وأن يخطب له مجير الدين بعد
الخليفة والسلطان ، وأن ينقش اسمه على الدينار
والدرهم ، فرضى نور الدين وخلع عليه ورحل عنه .
وعاد وافتتح قلعة اعزاز .

وفيها اختلف وزير مصر ابن مصال المغربي والعادل
ابن سلاّر وجمعا العساكر واقتتلا ، فقتل الوزير ابن
مصال ، واستقل ابن سلاّر بالوزير والملك . وقد
ذكرنا نحو ذلك في ترجمة الظافر هذا .

وفيها توفي أبو المفاخر الحسن بن ذى النون الواحظ
(ابن أبي القاسم) كان فاضلاً صالحاً إماماً فقيهاً حنفياً
المذهب ، كان يبعد الدرس خمسين مرة . ومن شعره :

مات الكرام ومروا وانقضوا ومضوا
ومات بعدهم تلك الكرامات
وخلفوني في قوم ذوى سفه
لو أبصروا طيف ضيف في الكرى ماتوا

وفيها توفي الأمير أبو الحسن على بن دبيس صاحب
الحلة . كان شجاعاً جواداً إلا أنه كان على عادة أهل
الحلة رافضياً خبيثاً .

وفيها توفي قتيلا الوزير على بن سلاّر وزير الظافر
صاحب الترجمة بديار مصر . كان يلقب بالملك العادل .
وتولى الوزر بعده عباس أبو نصر الذي قتل الظافر ،
حسب ما ذكرنا ذلك كله مفصلاً .

وفيها ملكت الفرنج عسقلان بالأمان بعد أن قتل
من الفريقين خلق كثير ، وكان قد تمادى القتال بينهم
في كل سنة إلى أن سلموها . وأخذ الفرنج جميع ما كان
فيها من المخاثر وغيرها .

أيضاً أستاذين كانا مع الخليفة الظافر ، وطهرهم في بئر
هناك . وأصبح عباس فبايع عيسى بن الظافر ، ولقبه
الفائز ، على ما يأتي ذكره في أول ترجمة الفائز .

ولما تم لعباس ما قصده من قتل الخليفة وتولية ولده
الخليفة ، كثرت الأقاويل . ووقع الناس على الخبر
الصحيح بالجلس . فاستوحش الناس قتل هؤلاء الأئمة .
وكان طلائع بن رزيك والياً على الأشمونين ، والبهنسا ،
فتحرك حاشداً على عباس ، ولبس السواد وحمل
شعور النساء حرم الخليفة على الرماح . فتدخل أمر
عباس وتفرق الناس عنه ، وصار الناس تسمعه المكروه
في الطرقات من كل فج ، حتى أنه رمى من طاق ببعض
الشوارع وهو جائز بهاون نحاس ، وفي يوم آخر بقدر
مملوعة ماء حاراً ، فقال عباس : ما بقي بعد هذا شيء .
فصار يدبر كيف يخرج وأين يسلك . فأشار عليه بعض
أصحابه بتحريق القاهرة قبل خروجه منها فلم يفعل ،
وقال : يكفى ما جرى . فلما قرب طلائع بن رزيك إلى
القاهرة خرج عباس وابنه ومعهما كل ما يملكانه طالباً
للشرق . فحال الفرنج بينه وبين طريقه ، فقاتل حتى
قتل وأسر ولده نصر ، وفاز الفرنج بما كان معه ، وذلك
في شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة . وأما
ولده نصر فنذكر أمره وقاتله في أول ترجمة الفائز
بأوسع من هذا إن شاء الله تعالى .

وكانت قتلة الخليفة الظافر هذا في سلخ المحرم سنة
تسع وأربعين وخمسمائة على قول من رجح ذلك ، وله
اثنان وعشرون سنة ، وكانت خلافته أربع سنين
وسبعة أشهر وسبعة أيام . وتولى الخلافة بعده ولده
الفائز عيسى .

ونذكر إن شاء الله أمر قتله أيضاً في ترجمة الفائز
بأوسع من هذا هناك .

• • •

السنة الأولى من ولاية الظافر بأمر الله أبي منصور
إسماعيل على مصر وهي سنة خمس وأربعين وخمسمائة .

السنة الثانية من ولاية الظافر على مصر وهي سنة ست وأربعين وخمسمائة .

فيها دخل السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي إلى بغداد ، وخرج الوزير ابن هبيرة وأرباب الدولة إلى لقائه فأكرمهم .

وهذا الرجل الذي عني نفسه بهذه الأعمال الكثيرة وظل مكباً عليها إلى ما قبيل وفاته ، لم يسلم من نقد رجلين مؤرخين ممن عاصروه ، وهما ابن الصيرفي والسخاوي . وما أكثر ما توغر المشاركة في عمل صدور المعاصرين ، ثم إنا ما عرفنا السخاوي ترك علماً من أعلام عصره دون أن يجرحه وينقده وما نجا منه المقرئ شيخ المؤرخين في عصره ، ولا ابن خلدون شيخ مؤرخي الإسلام .

ولقد ظل أبو المحاسن مشغولاً بعمله وتأليفه لا يصرفه عنه صارف إلى أن توفاه الله في يوم الثلاثاء خامس ذي الحجة سنة أربع وتسعين وثمانمائة .

وحسب هذا الراحل عزاء عما ترك من عمل صالح ، ما كتبه عنه تلميذه أحمد بن حسن التركاني في ترجمته له :

« ونرجو إن أطال الله عمره وفسح في أجله ليملاّن خزائن من العلوم والمصنفات في كل فن ليعلمي باتساع باعه في التصنيف والتأليف » .

ثم قول ابن إياس فيه : « وهو الذي قد خلف أبا المحاسن على زعامة المؤرخين بمصر : وضع لنا حقاً أنه كان رئيساً حشماً فاضلاً حنظلي المذهب وله اشتغال بالعلم وكان مشغولاً بكتابة التاريخ » .

ثم حسب ابن تغري بردي في وصف نفسه شعره الذي يقول فيه :

تجارة الحب غدت في حب خود كاسده
ورأس مالى هبة لفرحى بفائده

وفيها توفي أحمد بن منير بن أحمد الأدب أبو الحسين الطرابلسي الشاعر المشهور المعروف بالرفاء . ولد سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة بطرابلس . وكان بارعاً في اللغة العربية والأدب إلا أنه خبيث اللسان كثير الفحش . حبسه الملك تاج الملوكة بوري صاحب دمشق ، وعزم على قطع لسانه ، فاستوهبه منه الحاجب يوسف ابن فيروز فوهبه له فنفاه . وكان هجاء خلاق كثير ، وكان بينه وبين ابن القيسراني مهاجاة ، وكان رافضياً . وكانت وفاته بحلب في جمادى الآخرة . ومن شعره :

جنى ونجنى والفؤاد يطيعه
فلا ذاق من ينحى عليه كما ينحى
فان لم يكن عندي كميني ومسمي
فلا نظرت عيني ولا سمعت أذني

وفيها توفي الأمير تمرناش بن نجم الدين ابغاوي الأرتقي صاحب ماردين وديار بكر . كان شجاعاً جواداً عادلاً محباً للعلماء والفضلاء يبحث معهم في فنون العلوم . وكان لا يرى القتل ولا الحبس . ومات في ذي القعدة ، وكانت مدته نيافاً وثلاثين سنة . وقام بعده ابنه .

وفيها توفي حيدر بن الصوفي الذي كان أقامه مجير الدين صاحب دمشق مقام أخيه : ثم وقع منه سعي بالفساد ، فاستدعاه مجير الدين إلى القلعة على حين غفلة فضرب عنقه لسوء سيرته وقبح أفعاله .

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة ، قال : وفيها توفي أبو بكر محمد بن أبي حامد بن عبد العزيز بن علي الدينوري البسّج ببغداد ، والمبارك بن أحمد بن بركة الكندي الحبار .

أمر النيل في هذه السنة : الماء القديم ست أذرع وأربع وعشرون أصبعاً . مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وثلاث عشرة أصبعاً .

• • •

مدام بوشارى السجوتاف فلوبير

بمقام
الأستاذ على أدهم

لأسلوبه إيقاع موسيقى ، ولذلك كان يقرأ ما يكتب بصوت مرتفع ليتحاشى الكلمات الخوشية والحروف المتنافرة ، وكان الذين يمرون بجانب داره - كما يروى لنا النقاد الدانمركى جورج براندز - يسمعون وهو يعيد قراءة ما يكتب فيعتقدون أنه محام يجرب ما سيقوله أمام المحكمة ، وقد كان الكاتب الروائى الروسى الكبير إيفان ترجنيف صديقاً حميماً لفلوبير ، وكان كثيراً ما يزوره فى أثناء إقامته بفرنسا ، وقد أعلن أنه مما يشير العطف ويبعث على الإشفاق أن يراه وهو أقل الناس صبراً عاكفاً على المهادنة فى استبعاد العبارات الغامضة ، والأراكيب المستغلفة ، باذلاً فى سبيل ذلك أقصى ما فى طاقته من الجهد ، وروى عنه استراشى أنه حاول فى أحد مشاهد رواياته وصف حديقة نبات الكرنب فى ضوء القمر ليلاً ، فسأل نفسه « كيف يبدو منظر حديقة الكرنب فى ضوء القمر وقد أرخى الليل سولوه ؟ فأرجأ الوصف حيناً من الزمن حتى جاءت الليلة المناسبة ، فخرج من داره يحمل مفكرة فى يده ، وغشى إحدى حدائق الكرنب لينون بالتفصيل الدقيق ما شاهده ، ولذلك كان إنتاجه بالقياس إلى غيره من مشاهير الكتاب الروائيين قليلاً ، فقد كان يكتب فى

جوستاف فلوبير فى طليعة كبار الكتاب البارزين فى تاريخ الأدب الفرنسى ، وهو يعد فى تاريخ الأدب العالمى أحد الأساتذة الزواد فى كتابة الرواية الواقعية ، ولم يبلغ فلوبير هذه المكانة الرفيعة فى عالم الأدب لأنه كان كاتباً موهوباً فحسب ، وإنما ظفر بها لأنه أراد ذلك ، وعقد عليه العزم ، ولم يلدخ جهداً ، ولم يحجم عن أية تضحية فى سبيل تحقيق رسالته الأدبية ، وهى مسألة لها وزنها فى تقويم عبقريته وتقدير أدبه ، ولم يعط كاتب من الكتاب أسلوبه العناية التى أسبغها فلوبير على أسلوبه ، ولم يأخذ أحد من الكتاب نفسه فى مزاوله الكتابة بالشدة فى تحرير الكلام وضبطه وتصفيته وتنقيحه التى التزمها فلوبير وفرض على نفسه قيودها الثقيلة وتكاليفها المرهقة ، كان يمضى ثمانية أيام - كما يقول إميل فاجيه فى كتابه القيم عنه - من العمل المتصل ليكتب صفحة واحدة ، وكان يصحح ما يكتبه ويعيد عليه الكرة منقحاً ومصححاً ، ويفحص كل كلمة ويزنها ويعرضها على أذنه ليختبر وقعها فى السمع ، ويتعرف جرسها ، وكان يقيم لنفسه عقبات لا لزوم لها تحرياً لمراعاة الدقة والإحكام فى الكتابة ، فلا يكرر لفظة بعينها فى الصفحة نفسها ، ويعمل على أن يكون

بطء شديد ، وقد قضى قرابة سبع سنوات في كتابة أشهر رواياته ، وهى رواية مدام بوفارى ، كما قضى بعد ذلك ثلاث عشرة سنة في كتابة روايته « بوفارى وبيكيشيه » ولم تكن قد كملت حينما أدركته الوفاة :

وفلوبير في تحريره الدقة في الوصف ونفاذ ملاحظاته وبراعة تعليقاته خليفة للكاتب الروائى الفرنسى الكبير بلزاك ، ولكنه في فرط عنايته بأسلوبه وتثقيف جملة وتنطسه في اختيار ألفاظه نقيض لسابقه العظيم ، وهذه الزايا والصفات تجعل فلوبير ممثلاً لعصره ، فقد كانت الحاسة الناقدة مسيطرة عليه وعلى عصره ، ولكن تمكنها منه وسيطرتها عليه كانت تفوق سيطرتها على سائر الكتاب المعاصرين له ، وكان هو نفسه يقول عن بلزاك لصديقه لويز كولين « أى رجل كان يمكن أن يكون بلزاك لو أنه عرف كيف يكتب ! » :

وكان فلوبير يحمل هذه الآلام المرحية في التأليف ويتعرض لأزمات اليأس ونوبات الضيق والكرب لا رغبة في الشهرة ، ولا استجابة لحرصه على جمع المال ، ولا بغية التقرب لامرأة يود اسمائها ، ونيل عطفها واعجابها ، وإنما بدافع إخلاصه للفن الذى كان يعد مبشراً برسائله وكاهناً في محرابه ، ومن أقواله في إحدى رسائله « لى لا أعبا فتيلاً بالدنيا ، ولا بالمستقبل ولا بما سيقوله الناس ، ولا أطمح في منزلة وطيدة ، ولا أنطلع حتى إلى الشهرة الأدبية التى كنت في بواكر أباي أفضى الكثير من اللبالي حالمًا بها » ، ولم يكن فلوبير بطبيعته صالحاً للاستمتاع بأى لون من ألوان السعادة الدنيوية التى عرفوها الكثيرون ممن هم أقل منه شأنًا ودونه منزلة ، فحينما نال كتابه « مدام بوفارى » شهرة موقوتة تسرب إليه الشك في قيمته ، وكتب إلى صديقه دى كامب « أود لو استطعت أن أجده سبيلاً لجمع قدر من المال حتى أشتري جميع النسخ الموجودة من « مدام بوفارى » وألقى بها جميعاً في النار ولا أسمع شيئاً مرة

ثانية عن هذا الكتاب » ، وكانت سبب الحالات النفسية الغالبة عليه والتي كانت تبعته على إعلان مثل هذه التصريحات النزعة الكليبية العريضة في نفسه ، وقد كتب في إحدى رسائله يقول « برغم أنى والحمد لله لم ألق قط عناء على يد أحد الناس ، وبرغم أن حياتي لم تكن تنقصها الوسائل التى أستطيع بها أن أنتحى زاوية وأنسى الناس جميعاً فاني مع ذلك أمقت شركائى في الحياة ولا أشعر أبداً بأنى زميل لهم » وقد أثارت الحياة نقمته فظل يعانى الضيق والمال ، وقال في ذلك لصديقه دى كامب « إن مخدر المال الذى غمست فيه نفسى في إيهان الشباب سيكون له تأثيره حتى أواخر أيام حياتي ، لى أمقت الحياة ، نعم لى أمقت الحياة وأجتوى كل شئ عيذكرفى بأن الحياة يجب أن تحتل ، فالأكل وارتداء الملابس والوقوف على قدمي ذلك كله يكلفنى ما لا أطيق من العناء ، ولقد رسفت في قيود هذا الشقاء بكل مكان حللت به » وربما كان سبب ذلك فرط حساسيته ، وهذا الضيق بالحياة يبدو واضحاً خلال روايته مدام بوفارى ، ولذا كان يقول عن هذه الشخصية العجيبة التى أوجدها « مدام بوفارى هى أنا » .

وكان فلوبير في كتابته يعتمد إخفاء عواطفه ، وقمع ميوله ، وأهوائه ، وكبت حيويته ، لأنه كان يعتقد أن التجرد التام من قيود الميول والأهواء لازم للفن الصادق والكتابة الجيدة ، ويؤكد لنا فرنسيس ستيجملر - أحد من تصادوا للدراسة حياة فلوبير - أنه لم يكن من هؤلاء الذين يمتلكهم العواطف الدنيئة في الحب وتعصف بنفوسهم عواصفه ، ولم يجرب في حياته الميل إلى البقاء مع حبيبته أبد الدهر أو الشعور بأن غيابها عنه سيقفل في وجوه أبواب الجنة ، ولم يكن الحب في رأيه أكثر من متعة جسدية ، ويستدل على ذلك بما كتبه إلى صديقه لويز كولين قائلاً « إذا كنت تحسبن أن الحب هو الطبقة الرئيسى في الوجود فإن

الحركة كالرياضي المصارع ، غير شاعر بمواهبه العقلية والجسدية ، وغير حافل بتقاليد المجتمع ... وحينما قلت له أن النفوذ والشهرة من الأشياء المرغوبة والتي لها قيمة أصغى لحديثي في غير اكتراث وقت. علا وجهه الابتسام ، وكان يعجب بما هو جميل في الطبيعة والفن ، وقال إنه سيعيش من أجل ذلك دون أن يفكر في مصلحته الشخصية ، ولم يحلم قط بالمجد أو المنفعة ، وكان الذي يفيض على نفسه السرور أن يجد شيئاً يبدو له أنه جدير بالاعجاب ، والمتعة التي يجدها الإنسان في الاجتماع به والقرب منه باعثاً تهمسته لكل ما هو نبيل ، وتفوقه العقلي يبدو في فرديته القوية ، والذي ينقص طبيعته هو الاهتمام بالأشياء الخارجية النافعة ، فإذا سمع قول الناس أن الدين والسياسة أو الشؤون العملية شائقة مثل الأدب والفن فانه يفتح عينيه من التعجب والرائة لحالة القائلين بذلك .

وهكذا كانت حالة فلوير حينما قدم باريس سنة ١٨٤٠ للدراسة القانون ، وقد مل الحياة بها وكره ما يسمى « حياة الطلبة » ولم يكن قد وضع خطة لحياته الأدبية بعد ، وكان يقضي أكثر أيامه وحيداً في شقته الصغيرة وما يكاد يفتح كتاباً من كتب القانون حتى يطوى صفحاته ويستلقي ساعات في فراشه ملدخناً وحالماً ، لقد صار ممن يوترون الاسترسال مع الأفكار والغوص في التأملات .

وكان يتردد من الحين إلى الحين على مرسم براديه ، وهناك لقي في أحد الأيام فيكتور هيجو وعرف السيدة لويز كوله وكانت إحدى النساء المتأدبات المعروفات في ذلك العهد ، وفي سبتمبر وأكتوبر سنة ١٨٤٠ قام برحلة في جبال البرانس وجزيرة كورسيكا ، وذان لهذا التغيير في أسلوب حياته أثره الحسن في حالته النفسية ، ووصفه لجزيرة كورسيكا في الرسائل التي بعث بها إلى أصدقائه يتم على قدرته الفائقة على الوصف التي تجلت بعد ذلك في مؤلفاته .

جوابي عن ذلك هو النفي ، أما إذا كنت تريد أن تطبق لإضافي فلان أو افكك ، وإذا كنت تعني بالحلب أن يظل الإنسان مشغولاً بمن يحب وأن لا يعيش إلا معها وأن لا يرى في الأشياء التي ترى في الدنيا غيرها وأن عملاً التفكير فيها نفسه وأن يشعر بأن حياته مرتبطة بحياتها وأنها قد أصبحت شعبة من نفسه فلان أرد على ذلك بالنفي ، ولان لم أشعر قط بضرورة معايشة أي إنسان ، نعم قد شعرت بالرغبة وأما بالحاجة فلا .

وقد ولد فلوير بمدينة روين في ١٢ ديسمبر سنة ١٨٢١ وهو ابن أشيل كليوفاس فلوير الذي كان كبير جراحي مستشفى المدينة ، وكان هو نفسه نجل طبيب بيطري ، وكانت والدته آن جستن كارولين فليريو ، وكانت تنسب من ناحية والدتها إلى أقدم الأسر في نورمانديا السفلى ، وكانت شديدة الاعتزاز بنفسها ، وقد أورثت ابنها الاستعداد لاضطراب الأعصاب والميل إلى احتقار الناس العاديين ، ومهما يكن من الأمر فانها كانت شديدة التوفر على العناية بتربيتها ، وكان هذا من أسباب إعراضه عن الزواج ، فقد قضى حياته عزباً .

وكان فلوير طويل القامة ، قوى البنية ، وقد مال في شيخوخته إلى البدانة ، وكان كبير الأنف ، عالي الجبين بارز العينين ، كث الشارب ، وقد ولد في مستشفى هوتيل ديه ونشأ بها ، وظل هناك حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره ، وأرسل إلى باريس للدراسة القانون ، ودرس في الليسيه طالباً خارجياً ، ولم يبدل في دراسته جهداً ، وظهر تعلقه بالأدب مبكراً ، ففي الحادية عشرة من عمره اشترك مع بعض رفقاته في تمثيل رواية من تأليفه .

ولم يكن فلوير في طفولته أو شبابه كثير الأصدقاء وقد وصفته سيدة عرفته في مطلع شبابه فقالت « كان جوستاف فلوير في ذلك الوقت يبدو كأنه يوناني في مقبل السن ، وكان طويل القامة ، نحيف الجسم ، رشيق

وفي سنة ١٨٤٥ مات والده ، وتوفيت شقيقته كارولين في السنة التالية ، وأصبحت والدته تعيش في عزلة ، فصمم على مغادرة باريس التي كان لا يستريح إلى الإقامة بها وترك دراسة القانون التي كان يكرهها وأثر أن يعيش في كرواسيه القريبة من روين بمنزل يستطيع أن يرى منه نهر السين والقوارب مصعدات فيه ومنحدرات ، وفي الضفة الثانية التلال المكسوة بالخضرة .

وقفى في ذلك المكان أربعة وثلاثين عاماً حتى أدركه الموت ، وعاش عيشة دراسة وعكوف على العمل لم يتخللها سوى رحلة إلى بريتانى مع صديقه ماكسيم دى كامب سنة ١٨٤٦ ورحلة معه كذلك إلى الشرق سنة ١٨٤٩ وزيارات لباريس في فترات غير منتظمة .

ولم يقبل على الأدب إقبالا جديداً إلا في سنة ١٨٤٦ وبدأ يكثر من القراءة والاطلاع ويكتب مذكراته ويسجل تعليقاته على ما يقرأ في رسائله إلى أصدقائه ، ويضع خططاً لحياته المقبلة ، وشرع في كتابة أصول روايته « إغراء القديس أنطونيوس » ، وفي هذه السنة نفسها بدأت علاقته المعروفة بالسيدة لويز كوليه ، وظلت حتى سنة ١٨٥٤ وكانت هي العلاقة العاطفية الوحيدة في حياة فلوير .

وفي سنة ١٨٤٩ قام بالرحلة إلى الشرق السابق الإشارة إليها مع صديقه ماكسيم دى كامب وزار مالطة ومصر (وقد أصعد في النيل إلى قنا) وسوريا وفلسطين والقسطنطينية وأثينا وجزءاً من بلاد اليونان ، وفتن بما شاهد من مناظر ، وعاش باقي أيام حياته يحلم بالفردة إلى تلك البلاد الحافلة بالأطلال الدوارس والآثار التاريخية ، وأعجب أما اعجاب بأهرامات الجزيرة وأبي الهول ، وكتب في ذلك يقول « بلغنا سفح التل الذي تقوم فوقه الأهرامات في مساء الساعة الرابعة يوم الجمعة الموافق اليوم السابع من ديسمبر سنة ١٨٤٩

وأطلقت العنان للجواد الذي امتطيته وكذلك فعل ماكسيم ووقفنا عند قدمي أبي الهول ، وتلقاه منظره الذي لا يمكن وصفه طافت بذهني خواطر شتى ، وحال لون وجه صاحبي حتى صار في بياض صفحة الورقة التي أكتب عليها ، وحينما أقبل المساء وغربت الشمس بدا أبو الهول والأهرامات الثلاثة جميعاً وردية اللون كأنها غارقة في الضوء ، ونظر إلينا هذا الوحش الجبار العجوز نظرة جامدة مخيفة ، ولن أنسى ما عشت الانطباع الغريب الذي خلفه ذلك المنظر في نفسي ، وقضينا ثلاث ليال عند أقدام هذه الأهرامات القديمة ، والقول الصريح أنها رائعة ، وكلما أطلت إليها النظر بدت لك أكبر وأضخم ، وأحجارها التي تبدو على مسافة عشرين خطوة مثل أحجار رصف الطرق تقرب في الحقيقة من حجم الإنسان ، وحينما يتسلقها ترداد علواً مثلما يتسلق الإنسان جبلاً .

وبعد سنة ١٨٥٠ أصبحت حياة فلوير مقصورة على حوادث حياته الأدبية ، وصار تاريخه تاريخ كتبه التي شغل بتأليفها ، وكان يقضى معظم العام في كرواسيه مقبلاً على التأليف ، ولا يسمح لنفسه بالراحة إلا مدة أيام قلائل ، وكان لا يذهب إلى روين إلا إذا كان هناك بعض أعمال تقتضى ذلك ، وحينما كان يزور باريس كان يجتمع بسانت ييف وتيوفيل حوتيهو وغيرهما من الكتاب والأدباء ، وفي أواخر حياته كان يلقي الفونس دوديه وإميل زولا والأخوين لادمون جونكور وجيل جونكور وتدور بينهم أحاديث عن الأدب والفن ، وفي بعض هذه الزيارات كان يجتمع برينان وتين وجورج ساند .

وشغل في المدة من سنة ١٨٥٠ إلى ١٨٥٦ بكتابة روايته المشهورة « مدام بوغاري » وقد ظهرت في مجلة « ريفي دى بارى » من أول أكتوبر سنة ١٨٥٦ إلى ١٥ ديسمبر من السنة نفسها ، وفي يناير وفبراير سنة

١٨٥٧ شغل بالفضية التي أهتمت فيها الدولة بالخروج على الآداب في رواية مدام بوفاري ، وقد برأته المحكمة ولكن بعد أن أبدى القاضي ملاحظات شديدة حول قيمة الكتاب من الناحية الأخلاقية .

وفيما بين سنة ١٨٥٧ وسنة ١٨٦١ شغل بتأليف رواية سلامبو وإتمام رواية إغراء القديس أنطونيوس ، وظهرت سلامبو سنة ١٨٦٢ بعد أن بذل في كتابتها جهوداً أدبية ضخمة وقام ببحوث تاريخية وأركيولوجية وفيما بين سنة ١٨٦٢ إلى سنة ١٨٦٩ عاد إلى دراسة عادات المجتمع الحديث ووصف أحواله وكانت نتيجة هذه الدراسة رواية التربية العاطفية التي ظهرت في سنة ١٨٦٩ .

وبعد سنة ١٨٧٠ تكاثرت عليه الموم والأحزان ، وكان بطبيعته ميالاً إلى الحزن والتشاؤم ، وقد قوى هذا الميل في نفسه تقلم سنه والأحداث السياسية وما لقبته رواياته « سلامبو » و « التربية العاطفية » من قلة الزواج وسوء التقدير ، يضاف إلى ذلك تعرضه لمرض عصبي أصابه كانت نوبات هيجاته تشكل خطراً مستمراً على حياته ، وكان قد فقد منذ زمن أخته وصديقه الحميم لي بوتيفان كما فقد صداقة ماكسيم دي كامب ، وفقد والدته سنة ١٨٧٢ وتقدم في الشيخوخة ، وحضت به العزلة الموحشة ، ولم تسعده في هذه الفترة سوى رعاية قريبته مدام كومنفيل وصداقة جورج ساند التي ساندته وكتبت إليه رسائل مشجعة تنطوي على كثير من التقدير والاعجاب والتشجيع ، كما راقه فتفتح ملكات تلميذه ججي دي موباسان ، وقد علمه فلوير العناية الشديدة بالأسلوب والتخرج من المبادرة إلى سرعة الإخراج ، ووجد فيه بحق خير متمم لرسائله ومقدر في الكتابة الفنية لطريقته وخطته .

وفي سنة ١٨٧٧ أخرج مؤلفاً به ثلاث قصص لم يلقى النجاح المنتظر ، وأخذ يستعد بعد ذلك لكتابة

رواية « بوفار وبيكيشيه » وكان يؤثرها على سائر مؤلفاته ، وقد بذل في كتابتها جهداً جباراً وبرغم ذلك مات قبل أن يتمها ، وكان ينوي أن يخرجها في مجلدين ، ولكن المواد التي تركها لم تكن تكفي إلا مجلداً واحداً ، وقد مات في أعقاب نوبة سكتة قلبية في صباح اليوم الثامن من شهر مايو سنة ١٨٨٠ وهو في الثامنة بعد الخمسين من عمره ، وكانت جنازته في اليوم الحادي عشر من مايو ، ولم يكن عضواً في الأكاديمية الفرنسية ، ولم تلقى خطب على قبره سوى كلمة وداع من لايبير أحد أصدقاء أسرته وصاحب مجلة كانت تصدر في روين .

وقد كانت تغلب على فلوير خليقتان ، وهما الحياء والكبرياء ، والحياء بطبيعته يفرى بالكبرياء ، كما أن الكبرياء تزيد الحياء قوة وسيطرة على النفس ، وكان فلوير حياً ومتكبراً إلى حد كبير ، فكان لا يطبق المعارضة في المناقشة ، وكان أصدقاؤه يعرفون ذلك ويتحاشون مخالفته خشية ثورة الغضب التي تتملكه وتهدد حياته حيناً يارضيه أحد في آرائه ومذاهبه ، وكان شديد الاحتقار لأدب القرن التاسع عشر ، وكان يرى أن كل ما لا يعنيه ليس له قيمة ، وهذا المزيج من الحياء والكبرياء كان يجعله حريصاً على أن يتحدث عن نفسه ، ولكنه مع ذلك لم يكن يشمر بالارتياح في ذلك ويسره أن يسمع الحديث عن نفسه ولو أنه يسبب له قلقاً وازعاجاً ، وقد أفسدت سرعة غضبه ما بينه وبين صديقه ماكسيم دي كامب ، وبطبيعة الحال كان يضيئ بالنقد ، فحينما كتب سانت بييف عن مدام بوفاري مقدرًا ومطرباً كتب فلوير يقول « إن مقال سانت بييف صالح كل الصلاحية للبورجوازية ، وقد بلغني أنه أحدث تأثير عظيم في روين » .

وهذه الكبرياء المقترنة بالحياء وفرط الحساسية جعلت فلوير يعيش في عزلة دائم التذمر ، وكان يحبس

نفسه في صومعته بكرواسيه مضمرأ الاحتقار للبشر
 منطوياً على همومه في صمت وإباء ، ولا يسمح إلا لعدد
 قليل من الأصدقاء بالاقتراب منه ، ولم يسمح لأية امرأة
 أن تقتحم عليه عزله وتؤنس وحشته برغم التوسل إليه
 للسباح بذلك ، وقد عاش هكذا طوال حياته ، وقد
 أدرك منذ مستهل شبابه أنه سيظل يعيش على هذا النمط ،
 ففي الثامنة عشرة من عمره كتب يقول « لا تحسبني
 متردداً في اختيار وظيفة ، فاني في الحقيقة ان أختار
 أية واحدة ، لأنني شديد الاحتقار للناس إلى حد أنني
 لا أريد أن أسلدى لهم خيراً أو أن أسبب لهم ضرراً » ،
 وفي الخامسة والعشرين من عمره كتب يقول « الجو
 أكدر ، والنهر أصفر اللون ، والحشائش خضراء ،
 ولا تكاد تظهر أوراق الشجر ، إنها آخذة في الظهور ،
 إنه الربيع أوان السرور والحب ، ولكن قلبي ليس به
 ربيع . . . ومن عجيب الأمور أنني قد ولدت بمثل
 هذا الإيمان القليل بالسعادة ، وحينما كنت في أولى
 مراحل الشباب طالعتني صورة ما سألتني في الحياة من
 متاع وهموم ، لقد كانت تشبه رائحة المطعم الكريمة
 التي تأتي من خلال النافذة ، فقبل أن تلمس الطعام
 يبدك تدرك أنه يسبب لك المرض » وفي الثلاثين من عمره
 كتب يقول « من يوم اليوم أشعر بأن نفوري من زملائي
 البشر يزداد وهذا مما يسرني » ويقول كذلك « أحب أن
 أرى الإنسانية وكل ما يحترمه الإنسان وقد هان شأنه
 واستخف به ويخمر منه وكره وانقص ، وهذا سبب
 ما عندي من الاحترام القليل للإنسان » .

ولقد كانت حساسيته تجعله سريع الغضب ،
 وسرعة الغضب كانت في دورها تجعل الحزن غالباً على
 طباعه ، وحزنه كان يحيله كارهاً للبشر ، وكرهته
 للبشر كانت تثير حقدَهُ عليهم ، ولذلك كان يمتد
 السخف والغباء ويحبهما في الوقت نفسه ، لأنه يجد فيهما
 مجالاً لاشباع هوايته في الزرابة بالناس واستصغار

شأنهم ، وهكذا كان فلوير الكاتب الروائي الفنان
 ينظر إلى الإنسانية نظرة خوف واشمزاز وبخزية
 واستخفاف ، وقد أمضى حياته وهو يقول لنفسه ويعيد
 القول ويكرره إن الإنسان صغير والفن عظيم ، فهو
 يحقر الإنسان ولكنه في الوقت نفسه يخدم الفن في
 حاسة وإخلاص وتفان .

وكان فلوير رومانسياً وواقعياً في الوقت نفسه ،
 وقد بدأ ظهوره في عالم الأدب في منتصف القرن التاسع
 عشر ، فاجتمعت في نفسه مؤثرات الأربعين سنة السابقة
 والأربعين سنة اللاحقة ، وهو منذ طفولته كان يؤثر
 الأحاسيس العارمة ، وقد ولد ونشأ في مستشفى ،
 وكان يتساقط في طفولته مع صغار الأطفال الحيطان
 ليروا الجثث في قاعة العمليات ، وكان يحلم كثيراً
 بالعودة إلى الشرق ويحزنه أنه لا يستطيع أن يعيش في
 ربوعه ، كتب إلى صديق له يقول « أها الرفيق القديم
 العزيز متى تعود إلى الاستقامة فوق رمال الإسكندرية
 أو إلى الرقاد في ظلال أشجار الدلب على شاطئ
 الدردنيل ؟ وكان يميل إلى الحزن ويستطيعه ويجد فيه
 متعة تبعثه على تحليله تحليلًا وافيًا ليزداد به تشبعاً وله
 تقديرًا ، ومن أقواله « لم أر قط طفلاً دون أن أذكر
 أنه سيصير رجلاً عجوزاً وشيخاً هاماً ، ولا رأيت مهذاً
 إلا ذكرت القبر ، وكلما نظرت إلى امرأة بدت لحاظي
 صورة هيكلها العظمي ، ولهذا تحزني المناظر المرحية
 المفرحة والمناظر المحزنة لا تؤثر في نفسي كثيراً ، وهذا
 الميل إلى تلوق الحزن واستطلاع الخفايا الغامضة والنزوع
 إلى الشرق وأحوائه الساحرة هي العناصر التي تتكون
 منها النزعة الرومانسية ، ولكنها ليست الأساس الذي
 تقوم عليه .

وأساس الرومانسية هو النفور من الواقع والرغبة
 الملحة في الهرب منه ، ولذا تضيق الرومانسية بدقة
 الملاحظة ، لأن الملاحظة تستدعي الخضوع للواقع ،

والاستعانة بالعقل في دراسته ، وجعله نقطة الابتداء ، ومحور التركيز والاهتمام ، وهي تحور نفسها من الواقع عن طريق الخيال والتحويل على الحساسية الفردية ، وبرغم العناصر الرومانسية التي كانت في نفس فلوبر فإنه كان يميل إلى مواجهة الواقع وتأمله ودرسه ، ففي السابعة عشرة من عمره كان يدون ملحوظاته عن الناس العاديين الذين يلقاهم وعن مدرسيه وأترابه من الطلبة ، وقد ولد قوى الملاحظة ، نافذ النظرات ، قادراً على وصف الواقع ، وكان يعجب بكبار الشعراء الذين مثلوا الزعنين ، الزعة الواقعية والزعة الرومانسية مثل هوميروس وأخيلوس وشيكسبير وبيرون وفيكتور هيجو وشاتوبريان ورابليه وجيتي وفولتير ولابرير ولي ساج ، أى أنه كان من ناحية يعجب بالذين أوتوا الخيال العظيم المالحق والذين وهبوا الملاحظة الدقيقة الحاسمة ، وكان يحب أن يرى الأشياء ببلقة ووضوح بحيث لا تخفى عليه فيها خافية ، وكان يميل في الوقت نفسه إلى أن يتخيل المشاهد الفخمة ، والمناظر الرائعة الفخمة ، أى أن عقلاه كان موزعاً بين حب استطلاع الواقع والحاجة في الوقت نفسه إلى انطلاق الخيال وخصوبته وقد كانت مؤلفات فلوبر نتاج اجتماع هاتين الزعتين في نفسه ، فبعد إخراج مدام بوفارى الواقعية الزعة أتم رواية سلمبو ، وهي رومانسية الزعة ، وبعد رواية سلمبو كتب رواية « التربية العاطفية » وبعد الانتهاء منها شرع في تأليف « إغواء القديس أنطونيوس » وبعدها كتب رواية « بوفارى وبيكنشيه » ، ويمكن أن نستخلص من ذلك أنه كان في توالى مؤلفاته يرضى الزعتين الكامنتين في نفسه ، وحينما كان يؤلف ما يشبع خياله كان يعود بعد ذلك إلى تأليف ما يقنع نزعة الواقعية .

وكانت هناك فكرة غالبية على تفكير فلوبر ، وهي أن الأدب يجب أن يكون « غير شخصي » أى أنه يجب

أن لا يظهر المؤلف في مؤلفاته ، ويجب أن لا يقحم مشاعره وأفكاره ومعتقداته ، وأن لا يجعل كتاباته تنم على أفكاره وآرائه وحالاته النفسية ، وقد أكد هذه الفكرة مئات المرات في الرسائل التي كان يبعث بها إلى جورج ساند ، قال عن روايته مدام بوفارى « موضوع الرواية وشخصياتها وتأثيراتها كل ذلك من خارج نفسي ، وأعتقد أن هذا ما يجب أن يكون ، وما تكتبه لا تكتبه لنفسك ، وإنما تكتبه للآخرين ، والفن لا شأن له بالفنان ، فإذا كان لا يحب اللون الأحمر أو اللون الأخضر أو اللون الأصفر فإن هذا مما يضر به ، والألوان جميلة ، ولا بد من رسمها » ويقول في رسالة أخرى « ليس في استطاعتنا أن نعرف هل كان شيكسبير حزيناً أو مسروراً ؟ وعلى الفنان أن يسلك بحيث يجعل الأجيال التالية تظن أنه لم يعيش قط ، وكلما قلت قدرتي على تكوين فكرة عنه بدا لي أنه أعظم شأنًا ، ولا أستطيع أن أتخيل شيئاً عن شخصية هوميروس أو رابليه ، وحينما أفكر في ميشيل أنجيلو لا أرى سوى ظهر رجل مسن ضخم الجسم يعمل في نحت تماثيله في الليل على ضوء المشعل » .

ولهذه الفكرة تؤكد الجانب الواقعي في فلوبر ، لأن الفن الواقعي قوامه الخضوع للموضوع ومحاولة النظر إليه في وضوح ودقة ، والمشاعر التي تقوم بنفس الإنسان في مواجهة الأشياء قد تجعله لا يراها على حقيقتها وإنما يراها كما يود أن يراها ، فالتجرد وعدم التأثير من مستلزمات الواقعية ، ونحن بطبيعة الحال لا بد أن نشعر ، ولكن علينا أن لا نطلق العنان لمشاعرنا حينما نصف مشاعر غيرنا ، لأن التدخل من جانب مشاعرنا حينما نصف مشاعر غيرنا يغير الصورة التي نحاول تصويرها ، والفنان الواقعي حقاً لا تسيطر عليه نزعاته الشخصية ، وفنه نفسه يرغمه على أن يكبح جماح شخصيته .

رواية مدام بوفارى

يرى بعض الناس أن الواقعية هي الأمانة في الفن ، وقد كان فلوير يفهم الواقعية على هذا الأساس ، ولذلك كان يلتزم أقصى حدود الأمانة في رواياته الواقعية ، ولقد كانت النزعة الرومانسية متأصلة في نفسه ، ولكنه شعر بأن الرومانسية يصحبها لون من ألوان السجل والشعوبة والحداد والمبالغة والتضليل يموه به الكاتب على نفسه ويخدع قراءه ، والخيال قد يغتفر فرصة انطلاقه بلا كايح ليعين في تزييف الواقع وخلق الأوهام ، وفلوير فنان له ضمير يحرص على تحرى الحقائق ، ويعنى ببذل الجهود في التعرف على الطابع وتصوير الواقع ، وكان لذلك يقدر صعوبة الفن الواقعي ، فإن على الفن الواقعي أن يتناول الناس العاديين ، وهم ليست لهم مميزات بارزة تميز بعضهم من بعض ، وبرغم ذلك فإن على الكاتب الواقعي أن يكون دقيقاً في وصفه ، أميناً في تصويره ، ليظهر الفروق الدقيقة بين الناس العاديين ، وعليه كذلك أن يتحلى شائفاً في عرضه بارعاً في تصويره حتى لا تملنا واقعته ، ويحملنا على الاهتمام بأشخاصه العاديين .

وتعد رواية مدام بوفارى في طليعة الروايات التي استوفت شرائط الواقعية ، وقد ظهرت في وقت كان مناسباً لظهورها ، فقد كانت موجة الأدب الرومانسي قد أخذت في الانحسار ، ومل قراء الأدب المبالغاب الرومانسية ، وفي عالم الأدب كما في عالم الفكر بوجه عام كلما سادت نزعة من النزعات تستنفد جهدها وتمهد السبيل لظهور نزعة مناقضة لها ، وبعد التحليق في الخيال نميل إلى أن نرسو على شاطئ الواقع ، ولما كان الواقع نفسه لا يخلو من رتابة ملة لذلك سرعان ما تمل النفس وترتد إلى الخيال حتى تضيق ذرعاً بنوع آخر من الرتابة .

وفي سنة ١٨٥٠ كانت النزعة الرومانسية قد أجهدت نفسها ، وكان بلزاك وسندال وميرمييه قد مهلوا السبيل لتلوق الفن الواقعي دون أن يشيعوا الميل إلى هذا التلوق ، إشباعاً وافيّاً ، وبرغم أن هؤلاء الكتاب الثلاثة قد ساعدوا على خلق تلوق الواقعية فإنهم لم يمثلوا الأدب الواقعي تمثيلاً كاملاً ، وقد قام بهذا التمثيل فلوير وبوجه خاص في رواية مدام بوفارى .

ويعرف قراء بلزاك أنه يبدأ رواياته بالأسهاب في وصف البيئة ومختلف الأمكنة التي تقع فيها حوادث الرواية ، ويتقلب فيها أبطالها ، ويعنى بوصف دقائق المسكن الذي يقيمون به وملابسهم وسمات وجوههم وطريقتهم في التعبير عن أنفسهم ومختلف مظاهر كيانهم الطبيعي ، ويروى لنا بعد ذلك أخبار تحركاتهم وأفعالهم ، أما فلوير فيخرج من أول الرواية وصف البيئة والمظاهر الطبيعية بوصف الأخلاق والأمزجة والأعمال ، فحينما يظهر أبطاله ويتحدثون يمثل لنا بيئتهم في خلال حديثه عن الصفات المميزة لهم ، ففى أول لقاء بين بوفارى وإلما يصف له المزرعة وروالت العجوز وإلما وبوفارى في صفحة واحدة ، ويسير على هذا النمط في مختلف فصول الكتاب .

وفلوير يعيش مع أشخاص رواياته ، فرى ما يرون ، ويشعر بما يشعرون ، وهذه هي الواقعية الحقة ، ورواية مدام بوفارى حافلة بالشخصيات الحية ، وكلهم ناس عاديون ، ولكن لكل واحد منهم مع ذلك خصائصه ومميزاته ، فوهم ليسوا طرزاً معروفة ولا مختصرات موجزة للإنسانية ، وإنما هم شخصيات نابضة بالحياة بادية السمات والملامح .

والحياة الرتيبة المملة الخالية مما يشوق ويعجب تؤثر تأثيراً سيئاً في أصحاب الخيال الواسع والطموح البعيد ، وقد يصد هذا التأثير إلى حد وقوع المأساة ، وهذا هو المحور الذي دارت حوله رواية مدام بوفارى ،

وفى تصوير فلوير لمدام بوفارى قلم لنا صورة من أروع الصور النسائية فى الآداب العالمية ، فقد استقصى حوادث حياتها وأرانا تطور مشاعرها وتتابع الحالات النفسية التى استولت عليها واستبدت بها ، ولقد كان والدها روالد رجلاً عطوفاً ولكنه مجرد من العاطفة الدينية والحاسة الأخلاقية ، حسياً إلى حد ما قليل الجدبة وبه شئ من الزهو والخيلاء ، وكانت لا تكاد تعرف والدتها ، وقد نشأت نشأة حسية انفتحت فى ضيعة والدها ، وظلت بها حتى بلغت الثالثة عشرة من عمرها وتعلمت القراءة والكتابة دون أن تقوم بعمل أى شئ فى الضيعة ، وقرأت رواية بول وفرجينيا فى طفولتها ، وهى رواية لها تأثيرها فى إيقاظ الأحلام الرومانسية ، وخاصة فى نفس حساسة نزاعة إلى الاسترسال مع تلك الأحلام مثل الطفلة إيمما التى صارت فيما بعد مدام بوفارى ومن سمات النزعة الرومانسية تطلع الإنسان إلى ما وراء آفاق حياته الراهنة ، ومن شأن هذا التطلع أن يجعل صاحبه غير قادر على تبين ما فى حاضره من مزايا ونواح مقبولة ، والرغبة فى التغير الدائم من أعراض النزعة الرومانسية ، وقد ظهرت هذه الأعراض على إيمما منذ باوغها الثانية عشرة من عمرها ، وألحقها والدها فى الثالثة عشرة بدير الراهبات ، وقرأت روايات السير ولتر سكوت التاريخية ، فامتلاً خيالها بصور العصور الوسطى والفرسان والقلاع والجسور التى تفتح وتغلق ، وقرأت أشعار لامارتين العاطفية ، وأخرجت من الدير وعادت إلى ضيعة أبها ، ولم تكن والدتها هناك لتحمل عنها أعباء الضيعة ، وكان لهذا الانتقال من الحياة الدينية الحاملة التأملية إلى حياة الضيعة الرتيبة الحسنة اليومية وقعه السيئ فى نفسها ، ولذلك كانت تنتظر من يتقدها من الضيعة والإشراف على شؤونها ، ويلوح فى أفق حياتها وهى تعاني التبرم بحياتها شارل بوفارى ، وكانت مستعدة للترحيب بأى رجل يتقدم لها ويطلب يدها ، وكان يبدو لها أن كل رجل قادر على إشباع أحلامها الرومانسية

واستغناها من الرتبة المملة التى تعيش فيها وتعانى أوصابها .

وقد استطاع فلوير فى وصفه لشخصية شارل بوفارى أن يتغلب على صعوبات جملة ، فشارل بوفارى أقرب إلى أن يكون طرازاً من الناس منه إلى أن يكون له شخصية ، أو هو شخصية بغير شخصية إن صح هذا التعبير ، وهو مخلوق سلبي تشكله البيئة كما شاءت مثل الماء الذى يأخذ شكل الإناء الذى يحتويه ، وهو خاو من الذكاء والإرادة والخيال ، لا يفكر ولا يعلم ولا يكاد يرى شيئاً بعينه ، فهو صدى لأفكار غيره من الناس ، ورغباته تملئ عليه ، وهو المنفذ ، ومشاعره نفسها تأخذ الصورة المطلوبة لها ، وهو يحب زوجته ولكن كما تريده هى أن يحبها ، ويحب طفلته ولكن بالأسلوب الذى يفرض عليه ، وقد تزوج فى أول الأمر نزولاً على إرادة والدته وعملا بإشارتها ، وهى التى اختارت له الزوجة الملائمة فى تقديرها ، وماتت زوجته الأولى ، أما فى المرة الثانية فقد تزوج باختياره المرأة التى أحبها ، وكان والدها قد أصيب بكسر فى ساقه فاستدعى الطبيب الريفى شارل بوفارى لمعالجتها ، وكان شارل حينذاك قد فقد زوجته الأولى ، ووفق شارل فى علاج الساق المكسورة واقتضاه ذلك أن يتردد غير مرة على ضيعة ريوالت ، وتكرر لقاؤه للأتسة إيمما ، ولما أتم علاج الساق المكسورة وكان ريوالت قد علم بفجيعته فى زوجته الأولى دعاه فى ذات صباح وقدم له أجر العلاج وأهدى إليه ديكاً رومياً وقال له وهو يربط على كتفيه « لقد جربت هذه الفجيعة ، وكنت فى هذا الموقف نفسه ، وحينما فقدت زوجتى العزيرة كنت أذهب إلى الحقول لأخلو بنفسى وسقطت على جذع شجرة ، وبكيت ودعوت الله . . . وكنت مستطار العقل إلى حد أنى لم أر شيئاً وفكرة الذهاب إلى المقهى منفرداً ملأت نفسى نفوراً . . . وكنت

الأيام يتلو بعضها بعضاً وبالتدريج تولى هذا الشعور ، لقد ذهب وغاص في الأعماق ، أعنى بذلك أن شيئاً يبقى في القاع كما يقول الناس ، يبقى راسخاً في قلب الإنسان ! ولكن ما دام هذا هو حفظنا جميعاً فعلينا أن لا نستسلم لليأس ، ولا نريد الموت لأن غيرنا قد مات ، وعليك أن تتجلد يا سيد بوفارى ، وكل هذا سزول ، فاحضر لزيارتنا ، وابتنى تفكر فيك في بعض الأحيان، أتعرف ذلك ؟ وهى تقول إنه يبدو أنك قد نسيتها .

وعمل شارل بنصيحته ، فكان يتردد على الضيعة ويقص عليه الشيخ صاحب الضيعة طريف أخباره ، وتأكدت العلاقة بينه وبين إيمما ، وشجع ذلك شارل على التقسم لخطوبتها ، وتم الزواج ، ولكن بعد انتهاء شهر العسل أدركت إيمما أنها لا تحب زوجها ، ورأته على حقيقته رجلاً عادياً لا نصيب له من الخيال ولا عناية له بملبسه والمحافظة على مظهره الخارجى وليست له آراء مبتكرة ، وإنما هو يردد كاللبغاء الآراء الشائعة المجوجة ولا يميل إلى ارتياد المسرح ومشاهدة أحدث الروايات التمثيلية وحياته في مجموعها بطيئة بليدة مكونة من أشياء صغيرة وتفاصيل لا قيمة لها ، ولم يسوها منه أنه من الناس الذين يعمرون بالحياة دون أن يستبطنوا أسرارها ودخائلها فإن معظم الناس من هذا القبيل وإنما ساءها بوجه خاص أنه كان لا يفهم شيئاً ولا يحسن النظر حتى من الزاوية الضيقة التى يعيش بها ، وهو لا يرى ما يتجاوز أنفه ، وهو يعيش لأنه يجد ما يمسك عليه رمقه ويقم أوده ، وهى تعيش في المستقبل وهو يعيش في حاضره ، وهو مستغرق في الواقع ، وهى مسترسلة في الأحلام وهو كالمقيد بالمكان الذى يحتويه، وهى هاربة بأفكارها وطموحها من مستقر وجودها ، فهو في رأياها يمثل الحاضر الذى تضيق به وتمتته ، وإذا حدثته فهو لا يصغى لها ولا يفهم مدلول حديثها ، وكل ما تحدثه عنه مناف لطبيعته ، وقد قبلته خطيباً

ورضيته زوجاً لا لأنها أحبته وإنما بدافع من رغبته في التغير وميلها إلى مفارقة البيئة التى تعيش بها وتجربة لون آخر من ألوان الحياة ، وكانت نعمتها على حاضرها تزداد حدة مع مرور الأيام ، فهى لا تكف عن التطلع إلى التغير الذى تحلم به ، كانت كالملاح الذى ألقت به السفينة الغارقة على شاطئ مهجور ، فهو لا ينى يدير الطرف في الوحشة المحدقة به مترقباً رؤية الشراع الأبيض لائماً في الأفق غير عارف إلى أى مكان تدفع به الرياح ، ولكنها تنتظر في كل صباح مجئ يوم الخلاص وحينما تغرب الشمس ويقبل الليل بغمر نفسها الحزن وتعاود التطلع إلى الغد المأمول .

ودعيت مع زوجها إلى حفلة أقامها مركز من أعيان الريف في ضيعته ، وكان شارل قد عاجله وهذا آلام بثرة أصيب بها ، وارتدت إيمما خبر ما عندها من الملابس وأزيذت ورقصت مع أحد الحاضرين على نغمات الكمان ، وقد زادها حضور هذا الحفل ضيقاً بحياتها فعاتت غاضبة ناقمة ، وأخذت تحلم بالحياة في باريس وغشيان المسارح والصالونات ، وتحدثت نفسها بأن هذا هو الوضع الذى يلائمها ويرضى نزعاتها ، وصارت حياتها الحاضرة تبدو لها في صورة أضال من حقيقتها وأنزل من مستواها الحقيقى ، وقوى شعورها بأن زوجها أكثر فظاظاً وأشد نكراً ، فكانت تقول لنفسها « ما أشد فقره وإجذاب نفسه وما أحقره وأهون شأنه ! » .

وفي هذا الموقف العصيب والحالة النفسية المتأزمة ظهر في أفق حياتها العاشق المنتظر في صورة الشاب الوسيم الرشيق ليون كاتب أحد المحامين في مدينة يونفيل القريبة من روين ، وكانت قد أغرت زوجها بالإقامة بهذه البلدة وولدت له بها طفلة ، وكان ليون مثلها يحلم بالحياة في باريس ، وبحب الموسيقى ، وكان مما دار بينهما من الحديث في أول لقاء قولها له « إنى لا أعرف

أجمل من الجلوس إلى جانب الموقد في المساء مع كتاب جيد بينما الريح تعصف بزجاج النافذة والمصباح يرسل الضوء الباهر في الحجرة .

فقلت إما وقد حدثت إليه النظر بعينها الواسعتين السوداوين « هذا ما أراه تماماً » فاسترسل ليون قائلاً « إن الإنسان ينسى كل شيء والساعات تمضي بعضها في أثر بعض وينتقل الإنسان في البلاد التي يحسب أنه يراها ، وأفكار الإنسان التي يحملها تيار الرواية تجدد متعة في كل تفصيل وإيضاح أو تتابع سرد أخبار المغامرات وتصبح هذه الأفكار أجزاء من الشخصيات المختلفة ، ويتوهم الإنسان أنه هو نفسه الذي يتنفس في ملابسها .

فأجابت إما « هذا حقيقي ، هذا جد حقيقي » .
فرضي ليون بقول « ألم يحدث لك أن صادفت فكرة غامضة ، فكرة غير واضحة تأتي من بعيد وبرغم ذلك تعبر عن أعماق مشاعرك الخفية ؟ » .
فأجابت إما « لقد لحظت ذلك في أغلب الأوقات ، وهذا سبب ولوعي بالشعر بوجه خاص ، فلنأى أرى أن الشعر أرق حاشية من النثر وأنه يفجر الدموع من عيوننا بسهولة أكثر » .

فقال ليون « ولكن برغم ذلك سرعان ما تدمأينه ، وأنا على نقيض ذلك أحب قراءة القصص التي تسترسل بدون اعتراض وتكاد تجعلك خائفة وأكره الأبطال السوقيين والمواطف المبتذلة » .

وتكررت مناسبات التقائهما وشعر كل منهما بتقارب ميولهما ولكنهما لم يتبادلا مع ذلك ألفاظ الحب وعباراته ، وشعر ليون بأنها تحاول بكلماتها عواطفها لإرغامه على إعلان حبه لها .

وكانت تردد في خلال ذلك كراهتها لزوجها شارل ، وكان اعتقاده بأنه لا يلحق وسعاً في العمل على إسماعها يبدو لها كأنه إهانة تدل على فرط الغباء ، وأنه

أجمل من غروب الشمس ، وبخاصة بجانب البحر » ، فأجابها ليون قائلاً « آه » ، إلى أهم بالبحر » فأجابته قائلة « ألا نرى أن العقل يبدو أكثر حرية وانطلاقاً حيناً نواجه هذا الامتداد غير المحدود ، وأن روحنا تسمو حيناً نتأمله ، وأنه يوحى إلينا أفكاراً عن المثل الأعلى وعن الانهائية ؟ » .

فأجابها ليون قائلاً « هذا هو نفس ما يشعر به الإنسان في المناطق الجبلية ، ولي ابن عم قد سافر إلى سويسرة في السنة الأخيرة ، وقد أخبرني أن الإنسان لا يستطيع أن يتصور شعر البحيرات وجمال منحدرات المياه وتأثير الأنهار المتجمدة الفخيم ، وهناك أشجار صنوبر سامقة بصورة لا تكاد تصدق متناثرة في سيول جبالها وبيوت صغيرة معلقة على هاويات وعلى مسافة ألف قدم في الأعماق أودية تلوح للناظرين حيناً يتجلى الضباب ، وأمثال هذه المناظر يجب أن تملأ نفوسنا بالحماسة وتوحى إلينا العبادة والنشوة الروحية ، ولذلك لا يدهشني هذا الموسيقىار الشهير الذي كان من عادته أن يذهب إلى أحد المواقع الفخمة ويعزف على البيان ليثير خياله ويزيده نشاطاً » .

فسأله إما « هل أنت موسيقار ؟ » .

فأجابها قائلاً « كلا ، ولكنني شديد الولع بالموسيقى » .

« وأي نوع من أنواع الموسيقى تفضل ؟ »

فأجابها « أوه ، الموسيقى الألمانية ، إنها جد حاملة »

« أنعرف الأوبرات الإيطالية ؟ »

فأجاب ليون « لم أعرفها بعد ، ولكن في نيتي أن أوالى الذهاب إليها في السنة التالية ، حيناً أعزّم المعيشة في باريس وأفرغ من دراستي القانونية » .

وحينما قال شارل بوفاري في عرض الحديث « أن زوجتي تؤثر أن تظل دائماً في حجرتها لتقرأ » أجابه ليون قائلاً « إن شأنها في ذلك كشأى ، ولا شيء بالتأكيد

نوع من إنكار الجميل ، وغلب على تفكيرها الاعتقاد بأنه هو العقبة القاتمة في طريق سعادتها وأنه سبب الشقاء الذى تمنّاه وألقت عليه تبة متاعها جميعها ، وكانت تود لو أن شارل أوسعها ضرباً حتى تجد مبرراً لكرهها له وضيقها به والعمل على الانتقام منه ، وكانت في بعض الأحيان تعجب من خواطرها الشريرة ، ورغم ذلك كله كان عليها أن تتكلف الابتسام ، وتزعم أنها سعيدة ، وتدعى ذلك لتحمل الغير على تصديقها .

وكرهت هذا الرياء ومالت إلى الهرب مع ليون إلى أى مكان كان ما دامت تجد فيها حياتها وتتخلص من رتابة عيشها الممل ، ولكنها كانت في الوقت نفسه تشك في حبه لها فإذا تصنع ؟

كانت كلما فكرت في ذلك تنهر من عينها الدموع ويشد بها الكرب ، ولم يطمئن ليون لبقاء هذه العلاقة التى لم تسفر عن حب واضح صريح فأثر الابتعاد ونأى بجانبه عنها ، فأخذت تلوم نفسها وتأسى على ابتعادها عنها فقد كان النور الذى أضاء في ظلمات حياتها ، والأمل الوحيد الذى تعلقت به في نوبات يأسها ، فلماذا أضاعت من يدها هذه الفرصة السعيدة ولماذا لم تحرص على اجتذابه وتيسير أسباب اقترابه ، واكتساب عطفه وحبه ؟ وظاف بيافاً أن تذهب إليه معتذرة متوسلة ، وترنمى بين يديه ، ولكنها أحجمت عن ذلك ، وكبر عليها الأمر وضاعف الأسف رغبتها وأطال حزنها وأصبحت ذكرى ليون تثير شجاءها ورواقده الآلام .

وأخذت تهدأ ثورة حبه له وتنطفئ وقدة هيامها به ، وسامت حالتها النفسية واعتلت صحتها ، وفي هذه الفترة ظهر رودلف بولانجييه صاحب ضيعة لاهيست القريبة من يونفيل ، وهو رجل أعزب له دخل سنوى لا يقل عن خمسة عشر ألف من الفرنكات ، وكان قد جاء إلى شارل ليجرى عملية فصد لخادمه ، وحضرت مدام بوفارى لإجراء العملية ، ونظر إليها بولانجييه

بعد انتهاء العملية وتبادل بعض الأحاديث مع الحاضرين ومنهم مدام بوفارى وقال لها « لقد سررت بمعرفتك » ودفع أجر إجراء العملية بغير أكثر من وانصرف .

وأعجب بولانجييه بدمام بوفارى ، واسمها جياها ، وكان في الرابعة بعد الثلاثين من عمره ، وفي طباعه شدة وصرامة ولكنه كان واضح التفكير ، وله خبرة بأحوال النساء وطول معاشرته لمن جعلته يجيد فهمهن ، وقد أخذ يفكر في إِمّا لأنها حسناء فائنة ، وقال لنفسه « لئى أنصوّر أن زوجها غاية في الغباء وهى من غير شك قد سئمت معاشرته ، وأظافره قليلة ، وهو لم يحلّ لحيته منذ ثلاثة أيام ، وهى بطبيعة الحال ترى أن معيشتها في هذه البلدة الصغيرة مملة ، وتفضل أن تعيش في المدينة وترقص في كل مساء ، وهذه المسكينة لا بد أن تكون نزاعة إلى الحب ، فإذا قال لها أى رجل ثلاث كلمات مهذبة فلنأى ستعبده عبادة ، ولئى واثق من ذلك ، وستكون شديدة الحب قوية العطف ولكن كيف أنخلص منها بعد ذلك ؟ » وأخذ يقارن بينها وبين عشيقته التى ملها وبدأ يزهد فيها ، وقال لنفسه « لئى أوفر منها جِمالاً وأكثر نضارة . . . » وعقد العزم على إيجاد علاقة معها وشرع يفكر في أقرب السبل إلى ذلك ، واستقر رأيه على اختتام الفرس ، وأن يزور شارل في بعض الأوقات ويدعوه لزيارته مع زوجته ، وتسنع الفرصة المنتظرة ويلقى إِمّا ، ويقول لها في حديثه معها :

« لقد عاكسنى الحظ في أشياء كثيرة ، ولقد عشت دائماً وحيداً ، آه فلو كان لى هدف في الحياة أو لو لقيت عطفاً أو قابلاً أحداً . . . لو حدث ذلك لكنت استنفذت كل ما عنلى من طاقة ولكنك تغلبت على كل عقبة . »

فقالت له إِمّا « لا أظن بعد كل شيء أن حالتك يرقى لها . »

فسألها قائلاً « أتظنن ذلك ؟ » .

فقلت بعد أن ترددت لحظة « بعد كل شيء أنت حر وغنى » .

فقال « لا تسخرى منى » ففتت ذلك عن نفسها .

وقال لها فى خلال هذا الحديث « إني لم أجد مثل هذه المتعة فى الاجتماع بأى امرأة قبلك ولكنك ستسئلىنى وسأكون كجسد خيال مر بحياتك ، ولكن لا ، من المؤكد أننى أمثل شيئاً فى أفكارك وحياتك » .

وكان هذا اللقاء والحديث فى المعرض الزراعى ، وصحبها رودلف حتى أوصلها إلى باب منزلها وودعها وعاد أدراجه .

ومر على هذا اللقاء ستة أسابيع لم يرها فيها وقال لنفسه « إنها إذا كانت قد أحببتى من اليوم الأول للقائنا فإن ذلك الحب سيقوى ويزداد ، وستكون شديدة الشوق إلى لقائى » وحيما زارها تأكد من إصابة ظنه ، ووجد الفرصة سانحة لمصارحتها بحبه لها ، والواقع أن إنما لقيت رودلف فى الفترة التى طغى فيها الملل على نفسها ولفها فى غياهبه ، وشعرت بأنها فى حاجة إلى حب يستولى عليها ، ويزود عنها السأم الذى تعانى به ، فهى كانت تحرص على الدخول إلى عالم الحب لا إلى زودلف ، وكان رودلف الذى هيا لها الفرصة ، وأشيع فى نفسها تلك الرغبة ، وقد عرفت متعة الحب ، وعاشت فترة فى عالم غريب لامع كله أحلام ومتعة ونشوة ، فهى تحب الحب نفسه لا رودلف ، ورغبتها فى أن تعرف الحب هى سبب الخطيئة الأولى التى وقعت فيها ثم يقع الخلاف بينها وبين رودلف وهو مأساة حياتها ، فقد اتفقت معه على أن يهربا معاً ، ولكن رودلف غير فى آخر لحظة رأيه ، ونكث عهده ، ونقض وعده ، وأرسل إليها رسالة يقدم بها أعذاره ، وكان لهذه الرسالة أسوأ وقع فى نفسها ، وانهارت أحلامها ، وفكرت فى الانتحار ، ومرضت مرضاً شديداً ، وحيما خفت وطأة المرض صحبها زوجها شارل إلى المسرح ، وهناك

لقيت ليون ، وأعاد ذلك اللقاء نيران حبهما القديم إلى الاشتعال ، وتجددت العلاقة الغرامية بينهما ، ولكن الشاب ليون لم يقو على البتات أمام غواطفها القوية المحتاجة ، وتعرضت لصدمة زادت همومها ، وبلبلت خواطرها ، وأوقعتها فى حيرة عز عليها المخرج منها ، فقد أصبحت الصكوك التى كانت تستدين بموجبها وتسرف فى نفقاتها دون أن يعلم شارل واجبة الدفع ، وصارت مهددة فى كل لحظة بالحجز على ما فى منزلها وكل ما تملك هى وزوجها ، ولجأت إلى ليون وتوسلت إليه أن يعمل على استدانة المبلغ المطلوب سداده لتتخلى الحجز ، ولكن ليون لم يوفق فى مساعيه ، ولم يبق أمامها إلا أن تستل كرامتها وتنزل عن كبريائها ولاباتها وتذهب إلى رودلف تلتمس منه أن يتغذى من وورطتها ، ويصف لنا فلوبيز لقاءها لرودلف فى الفصل من الثامن الجزء الثالث من الرواية فيقول « سألت نفسها ماذا تقوله له وما الذى نوت أن تبدأ به الحديث ، ومضت فى طريقها وعرفت الأشجار والأدغال القائمة فوق الرابية والقصر الرابض فى سفحها وشعرت بحنوها السابق عليه يعود إليها ، وخفق بالحب قلبها الموجع ، ودخلت من باب الحديقة الصغير كما كانت تفعل فى الأيام السابقة ، ومشت فى الساحة الكبرى التى كان يحف بها صفان من شجر الزيزفون وكانت أغصانه تتمايل ويسمع حفيفها فى الرياح ، وأخذت الكلاب المقيدة بالسلاسل تنبح ، ولكن لم يظهر أحد برغم الضجة التى حدثت ، وصعدت على الدرج الواسع المنحدر الذى يؤدى إلى الممشى المرصوف وكان به حجرات عدة على طريقة الأديرة أو الفنادق ، وكانت حجراته فى أقصى آخر الممشى من ناحية اليسار ، وخشيت أن لا يكون هناك ، والواقع أنها كانت تأمل أن لا يكون هناك ، وبرغم ذلك كان هو أملها الوحيد ، وفرصتها الوحيدة للخلاص ، ولذلك انتظرت لحظة لكى تستعيد جأشها وتشد من عزمها ، واستعانت

بائسة ، وخلت أنه كان يجب أن أموت . . . في حين أنك - أنت تجنبني .

ولقد كانت هذه هي الحقيقة ، فقد عمل على ذلك في السنوات الثلاث الأخيرة ، بدافع ذلك الجبن الذي عجز الجنس الأقوى ، وأسترسلت إيماناً في حديثها محاولة لإغراء كاهنة العاشقة وبحركات رشيقة من رأسها وإنك متم بنساء أخريات ، قل الحق ، أوه ! إني أفهم ذلك وأنا أعلمهن ، وأظنك أغويتين كما أغويتني ، وأنت رجل فيك كل الصفات التي تمكنك من أن تجعل نفسك محبوباً ، ولكننا سنبدأ ثانية أليس كذلك ولا نزال يحب كل منا الآخر ؟ انظر ! إني أضحك وأشعر بالسعادة ! تحدث إلى !

كان منظرها فاتناً جذاباً وقد تفرقت الدموع في عينها مثل قطرات الندى في غلالة زهرة زرقاء ، وجلسها إلى ركبتيه وداعب شعرها الذي انعكست عليه أشعة الشمس الغاربة ، بظهر يده ، فأحنت رأسها فقبل في رفق جفنها بطرف شفته .

وهتف قائلاً « ولكنك تبكين ! فما سبب ذلك ؟ » فاشتد تشجيعها ، وظن رودلف أنه مجرد تعبير عن حبا ، ولكن لما كانت لا تزال صامتة فقد ظن أن هذا آخر جهادها مع الاحتشام ، فمضى يقول « أوه ساحبي ! إنك أنت المرأة الوحيدة التي أعتني بها . ولقد كنت قاسياً وأحمق ، إني أحبك وسأظل أحبك دائماً . . . فما شأنك ؟ أرجوك أن تخبريني ، وركع على ركبتيه إلى جانبها .

« حسن ، لقد دمرت حياتي يا رودلف ! أتعرفني ثلاثة آلاف قرنك ؟ » فقال وقد أخذ ينهض من ركوعه بالتدريج وعلت وجهه سباب الجدة « ولكن . . . ولكن هل هذا حقيقي . . . »

فضت مسرعة في حديثها قائلة « أنت تعرف أن زوجي قد وضع أمواله في يد المحامي ، وقد هرب

بالتفكير في أزمتها الراهنة على ابتعاث شجاعتها ، ودخلت الحجرة ، وكان جالساً إلى جانب الموقد وقدماه فوق حاجز الموقد وقد أشعل غليونه .

فقال وقد نهض مسرعاً « ها أنت ! » .
« نعم ها أنا ذا ، لقد جئت أسألك النصيحة يا رودولف . »

« إنك لم تخبرني ، إنك دائماً فاتنة . »
فأجابت في مرارة « أوه ، إن محاسني قليلة يا صديقي ما دمت تزدريها . »

فأخذ يحاول تفسر سلوكه معتذراً عن نفسه بكلمات غامضة لأنه لم يستطع أن يبتكر أعلناً أقوى وتركته نفسها تتقبل كلماته وتتأثر أكثر من ذلك بصوته ورويته حتى تظاهرت بتصديقه أو ربما صلته فيما قاله عن سبب انقطاع العلاقة بينهما ، لقد كان سرّاً يتوقف عليه شرف شخص ثالث ، بل حياته ، وقالت وقد نظرت إليه في حزن « لقد شقيت كثيراً . »

فأجابها متفلسفاً « حسن ، هذا هو نصيب الإنسان العادي في الحياة . فضت إيماناً تقول « مهما يكن من الأمر فلاني آمل أن حظك كان سعيداً منذ افترقنا . »
« أوه ، من هذه الناحية لم يكن هذا بوجه خاص ولا ذاك »

« ربما كان الأحسن أننا لم نفرق . »
« نعم ربما »

فسألته قائلة « أحباً نظن ذلك ؟ » واقتربت منه وتابعت الحديث بعد أن تهدت تهدأ عميقاً « أوه ! لو كنت تعلم يا رودلف ! لقد أحبتك حباً قليل النظر ، وأمسكت بيده وجلسا حيناً من الزمن مثل جلستهما في اليوم الأول للقائهما في المعرض الزراعي ، ولما رأت أنه يجاهد في إخفاء حنوه بدافع الكبرياء قالت وقد ارتجت على صدره « كيف تنتظر أن أعيش بدونك ؟ لا يستطيع الإنسان أن يعود فقدان السعادة ، لقد كنت

والقى بها من يدها في عنف إلى حد أن السلسلة الذهبية الرفيعة كسرت عند اصطدامها بالحائط .
فأجاب رودلف في هدوء تام كما يفعل الرجال حيناً يدفعون عن أنفسهم متخذين الغضب درعاً «إني لا أملك هذا المبلغ !» .

فخرجت ، وبدأ لها كأن الحيطان تهتز وأن السقف سينقض ، ونزلت من الممشى الطويل ، وكانت تتعثر في أكداس الأوراق الجافة التي تذررها الرياح ، وكسرت أظافرها في محاولة في فتح البوابة الصغيرة ، وعلى بعد مائة ياردة توقفت عن السير لاهثة من الإعياء وشعرت كأنها توشك أن تسقط .

وأحست كأن الأرض تدور بها ، وكانت لا تمي وجودها إلا بتيار الدم السريع المتدفق في شرايينها ، وكانت تستطيع أن تعتقد أنها سمعته يفلت منها مثل الموسيقى التي تصم الآذان والتي ملأت ما حولها ، وكانت الأرض تحت قدمها ألين من الأمواج وبدت أحاديث الأرض كأنها أمواج داكنة ، وظهر لها أن كل ما تتذكره وأفكارها جميعها كأنها تفر منها مثل آلاف الشظايا في عرض كبير للألعاب النارية ، ورأت والدها ومكتب ليهريه وحجرتها ومنظراً طبيعياً آخر ، وشعرت كأنها قد فقدت صوابها وتمشى الخوف في نفسها ، ولكنها نجحت في استعادة جأشها ولو أنها كانت لا تزال مضطربة النفس قد اختلط عليها الأمر ولم تستطع أن تتذكر سبب الحالة الرهيبة التي تعانيها أي أنها كان باعها المال ، ولم تذكر إلا شقاءها في الحب ، وشعرت بأنها تفقد روحها في تلك الذكرى كالجرحي من الرجال الذين يشعرون وهم يعانون غصص الموت بأن حياتهم تتساقط من خلال جروحهم الدامية .

وأقبل الظلام ، وبدأ طير العققير يعود إلى موطنه ، وفجأة بدا لها كأن كريات نارية تنفجر في الهواء مثل الكرات المدوية وأنها تدور وتعلو حتى تختفي في الثلج

الحامى ، وكان عليها أن تقترض ، والمرضى لا يدفعون ، وضبيعة والده لم تصف بعد ، وسنحصل على المسال قريباً ، ولكن إذا لم نجد ثلاثة آلاف فرنك فإن منزلنا سيحجز عليه اليوم ، ولقد يحدث ذلك في أية لحظة ، وقد جئت معتمدة على صداقتك » .

ففكر رودلف الذي اشتد فجأة اصفرار وجهه «أوه ! هذا هو السبب الذي جاءت من أجله» ولكنه قال في هدوء تام «ليس عندي ما يعادل هذا المبلغ يا عزيزتي» .

وكان بلا شك صادقاً فيما قال ، ولو كان يملك هذا المبلغ لأعطاه لها من غير شك ، ولو أنه باعتبار القاعدة عامة من أعمال العطف التي لا ترتاح لها النفس ، وليس أكثر قضاء على الحب من طلب المساعدة المالية ، فنظرت إليه في صمت دقيقة أو دقيقتين ، ثم قالت : «ليس عندك هذا المبلغ !» وكررت ذلك قائلة «ليس عندك المبلغ ! ... كان يجب أن أجنب نفسي هذا العار الأخير ، لأنك لم تحبني قط ولست خيراً ممن الآخرين !» .

ولكن رودلف اعترض حديثها قائلاً إنه هو نفسه في ضيق مالى ، فقالت «إني حزينة من أجلك ! نعم أنك مأزوم في الواقع» ورأت بندقيته ماسورتها مرصعة في أحد الأركان فقالت «حيناً يكون الإنسان مأزوماً لا يكون عنده ألواح من الفضة في كرنافة بندقيته ولا يشتري ساعة حائط مغلقة بعظم السلحفاة ولا صفافير مطلية ولا تعويذات لسلسلة ساعته ، فعنده كل ما يريد ... وأنت في رغد من العيش ، وعندك جوستق ، ولك ضياع وغابات ، وتذهب للصيد وتقضي جزءاً كبيراً من وقتك في باريس ، وإذا لم يكن عندك شيء سوى هذه الأزرار (وتناولت أزرار القميص من المشجب) فانك تستطيع أن تحصل منها على المال ! آه إني لا أريدها ! احتفظ بها» .

وذهب إلى المر الذي يقضى إلى باب المعمل، وكان هناك مفتاح معلق على الحائط ، وصاح الكيميائي الذي بدأ يقاتل « جستن ! »

فقال « اصعد إلى الطابق العلوى ، فتبعها ، وفتحت المغلاق بالمفتاح وانجهت إلى الرف الثانى مباشرة (لأن ذاكرتها خلتها جيداً) وأمسكت بالزجاجة الزرقاء ورفعت سداتها وأدخلت يدها وتناولت كمية من المسحوق الأبيض وشرعت فى ابتلاعها .

فصاح بها ممسكاً بيدها قائلاً « توقفى ! » .

فأجابته « التزم الصمت ، وإلا حضر بعض الناس » .

فلم يدر ما يصنع ، وأراد أن يدعو أحداً لنجده ، ولكنها طلبت إليه أن لا يقول شيئاً لأن الخطأ جميعه سيقع على سيده ، وذهبت إلى بيتها ، وشعرت فجأة بالارتياح كأنها قد أنهزت واجباً .

وهكذا وصف لنا فلورير عودة أمها خائبة من قصر رودلف ، وتصميمها على تناول السم ، وكيف ذهبت إلى دار الكيميائي هومز وابتلعت الزرنيخ .

ولما عاد شارل إلى المنزل ووجد لها سألها « ما الخبر » وطلب منها أن توضح له جلية الأمر ، وكانت حينذاك جالسة إلى مكتبها وقد أتمت كتابة رسالة له وطوتها ، بعد أن أثبتت بها التاريخ والساعة ، وقالت له فى لهجة جادة « لا تقرأ هذه الرسالة إلا غداً ، وبين هذا وذاك أرجوك أن لا توجه إلى أى سؤال » .

ويشتد بها الألم وتسوء حالتها ، ويسرع شارل إلى الرسالة ويفضها ويقرأها ويعرف أنها تناولت السم ، ويطلب النجدة ، وتتقاذفه لجج الحزن ، فتقول له إنما « لا تبك ، فبعد قليل لن أتبعك أبداً » .

فيقول لها شارل « ولماذا ؟ ما الذى دفعك إلى ذلك ؟ » .

بين فروع الأشجار ، وظهر وجه رودلف فى وسط كل منها ، وأخذ عددها فى التكاثر وتقارب بعضها من بعض ، وانخفضت أخيراً ، وعرفت حينئذ أضواء المنازل التى كانت تضيئ خلال السحاب فى الأفق ، ثم أخذت تدرك موقفها على حقيقته ، وقد بدا أمامها كالمهاوية الفاعرة ، ولشت كأن صدرها كان سيتمزق ، وانقدت فى نفسها حماسة بطولية جعلتها تكاد تشعر بالسعادة ، فانطلقت إلى أسفل التل وعبرت الجسر الخشبي واجتازت المر الضيق ، وبعد أن عبرت الميدان وصلت إلى حانوت الكيميائي

ولم يكن هناك أحد ، وهمت باللحول ، ولكن يمكن أن محضر أحد على صوت الجرس ولذا تلمست طريقها إلى الحائط وقد حبست أنفاسها حتى وصلت إلى باب المطبخ حيث كانت هناك شمعة مشتعلة فوق الموقد ، وكان جستن يحمل طبقاً للخارج ، فقالت لنفسها « أوه ! أنهم يتناولون عشاءهم وعلى أن أنتظر » ولما عاد قرعت النافذة قرعاً خفيفاً ، فخرج ، فقالت له « اعطنى مفتاح الحجرة التى فى الطابق العلوى حيث يوجد . . . » .

« ماذا تعنين بذلك ؟ » . . . ونظر إليها وقد عرته الدهشة لاصفرار وجهها فقد بدا أبيض اللون فى ظلمة الليل ، وظهرت له غاية فى الجمال وقد حفها الجلال كأنها طيف مائل ، وبدون أن يفهم ما كانت تريده أدرك أن شيئاً خفيفاً سيحدث ، ولكنها بادرت مسرعة إلى القول فى نعمة رقيقة منخفضة متوسلة « إني أريده ، اعطنى إياه » .

وكانا يستطيعان أن يسمعا من خلال الحاجز الرقيق صوت السكاكين والشوك فى حجرة الطعام ، وادعت أنه تريده لقتل الفيران التى منعتها من النوم . فقال « ولكن لا بد من أن أخبر السيد هومز » . فأجابته قائلة « إن الأمر لا يستحق إزعاجه » ، وسأخبره فى الحال ، أرجوك أن تربى النور .

فتجاوبه قائلة « كان على أن أفعل ذلك يا عزيزى »
فيقول شارل « ألم تكون سعيدة ؟ وهل أخطأت ؟
لقد بذلت كل ما فى وسعى ؟ »

« هذا حق .. أنك طيب جداً ... »

وأمرت يدها فى بطء على شعره ، وعمقت عذوبة
هذا الإحساس حزنه ، وشعر بأن حياته جميعها تنهار
أركانها حينما فكر فى أنه سيفقدها فى الوقت الذى
تعرّف فيه بحبا له .

واضطرب شارل بعد موتها إلى أن يبيع كل ما يملك
من الأشياء الفضية وأثاث المنزل ليسدد الديون ، وفتح

فى النهاية درج مكتب إيمّا فوجد فيه الرسائل التى كان
يبعث بها إليها ليون ، وصورة رودلف ، فتضاعف
حزنه وكبر عليه الأمر ، ورفض أن يرى مرة
وآوى إلى حجرته معتزلاً الناس وكان يتمشى فى حديقة
داره جيئة وذهوباً وهو يبكي بصوت مسموع ، وفى
ذات يوم وجدته طفلته الصغيرة ميتاً وفى يده خصلة
طويلة من شعر إيمّا الأسود اللون .

وهذه هى مأساة مدام بوفارى التى بلى فلوير
فى كتابها جهداً جباراً فجاءت طرفة من طرائف الفن
الحالدة فى موضوعها وفى أسلوبها .



رسالة منطقية فلسفية للورثج فجنشتاين

بماتم
الدكتور عزيمى اسلام

بدلاً من إقامة نسقات فكرية أو ميتافيزيقية متكاملة : أصبحت الفلسفة لديه بمعنى آخر فلسفة للفلسفة ، وأصبح عمل الفيلسوف عنده هو أن يكون فيلسوفاً للفيلسوف بتحليله لما يقول :

كما تعود أهمية فجنشتاين أيضاً إلى أنه كان أول من نادى بأن قواعد المنطق - إن هي ، إذا حللتها - إلا قواعد اللغة ، فأوجد بذلك نوعاً من التوازي بين قواعد كل منهما على أساس أن صورة المنطق ، ومن ثم صورة الفكر شيء واحد : وقد تبعه في هذا الكثير من الفلاسفة فيما بعد مثل كارناب :

هذا فضلاً عن الأثر البالغ الذي تركه فجنشتاين في كل التيار الفكرى الوضعى والتحليلى المعاصر ، الأمر الذى جعل دراسة الفلسفة في اتجاهها التحليلى أو الوضعى المنطقى شيئاً متعذراً بغير دراسة أفكار فجنشتاين وتحليلاته المنطقية التى اعتبرها برتراند رسل لعقها واتساع مجالها حدثاً هاماً في تاريخ الفلسفة :

حياة فجنشتاين

ولد لثييج جوزيف يوهان فجنشتاين
Ludwig Joseph Johann Wittgenstein في

يعتبر فجنشتاين ، على الرغم من النقد الذى يوجه إلى فلسفته بصفة عامة ، أحد العلامات الهامة على طريق الفكر الفلسفى المعاصر ، حتى لقد ذهب بعض مؤرخى الفلسفة المعاصرة مثل بئشر Pitcher إلى القول بأن فجنشتاين كان واحداً من كبار فلاسفة القرن العشرين إن لم يكن أعظمهم بالفعل :

وتعود أهمية فجنشتاين إلى أن فلسفته - وخاصة تلك المتمثلة في رسالته المنطقية الفلسفية - كانت بمثابة نقطة تحول حاسمة في تاريخ الفلسفة المعاصرة والمنطق الجديد ، ولم يكن ذلك راجعاً إلى ما توصل إليه من نتائج فلسفية بقدر ما يرجع إلى المنهج التحليلى الذى اتبعه في بحثه الفلسفى ، حتى أن كثيراً من المعاصرين - على حد تعبير دافيد بول في كتابه عن فلسفة فجنشتاين - يؤكدون أن كل طرق التفلسف القديمة أصبحت غير مقبولة منذ ظهور مؤلفات فجنشتاين . وتعود أهمية فجنشتاين كذلك إلى أن فلسفته كانت أشبه ما تكون بالثورة على الفلسفة التقليدية وذلك بدعوته إلى تغيير المفهوم القديم للفلسفة فأصبحت عنده عبارة عن تحليل للغة التى نتكلم بها في الفلسفة أو نعبّر بها عما نثيره من مشكلات فلسفية

السادس والعشرين من شهر ابريل عام ١٨٨٩ بالخمسة وتلقى أول تعليم له بالمنزل حتى سن الرابعة عشرة ثم التحق بمدرسة لينتز Lintz في شمال النمسا لمدة ثلاث سنوات التحق بعدها عام ١٩٠٦ بالأكاديمية الصناعية في برلين وظل بها حتى عام ١٩٠٨ حين سافر إلى إنجلترا والتحق بجامعة مانشستر للدراسة الهندسة واستمر بها حتى عام ١٩١١ . وقد شغل في هذه الفترة -بالإضافة إلى دراسته - بأبحاث قام بها في الملاحة الجوية ، انتقل من تجاربه فيها على الطائرات الشراعية إلى إنشاء محرك ثقات للطائرات وكان عمل المحرك أول الأمر هو موضع اهتمامه ، إلا أنه سرعان ما ركز كل اهتمامه على تصميم المحرك ، وكان هذا التصميم في أساسه عملية رياضية الأمر الذي دفعه إلى الاهتمام بالرياضة فأنجبه أولا إلى الرياضة البحتة ثم إلى أسس الرياضيات وفلسفتها ، وبدأ بدراسة الجزء النظري من أسس الرياضيات فقرأ كتاب «أصول الرياضيات» لبرتراند رسل الذي كان قد ظهر عام ١٩٠٣ . وفي عام ١٩١١ توقف فتنجشتين عن دراسة الهندسة وانتحل إلى ينا Jena في ألمانيا لكي يناقش أفكاره عن أسس الرياضيات مع فريجه G. Frege الذي نصحه بالتوجه إلى كبردج للدراسة مع رسل ، فعاد إليها في السنة نفسها وظل بها يدرس الفلسفة والمنطق والرياضيات فضلا عن علم النفس والموسيقى وفلسفة الجمال حتى خريف عام ١٩١٣ حين ارتحل إلى هولنده وأقام لنفسه بها كوخاً صغيراً بالقرب من مقاطعة سكولدن ، عاش فيه متفرغاً للفلسفة حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ فتطوع في جيش النمسا ، ووقع في الأسر أثناء انهيار الجيش النمساوي المجري في نوفمبر من عام ١٩١٨ ، وظل أسيراً حتى أغسطس من العام التالي ١٩١٩ بأحد معسكرات الاعتقال في جنوب إيطاليا .

وقد اختار فتنجشتين بعد انتهاء الحرب مهنة التدريس ، وتدرّب عليها في الفترة بين عامي ١٩١٩ ، ١٩٢٠ في كلية المعلمين بفينا ، ومارس هذه المهنة لمدة ست سنوات ثم استقال منها عام ١٩٢٦ . وبدأ في خريف العام نفسه في عمل استغرق فيه طوال سنتين كاملتين ، وهوبناء منزل في فينا لإحدى أخواته وقد تعرف إليه في تلك الأثناء موريس شليك مؤسس جماعة فينا وفريدريش فايزمان أحد أعضائها ، ثم عاد إلى كبروج مع بداية عام ١٩٢٩ وتقدم برسائله المنطقية الفلسفية للحصول على درجة الدكتوراه ، وحصل عليها في يونيو من العام نفسه ، وأصبح ابتداء من عام ١٩٣٠ زميلاً في كلية تريينبي : وقد ظل فتنجشتين يعمل في كبردج حتى نهاية العام الجامعي ١٩٣٥-١٩٣٦ ثم رحل إلى الزويج وظل بها لمدة عام تقريباً بدأ فيه تأليف كتابه «أبحاث فلسفية» ، ثم عاد إلى كبردج عام ١٩٣٧ وخلف جورج مور عام ١٩٣٩ على كرسي الفلسفة بها حتى قامت الحرب العالمية الثانية فاشترك فيها مساهماً في الأعمال الطبية بمستشفيات لندن ونيوكاسل : ثم اعتزل كرسي الفلسفة بالجامعة عام ١٩٤٧ وانتحل إلى أيرلنده وظل بها إلى أن أكمل الجزء الثاني من كتابه «أبحاث فلسفية» ، وقد تبين له في تلك الأثناء أنه مريض بالسرطان الذي ظل يعاني منه حتى توفي في كبردج عام ١٩٥١ :

أعماله :

لم يكن فتنجشتين مكثراً في إنتاجه الفلسفي بل كان مقلاً ، حتى إنه لم ينشر في حياته إلا كتاباً واحداً هو «رسالة منطقية فلسفية» ومقالاً له بعنوان «بعض ملاحظات على الصورة المنطقية» : وكل ما نشر من كتاباته - سواء قبل وفاته أو بعدها - كان عميقاً يصعب فهمه أحياناً حتى بالنسبة لتلاميذه الذين كانوا يستمعون إلى محاضراته ، الأمر الذي أدى إلى ظهور

كثير من الكتب الحديثة يحاول مؤلفوها شرح أفكار فتنجشتين الفلسفية التي أوجزها في مؤلفاته القليلة : وغير مثال لذلك ظهور أكثر من خمسة أبحاث في السنوات العشر الأخيرة ، يحاول أصحابها - وأغلبهم من تلاميذ فتنجشتين ، مثل أنسكوم Anscombe أن يفسروا ما ذهب إليه في رسالته المنطقية الفلسفية التي ظهرت لها ترجمتان إنجليزيتان حتى الآن مختلفتان إلى حلمان في تناول النص الأصلي الذي كتبه فتنجشتين باللغة الألمانية :

وفيما يلي أهم مؤلفات فتنجشتين الفلسفية ، مرتبة ترتيباً زمنياً :

١ - المذكرات Notebooks التي كتبها في الفترة بين عامي ١٩١٤ ، ١٩١٦ وقد ترجمتها إلى الإنجليزية أنسكوم التي قامت بنشرها كذلك بالاشتراك مع فون رايت عام ١٩٦١ في بلاكويل بإنجلترا وتعتبر هذه المذكرات بصفة عامة نموذجاً طيباً لأفكاره الفلسفية الأولى التي ركزها بعد ذلك وبلورها في رسالته المنطقية الفلسفية .

٢ - « رسالة منطقية فلسفية »

Logich — Philosophische Abhandlung
ونشرت باللغة الألمانية عام ١٩٢١ ، ثم باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٢ بالعنوان اللاتيني الذي عرفت به وهو Tractatus Logico-Philosophicus بعد أن ترجمها أوجون Ogden وكتب لها رسل مقدمة طويلة وسأتناول بالتفصيل أهم أفكار فتنجشتين في هذه الرسالة فيما بعد .

٣ - « بعض ملاحظات على الصورة المنطقية »

Some Remarks on the Logical Form
وهو مقال باللغة الإنجليزية نُشر في « منشورات الجمعية الأرسطية عام ١٩٢٩ ، يستكمل فيه فتنجشتين الإطار المنطقي الذي أسهب في الحديث عنه في رسالته

المنطقية الفلسفية ويمكننا القول بأن هذه المؤلفات الثلاثة والرسالة بصفة خاصة توضح الأثر الكبير الذي تركه كل من فريجه وورسل في تفكير فتنجشتين المنطقي والرياضي وقد عبر فتنجشتين عن ذلك في مقدمة رسالته بقوله « إنني لن أشير إلا إلى مؤلفات فريجه التي أنا مدين لها ، كما أنني مدين لكتابات صديقي برتراند رسل من حيث استشارة أفكارى هذه » .

٤ - مؤلفان كبيران مكتوبان باللغة الألمانية على الآلة الكاتبة (لم ينشرا بعد) .

(أ) الأول منهما بحث يقع في حوالي ثمانمائة صفحة مقسمة إلى أجزاء وفصول .

(ب) والثاني يحمل اسم « ملاحظات فلسفية » Philosophische Bemerkungen وكان موضوعهما عاما شاملا ، وإن كان فتنجشتين يعطى فيهما اهتماماً خاصاً لفلسفة الرياضيات ويمثلان موقف فتنجشتين الفلسفي بصفة عامة سنة ١٩٣٠ حين بدأ يراجع أفكاره الفلسفية الأولى .

٥ - محاضرات فتنجشتين فيما بين عامي ١٩٣٠

— ١٩٣٣ ، وهي بعض الملاحظات التي استطاع جورج مور جمعها من محاضرات فتنجشتين ومناقشاته في كامبردج في تلك الفترة وقد نشرت بالعنوان السابق في مجلة مايند عام ١٩٥٤ (عدد يناير سنة ١٩٥٤ من صفحة ١-١٦ ، وعدد يوليو من صفحة ٥٣٠-٥٥٩ ، وعدد يناير ١٩٥٥ من صفحة ١-٢٧) ثم أعاد مور نشرها ضمن مجموعة مقالات له ظهرت بعنوان « بحوث فلسفية » Philosophical Papers عام ١٩٥٩

٦ - « الكتابان الأزرق والبنّي » Blue and

Brown Books وهو العنوان المختصر لهذين الكتابين اللذين ظهرا في مجلد واحد عام ١٩٥٨ (وقد أعيد طبعهما عام ١٩٦٠ ، ثم عام ١٩٦٤) والكتاب

٩ - «قصاصات» Zettel

وهي مجموعة من الملاحظات التي كتبها فتنجشتين على قصاصات في الفترة بين عام ١٩٢٩ ، وعام ١٩٤٨ . وأغلب الملاحظات المنشورة في هذا الكتاب تتعلق بالفترة بين عامي ١٩٤٥ ، ١٩٤٨ - وقامت بترجمتها أنسكوم ونشرتها بالاشتراك مع ثون رايت عام ١٩٦٦ . وتعتبر هذه الملاحظات عن أهم أفكار فتنجشتين الجديدة التي ظهرت مرتبة مبلورة في كتابه «أبحاث فلسفية» .

١٠ - «أبحاث فلسفية»

Philosophische Untersuchungen

وهو مكون من جزئين انتهى فتنجشتين من أولهما عام ١٩٤٥ ، أما الجزء الثاني فقد كتبه بين عامي ١٩٤٧ ، ١٩٤٩ وقد قامت أنسكوم بترجمتها إلى اللغة الانجليزية ونشرته بالاشتراك مع ريز Rhee عام ١٩٥٣ (وأعيد طبعه عام ١٩٥٨ ، ثم عام ١٩٦٣) : ويعتبر هذا الكتاب (١) بمثابة المراجعة الأخيرة أو التصحيح النهائي لأفكار فتنجشتين السابقة ، وقد عبر عن هذا المعنى بقوله في مقدمة الكتاب - إنني قد اضطررت أن أثبت أخطاء جسيمة فيما كتبت في الكتاب الأول مثل فكرته عن الأنا وحديه وفكرته عن الذرية المنطقية . (٢) كما يعتبر في الوقت نفسه بمثابة تطوير لأفكاره القديمة الواردة في رسالته المنطقية الفلسفية ، أو هو بمثابة إعادة ترجمة لهذه الأفكار القديمة في سياق فلسفي جديد متطور :

• • •

الرسالة المنطقية الفلسفية

Tractatus Logico-Philosophicus

تعتبر رسالة فتنجشتين المنطقية الفلسفية من أهم المؤلفات التي ظهرت في الثلاثينيات الأخيرة ، سواء بالنسبة للمنطق أو بالنسبة لفلسفة التحليل المعاصرة .

الأزرق عبارة عن محاضرات ألقاها فتنجشتين في كمبرج أثناء العام الجامعي ١٩٣٣ - ١٩٣٤ ، أما الكتاب البني فقد أمله على اثنين من طلبته هما فرانسيس سكينر F. Skinner وأليس ابروز A. Ambrose أثناء العام الدراسي ٣٤ - ١٩٣٥ . وترجع تسمية هذين الكتابين بالأزرق والبني إلى لون الغلاف الذي كان كل منهما مغلفا به ، بحيث تداول تلاميذ فتنجشتين قراءة هذه الكتب مع تسميتها بلون الغلاف الذي كانت النسخة الأولى من كل منهما مغلفة به . وترجع أهمية هذين الكتابين إلى أنهما توضحان بصفة خاصة كثيراً من العبارات الغامضة في رسالته المنطقية الفلسفية ، كما أنهما توضحان تطور أفكاره الفلسفية - وخاصة الكتاب الأزرق - لأنه كان يحتوي على ما أسماه فتنجشتين بالفلسفة الجديدة التي تمثلت فيما بعد في كتابه «أبحاث فلسفية» .

٧ - «ملاحظات على أسس الرياضيات»

Bemerkungen über die Grundlagen

der Mathematik وهي مختارات من ملاحظات كتبها فتنجشتين فيما بين عامي ١٩٣٧ - ١٩٤٤ ترجمتها أنسكوم ونشرتها بالاشتراك مع ريز Rhee عام ١٩٥٦ ثم أعيد طبعها عام ١٩٦٤ وهي تمثل أفكار فتنجشتين الجديدة المتعلقة بأسس الرياضيات بصفة خاصة وبالعلاقة بالرياضة بالمنطق بصفة عامة .

٨ - «محاضرات في الجبال وعلم النفس والدين»

وهي مقتطفات من العدد القليل من المحاضرات التي ألقاها فتنجشتين في كمبرج عام ١٩٣٨ عن فلسفة الجبال فضلا عن عدة ملاحظات كتبها فتنجشتين عن علم النفس والدين في ذلك الوقت (وقد جمسع هذه المحاضرات والملاحظات ريز R. Rhee ، وسميثيز Y. Smithies ونشرها سيريل باريت Barrett عام ١٩٦٦ .

فهي كانت ذات أثر بالغ في الفكر الفلسفي بصفة عامة ، وفيما يتعلق بالاتجاهات الفلسفية المؤيدة للاتجاه التحليلي المنطقي خاصة ، مثل مدرستي كمبريدج وأكسفورد وكذا فلسفة الوضعية المنطقية .

ولا يكاد الإنسان يغالي في القول بأن هناك شبه إجماع بين دارسي الفلسفة المعاصرة على أهمية «رسالة» فتنجشتين وأثرها البالغ في الفكر الفلسفي المعاصر فيقول رامزي مثلاً في كتابه «أسس الرياضيات» (صفحة ٢٧٠) «إن الرسالة كتاب له أهمية غير عادية ويستحق أن يوليه كل الفلاسفة اهتمامهم الشديد» ، كما يقول ماكسويل في كتابه «الفلسفة والتحليل اللغوي» (صفحة ٩٣) «إن الإنسان يستطيع القول - بلا مبالغة - إن كل الفلسفة الانجليزية التالية لظهور الرسالة ، كانت متضمنة في الرسالة نفسها على نحو أو آخر» . ويعبر ستينوس عن هذا المعنى أيضاً في كتابه «رسالة فتنجشتين المنطقية الفلسفية» (صفحة ١٦) بقوله «إن الرسالة كانت ذات أثر بالغ في الحياة الفكرية المعاصرة» وهو المعنى ذاته الذي يذكره بتشر في كتابه «فلسفة فتنجشتين» (صفحة ٦) حين يقول «إن الرسالة أحدثت تأثيراً عميقاً في كل ما تلاها من أفكار فلسفية» ، مؤيداً بذلك قول موريس شليك بأن ظهور رسالة فتنجشتين كان بمثابة نقطة تحول حاسم في تاريخ الفلسفة .

هذا ويمكننا تلخيص أهمية رسالة فتنجشتين بصفة عامة في أنها قدمت لنا طريقة مثيرة وجديدة في كيفية تناول المشكلات القديمة للفلسفة ، وذلك بتحليل القضايا التي نصوص فيها هذه المشكلات تحليلاً منطقياً يوضح أن أغلبها ليست إلا مشكلات زائفة وانها لم تنشأ إلا نتيجة لسوء فهم منطق اللغة . ولقد كان لهذه الفكرة أبلغ الأثر في فلسفة التحليل

المعاصرة المتمثلة في مدرستي كمبريدج وأكسفورد ، وخاصة عند رايل وأوستن وستروسون وويزدم . ولقد عبر دافيد بول في كتابه فلسفة فتنجشتين المتأخرة «عن أهمية المنهج الذي اتبعه فتنجشتين بقوله «يكفى أن نقول إن فتنجشتين قد ابتدع طريقة جديدة للتفلسف ، بل إن كثيراً من المعاصرين يؤكدون أن كل طرق التفلسف القديمة أصبحت غير مقبولة في الفلسفة منذ ظهور مؤلفاته» . كما أن فكرة فتنجشتين عن تحقيق القضايا في «الرسالة» بمقارنتها بالدافع الخارجي ، كانت ذات أثر بالغ في ظهور مبدأ التحقق عند فلاسفة الوضعية المنطقية بصفة عامة ، وبعد أن تطور في فلسفة إير Ayer إلى ما يعرف بالتحقق الفعلي والتحقق الممكن .

فضلاً عن أن الرسالة كانت تطبيقاً للمنطق الرمزي على أوسع نطاق ، على حد تعبير بلاشارد في كتابه «العقل والتحليل» (صفحة ١٣٥) ، كما كانت في الوقت نفسه استكمالاً للنقائص الموجودة في محاولات رسل وفريجه المنطقية .

كما ويعتبر فتنجشتين في «رسالته» أول من تكلم في المنطق المعاصر على أنه مجرد علامات اتفاقية لا تكشف عن طبيعة الأشياء ، الأمر الذي جعله ينتهي فيها إلى أن قضايا المنطق كلها تحصيلات حاصل.

تكوين «الرسالة»

تعتبر رسالة فتنجشتين المنطقية الفلسفية تعبيراً موجزاً عن تأملاته في الفلسفة والمنطق والرياضيات لفترة لا تقل عن ست سنوات آخرها عام ١٩١٨ حين انتهى من كتابة مسودتها قبل أن يقع أسيراً في العام نفسه أثناء اشتراكه في الحرب العالمية الأولى . وقد نشرت الرسالة لأول مرة باللغة الألمانية عام ١٩٢١ في المجلة السنوية لفلسفة الطبيعة ثم غير فتنجشتين عنوان الرسالة إلى الإسم اللاتيني الذي

اقترحه جورج مور بعد ترجمتها إلى اللغة الانجليزية. على غرار الاسم اللاتيني الموسوم به كتاب سينوزا «رسالة لاهوتية فلسفية» - Tractatus Theologico-Politicus وقد قام أوجندن بترجمة الرسالة إلى اللغة الانجليزية بمعاونة بعض المتخصصين في الفلسفة من أصدقاء فتنجشتين مثل فرانك رامزي ، ونشرها كيجان بول في حوالى ثمانين صفحة باللغة الألمانية ، تقابلها صفحات مماثلة عليها الترجمة الانجليزية ، مع مقدمة لرسل تقع في سبع عشرة صفحة يلخص فيها أهم أفكار فتنجشتين الفلسفية ويشرح أهم المصطلحات الواردة بها .

وتتكون «الرسالة» من سبع قضايا أساسية - هي في نظر فتنجشتين أكثر عبارات الكتاب أهمية - رقمها بأعداد صحيحة تبدأ من ١ وتنتهى بالعدد ٧ وهي على التوالي :-

١- العالم هو جميع ماهناك .

٢- إن ما هو هنالك ، أى الواقعة ، هو وجود الوقائع الذرية .

٣- الفكر هو الرسم المنطقي للوقائع .

٤- الفكر هو القضية ذات المعنى .

٥- القضايا عبارة عن دالات صدق للقضايا الأولية . (والقضية الأولية هي حالة صدق نفسها) .

٦- إن الصورة العامة لدالة الصدق هي : [ق ، غ ، ن ، (غ)] وهي تقرأ هكذا : نسبة القضية المعينة إلى سياقها في حالتى الاثبات والنفي .

٧- إن ما لا يستطيع الإنسان أن يتحدث عنه ، ينبغي أن يصمت عنه .

كما تتكون أيضاً من عبارات فرعية أخرى رقمها بأعداد عشرية مثل ٤,٥٢١,١ تكون شرحاً للقضايا الأساسية السابقة أو تعليقاً عليها ، فتكون العبارة رقم ١,١ مثلاً تعليقاً على العبارة رقم ١ كما

تكون العبارة رقم ٤,٥ شرحاً للعبارة رقم ٤ وللعبارات الموجودة بين رقم ٤ ورقم ٤,٥ وهكذا .

وتتكون أيضاً من عبارات فرعية أخرى رقمها فتنجشتين بأعداد مثوية مثل ١,١١ وهذه تكون تعليقاً على العبارات ذات الرقم العشرى مثل ١,١ وبالتالي على العبارة الأساسية رقم ١ وهكذا تنفرع العبارات بحيث تكون كل عبارة فرعية جديدة شرحاً لما سبقه أو تمهيداً لما يأتى بعدها من عبارات ، وفي هذا الصدد يقول فتنجشتين في بداية رسالته « إن الأعداد العشرية كأرقام للقضايا المنفصلة توضح الأهمية المنطقية للقضايا ، وقد ركزت على هذا الموضوع أثناء حديثي في هذا الكتاب . فالقضايا ن ١ ، ن ٢ ، ن ٣... الخ هي بمثابة الشروح للقضية ن كما أن القضايا ن ١ ، ن ٢ الخ تعتبر بمثابة التعليقات على القضية نوم ... وهكذا .

إلا أن فتنجشتين لا يلتزم التزاماً دقيقاً بهذه القاعدة فهو أحياناً يستخدم عبارات مرقمة بأعداد مثوية أو ألفية لكي يتناول بها القضية الأصلية مباشرة ، كما هو الحال في العبارة رقم ٢,٠١ التى تكون تعليقاً على العبارة السابقة لها مباشرة وهي رقم ٢ إذ ليس في الرسالة وجود لعبارة رقمها (٢,٠) ، وكالعبارة رقم ٣,٠١ التى تكون تعليقاً على العبارة السابقة لها مباشرة وهي رقم ٣ إذ لا وجود لعبارة رقمها (٣,٠٠) أو (٣,٠) في الرسالة .

ولقد كانت طريقة كتابة الرسالة على هذا النحو من أهم الأسباب التى أدت إلى وصف هذا الكتاب المهام بالصعوبة بل وحتى بالغموض ، وهو رأى يجمع عليه كل من تناول «الرسالة» بالدراسة مثل ارستينوس الذى يذهب إلى أن «الرسالة» عمل فلسفى بالغ الصعوبة ، ويعترف صراحة بعدم فهمه بعض عباراتها فيقول في مقلمة كتابه «رسالة فتنجشتين

المنطقية الفلسفية « إن عبارات هذه الرسالة تنقسم إلى أربعة أنواع هي :

أولاً : عبارات أعتقد أنني أفهمها وأظن أنها عبارات هامة ، وهي بالطبع أحسن أجزاء الرسالة .

ثانياً : عبارات أعتقد أنني أفهمها ، وإن كنت أظن أنها عبارات مضللة ، ولذا فإن قيمتها تكون تالية لقيمة العبارات الأولى .

ثالثاً : عبارات لم أفهمها ولذا فإنني لا أستطيع تحديد قيمتها .

رابعاً : عبارات تبدو من ناحية مما يمكن فهمه إلا أنها تبدو من ناحية أخرى تعطينا انطباعاً غامضاً غير محدد ، ولذا فهي ليست مما يتعذر قبوله أو رفضه .

٢ - ماكسويل تشارلزورث الذي يذهب في كتابه « الفلسفة والتحليل اللغوي » إلى أنه لا يوجد شيء في تاريخ الفلسفة كله يمكن أن يساعدنا على فهم الرسالة ، فهي مكتوبة على شكل سلسلة من الأقوال الفلسفية المفككة الغامضة .

٣ - فرانك رامزي الذي يذهب في كتابه « أسس الرياضيات » إلى أن الرسالة كتاب يصعب فهمه إلى أقصى حد .

٤ - أنسكوم التي ذكرت في كتابها « مقدمة لرسالة فثجنشتين » إن الأفكار في كتاب فثجنشتين كانت مضغوطة جداً حتى أصبح من الضروري أن يتوقف الإنسان عند كل كلمة لينظر في معناها حتى يمكنه أن يفهم عباراته الأمر الذي جعل باتون Paton يذهب في التهميد الذي صدر به كتاب أنسكوم إلى القول بأن الكتاب يتطلب مجهوداً كبيراً من القارئ حتى يستطيع أن يفهمه .

٥ - ماكس بلاك الذي يقول في مقدمة كتابه عن رسالة فثجنشتين أننا لانكاد نجد عملاً فلسفياً من الصعب فهمه والسيطرة عليه كما هو الحال بالنسبة لرسالة فثجنشتين .

٦ - براند بلانشارد الذي ذهب في كتابه « العقل والتحليل » إلى أن منطق فثجنشتين في الرسالة قد بلغ حداً من الصعوبة أن كان منطق هيجل إلى جانبه شيئاً واضحاً مفهوماً .

والواقع أن من يقرأ رسالة فثجنشتين يصطدم لأول وهلة بهذه الصعوبة أو بهذا الغموض ويصبح حاله كحال ينشر الذي يقول في مقدمة كتابه عن « فلسفة فثجنشتين » إن الرسالة كتاب صعب في عباراته عبارة عبارة ، وغالباً ما يشعر الإنسان أثناء قراءته إياها لأول مرة بأنه قد فشل في فهم ما قد قيل في كل عبارة على حدة . إلا أن فثجنشتين لم يكن يعتمد الصعوبة أو الغموض في رسالته ، بل كان يرى دائماً إلى الوضوح بقدر الإمكان ، حتى إنه جعل من الوضوح الكامل شرطاً أساسياً للفلسف ، وجعل وظيفة الفلسفة مقصورة على مجرد توضيح القضايا والعبارات بتحليلها تحليلًا منطقيًا يكشف عما إذا كانت ذات معنى أو لم تكن . ولقد عبر فثجنشتين عن هذا المعنى في أكثر من موضع من رسالته ، وخاصة في العبارة رقم ١١٦، ٤ التي تقول « إن كل ما يمكن التفكير فيه على الإطلاق يمكن التفكير فيه بوضوح ، وكل ما يمكن قوله ، يمكن قوله بوضوح » .

ونحن لو تخيلنا عن محاولة فهم كل عبارة من العبارات الأساسية في الرسالة على حدة ، لوجدناها أشبه ما تكون بالكل المترابط ولأضحت أمثنا خطأ فكرياً متصلاً يبدأ من العبارة رقم ١ وينتهي بالعبارة رقم ٧ مارا بالعبارات الفرعية المتوسطة التي تزيده لميضاحاً وغنى وثراء . فهو يتكلم في العبارة الأولى عن العالم وتحليله ، ثم يتناول الوحدات النهائية التي ينحل إليها العالم . وهي الوقائع النظرية في العبارة الثانية ، ثم يربط بين الفكر وبين هذه الوقائع النظرية في العبارة الثالثة ، ثم بين الفكر واللغة في العبارة الرابعة ، وبالتالي بين اللغة وبين العالم فيكون الفكر هو القضية ذات

المعنى . ثم يحلل اللغة في العبارة الخامسة ، منهيًا إلى أن جميع القضايا عبارة عن دلالات صدق للوحدات الأولى التي تنحل إليها اللغة وهي القضايا الأولية . ثم يتكلم عن تعميم القضية وكيفية الوصول إلى صورة عامة لكل قضية ذات معنى ، أى تكون دالة صدق لقضايا أولية موضحاً الصورة العامة لدالة الصدق في العبارة السادسة ، ثم يختم رسالته بالعبارة السابعة التي ينصحن فيها بأن نسكت عن الكلام إذا لم نستطع أن نقول كلاماً يأخذ شكل الصورة العامة لدالة الصدق الواردة في العبارة السادسة التي تعبر عن الصورة العامة للقضايا ذات المعنى .

• • •

فلسفة فتنجشتين في الرسالة :

يمكننا أن نعرض بإيجاز لأهم أفكار فتنجشتين الواردة في رسالته — وخاصة ما يتعلق منها بالفلسفة والمنطق وكانا موضع اهتمامه الرئيسى فيها — من خلال عرضنا لتحليلاته المختلفة ، وذلك على النحو الآتى :-

أولاً : معنى الفلسفة ووظيفتها :

يربط فتنجشتين بين الفلسفة والتحليل ، وهو بذلك يعطى للفلسف ببدأً جديداً غير الأبعاد التي كانت تستخدم في إقامة نسقات فكرية ميتافيزيقية متهاسكة . فالفلسفة عنده منهج يتبع وأسلوب يصطانع في تناول المشكلات وليس تفكيراً تأملياً مجرداً يهدف إلى إقامة نسقات مثالية ، إنها طريقة لحل مشكلات الفلسفة لا إلى خلق مشكلات جديدة وإضافة صعوبات أخرى في طريق الفكر الإنسانى . إنها تحليل للمشكلات عن طريق تحليل عبارات اللغة التي نصوغ فيها تلك المشكلات وقد عبر فتنجشتين عن ذلك المعنى بقوله في العبارة رقم ٤١٢ « إن موضوع الفلسفة هو التوضيح المنطقي للأفكار .

فالفلسفة ليست نظرية من النظريات ، بل هي فاعلية . ولذا يتكون العمل الفلسفى أساساً من توضيحات ، ولا تكون نتيجة الفلسفة عدداً من القضايا الفلسفية إنما هي توضيح للقضايا . فالفلسفة يجب أن تعمل على توضيح وتحديد الأفكار بكل دقة ، وإلا ظلت تلك الأفكار معتمة ومبهمة — إذا جاز لنا هذا الوصف .

والتحليل عند فتنجشتين هو السمة البارزة في فلسفته ، بل إن بعض مؤرخي الفلسفة المعاصرة — مثل ماكويل — يذهبون إلى أننا نستطيع أن نتكلم لأول مرة بطريقة صحيحة عن وجود فلسفة للتحليل حينما نتكلم عن فلسفة فتنجشتين .

وهو يستخدم التحليل كمنهج في الفلسفة لا كغاية فلسفية ، فهو لا يستهدفه مجرد تقسيم العالم إلى عدد من الوقائع ، أو لرد اللغة إلى عدة قضايا ، إنما يستخدمه كى يوصله إلى غاية أبعد من ذلك ، هي توضيح المشكلات الفلسفية — وخاصة الميتافيزيقية — التي إذا حللتها زال عنها كل غموض ، وانضح أنها مشكلات زائفة ، أو أنها ليست بمشكلات أصلاً.

والتحليل عند فتنجشتين لا يضيف إلى معرفتنا معرفة جديدة ، ولا تنتج عنه مبادئ جديدة ، بل هو مجرد طريقة توضح ما نقوله — لكى تثبت بناء عليها — ما له معنى من كلامنا وما لا معنى له .

ومنهج التحليل عند فتنجشتين كما يتمثل في « الرسالة المنطقية الفلسفية » ، يعتمد على رد ما هو مركب إلى عناصره الأولى ، أو وحداته الأولية البسيطة التي لا تنحل إلى ما هو أبسط منها . فالعالم عنده بناء على ذلك ينحل إلى وقائع (عبارة رقم ١٠١) ، والوقائع تنحل إلى أشياء أو بسائط (عبارة رقم ٢٠١) ، كما أن اللغة تنحل إلى مجموعة من القضايا الأولية (٤٠٥٢) والقضية الأولية تنحل إلى أسماء (٤٠٢٢) وهكذا .

ثانياً : تحليل العالم :

يبدأ فتيجنشتين رسالته المنطقية الفلسفية بالحديث عن العالم في حين أن الغرض الأساسي من فلسفته في هذه الرسالة هو تحليل اللغة ، وبيان كيف يكون سوء فهمنا لمنطقها هو السبب في كثير من مشكلات الفلسفة . وكان الأولى به أن يبدأ بحثه باللغة وتحليلها إلا أنه فضل أن يبدأ بتحليل العالم . وأرجح أن يكون مرجع تفضيله هذا إلى أن تحليل اللغة بالطريقة التي ذهب إليها في رسالته يستلزم تحليل العالم أولاً لأن صدق أو كذب القضايا الأولية التي تنحل إليها اللغة إنما يتوقف على مدى مطابقتها ، للواقع الخارجي ، لأن القضية الأولية ليست إلا وصفاً لواقعة من الوقائع التي ينحل إليها العالم .

والعالم عند فتيجنشتين « هو جميع ما هنالك » (عبار رقم ١) ، فهو يتكون من كل ما هو موجود ، وإن كان وجود هذه الموجودات يتبدى في شكل وقائع لا في شكل أشياء بسيطة منفصلة . ولذا فالعالم عنده « هو مجموع الوقائع لا الأشياء » (١، ١) ، أي أن الواقعة هي الوحدة الأولى التي ينتهي إليها تحليل العالم وإن كانت هي نفسها تنحل بدورها إلى أشياء . وهو في هذا يتفق مع رسل الذي يذهب في « فلسفة الذرية المنطقية » إلى أن « العالم الخارجي لا يمكن وصفه وصفاً كاملاً بواسطة مجموعة من الأشياء المفردة ، بل يجب أن نتدخل في اعتبارنا أيضاً هذه الأشياء التي أسميناها بالوقائع » ، فالواقعة عند رسل ليست شيئاً جزئياً ، بقدر ما هي مركبة من شيء (أو أكثر) بالإضافة إلى صفاته وعلاقته .

كما يتفق كذلك مع تشالز بيرس الذي يذهب إلى أن الوجود الخارجي يتعلق أولاً بالوقائع ولا يتعلق بالأشياء إلا من حيث عناصر هذه الوقائع .

ثالثاً : تحليل الوقائع :

لا يكاد القارئ لرسالة فتيجنشتين يجد تعريفاً محدداً لمعنى الواقعة ، إنما يمكن القول بأنها هي ما تجعل القضية صادقة أو كاذبة . وهو يستخدم كلمة واقعة في رسالته على أكبر من نحو : -

(١) فالواقعة إما مركبة (fact) Tatsache تتكون منها وقائع أخرى أبسط منها وإما بسيطة لا تتكون من وقائع أخرى أبسط منها ، ويسمينا فتيجنشتين بالواقعة الذرية Sachverhalt . والوقائع الذرية هي : -

١ - أبسط ما يمكن أن ينحل إليه الوجود الخارجي فإذا قلت مثلاً « سقراط حكيم » جاء هذا القول مبعراً عن واقعة ذرية ، أما إذا قلت « سقراط حكيم وأفلاطون تلميذه جاء قولك مبعراً عن واقعة مركبة لا واقعة ذرية بسيطة .

٢ - على من كونها أبسط وحدات ينتهي إليها تحليلنا للعالم ، إلا أنها هي في حد ذاتها مما يمكن تحليله . وليس في هذا تناقض ، فالواقعة الذرية بسيطة من حيث أنها أبسط مستوى من الوقائع يمكن أن ينتهي إليه تحليلنا للعالم ، وهي مركبة بمعنى أنها تتكون من أشياء أو عناصر بسيطة . وهذا ما يفسر لنا قول فتيجنشتين « إن العالم مجموع الوقائع لا الأشياء » (عبارة رقم ١) لأن الأشياء بالنسبة له ليس لها وجود مستقل منفصل عن الوقائع التي تدخل في تكوينها - « فمن جوهر الشيء أن يكون مكوناً ممكناً لواقعة ذرية ما » (٢، ١١) - ولذا فالأشياء تتضمن إمكان حملها لأية حالة من حالات الواقع (٢، ١٤) - « وكما أننا لا نستطيع تخيل الأشياء المكانية خارج المكان ، ولا الأشياء الزمانية خارج الزمان ، فكذلك لا نستطيع أن نتخيل شيئاً ما معزولاً عن إمكان ارتباطه بأشياء أخرى (٢، ١٢١) وعلى ذلك

فالشئ في ذاته ليس له وجود منفصل عن الواقعة، بمعنى أن ما له وجود هو الوقائع لا الأشياء، وإن كان وجود الوقائع معتمداً على وجود الأشياء .

٣- أنها مستقل بعضها عن بعض بحيث أننا « لانستطيع من وجود أو عدم وجود واقعة ذرية ما أن نستنتج وجود أو عدم وجود واقعة ذرية أخرى » (٢،٠٦٢) فن وجود واقعة ذرية ولتكن في (الكتاب أزرق) مثلاً لانستطيع أن نستنتج وجود واقعة أخرى لـ (الكتاب على يمين القلم) أو عدم وجود واقعة أخرى مثل مـ (الكتاب بين القلم والمخبرة) إذ ليست هناك ضرورة منطقية ولا واقعية تستلزم مثل هذا الاستدلال .

٤- أنها مكونة من أشياء مرتبطة بعلاقات معينة وليست مجرد مجموعة من الأشياء ، وفي هذا الصدد يقول فتنجشتين « ان التركيبة التي قوامها أشياء هي التي تشكل الواقعة الذرية » (٢،٠٢٧٢) « ففى الواقعة الذرية تتشابك الأشياء أحدها بالآخر كحلقات السلسلة » (٢،٠٣) « أو هي ترتبط بعضها ببعض على نحو محدد » (٢،٠٣١) والطريقة التي تتشابك بها الأشياء في الواقعة الذرية يسميها فتنجشتين ببنية الواقعة ، أما إمكان ترابط الأشياء على نحو معين ، أى إمكان قيام هذه البنية فيسميه بصورة الواقعة : وعلى ذلك فبنية الواقعة تتعلق بالواقعة نفسها ، بينما صورة الواقعة تتعلق بالأشياء التي تتكون منها هذه الواقعة وبإمكان ترابط هذه الأشياء على هذا النحو أو ذاك ، أى في هذه الواقعة أو تلك .

٦- هي ليست ثابتة بل متغيرة ، أما الثابت فهي الأشياء التي تتكون منها الوقائع الذرية ، ويعبر فتنجشتين عن هذا المعنى بقوله في العبارة رقم ٢،٠٢٧١ « ان الشئ هو الثابت ، وهو الموجود ، أما المتحول المتغير فهو البناء المركب من أشياء » والتركيبية التي قوامها أشياء هي التي تشكل الواقعة الذرية . ولتوضيح

ذلك أقول : لو كانت أمامي ثلاثة أشياء أرمز لها بالرموز ا ، ب ، ح مرتبة على النحو التالي في واقعة ذرية (ب بين ا ، ح) فإن هذه الواقعة يمكن أن تتغير بتغير العلاقة الموجودة بين العناصر التي تكونها ، فتصبح مثلاً (ا بين ب ، ح) وتكون هذه واقعة جديدة غير الواقعة الذرية الأولى . وقد تتغير هذه الواقعة الجديدة فتصبح مثلاً (ح بين ب ، ا) وهي واقعة تختلف عن الواقعتين السابقتين .. وهكذا ظلت ا ، ب ، ح ثابتة بينما تغيرت الوقائع بتغير الروابط التي تربط بين هذه العناصر الثابتة .

(ب) والواقعة أيضاً إما أن تكون موجبة فتشير إلى ترابط الأشياء على نحو معين في الواقع الخارجي كأن أقول (القلم على يمين الكتاب) ويكون القلم موجوداً بالفعل على يمين الكتاب . وإما أن تكون سالبة فلا تمثل الطريقة التي توجد بها الأشياء في الواقع الخارجي ، وفي هذا الصدد يقول فتنجشتين ان « وجود الوقائع الذرية أيضاً يسمى بالواقعة الموجبة وعدم وجودها يسمى بالواقعة السالبة » (عبارة رقم ٢،٠٦) . ولتوضيح ذلك نفترض أن العالم كله يحتوي على ثلاثة أشياء هي ا ، ب ، ح نسميها على التوالي بالرموز التالية : ل ، م ، ن في هذه الحالة يمكننا أن نكون القضايا الذرية الآتية :

١- ل م بحيث تشير إلى الواقعة الذرية المكونة من ا ، ب ولنرمز لها بالرمز ق .

٢- م ن بحيث تشير إلى الواقعة الذرية المكونة من ب ، ح ولنرمز لها بالرمز ق .

٣- ل ن بحيث تشير إلى الواقعة الذرية المكونة من ا ، ح ولنرمز لها بالرمز ق .

ولنفرض أن القضيتين الأوليتين ل م ، م ن فقط صادقتان ، أما القضية الأخيرة (ل ن) فهي كاذبة . في هذه الحالة سيكون العالم مكوناً من

واقعتين ذريتين فقط هما ق₁ ، ق₂ بحيث يعبر اتصالهما معاً عن كل الصديق الموجود في العالم .
لكن قد يكون هناك من يعترض على ذلك القول بأننا أضلنا في حديثنا عن العالم شيئاً آخر بالإضافة إلى ق₁ ، ق₂ هو عدم وجود الواقعة المكونة من ١ ، ٢ .
في هذه الحالة يمكن القول بأن العالم مكون من ثلاث وقائع هي : ق₁ ، ق₂ ، لا ق₃ وسنحتاج بالتالي إلى قضية سالبة لا موجبة لكي نعبّر بها عن لا ق₃ أو عن عدم وجود ق₃ . ولكن لكي يكون قولنا هذا صحيحاً ، لا بد - بناء على رأي فتجنشتين - أن يكون هناك في الواقع الخارجى ما يجعل هذه القضايا صادقة ، لأنه « إذا كانت القضية الأولية صادقة ، كانت الواقعة موجودة ، وإذا كانت كاذبة ، كانت غير موجودة » (عبارة رقم ٤,٢٥) ، وهو شرط متوفر بالنسبة للقضيتين الأوليتين (ل م) ، م ن اللتين تعبران عن الواقعتين ق₁ ، ق₂ على التوالي ، لكنه لا ينطبق على القضية الثالثة لا (١ >) التي عبرنا عما تشير إليه بالرمز لا ق₃ . إلا أن الرمز لا ق₃ لا يعنى وجود الواقعة ، أو هو يعنى عدم وجود مجموعة مكونة من ١ ، ٢ في الواقع الخارجى .

واقعتين ذريتين فقط هما ق₁ ، ق₂ ، كما كان الحال في تحليله للعالم حين انتهى إلى الوقائع لا إلى الأشياء . « فاللغة هي مجموع القضايا » (عبارة رقم ٤,٠٠١) كما أن العالم هو مجموع الوقائع لا الأشياء .

هذا ويمكننا تصنيف القضايا عند فتجنشتين طبقاً لتحليلاته المختلفة في الرسالة على النحو الآتى

١ - من حيث الصدق أو الكذب - وهي عنده ثلاثة أنواع :

١ - قضايا صادقة بالضرورة ، أى صادقة في جميع الظروف الممكنة ولا يمكن تصورها على أنها كاذبة على الإطلاق ، ويسمى فتجنشتين بقضايا تحصيل الحاصل Antology ويمثل لها بالقضايا المنطقية والقضايا الرياضية ، مثل قضايا الذاتية (١ ، ٥ ، ١) ، والقضية الرياضية (٢ = ٢ + ٤) . وهي في نظره لا تقول شيئاً فاني لا أعرف مثلاً أى شيء عن حالة الطقس حين أعرف أن السماء إما أن تمطر أولاً تمطر (عبارة رقم ٤,٤٦١) .

٢ - قضايا كاذبة بالضرورة ، أى كاذبة في جميع الظروف الممكنة ، ولا يمكن تصورها على أنها صادقة على الإطلاق ، ويسمى فتجنشتين بقضايا التناقض مثل (١ لا ١) أو (أ هو ب ولا ب) .

٣ - قضايا يمكن تصورها على أنها صادقة ، كما يمكن تصورها على أنها كاذبة ويكون حكمنا في هذه الحالة على مدى صدق القضية أو كذبها بناء على مقارنتها بالوجود الخارجى الذى تصوره ، وهي القضايا التجريبية أو قضايا العلوم .

ب - من حيث المعنى .. وهي عند فتجنشتين على نوعين هما :

١ - قضايا لها معنى لأنها تقول شيئاً مثل القضايا

إذن ما الذى يقابل هذه القضية السالبة في الواقع الخارجى ؟ يقابلها عدم اتصال ١ ، ٢ في مجموعة واحدة أو واقعة ذرية معينة ، وعلى ذلك فإن صدق لاق ٣ يرجع إلى انفصال ١ عن ٢ أو عدم وجود واقعة مكونة من ١ ، ٢ في العالم .

رابعاً : تحليل اللغة :

كان تحليل اللغة هو الهدف الأساسى من فلسفة فتجنشتين بصفة عامة ، وفي رسالته المنطقية الفلسفية على وجه الخصوص ، وقد عبر فتجنشتين عن هذا المعنى في أكثر من موضع من رسالته . وهو حين يحلل اللغة ينتهى إلى أن أبسط وحدة نصل إليها هي

التجريبية أو العلمية التي تتحدث عن الوجود الخارجى فتجيب رسماً له سواء كان هذا الرسم مطابقاً للواقع فتكون القضية صادقة ، أو غير مطابق للنمو الذى يوجد عليه الواقع فتكون كاذبة .

٢ - قضايا خالية من المعنى لأنها لا تقول شيئاً بحكم تركيبها مثل قضايا الرياضة وقضايا المنطق وكذا قضايا الميتافيزيقا .

فقضايا المنطق تحصيلات حاصل ولذا فهى قضايا تحليلية لا نتجربنا خبراً جديداً عن الواقع الخارجى وهذا ما يفسر السبب فى « عدم إمكان إثباتها تجريبياً بأكثر من رفضها تجريبياً ، إذ لا يكفى فى قضية المنطق استحالة أن تنقضها أية خبرة ممكنة ، بل لابد لها كذلك من استحالة أن تؤيدها أية خبرة ممكنة » (العبارة رقم ١٢٢٢) .

وقضايا الرياضيات أيضاً تحصيلات حاصل طالما أن « الرياضيات هى إحدى طرق المنطق » عبارة رقم ٦٢٢ عند فتنجشتين . ولذا فصدق أو كذب القضية التحليلية رياضية كانت أو منطقية لا يتوقف على مدى مطابقتها للواقع الخارجى للتحقق مما إذا كانت تصوره أم لا ، بل يتوقف على مدى اتساق القضية نفسها بحيث لا تبدو متناقضة بذاتها ، كما هو الحال فى القضية الرياضية التى هى عبارة عن معادلة ، والتي يكون صدقها موجوداً فى القضية نفسها لا بمقارنتها بالوجود الخارجى . فإذا كان هناك تعبيران يرتبط أحدهما بالآخر بعلاقة التساوى ، مثل $٦ + ٤ = ١٠$ فإن ذلك يعنى إمكان استبدال أحدهما بالآخر ويلزم أن يكون ذلك بارزاً فى التعبيرين معاً على حد سواء » عبارة رقم ٦٢٢ أى واضحاً فى القضية نفسها .

وهذا ما ينطبق أيضاً عند فتنجشتين على قضايا الفلسفة وخاصة الميتافيزيقا « فعظم القضايا والأسئلة التى كتبت عن أمور فلسفية ليست كاذبة ، بل هى

خالية من المعنى . فلما نستطيع إذن أن نجيب عن أسئلة من هذا القبيل ، وكل ما يسعنا هو أن نقرر عنها أنها خالية من المعنى عبارة رقم ٤٠٠٣

ح - من حيث الكيف .. وهى عنده نوعان هما :

١ - قضايا موجبة - وهى التى تفيد فى رسالة فتنجشتين أن الأشياء الموجودة فى العالم الخارجى قد ترابطت على نحو معين فى واقعة ما ، وهى قد تكون صادقة إذا جاء ما تفيد به القضية رسماً صادقاً للواقع الخارجى وإلا كانت كاذبة .

٢ - قضايا سالبة - وهى التى تفيد فى فلسفة فتنجشتين أن الأشياء الموجودة فى العالم الخارجى ليست مترابطة على نحو معين مثل « (لا) (ا) ب » وهى أيضاً قد تكون صادقة أو كاذبة بقدر تصورها للواقع الخارجى .

د - من حيث الكم .. وهى عند فتنجشتين .. على نوعين رئيسيين هما : -

١ - قضايا تصدق كل منها على واقعة واحدة فقط ، كأن أقول « سقراط مفكر » أو « القلم على عین الكتاب » ، وهى ما يسميها فتنجشتين بالقضية الأولية Elementarsatz ويسمىها رسل بالقضية الذرية فى مقابل الواقعة الذرية التى ترسمها هذه القضية .

والقضية الأولية هى الوحدة النهائية التى يرتد إليها تحليلنا للغة ، هى أبسط أنواع الكلام لأنها تعبر عن أبسط أنواع الوحدات التى ينحل إليها الوجود الخارجى وهى الوقائع الذرية . وكما أن الواقعة الذرية تتكون من أشياء ، فكذلك تتكون القضية الأولية من أسماء تشير إلى هذه الأشياء . وكما أن الأشياء ترتبط فى الواقعة الذرية على نحو أو آخر ، فكذلك ترتبط الأسماء فى القضية الأولية على هذا النحو أو ذاك بحيث تجب رسماً صادقاً أو كاذباً لما هو موجود فى الواقع .

القائلة بأن حدود اللغة (اللغة التي أفهمها) تعني حدود عالمي (عبارة رقم ٥,٦٢) وهو بهذا يقترب إلى حد كبير من مثالية بركلي الذاتية المتمثلة في عبارته المشهورة « الوجود هو الإدراك » ، وإن كان قد حاول التخلي عن هذه الفكرة في فلسفته المتأخرة بعد ذلك .

والقضايا الأولية مستقلة منفصلة كل واحدة منها عن الأخرى ، شأنها شأن الوقائع الذرية التي ترسمها : فلا تتضمن أية واحدة منها واحدة أخرى ولا تتناقض معها لأن كل استدلال منطقي يتعاق عند فتجنشتين بالقضايا غير الأولية ، « فلا يمكن استدلال أية قضية أولية من قضية أولية أخرى » (عبارة رقم ٥,١٣٤) ، فإذا قلت مثلاً « سقراط حكيم » فإن صدق هذا القول لا يستلزم صدق أو كذب القول بأن « سقراط أثيني » . أو بالعكس والقضايا الأولية تنصف كذلك بصفة بالغة الأهمية بالنسبة لمنطق فتجنشتين ، وهي أنها أسس صدق للقضايا ، بمعنى أن القضايا الأولية هي التي تخلع الصدق على القضايا (عبارة رقم ٥,٠١) طالما أن « القضايا هي كل شيء » ينتج عن القضايا الأولية (عبارة رقم ٤,٥٢) بناء على اتخاذ إجراء معين إزاء إحدى القضايا الأولية : وبمثل فتجنشتين لهذه الإجراءات بالنفي والجمع المنطقي والضرب المنطقي والتعميم . . . مثل (لاق) التي تنتج عن القضية الأولية (ق) بتطبيق إجراء النفي .

٢ - قضايا لا تصدق كل منها على واقعة واحدة بل أكثر ، ولذا فهي ليست قضايا بالمعنى الحقيقي عنده بقدر ما هي دالات صدق للقضايا الأولية . وفتجنشتين يستخدم كلمة دالة function بالمعنى الذي تستخدم به في الرياضيات ، فإذا كانت $V = ٢$ س + ٥ مثلاً ، كانت ص هي دالة س بمعنى أن قيمة ص هي التي تحدد قيمة ص ، وأن قيمة ص تتوقف على قيمة س ،

والقضية الأولية لا ترسم الواقعة الذرية فقط عند فتجنشتين ، بل إنها تثبت وجودها أيضاً ، وهو في هذا الصدد يقول « إن أبسط قضية ، أي القضية الأولية ، تثبت وجود واقعة ذرية ما » عبارة رقم ٤,٢١ . فإذا قلت « أ على يمين ب » فهذا يعني أن الوجود الخارجي موجود على النحو الذي أوضحته . وهو كون أ على يمين ب بالفعل - إذا كانت القضية صادقة . وهذه الفكرة عند فتجنشتين هي ما تسمى باسم النظرية التصويرية للغة ، تلك النظرية التي أزم عنها قوله بفكرة تحقيق القضية - وهي الفكرة المعروفة في الفلسفة الوضعية بمبدأ التحقق - على الرغم من أنه لا يكاد يستخدم كلمة تحقق verification في فلسفته ، بل نجده يستخدم كلمة مقارنة فيقول في العبارة رقم ٢,٢٢٣ « لكي نكشف عما إذا كان الرسم صادقاً أو كاذباً يلزم أن نقارنه بالوجود الخارجي » ، كما يقول في العبارة رقم ٤,١٥ « أن الوجود يقارن بالقضية » . كما ترتب أيضاً على قول فتجنشتين بتحقيق القضية بمقارنتها بالواقع الخارجي ، نتيجة على جانب كبير من الأهمية في فلسفته وهي القول بالأنا وحيدة (أو الأنانية Solipsism) أو بالمثالية الذاتية المتطرفة : إذ أن مقارنة الوجود بالقضية تم حين تكون الواقعة حاضرة في خبرة الشخص الذي يعقد هذه المقارنة حتى يمكنه معرفة ما إذا كان هناك تطابق بينهما أم لا . ولما كانت الخبرة شيئاً خاصاً بالضرورة ، شيئاً شخصياً أو ذاتياً ، لزم عن ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يعرف شيئاً على أنه موجود بامتثاله ما يقع في خبرته هو ، الأمر الذي يجعل معنى العالم مقصوراً على ما يدركه الإنسان ويستطيع أن يعبر عنه باللغة . كما يضيف من مفهوم اللغة ذات المعنى فتصبح محدودة بما يقوله الإنسان من قضايا تعبر عما يقع في خبرته هو . وقد عبر فتجنشتين عن هذه النتيجة بقوله « إن معنى أن العالم هو عالمي ، يتبدى في الحقيقة

فلو كانت قيمة س هي ٣ في المثال السابق ، كانت ص = ١١ . وهذا هو نفس المعنى الذي يلزم إليه فتجنشتين حين يقول إن جميع القضايا عبارة عن دالات صدق للقضايا الأولية ، بمعنى أن صدق هذه القضايا أو كذبها يتوقف على صدق أو كذب القضايا الأولية . فإذا كانت كل من ق ، ل قضية أولية ، كانت العبارة (ق ، ل) وكذا العبارة (إما ق أول) مثلاً دالة صدق لكل من القضيتين الأوليين ق ، ل بمعنى أن صدق أو كذب أي من العبارتين يتوقف على صدق أو كذب ق وكذا على صدق أو كذب ل . ومثل هذا النوع من القضايا (أو بالأحرى دالات الصدق تبعاً لنظرية فتجنشتين) ينقسم بدوره إلى نوعين في « الرسالة » هما :

(١) قضايا مركبة . . . وتحدث عما هو مركب من واقعتين أو أكثر ، ولذا فهي تتكون من أكثر من قضية أولية واحدة . مثل قولي « سقراط حكيم وأفلاطون تلميذه » الذي يتكون من قضيتين أوليين هما « سقراط حكيم » و « أفلاطون تلميذ سقراط » أو قولي « القلم على يمين الكتاب وهو قلبي » وهو قول يتكون من قضيتين أوليين هما : « القلم على يمين الكتاب » و « القلم قلبي » .

والقضايا المركبة ليست إلا دالات صدق للقضايا الأولية التي تتركب منها عند فتجنشتين ، بمعنى أن صدقها أو كذبها إنما يتوقف على صدق أو كذب هذه القضايا الأولية .

ب - قضايا عامة (كلية) . مثل قولي « الإنسان مفكر » ، وهو قول لا يشير إلى فرد أو جزئية واحدة بل يتكلم عن صفة نصف بها أو خبر نخبر به عن أي فرد أو جزئية يمكن أن يندرج تحت فئة بعينها هي موضوع الحديث . ومثل هذه القضايا ليست بالقضايا الأولية لأنها لا تشير إلى واقعة ذرية واحدة ،

بل هي دالات صدق لقضايا أولية أجرينا عليها لإجراء التعميم بحيث يتوقف صدقها أو كذبها على صدق أو كذب القضايا الأولية التي عممناها . فإذا كانت لدى قضية أولية مثل « سقراط عاقل » وأجريت عليها إجراء التعميم فوضعت اسمها متغيراً (إنسان) بدلا من الاسم الثابت (سقراط) لحصلت على القضية الكلية التالية « الإنسان عاقل » وهي عند فتجنشتين مجرد دالة قضية وليست بالقضية ، لأن صدقها أو كذبها يتوقف على صدق أو كذب القضايا الأولية التي تتكون من أسماء مثل سقراط ، محمد ، هي كل قيم متغير القضية الكلية (أي الإنسان) .

• • •

موضع الرسالة في فلسفة فتجنشتين :

تعتبر الرسالة تعبيراً صادقاً عن فلسفة فتجنشتين في المرحلة الأولى من مراحل تفكيره الفلسفي . وكان يعتقد - وقت كتابته إياها - أنه قد توصل بها إلى حل جميع مشكلات الفلسفة فزاه يقول في مقدمة الرسالة إن الأفكار التي سبقت هنا يستحيل الشك في صدقها ، أو هي أفكار مقطوعة بصدقها ، ولذا فأنى أعتقد أن ما هو أساس في مشكلات الفلسفة قد تم حله نهائياً . إلا أنه بدأ يراجع أفكاره مرة أخرى بعد أن تبين فيها بعض الأخطاء ، نتيجة لمناقشاته مع بعض أعضاء جماعة فينا مثل شليك وفابيزمان ، فضلاً عن نقد بيروسرافا Sraffa وفرانك رافري الذي يعطى له فتجنشتين أهمية كبرى في مقدمة كتابه « أبحاث فلسفية » .

وبما لاشك فيه أن أهم نقد وجه إلى رسالة فتجنشتين كان منصباً على الفكرة الرئيسية التي تدور حولها رسالته ، وهي معرفة حدود اللغة حتى لا تتكلم فيما لا يمكن الكلام فيه . ولا نقول إلا ما يمكن أن يقال . ولما كان كل ما يمكن قوله عند فتجنشتين

٢ - وإما ألا نعتقد في صحة هذه العبارات ،
وفي هذه الحالة لا نستطيع أن نحكم على القضايا
الواردة في الرسالة بأنها خالية من المعنى .

معنى آخر أننا نجد دوراً في هذا النقد ، لأن
المعيار الذي أحكم بناء عليه مخلو قضايا الرسالة من
المعنى ، هو نفسه أحد أجزاء الرسالة ، فهو أيضاً
خال من المعنى وبالتالي لا يصحح لأن يكون معياراً
استخدمه في الحكم على غيره طالما أنه هو نفسه لا يفيد
أى معنى .

والرأى عندى أن فتجنشتين حين قال إن عباراته
الواردة في الرسالة على الرغم من أنها خالية من المعنى
إلا أنها تعتبر لغواً له أهمية ، كان يفيد نفس المعنى
الذي ذكره من قبل عن تحصيل الحاصل ، وعن معنى
الصفير في الرياضة . فعلى الرغم من أن قضايا تحصيل
الحاصل والتناقض لا تفيد شيئاً ولا معنى لها عند
فتجنشتين ، إلا أنها ليست خالية تماماً من المعنى « إنها
جزء من الجهاز الرمزي ، على نفس النحو الذي
يكون فيه « الصفير » جزءاً من الجهاز الرمزي الخاص
بالحساب » (عبارة رقم ٤،٤٦١١) . وكان فتجنشتين
كان يريد القول بأننا كما نستخدم الصفير في الجهاز
الرمزي الخاص بالحساب على الرغم من أنه لا يشير
إلى فئة معينة من الأشياء ولا يعتبر متغيراً شأنه شأن
بقية الأعداد الأخرى ، وكما أننا نستخدم تحصيل
الحاصل وكذا التناقض في الجهاز الرمزي الخاص
بالقضايا وإمكانات الصدق ، فكذلك نحن نستخدم
قضايا الفلسفة لكي نزقق فوقها ونجاوزها على الرغم
من أنها في نظره خالية من المعنى .

وعلى العموم ، فقد بدأ فتجنشتين يراجع أفكاره
الفلسفية الواردة في « الرسالة » فيما بعد ومن بينها
أفكاره عن اللغو والخلو من المعنى وكذا فكرته عن
الذرية المنطقية ، ونظريته التصويرية للغة ، وفكرته

هي قضايا العلم الطبيعي التي تتناول العالم الخارجي ،
كانت قضايا الفلسفة والميتافيزيقا بوجه خاص خالية
من المعنى ، وكانت قضاياها الواردة في الرسالة نفسها
مجرد لغو لا معنى له . ولقد كان فتجنشتين نفسه
واعياً بذلك الموقف لكنه كان يحاول تبريره فيذهب
إلى أنها قضايا ذات فائدة على الرغم من خلوها من المعنى
لأنها تكون في نظره أشبه بالدرجات التي يستخدمها
الإنسان في الصعود إلى أعلى فيتجاوزها ، ثم يلقى
بالسلم بعيداً بعد أن يكون قد حقق وظيفته فيقول
في هذا الصدد « إن قضاياى توضح الموقف على النحو
التالى : أن من يفهمنى سيعلم آخر الأمر أن قضاياى
كانت بغير معنى وذلك بعد أن يكون قد استخدمها
(سلماً) في الصعود ، أى صعد عليها ليجاوزها »
(عبارة رقم ٦،٥٤) .

إلا أن هذا التبرير الذى فسر به فتجنشتين
موقفه من قضايا الفلسفة لم يكن تبريراً مريحاً لدى
الكثيرين مثل كارناب وورسل وكورنفورث وغيرهم .
لكننا إذا ما ناقشنا هذه الفكرة ، فربما يتبين لنا أن
نقدنا رسالة فتجنشتين على هذا النحو وهو كذلك
يحتاج إلى تبرير ، لأننا إذا ما اعتبرنا أن قضايا الرسالة
مجرد لغو ، فسنكون قد توصلنا إلى هذا الحكم
اعتماداً على بعض عبارات الرسالة نفسها - مثل
العبارة رقم ٤،٠٠٣ ورقم ٦،٥٢٢ ورقم ٦،٥٣ التي
تفيد أن قضايا الفلسفة والميتافيزيقا خالية من المعنى .

ونحن في هذه الحالة : - ١ - إما أن نعتقد في
صحة هذه العبارات . وبالتالي يكون لها معنى . ومن ثم
فإننا نحكم على الرسالة بأنها خالية من المعنى أو مجرد
لغو . لكن هذه العبارات هي بعض عبارات الرسالة
نفسها ، فهي بالتالى خالية من المعنى شأنها شأن بقية
عبارات الرسالة ، وعلى ذلك فهي ذات معنى ، وهي
خالية من المعنى في الوقت نفسه وهذا تناقض .

عن طبيعة المعنى وفكرته عن الأنا وحدية .. وغير ذلك .

فهو مثلاً يتخلى عن فكرته التي افتتح بها «رسالته» من أن العالم ينحل إلى وقائع ذرية تتكون من أشياء أو من بسائط منطقية .. إذ أن السبب الأساسي الذي دعا فتنجشتين إلى القول بتحليل العالم إلى وقائع ، كان هو ضرورة وجود وحدات أولية ينحل إليها العالم ، لكي تقابل الوحدات الأولية التي تنحل إليها اللغة - أى أن تحليله للعالم على هذا النحو جاء تبريراً لتحليله للغة إلى مجموعة من القضايا الأولية .

ولما غير فتنجشتين من وجهة نظره بتحليل اللغة في فلسفته المتأخرة (التي تتمثل في كتابه « أبحاث فلسفية تخلى بالتالى عن فكرته السابقة في تحليل العالم .

• • •

وأخير لم يكن فتنجشتين مهتماً بالنتائج الفلسفية التي يتوصل إليها بقدر اهتمامه بالمنهج الجديد الذي يجب اتباعه في الفلسفة وهو المنهج التحليلي . ولقد تركت هذه الفكرة في كثير من الفلاسفة المعاصرين أثراً بالغاً ، فضلاً عن تأثير أفكاره الفلسفية ذاتها في فلسفة الوضعية المنطقية وفلاسفة التحليل اللغوي .

فلقد تأثر برتراند رسل بأفكار تلميذه فتنجشتين المتعلقة بالذرية المنطقية فراه يقول في مقلمة مقالته عن « فلسفة الذرية المنطقية » التي نشرت عام ١٩١٨ « انه معنى إلى حد كبير بشرح الأفكار التي تعلمها من صديقه وتلميذه السابق لدفيج فتنجشتين » .

كما كان تأثير فتنجشتين في رودلف كارناب أشد وضوحاً وخاصة فيما يتعلق بفكرته عن خلو قضايا الميتافيزيقا من المعنى ، وليس أدل على ذلك من أن كارناب خصص لهذا المعنى مقالا بعنوان « حذف الميتافيزيقا باستخدام التحليل المنطقي للغة » وهي نفس الفكرة التي دعا إليها أيضاً في مقاله « المنطق القديم والمنطق الحديث » . فضلاً عن تأثيره في آير Ayer وخاصة فكرته عن تحقيق القضية وارتباط معناها بمدى مطابقتها الواقع . وكذا فكرته عن خلو قضايا الميتافيزيقا من المعنى ، تلك الفكرة التي نجد صداها دائماً عند كل فلاسفة التحليل اللغوي المعاصرين مثل جلبرت رايل الذي ذهب في مقال له بعنوان « تعبيرات مضللة » إلى أن العبارات الميتافيزيقية من هذا النوع لأنها في حقيقتها خالية من المعنى . وهي نفس الفكرة تقريباً التي نجدها عند فايزمان وويزوم وغيرهما .



فن الحب لأوفيدوس

بمقام
الدكتور أحمد عبد الرزاق البوزيد

كلية الآداب - جامعة القاهرة

وقد ظهر شعراء الإليجي منذ سنة ٧٠٠ ق.م. ويمكننا أن نعرف الموضوعات المختلفة التي طرحتها الشعراء اليونان الأوائل مثل الأغنيات التي كان يتغنى بها وقت الشرب والموضوعات الحماسية التي تدور حول الحرب والسياسة والقصص المأخوذة من واقع الحياة أو من وضع الخيال والنقوش المسطورة على المقابر والمراثيات. وقد جعل شعراء الإسكندرية لهذا النوع من الشعر صورة أدبية مميزة وابتعدوا به عن أغراضه السابقة وأضافوا إليه صورة حية من عندهم فكان « كاليماخوس » شاعر الاسكندرية أكبر ذائع للقصيدة الشعرية القصيرة وسيد الشعر الإليجي بعد كتابته لقصيدته المعروفة « الأسباب » Aitia ، كما كتب أشعاراً عن الحب مثل قصيدته « خصلة بربليكيس » التي كتب عنها الشاعر الروماني كاتوللوس. وقد تأثر أيضاً كتاب غير كاتوللوس بشعراء الاسكندرية فكتبوا عن الحب بالشعر الإليجي .

ولكن الرومان - وليس كاليماخوس - هم أول من ابتكروا شعراً إليجياً لا يتحدثون فيه عن قصص الحب عامة بل يعبرون عن تجاربهم العاطفية الذاتية . كما نجد في كاتوللوس الذي أحب لسبيا Lesbia

كان « أوفيدوس » Ovidius شاعراً مثقفاً حمل إلينافته الواسعة سواء تلك التي أخذها عن اليونان وبخاصة شعراء الاسكندرية أو تلك التي استقها من الرومان الذين سبقوه أو عاصروه . وأعطى أوفيدوس للوزن الإليجي باتقانه وسيطرته عليه صورته النهائية واستخدمه في مجال أوسع فكتب به في الحب ، وفي مخالجات المرأة من نزعات ، وفي الشعر التعليمي ، وفي الذم وفي الأحران . ووجد أوفيدوس آذاناً صاغية من العالم الأوربي الذي استجاب لكتاباته أكثر من استجابته لأي كاتب روماني آخر .

أما عن الحب فقد كتب شاعرنا كتباً كثيرة منها كتاب في « الغزليات » Amores وآخر في « رسائل البطلات » Heroides وثالث عن « طلاء وجه المرأة Medicamina Faciei » ورابع عن « فن الحب » Ars Amatoria وخامس عن « الشفاء من الحب » Remedia Amores .

وكانت هذه الكتب جميعاً بالشعر الإليجي الذي يقوم على بيتين من الشعر ، الأول بالوزن السداسي ، والثاني بالوزن الحماسي . ومن الصعب تحديد موضوع هذا اللون من الشعر عند اليونان والرومان .

وجالوسوس الذى أحب « ليكوريس » Lycoris
وتيبوللوس الذى أحب ديليا Delia وپروپرتيوس الذى
أحب « كينثيا » Cynthia وأخيراً أوفيدىوس الذى
كان يحب « كورينا » :

فكان الشعر الإليجى هو أقوى أنواع الشعر
الصادر عن ذاتية الشاعر . وبالرغم من أن الغموض
يكتنف أصل هذا النوع من الشعر وتطوره عند الرومان
فإن كاتوللوس قد خطا في ميدانه خطوة هامة أصبح
لها تأثير كبير على من أتى من بعده من شعراء الرومان
ومن ثم على الأدب في العالم . فقد أصبح الحب أهم
موضوع للشعر الإليجى .

والشعراء الذين ينتظرون من الشاعر أن يلتزم
بتعاليم أخلاقية قد يجدون في أوفيدىوس شاعراً
مستهتراً . ولكن علينا أن نلاحظ أنه كان طبيعياً في
تفكيره ومصطلحاته ، وأنه كان يكتب للتسلية التي
هى من أهداف الأدب . وقد كان الحب موضوع
حديث من سبقوه منذ كتابة « الملاحم » حتى « الدراما » .
فلم يكن في كتابات « أوفيدىوس » ما يثير الشهوات
أو ما يتنافى الأخلاق . حقاً إنه كان يكتب عن الحب
ولكنه كان يكتب عن تجربة في أمر خطير في عالمنا
وهو جنس النساء ولم يظهر أى شاعر روماني معرفة
عميقة بهذا الموضوع أكثر منه ، وكالم يظهر أى
شاعر مقلدة مثله على سرد القصص .

ولد « پوبليوس أوفيدىوس ناسو » Publius Ovidius
Naso في ٢٠ مارس سنة ٤٣ ق.م بمدينة « سولمو »
Sulmo التي يطلق عليها الآن اسم « سولمونا »
Sulmona وتبعد نحو تسعين ميلاً شرقى روما ، وتقع
في مقاطعة « پابليجنى » Paeligni في وسط إيطاليا
ويحدثنا أوفيدىوس عن جوها البهيج وجداولها الكثيرة
وكانت أسرته من طبقة الفرسان .

ومعظم معلوماتنا عن حياته مستمدة من مقطوعة
له في كتابه « الأحزان » Tristia (الأحزان -

الكتاب الرابع - المقموعة العاشرة) بالإضافة إلى
ماغيرنا « سنكا الأكبر » و « كوينتيليانوس » عن
تعاليم البلاغية ومميزاته بوصفه شاعراً . أهم والده
بترينته وأراد له العمل بوظائف الدواة فأرسله مع
أخيه الذى كان يكبره بسنة إلى روما ليتعلم فن البلاغة
والخطابة حيث درس على يد « أرييلوس فوسكوس »

Arrellius Fuscus و « پوركيوس لاترو » Porcius Latro
وقد أظهر أوفيدىوس ميلاً إلى الشعر أكثر من ميله إلى
الخطابة . وبعد ذلك ذهب إلى أثينا كغيره من أبناء
الأغنياء إذ كانت أثينا تعتبر جامعة العالم الروماني .

وذهب أيضاً إلى آسيا الصغرى مع صديقه الشاعر
« ماکر » Macer وعند عودته التحق ببعض الوظائف
الصغيرة مثل وظيفة التريومفير كائنتاليس
Triumvir Capitalis (١) والكتومفير Centumvir (٢)

ولكنه سرعان ما ترك هذه الوظائف المضيئة التي أرادها له
أبوه واحتشد لكتابة الشعر فقد كانت لديه فطرة قوية
نحو الشعر منذ الصغر وقد شجعه على ذلك كونه
الوارث الوحيد لامتلاكات أبيه بعد وفاة أخيه . وطرق
أوفيدىوس المحب للحياة السهلة المريحة موضوع الحب
في أشعاره التي كتبها بالوزن الإليجى ، هذا الوزن
أصبح على يديه في صورة جديدة تخالف ما كان عليه
في شعر « پروپرتيوس » و « تيبوللوس » فكان هذا
الوزن أكثر صفلاً وصغماً من ذي قبل ، ينساب في
سرعة وخفة ورونق .

وقد جعله مناسباً لانتاج السريع ذى التأثير المشيع
دون أن يضمته تعمقاً كبيراً . وهكذا ابتداء عهد
جديد وشعر الناس بوجوده عندما نشر أوفيدىوس

(١) يتكون هذا المنصب من ثلاثة قضاة يفصلون في المنازعات
بين العبيد الأشخاص من الطبقات الدنيا ويباشرون السجن ويحرمون
موت المحرمين .

(٢) محكمة من مائة شخص يفصلون في القضايا الخاصة بالملكية
والوراثة .

حوالى سنة ١٦ ق. م. طبعته الأولى من « الغزليات » Amores وقد كتب كتباً أخرى فكانت محاولته الثانية هى « رسائل البطلات » وهى مجموعة من الرسائل الأدبية الشعرية ترفعها صيدات من الأساطير إلى أزواجهن الغائبين أو محبين. وطرق بعد هذه الرسائل موضوعاً تعليمياً عن زينة المرأة فكتب عن « طلاء الوجه » ، وبعد السنة الأولى الميلادية نشر مؤلفه عن « فن الحب » قصدياً أن يعالج الحب كعلم ثم كتب « الشفاء من الحب » عندما أحس أن مؤلفه « فن الحب » لا يروق الامبراطور « أوغسطس » الذى كان يهدف إلى تقويم الأخلاق. ثم تحول إلى موضوع آخر أكثر جدية فجمع عدة قصص من الأساطير تحدث فيها عن تحول شخص أو شيء إلى شكل مغاير وصاغها بدريته على سرد القصص فى إطار مناسب أكسبها نوعاً من الوحدة ، وهذه القصص احتواها كتابه المسمى « التغيرات » Metamorphoses وفى نفس الوقت الذى كان مشغولاً فيه بكتابة التغيرات كان يكتب كتابه عن « التقويم الرومانى » Fasti .

وبينا كان يواصل كتابته لهذا الكتاب حلت به ملمة نغصت عليه حياته إذ كان يعيش فى روما فى هدوء مع زوجته الثالثة التى برهنت على إخلاصها وولائها له ويقدره الجميع لمقدرته الأدبية إذ جاءه أمر امبراطورى سنة ٨ ميلادية وهو فى سن الخمسين بالنفى إلى « ترمى » Tomi التى تقع على البحر الأسود كما ضوِّدت جميع كتبه من المكتبات العامة فى العاصمة . وقد كان نفى أوغسطس من النوع الذى يطلق عليه « ريلجياتيو » Relegatio وهو أبسط أنواع النفى إذ أن المنفى يؤمر بأن يعيش فى بلد معينة خارج إيطاليا بينما يحتفظ بحقوقه كموطن ولا تصادر أملاكه . ويذكر أوغسطس بأن الامبراطور لم يسلبه الحياة أو الغنى أو حق المواطنة (١)

(١) Nec vitam nec opes nec ius mihi civis ademit.

ويقول فى مكان آخر إن جميع ما فعله هو أنه أمرنى بأن أترك وطن آبائى (١) . ولكن كان وقع الخبر عليه كالصاعقة فتألم كثيراً إذ كان يجب عليه أن يترك روما بمسراتها ومجتمعها الذى أحبه وكذلك زوجته ومنزله وأصدقائه إلى مكان قصى دون روما فى الحضارة والمدنية ويختلف فى اللغة والعادات.

وكان من نتائج تأثره أن أحرق وهو فى طريقه إلى المنفى بعضاً من أشعاره ومن بينها كتاب « الغزليات » الذى لم يتمكن من مراجعته جميعه ولكن لحسن الحظ كانت هناك نسخ منه فى أبلى أصدقائه الذين نشروه . ونحن لا نعرف حتى الآن السبب الحقيقى فى نفى أوغسطس . وهو نفسه يخبرنا بأن نفية يرجع إلى شيئين : « قصيدة » و « غلطة » (٢) والقصيدة هى « فن الحب » Ars Amatoria تلك القصيدة التى تتناقى مع إصلاحات أوغسطس الاجتماعية بما تحتويه من أشياء مفسدة للأخلاق . ويتضح ذلك مما يذكره أوغسطس فى الجزء الثانى من كتاب الأحران (٣) . ولكن بما أنه قدمنى ما يقرب من عشر سنين على نشر هذا الكتاب فإنه لابد وأن يكون السبب المباشر لنفيه هو الغلطة ويذكر أوغسطس بأنها غلطة error وليست جريمة (scelus) (٤) . ولكنه يلوذ بالصمت ولا يفسر لنا طبيعة هذه الغلطة بل يقول إن سبب نفيه سوف

(١) Nil nisi me patriis iussit abire fociis.

(٢) كتاب الأحران - الجزء الثانى - بطر ٢٠٧ : duo crimina, carmen et error.

(٣) Carmina fecerunt, ut me moresque notaret iam demum visa Caesar ab arte meos. Trist. 11.7.

« إن قصائدى عمات السبب فى أن قصير وصنى وأخلاق بالمار سبب الفن (فن حب) الذى ظهر لمدة طويلة خلت . كان فن الحب قد نشر فى سنة ٢ ميلادية .

Tristia I. iii. 37

(٤)

بكتاب « رسائل من بونتوس » Epistulae ex Ponto كما كان هناك مقطوعته المعروفة باسم « إيبيس » Ibis وهي قصيدة هجاء ضد شخص أراد أن تصادر أملاكه . وكتب أيضاً قصيدة تعليمية بالوزن السداسي (ذلك الوزن الذي كتب به أيضاً «التغيرات») عن الأسماك والحيوانات البحرية المختلفة في البحر الأسود . كما نسب إليه مقطوعات أخرى مثل المقطوعة المسماة « شجرة عين الجميل » Nux التي يتحدث فيها عن آلام هذه الشجرة التي يلقفها المارة بالحجارة دون جريرة ارتكبتها .

كل هذه القصائد ينقصها المرح الذي نشاهده في قصائده الأولى ونجد فيها آلامه وتوسلاته الكثيرة إلى الأباطرة فقد قضى في المنفى ما يقرب من عشرين سنة قضى منها أربعاً تحت حكم الإمبراطور تيبيريوس خليفة أوغسطس ولكنه لم يمنح الإذن بالعودة إلى إيطاليا . وهكذا مات في المنفى كسير القلب سنة ١٨ ميلادية .

أعماله

الغزليات

تحدث أوفيدوس عن محبوبته « كورينا » Corinna ولم تكن كورينا شخصية حقيقية بل كانت من نسج خيال الشاعر . وقد خالف الشاعر بذلك المأثور عن شعر الحب الإليجي . فلقد سبقه من قبل الشاعران « تيبولوس » و « پروپرتيوس » وكان كل منهما يحب معشوقته حقاً فكان الأول يحب « ديليا » Delia وكان الثاني يحب « كينثيا » Cynthia ولكن معشوقة أوفيدوس لم تكن سوى شخصية خيالية جعلها موضوعاً لتجاربه الدائمة .

ونعتقد أن شاعرنا ربما خاض من التجارب العاطفية الكثير ، وأن تجاربه هذه كانت متنوعة للمواقف رغم وحدة الشخصية التي اتخذها موضوعاً

لا يبوح به وسيكون في طي الكتمان^(١) . وعلى كل فقد آذت هذه الغلظة الإمبراطور أوغسطس^(٢) . ونظراً لأن أوفيدوس يخبرنا بأن عينيه كانتا السبب^(٣) . فهذا يدل على أنه كان شاهد عيان لعمل ما أغضب الإمبراطور . فما هو إذن هذا الشيء ؟ اختلفت الآراء في كنهه ، فمن قائل إنه ربما كانت هناك مؤامرة ضد أوغسطس ولكن كان يجب حينئذ أن يعاقب المتآمرون عقاباً صارماً بدلاً من تفهم مع الاحتفاظ بحقوقهم المدنية . ومن قائل إنه ربما رأى زوجة أوغسطس في الحمام . ومن قائل إنه ربما كان عشيق جوليا (Julia) حفيدة الإمبراطور أو تستر على علاقتها الفاسقة ففي سنة ٨ ميلادية ، وهي نفس السنة التي نفى فيها أوفيدوس ، نفى الإمبراطور حفيدته إذ أن أفعالها المخزية تتعارض مع سياسة أوغسطس لإزاء حماية الأخلاق كما تحمل العار لمنزله فربما رأى أوفيدوس عملاً مشيناً أنه هذه الحفيدة ... إلى غير ذلك من الافتراضات .

واستغرقت رحلته من روما إلى « توى » -- تلك التي كان بعضها بحراً وبعضها الآخر برأ ما يقرب من سنة -- وقد كان هذا المنفى أمراً قاسياً بالنسبة لشاعر حساس متحضر كأوفيدوس فقد قاسى الكثير من مرارة المنفى والمرض وجو تلك البلاد القارس البرد كما كان دائم الشكوى من نقص الكتب والأصدقاء من الأدباء ومن هجوم القبائل المتبربرة المحيطة بالمنطقة التي كان يقطن بها وكان تواقاً للعودة إلى وطنه أو على الأقل إلى منفى آخر ألبق من توى . كل هذه الآلام والآمال المذكورة في أشعاره التي كتبها في المنفى وأهمها كتاب « الأحزان » Tristia وأتبعه

Tristia. IV. x. 99

(١)

Tristia. II. 133, 209

(٢)

Tristia. III. v. 49 : peccatumque

(٣)

oculos est habuisse meum.

« وإن غلطى هو أن لي عينان »

العاشرة يعترف بأنه يحب وأنه يرجو أن يقع في حب فتاتين في وقت واحد .

ويصف في الكتاب الثالث سباق العربات الذي حضره مع معشوقته ، ويخبر في المقطوعة الثالثة زوجها غيوراً بأنه يقدر ماهو يراقب زوجته بعناية بقدر ماهي تميل إلى الرذيلة . وفي السادسة يعلن نهراً عاق مروره إلى معشوقته .

وفي الثامنة يندب حظه لأن معشوقته قد فضلت عليه رجلاً ثرياً . وفي التاسعة يشكو الإلهة كيريس ، لأن عيدها قد فصله عن معشوقته . ويذكر في الثانية عشرة كيف أن أشعاره قد أعلنت عن معشوقته حتى أصبح له منافسون كثيرون . ويصف في الثالثة عشرة عيد الإلهة «يونو» الذي حضره مع زوجته ، ونلاحظ أن كتابه هذا يحتوي على مقطوعات أوحى له بكتابة مؤلفه عن « فن الحب » وذلك مثل المقطوعة الرابعة من الكتاب الأول حيث ينصح معشوقته بالسلوك الواجب عليها اتخذاه في حضرة زوجها ، أو المقطوعة الثامنة من الكتاب نفسه حيث يتحدث عن نصائح القواعد للعامة .

البطلات

أما كتابه عن البطلات فهو مجموعة من رسائل خيالية من سيدات من عصر الأبطال أو الأساطير إلى أزواجهن أو عشاقهن الغائبين . وتظهر هذه الرسائل مقدرة أوفيدوس على سرد القصص وفهمه لأخلاق النساء . ويعتبر هذا الكتاب أكثر أعمال أوفيدوس ذبوعاً .

فهناك مثلاً رسالة بينيلوبي Penelope إلى زوجها « أوديسيوس » تشكو ما هي فيه بسبب عدم عودته من حرب طرواده . والرسالة التي تبعث بها « بريسييس » Briseis محظية « أخيليس » تؤنب فيها أخيليس لعودته عن إنقاذها من « أجاممنون » الذي استولى عليها .

لتجارب . وربما أوحى ذلك لنا بأن « كورينا » كانت خلاصة النساء اللاتي صادقهن الشاعر في حياته فهي حيناً متزوجة ، وحيناً بغير زوج ، وتارة نراها تستدعي الإعجاب وأخرى نراها عارية من الحياء . وهذا يعزز ما نراه من أن كورينا كانت النموذج الذي اتخذته الشاعر لكل المواقف العاطفية التي عاناها في حياته رغم تعددها وتباينها بل تناقضها أحياناً .

ويحتوي كتابه عن الغزليات تسعاً وأربعين إليجية تختلف في تنوعها وقوة جيشانها مما كتبه أسلافه في هذا الميدان . وهي توضح لنا ميله الشديد لمغامرات الحب . إنه يقول : « وأخيراً فلن أية فتاة يعجب بها شخص في أي حي من أحياء روما يتطلع إليها حبي » (١) . وكتاب الغزليات يشتمل على ثلاثة كتب :

يتحدث في الكتاب الأول عن كيوبيد إله الحب وكيف أنه يلزمه بالكتابة عن الحب وأنها أفضل من الكتابة عن الحرب ثم يذكر أنه أسير عند كيوبيد . ويتحدث في المقطوعات الأخرى عن إخلاصه لسيدة حقيرة ومحاولته الكلام بلغة تلميحية في حضرة زوج معشوقته ، واستعطافه البواب لكي يفتح الباب لمعشوقته . واعتذاره لضرب معشوقته ولعنه للقواعد التي تعلم معشوقته كى تستخدم مفاتيحها للاستمتاع والكسب ، وإخباره معشوقته بأن الحب يجب ألا يدنس ، وشكره لأحد الخدم بعد أن سلم رسالة حب من أجله ورجاؤه الفجر ألا يسرع بالرحيل . ويتحدث في الكتاب الثاني عن محاولته أن يشي معشوقته عن رحلة اعتزمت القيام بها وتمنيه لها بولادة سهلة عندما يأتيها المخاض . وإطرائه لبلدته « سولمو » Sulmo تلك التي لا ينقصها إلا حضور معشوقته . واعترافه بعبوديته لمعشوقته كورينا . ويحتج على سيدة في المقطوعة السابعة لانها لم ياه بأنه أحب خادمته . وفي المقطوعة

(١) كتاب الغزليات الثاني - المقطوعة الرابعة .

من ذلك الشيء الذى يسكن القلب ، وإذا كان الإنسان مضطراً للبقاء فى المدينة رغبة منه أو بالرغم منه فعليه ألا يقترب من الأماكن التى تعود أن يقابل محبوبته فيها . ويجب أن يقطع علاقته بأصدقائها ويحرق رسائلها ويمزق صورها ويتخذ لنفسه فتاة أخرى .

التغيرات

قام أوفيدوس بكتابة مجموعة هامة من القصص التى تبلغ مائتين وخمسين قصة معظمها عن الأساطير اليونانية يتحدث فيها عن تحول شخصى أو شئ ما إلى شكل مغاير له تماماً كشجرة أو صخرة أو طائر أو حيوان أو زهرة أو جسم سماوى . . . وهذه التغيرات تحدث بسبب الحب والحقد والانتقام الذى ينتاب الآلهة والأبطال أو المحبين الغضاب . وجعل الشاعر بدايتها مقترنة بابتداء الخليفة حتى عصر يوليوس قيصر الذى وصفه بأنه قد تحول إلى نجم .

فيحدث مثلاً عن «سكيلا» Scylla إحدى حوريات البحر التى أحبها إله البحر «جلاوكوس» ولكنما صدته عن حبها فذهب إلى الإلهة «كيركى» Circe الشهيرة بالسحر كى تساعد على أن تحبه سكيلا ولكن الإلهة الساحرة نفسها أحبت جلاوكوس فلم يستجب لحبها فصمتت على ألا تتمتع سكيلا بحب جلاوكوس وسممت المكان الذى كانت سكيلا قد تعودت أن تستحم فيه وكان نتيجة ذلك أن تحولت سكيلا إلى وحش بحرى واتخذت الشكل الذى نشاهده فى الفن - وإن كان وجهها لا يزال وجه حورية جميلة ولكن بقية جسمها اتخذ صورة وحوش فى شكل كلاب تنبح . وقد واجهها أوديسيوس فى رحلته البحرية بعد سقوط طرواده . وقد كان مسرح حوادث أسطورة سكيلا فى مضيق مسينا حيث توجد صخرة فى الجانب الإيطالى من المضيق

والرسالة التى تبعها «أوينوفى» Oenone إلى باريس تذكره فيها بأيام شبابهما الحلوة على منحدرات جبل «إيدا» Ida بطرواده وكيف أنه خط اسمها على الأشجار هناك ثم تنسأل إن كان سيقراً خطابها أم أن زوجته الجديدة (هيلين) ستمننه من ذلك . أو الرسالة التى تبعها (ديدو) ملكة قرطاجته إلى «أينياس» الذى هجرها فعزمت على الانتحار .

وكل رسالة من هذه تعبر عن مأساة ولكن فى كل منها تنوع فى الحوادث ، وتصوير مغاير لشخصياتها أمدها أوفيدوس بروح من عنده ووضعها فى قالب حتى بمقدرته التى لا تجارى فى فن القصص رغم أنه أخذ موضوعاتها عن غيره .

نظرية وجه السيدات

وهو عبارة عن كتاب يوضح الطريقة التى تتبعها السيدات فى صبغ وجوههن، ووصلت إلينا فى شذرات مكتوبة بالوزن الأليجى . ويعتبر كتاباً تعليمياً .

الشفاء من الحب

لاقت كتب أوفيدوس عن الحب شيئاً من عدم الاستحسان حمله على أن يسترضى هذه الشاعر بكتابه الذى أطلق عليه «الشفاء من الحب» . وفى هذا الكتاب يذكر مثلاً كيف يجب على الإنسان أن يقلع عن الحب قبل أن يترك منه . وإذا لم يستطع فليتنظر قليلاً حتى يفرغ الحب جميع مافى جعبته ويستنفد قواه . وبعد أن ينهل الإنسان من كأس الحب حتى يرتوى ويشعر بالمرض فليبحث عن عمل كالزراعة ، أو فلاحه البساتين أو الرماية أو صيد الأسماك ليشغل به نفسه فإن الحب ينتصر على البطالة . ويمكن للإنسان أن يرحل بعيداً فليس هناك ما يفضل السفر الطويل وتغيير المناظر للتخلص

تسمى باسمها ، ومن هنا أضيفت الأسطورة القائلة بأنها قد انتابها تغير آخر بمرور الزمن وتحولت إلى صخرة .

وكانت طريقة سرد أوفيدْيوس لهذه القصص غالباً ما تقوم على المزج بين القصص . ونلاحظ أنه رغم أن هذه القصص عديدة إلا أنه يسودها الوحدة كما تسود قصص «الف ليلة وليلة» ، وربما كانت قصص أوفيدْيوس أكثر وحدة لأن موضوعات قصصها متشابهة وتسودها روح رومانتيكية أسطورية واحدة . وقد اتبع أوفيدْيوس طريقة شاعر الاسكندرية «كاليماخوس» في كتابه «الأسباب» Aitiaie المكون من عدة آلاف من الأبيات في قالب قصصي فجمع بين العمل الطويل والقصص القصيرة فيحتوى كتاب التغيرات خمسة عشر جزءاً .

وأخذ أوفيدْيوس موضوعه هذا عن الشعراء وكتساب المسرحية اليونان الذين طرّقوا موضوع الأساطير ، كما أخذ عن بعض الفلاسفة اليونان ، مثل «بيثاجوراس» Pythagoras الذى يقول بتناسخ الأرواح وأن الأشياء تتغير دون أن تنفى .

كما أنه تأثر أيضاً بشعراء الاسكندرية فقد طرق بعضهم موضوع التغيرات كما في مؤلف «نيكاندروس» (القرن الثانى قبل الميلاد) المسمى Heteroioumena «أشياء تغيرت» وهو يشتمل على مجموعة من القصص .

وكتب أحدهم ويدعى «بويوس» Boeus في تاريخ غير معروف Ornithogonia «أصل الطيور» ويتعلق بتغير البشر إلى كائنات مجنحة .

وكان هذا نموذجاً لعمل شبيه كتبه «أيميلْيوس» Aemilius Macer أحد معاصري أوفيدْيوس . وتأثر أيضاً بالرومان ، مثل فرجيلْيوس خاصة عندما تحدث عن رحلة «أينياس» . ونلاحظ أنه لم

يشد بالوطنية الرومانية ولم تكن هدفه كما كانت عند فرجيلْيوس . حقاً لقد تحدث عن يوليوس قيصر كما تحدث أيضاً عن أوغسطس ولكنه لم يتخذ الأخير محوراً للحديث بل ذكره كأنه آخر أعجوبة حيث يقول إنه يعتبر مجداً خالداً ليوليوس قيصر أن يكون أباً لأوغسطس وإنه حينما يترك أوغسطس العالم الدنيوى سوف يحكم فى السماء ويصبح إلهامجيب الدعوات . من هذا يتضح أن معظم هذه القصص كانت معروفة ولكن أوفيدْيوس سردها بطريقة مختصرة بليغة وأكسبها لوناً جذاباً لا يستطيع القيام بمثله سوى رجل ذى مقدرة أدبية . وقد نحرر أوفيدْيوس في سرده لبعض هذه القصص كما أنه قد ذكر بعضاً من قصص الأساطير التى ليس لها علاقة بالتغيرات كاختطاف «پروسرپينا» مثلاً وموت «أنخيليس» وقصة حب

«يراموس» لثيسي Thisbe

وقد طلى أوفيدْيوس هذه الأساطير بطلاء جديد وأكسبها حيوية أثرت فى الأدب والفن فى العصور الوسطى والنهضة الأوروبية .

ولقد كانت الأساطير القديمة مظهرًا واضحاً من مظاهر ثقافات كثير من اليونان والرومان المثقفين ، وبخاصة الشعراء فلاغربة فى أن يطرّق أوفيدْيوس المثقف هذا الموضوع مثلهم وأن يسبغ عليه من معلوماته الوفيرة وذاكرته القوية وخياله الخصب وتصوره اللامع حياة جديدة ... ولاغربة فى أن تتأثر أيضاً حضارة العصور الوسطى والنهضة الأوروبية بهذا الموضوع ...

التقويم الرومانى Fasti

كتب أوفيدْيوس قصيدة هى تقويم للسنة الرومانية ولذلك تعتبر قصيدة تعليمية . وقد وصل إلينا منها ستة كتب يتحدث فى كل منها عن شهر من أشهر النصف الأول من السنة وذلك من شهر

يناير حتى شهر يونيو وقتها وصف للأعياد والطقوس الدينية والأساطير والحوادث التاريخية المتصلة بأيام خاصة .. وقد استقى أوفيدْيوس مادتها من السجلات القديمة للدولة الرومانية والتاريخ والأساطير وعلم الفلك .

ويخبرنا أوفيدْيوس نفسه بأنه استخدم السجلات القديمة .

ونحن نعرف أن « فريوس فلاكوس » Verrius Flaccus كتب تقويمياً شبيهاً بما فعله أوفيدْيوس خصوصاً ما يختص بأيام الأعياد والاحتفالات السنوية كما كتب « فارو » Varro عن الآثار الرومانية القديمة والمعتقدات الدينية الشائعة . وكذلك كتب « إننيوس » Ennius وغيره « حوليات » Annales عن الموضوع نفسه . . . وكتب « كلوديوس توسكوس » Clodius Tuscus عن علم الفلك - فمن المحتمل أن يكون أوفيدْيوس قد استقى معلوماته من هؤلاء جميعاً .

وقد عرض الشاعر « پروپرتيوس » في أواخر أيامه للأساطير ولمثل هذه الموضوعات الأثرية عندما يتس من الحب وعندما شجعه « مايكيناس » وزير أوغسطس على ذلك فطرق هذه الموضوعات بالوزن الإليجي وبذا يكون قد خلق لوناً جديداً من الشعر الإليجي اقتبس أوفيدْيوس لكتابة تقويمه إذ أنه خالف الشعراء التعليميين السابقين أمثال « لوكرتيوس » و « فرجيليوس » الذين استخدموا في أشعارهم وزناً غير الوزن الإليجي وهو الوزن السداسي .

ويذكر أوفيدْيوس^(١) أنه كتب اثني عشر كتاباً ولكن ليس لدينا سوى ستة ولا يوجد ما يثبت وجود الستة الباقية حتى يكمل الجزء الخاص بنصف السنة الثاني فن المحتمل أنها قد أحرقت مع ما حرقه

(١) كتاب الأحران - الجزء الثاني - سطر - ٥٤٩ .

من كتاباته عند ترك روما لمنفاه أو أنها لم تكن معدة للنشر وعلى أية حال لا يمكن الجزم برأى قاطع في هذه المسألة :

ويمتاز وزن الإليجي فيها بالركة والسهولة ولكنه لم يبلغ من السمو والإيقاع الهرموني ما نجده عند كبار الشعراء ، كما يتلاعب أوفيدْيوس فيها بتصويراته وخياله :

وقد خلق أوفيدْيوس شعراً وطنياً وربما كان يهدف إلى إرضاء الامبراطور أوغسطس حتى يأخذ في القصر الامبراطوري مكان الشاعرين « فرجيليوس » و « هوراتيوس » اللذين كانا قد توفيا ، خاصة بعد كتاباته عن الحب التي لم تكن تساعد الامبراطور على نشر القيم الأخلاقية في المجتمع الروماني ولكن جاء نفيه نخباً للآمال :

الأحزان (Sc. Carmina) Tristia

وكتب أوفيدْيوس في منفاه أغاني حزينة في صورة رسائل بالوزن الإليجي تظهر حزنه العميق لنفيه وما يقاسيه في هذا النفي .. ويشمل مؤلفه هذا خمسة كتب تقوم على الترتيب الزمني كما أن أوفيدْيوس لا يذكر فيها أسماء الأشخاص المرسله إليهم حتى لا يتعرضوا لغضب الامبراطور .

والكتاب الثاني منها يقوم على موضوع واحد أما باقي الكتب فتشتمل على عدة رسائل متنوعة لها مقدمة وخاتمة فيذكر مثلاً في المقطوعة الأولى من الكتاب الأول - الذي يحتوي على إحدى عشرة مقطوعة مجموعها ٧٣٨ بيتاً ، يذكر إرسال الكتاب إلى روما وأنه لم يعن بتغليفه لما كانت عليه حالة كاتبه المنفي من الأسى وأنه ليس عنده أمل في أن يجسر أحد الأشخاص على تقديمه للإمبراطور .

والمقطوعة الحادية عشرة هي الخاتمة وفيها يعتذر عن العيوب والشوائب التي تكاد منها قصائده إذ أنها

بالدراسات الأدبية واللغوية . كما أن اليأس قد تطرق إليه بدرجة كبيرة جعلت أمله ضعيفاً في العفو عنه .

« رسائل من بونتوس »

Epistulae ex Ponto

ولأوفيدوس أربعة كتب يطلق عليها « رسائل من بونتوس » - أى - « رسائل من توى » .

وهي تعتبر امتداداً لكتبه « الأحزان » فهي من النوع نفسه ومنظومة أيضاً بالوزن الإليجي . وتختلف عن الأحزان في أنه يذكر فيها أسماء الأشخاص الذين يرفع إليهم كتبه .. وقد كتبت الكتب الثلاثة الأولى فيما بين سنة ١٢ و ١٣ ميلادية .

أما الكتاب الرابع فقد نشر بعد وفاة أوفيدوس . ونلاحظ أن الأحزان والرسائل من « بونتوس » تسودها الرثابة لأنها تصور أحزان أوفيدوس العميقة التي يرددها بكثرة .

كما أن أسبابه المطرد يقلل من تأثير الجانب الحزن الذي يستجيش المواطن رغم أنها تمس أحياناً شغاف القلوب .

ويذكر أوفيدوس نفسه أن أشعاره في المنفى لم تكن جيدة مثل تلك التي كتبها في روما .

إيبس Ibis

كتب أوفيدوس في منفاه . إلى جانب هذه الأشعار مقطوعة عنوانها « إيبس » Ibis مقلداً في ذلك شاعر الاسكندرية « كاليماخوس » الذي كتب مقطوعة بهذا العنوان هاجم فيها « أبولونيوس الروديسى » Apollonius Rhodius ولفظ « إيبس » Ibis يطلق على طائر ذى عادات قدرة كان يرى في أماكن كثيرة من الإسكندرية (Strabo, p. 823) .

ويظهر أنه كتبها في « توى » في بداية منفاه إذ يذكر أوفيدوس نفسه (Ibis 7) أنه لم يكتب سطوراً

كتبت أثناء رحلة شاقة عبر بحر الأدرياتيك وبحر إيجه أما الكتاب الثاني فقد كتبه في المنفى ورفعته إلى أوغسطس ويختلف عن باقي الكتب كما ذكرنا في أنه لا يحتوى على عدة رسائل بل على موضوع واحد فهو عبارة عن دفاع مطول يبلغ ٥٧٨ بيتاً عن كتابه « فن الحب » وكتبه بلغة تقرب من اللغة الخطابية في المحاكم . ويذكر ضمن دفاعه أنه بالرغم من أن كتابه « فن الحب » يعتقد أنه يعلم الزنا إلا أنه ليس هناك من ينهمه شخصياً بهذا السلوك السيئ وربما كانت تسود أشعاره الحرية ولكن لا تشوب حياته شائبة .. وأنه ليس من الواجب على الشعراء أن يكونوا قد مارسوا جميع ما يقولونه في أشعارهم ، ومع أن الشعراء كانوا قد طرقتوا موضوع الحب إلا أن أوفيدوس هو الوحيد الذي لحقه اللوم من جراء ذلك .

ويسرد فيه قصة حياته وأعماله وكان يرجو أن يتبدل العقاب الذي لحق به ويقنع بمنفى يكون أليق من بلدة « توى » ، منفى يناسب زلته اليسيرة .

والقصائد في هذه الكتب صادرة عن نفس معذبة مفعمة بالشكوى التي تستدعى الشفقة والرحمة لصاحبها ، كما يكثر فيها التوسل الذي يصل إلى درجة الذلة والعبودية فكان يث كتبه آلامه وأحزانه وما ينتابه من مشاعر فهو أحياناً يعطف على زوجته ويظهر فيها تقديره إياها ويتحدث عن إخلاصها ويصف آخر ليلة قضتها في روما ويرفع قصيدة إلى صديق تنحى عنه أو إلى شاعر صديق أسعده نجاحه ، ويأمل أن ينجو من مصير كالذي حل بشاعرنا . وأحياناً أخرى يرسل إلى أصدقائه في روما ويصف متاعبه وأحزانه ووحشته في « توى » ويحثهم على مساعدته في محنته . أو يتحدث عن برودة المنطقة التي يعيش فيها ووحشتها . أو يهاجم الشخص الروماني الذي حط من قدر شاعرنا الذي كتب ضده مقطوعته المسماة « إيبس » Ibis ونشعر فيها بألم أوفيدوس بسبب الوحدة وتحايله عليها

واحداً يحمل روح العداء لأحد خلال الخمسين سنة التي انقضت .

وفي القصيدة قاموس من الشتائم واللغات ساقها أوفيدبوس ضد شخص مجهول الاسم اضطهد زوجته وأصدقاءه وحاول أن تصادر أملاكه ليستفيد منها . ويقال إن هذا الشخص هو الذي يشير إليه في كتابه الأبحران ، (الكتاب الأول - المقطوعة السادسة - سطر ١٤ : اكتساب الثالث - المقطوعة الحادية عشرة ؛ السطر الثاني والسطر العشرون ؛ الكتاب الرابع - المقطوعة التاسعة - السطر الخامس عشر وما بعده) .

وقد صب على رأس ذلك العدو كل لعنة خطرت على باله سواء من الأساطير أو التاريخ ساعده على ذلك معرفته الواسعة بالأساطير :

وكتب أيضاً مقطوعة تعليمية Haleuticon « الصيد في البحر » بالوزن السداسي وهي الوحيدة من بين كتابات أوفيدبوس التي كتبت بهذا الوزن إذا استثنينا « التغيرات » - عن السمك وبعض المخلوقات الأخرى الموجودة في البحر الأسود . ويذكر المؤرخ بلينيوس Plinius أنه كتبها في أواخر أيامه وهي غير كاملة ولم يصل إلينا منها سوى ١٣٢ بيتاً ويتحدث في القسم الأول منها عن طرق دفاع هذه المخلوقات عن نفسها حسب ما وهبها الطبيعة ، وفي قسمها الثاني عن أنواع السمك الموجودة هناك ، ونشرت بعد مماته دون مراجعتها .

هناك مقطوعات أخرى مطبوعة في بعض الطباعات القديمة لأوفيدبوس ولكن ليس من المؤكد أنها له مثل « Nux » وهي شجرة « عين الجمل » تشكو من المارة الذين يقدفونها بالحجارة بالرغم من أنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها ولا ذنب لها سوى أنها مشمرة ، وعدد أبياتها ١٨٠ بيتاً وربما كتبت في نهاية حياة أوفيدبوس وترمز إلى الشاعر نفسه الذي لاقى الكثير

من الاضطهاد . والإطراء على الامبراطور (الأسطر ١٤٣ - ١٤٦) يرجح أصحاب الرأي القائل بأنها لأوفيدبوس . وكذلك مقطوعة يطلق عليها Consolatio ad Liviam وهي عزاء في ٤٧٤ بيتاً إلى « ليقيا » لموت دروسوس Drusus ويذكر فيها كيف أن الامبراطورة « ليقيا » كانت تنتظر عودة ابنها « دروسوس » متصراً بعد أن كان يعسكر في ألمانيا سنة ٩ وحاز عدة انتصارات على أعداء روما ولكن موته فجأة وحمل جثته إلى روما لدفنها أغم قلبها بالحزن . ولكن خلوها من اطرائه المسهب والشكوى من حالته التي عودنا إياها في كتاباته المرفوعة إلى القصر الامبراطوري والمستوى اللغوي الذي كتبت به هذه المقطوعة والذي هو دون مستوى كتابات أوفيدبوس يجعلنا لانغزوها إليه .

وهناك أشعار أخرى كتبها أوفيدبوس ولكنها فقدت ولم تصل إلينا مثل مأساة « ميديا » Medea (الأبحران - الكتاب الثاني - سطر ٥٥٣) وقد امتلحها النقاد القدماء خصوصاً من الناحية البلاغية ولم يبق لنا منها إلا بيتان . وكتب أوفيدبوس قصيدة رثاء يرثي بها الإمبراطور أوغسطس (. سائل من پونتوس - الكتاب الرابع - المقطوعة السادسة ، السطر السابع عشر) .

كما كتب قصيدة في مدح القصر الامبراطوري باللغة الجينية . وهي لغة القوم الذين كان يعيش معهم في منفاه (رسائل من پونتوس - الكتاب الرابع - المقطوعة الثالثة عشرة السطر ١٩ - ٣٦) ، والجيجانتوماخيا Gigantomachia (الكتاب الثاني من الغزليات المقطوعة الأولى - السطر ١١ - ١٦) وهي عبارة عن ملحمة أسطورية تصف موقعة بين الآلهة والعمالقة .

وقصيدة عرس Epithalamium لفابيوس ماكسيموس Fabius Maximus (رسائل من پونتوس

— الكتاب الأول — المقطوعة الثانية — السطر ١٣١).
كما كتب قصيدة رثاء للماركوس فاليريوس ميسالا
M. Valerius Messala (رسائل من پونتوس
— الكتاب الأول المقطوعة السابعة — السطر ٣٠).
وقصيدة مدح لتيديريوس في سنة ١٣ ميلادية (رسائل
من پونتوس — الكتاب الثالث — المقطوعة الرابعة —
السطر الثالث). كما كتب أيضاً مقطوعات أخرى
مثل liber in malos Poetas وهي عن ضعف
الشعراء (كونيتيليانوس — نظم الخطابة ٦ — ٣ — ٩٦).

فن الحب Ars Amatoria

كتب أوفيدوس شعراً تعليمياً من نوع جديد.
حقاً لقد كتب الشعراء من قبله هذا النوع من الشعر
مثل «إيليوس» و «لوكريتيوس» و «فرجيليوس»
ولكنه يختلف عنهم في أنه كتب شعراً تعليمياً عن
الحب. فابتدأ بكتابة مقطوعة قصيرة لم يتيق لنا منها
إلا ما يقرب من مائة سطر يطلق عليها «عن نظرية
الوجه» De medicamina Facie أو Medicamina
faciei feminae «نظرية وجه المرأة» يتحدث فيها عن
أطربة التجميل التي تستعملها النساء لتزيين وجوههن.
أما كتبه الثلاثة المسماة «فن الحب» Ars Amatoria
أو Ars Amandi وقد أطلق عليها أوفيدوس الاسم
الأخير^(١). وفي الكتابين الأولين تعاليم للرجال أما
الثالث ففيه تعاليم للنساء. ويحتوي الكتاب الأول على
ما يجب أن يفعله الرجل عند اختيار المرأة التي يريد
أن يستحوذ عليها ويقول مثلاً «أولا اقبض على
أرنبتك فإن الصائد يعرف كيف ينشر شبكته كي
يصطاد الوعل وصائد السمك يعرف المياه المليئة
بالأسماك أما عن الحب فإنه لا يحتاج إلى السفر بعيداً

(١) Ars. Am. i. 1.

ففي روما في إمكانه أن يجد جميع أنواع الجمال في
احتفالات النصر أو في المسرح حيث تتجمع الحسان
هناك كالتحل مرتديات أفخر الثياب ولا يرغبن في
مشاهدة المسرحية أكثر من رغبتن أن يرمقهن الناس.
وكذلك في السيرك حيث يمكنك الجلوس بجوار امرأة
وهناك يمكنك التحدث معها بسهولة ولا تنتظر كي
تكون المرأة هي البائدة بل كن جريئاً وسوف
لا تصادف صعوبة وامطرها بوابل من المدح والثناء.
ولا تبدأ باهدائها الهدايا فإن هذا خطأ وسوف تجد أنه
لا نهاية لهذا الأمر إذ ستطلب منك الهدايا دون انقطاع
مختلفة الأسباب لذلك. ادرس الفنون الجميلة وغذ
عقلك حتى يمكنك إدخال السرور عليها بحديثك.
ولا تتحدث إليها كأنك أستاذ بل ابتعد عن الأسلوب
العالى في حديثك. ادع السكر فإنه يساعدك على أن
تقول ما لا تستطيع أن تقوله وأنت صاح. ولا
تدعها تعرف عنك الإلحاح. وباختصار فإن هذا
الكتاب يعلم الحب كيف ينال حبيته.

وفي الكتاب الثاني يعلم الشاعر تلميذه كيف يحتفظ
بمحبوبته فيقول مثلاً «وإن المظهر الحسن له أثره
ولكن العادات الحسنة لها أيضاً قيمتها. إن الكلمات
السارة كاللوسيقى تعتبر غذاء للحب. ويجب أن يمتنع
الشخص عن العراك والمنازعات ويجب أن يسمع المحبوبة
دائماً أموراً سارة».

ويقول إن المال يلعب دوراً كبيراً في الحب
فربما لا يحتاج الحب الثرى إلى تعلم فن الحب فإن المال
هو جواز المرور إلى كسب ود المحبوبة. رفه عن
محبوبتك إذا كانت مريضة. ولا تندفع في عواطفك
واجعل نفسك تدريجياً شخصاً لا يستغنى عنه. وعندما
تأكد أنها تنوق إليك اتركها لمدة قصيرة حتى يكون
غيابك سبباً في ازدياد شوقها إليك ولكن لا تتركها
لمدة طويلة فإن البعيد عن العين بعيد عن الخاطر.
ولا تتجسس عليها ولا تسألها عن سنها.

روما . إنه فن الكياسة والرقّة وهاملة المحبين . وقد كتب هذا الفن التعليمي بالوزن الإليجي واستفاه — كما نخبرنا هو — من تجاربه : ولاشك أن كتابة هذا لم يعجب فلاسفة الأخلاق وإن كان أوفيدوس لم يقصد به — كما يذكر — حرائر الرومانيات ، بل الجوارى المعتقات .

ولكن ذلك ليس إلا ذراً للرماد في العيون . كما أنه كان ضد ما يرى إليه أوغسطس من اصلاحات ومع ذلك فقد كان كتابه هذا فيه صقل للذوق والعادات الرومانية كما أنه يدعو إلى نواح فنية وأدبية فهو الذي يقول بأنه يجب ألا تزين الجسم فقط بل العقل أيضاً ، فواجب على الرجل أن يهتم كما يهتم المرأة بالموسيقى والشعر والرقص . كما يعطينا صورة للحياة في عصره خصوصاً ما كانت تزين به المرأة .

ولا يتحدث أوفيدوس عن الحب ذي العاطفة الجائعة التي هي بعيدة عن مجتمعه الحب للملذات . وفي رأيه أن المحبين لو استمعوا إلى نصائحه عن الحب لما كانت نهايتهم مفاجئة ولما كان « نربوس » مثلاً قد فقد عقله بحبه « فيلوميل » أخت زوجته ولما تحول إلى طائر بسبب آثامه ولما كانت « ديدو » قد انمحرت بسبب حبها لأينياس الذي هجرها . ولعرفت « فايدرا » خطأها عندما أحبت « هيبوليتوس » ابن زوجها . إن فن الحب شيء جديد على روما وكذلك فن الرقة والكياسة يعتبر طقساً جديداً للرومان كان أوفيدوس كاهنه الأكبر .

وقد تأثر الأدباء المحدثون بفن الحب لأوفيدوس مثل « مكاولي » Macaulay الذي يصفه بأنه أحسن أشعار أوفيدوس وكذا تأثر به « جيته » في كتابه « الإليجيات الرومانية » وكان أوفيدوس شاعره المفضل كما أنه يقال إن قصة الرسام الإيطالي الشهير « تيزيانو » Tiziano (١٤٧٧ — ١٥٧٦) المسماة « أريادنى على جزيرة ناكوس » استوحاها من كتاب

وفي الكتاب الثالث يوجه نصائحه للنساء فيقول : « يجب أن يسرعن والايخلن بعواطفهن عندما يكن يافعات فإن الكبر والتجاعيد والشعر الأبيض تلحق بهن سريعاً . إن المنظر الحسن شيء جميل إلا أنه نادر . ولكن بشيء من الزينة تصبح المرأة جذابة وبدونها يفقد الوجه الجميل فتنته . إننى أعتقد أن ما تفعله نساؤنا في الوقت الحاضر أمر معقول ليس لأننا نملك ذهباً أو نلبس ملابس فاخرة ولكن لأننا نعرف كيف نستمتع بملاذ الحياة ولأننا انصرفنا عن عادات أسلافنا الخشنة حيث كانت تقبع المرأة في عقردارها تحيك الملابس أو تغزل حتى تقتل وقت فراغها .

تزينى بالملابس ولكن لا تغالى فيها وتعطرى واعتنى بأسنانك وانظري كي لا تكون أرجلك مشعرة وتعلمي فن التجميل ولكن إياك أن تستخدمى المساحيق أمام زوجك فإن منظر المساحيق أثناء استخدامها شيء بغيض .

تعلمى كيف تمشين وكيف تضحكين بل كيف تبكين لأنه هناك الصواب والخطأ في استعمال أى شيء وإذا أردت أن تحافظى على جمال وجهك تحكى في أعصابك فليس هناك امرأة أقبح منظرأ من تلك التي يستحوذ عليها الغضب وإذا أصبحت عواطف محبوبك باردة دعيه يشتم رائحة غريم له ، لاتدعيه يعتقد أنه الحصة الوحيدة على الشاطئ ، لا تكوفى نهمة ولا تكترى من تعاطى المسكرات فليس هناك منظر أبشع من منظر المرأة السكرى... الخ .

وكل ما ذكره أوفيدوس ممكن حدوثه في أية عاصمة أو مدينة كبيرة فالمرأة هي المرأة لم تتغير وكذلك الرجل هو الرجل والطرق التي يتبعها كل إزاء الآخر واحدة في جميع العصور . إنه يتحدث عن مجتمع يحب للمباهج والملذات ولايسوده الحب العميق الذي ينتهى بضرر أو يأس أو موت ، وفي رأيه أنه ليس هناك اخلاص دائم . وفيه هذا جديد على

« فن الحب » وليس من قصة « كاتولوس » المشهورة في ذلك الموضوع .

نصوص

من الكتاب الأول — تعاليم للرجال

عليك أولاً أن تجتهد لتجد من تحب ، أنت يا من تخوض المعركة للمرة الأولى ، سيكون مجهودك ثانياً أن تكسب ود من أحببت ، وعليك ثالثاً أن تجعل الحب يستمر مدة طويلة . هذا هو سبيلي ، هذا هو ميداني الذي سوف ترسمه عروبي ، هذا هو الهدف الذي سوف تقتحمه عجلات عروبي .

وما دامت الظروف تسمح وما دام في استطاعتك أن تذهب إلى أى مكان مطلق العنان فاختر من تقول لها : « إنك أنت الوحيدة التى تعجبني » . فلأنها لن تأتى إليك من نفسها عليك أن تبحث عن الفتاة التى تروق عينيك . إن الصائد يعرف جيداً أين ينصب شبابه للغزلان . ويعرف جيداً فى أى الوهاد يقيم الوعل الثائر . إن الطيور تعرف الأشجار . ومن يمسك بالشخص يعرف فى أى المياه تسبح أسماك كثيرة . وأنت أيضاً يامن تبحث عن تحبه حباً طويلاً الأمد عليك أن تعرف أولاً أى مكان ترتاده الفتاة دائماً . إننى لا أطلب منك أن تبسط شراعك للريح أو أن تقطع طريقاً طويلاً حتى تجدها . وبرغم أن « پرسوس » أحضر « أندروميذا » من بين المنود السود^(١) . وبرغم أن الرجل الفريجي اختطف

(١) ربما يقصد بالمنود السود سكان إثيوبيا « أندروميذا » بنت « كفيوس » Cepheus ملك إثيوبيا التى ادمت أنها أجمل من حوريات البحر فكان من إلأ البحر « بوسيدون » إلا أن صب جام غضبه على وطنها وأرسل وحشاً بحرياً لتغريبه وأشارت النبوءة أنه لا يمكن انقاذ الوطن إلا بالتضحية بأندروميذا لهذا الوحش وقد قيدت فعلاً إلى صخرة على الشاطئ . وأصبحت عرضة لهذا الوحش ولكن « پرسوس » يأتى فى الوقت المناسب وينقذها ثم يتزوجها وترحل معه إلى بلاد اليونان .

الفتاة اليونانية^(٢) إلا أن روما مستعطيك فتيات جميلات كثيرات جداً حتى إنك لتقول : « إن فى روما كل ما فى العالم من فتيات جميلات »^(٣) .

ويعطى « السيرك » الفسيح فرصاً كثيرة للراغبين فى الحب . فلا حاجة هناك للأصابع التى تعبر بها فى كلام صامت ولا حاجة للمضى إشارة بالإيماء . فاجلس بجوارها فليس هناك عائق يمنعك من ذلك ثم اقرب منها ما أمكن حتى تتلامسا .

وهذا أمر سهل إذ أن صف المقاعد يحمل على هذا التلامس إن لم تكن هى راغبة فيه ، فبحكم المكان يجب أن تلمس الفتاة . وعليك هنا أن تبحث عن بداية لحديث التعارف ودعها تسمع منك أولاً حديثاً عاماً ، ولتسأل عن أصحاب الجياد التى تتقدم فى الحلبة ولا تضع الوقت . ومهما يكن الأمر فكن فى صف ذلك الذى تكون هى فى صفه . ولكن عندما يمر الاحتفال المزدحم الذى يقتافس فيه الشباب فصفق لفينوس سيده الحب بأيد مشجعة^(٤) وإذا سقط غبار عن طريق الصدفة على صدرها — كما يحدث عادة — فلتنفضه عنها بأصابعك .

وإذا لم يكن هناك غبار فلتنفض اللاشئ . وليكن لديك أى مربر لما قمت به . وإذا تبدل معطفها واسترسل على الأرض فقلتمه ولترفعه من الأرض المعفرة فى عناية وحينئذ سترى عينك حما قدمها يرضاهما جائزة لك على ما قمت به .

(١) يقصد « باريس » الذى اختطف « هيلين » ورحل معها إلى طروادة بأسيا الصغرى .

(٢) يقصد أنه سهل أن تجد الجمال فى روما دون مشقة السفر للبحث عنه فى بلاد نائية عن روما .

(٣) شرح أوفيدوس هذا الاحتفال فى كتاب الغزليات (Amores, 3, 2. 43 ff.) ويبدأ الحفل من قلعة الكايتول إلى سوق المدينة (الفورم) ثم إلى السيرك . وكان يحمل المحتفلون تماثيل من العاج يصفق لها عند مرورهم عشاق أصحاب هذه التماثيل فيصفق مثلاً المحبون لفينوس إله الحب ويصفق الجنود لما رس إله الحرب .

ولنتظر كذلك خلفك كى لا يكون هناك من يضغط على ظهرها الرقيق . إن العقول تأسرها أشياء صغيرة ، فلقد أفاد الكثيرون من تهينة وسادة الفتاة بأيد متوثبة ، أو التهوية بمروحة رقيقة ، أو وضع مقعد تحت قدمين رقيقتين ولتدع جسدك يروق بنظافته كما يروق بوعثاء^(١) المغاركة . لتكن عباة تلك ملائمة لجسدك ولا تكن ملطخة ، ولا تلغ سر حداثك متجعداً ، واحذر ألا يعلو أسنانك الصدا . ولا تجعل تلميك غير ثابتين وتسبحان في حذاء واسع . ولا تشوه خصلات شعرك بحلاقة رديئة . واحلق شعرك ولحيتك عند حلاق ماهر . ولا تجعل أطافرك طويلة تتخللها القذارة . ولا تجعل الشعر ينمو في خياشيمك . ولا تكن أنفاسك ذات رائحة كريهة .

من الكتاب الثانى تعالم للرجال

إن العاشق يتوج في سرور أشعارى بأكاليل النصر ويفضلها على قصائد شعراء الملاحم . هكذا فعل الغريب ابن « پريام » فبسط شراعه الوضاء مصاحباً عروسه إلى اختطف من مدينة « أميكلاى »^(٢) Amyclae المحاربة . وهكذا فعل من حملك ، يا « هيبوداميا »^(٣) في عربته المنتصرة وحملت على عجلات أجنبية .

لماذا تتسرع ، أيها الشاب ، ؟ إن سفينتك تبحر في وسط المحيط والميناء الذى أنشده بينى وبينه أمد

(١) الوعثاء ، الفبار .

(٢) يقصد باريس الأمير الطروادى الذى اختطف هيلين من من اسبطة .

(٣) يقصد هيلوبس Pelops الذى أتى من آسيا الصغرى إلى بلاد اليونان وأحب « هيبوداميا » وتزوجها بعد أن فاز في سباق العربات على أبيها الذى جعل هذا الفوز شرطاً لمن يريد أن يتزوجها .

بعيد . ليس كافياً أن تكون قد كسبت الفتاة بما مهدت لك من طريق . إنك قد حصلت عليها بفنى وبفنى عليك أن تحفظ بها . وليست الجرأة في الاحتفاظ بمن كسبتها بأقل من الجرأة في البحث عنها . وللحظ في ذلك نصيب ولكن الأمر في حاجة إلى فن إن « مينوس » Minos لم يستطع أن يسيطر على أجنحة الرجل^(١) . ولكننى أعد العدة للسيطرة على الإله المجنح كيوبيد . إنه لمخدوع كل من يلجأ إلى فن تساليا^(٢) وأن يتعاطى ما ينزعه من جهة المهر^(٣) . إن أعشاب « ميديا »^(٤) Medea لن تعمل على أن يعيش الحب ... فلو أن الحب يمكن الاحتفاظ به عن طريق السحر وحسب لكأنك قد احتفظت (ميديا) بابتن « أيسون »^(٥) Aeson كما احتفظت « كيركى » بأوديسيوس . إن أشربة الحب الصفراء تضر الفتيات : لأنها تؤثر في العقل ولها من القوة ما يدفع إلى الجنون : لتبتعد هذه الأشياء المدنسة اكن رجلاً حبيباً كى تحب . ولن يمنحك الوجه أو الشكل فقط هذا الشيء رغم أنك قد تكون « نيربوس »^(٦) Nemesis الذى كان « هوميروس » القدماء مفتوناً به ، أو الفتي اليافع « هيلاس »^(٧) الذى اختطفته حوريات المياه

(١) يد أن شيد « ديدالوس » قصر الابليرته في كريت أراد أن يعود إلى وطنه أثينا ولكن « ميثوس » ملك كريت لم يوافق على عودته مما اضطر « ديدالوس » لأن يصنع لنفسه أجنحة يطير بها إلى بلاده .

(٢) كانت « تساليا » في شرق بلاد اليونان مشهورة بالسحر . (٣) فشاء ينمو على جهة المهر (Hippomanes) عند ولادته ويستخدم كشراب للحب .

(٤) كانت « ميديا » مشهورة بالسحر الذى ساعدت به حبيبها « جاسون » كى يستولى على القراء الذهبى .

(٥) يقصد جاسون .

(٦) كان « نيربوس » أجمل وأعظم ثائفاً من كان في جيش اليونان ما عدا « أخيلئوس » (الليادة - الكتاب الثانى - سطر ٦٧ وما بعده) .

(٧) ذهب « هيلاس » إلى إحدى الينابيع كى يشرب فأخذت حوريات المياه بحماله واعتطفوه إلى داخل المياه .

الملذبات . فلتنصف إلى المزايا الجسمية مواهب عقلية . إن الجمال ميزة سريعة التهم فكلما تقدم العمر يصبح الجمال أقل بريقاً ثم تقتطفه السنون نفسها ، فليس البنفسج دائماً الأزدهار والزئبق لا يفتح ثغره دائماً . وعندما تذبل الوردة تجف ويبقى الشوك . أما الإنسان الجميل ، سرعان ما يصبح شعرك أبيض وتظهر التجاعيد التي تحفر جسمك . فلتجعل لك الآن روحاً ، تلك التي من خصائصها أن تبقى ولتضفها إلى جمالك^(١) وإنها الوحيدة التي تبقى معك حتى تقارق الحياة . ولا تهمل في تثقيف نفسك بالفنون الجميلة أو أن تتعلم اللغتين . إن «أوديسيوس» لم يكن جميلاً بل كان فصيحاً ورغم ذلك فإنه أشعل نار الحب في قلبي لإلايتين من إلهات البحر . . . وإذا لم تكن الفتاة مشجعة بما فيه الكفاية أو ودوداً لمن يحبها ، فلتتحمل حتى النهاية ولتتأخر فسوف تصبح طيبة فيما بعد .

إن الغصن المورج ينثني من شجرته باللين وإنه لينكسر لو استخلمت قوتك . وباللين تسبح خلال المياه وإنك لا تستطيع أن تقهر الأنهار بدلاً من أن تقبض عليك الأمواج إذا سبحت ضد التيار . إن اللين يستأنس الفجر وأسود «نوميديا» Numidia . ورويداً ورويداً يخضع الثور للمحراث الريفي . وهل كان هناك أعنف من «أثالتا»^(٢) التوناكريه^(٣) وبرغم

(١) يذكرنا هذا بقول شاعر العربية أبي الطيب المتنبي :

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيء ولو أن ماني الوجه من حراب
يفير من الدهر ما شاء غيرها وأبلغ أقصى المروءى كتاب

(٢) بنت «ياسوس» Jasus ابن «ليكيوجوس» ملك أركاديا . وكانت مشهورة بالصيد كما كانت ضد فكرة الزواج وقد أحبها «ميلانيون» Milanion ولم يستحوذ مل قلبها ويتزوجها إلا بعد وقت طويل وجهه كبير أثناء مشاركتها الصيد «أثلر 1.1.9 Proportius» .

(٣) أي الأركادية «من أركاديا» نسبة إلى «توناكريس» وهو اسم جبل في إقليم أركاديا .

ذلك فقد خضعت لمروءة رجل . . . فبالاستسلام سرحل منتصراً . لتستسلم إذا قاومت فبالخضوع سوف تنحاشي المنتصر . عليك فقط أن تفعل ما تأمرك به ، لم إذا لامت ، وافق على أي شيء توافق عليه . أكد ما تؤكدوه وأنكر ما تنكروه ، واضحك إذا ضحكك ، وتذكر أن تبكي إذا بكيت . دعها تسطر دستورها على عيناك . . . إن الحب نوع من الحرب : أيتها الجبناء ، ابتعدوا . إن أعلام الحب هذه يجب ألا يحرسها الجبناء : إن الليل والشتاء والرحلات الطويلة والآلام المبرحة وكل جهد موجود بداخل المعسكر الأنيق .

أيتها القوم ، احتفوا بي أنا شاعركم : تغنوا بمدحى . اجعلوا اسمي يتغنى به في جميع أنحاء العالم ، فقد أعطيتكم السلاح . إن إله الخدادة قد أعطى الأسلحة لأخيلوس . فانتصروا كما انتصر بما منحت لكم من عطايا . ولكن إذا قهر أي منكم الأمازونيات^(١) فلاحى فليخط على غنائمه :

«إن «ناسوا»^(٢) هو سيلى» .

الكتاب الثالث — تعاليم للنساء

إن المرأة لا تلوح باللهب أو الأقواس القاسية . ويندر أن أرى أن هذه الأسلحة تؤذى الرجال : غالباً ما يخدع الرجال وأما الفتيات فغالباً لا يخدعن . وإذا سألت : فإن جرائمهن في الخداع قليلة . إن «چاسون» الخداع طرد ميديا بينما كانت في ذلك الوقت أمّاً ، وأتت زوجة أخرى إلى أحضان ابن «أيسون»^(٣) . وفيما تخلص دورك يا ئيسوس فإن

(١) تقول الأساطير إن الأمازونيات نساء جليات محاربات كن يقطن منطقة «سيثيا» Scythia .

(٢) كان اسم أوفيدوس هو : «پوبليوس أوفيدوس ناسو» Publius Ovidius Naso .

(٣) يقصد «چاسون» .

« أريادنى » قد وقعت فريسة للطيور البحرية وتكرت وحيدة في مكان غير معروف ^(١) ... إن « أينياس » له شهرة بالتقوى ومع ذلك فإن الضيف يا « ديلو » أملك بسيف وسبب للموت ^(٢) . أخبركم عن سبب هلاككن ؟ إنكن لم تعرفن كيف تحبين . إنه كان ينقصكن المهارة . إن المهارة تجعل الحب يستمر ... والآن تذكرن الشيخوخة . وهكذا لن يضيع وقت سلى . وما دامت الظروف تسمح ولا تزلن في ربيع العمر فالعين لأن السنين تمر مر المياه الجارية ، والموجة التي مرت لا تستدعى ثانية ، والساعة التي انقضت لا يمكن أن تعود . استفيدي من وقتك . إن الوقت ينسل بخطى سريعة . وليس المستقبل كالماضى في الجمال .

لانى أبدأ بالعناية بالجسد . إن العنب ينمو جيداً من الكروم المعنى بها وعلى التربة المعنى بها تسمخ عيدان القمح . إن الحب هبة الإلاه . إن كل واحدة مفتونة بمالها من جمال خلاب ولكن منكن من تحتاج لمثل هذه الهبة . إن العناية تكسبك الجمال ، والإهمال يطمسه . ولو كان شبيهاً بجمال فينوس . وإذا لم تكن نساء الماضى يعتنين بأجسادهن وكذلك لم يكن للرجال القدماء أجساد تحظى بالعناية ، وإذا كانت « أندروماخى » تتدثر في عباءة خشنة فأى غرابة في ذلك ؟ لقد كانت هناك في الماضى بساطة خشنة ولكن روما الآن في عصر ذهبي وتملك الثروات الطائلة للعالم المشهور ... إننا الآن في عصر حضارة غيرت من حياتنا ...

ولكن لا تثقلن آذانكن بالأحجار الكريمة التي يجمعها الهندي الأسود من المياه الخضراء ولا تحضرن مثقلات بملابس قد حيكت بالذهب . وابتعدن عن الثروة التي تبحثون بها عنا . إننا نؤخذ بالأناقة

(١) جزيرة ناكسوس Naxos .

(٢) يقصد « أينياس » الذي احتضنه « ديلو » ملكة قرطاجنة وأحبته ثم انتحرت بعد أن تركها وفشت في إيقانه معها .

الطبيعية . لا تدعى شعرك بغبر نظام . إن لمسة باليدين واحدة تكسبك الجمال وتسليك إياه . وليس لازمة طريقة واحدة . لتختر كل مايناسبها ولتستشر في ذلك الأمر مرآتها . إن الوجه البضاوى يفضل فرقا للشعر على الرأس يترك بدون زينة وتميل الوجوه المستديرة إلى أن تكون في الشعر عقدة صغيرة تترك في أعلى الجبهة بحيث تظهر الأذن وقد تصبغ إحدى النساء شعرها بأعشاب ألمانية وتبحث بفنها عن لون أفضل من لونه الطبيعى . وتسير امرأة أخرى مثقلة بشعر مستعار ... لقد نصحتك ألا يذبح من لبطيك رائحة كريهة وألا تكون رجلاك مخشوشة بشعر حاد لا تدعى حبيبك يجد علب حليك موضوعة على المنضدة .

إن الفن المختفى يساعد جمالك . من ذا الذى لا يؤذيه رؤية الصباغة تلوث جميع الوجه عندما تنزلق لثقلها وتسقط على صدرك الدافئ ؟ فهناك أشياء كثيرة ليس من الصواب أن يعرفها الرجال . إننا معشر الشعراء دعاء للجمال المعشوق . إن « نيميسين » وكذلك « كينثيا » مشهورة . إن الغرب والشرق يعرف « ليكوريس » ^(١) .

ولم يكن غرض أوفيدوس إثارة اللذة بل التسلية ولم يكن ينظر إلى الأشياء شزراً بل كان يبتسم لها .. لقد خلق عالماً يسر به القراء فكانت رسائله موجهة إلى المجتمع المثقف في العاصمة وإدخال السرور عليه وساعده على ذلك حيويته وفطنته وشعوره العميق بالجمال سواء الجمال الجسماني أو جمال الطبيعة وكذلك خياله الحصب القادر على الخلق فلم يكن له نظير بين

(١) « نيميسين » Nemesis « إحدى معشوقات الشاعر « تيولوس » و « كينثيا » معشوقة الشاعر « بروبرتوس » و « ليكوريس » معشوقة الشاعر جالوس الذى كان أول حاكم من قبل الرومان على مصر .
وجسيمهم شعراء الغزل الرومان .

الزومان في سرد القصص ولم تكن شهرته ترجع إلى أنه كتب موضوعاً عن الحب ذلك الموضوع المحبب إلى النفس أو إقناعه للوزن الإلجى وإنما ترجع إلى قدرته كقصاص ماهر خصوصاً سرده لقصص «التغيرات» التي تعتبر كتاباً قيماً في الأساطير القديمة التي يشع منها شعر سهل ، سلس ، شفاف .

لقد كان شاعراً بالسليقة وإن كان شعره لم يبلغ جلال شعر من سبقوه خصوصاً فرجيليوس ولهذا السبب ترك باعترافه الكتابة في شعر الملاحم كشئ خارج عن نطاق قدرته ولكنه كرس نفسه لأن يكون مترجماً لعصره وإن كانت كتاباته يسودها التطويل الملل ، كما أن فلسفته لم تكن عميقة ويعيب عليه بعض النقاد استهتاره وعدم مبالاه بما تحتمه اللياقة وإنه لم يكن متديناً كما أن قصصه لا تظهر خيالاً محلقاً ويكثر من الخيل البلاغية واللفظات الملحة مما جعل «سكاً» يلومه ويصف هذه الأشياء بأنها عبث أطفال (Seneca, Q.N. III, XXVII, 12...) ويصفه بأنه مولع بمهارته .

وأهم كتبه التي تأثر بها الغرب هو كتاب «التغيرات» ذلك الكتاب الذي يسرد فيه بسرعة وطلاقة وحيوية وتأمل وسهولة قصص الحب والمغامرات .

وقد نالت «قصص البطلات» في العصور الوسطى الإعجاب وأوحت للناس فكرة الرومانسية التي امتاز بها حب الفرسان في ذلك العصر .

وعندما ظهرت فكرة الرومانسية بوضوح في القرن الثاني عشر كانت ترجع في بعض أسبابها إلى المسيحية من ناحية احترام العذراء وعدم المبالاة بمتاعب الجسد ولكن من بين الأسباب التي ساعدت على نمو هذه الفكرة كتابات أوفيدوس فقد عالج الحب باعتباره علماً كما كانت مؤلفاته

مفعمة بالعواطف وقد استجابت روحه الحساسة للشعور الشخصي والطبيعة . لذلك كان لأوفيدوس تأثير كبير على الآداب الأوروبية خصوصاً ما يتعلق منها بالحب الرومانسي وتأثر بقصصه الأدباء الفرنسيون والإيطاليون كما تأثر الأدباء الانجليز . وقد بدأت قصصه تدخل الأدب الأوروبي في القرن الثاني عشر كما يظهر من القصة الشعرية الفرنسية المسماة «يراموس وثيسبي» وهي قصة عاشقين بائسين ويقول عنها أوفيدوس بأنه لم يأخذها عن الرومان أو اليونان بل أخذها عن الشرق (Ovidius, Metam. 4. 55-160) وهي تشبه رواية «روميو وجوليت» إذ أن العاشقين تفرقهما العداوة بين أسرتهما ويتقابلان سراً ويموتان نتيجة وهم خاطئ عند علم كل منهما بموت الآخر . وقد ذاعت هذه القصة وكثيراً ما كان يستشهد بها نقلا عن أوفيدوس كثير من الأدباء الفرنسيين والإيطاليين في القرن الثاني عشر وما بعده . وفي القرن الثالث عشر ترجم كتاب التغيرات الذي يعتبر أهم كتاب أثار الطريق للرومانسية .

وترجم هذا الكتاب في القرن الثالث عشر إلى اللغة اليونانية حيث كان في متناول الحضارة الشرقية التي كانت تزعمها الامبراطورية البيزنطية وقد كان يطلق على هذه الفترة من العصور الوسطى بفترة «أوفيدوس»

وفي القرن الرابع عشر عرف تشوسر Chaucer أوفيدوس أكثر من أي كاتب لاتيني آخر ولقد أعجب بالتغيرات التي كانت مستودعاً خصباً للقصص ، وملهماً لمصوري النهضة الحديثة فأخذ تشوسر عنها قصة «يراموس وثيسبي» وجعلها قصته الثانية في مؤلفه (Legend of Good Women) كما أن كتابه المسمى (The Duchess) يبدأ وينتهي بقصة Ceyx و Alcione (Metam. 11. 410-748.)

إن تأثره فيها بشخصية «ديدو» عند أوفيدوس في كتابه التغيرات أعق من تأثره بشخصية «ديدو» عند فرجيلوس في إنباته .

وفي الواقع إن اشارات شكسبير عن الأساطير يرجع معظمها الى أوفيدوس وقد ترجم آرثر جولدينج « Arthur Golding (١٥٦٥ - ١٥٦٧) » كتاب التغيرات فأثرت دون الحاجة إلى قراءتها مباشرة عن الأصل اللاتيني في عقلية شكسبير وشعره .

وكان اهتمام أوفيدوس بالحب والأشياء الخارقة للطبيعة مناسباً لعصر شكسبير بل لشكسبير نفسه . . واستمر تأثير أوفيدوس إذ أن كتابات « ميلتون » Milton تردد صدى « التغيرات » من حيث لغته وطريقة تفكيره كما تأثر أيضاً « دريدن » Dryden « ماثيو پريور » Mathew Prior و « يوب Pope » الذين كتبوا شعرهم بال Heroic Couplets التي تعتبر أوفيدية . وقد أثر جيته Goethe (١٧٩٥) بكتاب « فن الحب » في مؤلفه (الإلجيات الرومانية) وتأثر به الشعراء الغنائيون في القرن التاسع عشر أمثال « وردزورث » Wordsworth و « شيلي » Shelley اللذان يدينان له في كتاباتهما وقد ذكر « كينس » Kents بأنه ليس هناك مادة أمام الشاعر أروع مما في التغيرات .

من هذا كله نرى مدى تأثير أدباء الغرب بأوفيدوس .

ونرى أيضاً أن أوفيدوس كان على حق عندما كان مولعاً بكتبه و ارته الأمر الذي عابه عليه بعض الرومان القدماء .

وكذلك كتابه المسمى The House of Fame به كثير من وصف أوفيدوس لمنزل الشهرة في التغيرات (Metam 12. 39 F) وقد أفاد أيضاً من خطابات أوفيدوس الخيالية في « رسائل البطلات » كخطاب أوفيدوس الخاص بباريس وهيلين في Pretty Coquette Criseyde وقد تأثر تشوسر أيضاً بالتقويم الروماني كما يظهر من قصته Lucretia في كتابه المسمى The Legend of good Women إن مقدرة تشوسر على كتابة قطع مطولة في الوصف والمقارنات ترجع إلى دراسته الكلاسيكية .

وبعد اختراع الطباعة مباشرة أخذ في طبع « رسائل البطلات » تبعاً وكان أول ترجمة لها بالانجليزية سنة ١٥٦٧ وبعد خمس عشرة سنة من ذلك التاريخ استرعت هذه الأشعار نظر « كريستوفر مارلو » Christopher Marlowe الذي أحرقت أشعاره علناً بأمر الكنيسة سنة ١٥٩٩ .

كما تأثر به عصر الملكة إليزابيث فتأثر به « إدموند سبنسر » Edmund Spenser (١٥٩٠ - ١٥٩٦) في قصته Faerie Queene وتأثر به شكسبير بقصة بيراموس وثيسبي في روايته Midsummer-Night's dream وإن كانت معلوماته في اللاتينية أقل بكثير من معلومات سبنسر إلا أن شكسبير تأثر كثيراً بكتابات أوفيدوس حتى أنه يمكن كتابة كتاب كامل عن هذا التأثير فأخذ مثلاً مقطوعته الشعرية المسماة Venus and Adonis عن أوفيدوس متأثراً بكتابه « الغزليات » Amores وقد اهتدى النقاد إلى إشارات كثيرة في رواياته مكتوبة عن كتاب التغيرات مثلاً في روايته المسماة Cleopatra التي يقول عنها النقاد

رحلات حول العالم للكابتن جيمس كوك

بقتله
الدكتور سليم أنطون

قسم علوم البحار بكلية العلوم - جامعة الاسكندرية

القطبية الجنوبية ، وكان وجود أستراليا ونيوزيلاندا وكثير من جزر المحيط الهادى ضرب من الحدس والتخمين ومنذ خمسة قرون فقط لم يكن العالم القديم يعرف شيئاً عن أمريكا ، ولم تكن استدارة الأرض قد ثبتت عملياً بالدوران حولها .

لم تكن الحضارة المصرية القديمة حضارة نهرية فقط بل إنها كانت تحمل أيضاً ملامح الحضارات البحرية فأنشأت الموانئ على سواحل البحرين الأحمر والمتوسط وبنت الأساطيل التي قامت برحلات بعيدة مثل رحلة حتشبسوت حوالي ١٥٠٠ قبل الميلاد إلى بلاد البونت أو الصومال . واشهر الفينيقيون كملاحين مهرة جابوا البحر المتوسط واستكشفوا شواطئه ، بل إنهم غامروا بالخروج إلى السواحل الأوربية والأفريقية المظلة على المحيط الأطلنطي . أما الإغريق فقد مدوا تجارتهم البحرية إلى شواطئ البحر الأسود وحملتهم غزوات إسكندر الأكبر حتى الهند شرقاً مما أضاف الكثير إلى معلوماتهم الجغرافية . ولم يكن الرومان بحارة بارعين ولكن غزواتهم حول البحر الأبيض المتوسط وعلى الأخص في أسبانيا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا ، وسعت دائرة المعارف الجغرافية .

عشر سنوات ذهبية في تاريخ الكشوف الجغرافية ، هي نفسها سنوات مجيدة في حياة جيمس كوك . ففي ٢٨ أكتوبر ١٧٦٨ احتفل كوك بعيد ميلاده الأربعين على ظهر سفينته « انديفر » ، وهو في مسهل رحلته الأولى حول العالم . وفي ١٤ فبراير ١٧٧٩ سقط قتيلاً على شواطئ هاواي في نهاية رحلته الثالثة ، بعد أن جاور الخمسين ببضعة أشهر . وفي خلال هذه السنوات العشر كان كوك قد « أعاد رسم خريطة العالم » ، بعد أن استكشف أو أعاد استكشاف كثير من جزر المحيط الهادى ونيوزيلانده ، والساحل الشرقي لأستراليا والساحل الغربي لأمريكا الشمالية حتى مضيق بارنيج شمالاً . كما استطاع أن يلقى نظره على القارة القطبية الجنوبية وأن يتنبأ بوجودها .

قصة الكشوف الجغرافية :

لا تكاد توجد الآن بقعة في العالم لم تستكشف بعد . وباستثناء بعض الأماكن المنعزلة في القارة القطبية الجنوبية فإن هناك القليل الذي يمكن إضافته إلى خريطة العالم . ولكن الأمر لم يكن كذلك في عصر كوك أي منذ مائتي عام حين كان العالم مجهول تماماً وجود القارة

وفي خلال القرون الثمانية التي أعقبت سقوط الإمبراطورية الرومانية حوالي عام ٤٠٠ انتقلت حركة الكشف الجغرافية إلى العرب وأهل الشمال . جاب العرب المحيط الهندي ووصلوا في رحلاتهم التجارية إلى مدغشقر وموزامبيق في الجنوب وإلى الهند وسيلان والصين في الشرق . أما أهل الشمال فقد عبروا من النرويج إلى أيسلندة ومن اسكتلندا إلى جرينلاند ومنها إلى سواحل البرادور في شمال أمريكا .

وباندلاع الحرب الصليبية توقفت التجارة بين الشرق وأوروبا ، وقاطع العرب كل الدول الأوروبية عدا البندقية التي احتكرت التجارة مع العرب وكونت ثروات طائلة من بيع منتجات الشرق إلى بقية أوروبا ، مما دفع البرتغال وجنوه إلى محاولة الوصول إلى الهند عن طريق الدوران حول أفريقيا .

وهكذا بدأ عصر الكشف الجغرافية بمحاولات البرتغاليين الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح للوصول إلى الهندو جزر التوابل والتي انتهت بنجاح فاسكودى جاما عام ١٤٩٨ . وفي نفس الوقت تقريباً عبرت السفن الأسبانية المحيط الأطلنطي تحت قيادة كريستوفر كولومبوس واكتشفت جزر الهند الغربية ، وإن كان قصدها الأصلي الوصول إلى جزر الهند الشرقية بالبحار غرباً . واصل الأوربيون بعد هذا استكشاف السواحل الأمريكية من الشمال إلى الجنوب بقصد العثور على منفذ يؤدي إلى جزر التوابل في الشرق . وفي عام ١٥١٩ تمكن ماجلان على رأس بعثة أسبانية من اختراق المضيق الذي يعرف باسمه في الطرف الجنوبي من القارة الأمريكية ، ثم الإبحار شرقاً في المحيط الهادى والوصول إلى جزر الهند الشرقية ، فكان بحارته أول من استطاعوا الإبحار حول العالم .

احتكر البرتغاليون الطريق حول أفريقيا ، والأسبان الطريق حول أمريكا الجنوبية ، وظلت لهما السيادة البحرية تاركين إنجلترا وفرنسا يحاولون الوصول

إلى الشرق بالبحث عما كان يعرف « بالمر الشمالى الغربى » في شمال أمريكا الشمالية و « الممر الشمالى الشرقى » في شمال آسيا ولكن هذه الجهود الجريئة لم تحقق أى نجاح حتى تمكنت هذه الدول من هزيمة أسبانيا والبرتغال ومن ثم انجهوا إلى الجنوب أيضاً .

وبتغير القوى البحرية في أوروبا ، أصبح من الطبيعى أن يتغير اتجاه هذا النشاط فبينما كانت الكشف الجغرافية الكبرى من نصيب أسبانيا والبرتغال خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر نجد أن هذا النشاط انتقل إلى هولندا وإنجلترا وفرنسا وروسيا . وبنهاية القرن السادس عشر بدأ الهولنديون والإنجليز الاتجار مع الهند . ولما كانت أسراباً تقع خارج الخطوط الملاحية بين أوروبا وجزر الهند الشرقية ، فإن سواحلها بقيت دون أن تستكشف بدقة حتى عصر كوك .

هذه لحظة سريعة عن التقدم الذى أحرزته البشرية في الكشف الجغرافية قبل عصر كوك . وقد قصدنا بها أن نعرف العالم الذى ولد فيه كوك قبل أن نتحدث عن الرجل .

حياة جيمس كوك :

ولد جيمس كوك في ٢٨ أكتوبر ١٧٢٨ في قرية صغيرة في منطقة يوركشير بالقرب من ميناء ويتبي المطل على بحر الشمال . وقد نشأ في أسرة فقيرة مما اضطره إلى مغادرة المدرسة ليعمل أجيراً مع والده في الزراعة . وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره كان يشتغل كباحر تحت التدريب على ظهر مركب صغير يعمل في تجارة الفحم بين شمال وجنوب إنجلترا . واستغل أوقات فراغه في دراسة الرياضة والملاحة حتى ليقال إنه ، عندما انتهى من فترة تدريبه ، كان يعرف من الملاحة أكثر من أى مستكشف سبقه إلى المحيط الهادى . وسرعان ما أصبح كوك ضابطاً في البحرية التجارية وهو في الرابعة والعشرين من عمره وكان يستطيع أن يحصل

إلى مكان قصي من العالم لرصد كوكب الزهرة . فن المعروف أن كوكب الزهرة — مثله في ذلك مثل عطارد — أكثر قرباً إلى الشمس من الأرض إليها ، وأنه يدور حول الشمس في مدار داخل مدار الأرض حولها . وفي أوقات معينة نادرة تمر الزهرة بين الأرض والشمس فعلاً بحيث تتحرك على وجه الشمس كنقطة سوداء ويترقب الفلكيون حدوث هذه الظاهرة لأنهم يستطيعون من تعيين المدة اللازمة لعبور الكوكب حساب المسافة بين الأرض والشمس . وتستلزم هذه العملية رصد الكوكب من نقطتين تفصلهما مسافة بعيدة على سطح الأرض . وقد وقع الاختيار حينئذ على جزيرة تاهيتي في جنوب المحيط الهادى لمشاهدة عبور كوكب الزهرة . وعرضت الأدميرالية إرسال سفينة تحمل البعثة العلمية إلى هذه الجزيرة التي كان كابتن «واليس» قد اكتشفها حديثاً لحساب بريطانيا .

عاد كوك إلى إنجلترا بعد أن كانت ترتيبات الرحلة قد تمت فوق الاختيار عليه — وهو في الأربعين من عمره — لقيادة هذه البعثة . ومنذ هذه اللحظة سوف نرى أن حياة جيمس كوك ترتبط بالبعثات الكشفية الثلاث التي قادها والتي وصفها في يومياته الشهيرة بحيث يصعب علينا أن نفصل بين حياة كوك ورحلاته ويومياته ، مما يدعونا لأن نعالج هذه الموضوعات كعناصر متداخلة في دراسة أكثر شمولاً .

عصر جيمس كوك :

أدت اكتشافات كوك إلى إلقاء الضوء على خريطة العالم ، فاستطاع برحلاته أن يرفع الحجاب عن بقاع كانت مجهولة للعالم المتحضر ، وأن ينفى ويلصق كثيراً من الشائعات والنظريات عن وجود معالم جغرافية خيالية . وحتى نتبين الدور الذي لعبه كوك ، ونتمكن من تقويم جهده ونتأمله فإنا نعرض هنا إلى حدود العالم في عصر كوك ، والمعلومات التي كانت تحت يده

على وظيفة ربان لو قنع بالعمل على السفن التجارية . وعندما اندلعت الحرب بين المستعمرين الإنجليز والفرنسيين في شمال أمريكا عام ١٧٥٥ ، وجد كوك فرصته في أرضاء طموحه في العمل في المياه البعيدة فتقدم متطوعاً إلى البحرية الإنجليزية كبحار بسيط ، وعمل على ظهر السفينة الجبل تحت إمرة الكابتن سير باليسر ، الذي سرعان ما اكتشف كفاءته وخبرته . نال كوك ترقية سريعة واشترك كضابط في الحرب الدائرة في شمال أمريكا ، ولكن هذه المشغوليات لم تبعده عن كتب الرياضة والفلك وغيرها حتى يرفع من مستوى تحصيله في المدرسة . وكان الإنجليز يستعدون لمهاجمة كيوبك وانتراعها من أيدي الفرنسيين ، وكان نجاحهم رهناً بقدرةتهم على الملاحة في نهر سانت لورانس فكلف كوك بعمل مساحة للنهر بين كيوبك والبحر ، وقام فعلاً خلال أسبوع من العمل تحت جنح الظلام برسم خريطة دقيقة لهذه المنطقة ونجح في إرشاد سفن الأسطول بتحديد المجرى الملاحي بوساطات عوامات حتى تستطيع السفن الكبيرة الصعود في النهر دون عقبات واقرن احتلال الإنجليز لكيوبك بالمهمة التي قام بها كوك مما أكسبه حظوة لدى رؤسائه .

اشترك كوك بعد ذلك في استعادة نيوفوند لاند عام ١٧٦٢ وقام بعمل مساحة جزء من الشاطئ فعين في وظيفة «مساح بحري لساحل نيوفوند لاند والبرادور» وظل في هذه الوظيفة حتى عام ١٧٦٧ ، أعد خلالها عدداً من الملاحظات في الإرشاد الملاحي لهذه المنطقة ، والتي صدرت (١٧٦٦ — ١٧٦٨) . تحمل دليلاً على كفاءته وتمكنه من علوم المساحة البحرية . وفي خلال هذه السنوات أيضاً ارتفع صيته كرياضي وفلكي برصده الكسوف الشمسي في ٥ أغسطس ١٧٦٦ ، وكتاباته في الحقبة العلمية «المراجعات الفلسفية» . وفي عام ١٧٦٨ كانت الجمعية الملكية — وهي أكبر هيئة علمية في بريطانيا — تعد العدة لإرسال بعثة

عن الأراضي التي اكتشفها فيما بعد ، وعن النظريات التي كانت تراود العلماء وتشغل حيزاً من معتقدات الجغرافيين والملاحين في ذلك العصر .

فع انتهاء القرن السادس عشر كان هناك تقدم واضح في معلومات الأوربيين عن توزيع اليابس والماء على سطح الأرض . واحتلت أمريكا مكانها كمساحة شاسعة من اليابس على خريطة العالم . وأخذت الرحلات خلال القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر تسد الثغرات في معلوماتنا عن خريطة العالم ، وعلى الأخص في المحيط الهادى ، أضخم المحيطات وأحدثها اكتشافاً . ولكن « المحيط الجنوبي » ظل يمثل مساحات ضخمة من المياه التي لم تبهر فيها أية سفينة . فحتى رحلة كوك الثانية لم تكن الدائرة القطبية عند خط عرض ٣٠° ٦٦° جنوباً قد عبرت بعد ، بل إن عدداً قليلاً من السفن كان قد أبحر حتى ٣٠° جنوباً . وطبعاً أن تبقى هذه المياه مثاراً لخيال الجغرافيين والملاحين ، وأملأ براود المستعمرين ومكاناً للتنافس بينهم .

شغل الجغرافيون والمستكشفون في ذلك الوقت ثلاث قضايا هامة دار حولها كثير من النقاش ، وقرر لكوك أن يقدم للعالم - خلال رحلاته الثلاث - حلاً لهذه القضايا الثلاث التي نعرض لها هنا .

أولاً : القارة الجنوبية :

والتي عرفت حينئذ بأرض الجنوب المجهولة (Terra Australis Incongenita)

بدأت الرحلات الهامة في المحيط الهادى تنجده خلال القرن السابع عشر إلى البحث عن أرض ضخمة مجهولة إلى الجنوب من هذا المحيط . ويرجع أصل هذه العقيدة إلى العصور الكلاسيكية ، عندما اعتقد الجغرافيون بوجود أرض في الأطراف الجنوبية من العالم . ووضع بطليموس الجغرافى هذه

الأرض على الخريطة كجزء من اليابس يمتد بين أفريقيا وآسيا على طول المحيط الجنوبي . وبالرغم من أن كثيراً من آراء الجغرافيين القدامى قد تداعت وانتهت في العصور الوسطى ، فإن نظرية بطليموس بقيت ذات أثر قوى ، كما ظلت خرائطه كمرجع أساسى حتى اكتشف الطريق البحرى إلى الهند .

ووجدت الفكرة القديمة قبولاً لدى كثير من مشاهير الجغرافيين في النصف الثانى من القرن السادس عشر ، مثل الجغرافى الهولاندى « ميركاتور » ، الذى لم يضعها فقط في خرائطه ، بل أنه برر ضرورة وجودها بأن مثل هذه الكتلة من اليابس لازم لموازنة القارات في النصف الشمالى من الكرة الأرضية . ورغم أن هذه النظرية التي تدعو إلى التوزيع المتوازن لليابسة على سطح الكرة الأرضية لم تقبل من الجميع ، فإنها كانت عاملاً أساسياً في إحياء نظرية القارة الجنوبية .

وجاءت الكشوف المتتالية وكل منها يحمل بعض الأمل في وجود مثل هذه القارة . فعندما عبر ماجلان المضيق الذى يعرف باسمه في الطرف الجنوبي من قارة أمريكا الجنوبية ، كانت هناك أرض تمتد إلى الجنوب . وظلت خرائط الأوربيين تظهرها لسنين عديدة كجزء من القارة الجنوبية الضخمة . حتى أثبت سير فرانسيس دراك أن هذه الأرض التي تعرف باسم (Tiera del Fuego) ما هي إلا جزيرة صغيرة تنهى جنوباً برأس هورن . ولكن نتائج بعض الرحلات الاستكشافية التالية كرحلات شوتن وكروس وجانزون ظلت تؤيد هذا الاحتمال ، فقد اتجه معظم المستكشفين في ذلك العصر إلى أن يأخذوا كل أرض جديدة تكتشف إلى الجنوب على أنها جزء من القارة القطبية الجنوبية . وظل هذا السؤال قائماً حتى عصر كوك : هل توجد حقاً هذه القارة الجنوبية وإذا كان الأمر كذلك فما هي طبيعتها وامتدادها الجغرافى ؟

ثانياً : القارة الاسترالية :

بدأ الهولنديون استكشاف واستعمار جزر الهند الشرقية ومنها وصلوا إلى سواحل أستراليا . ولكن هناك من يرى أن سفن أسبانيا والبرتغال بلغت أستراليا قبل الهولنديين . ويعتمد هذا الرأي على بعض الخرائط التي يرجع تاريخها إلى عام ١٥٣٠ . بينما يرفض جمهرة من العلماء هذا الرأي ويعتقدون أن هذه الخرائط تعتمد على الخيال أو على أحاديث الأهالي في جزر الهند الشرقية .

جاء اكتشاف القارة الأسترالية متأخراً ، فقد كانت تقع خارج الخطوط الملاحية بين أوروبا وجزر الهند الشرقية . وحتى عندما عرف بوجودها فإن استكشافها واستعمارها تأخر كثيراً بسبب التقارير غير المشجعة التي عادها الرحالة الأوائل الذين أبحروا على طول السواحل الغربية القاحلة ، ومن أمثلة هذه التقارير ما جاء في وصف واحد منهم للشمال بأن « الجانب الأكبر منه صحراء ويسكنه في بعض الأماكن قوم سود قساة متوحشون » !

استطاع الهولنديون في القرن السابع عشر أن يطردوا البرتغاليين والإنجليز من جزر الهند الشرقية ويستولوا على تجارة التوابل . وكان أهم مركز تجاري لهم ميناء باتافيا في جزيرة جاوه التي نعرفها الآن باسم جاكرتا . والواقع أن الهولنديين لم يحتلوا فعلاً سوى جزيرة جاوه واكتفوا بإقامة مراكز تجارية على الجزر الأخرى . وقد وجدت شركة الهند الشرقية الهولندية أن لاحتلال أستراليا عملية غير اقتصادية . وخاصة أن التقارير الأولى للمكتشفين الأوائل لم تكن مشجعة . ومن ناحية أخرى فقد كان الهولنديون يرفضون أن يروا أوربياً آخر يستقر في هذه الأرض لذلك أعلنوا ملكيتهم لها وادخلوها في خرائطهم وأسماها هولندا الجديدة . لعل أول من اكتشف أستراليا هو وليم جانزون

الهولندي ، الذي أبحر على طول الساحل الجنوبي لغينيا الجديدة ثم تابع رحلته جنوباً حتى وصل إلى مضيق كارينتاريا في شمال أستراليا واستمر يتحرك على طول ساحله الشرقي حتى أجبرته عداوة الأهالي على العودة . ولكن أهم رحلة استكشافية تسبق رحلة كوك كانت بقيادة ابل تاسمان الهولندي عام ١٦٤٢ أي قبل رحلة كوك بأكثر من مائة وعشرين عاماً ، وكان الحاكم الهولندي لجزر الهند الشرقية فان ديمن يرغب في معرفة نطاق هذه الأرض الجديدة فأرسل بعثة بقيادة تاسمان ، الذي غادر باتافيا متجهاً إلى الغرب حتى جزر موريشياس في المحيط الهندي ثم قفل عائداً إلى الشرق والجنوب الشرقي ليقع على جزيرة كبيرة أطلق عليها اسم أرض فان ديمن هي ما نعرفها اليوم بجزيرة تاسمانيا في جنوب شرق أستراليا . ومن هنا اتجه تاسمان شرقاً مع الرياح الغربية حتى وقع بصره على نيوزيلاند ، فأبحر على طول ساحلها الغربي ومن هناك عاد إلى جاوه ماراً بشمال غينيا الجديدة .

يرى بعض الكتاب أن رحلة تاسمان كانت « فشلاً رائعاً » فن سوء حظّه أنه دار حول أستراليا دون أن يراها ، ولكنه استطاع بذلك أن يحصر المساحة التي يمكن أن تقع فيها القارة الجنوبية ، كما أثبت أن أستراليا ليست جزءاً من القارة الجنوبية ، وإن كان قد توهم أن نيوزيلاندا جزء من القارة الجنوبية وبالرغم من هذا فإن رحلة تاسمان تعد من أنجح الرحلات الكشفية فقد أدت إلى إضافة تاسمانيا ونيوزيلاندا وعدد آخر من الجزر الصغيرة إلى خريطة العالم ، وفتحت الباب على مصراعيه لرحلات كوك التالية .

ثالثاً : الممر الشمالي الغربي :

ذكرنا فيما سبق أن الطرق البحرية إلى جزر الهند الشرقية كانت تقع في أيدي الأسبان والبرتغاليين ، بينما بقيت دول شمال غرب أوروبا بعيداً عن هذا الميدان في وقت كانت النزعات القومية تفرق بينها ، وكان

بوجانفيل الفرنسي قد استعمرها في رحلة سابقة . واستطاع بيرون في رحلته عبر المحيط الهادى أن يكشف عدة جزر وأن يقدم بعض الأدلة على وجود أرض إلى الجنوب ، وهو زعم لم تثبت صحته بعد ذلك .

لم تنجح هذه الرحلة كثيراً ، فتقرر إرسال سفينتين بقيادة كل من واليس وكارتيريت ، ولكن السفينتين افرقتا عند دخولهما المحيط الهادى ، واتخذتا مسارين مختلفين ، فاكشفت الأولى جزيرة تاهيتى الكبيرة واكتشفت الثانية مجموعة جزر سانتا كروز ، وصححت موقع عدد من الجزر التي سبق اكتشافها .

وأسمهم الفرنسيون في هذا النشاط برحلات لويس انطوان دى بوجانفيل الذى قاد عامى ١٧٦٣ ، ١٧٦٥ رحلتين لاستعمار جزر فالكلاند ثم ذهب في عام ١٧٦٦ ليسلم هذه الجزر إلى أسبانيا ومنها اتجه إلى ريودى جانيرو حيث اصطحب معه سفينة تموين ليبدأ رحلة حول العالم عبر فيها المحيط الهادى بقصد البحث عن حل لمسألة القارة الجنوبية . فزار جزيرة تاهيتى بعد اكتشاف واليس لها بيضعة أشهر ، ثم اكتشف مجموعة جزر ساموا ثم زار عدداً من الجزر التي تقع إلى الشرق من استراليا ، ومنها اتجه إلى الساحل الشمالى لغينيا الجديدة في طريق عودته إلى فرنسا التي وصلها عام ١٧٦٩ ، بعد أن غادر كوك انجلترا في رحلته الأولى .

يوميات الكابتن كوك :

من تقاليد البحر أن يحتفظ قبطان السفينة بسجل يكتب فيه بانتظام الأحداث التي تمر بها السفينة . وعندما تكون الرحلة غير عادية ، والأصقاع التي تمر بها السفينة غير معروفة ، يصبح دفتر الأحوال هذا عملاً له أهمية كبيرة ، وخاصة إذا كتبه قبطان مثل كوك ، ذلك العالم المدقق ، ذو الحاسة السادسة للكشوف الجغرافية ، والذي كان يعرف تماماً أبعاد المهمة المنوطة به ، ويعرف كيف يحققها على أكمل وجه

التنافس على المستعمرات والاتجاه إلى التوسع هو الصفة الغالبة بينها . وكان طبعياً أن تتجه هذه الدول إلى البحث عن طريق آخر إلى الشرق ، وأن يكون بحثها في مناطق لم تستكشف بعد . وانفرد الانجليز والهولنديون بمحاولة الوصول إلى جزر الهند الشرقية بالأبحار حول شمال آسيا شرقاً أو أمريكا غرباً . وقد بدأت محاولات البحث عن « المر الشمالى الشرقى » في شمال آسيا وانتهت أولاً .

ومن ثم انبجوت جهود الرحالة إلى العثور على « المر الشمالى الغربى » على الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية . وتتعاقب رحلات المستكشفين فروبشير الانجليزى (١٥٧٦ - ١٥٧٨) وجون دافيز (١٥٨٥ - ١٥٨٧) على نفقة تجار لندن ، ثم هنرى هلسون (١٦٠٩ - ١٦١٠) في خدمة الهولنديين ، وباتون (١٦١٢) وييلوت وبافين (١٦١٥ - ١٦١٦) وقد كشفت هذه الجهود عن تفاصيل كثيرة في خريطة الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية ، ولكنها لم تنجح في الكشف عن ممر يؤدي إلى المحيط الهادى . وبقيت هذه المشكلة معلقة ليعاود كوك المحاولة في رحلته الثالثة .

• • •

هذه هي القضايا الثلاث التي شغلت بال الجغرافيين والملاحين والمستعمرين والساسة في هذا العصر ، وقدر لكوك أن يغير بشكل حاسم في أفكارهم جميعاً نتيجة للحقائق الجغرافية الجديدة التي عاد بها من رحلاته .

لم يكن كوك وحده في الميدان ، ويجدر بنا أن نأخذ فكرة عن الرحلات المعاصرة له حتى نستطيع أن نقدر النجاح الذى حازه بالمقارنة مما أحرزه معاصروه من المستكشفين في نفس المياه التي أبحر فيها كوك . ففى عام ١٧٦٤ غادر جون بيرون لإنجلترا ، بتعليمات للبحث عن جزر بيبس وجزر فالكلاند ولكنه لم يجد الجزر الأولى التي قيل إنها شوهدت عام ١٦٨٤ ، واستولى على مجموعة جزر فالكلاند التي توجد بالقرب من مضيق ماجلان ، وحاسباً إياها جزر بيبس ، وكان

أثارت رحلات كوك كثيراً من الخيال ، وأقبل الكثيرون على قراءتها بما جعل الناشرين يتبارون في إصدارها بمختلف اللغات وفي طبعات وأحجام عديدة وتحت عناوين متباينة . ويستطيع القارئ أن يتبين هذا الاقبال من مقدمة أحد الناشرين عام ١٨٣٣ ، والتي أعرض هنا جزءاً منها ، يقول الناشر « بن كل الملاحين الذين عرفهم العالم ، كان الكابتن كوك أكثرهم قدرة ومهارة كما فاقهم بكثير في النجاح الذي حققه . وقد أخذ وصف رحلاته الثلاث ، منذ أمد طويل ، مكاناً منفوقاً على أي أعمال مماثلة . فنشرت أعماله في جميع الأحجام ، ويمكن أن يقال أنها أصبحت مرجعاً أساسياً للمدارس ، وجزءاً لا غنى عنه في مكتبة رجل البحر » .

الرحلة الأولى :

كان الهدف الأول لهذه الرحلة هو رصد كوكب الزهرة من جزر تاهيتي أثناء عبوره عام ١٧٦٩ . ولكن الآمال الكبيرة في احتمال الكشف على القارة الجنوبية دعت البحرية إلى تخصيص سفينة تحمل بعثة الجمعية الملكية إلى تاهيتي ثم تتجه بعد ذلك إلى القارة المنشودة التي كان الكل يعتقد أنها أكبر من أوروبا وآسيا مجتمعتين وأنها سوف تفيض بالثروة والرخاء على أول دولة ترفع عليها علمها . تولى كوك قيادة هذه الرحلة وكان تمكنه في علوم الفلك والملاحة قد رشحه لتولى رئاسة هذه البعثة العلمية ، التي كانت تضم عدداً من العلماء منهم شارل جرين الفلكي وجوزيف بانكس عالم النبات المعروف الذي منح لقب سر وانتخب فيما بعد عضواً بالجمعية الملكية وصار رئيساً لها لمدة تزيد على الأربعين عاماً ، وترك للمتحف البريطاني مجموعات نباتية لا تقدر بثمن . وقد صاحب بانكس في هذه الرحلة صديقه دكتور سولاندر وعدداً من مساعديه ، حتى يقوموا ببحوث في التاريخ الطبيعي . وقد نجح كوك في التعاون مع مجموعة العلماء وتيسير مهمتهم ، كما كان للحاس

يمكن . ويوميات البحر هذه هي المصدر الرسمي لأي كشف جغرافي جديد ، ومرجع للعلماء في التاريخ للكشوف الجغرافية ، وخاصة عندما تتنازع الأمم شرف سبق إلى هذه الفتوح سواء عن رغبة علمية أو نزعة استعمارية . ولكن هذه اليوميات في حالتها الأصلية تصبح عبئاً على القارئ الباحث أو القارئ العابر بما فيها من تفاصيل قد لا تمت بصلة كبيرة للموضوع الأصلي . لذلك يعمل أصحابها أو الناشر على إعادة كتابتها بعد تصفيتها من التفاصيل غير الأساسية . وهذه اليوميات لمشاهير المستكشفين تعطينا عادة صورة حية لظروف المعيشة على ظهر السفينة ، وانفعال الكاتب بالأرض الجديدة وأهلها ، والأهداف الحقيقية لهذه الرحلات ومدى نجاحها .

صدرت يوميات كوك على مراحل متتالية وتحت عناوين مختلفة . ففي عام ١٧٧٢ - ١٧٧٣ نشر دكتور هوكسورث كتاباً تحت عنوان « رحلات » وتولى فيه تحرير حكاية كوك عن رحلته الأولى تحت عنوان « وصف لرحلة حول العالم في السنوات ١٧٦٨ - ١٧٧١ » .

أما قصة الرحلة الثانية فقد كتبها الكابتن كوك نفسه بالاشتراك مع جورج فورستر ابن الدكتور فورستر العالم الطبيعي ، واللذين صحبا في رحلته الثانية وتولى دوجلاس إصدارها في جزئين عام ١٧٨٤ تحت عنوان « رحلة إلى القطب الجنوبي وحول العالم » .

أما يوميات الرحلة الثالثة فقد قام كوك بكتابتها حتى مصرعه ثم تولى الملازم « كنج » - الذي رقى فيما بعد إلى قبطان - كتابة بقية الرحلة حتى العودة إلى إنجلترا . وقد نشرت الرحلة الثالثة بواسطة دوجلاس أيضاً في ثلاثة أجزاء عام ١٧٨٤ ، تحت عنوان « رحلة إلى المحيط الهادى ... لعمل استكشافات في نصف الكرة الشمالي » .

٤٠° إلا إذا وقعت عليها قبل ذلك ، أما إذا لم تكتشفها أو أية علامات تدل عليها في هذا السار ، فعليك أن تتقدم للبحث عنها إلى الغرب ، بين خط العرض السابق ذكره وخط عرض ٣٥° حتى تكتشفها أو تقابل الساحل الشرقي للأرض التي اكتشفها تاسمان والتي تسمى الآن نيوزيلانده . . وإذا فشلت في اكتشاف القارة . . فعليك عندما تصل إلى نيوزيلانده أن تلاحظ خطي العرض والطول اللذين تقع عندهما هذه الأرض ، وأن تكشف أكثر ما يمكنك من سواحلها بقدر ما تسمح حالة المركب ، وصحة بحارها ، وغزوتك من الأكل ، وهكذا لم يكن رصد عبور الزهرة سوى الهدف المعلن لبعثه كان الهدف الحقيقي لها هو الكشف عن القارة الجنوبية ، وإضافة أرض جديدة للامبراطورية . وقد زود كوك عند سفره بكثير من المعلومات والخرائط والمراجع ، كان بينها كتاب دي بروس^(١) الفرنسي عن تاريخ الملاحة حول أرض الجنوب ، والذي كان يحوى عدة بيانات هامة عن القارة الجنوبية ، ودعوة حارة إلى الفرنسيين للقيام بعمل استكشافي في هذه المنطقة وتكررت هذه الدعوة في بريطانيا عام ١٧٦٦ بواسطة كالندر ، ثم جاء داريميل ، وكان من غلاة المؤمنين بوجود هذه القارة والداعين للبحث عنها ، فألف كتاباً صغيراً جمع فيه بيانات عن الرحلات السابقة لهذا الجزء من العالم ، وأعطى مخطوطاً منه إلى جوزيف بانكس قبل أن تغادر البعثة إنجلترا . وكان من رأى داريميل أن هذه القارة تقع على مسافة قصيرة إلى الغرب من أمريكا الجنوبية . ولهذا السبب فإن كوك عندما غادر كاب هورن في طريقه إلى تاهيتي اتخذ كما يقول في مذكراته « مساراً أكثر انحرافاً إلى الغرب من أية سفينة فعلت ذلك من قبل ، ولكن هذا لم يسفر

بانكس وإخلاصه وتعاونه مع كوك الفضل الأكبر في النجاح الذي حققته البعثة . وقد أعطت هذه المجموعة من العلماء البعثة طابعاً جديداً لم تعرفه الرحلات الماثلة من قبل .

ووقع الاختيار على السفينة « انديفر » التي بنيت في ويتبي لتجارة الفحم . وهي سفينة ذات ثلاثة قلاع تبلغ حمولتها ٣٦٨ طناً ، وتمتاز بغاطس صغير ، وسعة كبيرة وإمكانية رفعها على الشاطئ لعمل الإصلاحات الضرورية وكانت هذه كلها كما أثبتت حوادث الرحلة مميزات كبيرة لسفينة سوف تبحر لمسافات طويلة في مياه ساحلية لتتمكن من رسم الشواطئ الجديدة التي ستكتشفها .

غادرت « انديفر » إنجلترا في ٣٠ يولييه ١٧٦٨ ، وهي تحمل ٩٤ فرداً على ظهرها . وفي يناير ١٧٦٩ كانت تمر بكاب هورن في طريقها إلى المحيط الهادى وفي ١٣ أبريل بلغت مياه تاهيتي وبدأت في الاتصال بالأهالى . وفي خلال ثلاثة أشهر من الإقامة استطاع كوك - بفضل النظام الدقيق الذي فرضه على بحارته - أن يحافظ على علاقات المودة مع الأهالى . وأخيراً جاء يوم ٣ يونيه المنتظر الذي ثبت كما يقول كوك « أنه صالح تماماً لأغراضنا كما كنا نرجو . فلم تر محابة واحدة طول اليوم وكان الهواء شفافاً فحصلنا على كل ميزة يمكن أن نتمناها في ملاحظة عبور كوكب الزهرة على قرص الشمس » وهكذا أمكن للبعثة أن ترصد الزهرة من مكانين أو ثلاثة على الجزيرة . وبالإضافة إلى هذا قامت مجموعة العلماء بعدة رحلات داخل الجزيرة وعلى طول الساحل للدراسة الجزيرة من عدة وجوه مختلفة .

وإلى هنا كانت المهمة المعلنة للبعثة قد انتهت ، ولكن الأدميرالية كان لها هدف آخر ، ففي مظهر مغلق كان كوك يحمل أوامر سرية بأن يتقدم من تاهيتي إلى الجنوب بقصد الكشف عن القارة (التي توجد إلى جنوب مسار والاس) حتى تصل إلى خط عرض

(١) de Brosses' : Histoire des navigations aux terres Australes.

عن أى كشف حتى وصلنا إلى المنطقة المدارية حيث اكتشفنا عدة جزر .

غادرت البعثة تاهيتى فى ٣١ يولية ١٧٦٩ أى بعد عام من بدء الرحلة . وهنا يبدأ جانبها الشيق من الناحية الجغرافية . واصطحبت البعثة معها أحد الأهالى بناء على رغبته . وقد قدم توييا ، وهذا اسمه خدمات جليلة للبعثة فى مراحلها التالية . وما كاد كوك يتحرك غرباً حتى عثر على مجموعة من الجزر سماها جزر الجمعية تكريماً للجمعية الملكية ، ثم اتجه جنوباً بحثاً عن القارة المنشودة ، حتى قطع ١٥٠٠ ميل ووصل إلى ٤٠° جنوباً دون أن يعثر لها على أثر فغير اتجاهه إلى الغرب ليصل فى ٧ أكتوبر إلى نيوزيلانده .

اكتشف تاسمان نيوزيلانده عام ١٦٤٢ ، ولكن هولندا لم تستطع احتلالها ، بل إن أحداً من الأوربيين لم يرها حتى وصل كوك . وكان تاسمان يظن أنه اكتشف جزءاً من القارة الجنوبية ، ولم يكن كوك يدرك عند وصوله إذا كانت هذه هى القارة الجنوبية ، ونراه يعلق على هذا قائلاً « هذه الأرض أصبحت موضوعاً لكثير من المناقشات الشيقة ، ولكن يبدو أن الفكرة العامة تقول إننا وجدنا أرض الجنوب المجهولة » . لذلك عندما وصل كوك إلى الساحل الشرقى ، وهو الساحل الذى لم يره تاسمان أبداً ، قرر أن يبحر على امتداده حتى يتمكن من فحصه وأن يضع حداً لهذه المناقشات .

تحرك كوك ببطء فى اتجاه الجنوب حتى رأس « تيرن آجين » (Cape Turn Again) ثم عاد ثانية فى اتجاه الشمال لرسم خريطة الساحل ، ثم دار حول الجزيرة الشمالية واستكشف المضيق المعروف باسمه والذى يفصل بين الجزيرتين الرئيسيتين لنيوزيلانده ، وكان تاسمان قد اعتبره خليجاً مغفلاً . ثم دار حول الجزيرة الجنوبية ، وانتهى من رسمها بدقة فى مارس ١٧٧٠ . واستطاع أن يستكشف ٧٤٠٠ ميل من السواحل فى أكثر قليلاً من ستة أشهر ، وأن يرسمها

بدقة كبيرة ، لا تزال تشهد حتى اليوم بقدرته على الملاحظة ، وكفاءته فى المساحة البحرية . وعندما حاول أحد المستكشفين الفرنسيين أن يعمل خريطة لجزء من الساحل فيما بعد ، وجد أنه « عندما قارنت خريطتى بخريطة كوك وجدت أنها على درجة من الضبط والدقة فى التفاصيل حتى أنها لادهمتتى بدرجة تفوق قدرتى على التعبير » . لأننى أشك إذا كانت سواحلك الفرنسية قد رسمت بدقة أكبر .

وبانتهاء هذه المرحلة من الرحلة ، عرف كوك أن نيوزيلانده ليست القارة المنشودة . ولكنه كان قد نفذ تعليمات الأدميرالية بالضبط ، وكان يستطيع أن يعود إلى إنجلترا مباشرة . ولكنه كان يود أن يسلك الطريق الذى يمكن فيه احتمالات الكشف الجغرافى . وكان أمامه أن يعود عن طريق كاب هورن فى أمريكا الجنوبية حتى يدرس احتمال وجود القارة الجنوبية فى هذه الأصقاع ، ولكنه رأى أن يقضى الأبحار فى هذه العروض المتطرفة « فى أعماق الشتاء بسفينة لم تعتبر كافية لمثل هذه المغامرة » . ولهذا السبب أيضاً رفض كوك الأبحار إلى رأس الرجاء الصالح مباشرة . وقرر أنه « يجب علينا أن نعود من جزر الهند الشرقية ، ولهذا السبب يجب علينا عند مغادرة الساحل أن نتجه غرباً حتى نقع على الساحل الشرقى لهولندا الجديدة ثم نتابع اتجاه الساحل إلى الشمال حتى نصل إلى طرفها الشمالى .

وبهذه الفكرة تحركنا فى اتجاه البحر فى مطلع يوم السبت ٣١ مارس ١٧٧٠ وأثبتت هذه الخطة نجاحاً كبيراً ، فقد وقع نظرهم على الأرض مرة أخرى فى ١٩ أبريل « لقد حددت موقع هذه الأرض بخط عرض ٣٨° وأعطيها اسم نقطة هيكس (Point Hicks) الضابط الأول الذى كان أول من رآها » ولكن كوك لم ير أرضاً فى اتجاه الجنوب ورفض أن يذكر إذا كانت هذه الأرض التى اكتشفها متصل مع تاسمانيا أو أرض فان ديمان التى اكتشفها تاسمان أم لا . وبدلاً من أن

وقد أثبت هذا الحادث أن السفينة كانت اختياراً موقفاً بسبب غاطسها الصغير الذي يسمح لها بالبحار في المياه الضحلة . وفي خلال الفترة التي قضتها البعثة على الشاطئ استطاعت أن تستكشف جانباً من الأرض وأن ترى وتصطاد لأول مرة حيوان الكانجارو أكبر حيوان ثدي في أستراليا .

وفي ٤ أغسطس أنزلت أنديفر إلى البحر وتحركت شمالاً على طول الساحل لبضعة أيام ، ولكن القناة بين الحاجز المرجاني والساحل كانت تضيق باستمرار مما يزيد في أخطار الملاحة حتى قرر كوك وضباطه أن يخرجوا إلى البحر عند أول فتحة في الحاجز، ولكنهم ما كادوا يفعلون حتى وجدوا أنفسهم في مأزق أشد خطورة . فان الأمواج والرياح وتيارات المد كانت تدفع بهم نحو الحاجز المرجاني وبجهد كبير استطاع كوك أن يبعد سفينته عن الصخور حتى تمكن في أول فرصة مواتية أن ينزلق مع التيار خلال إحدى الفتحات إلى المياه الهادئة بين الحاجز والساحل .

واصل كوك رحلته شمالاً حتى وصل إلى الطرف الشمالي لأستراليا في ٢١ أغسطس ونراه يكتب «لأنني الآن على وشك أن أغادر الساحل الشرقي هولندا الجديدة الذي سرت بمحاذاته من خط عرض ٣٨° حتى هذا المكان والذي لا أشك مطلقاً أن أحداً من الأوروبيين قد رآه من قبل . . . » .

غادر كوك أستراليا إلى غينيا الجديدة خلال ممر تورس ، وهكذا أثبت كوك أن أستراليا وغينيا الجديدة منفصلتان تماماً ، وهي حقيقة أثبتتها تورس قبل قرن ونصف قبل ذلك ولكنها كانت موضع شك في عصر كوك ، الذي نراه يعلق على بعض الخرائط ويقول في تواضع « لقد اعتقدت دائماً قبل أن أرى هذه الخرائط أنه لم يكن معروفاً إذا كانت هولندا الجديدة وغينيا الجديدة أرضاً واحدة متصلة أم لا . لقد حسنا الآن النقاش في هذا الموضوع تماماً ، وكما أعتقد فان هذا

يتجه كوك جنوباً ليفحص هذا الأمر ، قرر أن يتجه شمالاً على طول الساحل تاركاً هذه المسألة ، حتى عرف عام ١٧٩٨ أن تاسمانيا جزيرة منفصلة تماماً عن أستراليا . وفي أثناء الرحلة شمالاً كانت البعثة تنزل من وقت لآخر على الشاطئ وتتصل بالأهالي الذين كانوا يقابلونهم بكثير من الشك . وفي أحد الأماكن عاد بانكس ، وسولاندر بثروة من النباتات بدرجة جعلت كوك يطلق على الخليج الذي كانت تحيط به الخفزة من كل جانب اسم خليج النبات ، والذي لا يزال يعرف بهذا الاسم حتى اليوم . وإلى الشمال قليلاً اكتشف في ٦ مايو موقع بورت جاكسون الذي احتلته فيما بعد مدينة سيدني .

وبدأت الرحلة تدخل مرحلة خطيرة باقترابها من الحاجز المرجاني العظيم الذي يمتد ١٢٠٠ ميل على طول الساحل الشرقي لأستراليا . فقد وجدوا أنفسهم في المنطقة المحصورة بين الحاجز والساحل ، وهي منطقة تقتضي كثيراً من الحذر أثناء الملاحة بسبب الشعاب التي تختفي تحت سطح الماء وتكون عقبات ملاحية خطيرة . ولمسافة ألف ميل كان هناك دائماً رجل في مقلمة السفينة ليقيس عمق المياه تحته ، ورغمما عن هذه الحيلة فقد وقعت أنديفر صباح يوم ١٠ مايو في مأزق خطير كان يمكن أن يقضي على السفينة وبحارتها . فبعد أن مروا بعدد من الشعاب المرجانية الخطرة وبدأ لهم أنهم دخلوا في مياه عميقة، اصطدمت بصخرة لم يتبينوها، وبقيت السفينة مستقرة عليها على مسافة من الشاطئ . . . وعمل الجميع على إنقاذ سفينتهم فأداروا المضخات والتواكل ما يمكن الاستغناء عنه من السفينة حتى عامت مع ارتفاع المياه أثناء المد التالي . وقد تبين فيما بعد أن السفينة قد نجت بأعجوبة حين اكتشفوا أن الثقب الأكبر في قاع السفينة بقي مسدوداً بوساطة حجر كبير . استطاع كوك أن يقود السفينة بحذر إلى مكان مناسب على الساحل حيث رفعت السفينة على الشاطئ لاصلاحها .

الأمر كان معروفاً من قبل ، ولكن ليس على نطاق عام ، لأننى لا أدعى لنفسى أكثر من أننى أوضحت نقطة كانت غامضة .

وصلت البعثة إلى باتافيا لتقضى بعض الوقت فى الراحة وإصلاح السفينة وتموينها . ولكنها تعرضت للأمراض المناطق الحارة مثل الملاريا والدوسنتاريا فسقط خلال عشرة أسابيع ثلاثون من الرجال ، كان من بينهم توبيا الذى رافق السفينة من تاهيتى . ثم مات جريرن الفلكى بعد أن غادرت السفينة باتافيا فى ٢٧ ديسمبر عام ١٧٧٠ فى طريقها إلى رأس الرجاء الصالح حيث قضت البعثة شهراً . وفى ١٢ مايو ١٧٧١ وصل كوك ورفاقه إلى إنجلترا بعد غيبة استمرت أكثر من سنتين وتسعة أشهر .

كان تقرير كوك إلى الجمعية الملكية غير مرض تماماً ، فان رصد عبور الزهرة لم يأت بجديد فى تحديد المسافة بين الأرض والشمس . ومن ناحية أخرى لم تصل البعثة إلى حل لمسألة القارة الجنوبية . وعدا هذا فان رحلة كوك - بصرف النظر عن آثارها السياسية - قد أضافت كثيراً إلى جغرافية الكرة الأرضية . فقد أظهرت نيوزيلانده كجزيرتين منفصلتين ، وليست جزءاً من القارة الجنوبية كما ظن تاسمان ، كما أنها ضيقت النطاق الذى يمكن البحث فيه عن القارة الجنوبية . وبالرغم من أن كوك ليس المكتشف الأول لأستراليا فانه أضاف الساحل الشرقى بأكمله إلى المعلومات السابقة عن السواحل الأخرى ، وأثبت أن هذه القارة منفصلة تماماً عن غينيا الجديدة . واستطاع كوك أن يدمج كل هذه الاكتشافات بخرايط غاية فى الدقة .

ولعل من أهم النتائج الإيجابية لرحلة كوك ، قدرته على المحافظة على صحة بحارته فى وقت كان مرض الأسقربوط العدو الأكبر للرحلات الطويلة . وأولا الكارثة التى حلت بالبعثة نتيجة للأمراض المعدية لانتهت الرحلة دون ضحايا . فقد عرف كوك باتخاذ إجراءات

مشددة لحماية صحة بحارته ، مثل تزويده البحارة بمصير الموالح وإدخال الخضروات فى الأكل والعناية بنظامية أماكن البحارة . وهكذا كان فى استطاعته أن يعلن - عندما وصل إلى باتافيا - «لأننى أقول بكثير من الرضى لأننى لم أفقد رجلاً واحداً نتيجة المرض خلال الرحلة بأكملها» .

الرحلة الثانية :

عاد كوك إلى إنجلترا فى وقت تزايد فيه اهتمام فرنسا بالمحيط الجنوبي واحتمال الكشف عن القارة الجنوبية. فاكشف كرجيولن (Kerguelen-Trémarec) فى فبراير ١٧٧٢ الجزيرة التى تعرف باسمه فى جنوب المحيط الهندى ، وعاد إلى فرنسا فى نفس الشهر الذى غادر فيه كوك إنجلترا فى رحلته الثانية . كذلك سافر ماريون (Marion-Dufrense) وكورزيت (Corzet) فى رحلة إلى الجنوب حيث اكتشف جزيرة ماريون ثم جزيرة كورزيت فى يناير ١٧٧٢ . وهذه الجزر الثلاث تقع فى المحيط الهندى جنوب خط عرض ٤٥ واعتبرت بوساطة مكتشفها كنقط متقدمة للقارة الجنوبية المشدودة . لم تكن إنجلترا بغافلة عن هذا النشاط الفرنسى فى وقت اشتد فيه التنافس الاستعمارى ، فقررت الأدميرالية الإنجليزية إرسال كوك فى رحلة ثانية ليجد حللاً نهائياً لمشكلة القارة الجنوبية . وأختبرت سفينتان حديثان حملتهما ٤٦٢ و ٣٣٦ طناً ، ولم يلبس أى جهد فى إعدادهما لهذه المهمة بدرجة تفوق أى بعثة سابقة . تولى كوك قيادة السفينة الكبيرة رزوليوشن (Resolution) بينما قاد السفينة الثانية أدفنتشر (Adventure) الكابتن فورنو (Furneaux) الذى خلم كلاً من ثابن تحت قيادة واليس فى بعثة سابقة . وفكر العالم الطبيعى بانكس الذى رافق كوك فى رحلته الأولى أن ينضم إليه فى مهمته الجديدة ولكن هذه الفكرة لم تتحقق وسافر مع كوك عالم فى التاريخ الطبيعى - من أصل ألماني - هو جوهان

فورستر (Johann Forster) مصطحباً ابنه جورج ،
الذى شارك كوك في كتابة رواية هذه الرحلة .

وفي يوم ١٣ يولييه ١٧٧٢ غادرت السفينتان
بليموث ، وكانت التعليلات المكتوبة بتاريخ ٢٥ يونيه
تدل على الأثر الكبير الذى تركته الرحلات الفرنسية على
البرنامج الموضوع ، والذى يشرحه كوك فيقول « كان
على بعد مغادرة رأس الرجاء الصالح أن أتقدم إلى
الجنوب وأن أبذل جهدى كى أقع على رأس
سريكسزيون التى قال عنها مسيو بوفيت إنها تقع في
خط عرض ٥٤° جنوباً وخط طول حوالى ٢٠° ٩١
شرق جرينتش . فاذا اكتشفت هذه الرأس ، كان على
أن أثبت إذا كانت جزءاً من القارة التى جذبت أنظار
الجغرافيين والملاحين القدامى ، أو إنها جزء من جزيرة .
فاذا ثبت الاحتمال الأول ، كان على أن أبذل جهدى
في اكتشاف أكبر جزء منها بقدر ما أستطيع وأن آخذ
بيانات وملاحظات من كل نوع بقدر ما يكون نافعاً
للملاحة أو التجارة أو يعد تقدماً في العلوم الطبيعية . وقد
تلقيت أيضاً توجيهات بأن ألاحظ عدد السكان ، إن
وجدوا ، وما يتصفون به من ذكاء ومهارة ومزاج
واستعداد للتعاون . وأن أبذل جهدى بكل الوسائل
الصحيحة كى أنشئ صداقة وأعقد حلفاً معهم ، وأن
أقدم لهم هدايا من الأشياء التى يقدرونها ، وأن أدعوم
للتجارة ، وأن أظهر لهم كل أنواع الأدب والاحترام .
أما إذا أثبت أن هذه الرأس جزء من جزيرة فقط ،
أو إذا لم أتمكن من العثور على الرأس المذكورة فإن
على في الحالة الأولى ، أن أعمل المساحة اللازمة للجزيرة
ثم أواصل الاتجاه جنوباً ، بقدر ما أستطيع الحكم على
احتمال العثور على القارة الجنوبية وهو ما يجب أن أفعله
أيضاً في الحالة الأخيرة ثم على أن أتقدم شرقاً لمزيد من
البحث عن القارة المذكورة ، كذلك أن أكتشف
الجزر التى يحتمل وقوعها في هذا الجزء الذى لم يستكشف
بعد من نصف العالم الجنوبي ، وأن أبقي في العروض

المتطرفة وأن أنفذ اكتشافاتى كما ذكر سابقاً بالقرب من
القطب بقدر ما تسمح الظروف حتى أكون قد دوت
حول العالم ، وعندئذ يجب أن أتقدم نحو رأس الرجاء
الصالح ومنها إلى إنجلترا » .

غادرت السفينتان رأس الرجاء الصالح في ٢٢
نوفبر ١٧٧٣ في طريقهما نحو الجنوب وبالرغم من
الصيف الجئنى فقد وزعت الملابس الثقيلة على البحارة ،
إذ كان الجو يزداد برودة . وسرعان ما شوهد أول جبل
ثلجى في ١٠ ديسمبر . ثم حاول كوك البحث عن
أرض بوفيه التى كان يعتقد أنها رأس متقدمة للقارة
الجنوبية ، ولكنه لم يجد أى أثر للقارة أو الجزيرة . وفي
يوم ١٧ يناير ١٧٧٣ ، عبرت البعثة الدائرة القطبية
الجنوبية لأول مرة في تاريخ الإنسان ولكن كوك لم يقنع
بهذا ، وواصل التقدم حتى خط عرض ٦٥° ٦٧ في
جو متزايد البرودة وظروف ملاحية خطيرة بسبب
الضباب والأمطار والثلوج والجبال الثلجية ، حتى
اضطر للعودة قائلاً « لم نستطع التقدم أكثر من ذلك فإن
نطاق الثلج كان مغلقاً تماماً إلى الجنوب على طول المسافة
من الشرق إلى الجنوب الغربى دون أقل شاهد لوجود
أى فتحة فيه » . وفي هذه الظروف افرقت السفينتان
ولم تتمكن من التلاقى إلا بعد ثلاثة أشهر في نيوزيلانده
التي اتفق على اختيارها من قبل كنقطة التقاء في مثل
هذه الأحوال ، وكمكان مناسب لقضاء فصل الشتاء .

ومن نيوزيلانده قصد كوك تاهيتى فوصلها في ١٦
أغسطس ١٧٧٣ ومن هناك زار عدداً من الجزر
واستكشفها من بينها مجموعة جزر « تونجا » التى سماها
جزر فريندلى نظراً للعلاقات الطيبة بين سكانها وحسن
استقبالهم للغرباء .

وقبل أن يتجه إلى الجنوب في مهمته الأساسية قرر
للرور بنيوزيلانده وبالقرب من ساحلها افرقت
السفينتان مرة ثانية في ٣٠ أكتوبر وفشلت كل محاولة
للتلاقى وفي ٢٥ نوفمبر بدأ كوك بحثه للمرة الثانية في

عمالاً خطيراً ومتهوراً أعتقد أنه لا يحظر على بال رجل في مثل موقفى. وقد كان من رأى فعلاً ومن رأى معظم الموجودين على السفينة أن هذا الثلج يمتد مباشرة حتى القطب ، أو ربما يتصل على أرض ما ويحيط بها منذ أيام صحيقة . وأنه هنا ، أى في جنوب خط العرض الذى بلغناه يتكون في الأصل كل الثلج الذى رأيناه متناثراً في الشمال ، والذى ينفصل فيها بعد بواسطة العواصف أو عوامل أخرى ، وتحمله التيارات إلى الشمال والتي لوحظ أنها تتجه دائماً في هذا الاتجاه في هذه العروض المتطرفة . وعندما اقتربنا من هذا الثلج سمعنا بعض طيور البنجوين ولكننا لم نرها أو نرى طيوراً أخرى أو أى شيء آخر يجعلنا نعتقد أن هناك أرضاً على مقربة منا . ولكننى أعتقد أنه لا بد أن يكون هناك أرض إلى الجنوب خلف هذا الثلج . وإذا وجدت هذه الأرض فإنها سوف لا تعطينى ملجأ أفضل لهذه الطيور أو أى حيوانات أخرى من الثلج نفسه والذى لا بد أنه يغطيها تماماً .

وبدلاً من أن يعود كوك إلى الجزر التي يعرفها في الشمال فإنه اتجه إلى الشمال الشرق حتى وصل إلى جزيرة إيستر في شرق المحيط الهادى ومنها إلى تاهيتى ثم زار عدداً من الجزر المعروفة واكتشف جزيرة كبيرة هي نيو كاليدونيا (New Caledonia) واستكشف سواحلها واتصل بأهلها ثم اكتشف جزيرة نورفولك قبل أن يصل إلى نيوزيلانده لتكوين السفينة وإعطاء بعض الراحة لرجالها. وهنا استطاع أن يجد بعض الشواهد التي تدل على أن سفينته الثانية « ادفنشر » قد سبقته إلى زيارة نيوزيلانده . غادر كوك نيوزيلانده في ١٠ نوفمبر إلى الجنوب الغربى حتى خط عرض الطرف الجنوبى لأمريكا الجنوبية ثم تقدم في اتجاه الشرق حتى وصل إلى كاب هورن دون أن يرى اليابسة ، وهكذا سقط أى احتمال لوجود القارة المشرقة في جنوب المحيط الهادى بين خطى عرض ٥٠° ، ٦٠° . واستمر

اتجاه الجنوب وفي خلال هذا الصيف الجنوبى اخترق الدائرة القطبية مرتين عند خطى طول ١٤٠° ، ١٠٦° غرباً ، ووصل إلى خط عرض ٧٠° جنوباً وفي يوم ١٤ ديسمبر شاهدوا أول جبل ثلجى وفي خلال الأسابيع الستة التالية أبحرت البعثة في جرقطبي ، تعطينا قصة الرحلة وصفاً تفصيلياً له ، هو أول تسجيل دقيق لهذه الأجواء . ففي ١٤ ديسمبر قابلوا عدداً من الجزر الثلجية الضخمة ثم كمية من الثلج المفكك ، وبتقدمهم أكثر ازداد عدد الجزر الثلجية بسرعة كما ازدادت كميات الثلج المفكك . وسرعان ما أفلتوا من هذه الثلوج ، ولكن بعد أن تلقوا عدة صدمات قاسية من الأجزاء الكبيرة رغم حرصهم على تفاديها . وفي ٣٠ يناير ١٧٧٤ ، في الصباح الباكر ، رأوا ثقباً في الأفق إلى الجنوب ، في أضواء بيضاء ثاجية غير معتادة ، فعرفوا أنها تدل على اقترابهم من حقل من الثلوج . وسرعان ما كانوا على مقربة من حافته ورأوه منتشراً شرقاً وغرباً على امتداد البصر ، وشاهدوا من مكانهم النصف الجنوبى من الأفق مضاء بأشعة من الضوء المنعكس من الثلج إلى ارتفاع كبير ، ورأوا بوضوح ٩٧ جبلاً ثلجياً في وسط الحقل وكان كثير منها في منتهى الضخامة وكانت تبدو على شكل سلسلة من الجبال يرتفع فيها الواحد فوق الآخر حتى يضيعوا في السحاب . وكانت الحافة الخارجية أو الشمالية لهذا الحقل مكونة من ثلج مفكك مفتت ولكنه متراكم بعضه على بعض بدرجة لا تسمح لأى شيء باختراقه . وكان يبلغ الليل عرضاً وفي وسطه يوجد ثلج صلب في جسم واحد متصل تبين أنه من المستحيل التقدم في هذا الاتجاه .

وصل كوك في بحثه جنوباً حتى خط عرض ١٠° - ٧١° وهى أقصى نقطة بلغها إنسان جنوباً وظلت كذلك لمدة نصف قرن بعد كوك . وهنا وصل كوك إلى القرار التالى « سوف لا أقول أنه من المستحيل في أى مكان التقدم أكثر إلى الجنوب ولكن المحاولة قد تصبح

نالت رحلة كوك الثانية شهرة واسعة وحتى نخبين قيمتها نذكر أن أحد المستكشفين الفرنسيين وهو فرانسوا لابروز أرسل في رحلة استكشافية إلى المحيط الهادى بعد عشر سنوات من رحلة كوك (١٧٨٥ - ١٧٨٨) . ورغم كفاءته وبرنامجه الحافل فإن رحلته أثمرت قليلا ولكنه تقبل الأمر راضياً وأعلن في كثير من السباحة « لقد أنجز مستر كوك الكثير من الأعمال - حتى إنه لم يترك لي شيئاً سوى الاعجاب بعمله . . . » .

واندع الآن كوك يكتب تقريره عن هذه الرحلة مبيئاً نتائجها ، يقول كوك : « لقد قمت الآن بالدوران حول المحيط الجنوبي في خط عرض منطرف ، واخترقته بطريقة لا تدع مجالاً للشك في احتمال وجود قارة إلا بالقرب من القطب أبعد من أن تصلها الملاحظة . وبزيارتي مرتين للبحر المدارى فإني لم أنته برأى قاطع بالنسبة للكشوف القديمة فقط ، ولكنى قمت باكتشافات جديدة كثيرة ، وتركت - كما أعتقد - القليل جداً الذى يمكن عمله في هذا الجزء من العالم . ولهذا فإني راض ، تماماً لأن الهدف من هذه الرحلة قد تحقق من جميع الوجوه ، وأن نصف الكرة الجنوبي قد استكشف بدرجة كافية وأن نهاية قاطعة قد وضعت للبحث عن قارة جنوبية ، والتي أثارت - في بعض الأوقات - انتباه بعض القوى البحرية خلال القرنين الماضيين تقريباً ، كما كانت نظرية محبة بين الجغرافيين من كل العصور . »

إننى لا أنكر أن هناك احتمالاً لوجود قارة أو مساحة كبيرة من اليابسة بالقرب من القطب ، بل على العكس إننى من أنصار هذا الرأى ، بل أن هناك احتمالاً أننا رأينا جزءاً منها . فهذا البرد الشديد والجزر الكثيرة والمحلول الواسعة من الثلج العام ، كلها تنحوى إلى إثبات أنه لا بد أن يكون هناك أرض إلى الجنوب . ولقد أوردت بعض الأسباب التى تجعلنى أقتنع أن أرض الجنوب هذه لا بد أنها تقع أو تمتد امتداداً أكبر نحو

كوك في اتجاهه شرقاً فاكشف جزيرة ساوث جورجيا في جنوب المحيط الأطلنطى وهى جزيرة صخرية قاحلة مغطاة بالثلوج القطبية ، وتعد نقطة متقدمة للقارة القطبية الجنوبية . ثم واصل تقدمه شرقاً فاكشف مجموعة جزر ساندويتس الجنوبية ، وأبحر على مقربة من جزيرة بوفيه ولكنه لم يرها ، حتى ألقى مرماه السفينة أمام رأس الرجاء الصالح في ٢١ مارس وهنا عرف أن السفينة « ادفنتشر » قد سبقته في العودة بسنة كاملة . وبعد زيارة قصيرة لجزر الآزور وصلت « رزوليوشن » إلى إنجلترا في ٣٠ يولييه ١٧٧٥ بعد أكثر من ثلاث سنوات وبعد أن قطعت أكثر من ٦٠ ألف ميل أى ما يكفى للدوران حول الأرض مرتين . ولعل أكبر نجاح حققه كوك في هذه الرحلة ، هو نهايتها السعيدة فلم يفقد من بين ١١٢ رجلاً سوى ثلاثة بسبب الحوادث ورجلاً واحداً فقط بسبب المرض . وكان من المعتاد أن تفقد السفن ثلث بحارتها في هذه الرحلات الطويلة ، ولكن اهتمام كوك بنظافة عتابر البحارة وملاصمتهم وإصراره أن يأكلوا وجبات متنوعة ، وأن يحتوى طعامهم على الخضروات ولحوم طازجة ثم تزويد مخازن السفينة بالخضروات والحساء المحفوظ كل هذا حفظ للبحارة صحتهم فلم يمض واحد منهم بمرض الأسقربوط .

كان البرنامج الذى قام به كوك برنامجاً هرقلياً . في وقت كان تحديد موقع السفينة في البحر عملاً صعباً معرضاً لكثير من الخطأ . وكانت الصعوبة المعتادة تكن في تحديد خطوط الطول وكان كثير من الاكتشافات تفقد أو يصعب العودة إليها مثل ما حدث في جزيرة بوفيه . ولكن كوك استعان بالأدوات الملاحية الحديثة وكان من أهمها جداول ملاحية جديدة وكرونومترات غاية في الدقة ، مما ساعده على بلوغ الدقة الكبيرة التى عرفت بها خرائطه وتقاريره .

الشمال في مواجهة المحيط الأطلسي الجنوبي والمحيط الهندي ولأنني أضيف إلى هذه الأسباب البرد الذي عانيتاه إلى درجة أكبر في هذه البحار عن المحيط الهادى الجنوبي عند نفس خطوط العرض

ثم يختم حديثه معلقاً على نتائج رحلته فيقول :
« إذا كنا قد توصلنا لاكتشاف قارة هناك لكننا أقلر على إرضاء حب الاستطلاع ، ولكننا نرجو ونحن لم نجدها بعد كل هذا البحث المضنى أن نقلل من الحس والتخمين في المستقبل بشأن العوالم غير المعروفة والتي لا تزال في حاجة إلى الاستكشاف . ولكن مهما كان حكم رأى العام على الأشياء الأخرى فاني - بكثير من الرضى ودون أن أدعى أى فضل سوى قياى بالواجب - أختتم هذا الحديث بملاحظة تدعمها الحقائق وهي أننا اكتشفنا امكانية المحافظة على الصحة بين هذا العدد من ركاب السفينة ، وبمثل هذه المدة الطويلة ، وفي مثل هذه الأجواء المتنوعة ، وفي وسط هذه الصعوبات والمتاعب المستمرة . وأن هذا سوف يجعل هذه الرحلة مرموقة بين المهتمين بهذه الناحية الإنسانية ، عندما يفقد النقاش حول القارة الجنوبية قدرته على جذب الانتباه وإشاعة الفرقة في رأى بين الفلاسفة » .

الرحلة الثالثة :

عاد كوك إلى وطنه حيث نال كثيراً من الشهرة وأسبغ عليه كثيراً من التقدير فاستقبله الملك جورج الثالث ورفق إلى رتبة أعلى وعين مديراً لمستشفى جرينتش . وخلال العام التالى لعودته كانت البحرية البريطانية تستعد لارسال بعثة إلى شمال المحيط الهادى للبحث عن الممر الشمالى الغربى الذى أوردنا عجالة عنه فيما سبق . ولما كانت المحاولات السابقة قد بدأت جميعاً من المحيط الأطلسي لاختراق شمال القارة الأمريكية من الشرق إلى الغرب ، فقد كان هناك فسحة من الأمل في العثور على هذا الممر بالبحث في الاتجاه المعاكس وخاصة

أن الساحل الأمريكى الغربى المطل على المحيط الهادى لم يكن معروفاً بدرجة كافية . وطلب من الكابتن كوك الاشتراك في اختيار قائد لهذه البعثة ، ولكنه عرض أن يتولى قيادتها بنفسه فقبل هذا العرض في الحال وبترحيب كبير . ولعل هذه القصة تلقى بعض الضوء على شخصية كوك وهو الذى أمضى معظم سنى حياته في أسفار بحرية بعيدة ، وكان يستطيع - وهو الزوج والأب - أن يركن إلى الراحة والدعة ليتمتع بما نال من الشهرة والمجد .

كان الهدف الرئيسى من رحلة كوك الثالثة هي البحث عن الممر الشمالى الغربى ، وقد عرفنا كيف فشلت الجهود الأولى للبحث عن هذا الممر . وفي عام ١٧٤٥ أعلنت الحكومة البريطانية عن جائزة قدرها ٢٠ ألف جنيه لأية سفينة تجارية بريطانية تكتشف ممراً من خليج هلسون . وحاول عدد من السفن دون جدوى أن تتال هذه الجائزة ، فقررت الحكومة تعديل شروط الجائزة لتشمل السفن الجربية ، وأن تمتد البحث إلى مناطق أخرى غير خليج هلسون . وهكذا استقر رأى أن تكون مهمة كوك الأساسية هي البحث عن هذا الممر من الساحل الباسيفيكي . وتعمكس الأوامر الصادرة إلى كوك الأفكار السائدة حينئذ عن موقع هذا الممر ، فتطلب إليه عند وصوله إلى هذا الساحل أن يتقدم شمالاً على طول الساحل حتى خط عرض ٦٥° أو أكبر إذا لم تعترضك أراض أو ثلوج وأن تأخذ حذرك أن تضيق أى وقت في استكشاف أنهار أو فتحات أو لأي سبب آخر ، حتى تصل إلى خط العرض ٦٥° المذكور سابقاً وعندما تقطع هذه المرحلة ، عليك أن تبحث بدقة عن مثل هذه الأنهار أو الفتحات وتستكشفها بقدر ما يبدو من امتدادها واتجاهها نحو خليج هلسون أو خليج بافين . وإذا تبين لك من ملاحظاتك أو من المعلومات التى قد تحصل عليها من الأهالى . . . أن هناك تأكيداً أو حتى احتمال لوجود ممر

مائي يصل إلى الخليجين السابقين أو إلى واحد منهما ،
فعلبك في هذه الحالة أن تبذل أقصى ما لديك من جهد
لتمر خلاله . . . » .

وهناك أهداف جانبية للرحلة تظهر في الأوامر
الصادرة إلى كوك ، الذي كان عليه في طريقه إلى
شمال المحيط الهادى أن يستولى على الأراضي التي
لم تكتشف بعد بواسطة الدول الأخرى وأن يفحص
بدقة بعض الجزر التي قيل إنها شوهدت مؤخراً بواسطة
الفرنسيين عند خط ٤٨° جنوباً وعلى خط الطول
التقريبى لجزر موريشياس .

عاد كوك مرة ثانية إلى سفينته رزوليوشن ووضعت
تحت لوائه سفينة ثانية هي ديسكافرى (Discovery)
بقيادة كابتن كلارك وتولى الملازم كنج أخذ الأرصاد
الفلكية اللازمة على ظهر السفينة رزوليوشن وقام
أندرسون طبيب السفينة الذي صاحب كوك في رحلته
الثانية ببحوث التاريخ الطبيعى ودراسة الأهالى من
حيث العادات والتقاليد واللغات . وكان بين رجال كوك
« فانكوفر » الذى اشتهر كقائد لرحلة استكشافية تالية
ووليم بلاى الذى عرف فيما بعد كقبطان للسفينة
المشهوره بونتي التي حدث عليها العصيان بالقرب من
جزر تاهيتى عام ١٧٨٩ . وصاحب كوك معه أيضاً
أوماى من أهالى جزر الجمعية ، وكانت السفينة ادفنتشر
قد أحضرته معها إلى لندن . وقد قدم أوماى خدمات
جليلة للبعثة حتى غادرها في موطنه الأصيل . كذلك
حملت السفينتان عدداً من الحيوانات النافعة بقصد
تربيتها في الجزر التي سبق اكتشافها .

غادرت رزوليوشن بليموث في ١٢ يولييه ١٧٧٦ ،
وتبعها ديسكافرى بعد بضعة أيام . وتوقف كوك في
جزر كانارى حيث يرتفع جبل تاناريف بقمه الشهيرة
وحاول طبيب المركب أن يصل إلى القمة ولكن الوقت

لم يسعفه بفحص الجبل الذى درسه الكسندر فون هومبولت
فيا بعد بدقة كبيرة في عام ١٧٩٩ (١) .

اتخذ كوك طريقه نحو رأس الرجاء الصالح ، ومنها
اتجه إلى جزيرة كرجيولن التي اكتشفها الفرنسيون
جنوب المحيط الهندى . وكان كرجيولن قد أذاع تقارير
مشجعة عن هذه الجزيرة ولكن كوك وجدها مجربة
وموحشة إلى أقصى درجة . وأعلن طبيب المركب
ربما لم يكتشف مكان في أى من نصفي الكرة عند
نفس خط العرض يعطى ميداناً فقيراً لعالم التاريخ
الطبيعى مثل هذه البقعة الجرداء .

بعد هذا قضى كوك بضعة أيام في تاسمانيا ثم أسبوعين
من شهر فبراير ١٧٧٧ في نيوزيلانده وأمضى ثلاثة
شهور في دراسة جزر فريندلى قبل أن يصل في ١٢
أغسطس إلى جزيرة تاهيتى .

وفي ٢ نوفمبر غادر كوك تاهيتى في طريقه إلى
مهمته الأساسية في شمال الباسيفيكي . وإلى الشمال من
خط الاستواء عثر كوك على جزيرة مرجانية صغيرة
تعلوها أشجار جوز الهند ، حيث قضت البعثة عيد
الميلاد وسمتها في هذه المناسبة جزيرة كريستاس . وفي
١٨ يناير ١٧٧٨ شاهد كوك مجموعة جزر أسماها جزر
ساندويتش نسبة إلى القائد الأول للبحرية الإنجليزية
وواحد من غلاة المتحمسين للكشوف الجغرافية . وقد
ظلت هذه الجزر تعرف بهذا الاسم مدة طويلة قبل أن
تحمل اسم جزر هاواى بلسان أهلها الأصليين . ولا تعد
هذه الجزر اكتشافاً جديداً لكوك فقد عرفها الأسبان
في القرن السادس عشر ، ولكن شيئاً لم يعرف عنها
خلال المائتي عام السابقة . قام كوك بدراسة هذه الجزر
بقدر ما اتسع له الوقت - ومن أكثر ملاحظات البعثة
طرافة أنه بالرغم من المسافة التي تفصل هذه الجزيرة
عن باقى جزر المحيط الهادى فإن لغتها قريبة الشبه من

(١) انظر الكون لألكسندر فون هومبولت « للدكتور سليم
أنطون » تراث الانسانية ، المجلد الثانى ، المجلد الثالث .

لغة تاهيتي حتى أمكن التفاهم مع الأهالي بسهولة . ولفت نظر البعثة ما يتمتع به الأهالي من طبيعة سمحة وانطلاق كبير وقوام جميل وخبرة في السباحة .

وفي ٧ مارس وصلت البعثة إلى الساحل الغربي لأمريكا الشمالية الذي كان يعرف في ذلك الوقت باسم نيو البيون New Albion . وهنا كان كوك يقف على عتبة استكشافات جغرافية جديدة فهذا الساحل شمال ٤٠° شمالاً يعد - باستثناء المناطق القطبية - أكثر سواحل القارات حاجة إلى الاستكشاف والدراسة . وكانت كل المعلومات القليلة لدى كوك قد تجمعت نتيجة لرحلات الأسبان على طول الساحل إلى الشمال من مستعمراتهم في غرب المكسيك .

واصلت البعثة سيرها شمالاً بمحاذاة الساحل وعند منطقة سماها كوك رأس فلاترى Cape Flattery (١٥٠° ٤٨' شمالاً) كتب كوك يقول « عند خط العرض هذا وضع الجغرافيون مضيق جوفان دى فوكا الخيالي . أننا نر شيئاً يشبهه أو وجدنا أقل احتمال لوجود مثل هذا الشيء » .

وفي ٢٩ مارس وجدت السفينتان مرفأ ملائماً لها في خليج نوتكا على الجانب الغربي لجزيرة عرفت فيما بعد باسم جزيرة فانكوفر ، لكن كوك لم يبينها كجزيرة وهنا قضت البعثة شهراً في إصلاح السفينتين وقلاعهما بواسطة الأخشاب المتوفرة بكثرة . وكانت هذه المدة فرصة كافية للراحة وتعمين السفينتين والاستعداد للمرحلة التالية من الرحلة . كذلك أمكن للبعثة أن تقيم صلات طيبة مع الأهالي ، وأن تعرف الكثير عن عاداتهم وطرق معيشتهم .

أبحر كوك إلى الشمال في محاذاة الساحل ولكن دون أن يراه إلا لأملاً ، فقد اضطره الجو العاصف من ناحية ورغبته في الوصول إلى المنطقة الشمالية بسرعة إلى التفاوض عن هذه الفرصة لرسم خريطة لساحل . وهو في هذا كان ينفذ الأوامر الصادرة إليه بعلم إضباحة

الوقت قبل الوصول إلى المنطقة المنشودة التي ما كاد يصلها حتى بدأ يتفحص الساحل بدقة وخاصة فتحات الخليجان ومصبات الأنهار . واستمر يتابع ساحل الاسكا ويشاهد جبالها العالية ثم يمر على جزر الوتيان حتى يصل إلى طرف أمريكا الشمالية في أقصى الغرب ثم يدخل بحر بارنج ثم مضيق بارنج الذي يفصل أمريكا الشمالية عن آسيا والذي لا يزيد عرضه عن ٥٥ ميلاً ويصل المحيط الهادى بالبحر القطبي الشمالى .

وكان فيتاز بارنج (Vitus Bering) الدانمركي قد اكتشف هذا المضيق عام ١٧٢٨ وهو في خدمة بطرس الأكبر قيصر روسيا . ورغم أن وجود هذا المضيق كان معروفاً للرحالة الروس ، فإنه لم يكن معروفاً بشكل كاف في أوروبا الغربية وكانت الخرائط الأوروبية ترسم الطرف الشمالى لآلاسكا إلى الشرق بعيداً عن موقعه الحقيقي . وعلى هذا يعلق كوك « إن قارة أمريكا الشمالية تمتد أكثر إلى الغرب مما يمكن أن نتوقعه من الخرائط الحديثة الأكثر شهرة » . ثم يضيف « وهذا يجعل وجود ممر إلى خليج بافن أو خليج هلمسون أقل احتمالاً أو على الأقل يدل على أنه لا بد أن يكون أكثر امتداداً » .

دخل كوك ممر بارنج وتقدم في البحر القطبي الشمالى على كل من الجانبين الأمريكى والاسيوى ولكن البحر كان مليئاً بالثلوج حتى أصبح التقدم مستحيلاً . وكان الشتاء يقترب فقرر كوك العودة إلى الجنوب بعد أن وصل إلى خط عرض ٤٤° - ٧٠° شمالاً . وفي طريق عودته قابل كوك في جزر الوتيان مجموعة من الروس وكان رئيسهم يدعى إسماعيلوف وكان يعرف الكثير عن جغرافية المنطقة فأعطى كوك كثيراً من المعلومات والخرائط ، كما أن كوك سلمه تقريراً مرفقاً به خريطة حتى يقوم بارساله إلى رؤسائه في البحرية البريطانية .

اختار كوك جزر ساندويتش ليمضي فيها الشتاء وما كاد يصل مياها حتى اكتشف جزيرة هاواي أكبر جزر هذه المجموعة ، والتي لم يرها في زيارته الأولى . قوبلت البعثة بترحاب كبير ولكن الأمور سرعان ما انقلبت عندما افتقد البحارة أحد القوارب وحاولوا استعادته من الأهالي : وكانت طريقهم التقليدية احتجاج واحد من شيوخ الأهالي على السفينة لحين إعادة الأشياء المسروقة . ولكن هذه الطريقة التي طالما نجحت كانت وبالا على كوك . فبينما كان مع مجموعة من البحارة على الشاطئ يحاولون أن يصحبوا واحداً من الأهالي إلى السفينة ، تجمع جمهور غاضب والتحم في معركة سريعة مفاجئة . وتأتى النهاية التمهية سريعاً ، كما يصفها تقرير البعثة :

« يرى بعض الحاضرين ، أن البحارة ، وأولئك الذين كانوا موجودين في القوارب ، قد أطلقوا النار بدون أوامر من الكابتن كوك ، وأنه كان يحرص على أن يمنع مزيداً من إراقة الدماء ، لهذا فانه من المحتمل ، أنه في هذه الظروف كانت إنسانيته سبباً في مصرعه ، فقد لوحظ أنه بينما كان يواجه الأهالي لم يلق أى تهديد ، ولكنه عندما استدار ليعطى أوامره للقوارب ، طعن في ظهره وسقط ووجهه إلى الماء . فتصايح الأهالي عندما رأوه يسقط ، وجروا جسده بطريقة غير إنسانية على الشاطئ ، حيث أحاط به الأعداء الذين تخاطفوا الخنجر بين أيديهم ، كل يحاول أن يشترك - بشغف وحشى - في نهايته » .

وعندما أطلقت رزوليوشن مدافعها على الشاطئ ، لم ير أى أثر للقائد . وبعد أيام قليلة أعاد الأهالي إلى البحارة المخزونين بقايا من جسد قائدهم . وخيم الحزن على الرجال الذين فقدوا في كوك قائداً شديد السهر على سلامتهم وصحتهم ، والذي ذهب معه «روح الاستكشاف والتصميم والشجاعة التي لا تقهر» .

تولى كابتن كلارك قيادة البعثة وحاول أن يتابع مهمة كوك فوصل إلى كامشاتكا (Kamchatka) في شرق سيبيريا ثم دخل مضيق بارنج في ٥ يولييه ولكن الثلوج عادت تعرقل سيره كما حدث مع كوك في الصيف السابق فانقلب عائداً عن طريق رأس الرجاء الصالح . ولكنه لم يعيش ليتم رحلة العودة فقد مات في ٢٢ أغسطس ١٧٧٩ . ووقعت مسئولية القيادة على كابتن جور (Gore) ، الذي كان يقود ديسكافري منذ وفاة كوك والذي انتقل الآن إلى السفينة رزوليوشن ، بينما رقى الملازم كنج ليقود ديسكافري والذي تعطينا يومياته القصة الرسمية للرحلة بعد وفاة كوك .

وفي ٤ أكتوبر ١٧٨٠ وصلت السفينتان إلى قاعدتهما في إنجلترا بعد غيبة أكثر من أربع سنوات ودون أن تفقد سوى خمسة من الرجال بسبب المرض .

• • •

كان قد مضى بضعة أشهر على سفر كوك في رحلته الأخيرة ، عندما أعلنت الجمعية الملكية اختيار كوك عضواً بها ومنحه ميدالية سير جودفري كوبلي (Sir Godfrey Copley) الذهبية على البحث الذي تقدم به إلى الجمعية عن الطريقة التي اتخذها في المحافظة على صحة بحارته ، بالإضافة إلى تقدير الجمعية لاكتشافاته الجغرافية العديدة ومساحته الدقيقة للسواحل المكتشفة . وكانت عضوية الجمعية الملكية في ذلك الوقت - ولا تزال - أكبر شرف علمي يمكن التطلع إليه في الجزر البريطانية .

منحت الميدالية الذهبية إلى كوك في غيابه بخطبة كلها تقدير وتكريم من سير جون برمنجل . ولكن هذه الكلمات الحارة لم تصل إلى مسامع كوك على الإطلاق ، فعندما كانت عائلته وأصدقاؤه ينتظرون عودته ، تلقوا خطاباً من كابتن كلارك بتاريخ ٨ يونيو ١٧٧٩ من كامشاتكا يقول فيه أن كوك لقي مصرعه في ١٤ فبراير ١٧٧٩ .

تراث الإنسانية

سلسلة تتناول بالتعريف والبحث والتحليل
روائع الكتب التي أثرت في الحضارة الإنسانية

الرعاية لحقوق الله للحاق المحامي

بقلم الدكتور عبد الحليم محمود

تأليف مسرحيات للوبي دي فيجا

بقلم الدكتور محمود علي مكي

تأليف آداب اللغة العربية لجورجي زيدان

بقلم الأستاذ محمد عبد الفتاح حسن

أدولف لبنيامين كوتشمان

بقلم الأستاذ أحمد رشاد

يشرف على تحريرها

د. عبد الحليم مختار

عبد الله أدهم

إبراهيم الأبياري

د. أحمد رياض زكي

د. زكي نجيب محمود

إبراهيم زكي خورشيد

الرعاية لحقوق أسد الحارث بن أسد المحاسبي

يعتلم
الدكتور عبد الحليم محمود

كانت تفعل الأعاجيب في القلوب ، وبكتبه التي تبين
حسن الخلق : وسائل وغايات ، والتي لا يزال لها إلى
الآن أريج عطري يتجدد على مر الزمن ، فبهدي
الحيارى ، وينير الطريق أمام السالكين .

ولكن من هو المحاسبي ؟ وما لنا نتعجل ، فتحدث
عن المحاسبي في القمة قبل أن نبدأ معه من البداية ؟
إنه الحارث بن أسد المحاسبي ، وكنيته : أبو عبد الله
ولقد نشأ بالبصرة ، واستمر بها سنوات لا يتأتى
لنا تحديد لها في يقين جازم .
ثم ذهب إلى بغداد ، ويبدو أنه ذهب إليها في سن
مبكرة ، واستقر به المقام فيها .
متى ولد ؟

إننا لا نعلم بالضبط تاريخ ميلاده ، إذ أن الكتب
القديمة التي تحدثت عنه ، لم تذكر ذلك ، بيد أن جميع
الملاسات ترشد إلى أنه ولد - على التقريب - في العقد
السابع من القرن الثاني الهجري .

أما وفاته ، فإن الكتب التي أرخت له تحدد سنة
٢٤٣ هـ ثلاث وأربعين ومائتين للهجرة .

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .
روى صاحب طبقات الصوفية بسنده ، عن
الحارث بن أسد المحاسبي بسنده أن رسول الله ، صلى
الله عليه وسلم ، قال :

« أثقل ما يوضع في الميزان : حسن الخلق » :

ولقد وضع المحاسبي هدفاً له في الحياة يسعى إلى
تحقيقه ، هو : « حسن الخلق » .

لقد وضعه هدفاً يعمل على تحقيقه في نفسه ،
ووضعه هدفاً يعمل على تحقيقه في مجتمعه .

أما فيما يتعلق بنفسه ، فإنه أخذها بتحقيق صفة
العبودية على أساس من القرآن والسنة لا يحيد عنه :

وإنه ليعبر عن شعاره في ذلك ، فيقول هذه الكلمة
التي تصفه حالاً ومقالاً :

« إذا أنت لم تسمع نداء الله ، فكيف نجيب داعي
الله ؟ ومن استغنى بشيء دون الله ، جهل قدر الله » .
ولم يجهل المحاسبي قدر الله ، فلم يستغن بشيء دون
سبحانه .

وأما فيما يتعلق بالمجتمع ، فإن المحاسبي أخذ في نشر
حسن الخلق فيه بسمته ، واتباعه للسنة ، وبدروسه التي

فيقول : كم تقول عزلي أنسى ؟ ! لو أن نصف الخلق تقربوا مني ما وجدت بهم أنساً ، ولو أن نصف الخلق الآخر نأى عني ما استوحشت لبعدهم .

هذه القصة ترشدنا إلى قوة شخصية الإمام المحاسبي والواقع أن الظروف والأحوال الثقافية التي أحاطت بالمحاسبي ، ومواقف المحاسبي منها ، وحديث تلاميذه عنه ، وإن كان نادراً . . . كل ذلك يرشد إلى أنه كان صاحب شخصية إيجابية قوية .

ومما يستأنس به تأييداً للقصة السابقة ، وإشارة إلى ما للمحاسبي من شخصية قوية ، وبياناً عابراً عن بعض أساليبه في تأليف كتبه ، ما رواه الجنيد أيضاً بقوله :

كان الحارث المحاسبي ينجي إلى منزلنا ، ليقول : أخرج معي نصحر : (نذهب إلى الصحراء) فأقول له تخرجني عن عزلي وأمنى على نفسي ، إلى الطرقات والآفات وروية الشهوات ؟ فيقول :

« أخرج معي ، ولا خوف عليك ، فأخرج معي ، فكان الطريق فارغاً من كل شيء ، لا نرى شيئاً نكرهه » .

فاذا حصلت معه في المكان الذي يجلس فيه قال لي :

سلي

فأقول له : ما عندي سؤال أسأله

فيقول : سلي عما يقع في نفسك .

فتنتال على السؤالات ، فأسأله عنها ، فيجيبني عليها الوقت .

ثم يمضي إلى منزله فيعملها كتاباً .

ترشد هذه القصة إلى أن المحاسبي لم يكن يخشى : « الطرقات والآفات وروية الشهوات » ، وأنه لم يكن يؤثر العزلة وما فيها من أمن على النفس وعدم تشتيت للفكر ، كلا ، إنه يجابه الحياة محاولاً السير بها إلى ما يراه حقاً وإصلاحاً .

وحياته الشخصية لا نكاد نعلم عنها شيئاً ، وقد يمكننا أن نقول : « استنتاجاً » :

إنه قضى طفولته في شيء من اليسر ، والرخاء ، ذلك أن والده حينما توفي ترك ثروة تقدر بسبعين ألف درهم :

ويروى المؤرخون أن المحاسبي ، حينما توفي والده لم يأخذ من هذه الثروة شيئاً تورعاً : ذلك أن والده كان يقول بالقدر : أي أنه كان قديراً يدين بمذهب المعتزلة : فلم يستسغ المحاسبي أن يشترك في الميراث توسعاً في تطبيق القاعدة الإسلامية التي تحرم التوارث بين أهل دينين مختلفين :

وما من شك في أن المحاسبي امتنع عن ذلك لمجرد الورع ، والزهد فيما تجره الثروة وتستتبعه من تفكير فيها ، وتدبير لها ، وتنمية وحفظ :

هذه الحادثة ترشد إلى أمور : الأمر الأول هو : أن أسرة المحاسبي ، كانت أسرة ميسورة .

الأمر الثاني : هو أن والد المحاسبي كان من الدين اشتركوا في الثقافة الدينية ، والجلد الكلامي ، وساهم في ذلك بنصيب ، وحدد المعسكر الذي يقف جندياً في جيشه .

وما من ريب في أن العامة حينئذ لم يكونوا في صف المعتزلة ، وما كان الذي يدين بما يدين به المعتزلة يفعل ذلك إلا بعد دراسة واختيار ، وأن الطريق التقليدي الذي كان يتبعه الجمهور الأعظم من الأمة إنما هو طريق أهل السنة .

والأمر الثالث الذي ترشد إليه الحادثة هو ورع المحاسبي الذي حملة على أن يزهد في الميراث مع حاجته إليه : تورعاً وتقوى .

ونبأ آخر تبين منه شيئاً عن شخصية المحاسبي ، يقول الجنيد :

كنت كثيراً أقول للحارث : عزلي أنسى :

أن تستأثر به وحدها ، ولكل منها مغرباتها ، ولكل منها منطقها .

ووقف المحاسبي ، مستوعباً ، متأملاً ، متروياً .

هل طال به الوقوف ؟

متى خرج من تأمله ؟

متى استقر به الاتجاه ؟

ذلك ما لا نعلمه ، إذا نظرنا إلى الزمن .

يبد أن المحاسبي ، وإن لم يكن بالتأريخ لحياته ، تأريخاً زمنياً ، فإنه ترك لنا أثراً نفيساً ، أبان فيه عن بعض أحوال معاصريه ، وتحدث فيه عن حبرته الفكرية وعن أسبابها ، وعن كيفية خروجه منها .

وهذا الأثر نعتبره ، أساساً لكتاب : « المنقذ من الضلال » راسماً للإمام الغزالي تخطيطه ، موجهاً له إلى كتابته ، بل ورأساً له الطريق في حياته الروحية .

ولعل التشابه بين هذا النص الذي نثبته الآن ، وكتاب : « المنقذ من الضلال » يجعلنا نستنتج أن التشابه قوى بين المحاسبي ، والغزالي في حياتهما .

ولأهمية هذا النص بالنسبة ، للمحاسبي ولعصره ، وبالنسبة لصلته بكتاب المنقذ من الضلال ثقة وثيقة ، نثبته بأكمله ، وإن كان فيه بعض الطول .

وقد كتبه المحاسبي مقدمة ، لكتابته : « الوصايا » الذي طبع أخيراً بالقاهرة .

يقول المحاسبي - في مفتتح كتابه : الوصايا - بعد مقدمة موجزة .

« أما بعد ، فقد انتهى إلينا : أن هذه الأمة تفرق على بضع وسبعين فرقة ، منها : فرقة ناجية ، والله أعلم بسائرهما .

فلم أزل ، برهة من عمرى أنظر اختلاف الأمة ، وأتمس المنهاج الواضح ، والسبيل القاصد وأطلب من العلم والعمل ، وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد

أما فيما يتعلق بطريقته في التأليف : فإنه يعمل أحياناً على تلبية ما يرغب المتحدثون الإجابة عنه ، وهي طريقة حية : إنها استجابة لما يحب المجتمع أن يرى الرأي الصريح فيه .

ولم تكن كتبه كلها على هذا النسق ، فإن بعضها كان إسهاماً في الحركة المقاومة لحركة الاعتزال . وكان بعضها حلقات في التخطيط الذي رسمه المحاسبي للإصلاح الأخلاقي في المجتمع .

• • •

على أننا قد تعجلنا الحوادث مرة أخرى ، فتحدثنا عن المحاسبي في القمة ولم نتدرج معه تدرجاً طبعياً .

ولنعد إلى المحاسبي أول مقدمه بغداد : كان ذلك فيما يبدو في سن مبكرة نسبياً .

وكانت بغداد حينئذ تروج بمختلف التيارات الفكرية : ثقافة يونانية وافدة تريد أن تأخذ حق الإقامة سيدة متغلبة .

وثقافة فارسية ، يحاول نشرها الفرس بما لهم من تأثير ونفوذ ، وبما لهم من مال وثناء ، وبما لديهم من ترف فكري ، وبما في نفوسهم من كبت لزوال ملكهم يحاول أن يتنفس - شاعراً أو غير شاعر - في صورة ثقافة تنافس الثقافة الإسلامية البحتة :

وثقافة عربية مشوبة بثقافات أخرى ، تريد أن تجد حلاً للتعارض والتنافس بين مختلف الألوان والأجواء الثقافية .

وثقافة إسلامية بحتة ، مجاهد في أن تفوز في قيادة المجتمع إلى الهداية الربانية ، والرشاد الإلهي :

وجاء المحاسبي بغداد ، متعلماً ، ومنتقياً ، أو مستزيداً من العلم والثقافة : يبتغي السير على السنن المستقيم :

وأخذ في الدرس في جده واجتهاد : فتشعبت به الطرق ، وتجاذبت الثقافات المختلفة ، تحاول كل منها ،

العلماء ، وعقلت كثيراً من كلام الله ، عز وجل ،
بتأويل الفقهاء .

وتدبرت أحوال الأمة ، ونظرت في مذاهبها
وأقاييلها ، فعقلت من ذلك ما قدر لي .

ورأيت اختلافهم بجرأ عميقاً ، قد غرق فيه ناس
كثير ، وسلم منه عصابة قليلة ؛ ورأيت كل صنف
منهم يزعم أن النجاة في تبعهم ، وأن الهالك : من
خالفهم ، ثم رأيت الناس أصنافاً :

فهم العالم بأمر الآخرة ، لقائه عسير ، ووجوده
عزيز .

ومنهم الجاهل ، فالبعد عنه غنيمه .
ومنهم المتشبه بالعلماء ، مشغوف بدينه ، موثر لها .

ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين ، ملتزم
بعلمه التعظيم والعلو ، ينال بالدين من عرض الدنيا .

ومنهم متشبه بالنسك ، متجر بالخير ، لا غناء
عنده ، ولا بقاء لعلمه ، ولا معتمد على رأيه .

ومنهم حامل علم ، لا يعلم تأويل ما حمل .
ومنهم منسوب إلى العقل والدعاء ، مفقود الورع
والتقى .

ومنهم متوادون : على الهوى يتفقون ، وللدنيا
يتباذلون ، ورياستها يطلبون .

ومنهم شياطين الإنس عن الآخرة يصدون ، وعلى
الدنيا يتكالبون ، وإلى جمعها يهرعون ، وفي الاستكثار
منها يرغبون ، فهم في الدنيا أحياء ، وعن العرف
موتى ، بل العرف عندهم منكر ، والسوء معروف .

فنفقدت في الأصناف نفسي ، وضقت بذلك ذرعاً
فقصدت إلى هدى المهتدين ، بطلب السداد
والهدى ، واسترشدت العلم ، وأعملت الفكر وأطلت
النظر ، فبين لي ، في كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ،
واجاع الأمة : أن اتباع الهوى يعنى عن الرشد ،
ويضل عن الحق ، ويضل المكث في العمى !

فبدأت بأسقاط الهوى عن قلبي ، ووقفت عند
اختلاف الأمة ، مرتاداً لطلب الفرقة الناجية ، حذراً
من الأهواء المردية ، والفرقة المهلكة ، متحرزاً من
الافتحام قبل البيان ، واتممت سبيل النجاة لمهجة
نفسى .

ثم وجدت باجتماع الأمة في كتاب الله المنزل ، أن
سبيل النجاة : في التمسك بتقوى الله ، وأداء فرائضه ،
والورع في حلاله وحرامه ، وجميع حدوده والإخلاص
لله تعالى ، بطاعته ، والتأسي برسوله ، صلى الله
عليه وسلم .

فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء في الآثار
فرايت اجتماعاً واختلافاً ، ووجدت جميعهم مجتمعين
على أن علم الفرائض والسنن : عند العلماء بالله وأمره .

وأن الفقهاء عند الله ، العاملين برضوانه الورعين
عن محارمه المتأسيين برسوله ، صلى الله عليه وسلم ،
المؤثرين الآخرة على الدنيا : أولئك المتمسكون بأمر
الله وسنن المرسلين .

فالتفت من بين الأمة هذا الصنف المجتمع عليهم ،
والموصوفين أقفوا آثارهم ، وأقتبس من علمهم ،
فرايتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم مندرساً ، كما
قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ،
فطوبى للغريباء » .

وهم : المفردون بدينهم .
فعظمت مصيبتى بفقد الأدلاء الأنقياء ، وخشيت
بغثة الموت أن يفاجئني ، على اضطراب من عمري ،
لاختلاف الأمة ، فأنكشت في طلب عالم ، لم أجد لي
من معرفته بدأ ، لم أقصر في الاحتياط ولم أن في النصيح
فقيض لي الرعوف بعباده ، قوماً وجدت فيهم
دلائل التقوى ، وأعلام الورع ، وإيثار الآخرة
على الدنيا .

ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى ، ووجدتهم مجتمعين على نصيح الأمة لا يرجون أحداً في معصيته ، ولا يقنطون أحداً من رحمته :
يرضون أبداً بالصبر على البأساء والضراء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء .

يحبون الله تعالى ، إلى العباد بذكرهم أياديهِ واحسانه ، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى .

علماء بعظمة الله تعالى ، وعظيم قدره ، وعلماء بكتابه وسنته ، فقهاء في دينه ، علماء بما يجب ويكره ، ورعين عن البدع والأهواء ، تاركين التعمق والإغلاء مبغضين للجدال والمراء ، متورعين عن الاغتياب والظلم والأذى ، مخالفين لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم ، مالكين لجوارحهم ، ورعين في مطامعهم وملابسهم ، وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجتزين بالبلغة من الآهوات ، متقللين من المباح ، زاهدين في الحلال ، مشفقين من الحساب ، وجلين من المعاد ، مشغولين بيهنهم مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم ، لكل امرئ منهم شأن يغنيه .

علماء بأمر الآخرة وأهواويل القيامة ، وجزيل الثواب ، وأليم العقاب .
ذلك أورهم الحزن الدائم ، والهم المضنى ، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها .

ولقد وصفوا للآداب صفات ، وحددوا للورع حدوداً ، ضاق لها صدرى . وعلمت أن آداب الدين ، وصدق الورع : بحر لا ينجر من الفرق فيه شبيه ، ولا يقوم بحدوده مثلى ، فتبين لي فضلهم ، واتضح لي نصحتهم ، وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة ، والمتأسون بالمرسلين ، والمصاييح لمن استضاء بهم ، والمهادون لمن استرشد بهم .

فأصبحت راغباً في مذهبهم ، مقتبساً من فوائدهم ، قابلاً لآدابهم ، مجباً لطاعتهم ، لا أعدل بهم شيئاً ، ولا أؤثر عليهم أحداً .

فتفتح الله لي علماً انفتح لي برهانه ، وأنار لي فضله ، ورجوت النجاة لمن أقربه أو أنتحله ، وأيقنت بالغوث لمن عمل به ، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه ، ورأيت الرين متراكماً على قلب من جهله وجحدته ، ورأيت الحجة البالغة لمن فهمه ، ورأيت انتحاله والعبث بحدوده واجباً على .

فاعتقدته في سريرتى ، وانطويت عليه بضميرى ، وجعلته أساس دينى ، وبنيت عليه أعمالى ، وتقلبت فيه بأحوالى .

وسألت الله عز وجل ، أن يوزعنى شكر ما أنعم به على ، وأن يقوينى على القيام بحدود ما عرفنى به ، مع معرفتى بتقصيرى في ذلك ، وأنى لا أدرك شكره أبداً . اهـ

ووجد المحاسبي نفسه حينئذ في معسكر أهل السنة على وجه العموم وفي تيار الصوفية منهم على وجه الخصوص .

ولم يكن المحاسبي ، ذا طبيعة سلبية ، فكان لا بد من أن يدخل المعركة .

ودخل المعركة في قوة قوية ، مسلحاً بالعلم والتقوى ومن أجل ذلك ، كان ذا أثر مزدوج .

لقد أثر باعتباره ، قدوة وأسوة .

وأثر باعتباره عالماً باحثاً .

وأثره كعالم ، كان يظهر في دروسه ومناقشاته ، ويظهر في كتبه .

كتبه

أما كتبه ، فأنها من الكثرة بحيث قدرها بعضهم بمائتى مصنف ، حسبما روى السبكي في : « طبقات الشافعية » والمناوى في : « الكواكب الدرية » .

وهذه الكتب - في أغلبها الأعم - إنما هي في هداية النفوس ، وترقيق القلوب ، والسير بالأرواح إلى عالم الفلاح : إنها في أغلبها في علم التصوف والسلوك .

يقول التميمي - كما جاء في الكواكب الدرية -
عن المحاسبي :

« هو إمام المسلمين في الفقه ، والتصوف ،
والحديث والكلام » . اهـ

ولقد كتب المحاسبي في هذه العلوم جميعها ، بيد
أن مسحته الظاهرة ، ونزعه الواضحة ، والكثرة
الكثيرة من كتبه ، إنما كانت في التصوف والكلام .
أما كتبه في الكلام ، فإنها قد فقدت . ولقد رأينا
قطعة لا بأس بها من كتبه في الكلام الذي فقد والذي
كان عنوانه : « فهم القرآن » .

ومنهجه في الكتاب ، يفهم من عنوانه : إنه كان
يرجع إلى القرآن في الرد ، ويتخذ منه مرشداً وهادياً .
ولعل السبب في إهمال كتبه الكلامية وفقدائها : هو
حملة الإمام أحمد بن حنبل ، عليها .

يقول الخطيب البغدادي ، في كتابه : « تاريخ
بغداد » جزء ٨ ص ٢١٤ .

« وكان أحمد بن حنبل ، يكره للحارث نظره في
الكلام ، وتصانيفه الكتب فيه ، ويصد الناس عنه » .
ويذكر هذه المسألة الإمام الغزالي في كتابه :
« المنقذ من الضلال » ، ويفصل الرأي فيها ويحسم
المسألة محل موفق فيقول :

لقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي
- رحمهما الله - تصنيفه في الرد على المعتزلة .

فقال الحارث :

« الرد على البدعة فرض » .

فقال ، أحمد :

نعم ، ولكن حكيته شبهتهم أولاً ، ثم أجبت عنها ،
فم تأمن أن يطالع الشبهة من تعلق بفهمه ، ولا يلتفت
إلى الجواب ، أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه ؟
وما ذكره أحمد : حق ، ولكن في شبهة لم تنتشر
ولم تشتهر .

فأما إذا انتشرت ، فالجواب عنها واجب ،
ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية . ولقد أصاب
الإمام الغزالي التوفيق في رأيه .

وما من شك في أن المعتزلة إذ ذاك كانوا يعملون
جاهدين على نشر بدعتهم .
وأن بدعتهم كانت معروفة مشهورة .

ومهما يكن من شيء ، فقد كان الإمامان : أحمد
والمحاسبي متعاصرين ، وحدث بينهما اختلاف في الرأي
يتعلق بالكتابة في المسائل الكلامية ، وحمل الإمام أحمد
على كتب الإمام المحاسبي في علم الكلام ، فقل تداول
الناس لها - فيما يبدو - واختفت شيئاً فشيئاً ، ولعل
بعضها لا يزال موجوداً ، بيد أننا لا نعلم عنها شيئاً .

على أن رأى المحاسبي في المسائل الكلامية معروف ،
تحدث عنه الشهرستاني وغيره ممن كتبوا في الملل
والنحل ، وهو الرأي السلفي ، ولم تكن حملة الإمام
أحمد عليه لرأيه وعقيدته ، فذلك أمر يتفق فيه الإمامان
وإنما كان انكار الإمام أحمد عليه للأسلوب والطريقة
التي ينصر بها الدين .

وما من ريب في أن ما قام به الإمام المحاسبي ، في
الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل الانحراف : إنما هو
في الوقت نفسه انتصار للإمام ، أحمد بن حنبل ،
وتقوية له ، وعون على بلوغه غايته : رضى الله عنهما .

• • •

أما كتبه في أدب النفس وتركيتها ، وفي الإنابة
إلى الله ، والرجوع إليه ، وفي الرعاية لحقوق الله ، وفي
التصوف على وجه العموم : فقد بقي منها كثير ، عرفنا
عنه جملة صالحة ، لا تزال مخطوطة ، وطبع البعض في
أوروبا ، والقاهرة ، وسوريا .

ومن كتبه المخطوطة في دور الكتب :

١ - المسائل في أعمال القلوب والجوارح .

٢ - كتاب أدب النفوس .

٣ - كتاب المسائل في الزهد .

٤ - فصل من كتاب العظمة .

٥ - كتاب في المراقبة .

٦ - إحكام التوبة .

٧ - كتاب العلم .

٨ - كتاب الصبر والرضا .

أما كتبه المطبوعة ، فتحدث بكلمات موجزة عن كل منها ، ثم تفصل القول عن كتاب الرعاية .

١ - كتاب الوهم :

أول ما طبع ، للمحاسبي : « كتاب الوهم » طبع في القاهرة سنة ١٩٣٧ وقد عني بنشره الدكتور ا. ج. آبري ، وكتب مقدمته الدكتور : أحمد أمين وفي المقدمة يقول : عن الكتاب :

« نحأ فيه منحى طريفاً يدل عليه اسمه ، فلم يقتصر على ما ورد من الأخبار في الخوف والرجاء ، كما فعل غيره ، بل استعمل توهمه ، وبعبارة أخرى خياله في وصف شعور أهل الجنة وأهل النار ، وما يلقون من : سعادة وشقاء ، ونعيم وعذاب ، وأسلس لخياله القياد ، فتخيل ما تخيل وصور ما صور ، فهي لوحة جميلة لفنان أجاد ألوانها ، أو رواية رائعة : لكاتب جمل منظرها ، وفصل موافقها ، وصقل لفتها ، حتى يؤثر بالحقيقة التي تتضمنها في نفوس القارئ والسامعين ، أكبر الأثر وأبلغه » .

٢ - رسالة المسترشدين :

وطبع له في « حلب » رسالة المسترشدين . « حققه وخرج أحاديثه ، وعلق عليه : عبد الفتاح أبو غدة » .

وهذه الرسالة اللطيفة الحجم يوجه فيها المحاسبي الإرشاد للمسترشدين الذين يريدون أن يكونوا من ذوى الألباب العالمين بالله وبأمره .

ومنهاج ذوى الألباب - كما تحدده الرسالة - إنما هو رعاية حدود الشريعة من كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، وما اجتمع عليه المهتدون من الأئمة .

وهذا هو الصراط المستقيم الذى دعا إليه عباده ، فقال جل وعز :

« وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل ، فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

وقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ » .

والرسالة : إنما هي إرشادات توضح بعض زوايا هذا المنهج ، فهى تتحدث عن التوبة ، والتقوى والخطرات ، والخوف من الله ، والصبر والرضا ، وغير ذلك من أحوال اللائذين إلى الله ، السالكين إليه .

٣ - كتاب الوصايا :

وطبع له في القاهرة أخيراً : « كتاب الوصايا » تحقيق وتعليق وتقديم : عبد القادر أحمد عطا .
والعنوان مكتوب هكذا : « الوصايا » أو النصائح الدينية ، والنفحات القدسية ، لنفع جميع البرية وموضوعه هو موضوع الكتاب السابق ، وإن كان على صورة أوسع ، وبأسلوب فيه بعض الحدة ، وهو أقل تأنفاً وجزالة من أسلوب الكتاب السابق .

٤ - كتاب الرعاية ، لحقوق الله عز وجل :

وكتاب الرعاية : هو أكبر الكتب التى بين أيدينا من كتب المحاسبي ، مخطوطة كانت تلك الكتب أم مطبوعة ، وربما لا يوجد فيما فقد من كتبه ما هو أكبر منه ، ويقع في حوالى أربعمائة وستين صحيفة من القطع الكبير .

وهو على كل حال أهم كتبه في نظر القدماء والمحدثين ، حتى لقد عرف به ، وإذا لم يذكر أحد المؤرخين القدماء من كتب المحاسبي إلا كتاباً واحداً : فإنه يكون الرعاية ، وهو بالنسبة للمحاسبي ، كإحياء علوم الدين بالنسبة للغزالي ، وقد حاول المحاسبي أن يشرح فيه الطريق الذي يحقق الرعاية ، لحقوق الله تعالى ويبدأ المحاسبي ، كتاب : « الرعاية » بالحمد والثناء على الله ، سبحانه وتعالى ، ثم يتحدث عن حسن الاستماع :

« فقدم حسن الاستماع منك ، لما أجبته به ، لعل الله عز وجل ، أن ينفعك بفهم ما أجبته عنه : من الرعاية ، لحقوق الله عز وجل ، والقيام بها ، فإن الله تبارك وتعالى ، أخبرنا في كتابه . أنه من استمع كما يحب الله ويرضى ، كان له فيها يستمع إليه ذكرى . يعنى : اتعاضاً ، ثم يذكر المحاسبي الآيات الدالة على هذا والأحاديث .

ويرى القارئ في هذا النص الذى نقلناه من الصحيفة الأولى للكتاب أمرين :

الأمر الأول : أن المحاسبي ، يفترض مخاطباً ، مخاطبه ، أو سائلاً يسأله والمحاسبي يجيبه . والواقع أن الكتاب كله يسير على هذا النسق : أسئلة من مخاطب وإجابات من المؤلف .

وما من شك في أن بعض الأسئلة التى أوردتها المحاسبي قد سئلتها بالفعل ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن بعض كتب المحاسبي ألف استجابة لأسئلة .

يبد أن كتاب : « الرعاية » يظهر فيه — في وضوح — من التناسق والترتيب والتخطيط ما يعيد الظن بأنه ألف استجابة — مجرد استجابة — لأسئلة وقتية .

أما الأمر الثانى الذى يقينه الإنسان من النص ، فهو أن المحاسبي يرجع إلى الكتاب الكريم ، يستند إليه في آرائه ، إنه يقول :

« فإن الله تبارك وتعالى ، أخبرنا في كتابه . . . » . وهذا التعبير أو ما فى معناه : سار فى جميع أجزاء الكتاب ، ويضاف إليه الاستناد إلى السنة ، وقد كان المحاسبي من المحدثين ، تلقى الحديث على أعلام السنة ، وتلقى عنه أعلام السنة .

وبعد أن قدم المحاسبي ، ضرورة حسن الاستماع ، بدأ فى شرح معنى : الرعاية ، لحقوق الله ، وهى أمر عظيم ، أصبح عامة الناس — كما يقول المحاسبي — له مضيعين :

وما من شك في أن : « كل ما أمر الله ، عز وجل ، بالقيام به ، قد أمر برعايته » ، « وكل حق أوجبه الله ، جل وعز ، على عباده فى خاصة أنفسهم ، أو فيما أوجب لبعضهم على بعض : فقد أمرهم بحفظه والقيام به ، وذلك رعاية حق الله الذى افترضه عليهم » .

وسواء أقلت : الرعاية لحقوق الله أم قلت : « التقوى » فإن المعنى لا يكاد يختلف ، ذلك أن التقوى ، إنما هى : اتقاء الشرك فما دونه من ذنب ، من كل ما نهى الله عنه ، واتقاء تضييع واجب مما افترضه الله . والرعاية والتقوى هما : الاستجابة إلى الأمر والالتزام ، عما نهى الله عنه .

ومن أجل ذلك تحدث المحاسبي ، عن التقوى بعد شرحه لمعنى الرعاية توضيحاً للرعاية وبياناً لها ، وبين جزاء المتقين وأنهم : « فى مقام أمين » ، ويقال لهم عن الجنة :

« ادخلوها بسلام آمين » .

والناس دائماً يريدون الأمور ، محددة مرسومة ، فيسألون عن الخطوة الأولى التى يخطوها من يريد أن يسلك الطريق إلى الله ؟ وعن كيفية البدء فى الإعداد للمقام بين يديه ، سبحانه .

« فليكن أول ما تبدأ به من العدة لذلك المقام : تقوى الله ، عز وجل ، فى السر والعلاية ، ليأمن قلبك

في ذلك المقام مع قلوب المتقين ، حين ينجز لهم ما وعدهم : من الأمن ، والغبطة ، والسرور .

فالتقوى أول منزلة العابدين ، وبها يدركون أعلاها ، وبها تزكو أعمالهم ، لأن الله ، عز وجل ، لا يقبل عملاً إلا ما أريد به وجهه .

ولكن الإنسان قد يكون مغترأً مخدوعاً بعبادته :

فكم من متشقق في لباسه ، متدلل في نفسه ، آخذ من حطام الدنيا اليسير ، ومن مصل ، وصائم ، وغاز ، وحاج ، وباك ، وداع ، ومظهر للزهادة في الدنيا ، والرفض لها على غير صدق ، ولا إخلاص ، ولا صلاح حقيقى .

وإذا ما أراد إنسان من هؤلاء : أن يزِن أعماله بموازين الدين ، إذا استيقظ فؤاده ، فأراد أن يعرف أين هو من المخلصين ؟ فعليه أن يرجع إلى نفسه ، ويعرض أيامه التي خلعت من عمره في عبادته وينظر : هل أتى عليه يوم منها حفظ فيه جوارحه وقلبه عما كره الله ؟ ! وهل سلم من العجب ، والكبر ، والحسد ، والشماتة ، وسوء الظن ؟ !

ولعله بعد هذا العرض يتواضع ويبدأ في إصلاح أمره .

على أن التقوى ، وإن كانت أول منازل السالكين ، فإنها معنى عام ، يبدأ أول ما يبدأ : حينما يعلم الإنسان أنه عبد مريبوب : «لأن أول ما يلزمك في صلاح نفسك الذى لا صلاح لها في غيره ، وهو أول الرعاية : أن تعلم أنها مربية متعبدة ، فإذا علمت ذلك علمت أنه لا نجاة للمريبوب المتعبد إلا بطاعة ربه ومولاه » : والطاعة سبيل النجاة .

والعلم هو الدليل على السبيل :

ولا بد للتقوى من المحاسبة ، وقد كان المحاسبى كثير المحاسبة لنفسه ، بل إنه لم يسم المحاسبى ، إلا لهذه المحاسبة .

وقد روى عن النبي ، صلى الله عليه وسلم :

« الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت » .

وقوله : دان نفسه : يعنى حاسب نفسه .

ولقد قال سيدنا عمر ، رضى الله عنه :

« حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، وتبشوا للعرض الأكبر » .

وكتب إلى أبى موسى : « حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة » .

هذا الذى قدمناه للآن يعتبره المحاسبى ، كالمقدمات العامة للموضوع ثم يأخذ في وصف : « منازل التوابين » ويبين فيه اختلاف الفطر والجلبات .

فن الناس من نشأ على الخير ، فرعاية حقوق الله ، عز وجل ، عليه أسهل .

ومنهم نائب بعد صبوته ، وراجع إلى الله عن جهالته ، وإنه ليدخل في نطاق قوله تعالى : « والذين اهتنوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » .

أما الثالث : فانه المصر على ذنبه المقيم على سيئاته ، إنه : « محتاج إلى ما يحل به عقود الإصرار من قلبه ، فيتوب إلى ربه من ذنبه ، فيلحق بصاحبيه اللذين من قبله : الناشئ على غير صبوة ، والمنتب بالتوبة إلى خالقه تعالى .

ما الذى يبعثه على التوبة وترك الإصرار ؟

أما الذى يبعثه على التوبة وترك الإصرار : فهو الخوف والرجاء ، يقول تعالى :

« وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى » .

فأخبر عز وجل ، أننا لما خاف ربه نهى نفسه عن الهوى ، ولقد وصف الله أوليائه بأنهم يدعونه رغباً ورهباً : أى راجين خائفين .

وينال الخوف والرجاء ، بأن تصبح المعرفة بعظم قدر الوعد والوعيد واضحة سافرة والله ، سبحانه قد

خوفنا بالعقاب لنخوف أنفسنا ورجانا لرجيها ، ومما
يعين على ذلك ، وقد أمرنا الله به : أن نفكر في المعاد ،
وهجوم الموت ، وعظيم حق الله عز وجل ، ووجوب
طاعته .

وحقاً إن الفكر في ذلك ثقیل على النفس بيد أنه
مما يخففه علم الإنسان بعظيم قدر ما ينال بالفكرة من
المنافع في الدنيا والآخرة : ذلك أن في نعيم الطاعة في
الدنيا والظفر بنعيم الآخرة سعادة لا تعد لها لذة المعاصي
ولن يتذكر متذكر ، أو يفكر في المعاد والنجاة
مفكر ما لم يجتمع همه ، فطريق الفكرة ومفتاحها ، إنما
هو : « اجتماع الهم مع المطالبة بالعقل والتوكل على
الرب لا على العقل » .

واجتماع الهم إنما هو بعدم تشتت القلب والجوارح
في ميادين اللعب واللهو ، يقول ابن مسعود ، رضى
الله عنه :

« طوبى لمن لم يشغل قلبه بما ترى عيناه ، ولم ينس
ذكر ربه بما تسمع أذناه » .

على أن المصيرين في منازل شتى : فمنهم من كثرت
ذنوبه ، ومنهم من قلت ذنوبه ، ومنهم تائب من بعض
ذنوبه وهو مصر على البعض الآخر .

وعلاج كل ذلك هو إدمان الفكر بالتخويف ،
كالذاء إذا أعضل لم يبرأ صاحبه إلا بدوام التداوى ،
وإدمان الفكر بالتخويف يستمر إلى أن تسخو نفسه
بالتوبة الخالصة النصوح التي يوقن فيها أنها كانت بمنة
زبه وتفضله ، سبحانه ، لا بقوته هو فيستأهل بذلك
الزيادة من الله عز وجل لأنه يقول :

« لئن شكرتم لأزيدنكم » .

وفي التفسير : لأزيدنكم من طاعتي .

على أنه إذا نحت نفسه بالتوبة فتائب ، فانه يجب
أن يستمر في تيقظه وحذره ، فان الاهتمام والحذر إن
أثرهما قلبه يوقظاه ، فيما يستقبل من عمره ، فاذا استمر
على توبته دخل تحت قوله تعالى :

« رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » .

ومما لا يماراة فيه : أنه لا بد للخلق أجمعين من
معرفة حقوق الله ، عز وجل ، بأسبابها وأوقاتها وعللها
وإرادتها ووجوبها ، وفيم هي ؟ وأينها بدأ الله عز وجل
به خلقه ؟

فعلى العبد أن يبدأ بما بدأ الله عز وجل ، به فيبدأ
برعاية حقوق الله عز وجل في قلبه إذ عنه تكون أعمال
الجوارح ، وجمل حقوق الله عز وجل في القلب
ثلاث : اعتقاد الإيمان ومجانبة الكفر ، واعتقاد السنة
ومجانبة البدعة ، واعتقاد الطاعة ومجانبة الإصرار على
ما يكره الله عز وجل من عمل قلب وبدن .

وجمل حقوق الله ، عز وجل ، في الجوارح :
القيام بالحركات فيما أوجب الله تعالى ، وترك الحركات
وهو السكون عما كره الله عز وجل .

على أنه مع كل ذلك ، لا بد من مراعاة حقوق
الله ، عز وجل ، عند خطرات القلب الداعية إلى كل
خير وشر .

وقد تكون الخطرات من هوى النفس ، والله
سبحانه وتعالى ، يقول :

« إن النفس لأماراة بالسوء » .

وقد تكون خيراً .

ومهما يكن من شيء فانه إذا عرضت الخطرات
عرضها على الكتاب والسنة : فما وافق قلبه وما خالف
رفضه : يجب أن يشهد له العلم ، أن الله عز وجل ، قد
أمر بها ونذب إليها ، أو أذن فيها بأسبابها وعللها ووقتها
وإرادتها فيها ، فانه قد يقبل الخطرة يرى أنها داعية إلى
سنة وهي بدعة ، وقد يرى أنها داعية إلى طاعة وهي
معصية ، وقد يرى أنها داعية إلى خير وهي شر :
كالخطرة تدعو إلى الإخلاص بترك العمل ، وإلى التنزه
عن الخلق بالفكر ، وإلى الرجاء على العمل بالعجب
والعزة ، وإلى المنافسة بالحسد ، وإلى الغضب لله عز

وجل بمعنى البلاء في الدين والدنيا للمسلمين واعتقاد استحلال ما حرم الله عز وجل ، منهم ، ونحو ذلك من الخطرات ، وإلى القدر^(١) بتزيه الله عز وجل ، وإلى رأى جهم^(٢) : بنفى التشبيه ، وإلى التشبيه : بنفى رأى جهم ، وإلى الاعتزال بتثبيت الوعيد ، وإلى الخروج بالسيف بالغضب لله عز وجل ، أو إلى الإرجاء بتعظيم الأقدار وتزيه الإيمان من نقصان .

وقد تخطر الخطرة تدعو إلى بدعة في الجملة بحسبها سنة ، ومما يدل على ذلك : أن قلوب أهل البدع إذا خطر بها الخطرات تدعوهم إلى بدعة عدوها سنة ، فكذلك أهل السنة : لن يدع العدو أن يدعوهم إلى البدع عند غفلتهم من حيث لا يشعرون ، ولولا ذلك ما ابتدع أحد بدعة بعد اعتقاده للسنة في عبادة ولا غيرها لأنه قد يدعو العدو إلى الابتداع في زهده ، وفي رضائه ، وتوكله ، فيخالف زهد الأئمة المتقدمين وتوكلهم ، ورضاءهم ، ويقينهم بمخالفتهم السنة واعتقاده البدعة ، وهو يرى أنها سنة ، كما اعتقد قوم الزهد في الدنيا بتضييع العيال وبترك وجوب حق الوالدين ، والتوكل بترك الاكتساب على الأهل والأولاد والخروج في السفر بلا زاد ، والرضا بالسروور بالبلاء إذا وقع بالمسلمين وبتحريم الدواء والدعاء وترك اتقى أن المعاصي لم تكن ، وبالاشتغال بالله ، عز وجل ، بترك الفرائض وبترك النوافل ، ودعوى البصائر واستنارة القلوب بادعاء علم الغيوب : من القطع على ما في ضمائر الخلق وما يسرون ويكتمون ؛ ويحتجون في ذلك بآثار : مثل قوله ، صلى الله عليه وسلم :

« المؤمن ينظر بنور الله » .

وكل فرقة ممن ذكرنا تحتج بالآثار ، والكتاب ،

(١) القول بالقدر : هو القول بحرية الإرادة : أى أن الإنسان حر فيما يأتي وفيما يدع من الأعمال ، وليس مجبوراً من الله على عمل من الأعمال .

(٢) رأى جهم في الصفات : هو أن الصفات عين الذات .

والمقاييس ، ولكن يطول ذكرها ، وإنما أردنا تحذير جملتها ، ليعرفها العالم المثبت بالكتاب والسنة .

وكذلك الخطرات التي تدعو إلى تدين القلوب من غير عبادات بالأعمال : كالقدر .

ورأى جهم ، والرفض ، والاعتزال ونحوه ، فلن يميز العبد بين ذلك ، وبين ما أحب الله عز وجل ، من الأعمال والسنن إلا بشاهد العلم . اهـ

لقد تعمداً نقل هذا النص السابق بطوله ، لأنه يدل على اتجاه المحاسبي في الجانب العقدي أى أنه يحدد اتجاهه بالنسبة للفرق الموجودة في عصره ، وهو نص غاية في الأهمية ، من الناحية الصوفية ، ومن الناحية الكلامية : أما من الناحية الصوفية ، فإن المحاسبي يحمل على من يدعو إلى الإخلاص بترك العمل وإلى التنزه عن الخلق بالفكر ، ويرى أن ذلك خطرات شيطانية ، وكذلك الأمر في كل خطرة ، تدعو إلى نوع من الزهد ، والرضا ، والتوكل الذي يخالف زهد الأئمة ورضاءهم وتوكلهم ويقينهم ، أى يخالف السنة .

ومن أمثال ذلك اعتقاد قوم الزهد في الدنيا بتضييع العيال ، وبترك وجوب حق الوالدين .

وإنه لمن الانحراف الشيطاني - فيما يرى - أن يتمتع قوم عن الاكتساب على الأهل والأولاد ، أو الخروج في السفر بلا زاد تحت تعلقة التوكل ؛ أو أن يرضى بالبلاء يقع بالمسلمين ويحرم الدواء ويمتنع عن الدعاء وكل ذلك تحت تعلقة الرضا

إلى آخر ما ذكره المحاسبي من ذلك .

أما من الناحية الكلامية ، فإن هذا النص يبين أن المحاسبي ، لا ينتسب إلى المعتزلة ولا إلى الجهمية . ولا يقول بالتشبيه ، ولا بالتعطيل ، ولا بوجود تحقق الوعيد ، وأنه ليس من المرجئة ، وليس من الشيعة .

إن هذا النص الذي جاء في صورة عابرة : يشير إلى بعض ما كان يمكن أن يفصل لو أننا عثرنا على

الكتب التي فقدت ، ولكن أهميته لا تقل بسبب إجماله ،
إذ هو واضح كل الوضوح في بيان موقف المحاسب من
الفرق الكلامية ، ومن الاتجاهات المنحرفة في التصوف .
ثم بعد هذا يأخذ المحاسب في شرح ما ابتدئ به
الإنسان من أداء الفروض وترتيب ذلك .

فاذا عرض للعبد أمران واجبان في وقت واحد بدأ
بأوجههما ، مثال ذلك في الوالدين : فان العبد يبدأ بحاجة
والدته ، لأن برها مقدم في سنة النبي صلى الله عليه
وسلم ، وكذلك إذا وجب عليه الحج بالاستطاعة المالية
وعليه دين حل موعده ، فليؤد إلى الدائن حقه .

وإذا عرض له واجبان ، لأحدهما وقت يفوت
والآخر لا يفوت وقته بدأ بما يفوت وقته قبل الآخر ،
كالرجل يريد الحج في وقت فيه سعة من الأيام ، فيأمره
والده أن يقيم إلى آخر الوقت للحج فليطعمهما .

وإذا كان في فرض ، فعرض له فرض دونه :
لم يخرج منه إلى ما هو دونه حتى يتمه ، كما إذا كان
في الحج المفروض محرماً به ، فكتب إليه والداه بالحضور
فليتيمه ولا يخرج منه .

وإذا كان في فرض فعرض له فرض أوجب
منه : قطعه بعد ما يحل فيه كالصلاة ، وكذا إذا أمره
والداه ألا يخرج من بلدهما ، فيحضر النفي لظهور
المشركين على المسلمين وليس في وجوههم من يقوم
بقتلهم ، فعليه الخروج وترك المقام .

وإن عرضت له نافلة وهو في واجب لم يقطعه من
أجلها .

وكذلك الفضل والتطوع : يبدأ بالفضل فالأفضل
على أن الواجب أن يبادر الإنسان بالعمل على نجاة
نفسه حتى لا يكون مثله كمثل من قال الله ، فيه :

« حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني لعمل
أعمل صالحاً فيما تركت » .

قال الله ، عز وجل ، مجيباً :

« كلا إنها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ
إلى يوم يبعثون » .

قال عبد الرحمن بن يزيد ، لرجل يعظه :
يا فلان ، هل أنت على حال ترضى فيها الموت ؟
قال : لا

قال : فهل أجمعت للنقلة إلى حال ترضى فيها
الموت ؟

فقال : لا ، ما سئمت نفسي بذلك بعد .

قال : فهل بعد الموت دار فيها مستعجب ؟

قال : لا

قال : فهل تأمن بغيته الموت ؟

قال : لا

قال : ما رأيت مثل هذا الحال رضى بها عاقل .

والعاقل هو الذى يتوب - قبل الموت - أى على
الفور ، توبة طاهرة عن الذنوب والخطايا : بأن لو قيل
له : إنك تموت الساعة ، فانه لا يجد عنده ذنباً يحتاج
إلى التوبة منه ، فيسأل النظرة من أجله .

ولقد أجاد سيدنا عمر بن عبد العزيز ، في الحوض
على الذكر والفكر ، حيناً قال في خطبته :

« ألا ترون أنكم تتقلبون في أسلاب الهالكين ،
ويرثها منكم الباقون ، كذلك حتى تردون إلى خير
الوارثين ، وأنتم تجهزون كل يوم غادياً أو راحاً إلى الله
عز وجل ، تضعونه في صدع من الأرض ، ثم في
بطن صدع ، قد توسد التراب ، وخلف الأحباب ،
وقطع الأسباب ، موجه للحساب ، غنى عما خلف ،
فقير إلى ما قدم » .

ثم يبدأ المحاسب شرح وتحليل الرذائل النفسية ،
ووصف العلاج لها : تلك الرذائل التي تحبط الأعمال
وتنفي الإخلاص .

« إرادة العبد العباد بطاعة ربه » .

يقول تعالى :

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » .

وقد روى عن معاوية بن أبي سفيان ، وروى عن مجاهد ، في تفسير هذه الآية قالاً : « هم المراءون » .

والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وكلام الصحابة والتابعين ، رضى الله عنهم في التحذير من الرياء ، لا تكاد تحصى .

ومن أشد ما يروى في ذلك حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن أبي هريرة - فيما رواه مسلم - سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول :

« إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها : قال : قاتلت فيك حتى استشهدت قال : كذبت ولكنك قاتلت ، لأن يقال جرى ، فقد قيل ثم أمر به ، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ، قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ، ليقل : عالم وقرأت القرآن ، ليقل : قارئ ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، فأتى ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ، قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ولكنك فعلت : ليقل جواد ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار » .

وفي رواية ، أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، خط على فخذ أبي هريرة ، وقال : « يا أبا هريرة أولئك أول

وأول هذه الرذائل هو : « الرياء » ويستفيض المحاسبي في الحديث عن الرياء استفاضة تتناسب مع تغلظه في النفوس وتشعبه بحيث يظهر فيما لا يكاد يحصى من الأعمال ، على أن جميع أعمال البر عرضة ، لأن يعصف بها الرياء ، فتصبح كسراب بقيعة . ومن أجل كل ذلك كتب عنه المحاسبي حوالى خمس وعشرين ومائة صحيفة أى ما يزيد قليلاً على ربع الكتاب ووضعه تحت عنوان كتاب : « الرياء » .

ويبدأ المحاسبي ، كتاب الرياء على الصورة العادية في كتاب الرعاية كله : سؤال السائل ، وإجابة المؤلف قلت : قد وصفت لى مراقبة الله - عز وجل - وذكره الرعاية لحقوق الله عز وجل ، ووجوه طلبها .

والأول من الواجب والفضل ، فما تخاف على إن قمت لذلك ؟

قال : أخاف عليك أن تفسده بما يبطل ثوابه في آخرتك ، ويذهب بحلاوته من قلبك .

قلت : ذلك أعظم للحسرة : أن أتغنى ثم يحبط ويبطل عملى ، وما ذاك المعنى ؟ . اهـ

ومما يحبط عمل المتقى : أن يحب ، أن يحمد ويوقر بسبب عبادته .

ولا بد من الإخلاص التام ، حتى يصل الإنسان إلى منزلة الخاصة .

وما من شك في أن الإخلاص : منزلة الأقوياء والخاصة من العابدين ، ولكن الجميع مطالبون به وعلى قدر إخلاصهم يكون ثوابهم .

وقد سأل رجل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله : فيم النجاة ؟ فقال :

« ألا تعمل بما أمرك الله به تريد الناس » .

فسأله عن نجاته في أعماله ، فأخبره بترك : الرياء .

لا غنى للعبد إذن عن تركه : فإذا سألت الآن عن مفهوم الرياء فانه :

خلق الله ، عز وجل ، تسع بهم نار جهنم يوم القيامة »
فذلك أعظم الرياء عند الله ، عز وجل .

وإذا كان هذا إرادة غير الله بالطاعة ، فإن من
أنواع المرائين من يريد الله ويريد الناس أيضاً ، وذلك
أقل من السابق ولكنه أيضاً رياء .

يقول تعالى :

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ،
ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .

ويقول ، صلى الله عليه وسلم ، في حديث قدسي ،
عن الله عز وجل :

« أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل لي عملاً :
وأشرك معي شريكاً ودعت نصيبي لشريكى » .

ومن أخس أنواع الرياء : أن يتظاهر الإنسان
بالعبادة ، طمعاً فيما في أيدي الناس وحباً في أن يبرره
بما يظهر من طاعة ربه .

لا بد إذن من المجاهدة والمكابدة واليقظ ، لمداخل
الشیطان والنفس الأمارة وليس ذلك بسهل في مبدأ
الأمر ، والناس في هذا متفاوتون ولكن ، الله ، سبحانه
وعد بأن يعين الذي يبدأ مخلصاً في السير إليه ، حيث
قال ، سبحانه :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا . . . » .

ثم يأخذ المحاسبي ، في وصف ألوان من الرياء
عديدة تأتي على شكل خطرات تتردد في النفس ،
ليكون الإنسان منها على حذر ، وبين المراءة في
القروض ، والمراءة في السنن .

ثم يتحدث عن بعض ما ينشأ عن الرياء من الأخلاق
المردولة المذمومة .

ومن هذه الأخلاق التي تنشأ عن الرياء : مثل
المباهاة بالعلم ، والعمل ، والتفاخر بالدين والدنيا ،
وحب الغلبة .

أما علامة المرائي : فهي حب الحمد والثناء ،
وإظهار العمل من أجل الاحترام والتبجيل والمدح .

ومن أجل كل ذلك ، لا بد من إخلاص النية ،
ولا بد من أن يصل الإنسان إلى أن يكون ممن وصف
الله من عباده ، مادحاً لهم ، فقال :

« يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ،
ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ، ويتيمناً وأسيراً ،
إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ،
إننا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ، فوقاهم الله
شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ، وجزاهم بما
صبروا جنة وحريراً » .

أما من يتحدث إلى الناس بما عمل من الطاعة ، يريد
بذلك وجه الله ، وحضهم على الاقتداء به ، فليس من
الرياء في شيء ، ولأن يهدي الله بك رجلاً خيراً لك
من الدنيا وما فيها .

وقد ختم المحاسبي ، كتاب : « الرياء » بقوله :

وقد روى أن ابن السماك ، قال لجارية له : « مالي
إذا أتيت بغداد تفتحت لي الحكمة ؟ قالت له جاريته :
يشحد لسانك الطمع ، وضدقت : إن العبد يكثر
الكلام بالخير عند الغنى ، ما لم يتكلم به عند الفقير ،
يهيج الطمع على ذلك ، أو تعظيمه للدنيا وكذلك يظهر
الخشوع وغيره من الطاعات .

° ° °

وببدأ المحاسبي بعد ذلك في : « كتاب الإخوان
ومعرفة النفس » ولا يقصد المحاسبي أن يتكلم في هذا
الباب على الصداقة وشروطها وواجباتها ، أو عن
النفس من ناحية التصور الفلسفي لها : جوهر ، كانت
أم عرضاً ، وقديمة أم حديثة كلا ، وإنما يريد أن
يتحدث في الموضوع من ناحية الإعانة على ذكر الله
والتقوى ، فقد يترك الإنسان الرياء فترة من الزمن
عازماً على ألا يعود إليه ، ثم تخور عزيمته ، وينتكث
في طريقه .

وأما الرأي الصواب : فما استنبط قياساً ، على الكتاب والسنة والإجماع ، مشبهاً بحكمة مثل حكمة .
وأما الرأي الخطأ : فما كان من غير استنباط من كتاب ولا سنة ولا إجماع الأمة ، وإنما هو : تأويل بغير الحق ، وانتحال له على سبيل الجهل : من قبل هوى النفس ، مع اعتراض من الظن أنه حق .
فأما الإعجاب بالعمل والعلم والرأي الصواب ، فعنى واحد : لأنه كله منته من الله عز وجل ، ونعمة منه .

فجملة العجب بالدين : حمد النفس على ما عمات أو علمت ، ونسيان النعم من الله ، عز وجل ، عليك بذلك فحمد النفس ونسيان النعم : هو العجب بالدين .
أما إذا رأى الإنسان أن ما به من نعمة — مالا أو قوة ، أو علماً أو سداداً في الرأي ، أو طاعة وعبادة فمن الله : فانه بذلك ينفي العجب عن نفسه ، يقول تعالى :

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من أحد أبداً » .

ويستفيض في الحديث عن العجب بالدنيا ، وبأعمال الطاعة ، وبالعلم ، وبالنفس ، وبالحسب ، مع أن الله تعالى ، يقول :

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ومع قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لابنته ولعمته : يا فاطمة بنت محمد ، يا صفية بنت عبد المطلب : عمة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« أعمالاً لأنفسكما ، فاني لا أغني عنكما من الله شيئاً » .

ويتحدث المحاسبي عن العجب بكثرة العدد ، ويذكر رداً على ذلك قول الكافرين :

« نحن أكثر أموالاً وأولاداً » .

ثم يأخذ المحاسبي في كتاب : « الكبر » والكبر : من علامات الذين لا يؤمنون بالآخرة ، يقول تعالى :

ولأجل ألا يحصل ذلك لا بد من قطع كل سبب يكون عنه الزلل والفتنة ، فإذا ما زل مع ذلك ، فلا بد من المسارعة إلى الإقلاع قبل أن تألف النفس المعصية ، وتتمكن في القلب حلالة الشهوة .

وقد يكون من أسباب الزلل : مجالسة الذين لا يسلم الإنسان معهم — بسبب مجالستهم — من الزلل ، ومثل صاحب السوء ، كمثل صاحب الكبر يعني الحداد ، إن لم يحرقك بشره يعقب بك من ريجه .

ولقد قال سيدنا عمر : احذر صديقك إلا الأمين من الأقوام ، ولا أمين إلا من خشي الله ، كل هذا إذا أنس من نفسه ضعفاً ، أما إذا كان يمكنه أن يغير اتجاه أصحابه ويتغلب على تياراتهم فيوجههم إلى الخير ، فذلك حسن .

يقول إبراهيم التيمي :

« إن الرجل لبأنى القوم وهم مخوضون في الباطل ، فيصرفهم إلى الذكر ، فيكون له أجره وأجرهم » .
وبعد هذا الكتاب ، كتاب آخر يرتبط به ارتباطاً وثيقاً ، حتى لقد كان يمكن أن يكونا كتاباً واحداً ، ويكونان بذلك وحدة متحدة ، ذلك هو : « كتاب التنبيه على معرفة النفس وسوء أفعالها ، ودعائها إلى هواها » . ونكتفي في هذا بما ذكرناه سابقاً .

• • •

ومن الرذائل الخبيثة في النفس : « العجب » فيسيبه هلك أئمة الضلالة ، وبالعجب تكبر المتكبرون وافتخروا المفتخرون ، واختال المختالون .

ولقد روى عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه » .

وقد يكون العجب بالدين :

والعجب بالدين بوجوه أربعة : بالعمل والعلم والرأي الصواب والرأي الخطأ ، فالعلم : ما حفظ وفهم من الكتاب والسنة وقول علماء الأمة .

« فالدين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون » .

وما ألد كثير من الملحدين ، أو انحرف كثير من المنحرفين ، إلا بسبب الكبر : إن الله يصرفهم عن رؤية آياته والاعتبار بها بسبب كبرهم .

« سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق » .

وإن الله ، سبحانه وتعالى ، يطيع : « على كل قلب متكبر جبار » .

وقد ينشأ الكبر عن العجب في الدين بالعلم والعمل ، فإذا كان من قبل العلم ، فإن العالم إذا أعجب بعلمه ، أخرجه عجبه إلى الكبر تعظماً على العباد ، فيتكبر على العوام ، وإن كان بعضهم أتقى لله عز وجل ، منه وذلك الذي خافه عمر - رضى الله عنه - على العلماء ، حين قال : « تواضعوا لمن تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلماء ، فلا يقوم علمكم عند الله بجهلكم ، أى لا يزكو عند الله إذا تكبرتم به .

ومن العباد قوم ضلال ، قد جمعوا إلى الضلال الكبر ، لا يرون أن أحداً يقول : الحق على الله عز وجل ، غيرهم وأنه لا مهتد في الأرض غيرهم ، وهم الذين يقولون : إن القرآن مخلوق ، وهم الذين يقولون بالوقف ، والذين يقولون باللفظ ، والذين يكذبون بالقدر ، والذين ينكرون أن الله عز وجل ، يرى في الآخرة والذين يغلطون الموازين ، ومنهم الرافضة^(١) والمرجئة ، والحرورية^(٢) والذين يكذبون بالشفاعة ، ويشتمون أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، والذين يشتمون عائشة أم المؤمنين المبرأة من الإفك رحمها الله ، ولولا ما أكره أن يطول الكتاب بذكرهم لذكرتهم فكل هذه الفرق أبقية غير جائرة عن الطريق ،

(١) الرافضة : هم الشيعة .

(٢) الحرورية : هم الخوارج .

لا يرون أحداً يقول بالحق ، وأنه لا مهتد في الأرض غيرهم جهلاً بالله عز وجل ، وتكبراً على عبادته ، كما روى العباس ، رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

« يكون قوم يقرأون القرآن ، لا يجاوز حناجرهم ، يقولون : قد قرأنا القرآن ، فن أقرأ منا ؟ ومن أعلم منا ؟ » . ثم التفت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إلى أصحابه ، فقال :

« أولئك منكم أيها الأمة ، أولئك هم وقود النار » . وقد يكون الكبر عن الرياء :

ويجب على كل إنسان : أن يعلم ، أن أصل بن آدم : من التراب الذى يوطأ بالأقدام إنه من حمأ مسنون والله ، سبحانه وتعالى ، يقول :

« قتل الإنسان ما أكفره : من أى شيء خلقه ؟ من نطفة خلقه فقدره » .

ثم إن الله تعالى ، لا يحب المستكبرين ، ويقول ، صلى الله عليه وسلم :

« لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » .

ثم يتحدث المحاسبى عن : « الغرة بالله عز وجل » ويميز بين الغرة والرجاء فبعض المغترين : يظن أن الغرة منه رجاء ، فيقيم على معاصي الله ، عز وجل ، ويظن ذلك حسن الظن منه ، وليس ذلك بحسن ظن ، كما قال وهب : حسن الظن بالله ما جانب الغرة ، وقيل للحسن : إن قوماً يقولون نرجو الله عز وجل ، ويضيعون العمل ، فقال :

هيات هيات ، تلك أمانهم يترجعون فيها من رجا شيئاً طلبه ، ومن خاف شيئاً هرب منه .

ويتحدث المحاسبى في كتاب : « الغرة » عن غرة أهل النسك ، وغرة الفقهاء ، وغرة الوعاظ ، وغرة المتكلمين .

ثم يأخذ في شرح الحسد : أسبابه ومضاره ، وما من ريب في أن جملة الحسد المحرم : أن يكره الحاسد ما يرى من غيره من النعم ويجب زوالها عنه . وأما المنافسة في خيري الدنيا والآخرة ، وأن يحب ما يرى بغيره من النعم ، أن يكون له مثله غبطة منه ، دون أن يكره لغيره ما يرى به من النعم ، فهذا لا بأس به ، بل إنه مما يحسن ومن هنا كان قوله ، صلى الله عليه وسلم :

« لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله عز وجل ، مالا فسلطه علىهلكته في الحق ، ورجل آتاه الله عز وجل علماً ، فهو يعمل به ويعلمه الناس » . فذلك الذي هو المنافسة في الخير .

ويحتم المحاسبي : « كتاب الرعاية » ب « كتاب تأديب المريد » يذكر فيه سيرة المريد في ساعات الليل والنهار : إنه يرسم فيه الدستور الذي يسير عليه المسلم ، في حياته ، حينما يعزم على أن يأخذ السمى الإسلامى الصحيح .

وفيه يقول المحاسبي :

فتعوذ بالله من الحيرة بعد الهدى ، ومن العمى بعد البصر ، ومن الإعراض عن الله تعالى ، بعد الإقبال إليه ، ونسأله السلامة والعون على ما يجب ويرضى . . .

أثر المحاسبي وكتابه «الرعاية» في الفكر الإسلامى

إن تأثير المحاسبي في الأجيال التالية له : لا ينكر . إنه من الواضح ، أن تلميذه الأكبر - وإن لم يلتق به - كان الإمام الغزالى :

إن الإمام الغزالى ، يعترف بأنه قرأ كتب الحارث المحاسبي ، قال ذلك في كتابه : « المنقذ من الضلال » . ولقد قرأ أيضاً سيرة الحارث المحاسبي ، ويتحدث عن الخلاف الذى كان بينه وبين الإمام أحمد بن حنبل ثم إنه ينقل عنه في كتابه : « الأحياء » كثيراً من الآراء والنصوص .

وفي كتاب : « الأحياء » يقول عنه الإمام الغزالى ، دون تحفظ ولا استثناء ، هذا التقدير المائل : « المحاسبي خير الأمة في علم المعاملة » .

وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ، وأعوار العبادات .

وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه » . اهـ

هذه الشهادة أو التقدير من الإمام الغزالى ، كان له أثر كبير في كتاب : « الأحياء » فإن كتاب الأحياء :

تضمن تقريباً كتاب : « الرعاية » وكلمة الشيخ زاهد الكوثرى ، رحمه الله ، سبق أن ذكرناها في المقدمة التى كتبناها ، لكتاب الرعاية : إذ يقول :

« لقد تبطن الإمام الغزالى ، كتاب الرعاية في كتابه الإحياء » .

ولكن أثر المحاسبي كان أيضاً كبيراً قبل الإمام الغزالى ، يقول السبكي عنه :

« عالم العارفين في زمانه ، وأستاذ السائرين ، الجامع بين علمى الباطن والظاهر » .

ويقول الشعرانى عنه ، إنه : « أستاذ أكثر البغداديين » .

لقد كان رحمة الله عليه ، أستاذ أكثر البغداديين وعلم العارفين في زمانه ، وامتد تأثيره إلى الإمام الغزالى ، وإلى الصوفية من بعده ، واستمر هذا التأثير قرناً قرناً ، واستمر تقدير العلماء الصوفية له قرناً

قرناً ، حتى إذا كان القرن الحادى عشر الهجرى ، وكان المناوى صاحب التأليف الكثيرة المشهورة المعروفة ، كتب عن المحاسبي في كتابه : « الكواكب

الدرية » يقول :

المحاسبي البصيرى : علم العارفين في زمانه ، وأستاذ السائرين في أوانه ، عالم سار بنا فضله ، وصوفى طار نبهه ، برع في عدة فنون ، وتكلم على الناس فأراهم الجوهر المكنون ، وأحيا القلوب بوعظه ،

وشنف الأسع بدر لفظه ، تصانيفه مدونة مسطورة ،

على أن التقدير الذى نحب أن نسجله هنا : هو ما كتبه الأستاذ لويس مسينيون عن كتاب : « الرعاية » فى كتابه مصطلحات التصوف :

« إن المحاسبى : سما فيه بالتحليل النفسى إلى مرتبة لا نجد لها مثيلاً فى الآداب العالمية إلا نادراً » .

وبالأمس القريب خصص التلفزيون فى الجمهورية العربية المتحدة عدة حلقات للمحاسبى وكتابه : « الرعاية » فى برنامج : « دنيا ودين » تحدث فيها عميد كلية دار العلوم ، وعميد كلية أصول الدين ، والسيد الدكتور عيسى عبده ، تحدثوا فيها عن المحاسبى كممثل لمنهج معين من مناهج المعرفة ، ومكمل للاتجاه الصوفى السليم ؛ وتحدثوا عن كتاب : « الرعاية » باعتباره من الكتب ذات القيمة الذاتية الخالدة .

وأقواله مبنية مشهورة وأحواله مصححة مذكورة ، وكان فى علم الأصول راجحاً راجحاً ، وعن الخوض فى الفضول جانحاً ، وللمخالفين الزائغين قامعاً وناطحاً ، وللمريدين مريباً وناصحاً . . .

قال التيمى : هو إمام المسلمين فى الفقه ، والتصوف ، والحديث ، والكلام وقال غيره له المصنفات النافعة الجملة ، بحيث تبلغ نحو مائتى مؤلف ، وناهيك برعايته ، وكتبه فى هذه العلوم ، أصول لمن صنف فيها .

قال فى الأحياء : المحاسبى خير الأمة فى علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ، وأعوار العبادات ، وكلامه جذبر بأن يحكى على نفسه .

النصــــــــــــــــوص

وأضعف ، لأن قلبه طاهر ، والله عز وجل عليه مقبل ، وله حب ومتول ، والولى لا يخذل ولىه ، والحبيب لا يسلم إلى الهلكة حبيبه .

وقد جاء فى الحديث يعجب ربك للشاب ليست به صبوة ، أى يسر به ، ويعظم قدره عنده لأن العجب على وجهين :

أحدهما المحبة بتعظيم قدر الطاعة ، والسخط بتعظيم قدر الذنب فى الجرأة .

والوجه الثانى : الاستكثار للشيء ، وإنما يعجب استكثاراً للشيء ، الجاهل الذى لم يكن يعرف الشيء فلما رآه استكثره وتعجب منه ، وجل الله جل جلاله عن هذا الوصف وإن كان قد قرأ بعض القراء : (بل

النص الأول

باب منازل التوابع

اعلم أن الناس مختلفون فى ذلك على ثلاث منازل ، لا رابع لها :

فمنهم من نشأ على الخير ، لا صبوة له إلا الزلة عند الشهوة ، كالزلة التى لم يعر من مثلها النبيون ، والصديقون ، ثم يرجع إلى قلب طاهر لم تعتوره الشهوات . ولم يفتن الذات من الحرام ، ولم تعقبه الذنوب ، ولم يعمل قلبه الرين^(١) ، ولم تغلب عليه القسوة فرعاية حقوق الله عز وجل ، والقيام بها على هذا أسهل ، والمحنة عليه أخف ودواعى النفس له أقل

(١) الرين : الدنس

عجبت^(١) فليس هو على الاستكثار لما لا يعلم ومعنى قوله يعجب ربك للشاب ليست له صبوة : أى أن الله عز وجل ، يحب له ، راض عنه ، عظيم قدره عنده .
وروى في بعض الحديث عن شريح : أن للشاب الناشئ على عبادة ربه ومحبة أجر سبعين صديقاً .

وروى معاذ بن جبل ، رضى الله عنه ، عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أن الله عز وجل ، يقول : «أما الشاب الباذل شبابه لى ، التارك شهوته من أجلنى ، أنت عندى كبعض ملائكتى» .

فمن أظهر من هذا قلباً ، أو من أولى بالمعونة والتوفيق ممن لم يركب الذنوب عند بلوغه ونشأ على طاعة ربه وعبادته ، واعتاد القيام بحقه ورعاية حقوق الله عز وجل ، عليه خفيفة لطول عادته للقيام بها وتركه الركون إلى أصدادها ، قليل مكابذته ومجاهدته ، طويل بالله عز وجل شغله واشتغاله .

وآخر نائب من بعد صبوته ، وراجع إلى الله سبحانه ، عن جهالته ، ونادم على ما سلف من ذنوبه في أيامه ، قد أعطاه العزم ألا يعود إلى تضييع شيء من غرضه ، ولا معاودة شيء مما سلف من ذنوبه ، والنفس منه تنازعه إلى عادتها لترده برغبتها إلى لذتها ، وهو يقمعها ، ويجاهدها ، ويخوفها عواقب ما كان منها ، وعدوه يذكرها ما فاتها ويدعوها إلى ما تركت من شهوتها ، وهو يذكرها قبيح ما كان منها ، ويعظم منه الله عز وجل ، عليها بنقلها عما يسخط به ربها عليها ، فالبث إلا قليلاً - أن صدق الله ، عز وجل في مجاهدته ، وأمسك نفسه عن الشهوات التي تنقص عزمه - حتى يمدد الله عز وجل ، بمعونته ، فيسهل عليه سبيل الطاعة كما ضمن لمن أناب إليه ، فقال عز وجل :

«والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم^(١)» .
وقال عز وجل :

«ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً وإذا لأتيناهم من لدنا أجر عظيماً ، ولقد يناديهم صراطاً مستقيماً» .

فوعدهم الله تبارك وتعالى ، أن يحملهم على الطريق المستقيم ، ويربهم الحق نهاراً سرمداً ، لأنه كريم يتقرب ممن يتباعد منه ، فكيف بمن يتقرب إليه ؟ ويتجنب إلى من يتبغض إليه ، فكيف بمن يتجنب إليه ؟

وكذلك روى أبو هريرة ، عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : يقول الله عز وجل : «يا ابن آدم إن تقرب إلى فقرا تقربت إليك شبراً ، وإن تقربت إلى شبرا تقربت إليك ذراعاً ، وإن تقربت إلى ذراعاً تقربت إليك باعاً وإن أتيتني سعيأ أتيتك هرولة» .

ولما هذا على حسن المعونة ، وسرعة الإجابة . والمداية بالسداد والتوفيق ، والاكتناف بالعصمة ، فلم يلبث هذا النائب إلا يسيراً حتى يقبل الله ، عز وجل عليه بمعونة فيغلب له هوى نفسه ويقوى منه ضعفه ، ويمت منه دواعي شهواته ، فيقهر العقل منه الهوى ، ويغلب العلم منه الجهل ، ويسكن قلبه الخوف والهم ، ويواصل فيه الأحران بعد طول لهوه ، واتصال أفراحه بالدنيا ، كلما ذكر ما كان منه من ذنوبه حاج خوفه ، وغلب همه وطال حزنه ، فاذا غفل عن الذكر وسها عن الفكر . نازعته نفسه قال إلى بعض الزلل الذي لم يعر من مثله الصالحون عند غفلاتهم وسهولهم ، ثم يرجع إلى الله - عز وجل - بقلب طاهر من الرين والدنس ، قد فطمه عن عادته وأعقبه بالخوف من الأمن والإصرار ، وبالرجاء الصادق من الغرة

(١) وفي هذا المعنى قوله تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلاً» .

(١) يشير إلى الآية الثانية عشرة من سورة الصافات وهي : «بل عجبت ويسخرون» .

النص الثاني

باب منازل أهل الرعاية ، لحقوق الله عز وجل ،
في رد الخطرات وقبولها في أعمال القلوب والجوارح
على قدر منازل أهل القوة والضعف .

والراعون ، لحقوق الله عز وجل ، في منازل
شقي ، وقد ينتقل كل راع منهم في تلك المنازل على
قدر قوته وضعفه ، فأول منزلة من الرعاية ، وأهلها
أقوى الخلق في الرعاية لحقوق الله عز وجل ، الرعاية
عند الخطرات بعد اعتقاد جمل حقوق الله عز وجل ،
فلا تخطر بقلبه خطرة من أعمال قلبه ، إلا جعل الكتاب
والسنة دليلين عليها ، فلم يقبلها باعتقاد الضمير ،
وبركها يسكن قلبه في مجال الفكر من التقى وغيره ،
إلا أن يشهد له العلم أن الله عز وجل ، قد أمر بها
وندب إليها ، أو أذن فيها بأسبابها وعللها ، ووقها
وإراداتها فيها ، فانه قد يقبل الخطرة ، يرى أنها داعية
إلى سنة وهي بدعة ، وقد يرى أنها داعية إلى طاعة وهي
معصية وقد يرى أنها داعية إلى خير وهي شر ،
كالخطرة تدعو إلى الإخلاص بترك العمل ، وإلى التنزه
عن الخلق بالفكر ، وإلى الرجاء على العمل بالمعجب
والغرة ، وإلى المنافسة بالحسد ، وإلى الغضب لله عز
وجل ، بتبني البلاء في الدين والدنيا للمسلمين واعتقاد
استحلال ما حرم الله عز وجل منهم ، ونحو ذلك من
الخطرات ، وإلى القدر بتنزيه الله عز وجل ، وإلى
رأى جهنم : بنفي التشبيه ، وإلى التشبيه : بنفي رأى
جهنم ، وإلى الاعتزال بتثبيت الوعيد ، وإلى الخروج
بالسيف بالغضب لله عز وجل ، أو إلى الإرجاء بتعظيم
الأقدار وتنزيه الإيمان من النقصان .

وقد تخطر الخطرة تدعو إلى بدعة في الجملة يحسبها
سنة ، ومما يدل على ذلك أن قلوب أهل البدع إذا خطر
بها الخطرات تدعوهم إلى بدعة عدوها سنة ، فكذلك
أهل السنة : لن يدع العدو أن يدعوهم إلى البدع عند

والتسوية ، فهو من سالف ذنوبه هارب لرحمة ربه
عز وجل ، بهربه طالب حتى يلقاه آمناً من عذابه .
وقد جاء في الحديث عن النبي ، صلى الله
عليه وسلم :

« إن العبد ليذنب الذنب ، فيدخله ذنبه الجنة ،
قيل : يا رسول الله ، وكيف يدخله ذنبه الجنة ؟ قال
لا يزال نصب عينيه تائباً منه هارباً منه حتى يدخله الجنة .»
وقيل لسعيد بن جبير : من أعبد الناس ؟ قال :
رجل أصاب من الذنوب ، فاذا ذكرها اجتهد .

وروى عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :
« خياركم كل مفتن تواب » .

ينجرك : أن خيار أمته لم يعرفوا من الزلل ، وأن
علمهم بالله عز وجل ، لن يدعهم حتى يرجعوا إليه
بالتوبة والإنابة .

والثالث مصر على ذنبه ، مقيم على سيئاته ، يغلبه
الموى وضعف الخوف ، مفر مع ذلك بأن الله عز
وجل ، معاداً يبعث فيه وهو لا يتغشاه به ، ومقاماً
يوقفه فيه ويسأله عما كان منه ، وثواباً وعقاباً يصرفه
من بعد السؤال إلى أحدهما ، ثم يحل فيه مغلداً ، إلا
ما شاء الله الملك الكريم من بعد التخليد في العذاب الأليم
فهذا إقرار بالإيمان في قلبه قد زایل به الجحد ،
وصدق به الرب عز وجل ، والقلب بالشهوات مشغول
عن الفكر ، والرزين له مانع عن الذكر إلا الخطوة
تهيج من الإيمان بذكر المعاد ثم لا تجد موضعاً تستقر
فيه ، لما غلب على قلبه من القسوة وتتابع فيه من الغفلة ،
فقلبه هائج باشتغال الدنيا ، لا يلزمه ذكر التخويف ،
ولا يتفرغ للفكر ، ولا يجد حلالة الذكر وكيف
يكون للذكر فيه مستقر ، والأشغال تنازعه ، والغفلات
تغلب عليه ؟ فهذا محتاج إلى ما يحل به عقود الإصرار
من قلبه ، فيتوب إلى ربه من ذنبه ، فيلحق بصاحبيه
الذين من قبله : الناشئ على غير صبوة والمنتب بالتوبة
إلى خالقه تعالى .

غفلاتهم من حيث لا يشعرون ، ولولا ذلك ما ابتدع أحد بدعة بعد اعتقاده للسنة في عبادة ولا غيرها ، لأنه قد يدعو العدو إلى الابتداع في زهده وفي رضائه وتوكله ، فيخالف زهد الأئمة المتقدمين وتوكلهم ، ورضاءهم ويقينهم بمخالفته السنة واعتقاده البدعة ، وهو يرى أنها سنة ، كما اعتقد قوم الزهد في الدنيا بتضييع العيال وبترك وجوب حق الوالدين ، والتوكل بترك الاكتساب على الأهل والأولاد ، والخروج في السفر بلا زاد ، والرضا بالسرور بالبلاء إذا وقع بالمسلمين ، وبتحريم الدواء والدعاء ، وترك التقي أن المعاصي لم تكن وبالاشتغال بالله عز وجل ، بترك الفرائض ، وبترك التواقل ودعوى البصائر ، واستنارة القلوب بادعاء علم الغيوب : من القطع على ما في ضمائر الخلق وما يسرون ويكتمون ، ويحتجون في ذلك بآثار : مثل قوله ، صلى الله عليه وسلم :

« المؤمن ينظر بنور الله » .

وكل فرقة ممن ذكرنا تحتج بالآثار ، والكتاب ، والمقاييس ، ولكن يطول ذكرها ، وإنما أردنا تحذير جملتها ، ليعرفها العالم المتيث بالكتاب والسنة .

وكذلك الخطرات التي تدعو إلى تدين القلوب من غير عبادات بالأعمال : كالقدر ورأى جهم والرفض والاعترال ونحوه ، فإن يميز العبد بين ذلك وبين ما أحب الله عز وجل من الأعمال والسنة إلا بشاهد العلم ؛ لأن الله عز وجل ، أمر بذلك أو ندب إليه وأذن فيه ولا تخطر خطرة فينفيها ، أو يحجب قلبه عنها ، إلا أن يشهد له العلم ، أن الله عز وجل ، قد نهى عنها وذمها بسببها وعللها وأوقاتها ، فانه قد تخطر بقلب العبد الخطرة داعية إلى خير فينفيه ، وهو يحسب أنها شر ، وقد تدعو إلى سنة فينفيها وهو يحسب أنها بدعة ، يزينها له عدوه ، وما يدل على ذلك : أن قلوب أهل البدع ، إذا خطرت بها خطرة تبعهم على اعتقاد السنة نفوها وحسبوا بدعة

ولن يدع العدو أن يدعو العبد المرید إلى نفی خطرات التنبيه على الخير والشر لئلا يقبلها ، لأن على العباد وإن أرادوا الله عز وجل ، أن يصيبوا الحق بذلك .

وقد ذم الله عز وجل ، قوماً ولم يعذرهم ، بأن رأوا أن الشر خير والخير شر ، فقال جل وعز :

« وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا^(١) » .

وقال عز وجل :

« أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً^(٢) » .

وقال حذيفة ، رضى الله عنه ، لرجل سأل عن الرجل : يقال يريد وجه الله عز وجل ، فيقتل ، ولم يوفق للحق ، فقال : ليدخلن النار ممن يقتل أكثر من كذا وكذا ولكن من قاتل يريد وجه الله عز وجل ، فأصاب الحق فهو في سبيل الله .

ومن لم يوفق للحق ، لم يوفق للخير ، وكذلك الذى ينفى خطرات من الخير يحسبها سواء ولا يميز بين ذلك إلا بشاهد العلم من الكتاب والسنة ، وإذا تبين له بشاهد العلم إحدى الخطرتين ، أنها مما أحب الله عز وجل من عمل قلب أو اعتقاد سنة قبلها وعزم عليها ، وإن تبين له بشاهد العلم أنها مما كره الله عز وجل أو ذمه في كتاب الله عز وجل ، أو في سنة النبي - صلى الله عليه وسلم - أو اجتمعت^(٣) عليه العلماء نقاها عن قلبه وحجب قلبه عنها ؛ فإن لم يتبين له عند إحدى الخطرتين ما هي ، أمي مما أحب الله عز وجل ، أو مما كره الله تعالى ؟ وقف وتثبت ابتداء أو يشهد العلم له بأحد الأمرين فيقبل أو ينفي ، وهو في فسحة حتى يتبين بالنظر بقلبه ، أو بسؤال العلماء ، إن كان مما لا يبلغه علمه فانه إن لم يفعل ذلك لم آمن عليه ، أن يفضل بغير دليل ، فيعتقد الشر ويحسب أنه خير أو ينفي الخير ويحسب أنه شر ،

(١) ١٣ : ١٠٤

(٢) ٣٥ : ٩

(٣) اجتمعت العلماء على أنها مما يكره الله عز وجل .

عليه وسلم ، فجعل بعض فرضه أوجب من بعض ، إذا اجتمع الفرضان ، وفرض فرضاً له وقت يفوت ، إن جاز وقته بغير عذر قبل أن يؤدي كان العبد عاصياً لربه ، وفرض فرضاً له وقتان ، فمن أداه في أول وقته كان ذلك أفضل عليه وإن أداه في الوقت الثاني لم يكن مأزوراً وأوجب الله عز وجل ، ألا ينال فرضه بما حرم على عباده ولا يؤثر على فرضه نافلة مما يتقرب به إليه ، فعليك وعلى العباد ألا يؤخروا من فرضه ، ما أوجب أن يبدأ به ، ولا يقدموا ما أمر أن يؤخر بعد غيره من الغرض ولا يتركوا فرضاً ، لطلب قرابة بنافلة ولا غيرها

النص الثالث

باب ما ينبغي به العجب بالرأى الخطأ

قلت : أفرأيت نفى العجب بالرأى الخطأ ، إذا كان ليس بنعمة فأذكر منه الله عز وجل ، بذلك ، ولا أضيف ذلك إلى نفسي فم أنفيه ، إذ تبين لي أنه بلية وخذلان ، أو نقص في الدين ؟

قال : قد ينفي العبد العجب بالرأى الخطأ بتهمة نفسه ، وترك الاستحسان لشيء من رأيه إلا بدليل بين وحجة واضحة من الكتاب والسنة ، أو قياس عليهما واستنباط حكم في نازلة .

قلت : وكيف يتهمها ؟ وما الذي ينال به تهمة ؟ قال : لمعرفته ما بنيت عليه في الخلقة أن من شأنها السهو والغفلة ، ولما جرب منها من كثرة غلطها ، وكثرة زللها ، وسوء تأويله ما لا يحصى مراراً كثيرة ، في كل ذلك يرى أنه مصيب ، لا يشك عند نفسه في ذلك ، ثم يتبين له بعد أنه قد كان غفل وغلط ، وكان استجابة لذلك من قبل الهوى ، وتزيين الشيطان ، ولو لم يمهته على تهمة إلا ما يعرف من عامة هذا الخلق : من غلطهم وقولهم في دين الله ، عز وجل ، بغير الحق ، وكلهم يزعم فيما يدعي الحق وهو على باطل ، وهو - مع ما هو عليه من الباطل - لا يشك أنه محق صادق ، وأن من

ويعرف الشر ثم يعتقد ، أو يعرف الخير ثم يجانبه ، ولو تبين ذلك لم آمن ذلك عليه أيضاً ، فإذا فعل ذلك فقد رعى حقوق الله عز وجل ، في جوارحه فلا يخطر بقلبه خطرة تدعو إلى القول بلسانه ، فيعتقد الم بها ، ولا يأذن للسانه ، أن ينطق بها ، حتى يتبين له في العلم بالكتاب والسنة ، أو في إجماع الأمة أن الله عز وجل ، أمر بها أو ندب إليها وأباحها ، وكذلك الداعي إلى الاستماع إلى صوت من الأصوات ، فيعتقد الم إلى الإصغاء إلى ذلك الصوت ، إلى أن يتبين له في العلم أن الله عز وجل ، قد أذن في ذلك ، أو ندب إليه أو أباحه .

ألا ترى إلى ما جاء في الحديث عن ابن عمر ، عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه مر بزمارة راع ، فوضع أصبعيه في أذنيه ، وعدل عن الطريق ، حتى قيل له : إن الصوت قد انقطع ، فنع سمعه ، فلم يأذن له إلى ما كره الله عز وجل .

وكذلك إن خطرت خطرة تدعو إلى نظرة ، لم يعتقد الم بها ، ولم يدع بصره يتردد في النظر إليها إن كانت نظرة فجأة ، حتى يعلم أن الله عز وجل ، قد أمر بها ، أو ندب إليها أو أباحها ، وكذلك يداه : لا يعتقد الم ببطشهما وحركاتهما ، بل لا يخل بينهما وبين البطش ، وكذلك الرجلان لا يخل بينهما وبين المشي حتى يعلم أن الله عز وجل ، قد أمر بها ، أو ندب إليها أو أباحها ، في كتاب أو سنة أو في إجماع الأمة .

قلت : فإذا رعبت حق الله عز وجل ، عند الخطرات التي تدعو إلى عقد ضمير القلوب ، والخطرات التي تدعو إلى الم بحركات الجوارح وسكونها ، فما تخاف على بعد ذلك ؟ وهل يجب على غير ذلك ؟

قال : نعم ، إن الله عز وجل ، أوجب فرائضه في كتابه نصاً في التلاوة وكثير من نص التلاوة مجمل بالفرض ، يحتاج إلى التفسير بما في سنة النبي صلى الله

خالفه مبطل كاذب من جميع أهل الأديان ومن أهل البدع من المسلمين ، وكثير من أهل الفتيا والرأى .

وقد علم أن النفوس طبعها بعضه قريب من بعض ، بل كلها لا تعرى من السهو والغفلة ، وما نفسه إلا من أنفس الخلق من ولد آدم ، عليه السلام ، بنيت كبنيتهم ، وغريزته كفرائزهم ومع ذلك فإن المزين لهم واحد ، وهو الشيطان المرصد لهم بالعداوة ، والباغي لهم الزلل والعصيان فإذا أثبت في قلبه هذه المعرفة بنفسه آتهمها ولم يعجل بما يستحسن دون النظر في الكتاب والسنة ، أو مسائلة أهل العلم والبصيرة ، ولم يزل ذلك شأن الصالحين العارفين بأنفسهم ، ولم يزالوا متهمين لآرائهم ، خائفين من أنفسهم ، من ذلك ابن مسعود ، اختلف إليه شهراً في مسألة عن امرأة مات عنها زوجها ولم يدخل بها ولم يسم لها صداقاً ، فلم يجبه شهراً مخافة الخطأ في إجابته إياهم عما سألوه عن ذلك ، تهمة لنفسه وخشية لخطئها ، ثم قال لما لم يجد بداً من القول فيها قال : أقول فيها برأى فإن كان صواباً فمن الله ، عز وجل ، وإن كان خطأ فمن نفسى .

وروى عن أبي بكر ، رضى الله عنه ، مثل ذلك .

وقال عمر ، رضى الله عنه : إن الرأى كان من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، صواباً ، لأن الله ، عز وجل ، كان يريه : وهو منا الظن والتكلف .

وقال أبو سعيد ، رضى الله عنه : قال الله - عز وجل - لهم وهم أصحاب نبيه ، صلى الله عليه وسلم : « لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ^(١) » .

فكيف فيمن دونهم من الناس ؟

وقال قتادة في قوله عز وجل : لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ، فأنتم أطيش أحلاماً ، فاتهم رجل رأيه وانتصح كتاب ربه ، عز وجل .

(١) ٤٩ : ٧

وقال أبو سعيد الخدرى ، رضى الله عنه : يقول الله تعالى ، لنبيه ، صلى الله عليه وسلم ، لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ، وقال : ونحن أصحابه ، فأنتم أعجز رأياً .

وقال ابن مسعود ، رضى الله عنه :

« أيها الناس اتهموا الرأى ، ولقد رأيتنى وأنا أهم أن أضرب بسيفى في معصية الله ، عز وجل ، ومعصية رسوله ، صلى الله عليه وسلم » .

وقال سهل بن حنيف :

« أيها الناس : اتهموا آراءكم » .

وقال عمر ، رضى الله عنه ، اتهم رجل رأيه ، ولقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أقدر لرددت على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يعنى يوم صالح النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قريباً يوم الحديبية في إجابته إياهم ، والأحاديث في ذلك كثيرة ، وتركنا ذكرها كراهية التطويل .

قلت : فإذا ثبتت المعرفة بذلك فاتهم رأيه ، كيف يتثبت حتى لا يخطئ ؟

قال : تعلم أن من كتاب الله ، عز وجل ، آيات محكمات قد أجمع المسلمون على تفسيرها ، ومنه ما يشبه ويمكن فيه التأويل ، وذلك الذى اختلف فيه ومنه مشبه ولم يختلف فيه إلا أهل الزيغ الذين أخبرنا الله عز وجل ، أنهم يبتغون تأويله ، ابتغاء الفتنة ، لما في قلوبهم من الزيغ والضلالة ، وكذلك سنة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بهذه المنزلة .

فليعلم العبد المريد للصواب : ليدين الله عز وجل ، به أن من الكتاب والسنة محكماً بين التلاوة مفسراً باجتماع وأن ذلك واضح لا يحتاج فيه إلى النظر والبحث ، ولا يجب على النفس التهمة في قبولها واجتنابها إياه ، وأن الذى يمكن فيه الخطأ والصواب ، لضعف ابن آدم وسهوه ، وغفلته وغلبة هواه له ، وتزيين عدوه له :

ما اختلف فيه ، أو حادثة يحتاج فيها إلى التمثيل والقياس على الكتاب والسنة والاجماع ، فعند ذلك يتهم نفسه ، ويتثبت ولا يعجل ، إذ كان الخطأ في ذلك منه ممكناً ، فالعجلة وترك التثبت غرور وخطأ وترك التفقد للدين والتحرز من القول على الله لغير الحق ، فلا يعجل ، ويتثبت ولا يجترئ ويتجنب ولا يقبل ولا يعتقد ما يستحسنه قلبه وزين في عقله إلا من كتاب أو سنة أو ما اجتمعت عليه الأمة ، أو تأويل فيما اختلف فيه شبه للكتاب والسنة والاجماع أو قياس مساو لذلك إذا كان ممن يجوز له القياس والنظر ، وإن لم يكن ممن له أن يقيس ولا ينظر سأل العلماء ونظر في أقوالهم وإلى ما ذهبوا إليه ، وإن كان ممن لا يحسن أن ينظر ويميز من الذين لا يعرفون حلالاً من حرام ، ولا يحسنون التمييز لضعف عقولهم ، فليس على أولئك إلا التقليد للعلماء ، إذا سألوهم عند الحاجة ، وذلك كالأعجمي وبعض النساء ممن لا يحسنون التمييز ، وإن كان من المتشابه الذي وجب على المؤمنين الإيمان به ، ووكّل علمه إلى الله ، عز وجل ، وقف وعلم أنه ليس له تأويله ، وبذلك وصف الله عز وجل ، الراسخين في

العلم بالإيمان به ، وترك تأويله ، وذلك فيما لا يجب على العباد فيه حكم يعملون به ، فهذا ما ينفي عنك العجب بالرأى الخطأ ، حتى لا تعجب إن شاء الله بخطأ في دين الله - عز وجل - من غلط تأويل ولا قياس . قلت : فالعمل الذي لم يمن به على كيف العجب فيه .

قال : الاتكال على قوتك وصبرك لما جربت من نفسك ونسيانك انتظار منة الله - عز وجل - بذلك . وقد روى الأحنف بن قيس عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أن داود عليه السلام ، قال : يا رب إن بني إسرائيل يسألونك بآبرهم وإسحاق ، ويعقوب ، قال ابن عباس في هذا الحديث : إن داود - صلى الله عليه وسلم - حدث نفسه أنه إن ابتلى يستعصم . وقال محمد بن كعب والمقبري في هذا الحديث : « إن الله ، عز وجل ، قال : إني ابتليهم فصبروا ، قال : يا رب وأنت إن ابتليتني صبرت ، قال : أما إني ابتليتهم ولم أخبرهم بأى شيء ابتليتهم ، ولا في أى شهر ولا في أى يوم ، وأنا مخبرك في سنتك في شهرك هذا ، ولكن داود لم يصبر على الابتلاء ، فاحرز نفسك » .



ثلاث مسرحيات للوبي دي فيجا

بمقام
الدكتور محمود عالى مكي

مسرح لوبي دي فيجا

يعتبر لوبي دي فيجا أعظم أعلام المسرح الإسباني على الإطلاق ، وهو في إسبانيا والعالم الناطق بالإسبانية بمثابة شيكسبير في الأدب الإنجليزي ، وما زالت رواياته تمثل حتى اليوم على مسارح البلاد التي تستخدم اللغة الإسبانية دون أن يفقدها الزمن غضارتها وجدها . على أن مسرح لوبي دي فيجا لم يقدر له في العالم الخارجي ما قدر لمسرح شيكسبير من ذبوع وشهرة ، ولكن ذلك راجع إلى طبيعة كل من المسرحين ، فالإنجليزي أكثر اهتماماً بالتوازن النفسية إذ أن ميدانه هو الإنسان وسلوكه وأعماله مما هو مشترك بين سائر الأمم والمجتمعات ؛ أما مسرح لوبي فانه إسباني خالص قبل كل شيء ، هو مسرح وطني تتمثل فيه حياة إسبانيا لا في عصره فقط ، بل إنه يعكس لنا حياة هذه الأمة منذ العصر الروماني حتى وقت المؤلف ، وليس معنى ذلك أن مسرح لوبي دي فيجا خال من تلك الشخصيات التي تعتبر نماذج بشرية عامة ، غير أنه وسماها دائماً بسمه بلاده الخاصة بحيث لم يكن من السهل فهمها وتمثلها إلا في نطاق بيئتها .

عصر لوبي دي فيجا

وقد كان لوبي صورة صادقة لإسبانيا في عصره ، وربما كان مسرحه جاعاً للقيم الفنية والأدبية في ذلك العصر الذي اصطلاح على تسميته بالعصر الذهبي El Siglo de Oro للأمة الإسبانية ، وهو في فنه المسرحي يعتبر نظيراً وقريناً لأديب آخر عبقرى هو ميغيل دي ثيرفانتيس سافدرا Miguel de Cervantes Saavedra صاحب تلك الرواية الخالدة التي تعد أشهر أثر أدبي إسباني على الإطلاق : « دون كيخوتي دي لامانتشا » ، وهي التي تمثل مع مسرح لوبي الروح الإسبانية خير تمثيل .

أما هذا الذي يطلق عليه اسم « العصر الذهبي » في إسبانيا فانه هو الذي يوافق أوج الإمبراطورية الإسبانية خلال القرن السادس عشر ، ثم بدء اختلال هذه الدولة في أواخر هذا القرن والقرن التالي كله ، وإذا كانت إسبانيا قد ظهرت في خلال الفترة الأولى من حكم الأسرة المعروفة باسم « أسرة النمساويين » Casa de Austria باعتبارها الدولة الأوربية الأولى من الناحيتين السياسية والعسكرية ، فان اصطلاح « العصر

الذهبي» ينبغي ألا نخدعنا ، فإن هذه العظمة التي أتيحت لإسبانيا كانت تحمل في طياتها عناصر الانحلال ، وهكذا لم يكد القرن السابع عشر يستهل حتى كانت إسبانيا في تراجع وتخلّف مطرد لم يزل يشتد طوال القرنين التاليين ، ولعل ذلك العصر الذي هو موضوع حديثنا لم يكن « ذهبياً » حقيقة إلا في الفنون والأدب : هو عصر ثيرفاتيس أكبر روائى عرفته إسبانيا ، وعصر لوبي دى فيجا وكالديرون Calderon وتيرسو دى مولينا Tirso de Molina عباقة المسرح ، وعصر يروجيتى Berruguete وجريجوريو فرنانديث Gregorio Fernandez مثالى إسبانيا الشهيرين ، وعصر خوسيه دى ريبيرا José de Ribera وموريليو Murillo وثورباران Zurbaran وفيلانكث Velazquez أمراء فن التصوير .

وقد كانت بداية هذه النهضة الإسبانية الماثلة التي كان لها في أول الأمر ظاهر سياسى وعسكرى يوحى بالقوة وإن كان ينطوى على مبادئ الانحلال هي استيلاء الملكين الكاثوليكين فرناندو وإيزابيل على غرناطة آخر معاقل الإسلام في الأندلس في سنة ١٤٩٢ ، وهكذا اختتم آخر فصل من فصول التاريخ الإسلامى في هذه البلاد بعد صراع طويل استمر خلال نحو ثمانية قرون وبعد أن قدم العرب والمسلمون لإسبانيا ولأوروبا عن طريق الأندلس خلاصة تجربة حضارية تركت على أرض شبه الجزيرة آثاراً عميقة لم تندثر معالمها حتى الآن غير أن هذا الاحتكاك الدينى الطويل بين الإسلام والمسيحية على أرض إسبانيا أوهم ساسة هذه البلاد وقادة الكنيسة فيها بأن عظمة إسبانيا لن تبدأ إلا من حيث تنهى سيادة المسلمين في البلاد ، وعلى ضوء هذا الاعتقاد ينبغي أن تفهم تاريخ إسبانيا الحديث ، فقد كان القضاء على غرناطة الإسلامية موحياً بآتمام الوحدة الدينية وبانتهاء تلك الحرب الطويلة التي دارت على أرض الأندلس قروناً طويلة . ومن هنا كانت سنة

١٤٩٢ من السنوات الحاسمة ذات المدلول العميق في التاريخ الإسباني ، لا سيما وأنه وقع في نفس السنة حدثان لا يقلان خطراً عما يعنيه التخلص من آخر ملاذ للإسلام في أرض شبه الجزيرة ، أولها طرد اليهود من إسبانيا ، وبهذا بدا لإسبانيا المسيحية أنها قد استكملت عناصر وحدتها الدينية ، ثم كشف أمريكا بعد أن وصات سفن كريستوفر كولمبس إلى العالم الجديد في ١٢ أكتوبر سنة ١٤٩٢ .

وقد بدا لإسبانيا المسيحية بالفعل منذ هذه السنة أنها مقبلة على عصر من العظمة لم تشهد أبداً من قبل ، وأكدت هذه العقيدة سلسلة من الانتصارات المتوالية قفزت بإسبانيا إلى مكان الصدارة في أوروبا خلال سنوات قليلة . ففي سنة ١٥٠٤ غزت الأساطيل الإسبانية إيطاليا فاحتلت مملكة نابلى وجزيرة صقلية أى نحو نصف إيطاليا الجنوبي ، ثم بدأ تطلع إسبانيا إلى شمال إفريقيا ، ففي سنة ١٤٩٧ احتلت مليلة ، ثم المرسى الكبير سنة ١٥٠٥ ووهران سنة ١٥٠٩ ، وفي السنة التالية وصات أساطيل إسبانيا إلى بجاية وطرابلس ، وتأكدت سيطرة إسبانيا على جزر كنارياس .

وفي سنة ١٥١٢ استكملت إسبانيا وحدتها الجغرافية السياسية باحتلال إمارة نبرة الواقعة على الحدود بين فرنسا وإسبانيا ، وكان ذلك هو آخر خطوة في توحيد إسبانيا كلها بصورتها الراهنة بعد أن اتحد عرشاً مملكتى قشتالة وأرغون بالزواج المفقود بين إيزابيل وفرناندو ، وبعد أن تم الاستيلاء على مملكة غرناطة .

ولا تمضى على ذلك سنوات حتى يتسع نطاق السياسة الأوروبية الإسبانية منذ أن بلى عرش إسبانيا حفيد الملكين الكاثوليكين كارلوس الأول (المعروف باسم شارلكتان أو شارل الخامس) في سنة ١٥١٧ ، وفي عهد هذا الملك وصلت الإمبراطورية الإسبانية إلى حد بعيد من الاتساع ، إذ كان ثمرة زواج ابنة الملكين الكاثوليكين بالأمير النمساوى الأرشيدوق فيليب

المعروف بلقب الحميل ، وهكذا ورث عن أبويه ملك إسبانيا ومستعمراتها الجديدة في أمريكا بالإضافة إلى عرش النمسا والإمبراطورية الألمانية والبلاد الواطئة وممتلكات أسرة بورجوني وجنوب إيطاليا وصقلية وسردانية .

واستمر حكم كارلوس الأول حتى سنة ١٥٥٦ ، وزادت الإمبراطورية الإسبانية في عهده اتساعاً بعد فتح المكسيك (١٥١٩ - ١٥٢١) وبيرو وشيلي (١٥٣١ - ١٥٤١) والاستيلاء على تونس (١٥٣٥) ، وبعد أن هزمت الجيوش الإسبانية ملك فرنسا فرانسوا الأول في معركة بافيا (١٥٢٥) . وهكذا نرى أن إسبانيا لم تلبث أن صارت صاحبة الكلمة الأولى في أوروبا .

وظل الأمر كذلك خلال الشطر الأكبر من حكم خلف كارلوس الأول وابنه فيليب الثاني (١٥٥٦ - ١٥٩٨) ، وكان من أبرز ما تم في عصره القضاء على ثورة الموريسكيين من بقية المسلمين في جبال غرناطة بين سنتي ١٥٦٨ و ١٥٧٠ ثم الانتصار على الأسطول العثماني في موقعة ليبانتو Lepanto البحرية في سنة ١٥٧٠ ، وأخيراً ضم البرتغال وممتلكاتها في أمريكا (البرازيل) وأفريقيا إلى التاج الإسباني (١٥٨٠) ، فضلاً عن فرض سيطرة إسبانيا على جزر الفيلين (١٥٨١) وغيرها من جزر المحيط الهادى . وهكذا نرى الإمبراطورية الإسبانية تبلغ أوج اتساعها وقوتها ، وتصبح أعظم قوة سياسية في القارة الأوربية . غير أن إسبانيا لم تنعم بذلك طويلاً ، إذ كان من المفارقات أن عصر فيليب الثاني نفسه هو الذى بدأ فيه انحلال إسبانيا ولا سيما منذ أن استطاعت بريطانيا تحطيم الأسطول الإسباني المشهور المعروف باسم «الأسطول القاهر» La Armada Invencible (الأرمادا) في سنة ١٥٨٨ ، وبهذا تبدأ قوة إسبانيا العسكرية في الانحلال ويستمر ذلك طوال القرن السابع عشر ، وبصورة خاصة حينما يبدأ طرد المسلمين الموريسكيين في سنة ١٦٠٩ ،

وكانت العصية الدينية هي التي حملت ملوك إسبانيا على اتخاذ هذا الإجراء ، ولكنهم لم يفتنوا إلى مدى ما قدر أن يصيب إسبانيا من جراء طرد هذه المجموعات الكبيرة من سكان البلاد ، ويقدر المؤرخون عدد هؤلاء بأكثر من نصف مليون ، ولا شك في أن هذا العدد أقل بكثير من الحقيقي ، وقد أدى هذا إلى حرمان إسبانيا من عنصر كان من أكثر عناصر أهلها نشاطاً وخبرة ، إذ كان هؤلاء المسلمون هم الذين يضطلعون بوجوه النشاط الحيوى من زراعة وتجارة وصناعة ، ولهذا فأننا لا نلبث أن نرى أوضاع إسبانيا الاقتصادية تتدهور تدهوراً سريعاً ، ورافق ذلك سلسلة من الكوارث السياسية والعسكرية تعاقبت خلال حكم فيليب الثالث (١٥٩٨ - ١٦٢١) وفيليب الرابع (١٦٢١ - ١٦٦٥) وكارلوس الثاني (١٦٦٥ - ١٧٠٠) ، نذكر منها الحروب المستمرة مع فرنسا وإنجلترا ، واستقلال هولندا وانفصالها عن الإمبراطورية الإسبانية (سنة ١٦٤٨) ثم انفصال البرتغال بدورها (سنة ١٦٦٥) . ولا ينتهى القرن السابع عشر ويبدأ في إسبانيا حكم أسرة البوربون حتى تكون إسبانيا قد فقدت مكانتها باعتبارها الدولة الأوربية الأولى ، وتصبح فرنسا هي وريثها في هذا الميدان .

حاولنا في الصفحات السابقة أن نوضح الخطوط العامة للعصر الذى عاش فيه لوبى دى فيجا ، إذ أن أدب إسبانيا المسرحى الأول لم يكن بمعزل عن أحداث هذا العصر ، بل شارك فيه وصوره وكان مسرحه تعبيراً صادقاً له ، وإن كانت أمثال هذه العبقريات الخارقة للطبيعة لا يسهل إخضاعها لمقتضيات الأحوال السياسية والاجتماعية أو قياسها بهذا المقياس الضيق المحدود .

المسرح الاسبانى قبل لوبى دى فيجا

يمكن أن نقول إنه لم يكن هناك مسرح بمعنى الكلمة في إسبانيا قبل لوبى دى فيجا ، وإنما كانت هناك

وهي تتألف من واحد وعشرين فصلا ، وكان ذلك مما جعلها غير صالحة لأن تمثل على خشبة المسرح بصورتها الراهنة ، ولكنها مع ذلك تعد خطوة طيبة في السبيل التي سلكها المسرح الإسباني حتى بلوغه مرحلة النضج .

ومن يستحقون الذكر من بين هذا الرعيل الأول من المؤلفين الإسبان الإشبيلي لوبي دي رويدا Lope de Rueda الذي ولد في أوائل القرن السادس عشر وتوفي سنة ١٥٦٥ ، وكان صاحب فرقة مسرحية يجوب بها مدن إسبانيا ، وقد أثني ثيرفانتيس على مسرحه ثناء عظيماً ، وكان متأثراً في فنه بما كانت تقدمه الفرق المسرحية الإيطالية التي كانت تضطرب في جنبات إسبانيا في ذلك الوقت . والمؤلف الثاني الذي يعتبر مبشراً بلوبي دي فيجا هو خوان دي لاكويفا Juan de la Cueva (١٥٥٠ - ١٦١٠) وكان على عكس سابقه يعمل على تجنب الموضوعات الهزلية والشعبية ويحاول أن يخلق مسرحاً أكثر جدأ وقيمة أدبية ، إذ كان يستلهم تمثيلاته من المسرح الإغريقي ومن التاريخ الوسيط والمعاصر ، ولعل أهم ما برز فيه هذا المؤلف هو ما استوحى مادته من المدونات التاريخية والأشعار الملحمية المرتبطة بتاريخ إسبانيا والتي كانت تتناقل شفاها جيل بعد جيل^(١).

لوبي دي فيجا : حياته

إننا كان مؤرخو الأدب الإسباني قد وفقوا في السنوات الأخيرة إلى معرفة الكثير عن هذا الشاعر العبقرى خالق المسرح الإسباني فان في حياته وجوانب شخصيته أركاناً ما زالت تستحق مزيداً من الدراسة والتحليل . فالواقع أن لوبي دي فيجا يعتبر « حالة

محاولات يتفاوت نصيبها من التوفيق . وأول ما نعرفه من صور الأدب المسرحي في القرن الخامس عشر هو بعض التمثيلات ذات الطابع الديني أو اللاهوتي كل منها من فصل واحد ، وكانت هذه التمثيلات تعالج ما من شأنه أن يلهب الروح الدينية في ذلك العصر الذي كان الصراع فيه بين الإسلام والمسيحية يوشك على أن يتقرر مصيره الحاسم . فكانت الموضوعات التي يطرقها المؤلفون - وأغلبهم من رجال الكنيسة - تتناول السيد المسيح وحياته وآلامه وعن حيوات القديسين والقديسات ومواضيع اللاهوت التي تجسد فيها المعاني الروحية والقيم العقيدية والأسرار الصوفية ، فتحن نجد من شخصيات هذا المسرح اللاهوتي : الأبد والحب والفضيلة والشرف والخطيئة والإرادة والشر والسيطان والموت .

ولعل أول من أخرج المسرح من رحاب الكنيسة إلى الشارع هو الراهب الشاعر الموسيقي خوان دي لا إنسينا Juan de la Encina (١٤٦٨ - ١٥٢٩) وكان أديباً موسيقياً يعمل في بطانة أحد النبلاء الإسبانين ثم انخرط في سلك الرهبنة فكان راعياً لكنيسة مالقة ، ثم ارتقى في السلك الكنسي حتى أصبح أسقفاً لمدينة ليون ، ولم تمنعه ثقافته الدينية من معالجة الشعر الغنائي والمسرح الشعبي ، وإن كانت مسرحياته بسيطة في الشخصيات والحوار ، وعلى كل حال فهو يعتبر أول من ألف تمثيليات ذات موضوعات شعبية عادية بعد أن كان المسرح الإسباني البدائي مرتبطاً بالدين والكنيسة ، وهذا هو ما جعل مؤرخي الأدب الإسباني يطلقون عليه لقب « أبا المسرح الإسباني » .

ومن المسرحيات التي ترجع كذلك إلى ذلك العصر تمثيلية « لائلستينا » La celestina (القوادة) التي تنسب إلى طالب كان يدرس في جامعة سلمنقة هو فرناندو دي روخاس Fernando de Rojas ، وقد كتبت هذه المسرحية في سنة ١٤٩٧ ، ويبدو عليها الطابع البدائي ، إذ هي أشبه بقصة طويلة أكثرها حوار ،

(١) انظر دراستنا عن « المسرح الإسباني في القرن السابع عشر » - في « المجلة » ، العدد ١٦ ، أبريل سنة ١٩٥٨ ص ٤١-٥١

به وتمكنت من استنقاذه من بين ذراعى خيلته . كذلك نعرف من حياة والد لوبي دى فيجا أنه كان على كثرة مغامراته الغرامية وولوعه بالنساء كثيراً ما تنابه نزعات متدنية صوفية يحاول فيها التكفير عن خطاياها فيعود المرضى ويكثر من التصديق ويسلك حياة التبتل والزهد : ونحن نعرف من بين أفراد أسرة لوبي عمه ميغيل دل كاربيو Miguel del Carpio الذى كان أحد قضاة محكمة التحقيق La Inquisicion ويذكر عنه أنه كان من أكثر هؤلاء تعصباً وصرامة وقسوة ، حتى إنه كان مضرب المثل فى ذلك .

وإذا كان حقاً ما يذكر من قوانين الوراثة فانتا نجد فى أسرة لوبي دى فيجا التى انحدر منها كثيراً من الخصائص التى ميزت حياته . فنحن نرى فى أصله المتواضع الفقير ما يفسر لنا نزوعه إلى الشعبية وكرامته للتبلاء وللطبقات الممتازة المتعجرفة ، ونرى فى حياة أبيه من التذبذب بين اللهو والولوع بالنساء وحياة الزهد والعبادة ما سنراه بعد ذلك لدى لوبي دى فيجا نفسه من ذلك فى صورة أجلي وأكثر تناقضاً ، وأخيراً نجد عنده ما نلاحظه عند عمه من العصبية الدينية والبعد عن التسامح .

ولنا نعرف الكثير عن طفولة لوبي دى فيجا ، غير أننا نعلم أنه أخذ العلم فى صباه فى أحد معاهد اليسوعيين ، وأنه وهو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره هرب مع صبي صديق له إلى شقوبية Segovia لسبب لا نعرفه ، غير أن ذلك يدل على ما كانت تتميز به شخصية لوبي منذ صغره من نزعة إلى التمرد والإنطلاق . كذلك نعرف من أخباره فى صباه المبكر أنه قام فى هذه السنوات المبكرة بترجمة قصيدة الشاعر كلاوديانو عن « اختطاف بروسرينا » De raptu Proserpinae من اللاتينية إلى الإسبانية ، وكانت هذه الترجمة الشعرية باكورة إنتاجه الأدبى .

نفسية « كثيرة التعقيد متشابكة الأطراف شأنه فى ذلك كشأن الكثيرين من عباقرة الفكر والفن والأدب ، وقد كان نشر مجموعة كبيرة من « رسائل » لوبي الخاصة فى السنوات الأخيرة مما أعان على فهم كثير من هذه النواحي الغامضة من شخصيته ونفسيته (١) ، كما أننا نجد فى ثنايا مؤلفاته الغنائية والقصصية والمسرحية إشارات كثيرة إلى نفسه وإلى تفاصيل حياته ، ولو جمعت كل تلك التفاصيل ودرست دراسة علمية فاحصة بالإضافة إلى رسائله ومكاتباته فانه من الممكن أن يكون كل ذلك أساساً لبحث مستفيض تحلل فيه نفسية هذا الأديب العبقري ويصلح مدخلاً إلى دراسة فنه .

ولد لوبي فيلكس دى فيجا إلى كاربيو Lope Felix de Vega Carpio فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٥٦٢ فى مدريد من أبوين أصلهما من قرية قريبة من مدينة سانتا ندير Santander (فى شمال إسبانيا على البحر الكنتبرى) ، وكان من أسرة متواضعة مغمورة تنتمى إلى عامة الشعب فى ذلك العصر الذى كان التباين الطبقي فيه من أسس الحياة الاجتماعية . وكان والد لوبي حائكاً فقيراً لم يكن لديه من سعة المال ما يعلم به أبنائه ، ويذكر لوبي دى فيجا نفسه أن أخته إيزابيل كانت أمية لا تعرف حتى مجرد التوقيع باسمها .

ويشير لوبي فى بعض ما كتبه إلى حياة والده التى كانت مزيجاً من المغامرات العاطفية العنيفة والتدين العميق : فقد هرب من بلده سانتا ندير إلى مدريد بعد أن أغوى إحدى النساء واختطفها على ما يبدو ، غير أن زوجته أم لوبي : فرانسيسكا فرنانديث فلورس Francisca Fernandez Flores لم تلبث أن لحقت

(١) مثل المجموعة التى نشرها جونثال دى أميثوا ومهد لها بدراسة قيمة بعنوان : « لوبي دى فيجا من خلال رسائله » - فى أربعة أجزاء .

A. Gonzalez de Amezua : Lope de Vega en sus cartas, Madrid, 1935-43.

« سان خوان » تاركاً زوجته في أشد حالات الحزن والقلق . غير أن مغامرة لوبي الحربية انتهت على نحو عزن يشبه ما انتهت به مغامرة مؤلف « دون كيخوتي » الخالد ، وإذا كان هذا قد وقع في الأسر فإننا نعرف أن « الأسطول القاهر » قد تحطم كله على أيدي البريطانيين في سنة ١٥٨٨ ، وكانت تلك الكارثة مؤذنة بأفول الشمس عن الإمبراطورية الإسبانية التي لم تكن الشمس تغيب عنها . وعاد لوبي دى فيجا مثل آلاف غيره من الإسبان وقد استبد بهم القنوط واليأس .

واستقر المقام بأديبنا المغامر بعد عودته في بلنسية إذ كان قرار نفيه من مدريد ما زال قائماً ، وهناك قضى أياماً هادئة في دفء منزله ومع زوجته وأبنائه . وانقطع لوبي في تلك الفترة إلى الكتابة ، إذ لم يكن لديه وسيلة أخرى لكسب العيش إلا حرفة الأدب ، وهو يشير في مسرحياته التي ألفها حينئذ إلى نفيه وبعده عن مدريد ثم التحق بخدمة الدوق أنتونيو ألفاريث دى توليدو Antonio Alvarez de Toledo فاشتغل كاتباً له ، ورافقه في رحلاته إلى طليطلة (١٥٩٠) ثم إلى ألبا دى تورميس Alba de Tormes . وفي هذه البلدة توفيت زوجته إيزابيل سنة ١٥٩٥ ، فبكاه في قصائد مؤثرة أشار فيها إلى وفاته لها وحبه إياها ، ثم لم تلبث بنتاه منها أنتونيا Antonia وتيودورا Teodora أن لحقتا بأبهما بعد قليل .

ومع ذلك فإن إخلاصه للذكرى زوجته المتوفاة لم يدم طويلاً ، إذ نعرف أنه تعرض للمحاكمة بتهمة علاقات غير شرعية بامرأة متزوجة هي أنتونيا تريليو دى آرمتا Antonia Trillo de Armenta (سنة ١٥٩٦) ، ولم يكتف بذلك ، بل إلى هذه الفترة ترجع أيضاً صلته بممثلة جميلة متزوجة هي كاميلو لوئيندا Camila Lucinda وكانت زوجة ممثل مغموّر رحل إلى بعض المستعمرات الإسبانية في أمريكا وكان قد أحب هذه المرأة حباً عنيفاً مضطراً ، وعاشت

ولم يلبث لوبي أن التحق بخدمة أسقف مدينة أبله ، ثم التحق بجامعة ألكالا دى إيناريس Alcala de Henares (وهي بلدة قريبة من مدريد كانت تدعى في أيام المسلمين قلعة عبد السلام) ، وذلك في سنة ١٥٧٦ على وجه التقريب ، ثم استكمل دراسته في جامعة سلمنقة Salamanca بين سنتي ١٥٨٠ و ١٥٨١ .

ولم يكد لوبي يجاوز سن البلوغ حتى بدت ميوله إلى النساء ، وبدأ في خوض مغامرات غرامية لم تنته إلا قبل موته بقليل . فنحن نعرف أنه وهو في السابعة عشرة من عمره قد عشق امرأة متزوجة هي إيلينا أوسوريو Elena Osorio زوجة أحد الممثلين ، واستمرت صلته بهذه المرأة نحو خمس سنوات ، وسجل لنا قصة غرامه هذه في إحدى رواياته هي التي تحمل عنوان « لادوروتيا » La Dorotea .

غير أن المرأة اللعوب انصرفت عن لوبي وآثرت عليه رجلاً آخر من أسرة نبيلة مما حمل لوبي على هجائها هي وأسرته في أبيات عنيفة جارحة ، وكان من آثار ذلك أن لوبي قدم للمحاكمة بتهمة القذف ، وحكم عليه في ٧ فبراير ١٥٨٨ بالنفي من مدريد مدة ثمانية أعوام .

وفي ١٠ مايو ١٥٨٨ تزوج لوبي من إيزابيل دى أوربينا Isabel de Urbina التي كان قد اختطفها من قبل في ٨ فبراير بعد خروجه من السجن . وكانت إيزابيل هذه ابنة أحد المثاليين المشهورين وأخت حاكم مدريد . غير أنه لم يبق مع زوجته إلا أياماً قليلة ، فقد عادت الزعة إلى المغامرة تلح على لوبي من جديد ، فاذا به يتطوع في الأسطول البحري الأسباني المعروف باسم « الأرمادا » ، ويذكرنا هذا بانخراط ميغيل دى ثيرفاتيس أديب إسبانيا الأكبر وصاحب رواية « دون كيخوتي » في سلك الأسطول أيضاً واشترائه في موقعة ليبانتو البحرية ضد الأتراك ، وأبحر لوبي دى فيجا من ميناء لشبونة في ٢٩ مايو على ظهر المركب

معه في طليطلة ثم في إشبيلية حيث استقر بعد ذلك ، وأنجب منها سبعة أبناء .

وفي سنة ١٥٩٨ تزوج لوبي دى فيجا من جديد ، وكانت امرأته هذه المرة خوانا جواردو Juana Guardo ابنة تاجر غنى كان متعهداً بتوريد اللحم والسمك إلى القصر الملكي ، وسخر أعداء لوبي من هذا الزواج وتندروا به ، إذ اعتبروه صفقة رابحة لم يسع فيها إلا من أجل ثروة زوجته . وعاش لوبي مع زوجته في طليطلة ثم انتقل إلى مدريد حيث استقر بها منذ سنة ١٦١٠ ، وإن كان بين وقت وآخر يعود إلى طليطلة وأشبيلية حيث يعيش فترات مع خليلته الممثلة كاميللا لوثيندا .

وفي سنة ١٦١٣ توفيت زوجته الثانية خوانا جواردو ، فعادت حياته إلى الاضطراب من جديد ، فانتقل فترة إلى طليطلة حيث عاود مغامراته الغرامية بينما كان يفكر في الانخراط في سلك الرهينة . وهو ما حدث فعلاً في سنة ١٦١٤ حين غير لوبي منهاج حياته أو هكذا كان يبدو ، إذ أصبح قسيساً منقطعاً إلى حياة التبتل والرهبنة . والواقع أن لوبي كان مخلصاً في رغبته هذه ، إذ كان يشعر بثقل خطاياه وكان يسعى إلى التحرر منها والانتقال إلى حياة أخرى ينعم فيها بسكينة الروح .

غير أن لوبي كان ضعيفاً أمام نفسه الموائية المتقلبة وعواطفه العنيفة المضطربة ، إذ لم يلبث وهو بأخرة من عمره أن وقع في غرام جديد. فقد عشق امرأة أخرى هي مارتا دى نيفارس Marta de Nevares وكانت مثل النساء السابقات في حياته متزوجة ، وأحب لوبي هذه المرأة بكل جوارحه ، وهو يصورها لنا تصويراً نرى منه كيف كان يعتبرها جاع كل ما في المرأة من جمال وفضيلة . وعاش لوبي مع مارتا السنوات الأخيرة من حياته ، وأنجب منها بنتاً هي أنتونيا كلارا Antonia Clara ، غير أن القدر يعود فيلاحقه بأرزائه ، فنصاب مارتا بالجنون ثم تفقد البصر ، وتموت بعد ذلك في سنة ١٦٣٢ وهي تناهز الأربعين سنة . وكأن الله أراد

أن ينتقم من لوبي وهو على شفا قبره لمن أغوى من نساء ، فيجعله بابنته الحبيبة إلى قلبه أنتونيا كلارا ، إذ يقبض لها فتي كان يخدم في البلاط الملكي يدعى كريستوبال تينوريو Cristobal Tenorio ، فلا يزال يغويها حتى يحملها على الهرب معه .

ويقضى لوبي سنواته الأخيرة في داره في مدريد وحيداً لا مؤنس له ، منقطعاً إلى كتبه وإلى حديثه الصغيرة وإلى صلواته التي أراد أن يكفر بها عن حياة قلقة لم يستروح خلالها نفحات السكينة .

ويبدو أن النكبات المتوالية التي حلت بلوبي في تلك السنوات هي التي عجلت بوفاته . فقضى نحبه في ٢٧ أغسطس سنة ١٦٣٥ ، وتكرر القدر للأديب العظيم حتى بعد موته ، إذ أن الدوق دى سيسا الذي كان لوبي يعمل كاتباً له كان من الجحود والقسوة بحيث أبى أن يتولى نفقات الجنازة ودفن رفات لوبي بعد أن كان قد وعد بذلك ، مما أدى إلى دفن جسده في إحدى المقابر العامة حيث اختلطت برفات الكثيرين ، وهكذا لم يعد أحد يعرف الآن مستقراً للموضع الذي دفن فيه أديب إسبانيا الخالد .

وقد تقلب لوبي دى فيجا خلال حياته في وظائف الكتابة الخاصة لبعض النبلاء كان أولهم الدوق دى ألبا Duque de Alba (سنة ١٥٩٠) والكونت دى ليوس Conde de Lemos (١٥٩٨) ، غير أن أهم شخصيات النبلاء الذين اتصل لوبي بهم هو الدوق دى سيسا Duque de Sessa ، وكان لوبي يوليه حبه ويخلص في خدمته إخلاصاً أشبه بالتذلل المقيت ، ومع ذلك فقد كان الدوق دى سيسا هو الذي تنكر لذكرى صديقه بعد موته فأبى أن يتكفل بنفقات دفنه وجنازته . على أنه كان يوده ويقربه في حياته ، وكان من مظاهر ذلك أنه منحه ضيعتين في قرطبة وفي أبله كانتا تدران على الشاعر الأديب ما يقوم بأود حاجته .

مسرح لوبي دى فيجا

ربما لم يعرف تاريخ الأدب الأسباني ، بل الأدب العالمى كله أديباً له خصوصية لوبي دى فيجا ووفرة إنتاجه وكثرة الآثار الجيدة من هذا الإنتاج . وقد كان لوبي ناثرأ شاعراً وإن كان الشعر أغلب على إنتاجه ، وتضيق هذه الصفحات عن تعداد عناوين مؤلفاته التى تناولت كل الألوان الأدبية المعروفة فى عصره ، فقد عالج الرواية الطويلة والقصة القصيرة وكتب فى التاريخ والزهد ، أما الشعر فانتا نراه كذلك قد استخدمه فى الأدب الملحمى والقصصى والدينى والغنائى ، وربما كان لوبي هو أبرز الشعراء الغنائيين فى العصر الذهبى على الإطلاق . ولا يقاربه فى ذلك أحد من معاصريه .

أما آثاره المسرحية فانتا لا نعرف كاتباً فى العصور القديمة ولا الحديثة له مثل هذا العدد من المسرحيات . ويقدر مونتالبان الذى ترجم حياة لوبي عدد ما كتبه من مسرحيات بألف وثمانمائة ، وبنص لوبي نفسه على أنه كثيراً ما كان يكتب المسرحية الواحدة فى أربع وعشرين ساعة . صحيح أن هذه المسرحيات ليست فى مستوى واحد من الجودة ، ومع ذلك فانه ليس من بينها ما يمكن أن يعتبر رديئاً ، بل إن كثيراً منها تعتبر من أجمل نماذج المسرح العالمى .

وقد عالج مسرح لوبي كل ما يمكن أن يسهه التفكير من موضوعات : فقه المسرحيات الدينية التى كانت تتألف كل منها من فصل واحد وتدور حول المسيح وآلامه أو الأسرار اللاهوتية والميتافيزيقية ، والمحاورات الفلسفية ، وتدخل فى هذا الباب مسرحيات مستوحاة من التوراة بعهدىها القديم والجديد ، ومن حيوات القديسين والقديسات أو الأساطير الدينية . ومن مسرحياته ما هو مستمد من الميثولوجيا الإغريقية القديمة ، ثم نجد جانباً كبيراً من أعماله يدور حول موضوعات تاريخية ، ولا يكاد يند عن مسرح لوبي

التاريخى عصر من العصور ، إذ نجد فيه ما كتب عن العصر الرومانى وعن التاريخ القديم سواء فى إسبانيا أو فى بلاد أخرى ، وأما العصور الوسطى فاللوبي عشرات من المسرحيات تتبع فيها تاريخ إسبانيا منذالعصر القوطى حتى أيامه ، وصور فيها حياة إسبانيا بمختلف ممالكها المسيحية والإسلامية على السواء .

ولم يخل مسرح لوبي من آثار ترك فيها الحقيقة إلى الخيال والتاريخ إلى الأسطورة ، وجنح به خياله الخصب إلى الخوض فى كل موضوع . نجد منها ما عالج به القصص المتداولة بين الرعاة : وقصص القروية ، ومسرحيات استلهم فيها الأدب القصصى السائد فى إسبانيا خلال العصور الوسطى ، منها ما هو مأخوذ من مجموعات عربية مثل « ألف ليلة وليلة » ومنها ما هو مستوحى من القصص الإيطالية التى كان لها ذبوعها فى إسبانيا بحكم خضوع إيطاليا فى ذلك الوقت للإمبراطورية الإسبانية ، وأهم هذه القصص هى التى كتبها بوكاتشو Boccaccio وبانديلو Bandello وجيرالدى تشنثيو Giraldi Cinthio ، هذا فضلاً عن القصص الإسبانية الأصلية .

وهناك جزء كبير من مسرح لوبي يمكن أن نطلق عليه المسرح الاجتماعى وهو بصور لنا المجتمع الإسبانى فى ذلك الوقت تصويراً رائعاً ، وهو فى ذلك لا يكاد يغرب عنه شيء ، نجد فيه حياة الملوك والنبلاء فى قصورهم والمزارعين فى حقولهم وقطاع الطرق والفجر والطبقات الوسطى ورجال الكنيسة .

كل شيء كان يستطيع قلم لوبي السحرى أن يحوله إلى مسرح ، وكل شخصية تخطر على البال مهما كبرت أو صغرت كانت صالحة لكى تحتل مكانها من أدبه . وإن القارئ لمسرح لوبي ليعجب لهذا العدد الهائل من الشخصيات التى رسمها فى براعة ودقة لكل أنواع النماذج البشرية أو الخيالية : الآلهة الوثنيين والأبطال الأسطوريين والأنبياء والقديسين والرموز والأشباح :

والملوك ، والنبل ، والجنود والبحارة والطلبة والمسولين وأهل الشطارة ، واللصوص وقطاع الطرق والأميرات وسيدات المجتمع الراقى والخدمات والقوادات ، والعاهرات .

وأهم ما يميز مسرح لوبى دى فيجا هو الطابع الشعبى الغالب عليه ، فهو مسرح « جاهيرى » بمعنى الكلمة ، غير أنه ينبغي ألا تفهم من ذلك أنه مسرح يهدف إلى إرضاء الجمهور على حساب الفن ، بل هو موجه لإرضاء الجميع ، يجد فيه ذوق الثقافة الراضية والذوق الناضج ما يشبع فضولهم ، ويغلب ألباب الجمهور العادى بما فيه من حركة وإثارة . هو من هذه الناحية مثل مسرح شيكسبير ، ووجه العبقريّة في هذين المؤلفين أنهما عرفا كيف يقدمان أدباً يأخذ منه القارئ أو المتفرج ما يرضيه مهما كانت ثقافته ومستواه . وإن كان هناك فرق واضح بينهما هو أن شيكسبير كان يهتم بالنوازع النفسية وهى قدر مشترك بين الناس جميعاً ، بينما كان مسرح لوبى وطنياً إسبانياً قبل كل شيء ، وهذا هو ما جعل لشيكسبير عالمية أوسع وأبعد مدى مما كان لهذا الأديب الإسباني الكبير .

وقد كان لوبى كما ذكرنا من أسرة متواضعة فقيرة ، ولعل هذا هو ما جعله خير مترجم لروح الشعب نفسه ، ونحن نرى في كثير من أعماله تصويراً لتفكير الطبقات الشعبية وإحساسها ولا سيما فى علاقاتها بطبقة النبلاء الإقطاعية المتعجرفة ، كذلك نجد فيه صورة لإسبانيا المسيحية المتعصبة التى كانت تعتبر نفسها حامية للكاثوليكية مجاهدة فى سبيلها ، وإن كنا نرى مع ذلك صوراً للمسلمين الموريثيين تستثير الإعجاب والتقدير وهذا وإن بدا من المفارقات أمر طبيعى منطقى ، فقد كان الموريثيون الإسبان الذين احتفظوا بديانتهم حتى عصر لوبى من أهم عناصر المجتمع وأكثرها نشاطاً وفعالية وكان كثير من الإسبان المسيحيين يكونون لهم مودة وعطفاً على الرغم من عصبية الكنيسة والحكومة .

أما اليهود فقد رسم لهم لوبى صورة منفردة تثير الاستمزاز وهى بدورها ليست إلا تعبيراً عن شعور الشعب الإسباني كله نحو هذه الطائفة التى طالما تأمرت على الأندلس الإسلامية وإسبانيا المسيحية على السواء . ومن مظاهر هذه الروح الشعبية فى مسرح لوبى كثرة ما يرد فيه من أغان ومقطوعات كانت مما يتردد على ألسنة الناس على مختلف طبقاتهم ، وهذا هو ما جعل لمسرحه طابعاً غنائياً واضحاً ولا سيما حينما ينساب إلى شاعريته . ولعل أعظم ميزة لمسرح لوبى دى فيجا هى التنوع الذى لا يعرف الحدود ولا الخضوع لقلب معين . وإذا كان المسرح بعد تطوره قد تحدت مذاهبه وأصبحنا نعرف الكتاب المسرحيين ونقوم خصائصهم سالكين إياهم فى مدارس وطوائف ، فإن لوبى دى فيجا يستعصى على ذلك ، فنحن نجد فى رواياته كل ما ستأتى لنا به المدارس المسرحية التالية لعصره حتى اليوم : فيه الاتباعية والابتداعية وفيه العاطفية الخاملة ، والواقعية المتطرفة ، وفيه الحركة المتوثبة والتفكير الفلسفى الهادئ . . . بل إن من الغريب أن نرى لوبى مع هذا الإنتاج الهائل الذى لا نعرفه توفر لأديب مسرحى آخر - لم يعد إلى نقل إحدى مسرحياته من مسرحية أخرى كما يفعل كثير من المؤلفين عفواً أو عمداً ، فهو لا يكرر أبداً ، وكل ما كان يأتى به جديد يختلف عما سبقت له كتابته .

وهذا هو ما جعل لوبى دى فيجا يعتبر « أمة وحده » فالمسرح من قبله كان فى بدايته الأولى المتعثرة ، وكان من المنتظر أن يمر وقت طويل حتى يكتمل نضجه ، ولكن لوبى كان فى تاريخ المسرح الإسباني « حالة » استثنائية غريبة لا نستقيم مع سنن التطور أو النمو ، إذ نرى فيه المسرح الإسباني وقد اكتمل فجأة وبغير مقدمات ، ولستنا نبالغ إذا قلنا إن إنتاجه سواء من ناحية الكم أو الكيف يعتبر كثيراً على عشرات من المؤلفين معاً . وقد كان معاصرو لوبى يشعرون بذلك ، وتكفيينا

مسرحية بيريبا نيث وحاكم أوكانيا ،

إذا وضعنا نصب أعيننا ذلك الإنتاج الهائل الذى خلفه لوبي دى فيجا والذى ضاع منه الكثير وإن كان ما بقى منه بملا عشرات من المجلدات فإنه يمكن للقارئ أن يقدر مدى الصعوبة فى التعريف حتى بمختارات قليلة من آثاره المسرحية المشهورة ، إذ أنها لن تمثل إلا جانباً محدوداً من إنتاجه ، غير أنه لا حيلة لنا فى ذلك ما دام الخيال لا يسمح بأكثر منه .

ولعل من أجمل مسرحيات لوبي وأصدقها تصويراً لفنه هذه التى وقع عليها اختيارنا ، وهى التى تحمل عنوان *Peribanez y el comendador de Ocaña* وهى مسرحية مستمدة من أغنية شعبية كانت متداولة فى الأندلس فى خلال أسطورة ربما كان لها أصل تاريخي .

ويرفع الستار فى الفصل الأول على منظر احتفال بزفاف ، فرى العروسين اللذين كانا قد انتها توأمن عقد مراسم الزواج : بيريبا نيث *Peribanez* وهو فلاح من أسرة متواضعة وإن كان ميسور الحال ، وكاسيلدا *Casilda* وهى كذلك فلاحه رائعة الجمال فيها بساطة الريفيات وشرفهن وكرم أخلاقهن . ويقدم لنا لوبي هنا لوحة فولكلورية رائعة تمثل لنا هؤلاء المزارعين البسطاء فى أفراحهم وحفلات زواجهم وما يتخللها من رقص وأغان شعبية ، وربما كانت تلك الأغنية التى يشترك فيها الموسيقيون وأهل قرية أوكانيا *Ocaña* من أجمل ما اشتمل عليه ذلك الفصل :

ليرحب بالعروسين

شهر مايو المشرق

والمروج المرحه

والعيون والأنهار

وترفع أشجار الحور

رؤوسها المتوجة بالخضرة

فى تقدير هذا الأديب شهادة أديب إسبانيا الأكبر ثيرفانتيس الذى سماه « الأعجوبة الجامعة للعبقريات » *El Fenix de los Ingenios* و « المارد الخارق لنواميس الطبيعة » *El Monstruo de la Naturaleza* ، وما نظنه أبعد فى هذا الوصف ولا جنح إلى الإحالة .

وقد كان من الرسوم التى وضعها لوبي للمسرح الإسباني واستقرت منذ ذلك حتى اليوم تقسيمه للعمل المسرحي إلى ثلاثة فصول ، وهو تقليد لم يكن معروفاً من قبل ، ولم ينقطع فى إسبانيا إلا فترات قصيرة تأثر فيها المسرح الإسباني بالمسرح الفرنسى خلال القرن التاسع عشر^(١).

(١) هناك طبعات كثيرة لمجموعات من مسرحيات لوبي دى فيجا بعضها تم فى عصر لوبي نفسه إما بإذنه أو سطواً بغير علمه ، وفى هذه الطبعات كثير من التحريف والتشويه بما كان يدخله المثلون أنفسهم على خشبة المسرح ، وهو أمر طالما شكاه لوبي . وهناك مسرحيات أخرى ظلت مخطوطة فى مختلف مكتبات العالم حتى وقت قريب . وفى أواخر القرن التاسع عشر بدأ المجمع القوي الملكي فى مدريد فى إعداد طبعة جديدة لمسرح لوبي ما بين سنتي ١٨٩٠ و ١٩١٤ ، وقد نشرت هذه المجموعة التى لم تقم إلا مسرحياته المشهورة المتداولة فى خمسة عشر مجلداً ضخماً ، وقد اشتمل معظم هذه المجلدات (من الثانى إلى الثالث عشر) على دراسات تمهيدية لعالم إسبانيا الكبير منذ بيلايو *Menendez Pelayo* ، ولما كانت هذه الطبعة كما ذكرنا غير كاملة ولا مستوفية لكل آثار لوبي المسرحية فقد شرع المجمع القوي بعد ذلك فى طبع مجموعة أخرى للمسرحيات التى كانت أقل نصيباً من الشهرة والتداول أو التى لم تكن قد نشرت بعد أو التى كان مشكوكاً فى نسبتها إلى لوبي ثم أثبتت الأبحاث الحديثة صحة هذه النسبة ، وقد اضطلع بهذا العمل الناقد الأدبي إميليو كوتاريلو *Emilio Cotarelo y Mori* فنشر فى هذه المجموعة ٢٥٨ مسرحية فى ثلاثة عشر مجلداً يبلغ عدد صفحات كل منها نحو ٧٠٠ من القطع الكبير وبحروف بالغة الصغر والدقة . ومع ذلك فقد تبين بعد ذلك أن هاتين المجموعتين لم تستقصيا مسرح لوبي كله ، فقام بتذييلها الباحث جوثالث دى أميسوا *Gonzalez Amezua* بمجموعة تحت عنوان « مسرحيات مخطوطة مجهولة لوبي دى فيجا » (مدريد سنة ١٩٤٥) . أما الدراسات والأبحاث حول لوبي فإنها ربما احتاجت إلى كتاب خاص لتعدادها ، ويكفى أن نشير إلى أن من أهمها ما كتبه منبث بيلايو والباحث الإسباني المعاصر إنترامباسواس *Joaquin Entrambasaguas* الذى تخصص فى دراسة لوبي وإنتاجه الأدبي .

ولتحيهما أشجار اللوز
بثمارها الجديدة
وليشرع عليهما القجر الضحوك
سيفاً خضراء
قد عطرها ندى السحر
ملقياً عليهما نثيراً من أزهار السوسن

ويمضي الفلاحون في غنائهم ورقصهم ويتوالى أهل
القرية على بريانيث وعروسه مهئين إياهما ، فقد كان
الرجل طيباً محبوباً من الجميع ، وبينما الكل منصرفون
إلى شأنهم إذا بجبلية شديدة وأصوات استغاثة تقرب من
المحتمعين ، ثم يقدم رسول يبلغهم بما حدث : أن حاكم
قلعة أوكانيا كان في حفلة من حفلات مصارعة الثيران
قريباً من المكان الذى كان الفلاحون يحتفلون فيه بزواج
صاحبهم بريانيث ، وتقيب الحاكم ثوراً ضخماً ثم
شرع فى الإلقاء عليه بأنشوطته ، ولكن الحبل نشب فى
عنق جواده ، فألقى به إلى الأرض ، وهاجمه الثور
فأصابه بجراحات شديدة . ولا تمضى لحظات حتى يأتى
الرجال وقد حملوا الحاكم وهو فاقد الوعي . وتنفض
حفلة الزفاف ويقوم بريانيث وامرأته فى شهامة ومروءة
بالعناية بأمر الحاكم ، وتسهر كاسيلدا على تمريضه ،
غير أن الحاكم لا يكاد يبالك نفسه حتى يستطيع ليه وهو
يرى جبال العروس ، فيشبهها ، ويخاطب نفسه قائلاً :

« أليس من سوء تصرف الأقدار

أن يكون هذا الجمال من نصيب فلاح جلف ؟ »

ويشفى الحاكم من جروحه بفضل عناية بريانيث
وكاسيلدا ، ويشكر الزوجين على ما لقيه لدهما من
إكرام وحفاوة ويعدهما بالمكافأة الجزلة ، ثم يمضى وهو
يسر رغبة عارمة فى إغواء امرأة ذلك الفلاح الذى
لا يكن له - بحكم عجبته وعجرفته - إلا الاحتقار ،
إذ لا يراه يصلح حتى ليكون واحسداً من أتباعه
وخدمه .

وفرى بعد ذلك بريانيث وامرأته وحدهما فى
محاورة بعد ذهاب حاكم أوكانيا . وتقول المرأة المحبة
لزوجها الوفية له إن الحاكم وعد بمكافأتهما على حسن
صنيعهما ، ولكنه يشعر بالغيرة ويتملكه شعور غامض
بأن تزول الحاكم فى داره فال غير طيب . ولكن الزوجة
الودود تزيل مخاوفه ، ويدور بين الإثنين بعد ذلك
حوار غزلى يتحدث فيه الاثنان عن حقوق الزوجين
والزمامتهما ، وهو حوار رقيق ربما كان من أجمل
القطع الغنائية فى هذه المسرحية ، وقد عرف لوبى فيه
بمقدرته وبراعته كيف يستثير إعجاب المتفرجين
وعطفهما على هذين الزوجين المتحابين اللذين يعبران
فى غير تعمل ولا افتعال عن هذه العاطفة بين رجل
وامرأة ارتبطا برباط الزواج المقدس .

وننتقل فى المنظر التالى إلى قصر الحاكم حيث نسمعه
وهو يحدث نفسه عن الفلاحة الجميلة التى استولت
على قلبه ويعبر عن حسنه لذلك « الجلف » الرقيق الذى
يتمتع بهذه المرأة ، ثم يستدعى إلى حضرته أحد أتباعه
« لوخان » ويأمره له الحاكم بسر ، فهون هذا عليه
الأمر ، ويقول له إنه لن يصل إلى المرأة حتى يغمر
زوجها بفضله وعطاياه ، « فما أكثر الأزواج الذين
يغفلون عن شرفهم إزاء الإغراء بالمال والجاه » ، ونحن
نرى فى هذه المحاورة القصيرة صورة لأولئك الأتباع
والخدم الذين لا هم لهم إلا إرضاء شهوات سادتهم حتى
ولو كانوا يقومون فى سبيل ذلك بأدوار لا تشرف
المضطلع بها . وينصح « لوخان » سيده باهداء بريانيث
زوجاً من البغال : ويذكره بمدى ضعف النساء أمام
إغراء المادة .

وتشهد فى المناظر التالية حديثاً بين بريانيث
وكاسيلدا وهو يستعد للذهاب إلى أوكانيا ، وتذكره
زوجته بما وعد الحاكم به من مكافأتهما على صنيعهما
وتشير عليه فى سذاجة الريفيات بأنه لا بأس بأن يطلب

تلك الاحتفالات الدينية التي شهدها الرجل هو وأهله في طلبيلة ، ونحن نرى الحديث يجرهم بعد ذلك إلى الكلام عن كنيسة الصغيرة وصورة القديس سان روكي التي توجد بها ، فيسوق الإيمان الساذج بعضهم إلى اقتراح تجديد تلك الصورة القديمة وتكليف أحد المصورين في طلبيلة بذلك ، ويعهدون بالمهمة إلى بريانيث ، فيقبل ويستعد للسفر :

ويوعز حاكم أوكانيا الذي أمضته الرغبة في امرأة بريانيث إلى أحد أتباعه « لوخان » بأن يتنكر في زي أحد المزارعين ويلتحق بالزمرة التي تعمل في جمع المحصول بأرض بريانيث حتى يهيئ لسيده فرصة اقتحام دار الرجل في غيبة منه . ويتنزه هذه الفرصة على عادته فيرسم لنا لوحة رائعة بديعة ل هؤلاء المزارعين وهم بعد انتهائهم من الحصاد مغلدون إلى أغانيهم التي تنبض بحرارة الإيمان . ونرى بعد ذلك « لوخان » تابع الحاكم وقد تجسس على بيت بريانيث وعرف مسالكة يعود إلى سيده ويدله على الطريق حتى يقتحم مخدع كاسيلدا منتزاً فرصة غياب زوجها في طلبيلة . ولكن الزوجة الوفية المخلص لا تكاد تحس به حتى تغلق بابها وترفض لقاءه ويعود الحاكم خائباً بعد أن أحس به رفاق بريانيث الذين يتظاهرون بالنوم على باب داره ، ويحاول الحاكم الحديث مع كاسيلدا وهي مطلة من النافذة فيصارعها بحبه لها وبرغبته في وصلها ويعدها بالمال والجاء لزوجها لو انقادت له ، وهنا يجرى لنا لوبي ذلك الحوار البديع بين المرأة الوفية لزوجها المحافظة على شرفه وذلك المتصور الذي يريد أن يشتريها بماله ، وفيه تقول كاسيلدا :

« وإذا كان الحاكم يحبني كما يقول
أكثر مما يحب روحه وحياته
وإذا كان يريد أن يشتري شرفي وعففي
بعبارات من الغزل الكاذب

من الحاكم ما يستعين به على شأنه ، فثل هذا السيد النبيل الذي قدما له المعروف من قبل لا يمكن أن يرده خائباً ، بل لا بد أن يكون ذا كراً لفضله ومروءته .

ونعود إلى مشهد يدور فيه الحوار بين حاكم أوكانيا وأتباعه الذين يريدون أن ييسروا له سبل الاتصال بأمرأة بريانيث ، وهو يسألهم كيف يمكن أن يهدي إلى الرجل البغلي وغيرهما من الهدايا دون أن يرتاب في الأمر ، وفيما هم في هذا الحديث إذا بخادم يعلن إلى الحاكم أن بريانيث واقف على بابه ينتظر الإذن بالدخول . ويستطير الحاكم فرحاً ، وهو يرى الزوج الغيور قادماً عليه دون دعوة ولا ميعاد ، ويرى في ذلك بشرى خير بأن الأمر موشك على أن يستقيم له وأنه سرعان ما سيقضى مأربه . ويستقبل الحاكم بريانيث في حفاوة بالغة ، ويهدي إليه البغلي هدايا أخرى قيمة من أسطة ثمينة وحلى لزوجته . ولا يرى الفلاح الساذج في هذا الكرم الذي يستقبله الحاكم إلا دليلاً على وفائه واعترافه بالجمل ولا يتطرق إليه الشك في نواياه .

وفي المناظر الأخيرة من هذا الفصل نرى الملك إنريكي الثالث Enrique III الذي يصوره لنا لوبي دى فيجا في صورة الملك العظيم العادل الذي يتطلع إليه الشعب في محبة وإعجاب ، وكان الملك قد أتى إلى طلبيلة ليشهد احتفالاتها الدينية التي تقام في شهر أغسطس ، ونحن نرى بعد ذلك بريانيث وزوجته مع عدد من أهل قريتهما وقد أتوا ليتفرجوا على الاحتفالات ولينظروا إلى موكب الملك . ونرى حاكم أوكانيا وقد أتى بمصور يجلسه على مقربة من بريانيث وأصحابه ويكلف المصور بأن يرسم صورة لكاسيلدا لكي ينقلها بعد ذلك على لوحة يحتفظ بها في داره ، ويقوم المصور بمهمته . وينتهي بذلك الفصل الأول .

ويبدأ الفصل الثاني بعدة مناظر في القرية التي يسكنها بريانيث ، فترى الفلاحين مجتمعين يتحدثون عن تلك

فلأقل له إننى أكثر حبا لبريانيث
بعباءته التى حال لونها واغبر
منى لحاكم أوكانيا ذى الجاه والثروة
بظليسانه الموشى بخيوط الذهب »

وهذه الآيات التى أدخلها لوبى دى فيجا فى ثنايا
هذا الحوار هى ألفاظ الأغنية الشعبية الشائعة التى استمد
منها لوبى المسرحية كلها .

ثم تيب كاسيلدا برفاق زوجها الراقدين أمام
دارها بالنهوض ، ويرى الحاكم أنه سيفتضح أمره ،
فيهرب على عجل ، وقد أقسم على أن ينتقم من المرأة
الشريفة وأن يذل قيادها طوعاً أو كراهية .

ونرى بعد ذلك فى المنظر التالى بريانيث وهو فى
مرسم المصور الطليطلى الذى أراد أن يكلفه برسم
صورة جديدة لقديس القرية ، ويكون من الصدف أن
يكون هذا المصور هو نفسه الذى قام برسم صورة
كاسيلدا من أجل حاكم أوكانيا . وبينما يتأمل بريانيث
الصور المتناثرة فى المرسم إذا به يرى صورة امرأته ،
ويستبد العجب بالرجل فيسأل المصور عن شأن تلك
الصورة ، ويوح له هذا بالسر : أن الحاكم أمره
برسمها لامرأة ريفية تيمه هواها دون أن تفطن هى
لذلك . ويقع الخبر على بريانيث وقع الصاعقة وإن
كان يخفف من ألمه ما يشهد به المصور من أنها ليست
على علم بشيء . ويخاطب بريانيث نفسه مقلباً الأمر
على وجوهه : كيف يفعل مع ذلك الحاكم الذى كان
ينبغى عليه أن يدين له بالطاعة والذى قدم إليه هو الخبر
 والمعروف ثم لم يكن من جزائه إلا أنه حاول الاعتداء
على شرفه ؟ والمقطوعة التى يقدمها لنا لوبى على لسان
بريانيث فى هذا المقام من أجمل ما كتب فى تصوير
الغيرة والغضب للشرف المنتهك ، وفيها البيت الذى
جعل لوبى ختاماً لكل فقره :

« ما أسوأ حظ الفقير يا رب

إذا خطر له أن يتزوج بامرأة جميلة ! »

ويتفق بعد ذلك أن يوجه الملك إلى حاكم أوكانيا
رسالة يأمره فيها بتعبئة عدد من فرسان البلدة لكى
يشتركوا فى الحملة التى كان يعدها لقتال المسلمين فى
غرناطة ، وتعين للحاكم فكرة تعينه على إدراك مأربه
من المرأة التى زاده إعراضها عنه تصميماً على نيلها ،
فيأمر باخراج مائتين من رجال البلدة : مائة من النبلاء ،
ومائة من المزارعين . ويعين للحاكم أن يسند قيادة كتيبة
المزارعين إلى بريانيث فيرضى بذلك كبريائه وبعده
عن منزله فى الوقت نفسه . ويلجأ الحاكم إلى تابع آخر
من أتباعه « ليوناردو » فيأمره بأن يتعقب « لينيس » بات
عم كاسيلدا وصديقتهما وأن يتظاهر لهما بالحب وبغزمه
على الزواج منها حتى يتيسر له عن طريقهما الوصول إلى
المرأة العنيدة .

وتغضى الخطة كما رسم الحاكم ، فيعاهد ليوناردو
ولينيس على الزواج ويقول لهما إن الحاكم نفسه يريد أن
يخطبها لتابعه وأن يتحدث إليها فى شأن الخطبة ، وتلج
لينيس على ابنة عمها أن تستقبل الحاكم فى دارها ،
ويقدم بريانيث فى هذه اللحظة ولكنه لا يكاد يستقر
قليلاً مع امرأته حتى يأتيه رسول من قبل الحاكم
يستدعيه إلى حضرته . وبهذا ينتهى الفصل الثانى .

ونشهد فى أول مناظر الفصل الثالث كيف يقهر
الحاكم على أتباعه مدى نجاحه فى تنفيذ مشروعه ، فانه
لم يستدع بريانيث إلا ليعلن إليه أنه اختاره لكى يتولى
قيادة المزارعين المائة ، ويتضحك الحاكم من براءة
الفلاح المسكين الذى ظن أن فى ذلك تشريفاً له فأنفق
أكثر ما لديه من مال قليل على شراء عدة الحرب
والظهور بمظهر القيادة . ونرى بريانيث بعد ذلك على
رأس فرقته المتواضعة وهو يؤدى قسم الولاء للملك أمام
الحاكم ، ويبالغ هذا فى تمثيل الدور ، فيمنح بريانيث
لقب « فارس » ويسلم إليه سيف « الفروسية » وحينئذ

يقف الفلاح الفارس فيوصي الحاكم في آيات كلها
تعريض بأن شرفه وأسرته أمانة في يديه . ويوقع كلام
بيريانث بعض الاضطراب في نفس الحاكم ولكنه
لا يكاد يذكر كاسيلدا وامتناعها عليه حتى تقوى
عزيمة على اغتصابها في نفس هذه الليلة بعد أن يخرج
زوجها على رأس فرقة إلى دار الحرب .

ويقدم لوبي بعد ذلك مشهداً طريفاً للعرض
العسكري الذي تقوم به فرقنا النبلاء والفلاحين ،
ويظهر هو نفسه على المسرح تحت اسم « بيلاردو »^(١)
الذي اعتاد أن يشترك به في كل المسرحيات التي ألفها
باعتباره واحداً من أهل القرية المتفرجين على
الاستعراض ، فيجري مقارنة بين جيشي الفلاحين
والنبلاء ، ويقول إن هؤلاء الأخيرين على جمال زيههم
وحسن سلاحهم لا يرون عربياً مسلماً إلا تولاهم الذعر
وأطلقوا سوقهم للريح كأنهم أرانب مذعورة تهرب
من كلاب صيد ، ونحن نرى في هذا التعليق الساخر
مدى ما كان يكنه لوبي من الاحتقار لهؤلاء النبلاء ومدى
اعتداده وإعجابه بأولئك المزارعين المتواضعين .

ويطمئن الحاكم إلى ذهاب بيريانث فيستعد

(١) اعتاد لوبي دى فيجا في كثير من مسرحياته أن يقدم نفسه
دائماً في دور ثانوي لا يظهر على المسرح إلا عدة لحظات تحت اسم
« بيلاردو » ، وهو في هذه الأدوار يقص علينا شيئاً من تفاصيل
حياته في المسرحية مما يجعل الحوار المنسوب إلى بيلاردو في مسرحه
مرجعاً عظيم القيمة فيما يتصل بترجمة حياته . وهو مثلاً في هذه
المسرحية يظهر نفسه فلاحاً عجوزاً يسألونه عن سنه فيقول إنه في
التاسعة والستين من عمره وهو يلقي بتعليقات ساخرة لا تخلو من الفخر
بكثرة ما كتب ، إذ يقول إنه لم يتعلم في مدرسة وأنه ربما لا يحسن
القراءة وإن كان من الطريف أنه مع ذلك يجيد الكتابة . وولع لوبي
دى فيجا بإظهار نفسه على المسرح في أدوار قصيرة عابرة يشبه
ما جرى عليه الفنان الإسباني جوييا Goya من تصويره لنفسه في مكان
ثانوي من الصور التي تشتمل على جموع كثيرة من الناس . ومثل هذا
نراه اليوم كذلك في ميدان الفن السينمائي في الروايات التي يخرجها
هينشكوك إذ يعبر هذا المخرج دائماً على أن يحتفظ لنفسه بلقطة سريعة
يظهر فيها في دور ثانوي لا يسترق إلا ثواني معدودات .

لاقتحام داره والظفر بزوجه . غير أن الفلاح الغيور
كان في ريبة من أمر ما يدور وراء ظهره فإذا به لا يبلغ
مشارف البلدة حتى يترك فرقة ويعود في المساء متخفياً
إلى القرية . ويتوجه بيريانث إلى منزل صديق وجار
له حتى يتسلل من هناك إلى بيته دون أن يحس به أحد .
ويتربص الرجل بعد ذلك في ركن من أركان داره
منتظراً ما سيحدث . أما الحاكم فإنه يتمكن عن طريق
أتباعه من اقتحام البيت ، وتستيقظ كاسيلدا على
أصوات غريبة في دارها ، وإذا بها ترى الحاكم يهجم
عليها محاولاً اغتصابها ، فتدافع المرأة عن شرفها في
بسالة واستماتة ، ويخرج بيريانث في هذه اللحظة من
مكانه ولا يتردد في قتل الحاكم بنفس السيف الذي كان
قد قلده إياه في صبيحة ذلك اليوم .

ثم يحمل بيريانث زوجته على ظهر جواده
ويتوجه إلى طليطلة حيث كان معسكر الملك إنريكي
الثالث . ونرى بعد ذلك مشهداً يظهر فيه الملك وزوجه
وقد أتاهما رسول من أوكانيا يبلغهما أن أحد المزارعين
اغتيال حاكم المدينة ، فيهيج الملك ويعتبر ذلك إهانة له
ويأمر بالبحث عن المزارع القاتل وزوجه . ولا يكاد
النساء يتردد بذلك حتى يستأذن في الدخول إلى محضر
الملك أحد المزارعين ، وإذا به بيريانث نفسه أتى هو
وزوجه ليسلما نفسيهما وليشرحا قضيتهما ، ولا يتأكد
الملك من صدق الفلاح المتواضع حتى يعفو عنه ويأمر
بضيعة له ولأسرته ويقلده سيف الفروسية بنفسه .
وبهذا ينزل ستار الختام .

مسرحية فوتي أوبيخونا

وهذه المسرحية الثانية Fuente Ovejuna تعتبر
من أشهر آثار لوبي دى فيجا وأروعها ، وإذا
كانت الأولى التي عرضناها في الصفحات السابقة
مستوحاة من حديث أسطوري يدور حول أغنية شعبية

فان « فونتي أوبيخونا » مسرحية نقلها لوبي من صفحات التاريخ .

ونحن نرى في أول مناظر الفصل الأول محاورة تجرى بين فرنان جومث دى جئان قائد بلدة فونتي أوبيخونا (من أعمال قرطبة) ورودرىجو خيرون Rodrigo Giron القائد الأعلى للجامعة قلعة رباح الدينية^(١) . وقد رسم لنا لوبي من خلال هذه المحاورة في لمحات سريعة خاطفة شخصية القائد فرنان جومث دى جئان Fernan Gomez de Guzman ، فنحن نرى أنه فارس لا تنقصه الشجاعة ولا الجرأة ، غير أنه مغرور متكبر يحقر عامة الشعب كما لو كانوا من طينة غير طينته ، وهو مستبد لا يراعى خلقاً ولا ضعيفاً في معاملة الناس . ثم يستكمل لوبي صورة القائد من خلال محاورة أخرى تجرى بين فتاتين ريفيتين من أهل قرية فونتي أوبيخونا هما باسكوالا Pascuala ولاورنثيا Laurencia ، إذ نعرف من هذه المحاورة أن فرنان جومث طالما غرر ببينات القرية مستنداً

إلى جاهه وسلطانه ، وهو لا يرى ولا يسمع بامرأة جميلة إلا حاول اغتصابها يعاونه في ذلك أتباعه وعلى رأسهم أورتونيو Ortuño وفلورس Flores وهما إمعنان لا عمل لهما إلا تملق الحاكم وكسب رضاه حتى على حساب كرامتهما ، بل إنهما لا يتورعان عن استجلاب النساء له .

ثم نشهد منظراً يجمع بعض شباب القرية والفتاتين باسكوالا ولاورنثيا ، ونسمع فيه جدلاً بريئاً ساذجاً وإن كان حافلاً بتلك الحكمة التي تجرى على ألسنة القرويين في غير تعمل ولا اصطناع ثقافة حول الحب ، فبعضهم ينكر وجوده وآخرون يؤكدونه ، ونفهم من هذا الحديث أن القتي فروندوسو Frondoso متعلق بلاورنثيا وأنه يريد الزواج منها .

ويدخل المسرح بعد ذلك فلورس تابع القائد فرنان جومث وقواده فيعلن إلى أهل القرية قرب وصول القائد بعد عودته من الحملة الظافرة التي اضطلع بها هو والقائد الأعلى لطائفة قلعة رباح ضد سكان مدينة « ثيوداد ريال » Ciudad Real اللاتين . ويروى فلورس خبر الحملة في عبارات طنانة يسبغ فيها المديح على سيده ويشير إلى بسالته واقتداره على فنون الحرب ، ولا تخلو عباراته من إشارة إلى قسوة القائد عند الحديث عن افتتاحه المدينة عنوة واستباحتها لجنوده وإيقاعه الوحشى باللاتين . ولا نلبث بعد ذلك أن نرى القائد وهو يدخل في كبرياء وقد اجتمع كبار أهل القرية لاستقباله وتهنئته ومعهم فرقة من الموسيقيين والمنشدین وهم يرفعون أصواتهم بنشيد حماسي . ويتقدم واحد من عمد القرى التابعة لفونتي أوبيخونا فيقدم للقائد باسم هؤلاء الريفيين البسطاء هدية مما جمعه له : عربة كاملة محملة من الدجاج والخنازير والاحوم والجبن وغير ذلك . وينصرف الجميع ، ولكن القائد يأمر باستبقاء باسكوالا ولاورنثيا ويحاول أن يدخلهما إلى قلعته حتى « يريهما

(١) جماعة قلعة رباح Orden de Calatrava هي إحدى الجماعات الدينية العسكرية التي تأسست في إسبانيا المسيحية على غرار الطوائف التي أُنشئت في أوروبا في عهد الحملات الصليبية مثل « فرسان المعبد » و « الاستبارية » وغيرها ، وكانت هذه الجماعات ود قبل لطوائف مماثلة أسسها المسلمون الأندلسيون في إسبانيا من المرابطين المجاهدين الذين كانوا يقومون بحماية الثغور ، ولهذا كان يطلق عليهم اسم « المناورين » أو « الثغريين » أو « أهل الرباط » . وقد ظهرت أول جماعة من هذا النوع في إسبانيا المسيحية في عهد ملك قشتالة سانتشو الثالث في سنة ١١٥٨ ، وهي المذكورة هنا في مسرحية لوبي والتي كان يطلق عليها اسم « فرسان قلعة رباح » إذ كانت تتخذ ثغر قلعة رباح Calatrava (في المنطقة الواقعة بين مملكة قشتالة والأندلس الإسلامية) مركزاً لأعمالها العسكرية . ثم أسست بعد ذلك جماعة « فرسان شنت ياقب » Orden de Santiago وقد سميت بذلك لأن الهدف من تأسيسها كان حماية الحجاج المسيحيين إلى مدينة سانتياجو في شمال غرب إسبانيا ، وتأسست من بعد جماعة ثالثة هي المعروفة باسم « فرسان القنطرة » Orden de Alcántara ، وكان لفرسان هذه الجماعات نفوذ كبير في خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر كما نرى من خلال أدب العصر الذهبي .

الانتقام لا من الشابين المتحابين فحسب ، بل من أهل القرية جميعاً .

ويبدأ الفصل الثاني بمشهد يضم كبار رجال القرية وعلى رأسهم العمدة إستيبان Esteban والد لاورنثيا وخزان روخو وعمها وغيرهما وهم يتحدثون عن بعض شئون عملهم من الزراعة والفلاحة . ثم يدخل عليهم القائد بين تابعه الوفيين فلورس وأورتونيو ، ويتشعب الحديث بين المجتمعين ، ونسمع القائد وهو يخاطب كبار رجال القرية في تعال واحتقار ، ثم يسبهم جميعاً ويقول إنهم جهلة مزمتمون ، فهم يغارون على نسائهم حتى كأن الله لم يخلق الشرف إلا بينهم مع أن هناك من النساء المدنيات المتحضرات من كن يتمنين أن يضافى أمثال القائد شرف وصاله عليهن . ويفضرب رجال

القرية وينصرفون فيتابعهم فرنان جومث باساءاته وإهاناته دون أن يبالي بكبر سنهم أو مقامهم في القرية . ويحاول فلورس وأورتونيو أن يخففا حدة غضبه وينصحانه بالمداواة والرفق ولكنه يجيبهما في عجرفة : « أترأى يريدون أن يسوا أنفسهم وهم السوقه العبيد بالسادة النبلاء من أمثالي ؟ » ثم يتساءل القائد عن فروندوسو فيقال له إنه ما زال في القرية ، فيهيج وبصيح :

« أيجروا على السير في أنحاء ذلك المكان

رجل حاول قتلى ؟

وهل هان قدر الرجال

حتى يتحدى مثلى — ممن إذا شهروا سيوفهم

ارتعدت قرطبة وغرناطة فرغاً —

صبي حقير من جملة فلاحي هذا الريف

حتى إنه يوجه إلى صدرى السهم في وعيد ؟

إن هذا لنذير يقرب قيام الساعة يا فلورس ! »

ويتساءل أورتونيو كيف تركه حياً حتى تلك

اللحظة ، فيقول فرنان جومث إنه لو أراد لضرب

ما أحرز من غنائم » ولكن لاورنثيا تسأل أورتونيو : « ألا يكفى سيدك ما أهدى إليه من لحوم ؟ » فيجيب التابع في جحون وصفاقة « إنه لا يريد إلا لحمكما أنهما ؟ » وتنظر إليه الفتاتان في احتقار وترفضان دخول القلعة وتنصرفان إلى شأنهما .

ويظهر المكان الكاثوليكيان فرناندو وإيزابيل بعد ذلك ، فترأى في معسكرهما بأذنان بالدخول لاثنتين من كبار أهل مدينة ثيوداد ريال ، فيعرضان على الملكين ما أصابهما على أيدي القائد الأعلى لجماعة فرسان قلعة رباح والقائد فرنان جومث ، ويشكو الرجلان من القضايع التي ألحقها بهم القائدان ويقولان إن فرنان جومث عاد إلى قلعته في فونتي أوبيخونا حيث يعامل أهلها على نفس الصورة القاسية المستبدة . ويستاء الملك لذلك ويأمر دون مانريكي Don Manrique أحد أعوانه وثقاته بأن يذهب إلى فونتي أوبيخونا ويطلب إلى القائد تقديم حساب عن أعماله .

ونرى بعد ذلك لاورنثيا وفروندوسو يتطارحان الغرام في حقل على شاطئ النهر ، ويطلب الفتي الريفى إلى صاحبه أن يحدد موعداً لزوجتهما . وفي هذه اللحظة يقترّب القائد فرنان جومث مطارداً ظلياً كان يحاول اقتناصه في رحلة صيد ، ويغبط القائد لالتقائه بالفتاة وحدها في ذلك المكان الخالي — إذ أن فروندوسو كان قد اختفى وراء بعض الأشجار — ويحاول القائد استمالة القروية الجميلة بلبس الكلام وبالوعود ويقول لها إنه لا يفهم تمنعها هذا مع أن من نساء القرية المتزوجات من وهبته جبن في غير جهد . ولكن الفتاة تصده في عنف وحينئذ يستشيط غضباً ويحاول اغتصابها بالقوة ، فيخرج فروندوسو ويلتقط من الأرض قوس القائد ونباله ويهدده بالقتل لو أنه اقترّب من الفتاة ، وحينئذ يتركها القائد وإن كانت « الإهانة » التي لحقته من جانب الشاب الغيور قد أثارت نائزته ، فهو يقسم على

أعناق أهل القرية جميعاً في ساعة واحدة ، غير أنه يريد أن يوقع بهم انتقاماً لم يسبق له مثيل . ثم يتحدث عن لاورنثيا فيقول إن تمنعها عليه هو الذي يلهب من جذوة غرامه وإنها لو كانت مثل غيرها من النساء الطيبات السهلة الانقياد لما أولاها عنايته .

ونظهر بعد ذلك لاورنثيا وباسكوالا ومنجو وهو فلاح كهل ، ويتحدث الجميع عن آخر جرائم القائد ، ويتملحون بشجاعة فروندوسو الذي واجهه مدافعاً عن شرف لاورنثيا ، على أنهم يجمعون على أنه من الخير لفروندوسو أن يترك البلدة ويختفى عن الأنظار إذ أن القائد لن يتركه في سلام فقد أقسم على أن يشقه من فرع شجرة . وفي هذه الأثناء تلحق بالمجتمعين فتاة ريفية هي خائيتا Jacinta هاربة من مطاردة خدم القائد وجنوده ، فهرب الفتاتان الأخريان ولا تجد من الرجال إلا منجو الذي يتعهد لها بأن يحميها على قدر طاقته . ويظهر بعد ذلك جنود القائد فيحاول الفلاح الشيخ أن يمنهم من اختطاف الفتاة ، ويدور الشجار بينه وبين الجنود ، ثم يأتي القائد على أصوات العراك ، فيناشده منجو أن يكف أتباعه عن المرأة الوحيدة العزلاء . ولكن الغضب يستبد بفرنان جوتم فيأمر جنوده بأن يجلدوا منجو حتى يدموا ظهره . أما خائيتا فإنها تستعطف القائد ثم تنلره فيقول لها إن جزاء وقاحتها هو ألا تكون من نصيبه هو ، بل طعمة سائفة لرجالها وأتباعه .

ونرى بعد ذلك كهول القرية وبعض رجالها ونفوسهم تغلي بالثورة والتمرد وهم يروون آخر فعلات القائد من جلد منجو والاعتداء على خائيتا وغيرها من النساء ، ثم يتغير اتجاه الحديث بعد أن يأتي فروندوسو لكي يخطب لاورنثيا إلى أبيها إستييان ، ويوافق أهل الفتاة . ولا نلبث بعد ذلك أن نرى الاحتفال بزواج الشابين وما يتخلل الحفلة من أغان وأحاديث مرحة ، غير أن الجو يكفهر فجأة باقتحام القائد وجنوده للعرس

ويأمر فرنان جوتم بالقبض على فروندوسو وإيداعه السجن بتهمة إهانة « فرسان قلعة رباح » التي يمثلها القائد ، ويستشفع له كهول القرية ، ويهيب أبو العروس إستييان للدفاع عن صهره . ولكن القائد يأمر جنوده بانزاع رمح منه ويأمر بوجعه ضرباً ، وتحتج الفتاة على ما أصاب زوجها وأباها ، فيأمر بسجنها هي أيضاً تحت حراسة عشرة من الجنود .

رأبنا في أواخر الفصل الثاني كيف كانت كلمات إستييان التي واجه بها القائد فرنان جوتم دى جثمان نذيراً باشتعال الثورة عليه بعد أن فاض الكأس وتقطعت حبال الصبر ، وأما الفصل الثالث فإن الستار لا يكاد يرفع عن مناظره الأولى حتى نرى كبار أهل القرية وهم مجتمعون يتدبرون أمرهم ، ونرى إستييان وقد أصبح هو محرك الثورة والحاض عليها :

« كهل قد خضبت شيبته الدموع

يسألكم أيها الفلاحون الشرفاء :

أى مأم عليكم أن تقيموا

على وطن ذليل ضاع شرفه ؟

وإذا كانت قد بقيت لديكم مسكة من شرف

فاذا أنتم فاعلون ولم يبق من بينكم

من لم يلحقه من هذا المتوحش عار الإهانة ؟

أجيبوني : هل فيكم أحد

لم يصب من قبله في حياته أو شرفه ؟

ألا تجتمعون فينبأكم بعضكم إلى بعض ؟

فاذا لم يبق لديكم ما يمكن أن تبكوا على فقده

فا تنظرون ؟ وإلام أنتم ساكتون ؟ »

ويتداول شيوخ القرية فيما بينهم وتنطلق أولى

الصيحات منادية بالانتقام ، وفجأة تقتحم عليهم المكان

لاورنثيا وهي مشعثة الشعر ممزقة الملابس . ويصيح

إستييان وهو لا يكاد يتعرف عليها : « أليست هذه هي

ابنتي ؟ » فتقول له :

« لا . . . لست ابنتك . . . »

لأنى لو كنت كذلك لما تركت هذا الطاغية محتطفي

دون أن تحرك يداً للانتقام !

أو تحاول استرجاعى من أيدي هؤلاء الخونة .

إننى لم أكن قد أصبحت بعد فى عصمة فروندوسو

حتى أطلبه هو باعتباره زوجى

بأن يأخذ بثأر شرفى المشك ،

بل كنت أنت المكلف بعبء ذلك ! »

وتمضى لاورنثيا فى استنفارها لحمية رجال القرية

فتدعوهم « أشباه رجال ! . . . ضرب من الدواجن ! . . »

لأنكم تسكنون على أنفك أعراض نساكم ! . . . فلماذا

تتقلدون السيوف وتضطعنون مظاهر الرجولة ! » وهى

تصرخ أخيراً بأنه من الخير لهذه البلدة أن يخلو منها

« أنصاف الرجال » هؤلاء وأن يهب نساؤها للدفاع عن

شرفهن ما دام رجالها على هذه الصفة من الذل والخنوع .

وتوفى صبيحة لاورنثيا ثمرتها فاذا بالرجال وكان من

بينهم المتردد والخائف مجتمعون يداً واحدة على الانتقام

والثأر ، وتجمع لاورنثيا النساء فتيب بهن أيضاً أن

يثأرن لشرفهن ، ويستجيب لها النساء فيقررن أن

يتسلحن بدورهن ويهاجمن قلعة القائد .

ونرى بعد ذلك القائد فى قلعة يحيط به جنوده وهم

يقتادون فروندوسو مقيد اليدين والرجلين والقائد يأمرهم

بأن يشنقوه ويلقوه من برج القلعة حتى يكون عبرة

ومثلاً لأهل القرية . وهنا نسمع من الخارج أصوات

ضحيج ترتفع وتقرب ، ويأتى جنود القائد فى فرع

فيعلنون عليه النبأ : لقد اندلعت الثورة وأقبلت جموع

الفلاحين نساء ورجالا فاقطحت الأبواب وهى تنادى

بالموت للطاغية وأعوانه . ولا يجد القائد بداً من الهرب

ولكننا نسمع صوته من الخارج وهو يصرخ صرخة

مدوية ، إذ قطع عليه الثائرون الطريق وقتلوه هو ومن

عمد للمقاومة من أصحابه ، بينما يعتمد الآخرون للفرار

بعد أن ينتقم منهم أهل القرية شر انتقام .

ثم يظهر لنا الملكان فرناندو وإيزابيل وقد استأذن

عليهما فلورس ذراع القائد الأيمن وكان قد أفلت من

ثورة « فونتي أوبيخونا » بعد أن جرح ، ويأتى فلورس

لكى يشكو إلى الملكين ما فعله أهل القرية بالقائد ، وهو

يصف لنا قسوة انتقام القرويين ، فيقول إنهم مزقوا

لحمه وإن النساء تناهبن ما تناثر من أعضاء جسده ،

ثم مضى الثائرون إلى داره فهبوها وأعملوا فيها التحريق

والهدم ، ثم يطلب من الملكين توقيع العقوبة على

الثائرين . ويتأثر الملك بما صوره فلورس من أمر هذه

الثورة الجائحة ، فيأمر بأن يحقق ثقافته فى الأمر ويروا

ما الذى أدى إلى الثورة وأن يعاقب الجناة .

ونرى بعد ذلك أهل القرية وهم يحملون رأس

فرنان جومت على حربة ويهتفون بحياة بلدهم وبحياة

الملك ، إذ أن ثورتهم لم تكن موجهة إلا ضد القائد

الطاغية المستبد ، دون أن تتجاوز ذلك إلى الترد على

الملك أو حكومته ، وهم يعرفون أن الملك سيبحث إليهم

بمن يحقق فى أمر مقتل القائد فيتداولون فيما يكون جوابهم

جميعاً فى التحقيق .

ويأتى القاضى المرسل من قبل الملك ونسمع التحقيق

مع عدد من أهل القرية من رجال ونساء وفتيان وأطفال

فهو يسألهم عن قتل القائد ، فاذا بجواب واحد يردده

الجميع : « فونتي أوبيخونا » ، ويستشيط القاضى غيظاً

فيأمر بتعذيبهم حتى يعترفوا ويقرروا ، ولكنهم يصممون

على ذلك الجواب .

ويتكرر التحقيق ، والسؤال والجواب لا يتغيران :

— من الذى قتل القائد ؟ —

— فونتي أوبيخونا يا سيدى .

ويكاد صواب القاضى يطير ، فيصيح فى غضب :

— ومن هو فونتي أوبيخونا ؟

— الكل في واحد ! ...

الروسي يحول حفلات عرض « فونتي أوبيخونا » إلى
مظاهرات صاخبة تهتف بسقوط القيصر وحكومته
الإقطاعية الظالمة (١).

وليس من العسير علينا أن نجد تفسير هذه الظاهرة،
فنحن نرى في مسرح لوبي ولا سيما في هذين الأثرين
المسرحيين اللذين عرضناهما : « بيربانيث » و « فونتي
أوبيخونا » تصويراً لأول مظاهر الصراع الاجتماعي بين
الطبقات، وهو يلح على هذه الحقيقة، ويرسم لنا
صورة قاتمة للنبل الإقطاعيين بكل ما يتصفون به من
جشع وأنانية وقسوة ونزوع إلى القوضى واستهتار بكل
الشرائع السماوية أو المدنية، ولوبي يحدد لنا الطبقات
المتصارعة تحديداً واضحاً، فنحن نرى في المسرحيتين
المذكورتين ذلك التضاد الواضح بين كتلتين : عامة
الشعب وسلطة الملك من ناحية والإقطاع من ناحية
أخرى. ويجدر بنا أن نشير إلى أن لوبي ملكى النزعة
وهو يصور السلطة الملكية على أنها الشرعية المستنيرة
التي لا تتردد في الوقوف إلى جانب الشعب، بينما نجد
السادة الإقطاعيين هم العقبة الوحيدة في سبيل التقدم
الاجتماعى، ويجب ألا نعتبر ائتلاف الشعب والملك هنا
من المفارقات، فقد كان النظام الملكى هو السائد
المعترف به في تلك العصور، والواقع أن ملوك إسبانيا
في تلك الفترة التي يصورها مسرح لوبي كانوا ذوى
نزعة تقدمية ديمقراطية، وكانوا في صراع دائم مع
طبقة النبلاء والسادة الإقطاعيين، وكثيراً ما كانوا
يقفون إلى جوار الشعب العامل في كفاحه ضد هؤلاء
الإقطاعيين الذين كانوا لا يكفون عن استغلاله،
ونهب ثرواته. هذا مع أنهم لم يبدلوا أبداً أية تضحية في
سبيل قضية البلاد، حتى الصراع مع المسلمين الأندلسيين
خلال القرن الخامس عشر لم يكن يتجشم مثونته إلا

ونرى القاضى بعد ذلك في محضر الملك، وهو
يقول له إنه حاول أن يعرف من هو المسئول عن
مصرع القائد، فلم يتلق منهم إلا جواباً واحداً أجمعوا
عليه هو أن « فونتي أوبيخونا » قتله، ويقول القاضى
إنه لم يستطع استكشاف الحقيقة حتى بعد أن قام بتعذيب
ثلاثمائة من أهل القرية، حتى الأطفال دون العاشرة
لم يكن عندهم إلا ذلك الجواب. ويستأذن القاضى في
أن يدخل على الملك طائفة من أهل القرية حتى يسألهم
بنفسه. ويدخل هؤلاء فيصفون ما كانوا يلاقون على
أيدى القائد وأعوانه من عنف وعبث بالأرواح ونهب
للأموال وهتك للأعراض. ويقتنع الملك فيعلن عفوه
عن القرية وقبوله للحجج أهلها.

وهذا تنتهى مسرحية « فونتي أوبيخونا » التي تعتبر
من أروع ما كتب لوبي دى فيجا. ولعل أجمل ما فيها
هو ما تضمنته من تمثيل واقعى حى لروح الشعب كله،
فالبلط هنا ليس فرداً بعينه، بل القرية كلها، ونحن
نرى أن المسرحية تنتهى دون أن نعرف من هو الذى
قتل القائد فرنان جومث، وقد تعدد لوبي أن يبرز هذا
المعنى، قلب المسرحية هو تصوير ثورة شعبية بمعنى
الكلمة على حاكم إقطاعى مستهتر مستبد. ولهذا فإن
« فونتي أوبيخونا » كانت من أول طلائع ما يمكن أن
نسميه « الأدب الثورى » وهذا هو ما يفسر انتشارها
وذيوها، فقد ترجمت إلى الإنجليزية والفرنسية
والألمانية وغيرها من اللغات في وقت مبكر، بل إن من
الطريف أن نذكر أنها ترجمت إلى الروسية وكانت
كثيراً ما تعرض في مسارح روسيا القيصرية في أواخر
القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، إذ كانت تعتبر
متنفساً لطبقات الشعب الفقيرة الكادحة ضد سطوة
الحكام الإقطاعيين المستبدين، وكثيراً ما كان الجمهور

(١) من حسن الحظ أن هذه المسرحية ستشر أيضاً بالعربية
قريباً، فقد اضطلع الأستاذ الدكتور حسين مؤنس بترجمتها كاملة
وسيمكن لقراء العربية أن يقرأوها في مستقبل قريب.

الفلاحون الفقراء ، ونحن نرى بهذه المناسبة كيف يسخر لوبي من هؤلاء النبلاء في مسرحية « بيريانيث » فيقول إنهم لا يكادون يرون أندلسياً مسلماً ، بل لا يسمعون باسم فارس مسلم إلا ملاً الرعب قلوبهم فولوا عنه فراراً .

وهناك ناحية أخرى نراها تتكرر في مسرح لوبي : هي مسألة الدفاع عن العرض المنتهك والانتقام المروع من المعتدى . على الشرف ، وفي المسرحيتين اللتين عرضناهما في الصفحات السابقة أروع مثل على علاج مسألة « العرض » عند لوبي ، والحل الذي يأتي به لوبي لهذه العقدة هو القتل . . . القتل الذي لا يعرف التردد أو الاحتكام لأى قانون . . . بل القتل الرهيب القاسى الذى لا بأس فيه بأشنع صور المثلة كما نرى في مسرحية « فونتي أوبيخونا » ، فالشرف لا يسلم كما قال الشاعر العربى إلا إذا أريق على جوانبه الدم . وهذا المفهوم للشرف هو الشائع في البيئة الإسبانية قديماً وحديثاً ، وهو الذى أبرزه الأدباء الإسبان منذ لوبي دى فيجا حتى غرسيه لوركا ، إذ نراه كذلك في إسبانيا القرن العشرين في مسرحية « بيت برنارد ألبا »^(١) . وهنا نبه مرة أخرى إلى تطابق هذا المفهوم لدى الإسبان ولدى العرب ، ولنا نشك في أنه من جملة ما ورثه الشعب الإسباني عن الأندلس العربية .

مسرحية « كلب البستانى »

ونعرض أخيراً لأحد آثار لوبي المشهورة ، وهي « كلب البستانى » El perro del hortelano وهي تنتمى إلى لون مسرحى آخر يختلف عن اللونين اللذين عرضنا النموذجين السابقين لهما ، فهذه المسرحية ليست مستوحاة من أسطورة شعبية مثل « بيريانيث » ولا من حدث

(١) « بيت برنارد ألبا » لفيدريكو غرسيه لوركا ، ترجمة د. محمود على مكي ومراجعة الدكتور حين مؤنس ، سلسلة ربيع المسرح العالمى رقم ٢٣ ، سنة ١٩٦٢ .

تاريخى واقعى مثل « فونتي أوبيخونا » ، بل تتدرج تحت ما يمكن أن ندعوه « مسرح المجتمع » ، إذ يصور فيها لوبي العادات والتقاليد المثبتة في المجتمع الإسباني المعاصر له ، تصويراً لا يخلو من النقد والسخرية .

وتدور أحداث المسرحية في نابلى بإيطاليا ، وإن كان معظم أبطالها إسبانيين ، فنحن نعرف أن نابلى وجنوب إيطاليا وصقلية كانت منذ القرن الخامس عشر تابعة للإمبراطورية الإسبانية . ويرفع الستار في الفصل الأول عن جانب من قصر إحدى سيدات المجتمع الراقى الإسباني ، وهي الكونتيسة ديانا دى بلفلور Condesa Diana de Belflor ونرى ديانا في ساعة متأخرة من الليل وهي تتعقب شبح رجلين يهربان من قصرها ، وتزعج السيدة وتنادى خدماً وتعنفهم على إهمالهم حراسة القصر حتى إنهم يتركون رجالاً غرباء ينسلون إليه في ظلام الليل . على أننا نعرف منذ بدء الرواية شخصية هذين الرجلين اللذين اقتحما القصر ، فهما تيودورو Teodoro الكاتب الخاص للسيدة وأمين سرها وخادمه تريستان Tristan ، أما السبب في دخولهما القصر خفية فهو أن تيودورو على علاقة غرامية بوصيفة السيدة مارثيلا Marcela ، وإن كان الاثنان يتستران على هذه العلاقة خوفاً من أن تطردهما السيدة من خدمتها . وتوقف ديانا جميع خدام القصر ووصيفاته وتبدأ في مساءلهم حتى تهتدى إلى حقيقة من اقتحم منزلها ، وأخيراً تكشف لها الخادمة أناردا Anarda عن سر تلك العلاقة الغرامية بين تيودورو ومارثيلا . وتغضب ديانا إلا أنها تكتم غضبها وتستوضح مارثيلا الحقيقة ، فتعترف لها الوصيفة بكل شيء . وبأن تيودورو بنوى الزواج منها . وهنا يضع لوبي أيدينا على جانب من جوانب نفسية المرأة لا يكاد يستبطه إلا أديب موهوب مثل لوبي يعرف كيف يصل إلى أعماق النفس الإنسانية فنحن نرى أن ديانا النبيلة التى تعتز بحسبها ونسبها والتى تؤمن بالفروق بين الطبقات لا تكاد تعرف بنياً ذلك

الحب بين وصيفتها وخادمها حتى تدرجها الغيرة ، وتولد فيها الغيرة شعور الحب ، غير أنها كانت تكتم هذا الحب وتحاول مقاومته ، إذ تراه حباً مستحيلاً لا يوصل إلى نتيجة . فديانا خاضعة لحكم تقاليد العصر التي تفرض بين الطبقات الاجتماعية أسواراً وحدوداً لا يمكن تخطيها . فهي لا تستطيع الزواج من ذلك الشاب الذي يعتبر واحداً من جملة خدمها ، ولكن اكتشافها للحقيقة الصلة بين نيودورو ووصيفتها ماريثا يثير في نفسها هيب الغيرة ، ويحملها على التفكير في انتزاع هذا الرجل الذي أحبه من بين ذراعي خادمتها . وهنا نرى براعة لوبي في تحليل نفسية تلك المرأة النبيلة المتعطرة ، فقد أثار اكتشافها للحقيقة في نفسها إعصاراً عنيفاً ، فهي باعتبارها امرأة تريد أن تنظر بهذا الرجل وتنزعه من امرأة أخرى غريمة لها ، وهي مع ذلك لا تستطيع الزواج منه . فلا يبقى أمامها إلا أن تفسد العلاقة بين الاثنين وتنظر حتى يحل الوقت تلك العقدة . ومن هنا جاء العنوان الذي اختاره لوبي لمسرحيته ، إذ هو تشبيه للسيدة بكلب البستاني الذي يقول عنه المثل الإسباني المعروف إنه « لا يأكل ولا يدع الناس يأكلون » Como el perro del hortelano : ni come ni deja comer

وتعزم ديانا على أن توحى إلى أمينها الخاص بحبها له بطريقة غير مباشرة ، إذ أن كرامتها ومستواها الاجتماعي يفرضان عليها ألا تنزل إلى مصارحته بفرامها ، فتدعوه إلى محضرها وتسلمه رسالة تزعم أنها من صديقة لها من سيدات المجتمع الراقي تهيم حباً برجل مجهول حقيقة شعورها ، وتقول في هذه الرسالة إن حبها لهذا الرجل ينبع من غيرتها من امرأة أخرى يبادلها الحب . وتطلب ديانا من كاتبها أن يبدى رأيه في هذه المسألة ، وتدور بين الاثنين محاوراة بديعة حول الحب وكيف ينبع من الغيرة ، مع أن المألوف هو أن الغيرة هي التي تتولد عن الحب . وتكرر المحادثات بين ديانا وكاتبها ، ويخالج

هذا الشك في أنه هو المقصود بتلك القصة المصطنعة ، ولكنه يستكثر على نفسه أن تحبه ، لا سيما وأنها حريصة على عدم البوح له بشيء ، ثم إنه يتهاوت عليها كثير من النبلاء ولكنها لا توليهم عنايتها ، ونحن نرى كيف يتنافس على الظفر بقلب ديانا الجميلة اثنان من الكبراء : الكونت فيديريكو Conde Federico والماركيز ريكاردو Marqués Ricardo ، ولكن المرأة اللعوب التي يعجبها أن تكون موضعاً للتدليل ومثاراً للمنافسة لا تصدهما ولا تقربهما ، بل تدع لكل منهما بصيصاً من الأمل في الظفر بها ، وهي تفعل مثل ذلك بكاتبها المسكين الذي لا يكاد يدخل في روعه غرامها به ، حتى تستدعيه وتقول له إنها موافقة على زواجه من وصيفتها ، وإن كانت تأمرهما بأن يتجنبها كل لقاء يمكن أن يسيء إلى سمعة دارها .

ويكمل لنا لوبي في أول الفصل الثاني ملامح شخصية نيودورو ، وهو يبدو هنا رجلاً ضعيف الشخصية لا يكاد يرى من سيده ما يوحى بحبها له حتى يعامل خطيبته الوصيفة في جفاء وتكبر ، فإذا ولت له ديانا ظهرها عاد إلى حبه الأول مستكيناً مستغفراً .

ونرى مثلاً لذلك حينما تستدعيه ديانا ، فتقول له مصطنعة البراءة وعدم المبالاة إنها قررت أخيراً أن تزوج ، غير أنها متحيرة في أمرها إذ لا تدري من تختار : الكونت فيديريكو أو الماركيز ريكاردو ، وتسأله أن يشير عليها . ولكنه يمتنع عن إبداء رأيه فتقول له إنها تفضل الزواج من الماركيز وتأمره أن يذهب لكي يبشره بأنها اختارته زوجاً لها . وحينئذ ينقطع رجاء نيودورو من سيده ، ويرى ماريثا فيهرع إليها متودداً رغباً في الصلح ، فتسخر هذه من طمعه في تخطي الحواجز الاجتماعية والزواج من سيده ، وتعلن إليه أنها قررت قطع صلتها به وأنها قد أصبحت خطيبة فاييو الذي يعمل أيضاً في قصر ديانا . ويستعطف نيودورو

خرج لهم من ذلك هو اغتيال كاتب ديانا والتخلص من منافسته المزرية بقدرهما .

ويفكران حينئذ في استخدام أحدهما من المحترفين الذين كانت تقص بهم مدينة نابلي ، فيذهبان إلى إحدى الحانات التي يجتمع فيها أمثال هؤلاء وتسوقهم الصدفة إلى أن يختاروا لتنفيذ مهمة قتل تيودورو رجلاً كان يبدو لهم رئيس مجموعة من الأشرار تجلس في الحانة دون أن يعرفوا أن ذلك الرجل هو نفسه « تريستان » خادم تيودورو وموضع ثقة الذي عمه خير سيده منذ أصبحت ديانا تغدق عليه المال والعطايا . ويتظاهر تريستان بقبول المهمة ويطلب إلى النبيلين « مقدم الأتعاب » ، ويقول لهما إن خير وسيلة لقتله هو الالتحاق بخدمته حتى تسنح فرصة للإنتهاء عليه .

ثم يلتقي تريستان بسيده تيودورو فيطلعه على ما دبر الماركيز ريكاردو والكونت فيديريكو لقتله ، ويروح تيودورو لخادمه بما يلقي من عنت ديانا وتقلبها ، إذ أنها وإن كانت قد صرحت له بحبها إياه لا تجرؤ على أن تتخذة زوجاً لما يفصل بينهما من فوارق فرضها المجتمع ، فيفكر الخادم الوصولي الذكي في حيلة يهيئ بها أمر زواج سيده من ديانا . وأخيراً يهتدي تريستان إلى الحل المنشود ، فان للسيدة ديانا جاراً نبيلًا عجوزاً هو الكونت لودوفيكو Conde Ludovico كان قد أرسل ابناً وحيداً له يدعى تيودورو إلى جزيرة مالطة منذ عشرين سنة ، ولكن مركباً حريباً من مراكب المسلمين في بنزرت (تونس) أغارت على الجزيرة وأسرت تيودورو ومضت به إلى بلاد المسلمين ، ومضت السنون وانقطع أثر هذا الابن وإن كان أبوه الكونت لم يفقد الأمل في عودته . فلماذا لا يتقمص كاتب السيدة ديانا شخصية هذا الابن المفقود ويصبح بذلك وريث الكونت لودوفيكو وبهذا يصبح له من الجاه والثروة ما يكون به نداءً لديانا وجديراً بطلب يدها ؟ ويتكفل تريستان

الفتاة حتى تستجيب له أخيراً ، وتعود بينهما المياه إلى مجاريها ، ولكن بعد أن يعلن أن الكونتيسة قبيحة الشكل والخلق ، وهنا تدخل ديانا إلى المسرح فتسمع إلى كل هذا الحديث ، ولكنها تتظاهر بأنها لم تسمع شيئاً ، وتأمره بأن يأتي لئلا يمسها رسالة ، وإذا بالرسالة موجهة إليه هو وفيها تقول له إن الرجل الفقير المتواضع إذا باحت له سيدة ثرية نبيلة بحبها فان من الحماقة أن يتحدث مع أخرى ، وتنصرف غاضبة . ويندم تيودورو على تسرعه بمصالحة ماريثيلا فلا يكاد يراها حتى يطلب إليها أن تقطع كل صلاتها به . ثم يأتي الماركيز ريكاردو مسرعاً بعد أن أبلغ نبأ قبول ديانا الزواج منه ، ويهرع لرؤية الفتاة اللعوب فتصطنع السذاجة وتقول له إنها لم تقرر شيئاً بشأن الزواج وإنه ربما كان خدم القصر قد سمعوا ثناءها عليه فظنوا أنها قد اختارته زوجاً ، وتعتذر له عما حدث من سوء الفهم والتأويل . وأما تيودورو فانه ينفجر أخيراً ويقول لها إنه لا يفهم تصرفاتها إذ هي تحول بينه وبين ماريثيلا غير أنها لا تمنحه بصيصاً من الأمل في وصالها . وتغضب ديانا وتتصارحه بأن غيرها من خادماتها ماريثيلا هي التي تدفعها إلى ذلك وأنه حر يستطيع أن يتزوج ممن يشاء باستثناء تلك الوضيعة ، وتثور نائرتها فتهاول بالصفعات على وجه كاتبها حتى تخضب قميصه بالدم . على أنها لا تلبث أن تأتي إليه مراضية ملاطفة وتأمره بألف إسكودو (العملة الإسبانية حينئذ) حتى « يشتري قميصاً جديدة » .

ونرى في الفصل الثالث المتنافسين على قلب ديانا : الماركيز ريكاردو والكونت فيديريكو وقد شهدا ما وقع من ضرب السيدة لكاتبها ثم مصالحتهما له ، وهما يعلقان على ذلك في تشكك وتوجس ، ويهيجس في خاطرهما أن هناك علاقة مريبة بين ديانا وكاتبها ، وأنه لو تسربت أنباء هذه العلاقة إلى الخارج لأصبحت فضيحة تلوث أسماء الجميع ، وحينئذ يرى السيدان النبيلان أن خير

لودوفيكو يقتحم المكان وهو لا يتألك نفسه من الفرحه وتوتر الأعصاب ، ويبلغ الكونتيسة نبأ عثوره على ولده المفقود ، ثم يرتقى بين ذراعى تيودورو وهو ييكى . وتفاجأ السيدة بهذا الخبر ، ولكنها تبتهج وترى فيه حلا لمشكلتها فيها هو ذا تيودورو قد أصبح نبيلًا يحمل لقب « كونت » الذى أورثه إياه أبوه ، وبهذا تتمكن من الزواج به بلا غضاضة . وهكذا تقرر عقد قرانها به فى نفس تلك الليلة .

غير أن الفتى تدركه النخوة ، فينفرد بها ويصارحها بأن كل هذا ليس إلا أكذوبة اخترعها خادمه ، وتكبر هى فيه ذلك ولكنها تهتم بالغباوة وتنصحه بأن يقبل ما ساقه إليه القدر من خير وسعادة ، وتنتهى المسرحية بينما نرى نبلاء المدينة مهتئين للعروسين اللذين يقرران زواج مارثيلا خطيبة تيودورو السابقة من فايو أحد خدم ديانا وتريستان من دوروتيا إحدى خادمتها . وينزل الستار وتيودورو يخاطب جمهور المتفرجين قائلاً لهم إنه يرجوهم ألا يذيعوا سره على الملأ .

وتعتبر رواية « كاب البستاني » من أكثر روايات لوبى نجاحاً بين الجماهير ، إذ حشد فيها المؤلف كل العناصر التى تعتبر مقومات العمل المسرحى الناجح ، ولا سيما إذا كان يدخل فى باب « الملهاء » . وقد وفق لوبى كل التوفيق فى رسم شخصية الخادم الظريف « تريستان » الذى نراه يتقمص مرة شخصية مجرم محترف مصطنع لدور « قاتل الفتلة » ومرة أخرى شخصية تاجر أرمنى يتكلم لغة غريبة ملفقة مضحكة ، وهو فى كل ذلك لا يكف عن الحركة وتدبير الحيل واختراع الأكاذيب .

والرواية بوجه عام محكمة البناء متماسكة التكوين ، ولعل خير ما فيها هو تحليل نفسية الثييلة المدللة التى تعبت بقلوب الرجال والتى تثير الغيرة فى نفسها جذوة الحب الكامنة لرجل أقل منها مقاماً وقدرًا ، غير أنها

بتدبير الأمر بحيث تنطلى الحيلة على النبيل العجوز ، فيزيًا يزي تاجر أرمنى ويذهب إلى الكونت بعد أن يخترع قصة قد أحسن حبك أطرافها : فهو يقول إنه تاجر قادم من بلاد الأرمن وإن له أباً كان من تاجر الرقيق ووقع له يوماً صبي أسره المسلمون فى مالطة فاشتراه ورباه فى بيته مع أبنائه ، وأن هذا الصبي الذى كانوا يدعونه تيودورو نشأ مع أخت للتاجر ، فلما بلغ سن الشباب أحب الفتاة واتصل بها بغير زواج حتى حملت منه ، وخشى هو على نفسه من أبيها فهرب من أرمينيا وبحوثا عنه كثيراً دون أن يوفقوا إليه ، وأخيراً بعث التاجر والد الفتاة ابنه إلى إيطاليا لكى يتحرى عنه لا لكى يرغمه على الزواج من ابنته ، بل لجرد الاطمئنان إلى أنه حتى يرزق ، إذ كان يحبه حباً عظيماً . ويمضى تريستان التاجر الأرمنى المزيف فى قصته فيقول إنه سمع أخيراً من جارية يونانية فى نابلى أن هناك شاباً يدعى تيودورو يعمل فى خدمة الكونتيسة ديانا دى بلفلور ، وأن أوصافه تتفق مع أوصاف الفتى الذى يبحث عنه ، فذهب التاجر إلى هناك واجتمع به وعرف منه أنه هو فعلا الفتى الهارب ورجاه هذا لا يذيع خبره إذ أنه لا يريد أن يعرف أحد عنه أنه كان عبداً ، ولكن التاجر قرر أن يبلغ الكونت لودوفيكو نبأ ابنه المفقود الذى كان يائساً من عودته . وتنطلى القصة الملفقة على الكهل ، ويستطير قلبه فرحاً ويقرر الذهاب إلى دار الكونتيسة على الفور حتى يجتمع بابنه .

ويكون تيودورو فى هذه الأثناء قد علم نبأ المؤامرة المدبرة لاغتياله ، فيذهب إلى سيدته ويبلغها أنه قد عزم على ترك نابلى والعودة إلى إسبانيا إذ أن حياته فى خطر ولا أمل فى إمكان زواجه منها ، وتوافق هى على ذلك وهى منخرطة فى البكاء ، إذ أنها بدأت تحب كاتبها حباً صادقاً . ونشهد أخيراً موقف الوداع المؤثر بين ديانا وتيودورو ، ولكن لا نلبث أن نرى الكونت

أن كل ذلك لا ينال من قيمتها المسرحية وجودتها الفنية .

• • •

عرضنا في الصفحات السابقة بعض آثار لوبي دى فيجا ، وهي ليست إلا جزءاً بالغ الضآلة من إنتاج هذا العبقرى الذى كان يقول عن نفسه إنه « كان يكتب يدين في وقت واحد » ، غير أنه يمكن أن يقدم لنا مثلاً على عبقرية هذا الأديب الإسباني الذى حول كل شيء إلى مسرح ، والذى يعتبر أعظم المؤلفين في هذا الميدان خصوبة وأكثرهم إنتاجاً منذ وجد المسرح حتى اليوم .

نصمم على انتزاعه من منافستها حتى تظفر بذلك في النهاية . ومن هنا تعتبر رواية « كلب البستانى » من أول الأعمال المسرحية التى تولى جانباً كبيراً من اهتمامها إلى تحليل النوازع البشرية ولا سيما تلك التى تختلج في نفس المرأة .

صحيح أن هناك بعض ما يؤخذ على هذه المسرحية وهوما نجده من تكلف وافتعال في بعض الأحداث ، مثل ما نراه من الاعتماد على الصدفة في التقاء الكونت والماركيز بخادم تيودورو وظنهما أنه مجرم محترف ثم تكليفهما إياه بقتل سيده ، أو في السهولة التى انطلت بها خدعة الخادم الماكر على الكونت لودوفيكو ، غير



ناريخ آداب اللغة العربية بحرجى زيدان

بمقام
الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

أولاً : سيرة حياة

إن مصادرنا فى الترجمة لحياة جرجى زيدان - مؤرخ العرب والإسلام والحضارة الإسلامية والأدب العربى - كثيرة متنوعة ؛ فقد تناولته بالدراسة والترجمة بضعة كتب ظهر بعضها فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر فى حياة الرجل ، كمثل كتاب « مرآة العصر » الذى أصدره إلياس زخورة سنة ١٨٩٧ فى ثلاثة أجزاء ، فكان أقدم مصادرنا لسيرة هذا الرجل المتعدد جوانب الثقافة .

على أن هناك ترجمة مختصرة دقيقة له ملحقة بآخر كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، أو على وجه الدقة ملحقة بذيل الجزء الرابع من هذا الكتاب ؛ الذى لم يكمل الرجل ينهى من تأليفه حتى فاجأته المنية فى شهر يوليو سنة ١٩١٤ ، فرأى القائمون على إصدار الكتاب من أسرة دار الهلال أن يختصمه (بخلاصة ترجمته وذكر مؤلفاته على ما يقتضيه موضوع الكتاب ...) .

وتكاد تدانى هذه الترجمة من ناحية الزمن ، تلك الترجمة الموجزة الدقيقة التى كتبها الدكتور يعقوب صروف رئيس تحرير « المقتطف » بقلمه فى عدد سبتمبر

سنة ١٩١٤ من مجلة « المقتطف » فلم تزد على صفتين ، ولكن جاء فى منها وهامشها تصحيح مهم لما جاء فى الترجمة الملحقه بكتاب تاريخ آداب اللغة العربية خاصاً باشتراك جرجى زيدان فى تحرير المقتطف ؛ فقد جاء فى تلك الترجمة أن إدارة المقتطف طلبت إلى جرجى زيدان سنة ١٨٨٦ « أن يتولى إدارة أشغالها ، والمساعدة فى تحريرها ، ففعل » . ولكن الدكتور يعقوب صروف فى ترجمته لجرجى زيدان أنكر أن يكون صاحبنا قد حرر فى « المقتطف » شيئاً ، إلا خاتمة السنة الحادية عشرة ؛ وهى نصف صفحة فقط ؛ كتبها جرجى زيدان لما كان مشغولاً بإدارة المقتطف ؛ ومعنى هذا أن الثمانية عشر شهراً التى اشتغل فيها جرجى زيدان بالمقتطف كانت (للإدارة) فقط . ولم يجر فيها قلمه (بالتحريير) إلا على نصف الصفحة التى أشار إليها الدكتور يعقوب صروف ...

وقد اضطر صروف - على أدبه وحيائه - إلى تصحيح هذه الواقعة « إظهاراً للحقيقة » كما قال فى تأييده وترجمته لزميله وصديقه جرجى زيدان . . . وعلى الرغم من هذا التصحيح المنشور فى مجلة المقتطف سنة ١٩١٤ ظل كثيرون من مؤرخى سيرة جرجى زيدان ومترجمى

المؤلفين « أنه توفي بالقاهرة في ٢١ أيلول « سبتمبر » سنة ١٩١٤ . وذكر شارحو ديوان الشاعر محمد حافظ إبراهيم المطبوع سنة ١٩٣٧ أنه توفي في شهر أغسطس سنة ١٩١٤ ، بل ذكرت مجلة المقتطف في عدد أغسطس سنة ١٩١٤ أن صاحب الحلال توفاه الله بغتة في يوم الثلاثاء مساء في ٢١ يوليو سنة ١٩١٤ . . ولا نجد مفرأ من أن نأخذ بقول أهل الفقيه أنفسهم ، فهم أدري بتاريخ وفاة قعيدهم ، كما هم أعلم بكثير من أمره . فقد جاء في الترجمة التي ظهرت في ذيل الجزء الرابع من « تاريخ آداب اللغة العربية » أن مؤلف هذا الكتاب توفي في ٢٢ يوليو سنة ١٩١٤ .

على أن هذا الخلاف اليسير الحين في يوم وبعض يوم ، وشهر بعض شهر ، يذكرنا بما وقع فيه مترجمو سيرة المفكر الثائر : أديب اسحاق ، فقد كادوا يجمعون على أن وفاته كانت سنة ١٨٨٥ ، إلا واحداً فقط هو المستشرق الدكتور كرنيلوس فاندليك ، الذي ذكر تاريخ الوفاة صحيحاً في سنة ١٨٨٤ ، حيث يؤكد هذا قرينة أخرى قوية ، وهي أن نعى أديب اسحاق في المقتطف كان في عدد يوليو سنة ١٨٨٤ فليس من المعقول أن تكون الوفاة قد وقعت في سنة ١٨٨٥^(١) !!

هاتان حقيقتان لا بد من تصحيحهما والتنبيه إليهما في معرض الحديث عن جرجي زيدان ، بمناسبة الحديث عن كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وما عدا ذلك من الحقائق والوقائع مما يتصل بسيرة هذا المؤرخ اللغوي الأديب الكبير فلا اعتراض لنا عليه :

وإذا كانت بقصة من الكتب قد أمدتنا بمعلومات هامة عن سيرة جرجي زيدان ، كما أن عشرات من المقالات في المجالات قد زودتنا بمحصيلة من المعارف

حياته يبعون في الوهم ، ويذكرون أن جرجي زيدان قد شارك في تحرير المقتطف . ومن هؤلاء الأب لويس شيخو اليسوعي الذي ذكر في كتابه « الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين » أن مجلة المقتطف انتدبت جرجي زيدان « ليكتب فيها » ، فنشر عدة مقالات مستحسنة !! ! مع أن هذا النذب كان للإدارة لا للتحرير . وقد جرى على هذا الوهم بغير تحقيق لفيف من أفاضل المحققين الذين نكن لهم كل تقدير ، كالاستاذ عمر رضا كحالة في موسوعته الكبيرة العظيمة « معجم المؤلفين » ، والاستاذ طاهر الطناحي في الفصل الجيد الذي كتبه في كتاب « عصاميون عطاء من الشرق والغرب » : والاستاذ محمد رجب البيوي في البحث الطيب الذي كتبه عن جرجي زيدان في العدد ٥٢٢ من مجلة الثقافة : الصادر في ٢٨ من ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، والدكتور محمد يوسف نجم في كتابه « القصة في الأدب العربي الحديث » ، وهو ينقل عن الترجمة الملحق بتاريخ آداب اللغة العربية نقلاً حرفياً .

وهذه الحقيقة في سيرة حياة جرجي زيدان قد آن لها اليوم أن تتضح بعد أن ظلت منزوية في ركن من الإغفال والتسيان منذ قام بتصحيحها والتنبيه إليها الدكتور يعقوب صروف في سنة ١٩١٤ .

ولو أن هذا التصحيح المهم قد جاء من رجل غير أستاذنا المغفور له الدكتور صروف ، الذي عرفنا الكثير من خلقه العظيم ، لقلنا إنه تصحيح ذو غرض ، ولكن الرجل كان صادقاً في تصحيحه — كمهده في أمره كله — وما علمنا أن أحداً قام بالرد على الدكتور يعقوب صروف ليناقضه في هذه الحقيقة التي لا نعلم له مصلحة خاصة في تصحيحها .

وليست هذه هي الواقعة الوحيدة في حياة جرجي زيدان التي تحتاج إلى تصحيح ، فهناك تاريخ وفاته الذي اضطرب فيه بعض من ترجموا له . فقد ذكر « معجم

(١) كان لنا حظ السبق إلى تصحيح تاريخ وفاة أديب اسحاق في بحث لنا نشر بمجلة « المعرفة » التي تصدر بدمشق عدة شبر فبراير سنة ١٩٦٥ .

الضرورة للترجمة لحياة المؤرخ زيدان ، فإن هناك « مذكرات خاصة » للرجل قد رجع إليها ونقل عنها الأستاذ طاهر الطناحي ، وهو يترجم لصاحبنا في كتاب « عصاميون عظماء من الشرق والغرب » الذي أصدرته دار الهلال سنة ١٩٥٤ . ولا شك أن هذه المذكرات التي كتبها صاحبها في جو من الصراحة التامة وعدم التحرج من ذكر الفقر وصعوبات الحياة - تلتقي أضواء ساطعة قوية على حياة هذا الرجل الذي تعد سيرته درساً عظيماً لكل من يريد النجاح في الحياة .

وتدلنا مذكرات جرجي زيدان الخاصة ، على طراز من الرجال ندر أن تقع العين من مثله على كثير . فكثير من الناس - وخاصة من بلغوا شيئاً في الحياة - يتذكرون لماضيهم ، ويستحون أن يذكر هذا الماضي البليس أمامهم أو يذكروه هم على أطراف السننهم . . . ويحاولون أن يطمسوه طمساً ، ويودون - بمجدع الأنف - لو محى من تاريخهم . . . ولكن العصا جرجي زيدان كان غير هذا . . . لقد كان أبوه صاحب مطعم متواضع في بيروت ، وقد جمع إلى الفقر الأمية في العلم ، فلم يظفر بتعليم . . . ولكن ذلك لا يمنع صاحبنا أن يقول في مذكراته : « نشأت في صباى وأنا أرى والدى يخرج إلى دكانه في الفجر ، ولا يعود إلا في نحو منتصف الليل أو قبيله ، وأرى والدى لا تهدأ لحظة من الصباح إلى المساء . . . »

واضطرب الغلام جرجي زيدان - وهو في الحادية عشرة - أن يجيب دعوة أبيه إياه لمساعدته في المطعم ، ولو كاتباً للحسابات على الأقل ! ووجد الأب من ابنه عوناً نافعاً فحبسه في المطعم وحجزه عن إتمام تعليمه الذي كانت نفسه تتحرق إليه . . . وخشيت الأم وخشى معها ابنها على مستقبله . ويحدثنا جرجي زيدان في مذكراته الخاصة بعبارة السمحة الطيبة قائلاً : « ولما مضى على اشتغالي في ذلك المطعم عام وبعض

العام ، خافت والدى أن يطول مقامى ويضيع مستقبل . وكانت تكره المطاعم . وكانت منذ طلبنى والدى لمساعدته تلح عليه أن لا يطول مقامى ، وهو يعدها . . . فلما مضت السنة الأولى ألحت عليه أن يخرجنى ويعيدنى إلى المدرسة ، فقال لها : إنه قد أتم دروسه ، ولا فائدة من كثرة الدرس ، إلا إذا كنت تتوین أن تجعله كاتباً أو معلماً ، فضلاً عن أن كثرة التعليم تجعله متفرجاً مثاقفاً ، لا يأكل إلا بالشوكة والسكين ، وربما حدثته نفسه أن يلبس اللباس الأفرنجى . . . ! ! »

على أن هذا المطعم كان نعمة كبرى على الغلام جرجي زيدان فيما بعد . . . فقد كان - بمن يحويهم من نخبة الطاعمين - مثاراً لطموح الفتى واتساع اهتماماته . ففيه التقى باليازجى ، وعبدالله البستاني اللغوى وغيرهما ، واستمع إلى أحاديثهم ومناقشاتهم ، وفيه التقى بطلبة الطب في الكلية الأميركية التي أنشأتها الإرسالية الأمريكية في بيروت سنة ١٨٦٦ . ولا شك أن هؤلاء الطلبة قد أثاروا حماسه لطلب العلم . ولا شك أنهم هم الذين دلوه على طريق الدخول في مدرسة الطب هناك . فدرس العلوم الإعدادية التي تؤهله للالتحاق بقسم الطب في الكلية سنة ١٨٨١ . ولم تزد مدة دراسته الإعدادية هذه على شهرين ونصف شهر . وتصور لنا هذه المدة القصيرة روح العزيمة والجد التي تجلت في الفتى منذ أول أمره . وإلى هذه الروح يشير خليل مطران في رثائه له بقوله :

ألا في سبيل الله حكمتك التي
جلاها « هلال » مالى الكون مقمر
وجد به رضى الصعاب ، فما كبا
إلى أن دهماء جدك المتعثر

ولقد كان لهذا المطعم أثر آخر في اهتمامات جرجي زيدان التي تجلت بعد هذا في اطلاعاته الواسعة على حفة من اللغات الأجنبية . لقد التقى فيه بأحد الحرفاء

« الزبائن » المترددين عليه للطعام ، — وهو المعلم مسعود الطويل — الذى كان يشتغل بتعليم الشبان اللغة الإنجليزية فى مدرسة خاصة فتحها لهذا الغرض ، ولم يتوان جرجى زيدان عن الانضمام إلى هذه المدرسة المسائية ، وما هى إلا خمسة أشهر حتى كان صاحبنا يقرأ « رحلة كوك » بالإنجليزية فى سهولة ويسر .

وكان كتاب رحلة كوك أول كتاب يقرؤه الفتى بالإنجليزية ، إلا أن كتباً عربية كثيرة قد سبقت إلى يديه ، وحصل عليها بماله الذى كان يقطعه من مصروفه . والغرام بشراء الكتب واقتنائها — مهما كانت أثمانها — ظاهرة تلفت النظر فى حياة زيدان . ويروى لنا هو نفسه فى مذكراته الخاصة كيف اقتنى لأول مرة فى حياته كتاب « مجمع البحرين » للشيخ ناصيف اليازجى ، فيقول : (كنت أسمع بكتاب مجمع البحرين ، وأحب اقتناؤه . لكنى كنت أستغلبه ، لأن ثمنه على ما أظن كان أربعة فرنكات أو خمسة . ففى ذات يوم كنت جالساً بالمطعم ، فر غلام ويده هذا الكتاب مستعملاً ، وهو يعرضه للبيع ، فاشتريته منه بتسعة قروش بيروتية ، أى أقل من نصف ثمنه ، وفرحت به كثيراً . ولما رجعت والذى سألتى عنه ، فأخبرته أنى اشتريته بتسعة قروش ، فزعل ، وقال : « أتدفع فى هذا الكتاب تسعة قروش ، وتبدل الدرهم بورك ؟ » . فزعلت ، ولم أجبه . ولما انصرفنا للبيت فى المساء ، وكانت الوالدة قد أعدت لنا العشاء ، أظهرت أنى لا أريد الطعام ، وذهبت للنوم ، وأنا أتوقع أن يدعوانى ، ولا يتركانى أنام جائعاً . وسمعت والذى تعنف والذى لإغضابى حتى نمت بلا أكل ، ولكنه أصر على رأيه . . . واتفق أن جاء أمين فياض — أحد أصدقاء والذى — للسهرة عنده فى تلك الليلة ، وكان يتودد إلى ، فسأل عنى ، فقبل له إنى نمت . واغتنمت والذى هذه الفرصة ، وشكت إليه عناد والذى . فسأله عن سبب غضبه ، فقال : « إنه يصرف

الدرهم فى شراء الورق بلا فائدة ! » فأجابه : « اشكر الله الله يا أبا جرجى أن ابنك يتفق الدرهم فى شراء الكتب ، وليس فى السكر ونحوه . إنها نعمة يجب أن تشكر الله عليها » وسمعت كلمات هذا الصديق وأنا أنظأه بالنوم وللحال اشتد ساعد والذى ، وقامت فأيقظتنى ، وأجلستنى إلى المائدة ، وطيبت خاطرى ، وبذلك والذى . . . ولا تزال هذه الحادثة نصب عيني .) .

لقد كان الحافز إلى التعلم عند جرجى زيدان شخصياً وطبيعياً ، ولكن ظروفًا مواتية أعانت على تقوية هذا الحافز ودفعه إلى الأمام ، على الرغم من عدم مواتاة الظروف المادية التى كانت تعيش فيها أسرته . ولم يبال الفتى بهذه الظروف المعاكسة وحاول دائماً أن يتغلب عليها . وعلى أبواب السنة العشرين من عمره ، وفى سنة ١٨٨٠ ، كانت قد ظهرت الطبعة الثانية لكتاب « سر النجاح » لصمويل سميلى الذى ترجمه الدكتور يعقوب صروف وأصدرته مطبعة المقتطف ، وفى هذا الكتاب صور نماذج بشرية نجحت فى الحياة ، وتغلبت على ما فيها من عقبات ، استناداً إلى العزيمة والدأب ، والجد والكفاح ، وعدم تسرب الملل واليأس إلى النفس . واقتنى الفتى نسخة من هذا الكتاب ، ورأى بعد قراءته أن المطالب العالية فى الحياة لا يقف دونها ما قد يتوهمه الناس حوائل وموانع . وكانت قراءته لهذا الكتاب مما دفعه دفعاً إلى الالتحاق بقسم الطب بالكلية الأمريكية .

ودخل جرجى زيدان مدرسة الطب ببيروت سنة ١٨٨١ ، وكان من أحسن طلابها استماعاً للأساتذة ، وإقبالاً على العلم ، وعكوفاً على الدرس ، على الرغم من انشغاله فى الوقت نفسه بأمر معاشه . وتشير المصادر إلى أنه اضطر إلى ترك كلية الطب فى العام الثانى بسبب « الاختلال المشهور الذى حصل فى تلك المدرسة »^(١)

(١) الآداب العربية فى الربع الأول من القرن العشرين -

للأب لويس شيخو ص ٧١ .

وفي سنة ١٨٨٥ عاد إلى بيروت من مصر ، وكانت قد سبقته إليها شهرته العلمية واللغوية التي كسبها بقراءاته الواسعة ، فانتخب عضواً بالمجمع العلمي الشرقي . وهناك تعلم العبرانية والسريانية وأتقنها وأضاف إليهما بعض اللغات السامية والشرقية الأخرى .

وفي سنة ١٨٨٦ زار إنجلترا وجمال جولة مفيدة في متاحفها ومكتباتها الشهيرة . وفي شتاء العام نفسه عاد إلى مصر حيث طلب إليه أصحاب مجلة المقتطف أن يتولى « إدارته » لا « تحريره » كما سلف القول ، فهض بالعبء على خير وجوه . ولكنه أثر أن يستقل بالعمل وحده ، فاستقال من إدارة المقتطف سنة ١٨٨٨ حيث تفرغ للكتابة والتأليف ، وفي هذه الفترة أتم تأليف كتابه « تاريخ مصر الحديث » .

ولم يكن « تاريخ مصر الحديث » أول الكتب التي ألفها جرجي زيدان ، فقد سبقه بضعة من الكتب ، ولعل أول كتاب ألفه هو « الفلسفة اللغوية » الذي ظهر سنة ١٨٨٥ والذي قدمه إلى الهيئات والمجامع العلمية الدولية ، فظفر بعضوية « المجمع الآسيوي الملكي » في إيطاليا . وتستطيع أن تحكم على العبقرية المبكرة لهذا العالم الباحثة إذا عرفت أنه أتم تأليف « الفلسفة اللغوية » ولم يتجاوز عمره الخامسة والعشرين . . .

أما أولى روايات جرجي زيدان التاريخية ، فهي رواية « المملوك الشارد » التي أتمها حوالى سنة ١٨٩٠ ، والتي تصور عصر محمد علي أدق تصوير .

وإذا كان كتاب « الفلسفة اللغوية » هو أول كتاب علمي لغوي ألفه جرجي زيدان ، فإن كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » هو آخر كتاب علمي أدبي صنفه ، فما كاد ينتهى من الجزء الرابع في صيف سنة ١٩١٤ حتى أدركته منيته في شهر يوليو من العام نفسه ، على أن أول جزء من هذا الكتاب — الذي هو موضوع بحثنا اليوم — قد صدر في صيف سنة ١٩١١ ، فكانه قضى

ويشير مصدر آخر حديث إلى أنه في سنة ١٨٨١ وقعت في الكلية حادثة « الحرية الفكرية » ، ويشير الأب لويس شيخو — نقلا عن مجلة الهلال — إلى ما حدث في المدرسة من المنازعات التي كان لزيدان فيها نصيب وافر ، ثم ما حصل بين المعلمين من الانقسام بسبب التعليم بالإنجليزية بدلا من العربية .

وقد استطعت بعد طول تنقيب وتنقيب أن أجِد في السنة السابعة من مجلة المقتطف تفصيلا — بقلم الدكتور يعقوب صروف نفسه — لحادث المدرسة الكلية الطبية ببيروت ، وما لابس من استقالة ثلاثة من المشغلين بالتدريس فيها ، وهم الدكتور كرنيلوس فاندنيك المستشرق المشهور ، وأستاذ الباثولوجيا بها ، والدكتور أدون لويس أستاذ الطبيعيات والكيمياء ، والدكتور وليم فاندنيك نجل العلامة كرنيلوس ومدرس المادة الطبية والحيوان بالكلية .

وانجه جرجي زيدان بعد ذلك إلى دراسة الصيدلة بدلا من الطب مع لقيف من رفاقه المبعدين من الكلية ، وامتحنته لجنة خاصة محايدة من علماء سورية وأطبائها ، منهم الكولونيل مراد بك حكيمباشي العسكر ، والدكتور فاندنيك ، والدكتور لويس ، فنال شهادة الصيدلة بالنجاح في العلوم الآتية : اللغة اللاتينية ، والطبيعيات ، والحيوان ، والنبات ، والجيوولوجيا ، والكيمياء العضوية والمعدنية ، والتحليل الكيمي ، والمواد الطبيعية ، والأقرباذين العلمي والعمل .

وجاء إلى مصر بعد ذلك ، ورغب أن يدخل مدرسة الطب المصرية ، ولكن طول الدراسة فيها صرفه عنها ، فاشتغل بالعلم ، والصحافة محرراً في جريدة « الزمان » . ورافق الحملة النيلية إلى السودان سنة ١٨٨٤ مترجماً . وقد أكسبته هذه الرحلة كثيراً من التجارب الجديدة عليه .

في تأليف هذا الكتاب ثلاث سنوات ، وإن كان قد نشر طائفة من فصوله في مجلة « الهلال » سنة ١٨٩٤ أى بعد صدورهما بعامين اثنين .

ولقد دخل جرجى زيدان ميدان الصحافة الأدبية بأنشائه مجلة الهلال الشهرية سنة ١٨٩٢^(١) . وفي أول سبتمبر من ذلك العام صدر أول أعداد الهلال يحمل فيها بحمله من مقالات وبحوث ودراسات ؛ مقدمة لمنشئه ، يكشف فيها عن خطته وأهدافه من إصدارها قائلاً : « لا بد للمرء فيما يشرع فيه من فائحة يستل بها ، وخطة يسير عليها ، وغاية يرمى إليها . أما فاتحتنا فحمد الله على ما أسبغ من نعمه ، وأفاض من كرمه . والتوسل إليه أن يلهيها الصواب ، وفصل الخطاب ، وأما خطتنا فالإخلاص في غايتها ، والصدق في لهجتها ، والاجتهاد في وفاء حق خدمتنا . ولا غنى لنا في ذلك عن معاضدة أصحاب الأقلام من كتبة هذا العصر في كل صقع ومصر ، أما الغاية التي نرجو الوصول إليها ، فأقبال السواد على مطالعة ما نكتبه ، ورضاؤهم بما نكتبه ، وإغضابهم عما نرتكبه . فإذا تيح لنا ذلك كنا قد استوفينا أجورنا ، فننشط لما هو أقرب إلى الواجب علينا . . »

وعلى الرغم من دخول « الهلال » ميدان الصحافة الأدبية منافسة « للمتتطف » التي أنشئت قبلها ببضعة عشر عاماً^(٢) ، فقد استقبلت الرصيفة القديمة زميلها الجديدة استقبالا كريماً في باب « الهدايا والتقايط » من عدد سبتمبر سنة ١٨٩٢ ص ٨٤٤ ، معرفة بها وبأبوابها ، مثنية على « منشئها الكاتب الفاضل جرجى أفندى زيدان » ، موجزة الحديث عن انسجام عبارتها وجمعها لأشئآت الفوائد ، متمنية لما آتم النجاح .

(١) ذكر الأب لويس شيخو أن الهلال صدر في تشرين الأول (أكتوبر ١٨٩١) ، وهو وهم .

(٢) صدرت المقتطف أولاً في بيروت سنة ١٨٧٦ عن الدكتورين يعقوب صروف وفارس نمر ، ثم انتقلت إلى مصر بعد ذلك بخمس سنوات حيث ظلت توالى إصدارها إلى سنة ١٩٥٢ .

وقد ظل اسم « الهلال » وجرجى زيدان متلازمين حتى بعد وفاة صاحب الهلال سنة ١٩١٤ . وما أغفل شاعر أو كاتب أو خطيب هذا التلازم في حفل التأبين الذي أقيم لجرجى زيدان في نادي الاتحاد السوري في ٢٨ مايو سنة ١٩١٥ ، أى بعد عشرة أشهر من وفاته . فنجد الشاعر أحمد شوقي يقول :

قد أكل الله ذباك « الهلال » لنا
فلأرأى الدهر نقصاً بعد إكمال
ولا يزل في نفوس القارئ له
كرامة الصحف الأولى على التالي
فيه الروائع من علم ومن أدب
ومن وقائع أيام وأحوال
وفيه همة نفس زانها خلق

هـا لباعى المعالى خير منوال
ونجد الشاعر حافظ إبراهيم يقول عن زيدان صاحب « الهلال » ، واليازجى صاحب « الضياء » :
وكم فزت من رب « الهلال » بحكمة
وكم زنت من رب « الضياء » بياى

ثانياً : آثاره ومؤلفاته

لقد كان جرجى زيدان متعدد النواحي الثقافية ، فلم يقف بالمعرفة عند حد . وقد هيأته ثقافته الطبية والصيدلية والطبيعية الأولى لكي يكون مؤرخاً وأديباً ولغوياً علمى المنهج . فهو مؤرخ أدب لم تنجح به عاطفة ولم يعمل به خيال ، فى الأحكام . وإنما هو صاحب عقلية علمية منهجية تجريبية . وقد ظهرت هذه العقلية فى أكثر ما كتبه وألفه من كتب . فحين أخرج لنا كتابه « تاريخ مصر الحديث » ، مبتدئاً من تاريخ الفراعنة حتى العصر الحديث ، لم يكتف بالانكباب على الكتب يقرؤها ويستخرج منها مادة كتابه التى نسقها تنسيقاً بديعاً ، ولكننا رأيناه يتجه إلى « المعاينة » و « المشاهدة »

و « التجربة » ، كما كان يفعل الجاحظ ، وكما أوصى مؤرخنا « ابن خلدون » أن يفعل المؤرخون حين يؤرخون . فترى جرجى زيدان يحصل على ترخيص من وزارة الأوقاف بتفقد الآثار العربية ، ثم يحشم نفسه عناء الرحلة والنقلة إلى الآثار التي تحدث عنها في كتابه ، حتى يكون كلامه كلام الخبير المحرب ، ثم هو لا يبالي أن يرحل في سبيل « المعينة التاريخية » إلى ما وراء « حلفا » آخر الحدود المصرية . ويقول في مقدمته لكتاب « تاريخ مصر الحديث » : « فزرت معظم جوامع القاهرة وضواحيها ، ولا سيما ما كان منها قديماً ، كجامع عمرو ، وجامع ابن طولون ، والجامع الأزهر ، وجامع السلطان حسن ، وجامع السلطان برقوق ، وجامع قايت باي ، وجامع الغورى وغيرها . وزرت ما هنالك من البنايات القديمة كالقلعة وما جرى مجراها ، وتسلفت ما صعب مسلكه منها ، ولا سيما أسوار القاهرة القديمة وأبوابها ، كباب النصر ، وباب الفتوح ، وباب الشعرية وغيرها . ومن هذه الأماكن ما قد تداعت أركانه وصعب الصعود إليه إلا بالمخاطرة . فكثيراً ما كنت أخاطر بحياتي لهذه الغاية . ومن الآثار التي تفقدتها ، ما عدا الجوامع والمشاهد والتكيات والشوارع ، قصر الشمع أو دير النصارى في مصر القديمة ، ودار التحف العربية في جامع الحاكم بشارع النحاسين ، وغير هذه من الأماكن في القاهرة وضواحيها كالقناطر الخيرية وغيرها .

أما الآثار المصرية القديمة فقد تفقدتها كلها أيضاً ، ولا سيما ما هو منها في مصر العليا ، مبتدئاً من أهرام الجيزة بجوار القاهرة ، إلى ما وراء وادى حلفا آخر حدود مصر ، فزرت خرائب سقارة ، وأسنا ، وطيبة ، والكرنك ، وبيبان الملوك ، وجبل السلسلة ، وأنس الوجود ، وأبا سنبل وغيرها . ومثل ذلك آثار مصر السفلى مبتدئاً بالمطرية ، فأتريب وغيرها . وفي مصر العليا فضلاً عن الآثار المصرية القديمة آثار استحکامات

وبنايات بناها الممالك أو غيرهم في حال محاربتهم حكومة البلاد أو دفاعهم عنها . كل هذه الأماكن تفقدتها جيداً إتماماً لمعدات التأليف . . .

ومن هنا يتضح لك منهج جرجى زيدان في تأليفه ، فهو ليس ججاج مادة ، ولا حاشد معارف ، بقدر ما هو محقق لها ومعين لها بالنظر ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وتمتاز كتابات جرجى زيدان — وخاصة العلمية — بحسن عرضها ، وتنسيقها ، وتنظيم الأفكار فيها . ولعله تأثر في هذا بكتابات المستشرقين ودراساتهم ، فهو ينحو نحوهم من طول ما عاناه من مطالعة كتبهم وبحوثهم ، وقد وفق الله جرجى زيدان إلى أن يضع معلوماته الغزيرة ودراساته الجادة في أسلوب علمي واضح مشرق العبارة ، في غير تعمل ولا تصنع ولا تعقيد ولا غموض . فهو يؤدي إليك المعاني المرادة في بلاغ حسن بعيد عن الزخرفة والوشى . وينزل الألفاظ منازلها على أقدار موضعها من الكلام ، وفي ترسل سهل يسير لا معاطلة فيه ولا تكلف . وقد أحسن المغفور له أنطون الجميل نعت أسلوب جرجى زيدان بقوله : « من الكتاب من هم كالسيل الجارف المروع ، يتدفق مرغياً مزيداً ، فيشب وثبات عظيمة ، وينحدر شلالات فخمة ، يقف عندها المرء متبهاً . ومنهم من يشبه ذلك الجدول المترقق على الحصباء ، العاكس في قاعه الصافي زرقة الماء ، يناغيه على صفته الزهر الندى ، ويطرب الأسماك بخبره الشجي . وليس زيدان ذلك السيل الجارف ، ولا هذا الجدول المترقق ، بل هو يشبه النهر الهادئ ، كنه النيل مثلاً في واديه ، يسير بكل سكون ووقار ، فيحمل في طياته الحياة والثروة ، فيحول الجذب خصباً ، والتراب تبراً . . . » ومن هنا وجدت مؤلفات جرجى زيدان وكتاباته ، وحتى رواياته ، سبيلها إلى نفوس القراء في كل أرض عربية أو تعرف العربية .

ونستطيع أن نقسم مؤلفات جرجى زيدان إلى مؤلفات تاريخية ، ومؤلفات في اللغة ، ومؤلفات في تاريخ الأدب ، ومؤلفات في الاجتماع ، وروايات . أما مؤلفاته التاريخية فهي :

- ١ - تاريخ مصر الحديث .
- ٢ - تاريخ التمدن الإسلامى .
- ٣ - تاريخ العرب قبل الإسلام .
- ٤ - تاريخ الماسونية العام .
- ٥ - تراجم مشاهير الشرق .
- ٦ - التاريخ العمام .
- ٧ - تاريخ إنكلترا .
- ٨ - تاريخ اليونان والرومان .
- ٩ - أنساب العرب القدماء .

أما مؤلفاته في اللغة فهي :

- ١ - الفلسفة اللغوية .
 - ٢ - تاريخ اللغة العربية .
- أما مؤلفاته في الاجتماع فهي :

- ١ - علم الفراسة الحديث .
- ٢ - طبقات الأمم .
- ٣ - عجائب الخلق .

وليس له في تاريخ الأدب إلا كتابه الخالد :
« تاريخ آداب اللغة العربية » في أجزائه الأربعة .

أما رواياته فيبلغ عددها اثنتين وعشرين رواية تدور مع تاريخ العرب من الجاهلية ، ومع تاريخ الإسلام منذ الفتح إلى العصر الحديث .

وعلى الرغم من أن جرجى زيدان قد أفاد في بحوثه ودراساته من كتب المستشرقين والأجانب ، فإن كثيراً من كتبه ورواياته قد ترجم إلى لغات أجنبية وشرقية . ولا يقول قائل إن بضاعة المستشرقين قد ردت إليهم بهذه الترجيات ! فإن كتب جرجى زيدان مملوءة بمعارف ومعلومات من استنباطات الرجل واجتهاداته

الكثيرة الموقفة التي لقي فيها المستشرقون وغير العرب أشياء جديدة عليهم . ويكفى أن نذكر هنا رأى العالم المنصف الدكتور يعقوب صروف في مؤلفات جرجى زيدان على جملتها : « . . . واستخلص من ذلك كتباً ممتعة في آدابها ، تشهد له بسعة الاطلاع ، وأصالة الرأى ، والبراعة في التنبؤ والتنبؤ ، فكان لهذه الكتب شأن كبير شرقاً وغرباً ، وترجم بعضها إلى كثير من اللغات الشرقية والغربية . وبحث في تواريخ دول الإسلام . وألف فيها كتاباً جليلاً ، وبني على نوادرها سلسلة من الروايات التاريخية الفكاهية ، جمع فيها زبدة تواريخ تلك الدول على أسلوب لا يمل القارئ . . . » (١)

ثالثاً : كتاب تاريخ آداب اللغة العربية

تمتاز كتب جرجى زيدان في التاريخ والأدب واللغة والسير والتراجم بأصالتها ، وبأنها أثرت المكتبة العربية ، وبأنها فتحت في البحث العلمى ميادين جديدة لم يكن للناس في عهده بها عهد . . . ويكفى لبيان حيوية هذه الكتب أنها شغلت العلماء والباحثين والناقدين بنقدها ومناقشتها . والكتاب الجيد هو الذى يثير من القضايا ما لا يدع للناس سبيلاً إلى السكوت عنه . وقد كان جرجى زيدان من العلماء الذين يرحبون بالنقد ولا تضيق صدورهم به . وكثيراً ما رأيناه يستحث العلماء على نقد مؤلفاته ، ولا يكتفى منهم بتقريبها ، كما كانوا يفعلون في عصره - ولا يزالون يفعلون - إبقاء على الود وإثارة للعافية . . . وما يؤكد هذه الحقيقة أنه لما أصدر روايته « الملوك الشارده » في سنة ١٨٩٢ أهدى نسخة منها إلى صديقه الدكتور يعقوب صروف رئيس تحرير المقتطف رجاء الكتابة عنها . وندع الدكتور صروف يكمل بقية الحديث قائلاً : « تلقينا بالأمس نسخة من رواية الملوك الشارده التي وضعها جناب صديقنا الأديب جرجى أفندى

(١) مجلة المقتطف - عدد سبتمبر سنة ١٩١٤ - ص ٢٨٤ .

زيدان ، فاعتذرنا عن انتقادها ، وأردنا أن نقرظها بذكر موضوعها وإظهار محاسنها ، والإغضاء عما نظنه عيباً فيها ، فأبى إلا أن ننتقدها انتقاداً ، فأجبنا الطلب وقرأنا الرواية على ما نحن فيه من كثرة الأشغال ، وضيق الوقت ، وعلقنا عليها السطور التالية . . . »^(١)

ولما ظهر كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » سنة ١٩١١ صبر النقاد عليه حتى ظهر جزؤه الثاني بعد الأول ، فاستقبلوه بالنقد والتعليق والمناقشة — مما سنعرض له بعد قليل — ولكن مؤرخنا العظيم لم يجزع للنقد ، ولم يهتز له ، بل انتضى قلمه الهادئ الرزين يرد الحجة بالحجة ، ويقرع البرهان بالبرهان ، في أدب جم ، وعلم غزير ، وصبر جميل ، حتى لم تبد من بين شفتيه لفظة نابية . . . أو كلمة جارحة .

والحق أن كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لرجى زيدان يعد رائداً في التأليف في تاريخ الأدب العربي على نهج لم يسبق إليه ؛ ومن هنا كان الاهتمام بهذا الكتاب ، لمكانه من الريادة في هذا الميدان .

والحق — أيضاً — أن جهداً كريماً في هذا الميدان قد سبق به الشيخ حسين المرصفي في كتابه « الوسيلة الأدبية » الذي تحدثنا عنه في العدد السادس من المجلد الرابع من « تراث الإنسانية » ، فقد خطا المرصفي خطوة — على صغرها — في ميدان التاريخ الأدبي على حسب العصور ، لا على حسب الموضوعات ودراسة النصوص كما كان يفعل القدماء . وهذه حقيقة لا ينبغي أن يفوتنا التنويه بها في مقام التحقيق .

وجاء بعد الشيخ حسين المرصفي تلميذه في دار العلوم المرحوم حسن توفيق العدل الذي تخرج فيها سنة ١٨٨٧ ، أى قبل وفاة أستاذه المرصفي سنة ١٨٩٠ بثلاث سنوات . فتنبه إلى ما في تاريخ الأدب حسب

(١) مجلة المقتطف — السنة السادسة عشرة — سنة ١٨٩٢ —

العصور من مزية . وأكد هذا المعنى في نفسه ما أتبع له من بعثة في ألمانيا واتصال بالمستشرقين هناك ، وخاصة « بروكلمان » الذي كان قد وضع كتابه في تاريخ الأدب العربي على طريقة العصور . وإن كان لم يظهر مطبوعاً إلا في سنة ١٨٩٨ . وأعجب المرحوم حسن توفيق العدل بهذه الطريقة ، فلما عاد من ألمانيا ليشتغل بالتدريس في دار العلوم قدم هذه الطريقة إلى طلبته فيها على هيئة مذكرات عنوانها « تاريخ آداب اللغة العربية » . ويذكر المرحوم الأستاذ محمد عبد الجواد أنها طبعت بعد وفاته سنة ١٩٠٦ بمطبعة مدرسة الفنون والصنائع الخديوية^(١)

وجاء المرحوم محمد بك دياب — وهو من رجال دار العلوم أيضاً — فأصدر في التأريخ الأدبي على وفق العصور كتابه الموسوم : « تاريخ آداب اللغة العربية » الذي ظهر في جزئين سنة ١٨٩٩ — ١٩٠٠ م . وانتهى القرن التاسع عشر بهذه الكتب الثلاثة في تاريخ الأدب العربي على حسب العصور ، ألفها ثلاثة من أساتذة دار العلوم أو أبنائها .

وجاء القرن العشرون فإذا بالأستاذ محمد حسن نائل المرصفي^(٢) يصدر في سنة ١٩٠٨ كتابه : « أدب اللغة العربية » مرتباً ترتيباً زمنياً كذلك . وفي سنة ١٩٠٩ يظهر كتاب « أدبيات اللغة العربية » لجماعة من أبناء دار العلوم هم محمد عاطف ، ومحمد نصار ، وعبد الجواد عبد المتعال . ولا يطول بنا الزمن بعد هذا أكثر من عامين اثنين حتى نرى مؤرخنا جرجى زيدان يصدر كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » على نحو واسع مبسط مفصل لم يألفه الناس فيما صدر قبله من كتب في

(١) مجلة الكتاب — عدد يوليو سنة ١٩٤٧ — ص ١٣٨٠ .

(٢) كان الشيخ محمد حسن نائل المرصفي من نوابغ الأدباء في وقته ، وهو أزهري ، ولم يتعلم في دار العلوم كما ذكر ذلك خطأ غير الدين الزركلي في « الأعلام » ونقل الخطأ عنه عمر رضا كحالة في « معجم المؤلفين » . ومن آثاره في الصحافة الأدبية مجلة « الجديد » التي كانت تحفة رائعة . توفى سنة ١٩٣٥ .

تاريخ الأدب العربي . ويظهر الجزء الأول من هذا الكتاب في سنة ١٩١١ بهذا الاسم الجديد لهذا العلم الذي هو من مبتكرات جرجي زيدان . وقد سبق جرجي زيدان المرحومين حسن توفيق العدل ومحمد دياب ومحمد حسن نائل المرصفي ، ومحمد عاطف وزملاءه إلى تسمية هذا العلم بعلم « تاريخ آداب اللغة العربية » ، فإنه في سنة ١٨٩٤ وفي السنة الثانية من مجلة « الهلال » كان قد نشر فصلاً تحت عنوان : تاريخ آداب اللغة العربية ، فكان بذلك أول واضع لاسم هذا العلم ، وعنه أخذ الأساتذة السابق ذكرهم عناوين كتبهم التي سبقوا بها في الصدور والظهور منذ سنة ١٨٩٩ ، وإن كان كتاب جرجي زيدان لم يظهر - على شكل كتاب - إلا في سنة ١٩١١ .

وقد يكون جرجي زيدان على حق حين يقول عن نفسه إنه أول من كتب في « تاريخ الأدب العربي » على هذا النحو ، وإنه أول من سمي هذا العلم باسم « تاريخ آداب اللغة العربية » ، فإن الفصول التي بدأ بنشرها في مجلة الهلال منذ سنة ١٨٩٤ تحت هذا العنوان الجديد ، هي أقوى مؤيد لدعواه ، على أن جهود هؤلاء الرواد الذين ذكرناهم في هذا السيل لا يجوز إغفالها أو التقليل من قدرها .

وقد استقبل الدكتور يعقوب صروف الجزء الأول من « تاريخ آداب اللغة العربية » بكلمة في مقتطف أغسطس سنة ١٩١١ تكاد تكون تقريراً للكتاب وعرضاً موجزاً له ، قدمها بهذه الأسطر : « لصديقنا جرجي أفندي زيدان - صاحب الهلال - فضل لا ينكر على أبناء العربية ، بما ألفه فيها ، وآخر ما أنحفنا به الجزء الأول من كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وهو يبحث في تاريخ آداب هذه اللغة في عصر الجاهلية وعصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي » .

واكتفى الدكتور صروف في كلمته عن الجزء الأول بالتقرير والعرض ، فلما ظهر نقد الجزئين الأول

والثاني لحفنة من أفاضل العلماء ، لم يجد « صروف » بداً - حين حديثه عن الجزء الثالث في عدد سبتمبر من المقتطف سنة ١٩١٣ - من أن يدخل ميدان النقد بكلمة وجيزة يقول فيها : « ولا شبهة في أن كثيراً من منقولاته وأحكامه يفتقر إلى التحقيق والتحصيص ، ولكن ذلك يكون بعد هذا الجمع والتبويب . . » ويلاحظ ما في هذه الكلمة من كياسة ولباقة ، فقد رضى الناقد هنا بمرحلة الجمع والترتيب - على ما فيها من مآخذ وأخطاء ، على أن يأتي التحقيق بعد ذلك في مرحلة تالية . . . ! والحق أن كلمة الدكتور صروف هنا كانت دفاعاً عن صديق من صديق ، في معركة سل عليه النقد فيها سيوف تقدم !

وتجلى الروح العربية الخالصة في مؤلفات زيدان عامة ، وفي « تاريخ آداب اللغة العربية » خاصة ، فهو يدافع عن العرب في كل موقف ، ويغلي في تقديرهم إلى درجة كبيرة ، ويضعهم من حيث الثقافة والعقيلة في مستوى لا يقل عن مستوى الأمم ذات الحضارات القديمة كال يونان والرومان ، وينفى عنهم ما قد توهمه البداوة جهالة وتخلفاً . فيقول مثلاً في موضع الحديث عن درجة ارتقاء عقولهم : « وقد يتبادر إلى الأذهان أن أولئك البدو كانوا أهل جهالة وهمجية ، لبعدهم عن المدن وانقطاعهم للغزو والحرب . . . ولكن يظهر مما وصل إلينا من أخبارهم أنهم كانوا كبار العقول ، أهل ذكاء ونباه واختبار وحكمة . وأكثر معارفهم من ثمار قرائنهم ، وهي تدل على صفاء أذهانهم ، وصدق نظرهم في الطبيعة وأحوال الإنسان ، مما لا يقل عن نظر أعظم الفلاسفة »^(١) ويذهب في تقدير حكمتهم درجة أخرى أكثر إغلاء في المرمي ، فيمدحهم زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة بما « لا يقل شيئاً عن أحكام أكابر الفلاسفة . . . »^(٢) .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية - الجزء الأول - طبعة سنة ١٩٥٧ - ص ٣٤ . (٢) المصدر نفسه ص ٣٥ .

لصديق حسن خان القنوجي الهندي من علماء المسلمين في القرن التاسع عشر .

وعاد جرجي زيدان بعد قليل ليصحح الرأي في هذا الموضوع الذي أثاره فقال إن هذه الكتب وأمثالها تعد من المآخذ الأساسية لدرس آداب اللغة ، ولكنها لا تصح أن تسمى تاريخاً لها بالمعنى المراد بالتاريخ اليوم^(١) وتتجلى القيمة الحقيقية لكتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجي زيدان في مزايا كثيرة تنكشف بأدنى نظرة عند القارئ المحقق المتفطن لقيمة ما يقرؤه ، وأول هذه المزايا ما هدف إليه جرجي زيدان من « بيان منزلة العرب بين سائر الأمم الراقية ، من حيث الرقي الاجتماعي والعقلي » . ولم يتخل هذا الهدف عن عيني « زيدان » لحظة واحدة في خلال الألف وخمسمائة صفحة التي يحتويها هذا الكتاب الضخم .

على أن جرجي زيدان لم يكتف - في معرض إثباته الحقيقة العقلية العربية الخصبة - بتقريرها فقط ، ولكنه يثبت بالوقائع والأدلة ما تقلبت عليه عقول العرب وقرائحهم ، وما كان لهم من أثر في العصور المتعاقبة عليهم ، وما كان لتلك العصور وأحداثها من أثر في تاريخ تطورهم العقلي والحضاري .

ولا يكتفى صاحبنا بالوقوف عند هذا الحد أو بلوغ هذا المبلغ ، ولكنه يقف عند كل علم من علوم العرب وقفة طويلة مستأنية ، يتابع فيها نشأته ، وتطوره ، ويراقب - مراقبة دقيقة واعية - نموه ونضجه وتشعبه وتحلله أو ازدهاره . فعل ذلك في الشعر الجاهلي ، وفي العلوم الطبيعية والرياضية في العصر الجاهلي ، وفي الخطابة في الجاهلية وصدر الإسلام . وفعل مثل ذلك وأكثر منه في العصر الأموي والعباسي والمغولي والعثماني والعصر الحديث الذي يبدأ منذ بداية القرن التاسع عشر . ففى النحو - مثلاً - نراه يتحدث عن نشأته ، وأول

ثم يمضى جرجي زيدان في إعظام تقديره للعلوم عند عرب الجاهلية فيقرر « أن العرب عرفوا كثيراً من الأمراض ومعالجتها ، وناهيك بما عرفوه وتوسعوا فيه من أحوال الأعضاء وأوصافها ، وهو من قبيل علم التشريح ، وهم يعبرون عنه بخلق الإنسان . وقد ألف أدباء المسلمين كتباً كثيرة في هذا الموضوع نقلًا عن العرب ، سيأتى ذكرها بين مؤلفات أهل اللغة . والمتأمل فيما حوته من أسماء الأعضاء وأوصافها يتبين له أن أولئك الجاهليين كانوا على معرفة بتشريح الأعضاء . . »^(٢) .

وقد بلغ من غلو جرجي زيدان في هذا التقدير أن الدكتور شوقي ضيف - الذي عهد إليه تحقيق الطبعة الأخيرة من « تاريخ آداب اللغة العربية » والتعليق عليها ، والإضافة إليها - وجد نفسه مضطراً إلى أن يعلق على هذا الغلو قائلاً : « ينبغي ألا نبالغ في معرفة عرب الجاهلية بالطب ، فإن ما كان عندهم من ذلك لا يتجاوز ملاحظات أولية بسيطة »^(٣) ! !

ولم يُخلّ جرجي زيدان بين العرب ومعرفتهم لعلم تاريخ آداب اللغة العربية وسبقهم إليه ، كسبقهم في موضوعات أخرى . ويقرر - في هذا الشأن - أن كتب التراجم التي ألفها العرب فيها كثير من علم تاريخ الأدب ، لأنهم يشفعون الترجمة بما خلفه المترجم له من الكتب ، ويبينون موضوعات هذه الكتب ، وقد يجاوزون هذا التبيين إلى وصفها^(٤) . وعد من هذه الكتب المتخصصة في البحث عن المؤلفين ومؤلفاتهم كتاب « الفهرست » لابن النديم ، و « مفتاح السعادة » لطاشكبرى زاده ، و « كشف الظنون » عن أسامى الكتب والفنون » لحاجي خليفة ، و « أبجد العلوم »

(١) المصدر نفسه ص ١٩٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٩ بالمعنى .

(٣) مقدمة جرجي زيدان لكتاب تاريخ آداب اللغة العربية -

من علة ، وأول من ضبط قواعده وألف فيه ، ومذهب البصريين والكوفيين . وكل هذا في معرض الحديث عن النحو في العصر العباسي الأول . فإذا بلغ العصر العباسي الثاني عالج موضوع النحو والنحاة فيه معالجة ملائمة ، فإذا بلغ - بعد عشرات وعشرات من الصفحات - العصر العباسي الثالث تناول موضوع النحو والنحاة فيه على ضوء ما تطور من دراسته ، مع بيان ما حدث فيه من تخلف أو توقف أو ابتكار ، وهكذا يمتضى في بقية العصور حتى العصر الحديث .

وهكذا يتناول الرجل كل علم ، وكل موضوع في كل عصر من عصور الأمة العربية ، فيلقى عليه من الأضواء ما يكشف عن حقيقته ونموه أو تخلفه . ولا يرضى صاحبنا من الحديث عن موضوعات العلوم وفنون الأدب بهذا القدر ، ولكنه يقف عند رجال هذا الموضوع ، أو أعلام هذا الفن ، يترجم لكل واحد منهم ترجمة قد تقصر إلى بضعة من السطور وقد تطول إلى بضع من الصفحات . فترجمته للإمام مسلم صاحب الجامع الصحيح في حديث الرسول عليه السلام تبلغ ستة أسطر^(١) ، وترجمته للمؤرخ الأديب الشاعر صلاح الدين الصفدي صاحب كتاب « الوافي بالوفيات » تبلغ أربع صفحات أو تقاربها^(٢) .

ومن المؤرخين والمؤلفين من يكتفى في تراجمه للرجال بذكر أخبارهم التي ينقلها عن مصادر ومراجع لا يرى ضرورة للإشارة إليها . ولكن جرجي زيدان قد أفاد من المستشرقين في هذه الناحية ، فهو يذكر في كل ترجمة المصادر والمراجع التي يمكن الرجوع إليها لمن يريد أن يتوسع في الموضوع ، أو لمن يريد أن يهتدى إلى مآخذه ومصادره . ولقد كان بعض المؤرخين العرب يكتفى بذكر المصادر والمآخذ جملة في صدر كتابه أو في مقدمته ، كما فعل مؤرخنا المصري

العسقلاني « ابن حجر » في كتابه « الدرر الكامنة » ، في أعيان المائة الثامنة « المطبوع بجيدر أباد الدكن بالهند سنة ١٣٤٨ هـ سنة ١٩٢٩ م . ولكن جرجي زيدان يذكر المآخذ والمصادر عقب كل ترجمة . لكل علم ، شاعراً كان ، أم خطيباً ، أم مؤلفاً ، أم فقيهاً ، أم مفسراً ، أم محدثاً ، أم لغوياً ، أم صحافياً . . .

ولا يكتفى هنا بالمصادر العربية ، ولكنه يضيف إليها المصادر الأجنبية - أوروبية كانت أم أمريكية . ففي ترجمته - مثلاً - للشاعر الجاهلي : « تأبط شراً » يذكر مآخذ الترجمة لحياته على هذا النحو قائلا : « وأخباره في الأغاني ٢٠٩ ج ١٨ ، والشعر والشعراء ١٧٤ ، وخزانة الأدب ٦٦ ج ١ . وكتب عنه بور BAUR بالألمانية مقالة في سيرة حياته وشعره ، في المجلة الشرقية الألمانية سنة ١٨٥٦ »^(١) .

ولا تقتصر المصادر والمآخذ التي يسجلها جرجي زيدان في تراجم الأعلام الأدبية على القديمة ، ولكن الرجل كان متابعاً لأحدث الكتب في وقته . ففي ترجمته للمؤرخ بدر الدين العيني المتوفى سنة ٨٥٥ هـ يضيف إلى مآخذ ترجمته كتاب « الخطط التوفيقية » لعلي مبارك باشا . وفي ترجمته للشاعر الجاهلي : التلمس ، يضيف إلى المصادر القديمة مصدراً معاصراً له وهو كتاب « شعراء النصرانية » للأب لويس شيخو اليسوعي المتوفى سنة ١٩٢٧ .

وحين يذكر جرجي زيدان كتب المؤلفين والأعلام الذين يترجم لهم ، أو دواوين الشعراء الذين يتناولهم بالدراسة ، لا يكتفى بذكر أسماء تلك الكتب وعناوينها ، ولكنه يشير إلى أماكن نسخها الخطية إن كانت مخطوطة ، وإلى أماكن طبعها وتاريخ الطبع إن كانت مطبوعة . وقد استعان في ذلك العمل بالجهد الضخم الذي بذله المستشرق الألماني بروكلمان في كتابه « تاريخ الأدب

(١) الجزء الثاني من تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٤٦ .

(٢) الجزء الثالث - ص ١٧٤ - ١٧٨ .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ١٦٢ .

العربي» . ولكنه لم يكن في الأمر كله عالة على بروكلمان، فقد أفاد من رحلاته وزياراته هو المتعددة إلى مكتبات أوربية كثيرة ، كما أفاد من تردده على « دار الكتب المصرية » واستثناسه الدائم بفهارسها . كما أفاد خاصة من مكتبة المرحوم أحمد تيمور باشا .

وتعد تعريفات جرجي زيدان بالكتب التي خلفها الفكر العربي الإسلامي على مر العصور حتى عصرنا الحديث الذي ظهر فيه كتابه - أدق وأرجز تقويم لهذه الثروة الطائلة من إنتاج الثقافة العربية، والعقلية الإسلامية. فقد يقوم الكتاب أو ديوان الشعر في سطر أو في بضعة أسطر ، أو في صفحة كاملة أو قريب منها ، فيقدم إلى القارئ صورة صحيحة دقيقة عن الكتاب الذي يقومه . ولا شك أن هذا التعريف للكتب التي ظهرت في العربية على مر العصور يعد مرآة صادقة صافية لتطور الحياة الفكرية عند العرب ، كما يعد مقياساً دقيقاً لهذا التراث الضخم ، وميزاناً مضبوطاً لمد التيارات الفكرية العربية وجزرها .

وإذا كان كثير من تلك الكتب التي وصفها جرجي زيدان حتى وفاته سنة ١٩١٤ قد تغير حاله إلى الطبع بعد أن كان مخطوطاً ، كما أن كثيراً من تراجم الرجال قد استحدثت فيها دراسات وكتب جديدة منذ وفاة جرجي زيدان حتى يومنا هذا ، وإذا كانت موضوعات البحث حتى عصر زيدان قد جد عليها دراسات جديدة لم تكن في عهده ، كما أن كشوفاً أدبية ولغوية وتاريخية قد ظهرت في الميدان منذ لقي جرجي زيدان ربه ، فإن طبعة جديدة منقحة مزيدة من كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » كانت ضرورية . ولقد نهض هذا العبء الضخم رجل من علمائنا حمالاً لثل هذه الأعباء، هو الدكتور شوقي ضيف الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

وظهرت الطبعة الجديدة من « تاريخ آداب اللغة العربية » بتحقيقات الدكتور شوقي ضيف وتعليقاته

وتصويباته واستدراكاته وإضافاته الثمينة سنة ١٩٥٧ . ومن عجائب المقدور أن يقوم الدكتور شوقي ضيف بعد أربعة وأربعين عاماً بتحقيق أمانة الدكتور يعقوب صروف التي تمنّاها على المؤلف في حياته بتحقيق الكتاب وتمجيصه . ولا أحسب الدكتور شوقي ضيف قد بلغ الغاية من هذا ، ولكن مجهوده الضخم المضني يظهر واضحاً في كل صفحة من صفحات هذه الطبعة .

ومن مظاهر الروح العلمية في هذه الطبعة الجديدة «تاريخ آداب اللغة العربية» أن الدكتور شوقي ضيف قد أسقط عنصر المجاملة من حسابه ، مع أن ولدى جرجي زيدان هما اللذان ندباه للقيام بهذا العمل . فراه يصح الخطأ في حرية تامة في التعبير . فقد عدّ جرجي زيدان الشاعر « عبدالله بن الدميني » من شعراء الجاهلية . وهنا نجد في الهامش تعليقاً من المحقق يقول فيه : « أخطأ المؤلف في عد ابن الدميني من شعراء الجاهلية ، فهو إسلامي »^(١) . ولا تخفى في سرد أمثلة من هذه التحقيقات الثمينة ، فهي كثيرة واضحة تشهد بعلم المحقق وسعة اطلاعه وطول مراجعته ومعاودته للمصادر والمراجع . ولكن يظهر أن الدكتور شوقي قد أجاز لنفسه التغير والتعديل المطلق في مادة الكتاب . كما فعل في صفحة ٢٤ من الجزء الأول - مثلاً - فقد أباح لنفسه أن يصلح قليلاً في النص كما يعترف هو نفسه في الهامش . بل جاوز الدكتور شوقي ضيف الحد في صفحة ٢٤٦ من هذا الجزء أيضاً ، فوضع أسماء أربعة من رجال الحديث المشهورين في العصر الأموي بدلاً من أربعة آخرين مغمورين وضعهم جرجي زيدان في الطبقات السابقة . وكان من الممكن أن يبقى الدكتور شوقي ضيف الأسماء الأربعة التي وضعها زيدان في صلب الكتاب ، وأن

(١) تاريخ آداب اللغة العربية - ج ١ ص ١٧٨ .

رابعاً : نصوص مختارة

لعل كلام جرجى زيدان نفسه عن « تاريخ آداب اللغة العربية » وأقسامها يكون أصدق تعبير عن قضية كان الرجل أول من حمل لواءها بشمول واتساع وتفصيل ، فلنسمعه هنا يقول : (وإذا نظرنا إلى آداب اللغة العربية وأخواتها الساميات ، رأيناها تنطبق على ما تقدم بوجه اجمالى . أما عند التفصيل فأننا نجد بين آداب هذه اللغات وتلك فرقاً كالفرق بين طبائع الأمتين . فالشعر عند الساميين أقدم آدابهم ، لكن أكثره غنائى ، وليس فيه من الشعر القصصى إلا نصف قليلة . أما التمثيل فظهر لأول وهلة أنه بعيد عن آداب العرب ، وسرى أنه موجود فيها . . . ولا غرو إذا امتازت اللغات الأوربية بالشعر القصصى والتمثيلى ، فإن اللغة العربية وأخواتها تمتاز بنوع من الآداب كبير الأهمية ، ليس منه فى لغات الأفرنج إلا نصف ، نغنى « الأمثال » فأنها جزء مهم من آداب اللغات السامية ، ولا سيما العربية والعبرانية ، وتندر فى سواها .

وآداب اللغة العربية التى هى موضوع هذا الكتاب أغنى سائر الآداب السامية ، بل هى على الإجمال أغنى آداب سائر لغات العالم . . . لأن الذين وضعوا آدابها فى أثناء التمدن الإسلامى أخلاط من أم شتى جمعهم الإسلام أو الدولة الإسلامية : وفيهم العربى والفارسى والتركى والهندي والسورى والعراقى والمصرى والرومى والأرمنى والبربرى والزنجى والصقلبي وغيرهم . . . وكلهم تعربوا ونظموا الشعر العربى ، وألفوا الكتب العربية ، فى الأدب والنحو والتاريخ والطب والعلم والفلسفة ، فاحتوت آداب اللغة العربية بسبب ذلك على أحاسن القرائح ، وشتات الأخلاق والآداب والطبائع ، وأدخلوا فيها كثيراً من أساليب ألسنتهم الأصلية بدون قصد أو تعمل .

يضع فى الهامش الأسماء الأربعة التى يراها أولى من غيرها . . .

وكما أجاز الدكتور شوقى ضيف لنفسه الزيادة - حيث لا تجوز الزيادة - فى الكتاب ، فإنه أجاز لنفسه الحذف ، والحذف الكثير ، بلا داع يبرره ، ولا سبب يسوغه . ففى مقدمة جرجى زيدان للجزء الثالث التى يرد بها على منتقديه ، نرى المحقق الفاضل يحذف ما يقرب من أربع صفحات تتناول موقف الرجل من المنتقدين ، كما تتناول موضوع انتقاد « تاريخ آداب اللغة العربية » وأسماء ناقديه وإيجاز الرد عليهم . ولا يفوتنا هنا - للتاريخ فقط - أن نذكر أسماء هؤلاء المنتقدين ، وهم الأب لويس شيخو اليسوعى الذى نشر نقده فى مجلة المشرق ، والسيد كاشف الغطاء الشيعى النجفى وقد نشر نقده فى مجلة « العرفان » التى كان يصدرها أحمد عارف الزين فى صيدا ، والأب أنستاس مارى الكرملى ، وقد نشر نقده فى مجلة « لغة العرب » التى كان يصدرها فى بغداد ، وأستاذنا المرحوم الشيخ أحمد الأسكندرى الذى نشر نقده فى مجلة « المنار » فى سنتها الخامسة عشرة والسادسة عشرة .

ونعود هنا فنؤكد قضية اهتمام جرجى زيدان بالنقد وإيمانه بفائدته وعدم ضيق صدره به . ومن مآثراته فى هذا السبيل قوله : « لا جدال فى أن الانتقاد أكثر فائدة من التقرير ، وقد يتبادر إلى الأذهان أن انتقاد الكتب يحط من قدرها أو يذهب بفضل أصحابها ، وهو خلاف الواقع . وإذا رأينا له مثل هذا التأثير أحياناً فلأن الكتاب المتقدم لم يكن يستحق عناية المنتقدين . ولو ترك بلا انتقاد لكان أسرع إلى السقوط . أما الكتب الهامة فأنها تزداد بالانتقاد شيوعاً ورواجاً ، ويزداد أصحابها رسوخاً فى عالم الشهرة »^(١).

(١) تاريخ آداب اللغة العربية - ج ٣ ص ٤ .

ونريد بتاريخ آداب اللغة العربية بسط ما تقلبت عليه اللغة وآدابها من أقدم أزمانها إلى الآن . . . فهي - بهذا الاعتبار - تقسم إلى أطوار ، لكل منها شأن يمتاز عن سواه ، وقد لاحظنا في تقسيم هذا التاريخ ما توالى على الأمة من الانقلابات السياسية أو الأدبية ، وما كان من تأثير ذلك على المواهب والقرائح .

ويمكن قسمة تاريخ آداب اللغة العربية حسب علومها وآدابها ، أو حسب الأعصر التي توالى عليها . ونريد بقسمتها حسب العلوم أن نستوفى الكلام في كل علم على حدة من نشأته إلى الآن ، على أن نبدأ بأقدمها ، وننتدرج إلى أحدثها ، فنبدأ بآداب الجاهلية ، فنذكر تاريخ الشعر مثلاً وتراجم الشعراء من نشأته ، وما تقلب عليه من الأدوار في الجاهلية والإسلام إلى اليوم . ونفعل مثل ذلك في الخطابة وغيرها من آداب الجاهلية ، وبالرفقة والتفسير والأدب والنحو واللغة وغيرها من الآداب الإسلامية . وهكذا نفعل بالعلوم الدخيلة منذ دخولها وما تقلب عليها إلى الآن .

أما قسمتها حسب العصور ، فيراد بها الكلام عن العلوم كلها معاً في كل عصر على حدة . وهذا الذي اخترناه في هذا الكتاب ، لأنه يصور حالة العصور المختلفة ، وما يكون من تأثير السياسة وانقلاباتها في العلم والأدب . ولذلك فقد قسمنا تاريخ آداب اللغة العربية إلى قسمين كبيرين ، يفصل بينهما أهم انقلاب أصاب العرب من أول عهد تاريخهم إلى الآن . . . نغنى ظهور الإسلام . فهي بهذا الاعتبار تقسم إلى آداب اللغة قبل الإسلام وآدابها بعده . وقسمنا آدابها قبل الإسلام إلى عصرين : عصر الجاهلية الأولى ، وعصر الجاهلية الثانية ، وقسمنا تاريخها بعد الإسلام إلى أعصر أو أطوار ، تناسب انقلاباتها السياسية أو الاجتماعية ، وهي :

١ - عصر صدر الإسلام .

٢ - العصر الأموي .

٣ - العصر العباسي .

٤ - العصر المغولي .

٥ - العصر العثماني .

٦ - العصر الحديث .

وقسمنا العصر العباسي إلى أطوار بحسب التقلبات السياسية كما ستراه في مكانه (١) .

وننتقل من هذا النص إلى نص آخر يعرف فيه جرجي زيدان الشعر ، فيقول : (الشعر من الفنون الجميلة التي يسميها العرب الآداب الرفيعة ، وهي الحفر والرسم والموسيقى والشعر . ومرجعها إلى تصوير جمال الطبيعة . فالحفر يصورها بارزة ، والرسم يصورها مسطحة بالأشكال والخطوط والألوان ، والشعر يصورها بالخيال ، ويعبر عن إعجابنا بها وارتياحنا إليها بالألفاظ ، فهو لغة النفس ، أو هو صورة ظاهرة لحقائق غير ظاهرة . والموسيقى كالشعر . . . هو يعبر عن جمال الطبيعة بالألفاظ والمعاني ، وهي تعبر عنه بالأنغام والألحان ، وكلاهما في الأصل شيء واحد .

هذا هو تعريف الشعر في حقيقته ، ولكن علماء العروض يريدون بالشعر الكلام المقفى الموزون ، فيحصرون حدوده بالألفاظ ، وهو تعريف للنظم لا للشعر . . . وبينهما فرق كبير ، إذ قد يكون الرجل شاعراً ولا يحسن النظم ، وقد يكون ناظماً وليس في نظمته شعر . . . وإن كان الوزن والقافية يزيدان الشعر طلاوة ووقفاً في النفس ، فالنظم هو القالب الذي يسبك فيه الشعر ، ويجوز سبكه في النثر .

وقد تقدم ابن خلدون خطوة أخرى في تعريف الشعر ، فقال : « الشعر هو الكلام المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ،

فلا أدخل الدار حتى أنسى ما جئت له « فهذا معنى
شعرى ترتاح إليه النفس ، لكن ارتياحها يكون أكثر
إذا نظم ذلك المعنى شعراً ، كقول المجنون :

فيا ليل ! كم من حاجة لى مهمة
إذا جئتكم بالليل لم أدر ما هيا
ويكون وقعه فى النفس أشد إذا غنى عن لحن
مطرب .

وعلى ذلك فيدخل فى الشعر كثير من أقوال العرب
التي نعتها من قبيل الأمثال أو الحكم المأثورة المبنية على
الكناية ، كقولهم : « المرء بأصغريه لا يبرديه ، وعاد
الأمر إلى نصابه ، وصاحبت عصافير بطنه ، ونحو
ذلك » .

فالشعر بالمعنى لا بالوزن والقافية . . . وقد رأينا
بعض متقدمى العرب يرون هذا رأى فى تعريف
الشعر : فقد قال بعضهم : « الشعر كلام وأجوده
أشعره » ولم يقيد بالوزن ولا القافية . وقال آخر :
« الشعر شئ عجيب به صدورنا ، فننفضه على ألسنتنا » .

الجارى على أساليب العرب المخصوصة به « فهو يجعل
التضفية والوزن من شروط الشعر ، ويشترط أيضاً
استقلال كل بيت منها بغرضه ، وهو تقييد لا باعث
له ، إذ قد ترى فى الكلام المنثور معانى تؤثر فى نفسك
تأثير الشعر ، وذلك كثير فى كلامهم ، والحكم فيه
للدوق . ومن أصعب الأمور أن نعرف الشعر ، ونجعل
له حدوداً جامعة مانعة ، كما نعرف الصرف أو النحو
أو الفلك أو غيرها من العلوم والآداب . ولكنك إذا
قرأت قولاً فيه خيال شعرى تعرفت الشاعرية فيه ،
وشعرت بلذة ذلك التعرف وطربت له . وقد يكون
ذلك النثر قولاً ، وإنما أطربك ما فيه من أساليب الكناية
أو الاستعارة . . . فإذا سبكته فى قالب شعرى زاد
رونقاً وطلاوة ، فإذا غنيت على توقيع الألحان زدت
طرباً به . فالوزن يزيد الشعر طلاوة : من قبيل التوقيع
الموسيقى فى الألفاظ والحركات ، لا من قبيل المعنى .
فإذا قرأنا لبعضهم نثراً يصف به ذموله فى الحب ،
فيقول : « إذا جئت دار الحبيب ليلاً لحاجة لى أنتمسها ،



أدولف لبنيامين كونستان

بمستم

الأستاذ أحمد رشاد

رجل غير واقعي .

(Mme de Charrière) التي اعتاد استشارتها في أموره

بقوله : « رغم إفهامهن أني لا أكن لمن إلا الصداقة ، كن بطلين مني الزواج مبديات استعدادهن للتضحية من أجلى حتى بشرفهن وبكل ما يمكن . . . » .

وفي الواقع ، كان بنيامين يميل إلى الترويح الذهني أكثر من ميله إلى لذة الشهوة الجسدية . وإن صادف وهزته هذه الشهوة ، جعل استمتاعه بها مع بنات الهوى . كان كل همه التفتن في المغازلة التي يسميها مونتيكيو « بالحب الكاذب » .

إن تشاؤمه ، ورخاوته ، وتردده ، وسرعة غضبه ، وخوفه من المسئولية وقلقه المستمر من الخديعة ، شحنت حياته بالمضايقات والمتاعب والفشل ، وجعلت منه « رجلاً غير واقعي » على حد تعبيره .

إن هذا الكاتب - السويسري المولد ، الفرنسي الثقافة ، الإنجليزي النزعة - ليس إلا مجموعة من المناقضات . وهو يعترف بأنه لم يلق طعم الخنان في صباه - وهي الحقيقة - ولكنه بمجرد أن يشعر بالشفقة عليه من أحد ، يسخر منه ويهزأ به . وبينما يصرح بأنه يكره الحياة ويحترها ، يتهمها بأنها لم تجلب إليه الرفعة المنشودة ، ولا علو الصيت المرتقب . وأنه إن دافع عن

بجمل بنا في مقدمة هذه الدراسة ، قبل أن نرفع الكلفة بيننا وبين بنيامين كونستان (Benjamin Constant) القول بأن هذا الرجل الذي كان يفتخر بخبرته في فنون الغرام ، وأنه اتخذ الهيام هادياً ورسولاً ، لا يجد في نظرنا مكاناً له بين كبار الأحبة ولا مجلساً له مع أهل الهوى .

لا نريد اتهامه باتخاذ ربات الخنجال سيلاً للتسلية ، وإنما نلظنه يعتبر النساء - على الأقل اللاتي عاشرن - زميلات مرفهات أو صديقات في وسعهن منافسته في ذكائه . كان حبه لمن يلبس ثوب الصداقة أكثر من رداء الشهوة ، وكان يميل إلى رؤية نفسه محبوباً أكثر منه كونه محباً ، ليكون دائماً في مأمن من حرارة الحب أو الإطالة في عمره .

وسنراه في الثلاثين من عمره وسط صديقات تحاول كل واحدة منهن أسره بسحرها وإلحاحها ، لتجعل منه شريك حياتها ، ناسية أنه حريص كل الحرص على التمتع بحريته ، وأن إلحاح النساء عليه في مجال الغرام جعله يفتح مدام دي شاربير

له ، بفضل طول الصبر والثبات . ويعلق كوندستانت معترفاً بدوره : « إن منظر تلك السعادة جعلني أندم على عدم بحثي عن مثلها ، فلم أكن بعد قد اتصلت بامرأة استطاعت بحبا لي ارضاء كبريائي . . . وأمام اضطراب شعوري ، قلت لنفسى : إلا من حبيبة تعشقنى ؟ » .

هل سمعته أيها القارئ العزيز ؟ إن كل ما يصبو إليه ، وكل ما ينشده ، لا أن يحب ولكن أن يرى نفسه محبوباً ! إن المسكين قد فاته أن حبنا لا ينمو ولا يثبت إلا عندما ننسى حبنا الذاتي !

ولنستأنف كلامنا عنه باستشهادات مستقاة من قصته ، إذ يقول : « في اللحظة التي كان قلبي فيها مفتوحاً للحب ، وطموحي توافاً إلى النجاح ، وقع نظري لحظة على الينور (Ellénore) فخلتها خير فريسة لي » . أهذا هو كلام الحب الصادق أم الرجل النهاز للفرص الذي لا يهجم إلا لإشباع هوايته بإيقاع أكبر عدد من النساء في حباله ولا يرغب إلا في اذلال المرأة باسم الحب ؟ ولكن هناك ما هو أسوأ ! إنه كثيراً ما يخلط بين الحنان العميق الصادق وبين عاطفة طارئة لزواج متقلب ، إذ يقول : « إن أية عقبة تقف في سبيل حياتي كانت تورقني . والحب الكاذب الذي كنت أبعده منذ حين ، كان يحيل إلى أني أشعر بلهيه في أحشائي » . والأمر الذي يحيرنا في استجلاء شخصية هذا الرجل الذي اتخذ اللعب بالقلوب هواية ، هو قوله في قصة « أدولف » : « الويل للرجل الذي لا يعتقد في أبدية رابطة الحب » . ثم هو يقول مستأنفاً الكلام عن مغامراته مع الينور : « وكنت أشعر بأن رابطة حبنا لا يمكن أن تلوم » .

وإذا عارضنا أحد في هذا الحكم متعللاً بأن هذا الشعور إنما ينطبق على أدولف بطل الرواية ، لا على بنيامين ، فارجوه الاطلاع على المذكرات الخاصة التي

قضية عادلة ، فسرعان ما ينفد صبره ويعطل ذلك بقوله : « إن الكفاح يتعبني ، وكل ما أريده هو الراحة » . وأنه إن تفرغ في مساعدة إخوانه ، فن باب المحاملة لا الحب . وأنه إن افتخر بحريته الشخصية ، نجده أسير النساء ، أسير الميسر وضحية التقلبات السياسية . وأنه إن أكد بأن العقيدة لم تجد سيلاً إلى قلبه وأكب على تأليف المجلدات ضد الأديان ، نراه يعترف للدوق دي بروي (Duc de Broglie) قائلاً : « لقد جمعت حوالي أربعة آلاف حادثة تعزز رسالتي ضد الأديان ، لكنني بعد تفكير عميق ، استبعدتها لعدم جدواها . وأنه إن تاق إلى رؤية اسمه يلمع بين أهل عصره ، وأفكاره تملأ صدورهم ، نراه يعترف وهو في سن السابعة والثلاثين قائلاً : « لقد ضقت ذرعاً بالعالم وأهله حتى فقدت الأمل في أن يستظرفني أحد ، فيا ليغنى مت قبل هذا ! » وأنه إن انتظر طويلاً للثور على زوجة شابة جميلة لطيفة كفيلة بضمان حياة رتيبة له ، نجده يتزوج لأول مرة بامرأة دميعة لا يحبها ولا يحفظه بالغيب . ثم يتعلق بصديقة قدمه ، يتركها مدة ، ليتزوجها بعد خمسة عشر عاماً . وأنه كان يمثل عدم الاستقرار ، ولكنه بدل الاعتراف بذلك ، يحاول التخلص من هذا العيب ليقع في أعمال صبيانية ومهاترات تافهة .

ولكي نعطي صورة واضحة لحكمتنا هذا عليه ، فلا يسعنا إلا أن نتركه يتكلم عن نفسه . إنه يقول في مذكراته : « إن ذكرى عشرين عاماً من حياتي قد ضاعت وأصبحت ملكاً لمن استحوذ عليها دوني ، الأمر الذي سيجعلني أحقر نفسي وسيبسط من همتي إلى اليوم الذي تتغلب فيه عزمي على ترددي » . ولكننا سنرى أن هذا التردد المزدول الذي يسميه « بعلاب الحياة الأكبر » سيلازمه طيلة حياته دون استطاعته التخلص منه .

ونراه في كتابه « أدولف » (Adolphe) يقص علينا اعترافات أحد أصدقائه نجح في الفوز بحب امرأة

كتبها المؤلف والتي يقول فيها بالحرف في سنة ١٨٠٧ :
« سأبدأ بكتابة قصة هي في الواقع تاريخ حياتي » .

ولا نريد أن يعتقد القارئ أننا سنلازم هذه القسوة
في الحكم على عواطف وتصرفات بنيامين كونستان ،
الرجل ذى القلب الرحيم الذى ذبل قبل الأوان ،
وصاحب القريحة الوقادة ، والمثلل السريع ، بل إننا
نطمئن القارئ بأن الرجل يستحق أن نبعد عنه كل
ما من شأنه أن يقلل من مكانته ، لأنه في الحقيقة ، رغم
ما فيه من تباين في الصفات والأخلاق ، يعتبر كاتباً
ماهراً يتمتع بسليقة الأديب ذى الأسلوب الساحر
الأخاذ . وسنرى بانه كفيل بأن يجلب له الغفران على
زلاته . ولا يجد القارئ متعة في قراءة أروع مؤلفاته
فحسب ، بل يجد لذة في استعادة قراءتها . كما أن ذبل
الكلمات التي سنسردها فيما يلي ، خير شفيق للتغاضي
عن أخطائه وأطوار طيشه : « إنني أمقت كل مدح
يتلمس العذر لإعجابه بمنطقه . إنني أمقت كل غثال
يدير دقة الحديث حول نفسه ، ويحلل للسامعين
شخصيته بدلا من الاعتراف بأخطائه . إنني أمقت ذلك
الضعيف الذى يلقي تبعية ضرر ضعفه على الآخرين
ولا يعترف بأنه هو مصدر ذلك الضرر » .

إن ما يضيف على بنيامين كونستان صبغة العظمة
ويرفعه في أعيننا هو قضاؤه سنى الصبا وأطوار الشباب
دون عقاب يكبح جماحها . وليس الخطأ من عنده ، بل
يقع التخصير على أولئك الذين كان من واجهم السهر
على تربيته . ومع ذلك فهو لا ينحو باللائمة على أبيه
ولا على مدرسه رغم أنهم جميعاً أفرغوا في قلبه الشك
والجحود بالإيمان في سن يكون فيها الشباب عادة مغم
القلب بالتفاؤل وقوة الإيمان . لهذا لا يجب علينا أن
نرى فيه بعين الدهشة ، تلك الطبيعة المعقدة وميله إلى
التهور أكثر من التؤدة ، وإلى التردد أكثر من الثبات ،
وإلى الاندفاع أكثر من الخزم !

ويرى بعض النقاد في بنيامين الرجل الجاف الذى
لا يعرف الرحمة ، ولكنه في الواقع ، كان يخفى وراء
ذلك قلباً روئوفاً مليئاً بالطفية . وهو يكره في الرجال
تظاهرهم بأحاسيسهم وتأثرهم وحدهم على صاحب
المصيبة لأن غرضهم في نظره ، لا مشاطرته أحزانه
وأتراحه ، بل إلباس فداحة الأمر ثوب التفاهة . ويقول
في مذكراته : « إنني من أولئك الذين يحترمون آلام
الغير ، وأدعو الله أن يحفظني من إطفاء لهيبها في قلوبهم
بعبارات المواساة التقليدية ، لأنها في نظري تدنيس
للك الآلام . ولا يثيرني شيء أكثر من رضا المكولوم
عنها » .

ونجده في اعترافاته رجلاً متساعماً ، يميل إلى الصلح
والمصالحة ، ولولا رجاحة عقله لظننا يؤمن بالقضاء
والقدر وما كتب على الجبين ، وهو يقدر ضعف
الإنسان ، لذلك فهو يترقب به ويعلم عليه . ويقول في
هذا : « لا يوجد الرجل الكامل ولا يمكن أن يكون
الإنسان صريحاً كل الصراحة ولا خيئاً كل الخبث » .
ويؤثر عن مونتني (Montaigne) قوله : « إن
الإنسان متباين الصفات ومتلون الأخلاق » . وإذا كانت
هذه الصفة لا يمكن خلعها على كل إنسان فإنها تنطبق
تماماً على بنيامين كونستان ، ذلك المخلوق الهوائي
المزاج ، الرقيق العاطفة الذى تسيره الأهواء كيف
شئت ، لا يعرف ماذا يريد ، ولا يدري ماذا يفيد ،
كأنه لعبة في أيدي الظروف ، يدس نفسه في مآزق
ولا يستطيع الخروج منها حتى يخجل لناقديه أنهم أمام
رجل زئبقى ، يفلت من بين الأصابع ، أو رجل غامض
لا يمكن استشفاف أفكاره ونواياه ، أو استكشاف
اعوجاجه وانحرافاتة !

وكتب عن نفسه في ذات يوم يقول : « لقد همتني
الحياة وجوها الذى يخفى كل موهبة . . لا أدري كيف
أصف سرورى لوجودى وحيداً . . . إن العزلة هي
دوائى الوحيد » .

١٧٤٢ ، فقد لفظت أنفاسها الأخيرة بعد وضعه بأسبوعين .

قضى الصبي شبابه دون أن يشعر بأى عطف أو حنو ، كما سبق أن قلنا . ولم يستطع أبوه أن يسهر على تربيته أو يسدئ إليه النصائح لكثرة تنقلاته وما اتصف به من خجل مشوب بكبرياء ، وسماحة ممزوجة بخشونة فضلا عن عدم وجود تجارب نفسى بينه وبين ابنه .

ترعرع الشاب بين أيدي عدد من المدرسين والمربين غربي الأطوار والأحوال : كان مربيه الألماني يضربه ويركله ثم يحنو عليه ، وكان مدرسه الفرنسى لا يعتقد فى الأديان ويميل إلى الفسوق ، وكان أستاذه البلجيكى موسيقاراً ضعيف العزيمة يترك تلميذه يلتهم المؤلفات المفسدة للأخلاق . وهناك مدرس فرنسى آخر هجر المحاماة للتدريس وحكم عليه بالنفى ، كان يرغم الشاب على نقل مسودات مؤلفاته التاريخية التافهة ، وراهب فرنسى ترك التعبد ، مثقف ومجامل إلا أنه كان خائر الإرادة انتهى به الأمر إلى الانتحار من أجل حب فتاة .

هكذا تناولت تربيته عدة أبدى متنافرة متناقضة إلى أن رأى والده إلحاقه بجامعة أكسفورد بالإنجلترا . ولكن تبين له أن الجامعة لا تقبل إلا من بلغ العشرين عاماً بينما ابنه كان لا يزال فى الثالثة عشرة . عاد به أبوه إلى سويسرا حيث كلف به أحد المدرسين لتثقيفه ، ثم أخذه بجامعة ارلنجن (Erlangen) فى سنة ١٧٨٢ . أظهر الفتى ذكاء ومثابرة فى تحصيل العلم ولكنه كان على جانب كبير من « الشقاوة » الأمر الذى جعله يترك ألمانيا ويلحق بأبيه الذى أدخله جامعة ادنبرج لاستكمال دراسته ، وكان عمره ستة عشر عاماً .

أقام الفتى عند أستاذ فى الطب يؤجر غرفة فى بيته لبعض الطلبة . ونشأت بين كونستان وبين زملائه صداقة أدت إلى قيام محاورات ومناقشات وتحقيقات

ولعله كتب هذا وهو يفكر فيما قاله بسكال (Pascal) بأن المصائب تنصب على رأس الإنسان ، لأنه لا يعرف كيف يستجم فى غرفة . ولو أن كونستان التزم هذا العلاج لكفانا مؤونة البحث عن دراسة سكناته وحركاته لفهمه .

حياته وآثاره

كان هذا الكاتب ، بملامحه النبيلة ، ووجهه المعبر ، وشعره الأحمر المتجمد ، وعينه الصغيرتين ، وقامته الطويلة المنحنية ، وكففيه الضيقتين ، وساقيه الرقيعتين ، يخفى فى ثيابه أكثر من رجل عظيم ولكنه لم يكن واحداً منهم ، وعاش أكثر من حياة ولكن لم يستفد بواحدة منها . لقد سار وراء الحب دون أن يصل إليه ، وحاول الاعتقاد بأنه يعيش ولكن إله الحب كان لا يثق فى تصرفاته ، فأصم أذنيه لكى لا يستمع إلى نداءاته الوطنية . ويرجع ذلك إلى ميله لجلب العراقيل لنفسه ، والوصول إلى غايته عن طريق الأشواك ، والتصرف دون النظر فى العواقب أو الشعور بالمسئولية فى أموره وأحواله ، حتى ليلدو كأنه شخصية « فودفيل » . فغامراته تنتهى عادة بمبارزة أو بانتحار غير موفق ، بل إنك لا تعرف أكان صريحاً فى شعوره أم مخائلاً ، صادقاً أم كاذباً . ومن أقواله عن نفسه : « إن خير صفة خلعتها على السماء هى أنى جعلت من نفسى مادة للسخرية ! » وكان يجدر به أن يضيف بأنه يجد لذة فى جعل الآخرين مادة لسخريته .

ولد فى لوزان يوم ٢٥ من أكتوبر سنة ١٧٦٧ من أسرة فرنسية بروتستانتية الأصل ، استقرت فى هذه المدينة منذ أوائل القرن السابع عشر . كان والده جوست كونستان دى ريبليك (Juste Constant de Rebecque) من مواليد سنة ١٧٢٦ يعمل ضابطاً برتبة يوزباشى فى فرقة سويسرية تابعة لهولندا . أما أمه هنرييت دى شانديو (Henriette de Chandieu) ، المولودة فى عام

عن الفن والأدب والفلسفة . ولكنه تعرف في هذه الأثناء ، للأسف ، بموسيقار إيطالي تعلم منه لعب الميسر أكثر من فن الموسيقى . وتعلق بهذا الداء إلى آخر يوم في حياته .

وبعد إقامة سنة ونصف في اسكوتلندا ، توجه إلى باريس في مارس سنة ١٧٨٥ بناء على رغبة أبيه ، وكان يبيت في دار الكاتب جان باتست سوار (Jean-Baptiste Suard) ويتلاقى مع زواره الأدباء . ووكل به المسيو بوميه وهو رجل تافه محتال ، فكان يطوف به على المواخير ويوت الدعارة ، وعلم والده بالحياة التي يعيشها ابنه فأمره بالذهاب إلى بروكسل حيث نبض قلبه بأول حب .

• • •

هام بنيامين كونستان بمدام جوهانو (Mme Johannot) البالغة من العمر ثلاثين عاماً، وهي سويسرية ساحرة الجمال على قسط وافر من الذكاء ، متزوجة من رجل أعمال عين بعد الثورة الفرنسية نائباً في الجمعية الثورية . كان هذا الحب يقوم على الفضيلة ولم يدم إلا دوام صحابة الصيف .

تلقى بنيامين أمراً من أبيه يحتم عليه العودة إلى سويسرا . فأقام في مدينة لوزان وأكب على الدراسة وبدأ يكتب « تاريخ الوثنية » متأثراً بأفكار الفيلسوف الفرنسي هلفيسوس (Helvétius) صاحب كتاب « الروح » .

دخل قلب الفتى حب جديد في شخص مدام هاريت تريفور (Mme Harriet Trévor) وهي سيدة انجليزية في الخامسة والثلاثين من عمرها ، افرقت جسدياً عن زوجها ، سفير إنجلترا في تورينو بإيطاليا . كانت لا تزال تتمتع بحسن نادر وجمال أخاذ ، وكان لها أكثر من معجب . انضم بنيامين إلى جماعة المعجبين بهذه السيدة وأرسل إليها كتاباً بث فيه غرامه وشرح لها

النيران المتأججة في فؤاده من أجلها ، فلم تقبل إلا صداقته بينما كان يطمع فيما هو أكثر من الصداقة ، فذهب إليها وارتقى تحت قدميها في تمثيلية عجيبة ، ثم راح يضرب رأسه في الحائط ، مما جعل مدام تريفور في وضع محرج دفعها إلى تهديته ونصحه ، لكنه انصرف مهدداً بالانتحار . لم ينفذ تهديده هذا ، بطبيعة الحال ، كما لا يخفى على القارئ ، وراح يردد عليها مكثفاً بالصداقة .

ولقد ذكرها في كتيبه المسمى « الكراسي الحمراء » (Le Cahier Rouge) الذي حرره سنة ١٨١١ وقص فيه الحوادث التي مرت به في العشرين سنة الأولى من عمره ، ويقول عن هذه السيدة : « كانت تستقبلني في بيتها ونمكث منفردين فيه حتى الثالثة صباحاً دون أن يحدث بيننا أى شيء ، فقد كنت خجولاً للغاية رغم غرامي الشديد بها . ولم أكن أعلم وقتئذ أنه كان يجب على أن آخذ ثمرة الحب غلاباً لا استجداء . كنت أستجدي ، في الواقع ، ولا أنال شيئاً إطلاقاً . كانت مدام تريفور تنظر إلى كعشيق من طراز فريد . ولما كانت النساء عادة يحبن كل ما يشبع غروهن ، فلم تستنكر تصرفاتي وتعودت عليها » .

لم تدم هذه الصداقة وانتهت عند عودة بنيامين إلى باريس بأمر والده .

مدام شارير وكونستان

تعرف بنيامين أثناء وجوده في العاصمة الفرنسية ، بسيدة تتمتع بقلدر وافر من الثقافة والذكاء أثرت في مصيره تأثيراً ملموساً ، هي مدام دي شارير (Mme de Charrière) الهولندية الأصل البالغة من العمر سبعة وأربعين عاماً ، بينما لم يكن فتانا قد ناهز العشرين . كانت لا تزال محتفظ بقسط كبير من الجمال والدلال . تزوجت هذه السيدة بعد الثلاثين من عمرها برجل سويسري له أملاك شاسعة ، رفيق الطباع لكنه فاتر

الشعور ، الأمر الذى جعلها تهرب من الحياة الزوجية إلى الإنشاء والتحرير . وعندما جاءت إلى باريس لطبع إحدى قصصها ، تقابلت مع بنيامين .

ويحق لسانت بوف (Sainte-Beuve) أن يقول بأن هذه السيدة اللامعة ساهمت أكثر من أى إنسان آخر على شحذ قريحة كونستان . ويجدر بنا - وإن بدا هذا غريباً - الاعتراف بأن هذه القريحة كانت مزدانة أصلاً بعدة معلومات ومعارف متنوعة قبل أن يعرف هذه السيدة . فرغم حياته المختلة ومجونه وسهره على موائد الميسر ، استطاع تعلم اليونانية واللاتينية والإنجليزية والألمانية والإيطالية ، وأن ينشر مقالات ذات شأن ، وأن يقرأ عدداً ضخماً من كتب الأدب والفلسفة والتاريخ .

وخلال الأعوام الثمانية التى قضاهما مع مدام دى شارير ، كان إما يرأسها أو يزورها فى ضيعتها بمدينة كولومبييه (Colombier) . ويذكر ذلك فى كتابه « الكراسى الحمراء » حيث يقول : « كم من أيام وليال قضيناها فى المسامرة ! وكم كانت مدام دى شارير قاسية فى حكمها على الناس ، وكم كنت أنا ساخراً بطبيعتى ، الأمر الذى جعلنا فى تجاوب تام » .

مل بنيامين مع طول الوقت تلك المسامرات والأحاديث الجافة الجدية المشبعة بالتشاؤم ، الخالية من الفكاهة والمرونة . أما مدام دى شارير ، فقد فهمت صعوبة الاحتفاظ بجانبها ، بمثل هذا الفتى الطموح القلق المتقلب الملىء بالشهوة ، التواق إلى الحرية ، والاستقلال .

وفرت صلة بنيامين بـ مدام دى شارير عندما تعرف بـ مدام دى ستال (Mme de Staël) ، بيد أن هذا الفتور لم يمنع الصديقة السابقة من الاحتفاظ بالشاب الذى خفف عليها وطأة حياتها الكثيرة ، حتى إنها كتبت فى سنة ١٨٠٥ ، قبيل وفاتها ، تقول عن صلتها بكونستان : « إن من الخيوط ما يكون رقيقاً ودقيقاً

حتى لا يكاد يرى ، ولكن صلابته تجعله لا ينقطع أبداً » .

وعندما علم بموتها صرح قائلاً : « لقد خسرت صديقة وفية وأصبح العالم فى نظرى خالياً من الناس » . إذا كانت مدام دى شارير أثرت فى عقلية فتاها ، فإنها لم تفلح فى التأثير على أخلاقه وطباعه . فهو لا يزال يصرف وقته فى الميسر ويستدين . وأرادت سيدة عجوز تعرف أسرته أن تروجه من فتاة فى السادسة عشرة من عمرها ، جميلة ولها ليراد يبلغ تسعين ألف جنيه سنوياً ، قاصدة بذلك إبعاده عن ذلك الداء . ولكن اتضح أن الفتاة مخطوبة . فما كان من والد بنيامين - على أثر فشل هذا الزواج واستمرار ابنه فى لعب القمار ، إلا أن أوفد إليه رسولا ليحضره إليه ، بيد أن الفتى هرب إلى إنجلترا . والعجيب أنه بمجرد وصوله إلى هناك ، اشترى كلبين وقرداً ! ثم راح يطوف المدن البريطانية بحثاً عن أصدقائه وزملائه فى الدراسة . وانتهى به المطاف إلى اديمبورج .

وأخيراً فكر فى ضرورة العودة إلى والده ، فوصل إليه وكله خوف من عتابه ، ولكنه استقبله دون غضب أو فرح وهو يلعب الورق مع ضباط من أصدقائه ، مبادراً إياه بقوله : « آه ! أنت هنا ! كيف جئت ؟ » فقال : « تارة راكباً جواداً وطوراً عربية » . فرد عليه أبوه قائلاً : « لا شك أنك متعب . اذهب إلى الفراش » . ظل بنيامين ثلاثة أيام فى عزلة تامة ، ثم ذهب لزيارة مدام دى شارير وليبت عمه فى لوزان .

ويجمل بنا القول هنا بأن كونستان كان يكره أسرته ومسقط رأسه لكثرة ما صبه أبوه فى صدره من مساوئ الأرستقراطية السويسرية .

تشریفاتی وزوج

وجد الفتى نفسه فى أوائل سنة ١٧٨٨ محروماً من دفء الحياة العائلية ، مهموماً من تجارب الحب والغرام ،

غادرة تركت معاشرتها له أسوأ الأثر في نفسه ، فأصيب بأزمة تدهورت على أثرها صحته ؛ ولم يكتب من رجال البلاط إلا العداء والحسد ، فقدم استقالته وترك عمله في عام ١٧٩٤ ليعود إلى سويسرا قرير العين لبعده عن عالم لم يهضم أخلاقه وتصرفاته .

ولنذكر هنا أنه قبل مغادرته بلاط الأمير بسنة تعرف بشارلوت دى هاردنبرج (Charlotte de Hardenberg) التي سترأه يتزوجها في عام ١٨٠٨ .

وصال يدوم خمسة عشر عاماً

وصل بنيامين في هذه الفترة من حياته إلى منحن هام حيث تعرف بمدام دى ستال التي فرضت سيطرتها عليه بحدة ذكائها وقوة حيويتها . امتازت هذه السيدة بميول تحررية ، وضمن لها قلمها صيتاً مدوياً في الأوساط الأدبية .

تزوجت في عام ١٧٨٦ من البارون دى ستال هولشتاين (Staal-Holstein) سفير السويد في باريس ، ولم تجد نجاحاً في بلاط لويس السادس عشر . ثم رأت من الحكمة أن تترك العاصمة الفرنسية بعد انهيار الملكية ، فليجأت إلى إنجلترا ، ثم إلى سويسرا حيث جمعت حولها في قصرها بمدينة كوبي (Coppet) عدداً من النبلاء الفارين من وجه الثورة الفرنسية . وفي هذا القصر ، تمت مقابلة بنيامين مع مدام دى ستال لأول مرة في ١٩ سبتمبر ١٧٩٤ .

لاحظت عليه علامات الحجل مما بدا عليه من ارتباك في مشيته ، كما كان مدعاة للسخرية والضحك في نظرها ، بقامته الطويلة وبصره الضعيف ، لكنها غيرت رأيها فيه بعد مجالسته ومحادثته ، إذ اكتشفت فيه المحدث اللبق الواسع الاطلاع حتى إنها طلبت منه العودة إلى زيارتها مرة أخرى .

عاد إليها ليظل معها حتى عام ١٨١٠ . وكثيراً ما حاول بنيامين التخليص من مزاج هذه السيدة الحاد

توافقاً إلى إيجاد عمل شريف يشغله عن قلقه ، وينشله من البطالة التي يعيشها ، لذلك نراه يقبل وظيفة تشريفاتي في بلاط أمير دوقية برانسويك (Duché de Brunswick) شارل الثاني السياسي المرن والإداري المحنك ، والأديب النابه . وبالرغم من تقدير بنيامين لهذا الأمير ، كان يحقت حاشيته ولم ينسجم مع اللئوق الألماني وأحس بكرهية طبيعية لسكان البلد . ويقول في ذلك : « إن الألمان قوم ثقيل في التفكير وفي المزاج وفي التسلية وفي الملل » . وكانت سخرية بنيامين وتصرفاته موضع استياء من النبلاء والعظماء في البلاط ، فكانوا يعاملونه بحفاة وصلابة ، فكان يهرب من الجو بقراءة اليونانية ودراسة تاريخ ألمانيا وركوب الخيل واللعب على البيانو ومكاتبه مدام دى شارير . بدأت خطاباتها تحمل إليه كل حب وحنان ، ثم راحت تظهر شيئاً فشيئاً العتاب ، إذ نجحت الأقاويل الخبيثة المغرضة في بث بنور الشك في قلب هذه السيدة وإضعاف تلك الصداقة الثقية الطويلة .

هكذا وجد بنيامين نفسه في عزلة ، مكوم الفؤاد ، مكسور الخاطر . فقرر الزواج في مايو ١٧٨٩ من وللملين دى كرام (Wilhelmine de Cramm) الوصيصة في بلاط شارل الثاني . لم تكن هذه الزوجة جميلة ، بل بالعكس دميعة تحمل أثر الجدرى في وجهها ، محمرة الأجفان ، نحيفة القوام ، عارية من كل ثقافة ، وفقيرة فوق كل هذا . عاش الزوجان فترة ساد فيها التفاهم . ولكن سرعان ما انقلبت وللملين من امرأة وديعة مطيعة إلى خاتنة لرباط الزوجية مع أمير روسي . وعلم بنيامين بهذا فتركها ثم طلقها في سنة ١٧٩٥ .

إن هذا الشاب الذي جاء إلى ألمانيا في الواقع ليرتب حياته ويضمن لنفسه مستقبلاً باهراً بما حياه الله من ذكاء ، وسعة اطلاع وقوة قريحة ، والذي استقبل الثورة الفرنسية بحماس ، لم ينجح إلا في الارتباط بامرأة

ومباحثاتها ودساتيرها حتى أتعبته وأنهكه إلى درجة جعلته يكتب إلى عمته لتبحث له عن زوجة . لقد مل خليلته الأدبية المتعبة ومل استعبادها له وعدم الاستقرار الذى يعيش فيه ، وإن كان فى قرارة نفسه قد اعتاد على تلك الحياة المضطربة الصاخبة بصالوناتها السياسية ، التى كان يحتدم فيها مع الصحفيين الذين كانوا يعتبرونه فرنسياً دخيلاً .

وفى أوائل عام ١٧٩٧ ، أذنت الحكومة لمدام دى ستال فى الإقامة بمدينة باريس حيث عادت إلى دساتيرها . وهكذا ساعدت باراس (Barras) أحد الأعضاء الخمسة فى « الإدارة » ، فى التخلص من اثنين من زملائه ومن كثير من أعضاء البرلمان . ثم قامت بعد ذلك تناهض الإجراءات التعسفية التى اتخذها باراس ، وتستنكرها بعنف .

ووصف بنيامين أعمالها هذه بالطيش وعدم الروية فصبت عليه غضبها هو الآخر . ورأى باراس أن يتخلص من ثروة ونقد مدام دى ستال ، فأصدر أمره بطردها من الأراضى الفرنسية .

ظل كونستان فى باريس ليحاول أن يبنى عزم باراس ويقنعه بإصدار العفو عن مدام دى ستال . وفى هذه الأثناء تقابل مع سيدة تدعى جولى تالما (Julie Talma) سبق له التعرف بها على أثر عودته من بلاط شارل الثانى .

ويجدر بنا أن نذكر كلمتين عن هذه السيدة التى نجد شها بينها وبين بطلة قصة كونستان المشهورة . ولدت سنة ١٧٥٦ ، ورقصت على مسرح الأوبرا وهى فى التاسعة من عمرها . ثم تزوجت سنة ١٧٩٠ بالممثل الكبير تالما الذى لم يك وفياً لها .

كانت جولى تتمتع بحسن نادر وبجمال وثرأ وثقافة ، راجحة العقل ، قوية العزيمة ، صادقة الحكم ، لمح صالونها خلال حكومة الإدارة . عشقت بنيامين

ولهجتها الآمرة ، ولكن سرعان ما كانت تهيمن عليه فيطيط له المقام بجانبها . كان يشعر بحاجته إلى هذه « المرأة الذكر » ليقوى من عزيمته ويبعد عن نفسه الردد .

وبعد انتهاء عهد الارهاب فى فرنسا ، رأت مدام دى ستال العودة إلى باريس ، ظناً منها أن فى التفاف المعجبين بها وانتشار صيتها ، سيجعل نجمها يتألق فى سماء فرنسا . ولكن سرعان ما خاب أملها ، فعادت أدراجها إلى كوبي فى نوفمبر سنة ١٧٩٥ ، أى بعد شهر من تكوين حكومة الإدارة الفرنسية (Directoire) المكونة من خمسة أعضاء والتى ظلت فى الحكم أربعة أعوام .

لم يذهب بنيامين إلى سويسرا مع مدام دى ستال لاعتقاده أن النظام الجديد سكتب له الحياة . وطلب التجنس بالجنسية الفرنسية بصفته منحدرأ من أسرة بروتستانتيية مهاجرة . ثم اشترى ضيعة بمبلغ ٣٠,٠٠٠ فرنك فى ضاحية باريس .

وظهر أول كتيب له بعنوان « قوة الحكومة الحاضرة فى فرنسا وضرورة الانضمام تحت لوائها » . (De la Force du Gouvernement actuel en France et de la nécessité de s'y rallier) ثم أعقبه بمؤلفين آخرين هما :

« رد الفعل السياسى »

(Des réactions politiques)

« عواقب الارهاب »

(Des effets de la Terreur)

وبعد أن عاد الوفاق بين مدام دى ستال والحكومة الفرنسية ، سمح لها بالعودة إلى فرنسا على ألا تقطن باريس . فأقامت فى ضيعة بنيامين وكان فى نيتها أن تجعل منه وزيراً . وقبل أن تهتم بأمره رأت أن تؤدى خدمة جليلة لصديقها القديم تاليران (Talleyrand) حيث استطاعت تعيينه وزيراً للعلاقات الخارجية ، أما كونستان ، فجعلت منه سكرتيراً فى مساعيا

إنها فتاة متوسطة الحال من أصل أيرلندى ، قامت بترتيبها الدوقة فريتس جيمس (Fritz-James) في لندن حيث تقيم . واجتذبت تيار المدنية وقامت بعدة مغامرات غرامية ، ثم استقرت مع شخص يدعى لاموايون (Lamoignon) أنجبت منه ولدين . وذكرها شاتوبريان في مذكراته قائلاً عنها « إنها سيدة جميلة ساحرة ولكنها ذات مزاج عنيف » .

وعندما أجمعت على الحياة في باريس سنة ١٧٩٩ ، اتصلت بجولى تالما وترددت على صالونها ، وتقابلت فيه مع بنيامين وتبادلا حباً جنونياً . كانت « أنا » تطمح في حياة رتيبة بالزواج من بنيامين ولكنه لم يكن ليفكر في القران بها ، بل كان همه أن يزيد اسمها في قائمة عشيقاته . وتراسلا ، واجتمعا ليفترقا على أمل التلاقى مرة أخرى . وتصرف هذا الرجل لا يدهشنا ، فقد عودنا على تصيده النساء اللاتي يشبهن في أخلاقه وأطواره العجيبة ، ثم تركهن لينساهن في أحضان غيرهن .

بطل التحرير

لترك مغامرات بنيامين في الهوى لتفتى آثاره في مهمته السياسية . لم يحاول التزلف إلى رجال الحكم ، بل راح ينتقد موقف الحكومة من أعضاء المجلس الاستشارى . فهاجم الحكومة لعدم إعطائها الوقت الكافى لرجال المجلس لدراسة القوانين ، وطالب بحقه وحق زملائه في فحص التشريعات فحصاً حراً . كان مذهبه السياسى يركز على الدفاع عن الفرد بما له من حقوق لا تقل عن حقوق الدولة نفسها ، مما أكسبه لقب « بطل التحرير » .

لم يعترف بمبدأ السلطة ولا بمبدأ الأغلبية وإنما مبدأ الاستقلال الفكرى . ومن المأثور عنه قوله في أهمية المعارضة : « ما هى حقوق وواجبات المعارضة ؟ إذا كان وجودنا لا فائدة منه ، فليستغنى عنا . وإذا كانوا

ولكنه لم يشعر نحوها إلا بالصدقة والاحترام ، فاستيقنت أنها لن تستطيع استئالة ذلك الرجل الثائر ، فانصرفت عن حبه . وماتت بمرض ذات الرئة بين ذراعى بنيامين في مايو ١٨٠٥ ، فخلد ذكرها في صفحات جميلة تحمل عنوان « رسالة عن جولى » (Lettre sur Julie) طبعت سنة ١٨٢٩ .

آنا لندسى وكونستان

رجعت مدام دى ستال إلى فرنسا بفضل مساعى بنيامين ، وفي رأسها أكثر من مشروع ، وأولها إيقاع الجنرال بوناپارت في حبالها ، وهو يومئذ أكبر رجل في الجمهورية . وعملت على مقابلته عند تاليران في باريس عام ١٧٩٨ ، وحاولت جاهدة إغراءه بذكائها أكثر من جمالها . ولكنها أخفقت تماماً لأن بوناپارت كان يحقت المرأة التي تشتغل بالسياسة . فتوجهت مدام دى ستال مكسورة خاطر ومهزومة إلى كوبي وبصحبها بنيامين كاتم سرها ووكيل أعمالها ومشاطرها أحزانها وآلامها .

وعندما عاد بوناپارت من مصر وأحدث انقلاب ٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩ الذى مهد لقيام الامبراطورية ، كانت مدام دى ستال وبنيامين في باريس : واختلفت نظرهما لهذا الحدث حيث نشاءم بنيامين بينما رأت هى فيه فجر الحرية . لذلك راحت تولم الولاثم وتبدى اعجابها بتابوليون وبأعماله ، وهى ترى من وراء ذلك أن تجعل من بنيامين كونستان عضواً في المجلس الاستشارى (Tribunat) بمساعدة تاليران . وقد تم لها ما أرادت .

وقبل أن نسير وراء بنيامين في وظيفته الجديدة وننصدى لآرائه السياسية ، يجمل بنا الكلام عن آنا لندسى (Anna Lindsay) التي تعرف بها ، لما لها من شبه كبير ببطله قصته المسماة « أدولف » .

مدينة وايمر (Weimar) بالذات حيث يُقيم فيها أناس من ذوى الشهرة العالمية في مجال الفكر والقلم . فقبلت عرضه . وهناك في جو من الهدوء المناسب ، استطاع كونستان أن يقوم بتأليف كتابه عن الدين .

السير وفق مهاج مخطط

كان بنيامين يتردد على المكتبات العامة ليطالع على أهم المؤلفات اليونانية في اللاهوت والعلوم ويتصل بكبار المفكرين والمؤرخين والعلماء . وكثيراً ما اجتمع على موائد الطعام بالشاعر الفيلسوف الألماني جوته ويقول عنه : « أنه رجل ذكي عميق التفكير ، له آراء جديدة ، ولكنه أقل الذين عرفتهم ببساطة » . وكثيراً ما جالس شيلر وأمضى معه أمسيات في التسامر . وكان اعجابه بهذا الأخير أكثر من اعجابه بجوته .

ظل يتابع أبحاثه طيلة سنة ١٨٠٤ حتى إذا ما ملها ، راح ينتقل ، للترويح عن نفسه في المدن الألمانية ، ولا سيما لايبزيغ وفرانكفورت . كما كان ينزح إلى جنيف ولوزان وكوبي ، لكنه كان يفضل فايمار حيث يقول : « في هذه المدينة أجد ما يشجعي على اتمام مؤلفتي الذي اعتبره أهم حدث في حياتي » .

بدأ يشعر بأن صلاته وعلاقته بمدام دي ستال لم تأت بالثمرة التي كان يرجوها ، رغم تضحياته ، كما يتضح من يومياته : « منذ أن تركت العزلة ، أصبحت لا أقوم بأي عمل قيم . . . أين السعادة التي كنت أشعر بها في العزلة ! . . . لقد أصبحت لا أجد اللذة التي ضحيت لها بكرامتي ، ولا الكرامة التي ضحيت بها باللذة ! » .

ولما عزمت مدام دي ستال في ديسمبر ١٨٠٤ على الذهاب إلى إيطاليا لتجد الجو الملائم لكتابة روايتها المقبلة ، انتهز بنيامين الفرصة للاستجمام ، ذهب إلى فرنسا . وجد هناك بعض صديقاته ، فآثر الإقامة مدة أطول من التي قدرها لنفسه . وتردد على جوليت

في حاجة إلينا فليعطونا الوسائل الكفيلة بقيامنا بالمهمة التي عينا من أجلها » . ثم أضاف : « إذا حدث ضرر خاسبونا عليه ، وإن خسرننا حرباً أو تأخر عقد السلام ، اتهموا المعارضة . يبقى علينا أن نصبح مسؤولين عن التقلبات الجوية وأن نسير الرياح والعواصف لإغراق الأساطيل وإهلاك الحرث » . وأنهى كلمته بهذه العبارة التي أغضبت بوناپارت : « بدون استقلال المجلس الاستشاري لن يكون هناك تناسق في الأعمال ولا حياة للدستور ، بل سيرزح الشعب تحت نير العبودية والصمت ، الصمت الذي سوف تسمعه أوروبا بأسرها »

وفي اليوم التالي ، استهدف بنيامين لهجمات الصحافة وثورة بوناپارت الذي صاح متوعداً المعارضة بقوله : « هناك اثنا عشر أو خمسة عشر من ذوى الأفكار المجردة يجدر بنا إلقاءهم في البحر . فهم بمثابة الجرائم العالقة في والتي يجب أن أقضى عليها » .

أما بنيامين ، فانه لم يتفاعل عندما رأى بوناپارت يقبض شيئاً فشيئاً بيد من حديد ، على كل السلطات معلناً أن « الحكومة الفرنسية تمثل الشعب صاحب السيادة ولا يمكن قيام معارضة ضد السيادة » . ولم يندعش بنيامين عندما رأى نفسه ، في يناير ١٨٠٢ ، معزولاً من المجلس الاستشاري مع عشرين من زملائه الأحرار .

لم يطق البقاء في هذا الجو الخانق وعاد إلى ضيعته في ضواحي باريس مشبط الهمة ، خائر القوى . لقد أسكنت قمعقة السلاح وطلقات المدافع صوت الحكمة والمقل !

وفي هذه الأثناء مات البارون دي ستال ولم يكن في الواقع إلا زوجاً اسمياً . ورأى بنيامين من واجبه أن يتقدم للزواج من أرملة ، ولكنها رفضت عرضه لأنه يفقدها لقب « بارونة » التي تريد التمسك به .

وعندما أبدت تعبها من النفي المستمر ، قال لها بنيامين إنه مستعد لمصاحبته إن هي ذهبت إلى ألمانيا وفي

« إما أنها مجنونة وإما أنا المجنون ، ولا أدري كيف سينتهي الأمر بيننا » .

واستطاع بالرغم من حياة القلق التي يعيشها ، الانتهاء من تأليف كتابه عن الوثنية الذي ابتدأه منذ عشرين عاماً ، ولكنه لم يطبع إلا في سنة ١٨٣٣ تحت اسم « الوثنية عند الرومان » .

(Du polythéisme romain)

وفي أوائل عام ١٨٠٧ ، ألف ، في مدى خمسة عشر يوماً قصته المشهورة « أدولف » التي راح يتلوها على بعض أصدقائه ، ولكنها لم تظهر في السوق إلا سنة ١٨١٦ ، بعد أن تناولها عدة مرات بالتنقيح . وسوف نحلل هذه القصة في آخر دراستنا .

بلغ بنيامين كونستان الأربعين من العمر « دون أن يحقق الفخار الذي كان ينشده » على حد تعبيره . وسبق له أن قال عن نفسه قبل ذلك بوضع سنوات « إن ما ينقصني في حياتي هو السير وفق منهاج مخطط » . ثم نراه يقول بعد ذلك : « لم أتحذ قراراً حاسماً لثقتي بقصر الحياة الإنسانية » .

إن مثل هذه العقلية ، ومثل هذه الطريقة في تفهم الأمور والأشياء لا تدهشنا إذا كان بنيامين قد وصل إلى عنفوان القوة والسن دون أن يعثر على الحياة التي طالما تمنّاها ، ليكون مخط أنظار معاصريه . إنه بلا أسرة ، ولا زوجة ، ولا أصدقاء ، ولا حب ، ولا سعادة ، ولا نجاح ، ولا أي مشروع مخطط للمستقبل . هذه كانت حياة هذا الرجل الذكي المثقف الذي معه ضعف عزيمته ، من اختراق أبواب الحياة ، وكبله بالسلاسل حتى أنه بدل أن يرتفع صيته ، ظل منزوياً وغير معروف إلى حين .

ونود التنويه هنا بملاحظتين عن بنيامين : الأولى أن علاقته بمدام دي ستال لم ترفع من معنويته ، بل كانت مصدر متاعب ومضايقات له . صحيح أن هذه العشيقة المتسلطة كانت تعرف بموهبة صديقها ولكنها

ديكاميه (Juliette Récamier) التي لم يكن قد هام بها بعد ، وزار أتنا لندسي التي ما زالت تبحث عن زوج شرعي ، واتصل بجولي تالما التي أصيبت بداء الصدر وأشرفت على الموت ، وتقابل مع شارلوت دي هندنبرج التي كانت تأمل في أسر قلب بنيامين بعد أن فشلت في حياتها الزوجية مرتين .

هكذا أمضى بنيامين أجمل الأوقات في باريس ، ثم توجه إلى كوبي في يوليو ١٨٠٥ ، وكانت مدام دي ستال قد عادت إليها بعد رحلتها الموفقة ، فوجدها أكثر تفتحاً لدواخل قلبها ، وأكثر فيضاً في شعورها . وكان المعجبون بها يحفون من حولها ويستمعون بلذّة إلى الانطباعات التي تركها « المدينة الخالدة » في نفسها . لم يستغ بنيامين هذا المنظر واستاء من هذه الجموع ودخلت الغيرة قلبه على صديقه ، وقامت محاولات لتهدئته وترضيته . وروى آخر الأمر تمضية الشتاء في جنيف . وعرضت مدام دي ستال أن يقوم بدور تمثيلية لراسين وأخرى لفولتير ، ولكنه لم يحسن دوره ، بينما أظهرت مدام دي ستال مقدرة فائقة على التمثيل .

لم تنسه هذه التسلّيات مهتته ككاتب حيث يقول : « كم أريد الانتهاء من كتابين أحدهما في السياسة والآخر في الدين ، لأترك أثراً خالداً من بعدي » .

وفي سنة ١٨٠٦ ، نشر مقتطفات من كتابه في السياسة الذي استغرق أربع مجلدات طبع في باريس ١٨١٨ و ١٨٢٠ تحت عنوان : دراسات في السياسة الدستورية

(Cours de Politique Constitutionnelle)

وفي شهر مايو من هذه السنة ، استدعت مدام دي ستال صديقها كونستان إلى أوكسير (Auxerre) حيث كانت تقيم مؤقتاً للإشراف على طبع روايتها الجديدة كورين (Corinne) . وما أن اجتمع العشيقان حتى قام الشقاق بينهما ، ويقول في ذلك :

كانت مشغولة عنه بمصلحتها الخاصة ، وكانت ترى فيه العشيقة أكثر من الأديب ، العشيقة الذى يستطيع اشباع رغباتها وملذاتها أو يخفف من حدة الشدائد التى كانت تستهدف لها من جراء تهورها . والملاحظة الثانية ، أن الشهرة التى حظى بها بنيامين فى آخر حياته ، كانت سياسية أكثر منها أدبية . فالصدقة والصدقة وحدها هى التى جعلت منه روائياً . وهذا الرواى لم يسجل التاريخ اسمه إلا بعد وفاته بوقت طويل .

شارلوت وكونستان

ورد اسم شارلوت دى هردنبرج فيما سبق من الكلام . ويجمل بنا هنا أن نذكر طرفاً من جوانب حياتها المتصلة بكونستان .

تنمى هذه المرأة العاطفية فى شعورها ، الهوائية فى مزاجها ، البسيطة فى تفكيرها ، إلى أسرة ثرية من هانوفر (Hanovre) . كانت على وشك الطلاق من زوجها الأول عندما تعرفت بصاحب هذه الدراسة ، فى برانسويك ، واشتعل قلبها حباً به . ولكن لم تكن لديه الرغبة فى الزواج منها بعد أن مر بتجربته مع وللمين .

رأت شارلوت ، أمام هذه الصدمة أن تتركه مدة من الزمن ، ولكنها لم تستطع ذلك بدافع عاطفتها الفياضة . وعندما أظهر لها حنانه تمتعت عنه . فغضب . فطلبت منه الصفح ، فلم يبد اهتماماً . فأصرت على أن يعتذر ، فتهرب ، فتملكها الغضب بدورها وقررت قطع علاقتها به نهائياً . فاستحلفها أن ترضى بزيارته لها ، فقبلت ولكنه تراجع .

ومرت عشر سنوات ، وكان كونستان فى هذه الآونة قد تعلق بمدام دى ستال . فما كان من شارلوت إلا أن عقدت قرانها الثانى على الفيكونت ألكسندر دى ترتر وهو رجل دنى لا ضمير له .

وتلاقى بنيامين بشارلوت فى باريس فى شتاء عام ١٨٠٤ - ١٨٠٥ وأفرغ كل منهما ما فى قلبه من متاعب ومآسى للآخر واتفقا على الزواج ، ولكن كان عليهما الانتظار ثلاث سنوات : فكونستان كان مقيداً بمدام دى ستال من جهة ، ولم يقبل زوج شارلوت طلاقها من جهة أخرى إلا مقابل مبلغ وفير من المال . وفى مايو ١٨٠٧ ، التقى العشيقان فى باريس . ويقول كونستان فى مذكراته : « كثيراً ما أذهب إلى مدام دى ترتر وأشعر بسحر جمالها وبطيبتها وحنانها مما يجعلنى أحس بالسعادة بجانبها وأن قرانى بها فيه راحة الحياة .

ولكنه سرعان ما كان ينتقل من التفاؤل إلى التشاؤم ، ومن اليقين إلى الشك ، فيضيف فى مذكراته : « قضيت سهرة مع شارلوت . هل تنطقى جلوة هذا الحب ويحل محلها السأم ؟ هذا ما أخشاه ! إن صبرها أخاذ فعلاً ولكنها قلقلة الشعور ولا تعرف تنويع الحديث » .

ومع كل ، فإن كانت مدام دى شاربير ، وأنا لنندسى ، وجولى تالما ، وحتى مدام دى ستال ، لم يستطعن الاحتفاظ به ، فإن شارلوت استطاعت ذلك . صحيح أن كونستان عندما سيصل إلى الخمسين من عمره سيهم بامرأة أخرى . ولكن هذه المغامرة ستبلغ النفاذة حداً يجعل شارلوت لا تعطى أية أهمية .

ولكن لا تتعجل الحوادث : فشارلوت لا تحمل اسم مدام كونستان بعد . وعندما ستحمله ، ستضطر إلى الانتظار بعض الوقت للإقامة فى عيش واحد . ففى أواخر يونيو ١٨٠٧ ، ذهبت إلى ألمانيا لتصفية موقفها مع ألكسندر دى ترتر . وأرسلت مدام دى ستال رسولا من قبلها إلى كونستان ليخبره بأنها ستنتحر إن لم يعد إليها . هب كونستان يلبي نداها ، فلما وصل إليها وجدها تفضحك وتلهو وسط زوارها ، فغضب وتركها مع بطانتها التى لم يسترح لها ، وذهب إلى لوزان . ألحت

وزوجته بالخزعة : فذهبت شارلوت إلى والد زوجها ،
وتوجه هو إلى كوبي عند مدام دي ستال .

مناهضة الاستعمار

رأى كونستان ، بعد أن أمضى شهراً وشهوراً في
كوبي ، بين البطالة وحدة الزواج وعقاب الضمير ،
أن يسافر إلى ألمانيا مع شارلوت للتعرف على أسرتها .
وهناك أقام في قصر والديها وشعر بالنشاط يدب في
أوصاله ، ولكن إلى حين ، لأن البروتوكول الألماني
المتشدد لم يرقه . وخلال فترة النشاط تلك ، حرر
« الكراسي الحمراء » وزار مدينة برانسيوك التي أمضى
فيها سنت سنوات من شبابه ، ثم عاد منها عملاً
بالذكريات المحزنة المؤلمة .

بدأ عمل الحياة حتى مع زوجته كما بدأ هذا الملل
يجعله بأسف على الأيام التي عاشها في نزاع مع مدام
دي ستال « ذلك البركان المتقد » الذي انطفأ بالنسبة له ،
والذي قد يلهب مرة أخرى لأناس آخرين .

وفي هذه الأثناء ، وصلته أنباء هزيمة نابليون في
روسيا ، وهبت على أوروبا ريح الحرية ، وبدأت قلوب
الناس تتفتح لآمال جديدة ، وشاطر كونستان الناس
حماسهم ورأى أن نهاية الإمبراطور قد قربت ، فنشر
في هانوفر رسالة ضد نابليون تحت عنوان « روح الغزو
والسلب »

(De l'esprit de Conquête et de l'Usurpation)
إن هذه الرسالة التي تشرف كاتبها ، تعتبر بحق ،
ذات قيمة كبيرة حتى في أيامنا هذه ، ذلك لأن
الاستعمار لا يزال يصب سمومه في العالم بواسطة أذنابه .
وتستحق هذه الرسالة ، في الواقع ، دراسة دقيقة وافية
ولكن نظراً لضيق المقام ، ستقتطف منها هاتين
الفقرتين :

« إن الدفاع عن الوطن شيء ، والاعتداء على
أقوام لهم وطن يدافعون عنه شيء آخر . إن روح الغزو

مدام دي ستال في عودته إليها ولكنه تلكأ في الاستجابة
فذهبت هي إليه . ويقول في مذكراته : « جاءت إلى
وارنمت تحت قدمي وراحت تصرخ بشكل يفتت
الأكباد المنحجرة . وعدت معها إلى كوبي ورضيت
بالإقامة فيها ستة أسابيع . إن شارلوت تنتظرني في
أواخر سبتمبر . فما العمل ؟ هل أدوس على مستقبلها
وعلى سعادتي ! » .

مرت الأسابيع الستة ومرت الأشهر وكونستان
لا يستطيع الفكك من مدام دي ستال .

وأخيراً تقابل مع شارلوت في باريس سنة ١٨٠٨
وكانت قد تخلصت من رابطة الزوجية وتنتظر تكوين
حياتها الجديدة .

لم تكن لدى كونستان الشجاعة الكافية ليفتح
مدام دي ستال بمكنون صدره خوفاً من « أظافرها أن
تمزق لحمه » حسب قوله .

وأخيراً قرر الزواج من شارلوت في يونيو ١٨٠٨
على شرط أن يظل هذا القران طي الكتمان بعض الوقت .
رضيت شارلوت ، في بادئ الأمر ، عن هذا الشرط .
ثم رأت أن زوجها كثير التغيب ، كثير الأسفار إلى
كوبي ، فطلبت منه أن يثوب إلى رشده وأن يتصرف
نصرف الرجل القوي الحازم .

لم يستطع ذلك إلا في مايو سنة ١٨٠٩ عندما ضرب
ضربته القاضية بتقديم زوجته إلى مدام دي ستال التي
رأت نفسها أمام الواقع ، فراحت تكيل له أنواع المهجو
والشتم ووصمته بعدم الوفاء والأنانية والجبن . وبعد
ذلك أملت عليه شروطها : لا بد من بقاء الزواج سراً
إلى إيجاد حل مشرف لموقفها ؛ وخلال البحث عن حل
لهذه الورطة ، يجب على بنيامين أن يعيش في كوبي ؛
أما شارلوت فلتذهب حيثما أرادت .

ولما لم يمكنه الوقوف في وجه هذه الطلبات ولا
الصمود أمام تيار ذلك العتاب ، اعترف كونستان

أستحقه ، لا كما ينحى إلى أنهم يرفضون هذا المركز لى .

وأخيراً قرر الفوز بهذا المركز بعد أن انضم إلى الملكية الدستورية ، نشر عدة كتيبات يوضح موقفه ، نذكر منها : « تأملات فى النظم » (Réflexions sur les Institutions) و « التفرقة بين السلطات » (Distinction des Pouvoirs) و « حرية الصحافة » (Liberté des Journaux) و « مسؤولية الوزراء » (Responsabilité des Ministres) .

نالت مؤلفاته التحررية هذه كل تقدير وكان موضع حفاوة وولائم وحفلات . ويقول فى ذلك وقد عمه السرور : « لقد انتشر صيتى » .

إن كل شىء أصبح يبتسم فى وجهه كونستان وفتحت أمامه الأبواب على مصاريعها لمهام جديدة . ولكن فى هذه اللحظة شعر بحج جارف طارئ لا يناسب وقاره يدفعه نحو مدام جوليت ريكاميه .

كاتب سياسى لامع

كانت مدام ريكاميه تعتبر أجمل نساء عصرها ، ترعى القلوب تحت قدميها ، تتمتع بسحر لا يقاوم وذكاء وقاد . كانت تعيش فى المنفى مثل صديقها مدام دى ستال ، خلال حكم نابوليون . ولما عادت إلى فرنسا فى يونيو ١٨١٤ ، فتحت صالونها الأدبى لكبار الشخصيات المشتغلة بالسياسة والأدب والفن والعلم . ومع أن كونستان كان يعرف هذه السيدة منذ عشرين عاماً دون أن يشعر نحوها بأكثر من الود والصدقة ، ومع أنه كان يعرف عنها فتورها الجنسى إزاء عشاقها - وما أكثرهم - أحس « بالنار تأكل أحشائه » كما لو كان فى سن الثامنة عشرة . كما يقول .

وكتب فى فجر هذا الحب الأسطوري يقول : « كنت أبغى أمسياتى لدى مدام ريكاميه ، المرأة التى عشت معها فى سويسرا ، ورأيتها فى أكثر من مناسبة

ثمحاول الخلط بين هاتين الفكرتين . فبعض الحكومات ، عندما ترسل جيوشها من قطب إلى آخر ، تتكلم عن الدفاع عن حياتها ، كأن كل مكان تضرم فيه النيران يصبح من أملاكها . . . » .

وقال أيضاً : « إن القوة التى تمكن شعباً من استعباد الشعوب الأخرى تعتبر فى أيامنا هذه ميزة لا دوام لها . فالأمة التى تسير على هذا المنهج الاستعماري تضع نفسها فى موقف أخطر من الموقف الذى تضع فيه الأقوام الضعيفة نفسها . إن مثل هذه الأمة تصبح محط الاحتقار والاشتماز من أهل الدنيا بأسرها . وأن الضمير العالمى والأمانى القومية والسخط العام تقف فى وجهها . وأن هذا الضمير وتلك الأمانى وذلك السخط تصب ثورة غضبها على رأس تلك الأمة لتدميرها . » . ولا نكون مباغين إذا قلنا بأن هذه الكلمات تنطبق بالحرف على الأمم الاستعمارية الموجودة الآن . ولو أن كونستان لم يسطر غير هذه الكلمات لكفلت لذكراه الخلد فى سجل التاريخ وفى القلوب المحبة للتحرر .

وبعد هزيمة نابوليون فى معركة لاينبرج واضطراره إلى التنازل عن الإمبراطورية ونفيه فى جزيرة الب (Elbe) : عاد كونستان إلى باريس سنة ١٨١٤ وحده ، تاركاً زوجته فى هانوفر عند أهلها .

وجد الناس الذين أغدق عليهم نابوليون الألقاب والأموال يحاولون التقرب من الملك الجديد لويس الثامن عشر . ورغم التقدير الذى لقيه من الصحف التى امتلحت رسالته ضد الاستعمار ، انتاب كونستان شعور متناقض جعله يكتب فى مذكراته بتاريخ ٢٩ مايو ١٨١٤ : « لا أعرف شيئاً عن مصرى : فلم تغدق على رجل عبارات الثناء أكثر مما أغدقت على ، ولم يعان رجل من العزلة التامة أكثر مما عانيت » .

ثم أضاف بعد يومين : « أعتقد أن الناس يكرهونى ، وقد يكون هذا وهماً منى . ولكنى فى الحقيقة أنا المستول عن عدم وضعى فى المركز الذى

هذا ونادى بالعفو العام ، وقرب إليه كونستان باعتباره أعظم كاتب سياسى فى عصره .

اتخذت مقابلة نابوليون له صفة الصراحة والود ؛ وكلفه باعداد الدستور . دهش كونستان من هذا التكليف بقدر ما سر منه . ودفعه اعتقاده فى حسن نية نابوليون إلى أن يقوم بما كلف به وينجزه فى بضعة أيام .

رأى الامبراطور أن يكافئه ، فعينه فى مجلس الدولة . وأظهر كونستان من الهمة والكفاءة ما جعله ملتقى الأنظار . ونستطيع القول بأنه كان يعتبر فى ذلك الوقت أكبر شخصية سياسية فى نظام الحكم القائم .

ولكن أنهار هذا الصرح بعد مائة يوم على أثر موقعة « واترلو » ونفى نابوليون إلى « سانت هيلانه » . وكتب كونستان فى مذكراته يوم ٢١ يونيو ١٨١٥ ، ليلة تنازل الامبراطور : « يا لهؤلاء الأندال ! إنهم خدموه بحماس عندما داس الحرية بقدميه ، وتخلوا عنه عندما أقامها ! » .

وعاد لويس الثامن عشر والتف حوله النبلاء وطلبوا معاقبة الذين خدموا نابليون ، وكان المقصود بذلك بنيامين . فما كان من هذا الأخير إلا أن أرسل خطاباً إلى الملك يبرر فيه موقفه ويبرهن بأنه ظل متمسكاً بالأراء التى تخدم مصلحة الوطن فى ظل التحرر .

أنقلته هذه الرسالة من ذل المنفى ، حتى إن رئيس الشرطة قال له : « لقد نجحت رسالتك وأقنعت الملك » فرد عليه بكل بساطة : « أعتقد ذلك لأنها أقنعتنى أنا نفسى » .

وانضح له أن الملكيين يحاولون انقاص قدره فى الصالونات ، فصمم على ترك البلاد . ويقول فى مذكراته بتاريخ ٢٤ يوليو ١٨١٥ : « سأترك فرنسا لمدة طويلة ، لأنى منهوك القوى ، قد سئمت الناس ومدمام ريكاميه . إن قلبى ورأسى فى حاجة إلى الراحة .

ولم أشعر وقتها بأية جاذبية نحوها ، وإذا فى على حين غرة . أجد نفسى فريسة حب جارف . ولا أدري هل أصابنى مس من الجنون أم أصبحت أحمق ؟ ولكن أملئ أن أنخلص من هذا المأزق » .

ثم كتب بعد ذلك بأيام : « إن هذا الشعور ، للأسف ، لا يتركى وحمى الهوى انسابت فى مفاصلى وامتلكت جسمى وعقلى . لقد انتهى عهد العمل والسياسة والأدب . نعم كل شئ انتهى ليبدأ عهد جوليت بالسيطرة على حياتى » .

كاد هذا الحب ينطفئ فى غده لولا نصيحة السيدة جوليانا كروندر (Juliana Krüdner) التى كان لها نفوذ على القيصر اسكندر الأول ، وكانت تميل إلى التصوف وعلم النفس . لقد نصحته بالصبر والأمل . ولكنه مل الانتظار والأمل وأصبح منهوك القوى « يقضى الليل راکماً يصلى أو مستلقياً على البساط » ، غريق وجدانه إلى أن تاب إلى رشده من شغوة تلك المرأة ، وعاد إلى العمل والسياسة والأدب .

وفى هذه الأثناء ، رجت أوروبا أنباء عودة نابليون من جزيرة الب إلى فرنسا ، ونشر كونستان فى جريدة « جورنال دى بارى » بتاريخ ١١ مارس ١٨١٥ مقالا ينتقد فيه حكم نابوليون الاستبدادى الذى سبب غزو الوطن . ثم نشر مقالا آخر فى « جورنال دى ديبا » بتاريخ ١٩ مارس ، أعنف من الأول ، مؤكداً أفكاره التحررية ، مشبهاً نابوليون بالطاغيتين تيمور لك وجنكيز خان .

كان هذين المقالين دوى كبير ، ولكنهما أغضبا أنصار الملكية وأنصار بوناپارت . ووصمه الأولون بالتهور والآخرون بالوقاحة .

وفى يوم ١٩ مارس المذكور ، ترك لويس الثامن عشر باريس ليدخلها الامبراطور فى اليوم الثانى .

كان من المنتظر أن ينتقم نابوليون من السياسيين الذين خانوه وأن يحكم بالحديد والنار ، ولكنه لم يفعل

سأذهب إلى سويسرا وإلى زوجتي . وهذا كل ما أطلبه من الله » .

ولكنه لم يترك فرنسا إلا بعد ثلاثة أشهر من هذا التاريخ ، فاصداً بروكسل حيث لحقت به زوجته في أوائل ديسمبر . ثم سافرا إلى إنجلترا في ١٥ يناير سنة ١٨١٦ . وفي لندن ، رأت قصة « أدولف » النور بعد تسعة أعوام من تحريرها . واشتراها الناشر منه بسبعين جنياً ذهباً .

أعمال النائب الكبير

عندما عاد كونستان إلى باريس في سبتمبر ، وجد نفسه في عزلة تامة : فلا وظيفة ، ولا صديق حتى أصبح غريباً في وطنه .

كانت الانتخابات على الأبواب ، وكانت شعارات المرشحين ومناقشاتهم تافهة إلى درجة جعلت كونستان يفضل البقاء في قصره العاجي . وروح عن نفسه باستئناف كتابة مذكراته عن « المائة يوم » (Mémoire sur les Cent-Jours) التي بدأها في إنجلترا . وظهرت في جزئين بعد انتهائه من تحريرها بأربع سنوات . وفي هذه الأثناء ، علم بمرض مدام دي ستال ، فذهب إليها وظل بجوارها حتى لفظت أنفاسها الأخيرة في سنة ١٨١٧ ، ولم نعرف مدى ألمه على موتها لأن مذكراته تقف عند سنة ١٨١٦ .

عاد بنيامين بعد ذلك إلى أعماله الأدبية . فراسل عدة صحف تحريرية ، وألقى سلسلة من المحاضرات عن الدين ، وبدأ يطبع كتابه المسمى « دروس في السياسة الدستورية » الذي يضم مذهبه وآراءه وأفكاره واقتراحاته فيما يتعلق بالحكومة النيابية والمستور في فرنسا . واعتبر هذا البحث القيم ميثاق المعارضة البرلمانية لعدة سنوات .

كان ضمان حقوق الفرد في نظر بنيامين ، يمكن في كلمة « الحرية » وكان واجب الحكومة عنده ،

ضمان هذه الحرية في جميع أشكالها : حرية الفكر ، حرية الصحافة ، حرية الدين ، حرية السياسة ، حرية الاقتصاد أي حرية التصرف في الأموال المكتسبة بالميراث أو من العمل الإنساني . ولكننا نلاحظ فيما يتعلق بهذه العبارة الأخيرة ، تحفظاً يقربه من الاشتراكية إذ يضيف شارحاً : « إن الملكية بصفها من المرافق الاجتماعية ، تصبح من اختصاص تشريع المجتمع وعلى ذلك يكون للمجتمع حقوق عليها » .

ولدينا ملاحظة أخيرة : فانه وإن بنى مذهبه على مبادئ ثورة ١٧٨٩ وبالتدقيق على وثيقة حقوق الإنسان ، فهو لا يحيد الانتخابات العامة ولا يهتم بالمشاكل الاجتماعية ، وبالتالي لا يثنى على الديمقراطية . هل تنسى كلمته المشهورة التي تبدو ساحرة لأول وهلة ولكن لا يمكن التسليم بها ولا أخذها على علاتها . يقول كونستان : « إن الحرية في رأيي هي انتصار الفردية على السلطة التي تريد أن تحكم بالوسائل الاستبدادية وعلى الجماهير التي تطالب بحق استعباد الأغلبية للأقلية » يتضح لنا بتحليل هذه الفكرة الخلافة في ظاهرها ، أن الفرد يجب أن يكون فوق السيادة وفوق الأمة وفوق الدولة ، أي يجعل البلد بدون حكم وبدون مراقبة ، الأمر الذي لا يتفق مع المنطق السليم .

كان كونستان يأمل بعد تجربته المؤسفة في المجلس الاستشاري ، أن يكون في يوم من الأيام ، المدافع عن الحرية والعدالة على منصة الخطابة . ولقد تهيأت له هذه الفرصة في سنة ١٨١٩ عندما انتخب عضواً في مجلس النواب ، حيث ظل محتفظاً بهذه العضوية إلى يوم وفاته . كان عضواً معارضاً وخصماً عنيداً لحزب اليمين . لم يكن بالخطيب المفوه بيد أنه كان قادراً على حسن العرض والاقتناع .

وإذا كان كونستان مكروهاً من اليمين ، فلم يكن محبوباً من أعضاء حزبه ، ونفى بهم الأحرار لتبعيتهم للبورجوازية التي كانت تهتم بالحفاظة على مركزها وعلى

أموالها ومظهرها، وتسخر من أمثال هذا الرجل الصريح الذي لا يعبأ بالتقاليد والعادات المليئة بالخداع والرياء والمخاتلة.

وفي سنة ١٨٢٦ بدأ بإصدار الجزء الأول من كتابه المفضل المسمى « الدين في منبعه وأشكاله وتطوره » (La Religion considérée dans sa source, ses formes et ses développements) الذي يقول عنه البروفسور هنري بيير (Henri Peyre) « إن كونستان يبدو فيه من كبار الباحثين في الأدب اليوناني من ذوى الأفكار الفريدة ، متقدماً في هذا المضمار على كينيه (Quinet) ورينان (Renan) » . ولم يظهر الجزء الخامس والأخير من هذا العمل ، إلا بعد وفاة المؤلف بسنة .

كان كونستان يمثل الاستقلال البرلماني قلباً وقالياً ، كما كان يمثل المقاومة ضد الاستبداد . كان الشباب الذي يحب فيه حسن البصيرة والزهارة يحفظ خطبه عن ظهر قلب ويقرباً بشغف واهتمام كتبه ومقالاته . وكانت الرسائل تتدفق عليه من كل أنحاء فرنسا معبرة عن التقدير له والاعجاب به .

وفي سنة ١٨٢٩ أخذ السخط يزداد في البلاد على أثر الأوامر الملكية التي راح يصدرها شارل العاشر وريث عرش لويس الثامن عشر . وقبل ثورة الشعب في يوليو ١٨٣٠ ، أعلن كونستان في البرلمان قائلاً : « إننا لا نهجم الامتيازات الملكية وإنما نطالب الملك فقط بالتنسيق بين السلطات ، وذلك إما بطرد مستشاريه أو بقيام انتخابات جديدة » . كان كونستان يزد ، بمعنى آخر ، إما تغيير الوزراء أو حل مجلس النواب .

واختار الملك حل المجلس ، وجاءت الانتخابات في صالح المعارضة على غير ما كان محتسب . وكان على شارل العاشر إما أن يخضع أو أن يتنازل عن العرش . ولكنه اختار حلاً ثالثاً : وهو ضربه بعرض الحائط توجهات المعارضة ، فقامت الثورة . وكان كونستان

في الريف متعباً ملازماً الفراش يعود الأطباء حتى إن لافاييت (Lafayette) ، رجل اليسار المعروف ، أرسل إليه يقول : « إن الناس يلعبون هنا دوراً فيه ضياع رؤوسنا ، فقدم رأسك ! » .

لب كونستان نداء الواجب وذهب إلى باريس وكان ضمن المائتين وواحد وعشرين عضواً في مجلس النواب الذين وقعوا على وثيقة عزل الحكومة وانتخاب لويس فيليب ملكاً . ورأى الجالس الجديد على العرش أن يكافئ بنيامين ، فعيّنه رئيساً لمجلس الدولة .

ومات المترجم له في ١٠ ديسمبر ١٨٣٠ ، وسار في جنازته ، باعتباره بطلاً شعبياً ، أهالي باريس والوزراء وأعضاء البرلمان وقواد الجيش . وحمل الشباب نعشه على أكتافهم تعظيماً لرجل السياسة والأدب الذي استحق تقديرهم واحترامهم .

قصة « أدولف »

عندما ظهر كتاب « أدولف » ، لم يلق أى فهم أو تقدير من معاصريه . وعندما خصه الكاتب المعروف سانت يوف بدراسة في سنة ١٨٥٢ ، لم يكن معروفاً إلا من رجال الأدب . ولم يحظ بالشهرة إلا بعد وفاة مؤلفه بأربعين عاماً ، متخذاً مكانه بين روائع الأدب الفرنسي . وحكم عليه الناقد الكبير البر تيبودييه (Albert Tribaudet) بقوله : « ألف بنيامين كونستان هذا الكتيب الذي سيظل لابساً ثوبه القشيب عبر الزمن . إنه قصة حياة فاشلة ، لا قصة فاشلة . والدليل على ذلك هو أن الرواية السيكلوجية في فرنسا ، لم ترد خلال نصف قرن ، أكثر من السير على منوال هذه القصة المأدبة المزنة الشاملة للأهواء والأحاسيس الإنسانية ذات الرنين المستمر الصدى ، مع تعهدها بالإضافة والتعديل والتبديل والتجديد ليس إلا » . ويقول تيبودييه أيضاً : « إن « أدولف » قصة عبودية راضية ، عبودية

قام بتحليلها رجل وهب نفسه للحرية التي فضلها على كل شيء في حياته .

إن هذه الكلمات الوجيزة التي جاءت على لسان الناقد تعطى فكرة صحيحة عن القصة وعن طبيعة مؤلفها .

تقوم عبقرية كونستان على نجاحه في التخلص من كل ما هو جاف ، وتشويق القارئ بأسلوب سلس خلاب ، رغم خلو القصة من وصف الطبيعة ، أو وضعها في إطار زخرفي ، ورغم خلوها من التفاصيل عن الأبطال والأشخاص الثانويين ، ورغم خلوها من المفاجآت ومن تكرار الحوادث أو وصف الأخلاق أو المكان الذي تجري فيه فصول الرواية . ووقائع القصة تدور في قلوب استطاع بطلها - وهو الكاتب نفسه - أن يدرسها بدقة وأن يقوم بتسريحها : لا ليدافع عن نفسه وإنما ليتهما ويعود عليها باللائمة ، ويكشف عن الآلام : لا للشكوى منها وإنما ليحملها في سكون . ويقدم اعترافاته بشجاعة موضحاً أخلاقه بما فيها من رخاوة وضعف ، عارضاً المواقف التي خاضها دون تنميق ودون دموع ، لأنه « كان أكثر أهل حياة رجولة بصراحة » حتى إنه جعل من نفسه على نفسه شاهداً وحكماً .

وإذا كان من السهل على القارئ أن يعرف في أدولف حياة كونستان ، فمن العسير أن يتعرف على الشخصية التي تخفيها النيور .

بطلة القصة

يعتقد كثير من الناس أن هذه السيدة تنقسم شخصية النساء التي اتصل بين الكاتب اتصالاً وثيقاً . ودون الوقوع في مثل هذا الاعتقاد المبالغ فيه ، يمكن القول : كما أن الرسام يستعمل مختلف الألوان ليخرج لوحته ، فالأديب يتخذ من بعض الأشخاص الذين قابلهم في حياته صورة يستخرج منها شخصية البطل .

وهذا ما فعله بنيامين كونستان . وفي تقديرنا أن النيور هي مزيج من « أنا لندسي » و « مدام دي ستال وجولي تالما » التي تكلمنا عنهما فيما سبق .

فالنيور ، مثل « أنا لندسي » ، سيدة أجنبية لها طفلان تربطها علاقة غرامية ، يفيض قلبها بالحنان والود ولكنها مستبدة ، حادة الطبع إلى درجة مضايقة معشوقها . ومركز أدولف وخدين النيور في القصة هو مركز بنيامين وخدين « أنا لندسي » . وأخيراً فإن الظروف التي تحيط بماضي النيور مستقاة من الظروف التي أحاطت بأنا لندسي .

والنيور هي أيضاً مدام دي ستال في جهادها في الدفاع عن حباها وفي الرغبة الملحة في إطالة مدته وظهورها في مظهر الضحية . وأن بعض مواقف النيور مع أدولف منقولة من المواقف التراجيدية الغرامية لمدام دي ستال مع بنيامين . وأن ما قاله كونستان في مذكراته سنة ١٨٠٤ عن حياته المقلقة المشوبة بالآلام مع عشيقته تلك ، يمكن تطبيقه حرفياً على بطلي الرواية : « كم أود ترك الشكوى ، لا من مصائب الحياة ، بل من ناموس الطبيعة أي من الشيخوخة . إنني أريد ، أنا الرجل ، ألا أتحمّل انفعالات امرأة ضاع شبابها . لا أريد أن أطلب بالحب بعد اتصال دام عشر سنوات ووصولنا إلى حافة الأربعين من العمر . وكما أعلنت أن الحب هجر قلبي . وهو تصريح لم أرجع فيه إلا لتهدة أزمات الألم والغضب التي كنت أخشاها » .

وأخيراً فإن كونستان الذي كان مجوار جولي تالما ساعة لفظها أنفاسها الأخيرة ، نراه يتذكر ذلك الموقف الرهيب عند وصفه احتضار بطلة روايته .

إن أدولف يظن أنه يحب النيور ولكن عندما يجد هذه المرأة شغوفة به ، يحاول الابتعاد عنها . إنه صورة طبق الأصل لواقع القصة : فهو المعشوق المتردد أمام الحب ، الذي يظل محبوباً بينما قد خلا قلبه من الغرام . لذلك كتب كونستان في يوم من الأيام هذه الجملة :

نفسه إلى مدينة مجاورة ويتعرف بالليونر السيدة البولندية الشابة .

على أثر اضطرابات وقعت في بولندا ، انهار بيت أسرته ونفى والدتها في روسيا ، وذهبت هي مع والدتها إلى فرنسا . وماتت الأم بعد بضع سنوات ، فوجدت الليونر نفسها في عزلة فعاشت بعض مغامرات عاطفية واستجابت لحب الكونت ب . . . وأصبحت خليلته . وعندما تعرفت بأدولف ، كان قد قضى على علاقتها بهذا الكونت حوالي عشر سنوات .

وما أن رآها أدولف حتى سخره جلالها ووقارها ، فغازلها باضطراب نظراً لأنه كان غراً غير مجرب . لم يستطع أن يفتح لها قلبه شفاة ، ففاتها بغرامه كتابة ، منتزاً فرصة سفر الكونت . ويقول في ذلك : « رأت الليونر رسالتي ، وهو أمر طيبعي ، ناشئ عن قلب رجل يصغرها بعشر سنوات ، مفعم بأحاسيس لم يعرفها من قبل ، تدعو إلى الصقح عنه أكثر من الغضب عليه . وردت على بحنان وزودتني بالنصائح ومنحتني صداقة خالصة ، ولكنها أخبرتني بأنها لا تستطيع مقابلي قبل عودة الكونت » .

عاش أدولف في قلق وحاول أن يجيد عن شرطها دون جدوى . ورأت هي ، خوفاً من تصرف منهور من جانب ، أن تلجأ إلى الريف بعض الوقت . وعاد الكونت وأعد وليمة كبيرة دعا إليها أدولف . وعند الذهاب إلى غرفة الطعام ، أعطى أدولف ذراعه إلى الليونر وراح يسر إليها بالأمه وآماله . ولنتركه يتكلم : « إذا لم تسمح لي غداً بمقابلتك في الحادية عشرة ، فسأترك بلدي وأسرتي وأني وأقطع كل روابطي وأختلي عن واجباتي ، ثم أذهب إلى أية جهة لأتخلص فيها من حياة يلذك جعلها جحيماً . فردت قائلة : « أدولف ! » ثم ترددت ، ففقت بحركة كمن يريد الابتعاد عنها . ولا أدري كيف كانت ملامح وجهي في هذه اللحظة ، ولكن كل ما أعرفه هو أنه لم يسبق لي أن تقلصت

« بدهشني أن أرى نفسي كزينة في مهب الريح ، أنا الذي كثيراً ما رغبت في التعلق بأي شيء » .

إن هذه الكلمة يمكن تطبيقها على أدولف . وفي الواقع يشعر هذا البطل بدوره بأنه غير قادر على ترك الليونر أو البقاء بجانبها ؛ غير قادر على الاعتراف بنهاية حبه لها أو إخفاء ذلك عنها ؛ غير قادر على الاحتفاظ بذكرياتها أو نسيانها .

وهذا الشعور المتناقض لاحتضانه في حياة كونستان : فعندما كان يربط مصيره بمصير امرأة ما ، كان هذا الرجل المطاوع لعقله أكثر من قلبه ، لا يكشف إطلاقاً عن مكنون صدره أو عما يجول في فؤاده . كان لا يتوانى في البحث عن طريقة تعيد إليه استقلاله وحرية . بيد أنه كان عند انقصاص جبل الصلة ، يتأسف على اللذات السابقة ويشكو من أفلاته من ذلك الحب بدون روية . كانت هذه الشكوى وذلك الأسف يجعلانه يشعر فيما بعد ، بالعرفان وبالشفقة نحو التي تركها ، لأنه إذا كان الثبات ينقصه : فإن الشعور الرقيق متوفر لديه . ويقول في مذكراته : « إن حياتي ، في الواقع ، لا توجد إلا داخل نفسي ، ولا أظهر منها إلا جانبها الخارجي لمن يشاء . أما جانبها الداخلي فمحاط بسور منيع لا يمكن لأحد اجتيازه . وربما تصل الآلام إلى هذا الجانب الداخلي عن طريق الناس ولكنهم لن يستطيعوا الاستيلاء عليه » .

والآن نورد فيما بعد ملخص قصة أدولف مع ذكر مقتطفات منها خلال سردها .

أدولف أو عدم القدرة على الحب

أدولف هو ابن وزير يعمل في معية أمير ألماني . قد أنهى علومه في جامعة جوتنجن Goettingue في سن الثانية والعشرين . تبدو عليه علامات الحجل والنحفظ كوالده الذي يريد تدريبه على مهنة ليرث مركزه في يوم من الأيام . ويذهب أدولف للترويح عن

عضلات وجهي بهذا الشكل . ونظرت إلى اللينور فلاحظت على وجهها خوفاً مشوباً بالحنان ، ثم قالت : « سأقابلك غداً ولكنني أستحلفك ... » ولم تكمل الجملة لأن المدعوين كانوا في إثرتنا ... » .

ظلت اللينور في بدء الطعام حاملة متهدمة ، ثم راحت رويداً رويداً تزيح كابوس الكتابة وتبتسم وتشارك المدعوين الحديث . ولاحظت في نظر حبيبها من معالم السرور والعرفان ما جعلها تعطف عليه . وعند العودة إلى قاعة الجلوس تتم أدولف قائلاً : « ها قد اتضح لك أنك تسيطرين على حياتي كلها ، فإذا فعلت لك حتى تجدي لذة في إبلاي ؟ » .

وعندما قابل اللينور ، أعلمها بأنه لم يأت إليها لانكاره اعترافه بحبها ، أو ليحدثها عن شعوره الذي لا يحويه الزمن ، وإنما ليرجوها أن تنسى ذكرى لحظة جنون بدر منه ، وأن تقابله كما قابلته أول مرة حتى لا يشعر بوخز الضمير لانفعال كان الأجدر به أن يخفيه في نفسه . وما قاله لها : « إن حالتي لا تخفى عليك ، ولا أخلاقي المتناقضة ولا قلبي البعيد عن ملاذ الدنيا ، المنعزلة وهو وسط الناس ، المتألم من هذه العزلة . إن صداقتك هي سندی الوحيد في الحياة ... لا أأمل في شيء ، ولا أطلب شيئاً حيث لا أريد إلا رويتك ، ولا بد لي من رويتك لأعيش » .

تأثرت اللينور من هذا الكلام وانقادت لرغبة أدولف على شرط أن يلتزم جانب الوقار ولا يقابلها إلا ضمن زوارها . وأجترم هذا الشرط بعض الوقت ولكن سرعان ما دبت الغيرة في قلبه من المحاطين باللينور ، فرأت تهديته له أن تقابله على انفراد في بعض الأحيان . ويقول أدولف : « هكذا تغيرت شروطها الصارمة بسرعة وسمحت لي بأن أصف لها حبي واعتادت تدريجياً على لغة الغرام ، إلى أن اعترفت لي بأنها تحبني » .

وانتهى الأمر بها إلى الاستسلام له ، فراح يقول في نشوة المنتصر : « هل يستطيع بشر أن يعطينا صورة صادقة لسحرك أيها الحب ؟ ... » . وهل يستطيع وصفك من ذاق طعمك ؟ » .

إذا كان أدولف قد شعر بارتياح لغزو قلب اللينور ، فإنها كانت بدورها مسرورة بحياتها الجديدة . ولكن ساورها القلق والخوف عندما لاحظت أن أدولف بدأ يتضايق من ملاحظتها له ، ورغبتها في الاستئثار به كله . ففى الواقع إذا كان أدولف يشعر بألم الفراق إن ابتعد عن اللينور ، ولو بضع ساعات ، وينشرح صدره عند ملاقاتها ، فانتا نراه يقول في اضطراب : « أردت أن أجعل من اللينور مجرد عشيقة ولكن تبين لي أنها تريد رباطاً يدمج حياتي في حياتها » . وهذه تفكيره إلى أن صلته بها ستراخي بطبيعة الظروف . ويقول في ذلك : « إن علاقة اللينور بالكونت ب ... وتفاوت السن بيننا ، واختلاف مراكزنا ، واضطراري إلى السفر الذي حان مواعده ، إن كل هذه الاعتبارات دفعتني إلى أن أتمتع بها بأكبر قسط مستطاع من السعادة في أقصر وقت ممكن » .

وبدأ الكونت ب ... يكتشف ما يدور حوله . وبدأ أدولف يخشى على عشيقته ويسدى إليها النصيح ، ولكنها قالت له في تشاؤم : « لا تخف على ولا تتألم من أجلي ولنستمتع بالأيام وبالساعات ... فنفسى تحدثنى بأني ساموت بين ذراعيك ... » .

وإرضاءاً للينور ، طلب أدولف من أبيه مهلة ستة أشهر ليعود إليه . ولكن هذه المهلة ، جلبت للعشيقين حدة المزاج وعصبية في التصرف حتى دب الخلاف وقامت مشادات عنيفة بينهما : فهي تهمة بغشها وأن صلته بها كانت طارئة ، وأنه حرّمها من حنان الكونت وعطفه ، وجعلها في أعين الناس في مركز مشبوه .

مع أنفسهم ويوغر صدورهم عدم الثقة ، ألا يعدوا بشيء لا يستطيعون انجازه ، أو أن يعترفوا العالم !

ولا نقول هذا دفاعاً عن الليونر ، فهي أيضاً مذنبه بل ذنبها أكبر من ذنب معشوقها ، إذ كان يجدر بها ، قبل استسلامها لهذا الحب الطائش أن تنظر إلى علاقتها الأولى وإلى سنها وأولادها . ولو فرضنا أنها نسيت كل هذه الاعتبارات ، فكان يليق بها أن تتذكر ، أن الحب له أجنحة ولا يمكننا أن نوجهه حسب رغبتنا وأهوائنا . إننا نجدها حنونة صامته في بادئ الأمر ، ثم تنقلب سريعاً إلى ضحية شاكية باكية متظلمة غاضبة ، ناسية أنه من العسير الاحتفاظ بأدولف بحيثاً يحب انطفأت جذوته .

وبعد انقضاء نشوة الغرام الأول ، انتابها المخاوف من ناحية تقدمها في السن . وهذا الشعور بالذات هو الذي جعلها تتصرف بتهور . . . ومضت فترة السنة أشهر ، فترك أدولف عشيقته واعدأ إياها بالعودة بعد شهرين . وبالرغم من تصريحه بأنه تركها على مضض ، فإنه ينتظر بقلق مرور الأيام ليعود إليها أو تعود هي إليه . ويقول : « قارنت بين حياة الاستقلال والهدوء وبين حياة الاضطراب التي عايشها على هواها ، فكنت أجد المتعة في الحرية وفي الذهاب والإياب والخروج والعودة حسبما يروق لي ذلك ! ! » .

ولما لم يف بوعد ، اتخذت الليونر العدة للذهاب إليه . فنصحها بتأجيل حضورها خوفاً من أن تنتابها أزومات عصبية جديدة . ولكنها جاءت إليه في تردد وأشعبته لوماً وعتاباً ، فاستشاط غضباً . ويقول : « استسلمنا لغضب جنوني استبعدنا خلاله كل ملاطفة وكل رقة ، وكنا فريسة للكراهية المتبادلة حتى خلنا أننا عبدوان لدودان يريد كل منا تمزيق الآخر ، بينما كنا في الواقع شخصين بائسين يعرفان نفسيهما حق المعرفة ولا يستطيع أحد غيرنا الحكم على تصرفنا » .

ودارت بخلد أدولف أطوار حياته المشوبة بالقيود ، وشبابه المضيع في البطالة واستبداد الليونر به ، ولكن بكاءها استرق قلبه ، فيحاول مواساتها ، فعاد إليها الهدوء بعض الوقت ، وصرحت له عند تأهبه للسفر قائلة : « إن الكونت منعني من مقابلتك ولكن لن أخضع لهذا الأمر الاستبدادي . . . لأنه يستطيع الحياة بدوني ولا أستطيع الحياة بدونك » .

حاول أدولف أن يشرح لها الموقف وما عسى أن يلوكه الناس عنها ، فردت عليه بأن ذلك لا يهمها . فذكرها بابنيها المحتاجين إلى عطفها ، فردت عليه بأنهما ابنا الكونت ويستغنى بهما . ثم انتهى النقاش على الوجه التالي : « إذا أنا قطعت علاقتي بالكونت ، فهل سترفض رؤيتي ؟ فرد قائلاً : « لا بالتأكيد ، وكلما شعرت بتألك ، كلما امتلأ قلبي ولاء لك . ولكن قدرى الموقف . . . » . فما كان منها إلا أن ردت قاطعة : « قدرت كل شيء ! » .

وبعد يومين تقابلا في الدار التي استأجرتها وأطلعت على نيتها في ترك الكونت . ولم يستطع ، أمام هذا القرار الحاسم أن يبدي أية معارضة ، ورجاها أن تنسى كل ما سببه لها من ألم وأن تثق فيه .

وبدأت المداينة والمدارة بينهما : فالليونر لا تجرؤ على الإباحة بقلقها ، ولا هو يجرؤ على الشكوى من المتاعب والمضاعفات التي لم يستطع محاشاتها . ويقول في ذلك : « إن المدارة تضع في الحب عنصراً غريباً عنه يغير من طبيعته ويذبله » .

ولنتساءل : هل لا يزال في الواقع يحب الليونر ، بل هل أحبها في يوم من الأيام ؟ إنه أراد مغازلة امرأة ولكن دون السماح لها بالسيطرة عليه . وإنه أمر عجيب فالحب يحتاج ، لاستمراره وتوطيده - مهما شابه التطلع إلى الحرية - إلى التنازل عن جزء من هذه الحرية وعلى الناس الذين هم على شاكلة أدولف في نزاع دائم

ويرفع من صيته بين الناس ، وأن يستثمر مواهبه فيما ينفعه .

حاول أن يشرح لها أن قوانين المجتمع أشد قوة من إرادة الأفراد ، وأنه من العبث أن يستمع الإنسان لنداء قلبه ، لأن العقل ينتصر عادة في النهاية ، وأن عرض الكونت يستحق الاعتبار . وهنا أطلقت اللينور صرخة ، ثم فقدت وعيها وارتفعت على الأرض ، فراح يطيب خاطرها ويسحب اقتراحه ويؤكد لها أن حبه لم يتغير ! لقد أراد من الرأي الذي أبداه أن يجعلها حرة الاختيار . ويقول : « وانتشت من كأس حبا الذي ظنت أني أبادلها إياه ، وأكدت رفضها للكونت ، وأصبحت ملزماً بها أكثر من ذي قبل . »

وبعد فترة ، علمت اللينور أن أباه الذي صدر الغفو عنه ، عاد إلى بولندا ووجد ثروته كما هي وأنه يريد لها مجواره . وأرادت أن تصطحب عشيقها . وبينما هي تفكر مع أدولف في الذهاب إلى والدها ، أتاها نعيه .

رأى أدولف من واجبه أن يصطحبها لتسوية المراث . ولم يرتح في القصر الذي ورثته محبوبته لأنه أصبح يعيش على نفقتها .

وقابل أدولف صديقاً لوالده هو البارون ت . . . السفير في وارسو ، الذي نصحه بالابتعاد عن هذه المرأة التي لن يستطيع أن يتزوجها لكبر سنها ولسمعتها التي لاكتها الأفواه ، ثم أضاف : « تستطيع الزواج من أكبر العائلات . واعلم أن العقبة بينك وبين نجاحك في الحياة هي اللينور . »

حاول أدولف الدفاع عن عشيقته ولكنه كان في قرارة نفسه مقتنعاً بكلام صديق والده الذي رن في أذنيه تماماً ، فراح يسير الساعات الطويلة في مزارع الريف وهو يفكر في حياة رتيبة مع زوجة تفهمه وتقدره ويحبها . ويقول : « لم أكن أهتم إلا باللينور وبنفسي : باللينور التي تستدر عطفى . وبنفسي التي لا تستحق

والأول مرة في حياتهما لم يحاولا تصفية نزاعهما . ولما عاد أدولف إلى داره ، وجد أباه على علم بحضور اللينور ، وقد قرر إبعادها عنه . فما كان من أدولف إلا أن شعر بعودة الحب إلى قلبه واستيقظت فيه روح حماسة عشيقته ، فراح يهزها في فراشها قائلاً : « لترحل فوراً ! هل لك في الدنيا شخص آخر يحملك غيري ؟ هل لك صديق خلاقي ؟ أليست ذراعاي مأواك الوحيد ؟ » وقبل أن تفتيق من الدهشة ، وجدت نفسها مع فارسها في عرض الطريق . وبعد أن ضمها إلى صدره ولاطفها ، أخبرها بما كان بنوياً أبوه . شكرته على رقة شعوره ، ثم تبينت المتناقضات في قصة حبها ، فقالت له : « إنك غطيتي يا أدولف في حق نفسك . إنك كريم ، كلك ولاء لي لأنني مضطهدة ، وتظن أنك تحبني ، ولكنك في الواقع تعطف علي فقط . » ويعترف أدولف للقارئ بشعوره هذا ، بيد أنه لا يعترف به لمحبوبته .

وبعد أن وجد مكاناً يأوي إليه ، كتب إلى أبيه يرجوه ألا يغضب على اللينور لأن هذا التصرف يزيد في نار الحب ولا يفصم عراه . فرد عليه أبوه بطمئنته بأنه لن يشغل باله بمسألة صبيانية كهذه ، ثم واجهه قائلاً : « إنك تضيق أجمل سنن شبابك سدى وهي خسارة لن تعوض . »

اقتنع أدولف في قرارة نفسه بنصيحة أبيه لأن حياته تدور فعلاً بين البطالة والازدراء . ومع كل ، ظل بجانب عشيقته عدة أشهر في عزلة عن الناس في مدينة صغيرة من مقاطعة « بوهم » . وفي يوم من الأيام أخبرته اللينور بأنها تلقت رسالة من الكونت يعرض عليها التنازل لها عن نصف ثروته مقابل تركها ذلك الوغد الذي سبب انفصالها . لم تلتفت اللينور إلى هذا العرض ، ولم يرق أدولف هذا التصرف « لأنه ظن أن الوقت قد حان ليختار مهنة ويدخل حياة الجد والاجتهاد

الاحترام . . . وارنحت للأفكار الجديدة التي طرأت على ذهني ، ولقد رنا على نسيان نفسي لأتطلع إلى حياة أسمى ، حتى شعرت أن روحي تستيقظ من غفوة طويلة منجدة » .

لاحظت اللي نور على أدولف أنه يزداد قلقاً ، فعزت ذلك إلى الحياة المملة التي يعيشها بجانبها ، فعمدت ، لتلطيف هذا الجو الخانق ، إلى دعوة الأسر النبيلة القاطنة بجوارها لزيارتها . ولكنه لم يرتج لمجالسة هذه الفئة الثرثرة التي كانت بدورها تمحذره وتكرهه . ويقول في ذلك : « من العجب أني كنت ضحية اللي نور بينما كان الناس يبدون الشفقة عليها كما لو كانت ضحيتي . . . لقد أهملت ، من أجل هذه المرأة ، كل مصالحى وملذات الحياة ، ومع ذلك ، كنت أنا المحكوم عليه » .

حاولت اللي نور أن تشعل نار الغيرة في قلب معشوقها بالثفاف الشباب حولها . إنه كبرياء المرأة المحروجة من فتور عشيقها ، فتريد اقناع نفسها بأنها لا تزال محط أنظار الممجين . طلب أدولف منها الكف عن هذه المهزلة المضحكة . لبت طلبه ولكن السعادة كانت قد طارت من عشمها وأضحت حياتهما مشوبة بالنازعات والمخاضات ، وكانت تقول له : « إنك لا تشعر بمدى الألم الذي تسببه لي ، ولكنك ستعرفه بعد أن تواريني التراب » .

وفي هذه الأثناء ، أرسل البارون ت . . . كتاباً رقيقاً إلى أدولف يطلب فيه مقابلته ، فذهب إليه ودار الحديث بينهما على كل شيء فيما عدا اللي نور . وشجعه الدبلوماسي على زيارته من وقت لآخر . وفي إحدى المقابلات ، فاتحه البارون قائلاً : « أريد محادثتك بصراحة . ما الذي يرغملك على البقاء في حالة أنت غير راض عنها ؟ لمن تعمل الخير ؟ أنظن أن الناس هنا لا يعلمون شيئاً عن صلتك باللي نور ؟ إنهم على علم بالشقاق وبالحياة المريرة التي تعيشانها . إن ضعفك

يضعك ، وعنفك يضررك ، وتهورك لن يسعد بهذه المرأة التي حولتك إلى رجل بائس » .

تردد أدولف بعض الوقت في العمل بنصيحة السفير ، ولكن اللي نور راحت تعد عليه خطواته وروحانه ، الأمر الذي سود عيشته ، فانفجر معلناً للبارون : « نتم سأقطع علاقتي بها . سأجد هذه الشجاعة ، ويمكنك من الآن أخبار أبي بعزمي هذا » . بيد أن الشجاعة خائنه ، فكتب إلى السفير خطاباً يطلب منه مهلة . فما كان من هذا الأخير إلا أن أطلع اللي نور على ذلك الخطاب . فحز ذلك في نفسها ومرضت .

وعندما ذهب لعيادتها في غرفتها ، نظرت إليه ولم تعرفه . فكلّمها ، فصاحت مرتعدة : « ما هذا الصوت ؟ إنه الصوت الذي أضرني ! . . » وقرر الطبيب المعالج أن المريضة في حاجة إلى الراحة التامة ، وطلب من أدولف ألا يطيل جلسته . وعندما صرح له بروئيتها ، قالت له : « لا أريد أن أسمع منك كلمة جارحة . إنني لا أطلب أي شيء ، ولا أعارض في أي شيء ، ولكنني أرجو هذا الصوت الذي أحبيته كثيراً وتسربت نبراته إلى أعماق قلبي ، ألا يدخله اليوم ليمزقه » . حاول أدولف أن يخفف ما بها ويواسيها ويطمئنها معترفاً لها بذنبه ، معتذراً عنه لوقوعه تحت دوافع ولحظات قاسية خارجة عن إرادته ، وأنه لا بد لها من بدء حياة جديدة . فردت عليه قائلة : « لا تعاتب نفسك ، إنك كنت دائماً طيب القلب نحوي ولكنني أردت المستحيل . إن الحب كان كل شيء في حياتي ولم يكنه بالنسبة لك » .

بدأت اللي نور تضعف وتزل وأدولف يحضر لها الطبيب إثر الطبيب ، ويجلب لها أنواعاً من العقاقير دون جدوى . ويقول : « وأرادت البكاء ، لكنها لم تجد الدموع ، وأرادت الكلام ، ولكنها فقدت صوتها ، ففركت رأسها ويميل في استسلام على ذراعي وانخفضت نفسها وانطفأت . . . وشعرت بآخر رباط لي يفهم ،

وأصبحت أمام الحقيقة المخيفة التي فرقت بيني وبينها ،
وأصبحت الجربة التي كثيراً ما ندمت عليها ، ثقيلة
على كاهلي . وكم تأقت نفسي إلى ذلك الخضوع الذي
كثيراً ما ثرت من أجله ! » .

وعثر بين مخلفات اللي نور على خطاب كانت رجته
أحرقه دون قراءته ، فاطلع عليه بدافع الفضول ، فاذا
به عتاب موجه منها إليه . يقول الخطاب في مضمونه :
« لم تعاملني بهذه القسوة يا أدولف ؟ ما هو الجرم الذي
ارتكبته ؟ ألا أني أحبك ولا أستطيع الحياة بدونك ؟
ما هي هذه الشفقة الغريبة التي تمنحك من فصم عرى
رابطة ثقيلة عليك وتشدك إلى مخلوقة بائسة تمزق
أحشاءها ؟ . . . هل يطيب لك موتي يا أدولف ؟ إذن
ليدخل قلبك السرور : ستموت هذه المخلوقة الضعيفة
التي كنت تحبها ولكنك ضربتها بقسوة . ستموت
اللي نور التي لم تعد تتحمل رؤيتها لأنها أصبحت عثرة في
طريقك . . ستموت وستعود أنت إلى الناس الذين تريد
الاختلاط بهم بفارغ الصبر وستعرفهم على حقيقتهم .
وربما تضيق في ذات يوم بهذه القلوب الجافة ، فتندم
على ذلك القلب الذي كان في حوزتك ويعيش بمحناك ،
وكان مستعداً لخوض الأخطار لحمايتك ، ولم تعد تكافئه
حتى بنظرة » .

• • •

قد تسألني أيها القارئ العزيز ، بعد هذا القدر من
القصة : ما الذي كان يستطيع عمله أدولف ليخفف
من آلامه وآلام معشوقته ؟

إن هذا السؤال بالذات ألقاه عدد كبير من القراء
على كاتب القصة بعد طبعها ، فكان جوابه الآتي :
« لم يكن هناك منفذ لموقف أدولف واللي نور . وهذا
ما قصده بالفعل . لقد أظهرته مضطرباً قلقاً لأنه كان
يحب اللي نور حباً ضعيفاً . ولو أحبها حباً جماً لما تغير
اضطرابه ولا قلقه على كل حال . كان يتعذب من
أجلها لفنور شعوره نحوها . ولو طغى شعوره لتعذب
لأجلها . ولما كان المجمع قاسياً في حكمه ، فلن يتورع
من استنكار حنان أدولف لأنه عار من أية روابط .
وعلى طالب السعادة في الحياة ألا يبتدئها بمثل هذه
الصلة : لأن الإنسان متى سار في هذا الطريق ، فلا
مناص له من تحمل الآلام » .

إنه حكم قاس ولكنّه واقعي . ويسرنا أن نختم به
هذه الدراسة التي جعلت القارئ العزيز يقف على حقيقة
رجل غير مستقر ولكنه صريح ، رجل أديب رقيق
بقدر ما هو غزير المادة ، قوى التعبير . ولعلها تدفعك
إلى قراءة روايته إن كنت لا تعرفها ، وإلى إعادة
قراءتها إن كانت في حوزتك . وإني واثق من منحك
الكاتب كل رضاك .



تراث الإنسانية

سلسلة تتناول بالتعميق والبحث والتحليل
روائع الكتب التي أثرت في الحضارة الإنسانية

المخطط التوفيقية للمبارك

بقلم الدكتور عبد العزيز الشناوي

تأثير القوى البحرية على التاريخ

تأليف ميهان

بقلم الدكتور حسين فوزي النجار

ما رحلتوا وباننا جرديل

لفرنسوا رابليه

بقلم الدكتورة كوتر عبد السلام

سيرة الأميرة ذات الهمه

بقلم الدكتورة نبيلة إبراهيم

إشراف على

د. عبد الحليم منصر

عبد الوهاب

إبراهيم الأسدي

د. أحمد ديابي تركي

د. تركي عبد الحميد

د. إبراهيم تركي نور

الخطط التوفيقية على مبارك

بسم
الدكتور عبدالغنى الشاوى

أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الأزهر

مكانته فى تاريخ مصر القومى :

يتمتع على مبارك بصدارة واضحة بين رواد النهضة العلمية فى مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . كان على حظ موفور من العلم وجمع بين الثقافتين العربية والفرنسية ، ففتح العلم أمامه باب الأمل واسعاً لا حد لسعته ، وباب الرقى طويلاً لا حد لطوله ، وتقلد العديد من المناصب الوزارية ، وهو الذى كان فى مرتع صباه يبيت من الجوع طويلاً ، وانطلق يشارك فى توجيه الحياة العقلية للمصريين ويسهم فى تنظيم الجهاز الحكومى وسرعان ما برز بروزاً واضحاً قوياً فى ميادين العلم والتعليم والتربية والتأليف، وغدا يمثل طرازاً فريداً بجهد الوزير العالم ودأب الباحث المحقق .

نشأته الاولى : طفولة مشردة :

ولد على مبارك فى قرية برنبال الجديدة (١) من

(١) توجد فى الوجه البحرى ثلاث قرى تحمل هذا الاسم : احدها فى مركز دسوق بمحافظة كفر الشيخ وتقع على الشاطئ الشرقى للفرع رشيد شمال مطوبس . وبرنبال القديمة وتسمى أيضاً برنبال البحرية وتقع على البحر الصغير بمحافظة الدقهلية . وبرنبال الجديدة مسقط رأس على مبارك.

أعمال مركز دكرنس بمحافظة الدقهلية سنة ١٢٣٩ هـ (١٨٢٣ - ١٨٢٤ م) من أسرة ريفية رقيقة الحال مثقلة بوفرة الإنجاب على العادة الشائعة فى المجتمع المصرى وقتذاك ، إذ كان له سبع بنات شقيقات وإخوة ذكور من غير أمه . وعلى مبارك وهو يترجم لنفسه يسوق تسلسل آبائه على هذا النحو : مبارك ابن مبارك بن سليمان بن ابراهيم الروجى . وظفر جده الأعلى الشيخ ابراهيم الروجى بمكانة سامية فى البلدة فكان إمامها وخطيبها وقاضيه . وتوارث أبناؤه وخذته هذه الوظائف فعرفت أسرته بعائلة المشايخ ، وأضيفت إلى وظائفها توثيق عقود الزواج والرقابة على الموازين والمكايل .

وكانت حكومة محمد على ترهق الفلاحين من أمرهم عسراً بما تفرضه عليهم من نظام ضريبي جائر . وحدث أن أقطعت الحكومة أسرة المشايخ قسراً عنها قدراً من الأقطان لزراعتها ، وكانت هذه الأقطان مثقلة بضرائب متأخرة وطلبت منها سدادهام مع الضرائب الجديدة ، واستخدمت مع أفراد الأسرة الضرب والسجن وغير ذلك من وسائل التعذيب « كأسوة الفلاحين

فضاق خناقهم من ذلك لعدم اعتيادهم الإهانة ، وبعد
 بذلهم ما بأيديهم وبيعهم المواشي وأثاثات البيوت ،
 رأوا أن لا ملجأ لهم من ذلك إلا الفرار « (١) فارتحل
 أفراد أسرة المشايخ عن قريتهم وفرقوا في البلاد .
 ونزل الشيخ مبارك بن مبارك والد علي مبارك في قرية
 الحماة من أعمال محافظة الشرقية . وكان علي مبارك
 قد بلغ من العمر وقتذاك ست سنوات . ولم يطب
 المقام للشيخ مبارك إذ لمس أن شعور أهل الحماة نحو
 الأسرة النازحة شعور غير طيب فارتحل عنها إلى
 عرب السباعنة وهم من عرب الخيش بمحافظه الشرقية .
 وعرف عن هؤلاء العرب أنهم يحلون رجال الدين ،
 وكان الشيخ مبارك رجلاً صالحاً على ثقافة دينية فظفر
 بتقديرهم وأصبح مرجعهم في المسائل الدينية ، وشيدوا
 مسجداً وعينه إماماً وطابت له الإقامة في هذا المرتحل
 الحديدي وانصرف بدبر شئون أسرته .

وكان علي مبارك قبل رحيله من قرية برنال الجديدة
 بدأ يتعلم على رجل كفيف من أهلها ، فلما استقر
 بأسرته المقام بين عرب السباعنة أسلمه والده إلى
 فقيه يدعى الشيخ أحمد أبو خضر ، وعلى يديه استظهر
 القرآن حفظاً ، ولكنه ما لبث أن نفر من هذا الفقيه ،
 إذ كان فظاً غليظ القلب أسرف في ضربه وإيذاته .
 وأراد أبوه أن يجبره على الرجوع إلى الفقيه ، لكنه أصر
 على الرفض وعول على الحرب ، وتدخل إخوته في
 الأمر وصرح لهم بأنه لا يريد أن يكون فقيهاً وأنه
 يفضل أن يكون كاتباً نظراً لما لمسه من مزايا يتمتع بها
 الكاتب « من حسن الهيئة والهيئة والقرب من الحكام »
 ونزل الوالد على رغبة الابن ، فعهد إلى صديق له
 يعمل كاتباً بتعليمه الكتابة . ولكن ما لبث الصبي أن

(١) ترجمة حياة علي مبارك بقلمه . المخطوط التوفيقي ج ٩ .

رأى من الكاتب غلظة فاقت قسوة الفقيه ، إذ ضربه
 يوماً بمقلاة بن شجت رأسه لأنه أخطأ في الإجابة على
 سؤال في جدول الضرب . فآثر علي مبارك الحرب على
 احتمال القهر والضرب والموان ، وكأنه كان يتطلع
 إلى أسلوب في التعليم أرق من الأسلوب العتيق .

حار الوالد في تعليم الابن ، فأحاله إلى صديق آخر
 من كتبة المساحين كى يقوم على تعليمه ، فلأزمه ثلاثة
 أشهر ثم طرده : لأنه كان يفشى أسرار الرشا التي
 كان يتناولها من الأهليين ، وبقي في بيت أبيه يقرأ
 عليه ، ثم وفق الوالد في أن يجد لابنه وظيفة كتابية هي
 مساعد كاتب في مأمورية أبي كبير بمرتبة شهرى قدره
 خمسون قرشاً . وماتل الكاتب في دفع مرتبه إلى أن
 تسلم على مبارك يوماً ما حصيلة الضرائب من إحدى
 قرى مركز أبي كبير ، فاستقطع منها مرتباته المتأخرة عن
 ثلاثة أشهر وترك له ايصالاً بتسلم هذا المبلغ ووضع
 الإيصال في كيس النقدي . فنقم منه الكاتب هذا
 التصرف وأغرى به مأمور المركز واتفق معه على
 تجنيده واعتقله ، وظل في السجن بضعة وعشرين يوماً
 وهو مقيد بالحديد . وبذل الشيخ مبارك مساعبه وساعدته
 الظروف إذ كان محمد علي يزور منيا القمح بمحافظه
 الشرقية : فرفع إليه ظلامه ، وأمر محمد علي بإخلاء
 سبيل الابن ، وعاد الوالد بالأمر إلى المأمور يطلب
 تنفيذه . وخرج علي مبارك من السجن ليعين كاتباً
 عند مأمور زراعة القطن بناحية أبي كبير وكان يسمى
 عنبر أفندي وجعل مرتبه خمسة وسبعين قرشاً في
 الشهر وجراية من الخبز تقدم له كل يوم . ولقي
 عنى مبارك معاملة طيبة من عنبر أفندي .

هل يقف السادة أمام المييد ؟ حوار مشير بين الابن وأبيه
 لاحظ علي مبارك أن عنبر أفندي رجل حبشي أسود
 اللون وكأنه عبد مملوك . وزاد من دهشته أن رأى

نشأة المأمور واتصل بأحد الخدم المقربين للمأمور وعلم منه أنه كان عبداً اشترته إحدى سيدات المجتمع في مصر بثمن بخس ذراهم معدودة . ولما أنشأ محمد على المدارس الحديثة استطاعت هذه السيدة بما لها من نفوذ في مجتمع تركي استقراطي أن تلحقه بمدرسة القصر العيني الثانوية . وأبلغه القرائش أن خريجي هذه المدرسة يعينون حكاماً . فجاشت في نفسه رغبة جامحة في أن يلتحق بهذه المدرسة ، ولما سأله عما إذا كان يدخلها أحد من الفلاحين ، أجابه أن التحاق الفلاح بها أمر ممكن إن كانت لديه « واسطة » فقلق من هذا القيد ولكن لم يفتّر عزيمته وأخذ يجمع مزيداً من المعلومات عن المدرسة ، فعلم أن تلاميذها يتعلمون بالحنان وتقوم الحكومة بإطعامهم وإيوائهم وكسائهم ، وازداد إصراراً على الالتحاق بالمدرسة وأخذ يسأل عن مكانها في القاهرة وطريقة السفر إلى العاصمة ومقدار المسافة التي عليه أن يقطعها وأسماء البلدان التي يمر بها وصحت عزيمته على ترك عمله وطلب الإذن في زيارة أسرته فمنحه غير أفندي إجازة خمسة عشر يوماً ، واتخذ طريقه إلى القاهرة سراً .

نقف هنا وقفة قصيرة لثقرر أن عاملين رئيسيين لعبا دوراً كبيراً في رسم مستقبل حياته ، هما : الآمال الكبار التي داعبت قواده وهو لا يزال شاباً يافعاً فأبى أن يقنع بعمل صغير في معاونة موظف حكومي ومن ثم صمم على الماضي في تحصيل العلم مهما لقي من مشاق وأهوال . أما العامل الثاني فكان حرصه على كرامته إذ ظل حادث سجنه عالقاً في ذهنه ، وكان يسأل نفسه عما يحدث لو نهج غير أفندي المأمور نهج الكاتب وألّقى به في غياهب السجن « واستمرت الأفكار في بالي ، وكانت همّي في التخلص من كل ذلك ومن أمثاله ، وأود أن أكون بحالة لا ذل فيها ولا نخش

عليه القوم من أصحاب الثراء والحكام ومشايخ البلاد وقوفاً بين يديه وهو يلقي عليهم بالأوامر و كنت لم أر مثل ذلك قبل ، ولم أسمع به ، بل أعتقد أن الحكام لا يكونون إلا من الأتراك على حسب ماجرت به العادة في تلك الأزمان . وبقيت متعجباً متحيراً في السبب الذي جعل السادة يقفون أمام العبيد ، ويقبلون أيديهم ، وحرصت كل الحرص على الوقوف على هذا السبب » .

وفي اليوم التالي حضر الشيخ مبارك لزيارة ابنه ، فقدمه إلى المأمور الذي بالغ في إكرام وفادته حتى خرج من عنده ولسانه يلهج بالثناء عليه . ودار في مساء نفس اليوم حوار مثير وطريف بين الوالد وابنه حول غير أفندي والأسباب التي قفزت به إلى شغل هذا المنصب الكبير . ولندع على مبارك بقص هذا الحوار ، ولما سهرت مع والدي ليلا جعلت كلامي معه في هذا المأمور ، فقلت له هذا المأمور ليس من الأتراك لأنه أسود ، فأجابني بأنه يمكن أن يكون عبداً عتيقاً . فقلت هل يكون العبد حاكماً مع أن أكابر البلاد لا يكونون حكاماً فضلاً عن العبيد ؟ فجعل هو يبيّن بأجوبة لا تقنعني ، فكان يقول لعل سبب ذلك مكارم أخلاقه ومعرفته ، فأقول : وما معرفته ؟ فيقول : لعله جاور بالأزهر وتعلم فيه . فأقول : وهل التعلم في الأزهر يؤدي إلى أن يكون الانسان حاكماً ؟ ومن خرج من الأزهر حاكماً ؟ فقال : يا ولدي كلنا عبيد الله ، والله تعالى يرفع من يشاء . فأقول : مسلم ، لكن الأسباب لا بد منها ، وجعل يعظني ويذكر لي حكايات وأشعاراً لم أقع بها ، ثم أوصاني بملازمته وامتنال أوامره ، وبعد يومين سافر عني وتركني عنده » .

أخذ على مبارك بوسائله الخاصة يتقصى الأخبار عن

غواثها ، وهذا القول دليل على أنه كان على حظ
موفور من عزة النفس والطموح وإباء الضيم .

التحاقه بالمدارس الحديثة :

وبينا كان على مبارك يقطع الطريق إلى القاهرة
سيراً على قدميه التي بصية مع كل واحد منهم دواة
وأقلام ، وعلم منهم أنهم تلاميذ مكتب منية النز ،
وأن نجباء تلاميذ المدارس الابتدائية - مكاتب الابتدائيين
بمصطلح ذلك العصر - ينقلون إلى المدارس التجهيزية
- أي الثانوية - دون واسطة ، فرأيت ذلك غاية
مرغوب ، فلم أناخر عن الذهاب معهم ودخلت المكتب
وتفوق في دراسته واختير سنة ١٨٣٦ للالتحاق بمدرسة
قصر العيني التجهيزية (١) وفي سنة ١٨٤٠ وقع عليه
الاختيار لدخول مدرسة المهندسخانة واستمر محافظاً
على تفوقه العلمي . وفي سنة ١٨٤٤ أوغذ في بعثة علمية
إلى فرنسا أطلق عليها بعثة الأمراء أو بعثة الأنجال لأنها
كانت تضم بعض أبناء محمد علي وحفدته . وبعد أن
أتم ستين في باريس عين ضابطاً في الجيش الفرنسي
برتبة ملازم ثان في مدرسة المدفعية والهندسة الحربية
بمدينة متر Metz وقضى فيها ستين آخرين تعلم
فيهما فن الاستحكامات وجاز امتحانها بنجاح وعين
في الفرقة الثالثة من سلاح المهندسين بالجيش الفرنسي .
ولما تولى عباس الأول حكم مصر أمر باستدعاء معظم
أعضاء البعثات فعادوا إلى مصر وكان من بينهم على
مبارك .

وفي حكم عباس الأول تقلد على مبارك عدة مناصب
حكومية وظفر بتقدير هذا الوالي الذي عهد إليه
بوضع مشروع جديد للنظام التعليمي في مصر وأخذ به

(١) نقلت هذه المدرسة بعد سنة إلى أبي زعبل لتحل محلها في
قصر العيني مدرسة الطب البشرية .

عباس وأصدر قراراً بالموافقة على لائحة على مبارك
التعليمية (١٧ رجب ١٢٦٦ - ٢٩ مايو ١٨٥٠)
ورقاه إلى رتبة عميد وعينه ناظراً للمدرسة المهندسخانة
وملحقاً وظل يشغل هذا المنصب حتى نهاية حكم
عباس . يقول مؤرخ التعليم في مصر الحديثة إنه وقد
أتيح للمدرسة المهندسخانة إدارة حازمة مستبيرة في
شخص ناظرها على مبارك . وكانت الفترة التي قضها
ناظراً لها من ١٨٥٠ إلى ١٨٥٤ من أحفل الفترات
في تاريخ حياته . والواقع أنها أعدت على مبارك وهيأته
للدور الخطير الذي سيقوم به في إدارة التعليم وتوجيهه
بعد ذلك في عصر اسماعيل وبعد عصر اسماعيل (١) .
ولما تولى محمد سعيد حكم مصر عزله من منصبه
وألحقه بإحدى فرق الجيش المصري كانت مسافرة
للاشتراك في حرب القرم . وقد لبث في هذه المهمة
ستين ونصف سنة تعلم خلالها اللغة التركية واتسعت
مداركه وزادت معلوماته . ولما عاد إلى مصر حفت به
المتاعب من يمين وشمال وعاش عيشة ضنكاً يشغل
وظائف تافهة حيناً ، ويفصل منها أحياناً ، وتسوء
حالته النفسية ، ويفكر في العودة إلى قريته ليشغل فلاحاً ،
يفكر حيناً آخر في مزاولة التجارة . وبينما هو يجهد
الفكر في إيجاد عمل يرتزق منه جاء الموت سعيد باشا
في مطلع سنة ١٨٦٣ وتولى اسماعيل حكم مصر .
وعندئذ بدأت حياة على مبارك تأخذ انجهاً آخر ،
وغدا العالم المغمور المتعطل نجماً يسطع في سماء البلاد
وأصاب في الحياة العامة النجاح والجاه والمال والمركز
السامي .

كان على مبارك زميلاً للوالي الجديد في بعثة الأمراء
إلى فرنسا ولذلك كان اسماعيل بهضياً . فعينه ناظراً

(١) د. أ. مد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في مصر .
عصر عباس الأول وسعيد . القاهرة ١٩٤٥ ص ١٠٦ .

التعرض لها . وقد أنشأ مدرسة دار العلوم لتخريج مدرسي اللغة العربية ، ومن المدارس الأخرى التي أقامها : الألسن والإدارة والمحاسبة ، كما أنشأ دار الكتب المصرية وأسس أول مجلة ثقافية في مصر الحديثة هي مجلة روضة المدارس . ولئن كانت شهرته تتركز على أمرين : خدماته في التربية والتعليم ، وتأليف الخطط التوفيقية ، إلا أنه له مآثر أخرى تتصل بمنشآت الري وتوسيع الشبكة الحديدية في مصر وتنظيم القاهرة والمدن الأخرى وغير ذلك من الأعمال الهندسية والعمرانية .

وحدث أن فترت العلاقات بينه وبين الخديو اسماعيل بسبب دس الخاسدين له ، فانفصل عن مناصبه واعتكف في منزله سنتي ١٨٧٠-١٨٧١ ثم أعيد إلى ديوان المدارس ونظارة الأوقاف والأشغال . ولما ألف نوبار باشا وزارته الأولى في أغسطس ١٨٧٨ دخلها على مبارك وزيراً للمعارف والأوقاف . ولما سقطت هذه الوزارة في فبراير ١٨٧٩ خلفتها وزارة الأمير توفيق في ٢٢ مارس وتقلد على مبارك فيها نفس الوزارتين . ولم تعمر هذه الوزارة طويلاً وأعقبتها في ٨ من أبريل ١٨٧٩ وزارة شريف باشا ولكنه لم يدخلها وظل وزيراً متقاعداً حتى نهاية حكم اسماعيل .

ولما تولى توفيق الحكم ظل على مبارك بعيداً عن المناصب الحكومية معتكفاً في داره . إلى أن ألف مصطفى رياض باشا وزارته في سبتمبر ١٨٧٩ فدخلها على مبارك وزيراً للأشغال . وفي عهد هذه الوزارة ظهرت مقدمات الثورة العرابية ولم يكن على مبارك من أنصارها ، بل كان يميل إلى الاعتدال وأخذ الأمور بالحكمة والمواداة . وقد سقطت الوزارة في سبتمبر ١٨٨١ نزولاً على إرادة الثوار . وتعاقت أحداث

لمدرسة المتدبان فمهندساً للقناطر الخيرية وأظهر براعة في توزيع الماء بين فرعي رشيد ودمياط ، وأشرف على عمليات تعميق رياح المنوفية وإقامة قناطره ومبانيه ، وعين كبيراً لمهندسي المعية السنية . وحدث أن ناقش مجلس شورى النواب في نوفمبر ١٨٦٦ السياسة التعليمية وانتهت مناقشاته إلى عدة قرارات هامة كان من بينها إنشاء مدرسة ابتدائية في كل مديرية وتنظيم المكاتب الأهلية تحت إشراف الحكومة وإباحة الالتحاق بها للجميع « من عموم الناس بالرغبة بدون استثناء مسلم أو قبطي ، غني أو فقير . » ويتلقى جميع التلاميذ دروسهم معاً ما عدا دروس الدين ، فيفرد محل خاص للأقباط ويتدب غبطة البطريك أحد القسوس لتعليمهم الديانة المسيحية « حيث جميعهم أولاد الوطن » . ولم تكن هذه القرارات سوى مبادئ عامة تحتاج إلى إعداد فني واسع . وهنا تقدم على مبارك ، وكان يشعر بميل فطري نحو التعليم ، للعمل في الحقل التعليمي . فقدم لاسماعيل مذكرة تضمنت آراءه ومعهامشروع لائحة لتنظيم وإصلاح المكاتب الأهلية . وعرفت هذه اللائحة باسم لائحة ١٠ رجب ١٢٨٤ (٧ نوفمبر ١٨٦٨) وهي تؤرخ المحاولة الحقيقية الأولى لنظام قومي للتعليم في مصر وأوضح الطريق لمن جاء بعده من دعاة الإصلاح . وقبل أن تتم الموافقة على هذه اللائحة عين وكيلاً لديوان المدارس في سبتمبر ١٨٦٧ ثم مديراً له وناظراً للأشغال وناظراً للأوقاف . وجمع كل هذه الوزارات في سراي درب الحماميز ليسهل إشرافه عليها ثم أضيفت إليه مصلحة السكك الحديدية . وقد وزع وقته بين هذه الوزارات طوال النهار وزلفاً من الليل .

وقد أرسى مبادئ هامة في ميدان التربية والتعليم لاتزال معمولاً بها إلى اليوم . وليس هذا المقال مجال

هذا الواجب جنباً إلى جنب واجب آخر هو وضع الكتب المفيدة . فتأليف هذا النوع من الكتب هدف سعى إليه على مبارك بنفسه ودعا إليه القادرين على التأليف العلمى نهوضاً بالوطن وتوفية لما له من حقوق عليهم . ويقول فى أداء هذين الواجبين « ولهذا التزمت فى كل ما تقلدت من الأعمال ، وجميع ماقلبت فيه من الأحوال ، أن أخدم وطنى بكل مانالته يدي وبلغه إمكانى مما أراه يعود عليه بالفائدة والنفع قل أو جل ، كالسعى فى استكثار المكاتب والمدارس ، وتعميم التربية والتعليم ، ونشر الكتب المفيدة ، إما بالاشتغال فى تأليفها بنفسى ، أو الحث والتحريض عليها لمن أرى فيه أهلية القيام بها » .

وتمشيا مع ما أخذ به نفسه تميز على مبارك بالإنتاج العلمى والأدبى الوفير . ففضلاً عن كتاب الخطط التوفيقية له مؤلفات أخرى منها .

١ - حقائق الأخبار فى أوصاف البحار . وقد نشر أول الأمر فى حلقات متتابعة فى مجلة روضة المدارس ثم طبع مكتملاً فى مطبعة وادى النيل سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) .

٢ - تنوير الأفهام فى تغذى الأجسام . طبع سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م) .

٣ - نخبة النيل فى تدبير نيل مصر . وقد طبع فى مطبعة وادى النيل سنة ١٢٩٨ (١٨٨١) وقد أفرغ فى هذا الكتاب ثقافته الهندسية فى شئون الرى ومشروعاته فى مصر .

٤ - علم الدين . وهو قصة خيالية فى أربعة أجزاء تقع أحداثها فى مصر وأوروبا ، ويدور الحديث فيها بين أحد العلماء المصريين من خريجي الأزهر وقد أطلق عليه اسم علم الدين ، وبين عالم انجليزى وفد

الثورة سراعاً وانتهت بالإخفاق ووقوع البلاد فريسة للاحتلال البريطانى . ولما ألف شريف باشا وزارته الرابعة سنة ١٨٨٢ عقب الاحتلال دخلها على مبارك وزيراً للأشغال وظلت هذه الوزارة فى الحكم إلى أن استقالت فى يناير ١٨٨٤ احتجاجاً على أمر الحكومة البريطانية لها بإخلاء السودان وكان لعلى مبارك نصيب فى الموقف المشرف الذى وقفته هذه الوزارة ، ووجد الإنجليز فى نوبار باشا أداة طيعة لينة قبل تأليف الوزارة على قاعدة إخلاء السودان . ولم يدخل على مبارك هذه الوزارة بطبيعة الحال . وظل نوبار فى الحكم إلى أن استفد الإنجليز أغراضهم منه ومن وزارته ، فأقيمت الوزارة فى ٧ يونيو ١٨٨٨ ، وعهد توفيق إلى رياض باشا تأليف وزارة جديدة ودخلها على مبارك وزيراً للمعارف . وقد بقيت هذه الوزارة فى الحكم من ١١ يونيو ١٨٨٨ حتى ١٢ مايو ١٨٩١ وكان هذا التاريخ هو آخر عهد على مبارك بالمناصب الحكومية إذ آوى إلى داره ، وأخذ ينتقل بين القاهرة وقريته حيث أصيب بداء المئانة فعاد إلى القاهرة واشتدت عليه وطأة المرض إلى أن جاز إلى ربه فى داره بالحلمية الجديدة فى ١٤ نوفمبر ١٨٩٣ . وهو من الشخصيات المصرية القليلة التى عاصرت حكم محمد على وإبراهيم وعباس وسعيد واسماعيل وتوفيق وعباس حلمى . وكانت حياته خصبة حافلة بمجالات الخدمات والأعمال تجعل من صاحبها طرازاً فريداً بين الرجال .

مؤلفات على مبارك :

كان لعلى مبارك فلسفته فى الحياة ، فهو يرى أن أول واجب يؤدى إلى الشعب هو تعليم أبنائه ونشر التعليم بينهم وزيادة عدد المدارس حتى يصبح نابتة البلاد عناصر صالحة منتجة فى المجتمع . ويمشى مع

تناول فيه المؤلفان تاريخ مصر في مختلف العصور ابتداء من العصر الفرعوني ثم حكم القرس وعصرى البطلمة والرومان ثم العصر الإسلامى ووصلا فيه إلى سنة ١١٦٠ هـ (١٧٤٨) م أى إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى تقريباً وقد ذكر محمد مجدى وهو يترجم لوالده صالح مجدى (١) أن المؤلفين جمعا المادة العلمية لهذا الكتاب في نيف وأربعمئة كراسة وأنها لدى على مبارك وأنه يغلب على ظنه أنها مهياة للطبع ، ولكن هذا الكتاب للأسف مفقود لانعرف عنه شيئا .

١٢ - آثار الإسلام فى المدنية والعمران . ويقول الدكتور محمد درى باشا فى ترجمته لعلى مبارك باشا إن هذا الكتاب كان آخر ما ألفه على مبارك ، وقد تناول فيه ما أدخله الإسلام من العمران فى البلاد التى انتشر فيها ، وأنه لما انتهى من وضعه وتبييضه أعطاه لأحد علماء الأزهر لمراجعته ، وأن هذا الكتاب محفوظ فى خزانة على مبارك .

الخطط التوفيقية : ملامحها العامة :

وأما كتاب «الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة» فيمثل قمة إنتاجه العلمى وأوج نضوجه العقلى . ويقع فى عشرين جزءاً ، وهو موسوعة عربية كبرى أو دائرة معارف عربية خاصة بمصر . وقد سار على مبارك فى وضع هذه الموسوعة على نهج المقرئى فى خطه . وقد اشتهرت مصر الإسلامية بفن تأليف كتب الخطط . فهذا الفن ، كما يقول الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال ، فن مصرى أصيل نشأ فى مصر

إلى مصر وتعلم اللغة العربية . ويبدأ الحديث فى مصر ويتخذ العالم الإنجليزى موقف التلميذ من الشيخ المصرى يستوضحه مظاهر الحياة المصرية التى يراها وتاريخ البلاد . ثم يرحل الرجلان إلى أوروبا فيقلب الموقف تماماً ، وإذا بالعالم المصرى يتخذ موقف التلميذ ويسأل رفيقه الإنجليزى عن كل ما يراه فى المجتمع الأوروبى . واستهدف على مبارك من وضع هذه القصة عقد مقارنة بين مظاهر الحياة والحضارة فى الشرق والغرب لتنبه أذهان أهل الشرق إلى مزايا الحضارة الأوربية الحديثة . والكتاب يزخر بمادة علمية وتاريخية واجتماعية غزيرة ومفيدة وطريفة وتضمن بحثاً فى الموالد والأعياد والمواسم والمسارح ويسمىها «التياترات» وتعدد الزوجات ومضار تعاطى الخشيش . وقد طبع الكتاب فى مطبعة المحروسة فى الإسكندرية سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢) م .

٥ - الميزان فى الأقيسة والمكايل والأوزان ويحتوى على دراسة مقارنة فى تاريخ الأقيسة وغيرها فى مصر القديمة وفى مصر الإسلامية . وقد طبع فى القاهرة ١٣٠٩ هـ (١٨٩١) م .

٦ - خلاصة تاريخ العرب وهو كتاب عربى من للفرنسية لمؤلفه سيدبو . وطبع فى القاهرة سنة ١٣٠٩ (١٨٩١-١٨٩٢) م .

٧ - تذكرة المهندسين .

٨ - تقريب الهندسة .

٩ - طريق الهجاء والتمرين وهو فى جزئين .

١٠ - المزاحمة وتأثيرها فى الارتقاء البشرى .

١١ - ومن الكتب التى أشير إليها ولم تطبع إلى اليوم كتاب ضخيم وضعه بالاشتراك مع صالح مجدى

(١) صالح مجدى هو علم من أعلام مدرسة الألسن أظهر نبوغاً فى دراسة اللغة الفرنسية وتعاون مع على مبارك فى الإنتاج العلمى.

تعرضت لكثير من أحداث الزمن منذ أن شيدت على عهد المعز لدين الله رابع خلفاء الدولة الفاطمية وأولهم في مصر ، فحينما كانت القاهرة مدينة زاهرة عامرة ، وحينما كانت واهنة واهية . وقال إن المقرئى المؤرخ العربى الذائع الصيت قد شرح فى كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» وهو الكتاب المشهور باسم الخطط ، ما طرأ على القاهرة من تغيير فى معالمها من منشآت وميادين وشوارع وما إليها ، وأسدى بوضع هذا الكتاب خدمة جليلة للتاريخ . ولكن منذ أن جاز هذا المؤرخ إلى ربه فى أوائل سنة ١٤٤٢ لم يحفل أحد بأن يرسم خطاه فيتابع تسجيل التطور التاريخى والعمرانى والدينى والاجتماعى للقاهرة وسائر المدن المصرية على الرغم من الحاجة الماسة الى القيام بمثل هذا العمل ، فقد وقعت منذ وفاة المقرئى أحداث عصفت ببعض معالم كانت قائمة على عهده فاندثرت وكادت تصبح نسياً منسياً ، ونسبت منشآت لغير أصحابها ، كما نفذت مشروعات هامة وظهرت شخصيات قيادية تركت بصماتها فى تاريخ البلاد . ثم يقول على مبارك فى وطنية دافقة «إن معرفة ذلك حق علينا ، إذ لا يلىق بنا جهل بلادنا ، والتهاون بمعرفة آثار أسلافنا ، التى هى عبرة للمعتبر وذكري للمذكر . فهم وإن مضوا لسبيلهم ، قد تركوا لنا ما يحثنا على اقتفاء آثارهم ، وأن نصنع لوقتنا ما صنعوه لوقتهم ، وأن نجد فى طريق الإفادة كما جدوا » . ومن ثم جاشت فى نفس على مبارك رغبة جامحة فى وضع مثل هذا المرجع العلمى ، وقد وصفه فى تواضع العلماء بأنه « كتاب واف بما لمصر من قديم وحديث متضمن لذكر مبانيها الدائرة والموجودة » ما يتبع ذلك من أخبار أربابها وذكر نيلها ومنافعه وكيفية تصرفاته ومواضعه » بيد أنه استشعر من أول الأمر ضخامة

الإسلامية ، وفيها دون غيرها من الأمصار الإسلامية نما وترعرع . وكان الكندى أول من ألف فيه ، ولم يكن يمضى قرن بعد ذلك حتى يظهر فيه مؤلف أو أكثر يكتبون فى خطط مصر ، وكان آخرهم تقي الدين المقرئى (١) واتخذ على مبارك بصورة عامة خطط المقرئى أساساً لخططه التوفيقية ، فتتبع مدن مصر وقراها ، ووصف طبوغرافيتها ، فكان يتحدث عن موقع المدينة أو القرية أولاً ، ثم يؤرخ لها من أقدم العصور إلى الوقت الذى اندثرت فيه أو حتى القرن التاسع عشر إذا كانت لاتزال قائمة ، ويصف ما بها من منشآت ومرافق عامة مثل المساجد والزوايا والأضرحة والكنائس والأديرة والمدارس والكتاتيب والوكائل والحمامات والمستشفيات والمصانع والقصور والدور ويثبت ما أصابها من تغيير . ويقرن هذا الوصف الطبوغرافى المسهب بترجمة لمن برز فى كل بلدة ممن ولدوا بها أو عاشوا فيها أو دفنوا فى ثراها . وقد أفرد على مبارك الأجزاء الستة الأولى لمدينة القاهرة ، وخص مدينة الإسكندرية بالجزء السابع ثم أرخ لباقي المدن المصرية فى عشرة أجزاء تبدأ من الجزء الثامن إلى الجزء السابع عشر . وأفرد الجزء الثامن عشر لمقياس النيل منذ عهد الفراعنة حتى القرن التاسع عشر والاحتفالات التى كانت تقام عند وفاة النيل فى مختلف العصور . وفى الجزء التاسع عشر تكلم عن ترع النيل ورياحاته ومنشآت الرى . أما الجزء العشرون فقد أرخ فيه للنفود المصرية فى العصر الإسلامى .

عرض سريع لمحتوى الخطط التوفيقية :

شرح على مبارك البواعث التى أملت عليه وضع هذه الموسوعة العربية ، فقال إن مدينة القاهرة قد

(١) دكتور جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون فى

مصر فى القرن التاسع عشر . الطبعة الأولى ١٩٥٨ ص ١٠٥ ١٠٦

المشروع وصعوبته لما يحتاجه من مجهود مضمّن وقت فسيح لا يتسع له وقته بسبب أعباء المناصب الكبرى التي كان يتعلدها مجتمعة في يده ، ومن ثم عرض على صفوة من علماء مصر القيام بهذا المشروع العلمى الجليل فلم تلق دعوته استجابة منهم وانتهى به التفكير إلى أنه لا مناص من أن ينهض بمفرده بهذا العمل .

وقد استهل على مبارك الجزء الأول من الخطط التوفيقية بوصف المكان الذى أقيمت عليه مدينة القاهرة كقدمة لوصف هذه العاصمة مدة الخلفاء الفاطميين ثم انتقل إلى كتابة تاريخ مصر عبر العصور التاريخية منذ تأسيس القاهرة حتى السنوات الأخيرة من حكم الخديو توفيق فوقف عند سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧- ١٨٨٨ م) أى بعد الاحتلال البريطانى لمصر بست سنوات تقريبا ، وهى فترة اجتمع فيها مجد الوطن وبؤسه والتقى أملة الطالع بشمس الغاربة ، وشهدت البلاد قيام عدة دول وأسرار تعاقبت على حكمها : فأرخ للدولة الفاطمية ثم للأيوبية والمماليك البحرية والمماليك البرجية والحكم العثمانى لمصر والاحتلال الفرنسى وسنوات الاضطراب السياسى التى أعقبت خروج الفرنسيين ثم تولية أسرة محمد على حكم مصر حتى الثمانينات من القرن التاسع عشر - وعاد المؤلف بعد هذا السرد التاريخى إلى مدينة القاهرة يعين حدودها وتقسيمها الإدارى فى القرن التاسع عشر وعدد أقسام الشرطة والمراقف العامة بها من مستشفيات وصيديات ومدارس حديثة ومرفق المياه وذكر عدد المساجد والزوايا والربط (١) والخوانق (٢) والتكايا (٣) والأسبلة (٤) والمقاهى والحمامات العامة وموالد الأولياء وعدد سكان القاهرة حسب تعداد ١٨٨٢ وقد بلغ ٣٧٤,٨٣٨ نسمة ثم أورد احصائية طريفة

عن أصحاب الحرف فى القاهرة وقد بلغ عددها ٧٥ حرفة . وكانت أكثر الحرف تعدادا هى حرفة الحمارية فقد بلغ عدد أفرادها ١٧٣٩ ، ويلاحظ أن وسيلة المواصلات الرئيسية لعامة الشعب فى القاهرة وقتذاك كانت الحمير . وكان يلى الحمارية - من حيث العدد - النجارون (الدق) ثم عمال البناء ثم البقالون فالترزية ثم الصرمانية وهم المشتغلون بصنع الأحذية والبلغ وتصليحها . وكان أقل رجال الحرف تعدادا هم الصدفجية أى المشتغلون بتطعيم الأخشاب بالصدف وصانعو المنشآت .

وفى الجزء الثانى تكلم المؤلف عن شوارع مدينة القاهرة وحاراتها وعطفها ودروبها وما يتبع ذلك من أسواقها . وقد بدأ هذا الجزء بحى الحسينية . وكان يتكلم عن كل شارع من حيث بدايته ومساره ونهايته والأزقة التى تتفرع منه وما بنى فيه من المساجد والزوايا والأضرحة والأسبلة والتكايا والمدارس

(١) الربط ويطلق عليها أيضاً الرباطات جمع رباط وهو مكان كان يعد لإقامة المتصوفة فيه وكان بعض الربط يخص للسيدات المنقطعات أو المهجورات أو المطلقات أو المعجئات الأرامل الماهدات .

(٢) الخوانق ويطلق عليها أيضاً الخانقاوات وهى كلمة فارسية معناها بيت العبادة ثم خصصت لإقامة المتصوفة . وكانت تحبس عليها الأوقاف السخية .

(٣) التكايا جمع تكية وهى مكان يقيم فيه الدراويش من الأغايم .

(٤) الأسبلة جمع سبل مكان يتنق منه المارة بواسطة كوز من النحاس مربوط بسلسلة وكان تحت السبل صبريج تخزن فيه المياه . كان يقام عادة فوق السبل مكتب لتعليم الأطفال القرآن الكريم والكتابة .

الفاطميين وخزانة الكسوة بشارع النحاسين وشى أنواع الخزائن التي كانت قائمة في هذا الشارع مثل خزانة القرش وخزانة الخيم والأمنعة والسلاح والسرج وخزانة الطيب والجواهر والطرائف ، ثم مشيخة الجامع الأزهر وتجديد بناء المسجد الحسيني وبيان ما أنفق في سبيل ذلك . ويلاحظ أن الفهرس الموضوع لهذا الجزء يتبع النظام التالي في ذكر خطط القاهرة مع التقيد بترتيب الحروف الأبجدية في كل قسم: الشوارع - الحارات - العطف - الدروب - الجوامع - الزوايا - المدارس - التكايا - الأضرحة - الأسبلة - الحمامات - الدور - القصور - الكنائس - المكاتب الأهلية - الوكائل - التراجم - المطالب (١) .

وفي الجزء الثالث سار على مبارك على نسق الجزء الثاني فتكلم عن بقية شوارع القاهرة ومنشآتها، وبدأ بشارع بين السورين . وعالج المؤلف موضوعين هامين في هذا الجزء هما الأسطول الحربى المصرى على عهد الفاطميين وقواعده في دمياط والإسكندرية وغيرهما ، ثم موضوع الرزق الإحباسية الموقوفة على جهات البر ، وأفاض في شرح أنواعها وتطورها التاريخي . وقد حفل هذا الجزء بتراجم لعدد كبير من الأعلام في تاريخ مصر الوسيط والحديث سواء في دنيا المال والاقتصاد أو في عالم السياسة أو في مجال العلم أو الدين أو الحرب أو الإدارة ، نذكر على سبيل المثال احمد المحرقى كبير تجار القاهرة وقد ارتبط اسمه بأحداث الحملة الفرنسية على مصر وما تلاها ثم ابنه محمد المحرقى، والفائد جوهر الصقلى والشيخ محمد مرتضى الزبيدى من أبرز علماء مصر في القرن الثامن

(١) المطالب يقصد بها أبحاث

والوكائل والكنائس والحمامات والقصور والخانات (١) وتتميز هذه الطبوغرافية الدقيقة بمادة تاريخية طريفة ، فاذا تكلم مثلاً عن المنحر الذى اتخذ الخلفاء الفاطميون للذبح الأضاحى في عيد الأضحى وصف وصفا شائقا خروج الخليفة في موكب الرائع لأداء صلاة العيد ثم الذبائح التي كانت تنحر في ذلك اليوم وما يتخلل ذلك من مراسم ، ثم الأسسطة التي كانت تمتد إلى غير ذلك من صور للحياة الاجتماعية في مصر أيام الفاطميين - وفي هذا الجزء وصف على مبارك قصر ابن طولون ومدينة القطائع وما طرأ عليها . وقد ترجم في هذا الجزء أيضا لبعض الوزراء الفاطميين والأمراء المماليك وكبار مشايخ الطرق الصوفية ومن إليهم ممن أطلقت أسماؤهم على بعض المساجد والمنشآت العامة ، كما ترجم لبعض كبار موظفى الحكومة المصرية المعاصرين له مثل عبد الله باشا فكرى وزير المعارف في وزارة محمود سامى البارودى ، وترجم أيضا لحسين باشا حسنى ناظر مطبعة بولاق الأميرية ، وحجاج الحضرى أحد أبطال المقاومة الشعبية في مطلع القرن التاسع عشر والذى تميز بالبطولة والفداية ، ورفلة عبيد أحد كبار التجار في حى الجمالية ، وترجم لشيوخ قبيلة كتامة الذين وفدوا مع الفاطميين إلى مصر . واختتم هذا الجزء بمائة وخمسة وعشرين بحثا تناول فيها شتى الموضوعات في التاريخ والمجتمع والطبوغرافية وما إلى ذلك مثل أسواق القاهرة القديمة سواء التي كانت قائمة في شارع مرجوش أو الغورية أو في شارع الخردجية بخط الجواهرجية ، وخزانة الكتب أيام

(١) خانات جمع خان وهو وكالة أو فندق معد لاستقبال التجار والحجاج وبضائعهم أو أمتعتهم وذواهم ويوجد به اصطبل للدواب وفي أعلاه غرف ينزل فيها الوافدون وتطل هذه المساكن على ساحة يطلق عليها الحوش يتوسط الخان . وكان يلحق بالخان بئر ماء وميضأة ومسجد صغير .

عشر. والذي شرح القاموس وأطلق على شرحه تاج القاموس في عشرة مجلدات ، ثم الأمير أزيك بك الذى أطلق اسمه على منطقة الأذربكية ، ثم الأمير حسن بك الحداوى ، كما ترجم ترجمة مقتضبة نوعا ما للأمير محمد بك الألتى كبير بيت الألفية في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر . كما ترجم المؤلف لبعض الحماض من الدراويش مثل الشيخ على البكرى (١) والشيخة أمونة . وكان الاثنان وأضرابهما يمثلون قطاعا هاما في المجتمع المصرى في القرن الثامن عشر هو قطاع الدراويش وقد اتخذ معظمهم الدجل والشعوذة وسيلة لايتراز الأموال من البسطاء رجالا ونساء باسم الدين والدين منهم براء .

وتضمن هذا الجزء أيضا مائة وأربعة وستين بحثا تناول فيها موضوعات متنوعة نذكر منها على سبيل المثال تحديد مواقع الأرض الحكر (٢) في القاهرة وأنواعها وأوجه استغلالها ، وإنشاء دار الكتب المصرية ودار الضيافة وزواج السلطان طومانباى آخر سلاطين دولة المماليك الشراكسة ، وخان الحمازوى ، وأسوار القاهرة ، والمباني التى أزيلت عند بناء قصر عابدين ، ومسكن بونايرت في

(١) كان هذا المجهول يسكن سويفة الكرى فأطلق عليه اسم البكرى نسبة إلى السويفة وهو بذلك ، كما يقرر الجبرى ، لايمت بصلة إلى أسرة البكرى . انظر الجبرى ج ٢ ص ٢٤٨ . وانظر قسمته في ج ٢ ص ص ٨٠ - ٨١ .

(٢) الحكر نوع من أنواع استغلال الأرض الموقوفة ويكون تأجيرها لفرض معين كالبناء والفراس فيها دون تقييد بمدة معينة فهو تملك الممتكر حق البقاء والقرار في الأرض الممتكرة له مادام ملتزما بدفع أجرة المثل . انظر : محمد سلام مذكور . موجز الوقف من الناحية الفقهية والتطبيقية ١٩٦١ ص ص ٩٧ - ٩٩ وانظر أيضا دكتور عبد المنعم البدروى : المدخل للنظم القانونية ١٩٦٢ ص ص ٥٠٩ - ٥١١ .

بيت الألتى بالأذربكية وسكنى محمد على فيه ، ومدرسة الألسن ، ومعنى لفظة الخور لغة وعرفا عندما تعرض لخليج الخور بشارع قنطرة الدكة ، وكذلك سراى العتبة الخضراء . وأفرد في نهاية الجزء الثانى بحثا مستفيضا عن أسرة البكرى التى ينتهى نسبها إلى أبى بكر أول الخلفاء الراشدين ويضئ المؤلف على هذه الأسرة الكثير من عبارات التبجيل . وانتهاز الفرصة فترجم لأبى بكر الصديق ثم تكلم عن أصلاب أسرة البكرى وبعض فروعها وانتقل بعد ذلك إلى بيان الطرق الصوفية التابعة لمشيخة البكرى والتكايا التابعة لها ، وشرح تحت عنوان «العوائد الخصوصية للبيت الصديق» احتفالات المولد النبوى الشريف التى كانت تقام على مر العصور في المشرق والمغرب العربيين ثم وصف هذه الاحتفالات في مصر الحديثة وحرص على إبراز دور أسرة البكرى في هذه الحفلات وما تنفقه في سبيلها من أموالها . وقد جاء فهرس هذا الجزء متمشيا مع فهرس الجزء الثانى من حيث ترتيب ذكر المنشآت مع اختلاف يسير يتمثل في تقديم أو تأخير بعضها فذكرها على النحو التالى : الشوارع - الحارات - العطف - الدروب - الجوامع - الزوايا - المدارس - الأضرحة - الأسبلة - المكاتب الأهلية - الكتائب - الحمامات - الوكائل - الدور - التراجم - المباحث والمطالب .

* * *

وأفرد على مبارك الجزء الرابع لمساجد القاهرة وابتدأ بتاج الجوامع وهو الجامع العتيق أو مسجد عمرو ابن العاص على أساس أنه أول مسجد أسس في مصر الإسلامية ، فكتب فيه بحثا تناول فيه تاريخ إنشاء المسجد والتطور المعمارى الذى طرأ عليه من حيث التجديدات والزيادات التى أضيفت إليه ، وزوايا التدريس بهذا

المسجد . وانتقل المؤلف إلى ذكر مساجد القاهرة ملتزماً بالترتيب الأبجدي لأسمائها ، فبدأ - بعد جامع عمرو - بالجامع الأزهر وأفاض في عرض تاريخه عبر القرون ووصف الجامع من حيث حدوده وأبوابه ومقاصيره ومحاريبه وصحنه وأروقته ومناراته ومزاوله والقناديل التي تستخدم في إنارته والصهاريج التي تستخدم كستودعات للمياه العذبة والمدارس الملحقة بالجامع الأزهر ، وتطرق إلى شرح طرق التدريس في الأزهر وأساليب الامتحانات وطلبة الأزهر وعاداتهم ومأكلهم ، وترجم للعلماء الذين تولوا مشيخة الأزهر . والحق أن ما كتبه على مبارك عن الأزهر في هذا الجزء يعتبر كتاباً قائماً بذاته . ومضى بعد ذلك يستعرض مساجد القاهرة واختص المساجد الكبرى بالإسهاب والتأريخ لها ، وتذكر منها مساجد ابن طولون والحاكم بأمر الله والسلطان حسن والرفاعي والمسجد الحسيني والسلطان الحنفى وأبى العلا وأولاد عنان والدمرداش . وجريا على عادته ترجم لهذه الشخصيات التي أطلقت أسمائها على المساجد سواء كانت شخصيات دينية أو سياسية . واختص سيرة الحسين بن علي بن أبى طالب بإسهاب فترجم للحسين وخروجه من مكة إلى العراق واستشهاده بها والأحاديث التي كانت تروى وما اتخذته الشيعة يوم قتله والعادات التي لا يزال يتمسك بها الشيعة إلى الوقت الحاضر في شهر المحرم . وترجم المؤلف أيضا لعدد من المتصوفة المدفونين بخانقاه سعيد السعداء . وانتهى في هذا الجزء عند مسجد الرويعي .

* * *

ومضى على مبارك في الجزء الخامس على نفس النهج يؤرخ لبقية مساجد القاهرة مبتدئا بحرف الزاى حتى آخر الأبجدية العربية . ومن أهم المساجد الكبرى التي أرخ لها في هذا الجزء زين العابدين والسيدة

زينب والسيدة سكينه والسيدة عائشة والسيدة فاطمة النبوية والإمام الشافعى وجامع المؤيد والظاهر والغورى والقاضى يحيى وجامع الكخيا - على مقربة من ميدان الأوبرا حاليا - وجامع الليث بن سعد بالقرب من مسجد الإمام الشافعى وجامع سنان باشا بيولاى على مقربة من شاطئ النيل وجامع قايتباى بقلعة الكيش والروضة والصحراء وجامع المؤيد وقوصون وجامع السادات الوفائية وجامع محمد على بالقلعة وقد أسهب في وصف الجامع الأخير وجامع الامام الشافعى من قبل . وأورد المؤلف في هذا الجزء بيانا عن الأوقاف الموقوفة على جامع كل من الغورى وسيدى عقبة وقايتباى وكوم الشيخ سلامة والكبخيا ومحمد أبى الذهب والإمام الشافعى وجامع سنان باشا وملحقاته من السبيل والمكتب والخان الكبير بيولاى . وذكر في هذا الجزء أيضا حادثين يعكسان نهورتين من صور المجتمع في مصر وقد وقع أولهما في النصف الأول من القرن الثامن عشر وثانيهما في نصفه الثاني . ويتلخص الحادث الأول في أن واعظاً تركيا أخذ يعظ المصلين في مسجد المؤيد خلال شهر رمضان ١١٢٣ (١٣ أكتوبر - ١١ نوفمبر ١٧١١) وحمل حملة عنيفة على ما يفعله فريق من المصريين بأضرحة الأولياء وإيقاد الشموع والقناديل فوقها وحولها وجاهر بأنه لا يجوز بناء القباب فوق أضرحة الأولياء . وقد صادفت آراء هذا الواعظ التركي قبولاً من جمهرة المستمعين وتحسوا لها ، إلا أن نهاية الواعظ كانت مؤسفة إذ تكفل ضده بعض علماء الأزهر وقاضى القضاة وانضم إليهم الباشا العثمانى ومن ثم أصدر الأوامر إلى الجنود بنى الواعظ وألقوا القبض على زعماء المصريين الذين ناصروه وأوسعوهم ضرباً وإهانة ونفوا بعضهم . أما الحادث الثانى فيتمثل في أغرب عملية نصب ارتكبت في القاهرة سنة ١١٧٣ هـ (١٧٥٩ -

(١٧٦٠) وهي حادث العترة الصغيرة التي احتفظ بها الشيخ عبد اللطيف كبير خدام مسجد السيدة نفيسة ونسج حول العترة قصصاً خيالية تدل على أنها تتمتع بكرامات شتى وتسامع الناس بهذه القصص حتى أصبحت العترة حديث القاهرة فأقبل أهلها من كل فج لزيارة العترة ويقدمون للشيخ النذور والهدايا . وأوغل الشيخ في استغلال العترة والجهامير معاً ، فقال إنها لا تأكل إلا قلب اللوز والفسق ولا تشرب إلا ماء الورد والسكر المكرر ، فحمل إليه الأهالي هذه الأصناف بكميات وفيرة وعملوا للعترة قلائد وأطواق من الذهب الخالص . وسمع الأمير عبد الرحمن كتحدا - كبير الأمراء المماليك - بقصة العترة فأرسل إلى الشيخ عبد اللطيف يلتمس منه الحضور ومعه العترة ليتبرك بها هو وأهل بيته . فركب الشيخ البغلة ووضع في حجره العترة وتحف به الطبول والأعلام والجسم الغفير من الشعب حتى إذا وصل هذا الركب إلى دار الأمير أمر بادخال العترة إلى الحرم ليتباركن بها ، وكان قد أوصى بذبحها وطبخها وجيء بالغذاء وفيه لحم العترة فأكل منها الأمير والشيخ وضيوف الأمير من الأمراء والأعيان . ولما فرغوا من الأكل وتناولوا القهوة طلب الشيخ العترة ليعود بها إلى مقر عمله فأخبره الأمير بما حدث وأنبه تأنياً عنيقاً وأمر بأن يوضع جلد العترة على عمامته وأن يذهب بها كما جاء بموكبه وبين يديه الطبول والأعلام وعهد بشرذمة من الجنود بإيصاله وهو على هذه الصورة النكراء إلى المسجد النفيسى . وقد حفل هذا الجزء أيضاً بعدد من الشخصيات ترجم لها المؤلف نذكر منها سنان باشا الذي قاد حملة عسكرية عثمانية كبرى لإعادة فتح بلاد اليمن سنئى ١٥٦٨-١٥٦٩ وكان الزيدية قد تمكنوا من طرد العثمانيين من أغلب بقاع اليمن . ودارت حرب ضروس

بين العثمانيين وبين الزيدية انتصر فيها سنان باشا وسمى هذا الفتح بالفتح الثاني لليمن . ومما ذكره على مبارك أمرين : أولهما أن سنان باشا ضم إلى الحملة العسكرية عدداً من الأمراء المماليك صناعق مصر فاستشهدوا جميعاً في حرب اليمن ، وثانيهما أن سنان باشا عين مرتين والياً على مصر وكانت المرة الأولى قبل حملة اليمن من ٢٤ شعبان ٩٧٥ حتى ١٣ جمادى الآخرة ٩٧٦ (فبراير ١٥٦٧ - ديسمبر ١٥٦٨) وكانت المرة الثانية بعد انتهاء حملة اليمن من أول صفر ٩٧٩ حتى سنة ٩٨١ (يونيو ١٥٧١-١٥٧٤) وأنه تولى الصدارة العظمى أى رئاسة الوزارة فى الآستانة أربع مرات . ومن الشخصيات التي ترجم لها على مبارك في هذا الجزء أيضاً الملك الكامل وشجر الدر والظاهر بيبرس والسلطان المؤيد والأشرف قايتباى وقانصوه الغورى ومحمد أبو الذهب وعبد الرحمن كتحدا ، ومن الشخصيات الدينية الإمام الشافعى والشيخ أحمد السبكى وعقبة بن عامر وذو النون المصرى وعمر بن الفارض والسيدة عائشة والسيدة سكينة والسيدة نفيسة كما كتب نبذة عن السيدة زينب .

وكان الجزء السادس هو ختام الأجزاء التي خصصها المؤلف لمدينة القاهرة . وقد استهل هذا الجزء بالكلام عن مدارس القاهرة فأرخ لست وتسعين مدرسة أنشئت منذ عصر الدولة الأيوبية وبعضها مدارس قائمة بذاتها وبعضها ملحق بالمساجد والبعض الثالث تحول عن غرضه الأصلي فأصبح يستخدم فى أغراض أخرى بعيدة عن التعليم مثل مدرسة الأشرف ايتال وقد أنشأها بالصحراء حيث القرافة الكبرى ، الملك الأشرف أبو النصر ايتال العللى الناصرى سنة ٨٦٠ هـ (١٤٥٦ م) فقد أصبحت مخزناً للبارود يتبع وزارة

الحرية . ومعظم المدارس التي أُرُخ لها على مبارك يرجع إلى القرن الثامن الهجرى وإن كان بعضها يرجع إلى القرن السابع ثم القرنين التاسع والعاشر . ويلاحظ أن المؤلف لم يؤرخ في هذا الجزء للمدارس الحديثة التي أنشئت في القاهرة في القرن التاسع عشر الميلادى مثل مدرسة الطب البشرى والطب البيطرى والمهندسخانة والزراعة والصيدلة والكيمياء والألسن والمعادن وغيرها . ومن المدارس انتقل إلى الزوايا وهى المساجد الصغيرة وقد أُرُخ لمائة وست وتسعين زاوية ، كان معظمها تقام فيه الشعائر وقليل منها معطل الشعائر وبعضها تنفق عليه وزارة الأوقاف أو « تحت نظر ديوان عموم الأوقاف » بمصطلح العصر وبعضها يعتمد على الوقف الأهلى ، إذ كان منشئو هذه الزوايا يشيدون فى بناية الزاوية بعض الحوانيت أو بغض المساكن ويوقف إيرادها للاتفاق منه على الزاوية . وكان المؤلف حريصاً على ذكر التجديدات التي عملت للزوايا على مر العصور فكان يذكر اسم الشخصية التي أمرت بتجديد الزاوية وما أنفق عليها فى عمليات التجديد ثم يقرن ذلك بذكر الوقفية التي عملت للاتفاق على الزاوية . وخير مثل يضرب فى هذا الصدد زاوية الطحاوى بالقرب من الإمام الشافعى ، فقد جاء فى الخطط فى هذا الجزء السادس أن حمزة باشا الوالى العثمانى أمر بتجديد الزاوية سنة ١٠٩٨ هـ (١٦٨٦-١٦٨٧) وأقام بها سبيلا وحوضاً وساقية ومزولة راسية ومزلة لشرب الماء . وفى حجة وقفه المؤرخة فى ١٠٩٩ هـ (١٦٨٧-١٦٨٨) أنه أرصد على هذه الزاوية والمقام المدفون فيه الشيخ أحمد الطحاوى والسبيل والحوض والساقية جهات بر عديدة ينفق من إيرادها على أجرة الحمال التي تحمل الماء يومياً من النيل إلى السبيل وحدد مرتبات شهرية تدفع بانتظام إلى كل من شيخ القراء والقراء بالزاوية

والمقام والبواب والفراش والخفير ومفرق الربة وخدم كل من الزاوية والمقام والسبيل وكذلك ثمن زيت القناديل وأجرة الوقاد . وذكر المؤلف أنه توجد فى القاهرة ست عشرة زاوية تسمى كل واحدة زاوية الأربعين ، وأن فى معظم الزوايا أضرحة لبعض المشايخ تعمل لهم حضرة يوماً فى الأسبوع يتلى فيها القرآن الكريم والأوراد أو الأحزاب إذا كان الشيخ المدفون من المتصوفة ، كما يقام له مولد كل عام . ونستدل أيضاً من الدراسة الفاحصة للزوايا التى أُرُخ لها على مبارك أنه كان يقيم فى بعضها مجذوب من الدراويش وغالباً ما يطلق على هذه الزاوية اسم هذا الشخص المجذوب ، فى زاوية ابراهيم بن عصفير بشارع بين السورين كان يقيم فيها هذا الابراهيم وتبدو منه تصرفات غريبة ، فإذا مرت عليه جنازة وأهلها سيكون هرع إلى النعش يمشى أمامه ويقول ، زلاية هريسة ويكررها . وقد مات هذا المجذوب سنة ٩٤٢ هـ إبان الحكم العثمانى ودفن بالزاوية . ومن الزوايا التى من هذا القليل زاوية الشيخ عبد الرحمن المجذوب بالحسينية وكان رجلاً مقعداً يجلس على الرمل صيفاً وشتاء وإذا جاع أوعطش قال : أطعموه أسقوه . وكان ثلاثة أشهر يتكلم وثلاثة أشهر يسكت ، وقد دفن فى هذه الزاوية التى أطلق عليها اسمه . ومن الزوايا عاد على مبارك إلى استكمال بحث مساجد القاهرة فأرُخ لسبعة عشر مسجداً مع تراجم لأصحاب بعضها . وانتقل بعد ذلك إلى الخوانق فأرُخ لثمانى عشرة خانقاه وكان من بينها خانقاه سعيد السعداء وبيبرس وشيخ وقوصون ويونس وطناى النجمى وطبرس . وانتقل المؤلف بعد ذلك إلى الربط فتكلم عن سبعة ربط كان من بينها رباط البغدادية والخازن والفخرى والمشتهى والست كليلة . ومن الربط انتقل إلى التكايا فذكر عشرين تكية ، نذكر منها تكية المغاورى وشيخو والخلوتية

ودرب قرمز والسناية والسلمانية والمولوية والنقشبندية وتكية السيدة نفيسة وتكية السيدة رقية وتكية السادة الوفائية وتكية الهنود . ثم تكلم عن الأسبلة أو السبل في القاهرة فذكر خمسة وخمسين سيلا كان من بينها سبيل أم عباس ورضوان بك والسلطان محمود والسلطان مصطفى والشيخ صالح وحسن كتخدا عزبان وخليل أغا مستحفظان وطوسن باشا والست شوكار والست عائشة وعائشة هانم والعادلى والهايم واليازجى . واستطرد على مبارك إلى الحمامات العامة في مدينة القاهرة فتكلم عن ستين حماماً منتشرة في أنحاء القاهرة ، كان من بينها حمام الأفندى وحمام الباشا وحمام الخليفة وحمام بابا وحمام الخواجة وحمام البشرى وحمام الثلاث وحمام الدرب الأحمر وحمام الذهبى وحمام السيوفى والشعرافى والصناديق والصليية وطولون والعتبة الخضراء والعدوى والعطارين والغورية وقلاوون والكبخيا والقرية والقاضى والمقاصيص والمؤيد والناصرية . واختتم المؤلف الجزء السادس بالكلام عن الكنائس الموجودة في القاهرة والتابعة لمختلف الطوائف المسيحية فذكر ست وعشرين كنيسة منها كنيسة الأرمن الكاثوليك وكنيسة الأروام وكنيسة خميس العهد وكنيسة الشوام والسيح بنات والسريانى والموارنة ، وذكر كنيسة واحداً لليهود ، ثم عاد وتكلم عن كنائس الأقباط الأرثوذكس المقامة في القاهرة حتى سنة ١٨٨١ وقد بدأ بالكنيسة البطريركية الكاتدرائية الكبرى وقال إنها معروفة أيضاً باسم الكنيسة المرقسية لأنها مرسومة باسم القديس مرقس الحواري المبشر بالإنجيل في الديار المصرية ، كما أنها تعرف بالبطريكخانة وبالقلاية أيضاً ، وأن معنى القلاية مسكن الرئيس الروحى ، ثم عرض بالتفصيل لتاريخ إنشائها وكيف أن أخت السلطان العثمانى كانت قد مرت بمصر في طريقها من الآستانة إلى الحجاز لأداء

فريضة الحج وسارع المعلم إبراهيم الجوهري رئيس كتبة القطر المصرى بتقديم خدمات جليلة لها أثناء إقامتها في الديار المصرية في الذهاب ولعودة ، كما قدم لها هدايا قيمة تناسب مقامها . فأرادت مكافأته واستفسرت منه عما يريده فالتمس منها المساعدة في استصدار مرسوم من السلطان بالإذن في بناء كنيسة بالأزبكية ورفع الجزية عن الرهبان وغير ذلك من مسائل طائفية ، وقد استجابت الآستانة لهذه الطلبات وانتهى العمل في تشييدها سنة ١٨٠٠ وأخذ على مبارك يصف الكنيسة والهيكل المقامة بها والقباب والنقوش والأعمدة الرخامية وما إلى ذلك . وأرخ بعد ذلك لعدد آخر من كنائس الأقباط الأرثوذكس في القاهرة ومنها الكنيسة الأولى والكنيسة الثانية بحارة زويلة وكنيسة حارة الروم السفلى وكنيسة الشهيد جرجيوس وكنيسة حارة السقاين . وترجم لبعض مشاهير الأقباط في القرن التاسع عشر مثل دميان بك جاد شيخه وميخائيل جاد تادرس عريان وابنه عريان بك تادرس . ثم أردف ذلك ببحث عن تاريخ بطاركة الأقباط الأرثوذكس وقد بدأ فيه حيث انتهى المقرئ الذى كان قد وقف في سرده لتاريخ البطاركة عند البطريرك اثناسيوس ابن القس أنى المكارم بن كليل وكان هذا البطريرك هو السادس والسبعون في عدد البطاركة الذين تولوا الكرسي البطريركى الإسكندري فآتم على مبارك تاريخ البطاركة مبتدئاً بالبطريرك السابع والسبعين وهو غبرائيل الثالث ومضى يستعرض تاريخ كل منهم الواحد بعد الآخر حتى وصل إلى البطريرك الثانى عشر بعد المائة وهو كيرولس الخامس وقد صدر أمر الخديو اسماعيل بتعيينه بطريركاً في سنة ١٨٧٥ .

وقد أفرد المؤلف الجزء السابع لمدينة الإسكندرية

فبدأ بموقع المدينة وما كان يوجد به إبان العصر الفرعوني وحكم الفرس لمصر وانتقل إلى حروب الإسكندر المقدوني وتأسيس مدينة الإسكندرية وتدرج إلى تاريخ مصر أيام البطالة والرومان وكيف اتخذ هؤلاء وأولئك الإسكندرية عاصمة للبلاد وخص مكتبة الإسكندرية ببحث خاص أوضح فيه مكانتها العلمية في العالم وقتذاك وانتقل إلى الفتح العربي لمصر وبناء مدينة القسطنطينية وانساق إلى نشأة الإسلام وأفاض في شرح السيرة النبوية العطرة ثم خلافي أبي بكر وعمر والفتوحات التي تمت وقتذاك في آسيا وأفريقيا وعاد إلى فتح مصر وتكلم عن موقف القوقس من العرب أثناء العمليات الحربية وحصار عمرو بن العاص لمدينة الإسكندرية، وناقش موضوع حرق مكتبة الإسكندرية وفند الفرية القائلة بأن العرب هم الذين أعملوا فيها النار، ثم تكلم عن عدد الولاة والحكام والملوك والخلفاء والولاة الذين تعاقبوا على حكم مصر منذ الفتح العربي ٦٤١ حتى قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ واستطرد إلى الأزمات القومية وموجات الغلاء والأوبئة التي تعرضت لها مصر خلال هذه الأحقاب، واستعرض تاريخ بعض الولاة العثمانيين على مصر، ثم شرح كيف فقدت الإسكندرية زعامتها السياسية والعلمية وكيف انتقلت هذه الزعامة إلى القسطنطينية والقاهرة، وأبرز دور صلاح الدين الأيوبي في إنهاء الحكم الفاطمي في مصر والصراع الحربي الذي اشتد أواره بينه وبين الصليبيين وتدرج إلى تاريخ الحروب الصليبية - ويسمى حرب الصليب - وخص بالذكر موقعة فارسكور سنة ١٢٥٠ ويسمىها « واقعة ستلويز المشهورة » وهو يقصد بلفظة ستلويز سانت لويس Saint Louis أي لويس المقدس وهو لويس التاسع ملك فرنسا وعاد فأطلق عليها « غارة سندلويز » وهو يقصد بهذه العبارة حملة لويس التاسع . وتكلم

طويلا عن هزيمته في فارسكور ووقوعه في الأسر واقتياده إلى المنصورة واقتياده بالمال الوفير . وخلص من هذا الاستطرد إلى القول بأن « غارة سندلويز سنة ١٢٤٨ على الديار المصرية لم تضر بالقطر ، وإنما أضرت بالإسكندرية لأن الفرنساوية والبندقيين أضرموا فيها النار وتركوها حين علموا أنهم لا يمكنهم الإقامة بها وذلك سنة ١٢٥٠ » ثم تعرض لتاريخ الدولة الأيوبية ودولتي المماليك والحكم العثماني وشرح النظم السياسية والإدارية التي وضعها العثمانيون لحكم مصر وكيف تطورت هذه الأنظمة تطورا أدى إلى استئثار الأمراء المماليك بالنفوذ، وتكلم عن حركة علي بك الكبير - ويسمى علي بك أباطة - وفشل هذه الحركة واستمر يؤرخ لمصر إبان حكم أبي الذهب ومراد بك وإبراهيم بك حتى نزول الحملة الفرنسية أرض مصر . وخلص من هذا التاريخ إلى حكم عام ينسحب على الإسكندرية وغيرها من بلاد القطر إذ قال « ومن النظر فيما تقدم من أخبار المديد السابقة والتقلبات التي مرت على تلك الديار علم أن مدينة الإسكندرية وغيرها من بلاد القطر بعد أن كانت متوجة بتاج المهابة والإجلال راقلة في حلل السعادة والإقبال ، وكان وادي النيل مزينا من كل جانب بالمدن الفخيمة ذات المعابد والمياكل المشيدة العظيمة ، تلوح على صغير أهلها وكبيرهم لوائح الرروة والابتهاج ، نالها من شدائد الأزمان ما أخرها عن هذه التقدّمات ... »

وانتقل من هذا التعميم إلى التخصيص وأخذ يتكلم عن تاريخ الإسكندرية منذ إنشائها على عهد الإسكندر وأبرز الرأي الراجح بين المؤرخين وهو وإن كان الاسكندر هو صاحب الفكرة في إنشاء المدينة لأن عصره لم يشهد سوى تخطيط المدينة وإقامة بعض المباني فإن الذي قام ببنائها هو بطليموس سوتير « فالاسكندر

له الفكرة الأصلية وإلى بطليموس ينسب تجسيمها» وناقش الآراء المتضاربة حول مكان قبر الإسكندر ثم شرح التطور الذي طرأ على مساحة المدينة وعدد سكانها وحياتهم الاجتماعية في العصرين البطلمي والروماني وتكلم عن مسئلي كليوباتره من حيث تاريخهما وأوصافهما والنقوش التي عليهما وانتقل إلى عمود السواري فتناوله بالشرح وتكلم عن القتال الذي كان موجودا فوق هذا العمود ، وانتقل بعد ذلك إلى الكلام عن أسوار المدينة وشارع كانوب وجزيرة فاروس والمار القديم والرصيف الحجري المسمى هيتا ستاد الذي كان يصل جزيرة فاروس بشاطئ البحر ، ووصف الميناء الشرقي وسعته والقصور التي كانت تزخر بها المدينة في العصرين البطلمي والروماني ، وفند الرأي القائل بأن نبي الله دانيال مدفون بالإسكندرية في أسفل كوم الدكة تأسيسا على أنه مات قبل بناء الاسكندرية بثلاثة قرون وأنه قضى حياته في بابل ، كما استند إلى رأى عمود باشا الفلكي . وتكلم عن جامع أثري هو جامع الألف عمود أو جامع السبعين ويطلق عليه أيضا الجامع الأخضر وحدد موقعه وذكر سبب تسميته بالألف عمود وجامع السبعين ، وقرر أن هذا المسجد كان موجودا إلى زمن الحملة الفرنسية . وانتقل إلى تاريخ المدينة بعد الفتح العربي وما فعله المسلمون بها ومساحة المدينة على عهد الحملة الفرنسية وعدد الأبواب التي كانت بسورها القديم ووصف ضواحي المدينة في العصرين البطلمي والروماني واعتمد في ذلك على ما ذكره سترابون وديودور وغيرهما . وانتقل إلى الكلام عن خليج اسكندرية ومدينة مريوط ثم مدينة مريوط ثم بحيرة مريوط وعين حدود تلك المديرية والحاصلات الزراعية التي تجود في أرضها وأوجه النشاط العمراني

الذي كانت تزخر به هذه المديرية . كما دخل في تفاصيل عن مدينة مريوط وبحيرة مريوط وتكلم عن الاجراء الحربي الذي أقدم عليه الإنجليز مرتين في مطلع القرن التاسع عشر وهو قطع سد أبي قير ، وكانت المرة الأولى في سنة ١٨٠١ إبان الحرب التي خاضها الإنجليز لإجلاء الفرنسيين عن مصر ومحاصرتهم الجنرال مينو في الإسكندرية ، والمرة الثانية في سنة ١٨٠٧ عند قدوم الحملة البريطانية على مصر واحتلالها الإسكندرية وتطرق إلى وضع تاريخ موجز لحملة سنة ١٨٠٧ . وانتقل على مبارك إلى الكلام عن الإسكندرية في القرن التاسع عشر وذكر عدد سكانها فقرر أنه بلغ في سنة ١٨٣٠ مايقرب من ١٣٠ ألف نفس ثم قفز هذا الرقم في سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤) إلى ٢٧٠ ألف نسمة ، وأشار إلى القرار الذي اتخذته الحكومة المصرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر بالإذن للسفن الأجنبية في دخول الميناء الغربي وكان محظورا من قبل على هذه السفن دخوله ، وكان الميناء الشرقي هو المعد لرسو السفن الأجنبية على الرغم من الخطورة التي كانت تتعرض لها السفن في الميناء الشرقي ، وشرح ما نجم عن هذا القرار من ازدياد حركة السفن القادمة إلى الإسكندرية وتنشيط الحياة الاقتصادية فيها ، وانتقل بعد ذلك إلى حفر ترعة المحمودية سنة ١٨٢٠ والأسباب التي دعت إلى حفرها ووصف مسار الترعة والأهوسة التي أقيمت عليها ونفقات حفرها والمنافع التي عادت على المدينة من إنشائها وإحياء موات الأراضي في إقليم البحيرة ، وذكر المباني التي ألحقت بالترعة وكان من بينها مسجدا أحدهما عند مخرج الترعة في العطف و ثانيهما عند مصبها في البحر المتوسط وهو جامع التاريخ ، ومنها مخازن الغلال الأميرية وحفر تجرى تحت الأرض

وقوة، وقارن بين حالتها وقتذاك وحالتها عند ما داهمتها حملة الجنرال بوناپرت سنة ١٧٩٨ ووصف دخول الفرنسيين الإسكندرية. وتكلم عن حصيلة الرسوم الجمركية وقيمة البضائع الواردة والصادرة من سنة ١٨٢٣ حتى سنة ١٨٤٢. وأفرد بحثا عن الإسكندرية إبان حكم ابراهيم باشا وبحثا آخر عنها إبان حكم عباس الأول. ويلاحظ أن على مبارك قد أشاد بحكم عباس الأول ولم يبخسه حقه كما فعل معظم الذين أروخوا لهذا الوالي. وكان على مبارك موضع تقدير عميق من عباس الذى استفاد به فى تنظيم المدارس وعينه ناظرا للمدرسة المهندسخانة وملحقاتها. تكلم على مبارك عن الأنظمة العسكرية التى أدخلها عباس على الجيش المصرى واهتمامه بإقامة الاستحكامات العسكرية فى الإسكندرية وغيرها من ثغور مصر الشمالية على ضوء ما كان يقترحه جاليس بك Gallie مدير الاستحكامات. وقال على مبارك إن عباسا قد أنشأ ثلاثة حصون جديدة فى كل من العجمى وأبى قير ومقابر اليهود التى أنشأ فيها أيضا مستودعا للمواد الحربية كان يسع تسعة آلاف قطار بارود، وأنه بنى عدة مستشفيات عسكرية كان من بينها مستشفى فى أبى قير، وبنى ورشة للطوبجية فى وسط المدينة على مقربة من كوم الناصورة تشمل أقباما للتجارة والحدادة والبرادة والسبك. وذكر على مبارك أيضا أن عباسا أمر بإجراء عملية مسح للشواطئ المصرية ابتداء من الإسكندرية شرقا حتى العريش، وغربا حتى مرسى مطروح التى كانت تعتبر الحد الفاصل بين حدود مصر الغربية وبين طرابلس الغرب. وظل الأمر على ذلك حتى حكم الخديو اسماعيل فانتضح بما لا يدع مجالا للشك أن السالوم هى آخر بلدة مصرية تقع على حدود مصر الغربية وسجل ذلك التحديد فى خرائط عسكرية.

لتوصيل الماء العذب الى جهة الترسانة والجمرك، وقد فتح فى عدة مواضع منه موارد لأخذ السقائين والأهالى الماء فى أى وقت شاءوا. وانتقل المؤلف بعد ذلك إلى تعميق ميناء الإسكندرية ومد أرصفة ترسو السفن الكبيرة بجوارها للتخفيف من نفقات الشحن والتفريغ وإنشاء ترسانة بحرية وجهود المهندس الفرنسى سيريزى Cérty في بناء السفن ولم يفت على مبارك أن يشيد بكفاءة أحد الإسكندريين فى صناعة بناء السفن وهو الحاج عمر فإنه « كان صاحب إدارة ومعرفة طبيعية وإقدام على مثل هذه الأعمال مع الإصابة » وتكلم عن المدرسة البحرية التى أنشأتها الحكومة لإعداد الشبان المصريين للعمل بحارة على السفن المصرية وإنشاء الفنار وقد وصف موقعه وارتفاعه وقوة إضاءته، والحوض الخاف لإصلاح السفن وشرح طريقة استخدامه، وتعرض بالشرح لقوة الأسطول الحربى المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر وأورد عدة بيانات تفصيلية عن عدد السفن وأسمائها وعدد مدافعها وقوتها وعدد بحارتها وأنهم بلغوا ١٥,٦٤٣ وأن عدد عمال الترسانة البحرية ٤,٠٧٦ عاملا، وعاد فذكر بيانا تفصيليا آخر عن القوات المسلحة المصرية - برية وبحرية - وأسماء الفرق والأسلحة التى تنتمى إليها وأنواعها وعددها والأماكن المربطة فيها وما يتفق عليها، ثم تكلم عن واقعة تسليم أحمد فوزى باشا قائد الأسطول العثمانى ٢٥ قطعة بحرية من الأسطول لمحمد على عقب هزيمة الجيش العثمانى فى موقعة نصيبين، فى ٢٤ يونيو ١٨٣٩ على يد الجيش المصرى ثم وفاة السلطان محمود الثانى فى ٣٠ يونيو، وأورد على مبارك بيانا عن قوة هذه الوحدات وعدد رجالها. وخرج المؤلف من هذا السرد إلى أن الإسكندرية قد غدت مدينة ذات بأس

وقد أمر عباس بأن تمتد عمليات المسح لتشمل بحيرة مريوط إلى حدود الأراضي الزراعية في إقليم البحيرة وإلى حدود الأراضي المرتفعة جهة وادى التطرون . وأشار إلى اهتمام عباس اهتماما زائدا بالمحافظة على صهاريج المياه في الإسكندرية لمواجهة الطوارئ ، وكانت أحداث قطع الإنجليز لسد أبي قير لا تزال ماثلة في الأذهان . ويلاحظ أن هذا الاهتمام بمسائل الطوارئ والتعزيزات العسكرية كان مرده إلى الأزمة السياسية التي قامت بين القاهرة والآستانة حول تطبيق قانون التنظيمات . وقد ظل هذا الاهتمام قائما لأنه بعد أن سويت أزمة التنظيمات اشتركت القوات المصرية في حرب القرم إلى جانب الدولة العثمانية ضد روسيا . وأشار المؤلف في هذا البحث إلى الطريق العسكرى الذى أنشئ من قلعة القبارى إلى باب العرب ليجتازه الجنود في تحركاتهم ، وذكر المحطات الواقعة على الطريق من الإسكندرية إلى السلوم وانتقل إلى مشروع استخراج الإستفنج من الشواطئ المصرية في منطقة السلوم بمعرفة أحد المترين لمدة عشر سنوات تبدأ من سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤-١٨٧٥ م) وفق شروط معينة . وتعرض المؤلف لتخطيط المنطقة القضاء الواقعة بين ميناء البصل وميناء الشارقة حيث شيدت مستودعات ضخمة للبضائع الواردة والصادرة ، وأصبحت هذه المنطقة تعج بنشاط اقتصادى واسع قربها من الميناء الغربى وشاطئ ترعة الحمودية حيث كانت السفن النيلية تفرغ شحناتها وفي نفس الوقت كانت السفن البحرية تشحن البضائع المصدرة إلى الخارج . كما أشار المؤلف إلى اهتمام عباس بتعمير جهات الحضرة والمنطرة والسيوف والرمل ، وخلص من هذه المشروعات المتعددة إلى المشروع الرئيسى وهو مد الخط الحديدى من الإسكندرية إلى القاهرة على عهد عباس واستعرض

المؤلف المحاولات التى بذلتها بريطانيا على عهد محمد على لإنشاء خط حديدى من القاهرة عبر الصحراء إلى السويس وكيف وافق محمد على أول الأمر على المشروع واستورد مقادير من القضبان والآلات ، ثم عاد فصرف النظر عن المشروع واستخدم القضبان فى مد خط من طرا إلى شاطئ النيل لنقل الأحجار اللازمة لمشروع القناطر الخيرية ، وتكلم عن تنظيم الطريق البرى من السويس إلى القاهرة فالإسكندرية على عهد محمد على وكيف اتجه هذا الولى لتصير الأجهزة الإدارية التى تشرف على تنظيم هذا الطريق واختتم المؤلف البحث بشرح بعض الملابس التى أحاطت بإنشاء الخط الحديدى من الإسكندرية فى اتجاه القاهرة . وأعقب على مبارك هذا البحث ببحث آخر عن الإسكندرية إبان حكم الخديو اسماعيل ، فذكر أن عدد سكانها حين تولى هذا الخديو الحكم فى يناير ١٨٦٣ كان قد بلغ ١٧٠ ألف نفس ثم قفز فى سنة ١٨٧٢ إلى ٢١٢,٠٤٣ نسمة ومن بين هذا العدد ٤٧,٣١٦ أجنبية . وأورد إحصائية عن استهلاك اللحوم فى الإسكندرية وأوضح أن هذا الاستهلاك قد زاد زيادة كبيرة للغاية ، وأرجع هذه الزيادة إلى زيادة حركة النشاط التجارى فى المدينة وارتفاع مستوى المعيشة بها ، ودلل على ذلك أيضا بإحصائية طريفة عن وسائل النقل فى الإسكندرية ومنها يتضح أن عدد عربات الركوب وخلافها قد بلغ ١٤٣١ من عربات حنطور ومزدوجة ومفردة وعربات ركوب بالأجرة هذا عدا عربات أفراد أسرة محمد على وتوابعهم وعربات الأجانب . ثم تكلم عن الشوارع التى فتحت فى ذلك العهد وما تم تبليطه منها حتى سنة ١٢٨٧ (١٨٧٠ م) وإقامة تمثال محمد على فى ميدان المنشية وقد بلغت تكاليف إقامته مليونين من الفرنكات .

وانتقل الى الكلام عن التقسيم الإدارى للمدينة ، فقرر أن بها ثمانية أقسام للشرطة - أو الضبطية بمصطلح ذلك العصر - وأن فى كل قسمين معاونا واحدا . وتكلم طويلا عن ضاحية الرمل وجهود الحكومة لتعميرها وتنشيط حركة الاصطياف فى ربوعها وتيسير المواصلات بينها وبين المدينة . وانتقل الى الكلام عن مساكن المدينة ودور قناصل الدول فى الاسكندرية التى اتخذوها مصيفا لهم ينتقلون إليها من القاهرة فى السكة الحديدية على نفقة الحكومة المصرية وانتقال الحكومة إلى الإسكندرية ثلاثة أشهر فى الصيف . وقرر أن محمد على هو الذى استأن هذا التقليد ، وأوضح المنافع الاقتصادية والاجتماعية التى تعود على المدينة من انتقال الحكومة إليها صيفا . وتكلم عن مساجد الإسكندرية فقال إن بها من المساجد الجامعة ٤٩ جامعا ومن الزوايا ٩٧ وتضم بعض الزوايا أضرحة لبعض الأولياء بينما البعض الآخر خال من الأضرحة ونذكر على سبيل المثال من المساجد التى أرخ لها فى إسهاب أو إيجاز : مسجد أبى العباس المرسى وياقوت العرشى وتاج الدين بن عطاء الله الإسكندرى ونصر الدين والبوصيرى والشيخ تمرار والحجارى والمغاورى وعبد الرزاق الوفائى والحلوجى والصورى وسيدى جابر الأنصارى ونبي الله دانيال والطروطشى وسيدى مجاهد وبجميع هذه المساجد أضرحة من تنسب إليهم . ومن المساجد الخالية من الأضرحة مسجد طاهر بك ومسجد سلطان ومسجد محرم بك ومسجد كرموز ومسجد الشيخ بالميدان ومسجد عبد اللطيف وهو معد لصلاة الخنازة . وانتقل الى الكلام بعد ذلك عن كنائس المدينة فقرر أن عددها ثلاث عشرة كنيسة : عشرة للنصارى وثلاث لليهود . وذكر أسماءها وأماكنها وتكلم أيضا عن فنادق الإسكندرية

ومستشفياتها وحماماتها العامة ومقاهيها ومسارحها وأسواقها والجمعيات الخيرية الأجنبية وشركات التأمين والبورصة وبيوت الرهن والشركات التجارية بها وطوائف الصناع ورجال الحرف والمدارس المصرية والأجنبية . وأفرد بحثا ضافيا عن ميناء الإسكندرية فتكلم عن المنشآت الحديثة التى تمت به إبان حكم اسماعيل من إنشاء حوض عائم من الحديد لإصلاح السفن محل محل الحوض الذى كان محمد على قد أنشأه من الحجر والذى أصبح لايسير تطور صناعة بناء السفن ، وذكر أنه صنع فى فرنسا سنة ١٢٨٥ (١٨٦٨ - ١٨٦٩) . وحدد ارتفاعه وعمقه وعرضه ووزنه وقوة آلاته وقرر أن تكاليفه بلغت ١٢٦,٣٦ جنيتها مصرية وقد أطلق على مبارك على الحوض لفضة دوك وهى مأخوذة من الكلمة التى تستعمل فى اللغتين الإنجليزية والفرنسية dock وشرح أهمية وجود أحواض لإصلاح السفن فى الموانئ الكبرى ، والمقصود بكلمة حوض . ثم تكلم عن حاجز الأمواج الذى أقامته الحكومة من جزيرة رأس التين إلى العجمى لبقى الميناء طفيان الأمواج ويجعل السفن الراسية به بمنجاة من العواصف وجعل فيه البوغاز لمرور السفن فيه ، وبناء أرصفة للشحن والتفريغ ، ومد خطوط حديدية إلى أرصفة الميناء لتسهيل تلك العمليات ثم أورد سبع إحصائيات عن النشاط التجارى البحرى للإسكندرية ومقارنته بنشاط الموانئ المصرية سواء فى البحر المتوسط أو فى البحر الأحمر . ومن هذه الإحصائيات إحصائية عن عدد السفن التى دخلت ميناء الإسكندرية ابتداء من سنة ١٨٣٧ حتى سنة ١٨٧٢ وإحصائية ثانية عن عدد الوافدين من الأجانب على ميناء الإسكندرية خلال هذه الفترة وقيمة البضائع الصادرة والواردة إليه فى سنة ١٨٧٠ وإحصائية مقارنة عن قيمة

السودان وأقسامها ومحطاتها ، وشرح على مبارك الجهود التي بذلها حين تولى إدارة مصلحة السكك الحديدية في إنشاء الخطات والنهوض بمستوى الخدمة في هذه المصلحة ، ثم تكلم عن عدد الخطوط الحديدية ومحطات الوجه البحرى والوجه القبلى والوقت الذى يستغرقه المسافر من محطة إلى أخرى . واختتم هذا البحث بالكلام عن طول الأسلاك البرقية الممتدة في مصر وفي السودان حتى سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤-١٨٧٥) مقدرة بالأميال الإنجليزية . وقرر حقيقة هامة هي أن مصر فاقت في استخدام البرق كثيرا من الدول الأوروبية مثل السويد وبلجيكا والدانمرك وهولندا والبرتغال . وأورد إحصائية عن جملة أسلاك البرق في كل من مصر والسودان عدا خطوط البرق الخاصة بشركة قناة السويس وشركة مالطة .

وابتداء من الجزء الثامن حتى الجزء السابع عشر استعرض على مبارك البلاد المصرية فيما خلا القاهرة والإسكندرية . وقد التزم بالترتيب الأبجدي في ذكر أسماء البلاد . ومن البحوث الهامة التي وردت في الجزء الثامن البحث الذى وضعه عن انتشار ظاهرة اجتماعية في مصر هي شرب القهوة وما أثاره رجال الدين من ضجة حول تحريمها أو إباحة شربها . وكان قد شاع استخدامها بادية ذى بدىء في أوساط المتصوفة لتساعدهم على السهر في حلقات الذكر . وقد جلب البن الى مصر متصوفو اليمن ، واستطرد المؤلف إلى الكلام عن نبات البن في اليمن والحبشة وأشار إلى بلدة الحبرت في الحبشة وهي الوطن الأصلي لأسرة الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المشهور ، فترجم لوالده الشيخ حسن الجبرتي . وتكلم عن القرار الذى أصدره الجنرال بوناپرت بتحريم تعاطى الخشيش

الصادرات والواردات في موانئ الإسكندرية ودمياط وبورسعيد والسويس والعريش والقصر وسواكن ومصوع ، وإحصائية أخرى توضح حجم التبادل التجارى بين مصر وبين كل من إنجلترا وفرنسا وبلاد اليونان وأمريكا والسويد والمغرب والنمسا وإيطاليا وبلجيكا وروسيا وألمانيا والشام وتركيا وأوربا وتركيا آسيا ، وإحصائية عن عدد السفن التى دخلت ميناء السويس في الفترة من سنة ١٨٤٩ حتى سنة ١٨٧٢ وكيف تضاعف عددها حوالى أربع مرات ، ثم إحصائية أخرى عن عدد السفن التى دخلت موانئ سواكن والقصر ومصوع وحمولة هذه السفن . ومن ميناء الإسكندرية انتقل المؤلف إلى الكلام عن مصلحة وابورات البوستة الخديوية والنجاح الذى حققته واتساع نطاق أعمالها وتملكها ست وعشرين باخرة تجوب البحار ناقلة المسافرين والبضائع والبريد وما تستهلكه كل سفينة في السنة من الفحم مقدراً بالأطنان ، وأورد إحصائية بأسماء خمس وعشرين باخرة من سفنها وقوة كل منها ، ثم أسماء ١١ من سفن البحرية المصرية وقوة كل منها ومجموع حمولتها ونذكر على سبيل المثال أسماء ثلاث سفن هي « المحروسة » وقوتها ٨٠٠ حصان ومخصصة لركوب الخديو ، و« مصر » وقوتها ٦٠٠ حصان ، ومخصصة لركوب المعية الخديوية ، و« الغرية » وقوتها ٥٠٠ حصان ، ومخصصة لركوب الفاميليا الخديوية - أى العائلة الخديوية - ثم استعرض أسماء شركات الملاحة البحرية الأجنبية ونشاطها ومواعيد سفر سفنها ، وانتقل بعد ذلك إلى الكلام عن القوائد التي عادت على الإسكندرية من ربطها بالشبكة الحديدية وبأسلاك البرق وتكلم عن الشبكة الحديدية في مصر وطول الخطوط الحديدية مقدرة بالأميال ، وانتقل إلى الكلام عن سكك حديد

وشرب البوزة ومعاقبة من يخالف هذا القرار من المصريين بالحبس ثلاثة أشهر، كما نص في القرار على حرق طرود الحشيش التي ترد إلى الحمارك المصرية . ولما جاء ذكر قرية انبابة - في شمال الخيزة على الشاطئ الغربي للنيل تجاه بولاق - شرح الموقعة المشهورة التي جرت بين مراد بك والجنرال بونابرت وهي التي يسميها الفرنسيون معركة الأهرام (٢١ يوليو ١٧٩٨) تمجيدا لانتصارهم فيها ، وقد أفاض على مبارك في شرح الأيام العvisية التي شهدتها القاهرة والتي سبقت ولحقت هذه المعركة وقد استقى مادتها العلمية من الجبرقي . وتعرض لوصف مقياس النيل الذي كان موجودا في أسوان وشرح معنى لفظي أغريقي واللاتيني - ووصف خشب الدوم ومزاياه . وشرح في هذا الجزء أيضا شرحا وافيا منطقة آثار أبي سمبل ويكتبها (ابسنبول) ومعابد إدفو وأرمنت والأشمونين . ومن المدن الهامة التي أرخ لها في هذا الجزء أبو تيج وإخميم وأبو كبير وأرمنت والإسماعيلية وإسنا وأسوان وأشمون والأشمونين . ومن الشخصيات التي ظهرت لها تراجم في هذا الجزء ذو النون المصري وابن جبير وابن زولاق وابن سينا وعبد الرحمن الناصر والشيخ محمد الخرشى وعلى الأجهورى والشيخ محمد عيش والشيخ محمد الإنبائي والشيخ محمد أحمد فرغل والشيخ عبد الرحمن البوتيجي والشيخ محمد السميعي وهؤلاء الثلاثة من أعلام أبي تيج . ومن الشخصيات الأجنبية سترابون اليوناني الجغرافي وفيزاغورس العالم اليوناني وبلوتارك العالم الفيلسوف . وقد تضمن هذا الجزء البلاد التي تبدأ اسمائها بحرف ا . .

وفي الجزء التاسع بحث ضاف عن قافلة الحج المصرية ونظام خروجها من القاهرة وإقامتها خمسة

أيام في بركة الحج - وهي قرية في شمال شرق القاهرة تقع في جنوبي الخانكة وشرق المرج - ثم استئناف سيرها إلى الحجاز . ويستعرض المؤلف المحطات التي تقف عندها القافلة حتى تصل إلى الأراضي المقدسة بالحجاز ، والاجراءات التي تتبع في إقامتها وفي طعنها وتدابير الأمن للمحافظة على الحجاج والأموال ، ويشرح كيفية عمل الكسوة الشريفة التي تأخذها البعثة الرسمية معها وتنظيم موكب المحمل وما إلى ذلك من تفصيلات وافية ودقيقة . وقد جاء كل هذا الاستطراد عندما تكلم عن بركة الحج التي أشرنا إلى موقعها . ولما تكلم عن بني مزار وصف مصنع السكر في هذه المدينة وإنتاجه من السكر الأبيض والسكر الأحمر ومدة تشغيل هذا المصنع ليلا ونهارا أربعة أشهر ابتداء من مدة عصر عيدان قصب السكر ، وتكلم أيضا عن المباني الملحقه بهذا المصنع مثل المستودعات المخصصة لحفظ السكر ومساكن المهندسين الأجانب ووابور النور الذي يمد المصنع بالإضاءة والقوى المحركة لإدارة آلاته ، والخطوط الحديدية الممتدة إلى داخل المصنع وإلى أراضي تفتيش زراعة القصب في بني مزار . كما يحوى هذا الجزء وصفا للأعياد التي كان يحتفل بها المصريون في العصور القديمة وقد نقلها عن هيرودوت . وشرح المؤلف بعض المصطلحات التي ورد ذكرها في المصادر والمراجع التي تناولت تاريخ مصر الإسلامية ، ومن هذه المصطلحات نذكر على سبيل المثال : البقط ، البازدار ، مفردى ، مفارده ، متفردون ، متفردون ، الديوان المفرد ، الزمامى ، الزماميون ، ديوان الازمة ، صاحب ديوان الزمام ، زمام دار ، خوند ، خوندات خاتون ، خواتين . كما شرح بعض مصطلحات فنية في دراسة فلاحية الارض نذكر منها : المرجع ، الدهنية ، البراش ، الرداد ، التلويق . ومن المدن التي

أرخ لها في هذا الجزء ، الباجور ، باقور ، بانوب ، بيا
والبتانون ، ويكتبها البتنون ، البداري ، بدرشين ،
بردين ، بليون ، بليس ، بلقاس ، بلينا ، بنها ،
بني سويق ، بني عدى ، بني مزار ، بهيم ، بهجورة .
وفي هذا الجزء ترجم على مبارك لنفسه ترجمة مستفيضة
تناولت حياته الخاصة والعامة . كما ترجم لتقى الدين
احمد بن على المقرئ . واستمد مادته العلمية عنه من
كتاب أبي المحاسن التميمي المسمى بالمنهل الصافي
والمستوفى بعد الوافي . وترجم ايضا للشيخ ابراهيم
الباجوري شيخ الجامع الأزهر والشيخ احمد الدردير
من علماء الأزهر وإبراهيم المتبولي وعلى الخواص من
كبار المتصوفة . . ومن الشخصيات الأجنبية التي ترجم
لها : شامبلون ويكتب على مبارك اسمه بالطريقة
التركية جانبوليون ، وهو عالم الآثار المصرية القديمة
الفرنسي الذي عكف على فك رموز اللغة الهيروغليفية
في القرن التاسع عشر ، كما ترجم لبعض الفلاسفة
والعلماء اليونانيين وغيرهم من القرن الثالث والخامس
والسادس للميلاد نذكر منهم اجاثمبر ، اتيين البيزنطي ،
اولنيودور ، بروكوب . وترجم أيضا لأحد العلماء
الفرنسيين الذين اشتغلوا بالعلوم الطبيعية والنباتية وهو
ريمور . ولم يغط هذا الجزء جميع البلاد التي تبدأ
أسمائها بحرف الباء فوقف عند بهوت وهي قرية
تتبع مركز المحلة الكبرى بمحافظة الغربية حاليا وترجم
لثلاثة من علمائها عاشوا إبان الحكم العثماني .

وحفل الجزء العاشر بعدة أبحاث تتصل ببعض
البلاد المصرية ذات الشهرة التاريخية ، مثل بوصير
والبوطة وأبو قبر - ويكتبها بوقير - وتروجه وتنيس
وحلوان . فلما جاء ذكر بوصير تكلم عن مقتل مروان
ابن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية وحاول تحديد

المكان الذي لقي فيه هذا الخليفة مصرعه وهل هو بوصير
الحيزة أو بوصير الفيوم ؟ واستعرض كتابات المقرئ
وابن حوقل وأبي المحاسن وأبي القداء وابن خلكان في
هذا الصدد . ولما تعرض للبوطة وهي قرية في محافظة
البحيرة كانت مسكنا لشيخ عرب البحيرة حسن بن برعى
وأخيه شكر تعرض لهما على يد المماليك الشراكسة
الذين قطعوا رأسيهما وشربوا من دمهما وجزل بعضهم
من لحمهما بالسيف وأفاض في وصف نهايتهما جزاء
خيانتهم للسلطان طومانباي . وعند أبي قبر تكلم
عن الخليج الناصري (١) الذي حفره الناصر محمد ابن
قلاوون وكانت هذه الرعة تخرج من الرحمانية وتأخذ
مسار خليج الإسكندرية القديم واستطرد إلى العلاقات
بين مصر والصليبيين في صيدا بالشام ، وبين مصر وجزيرة
قبرص . وانتقل من التاريخ الوسيط إلى التاريخ الحديث
فتكلم عن موقعي أبي قبر البحرية (اول اغسطس
١٧٩٨) وأبي قبر البرية (٢٥ من يوليو ١٧٩٩) ونشر
بعض منشورات بونايرت للشعب المصري وناقش
موضوع قطع سد أبي قبر كإجراء حربي لحا اليه
الإنجليز في محاربة الفرنسيين . ولما تكلم عن تروجه -
وهي مدينة قديمة في جنوب غرب دمهور - استعرض
تاريخها منذ سنة ١١٧ هـ واستند إلى ما كتبه عنها
المقرئ في خطاه والنويري في نهاية الأرب وكاترمير
نقلا عن المقرئ في كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .
وتعرض للمفاوضات التي جرت في هذه البلدة سنة
٣٥٨ هـ بين جوهر الصقلي قائد الجيش الفاطمي أثناء
زحفه من الإسكندرية إلى الحيزة وبين وفد يرأسه
أبو جعفر مسلم وأسفرت عن عقد الصلح ، وانتقل
إلى الكلام عز إقامة الظاهر بيبرس فيها ومقتل السلطان
الأشرف خليل فيها سنة ٦٣٩ هـ . ولما وصل المؤلف

(١) كانت الترع تسمى في ذلك الوقت خلجانا .

في ذكر المدن الى تنيس كتب تاريخا ضافيا عنها تناول الدور الذي لعبته في العصور القديمة وفي العصور الإسلامية على ضوء ما كتبه القريري والمسعودي وأبو السري الطيب وأبو الفداء وغيرهم . وقال إن الجنتين اللتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم «واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً» (١) كانتا في تنيس لأخوين من بيت الملك قليمون من نسل اتريب بن قبطيم . وتكلم عن الشهرة العريضة التي أصابتها هذه المدينة في صناعة الثياب وتكلم عن الحياة الاجتماعية بين سكانها . ووضع بحثا مستفيضا عن حلوان وقال إنها كانت قرية مشهورة عامرة بالسكان منذ أكثر من ألف وثمانمائة وخمسين عاما خلت ثم أخنى عليها الدهر فغدت بلدا مهجورا حتى جردها وعمرها عبد العزيز بن مروان الذي ولي حكم مصر وأعجب بهوائها فقتل بها سنة ٧٠ هـ ليكون بمنجاة من الطاعون الذي اتخذ مظهر الوباء في تلك السنة ، وشيد بها المساجد والدور وغرس النخيل والكروم . وتابع المؤلف تاريخ حلوان عبر العصور فتكلم عن زيارة المأمون الخليفة العباسي لها سنة ٢١٧ هـ وذكر طرفا من زيارة هذا الخليفة لمصر ، وتعرض لخواص المياه الكبريتية التي تنبثق من عين حلوان وأهميتها في علاج الأمراض الجلدية ، وشرح مظاهر الاهتمام بتعمير حلوان منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر من إنشاء خط حديدي يربطها بالقاهرة . ولم يكن هذا الخط يبدأ من محطة باب اللوق كما هو الحال الآن ، بل كان يبدأ من قره ميدان بالقلعة ثم يمر على مقابر الممالك وشرقي ضريح الإمام الشافعي إلى البساتين ويأخذ مساره الحالي . كما تكلم عن إنشاء

(١) سورة الكهف آية رقم ٣٢ والآيات التالية لما مكلة

لقصة الأخوين .

حمامات للمياه الكبريتية بها وشق شوارع متسعة ومستقيمة من النيل إلى الحمامات وبناء فندق سياحي وفندق آخر للعلاج وذكر التسيرة التي وضعت للنازلين فيه بمختلف الدرجات ، وعما اذا كانت الإقامة تشمل تناول الطعام أو مقصورة على المبيت . وتكلم عن التيسيرات التي قدمتها الحكومة لتشجيع الأهل على بناء دور لهم في حلوان ، واستعرض النشاط الاقتصادي فيها وازدياد حركة البناء والتعمير خلال السنوات من ١٨٨٢ إلى ١٨٨٧ ومن الوقائع التاريخية التي تعرض لها في هذا الجزء الهدية التي أرسلها الموقوس ، ويصفه على مبارك بأنه صاحب الإسكندرية ، إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان من ضمنها مارية وأختها سيرين ، ومارية هي التي ولدت للنبي ابنه ابراهيم وخلص من ذلك إلى القول بأن ثلاثة من الأنبياء صاهروا الأقباط هم ابراهيم الخليل تسرى بها جر أم اسماعيل ، ويوسف تزوج بابنة صاحب عين شمس التي ذكرها الله في كتابه فقال «وغلقت الأبواب وقالت هيت لك» (١) ، ومحمد عليه الصلاة والسلام تسرى بمارية . وتكلم عن الحياة المترفة الرتيبة التي كان يجيها المتصوفة في خائفاه سرياقوس والتي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣) م وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفي ولقب شيخها بلقب شيخ الشيوخ بعد أن كان هذا اللقب مقصورا على من يتولى مشيخة خائفاه سعيد السعداء ، كما أفاض المؤلف في تحديد الأقاليم في مصر التي نزلت بها القبائل العربية بعد الفتح الإسلامي وذكر دخول معاوية بن أبي سفيان مصر وولاية محمد ابن أبي بكر الصديق عليها وقتله بها . وتكلم عن نظام الخلع في دولة الممالك وأفاض في وصف خلع أرباب السيوف وخلق أرباب الأقلام وخلق العلماء .

(١) سورة يوسف جزء من الآية رقم ٢٣ .

وهي قرية بمحافظة البحيرة ، على الشاطئ الغربي لفرع رشيد وجنوب مدينة رشيد ، وترجم لبعض الصوفية الذين عاشوا أو دفنوا في خانقاه سرياقوس ، وترجم أيضاً للأمير عيسى شيخ عرب بني عونة ولشيخ العرب سويلم بن جيب بالقليوبية وابنيه سالم وسويلم . كما ترجم لبعض المستشرقين الفرنسيين مثل كاترمير (١٧٨٢-١٨٥٧) وساسي (١٧٥٨-١٨٣٨) وهربلويرتلمى (١٦٢٥ - ١٦٩٥) . وقد غطى على مبارك في هذا الجزء بقية البلاد التي تبدأ أساؤها بحرف الباء ثم أحرف التاء والجيم والحاء والخاء والذال .

* * *

وحفل الجزء الحادى عشر بذكر عدد من أمهات المدن ذات الشهرة التاريخية فتكلم عن دمنهور وتاريخها في العصور القديمة والحديثة وتعرض بوجه خاص لأحداث الحملة الفرنسية المتصلة بدمنهور والفترة التي أعقبت خروج الفرنسيين من مصر والحرب بين محمد على ومحمد الألى والأزمة التي واجهها محمد على حين صدر مرسوم من السلطان بنقله من مصر إلى سالونيك ومؤازرة علماء مصر لمحمد على إبان هذه الأزمة واستعرض تاريخ مدينة دمياط الحافل إبان الحروب الصليبية وأفاض في شرح أحداث الفترة الحرجة التي تولت فيها شجر الدر مقاليد الأمور عقب وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ريثما يحضر توران شاه ابن الملك المتوفى وكانت حملة لويس التاسع قد نجحت في الاستيلاء على دمياط والوصول إلى المنصورة تجاه البحر الصغير . وبما هو جدير بالذكر أن على مبارك يسمى قائد الحملة روا دفرنس أى ملك فرنسا وهي نفس التسمية التي أطلقها من قبل المقرئى في خططه (١) وانتقل إلى تاريخ دمياط إبان الحملة الفرنسية ثم في فترة الصراع على

(١) المقرئى : الخطط . طبعة الشياح - لبنان - ثلاث مجلدات المجلد الأول الجزء الثانى صص ٣٩٠ - ٣٩٢ .

ووضع بحثاً عن نظام النيابة في دولتي الممالك وشرح وظيفة النائب الذي كان يقوم مقام السلطان وكان صاحب هذه الوظيفة يسمى ملك الأمراء ونائب الحضرة وكافل الممالك ، وتكلم عن اختصاصاته المشعبة ووضعه في الدولة وفي الاحتفالات الرسمية وفي المواكب ، ووصف دار النيابة التي بناها الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨٣هـ . وانتقل المؤلف من النيابة إلى الوزارة فتكلم عنها على غرار ما فعل في كلامه عن النيابة . وتكلم عن التجربة التي قامت بها الحكومة المصرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر لزراعة أشجار التوت لتربية دود القز ، وذكر أن الحكومة حققت أكثر من ألف ساقية واستدعت خبراء من الآستانة لتدريب المصريين ، كما زرعت أيضاً في نفس المنطقة وهي رأس الوادى بمديرية الشرقية أشجار الزيتون لاستخراج الزيت واستخدامه في صناعة الصابون . وفي هذا الجزء شرح المؤلف بعض المصطلحات التاريخية تذكر منها على سبيل المثال : بغلطاق ، بغلوطاق ، بغالطيق ، صولق ، صوالق ، الخياصة ، حواصص ، شيوب ، زراقة ، قراستقر ، آق سنقر ، شستور ، شستار ، طبلخانة ، أمراء الطبلخانة ، شاد الشراخانة ، شاد اللواوين ، شاد العماثر ، شاد الخاوص ، شاد الزردخانة ، شاد الخوش ، شادية ، أمير أخور ، جشار ، تشاهير ، مروات ، الخانقاه . ومن المدن التي أرخ لها في هذا الجزء ، عدا التي ذكرناها ، أبو قرقاص ويكتبها بوقرقاص ، وبولاق الذكورور ، ويكتبها بولاق التكرور ، بورسعيد ، تلا ، جرجا ، الجيزة ، وترجم في هذا الجزء لعدد كبير من الشخصيات تذكر منها الشيخ البوصيرى صاحب البردة وابن خلكان والشيخ على البيومى من المتصوفة وابن السالوس وزير الأشرف خليل والشيخ حسن الجداوى من علماء الأزهر وهو لا ينسب إلى ميناء جده بالحجاز بل ينسب إلى الجدية

البلاد المصرية . وقد تضمن هذا الجزء ذكر البلاد التي تبدأ أسماؤها بحروف الدال والذال والراء المهملة والزاي المعجمة .

* * *

وجاء الجزء الثاني عشر على غرار الأجزاء السابقة حافلاً بالبحوث في شتى الموضوعات فخاص بحثاً إضافياً عن الرزق الإجابية ونشأتها وتطورها في مصر الإسلامية ، وأورد نصاً حرفياً لعهد أخذ على نصارى العرب من أهل نجران في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعدة عهود أخرى أخذها عمر بن الخطاب على نصارى الشام . وتكلم عن وضع الكنائس في ظل الإسلام مستشهداً بأحاديث نبوية وأقوال منسوبة إلى عمر ابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وما رواه الحسن البصري ، ثم تكلم عن الجزية المقررة على الذميين وقتاتها وجواز رفع نسب هذه الفئات على ذوى الدخول الكبيرة . واستعرض حوادث الزلازل العنيفة التي تعرضت لها القاهرة في القرنين السابع والثامن الهجريين ، ووصف خروج السلطان أيام دولة المماليك إلى الصعيد في سرياقوس أو شبرا ، ووصف ركوب السلطان من القلعة في الأعياد . وتكلم عن تخنيط الخث عند قدماء المصريين وأطلق على هذه العملية تصبير الموتى . وشرح عاداتهم في الجنائز وتكلم عن قصر أنس الوجود . وفي هذا الجزء شرح كيفية عمل السمك المقدد المعروف في الصعيد باسم الملوحة . وأرجع سبب انتشاره إلى أن سكان البلاد التي يكثر فيها قصب السكر يستطيعون أكل السمك المقدد ، وذكر أسماء الأراضي الزراعية في مصر تبعاً لنوعها وجودة الزراعة بها وسهولة رباها وما إلى ذلك ، وهى أسماء تبدو غريبة بالنسبة للقارى غير المتخصص في الشؤون الزراعية ، وحسبنا أن نذكر هنا من هذه الأنواع على سبيل المثال : البروية :

الحكم في مصر بين محمد باشا خسر والوالى العثمانى وبين عثمان بك البرديسى ، وتكلم عن مساجدها ومدارسها ووصف سمكة تظهر في مياه دمياط يطلق عليها فرس البحر وذكر منافعها . وسار على نفس النهج عند كلامه على رشيد وأفاض في وصف المدينة والحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية لسكانها وأخذ يعدد أنواع المحصولات التي تشتهر بها وذكر أنواع البلع وأصناف الأرز واستعرض تاريخ رشيد في العصور الوسطى ثم في القرن التاسع عشر وأطال في الكلام على الحملة البريطانية على مصر سنة ١٨٠٧ وانتصار المصريين على البريطانيين في معركة رشيد والحماد . ولما جاء ذكر بلدة دندرة وصف معبدها وتاريخ إنشائه وانتقل منه إلى قصة إيزيس وأوزوريس وهاتور . ومن المصطلحات التاريخية التي شرحها المؤلف في هذا الجزء : خشداس ، خشداسية ، طواشي ، الغرارة ، الحواء ، البرك . ومن المدن التي أرخ لها في هذا الجزء - عدا التي ذكرناها - دراو ، الدر ، ديروط ، دشنا ، دكرنس ، الزقازيق ، زفتى . وقد ترجم لآبراهيم الدسوقي والوزير صاحب ولعدد وافر من علماء دمياط ودمنهوور ورشيد كما ترجم للسائح الفرنسى سافارى ويسميه « سوارى السياح الفرنساوى » وقد زار مصر في القرن الثامن عشر ، كما ترجم لسائح فرنسى آخر هو الأب سيكار ويصفه بأنه « سياح فرنساوى قسيس من طائفة الجزويت » وترجم أيضاً لعلى باشا الجزائرلى أو الطرابلسى أو على برغلى وهو والى العثمانى الذى لقي حتفه في مطلع سنة ١٨٠٤ في القرنين بصحراء الشرقية على يد الأمراء المماليك : كما ترجم لبعض أعضاء البعثات العلمية الذين أوفدتهم الحكومة المصرية إلى أوروبا في القرن التاسع عشر . ويغلب على هذا الجزء - الحادى عشر - في مجموعة طابع التراجم . وذكر الزوايا المنتشرة في أنحاء

الشماعة ، الشتونية ، شق الشمس ، نقاء ، وسخ مزدور ، وسخ غالب ، مستبحر ، خرس ، إلى غير ذلك من الأسماء . والمهم أنه يعطى مواصفات لكل نوع من هذه الأراضي وأنواع الزراعات التي تجود فيها وكيفية ربيها إلى غير ذلك من تفصيلات فنية . واستعرض أنواع الخضر وفوائدها ، وانتقل إلى الكلام عن بعض أنواع النباتات التي تزرع في مصر وتستخدم في علاج بعض الأمراض والحميات مثل التزلات المعوية والشعبية والمغص وآلام الظهر والمفاصل والريو وأمراض القلب والحرب ، وتكلم عن النباتات التي يؤدي تعاطيها إلى زيادة إفراز الكبد ، وذكر منافع شجر الخناء ووصف تركيباً من زهرة الخناء تضاف إليها مواد أخرى لتفتيت الحصى في الكلتيين ، وعلاج الطحال وإدرار البول . وتكلم عن منافع الكزبرة وشرح أنواع المشروبات التي تصنع من البلح أو الذرة أو الزنجبيل وكيفية إعدادها للشرب ثم تكلم عن شراب البوزة والدكاوى وغيرهما من المشروبات . ومن أهم المدن التي تعرض لها على مبارك في هذا الجزء مدينة السويس وقد شرح معالمها ، فتكلم عن شوارعها وأسواقها ومساجدها وزواياها ووكائنها والشركات القائمة بها والنشاط التجاري والاقتصادي بها وحركة الملاحة في مينائها وبيان البضائع الأجنبية الواردة إليها بحراً وحوض إصلاح السفن والمناير وما إلى ذلك من منشآت بحرية في ميناء السويس . وتكلم عن تاريخ المدينة على عهد الحملة الفرنسية وقدم الجنرال بونايرت إليها ، وهو يطلق عليه بانوبرتو ، وانتقل إلى النشاط الذي دب في المدينة وفي مينائها إبان الحروب الوهابية وبحار الحملات العسكرية التي قامت تباعاً من ميناء السويس إلى ينبع وجدة وتكلم عن المذهب الوهابي والحركة التي قادها محمد بن عبد الوهاب . وانتقل إلى تنظيم الطريق البري

Overland Route من القاهرة إلى السويس عبر الصحراء على عهد محمد علي ، وتحسين الخدمة في هذا الطريق على عهد عباس الأول ثم مد الخط الحديدي من العاصمة إلى السويس وتكلم أيضاً عن المنطقة المحيطة بمدينة السويس وأشار إلى منطقة عيون موسى وغيرها . ومن المدن الأخرى التي ورد ذكرها في هذا الجزء أسبوط - سمند - سمالوط ، السبلالوين ، سوهاج ، شبراخيت ، شربين ، الشهداء ، شبين الكوم ، شبين القناطر وتكلم عن واحة سيوة وعادات أهلها . وذكر ثلاثة وأربعين بلداً يبدأ كل منها بكلمة شبرا مثل شبراخيت وشبرا الخيمة وشبرا الخلة . ويتميز هذا الجزء من الخطط التوفيقية بأنه يحوى شرحاً لعدد وفير من المصطلحات التي شاع استعمالها في مصر في عصر دولتي المماليك والحكم العثماني وبخاصة في الجيش والإدارة وأنظمة الحكم والألعاب والصناعات اليدوية الدقيقة . ونذكر منها على سبيل المثال : الكراتة ، شبابه ، طردارية ، النمشة ، الخاصكي ، الجمقدار ، الكفت ، الأكفات ، التزميك ، الشربوش ، الهناب ، حامل الزرة ، اليسق ، كتاب الدرج ، كتاب الإاست ، الطشتخاناه ، الركابخاناه ، الحوانجخانه . وتضمن هذا الجزء أيضاً تراجم لشخصيات كثيرة حسبنا أن نذكر منها هنا : الجاحظ وابن الأثير ومعروف الكرخي وشمس الدين السخاوي المؤرخ وجلال الدين السيوطي والعارف السوهاجي وزكريا الأنصاري وأبو بكر المارداني أحد كبار رجال الدولة الطولونية ، وقد حبس على الحرمين الشريفين في مكة والمدينة أوقافاً وضياًعاً كان من بينها أسبوط ، وكان يصل إيراد هذه الأوقاف إلى مائة ألف دينار في السنة . كما ترجم لنا بليون بونايرت ترجمة ضافية منذ مولده حتى وفاته في منفاه ثم إحضار « رمته » أي جثته إلى فرنسا لدفنها في باريس على عهد

الملك لوى فيليب وترجم أيضاً لعالم فرنسى هو لارشيه Larcher (١٧٢٦ - ١٨١٢) الذى ترجم كتاب هيرودوت وعلق عليه ، كما ترجم للمؤرخ مانيتون . وقد تناول هذا الجزء البلاد التى تبدأ أسماؤها بحرف السين وحرف الشين المعجمة .

* * *

واحتوى الجزء الثالث عشر موضوعات شتى فى التاريخ القديم والوسط والحديث فمن موضوعات التاريخ القديم تعرضه لمدينتى صا الحجر وصان الحجر فقد استعرض تاريخهما فى العصور القديمة . كما تكلم عن مدينة طيبة أو ييلوز Peluse وهى فى موقع بورسعيد الحالية والدور الذى لعبته هذه المدينة فى التاريخ القديم . على أن أهم ما جاء فى هذا الجزء خاصاً بالتاريخ القديم كان بلا شك مدينة طيبة - الأقصر الحالية - ويسمىها المؤلف طيوه ، فقد أفاض فى شرح آثارها سواء معبد الكرنك أو آثار البر الغربى مثل مدينة هابو - ويسمىها أبو - والرمسيوم والقرنة وسائر الآثار التى حفل بها وادى الملوك . أما الموضوعات التى تعرض لها فى التاريخ الوسيط فكان نظام البريد فى الدولة الإسلامية عامة وفى مصر خاصة ، وتولى شجر الدر حكم مصر . وشرح الموجات البشرية من التار الذين زحفوا على الشرق العربى وسقوط بغداد فى أيديهم وانتقل إلى الكلام عن مدينة بغداد وتاريخها ، وتكلم عن الهدايا التى كان يتبادلها حكام البلاد الإفريقية فيما بينهم ، ووصف صحراء عيذاب والطريق الذى يمر عبر الصحراء من فقط إلى ميناء عيذاب الواقع على البحر الأحمر وأسماء المحطات الواقعة على هذا الطريق . وتكلم عن معدن الزمرد ومواطن استخراجة فى الصعيد الأعلى ابتداء من فقط بمديرية قنا حتى أسوان وشرح خواص هذا المعدن واختلاف لونه حسب فصول

السنة وحالة الطقس ، وقال إنه يزداد توهجاً فى ضوء القمر حتى يكتمل بدراً . ثم انتقل إلى الزبرجد وأنواعه وخواصه . ومن المصطلحات التى شرحها فى هذا الجزء : الشاليس ، اليزكية ، الكراخ ، استادار ، الاقامات بمعنى الميرة . ومن المدن التى جاء ذكرها فى هذا الجزء طنطا ، طهطا ، طلخا ، طما ، طوخ . وترجم لعدة شخصيات منها السيد أحمد البدوى ورفاعة رافع الطهطاوى وعبد الله الشراوى شيخ الجامع الأزهر فى نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر . وقد شمل هذا الجزء البلاد التى تبدأ أسماؤها بأحرف الصاد المهملة والصاد المعجمة والطاء المهملة والطاء المعجمة .

* * *

وحفل الجزء الرابع عشر بعدة بحوث ووثائق تاريخية فتكلم ، وهو يذكر أسماء البلاد المصرية ، عن عجرود . وكانت إحدى محطات قافلة الحج المصرية ، وهى على بعد عشرين كيلو متراً غرب مدينة السويس ، وتقع حالياً على الخط الحديدى الصحراوى الذى يصل بين القاهرة والسويس وتقف عندها القطارات الحديدية التى تسير على هذا الخط . وكان هذه المحطة كانت نقطة انطلاق فكرى لعلى مبارك فأخذ يذكر معلومات ضافية وطريفة عن الطريق التى كانت تسلكها قافلة الحج مارة بعجرود والمدن والدروب والمسالك والمغارات وآبار الماء والخانات والدور الواقعة على طريق الحج فى كل من مصر وشبه الجزيرة العربية حتى المدينة المنورة ومكة المكرمة ، ويصف مهام أمير الحج والترتيب الذى يوضع للحجاج فى ظعنهم وإقامتهم والأخطار التى يتعرضون لها فى الطريق من هجوم العربان عليهم وذكر أسماء القبائل والمناطق التى تسيطر عليها هذه القبائل . وتكلم عن وصول حجاج مصر والشام إلى رايغ حيث يبدأ الإحرام . وانتقل إلى عيذاب كميناء تقصده

السفن القادمة من الهند واليمن، وكمركز يباع فيه اللؤلؤ الذى يستخرج من الجزر القريبة من الميناء ، وكطريق يسلكه بعض الحجاج فى الوجه القبلى إلى الحجاز .

ويذكر معلومات طريقة للغاية عن منطقة عذاب وعادات سكانها والمتاعب التى يلقاها الحجاج القادمون من قوص إلى عذاب فى طريقهم إلى جدة وكيف كان يتحكم سكانها فيهم ويشحنون بهم المراكب ويطلقون عليها الجلاب (جمع جلب) فيجلس الحجاج وكأن السفن أقفاص مليئة بالدجاج حتى يستوفى صاحب الجلبة ثمنها من رحلة واحدة وهو لا يبالي بالأخطار التى تتعرض لها الجلبة وهى تحتاز البحر الأحمر . وانتهاز المؤلف فرصة كلامه عن عذاب فربط بين هذا الميناء وبين رحلة ابن بطوطة من إدفو إلى عذاب وكيف تعذر عليه مواصلة رحلته إلى جدة فعاد من عذاب إلى قوص ومنها صعد فى النيل إلى القاهرة ثم واصل سفره إلى الشام ماراً ببلبيس والصالحية والعريش ورفع، وتكلم عن القدس ومدن الرملة وطبرية ويبروت ودمشق وقبور الأنبياء الصالحين فى بعض هذه المدن الشامية مثل قبور إبراهيم واسحق ويعقوب وزوجاتهم ويونس وصالح وشعيب وسليمان وخالد بن الوليد وأبى عبيدة الجراح وعمر بن عبد العزيز وبلال مؤذن الرسول عليه السلام ، ثم انتقل إلى العراق فذكر أن قبره على فى مدينة مشهد على من بلاد العراق ، وأن أهل هذه المدينة كلهم رافضة أى شيعة ويحكمها نقيب الأشراف دون سواء ووصف المقبرة. ثم تكلم عن قرية أم عبيدة فى العراق حيث دفن بها أحمد الرفاعى ، وانتقل إلى مسجد على بن أبى طالب فى مدينة البصرة ومشهد الإمام الحسين بمدينة كربلاء ، وقبرى الإمام أبى حنيفة والإمام أحمد بن حنبل فى بغداد . وتضمن هذا الجزء أيضاً بحثاً عن العلاقات التجارية والسياسية والحربية فى

العصور الوسطى بين مصر وبين بعض الدول الأوربية مثل فرنسا والبندقية وجنوه وفلورنسه وغيرها من دول وإمارات حوض البحر المتوسط. وتكلم فى موضوع تعيين قناصل لبعض هذه الدول فى مصر منذ أيام الدولة الأيوبية ودولتى المماليك البحرية والبرجية وتبع نشاطهم ومقار عملهم ومدى نجاحهم أو فشلهم فى رعاية مصالح بلادهم ، ثم انتقل إلى موضوع المحاولات التى بذلت لإيصال البحرين المتوسط والأحمر قبل شق قناة السويس . كما تضمن هذا الجزء بحثاً عن ترعة الفرعونى شرح فيه الأخطار التى كانت تتعرض لها أراضي الوجه البحرى من مياه هذه الترعة وما كان يهددها من الفرق ، وتابع الجهود التى بذلتها السلطات الحكومية للمحافظة على جسور هذه الترعة منذ أواخر عصر المماليك فى سنة ١٢٠٧ هـ (١٧٩٢) وإبان الاحتلال الفرنسى وأوائل حكم محمد على حتى سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١) م . وانتقل إلى مذبحه المماليك بالقلعة ويسمىها على مبارك « وقعة المماليك بقلعة الجبل عصر » ويعلق عليها بقوله « وكان موتهم رحمة للعباد وعمارة للبلاد وأمنت بعدهم السبل برأ وبجرأ . » ومن الأبحاث التى تضمنتها هذا الجزء تداير الحكومة المصرية فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى للحد من استهلاك الأقمشة المستوردة من جمهورية البندقية ، إذ كانت سيدات مصر يغالين فى تفصيل ملابسهن منها ، وكانت مؤدة ذلك الوقت تفصيل ملابس فضفاضة واسعة للغاية الأمر الذى أدى إلى استهلاك كميات كبيرة من الأقمشة الأوربية الفاخرة . فحصل « التنبيه » فى الشوارع بالكف عن ذلك ، وفى أكتوبر ١٣٩٠ نزل رجال الحكومة إلى أسواق القاهرة وشوارعها وقطعوا أكام الملابس الواسعة التى كان النساء يرتدينها . وانتقل المؤلف إلى بحث فى التاريخ القديم عن منطقة العراة المدفونة

وافر من علماء فرشوط والفيوم وفارسكور وقنا غير ما سبق ذكرهم . وقد غطى هذا الجزء البلاد التي تبدأ أسماؤها بحروف العين المهمة ثم العين المعجمة والقاف .

* * *

واستهل على مبارك الجزء الخامس عشر بالكلام عن مدينة كانوب ، وتقع مكان ضاحية أبي قير الحالية ، واستعرض تاريخها زمن الفراعنة وفي العصرين البطلمي والروماني ومعابدها وبخاصة معبد سيرابيس الذي كان يقصده المصريون طوال العام لالتبرك والزيارة فحسب ، بل لما كانت تتخلل الحياة في كانوب من مجون وفسق بسبب كثرة النساء العاهرات وأماكن الخون واللهو غير البريء ، وخضع على مبارك من ذلك إلى القول بأن كهنة معبد سيرابيس كانوا أغنى رجال الدين في مصر قاطبة . ووقف المؤلف وقفة طويلة للغاية عند ذكر بلدة المطرية من ضواحي القاهرة وأثبت أن المطرية ليست عين شمس وإنما هي على مقربة منها ، وتكلم عن مسلاتها العديدة التي نقلت منها إلى رومه إبان الحكم الروماني ، ثم انتقل إلى هياكلها قبل دخول المسيحية إلى مصر وأخذ يستعرض تاريخها عبر العصور وتتبع رحلة السيدة مريم وابنها عيسى عليه السلام ومعهما يوسف النجار من بيت المقدس إلى مصر ونجواهم في مختلف البلاد المصرية وإقامتهم في المطرية . وتكلم عن الأحداث التاريخية الهامة التي وقعت في منطقة المطرية إبان الحكم الإسلامي حتى وصل إلى معركة الريدانية التي تلى فيها السلطان طرماتباي آخر سلاطين دولة المماليك الهزيمة على يد السلطان العثماني سليم الأول ، وشرح الأيام العصيبة التي سبقت ولحقت هذه المعركة ، وإقامة السلطان سليم في مصر ثمانية أشهر ثم رحيله إلى الآستانة والقرايات التي اتخذها عند رحيله ،

ويسميتها « العربات المدفونة » في أبيلنوس على مقربة من البلبينا بمحافظة سوهاج ، فشرح آثار هذه المنطقة وأسماء الشمس المقدسة عند قدماء المصريين وغيرهم من شعوب الشرق القديم . ومن الوثائق التي نشرها على مبارك في هذا الجزء نذكر ثلاثاً : هدنة عقدت بين حكومة جنوة ودولة المماليك البحرية على عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون وابنه الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون ، ووثيقة ثانية تاريخها ٤٢٢ هـ باسم « دستور يتضمن العامر والغامر من أرض الفيوم » وتشمل بياناً عن شبكة الترع التي كانت منتشرة في إقليم الفيوم وقتذاك . أما الوثيقة الثالثة فممنشور أذاعه غازان ملك التتار على سكان مدينة دمشق بعد معركة مجمع المروج سنة ١٢٩٨ . أعلن فيه لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وتددت سياسة دولة المماليك ، وكان سلطانها وقتذاك هو الناصر محمد بن قلاوون . وشرح على مبارك على عادته بعضاً من المصطلحات التي كانت ذائعة في العصور الإسلامية ونذكر منها على سبيل المثال : الجراوة ، التدب ، التنبول ، الطرائد ، الشواني ، الحراقات ، بطس ، العشاريات ، بيكار ، بياكيز . ومن المدن أو البلاد التي كتب عن تاريخها في هذا الجزء : العريش ، العسيرات ، العطف ، فارسكور ، قاقوس ، فرشوط ، القرما ، الفشن ، الشيخ فضل ، فوه ، الفيوم ، القصير ، ققط ، القلزم ، قليب ، قنا ، قوص ، القوصية ، قويسنا . وفي هذا الجزء تراجع لشخصيات عديدة نذكر منها : ابن خلدون وابن بطوطة وعبد الوهاب الشعراني وإمام المتصوفة في مصر في القرن العاشر الهجري وبعض أفراد أسرته والإمام الليث ابن سعد وابنه الإمام شعيب والبهاء زهير والشيخ حسن العدوي وأبو الحسن الشاذلي والكندي وعبد الرحيم القنائي والشيخ سليمان الفيومي . وترجم أيضاً لعدد

بها الحكومة المصرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر لاستيراد أنواع معينة من الأغنام من أوروبا وتربيتها في مصر بغية استغلال أصوافها وشرح بالتفصيل المراحل التي مرت بها هذه العملية واجراءات الحكومة لتنظيمها . ومن الأبحاث التي جاءت في هذا الجزء الحملة العسكرية التي أرسلها السلطان العثماني إلى مصر بقيادة حسن باشا الجزائرلى سنة ١٧٨٦ لكسر شوكة المماليك واسترجاع نفوذ الدولة في مصر ، ونشر صورة الفرمان الذي أرسله حسن باشا إلى أولاد حبيب بتاحية دجوة . ومن المصطلحات التي شرحها على مبارك في هذا الجزء : الإخراق ، البرك ، المشاعلية ، نيدة البوش ، النيدة المعقودة ، الخبيص ، شجر اللسان والبسام ، عازق ، بيورلضى ، بيورلضيات ، وأنواع الأعلام الحربية مثل الشطفة ، والعصابة والصنجر . ومن المدن التي تكلم عنها كفر الزيات ، كفر الشيخ ، اللاهون ، المحلة الكبرى ، محلة روح ، المراغا ، مرصفا . مغاغة ، ملوى ، ملبج ، المنصورة ، متفلوط . وبالنسبة للمنصورة فقد أفاض في الكلام عن النهضة الصناعية التي شهدتها هذه المدينة في القرن التاسع عشر . أما متفلوط فقد أبرز معنى خاصا بها هو أنها كانت مسرحاً لحوادث القتل والشغب التي كان يلجأ إليها الأمراء المماليك في أواخر القرن الثامن عشر تحديداً لحكومة القاهرة واستخفافاً بالباشا العثماني .

ونشر القصيدة المشهورة التي نظمها ابن اياس يرقى فيها حالة مصر بعد أن ضاع استقلالها وأضحى ولاية عثمانية واحتل أرضها جنود عثمانيون حلقو الذقون يضعون على رؤوسهم الطراير ، ووضفهم بأنهم ليسوا على حظ موفور من الشجاعة لأنهم يعتمدون في الحرب على سلاح المدفعية ، وسجل في هذه القصيدة أعمال التخريب التي ارتكبتها العثمانيون في أحياء القاهرة ومساجدها وتكدس جثث الموتى في الشوارع كأنها ذبائح عيد الأضحى . وانتقل على مبارك إلى الكلام عن موقعة عين شمس بين الفرنسيين والعثمانيين وهزيمة الأخيرين (٢٠ مارس ١٨٠٠) وأفاض في الكلام عن ثورة القاهرة الثانية وهي الثورة العارمة التي قام بها الشعب ضد الفرنسيين واستطالت ثلاثة وثلاثين يوماً وذكر مراحل هذه الثورة ودور الزعماء والشعب فيها وقد استمد من الخبر في المادة التاريخية عنها كما نقل عنه عدة حوادث تمثل المقاومة الشعبية في العصر العثماني وأوائل حكم محمد علي ، وكان بعضها لعلماء الأزهر وقد وقفوا من الأمراء المماليك في كل حادث وقفة تنم عن الإباء والعزة والكرامة . ونقل عن الخبر في أيضاً قصة وقعت في ربيع آخر ١٢٣٥ (١٧ يناير ١٨٢٠ - ١٤ فبراير ١٨٢٠) وهي تشبه في معظم عناصرها إلى حد بعيد حادث دنشواي (١٩٠٦) مع اختلاف النتائج في كل منها بطبيعة الحال (١) . وتكلم عن المحاولة التي قامت

إلى القاهرة وقابلوا وكيل محمد علي واجتمع الألبانيون وأصرروا على قتل الإنجليزي ، وغشى الوكيل عاقبة هذا التصرف ، واقترح التريث حتى يستدعى القناصل ويعرض عليهم المسألة . ولكن استنكر الألبانيون تأخير قتل الإنجليزي وتمليق قتله على رأى القناصل ، وطالبوا بقتله فوراً وتهدوا يذولهم إلى سبي الأفرنج ونهب المساكن وقتل جميع من بها من الأجانب فلم يسع الوكيل إلا أن أمر بقتله فزولوا به إلى الرميعة وقطعوا رأسه .

(١) قدم رجل الإنجليزي من الإسكندرية إلى قرية كفر حشاد بمركز تلا بمديرية المنوفية ليصطاد بها الحمام وصوب بتدقيقه نحو حمامة ولكن أصابت انطلقة أحد الفلاحين في ساقه . ورأى أحد الألبانيين هذا الحادث ، وكان يمسك بيده هراوة غليظة فقال للإنجليزي : ألا تخشى أن يأتي إليك بعض الفلاحين ويضربوك على رأسك هكذا ؟ وأشار بما في يده إلى رأس الإنجليزي ، إذ كان الألباني لا يتكلم الإنجليزية . فما كان من الإنجليزي إلا أن ضرب الألباني برصاصة صرعت في الحال . فاجتمع الفلاحون وقبضوا على الإنجليزي وسالوا به ومعهم القتل

وقد ذكر في هذا الجزء إحدى عشرة قرية تتكون أسماؤها من كلمات مركبة تبدأ الكلمة الأولى في كل منها باسم معصرة مثل معصرة اطفح ومعصرة سبالوط ومعصرة عرفة وكلها عبارة عن قرى . كما ذكر اثنتين وثلاثين بلدة تبدأ أسماؤها المركبة بكلمة علة مثل علة روح وعلة المرحوم . وحفل هذا الجزء بتراجم لعدد كبير من الشخصيات نذكر منها المسعودي المؤرخ العربي ، وابن الجباب وابن زولاق وعبد اللطيف البغدادي والشريف الرضي وعثمان بك البرديسي والشيخ محمد الدواخلي نقيب الأشراف ، والشيخ محمد الشناوي من كبار المتصوفة ، والشيخ صادومه وهو أزهري فاسق ماجن ، وحمدان ابن الأشعث مؤسس فرقة القرامطة ، والشريف الرضي وأخيه المرتضى ، والشيخ محمد القاضي المعروف بابن فخر القضاة المنقلاطي . وترجم أيضاً لطبيين عريين برعا في الطب هما أبو بكر حامد بن سمجون وأبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة . كما ترجم لعدد وافر من علماء كل منحلة الكبرى ومرصفا والمنصورة والمتزلة . وتضمن هذا الجزء البلاد التي تبدأ أسماؤها بحرف الكاف ثم اللام ثم الميم .

واستهل على مبارك الجزء السادس عشر بالكلام عن مدينة منف فشرح موقعها الجغرافي وتاريخها ومعبداتها ومقاييس النيل الذي كان قائماً في منطقتها وتكلم عن عبادة أبيس عند قدماء المصريين وخاض بحثاً ضافياً عن أهرام مصر وعددها وأسماء بنائها وتاريخ إقامتها والأدوات التي استخدمت في بنائها وكيف تم تشييدها والأغراض التي استهدفها القراعة منها ثم المحاولات التي قام بها فريق من الملوك والحكام الأقدمين لدخول هرم الحيزة الأكبر بإحداث فجوة فيه ، وتعرض للثلمة التي فتحها المأمون الخليفة العباسي في الهرم أثناء زيارته لمصر ومحاولة أحمد بن طولون فتح الهرم .

وانتقل من الكلام عن أهرام الحيزة إلى تمثال أبي الهول ويطلق على مبارك عليه «الصم» ويلاحظ أنه استعمل نفس التسمية التي أطلقها المقرئ في خطه على «الصم» (١) . ومن الموضوعات التي طرقتها المؤلف حمام الرسائل التي كانت تبث به السلطات الحكومية في مصر في القرن السابع الهجري حاملة رسائل السلاطين وكبار رجال الدولة ، وقرر أن ميت عقبة بالحيزة كانت أول مراكز انطلاق الحمام الزاجل وقد بلغ عدده نحو ١٩٠٠ طائر ، ووصف طريقة حمل الرسالة تحت جناح الطائر . ومن الأبحاث الهامة التي وردت في هذا الجزء نظام القضاء في مصر إبان الحكم العثماني ، وإدخال عناصر عثمانية في القضاء المصري واستعلاء كبير القضاة العثماني على القضاة المصريين . كما تكلم المؤلف عن ظاهرة اجتماعية في العصر العثماني - أو في أوائله بتعبير أدق - هي منع النساء من الخروج إلى الأسواق خوفاً من اختلاط الجنود العثمانيين بهن وقصدانهم لياقتهم البدنية . وقد استثنيت من قرار المنع السيدات العجائز كما تقرر عدم السماح للسيدات بركوب الحمير وتقرير عقوبات رادعة على المخالفات لهذا القرار وعلى المكارية الذين يسمحون بركوب السيدات على الحمير . ومن المصطلحات التي تناولها المؤلف بالشرح في هذا الجزء : الأورجي ، الأورور ، الأشل ، الحريب . ومن المدن التي أرخ لها : منوف والمنيا وميت غمر وسمتود . ويمكن أن يطلق على هذا الجزء بحثي الجزء الخاص بالبلاد التي تبدأ بكلمة « منية » فقد ذكر على مبارك مائة وواحد وأربعين بلداً تبدأ أسماؤها المركبة بهذه الكلمة . ويلاحظ أن عدداً من هذه البلاد احتفظ بهذه اللفظة دون تحوير أو تحريف ولا يزال يبدأ اسمها بها ، مثل منية الباسل ومنية الأشراف ومنية شستنا عياش . وحدث في أسماء البعض الآخر تحريف

(١) المقرئ : المخطوط طبعه الشيخ - لبنان ثلاثة مجلدات

إلى كلمة ميت مثل ميت نمر وميت رهينة وميت عقبة وميت القرشي وميت فارس وميت أبو غالب وميت بره وميت حبيش القبيلة وميت حبيش البحرية وميت يزيد ، كما حدث في أسماء البعض الثالث تحريف إلى كلمة منيا ، مثل منيا القمح وإن كانت تكتب أحيانا باسمها الأصل منية القمح وأخيراً ، تخلصت تماماً بعض البلاد من لفظة منية مثل سنود . وقد ترجم المؤلف في هذا الجزء لعل بك الكبير وأحمد باشا الوالى العثمانى الذى حاول الاستقلال بمصر سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٤) م ، والشيخ أحمد العروسى شيخ الجامع الأزهر ، وعبد الوهاب الغفنى ، وعقبة بن عامر ، وأحمد بن قاسم شيخ عرب الوجه البحرى ، وابن سنذر وقصته مع عمر بن الخطاب . ولم يشمل هذا الجزء سوى أسماء البلاد التى تبدأ أسماؤها بحرف الميم .

وفي الجزء السابع عشر من الخطط التوفيقية تكلم عن الواحات المصرية في غرب النيل وعددها وأسمائها والبلاد والقرى التابعة لكل منها وما يتصل بتاريخها من أحداث وأساطير وطرق المواصلات بينها وبين وادى النيل ومواردها الاقتصادية وعادات سكانها والامتيازات المقررة لهم كأعفانهم من السخرة والتجنيد وشرح واجباتهم إزاء الحكومة وتتلخص في تقديم الإبل عند الحاجة وحراسة الدروب ، واستطرد إلى الكلام عن معدن أو حجر الشب ومواطن استخراجها في مصر وفوائده والرسوم المقررة عليه أيام دولة المماليك وطرق تصديره . وتكلم عن القبائل العربية النازلة بين الواحات ووادى النيل وتحديد منطقة كل منها ، وقد قرن المادة العلمية عن الواحات بمعلومات طريفة للغاية عن بعض بلاد الواحات ، ووصف الرحلة من القسقاط الى الواحة الخارجة ثم إلى دارفور ، وقد استقى على مبارك هذه المعلومات من رحلة قام بها

الشيخ محمد بن عمر التونسي وسجل أحداثها في كتاب وضعه باسم « تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » . وانتقل على مبارك إلى وصف الآثار والقرى الواقعة في المنطقة الممتدة من أسوان إلى وادى حلفا وتعرض لمعبدى كلبشة وأبي سمبل ثم تتبع الطريق من وادى حلفا إلى دارفور والمدن التى تقع على هذا الطريق والبعثة التى أوفدها الحكومة المصرية في سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦) م من المهندسين والأطباء والعسكريين لاستكشاف أقرب طريق إلى تلك الجهة تمهيدا لإنشاء ما يلزم فيها من محطات ، وتكلم عن الشكوك الانثوجرافى لسكان بلاد النوبة وعادات العرب الذين يسافرون في القوافل التى كانت تسير بين شطرى الوادى ، وتكلم عن بعض الأديرة وانتقل منها الى غزو القرس لمصر ثم الى صناعة النظرون ومواطن استخراجها في مطر ، واعتمد في ذكر المادة العلمية على ما كتبه علماء الحملة الفرنسية في مصر عن وادى النظرون وصناعاته والطريق من وادى النظرون إلى الطرانة . وتكلم عن مشروعات ايصال نهر النيل بالبحر الأحمر لايجاد طريق مائى تسير فيه السفن من منف وغيرها من بلاد الصعيد إلى البحر الأحمر مباشرة ، ومن البحوث الطريفة التى جاءت في هذا الجزء عادة القراعة في ذبح الثيران التى تقدم قرايين لأهنتهم ، وأبرز حرص المصريين على أن يكون الثور خاليا من الشعر الأسود أو الأبيض احتراما للعجل أبيس الذى كان يتميز ببقع سوداء وبياض ، وذكر معلومات إجتماعية ودينية طريفة للغاية في موضوع تقاليد المصريين إزاء الثيران والعجول ، واستطرد إلى براجمة الهنود الذين يمتنعون عن أكل لحم البقر . وفي هذا الجزء نشر المؤلف وثيقة الوقفية التى أوقف فيها السلطان مراد الرابع سنة ١٠٣٦ هـ (١٦٢٦) م

قرية وراق الحضر شمال انبابة بالحيزة على الحرمين الشريفين . ومن البلاد التي أرخ لها في هذا الجزء : نبوه وتكلم عن مدرسة الزراعة التي انشئت بها في النصف الأول من القرن التاسع عشر كما أرخ لبلاد أخرى منها هيا ودنقلة والفاشر ودارفور . ومن تراجم الشخصيات : الشيخ محمد النشرفي شيخ الجامع الأزهر والشيخ محمد المهدي وبعض ذويه والشيخ حسونة النواوي والشيخ محمد اسماعيل النفراوى والشيخ شهاب الدين احمد عبد الوهاب النويرى مؤلف كتاب نهاية الأرب في فنون الادب ، وعرض على مبارك عرضا سريعا لأجزاء هذا الكتاب ، كما ترجم لوالد مؤلفه الشيخ تاج الدين النويرى والشيخ محمد عمر التونسي .

وقد أنسى على مبارك عرض البلاد المصرية في الجزء السابع عشر بقرية اليهودية إحدى قرى مديرية البحيرة وترجم لأحد علمائها وهو الشيخ احمد برغوث بالعبارة التقليدية التي درج عليها الجبرتي وغيره « قدم الأزهر وتفقه على مشايخ العصر ومهر في المعقول والمقول وتصدى للتدريس وانتفعت به الطلبة » ثم يختم هذه الخطط عن البلاد المصرية بقوله « اعلم أن الكلام على خطط القاهرة من المهمات التي اعتنى بها أفاضل العلماء والمؤرخين ورؤساؤهم قديما » وقال إن الخطط جمع خطة بمعنى محلة أو بلد لانه يخطط عند التحديد ، واستعرض مؤلفي كتب الخطط من المؤرخين العرب ، فقال إن أولهم أبو عمر محمد بن يوسف الكندي ، وتابع اسماء زملائه الذين كتبوا في الخطط حتى انتهى إلى المقرئى .

وأفرد على مبارك الجزء الثامن عشر من الخطط التوفيقية للحديث عن مقياس النيل منذ عصور القراعة

حتى القرن التاسع عشر الميلادى . وقد قدم له بالكلام عن أهمية قياس درجة فيضان النيل في كل سنة ، لأن القياس هو القاعدة في ربط الضرائب وتوزيعها على البلاد على أساس أن الفلاحين لا يستطيعون زراعة الأرض وبالتالي الحصول على الإنتاج الزراعى الا اذا سقيت الأرض بماء النيل . وانتقل إلى المقياس التي استخدمت أيام قدماء المصريين في قياس ارتفاع الفيضان ، وكيف كانت آلة القياس تودع في معبد أطلق عليه اسم سيرايس أى معبد النيل ، وكان كهنة هذا المعبد هم المخصصون لاستعمال آلة المقياس . وتظهر في الخطط التوفيقية للمرة الأولى والأخيرة رسوم هي أشكال المقياس المختلفة وقد نقلها عن الرسوم الموجودة على الآثار المصرية وما ذكره هيرودوت . ثم تكلم عن المقياس في مدة حكم الفرس والبطالة والرومان وانتقل إلى العصر الإسلامى ، وأسهب في الكلام عن المقياس على عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وعمليات ترميمه أو إعادة بنائه في عهود الحكم الإسلامى وواصل الحديث عن المقياس زمن الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين والفرنسيين وحكم أسرة محمد على . وتكلم عن جزيرة الروضة ومساجدها ودورها ، وكتب فصلا عن جبر البحر وهو فصل تمتع أوضح فيه عناية المصريين البالغة باحتفالات وفاء النيل على مدار العصور ، وأشار إلى العادة التي درج عليها المصريون من إلقاء عروس في النيل وكيف أبطلها الإسلام عند دخول العرب مصر ثم وصف عيد الشهيد عند المسيحيين في اليوم الثامن من شهر بنس القبطى وهو وصف لا يخلو من طراقة ، وعاد يصف الاحتفالات بوفاء النيل أيام الفاطميين وتدرج على مر العصور والأحقاب حتى وصل إلى سنة ١٢٩١هـ (١٨٧٤م) ، وذكر المرتبات التي قررتا الحكومة

المصرية لشيخ المقياس، ثم أورد جدولاً سجل فيه الحد الأعلى الذى بلغه منسوب مياه الفيضان ارتفاعاً والحد الأدنى هبوطاً منذ أن فتح العرب مصر سنة ٢٠ هـ حتى عزل الخديو اسماعيل سنة ١٢٩٦ هـ (٦٤٠-١٨٧٩) م وقد استغرق هذا الجدول أربعاً وسبعين صفحة من الخطط التوفيقية . وختم بحثه عن المقياس بذكر حادثين وقعاً سنة ١٨٨٧ كان أولهما العثور فى بئر المقياس على حجر من الرخام من عهد الحملة الفرنسية ومنقوش على أحد وجهيه باللغة الفرنسية « السنة الثامنة عشرة من الجمهورية » وعلى الوجه الآخر باللغة العربية التاريخ الهجرى ١٢١٥ وهو يوافق سنة ١٨٠٠ . أما الحادث الثانى فهو عمل مقياس مترى على حائط الرصيف الشرق لسراى حسن باشا المانسترلى فى زاوية السلم القريب جداً من المقياس الأصلى . واختتم على مبارك هذا الجزء بعدة بحوث ، نذكر منها : التغيرات التى حدثت فى شاطئ النيل فى منطقة القاهرة إذ كانت هناك مناطق من العاصمة ذكر أسماءها كانت تطل على النيل مباشرة ثم أصبحت بعيدة عنه وخلص من ذلك إلى القول بأن النيل أخذ فى الانتقال نحو الغرب مخلفاً أرضاً كانت مغمورة به ، ومن البحوث الأخرى ما يتعلق بخليج أمير المؤمنين فقد أتى على تاريخه منذ أيام الفراعنة والفرس والرومان وكيف أعاد عمرو ابن العاص حفر هذه التربة فى عام الرمادة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب وتكلم عن مسار التربة من القاهرة حتى مصبها فى البحر الأحمر والقناطر التى أنشئت عليها فى منطقة القاهرة . وأخيراً وضع بحثاً مستفيضاً عن تاريخ قناة السويس وركز اهتمامه على التاريخ الحديث منذ عهد الوالى محمد سعيد باشا وتكلم عن عقدى الامتياز التى ظفرت بها دى لسبس والشروع فى حفر القناة سنة ١٨٥٩ ثم استعرض مراحل التراجع

بين الحكومة المصرية وشركة القناة وتحكيم نابليون الثالث امبراطور فرنسا ، وأسهب فى وصف حفلات افتتاح القناة وعناية الخديو اسماعيل الفاتحة بأوجين امبراطورة فرنسا . ويستفاد من كتابه عن تاريخ قناة السويس أنه كان ناقماً على سياسة التساهل التى درجت عليها الحكومة المصرية إزاء شركة القناة ، كما كان ساخطاً على مظاهر البذخ الشديد فى حفلات افتتاح القناة ، وقد قال تعليقاً عليها إنها تكلفت أكثر من مليون ونصف مليون جنيه وقرر أن هذا المبلغ يعادل سدس إيراد الحكومة المصرية فى سنة كاملة .

وأفرد الجزء التاسع عشر من الخطط التوفيقية لترع النيل ورياحاته ومنشآت الرى فى الوجهين البحرى والقبلى . وقد قدم له باعتذار قال فيه إنه سجل فى هذا الجزء ما كان موجوداً فى مصر من ترع ومنشآت وقت قيامه بتأليف الخطط التوفيقية سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥) م ثم استدرك قائلاً إنه « لا يحق أن نجد بعد ذلك أشياء أخرى غير ما ذكر ، وبطلت أشياء ، فسبحان من لا يتغير » وقد بدأ بالكلام عن رياح روضة البحرين ، وانتقل الى باقى الرياحات والترع فكان يتكلم عن مسار كل ترعة من مخرجها إلى مصبها أو نقطة تلاشيها ثم طولها وعرضها وارتفاع المياه فيها زمن الفيضان وزمن التحريق ، وأسماء البلاد والنواحي والكفور والنجوع التى تمر بها والمديريات التى تروى أراضيها ، وعما إذا كانت ترعة نيلية أو صيفية وتاريخ تحويلها إلى صيفية ، وعما إذا كانت قديمة أو مستحدثة وتاريخ إنشائها ، وعدد العمال الذين اشتغلوا فى حفرها ، ومقدار الإنقراض التى تخلفت عن حفرها ، والقناطر المقامة عليها وعدد عيونها وهل هى مبنية بالطوب الأحمر أو بالحجر . ثم لا يتنصر كلامه على

هذه البيانات أو التفضيلات بل يقرتها بالكلام عن آلات الرى ويسميتها «الوابورات» التي أقيمت على كل ترعة وعددها ونوعها سواء كانت آلات ثابتة ويسميتها «ثوابت» أو متحركة ويطلق عليها «كومويل» وقوة كل منها مقدرة بالحصان وأسماء أصحابها.. ويلاحظ من دراسة هذه الأسماء أن غالبية أصحاب الآلات كانوا من الأجانب والمتمصرين واليهود وأفراد أسرة محمد على وأصهارهم وكبار الملاك الزراعيين مثل عائلات ذو الفقار باشا وشريف باشا وراتب باشا والمنشاوى باشا وراغب باشا والشواربى باشا وعباس باشا يكن وأحمد باشا الدرملى والبراوى عاشور. وتعكس دراسة هذه الأسماء صورة اجتماعية اقتصادية قائمة هي أن الملكية الزراعية في مصر منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانت مركزة في يد حفنة من الأجانب والأمراء والباشوات. وما يلاحظ أن على مبارك كان يطلق على نهر النيل اسم البحر الأعظم وعلى فرع دمياط البحر الأعظم الشرقى وعلى فرع رشيد البحر الأعظم الغربى. وفي تعرضه لترعة الوادى أطلق على شركة قناة السويس عبارة «كمانية الكنال».

* * *

أما الجزء العشرون فقد خصصه المؤلف للكلام عن العملة وتطورها. فتتبع تاريخ العملة التي كانت متداولة في مصر منذ الفتح العربى على مر العصور التاريخية ثم انتقل إلى شكل النقود وقطر كل قطعة ذهبية أو فضية مقدرا بالمليمترات، وعقد فصلا طويلا عن الصور والكتابة التي كانت ترسم وتنقش على النقود الإسلامية وأول من ضرب النقود في الإسلام، وكيفية نقش التاريخ على العملة ثم عرج على العادة التي كانت متبعة من نقش الأدعية وأسماء

الملوك والولاة وألقابهم ونعوتهم على العملة. والأسماء الدالة على الرتب والوظائف، وما كان ينقش مع أسماء الخلفاء على النقود من أسماء أبنائهم وأسماء العمال والولاة المستقلين وغير المستقلين. وانتقل المؤلف إلى الأندلس وبلاد إفريقيا التي دخلها الإسلام فأفرد فصلا عن النقود التي ضربت في هذه الأقطار، كما كتب عدة فصول أخرى تناولت شتى الموضوعات المتصلة بالعملة، مثل: القيمة الحقيقية للنقود، حدة النقود وتقييمها، عيار النقود، نقود الذهب، نقود الفضة، نسب نقود الذهب والفضة بمصر، ثمن الذهب والفضة في مصر، النقود التي كانت متداولة في مصر عند قدوم الحملة الفرنسية إليها، مقدار النقود التي ضربت إبان سنوات الاحتلال الفرنسى وما جنته الحكومة من أرباح وقتذاك، العملة النحاسية ويسميتها «فلوس النحاس»، وتضمن هذا الجزء عدة جداول إيضاحية هامة، منها: جدول بأسماء البلاد الإسلامية التي كانت تضرب فيها العملة وقد بلغ عددها ٣٠٧ بلدة في أوروبا وأفريقيا وآسيا وكان بعضها مدنا وبعضها ولايات إسلامية والترم في ذكر هذه البلاد ترتيب حروف المعجم. كما وضع المؤلف ثبنا طويلا يتضمن أنواع العملة العربية الفضية والبلاد التي ضربت بها وبيان أوزانها وتواريخها وأسماء الخلفاء الذين ضربت على عهدهم هذه العملات ابتداء من عبد الملك بن مروان. ويقع هذا الثبت في تسع وستين صفحة. ثم أورد في هذا الثبت جدول تفصيلي عن نقود مصر أوضح فيه اسم العملة ومكان وتاريخ ضربها واسم الخليفة أو السلطان أو الوالى الذى ضربت في عهده والوزن الرسمى للعملة بالجرام والوزن الجارى والعيار الرسمى والعيار الجارى وسعرها الذى تتداول به إلى غير ذلك من بيانات فنية تفصيلية. وقد استغرق

هذا الجدول عشر صفحات كوامل . واختتم هذا الجزء الأخير من الخطط التوفيقية ببحث رائع ضاف يقع في خمس وثلاثين صفحة تناول فيه القوة الشرائية للنقود في مصر عبر اثني عشر قرنا في مختلف عهود الحكم الاسلامي من سنة ٨٧ هـ حتى ١٢٨٦ (٧٠٦ - ١٨٧٠) م واستعرض في نظام رتيب فترات الغلاء التي مرت بالبلاد وأزمات التموين في المواد الغذائية وكيف كان عنف المجاعات عاملا في دفع الشعب إلى الثورة على الحكام . وكان يعتمد إلى الدراسة المقارنة لأسعار مواد التموين في أوقات الرخاء وفي أوقات الشدة ، وتكلم عن تدفق العملات الاجنبية على مصر في القرن التاسع عشر والعملات الذهبية والفضية التي ضربت في حكم إسماعيل وكيف جعل عيار الذهب واحدا وعشرين قيراطا . والحق أن هذا البحث يعتبر من أهم البحوث التي جاءت في الخطط التوفيقية ويعتبر مسك الختام . وقد اختتم على مبارك الخطط التوفيقية بهذه العبارات التي نتم عن سمات الرجل العالم المتواضع المتدين فقال « وإلى هنا وقف بنا جواد القلم في مضمار البيان ، ولما نسأله سبحانه وتعالى أن يجعل سعينا مشكورا ، وعملنا مقبلا مبرورا ، وأن ينفع بهذا الكتاب النفع العميم ، ويجعله سببا للنور لديه بمجنات النعيم . والمرجو ممن اطلع عليه من كل حر حسن خيمه وطاب أديمه أن يسبل على ما يشر عليه من الحفوات جميل الأستار ، فقلما يسلم جواد من عثار ، سيما والإنسان على الخطأ والنسيان . والحمد لله على التمام ، والصلاة والسلام على من هو للأنبياء والمرسلين ختام ، وعلى آله وصحبه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون » .

مصادر ومراجع الخطط التوفيقية

تقلد على مبارك عديد المناصب الوزارية على عهد

الخديو إسماعيل ثم الخديو توفيق فعين ، على فترات متصلة حيناً ومتقاربة حيناً آخر ومتباعدة حيناً ثالثاً ، وزيرا للأشغال والأوقاف والمعارف كما تقلد الإدارة العامة لمصلحة السكك الحديدية . ولا شك أنه استفاد من وجوده وزيرا في هذه الوزارات فرجع إلى محفوظات كل وزارة واستقى منها المادة العلمية اللازمة في إعداد الكثير من الأبحاث التي وردت في الخطط التوفيقية . وحسبنا أن نذكر هنا على سبيل المثال أن الجزء التاسع عشر يحوى تفصيلات ضافية فنية عن ترع النيل ورياحاته ومنشآت الري . ولا يستطيع باحث أن يكتب بثل هذه الإفاضة والدقة والإحصائيات عن شبكة الترع الموجودة في مصر إلا إذا كانت سجلات وزارة الأشغال ميسرة أمامه يستقى منها المادة العلمية . ويكنى أيضا أن نشير إلى أنه ذكر ثلاثة وعشرين فرعا تخرج من ترعة الحمودية وخاض في تفاصيل فنية هندسية عنها . وقس على ذلك سجلات وزارة الأوقاف حيث توجد الوثائق والحجج التي أوقف فيها حكام مصر وغيرهم من أهل الخير الأراضي الزراعية وغيرها من العقارات على المساجد والزوايا والأسبلة والتكايا والحرمين الشريفين في مكة والمدينة . كما استمد من سجلات وزارة المعارف المادة الغزيرة عن المدارس وما يتصل بها . واستفاد من وجوده مديرا عاما للسكك الحديدية فرجع إلى الأوراق الرسمية عند كتابته عن الشبكة الحديدية في مصر . وعلى هذا فإن المصدر الأول للخطط التوفيقية كان الوثائق والأوراق الرسمية الموجودة في وزارات الأشغال والأوقاف والمعارف ومصلحة السكك الحديدية وغيرها من دواوين الحكومة .

وعلى مبارك يجيد اللغة الفرنسية وقد تعلمها أثناء

وجوده في فرنسا حضوا في بعثة الأنجال واستغل

معرفته بالفرنسية في الرجوع الى الموسوعة التي وضعها علماء الحملة الفرنسية عن مصر في عشرين جزءا باسم «وصف مصر» (١) ويطلق عليها على مبارك حين «خطط فرنساوية» (٢) وحين آخر «خطط مصر للفرنساوية» (٣) وكأنه يريد أن يؤكد إجادته للغة الفرنسية فلا يعتمد على هذه الموسوعة الفرنسية فحسب بل يعتمد على الترجمة الفرنسية التي قام بها المستشرق الفرنسي كاترمير Etienne Quatremère لكتاب المقرئى «السلوك لمعرفة دول الملوك» فكثيرا ما يصادف الباحث في الخطط التوفيقية هذه العبارة «نقله كترمير عن كتاب السلوك» واعتمد ايضا على بحوث المستشرق الفرنسي دى ساسى de Sacy . كما استغل معرفته باللغة الفرنسية في الرجوع إلى كتب الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مصر في القرنين السابع عشر والثامن عشر مثل فانسلب Vansleb الذى زار مصر سنة ١٦٧٢ (٤) والرحالة سافارى Savarri ويسميه على مبارك «سوارى السواح فرنساوى» (٥) واعتمد على رحلة «ولين فرنساوى» (٦) ورجع الى كتاب كلوت بك ويسميه قولوط بك (٧) ، وإلى قاموس الجغرافية الافرنجنى ومنه استمد المادة العلمية لتراجم الشخصيات الأجنبية التي يتصل نشاطها بتاريخ مصر . وفى كتابة تاريخ مصر القديم رجع الى كتب العلماء

1) Description de l'Egypte ou Recueil des Observations et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'Expédition de l'Armée française publiée par les ordres de S.M. L'Empereur Napoléon le Grand. Paris. Imprimerie Impériale (1809 — 1822).

الأجانب الذين كتبوا فيه قديما أو حديثا أو قاموا بأعمال البحث والتنقيب فى الآثار المصرية فى القرن التاسع عشر ونذكر من هؤلاء واولئك على سبيل المثال هيرودوت (١) وديودور الصقلى وسترابون (٢) ومارييت (٣) وشانيليون (٤) .

وفى الخطط التوفيقية تبرز سمات مؤلفها فاذا هى صفات الرجل العالم الذى يتميز بالأمانة العلمية وينأى بنفسه عن مواطن أو شبهات السرقه الأدبية بمصطلح الوقت الحاضر الذى نعيش فيه — فهو حريص دائما على أن يذكر اسم المصدر أو المرجع الذى أخذ عنه . وكان يذكر أحيانا اسم الكتاب فقط وأحيانا أخرى اسم مؤلفه وأحيانا قليلة يجمع بين اسم الكتاب واسم المؤلف وأحيانا لا يذكر اسم الكتاب كاملا . ومن مظاهر الأمانة العلمية التى تميز بها على مبارك فى الخطط التوفيقية أنه قرر قبل ان يتكلم عن تاريخ الكنائس والأديرة المصرية ويؤرخ للبطاركة الأقباط الارثوذكس منذ سنة ١٢٦٢ م حتى سنة ١٨٧٥ انه اعتمد فى جمع المادة العلمية على «أكابر القسس الشهيرة بمصر» (٥) كما سجل أنه استفاد من الأبحاث التى قام بها العالم المصرى محمود الفلكى عن جدران أسوار الإسكندرية (٦) .

ومن المراجع الرئيسية التى استقت منها الخطط التوفيقية مادتها العلمية مؤلفات المقرئى وهى الخطط ، ودرر العقود الفريدة فى تراجم الاعيان المفيدة (ج ٨ ص ١٧) ، والبيان والإعراب فيمن دخل مصر من

(١) ج ١ ص ٦٤ .

(٢) ج ٧ ص ٢٧ ، ج ٩ ص ٦٧ .

(٣) ج ١٤ ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٤) ج ٨ ص ٢١ .

(٥) ج ٦ ص ٧٢ .

(٦) ج ٧ ص ٣٥ .

(٢) ج ٧ ص ٤٣ .

(٣) ج ٢٠ ص ٤ .

(٤) ج ١٥ ص ٥٠ .

(٥) ج ١١ ص ٧٥ .

(٦) ج ٧ ص ١٦ .

(٧) ج ٧ ص ٥٠ .

الأعراب (ج ١٢ ص ١٠٥) والترجمة الفرنسية
لكتاب السلوك والتي سبقت الإشارة إليها ، وابن أبياس
في وبائع الزهور في وقائع الدهور ، وكذلك الجبرتي
في عجائب الآثار .

ولا نستطيع في هذا البحث المحدود النطاق ان
نستعرض جميع مراجع الخطط التوفيقية ويكفي ان
نذكر بعضها منها : ابن جزلة خواص : منهاج البيان
فيما يستعمله الإنسان من الأدوية المفردة والمركبة (ج ٨
ص ٢٠) ، ابن خرداذبه : المسالك والممالك (ج ٩
ص ٧٠) ، ابن العوام : كتاب الزراعة (ج ٩
ص ٨٥) ابن زولاق : سيرة الإمام المعز لدين الله
(ج ١٥ ص ٥٦) ، ابن عباد : المفاخر العلية في
المآثر الشاذلة (ج ١٤ ص ٥٧) وابن بطوطة في رحلته ،
وابن جبير في رحلته : ذكر مشاهد بعض أصحاب
النبي والتابعين بقرافة مصر ، ورحلة التابلسي ، وابن
خلكان : وفيات الأعيان ، وابن أبي السرور البكري .
قطف الأزهار من الخطط والآثار ، وابن دقماق ،
وابن المتوج ، وابن كثير ، وابن الصباغ : فضائل
الأمم (ج ٥ ص ١٦) وابن الطولوني : التزهر السنية
في أخبار الخلفاء والملوك المصرية ، وأبو عبد الله محمد
ابن عبد الرحمن القيسي : تحفة الألباب (ج ١٦
ص ٢) وأبو المحاسن : المنهل الصافي والمستوفى بعد
الوافي (ج ٩ ص ٦٩) وأبو الفداء (ج ١١ ص ٢٢)
وأبراهيم بن عامر العبيدي : قلائد العقيان في مفاخر
آل عثمان (ج ٦ ص ٣٤ وج ١٠ ص ١٠٢) والشيخ
الصبيان : أسعاف الراغبين في أهل البيت (ج ٥ ص ٦٠ ،
٢٢) والنجم الغزى : الكواكب السائرة (ج ٥
ص ١٧) والاسحاق : نزهة الناظرين (ج ٥ ص ١٩)
والحبي : خلاصة الأثر (ج ٦ ص ٣٧) والإدرسي :
نزهة المشتاق (ج ٨ ص ٩٥) والنووي : تهذيب

الاسماء واللغات (ج ٥ ص ٥٦) والشهاب بن أبي جملة
التلمساني (ج ٥ ص ٥٦) وشمس الدين السخاوي :
الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، وعماد الدين
شاهنشاه : تقوم البلدان (ج ١٠ ص ١٦) وعماد الدين
الاصفهاني : تاريخ السلجوقية (ج ٩ ص ٣٥)
وتاريخ فتح المقدس (ج ١٠ ص ٣٨) وعلى أبي جابر
الاتبائي : مناهل الصفا باتصال نسب السادات الوفاية
بالمصطفى (ج ٣ ص) ومحمد بن عمر التونسي :
تشجير الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان (ج ١٧
ص ٣٣) ومحمد عبد المعطي الاسحاق : أخبار الدول
فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (ج ٤
ص ١١١) وحسن العلوي : مشارق الأنوار (ج ٥
ص ١٠) ولسان الدين بن الخطيب : الاحاطة بما تيسر
من تاريخ غرناطة ومؤلفات عبد الوهاب الشعراني
وجلال الدين السيوطي والواقدي ويضاف إلى تلك
المراجع كتب : ديوان الانشاء ودرر الفرائد المنظمة في
أخبار الحج وطريق مكة المعظمة (ج ١٤ ص ٨ ،
٥٢ ، ٥٤) وغير ذلك كثير كما رجع إلى كتاب
الاحصاءات المصرية لسنة ١٨٧٢ واستقى منه الكثير
من معالم تاريخ مصر الحديث . ولا يسع دارس الخطط
التوفيقية إلا أن يدرك المجهود الضخم الذي بذله
على مبارك في وضع هذه الموسوعة .

تقييم الخطط التوفيقية :

نهجت الخطط التوفيقية نهجا علميا إذ استقت
مادتها العلمية من المصادر والمراجع القديمة والحديثة ،
العربية وغير العربية ، ونصت على اسمائها وقد ظهر فيها
واضحا أثر الثقافتين العربية والفرنسية اللتين امتاز بهما
المؤلف . وفي الخطط التوفيقية محاولة رائدة لإعادة
كتابة تاريخ مصر القومي من جديد . والحق أن الخطط
التوفيقية قد أضافت إلى تاريخ مصر القومي في فرعي

التاريخ القديم والحديث مادة علمية جديدة . ففما يختص بالتاريخ القديم استفاد على مبارك من نتائج الكشف الأثرية التي أجريت في مصر في القرن التاسع عشر وما كتبه العلماء الأوروبيون عن التاريخ الفرعوني . وكانت الكتب العربية التي وضعت في العصر الإسلامي إذا تعرضت لتاريخ مصر القديم بحثته حقه لعدة أسباب منها جهل المؤلفين بحقائقه إذ كانوا لا يعرفون عنه إلا خليطا من الأوهام ، ولأن العصور القديمة والموغلّة في القدم كانت لا تمثل في أذهان المؤرخين المسلمين سوى الوثنية القائمة على عبادة الأصنام وأن فراعنة مصر لم يكونوا حكاما مثاليين . يقول على مبارك عن التطور الذي طرأ على الدراسات التاريخية لمصر الفرعونية « إن أكثر الآثار القديمة كالأهرام والبرابي وغيرها مما بقي من أعمال الأمم الماضية والقرون الخالية لم يكن الغرض من ذكرها إلا كونها من عجائب الدنيا . ومعلوم أن الكتابة الطبرية المعروفة بالهيروجليفيه لم تنكشف حقيقتها إلا في هذا القرن ، فقد وقف الأفرنج على حقائقها من الكتابات الباقية على جذران الآثار المصرية والمباني الفرعونية ، وأخذوا مجدين اليوم في توسيع دائرة علمها ، فالتزمت أن أطلع ما كتب بخصوص تلك الآثار وألخص ما فيه الفائدة من غير إطالة ولا إكثار » (١) وهكذا حملت المخطط التوفيقية إلى قراء العربية معلومات صحيحة وجديدة عن تاريخ مصر القديم .

أما فيما يختص بتاريخ مصر الحديث فقد جاءت المخطط التوفيقية سجلا حافلا لمظاهر الحضارة التي أدخلت في مصر في القرن التاسع عشر مثل التوسع الزراعي ومحاولة إدخال الصناعات الكبيرة في البلاد وإنشاء القوات المسلحة البرية والبحرية والشبكة

الحديدية وأسلاك البرق التي مدت في طول البلاد وعرضها والمناظر التي أقيمت على الشواطئ المصرية لهداية السفن وإنشاء الخوض العائم في ميناء الاسكندرية ومشروع الطريق البري ثم إنشاء قناة السويس إلى غير ذلك من مظاهر استعراضا طرفا منها من قبل . وقد شارك على مبارك في تنفيذ بعض هذه المشروعات أو عاصرها أو كان قريب العهد بها فكتابته عنها لها قيمتها ولها وزنها . ثم هو يضيف إلى التاريخ الحديث تراجم للشخصيات المصرية . ويمكن أن نقسم هذه الشخصيات إلى فريقين : فريق عاش في الفترة من وفاة المقريري سنة ١٤٤٢ حتى أوائل حكم محمد علي . وقد استقى تاريخ حياتهم من ابن آياس وابن زنبيل والجبرقي وغيرهم . أما الفريق الثاني فقد عاشوا في القرن التاسع عشر وتقلدوا المناصب القيادية في الحكومة . وكانت المخطط التوفيقية أول من ترجمت لهم لأنهم كانوا رفاق المؤلف في الدراسة في مصر أو في فرنسا أو في زمالة العمل الحكومي . وكانت ترجمته لهم في ضوء معلوماته عنهم واتصاله بهم . وكان إذا أعوزته المادة التاريخية الكافية لوضع ترجمة أحدهم فإنه كان يطلب منه أن يكتب له ترجمة حياته بنفسه .

والمخطط التوفيقية في تعرضها لتاريخ مصر القومي لم تقتصر على الجانب الإسلامي فقط ، بل شملت الجانب القبطي أيضا فأرخت للكنيسة القبطية الأرثوذكسية ولبطاركة الكرازة المرقسية وترجمت لكبار الأقباط وأعيانهم . وحرصت على ذكر الكنائس والأديرة القائمة في مصر . وبجانب اهتمام المخطط التوفيقية بتاريخ مصر القومي فقد عنتت بالتاريخ الإسلامي العام .

لقد كانت المخطط التوفيقية من العوامل التي أسهمت في نشر الوعي التاريخي في مصر في أواخر القرن التاسع عشر وساعدت على إيجاد الحاسة التاريخية

لدى المثقفين ودفعتهم إلى العناية بالتاريخ كعلم بوجه عام وتاريخ مصر في عصورها المختلفة بوجه خاص . وتأسيساً على ماسبق نستطيع أن نقرر أن هذه الموسوعة قد ساعدت على تغذية الروح القومية وأدرك الشعب أن الحضارة المصرية هي أم الحضارات وأن له أجدادا يزهو بها في ميادين العلم والهندسة والفن والثقافة . والجديد في الخطط التوفيقية هو روح الفحص والنقد والمناقشة عند كتابة تاريخ مصر القومي . ويكفى أن نشير هنا إلى موقفين على سبيل المثال . فقد نعت الخطط التوفيقية على الحكومة المصرية تساهلها إزاء شركة قناة السويس حتى ظفرت بامتيازات مجففة بحقوق البلاد ، كما أنها انتقدت التبذير الشديد في حفلات افتتاح القناة حتى بلغت نفقات الاحتفال سدس إيراد الحكومة المصرية في السنة . أما الموقف الثاني فقد ناقشت الخطط التوفيقية ما جاء في كتاب عجائب الآثار الجبرقي خاصاً بالعلاقة التي كانت تربط القرنسين يزيب بنت السيد خليل البكري نقيب الأشراف أيام الحملة الفرنسية . وعلى الرغم من أن كتاب عجائب الآثار استخدم عبارة مهذبة جاء فيها أن يزيب كانت « بمن تخرج مع الفرنسيين » (١) ولم يذكر تفاصيل خارجة عن التقاليد كما فعل نقولا الترك في مذكراته ، فقد ناقشت الخطط هذا الموضوع وقالت « ولا التفت لما قاله الجبرقي مما لا يناسب شرف هذا البيت العالي المقدار ، سيما والأحوال الحارية في أوقات الفن لا يوقف لها على قرار ، ولا تعلم لها حقيقة ، ولا يوصل لها إلى أصل صحيح » (٢)

واعتمدت الخطط التوفيقية على العلوم المساعدة لتفسير التاريخ وفهمه مثل الوثائق والفتيات والآثار

والنقوش ، فهذه قل من استعملها من قبل . وإذا كانت خطط المقرري قد أفادت من الوثائق والنقوش فإن الخطط التوفيقية قد خطت خطوات واسعة في هذا المضمار فهي تزخر بالكثير من الوثائق التاريخية وحجج الأوقاف والإحصائيات كما أنها تضم جزءاً قائماً بذاته عن الفتيات هو الجزء العشرون .

وابتعدت الخطط التوفيقية عن العبارات المسجعة وعمدت إلى الأسلوب السهل المرسل ولم تشد عن هذه القاعدة إلا في مقدمة الخطط وفي الفقرة التي أنهى بها هذه الموسوعة . وإذا كانت الخطط التوفيقية قد سارت على نهج خطط المقرري حتى ليعتبرها البعض تكملة وتجديداً لها إلا أنها جاءت أكثر شمولاً وعمقاً وإحاطة بجميع المدن والقرى المصرية القديمة والحديثة ، كما أنها لم تهمل الجانب السياسي فقط ولكنها أرخت للنواحي الحضارية والاجتماعية والاقتصادية ...

وقد استغرق وضع الخطط التوفيقية بضعة عشر عاماً ، فقد طبعت سنة ١٣٠٦ هـ (٦ سبتمبر ١٨٨٨ - ٢٧ أغسطس ١٨٨٩) أثناء توليه وزارة المعارف في وزارة رياض باشا الثانية ، وقد ظلت في الحكم من يونيو ١٨٨٨ حتى ١٢ مايو ١٨٩١ . ولا يتبادر إلى الذهن أنه وضع هذه الموسوعة أثناء توليه الوزارة فلاشك أنه أتفق في وضعها بضعة عشر عاماً ونستدل على ذلك من عدة أدلة جاءت في سياق كتابته فمن ذلك أنه تعرض لتطور الحفلات التي أبدع المصريون في إقامتها احتفاء بوفاء النيل منذ أقدم الأزمنة إلى عهد أسرة محمد علي ثم قال « وهاك شرح الحارى الآن يعنى سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف هلالية » (١)

(١) الجبرقي ج ٣ ص ١٩٢ .

(٢) الخطط ج ٣ ص ١١٣ .

التاسع على مصر ووقوعه في الأسر في موقعة فارسكور .
ولعله شعر بهذا الاستطراد فقال « وإنما خرجنا عن
الموضوع وأطلنا في تفصيل حوادث هذه الأوقات
ليعرف القارئ ما ورد على الديار المصرية . »
(ج ٧ ص ٣٥) ولما تكلم في الجزء الرابع عشر عن
عجروود استطراد إلى نظام قافلة الحج المصرية على نحو
ما أوضحناه وقد كتب في هذا الاستطراد ما يقرب
من تسع وعشرين صفحة . ونهج هذا المنهج الاستطرادي
عند كلامه على عيذاب ورحلة ابن بطوطة .

ومثل هذه المأخذ لا تقلل من القيمة العلمية لهذه
الموسوعة فهي — بتعبير الأستاذ الرافعي — غرة في
تاريخ مصر العلمى ومأثرة خالدة لعلى مبارك باشا (١).
والواقع أنها مرجع للباحثين تتناول في أمانة التاريخ
السياسى والاقتصادى والاجتماعى والحضارى لمصر
وطبوغرافية مدنها وقراها وواحاتها وثغورها وموانئها
في العصور القديمة والوسيلة والحديثة .

* * *

ونختم هذا المقال بنقطة أخيرة خاصة باللفظ الذى
أثير حول المؤلف الحقيقى للخطط التوفيقية . فقد
انطلقت بعض الألسنة تردد أن هذه الموسوعة لم تكن
كلها من وضع على مبارك بل كانت هناك مجموعات
من مرعوسيه ، وبخاصة المهندسين ، وقفوا وراءه
وأسهموا معه في وضع هذه الموسوعة . وليس هناك
دليل يستند هذا الإدعاء . وقد ذكر اثنان من الأساتذة
الذين تعرضوا لتاريخ على مبارك هذا القول . ولكن
لم يزد دور كل منهما عن أنه *porte - parole* أى
ناقل رواية . فأحدهما ، وهو الدكتور محمد أحمد
خلف الله ، أشار إلى « هذه التهمة التى التصقت به »

(١) عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل . الجزء الأول .
الطبعة الثانية ١٩٤٨ ص ٢٤٠ .

ووقعت هذه السنة الهجرية في الفترة التى بدأت
من ١٨ فبراير ١٨٧٤ وانتهت في ٦ فبراير ١٨٧٥
ولنا على الخطط التوفيقية مأخذان هما التكرار
والاستطراد . أما التكرار فقد كان يتناول موضوعاً
بالبحث ثم يعود إليه فيذكره مطولاً أو مقتضباً في جزء
آخر من الأجزاء العشرين التى تتكون منها هذه
الموسوعة . ومثل هذا التكرار لا يلحظه القارئ العادى
ولكن يلحظه ويسجله الفاحص الباحث . ولئن قيل
إن الضرورة هى التى دعت المؤلف إلى العودة إلى
موضوع سبق بحثه فقد كان يكفي أن يحيل القارئ
إليه ويتجنب التكرار . وقد وقع هذا التكرار عند
ذكر بعض الحوادث وتراجم الشخصيات وفي الأزمات
السياسية وتفسير بعض المصطلحات التاريخية . نذكر
من صور التكرار حادث العترة المشهورة التى اتخذها
كبير خدام مسجد السيدة نفيسة أداة للجل والإثراء
(ج ٥ ص ١٣٧ ، ج ٨ ص ٥٢-٥٣) وإنشاء دار
الكتب المصرية (ج ٣ ص ١٤ وح ٩ ص ٥١) وترجمة
ذى النون المصرى وهو من صوفية القرن الثالث
الهجرى (ج ٥ ص ٥٧-٥٨ ، ج ٨ ص ٣٩-
٤٠) والأمير عبد الرحمن كتحدا وعماره (ج ٤
ص ١٢-١٣ ، ج ٥ ص ١١٦-١١٨ وح ٨
ص ٥٣-٥٤) والأمير محمد بك الألفى الكبير
(ج ٣ ص ١٠٣ ، ج ١١ ص ٢٧-٣٤) والموقف
السياسى الدقيق فى مصر عقب وفاة الملك الصالح
نجم الدين أيوب (ج ٧ ص ٢٥ ، ج ١١ ص ٤٣ -
٤٦ ، ج ١٢ ص ١١٤) ويشرح معنى « أمير أخور »
مرتين (ج ١٠ ص ٨٠ ، ج ١٢ ص ٢٧) .
أما الاستطراد فقد أوغل فيه المؤلف ليغالا بعيداً .
ففى الجزء السابع — وقد أفردته لمدينة الاسكندرية —
انتقل إلى الكلام عن الحروب الصليبية وحملة لويس

ثم قرر تعليقا عليها « ونحن لا نستطيع أن ندعى هذه الدعوى ، ولا نستطيع أن نرفضها ، وإنما نقول إن هذا الكتاب قيم . » (٢) فهو لم يقطع برأى حاسم في هذا الادعاء . بل تخلص منه بلباقة وسرعة وانتهى إلى أن الكتاب ذو قيمة . أما الأستاذ الآخر وهو المؤرخ عبد الرحمن الرافعي فقد ذكر ما يلي « ولئن قيل إن العلامة على مبارك استعان في وضع الخطط بطائفة من المهندسين من تلاميذه ومرعوسيه في وزارة الأشغال والمعارف ، فذلك لا ينقص من فضله ، ولا يقلل من عظم العمل الذي اضطلع به ، وحسبه أن إرادته وجهت مساعديه إلى معاونته في البحث والتفتيش ، وروحه تمتشى في جميع أبواب الكتاب ومباحثه . » (١) وهو قول فيه دفاع وتبرير على أسوأ الفروض وهو أن الإدعاء صحيح ، ولكن لم يناقش سيادته هذا الإدعاء أساساً . وسنحاول أن نناقش مسرعين هذا الرأي بعيدين عن محاباة على مبارك أو التحامل عليه . إن وضع الخطط التوفيقية قد استغرق منه وقتاً امتد بضعة عشر عاماً ، كما أثبتنا من قبل ، ولو كان المؤلف قد استعان بطائفة من مرعوسيه لاستطاع بفضل معاونتهم وإسهامهم أن يفرغ منها في زمن يقل بكثير عن هذه السنوات الطوال . ومن المقتطوع به أن الكفاية والهمة والجلد على العمل ، كل هذه الصفات كانت من أبرز سجايا على مبارك وقد قرر وهو يترجم لنفسه أنه كان لا ينأى عن الليل إلا قليلاً وذكر في مقدمة الخطط أنه كان قد عرض على لفيق من ذوى المقدرة العلمية وضع كتاب في موضوع الخطط فلم يجد منهم استجابة فقام بمفرده بوضع الخطط التوفيقية . وكانت الصورة

(٢) ذكر محمد أحمد خلف الله : على مبارك وآثاره . لم تذكر سنة الطبع . الناشر : مكتبة الانجلو . ص ١٥٤ .

(١) الرافعي : مرجع سبق ذكره ص ٢٤٠ .

التي علفت في أذهان معاصريه أنه الوزير الفنى العالم الذى يعمل وينتج فى صمت ويتأى بنفسه عن المهارات أو الثروة السياسية ولم يلمع فى الحياة السياسية كما سطع فى الحقل العلمى وبرز فى ميادين الإصلاح والتعمير والإنشاء . وليس بكثير على عالم هذه صفاته أن يضع بمفرده الخطط التوفيقية . لقد رجح على مبارك إلى المحفوظات الرسمية فى وزارات الأشغال والأوقاف والمعارف وغيرها من جهات حكومية . وفارق كبير بين الاستعانة بأشخاص يؤلفون له وبين الرجوع إلى المصادر الأصلية ، وهو عبء ثقيل فادح لا يتولاه إلا كل باحث يتمتع بالأصالة والتعمق فى البحث والجلد عليه ، وهو أمر لا يستطيع أحد أن ينكره على العالم الباحث على مبارك . وفى رأينا أن هذا الادعاء مرده إلى الحق والحسد . ومن المعروف أن النابهين فى كل زمان ومكان كانوا وسيظلون دائماً هدفًا لهجوم وحسد الكثيرين . وقد لقي على مبارك فى حياته الكثير من المتاعب بسبب ما كان يحكيه له حساده من دسائس . فى حكم محمد سعيد أبعد عن مصر سنتين ونصف سنة (١٨٥٤-١٨٥٦) تحت ستار إشراكه فى حرب القرم . وفى حكم إسماعيل أقصى عن المناصب الحكومية فترة فى سنتي ٧٠-١٨٧١ واعتكف فى منزله بسبب وشاية الخاسدين وكان على رأسهم إذ ذاك إسماعيل باشا صديق . وجدير بالذكر أن المقرئى تعرض لمثل هذا الاتهام بعد أن وضع كتابه الخطط فقد اتهم بأنه سطا على مسودات من كتاب للأوحدى فى نفس الموضوع ، فأخذها وزاد عليها ، مع أن المقرئى لم يقصر فى ذكر المصادر والمراجع التى نقل عنها ، بل كان يسند كل حادث إلى صاحبه ، فلو كان قد اقتبس من الأوحدى لما كان يضيره أن يذكره . وتعرض شمس الدين السخاوى (٩٠٢) لموقف

شبيه لهُذين الموقفين . فبعد أن انتهى من وضع كتابه « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » تصدى معاصروه للتشجيع عليه ، ومنهم السيوطي ألف في انتقاده كتاباً سماه « الكاوى في تاريخ السخاوى » .

ونرجو أن يكون قريباً ذلك اليوم الذى تنهض فيه إحدى المؤسسات الثقافية بطبع هذه الموسوعة العربية طبعة حديثة مع وضع فهرس متنوعة لها وشرح بعض العبارات التى وردت بها واندثر الآن استعمالها .

نماذج من الخطط التوفيقية

تعمير ضاحية الرمل بمدينة الاسكندرية

« وفى أقرب وقت صار ما حدث من الأبنية جهة الرمل يشبه مدينة قاسمة ما بين ناحية أبى قير وثر الإسكندرية بما حوته من الانتظام والرونق والبهجة فى منازلها وقصورها الحمة وشوارعها وحوانيتها المشتتة على نقائس التجارات بعد أن كانت هذه البقعة عبارة عن كثبان من الرمل وأرض غير منتفع بها ، وما كان يزرع منها إلا القليل ، وبعد أن كان القيط الذى سعته ثمانية أفدنة أو تسعة أو عشرة لا يزيد حكره عن ثلاثة قروش صار الآن أرضاً لا يباع منها إلا بالذراع والمتر من ريال إلى نصف بيتو ، وما ذاك إلا لكونها صارت من أعمار الأماكن لسكنى المعتبرين من التجار والأمراء بها ، وبها البساتين المشتتة على جميع أنواع الأشجار والأزهار والرياحين . وقد بلغ عدد سكانها الذين يقيمون بها فى وقت الصيف قريباً من ٧٠٠٠ نفس ، وفى وقت الشتاء على نحو النصف من ذلك . وأول من اشترى فى الرمل الخواجا سيزينيا (١) ، فإنه اشترى من ملك عائلة أبى شال ،

(١) هو زيزينيا Zizinia أحد الرمايا اليونانيين

ثم اكتسب الجنسية الفرنسية واشتغل قنصلاً عاماً للجيكيا فى مصر وكان يطلق اسمه على إحدى محطات ترام الرمل ثم تدير اسم المحطة إلى قصر الصفا .

وكان لهم أرض متسعة ، جانباً عظيماً بمبلغ ٦٠ كيسة ، والآن وقد اشترت منه الحكومة شريطاً من الأرض لوضع السكة الحديد عليه ودفعت فى قيمة المتر ٥ فرنكات ونصفاً فعلى ذلك تكون قيمة القدان الواحد ٢٣١٠٠ فرنك . ومما زاد فى الرغبة فيها وأكد أمر السكنى بها لإحداث السكة الحديد بينها وبين المدينة الأصلية ، فإنها سهلت على الناس الانتقال منها إليها وبالعكس ، فى كل أوقات السنة لا ينقطع التردد إليها ومن يقيم بها من الأغراب يجد جميع ما تطلبه نفسه خصوصاً اللوكاندة التى أحدثت هناك ، فإن بها كل ما يلزم مع الراحة والأمن . وفى الرمل ناد تجتمع فيه الناس يومى السبت والأحد من كل أسبوع ويشنفون مسامعهم بسماع الألحان والأصوات الحسنة ، وبها أيضاً ثلاث كنائس واحدة للكاثوليكين وواحدة للأروام وواحدة للأمريكيين . ومن المدارس ثلاثة لتربية الصبيان ، واحدة على ذمة الأروام وأخرى للفرنساوية وأخرى للتليانيين . وفى كل ساعة يقوم من اسكندرية قطر إلى الرمل ، وفى كل نصف ساعة يقوم قطر من الرمل إلى اسكندرية . وفى كل قطر عمال من طرف البوسة لنقل المكاتب وأوراق الحوادث وغيرها . وأجرة الركاب بحسب الدرجات : فعلى من يركب فى عربات الدرجة الأولى خمسة قروش ، ومن يركب الدرجة الثانية أربعة قروش ومن يركب الدرجة الثالثة ثلاثة قروش . ومما أكد الرغبة فى سكنى جهة الرمل ما أحدثه الحديد من المباني هناك بقصد إقامته وإقامة الفاميلية (١) فى فصل الصيف ، فإنه نشأ عن ذلك فتح شارع عظيم فى وسط التلول المقابلة لباب رشيد ، وأوله باب رشيد وينتهى إلى حدود الملاحه بأول أطيان قرية المنذرة ويمر بسرأى الرمل

(٢) يقصد على مبارك بلفظة الفاميلية المائلة أى أسرة الحديد .

الخديوية وطوله من باب شرقى إلى السرايا ٤٠٠٠ متر
فى عرض ١٢ متراً ومن السرايا إلى الملاحة ٤٠٠٠ متر
فى عرض ٨ أمتار ، وقد غرس فى جانبيه الأشجار
المظلة . ج ٧ ص ٦٧ .

انشاء دار العلوم

« واستحدثت مدرسة دار العلوم بعد استصدار
الأمر بها وجعلتها خاصة لطلبة بقدر الكفاية يؤخذون
من الجامع الأزهر ممن تلقوا فيه بعض الكتب فى
العربية والفقه بعد حفظ القرآن الشريف ليتعلموا بهذه
المدرسة بعض الفنون المفقودة من الأزهر مثل الحساب
والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والخط مع
فنون الأزهر من عربية وتفسير وحديث وفقه على
مذهب أبى حنيفة النعمان ، وجعل لهم مرتب شهرى
يستعينون به على الكسوة وغيرها من النفقات، ورتب
لهم طعام فى النهار للغداء ، وجعل الصرف عليهم من
طرف الأوقاف ، ورتب لهم من لزم من المعلمين من

المشايع العلماء وغيرهم ليقوموا بأمر تعليمهم وتدريبهم
حتى يتمكنوا من هذه الفنون فينتفعوا وينفعوا ويحل
منهم معلمون فى المكاتب الأهلية (١) بالقاهرة وغيرها
لتعليم العربية والخط ونحو ذلك . فلما أشيع هذا الأمر
وأعلن ، حضر كثير من نجباء طلبة العلم بالأزهر
يطلبون الانتظام فى هذا السلك ، فاختبر منهم بالامتحان
جماعة على قدر المطلوب ، وساروا فى التحصيل فحصلوا ،
وأثمر ذلك المسعى ، وخرج منهم معلمون فى القاهرة
وغیرها ، وحصل النفع بهم ولهم . وأما المعلمون فى
غير العربية كالمهندسة والحساب واللغات ونحو ذلك
فتقرر أن يكونوا من نجباء التلامذة المتقدمين الذين
أتموا دروس المدارس العالية كالمهندسخانة والمحاسبة
والإدارة » . ج ٩ ص ٥١ .

(١) المكاتب الأهلية اسم أطلق على المدارس الابتدائية
الجديدة التى أنشئت فى مصر اسماعيل طيقا لما ورد فى لائحة رجب
١٢٨٤ وكان يصرف عليها من الموارد الأهلية التى رستها هذه
اللائحة .

تأثير القوى البحرية على التاريخ لألفريد ميجان

بمقام
الدكتور حسين فوزى النجار

اصدااء التاريخ :

والكنيسة التي تبشر بالمسيحية في شعوب ترى أنها لم
تهتد إلى رسالة السماء .

وعلى موج الخضم انطلقت الجموع الأوربية
على شتيت نزعاتها إلى عالم استوى فيه لديها ما كان
موطنا لأعرق الحضارات ، وما زال في فجر البداوة
لم يلج محراب التاريخ بعد ، فلم يكن أسير سيلا من
البحر على جهامته إلى تلك البقاع النائية البعيدة ،
فقد جنبها اقتحام البرارى والتجمع في قوافل تخضع
لبطش الأمير وسطوة السلطان وطمع الحباة ، ويمكن
لها أن تحمل على صفحته جيوشا تحميها وتؤمن لها
المستعمرات الجديدة ، ما كان في قدرتها أن تعبر
إليها دولا تستطيع أن تتصدى لها وتمنعها من غايتها .
أو سدودا تقف امامها مانعا دون غايتها :

ومضى الاستعمار الأوربي محتما بالبحر إلى
حيث مكن لنفسه في بقاع عجزت عن أن تتصدى له
وتمنعه .

وشهد البحر مصرع امبراطوريات استعمارية
عجزت قواتها البحرية أمام قوى بحرية جديدة أشد

في عصر امتطى فيه الاستعمار متن الخضم مقتحما
العباب في بحار فسيحة إلى أراض شهدت مولد
الحضارات الأولى ، وأخرى كانت تعيش في حنايا
الغيب بعيدة عن مجرى التاريخ حتى التقي بها في موجة
الكشوف الجغرافية الباهرة خلال القرن الخامس عشر
في مغرب الأرض وفي أقصى المشرق ، وفي قلب
الآجام الأفريقية المظلمة وفي جزر الباسفيك المزدانة
بمخضرة الغابات الاستوائية المشابكة ، غدت البحارى
الماخرات والقلاع السابعة عنوان القوة ومنبع الثراء
للمغامرين والخوايين والباحثين عن الذهب وطلاب
الثروة من التجار ، والآبدن في السجون ممن قذفت
هم حكوماتهم إلى تلك البرارى الموحشة في استراليا
ونيوزيلندا وأصقاع الأمريكين ، والفارين من الظلم
والاضطهاد الدينى والسياسى إلى منطلق حر في بلاد
جديدة لا يناههم فيها ضمير لو ضر ، وللدول التي تنشأ
القوة وتنطلق إلى الاستعمار وتكوين امبراطوريات
لها فيما وراء البحار تعود عليها بالغنى والرخاء ،

وأقوى فأفسحت الميدان لها تراث من مستعمراتها
ما تشاء .

وأصبح على الدول الاستعمارية ، لتحمي
مستعمراتها ، أن تمتلك أسطولا قويا وقوة بحرية
عديدة ، تستطيع أن تحمي خطوطها الملاحية ، وتتصدى
لكل مهاجم تسول له نفسه الهجوم على أراضيها في
الداخل أو عبر البحار . فلم يعد التوسع الامبراطوري
قاريا تتبع فيه الدولة من الداخل إلى الخارج في
حدودها المجاورة أو القريبة منها ، فإذا امتطت البحر
أو خاضت معركة بحرية في أماكن قريبة من قواعد
القارية أو من ثغورها ومراكز تمويدها البحرية .
ولم تكن القوى البحرية أكثر من قوات ثانوية لحماية
السواحل أو لنقل الأمداد والمؤن لمسافات قصيرة
إلى حيث يدور القتال الرئيسي في البر ، ولم تكن
أكثر من سلاح تابع للجيش .

وقامت الامبراطوريات القديمة على اكتاف
الفاتحين الغزاة ممن يقودون الجيوش البرية فيغيرون
بها على الدول والاقاليم المجاورة فكان الامتداد المصري
في عهد الدولة الفرعونية الحديثة ، امتدادا مع الأرض
في الشمال وفي الجنوب حيث لا تعوق البحار الفاصلة
تقدم الجيوش ، أو تفصل ما بينها وبين قواعد
الأصلية ، واجتاح الاسكندر المقدوني سهول آسيا
في زحف متصل يقود قواته البرية من «الفلانكس»
المدرعين الأشداء ، ورماة السهام من المشاة الخفيفة ،
والفرسان المدربين تدريباً عاليا للعمل ضد الأجانب ،
في مهارة جعلت منه أعظم القواد المحاربين في العصور
القديمة ، فلم تكشف شمس معاركه سوى معارك
نابليون في العصر الحديث ، ولم يلجأ الاسكندر للبحر
إلا في بعض العمليات الثانوية ، فتوسع في البر إلى
أقصى ما اتسعت له حياته من فتوح . ثم كانت روما

ودمشق مركزى امبراطوريتين أعقبت ثانيتهما الأولى ،
وكان امتدادهما أشبه بامتداد الدوائر المائية حول
مركز سقوط حجر في الماء ، ولم يكن من قبيل
المصادفة أن تكون قصبة الامبراطورية في مركز
متوسط تمتد حواله أملاكها في جميع الجهات ، ولكن
لأن التوسع كان برياً يمتد إلى حيث تستطيع الدولة أن
تمد قواتها بالمؤن والعنادر وحيث تبقى القوات على اتصال
بمراكز إمدادها وتجهيزها ، فلم يكن للأسطول في
نظر الرومان ما كان للجيش من أهمية ، وما كانت
واجباته تتعدى الحراسة والنقل وحفظ الأمن في
البحار القريبة الضيقة كالأدرياتيک والبحر التيراني ،
فلما اتسعت رقعة الامبراطورية اقتضى الأمر بناء
أساطيل اقليمية في الاسكندرية وشمال افريقية لحراسة
سفن نقل القمح منها إلى روما ، كما تناثرت بعض
القوات البحرية الصغيرة في البحر الأسود وفي بحر
المانش حين أصبحت بريطانيا ولاية رومانية ،
وانتشرت قطع بحرية صغيرة في الرين والدانوب ،
كانت مهمتها ربط الامبراطورية بحلقة من المواصلات
الممكنة إلى جانب الطرق البرية الطويلة الممتدة في
جميع أنحاء الامبراطورية والتي أقامها الأباطرة لربط
بقاعها الفسيحة فكانت مفخرة من مفاخر الانشاء
الروماني وضمان وحدة الامبراطورية طوال قيامها ،
ولم يكن من مهام تلك القطع البحرية الاشتباك في القتال
وما كانت أكثر من وحدات للحراسة فلم يجد
القوط عناء أمامها حين أخذوا يهاجمون بيشنيا وليديا
في القرن الثالث فانسابوا عبر المضائق وفي بحر ايجه
ينشرون الخراب والدمار في غرب آسيا الصغرى
وفي جزر البحر الأيحي وأخذوا يهددون أثينا ذاتها .

أما العرب فلم يعنوا ببناء قوة بحرية إلا بعد أن
امتدت امبراطوريتهم امتدادها الفسيح شرقاً وغرباً ،

معهم ، ومن قبل أبحر عثمان الثقفي من عمان مغبراً على سواحل الهند دون أن يلقى نصيباً .

وصدق جلدس عمر حين أمر بتسيير حملة بحرية ضد الأحباش ردأ على غاراتهم على السواحل العربية ، نزلت على « أدواس » ونهبتها ولكنها هزمت في البر ، فلما طلب إليه معاوية - بعد ذلك - أن يأذن له بغزو قبرص ، وكتب إليه يقول : « يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص .. » . ولكن ساكن الحجاز كان غير ساكن الشام ، فكتب إلى واليه على مصر عمرو بن العاص : « أن صف لي البحر ثم اكتب إلى بحيره » فكتب يقول : « إني رأيت خلقاً كثيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركن خرق القلوب ، وإن تحرك أراغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق » . وأرسل عمر إلى معاوية ينهائهم عن ركوب البحر حتى لا يعرض الجنود لقلده .

وظفر معاوية من عثمان بما لم يظفر به من عمر ، وولج العرب هذا العالم الفسيح وغدا لهم ببحر الروم أسطول استطاع أن يواجه أسطول البيزنطيين حتى قبل إن مائتي سفينة للعرب غلبوا ألف سفينة للروم في موقعة ذات الصواري .

ودخل العرب عالم الملاحة فأنزلوا إلى البحر السفن المثلثة الشراع وطوروا في أساليب الملاحة ومعداتها ما كان عوناً لأوروبا في فنونها البحرية وفي نهضتها الحديثة ، فشقت طريقها في البحر إلى كشوفها الجغرافية في القرن الخامس عشر ، وانتهت منها إلى حركة الاستعمار الحديث وبناء الأمبراطوريات الاستعمارية الكبرى فيما وراء البحار .

وحين دعتهم الظروف في فترة من الزمن إلى مواجهة قوات بحرية ، بنوا أسطولا في بحر الروم (البحر المتوسط) هزموا به البيزنطيين في موقعة ذات الصواري وفتحوا قبرص وجردوا بعد ذلك الحملات البحرية للاستيلاء على جزر البحر وغزوا شواطئ الدولة البيزنطية غزوات سريعة يبدو أنها لم تبغ الفتح والاستقرار ، ولم يجذب العرب إلى البحر غير التجارة ، فامتطوا عبايه تجاراً بارعين أكثر مما امتطوه قباطنة محاررين ، وإن لم يحل هذا بينهم وبين انشاء « السفن والشواني » - على رأى ابن خلدون - وشحنوا « الأساطيل بالرجال والسلاح وأمططوها العساكر والمقاتلة من وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم ونغورهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى حافته مثل الشام وإفريقية والغرب والأندلس » .

وكان اندفاعهم نحو البحر وليد الحرأة والشجاعة والمغامرة أكثر مما كان وليد الخبرة والدراية والتعلق بحياة البحر ، فحين أطلوا على شواطئه في موجة فتوحهم الباهرة اندفعوا نحوه غير هيابين فكان العربي من سكان الشواطئ - كما يقال - « يركب مركباً كما يركب جملاً » ، حيث يمتد البحر من أمامه كما تمتد الصحراء من ورائه إلى أبعد ما يرتد إليه بصره ، أما البدوي ساكن الصحراء فظل البحر لديه عالماً مجهولاً ، فكان أن نبى « عمر بن الخطاب » المسلمين عن الإغارة فيه . وعزل « أبي العلاء الحضرمي » واليه على البحرين . لما غزا بلاد فارس مجراً ، وكان قد عبر إليها الخليج في اثني عشر ألف من المسلمين قبل أن يستأذن الخليفة ، وغزا وغنم ولكنه فقد سفنه فاقترح طريقه في أرض معادية إلى البصرة ، وكان أهل البحرين قد زينوا له ذلك ، وهم أهل بحر فلم يخذله إقدامه عن السير

ومنذ ذلك الحين احتل البحر مكانته العظمى في التاريخ ، وكتبت على صفحته أنواع مغامرات الاستعمار وسبقت الدول البحرية غيرها إلى هذا الميدان الفسيح وأحرزت قصب السبق فيه ، وكانت للبرتغال وأسبانيا ميزة المبادرة حتى اشتد بينهما الصراع فاحتكما إلى البابا فأصدر قراره عام ١٤٩٤ بتصور خط تقسيم من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى يمر بالأطلنطى إلى الغرب من جزر الآزور مسافة ٣٧٠ فرسخاً فكل ما يكشف إلى الشرق منه يكون للبرتغال ، وكل ما يكشف غربه يكون لأسبانيا .

وفى أعقاب الدولتين . البرتغال وأسبانيا - نزلت دول بحرية جديدة إلى ميدان الكشوف الجغرافية تدفعها حمى الاستعمار والاستغلال والحشع إلى الرأى ، وأتيح لهولندا أن ترث البرتغال وأن تصبح أعظم قوة بحرية في مطلع القرن السابع عشر ، وتبلغ امبراطوريتها أقصى امتداد بلغته ، فلم يجد الانجليز حين بدأوا جولاتهم الاستعمارية في البحار متأخرين عن سبقهم ، غير الهولنديين يسدون عليهم الطريق ، فجعلوا يتعقبونهم وينسبون على سفائنهم أنها كانت سواء في البحار الموسمية أو غيرها من البحار ولكن اتحاد العرشين الانجليزى والهولندى عام ١٦٨٩ تحت تاج وليم أورنج قد أوقف هذا الصراع إلى حين .

وكان الانجليز قد شهدوا من قبل مصرع النفوذ البرتغالى في البحار الموسمية وساهموا في القضاء عليه عندما هزموا البرتغاليين في « سورات » على مصب نهر « تيبى » عام ١٦١٢ ، فوضعوا أول دعامة لامبراطوريتهم في البلاد الموسمية الغنية .

ونزل الفرنسيون هم الآخرون إلى الميدان فأسسوا « شركة الهند الشرقية الفرنسية » عام ١٦٦٤ . واصطدموا بالهولنديين والانجليز ، وشهدت بحار العالم

صراعاً عموماً من أجل التجارة والرغبة في الرأى واحتلال الأراضى الغنية .

وبينما كانت المعارك الحامية تدور في القارة ، كانت البحار مسرحاً للقرصنة والسطو والنهب الاستعماري . وعلى قدر ما خلدت المعارك الحربية في التاريخ العسكرى وكتبت صفحة باهرة في استراتيجية الحروب وتكتيكات المعارك ، لم يكن جناؤها يضاهي خلودها ، فقد كان الغم كله في البحار على ما اتسمت به معارك البحر من ضالة وما شابه من طابع القرصنة ومغامرات القراصنة التي ألهمت أدب المغامرات أخذاتها الشائقة أكثر مما ألهمت التاريخ وقائعها وتكتيكاتها البحرية .

وبينما كان مبدأ التوازن الدولى يحتذى ويطبق بصرامة في القارة فتشتبك الدول الأوربية في حروب طاحنة صبغت تاريخها بالحديث بالدماء ، كانت تلك الدول تتوسع عبر البحار لا يحكمها غير التنافس والغلب ، فمن اكتشف منطقة أو رفع علم دولته على أرض غير مملوكة لدولة استعمارية أخرى ، أصبحت ملكاً للدولة صاحبة العلم ، وحين نظم مؤتمر برلين عام ١٨٨٤ استعمار أفريقية قرر ألا تعلن دولة حمايتها لمنطقة دون إعلان هذه الحماية إلى الدول الأخرى ، وألا تعلن ضم منطقة ما إلى أملاكها ما لم يكن مؤيداً بالاحتلال العسكرى .

وكانت بريطانيا أشد الدول حفاظاً على مبدأ التوازن الدولى في القارة ، وما من سبب خاضت من أجله الحرب ، إلا وكان هذا المبدأ هو الحافز الأول لها على الحرب ، وظل هذا المبدأ قائماً حتى قضى عليه الامتداد الشيوعى في شرق أوروبا في أعقاب الحرب الثانية ، وغدا التوازن قارباً أكثر منه اقليمياً . يقوم على المحالفات العسكرية والدعوة المذهبية لا تحكمه قاعدة ولا يقف أمامه حاجز غير رغبة الدولة ذاتها في اتباع السياسة التي

ترتضيها والانحياز إلى الجانب الذى تراه فضلاً عن امتداد المبدأ إلى كافة أنحاء العالم الأخرى ، فأصبح السلام الدولى رهناً بتوازن القوى بين الدول المتحالفة ، وقيام دول جديدة حررت نفسها من التزام التحالف فقدت محور التوازن الحقيقى بين الطرفين المتصارعين .

وتقف الجمهورية العربية المتحدة فى هذا الفريق داعية إلى السلام العام والرخاء الدولى وحرية شعوب العالم . ومنذ القرن السابع عشر كان مبدأ التوازن الدولى هو السياج الذى يحكم السياسة الأوربية يطبق فى القارة فحسب دون أن يحكمه مبدأ أو قانون خارج القارة إلا قوة الدولة وقدرتها على التوسع وحماية أملاكها عبر البحار ، وأصبح التفوق البحرى دعامة السيادة البحرية وسياج الأمن لأمالك الدولة البعيدة .

وقد اختار « ميهان » لكتابه « تأثير القوى البحرية على التاريخ » تلك الفترة التى اشتد فيها الصراع بين الدول الثلاث وانتهت بسيادة بريطانيا البحرية وتكوين امبراطوريتها التى وصفت بأنها لا تغيب عنها الشمس ، وهى الفترة من عام ١٦٦٠ إلى عام ١٧٨٣ . فى عام ١٦٦٠ تولى شارل الثانى ، عرش إنجلترا فمد يد العون إلى « شركة الهند الشرقية الانجليزية » بعد أن كانت الحكومة الانجليزية قد أهملتها ، وفى عام ١٦٦٤

أسس الفرنسيون شركة الهند الشرقية الفرنسية ، وكانت هولندا قد أنشأت شركة الهند الشرقية الهولندية عام ١٦٠٢ بعد تأسيس الشركة الانجليزية بعامين ، إلا أن الشركة الهولندية مضت قدماً فى إقامة القواعد التجارية فى البحار الشرقية بتعصيد الحكومة الهولندية وما لبثت أن كونت شركة الهند الغربية الهولندية عام ١٦٣١ للتجار مع العالم الجديد وأسسوا مستعمرة هولندية على مصب نهر المدلسن ، ودعوا عاصمتها امستردام الجديدة وقد أصبحت تحمل اسم « نيويورك » ، بعد أن آلت إلى الانجليز . وفى الفترة ما بين عام ١٦٨٨ وعام ١٨١٥ ، اشتبكت إنجلترا وفرنسا فى سبعة حروب . كان التنافس

وتتضاهى والانحياز إلى الجانب الذى تراه فضلاً عن امتداد المبدأ إلى كافة أنحاء العالم الأخرى ، فأصبح السلام الدولى رهناً بتوازن القوى بين الدول المتحالفة ، وقيام دول جديدة حررت نفسها من التزام التحالف فقدت محور التوازن الحقيقى بين الطرفين المتصارعين . وتتقف الجمهورية العربية المتحدة فى هذا الفريق داعية إلى السلام العام والرخاء الدولى وحرية شعوب العالم .

ومنذ القرن السابع عشر كان مبدأ التوازن الدولى هو السياج الذى يحكم السياسة الأوربية يطبق فى القارة فحسب دون أن يحكمه مبدأ أو قانون خارج القارة إلا قوة الدولة وقدرتها على التوسع وحماية أملاكها عبر البحار ، وأصبح التفوق البحرى دعامة السيادة البحرية وسياج الأمن لأمالك الدولة البعيدة .

وعقد لواء السيادة البحرية لبريطانيا بعد تحطيم -الأرمادا- الأسبانية عام ١٥٨٨ ، فشادت امبراطوريتها آمنة مطمئنة إلى تفوقها البحرى الحاسم ، وإن لم تكن معركة الأرمادا بسبب التنافس الاستعمارى بقدر ما كانت لأسباب تتعلق بالتراع بين الأمرتين المالكيتين فى أسبانيا وإنجلترا .

وكانت هولندا قد اقتنصت حريتها من أسبانيا قبل تحطيم الأرمادا بقليل عن طريق البحر حين أعوزها النصر فى البر ، وعجز الثوار عن التغلب على القوات الأسبانية البرية المحتلة . فلجأوا إلى البحر ، واحتلوا ميناء « برل » الصغير فاتخذوه المقامرون الهولنديون الذين عرفوا باسم « شحاذى البحار » قاعدة للغارة على القوات الأسبانية ، ثم أطلقوا مياه البحر عليها حين حاصرت « قلعة ليدن » فنشئت شملها ، وإنه لم يتخذ الهولنديون من إصرار الأسبان على قمع ثورتهم سوى اشتباك أسبانيا فى حروب خارجية صرفتها عن قمع ثورة الأحرار الهولنديين ، ولم تنل هولندا

الأوربية ، ليكتب في كل دورة من دوراته صفحة من صفحات التاريخ الأوربي الحديث .

فأصداء التاريخ وحدها هي التي حملت ميهان على تلك الدراسة التي لم يسبقه إليها باحث وهي التي حملته على تقرير الدور البارز الذي لعبته القوات البحرية في التاريخ الحديث ، وإن لم تكن دراسته تاريخاً للمعارك البحرية بقدر ما كانت دراسة للاستراتيجية البحرية وقدرة الأساطيل على دعم سيادة الدولة وحمايتها .

الفرد ثاير ميهان :

كان تفكيره ولید الاستقراء العلمی الدقیق لما یمكن أن تقوم به الأساطیل الحریة والتجاریة فی دعم سیادة الدولة وحمايتها وجلب الرخاء لها ، بل إن هذا التفكير العلمی الواقعی قد أدى به فی النهایة إلى التنبؤ من أفكاره ومبادئه الأولى ، فأصبح من دعاة الاستعمار وكان ينكره ويحمل علیه ، بل كان خصماً للامبریالية لا یبأری كما یقول عنه « بولستون » أحد مؤرخیه ، ولكن علو الامبریالية غدا بعد هذه الدراسة وهو یرى أن الاستعمار أخذ المقومات الثلاثة لبناء القوة البحرية أما الآخرون فهما بناء السفن فی وقت السلم ، والتقدم الصناعی ونمو الانتاج فی الدولة ، ولا تملك الولايات المتحدة منها - كما یقول - غیر الأخير . فأخذ يدعوها إلى استكمالهما ، وأشار علیها بالاستیلاء علی جزر هاوای لتأمين الباسفیک . بل أصبح من دعاة سياسة العصا الغليظة التي آمن بها صديقه « ثيودور روزفلت » . وقد ولد ميهان عام ١٨٤٠ لأب من رجال الجيش هو « دنيس هارت ميهان » كان يعمل أستاذاً للهندسة العسكرية بكتابة « وست بوينت » الحربية ، ويأمل أن ينشأ ولده على غرار ضابطاً بالجيش ، إلا أن الفرد اتجه إلى البحر فالتحق بالكلية البحرية في « أنابوليس » وتخرج منها ضابطاً في الأسطول عام ١٨٥٩ . وعاش

الاستعماري أبرز دوافعها .. وفي تلك الفترة شهدت القارة تطاحن الجيوش ، كما شهدت بروز عدد من القواد العظام كتبوا أروع الصفحات في تاريخ الحرب وتكتيكات المعارك ، لم تعد منها الدول التي خاضتها ما أفادت إنجلترا التي انجذبت إلى البحار ، وإن شاركت فيها بنصيب يجعل لها قدماً في اتفاقيات الصلح ، فقد رسم « بث » سياسة إنجلترا على أساس الاستفادة من حروب القارة للأفراد بالمستعمرات ، واعتمد على الأسطول أكثر مما اعتمد على الجيوش البرية .

وفي عام ١٨٧٣ ، كانت فرنسا قد خرت ساجدة أمام بروسيا في الحرب السبعينية وسلمت في صلح فرانكفورت عام ١٨٧١ بكل مطالب ألمانيا وكان الملك « وليم » قد توج امبراطوراً على الريخ الألماني في هو المانيا بقصر فرساي في يناير عام ١٨٧١ قبل أن تنتهي الحرب وقبل صلح فرانكفورت ببضعة شهور . لتبدأ ألمانيا جولتها العنيفة في ميدان السياسة الأوربية وتخطط معالمها التي قلبت موازين السياسة الدولية رأساً على عقب وأثرت في تاريخ أوربا خلال السنوات التالية حتى لنستطيع أن نقول إن أوربا بدأت حقبة جديدة من تاريخها لعلها قد انتهت بهزيمة ألمانيا عام ١٩٤٥ .

فإذا كان ميهان قد اختار القرنين السابع عشر والثامن عشر موضوعاً لدراسته عن تأثير القوى البحرية على التاريخ في كتيبه الثلاثة التي صدرت تباعاً من سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٩٠٥ . فلأن القوى البحرية هي التي كتبت تاريخ أوربا الحقيقي خلال تلك الفترة وهي التي حملت الاستعمار الأوربي على أمواج انخضم إلى بقاع ما كان يصل إليها إلا بالبواخر والسفن والقلاع العائمة ، وهي التي جعلت الامتداد الامبراطوري بحرياً وليس قارياً ، وكان الاستعمار هو المحور الذي تدور حوالبه السياسة

حياة عادية لم يخض فيها معركة هامة إلا قليلا من المعارك الصغيرة في الحرب الأهلية ، لعلها هي التي أمدته بخبرته عن « الخليجان والطرق المائية الداخلية » فكانت حياً لكتاب صغير كلف بكتابته عام ١٨٨٣ عن المعارك البحرية في الحرب الأهلية ، بعنوان « الخليج والمياه الداخلية » .
«The Gulf and Inland waters»

وكان قد اكتسب خبرة بحرية واسعة من رحلاته في المياه الآسيوية والأوربية وسواحل الأمريكتين . ومن دراساته الخاصة للشئون البحرية خلال زيارته لأوروبا والشرق الأقصى وسواحل الأمريكتين .

وبدت ميوله نحو التاريخ البحري ، ويقال إنه أتى خلال تلك الفترة من حياته على كل الكتب والدوريات التي صدرت في عصره مما يتصل بالبحرية والتاريخ البحري والحرب وفاز بالجائزة الثالثة في مسابقة « المعهد البحري للولايات المتحدة » ، يبحث عن « التعليم البحري للضباط والجنود Naval Education for Officers and Men » كما أبدى اهتماماً جدياً بما يمكن أن يكون لانشاء قناة برزخية من أثر على مكانة الولايات المتحدة الدولية .

وواتته الفرصة التي كشفت عن هوايته ومواهبه حين وصلته دعوة « الأميرال ستيفن . ب. لوسن » مدير الكلية الحربية الجديدة في « نيويورك » برودى ايلاند ، عام ١٨٨٤ ، وهو على سفينة تجاه ييرو ، ليحاضر طلابها في التاريخ البحري والعمليات الحربية . فكانت بداية حياة جديدة خلدها وجعلت منه أعظم داعية للأساطيل وأبرع مبشر للقوى البحرية على مدى التاريخ حتى وقتنا هذا ، فإذا كان كلاورتر قد وضع أسس الحرب الحديثة فإن ميهان هو المبدع الخلاق لاستراتيجية القوى البحرية .

وكانت محاضراته أساساً لبحوثه ودراساته التي صدرت في كتب ثلاثة يكمل كل منها الآخر من حيث

الموضوع ومن حيث الامتداد الزمني للتاريخ . ولعله لم يبع أن يضع نظرية للاستراتيجية البحرية ، ولكن أراءه وأفكاره ومناقشاته التي تضمنتها كتاباته التاريخية ، وإن جاءت متناثرة مع السرد التاريخي . تكون في إطارها العام نظرية متكاملة . لفلسفة القوى البحرية ودورها في التاريخ ولاستراتيجية البحار وتكتيكات الأساطيل وغدت عاملاً مؤثراً في سياسة الدول البحرية خلال الفترة التالية من التاريخ ، لاسيما في ألمانيا واليابان فضلا عن الولايات المتحدة ذاتها فقد وجدت نفسها تسير في نفس الخطوط التي رسمها لها ميهان . وإن لم تلق اهتماماً إلى آرائه حين ظهورها على عكس ما كان من الدول الأخرى التي حفيت بها ، وأبدت عناية بكتبه فترجمت إلى اللغات اليابانية والألمانية والإيطالية والروسية والفرنسية والأسبانية ، وإن لم يظهر لها حتى الآن ترجمة باللغة العربية ، ولعلها تلي الآن من عناية السلاح البحري للجمهورية العربية المتحدة ما يتيح لضباط البحرية دراستها والنظر فيها بما يتماشى مع نهضتنا البحرية الحاضرة .

وظهر كتابه الأول « تأثير القوى البحرية على التاريخ ١٦٦٠-١٧٨٣ » عام ١٨٩٠ وكان قد بدأ يلقي محاضراته على الطلبة في سبتمبر عام ١٨٨٦ بعد فترة قضاها متفرغاً للاطلاع والتحضير منذ كلف بهذا العمل عام ١٨٨٤

ويبدو أنه قد عني باختيار كلمات العنوان ، ففي خطابه للناسر الانجليزى يقول إنه اختار عبارة « القوى البحرية Sea Power » لتجذب أنظار القراء مما يساعد على رواج الكتاب ، مفضلاً إياها على كلمة « Maritime » المشتقة من اللاتينية ، لأنها - كما يرى - لا تحمل من الحاذية ما تحمله العبارة المختارة ، فلفظ « قوة » كان من الألفاظ المتواترة على لسان العصر ، عصر المختبرات

في كل لا يتفصل تلازم فيه شخصية الرجل وذكاء
الانسان .

ويتمتع ميهان بموهبة الكاتب وإحساسه وفراصة
المؤرخ كما تبدوان في كتاباته واستقرائه الصادق للتاريخ
وتصويره للأحداث والبشر ، فرى الصورة أو الفكرة
تتجسم في ذهنه لتبرز في كتاباته وقد اكتملت لها كل
مقومات الحيوية والتماء .

ويبدو إحساسه العميق بالأحداث في كتابيه اللذين
صور فيهما ذكريات حياته وهما :

١ - من الشراع إلى البخار : ذكريات بحار

From Sail to Steam : Recollections of Naval Life.

وصدر عام ١٩٠٧

٢ - الحناء القريب . The Harvest Within.

وصدر عام ١٩٠٦

كما يبدو إحساسه بأحداث عصره في كتابه « الحرب
في جنوب أفريقية The War in South Africa » ،
وفي عدد من الموضوعات التي عرض لها بالبحث
والمناقشة . جمعتها عدة مجلدات صدرت على التوالي
فيما بين عام ١٨٩٧ وعام ١٩٠٢ كان أولها بعنوان :

اهتمام أمريكا بالقوى البحرية في الحاضر والمستقبل .

The Interest of America in Sea Power,
Present and Future

وصدر عام ١٨٩٧ مشتملا على ثمانية موضوعات

بدأ في كتابتها منذ سنة ١٨٩٠ حتى صدوره

وبعد عامين أصدر المجلد الثاني بعنوان :

دروس من الحرب مع أسبانيا وموضوعات أخرى

Lessons of the War with Spain and Other articles.

وكان صدور المجلد الثالث عام ١٩٠٠ بعنوان :

مشكلات آسيا وتأثيرها على السياسات الدولية

The Problem of Asia and its Effect
upon International Policies.

وفي عام ١٩٠١ أصدر كتاباً من جزئين بعنوان :

العظيمة والقوى الجديدة التي أخذت تغير من حياة
الإنسان .

ويجمل الكتاب فلسفته البحرية ونظراته في استراتيجية
البخار وتكتيك المعارك البحرية . إلا أن الصورة
لا تكتمل من حيث الامتداد الزمني للتاريخ ، والمعرض
العام للنظرية إلا بكتاييه الآخرين :

١ - أثر القوة البحرية على الثورة الفرنسية
والامبراطورية : ١٧٩٣-١٨١٢ .

The Influence of Sea Power upon the French
Revolution and Empire, 1793-1812.

ونشر في بوسطن عام ١٨٩٢ .

٢ القوة البحرية وحرب عام ١٨١٢ .

Sea Power in its Relation to the War of 1812.

ونشر هو الآخر في بوسطن عام ١٩٠٥ .

ففي عام ١٨١٢ كانت كارثة نابليون في روسيا ،
وانحدار الشمس المحرقة التي زهت في سماء أوروبا
وأحرقتها إلى المنيب ، ثم كانت حرب الأمم التي حملتها
والتي غربت بها في أجواء سانت هيلانة الاستوائية .

وبعدها افتقدت بريطانيا ركاب المجد الامبراطوري
في عالم لا تنيب عنه الشمس يدين لها بالقهر والسلطان
الاستعماري أو يدين لها بالولاء الثقافي والسياسي
وغدت بحريتها أقوى بحرية تمخر عباب البحر تمثال
بالسيادة وتزدهى بالقوة والسلطان .

ولا تقتصر دراسات ميهان على هذه الكتب الثلاثة

أو ما سبقها من الدراسات المحدودة التي قام بها من
قبل ، بل كتب ترجمة قصيرة لحياة الأميرال
فراجوت نشرت عام ١٨٩٢ ، كما ترجم لحياة أمير
البحر الانجليزى نلسون في كتاب نشر عام ١٨٩٧

بعنوان « حياة نلسون The Life of Nelson » ، يند

من أحسن كتب التراجم إذ صور حياته وعبقريته

العمليات البحرية الكبرى في حرب الاستقلال الأمريكية

« The Major Operations of the Navies in the War of American Independence ».

وكلمها كما نرى تدور حول البحر والاستراتيجية البحرية . وإن لم يهمل الجانب السياسى فى العلاقات الدوائية ، فالهامة بين الاستراتيجية والسياسة جد وثيقة ، ولا تستوى دراسة الاستراتيجية مالم تقم على إلمام عميق بالسياسة والشئون الدولية . فكثيراً - إن لم يكن فى الأعم الأغلب - ما تتبنى الاتجاهات السياسية على استراتيجية الدولة واتجاهاتها العسكرية . فكتب فى هذا الصدد مؤلفاً صدر عام ١٩١٠ بعنوان « اهتمام أمريكا بالشئون الدولية -

The Interest of America in International Conditions. »

وكان آخر ما نشر له مجموعة من مقالاته ورسائله صدرت عام ١٩١٤ . آخر سنى حياته وقد اشتبك العالم فى أول حرب عامة مدمرة . وحقت المعارك البحرية نظرة مبهان إلى أثر القوى البحرية فى مصير الحرب . وإن لم يعش حتى يرى ذلك أو يشهد صدور القانون البحرى الأمريكى سنة ١٩١٦ بأن يكون أسطول الولايات المتحدة أقوى أسطول فى العالم .

أثر القوى البحرية على التاريخ

لعل شهره هذا الكتاب تعود إلى آراء مبهان عن قوة الدولة البحرية وما لها من أثر على مصيرها السياسى والاستراتيجى ومكانتها الدولية مما يحدد فى الواقع مكانها من التاريخ . وإن لم يبلغ الكتاب من دقة البحث التاريخى وسلامة العرض ما بلغه كتابه عن « أثر القوة البحرية على الثورة الفرنسية والامبراطورية ١٧٩٣ - ١٨١٢ » . وهو كتابه الثانى فى تلك السلسلة الممتدة من البحوث التى راح يؤكد فيها نظريته عن القوة البحرية .

نماذج لضباط البحرية مستقاة من تاريخ البحرية البريطانية .

Types of Naval Officers Drawn from the History of the British Navy.

وكتاباً آخر صدر عام ١٩٠٢ بعنوان .

الثقافة إلى الماضى ونظرة إلى الأمام : دراسات فى العلاقات الدولية البحرية والسياسة

Retrospect and Prospect, Studies in International Relations, Naval and Political.

وتدور هذه البحوث جميعاً كما نرى حول موضوعات الساعة مما يتصل بالسياسة الدولية التى عاصرها واستراتيجية البحار التى رسم خطوطها .

وبقى يزود المكتبة الانجليزية بمقالاته وبحوثه ومؤلفاته حتى عام ١٩١٤ فصدر له عام ١٩٠٧ كتاب :

Some Neglected Aspects of War

عرض فيه لبعض ما دار فى مؤتمر لاهى الثانى للسلام من مسائل تتناول التسليح البحرى وكان مؤتمر لاهى الثانى قد عقد عام ١٩٠٧ بعد ثمان سنوات من عقد مؤتمر لاهى الأول للنظر فى خفض التسليح ومن بينها التسليح البحرى وحرب الألغام البحرية .

وفى العام التالى نشر بضع مقالات عن الإدارة البحرية « Naval Administration » كما أصدر عام ١٩١١ كتاباً عن الاستراتيجية البحرية بالمقارنة والقياس على العمليات العسكرية فى البر دعاه :

« Naval Strategy Compared and Contrasted with the Principles and Practice of Military Operations on Land »

كما نشر عام ١٩١٣ فى كتاب مستقل فصلاً كان قد اشترك به فى كتاب « كلاوز » عن تاريخ البحرية الملكية . يدور حول العمليات البحرية فى حرب الاستقلال الأمريكية بعنوان :

إلا أنه وقد عرض نظريته في هذا الكتاب الأول ، فقد غدا أشهر مؤلفاته وأجدرها بالخلود . ولا تعدو مؤلفاته الأخرى تأكيد هذه النظرية والتدليل على سلامتها .

ولا يدعى ميهان لنفسه فضل الأصالة أو الابتكار ، فقد أشار إلى ماورد عنها في كتابات «بيكون» و «رالي» منذ ثلاثة قرون ، كما ذكر أن «توسيديد» و «موتوبلكس» و «أجزركيس» قد تناولوها من قبل ، إلا أن ميهان قد سبق الجميع دون شك في وضع نظرية محددة للاستراتيجية البحرية ، واتخذ من التاريخ معوانا له على توكيدها والتدليل على سلامتها . وفي هذا تكمن شهرته وذوبوع صيته ، وبقاء كتابه في الشوامخ من تراث الانسانية الفكرى ؛ فليس الرجل مؤرخا وإن اتخذ من التاريخ ميدانه الفسيح للبحث والاستقراء ، بل لعله في هذا المضمار مؤرخ رديء ، ولكنه جاء بنظرية راح يثبتها بوقائع التاريخ ، وبشكرة أخذ يدعو اليها فاستجابت اليها الدول على اختلافها ، ودفعت الولايات المتحدة إلى انتاجها فسارت ولما يمر ربع قرن على صدور هذا الكتاب ، في الطريق الذي رسمه لتصبح أقوى دولة بحرية في العالم .

ويبدأ ميهان كتابه بعرض مجمل لقيام الدول البحرية الكبرى وسقوطها ، ربط بينه وبين العوامل الأساسية التي يجب توفرها في أمة تتطلع إلى السيادة البحرية ، وما أن استوفى هذه العوامل حتى بدأ تحليله للحروب البحرية في أوروبا فيما بين عام ١٦٦٠ وعام ١٧٨٣ ، وهي فترة تمتد قرابة قرن وربع القرن شهدت أعنف صراع بين الدول الاستعمارية على صفحة البحار كما أشرنا من قبل . ويتخذ من الحرب بين هولندا وإنجلترا بداية لتلك الدراسة الشاملة ، وهي الحرب التي أعلنها لويس الرابع عشر على هولندا عام ١٦٧٢ ، واشترك فيها شارل الثاني إلى جانب

قريبه ملك فرنسا عام ١٦٧٤ ، بمقتضى معاهدة دوفر السرية عام ١٦٧٠ التي ضمن فيها لويس وقوف شارل إلى جانبه ، ودارت الحرب سجالا بين الفريقين في البر ، وفي البحر وأبدى كل منهما شجاعة بحرية عظيمة وفيها ظفرت إنجلترا بمستعمرة «نيو امستردام» التي دعتها بيوروك .

ويشيع ميهان بنوع خاص الحروب البحرية التي خاضتها إنجلترا وانتهت بها إلى سيادة البحار فيشير إلى الأخطاء الكبيرة التي وقعت فيها إنجلترا وهددت مصالحها التجارية بالخطر أثناء حرب الوراثة الأسبانية . عندما شغلت بالمحافظة على مبدأ التوازن الدولي بالوقوف أمام أطماع لويس الرابع عشر عن مصالحها البحرية والتجارية فانضمت إلى المحالفة الكبرى ضد فرنسا حين أعلن لويس تنصيب حفيده «فيليب أنجو» ملكا على أسبانيا تنفيذا لوصية مليكها الراحل «شارل الثاني» عام ١٧٠٠ . ولم يكن قد أنجب وريثا للعرش ، على خلاف ما اتفق عليه مع «وليم الثالث» ملك إنجلترا بتقسيم ممتلكات اسبانيا بعد موت شارل الثاني .

ودارت رحى الحرب في بفاريا والأراضي المنخفضة وطال مداها بالرغم من الانتصارات الكبرى التي أحرزها الحلفاء ضد فرنسا في «بلنهم» و«رملليزن» و «أدينار» و «ملبلاكيه» ، وأخيرا انتهت بصلح «اترخت» عام ١٧١٣ ، وظفرت فيه إنجلترا بنيو فوندلاند ، ونوفا سكوشيا ، وخليج هدس ، من فرنسا كما استولت على منورقة وجبل طارق ، بينما اتجه حلفاؤها بمغاثمهم إلى القارة ، وظهر لأول مرة اهتمام إنجلترا بمصالحها الاستعمارية خارج القارة ، وخرجت من تلك الحرب وقد أصبحت سيادة البحار ، وبدأت المنافسة الاستعمارية العنيفة بينها وبين فرنسا وهي المنافسة التي امتدت حتى بداية القرن العشرين .

ولم يغب ميهان من كتابه هذا - كما ذكر للأميرال لوس - أن يكتب تاريخاً للوقائع البحرية ، بل كان يرمى إلى نقد المعارك وتحليلها أكثر مما يرمى إلى تتبع الأحداث والوقائع ، ولكنه عن طريق الاستقراء التاريخي استطاع أن يرسم صورة دقيقة للعلاقة القوية بين السيادة البحرية والمركز السياسي للدولة ، فعن طريق السيادة البحرية قضت إنجلترا على أطماع لويس الرابع عشر وطموح نابليون وانقذت - كما يدعى - الحضارة من أعدائها .

ويبدو أن حماسه للسيادة البحرية قد طفئ على مثله العليا القديمة فأخذ ينظر إلى الاستعمار البريطاني نظرة الانجليزي نفسه إلى المجد الامبراطوري ، ولم يكن تمجيده لبريطانيا في الواقع إلا تمجيدها للسيادة البحرية طفئ فيه الحماس للنظرية على مثل الإنسان قبله وكأنه من غلاة الداعين للاستعمار ، ولم تكن دعوته إلى القوة البحرية لتستقيم ما لم يكن لها هدف تحققه وخطة تقوم عليها مما ساقه إلى تبرير الاستعمار ، ولما كانت نظريته تقوم على الاستقراء التاريخي لقوة الدولة فقد وجد في نمو البحرية البريطانية مصداقاً لنظريته فكان حماسه لبريطانيا وليد الحماس للنظرية أكثر منه حماساً لشكل الاستعمار ووسائله فلم يناقش الشكل أو الوسيلة إلا من وجهة النظر الاستراتيجية والأسس التي تقوم عليها القوة البحرية التي تقوم عليها قوة الدولة الحقيقية .

والواقع أن نظرية ميهان ما هي إلا وليدة العصر الذي عاشه والأحداث التاريخية التي سبقته حين أصبح الامتداد الاستعماري بحرياً أكثر منه قارياً وقامت الامبراطوريات غير البحار أكثر مما قامت مع الامتداد البري للجيوش الغازية ، وحين أصبحت السفن وسيلة المواصلات الرئيسية للبلاد البعيدة ، وحلت

ويشير ميهان إلى انتصار إنجلترا في حرب السنين السبع عام ١٧٥٩ ويقول إن انتصار «ولف» على الفرنسيين في كندا وسقوط «كويك» العاصمة في يد الانجليز ، ما كان ليتم لو لم يعاونه الأسطول باقتحام مصب نهر سانت لورنس ، فمنع الامدادات الفرنسية من نجدة «متسكام» القائد الفرنسي فخسر المعركة رغم بسالته ومناعة تحصيناته ، وظفرت إنجلترا فيها عندما عقد صلح باريس عام ١٧٦٣ بكندا والأقاليم الواقعة شرق المسيسيبي ماعدا لويزيانا .

كما يؤكد أهمية القوى البحرية في دراسته لحرب الاستقلال الأمريكية فيقول إن تفرق وحدات الأسطول الانجليزي قد حالت بينه وبين التفوق على أسطول فرنسا واسبانيا المتحدين وكانت فرنسا قد اتخذت جانب الثوار علناً بعد أن كانت تساندتهم سرا إثر انتصارهم في معركة ساراتوجا عام ١٧٧٧ ، فأمدتهم بجيش بقيادة «رشمبو» و «لافيت» ، كما انضمت اليهم اسبانيا خوفاً على فلوريدا ، وأعلنت دول أوروبا الشمالية الحياد المسلح لتحول بين إنجلترا وتفتيش السفن المحايدة ، فأصبح انتصار الثوار مؤكداً . لاسيما بعد أن تمكن الأسطول الفرنسي من ابعاد الأسطول الانجليزي عن الساحل ومحاصرة يوركتون بحراً ، بينما كانت القوات الأمريكية الفرنسية المتحالفة تحيط بالقوات الانجليزية براً ، فاضطر «كورنواليس» القائد الانجليزي إلى التسليم في أكتوبر سنة ١٧٨١ ، واعترفت إنجلترا باستقلال الولايات المتحدة عام ١٧٨٢ .

ويبرز ميهان حقيقة يكررها ويؤكددها في كل دراساته وهي أن الحصار البحري عامل حاسم في الحرب بين دولة برية وأخرى بحرية . يودى في النهاية بكل انتصار تحرزه القوات البرية مهما كان ساحقاً .

البحرية ثابتة لا تتغير ... وكأنها تقوم على صخرة صماء في السلم وفي الحرب .

وإن لم يأت ميهان بجديد في تعريف الاستراتيجية والتكتيك . إلا أنه كان أول من فصل بينهما في الحرب البحرية . فلم تكن النظرة إلى الأسطول من قبل إلا أنه جزء من البناء العسكرى للدولة الغرض منه حماية السفن التجارية . والدفاع عن السواحل ضد أية عمليات للغزو ، وفي هذا يتميز ميهان على من سبقوه . فضلا عما نادى به وأكدته من أن القوة البحرية تستطيع أن تزود الولايات المتحدة ، كما زودت بريطانيا بالدعامة الصلبة لقوتها ومكانتها الدولية .

والمحور الذى تقوم عليه دراسته للتاريخ البحرى ، هو إثبات مالمقوى البحرية من أثر في تاريخ الأمة ، والفكرة التى تثب على الدوام في كتاباته هي توكيد الدور الذى تقوم به القوة البحرية للدولة في دعم مكانتها السياسية والدولية في العالم ، وتحقيق الأمن الاستراتيجى والقوة والتقدم والرخاء العام للأمة .

وعلى ضوء هذه الحقيقة التى أكدها ، انتقل إلى بحث الأسس التى تقوم عليها القوة البحرية للدولة وأجندتها في ستة عوامل رئيسية هي :

المركز الجغرافى - هيئة الأرض - الامتداد الاقليمى - السكان - الطابع القومى - النظام السياسى للحكم .

وأخذ يناقش كلا منها مبينا أثرها على القوة البحرية ، مستخرتا التاريخ اثباتا .

١ - المركز الجغرافى : Geographical Position

والمركز الجغرافى هو وضع الدولة بالنسبة لجيرانها وموقعها من البحر ، فكلما فصل البحر بين الدولة وجيرانها كانت في وضع أكثر أمنا ، ويمكن إدراك هذه الحقيقة من دراستنا للوضع الجغرافى لكل من

عمل القوافل في نقل التجارة ، وأصبح من الضروري حماية السفن التجارية عن طريق التسليح الذاتى أو حراستها بالسفن الحربية التى تعد لهذا الغرض فحسب . فعصر ميهان هو عصر التوسع البحرى ، والامبراطوريات الاستعمارية فيما وراء البحار ، وعصر القباطنة العظام من ربانة الدولة ومن قراصنة البحار على السواء .

ومهما قيل إن نظريات ميهان وآراءه العديدة في السياسة والاستراتيجية جاءت متناثرة على طول السرد التاريخى دون رابط - كما تقول مرجريت سيروت - فإنها في الواقع تكون نظرية متكاملة نستطيع أن نجعلها في الأسس التالية :

١ - أبداع فلسفة جديدة للقوى البحرية تركت أعماق الصدى في الهيئات البحرية وفي الدول المتطلعة إلى القوة .

٢ - وضع نظرية جديدة للاستراتيجية البحرية ، لم يسبقه إليها باحث ، وإن كنا لاندعى أنه أبداع شيئا لم يكن معروفا ، ولكنه وضع ما هو معروف في إطاره العلمى .

٣ - غذى التكتيكات البحرية بآراء لها وزنها في معارك البحار .

وقد وضع ميهان حدا فاصلا بين الاستراتيجية البحرية والتكتيك البحرى ، وهو الفاصل المعروف في الحروب البرية . فالاستراتيجية تقوم على خواطر طبيعية لا تتغير كوقع الدولة من البحر وسياستها البحرية وقوة بحريتها واسطولها التجارى وقواعدها البحرية ، أما التكتيك البحرى فيعنى بالمعركة بعد بدايتها ، وعدته الأسلحة التى يصنعها الانسان وتطورها فيتغير تبعاً لتطور السلاح البحرى . بينما تبقى الاستراتيجية

الدول الثلاث المتنافسة حينذاك وهى : بريطانيا ، وهولندا ، وفرنسا ، فإحاطة البحر بالجزر البريطانية قد جعلها فى وضع أكثر أمنا من منافستها ، فقد أمنها البحر من أى غزو برى ، وحزرها من الحاجة إلى جيش كبير يثقل ميزانيتها ويعوق تقدمها الاقتصادى ورخاءها المادى ، وهى قرية من القارة الأوربية إلى الحد الذى يمكنها من ضرب أعدائها ، وهى فى الوقت نفسه بعيدة عنها إلى الحد الذى يجعلها بآمن من الغزو . حيث يستطيع الأسطول البريطانى من قاعدته الرئيسية فى الجزر البريطانية أن يوجه ضربات قاصمة للأعداء ، وأن يقوم بحصار بحرى محكم للقارة ، فضلا عما يقوم به من كفالة الأمن الاستراتيجى للدولة والدفاع عن البلاد ، على نقبض فرنسا حيث يضطرها امتداد سواحلها على بحرين ، إلى تقسيم أسطولها بين البحر المتوسط والمحيط الاطلنطى ويحرمها ميزة الحشد الاستراتيجى لقوتها البحرية . كما يضطرها وضعها فى القارة وامتداد حدودها القارية إمتدادا يحملها على تكوين جيش كبير للغزو أو الدفاع أمام جيران أقوىاء . مما يهلك اقتصادها وأمدادها البشرية من المحدثين . مثلها فى ذلك مثل هولندا حين استفدت قواتها الحربية فى الدفاع عن استقلالها ضد الغزو البرى . ولمركز بريطانيا الجغرافى ميزة فريدة فى السيطرة على طرق الملاحة الرئيسية إلى شمال أوروبا وعندما استولت على جبل طارق والجزر الرئيسية الهامة فى البحر المتوسط أصبحت فى وضع يمكنها من السيطرة عليه . تلك السيطرة التى لعبت دورا بارزا فى تاريخ العالم من الناحيتين الحربية والتجارية ، أكثر مما كان لأية رقعة مائية أخرى .

٢ - هيئة الأرض : Physical Conformation

ويقصد بها ما يمكن أن يكون للهيئة الطبيعية

للأقليم من أثر على القوة البحرية ، وعلى جاذبية البحر للسكان ، فطبيعة الساحل تحكم الانطلاق إلى البحر ، والموانئ الحيدة تزودها بالاحتمالات الرائعة ، وطبيعة التربة اما تجذب الناس إليها أو تقلدهم بعيدا عنها إلى البحر سعيا وراء الرزق ، وقد اندفع الهولنديون إلى البحر ، ولكن اعتمادهم الكلى عليه كان مصدرا ضعفا لاقوة ، وخصب التربة الفرنسية قد حبس الفرنسيين على الأرض ونأى بهم عن البحر ، فلم تكن بهم حاجة إلى طلب الرزق عن طريقه مالم يكن السعى إليه ضروريا فيه ، مثلهم فى هذا مثل الولايات المتحدة الذين تقلد بهم ثروتهم عن الانطلاق نحوه .

أما الجزر وأشباه الجزر من الأقاليم كبريطانيا وأسبانيا وإيطاليا ، فعليها حتى تكون قوية مؤثرة ، أن تمتلك بحرية على درجة كافية من القوة .

والبحر فى ذاته تحد فاصل ، وقوة الدولة هى فى قدرتها على اجتياز هذا الحد الفاصل والانطلاق إلى ما وراءه .

٣ - الامتداد الإقليمى : Extent of Territory

ولا يعنى به سعة رقعة الدولة ، أو امتداد مساحتها بالأميال المربعة ، بل يعنى به الامتداد الساحلى للدولة ، وملازمة مرافئها للملاحة ، والتناسب بين تعداد السكان وطول السواحل ، ويضرب لذلك مثلا بولايات الجنوب التى يتمتع سكانها بروح حرية عالية ، وزودتها الطبيعة بالفرص والخلجان والسواحل الممتدة ، والموارد الغنية ، ولكنها لم تكن تملك أسطولا حريا أو تجاريا قويا ولم يكن أهلها ممن يجيئون البحر ، ولم يكن تعدادهم ليتناسب إطلاقا مع طول سواحلهم ، فرجحت كفة الشمال وكان لهم النصر فى الحرب الأهلية الأمريكية .

فامتداد السواحل وكثرة الطرق المائية الداخلية

أن تحفظ كل دولة بنسبة معينة من القوات تكون من الكفاية بحيث تتيج لها في الوقت المناسب وفي الساعة الحاسمة إعداد القوات اللازمة للمعركة مع كل مايلزمها من عتاد .

ويحتم ميهان مناقشته بهذا العامل بقوله : « إن اتجاه الأمة الطبيعي للصناعات البحرية والعمل في البحار هو أهم ما تركز عليه القوة البحرية للدولة من مقومات التفوق على مر العصور ، في الحاضر أو في الماضي ، وهو مايعوز الولايات المتحدة كما قال حينذاك .

٥ - الطابع القومي : National Character

ومن العوامل التي تحدد مدى القوة البحرية للأمة أو الدولة طبيعة المواطنين وميولهم العامة ، فقد أثبتت أحداث التاريخ أن الأمم التجارية كانت على الدوام أما بحرية عظيمة ، فالليل إلى الكسب والانحجار والقدرة على انتاج مايلزم للتجارة هما اللتان تكونان الطابع المميز للأمم البحرية ، فان توفرت هاتان الطبيعتان لأمة من الأمم حملتها على متن الخضم طلبا للثراء وحبا في التجارة لايعوقها خطر ولا تخيفها المهالك . فاذا ما اندفعت الأمة نحو الكسب والتجارة ونجحت في إقامة حركة تجارية رابحة زمن السلم كانت تلك هي خطورتها الأولى لارتداد البحار وحافزها على بناء قوة بحرية قاهرة ، ولقد حملت التجارة البحرية الواسعة بريطانيا على بناء السفن وإقامة القواعد والصناعات البحرية التي جعلت منها أعظم قوة بحرية في العالم الحديث .

ولقد جنى الانجليز والهولنديون - بالرغم مما قيل عنهم احتقارا ، أنهم من التجار وأرباب الحوانيت - من الأرباح التجارية مايفوق كل ما كسبه البرتغال والأسبان من مناجم الذهب والفضة ، وزاد على كل

كالأنهار والبحيرات قد يكون عامل ضعف لاقوة ، مالم يتناسب هذا الامتداد مع عدد السكان وكثرة الموارد وتعلق الناس بالملاحة وجيهم للبحر .

٤ - السكان : Population

ولا يعتد ميهان في هذا المضمار بالتعداد العام للسكان بقدر مايعتد بعدد من يعملون منهم بالبحر والصناعات البحرية ، أو على الأقل عدد من يستطيع العمل في السفن الحربية والتجارية ، واستشهد على ذلك بكل من فرنسا وانجلترا ، ففرنسا بالرغم من أنها أكثر سكانا إلا أن عدد من يعمل منهم في البحر أقل منه في انجلترا ، فضلا عن اهتمام الانجليز بالبحر والتجارة ، وانصراف الفرنسيين باهتمامهم الأوفى إلى الزراعة .

وما من شك في أن التجارة القومية زمن السلم تعد من أسباب القوة التي تساعد الدولة على البقاء والصمود في حرب بحرية ، وكلما عظم الاحتياطي من العمال المهرة الذين يعملون زمن السلم ، كلما كانوا عنصرا من عناصر القوة زمن الحرب ، فلم تكن انجلترا مثلا دولة من التجار هواة البحر فحسب بل كانت تبني السفن وتزود بها الأساطيل الحربية والتجارية على السواء . وإذا كان الوقت هو العامل المؤثر في سير الحرب ، فان على الأمم التي تعوزها الروح الحربية وتكره التجيش وما يتطلبه من نفقات باهظة . أن تبقى على الدرع الواقية للدفاع ليكون لديها الوقت الكافي عندما تبدأ الحرب لمواجهة الموقف الجديد وحشد القوى الفنية والبشرية الكافية لكسب النصر .

ويفرق ميهان بهذا بين القوات العاملة فعلا والقوات اللازمة ، فهما شيان لايتماثلان ، وإن كان من الضروري أن تظل النسبة بينهما متوازنة ، بمعنى

ما ادخره الفرنسيون من أموال ، على ما فيهم من
محل وتعتبر حال بينهم وبين استثمارها في التجارة
الخارجية .

ونحتاج التجارة إلى الأسواق ، حاجتها إلى إنتاج
السلع التجارية ووسائل التجارة ، فكانت حركة
الاستعمار مرتبطة إلى أبعد مدى بحركة التجارة .
وكما كانت إنجلترا أوسع الدول تجارة ، فقد غدت
بالتالي أوسع الدول استعمارا ، وكما حققت لها قوتها
البحرية سيادة البحار ، فقد حققت لها التجارة أوسع
امبراطورية استعمارية .

وخص الإنجليز بطبيعة استعمارية حققت
لاستعمارهم النجاح وأفادت عليهم كثيرا من الربح
فقد أقاموا مستعمرات مزدهرة حققت نوعا من
الرخاء رفع القوى الشرائية فيها فراجت التجارة
الإنجليزية وواجهت تصال إلى دولة استعمارية أخرى .
ومن طبيعة الإنجليز أن يستقر في الوطن النازح
ويوائم بين مصالحه الشخصية ومصالح وطنه القديم
والجديد على حد سواء ، فيقيم حيث يطيب له العيش
لا يعتبره قلق أو حزن للعودة مع بقاءه على الولاء والود
لوطنه الأم . وتلك طبيعة أعوزت غيره من المستعمرين
فالمستعمر الإسباني مثلا ما كان يعنيه من المستعمرات
غير اجتناء الثروة واستغلال موارد المستعمرات دون
أن يعنى بتنمية تلك الموارد وإصلاحها . لذلك كان
الاستعمار الإنجليزي أطول عمرا وأكثر ثباتا من غيره .

٦ - النظام السياسي للحكم :

Governmental Institutions

ويرى ميهان أن نوع الحكومة وطبيعة الحكام
ومدى اهتمامهم بالبحر مما يؤثر تماما في قوة الدولة
البحرية واطراد نموها ، فإذا أبدت اهتماما بالبحر
ودفعت الناس إليه ، استطاعت أن تنشئ القوة
البحرية التي تريدها .

والحاكم الفرد - كما يعتقد رغم تفضيله للنظم
الديمقراطية - أقوى وأقدر على انشاء القوة البحرية ،
إذا ما تحققت له القدرة والكفاية ، مما تستطيعه أية
حكومة ديمقراطية ، ولكن المشكلة هي فيمن يخلف
هذا الحاكم القادر المستبد ، وهل يستطيع أن يواصل
الجهد بنفس القدرة والكفاية في بناء السفن الحربية
والتجارية .

ويتخذ ميهان من دراسته للحكم الإنجليزي مثلا
واضحا لاهتمام الحكومة بالبحر والسياسة البحرية
ويتبع الأدوار التي مرت بها لتحقيق السيادة البريطانية
على البحار ، فيقول إن بريطانيا بدأت جولتها
الاستعمارية أيام جيمس الأول فسلكت الطريق الذي
يصل بها إلى المستعمرات وضمان السيادة البحرية
وتنمية التجارة الإنجليزية ، ويرد ذلك إلى قيام طبقة
واحدة بالحكم هي طبقة النبلاء ، وإن كنا نرى أن نمو
الطبقة الرجوازية في إنجلترا ونشاطها التجاري كان
أبعد أثرا في تنمية المصالح التجارية الإنجليزية ،
والإتجاه إلى البحر . والاهتمام بالقوة البحرية ، من أي
جهد أو نشاط بطبقة النبلاء . ولكنه عاد يقول إن
الحكومة البريطانية قد اختطت سياسة بحرية محددة
منذ البداية تقوم على سيادة البحر وتكوين امبراطورية
فيما وراء البحار قامت على تنفيذها بعيدا عن تدخل
الملك أو الأحزاب ، فقد جعلت منها هدفا قوميا يعلو
على الملك وعلى الأحزاب معا . وإن اعتراه الشك
في استمرار تلك السياسة على يد حكومة ديمقراطية
لا تحب أن تثقل الميزانية بالتفقات الباهظة لقوة بحرية
كبيرة ، أو لاعداد قوة عسكرية دائمة . ويستشهد على
ذلك بما حاولته فرنسا أيام « كولبير » عندما أرادت
أن تكون دولة بحرية كبيرة ، ولكن خلفاء كولبير
انصرفوا عنها ، ولم تحصل الحكومة الفرنسية من

التجارة أو المستعمرات ما يعوضها الاتفاق على قوة بحرية كبيرة .

ويخلص من دراسته لسياسة الحكومات البحرية إلى أن الحكومة تحفظ سياسة بحرية للسلم وأخرى للحرب . فهي التي تسيطر على الأسطول زمن السلم وتقدر حاجته من العدة والعتاد وتزوده بالضباط والبحارة اللازمين : وهي التي تبث في رعاياها روح المغامرة وارتباد البحار وتشرف على الصناعات وقدرتها على امداد القوة البحرية بحاجتها . وهي التي تضع الخطوط الاستراتيجية لسياستها البحرية بما لها من تأثير على بناء القوة البحرية ، وهي التي تشجع أو تقتل الميل الغريزي في الأفراد نحو البحر . وعند الحرب تعد الاسطول للمواجهة الحربية وتقوم بتحصين القواعد البحرية وتأمينها في المناطق النائية ، كما تؤمن مسار السفن التجارية باعداد القوى البحرية المناسبة لحسولة الأسطول التجارى .

وتقرر الحكومة مدى تأثير القواعد البحرية على قوتها في البحر ، فتمثل منها ماتراه كفيلا بتحقيق الأمن الاستراتيجي لأسطولها الحربى وسفائنها التجارية ولطرق المواصلات الرئيسية إلى مستعمراتها البعيدة ، فالبحار مسار محفوف بالمخاطر تزرخ بالخصوم والأعداء ، وكلما ارتكز الأسطول إلى قواعد رئيسية حصينة تمده بالمؤن والازواد وتتيح له ملجأ آمنا للحشد والانقضاض ، كان أكثر أمنا وأقدر على مجابهة الأعداء وحماية التجارة وطرق الاقتراب الرئيسية إلى المستعمرات .

وليست هذه القواعد مستعمرات بالمعنى المفهوم بل هي مراكز حاكمة لها أهميتها الاستراتيجية فحسب . فليس لها طابع تجارى ، وقد امتلكت إنجلترا عددا منها أتاح لها فضلا عن قوة أسطولها سيطرة كاملة على

البحار لم ينازعها فيه منازع بعد معركة الطرف الأغر . وليس للولايات المتحدة من تلك القواعد ما لبريطانيا فترى بواخرها « كطيور البر لا تستطيع ابتعادا عن الساحل » .

والمستعمرات سند أكيد للقوة البحرية « فبالمستعمرات - كما يقول - يفسح امتداد الدولة إلى اراض بعيدة ، نجد فيها سوقا رائجا لتجارها ، وعملا أوفر لساكنها ومأوى لأسطولها وموردا وفيرا لرخائها وثروتها » .

استراتيجية للبحر :

كانت أصداء التاريخ تدوى في أذن ميهان فأوحت له بالفكرة الأساسية في كتابه وهي تأثير القوة البحرية على كيان الدولة ومصيرها تأثيرا يحدد دورها في التاريخ ، وعندما أخذ يقومها ويثبتها كانت أحداث التاريخ دائما أمامه تمده بالبرهان والدليل : ليخرج منها بالحقيقة التي راح يشر بها ويدعو إليها طيلة حياته وهي أهمية القوة البحرية في بناء عظمة الدولة . وحملته الفكرة على وضع أسس عديدة للسيادة البحرية ، كما حملته على استقراء مبادئ للاستراتيجية البحرية يمكن أن تقارن باستراتيجية الحرب أو تقف ندا لها . مادام قد أثبت أن الاسطول لم يعد جزءا من بناء القوات البرية يسير في ركابها ويعاون في عملياتها الرئيسية ، وأنه بناء مستقل بذاته لا يقل دوره ، إن لم يفت دور القوات البرية ، بل انه ليرى أن القوى البحرية في كل سورها « هي الطريق الملكي المبدى للرخاء القومى ومكانة الدولة بين أقرانها » .

وجاءت أراء ميهان في الاستراتيجية البحرية مبعثرة في مؤلفاته الثلاثة وأخذت تتضح وتتحد في كتبه الأخيرة .

والواقع أننا لا نستطيع أن نعرض لكتاب « تأثير

القوى البحرية على التاريخ، وحده دون كتب ميهان الأخرى فإنها جميعا تعالج موضوعا واحدا وكأنها كتاب واحد ، وإن ظفر كتابه الأول بالاهتمام فلائنه أجمل فكرته عن القوى البحرية وتشير به بما لها من أثر حاسم على الأمم ثم كانت كتبه الأخرى تكرارا لما جاء في كتابه الأول وإن اختلف الموضوع واختلفت الفترة الزمنية التي يتناولها .

ويبدو - وقد وضع فلسفة للسياسة البحرية . أنه قد شعر بحاجة هذه الفلسفة إلى الارتكاز على مبادئ استراتيجية تكون ندا لاستراتيجية الحروب البرية وقربنا لما فأخذ يجمع شتاتها ويحدد معالمها في دراساته الأخيرة .

وانخذ نظرية «جوميني» (١٧٧٩-١٨٦٩) في الحرب - وقد عاصره في شيخوخته - أساسا لدراساته الاستراتيجية ، فقرأ مؤلفاته . وأبدى اهتماما بكتائيه « حملات الثورة والامبراطورية » و « موجز فن الحرب » . واعترف بفضلته حين تعلم منه أن ينظر إلى أحداث التاريخ البحري كصور « لمبادئ حية » ، وكيف يقوم بنقد تحليلي للمعارك والحملات الحربية ، كما عرف من دراسته أن « ليس ثمة حد فاصل بين الاعتبارات الدبلوماسية والعسكرية » .

وقد صاغ جوميني نظريته في الحرب على أسس رئيسية هي :

الموقع - خطوط الاقتراب - المواصلات - الحشد . وأراد ميهان أن يصوغ مثيلا لتلك المبادئ للاستراتيجية البحرية وتكتيك الأساطيل ووجد فيها ما يصلح للبحار صلاحيته على الأرض ، وإن احتاج بعضها إلى التحوير والتعديل . فوضع بذلك أسس الاستراتيجية البحرية التي تركت لمساتها البارزة على سياسة القوى البحرية الكبرى جميعا ، وخطه كل منها .

وأحسن المواقع في الهجوم أو الدفاع ما احتل المركز ، فعلى البر كما في البحر ، تسيطر مثل هذه المواقع المركزية على الخطوط الداخلية والمباشرة للهجوم ، فالخطوط الداخلية ماهي الا امتداد للموقع المركزي ، أو اتصال عدة مواقع مركزية بعضها ببعض ، وفي قدرة من يسيطر عليها أن يحشد قواته على أية جبهة بأسرع مما يحشد العدو وتكون له ميزة الاستخدام الجيد المؤثر ، « فالسويس مثلا تقع على خط اقتراب داخلي إذا ما قورنت برأس الرجاء الصالح ، مثلها في ذلك مثل « بنما » إذا ما قيست « بمضيق ماجلان » ، وقناة كيل « بالنسبة » لسكاجراك » .

ويبرهن ميهان على أن القيمة الاستراتيجية للموقع لا تتوقف على اتصاله بخطوط الاقتراب الاستراتيجية فحسب ، وإنما على قوته الذاتية ، وعلى كفايته من الموارد المحلية أو القريبة ، فموقع دوفر وموقع جبل طارق يتشابهان إلى حد بعيد في قربهما من الطرق البحرية ، وفي انهما موقعان مركزيان يتميزان باشرافهما على طرق مائة ضيقة يعبرها عديد من السفن ، وقد يتفوق موقع منهما في تحصيناته ، واكنه يبقى متخلفا مادام يعتمد على موارد نائية كجبل طارق .

وبعنى ميهان بالمواصلات خطوط التحرك بين القوات ومراكز الأمداد ، فالمواصلات كما يقول : « هي أعظم العوامل أهمية في الاستراتيجية عسكرية كانت أو سياسية » و « عظمة القوة البحرية تكمن في السيطرة عليها » و « القدرة على تأمين المواصلات ، وبالتالي عرقلتها في وجه العدو أقوى وأعظم ما يؤثر على شموخ الأمة » وهو ماثمناز به القوى البحرية ، وعليها لهذا وحده أن تتحرر من كل ما يعوق قدرتها من حيث العدو أو الموقع » وكلما طالت طرق

بينما ضاعف الفرنسيون من عدد الطرادات المفيرة على السفن التجارية . وبالرغم مما فقدته الانجليز من التجارة والتجار والسفن التجارية ، فقد ازدهرت التجارة الانجليزية ، بينما اختفى التجار الفرنسيون من البحر . وبدأ أن «حرب التعرض» ليست بديلا موقفا للعمليات البحرية .

وكانت العمليات البحرية ضد فرنسا في حرب السنين السبع (١٧٥٦-١٧٦٣) ، دليلا على تطور الاستراتيجية البريطانية ، ففيها قام الاسطول البريطاني لأول مرة بحصار «برست» ليحول بين الأسطول الفرنسي والخروج إلى البحر مالم يشق طريقه بالقتال ، ففرض الحمود على السلاح الهجومي الوحيد لفرنسا وهو الأسطول ، وأصبحت عاجزة تماما عن استخدامه استخداما له قيمته العملية ، بينما أخذت السفن البريطانية في شن غارات سريعة على الساحل الفرنسي لتبقى قوات فرنسا البرية مشتتة في الدفاع الساحلي ، كما حشد الانجليز أسطولا في البحر المتوسط قرب جبل طارق لمنع أسطول طولون الفرنسي من التحرك لنجدة الاسطول الفرنسي على الجانب الآخر . وعندما خلا البحر لهم أرسلوا الحملات للاستيلاء على المستعمرات الفرنسية في جزر الهند الغربية ، وانهارت التجارة الفرنسية بينما ازدهرت تجارة الانجليز .

وبانتهاء الحرب أدركت الحكومة الانجليزية أن السيطرة البحرية هي مفتاح الرخاء والنجاح وبذلك تحولت «مملكة بريطانيا» كما يقول ميهان - إلى الإمبراطورية البريطانية .

ويقارن ميهان بين استراتيجية البحرية الإنجليزية واستراتيجية البحرية الفرنسية ، مناقشا الخطأ والصواب في كل منهما ، بما يمتشي ونظرته إلى استراتيجية البحر ، فيقول إن الاختلاف بينهما يعكس وجهات النظر

المواصلات ، كلما مست الحاجة إلى القوة البحرية . و«يصبح الموقع المركزي أكثر نفعا كلما كان أقدر على تأمين طرق المواصلات . وهو ماكان لفرنسا في حربها ضد اسبانيا والنمسا ، كما كان لانجلترا في حربها مع فرنسا ، فقد تمكن الأسطول الانجليزي من حصار السواحل الفرنسية ، كما تمكن من تأمين المصالح البريطانية من البلطيق إلى مصر .

والحشد - كما يؤكد ميهان - من أبرز مبادئ الحرب البرية والبحرية على السواء ، وما قيمة الموقع المركزي إلا أنه يجعل عملية الحشد أكثر كفاية ويسرا ، فاذا واجه الأسطول قوتين فعليه أن يحتشد ليجهز على كل منهما منفردا ، وهو مبدأ يتقنه ميهان من دراسته للمعارك التاريخية ، وفما من معركة إلا وكان النصر أو كانت الهزيمة نتيجة لما جرى عليه الأخذ بمبادئ الحرب .

ويرجع تفوق الاسطول البريطاني إلى سلامة استراتيجيته البحرية وتفوقها ، فقد اكتشفت الانجليز منذ أزمنة طويلة أن بعض العمليات البحرية كانت أكثر نجاحا من غيرها ، ففي الجرب مع هولندا واجه اسطول شارل الثاني الهزيمة لأنه تجاهى مبدأ الحشد وقسم أسطوله قسمين ، قسم لمواجهة الاسطول الفرنسي والآخر لمواجهة الاسطول الهولندي في وقت واحد . وانتهت باحتلال الهولنديين لمدخل نهر التيمز ، ولم يكن قد مضى غير خمسة عشر عاما حين أغلق أسطول كرمويل القوى موانئ هولندا على تجارها . وفي الفترة ما بين عام ١٦٨٩ وعام ١٦٩٨ ، سير الفرنسيون أساطيل عظيمة لاقتسام السيطرة على البحار مع الانجليز الذين تحملوا من جراء المحاولة خسائر جسيمة ، وفي خلال حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢-١٧١٢) انسحب الاسطول الفرنسي من المحيطات ،

المتباينة للغرض الحقيقي من الحرب البحرية . فإذا كان الغرض تأمين المواقع الساحلية . كان الأسطول في هذا سلاحاً معاوناً وفرعاً من فروع الجيش ، وكانت تلك هي وجهة النظر الفرنسية ، بالرغم مما قاله « بيغو دي موروجي » — Pigot de Moragues — أعظم رجال التكنيك في فرنسا حينذاك : وأول مدير للكلية البحرية الفرنسية — من أنه « لا يوجد في البحر ميدان للمعركة يمكن الاحتفاظ به . ولا مكان يجب الاستيلاء عليه » وإن كان التاريخ لا يدع شكاً في أن حروب البحرية الفرنسية كانت حروب « مواقع » وأن عمليات الأسطول كانت جزءاً من عمليات الهجوم والدفاع عن المواقع .

فإذا كان الغرض من القوة البحرية أن تتفوق على بحرية العدو للسيطرة على البحر . فإن سفنه وأساطيله تغدو وهي الغرض الأصيل للاقتحام في كل الأحوال . وكانت تلك هي وجهة النظر الانجليزية . فكان على أسطولهم أن يحطم قوة العدو في البحر : ويقطع عليه المواصلات إلى ممتلكاته : وينضب موارده من الثروة التي يجنيها عن طريق التجارة . ويكون من اليسير عليه أن ينفق عليه موانيه .

ويفسر لنا وجهة النظر الفرنسية ما تكبدته فرنسا في حروبها البرية بالقارة من نفقات . فرأت ألا ترهقها نفقات القوة البحرية . وفضلت الطرادات والغارة على السفن التجارية . وهذا النوع من العمليات : وهو ما يعرف « بحرب التعرض » — Guerre de Course — فضلاً عن قلة نفقاته يحقق الهجوم على التجارة البريطانية مورد القوة والراء للإنجليز ، إلا أنهم أهملوا الأصل متشبثين بالفرع — كما يقول ميهان — وانصرفوا إلى العارة على تجارة العدو دون القضاء على قوته البحرية . وتاريخ التراع الفرنسي الانجليزي حافل بالأمثلة

التي تبرز أوجه التباين بين الاستراتيجيتين والتكنيك البحري لكل منهما ، فقد كان الفرنسيون يتجنبون القتال ما أمكن ، ولا يخرجون إلى البحر ما لم تضطرهم الظروف ويفضلون أسر السفن الانجليزية بدلاً من تدميرها . فإذا اضطروا للقتال اختاروا جانب الريح لأن هذا يفرض على العدو « المخاطرة بالهجوم » ويمكنهم من « عرقلة اقترابه » ، بينما يفضل الانجليز اختيار الجانب المضاد للريح حتى يضمنوا دقة التوجيه عند الاقتراب بالتحكم في الدقة دون تأثير للريح ، وكانت « خططهم تقوم على الاقتحام لتحطيم سفن العدو » .

واستطاع الفرنسيون خلال الحروب النابليونية أن يوقعوا بالسفن التجارية الانجليزية لسنوات طوال وبشكل لم يسبق له مثيل ، ولكنهم لم ينجحوا في ارغامهم على التسليم والتفاهم ، وعلى العكس أخذت سيطرة الانجليز البحرية تطرد ، وأصبح دنو السفن من الموانئ الفرنسية مخفوفاً بالخطر فارتفعت نفقات المعيشة في فرنسا . وازدادت متاعب الحصار القاري ، بينما اتسعت التجارة الانجليزية ، ونمت قوتهم البحرية . وحين أغفل الانجليز حصار الأسطول الفرنسي في « برست » خلال حرب الاستقلال الأمريكية ، ووزعوا قوتهم لحماية المستعمرات : لم يقتنص الفرنسيون وحلفاؤهم تلك الفرصة للسيطرة على المانش وأنجھوا للسيطرة على المياه الأمريكية ، فكان تسليم « كورنواليس » أمام الأمريكيين والفرنسيين في « يوركتون » وكان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية .

وتقوم عقيدة ميهان الاستراتيجية على السيطرة البحرية التي تتحقق — كما يرى — بمحشد القوى القادرة على طرد أساطيل العدو الحربية والتجارية من البحار ، « ولا يتأتى هذا — كما يقول — بالاستيلاء على السفن والقوافل البحرية قلت أو كثرت . مهما كان خطرها على

موارد الثروة والتجارة ، وإنما يتأتى بامتلاك القوة البحرية الضاربة . التي تزيح أعلام العدو عن البحار ، فلا تخفق إلا فوق صوار آفة أو شاردة ، والتي تسيطر على أعالي البحار ، فتجتازها التجارة غادية راحمة آمنة من سطوة العدو ، ولن تكون تلك القوة البحرية الضاربة إلا للأساطيل الكبيرة .

« فإذا لم يكن الغرض الكبير للأسطول هو المطاردة أو الهروب ، وكانت السيطرة على البحار ، فإن الطابع المؤثر لثل هذا الأسطول ، هو قوة العمل الهجومى ، وليس السرعة ، فما من فائدة فى الوصول أولاً ما لم تكن من القوة التي تجابه بها العدو عند وصوله » وهذا المبدأ — كما يعتقد — أصدق فى البحر منه على البر ، فالعجز فى قوة النيران لا يمكن سده فى البحر كما يمكن سده فى البر باختيار المواقع الأرضية المناسبة ، وحيث يكون للسرعة جدواها ، وإن لم يكن على حساب قوة النيران . لذلك أصبحت البوارج ذات المواقع الضخمة عماد الأسطول .

وإذا لم يكن للدولة أسطول قوى فإن أحسن ما تقوم به أن تحتفظ به داخل ميناء حصين لتلقى على العدو عبء حصاره حتى لا يتطلى إلى البحر ، وإن كان هذا لا ينقله فى النهاية من مصيره المحتوم أمام أسطول قوى . ويخرج ميهان من مناقشته للسياسة البحرية للولايات المتحدة بمبادئ تكمل نظريته الاستراتيجية ، فتراه ينكر أن يعد الأسطول للدفاع فحسب ، وهو خطأ وقعت فيه الولايات المتحدة بسبب الخلط بين الدفاع من الوجهة السياسية والدفاع من الوجهة العسكرية ، فالدفاع من وجهة النظر السياسية يعنى استخدام الأسطول عند الاشتباك فى حرب ، ويعنى من وجهة النظر العسكرية أن يقعد حتى يهاجمه العدو فيدافع عن نفسه ، تاركاً للعدو حرية اختيار الوقت وتحديد أسلوب

القتال . وليس من مهمة الأسطول أن يقوم بمثل هذا « الدفاع السلبى » عن السواحل ، فهذا من واجب الجيش ، فإذا قام به الأسطول فلن يكون رجاله المدربون أكثر من حراس للطوابى « وهى من الكثرة بحيث تحول دون حشد القوات البحرية ، فإذا كانت القلاع والطوابى هى محور الدفاع الساحلى فلأنها بالتالى تحقق للأسطول الأمن حين يلجأ إلى قواعده وموانيه . وحتى إذا كان الأسطول لأغراض الدفاع فحسب ، فإن عليه أن يزيد من عدد بوارجه نسبياً ليحول بين العدو القادم من مناطق نائية وبين التفكير فى الهجوم .

فالغرض الاستراتيجى فى نظرية ميهان هو السيطرة على البحر ، والوسيلة هى التفوق فى التسليح البحرى ، والقاعدة هى العمل الهجومى .

القبيلة الحارقة :

قد نصف كتابه كما وصفه كاتب معاصر ، بأنه أقوى من أية مادة متفجرة ، وقد نشق على نعته « بالقبيلة الحارقة » ، إذا ما أردنا أن نصور فقط ما كان لكتابته من تأثير بالغ فى نمو القوى البحرية ، وفيما وصلت إليه قوة الأساطيل الحديثة ذات البوارج الضخمة ، والمدافع البعيدة المدى من عيار الست عشرة بوصة ، فلم يكن ميهان ممن تسوقهم نزعة الشر إلى التدمير ، ولم يكن من أصحاب المزاج السوداوى ممن يتشون برؤية الدماء ، ولم يكن حتى من أرباب نظرية الاستعلاء الامبراطورى ، ولكنه رجل وصلت به دراساته إلى حقيقة آمن بها واعتقها وبشر بها ودعا إليها وهى أن قوة الدولة فى قوة بحريتها ، فإذا كانت نظريته فى الاستراتيجية البحرية قد حملته على تأييد الاستعمار ، فإنه لم يكن فى جوهره استعمارياً ، ولكنه عبر عن حقيقة عصره تعبيراً صادقاً .

وعاش ميهان ليرى دعوته تفرع أسباع الدول

الولايات المتحدة منذ ذلك الوقت قد سارت في الاتجاه الذي رسمه لها ميهان ، فبنى صديقه « ثيودور روزفلت » فكرته عن شق قناة بحرية في أمريكا الوسطى تربط الأطلنطي بالباسفيكي عندما تولى الرئاسة ، فإن شق هذه القناة — كما يقول ميهان — عمل استراتيجي جليل بشرط أن تسيطر الولايات المتحدة على كافة خطوط الاقتراب إليها .

وتحولت الولايات المتحدة عن استراتيجية الدفاع الساحلي إلى استراتيجية البحرية على المياه الخارجية للقارة الأمريكية فاستولت على الفيلين وجزر هاواي وبعض المواقع في أرخبيل ساموا وأصبح البحر الكاريبي في قبضتها بعد هزيمة أسبانيا في كوبا ، وسارت في بناء أسطول قوى حتى غدت واحدة من أقوى دول العالم البحرية ، وأخذت تتطلع إلى سيادة البحر حين طالب الرئيس ويلسون الكونجرس عام ١٩١٥ بأن يكون الأسطول الأمريكي على قدم المساواة مع أقوى أسطول في العالم ، ثم كان القانون البحري لعام ١٩١٦ ، بعد أقل من عامين على وفاة ميهان ، فغدت به أقوى دولة بحرية في العالم .

ولّى كتاب « ميهان » في بريطانيا ما لم يلقه في بلاده ذاتها ، فالانجليز أمة بحرية أقامت إمبراطوريتها على متن الخضم ، وغدا أسطولها وله السيادة التامة على البحار ، إلا أن الكتاب صدر في فترة تقدمت الحكومة البريطانية فيها ببرنامج للتوسع البحري يقوم على قاعدة مساواة الأسطول البريطاني بقوة أقوى أسطولين لأقوى الدول مجتمعين معاً ، وجاء الكتاب مؤيداً لنظرية البحرية على نظرية الجيش في الدفاع الاستراتيجي عن الجزر البريطانية ، إذ كان العسكريون من رجال الجيش يميلون إلى تحصين الشواطئ بالاستحكامات والقلاع ضد الغزو الخارجي . وما أسف الانجليز

كهزيم مدافع الأسطول القوية التي نادى بها ، وتركت آراؤه آثارها البالغة في سياستها البحرية وفي التسليح البحري ، كما كانت مثار النقاش عند الجيوبولتيكيين ، ابتداء من « ماكيندر » إلى « ستراوزهوبن » و « هوسوفر » ، وفتحت ميدان الجدل قوياً في مستقبل القوى البحرية بعد التوسع في مد الخطوط الحديدية وبعد ظهور الطائرة كسلاح مقاتل ، وكوسيلة من وسائل النقل السريع ، وشهد ميهان التوسع القاري في مد الخطوط الحديدية ، ولعله سمع عن مشروع خط حديد الشرق « برلين — بغداد — رأس الخليج » . ولكنه لم يعش ليرى المستقبل الذي خطه الطيران ، ومن الطبيعي ألا يتصور حملات الطائرات الضخمة كجزء من تسليح الأسطول ، وإن أشار مراراً إلى أن الاستراتيجية تصمد كصخرة صماء لا تتغير بينما يتطور التسليح ويتغير .

ولقد كان ميهان قد وضع الأساس النظري والعمل لقوة الولايات المتحدة البحرية ، فقد كانت دعوته من السعة والشمول حتى غدت نبراساً يهتدى لكل الدول التي تنشئ التفوق البحري ، بل كانت الشعاع الذي اهتمت به بريطانيا في المحافظة على قوتها البحرية .

ويقال إن تأثيره في سياسة الولايات المتحدة البحرية بدأ حتى قبل أن ينشر كتابه هذا ، ففي تقرير وزير البحرية الأمريكية لعام ١٨٨٩ ما يتضمن الكثير من آراء ميهان التي وردت في محاضراته بكلية نيويورك البحرية وكان قد بدأها قبل ذلك بثلاث سنوات ، وعند دراسة الاحتياجات البحرية للولايات المتحدة بعد ذلك مباشرة ، تقدمت اللجنة التي شكلت لذلك — وقد اعتمدت في تقديرها على آراء ميهان — باقتراح بناء مائتي بارجة حديثة ،

ويمكن أن نقول إن السياسة البحرية التي اختطتها

لنظرية ، وبلغ من تقديرهم له أن الامبراطور الشاب « غليوم الثاني » كتب عام ١٨٩٤ إلى صديق له يقول : « إننى لا أقرأ كتاب ميهان بل التهمه التهاماً وإنى لأحاول الآن أن أحفظه ظهراً لقلب ، فهو من أمهات الكتب العلمية ، تراه في كل سفنى ، مرجعاً للقباطنة والضباط في أسطولى يقتبسون منه ويهتدون بهديه . » وإن حالت موارد ألمانيا وطبيعة موقعها الجغرافى بينها وبين التفوق البحرى .

واحتضت به اليابان ، فكان الكتاب جزءاً من المهمات التى تصرف لضباط البحرية ، وبلغ بهم الإعجاب بميهان أنهم كانوا يستشيرونه فى كل ما يتصل بإنشاء القوة البحرية من بناء السفن إلى العتاد وأنواع التسليح البحرى ، ثم عرضوا عليه أن يكون المستشار الرسمى للبحرية اليابانية وإن اعتلر عن المنصب ، فقد ظلوا يهتدون بتعاليمه حتى أصبحت اليابان أعظم قوة بحرية فى الشرق الأقصى ومنافساً خطيراً للولايات المتحدة وبريطانيا فى البحر . »

ومن المؤكد أن ميهان الذى انتابه القلق ، وهو على فراش الموت عام ١٩١٤ ، من شعوره بأنه كان سبباً فى نمو البحرية الألمانية ، كان سيفقد نادماً أكثر منه قلقاً لو قدر له أن يشهد كارثة الأسطول الأمريكى فى « بيرل هاربر » على يد اليابان .

لشئء قدر ما أسفوا لأن « أمريكيا هو الذى فتح أعين هذا الجيل من الانجليز على ما للقوة البحرية من أهمية وإن عادوا يقولون فى نوع من الكبرياء إنه يسرهم أن يعترفوا لميهان بالفضل بصفته الأجنبى الوحيد الذى يحق له « أن يقدم لهم النصيحة فى شئونهم الخاصة » . ووصف جلاد ستون كتابه « أثر القوة البحرية على الثورة الفرنسية والامبراطورية » بأنه « كتاب الجيل » ، وأشار « لورد سيد هام » إلى مؤلفاته بقوله : « لقد أصبحت لنا - لأول مرة - فلسفة بحرية تستند إلى التاريخ » .

وبالرغم مما تركه الكتاب من تأثير فى نفوس الفرنسيين . حمل أسانذة الاستراتيجية الفرنسية على الاعتراف بتقده لاستراتيجيتهم البحرية ، فإنه لم يلق من تقديرهم ما لقيه من تقدير فى البلاد الأخرى ، ولعله قد أثار فى نفوسهم ذكرى هزائهم الماضية فى البحر . وفى وصف « الأميرال راؤول كاستكس » الأستاذ بأكاديمية الحرب الفرنسية ، لأسلوب الكتاب بأنه « كريه » ما يصور شعور الفرنسيين حياله ، وإن لم يحل هذا الوصف بين « كاستكس » وبين تقدير الكتاب بقوله : إن هذا لا يقلل إطلاقاً من قيمة الكتاب وإبداعه الحق فى ميدان النظرية الاستراتيجية . »

إلا أن الكتاب كان بالنسبة للألمان دستوراً احتلوه ، وساروا على هديه ، وإن أخطأوا فى التطبيق الكلى

جارجنتوا وبانتاجرويل لفرانسوارابليه

بمقام
الدكتورة كوتر عبدالسلام

أحب دراسة اللغات القديمة والتعمق فيها لاسيما اليونانية . وكان لرابليه الكثير من الأصدقاء من الكبراء كانوا يتولون حمايته من حقد رؤسائه وبطشهم . وعلى رأس هؤلاء الأصدقاء الحماة جوفروا ديستيساك الذى كان يمدد بما يحتاج إليه من كتب وأسفار فى أبحاثه ويحيطه بالرعاية حتى نهاية حياته .

ومنذ تلك الفترة المبكرة من الحياة العلمية لفرانسوا رابليه بدأ من حوله يدركون أنه أوسع الإخوان الفرنسيسكان علماً ، ولذا فقد توجس منه رؤساؤه خيفة واستشعروا الخطر من ناحيته فبدأوا يشنون عليه حرباً شعواء منذ حوالى سنة ١٥٢٣ ، ولكنه كان يتغلب على كيدهم له بمعاونة أصدقائه الذين تعهدوا بحمايته . وبفضل جوفروا ديستيساك سمح البابا لفرانسوا رابليه بأن يلتحق بكنيسة سان نبرا وأن يصبح سكرتيراً لأقفها . وكان رابليه فى هذه الفترة يوالى قراءاته المفضلة إلى نفسه ، ويقوم فى الوقت نفسه بأداء واجباته الدينية كتلاوة القداس والوعظ والإرشاد .

ولن يلبث رابليه أن يمر فى حياته بفترة مضطربة مالت فيها نفسه مع ميوله العلمية على حساب التزاماته

منهج البحث : حياة فرانسوا رابليه - مؤلفاته - فرانسوارابليه الفنان - فرانسوا رابليه وعلم التربية الحديث - الآراء الدينية لفرانسوا رابليه مع مقتطفات مترجمة من مؤلفاته - لماذا تعتبر مؤلفاته من تراث الإنسانية .

حياة فرانسوا رابليه :

لم يتمكن الباحثون حتى يومنا هذا من تحديد السنة التى ولد فيها فرانسوا رابليه ، إلا أنهم يرجحون أنه ولد سنة ١٤٩٤ . وفرنسوا هو الابن الثالث لأنطوان رابليه . وقد ولد فى ضيعة أبيه فى الدفينيين بالقرب من مدينة شينوف . وتضم مؤلفات رابليه الكثير من الذكريات عن هذه الضيعة وهذه المنطقة .

ولقد كانت رغبة أبيه هى أن يكرسه لحياة الرهبنة . ولذا فقد بدأ فرانسوا دراسته الأولى فى دير سوي وأتمها فى دير « لابوميت » بالقرب من مدينة أنجي . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره التحق بدير الكرردليه فى فونتنييه - لو - كوت ، حيث رسم قسيساً .

وفى هذا الدير لم تلبث أن تكونت جماعة من عشاق البحث العلمى كان على رأسها فرانسوا رابليه الذى

الدينية . فلقد بدأ يدرس الطب محققاً بذلك رغبة كان يكنها في أعماقه من زمن طويل ، وحصل من جامعة مونبلييه على درجات علمية ثلاث في الطب كانت آخرها هي الدكتوراه سنة ١٥٣٧ . وبدأ فعلاً يمارس مهنة الطب في مدينة ليون . وفي سنة ١٥٣٤ قام بأول رحلة له إلى روما لاكتسب ولكن كطبيب . وكانت تلك مناسبة ثمينة بالنسبة له إذ أتيح له حضور جميع استقبالات البابا . كما تمكن من التغلغل في حياة تلك المدينة والاعتقاد عليها . وبعد عدة أشهر عاد إلى فرنسا . ويعتقد النقاد أنه ألف كتابه « جارجانتوا » بعد عودته من روما ، وربما كان ذلك في شهر أكتوبر سنة ١٥٣٤ .

ولقد كان للحماس الذي ظهر في كتابه هذا ضد جمود العصور الوسطى وما نشره فيه من نظريات تربوية وسياسية جديدة أثره في أن ينظر إليه المجتمع بعين الريبة والشك . ولذا فقد أثر رابليه الاختفاء من الحياة العامة بعض الوقت . وفي سنة ١٥٣٥ سافر إلى روما للمرة الثانية وانهز الفرصة وجوده فيها فطلب من البابا أن يصفح عنه بسبب انفصاله عن البندكتان ، كما تمكن من الحصول منه على إذن بالالتحاق بدبير سان مور الذي لم يلبث أن أصبح مدنياً خارجاً عن نطاق الكنيسة . وهكذا ألفى رابليه نفسه وقد تحرر من التزاماته كراهب ، واستمر يمارس مهنة الطب في ثياب غير كهنوتية . ثم عاد إلى مونبلييه للحصول على الدكتوراه في الطب سنة ١٥٣٧ كما أسلفنا . وبعد ذلك أخذ يقوم برحلات في وسط وجنوب فرنسا القصد منها الاختفاء عن الأعين حتى لا يضطهد بسبب مؤلفاته . وفي سنة ١٥٤٠ تولى جيللوم دي بيلليه حمايته ، ثم تولاها بعد وفاة هذا الأخير شقيقه رنيه دي بيلليه . وفي سنة ١٥٤٣ استطاع رابليه أن يحصل

من الملك على بعض الامتيازات « لاعادة نشر كتبه ومؤلفاته » ولم يلبث أن نشر كتابه الثالث .

وحينما مات فرانسوا الأول غادر الكاردينال دي بلليه البلاد ، لأنه كان من المقربين إلى هذا الملك ، وذهب للإقامة في روما حيث تبعه صديقه الوفي رابليه ، إلا أنه كان يعود إلى فرنسا من حين لآخر . وفي سنة ١٥٥١ أصبح ، بفضل جان دي بلليه ، راعياً لأبروشية مودون . وكان رابليه يحصل على الغلة المادية لهذه الأبروشية دون أن يقيم فيها ، بل كان يقيم في سان مور بجوار صديقه وحاميه الكاردينال دي بلليه . وانتهى من كتابة مؤلفه الرابع الذي نشر سنة ١٥٥٢ . ولكن البرلمان لم يلبث أن أمر بإيقافه . ومنذ ذلك العهد فقد الناس كل أثر لفرانسوا رابليه الذي ربما يكون قد توفي سنة ١٥٥٣ أو في بداية سنة ١٥٥٤ ، وظهر مؤلفه الخامس بعد وفاته فيما بين عامي ١٥٦٢ و١٥٦٤ وما تزال نسبه لرابليه من الأمور المشكوك فيها .

مؤلفات فرانسوا رابليه :

وهكذا نرى أن فرانسوا رابليه قد خلف للإنسانية خمسة مؤلفات :

١ - باننا جرويل :

وأول هذه المؤلفات الخمسة هو « باننا جرويل » الذي نشر سنة ١٥٣٢ تحت اسم مستعار هو الكوفرياس نازيه . وقبل نشر هذا الكتاب كان قد ظهر في مدينة ليون كتاب غفل من ذكر اسم مؤلفه يحكي قصة مغامرات العملاق جارجانتوا . وحظي هذا الكتاب بنجاح كبير في الأوساط الشعبية . وأراد رابليه أن يستفيد من نجاح هذا الكتاب مجهول المؤلف ، وأن يمارس هذا النوع نفسه من كتب المغامرات فتشر مؤلفه الأول هذا « بانناجرويل » . إلا أن الفرق كان شاسعاً بين هدف المؤلف الشعبي الذي لم يكن يقصد

وخطة هذا الكتاب هي :

(أ) طفولة جارجانتوا ودراسته - صولاته وجولاته في الحرب - مكافأته للمستصرين بإنشاء كاتدرائية تيلم .

(ب) إذا تركنا جانباً جو العمالقة المقتعل هذا نجد أن الكتاب يصف الحياة الواقعية في المنطقة التي عاش فيها رابليه وما تقوم عليه من تقاليد وعادات بكل دقة وأمانة ولذا فتعتبر هذه الفصول مرجعاً تاريخياً لحياة القرنين في هذه الفترة . وهذا الكتاب خاص بالذكريات الشخصية لفرانسوا رابليه نفسه .

(ج) في هذا الكتاب يذكر رابليه رأيه في صراحة تامة حول بعض المشكلات العامة كمشكلة التعليم والحرب والفتوحات ، ويهاجم علماء اللاهوت في السوربون ويهاجم كذلك الرهبان الذين يركنون إلى الكسل والترف ويسدد ضرباته إلى الخرافات الدينية والشعوذة . ومن أهم مميزات هذا الكتاب أن بعض فصوله تحمل دعوة صريحة من المؤلف نحو العودة إلى تعاليم الإنجيل الخالصة وحدها والبعد عن تفسيرات علماء اللاهوت وإضافاتهم الخاطئة .

٢ - الكتاب الثالث :

ظهر هذا الكتاب سنة ١٥٤٦ . وما يثير الانتباه أنه خلو من أى هجوم على الكنيسة أو الجامعة أو الحكومة ؟ ترى ما السبب في ذلك ؟ هل تخلى رابليه عن حماسه وعن سياسته ؟ لقد كان ثمة عاملان حملاً رابليه على المدول عن سياسته الهجومية السابقة ، أو على الأقل على التخفيف من حدتها . وأول هذين العاملين أن الملك كان قد أباح سنة ١٥٣٤ للسوربون حرية التصرف ضد كل من يهاجم المعتقدات والأفكار القائمة ، ولذا فقد غادر رابليه مدينة ليون في فبراير سنة ١٥٣٥ من

إلا إلى تسلية الطبقات الشعبية من القراء وهدف رابليه الذي أراد أن يجمع بين تسلية القراء بما في جعبته الواسعة من دعايات استقامها من قراءاته الكثيرة وبين إفادتهم بالكثير من التفاصيل عن الحياة الواقعية .

وفي هذا الكتاب يتخيل رابليه أسرة من العمالقة حجماً وعقلاً يفكرون بطريقة مختلفة عن طريقة الناس في العصور الوسطى . وبانتاجرويل هو ابن جارجانتوا . ويأخذ رابليه في سرد مغامرات هذا العملاق ليبدو في ظاهر الأمر أنه يسلي قراءه كما فعل الكاتب الشعبي الذي سبقه ، إلا أن جو العمالقة هنا لم يكن في الواقع إلا غطاء لما يريد التعبير عنه من أفكار جديدة مخالفة أو مناقضة لأفكار الكنيسة والجامعة في ذلك الوقت . ولقد كان كبار الكتاب والمفكرين يتفنون دائماً في خلق الوسائل التوجيهية تلك ليتمكنوا من نشر آرائهم وهم في مأمن من بطش أصحاب السلطة وأولى الأمر كما فعل لافونتين فيما بعد حين اتخذ من دنيا الحيوان في أقصا صيه ستاراً يحمى به ضد بطش أصحاب السلطة . وتلاحظ أن بعض فصول كتاب « بانتاجرويل » تبعد بعداً تاماً عن جو الدعايات الشعبية وتنشر الأفكار الإنسانية السامية التي حارب بها رابليه جمود العصور الوسطى لا سيما الفصول التي يتخذ فيها « روتين » العلوم القضائية والتي يدافع فيها عن الانجيلية .

٢ - جار جانتوا :

نشر رابليه كتابه الثاني « جار جانتوا » سنة ١٥٣٤ . وكما ذكرنا فيما سبق فقد ظهر هذا الكتاب إثر عودته من رحلته الأولى إلى إيطاليا . وبما أن جار جانتوا هو أبو بانتاجرويل فقد أصبح هذا الكتاب هو الأول بالنسبة للحملة العمالقة هذه ، بينما اعتبر بانتاجرويل هو الكتاب الثاني .

باب الاحتياط . وثاني هذين العاملين أن رابليه كان راغباً في التقرب إلى الملك وكسب وده .

وكان رابليه قد سَمَّ موضوعات العمالة جازجانتوا وبانتاجرويل فجعل بطل هذا الكتاب : يانورج . وخطه الكتاب الثالث هي نفسها خطة الكتابين السابقين فهو يدرس الموضوعات الاجتماعية والعلمية والسياسية في قالب من قصص المغامرات . ومن أهم موضوعات هذا الكتاب موضوع الزواج . ويبحث يانورج موضوع الزواج فيقول لنفسه : « تزوج إذن » . ثم يعود فيبحث مضاره فيقول لنفسه : « لا تتزوج إذن أبداً » . ويأخذ في تأمل النجوم وتفسير الأحلام واستشارة العرافات والمنجمين والأطباء فلا يبدله أحد من هؤلاء إلى رأى حاسم في هذا الموضوع أو يهديه إلى طريق يضمن له الوصول إلى السعادة . وتدور كل هذه المداولات والاستشارات في جو كوميدى سوف يستلهم منه مولير فيما بعد بعض مواقف تمثيلية الكوميدية . ويقطع بانتاجرويل ، الذى يقوم في هذا الكتاب بدور بعيد عن دور العمالة كما رأيناه في الكتابين السابقين ، يقطع الموضوع بأن يندد بالزواج الذى يتم دون رأى الوالدين ، ويخضع خضوعاً تاماً في هذا الموضوع لرأى والده .

ورغم الاحتياطات التى اتخذها رابليه في هذا الكتاب للتخفيف من حدة هجومه على الكنيسة والجامعة فقد صودر الكتاب كسابقيه واضطر المؤلف إلى الاختفاء في مدينة متر في مارس سنة ١٥٤٦ .

٤ - الكتاب الرابع :

في سنة ١٥٤٨ نشر رابليه أجزاء من الكتاب الرابع عبارة عن أحد عشر فصلاً تتسم بالثروى والبعد عن كل هجوم ضد علماء اللاهوت . وفي سنة ١٥٥٠

حصل من الملك على حق إعادة طبع مؤلفاته وأخذ للأمر أهتبه وبدأ العمل . إلا أنه فيما بين عامي ١٥٥١ و ١٥٥٢ اشتد التنافس على السلطة بين البابا يوليوس الثالث والملك هنرى الثاني . وأراد رابليه أن يتنزه هذه الفرصة ويهاجم البابوية مخفياً وراء وسائل التعمية المكشوفة التى كان يتفنن في خلقها ، إلا أن تلميحاته كانت تتجه رأساً ضد أطماع البابوات الدنيوية . وقد حدث هذا لسوء الحظ في وقت تم فيه الصلح بين البابا والملك . وهكذا أصدر البرلمان أمراً بمنع تداول هذا الكتاب كما منع من قبل الكتب الثلاثة السابقة .

٥ - الكتاب الخامس :

ظهر هذا الكتاب سنة ١٥٦٤ بعد موت رابليه بعدة سنوات وكما أسلفنا ما زال النقاد يشكون حتى الآن في نسبة هذا الكتاب للمؤلف لأن أسلوبه وطريقته في سرد الأحداث تختلف تماماً عن طريقة رابليه .

ومع ذلك فإن أسلوبه الساخر يبدو من حين لآخر في بعض فقرات من الكتاب بحيث يصعب على الناقد أن يقطع برأى فاصل فيما إذا كان الكتاب للمؤلف نفسه أم لكاتب آخر يتفنن في تقليده . وربما يكون من العسير بل من المستحيل إزالة الغموض المحيط بهذا الموضوع .

فرانسوا رابليه الفنان :

من أهم ما تتميز به مؤلفات فرانسوا رابليه نزعتان : هما النزعة الإنسانية ونزعة حب الطبيعة .

أما نزعة الإنسانية فتتجه إلى تقدير الإنسان ومنحه الثقة المطلقة . إن هذا الإنسان الذى جعلت منه الكنيسة في العصور الوسطى آلة صماء لترديد التعاليم الدينية عن ظهر قلب دون وعى أو إدراك صحيح لروحها الحق ومقصدها السلم ، والذى لم توله هذه الكنيسة أى قسط من الثقة يستطيع أن يصل إلى مستوى رفيع من

كل قيد الى يمنحها رابليه للإنسان موضع جدال بين النقاد ، إلا أن ذلك لا يمنع من إقرار فضل هذا الفيلسوف في أنه أول من أطلق تلك البصيرة التي ردت للإنسان اعتباره وكرامته وحرية بعد أن سلبتها منه العصور الوسطى لمدة طويلة . وهو في ذلك أشبه بنبي يطلق أول صيحة تدعو إلى طريق الحق في زمن كان الناس فيه يعمهون في ظلمات الضلالة والجهل .

الواقعية في ادب فرانسوا رابليه :

وإذا بحثنا مؤلفات رابليه من الناحية الأدبية وجدنا أنه من أوائل الكتاب الفرنسيين الواقعيين الذين يصفون الواقع بطريقة مجسمة دقيقة حية تجعل القارئ يعيش فيه بكل حواسه لا بخياله فقط ، كما أنه يملك فن إحياء الحوار حتى ليكاد القارئ يراه ويسمعه ويشارك فيه . ولذا فإن كتبه النابضة بالحياة تشد القارئ إليها شداً .

ورابليه كاتب ساخر مازح يعرف كيف يمزج الخلد بالهزل والدعابة . ولا بد للقارئ من جانب كبير من الباقية وسعة الإدراك ليفهم أن الهزل يخفى تحته كثيراً من الحقائق العميقة أو أنه وسيلة للتعمية يقصد بها إخفاء هجوم موجة ضد الحكومة أو الكنيسة أو آراء العصور الوسطى عموماً التي كان يفرضها القصر والسربون على الناس فرضاً . ولم يكن من العسير اكتشاف ما وراء هذه التعمية وهذا ما جر على المؤلف المتاعب طيلة حياته واضطره إلى أن يحيا حياة مضطربة لاستقرار فيها ، كما أن هذا المزاح والسخرية كثيراً ما كانا يرتفcan إلى درجة الفكاهة العالية . وكم من فصل من مؤلفاته يعتبر فناً من فنون الفكاهة لم يفت مولير أن ينهل منها كما قدمنا . وتعتبر مؤلفاته من هذه الناحية صورة من شخصيته فلقد كان رابليه في حياته يمزج بين الخلد والهزل ولذا فقد تناولت الأساطير شخصيته فأحاطتها بكثير من القصص التي ربما ذهب بعضها إلى

الكفاية إذا أحسن تعليمه وثقيفه ، ويتخذ رابليه من نفسه مثلاً في هذا المجال . فلقد كان كما رأيتاه محباً للعلم مشغولاً به لا بكل ولا يمل من التحصيل والقراءة . فالإنسان ينبغي أن يكون غوراً للعلم ، وهو يستطيع أن يصل إلى الحقيقة المعنوية بدراسة أفلاطون وإلى الحقيقة القانونية بدراسة القانون الروماني ، وإلى الحقيقة الدينية بدراسة نصوص الإنجيل عن قرب ، وإلى الحقيقة العلمية بدراسة الطب والفلك والرياضيات والطبيعات . فإذا ما بلغ الإنسان هذا المستوى العلمي الرفيع فقد أصبح إنساناً كاملاً جديراً بالتقدير والثقة التامة .

أما حبه للطبيعة فقد كان كذلك نوعاً من الثورة ضد تعصب الكنيسة وجمودها في العصور الوسطى . فلقد كانت تمارس سلطة قاهرة للإنسان جسماً وروحاً ولذا فقد نادى رابليه بتحرير الجسم والروح معاً ، وساعدته دراسته للطب وممارسته له على الإعجاب بجسم الإنسان ودقة نظامه واعتبر ذلك النظام الدقيق جزءاً من نظام الكون ودقته . ولذا فقد كرس رابليه جانباً كبيراً من مؤلفاته لدراسة الحياة البدنية للإنسان وغذائه ووظائفه الطبيعية : ونادى بمنح الجسم الحرية التامة في الحركة وتقويته بالرياضة البدنية والعناية بالقواعد الصحية . وجميع الآراء التي يعبر عنها في هذا الصدد تعتبر من أحدث آراء علم الصحة الحديث .

أما من الناحية الروحية فقد نادى رابليه بمنح الإنسان الحرية التامة في التصرف . فقد دلته تجربته الخاصة في نفسه على أن الإنسان خير بطبيعته جدير بكل ثقة . والإنسان العادي إذا منح الحرية التامة أحسن استغلالها دون أي تفریط أو إفراط . إن الطبيعة التي أنجبت الجمال والتناسق لا يمكن أن تكون مصدر شر أو أذى ولذا فالإنسان خير وينبغي منحه الثقة التامة والحرية المطلقة . وربما كانت تلك الثقة المطلقة والحرية الخالصة من

حد المبالغة . وما يذكر عنه دون تأكيد أن آخر كلمة قالها : « اسدلوا الستار ، لقد انتهت المهزلة » . ثم أطلق ضحكة ساخرة كانت خاتمة حياته .

وما ساعد رابليه على بلوغ هذا المستوى الأدبي هو سعة اطلاعه وأسلوبه الفنى . فهو يملك من الكلمات مالا يحصر له ويستطيع أن يجد من الأساليب ما لم يصل إليه غيره ، كما أنه يملك القدرة على خلق كلمات وتعبيرات جديدة . وتعتبر جملة آية في التناسق والكمال الفنى . إلا أن أسلوبه يخلط بكثير من الكلمات الشعبية التى ربما تهبط إلى مستوى السوق أو إلى حد البذاءة . ولا ينبغي أن نقسو على ذلك انفنان بسبب ذلك فإن أحداً من قراء عصره لم يكن يدهش إذ يرى هذه الكنوز الأدبية والفلسفة تختلط بهذه التعبيرات والألفاظ النابية . ولم تكن تلك الحرية المفرطة في التعبير تؤذى شعور أحد . ولذا فيجدد بنا أن تؤولها على أنها عادة من عادات العصر . وقد تولت المطابع في عصرنا هذا نشر مؤلفات هذا الكاتب الكبير بعد أن نقحتنا من هذه الألفاظ وتلك التعبيرات وإن كان معظم النقاد ما زالوا يفضلون نشر النصوص الأصلية على علاقتها . ويرى لارويير ، الكاتب الناقد الفرنسى الذى عاش في أواخر القرن السابع عشر وصاحب كتاب « الطبايع » ، يرى إزاء هذه المتناقضات أن رابليه شخصية من أغرب الشخصيات فهو في آن واحد عملاق قادر على أن يسحر السوق والغوغاء كما يعتبر صحناً ممتازاً لأرفع الناس ذوقاً .

رابليه وعلم التربية الحديث :

إذا كانت مؤلفات رابليه قد عاشت حتى الآن وما زالت تقرأ بشغف فذلك لا لأنها تحوى قصصاً مسلية عن حياة العمالقة جارجانتوا وابنه بانتا جرويل ومن حولهما ، وكيف عاشوا وماذا كانوا يأكلون

وكيف وصلوا إلى تثقيف أنفسهم والمحافظة على صحة أبدانهم ، فحسب ، وإنما لأنها تعتبر أول مرجع لعلم التربية الحديث ، كما يعتبر رابليه من الرواد الأوائل لهذا العلم الذى يزداد كل يوم أهمية في عصرنا هذا . وهو أول من نادى ، في منهج تعليم العمالق جارجانتوا ثم ابنه بانتا جرويل ، بأن يتم هذا التعليم في جو من الحرية التامة دون أى إكراه أو ضغط ، كما كان أول من وضع برنامجاً منظماً دقيقاً يسير عليه التلميذ دقيقة بدقيقة فيتم تثقيفه بطريقة كاملة دون أن يشعر هو بأى ملل ولا إجهاد ودون أن تضيق لحظة من وقته هباء . ويتهز رابليه هذه الفرصة فيسخر من منهج التعليم الذى تبعه هو وأبناء جيله والذى كان يطبق على التلاميذ بالقوة . فقد بدأ جارجانتوا تعليمه على أيدي علماء اللاهوت فتعلم الحروف الأبجدية عن ظهر قلب في خمس سنوات وثلاثة أشهر ، ثم حفظ بعض كتب من اللغة والقواعد باللغة اللاتينية في ثلاثة عشر عاماً وستة أشهر وأسبوعين . ثم كتاباً آخر في قواعد اللغة اللاتينية مع بعض الشروح والمثنون في ثمانية عشر عاماً وأحد عشر شهراً ، واستوعبه تماماً للدرجة أنه كان يستطيع تلاوته عن ظهر قلب تلاوة معكوسة من الآخر إلى الأول . ثم حفظ التاريخ الشعبى في ستة عشر عاماً وشهرين وأخيراً حفظ طائفة من كتب البلاغة وكتباً أخرى على شاكلتها .

وهكذا يعطينا رابليه في ذلك القالب التهكمى الساخر فكرة واضحة عن منهج الدراسة الذى كان متبعاً في عصره . وبعد ذلك يعد للتلميذ جارجانتوا منهجاً آخر صحيحاً سليماً يجعل منه إنساناً صالحاً . ولتقارن في النصين التاليين بين الطريقة التى كان يسير عليها جارجانتوا في دراسته على أيدي علماء

اللاهوت ثم الطريقة الصحيحة التي أعدها له مدرسه
بونوقراط الذي يعبر عن آراء رابليه نفسه .

والنص الأول ، وتلك ترجمة له ، يعطينا فكرة
عن الطريقة السقيمة العقيمة التي كان يسير عليها
جارجانتوا واتى خلقت منه إنسانا مغروراً تافها :
« لقد أمر بونوقراط في أول الأمر أن يسير جارجانتوا
على الطريقة التي اعتاد عليها ليرى كيف استطاع
أساتذته التقدمي أن يمحوا منه إنسانا غيبا وتافها
وجاهلا في كل هذا الوقت الطويل . وعلى ذلك فقد
نظم وقته بحيث يستيقظ ما بين الساعة الثامنة والتاسعة
سواء أكان النهار قد طلع أم لا . هكذا أمر أساتذته
التقدمي مستندين في ذلك إلى قول داود : « من
العبث أن تستيقظ قبل طلوع النهار » (١)

ثم يأخذ يتلوى ويتثنى ويشد أطرافه في فراشه
حتى يساعد أعضاء جسمه على تأدية وظائفها .
ثم يرتدى ملابسه حسب الفصل إلا أنه لا يجد غضاضة
في لبس رداء طويل عريض مبطن بقراء الثعالب .
ثم يمشط شعره بمشط «ألمان» (٢) بأن يمسك به
بأصابعه الأربعة وإبهامه لأن أساتذته قالوا له إن كل
طريقة أخرى لتمشيط الشعر والاعتسال والنظافة هي
مضیعة لوقته في هذا العالم .

« ثم يأخذ في البصق والتقيء والسعال والصباح
والعطس . وبعد ذلك يتناول إفطاره ليتغلب على
الهواء الفاسد بالأطعمة الآتية : المقلبات والمشويات
وفخذ الخنزير ولحم الجدي المحمر والحساء اللصم

(١) آية الترتيل ١٢٧ استشهد بها رابليه استشهاده حرياً كما
يقول « لا تقرهوا الصلاة » ولا يذكر بقية الآية . وتنتها التي لم
يذكرها رابليه هي : إذا كان الرب لا يبارك جهودك .

(٢) ألمان أستاذ من أساتذة السوربون الذين ينتقون طريقة
القسر والجمود .

الذي يتناوله الرهبان في السادسة صباحاً . ولما قال له
مدرسه بونوقراط إنه لم يكن ينبغي له أن يفعل كل
ذلك قبل أن يؤدى بعض التمرينات لدى مغادرته
الفراش أجاب جارجانتوا قائلاً :

« ماذا ! ألم أقم بما يكفي من التمرينات ؟ لقد
انتبیت ست أو سبع مرات في الفراش قبل أن أنهض .
ألا يكفي ذلك ؟ إن البابا الكسندر كان يفعل ذلك
بناء على نصيحة طبيبه اليهودي ، وإنه عاش حتى
الموت رغم أنف حساده . ولقد عودنى أساتذتى
الأوائل على ذلك وقالوا لي إن الإفطار يقوى الذاكرة .
لذا فقد كانوا يبدأون هم يومهم بالشراب . وإنى
أجد صحتى طيبة جداً وشهيتى في وجبة الغداء أقوى .
ولقد قال لي الأستاذ توبال (وهو أول اللسانس من
جامعة باريس) إن الفائدة ليست في الجرى بسرعة
ولكن في البدء مبكراً ، ولذا فإن صحة الإنسانية
لا تكون بالشراب كثيراً كثيراً كالكلاب وإنما
بالشراب في الصباح . ومن هنا كان هذا البيت
من الشعر :

إن المصحوف في الصباح ليس هو السعادة - الشراب
في الصباح أفضل .

« وبعد أن يتناول إفطاره على أنم وجه يذهب إلى
الكنيسة حيث يحضرون له في سلة كبيرة كتاب
تفسير الإنجيل وقد أحبط بلقائف كثيرة ثقيل وزنه
بسبب هذه اللقائف حتى أصبح أحد عشر قنطاراً
وستة أرطال قل عن ذلك أو زاد . وهناك يستمع
إلى نحو ستة وعشرين أو ثلاثين قداساً . وفي هذا
الوقت يأتى إليه قارئ الصلوات وقد تعثر في معطف
ثقيل ويخفف عنه التعب بالشراب المضاف إليه
النيلد . وفي الوقت نفسه الذى يشرب فيه يترنم
بكل هذه الصلوات وبدقة لا تسقط معها منه أية

قطرة على الأرض . وحين يهيم بالخروج من الكنيسة يحضرون له على عربة يجرها ثور مسيحة القديس كلوديس التي كانت كل حبة فيها في حجم رأس الإنسان فيتلو عليها التساييح أكثر من ست عشرة مرة وهو ينتزه في الأروقة والحدائق . ثم يأخذ في الاستدكار نحو نصف ساعة على الأكثر وعيناه مستقرتان فوق كتابه ولكن كما يقول الكاتب الساخر (١) روحه في المطبخ .

« ثم يجلس إلى المائدة . ولما كان بطبيعته بطيئا في إثارة شهيته فهو يبدأ وجبته بعدد مضروب في اثني عشر من أشخاص الخنازير وألسنة الثيران المدخنة والبطارخ وغيرها قبل أن يبدأ في تعاطي النيذ . وفي هذا الوقت يأخذ أربعة من القائمين على خدمته بإلقاء الخردل (المستردة) في فمه بالخاروف الواحد تلو الآخر ، ثم يشرب جرعة هائلة من النيذ الأبيض . وبعد ذلك يأكل حسب الموسم اللحم كما تسمح له شهيته ، ثم يكف عن الأكل حينما تبدأ بطنه تؤله . أما الشراب فليس له نهاية ولا قاعدة لأنه يقول إن المرء يكف عن الشراب حينما يرتفع القلبين الذي يتكون منه نعل مداسه إلى نصف قدم» (قصة جارجانتوا الفصل الحادى والعشرين) .

هذه المبالغات التي يخلقها رابليه في دنيا العمالة التي تسود كتابه «جارجانتوا» يقصد كما قلنا إلى مهاجمة منهج التربية الذي طبق عليه والذي كان مازال يطبق في المدارس وفي الجامعة . ثم بعد ذلك يغير ييروقراط مربي جارجانتوا منهج التربية المعيب هذا ويرسم منهجا آخر صحيحا سليما كما تبينه لنا الصفحة التالية المترجمة عن الفصل الثالث عشر «لجارجانتوا» .

(١) يقصد به تيرانس في لمهات الحمى .

« وبعد ذلك وضع له خطة للدراسة تكفل له عدم ضياع دقيقة واحدة . من اليوم . وهكذا كان يقضى كل وقته في الدرس وطلب العلم : كان جارجانتوا يستيقظ في الرابعة صباحا . وبينما كان القائمون على خدمته يدلكون له جسمه كان قارنه يتلو عليه بعض صفحات من الكتاب المقدس بصوت جهورى واضح ونطق صحيح سليم جدير بما يقرأ . وقد عهد بذلك إلى تابع شاب من مدينة باشيه (بالقرب من شيفرن حيث ولد رابليه) . ويدعى هذا التابع : أناخبوست (وتعنى باليونانية القارىء) . ومن أغراض هذا الدرس أن يتعلم تبجيل الله وعبادته والصلاة لله مرات عديدة إذ أن هذه القراءة كانت تبين جلاله وأحكامه السديدة الرائعة .

وبعد ذلك يرتدى ملابسه ويمشط شعره ويلبس غطاء رأسه ويتعطر . وفي خلال هذا الوقت تعاد عليه دروس اليوم السابق : وكان هو نفسه يلقيها عن ظهر قلب ويطبّقها على حياته العملية والإنسانية . وكان هذا الدرس يمتد أحيانا ساعتين أو ثلاث ساعات ، ولكن كان عادة يتوقف حينما يتم ارتداء ملابسه ، ثم يأخذ مدرسه في القراءة له طوال ساعات ثلاث .

« وبعد ذلك يخرج إلى الهواء الطلق وهو يبدي دائما ما يعن له من ملاحظات حول دروسه . ثم يبدأ في لعب الكرة أو الكرة الثالثة (التي يلعبها فريق مكون من ثلاثة لاعبين في شكل مثلث) وهكذا يروض جسمه كما سبق له أن راض نفسه . وكانت الحرية المطلقة هي التي تسود اللعب فكانوا يكفون عنه حينما يطيب لهم ذلك ، وكان هذا التوقف يحدث حينما يتصببون عرقا أو يدركهم التعب . وحينما يفرغون من تخفيف أجسامهم وتدليكها بعناية يغيرون ملابسه

ويبدأون نزهة لطيفة قبل أن يذهبوا لاستطلاع ما إذا كان الغذاء قد أعد . وهناك في انتظار الغذاء يأخذون في ترديد بعض مقتطفات من الدرس في وضوح وفصاحة .

« وفي هذا الوقت تكون الشهية قد فتحت فيجلسون إلى المائدة طبقاً لقواعد آداب الأكل . وفي بداية الوجبة تقرأ بعض القصص المسلية عن المغامرات القديمة يشرب خلالها جارجانتوا النبيذ الفاتح للشهية . وبعد ذلك إما أن يواصل القراءة أو يسمرون معاً في مرح حسب ما يترأى لهم . ويكون الحديث في الأشهر الأولى عن طبيعة المواد الغذائية التي تقدم لهم وخصائصها من خبز ونبيذ وماء ملح ولحم وسمك وفاكهة وخضروات وجلود وعن طريقة إعدادها . وكان هذا يؤدي في وقت قصير إلى الإلمام بعلماء اليونان والرومان مثل بلين وأثيني وديوسكوريد وجالينوس وأرسطو وغيرهم . وخلال هذا الحديث كثيراً ما يؤتى إليهم على المائدة بكتب العلماء السابقين هؤلاء للتأكد مما يتناقشون فيه . ولقد وعى جارجانتوا في ذاكرته كل ما قيل في هذا الشأن حتى إنه لم يكن ثمة طبيب يعرف نصف ما يعرف . وبعد ذلك يتحدثون فيما قرءوا من دروس الصباح ويختمون الوجبة ببعض مربي السفرجل وينظفون أسنانهم بالسواك ويغسلون أيديهم وأعينهم بالماء النقي ويحمدون الله بأن يوجهوا إليه بعض الترنيمات في مدح عظمته وجلاله وقديسيته .

ثم يأتون بأوراق اللعب لا مجرد اللهو بل لتعلم آلاف من اللعب ووسائل التسلية الجديدة المبنية كلها على الرياضيات . وبهذه الطريقة أحب جارجانتوا علم الأعداد حتى إنه في كل يوم بعد الغذاء والعشاء كان يقضي وقته في هذه المتعة حتى اعتاد أوراق اللعب

والرياضيات . ولقد وصل علمه في هذه العلوم سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية حدّاً جعل معه أكبر العلماء يتفنون بأنهم بالقياس إليه يعتبرون لا يعرفون إلا الألمانية العويصة .

« ولقد أتقن جارجانتوا جميع فروع الرياضيات من هندسة وفلك وموسيقى . وذلك لأنه كان يقضي فترة المصم في اللعب على جميع الآلات الموسيقية والتدريب على الأشكال الهندسية ، بل أنه وصل إلى ممارسة القوانين الفلكية . »

نرى من هذا النص أن رابليه قد خط لتلميذه منهجاً دراسياً منظماً . فهو يبدأ يومه في ساعة مبكرة وبقراءة بعض صفحات من الكتاب المقدس بلهجة صحيحة رصينة تمكنه من التعمق فيه وملء نفسه بالإيمان بجلال الله وقديسيته . ثم يأخذ في تكرار دروس الأمس فيؤدي التكرار إلى أن يحفظها عن ظهر قلب . وبعد ذلك يقضي مع مدرسه بعض ساعات في القراءة والدرس . ولما يدرکه التعب يخرج إلى الهواء الطلق لممارسة ماشاء من رياضة فينشط جسمه وذهنه إلا أنه يكف عن ذلك إذا شعر بالتعب أو بعدم الميل إلى الاستمرار في اللعب . ثم يتناول طعامه ويستفيد من الوقت الذي يقضيه أثناء الطعام بأن يتناقش وأستاذه حول تركيب ما يقدم إليه من ألوان الطعام وما تحويه من مواد غذائية وأثرها في الصحة العامة ، ثم يقضي فترة الراحة بعد الغذاء في لعب الورق بطريقة جديدة تؤدي إلى توسيع مداركه الرياضية ، وبعد ذلك يستأنف دراسته . وهكذا لا يضيع من وقته طوال اليوم دقيقة واحدة ، وفي الوقت نفسه لا يشعر هو بالتعب أو الملل أو الإجهاد .

وهذه الآراء التربوية كلها ، وإن كانت تبدوا لنا اليوم عادية ومكررة ، إلا أنها كانت جديدة كل الجدة

في عصر رابليه بل واعتبرت هجوماً جريئاً على الطريقة المدرسية الكنيسية والجامعية المتبعة في عصره . وأهم هذه الأفكار فكرة الحرية المطلقة التي ينادى بأن تمنح للطالب . فهو يرى أن الطالب ينبغي أن يدرس في جو من الحرية لا قسر فيه ولا إكراه وأنه لن يستغل هذه الحرية استغلالاً سيئاً أو يسيء التصرف فيها لأنه ، أى رابليه ، يوجه كلامه إلى المترين من الناس . أما الطالب الذي يسيء إدراك معنى هذه الحرية ويفرط في استخدامها فهو إنسان غير مترن وغير عادي التكوين فهو يسقطه من حسابه ولا يقصده بأى حديث . وغنى عن الذكر أن الحرية هي القاعدة التي يعتمد عليها علم التربية الحديث ولذا فيعتبر الفرنسيون رابليه المرجع الأول لعلم التربية .

وهذه أفكار صحيحة سليمة ينبغي أن تكون موضع اهتمام التربويين في العصر الحديث الذين ربما مالوا بعض الشيء إلى إهمال شأن هذا المسجل الحساس وهو الذاكرة . ومن جهة أخرى فإن العلم ، لاسيما في عصرنا هذا لا ينبغي يتسع ويتشعب ، وينبغي للإنسان الراغب في الثقافة الصحيحة الكاملة أن ينهل قدرأ معقولاً من هذا العلم الذي لانهاية له ولذا فإن رابليه لم يكن على ضلال حين رأى أن الإنسان يجب أن يكون غوراً لايتبى من العلم . والرأس التي تعد طبقاً لنظرية رابليه التربوية لايمكن وصفها بأنها محشورة حشراً بالمعلومات . ولذا فليس ثمة تناقض بينه وبين مونتيني في هذا الشأن .

الآراء الدينية لفرانسوا رابليه :

من أهم آراء فرانسوا رابليه التي أثرت تأثيراً مباشراً في أبناء جيله وفي الأجيال التي بعده هي آراؤه الدينية التي كانت تهدف إلى تحرير الدين من استعباد علماء اللاهوت وتخليصه من الخرافات واللبس والتفسيرات الخاطئة المتطرفة . ولذا فقد نادى أولاً بوجوب اللجوء إلى النص الأصلي للكتاب المقدس قبل اللجوء إلى أية تفسيرات من قبل الكنيسة . ثم نادى بإعداد القساوسة والرهبان إعداداً سليماً على أسس جديدة مخالفة تماماً للأسس التي كانت تطبق في إعداد القساوسة والرهبان حتى ذلك العهد . وكما نادى رابليه بالحرية المطلقة في التعليم عموماً فقد نادى بالحرية المطلقة بالنسبة لتعليم القساوسة والرهبان وهذه الحرية مبنية على نفس فكرته في إعداد المواطن الصالح ، وهي أن الإنسان الطبيعي سليم التفكير إذا منح الحرية كاملة غير منقوصة فإنه يستعملها في غير ما إفراط أو تفريط . ومن بين مظاهر هذه الحرية عدم فصل الرهبان عن الراهبات في الأديرة وخلق

أما عن فكرة أن المرء ينبغي أن يكون غوراً للعلم لايرتوى منه أبداً وأنه يتخذ من نفسه في هذا السبيل مثلاً يحتذى ، فيرى بعض النقاد أن رابليه يبالغ في فكرته هذه وأن معاصره المفكر مونتيني كان أبعد منه نظراً حينما نادى بأن يكون هدف التربويين هو خلق رءوس حسنة الإعداد لا محشورة حشراً بالمعلومات ، ونجد أنه ليس ثمة تناقض على الإطلاق بين رابليه ومونتيني في هذا الصدد إذ أن رابليه كما رأينا في النص السابق لايرى الاعتماد المطلق على الذاكرة ولا ينادى بالحفظ عن ظهر قلب ولا يحشو الرأس بما هي رغبة عنه من معلوماته . فالدرس ينبغي أن يكون متعة للدارس وأن يفهمه ويهضمه هضمأ تاماً . أما إذا وصلت الذاكرة إلى حفظه عن ظهر قلب من كثرة تكراره ومناقشته فلا ضير في ذلك ، والذاكرة مسجل حساس لاسيما في الصغر وينبغي الاستفادة من طاقتها في تلقين التلميذ مالاينبغي أن ينسى من معلومات دون إرهاق أو لإجهاد .

وسيدات الطبقة الراقية زهور الجمال وذوات الوجوه
الملائكية ذوات المظهر التّي العاقل، وكذلك المسيحيين
الإنجلييين . ثم تترسل اللافنة قائلة : « ادخلوا حتى
نؤسس هنا العقيدة العميقة التي نفحم بها أعداد الكلمة
المقدسة » . ويفهم من هذه اللافنة إن تصدر المؤلف
هو العودة بالمسيحية إلى نصوصها الأصلية وتخليص
الطبيعة الإنسانية لدى الرهبان من أى كبت ، وهذان
هما الهدفان الرئيسيان لعصر النهضة . ويرى رابليه
أن ذلك ممكن التحقيق إن لم يكن بالنسبة للناس جميعا
فعلى الأقل بالنسبة للصفوة المختارة من ذوى النفوس
الجسيمة التي ترداد جمالا وتألقا في جو الحرية المطلقة
هذا . ونسوق فيما يلي ترجمة لجزء مشهور من هذا
الفصل :

« افعل ما شئت »

لقد كانت حياتهم كلها تستخدم لاطبقا للقوانين
واللوائح والقواعد بل طبقا لإرادتهم وحريرتهم الخالصة.
فكانوا ينهضون من فراشهم كما يحلو لهم ، ويشربون
ويأكلون ويعملون وينامون حينما تكون لديهم الرغبة
في ذلك . لم يكن أحد يوقظهم ولا أحد يضطربهم
إلى الشرب أو الأكل أو إلى إتيان أى عمل . هكذا
قرر جارجانتوا . وكانت القاعدة السائدة بينهم
هى هذه الكلمة :

افعل ما شئت

ذلك لأن الأحرار من الناس حسنى المولد والثقافة
حينما يعيشون في صحبة الأخيار فإن لهم غريزة طبيعية
وحاسة تدفعهم دائما إلى الأعمال القاضية وتبعدهم عن
المنكر الذي كانوا يسمونه الشرف . وهؤلاء حينما
نرهقهم بالإكراه والعبودية فإننا نبعدهم عن العواطف
النيلة التي تدفعهم نحوها الفضيلة الصريحة ذلك لأننا

حياة مشتركة طبيعية بين الحسنين في داخلها . وكان
من رأيه أن هذا الاختلاط سوف يأتى بأطيب الثمرات
لأنه سوف يخلق بين الحسنين صداقات سليمة متينة
وربما أدى إلى بعض الزيجات السعيدة بين الرهبان
والراهبات . وكانت هذه من أفكاره الجرئة فهو
يرى أن منع الزواج عن القساوسة والرهبان يضطربهم
إلى الخروج عن الطريق الطبيعي والصحيح في الحياة .
ولكى يحسد رابليه لقراءه هذه الأفكار الجرئة ويبين
صحتها في وضوح خلق في الفصل السابع والخمسين
من كتابه « جارجانتوا » ديرا أطلق عليه اسم دير
« تيلم » . ومعنى كلمة تيلم باليونانية الإرادة الحرة .
وهذا الدير يختلف تماما عن غيره من الأديرة فهو
غير محاط بأى سور خارجى كما أنه خلو تماما من أية
أجرام أو ساعات ولا تسير فيه الأمور إلا طبقا
للدوق العام والتفاهم التام بين الأعضاء . وهو يستقبل
النساء من سن العاشرة حتى الخامسة عشرة والرجال
من سن الثانية عشرة حتى الثامنة عشرة . وهو
لا يستقبل إلا فتيانا أو فتيات حسنى الخلقة ومن عناصر
طيبة وتعليم متين . وفي هذا الدير يحيا الرهبان حياة
مترفة مرفهة خالية من كل قيود . وهذا الدير كما
يصفه رابليه في روايته آية من آيات الفن والجمال
والترف . وغنى عن الذكر أن هذا الترف بعيد كل
البعد عن الدين وكذلك الشرط الخاص بجمال الخلقة
بالنسبة للرهبان ، ولكن رابليه كان في ذلك مسحورا
بترف القصور الملكية وغيرها في عصره .

والقاعدة العامة التي تسير عليها الحياة في هذا
الدير تختلف كما قلنا تماما عن التعنت الذي كان يسود
حياة الأديرة في ذلك الحين . فعلى باب دير تيلم
نجد لافنة تحظر الدخول على المنافقين ورجال القضاء
والمرايين ، ولا يسمح بالدخول إلا للفرسان النبلاء

نحب دائماً أن نأثى ما يمنع عنا ونتوق دائماً إلى ما يحرم علينا .

وبهذه الحرية يدخلون في تنافس حميد فيحققون ما يرغب أى فرد فيهم في عمله . فإذا قال أحدهم أو لإحدهم « لنشرب » شرب الجميع . وإذا قال أحدهم : « لنلعب » لعب الجميع . وإذا قال أحدهم : « لنخرج إلى الحقول » ذهبوا جميعاً . وإذا تعلق الأمر بالقنص أو الصيد ذهبت السيدات وهن ممتطيات ظهور فرسات جميلات مطهات ، وقد ارتدين الملابس الفاخرة والقفازات الجميلة وأمسكت كل منهن بطير صغير من طيور الصيد . أما الرجال فيحملون بقية الطيور .

ولقد حصلوا جميعاً على ثقافة متينة نبيلة حتى إن لم يكن بينهم من لا يقرأ ويكتب ويغنى ويلعب على الآلات الموسيقية ويتحدث خمس أو ست لغات ويكتبها نثراً وشعراً . ولم ير الناس من قبل فرساناً أكثر تقوى من هؤلاء ولا أكثر فناً في معاملة النساء . أو مهارة في كل ما يؤتى على الأقدام أو على صهوة الخيل ولا أكثر قوة وحركة ومهارة في استخدام السلاح من هؤلاء ، كما لم ير الناس من قبل سيدات أكثر أناقة ومهارة في الفنون النسوية ولا أكثر أدباً

وحرية من هؤلاء السيدات . ولهذا السبب فعندما كان يحين الوقت لأحد منهم لمغادرة الدير سواء بناء على طلب أهله أو لسبب آخر فإنه كان يصطحب معه من تكون من السيدات قد اختارته إعجاباً بتقواه ويتزوجان . وكما عاشا حياة طيبة في تيلم في جو من التقوى والصداقة فإنهما كانا يواصلان تلك الحياة في عش الزواج . وكانا يظلمان متحابين حتى آخر أيامهما كما لو كانا في أول يوم من أيام الزواج .

وهكذا نرى أن فرانسوا رابليه قد نادى بالحرية الثامة للربان والراهبات وإباحة الزواج بينهما وإعدادهما إعداداً سليماً وتعليمهما كل ما يتعلمه الناس خارج الأديرة من علوم دنيوية فضلاً عن العلوم الدينية .

لماذا تعتبر مؤلفات فرانسوا رابليه من التراث الإنسانى ؟

يتبين من هذا البحث أهمية مؤلفات فرانسوا رابليه ، وقصة جارجانتوا وبانتا جرويل بصفة خاصة بالنسبة للتراث الإنسانى . فهي تعتبر أصل علم التربية الحديث والداعية للكثير من الأفكار الإنسانية التحررية التى يدين بها المجتمع الإنسانى الحديث لمثل فرانسوا رابليه من كبار المفكرين ورواد التقدم البشرى .



سيرة الأميرة ذات الهمّة

بمقام
الدكتورة نبيلة إبراهيم

أولاً والترك بعد ذلك . تفرض نفسها شيئاً فشيئاً على
العصر العربي الأصيل . كما كان الحكام العباسيون
يساعدونهم بدورهم في تثبيت أقدامهم في المجتمع
العربي . أما العرب فقد أهمل أمرهم ، وظلوا يقبعون
في ديارهم في البادية ويميشون حياة تقترب كثيراً
من حياة الجاهلية . على أن العرب لم يكونوا غافلين
عن هذا التغير الجوهري في حياة الأمة العربية ومدى
خطورته عليها . ولم يكن في وسعهم سوى أن يؤكدوا
وجودهم في زحمة هذه الحوادث ، وذلك عن طريق
مساهمتهم فيها طوعاً واختياراً ، كما نزلت بعض
القبائل العربية من موطنها في الصحراء خوفاً من
انطماس تاريخها ، واستوطنت مناطق أكثر تأثراً
بحوادث العدر . وليس في وسعنا أن نعدد هذه
القبائل ، وإنما يهمنا أن نشير إلى قبيلة بني كلاب ،
لأن السيرة تحكى عن تاريخها وكفاحها . فقد هاجرت
قبيلة بني كلاب من موطنها في الصحراء ، واستوطنت
منطقة من أهم المناطق التي ساهمت في كفاح الأمة
الإسلامية وهي منطقة الثغور الشامية التي كانت تقع
بين الدولة العربية والدولة البيزنطية . وقد اختارت

لا يكاد يخلو تاريخ أمة من الأمم من عصر أطلق
عليه الباحثون اسم «العصر البطولي» . ويتسم هذا
العصر بخصائص عديدة نلخصها شادفيك في كتابه
«العصر البطولي» بعد استقصاء ودراسة شاملة للأدب
البطولي في العالم بأسره فيما يلي : (أولاً : تقع الطائفة
نصف المتحضرة من الشعب تحت تأثير الطائفة الأخرى
المتحضرة . ثم ما تلبث الطائفة الأولى أن تشعر بكيانها
وتطمح في السيطرة على الطائفة الأخرى .

ثانياً : تبدأ الطائفة نصف المتحضرة في تحقيق
كيانها عن طريق الهجرة من موطنها الأصلي إلى مكان
آخر .

ثالثاً : تحرص هذه الطائفة من الشعب بعد ذلك على
تخليد ماضيها والفخر بحاضرها عن طريق أدبها البطولي .

وإذا نحن حاولنا أن نطبق هذه الخصائص على
تاريخ الأمة العربية ، فإننا نلاحظ أنها عاشت العصر
البطولي في زمن من الأزمنة التي مرت بها . وربما بدأ
هذا العصر مع العصر العباسي الأول أو قبل ذلك
بقليل . ففي هذا العصر بدأت العناصر الغربية – الفرس

القبيلة هذه المنطقة بعينها لأنها كانت منطقة الصراع بين الأمة الإسلامية من ناحية والدولة البيزنطية من ناحية أخرى . وبعبارة أخرى كانت منطقة الصراع بين الدين الإسلامي والدين المسيحي ، وكان لابد لهذا الصراع من أن يحسم الموقف ، فلما النصر للدولة العربية والدين الإسلامي أو للدولة البيزنطية والدين المسيحي . وعلى ذلك فقد خرجت أسرة بني كلاب من موطنها القديم مدفوعة بدافعين نفسيين : أولاً : رغبتها في تأكيد وجودها في المجتمع الإسلامي الجديد . وثانياً : المساهمة في صنع تاريخ الدولة الإسلامية في وقت أوشك كيانها فيه على الانهيار . واستقرت أسرة بني كلاب في ملطية عاصمة الثغور . وهناك كونت جيشاً يعمل مستقلاً ومتطوعاً في سبيل نصره الإسلام . هذا ما يذكره القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» . وربما كانت إشارة صبح الأعشى على إيجازها هي الخيط الأول الذي يرشدنا إلى ربط سيرة الأميرة ذات الهمّة بالتاريخ . فهو يقول : «ومن بني عامر ابن صعصعة بنو كلاب . وهم بنو كلاب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة .. وكان لهم في الإسلام دولة بالهامة ، وكانت ديارهم حمى ضرية وهو حمى كليب ، وحمى الربدلة في جهات المدينة النبوية ، وفدك ، والعوالي . ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الشام فكان لهم في الجزيرة القراتية صيت وملكوا حلب ونواحيها وكثيراً من مدن الشام . وذكر في مسالك الأبصار : أنهم يتسبون إلى عبد الوهاب المذكور في سيرة البطال » .

ثم يقول بعد ذلك : « ولهم غارات عظيمة على بلاد الروم وأبناء الروم وبناتهم لا يزالون يبايعون من سبائهم . » (١)

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٠ (ط) .
وزارة الثقافة والإرشاد .

ومعنى هذا أن سيرة « الأميرة ذات الهمّة وولدها عبد الوهاب » قد نشأت تخليداً لتاريخ أسرة بني كلاب . ولعل هذا يحدد لنا زمان نشأة السيرة ومكانها . فزمان نشأتها يتحدد بتاريخ كفاح هذه الأسرة . وتحده السيرة بعصر عبد الملك بن مروان ، كما يتحدد مكان نشأتها بالمكان الذي استوطنت فيه الأسرة صاعية وراء الكفاح : أي أنها نشأت ببلاد الشام . ويؤكد لنا هذا أن أسلوب السيرة الذي يقرب من القصص كثيراً ما يختلط بلهجة الشام وعاميته ، كما تقابلنا في السيرة بعض الألفاظ والعبارات اليونانية مثل عبارة « كريا لبسون » وتعني « اللهم رحمتك » ، ومثل عبارة « لورك لورك » أي الأمان ، الأمان . وقد عرف سكان الثغور هذه العبارات نتيجة اختلاطهم بالروم .

ويمكننا بعد ذلك أن نقدم موجزاً للسيرة حتى تتمكن من بحث حوادثها في ضوء التاريخ ، ثم نفرغ من ذلك إلى البحث عن هدفها بوصفها عملاً أدبياً وعن خصائصها بوصفها عملاً شعبياً .

في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، دأب صيت الحارث الكلابي بوصفه زعيماً لأسرة بني كلاب ، كما دأب صيت مروان بن المهيم بوصفه زعيماً لأسرة بني سليم . ولما مات الحارث فرح العرب بموته لأنه كثيراً ما كان يزعجها بغاراته . أما زوجته التي كانت على وشك ولادة طفلها ، فقد قررت أن تهرب خوفاً من انتقام أعداء زوجها منها أو من طفلها ، فخرجت تحت جنح الليل مصطحبة معها خادمها «سلام» الذي كانت تثق في إخلاصه وأمانته ، ولكن لما إن خلاهما الطريق حتى أراد بها الخادم سوءاً . فدافعت المرأة عن نفسها دفاعاً أدى بها إلى ولادة طفلها وإلى وفاتها في الوقت نفسه . ولكنها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ، طلبت من خادمها أن يرعى طفلها ، وأن يعلق على صدره تميمة

أعطتها له . ولما رأى الخادم الأم وهي مضرجة في دمائها ، ترك الطفل بعد ن علق التيمة في صدره ، وولى هارباً . في هذا الوقت ، خرج الأمير دارم يطلب الفرجة لنفسه من هم يقلقه ، إذ كان له ولد توفي في ذلك اليوم ، وقاده الطريق إلى المرأة المضرجة في دمائها ، وبجانبا طفلها يصرخ ، فأشفق على الطفل ، وأخذ له يريه عوضاً عن ابنه المتوفى ، كما أطلق عليه اسمه وهو جندبة . ولما شب جندبة عن الطوق ، ظهرت عليه أمارات البطولة التي ورثها عن أبيه . فخشى الأمير دارم منه وقرر أن يطلعه على حقيقة نسبه حتى يفارقه ، وكان دارم قد عرف ذلك من التيمة التي وجدها معلقة بصدر جندبة ، وسعد جندبة لسماح هذا الخبر ، وهب من فورده واحلا إلى قومه بني كلاب ، ليقف بطلا محارباً بين صفوفهم . وكانت مهمة جندبة تنحصر في الدفاع عن قبيلته ضد القبائل المعادية لها وبخاصة قبيلة بني سليم التي كانت تسعى إلى تصلح الزعامة بين القبائل العربية بدلا من قبيلة بني كلاب ، ولكن الأيام لم تمهل جندبة فتوفى تاركاً أخاه عطافا ليقوم بدوره في الزعامة . ولم يمض وقت طويل على وفاة جندبة ، حتى ولدت زوجته ولداً سمي الصحصاح . وفي الوقت نفسه ولدت لعطاف ابنة سماها ليلي . وتربى الصحصاح وليلي في بيت واحد . فلما كبرا دب الحب في قلوبهما وعزم الصحصاح على الزواج من ليلي ، ولكن عطافاً الذي كان يكن الكره للصحصاح وضع العقبات في سبيل إتمام هذا الزواج ، فقد تحم على الصحصاح أن يقدم مهراً بالغاً لم يكن يملك منه شيئاً ، ولم يضعف هذا من عزم الصحصاح الذي قرر أن يقوم بمغامرات بطولية حتى يحصل على المهر المطلوب . وفي أثناء مغامراته ، بلغه أن مروة بنت الخليفة تتعرض لخطر بالغ من جراء هجوم بعض

ثم توفي الصحصاح تاركاً ولدين له . وقبل ولادتهما رأى في منامه رؤية تنبئ أنه سيرزق بولدين ، وأن الابن الأكبر سوف يوقع الظلم بأخيه الأصغر . فلما

ولد له الولدان سمي ابنه الأكبر وفقاً للنبوءة ظالماً ، والأصغر مظلوماً . ثم تحققت النبوءة كاملة بعد موت الأب ؛ إذ وقع الابن الأصغر تحت وطأة ظلم أخيه . واستعان مظلوم بقبيلته لتحكم بينه وبين أخيه . فقررت القبيلة أن تكون الزعامة قسماً بين الولدين وبين أبنائهما من بعدهما إن كانوا ذكوراً . ثم ولد لظالم ولد سماه الحارث ، أما مظلوم فقد رزق بابنة سماها فاطمة . أما ظالم فقد شعر بالزهو وأخذ يستقصي خبر ولادة طفل أخيه . ثم وصلته الأنباء بأن أخاه ولد له ولد مات في حياته ؛ فقد حرص مظلوم على إخفاء أمر ولادة ابنته فاطمة ، وبالف في هذا الإخفاء بأن سلمها إلى مرضعة لكي تغني بها . وسرعان ما كبرت فاطمة وأخذت تظهر عليها أمارات البطولة النادرة إلى درجة أن أطلق عليها لقب « ذات الهمة » . ثم تتوالى الأحداث وتتكشف الحقيقة لذات الهمة وتعرف قصة حياتها فتمتلئ غيظاً من عمها ظالم وتكن له الانتقام .

هنا تدخل ذات الهمة في مرحلة جديدة من حياتها . فقد شاء ابن عمها الحارث بن ظالم أن يتزوج بها ، إذ كان يحبها حقيقة . أما أبوه ظالم فقد رحب بهذا الزواج أيما ترحيب لعدة أسباب نسوقها على لسانه قال : « وقد عزمت على أن أزوجه بها لوجهين : الأول : لحماها ، والثاني : أنها إذا صارت له انكسرت حرمتها وقل نشاطها وذهبت قوتها وبانكسارها نحن نبلغ من أيها سائر الأغراض » . (١)

ولكن ذات الهمة وجدت ذلك فرصة سانحة لكي تنتقم من عمها ومن ابنه معاً . فأعلنت رفضها الزواج من ابن عمها . كما أشاعت أنها لن تتزوج من أى رجل آخر لأنها وهبت نفسها للدفاع عن الإسلام والأمة

(١) سيرة الأميرة ذات الهمة وابنها عبد الوهاب ج ٦ ص ٢٢ (ط. عبد الحميد حنن) .

الإسلامية . ولم يأبه الحارث لإصرارها واستطاع بمعونة أفراد قبيلته أن يعقد قرانه على ذات الهمة ، ومع ذلك فقد عزمت ألا تدخل به . فاضطر الحارث إزاء هذا الإصرار أن يستخدم الحيلة ليدخل بها ؛ فقد استطاع عن طريق الحيلة أن يسقيها البنج ويفقدها وعيها ، وتمكن بذلك من الزواج بها . على أن ذلك لم يدفع ذات الهمة إلى الاستسلام ، بل إنها على العكس ازدادت كرهاً لابن عمها وعزمت على هجره على الرغم من أنها كانت قد حملت منه . فانتظرت حتى ولدت ابنتها عبد الوهاب وقررت أن تتزوج به إلى منطقة الثغور حتى يشب في ظل الجهاد . ولكن ابن عمها لم يتركها ترحل دون أن يسعى إليها ؛ فقد أشاع أن الولد الذي ولده ذات الهمة لا يتسب إليه ، واستند في ذلك إلى أن الطفل لونه أسود مخالفاً في ذلك لون أبيه ولون أمه . عندئذ أرجأت ذات الهمة سفرها حتى تدفع عن نفسها هذه التهمة ، وقد تكبدت في سبيل ذلك أقصى المشقات ، إذ لعبت النوازع البشرية دوراً كبيراً مما زاد من تعقيد الأمر ؛ فمن راغب في الزواج منها ويرحب بطلاقها من الحارث ، ولذلك فهو يتحمس لتبرئتها ، ومن دقء النفس يسعد بالرشوة فيتحالف مع الحارث في سبيل إدانتها . على أن ذات الهمة تركت شهادات البشر العاديين ولجأت إلى أهل الكهانة والعرافة الذين أعلنوا براءتها . وعند ذاك تأهبت ذات الهمة للدخول في طور كفاح جديد يؤهلها للوصول إلى الشخصية الكاملة ، شخصية البطل المرموق الذي يود كل فرد من أفراد الشعب أن يصل إليه . وتبدأ ذات الهمة هذه المرحلة باستقرارها في منطقة الثغور ، المنطقة التي يتجسد فيها الصراع بين العرب والبيزنطيين أو بعبارة أخرى بين الإسلام والمسيحية .

في هذا الوقت انتقلت الخلافة من بني أمية إلى بني

وجيشها لو أن جيوش الأمة الإسلامية بأسرها :
المتطوعة منها والتابعة للدولة ، كانت متكاثفة .
ولكن الأمر لم يكن يخلو من نفاق ومن حرص على
المصالح الشخصية . أما النفاق فقد تجسد في عقبة
السليمي أحد أفراد قبيلة بني سليم . وتحكى السيرة
أن أمه رأت رؤيا غريبة قبل ولادته ، فلبأت إلى
الحكماء لكي يفسروا لها الرؤيا ، فقالوا لها : « يأتيك
ولد شراني يلقى القتل بين الناس من النساء والرجال ،
ويكون سفاك الدماء ، كثير الخيل والزنا مفسداً في
الدين عاصياً لرب العالمين . » (١)

وولد عقبة وأصبح ذات يوم قاضياً متفهماً في أمور
الدين الإسلامي . ولم تكن هذه الوظيفة المبهجة في
الحقيقة سوى الدرع التي يتخفى وراءها عقبة ويحتمى
بها ، فقد كان في الداخل يتواطىء مع المفرضين الذين
يرغبون في الوصول إلى الحكم . وأما في الخارج فكان
جاسوساً يعمل لحساب الدولة البيزنطية . ويمكننا أن
نصور مدى خطورة مثل هذا الرجل على الدولة
الإسلامية لولا عين بني كلاب الساهرة على مصلحة
الأمة العربية . فقد أخذت أسرة بني كلاب على عاتقها
أن تحارب عقبة : أي تحارب النفاق في الوقت الذي
كانت تحارب فيه العدو الخارجي المربص بالدولة .
كما أنها كانت تكشف عن أعماله التخريبية واطلع عليها
الخلفاء أولاً بأول . ومع ذلك فإن الخلفاء كثيراً ما كانوا
يتشككون في ادعاءات قبيلة بني كلاب ويرون أنها
كانت من قبيل الافراء : حيث أن القاضي كان يبدو
تقياً وزعاً من ناحية ، ولأنهم كانوا يودون الاحتفاظ
بصدقة أسرة بني سليم التي ينتمى إليها عقبة من ناحية
أخرى .

على أن هذا لم يضعف من عزيمة بني كلاب في

العباس . ولما تولى المنصور الحكم ، سعى إليه بنو سليم
يكيدون لبني كلاب . ووجد كلامهم أذناً صاغية عند
المنصور ، فأرسل إلى بني كلاب كتاباً يأمرهم فيه
بالخضوع لسلطانه . وغضب بنو كلاب من الرسالة
وقال أحد شيوخهم للنجاب : « يا شيخ ما الذي كان
يبتنا وبين المنصور حتى إنه عزلنا عن الملك ، وإنما
كان أبونا عباً لبني أمية . وقد هلك الجميع وصاروا
في القبور ، فارجع إلى صاحبك وقل له عرب البر
لا يدخلون تحت طاعتك ، ومن جاء إلينا كانت سيوفنا
إليه أقرب من كلامه . » (١) ولكن ذات الهمّة بما لها
من لباقة وكياسة استطاعت أن تسوى الخلاف حتى
لا تغضب الحاكم ، الأمر الذي قد يعوقها عن تحقيق
هدفها . فقالت لعمها : « يا عماء لقد بالفت في الخطأ ،
لما أن كان الأمر لبني أمية كنت في حقهم مليح ، ولما أن
رجع الأمر لأهلهم عدلت عن الصحيح . والصواب
أن تنهض بقومك وتسير إليه (أي إلى الخليفة)
وتعذر فيما جرى منك ، وتعرض نفسك عليه وعلى
خدمته لأن لك في ذلك الشرف . » (٢)

وبهذا مهدت ذات الهمّة لعلاقة طيبة بين قبيلتها
وخلفاء بني العباس . كما أنها تمكنت من توحيد صفوف
جيشها لمخاصة بعد أن قتل عمها ظالم وولده الحارث في
إحدى المعارك العربية الرومية . وعلى هذا الحال
استقرت ذات الهمّة مترعمة قبيلتها في منطقة الثنوروفي
ملطية على وجه التحديد واستعدت لأداء رسالتها
الكبرى وهي القضاء على العدو الخارجي الذي ظلماً
تهدد حدود الدولة الإسلامية وكان يطمح في القضاء
على الإسلام قضاء مبرماً .

وربما كان تحقيق هذا الأمر يسيراً على ذات الهمّة

(١) السيرة ج ٦٠ ص ٥٤ .

(٢) السيرة ص ٥٥٦٠ .

(١) السيرة ج ٧ ص ٨ .

محاربة عقبة . وقد كان في وسعهم أن يقتلوه ويربحوا الأمة من شره ، إذ أنه كثيراً ما كان يقع في أيديهم متلبساً بجرائمه ، ولكنهم لم يقدموا على فعل ذلك لأن عبد الوهاب رأى النبي في رؤيا له وأخبره بأن عقبة سيتم قتله على يد أسرة بني كلاب بعد أن يتم النصر للمسلمين ويفتحوا أبواب القسطنطينية . حيثئذ يصلب عقبة على باب الذهب أكبر أبواب مدينة القسطنطينية ، ويقف المسلمون المنتصرون يشهدوا مصرع النفاق . « فلما سمع الأمير عبد الوهاب ذلك ، أصبح وأعاد المنام على جميع الناس وأوصى كل من وقع به (أى بعقبة) لا يقتله حتى يصح المنام عن النبي (ص) لأنه قال عليه السلام : من رأى فقد رأى حقاً لأن الشيطان لا يتمثل بي » (١) .

هذه النبوة وغيرها كانت أكبر دافع للمسلمين على الكفاح في صبر وعزيمة . فإذا كان الخلفاء قد اعتادوا على مناوئتهم طوراً ومصالحتهم طوراً آخر بسبب عقبة وأسرته ، فإن النبي الذي يطلع على الحقيقة كان مناصراً لهم على الدوام . وإذا كان جيش بني كلاب قد انشق على نفسه بعد رفض ذات الهممة الزواج من ابن عمها إلى درجة أن انضم ظالم وابنه الحارث إلى الطائفة المرتدة المناصرة لأعداء البلاد ، فإن الله قد كفاهم شر ظالم وابنه بعد أن قتلا في إحدى المعارك . فإذا أضفنا إلى ذلك انضمام البطل الجريء المخلص محمد البطال إلى جيش بني كلاب ، يمكننا أن نقول إن الظروف أصبحت مهيأة للجيش العربي لخوض معركة النصر .

وقصة انضمام البطال إلى صفوف المحاربين قصة غريبة بعض الشيء . فقد ولد كسولاً وجباناً للغاية . كان « يفرغ من الماء إذا سرو من الثور إذا هر ، وكلما

زقزق الفأر في الدار يهرب في ثياب أمه ... ومن جملة كسله أنه إذا كان نصفه في الظل والنصف الآخر في الشمس وهو نائم يكسل أن يزحف من الشمس إلى الظل . » (١) وذات يوم بينما كان جالساً بمفرده تحت ظل شجرة ، هوى سيف من السماء مندفعاً بقوة . إلى باطن الأرض . وأصيب البطال بفرع شديد حتى كاد يغمى عليه . فلما حاول أن يجتذب السيف ، وجده قد نفذ إلى بطن ثعبان مهول وقضى عليه . فما كان من البطال إلا أن قال : « الله أكبر بان الحق وظهر ، وأزال الله الخوف والحدر ... فلا مفر من الموت ، ولا مهرب من القوت ... ثم إنه في ذلك الوقت هاجت به السريرة الخفية التي أودعها فيه رب البرية وعصفت في رأسه نحوه العرب ، ونزل من على تلك الراية وجذب الحسام وحمل في أوائل القوم . » (٢)

ولم يشأ محمد البطال أن يحارب في صفوف قبيلته بني سليم ، وإنما حارب في صفوف بني كلاب ، إذ رآهم أكثر استبسالا في سبيل الدفاع عن الدين الإسلامي .

على أن البطال لم يبرز في القتال كما برزت ذات الهممة وابنها عبد الوهاب ، وإنما كان متفتناً في أساليب الحيل . وقد عبر هو عن ذلك فقال : « أنا ما صناعتى الحرب والطنن والضرب ، وإنما صناعتى في الحيل والخداع في حصن أو قلعة . » (٣)

وقد ساعد البطال في حيلة عاملان : معرفته بلغة الروم أى اللغة اليونانية ، ثم مقدرته على التنكر في أشكال عدة . ولم يستطع الروم رغم حرصهم البالغ منه أن يكشفوا أمره ، فاضطروا إلى تعليق صورته في الكنائس والأديرة حتى لا تتم خديعته على الناس . وقد

(١) السيرة ج ٧ ص ٧١ .

(٢) السيرة ج ٨ ص ٢ .

(٣) السيرة ج ٢٦ ص ٢١ .

(١) السيرة ج ٢٦ ص ٤٠ .

وصفه أحد الروم بقوله : « هذا البلاء النازل ، هذا الموت العاجل ، هذا البلاء الكامل ، هذا مفتت الأكياد الذى تذلل من حيله ومكره الأسود ، هذا الثعبان الأغبر ، هذا الموت الأحمر الذى فى جميع الكنائس مصور . » (١)

وليس فى وسعنا أن نحدد حيل البطال : وإنما يكفى أن نقول إنه يعد المحرك الأول لحوادث السيرة . فقد كانت مهمته التسلل داخل بلاد الروم والمكوث بها زمناً يتيح له فرصة التعرف على بعض من يعرف خطط القتال فيهندي بذلك إلى معرفة نواياهم وينقلها بالتالى إلى جيش المسلمين . وقد تكون مهمته تضليل الروم حتى تتم خطة جيش بنى كلاب بنجاح . فإذا تعذر فتح بلد على المسلمين : يسرع البطال ويتنن فى صنع حيلة حتى تسقط البلد فى أيديهم . وقد حدث هذا عند حصار عمورية ، فقد وقف المسلمون أمام أسوارها المنيعة عاجزين عن دخولها . عندئذ وقف البطال يتلمس الحيلة السريعة . فرأى من بعيد أناساً يركبون الحمير ويحملون معهم أشياء ويتوجهون إلى أبواب المدينة . فلما وجدوها مغلقة تحدثوا فيما بينهم باللغة اليونانية عن كيفية حمل هذه الأشياء إلى الملك . وفهم البطال حديثهم واقترب منهم وتحدث معهم باللغة اليونانية . الأمر الذى جعلهم يتأكدون من أنه رومى . فلما ركنوا إليه هم بقتلهم وليس زيهام وامتنطى حميرهم مع بعض رجاله . ثم أفصح للحارس عن رغبته وكان قد بلغ بهذا الأمر فسمح له بالدخول مع رجاله . وما كاد يدخل حتى أخذ يعمل على هدم جزء من السور تمكن المسلمون من التسلل منه . أما أعظم مهام البطال فهي تتبع تحركات عقبة . فإذا افتقده داخل البلاد الإسلامية ، أسرع فى الرحيل إلى بلاد الروم ليبحث عنه . وما يزال مقتضياً

(١) السيرة ج ٢٨ ص ٥٤ .

أثره حتى يقبض عليه مثلباً بجرمه ثم يأخذه إلى الخليفة ليشهد على خيائه .

وبهذا نستطيع أن نقول إن القوة اكتملت لجيش المسلمين . فالقيادة السليمة وقوة الشخصية تتمثلان فى شخصية ذات الهمة ، والبطولة النادرة تمثلت فى عبد الوهاب كما أن المقدرة على ابتداع الحيلة بلغت قمته عند البطال . فإذا أضفنا إلى ذلك استبسال جميع أفراد الجيش وتفايهم فى أداء واجبهم . أدركنا أن عوامل النجاح قد تهيأت لجيش الشعب العربى .

ولم يكن يعنى انشغال المحاربين بالحروب العربية الرومية ، ابتعادهم عما يجرى داخل البلاد . ولم تكن أحوال الدولة الداخلية أقل اضطراباً من أحوالها الخارجية ، فكما كان العدو الخارجى يهدد البلاد عند حدودها : كان الانتهازيون يتهدون منها من الداخل . بل إنهم كثيراً ما كانوا يتعاونون مع العدو الخارجى فى سبيل القضاء على السلطة العربية الحاكمة . وهنا يبدو لنا أن العبء كان ثقيلاً على الجيش الإسلامى المربط عند حدود الدولة . فلكى تستقيم الأمور للدولة الإسلامية لابد أن تتكاتف الأيدى للقضاء على عناصر الفساد فى الداخل . والقوة المهددة للبلاد فى الخارج فى آن واحد . وهذا ما وضعه الجيش المحارب نصب عينيه . فكانت خطته تسير وفقاً لهذا المرمى .

وربما كان تحقيق هذا الأمر يسيراً لو اتخذت الأمة الإسلامية حكومة وشعباً . ولكن هذا لم يكن يتحقق على الدوام فى عهود الخلفاء . وهنا تقدم لنا السيرة عرضاً تاريخياً مفصلاً منذ بداية عهد عبد الملك ابن مروان ، حتى نهاية حكم المعتمد بالله . فترسم لنا صورة واضحة لكل خليفة وموقفه من حوادث عصره معتمدة فى ذلك على الحوادث التاريخية من ناحية ، وموقف الشعب إزاء ذلك من ناحية أخرى .

أبناء الشعب أن يسهموا بعد ذلك في حكم البلاد . ولما كانت ذات المهمة وابنها عبد الوهاب والبطل قد أدركهم الموت بعد أن أدوا واجبهم ، فقد حكم أولادهم من بعدهم البلاد التي تم فتحها على أيديهم .

السيرة والتاريخ :

تعد السيرة حكاية شعبية بطولية . وتختلف الحكاية الشعبية عن الحكاية الخرافية في دوافعها وشكلها . وليس هنا مجال للفرقة بين النوعين وإنما نكتفي بذكر أهم خصائص الحكاية الشعبية .

الحكاية الشعبية البطولية تركز على الواقع تماماً ، وهي في الغالب تعتمد على الحوادث التاريخية . فقد يكون أبطالها تاريخيين ، وهي تلوثهم وتشكلهم وفقاً لتخيل الشعب . وبالمثل فإن الحوادث التي تحكيها السيرة تركز إلى حد كبير على الحوادث التاريخية ، ولكنها تحكيها من وجهة نظر الشعب أولاً وتدخلها في نسج حكايتها ثانياً . أي أن السيرة لا تحكي التاريخ العلمي الموضوعي وإنما تحكي التاريخ الشعبي . ويمكننا أن ندرك الفرق بين التاريخ العلمي والتاريخ الشعبي من خلال مقارنة الحادثة واحدة هي حادثة البرامكة . فالطبري يبحث نكبة البرامكة بحثاً موضوعياً ويقول إن الأسباب التي أدت إلى نكبتهم مختلف فيها . ثم يأتي بالآراء التي قيلت بصدد هذا دون تعليق وتحمس لرأى من الآراء لأن التاريخ العلمي لا يقبل القطع برأى فيها :

وأما ما تذكره السيرة بصدد هذه الحادثة فيختلف تماماً عما يرد في كتب التاريخ . لأن السيرة تركز كما ذكرنا على أن تربط الحادثة بنسج حوادثها ، وأن تعرضها من وجهة نظر الشعب . وأما عن ربط هذه الحادثة بتسلسل الحوادث في السيرة فيتضح فيما يلي .

ومن خلال هذا العرض يتبين لنا كيف أن بعض الخلفاء كان عاكفاً على ملذاته ، غافلاً عن أحوال الدولة ، منصفاً للنفاق الذي يتجسد في شخصية عقبة . ولكن هذا لم يكن ليترك اليأس يتسرب إلى جيش بني كلاب ، وإنما كانوا يعتمدون في مثل هذه الظروف على قوتهم واستقلال رأيهم . فإذا عارضهم الخليفة أجابوه بقولهم « ودعنا في وجوه الكفرة لا لك ولا علينا ، فيخرج الأمر من يدك ويدنا » فإذا استشاط الخليفة غضباً وأمرهم بالرجل من منطقة الثغور أسرعوا وتحفوا في مكان قريب واستمروا في نضالهم حتى تنكشف الحقيقة للخليفة فيعمل على إنصافهم .

ثم ينتهي العرض التاريخي للسيرة بخلافة المعتصم بالله : وهو أرشد الخلفاء العباسيين وأكثرهم نشاطاً ورجاحة عقل كما تصوره السيرة . وفي عهده اتحدت الدولة الإسلامية حكومة وشعباً في سبيل المصلحة العامة . ففتحت عمورية وهدد الجيش القسطنطينية وتم له النصر بفتحها . وكان عقبة قد أسر منذ زمن وظل في حراسة مشددة حتى يتم صلبه على باب الذهب . واجتمعت حشود المسلمين لتشهد مصرع النفاق على باب الظلم والفساد . عندئذ توجه المعتصم إلى عقبة وقال له : « يا قاضي كيف ترى قول النبي (ص) للأمير عبد الوهاب حينما وعده بصلبك ؟ هل صح قوله في الرؤيا أم لا ؟ وفي اللحظة التي تم فيها صلب عقبة هتف المسلمون في صوت واحد : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً . » (١)

وبهذا حققت السيرة كل ما يصبو إليه الشعب العربي ، فقد صلب النفاق وقضى على العدو الخارجي المهدد لكيان الدولة في آن واحد . وحق للحكام الأبطال

تقول السيرة : « وأما ما كان من الإمام الرشيد ، فإنه لما سار ووصل إلى ملطية ونزل عليها أمر بعماريتها . فجمعوا الصناع من سائر البقاع وشرعوا في البناء . وبعد ذلك سار الخليفة إلى بغداد ودخل فيها وجلس على كرسي خلافته . وكان عقبه حاضراً في ذلك المجلس . ونظر إلى جعفر بين يدي الرشيد ، وكل واحد يتكلم على قدر ما يشتهي ويريد ومن جملتهم الوزير جعفر ابن يحيى البرمكي ، وقد تكلم في حق الأمير (يعني الأمير عبد الوهاب ولد ذات الهممة) بما يليق بأخلاقه الكريمة . فصعب ذلك على الملعون عقبه ولم يستطع أن يسمع المدح في حق الأمراء . فنهض من وقته من مجلس الخليفة وقصد إلى داره ، وقد صبح عنده تعصب جعفر للأمراء لأنه رآه يشكرهم الإحسان ويرد غيبتهم عند السلطان . فقال : وحق المسيح والحواريين لا بد أن أعمل على هلاك البرامكة أجمعين . » (١) ثم اتفق مع الفضل بن الربيع على أن يكتب خطاباً بخط جعفر البرمكي ، ويدسه له في عمامته عن طريق أقرب خادم له . وفي هذا الخطاب يسب جعفر الرشيد ويتهمه بأبشع التهم ، وقبل الخادم أن يفعل هذا في مقابل مساعدة عقبه له على زواجه بمن يحبها . ثم ذهب عقبه إلى الرشيد وأخبره بأن جعفر البرمكي يحقد عليه ويعمل على إبعاده عن كرسي الخلافة . وليس على الرشيد سوى أن يطلع على الرسالة التي يحببها جعفر في عمامته حتى يتأكد من صدق قوله . . . وفتش جعفر وعثر على الرسالة وأعقب ذلك إزال الرشيد النكبة بالبرامكة . ولم تكتف السيرة بربط حادثة البرامكة بجوهر السيرة ، وإنما أسهبت في وصف نكبتهم وصدى هذه النكبة عند الشعب . ومن خلال هذا السرد الطويل نتبين كيف كان الشعب يحب البرامكة لكرمهم وحسن معاملتهم

(١) السيرة ج ١٢ ص ٢٥ .

إلى درجة أن صورت السيرة جعفر بوصفه ولماً . فقد هتف هاتف بجعفر قبل أن تحمل به الكارثة وأنبأ بها . بل إن كرامات جعفر استمرت بعد وفاته . فقد اعتاد رجل أن يعيش على ما يقدقه عليه ، فلما مات جعفر جلس الرجل عند قبره يبكيه حتى غلبه النوم ، فرأى جعفر في رؤياه وأمره أن يرحل إلى البصرة ، فيذهب إلى حانوت معين وصفه له ، ويقول لصاحب هذا الدكان « بأمانة القول اعطني ثلاثة آلاف دينار » (١) . وفوجيء الرجل عندما وجد صاحب الحانوت يقدم له ثلاثة آلاف دينار على الفور . وطلب منه أن يفسر له هذا الأمر الغريب . فأخبره صاحب الحانوت بأنه كان رجلاً فقيراً يبيع الفول . وفي ذات يوم خرج لبيع الفول فسقط المطر عليه وأغرق فوله . ورآه جعفر وعلم أنه فقير يستزق من بيع هذا الفول . فغمره بعطفه وماله حتى اغنى وفتح هذا الحانوت .

ولعلنا ندرك بعد ذلك الفرق الجوهرى بين التاريخ العلمى والتاريخ الشعبى . ومع هذا فالتاريخ الشعبى يعتمد ألا على حوادث التاريخ . وليس أدل على ذلك من أن السيرة اهتمت بذكر حادثة هجرة بنى كلاب إلى منطقة الثغور ليشتركوا في الحروب العربية البيزنطية . ولولا إشارة القلقشندي لهذه الحادثة لحسبناها خيالا صرفاً .

وليس في وسعنا أن نذكر الحوادث التاريخية العديدة التي ارتكزت عليها السيرة . فالمكان لا يتسع لذلك . ولكن حسبنا أن نشير إلى ما ذكره جريجوار في مقدمة كتاب « العرب والروم » لفازلييف . قال إن الأستاذ كنار « اكتشف في رواية الفارسية العربية المسماة بذات الهممة مادة وفيرة لا تزال زاخرة بالتاريخ تحللت شيئاً فشيئاً في ثنايا الأساطير وانتهت إلى آثار

(١) السيرة ج ١٢ ص ٤٥ .

مثل السيد البطال بعد أن كان المستشرقون يعتقدون أنها آثار لا تعد بمكان أو تاريخ . ه (١) .

وحسبنا أن يكون عبد الوهاب والسيد البطال شخصيتين تاريخيتين اشتركتا معاً في الحروب العربية البيزنطية . وقد قتل عبد الوهاب في تلك الحروب عام ١١٣ هـ ، كما قتل فيها البطال عام ١٢٢ هـ . وقد كانا صديقين في القتال تماماً كما هو الحال في السيرة . ففي عام ١١٣ هـ غزا عبد الوهاب مع البطال بلاد الروم . ه فانهزم الناس عن البطال وانكشفوا فجعل عبد الوهاب يكر فرسه وهو يقول : ما رأيت فرساً أجبن منك وسفك الله دمي إن لم أسفك دمك . ثم ألقى يرضته على رأسه وصاح أنا عبد الوهاب بن بخت . أمن الحنة تفرون ؟ ه (٢) .

السيرة بوصفها تراثاً شعبياً وعملاً أدبياً فنياً :

رأينا كيف أن السيرة تعد تراثاً شعبياً . ومعنى هذا أن الشعب يعيش حوادث عصره ، ويعبر عن موقفه من هذه الحوادث . وإذا عبر الشعب عن حوادث عصره ، فمعناه أنه يتقدها ويثور على الفاسد منها ، وهو لا يكتفى بذلك ، وإنما يصور من خلال نسج الحوادث بالحياة الكاملة التي يطمح إليها . وهذا أول تعبير في السيرة عن الروح الجمعي . إنه التعبير المتفائل الذي يهدم الحياة التي مسختها القيم الفاسدة ليقيم مكانها حياة يسودها العدل والصدق . فقد رأينا أن السيرة فضلاً عن ارتكازها على الشخصيات التاريخية البطولية مثل شخصية عبد الوهاب والسيد البطال ، خلقت شخصية أخرى تقابلها هي شخصية عقبة . وعقبة رمز أكثر من كونه شخصاً ، هو رمز

(١) فازلييف : العرب والروم (ترجمة د. عبد الهادي شميرة ، د. فؤاد حنين (ص ٢) ط. دار الفكر العربي) .

(٢) تاريخ الطبري - ٣ ص ١٥٥٩

للحياة التي ينبغي أن تنتهي لأنها لا تحقق الخير . ولهذا فقد صلب عقبة لأن وجوده لا يتفق مع الحياة الجديدة التي سعى إليها الشعب وحققها . وقد أصر أبطال السيرة على أن يقتل عقبة على باب الذهب بعد أن تفتح القسطنطينية ، أي بعد أن يقضى على العدو الخارجي ، وهذا معناه في مفهومنا الحديث أن كيان الدولة الداخلي والخارجي لا ينفصلان ، فموقف الدولة من أحدهما يعكس مباشرة موقفها من الآخر . ولعلنا نلمس هذا بوضوح في عصرنا ، فالقوى الخارجية المناوئة إذا استطاعت أن تتسلل في جسم دولة ، فإنما يعني ضعف الكيان الداخلي لهذه الدولة . وبالمثل فإن فساد الدولة الداخلي يمكن كل قوة متربصة بها في الخارج من التسلل داخلها . وهكذا يتبين لنا أن السيرة لم تكتف بسرد الحوادث ، وإنما تطورت بها لتحقيق هدف بعيد ، وهو هدف شعبي وفني حقاً .

فإذا انتقلنا إلى ذكر العناصر القولكلورية التي تحتوى عليها السيرة فإننا نجد أنها وافرة ، وهي تتمثل في المعتقدات والتطورات التي يؤمن بها الشعب ويعبر عنها في كل أشكال تعبيره . وأبرز هذه المعتقدات والتصورات تتمثل في الحلم والسحر . والحلم وفقاً للتصور الشعبي لا يعكس حقيقة الحياة اليومية ، وإنما هو حقيقة في حد ذاته . بمعنى أن ما يراه النائم في رؤياه لأبد أن يتحقق في الواقع . وقد سبق أن أشرنا إلى الرؤيا التي رآها الرجل الذي كان ينبغي حظه بعد نكبة البرامكة والتي تحققت بحذافيرها . ولولا إيمان الرجل بحقيقة الحلم لما سعى إلى تنفيذ ما أمر به في حلمه . وبالمثل تحققت الرؤيا التي رأى عبد الوهاب النبي فيها ، وكذلك الرؤيا التي رآها أم عقبة قبل ولادته .

والحلم ، فضلاً عن أنه يكشف عن الحقيقة

المجهولة ، يؤدي وظيفة أخرى في السرد . فهو يساعد على خلق الحركة الحديدية ؛ إذ سرعان ما يتحرك الأبطال بعد أن يرى أحدهم رؤيا تكشف لهم عن مكان اختفاء عقبة أو عن المكان الذي أسر فيه عزيز لديهم .

والسحر قوة تكمن في الأشياء . وفي وسع هذه القوة أن تساعد البطل في تحقيق رغباته . وقد تكشف له عن حقيقة يجهلها . فقد دبر الروم مؤامرة لقتل مسلمة بن عبد الملك والصحصاح معاً ، وذلك بأن أرسلوا جاسوساً متكرراً في هيئة زاهد ، استطاع عن طريق زهده أن يقترب منهما . فلما تم له ذلك وضع السم لهما في الطعام ثم اختفى . فلما مد مسلمة يده إلى الطعام ، « وأخذ لقمة وأراد أن يرسلها إلى فمه ، إذا بالخاتم الذي في يده يقطر ماء أصفر قطرات متداولة مثل المطر . فصاح على الملك (أى الصحصاح) وقال له اصبر ياملك العرب لا تأكل شيئاً من الطعام لأنه مسموم وكان في يد الأمير مسلمة خاتم له فص من قرن الحية وكانت أحكمة الحكماء الأوائل ومكتوب عليه أسماء وطلاسم . وكان هذا الخاتم لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين . ولما أرسل الأمير مسلمة إلى هذا المكان خاف عليه من هذه الأحكام ، فسلمه إليه وعرفه عن منفعة . » (١)

والسحر يكمن في الكلمة كما يكمن في الأشياء . فإذا هتف المحاربون بقوله تعالى : « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » ، انهزم المحاربون الأعداء على الفور . وإذا هتفوا بقوله تعالى « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » ، اكتسبوا قوة غير عادية وانتصروا ، بل إن حجاف وهو أحد المحاربين الأبطال أصيب في رجله

ولم يعد يستطيع الوقوف ، فأدار أبو محمد البطل وجهه إلى قبلة البيت الحرام وصلى ركعتين وبسط يديه بالدعاء ساعة زمنية .. ثم دنا من حجاف وقال له : قم بقدرة الله تعالى الذي رد عليك رجلك وخلصك مما كان قد تم عليك . فقام حجاف مثل الأسد الجسور وهلل في قيامه وكبر وتشهد بعلو صوته . » (١)

وربما كان الاعتقاد في قوة الكلمة الدافع الأكبر وراء قول الأشعار البطولية قبل أن يخوض البطل المعركة مباشرة . فقد « كشف عبد العزيز العلوي رأسه وأخرج يده من جلباب درعه وهو ينشد هذه الأبيات :

ألا خبروها أننى اليوم باذل

لروحي في هيجائها بالقواصب

وإني أرد الخيل أيضاً بصارمي

وأضرب أعناق الليوث السلاهب

ولو كان فيما بيننا ألف بلدة

لها ألف سور هان عندي مطالبي

وحق الذي حج الحجاج لبيته

ينادونه لييك من كل جانب

لاقتحمن الحرب حتى ترونها

يفيض نجيعاً مثل فيض السحاب

فإذا تجاوزنا المعصنات والتصورات الشعبية إلى

ذكر نموذج من التعبير عن اللاشعور الجمعي ، فإننا نجده يتمثل في صورة البطل منذ أن يولد حتى يبلغ مرحلة النضج والكمال . وقد سبق أن قدمنا نموذجين لحياة البطل يتمثلان في حياة جندبة وحياة ذات الهمة فقد ولد جندبة يتيم الأب ، ثم ماتت أمه بعد ولادته مباشرة وتربى لدى قوم غرباء ، فلما كبر عرف حقيقة نسبه ، فانضم إلى قومه وأصبح البطل المرموق .

الانضمام مرة أخرى إلى أهله ، لأنه قد أصبح بالفعل بطلا مرموقاً .

وبالإضافة إلى المعتقدات والتصورات الشعبية ، وصور التعبير التي تنبع من اللاشعور ، هناك الحكايات الشعبية التي يحفظها الشعب في ذاكرته لاعتزازه بها . ومن ثم فهو يخلق لها مجالا في السيرة لكي يحكيها عن عمد . ومن ذلك ما يحكيه الراوى عن الصحصاح من أنه تقابل في قلب الصحراء مع ظبية راعه منظرها وهي تجرى مصطحبة أولادها . فجرى وراءها الصحصاح يبغى صيدها ، ولكنها أسرعته ودخلت كهفا مع صغارها . وفي تلك اللحظة برز أسد جسور وهم بأن يفتك بالصحصاح . وفي تلك اللحظة تجسدت أمامه امرأة رائعة الجمال لم يدر من أين أتت . فضربت الأسد ضربة قضت عليه . وتعجب الصحصاح من ذلك وسألها ما إذا كانت إنسية أم جنية . فأخبرته - بعد أن سخرت منه ومن قوته التي يعتز بها ، بأنها ابنة ملك الجان عقيق الذي سجد للنبى عليه السلام . وهي بعينها الظبية التي جرى وراءها ، ورغب في اصطادها .

ومن ذلك حكايات الكهانة والعرافة . وقد رأينا كيف أنها استغلت في السيرة في حادثة تبرئة ذات المهمة من التهمة التي وجهها لها ابن عمها الحارث .

كل هذه العناصر القولكلورية تحتوى عليها السيرة . وهي تتعلق جلها بتراث الشعب القديم . فهل معنى هذا ان أهمية السيرة ترجع إلى احتوائها على هذا التراث ؟ وبعبارة أخرى : هل يعنى التراث الشعبي ، القديم المتوارث ، أم القديم المتطور ؟ إن التراث الشعبي يعنى أولا وأخيرا شتى أشكال التعبير عن حياة شعب من الشعوب . وتتحدد حياة هذا الشعب بأصله والمكان الذي يعيش فيه ومصيره .

وبالمثل فقد تربت ذات المهمة لدى قوم غريباء أى أنها أبعدت عن أبيها وأمها . ثم عرفت في النهاية حقيقة نسبها فانضمت إلى أهلها وقد اكتملت شخصيتها وأصبحت بطلة السيرة الأولى . ولا تنفرد السيرة بهذين النموذجين ، ولكنها تحتوى على نماذج بطولية أخرى تكاد تتفق حياتهما مع هذين النموذجين . فإذا عرفنا أن صورة البطل هذه ترد بالمثل في الحكايات الخرافية والحكايات الشعبية في جميع أنحاء العالم ، استطعنا أن ننتهى إلى أنها تعبير تلقائى عن اللاشعور الجمعى كما فسرهُ علماء النفس . ومصدر هذا التعبير هو إحساس الفرد بالعقبات التي تستكن في لاشعوره منذ طفولته حتى يصل إلى مرحلة التفرد والاكتمال . فالطفل الذى يولد من أبوين ، وما يلبث أن يشعر - حينما يكبر - بسيطرة الأب عليه الأمر الذى يدفعه إلى التقرب لأمه . حتى إذا ماشب عن الطوق ، اضطرب - مدفوعا بطبيعة الحياة التي تتميز بالاكتمال والكمال ، إلى الانفصال عن أمه . وفي هذه السن يشعر الابن باحتقار لأبيه وأمه ويحل في خياله محلها من هما أرفع منزلة . حتى إذا اكتمل الابن نضجه ووصل إلى مرحلة الرجولة الكاملة ، ارتد إلى عالم الواقع ، فيتعرف على أهله محتفظا ببطلته ورجولته . هذا الإحساس اللاشعورى يخلفه الشعب مرة أخرى على صورة البطل . فالبطل إما أن يولد يتيم الأب ، أو يستنكر الأب ولادته إثر نبوءة تطلعه على خطورة طفله . وفي هذا إشارة لعلاقة الابن بالأب في حياته الأولى . أما الأم فتحفظ بالطفل بعض الوقت بعد ذلك ، إلى أن يبعد عنها الطفل كذلك ، وفي هذا إشارة إلى تحركه الطبيعى نحو الاستقلال . حتى إذا كبر الطفل تعرف على أهله . أى أنه - بعد أن تم عملية الاستقلال والنضج ، لا يشعر بخطورة في

ومعنى هذا أن أى تغيير يطرأ على حياة هذا الشعب لابد أن يترك أثره فى الشعب وبالتالي فى أشكال تعبيره .

أما بالنسبة للسيرة فقد تثيرت حياة الشعب العربى الممثل فى أسرة بنى كلاب تغيرا زمنيا ومكانيا واجتماعيا . وقد استطاعت السيرة أن تصور مرحلة الانتقال هذه أروع تصوير . فقد بدأت بعرض حوادثها فى قلب الصحراء ، حيث كانت تعيش أسرة بنى كلاب . وقد كانت تعيش هذه الأسرة فى أفق مكانى ضيق وحيز زمانى محدود . أما المكان فهو الصحراء بتقاليدها المتوارثة . وأما الزمان فهو عصر ماقبل الإسلام وإن أتى عليهم الإسلام . ولهذا فإن حياة هذه الأسرة لم تتجاوز الصراع بين القبائل وبين أفراد القبيلة الواحدة . ثم خرج الصحصاح يطلب مهراً لىلى من وراء المغامرات . وقادته هذه المغامرات إلى بلاط الخليفة الذى وثق فى شجاعته وطلب منه أن يرحل مع مسلمة بن عبد الملك لمحاربة الروم .

وتعد هذه الحادثة نقطة تحول فى حياة الأسرة ، إذ أعقبها خروج الأسرة كلها إلى منطقة الثغور . وهذا معناه اتساع أفقهم المكاني وكذلك أفقهم الزمانى نتيجة معايشتهم لحوادث عصرهم التى كانوا بعيدين عنها . وبالمثل فقد فتحت الحياة الجديدة أذهانهم لمفاهيم سياسية واجتماعية جديدة . فالحاكم ليس الشخص الذى يترى على عرش الملك ويعيش حياة البذخ والترف بينما تدير حكومته أمور البلاد كيفما شاءت ، وإنما هو ذلك الذى يعيش مع الشعب ويشعر الشعب بوجوده . فلما ظهر الخليفة هرون الرشيد أمام جيش الشعب مصطحباً موقف الحاكم المترف الذى يأنف من شعب الصحراء وبخاصة عبد الوهاب الأسمر اللون ، اغتاظ أحد أفراد أسرة بنى كلاب ،

وخاطبه بالصرامة التى تربى عليها ، وسأله عن السبب الذى دفعه لاحتقار أميرهم وبطلهم عبد الوهاب ، لأنه أسود اللون ؟ وإذا كان الأمر كذلك فليبق هو خليفة لليبض ، وليصبح عبد الوهاب خليفتهم .

ثم إن الحاكم يتحتم عليه أن يترك فرصة للشعب ليسهم فى صنع حاضره ومستقبله . وقد أسهم شعب السيرة فى صنع حاضره ومستقبله ، فوضع يده على بؤرة النفاق وقضى عليه وعلى العدو الخارجى فى آن واحد .

إن سيرة الأميرة ذات الهمة تراث أدبى عربى يستحق كل تقدير . فقد جمعت فى ثناياها التراث القديم والتاريخ ومقومات الدولة السياسية والاجتماعية المثالية ، ثم مزجت كل هذا فى قالب قصصى متكامل ، يحقق هدفاً محدداً على الرغم من طولها البالغ .

د. نبيلة إبراهيم

صفات البطل :

« قال الراوى » فلما رأى الصحصاح مصارع الأشباح ، وهذه الحريم فى بكاء ونواح ، أخذته الحمية ، فصاح فى عبده نجاح وقال والله هؤلاء حجاج بيت الله الحرام ، وزوار قبر محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، هؤلاء اللثام قطعوا عليهم الطريق وعوقبهم تعويفاً وأظنهم قتلوا كمامهم وأبادوا حماهم . ولقد سلوت حب لىلى باصطناع المعروف وإغاثة الملهوف ، ولا بد أن أتى روحى على هذه الكتيبة وأكشف إن شاء الله هذه المصيبة . فقال له عبده نجاح يامولاي لا تفعل ، واعلم أن ما قصد لأخذ هذه الأموال وحماها إلا رجال وأبطال وصناديد أقيال ، ولا بد أنهم تسعون فارساً ما بين مدرع ولايس . ولا يخفى أن يكون واحد منهم مثلك ، والباقي لا يصبروا على فعلك . وقد كان فى هذه القافلة ما ينوف عن ستمائة فارس أو دون ذلك

فتركهم هؤلاء ما بين مأسور وهالك ومطروح تحت السنايك . والصواب يا مولاي لاتعرض نفسك على هذه المهالك ولا تعارك ، فلما سمع الصحصاح من عبده ذلك الكلام نظر إليه وقال يا ابن اللثام ما يقعد عن نصره الحريم إلا كل لثيم . ثم صاح من أم رأسه : يا أندال البادية والطائفة الباغية العادية ، أقسم بمن جعل البيت الحرام حى للناس وأمانا من الباس ، وأوضح منهجه وأعرض حجه لئن لم تخلوا عن الحريم وما معهم من المال لأجعلن رقابكم بلا علامهم وأجسامكم بلا جماجم وجراحكم ما ينفعها مرامهم وقد نصحتكم نصيح الليث الحازم . ثم أنشد يقول :

ألا يارجال سوء كفوا عن الطعن
وكفوا عن الأموال والحمل والظعن
أحجاج بيت الله تبغون مغنا
وذلك فعل الشين يقضى إلى المحن
دعوهم وإلا والمظلل من منى
وحجاج بيت الله فى سائر المدن
جعلتكم فى القاع طعما لأسده
كذا الطير من نسر ويوم مع السن

التراث الاسطورى فى السيرة :

« قال الراوى » : وكان الصحصاح قد كل من السير وقد فرح قلبه بنظره إلى ذلك الدير ، وقال فى نفسه لعل أجد عند بعض الرهبان فرجاً مما أنا فيه ويفرج عن قلبي ما أعانيه . (وقال الراوى) بإسادة يا كرام ، فبينما هو يحدث نفسه بالمسير إلى الدير ، وإذا هو بغزاة حسنة المنظر ، مليحة اثرى وهى سائرة تتمخطر وعيناها تتوقدان كأنهما ياقوتتان وحولها جماعة من الغزلان وهم خلفها كأنهم غلمان

وهى أمامهم كأنها ملك وسلطان . وعن يمينها وشمالها غزلتان كالآثراك كأنهما لها حجاب وهى تتحدث معهم . وكان الوقت عند غروب الشمس وقد اصفرت أرجا . فمد الصحصاح إليها أسنانه وأطلق نحوها عنانه فجرت الغزاة قدأمه وقد لحقتها تلك الغزلان وهى تجدد والصحصاح لها فى الطلب ... هذا وقد دخلت الغزاة إلى غار فى الجبل وتبعته الغزلان وقد بقي الصحصاح حائراً ولهاً وعليها تدمان . فأراد أن يدخل خلفها إلى ذلك المكان فخاف على الجواد يشرد منه فى ظلمة الليل ويبقى حالة بعده فى الليل . فرجع طالب الدير وإذا قد اعترضه أسد كأنه شيطان . وكان الأسد طويل القامة عريض الهامة أحمر أغبر ، قد جلله الوبر وهو يتمخطر على الحجر ... وهجم على الصحصاح فهجم عليه الصحصاح . وعندما صرخ الأسد على الصحصاح صرخة قوية أقلب منها الثرية وقد هجم عليه ولطمه يديه فأرماه تحته . فبينما هو والأسد فى ضراب وقراع ودفاع ، وقد صارت روح الصحصاح فى التراع ، وإذا بجارية حسنة القوام مليحة اليتسام كأنها البلر التمام قد أقبلت وصرخت على الأسد فارتجع عن الصحصاح وخلاه . وراح فنظر الصحصاح إلى وجه تلك الجارية فوجدها مبدعة للناظرين ونزهة للمتأملين . فقدم إليها وقبل يديها وقال لها : أنت إنسية أم جنية فقالت له : ايش لك بى وإيش لك بهذه القضية ؟ لا إنسية ولا جنية أنا فاعلة خير ساكنة بجوار أهل هذا الدير ... أنا بنت عهق الحنى ملك الحان . وإن بنت الحن ما يتغير حسننها ولا ينقص جمالها ، فالمليحة مليحة والقيحة قيحة ، وفينا من تتريا بهما أرادت من الصفة الوحشية وصفة الطير وغيره وفينا للشر وفينا للخير ولما آمن أبى نزلت على النبي صلى الله عليه

وسلم سورة قل أوحى .. إلى قوله إنه : استمع إلى
نفر من الجن »

النزاع بين أفراد القبيلة الواحدة :

« قال الراوى » فلما أن كان بعد ذلك بأيام
جلسوا بين المشايخ الكرام . فقال ظالم لمظلوم اعلم أن
زوجتك وزوجتى حامل ، وأنت أمير وأنا أمير ،
فاجعل الشرط بيننا ويشهدوا هؤلاء المشايخ علينا ،
من جابت زوجته ولدا ذكراً كان الملك له
والإمارة من دون الآخر ويكون الأمر والنهى فى
الحرب له .. فقالوا مشايخ بنى الوحيد : وترضى
أنت بهذا الأمر ، فقال أى والله العظيم وإن جاءنا
ذكران بقيت الإمارة على حالها مشتركة بين الاثنين .
فشهد العرب بعد أن رضوا بذلك الحد ، لأنهم
تربية البر وهزلم جد ... (قال الراوى) وبعد حين
أخذ المرأتين يطلق بإذن خالق الخلق ، فوضعت
زوجة ظالم ذكراً كأنه فلقة قمر ، ففرح به واستبشر
وقد سماه الحارث . وقال للداية اذهبي وكوني فى
بيت أخى فلانى أخاف أن يكتسوا مايرزقون عند
الولادة من خوف الشهادة . فقالت له : دع عنك
المناققة والشين ، كيف يكون هذا وأنتما أخوان .
فقال لها دعى عنك هذا الكلام واذهبي إلى بيت أخى
بسلام ... فعندما ذهبت الداية إلى بيت مظلوم وكانت
تحبه أكثر من ظالم لما فيه من الدين والخير وجودة
التكئين . فلما أن دخلت قالت لمظلوم : اعلم أن أخاك
قد بعثنى لأجل كذا وكذا . ثم إنها جلست ساعة
وزوجة مظلوم تطلق ، فولدت جارية كأنها البدر
قوية السواعد والأطراف هائلة الأكثاف . فوقع
على أمها الخمدة والمهوم والغموم ، وقد فزعت من
زوجها مظلوم ... »

التاريخ الشعبى :

« ... ولم يكن هناك يومئذ بلد ولا عمارة سوى
دير فيه راهب فطلبه المنصور إلى بين يديه ، فلما أن
حضر سأله عن اسمه فقال له « باغ » وهذه الأرض
اسمها « راد » وقد قرأت فى كتب الحكماء واطلعت
على الملاحم فرأيت فيها أنه لا بد أن تعمر هنا مدينة
مذكورة إلى آخر الزمان . « قال الراوى » فقال له
الخليفة : كيف تبني المدينة هنا وهذه الأرض
ملآنة ماء . فقال له الراهب : لاتعرف قطع الماء إلا
منى . فقال له : افعل ما تريد . فمضى إلى مكان يعرفه
وسد الماء فانقطع . ونزل المنصور على الدجلة ثم
أمر بعمارة المدينة ... وسماها بغداد باسم الراهب
والأرض . »

الايمان بالمعجزات

« قال الراوى » ونرجع لما كنا عليه من الكلام
بإذن محبي العظام . ولما تقدم أبو محمد البطال إلى
السهم الذى يتحرك فى التراب فجذبه بكلتا يديه فلم
يقدر . فجذب السيف الذى معه وحفر حواله إلى
أن وصل إلى آخره ، وإذا بذلك السهم قد وقع فى
ثعبان عظيم ارتعى وهو ملبط بالدم . وذلك الثعبان
من حلاوة الروح قد انقلب ودمه قد انسكب . ولما
رأى البطال ذلك تحير فى أمره وقال : الله أكبر بان
الحق وظهر ، وزال والله الخوف والخنر ..

الايمان بحقيقة العلم :

« ... وبالقضاء والقدر نزل الأمير تحت شجرة
كبيرة ظليلة لها أغصان متفرعات عن بعضها البعض
وكل غصن منها يظل الفارس والمائة . فنام الأمير
عبد الوهاب تحتها وقد غرق فى نومه فسمع للشجرة
أنيابا كأنين الثكلى وهى تقول : أيها الأمير صدق

الله ورسوله . فإذا قمت من نومك قل لأصحابك
يقطعوني وبهذا حكم الله تعالى فلا مرد لحكمه ولا دافع
لقضائه . ثم إنك تقطع أغصاني واحملني من مكاني .
فعلى يكون صلب عقبة الملعون على باب الذهب بعد
أن يقتل ثلاثمائة ألف على صلبه من سائر الأمم .
فانتبه الأمير عبد الوهاب من نومه وهو فزعان

مرعوب وسمع أنين الشجرة في يقظته كما سمعها في
نومه . فلما سمع ذلك قال : الله أكبر الله أكبر . فقال
الأمير أبو محمد البطل : ما الخبر فأعاد عليه القصة ففرح
الأمير أبو محمد البطل بذلك والأميرة ذات الهمة وقالوا :
والله هذا أحب إلينا من فتح القسطنطينية لأن ما يحرى
على المسلمين شيء أشد مما يحرى عليهم من عقبة .



تراث الإنسانية

سلسلة تتناول بالتعميق والبحث والتحليل
روائع الكتب التي أثرت في الحضارة الإنسانية

(بقية) مسيرة الأميرة ذات الرزانة

يقدم د. نبيلة إبراهيم

الفردوس المفقود لجورج ملتون

يقدم د. نظمي لوزقا

بعثة جون مري

لاستكشاف المحيط الهندي

ليورسويل وآخرين

يقدم د. أنور عبد الله

الراما يانا

يقدم أ. محمد سامي النوري

فهرس المجلد الرابع

يشرف على تحريرها

د. عبد الحليم مستور

د. علي أدهم

د. إبراهيم الأبيساري

د. أحمد رياض تركي

د. تركي نجيب محمود

د. إبراهيم تركي خورشيد

الفردوس المفقود يكون ملتون

بقلم
الدكتور نظمي لوقا

١ - حياته

وصاياهم واتفاقاتهم .. وكان في بعض الأحيان يخرج موكله من ضائقاتهم المالية باقراضهم المال بفائدة معقولة .

وفي يوم قارض البرد صرصر الريح يتداول سماء هزيم الرعد ووميض البرق . في التاسع من شهر ديسمبر سنة ١٦٠٨ وجد جون ملتون - رب ذلك البيت ومحرر العقود ووكيل الأعمال القضائية ومفرج الكروب بالربا المعقول - ان من العسير عليه مواصلة عمله المعتاد ، وهو المكتب الدءوب ، فقلبه كان يرقص طربا حتى ليكاد يكفه عن التعبير والتحرير ليتطلق بالشدو الذي يسقط الهيبة ويذل الوقار . . . فمنذ ساعات قلائل - في الساعة السادسة والربع من صباح ذلك اليوم على وجه الدقة - صار أبا لفلان صغير جميل . . وقال جون ملتون لنفسه « ليكون هذا الفلام جونا آخر .. سميا لى » . وهكذا أطلق على الوليد اسم جون ملتون عندما تم تعميده في الكنيسة القريبة من الدار ، وهي كنيسة «أول هالوز» .

ومثلما منح كاتب الاشغال القضائية ابنه جون

منذ ثلاثة قرون ونصف لم تكن البيوت في مدينة لندن العظيمة تحمل أرقاما ، بل كان الناس يميزون بعضها عن بعض بتمثال صغير أو شكل منحوت أو صورة زاهية الألوان ترمز الى مهنة قاطن البيت أو الحرفة التي يمارسها فيه . فقد كانت العادة المرعية حينئذ ان يتخذ الناس مساكنهم وحجرات معيشتهم البيئية الخاصة في الطبقات العليا من المنازل ، فوق حوائطهم ومتاجرهم ومكاتبهم التي تمثل الطبقة الأرضية من المبنى . وكانت لندن محدودة الحجم حيث قلب المدينة الآن . اما ما يعرف اليوم بضواحي لندن السكنية فلم تكن في ذلك الحين الا ريفا مترانيا بالحقول والمراعى .

وفي بيت من بيوت لندن ، وفي شارع برود (أى شارع الخبز) كان المارة يرون على الواجهة نبرا مبسوط الجناحين ، وهو شعار أسرة قاطنه الذي يحترف كتابة العقود الرسمية والوثائق القضائية . فهو وكيل أعمال قانونية يحضر للناس

اسمه منحه أيضا - أو منحتة الطبيعية وأفانين الوراثة الغامضة - جانبا لا يستهان به من طبعه. فجون ملتون الكبير - والد الشاعر - سمح لنفسه أن يخالف أباه في بعض مسائل العقيدة ، حتى لقد تعرض في هذا السبيل لسخط ذلك الأب الى حد اعلان براءته منه حتى نهاية حياته ، من غير أن يلين أى منهما عن موقفه العنيد ، مما يدل على الصلابة واستقلال الرأي في هذه الأرومة. واستقلال الرأي ، والحفاظ الشديد على هذا الاستقلال والاعتداد به سمات بارزة غاية البروز في شاعرنا جون ملتون ، ولاشك في انها موروثه عن ذلك الوالد .

وكان جون الأكبر - والد الشاعر - قد أثرى وجمع مالا يعتد بقدره في زمنه . وكان يتحرى في سلوكه أوامر ضميره ونواهيهِ ، ويصدر عن وجدان مؤمن بما يصنع ، ويستمد من علمه ومعرفته وقودا صالحا لطاقته ، فجعل يكدح في عمله بأمانة واجتهاد منذ بكرة الصباح الى ساعة متأخرة ، لا يأخذ في عمل حتى يتمه على أكمل وجه . فلما أنعم الله عليه بولادة ابنه وجد من حقه وسط نصيب العمل الشاق أن يضع القلم من يده قليلا ويخلد الى التفكير محملا في النار يطالع فيها صورا من صنع الأحلام ، عسى أن يرى فيها وليده وسميه وقد بلغ مبلغ الرجال ولعله حري أن يقتفى خطوات أبيه وكيل أشغال قضائية ومقرض تقود بالربا المعقول ، وقورا مبجلا بين رجال الأعمال وأرباب الحرف والمهن . أو لعل موهبة أبيه المحدودة في نظم الهازيج والمقطعات الشعرية تنمو لديه فتصبح ملكة مزدهرة تؤتى أكلها من أطياب القريض . ولكننا لا نخال تصورات أبيه وأحلامه في ذلك اليوم بالغة ما بلغت من الجموح والاسراف يمكن

أن نصل الى بعض ما كتب لهذا الوليد من مكانة رافعة في عالم الشعر على اطلاقه ، وفي آداب العالم أجمع على اختلاف اللغات وتباين العصور . ومهما يكن من شيء فقد قرر ذلك الوالد أن يقدم في شأن ابنه على أمرين : أولهما أن يتيح لابنه جون تعليما متينا وأن ينشئه على تعاليم المتطهرين (البيوريتان) وهي العقيدة البروتستانتية الخاصة التي آثرها وكيل الاشغال القضائية بالانتماء اليها .

وفي السن المناسبة - وهي سن مبكرة - ارسل جون ملتون الى مدرسة القديس بولس التي انشأها الدكتور جون كوليت في سنة ١٥٠٩ وصار يشرف عليها في ذلك العهد الكسندر جيل وله شهرة واسعة بين ابناء جيله ، ذلك انه من احسن نظار المدارس ومن أكثرهم استخداما للعصا وسيلة للتهذيب والتعليم . وكان الفتى الصغير جون لا يكاد ينتهي من تلقى علومه سحابة النهار في تلك المدرسة حتى يجد بانتظاره في البيت مؤدبا خاصا يلقيه مزيدا من الدروس والمعلومات .

ويخبرنا الشاعر العظيم فيما تركه من أقوال وكتابات « اننى كنت منذ سنواتى الأولى بفضل غناية ابي وهمته التي لا تعرف التوقف أو الإبطاء (جزاء الله عليها خير الجزاء) دائم الاطلاع على اللغات وبعض العلوم التي تسمح بها سنى ، وذلك كله على يد أساتذة ومؤدبين عديدين سواء في البيت أو في مقاعد الدرس في المدارس » ثم يقول في موضع آخر :

« لقد وجهنى أبى منذ حداثة صباى الباكرا الى دراسة الآداب الانسانية التي كنت استوعبها بلهفة عظيمة ، حتى لقد كنت منذ بلغت الثانية عشرة لأترك دروسى لأوى الى فراشى قبل ان تصاف

القصائد والمسرحيات الشعرية ، وأشهرها « كوموس » وهي تمثيلية من نوع مسرح الأقنعة - وهو نوع كان مرغوباً جداً في تلك الأيام - كتبها لصديقه هنري لاوس الذي كان يعتبر أبرز المؤلفين الموسيقيين والملحنين بانجلترا في زمنه ، وقد تولى وضع الموسيقى لكلمات تلك القطعة الأدبية .

وقد بلغ من حب وكيل الأشغال القضائية المتقاعد بعد أن أثنى أنه منح ابنه البكر « مبلغا » كافيا من المال في سنة ١٦٣٨ (أى عندما بلغ الثلاثين من عمره) ليقوم بجولة سياحية في أرجاء القارة الأوروبية ، بالإضافة الى اجر وثقات خادم في سن الرحلة صحبه في هذه الجولة الطويلة الباهظة التكاليف ليقوم بشئونه . وليس عجيبا على الإطلاق أن تصبو نفس شاعرنا الى الطواف بالأمم ولا سيما إيطاليا ذات الشمس الدافئة ، فهو قد عل ونهل من اللغات القديمة ولا سيما اللاتينية جرعات كبيرة على حد تعبيره ، وكان أدب داتى وبترارك وغيرهما من فحول أدباء الطليان زاد مائدة حافلة أصاب منها كل جنى وشهى ومستطاب . وفي إيطاليا على الخصوص أطال المكث والتلبث مستأنيا متأملا . وعد مدائنها القديمة المعمورة بآيات الفن واعلام الفكر وكنوز الثقافة القديمة والحديثة حطت وراحله ولا سيما في رحاب جنوه ولجهورن وبيزا وفلورنسا وروما والبندقية وميلانو . وفي « أرشترى » قرب فلورنسا حظى بالتحدث الى فلكيها المشهور « جاليليو » الذى كان يعيش هناك يومئذ رهين محبس من عزلة الشيخوخة وآفة العشى مستكينا الى الهدوء بعد طول نضال مع اعداء حرية العقل وحرية التجربة العلمية . وباله من موقف من مقارنات القدر ، أن يقف جون ملتون الشاب الناضر الجمال والوسامة الجميل العينين خائما أسيفا على

الليل . وكان ذلك في الواقع أول سبب من أسباب ايذاء حاسة البصر ، فبدأت تتآبى فوق متاعب ضعف عيني الطبيعى آلام الصداق المتلاحقة .

وفي سن الخامسة عشرة نظم ملتون ترنيمة استقى مادتها من المزمور ١٣٦ أصبح ترتيلها شائعا حتى اليوم في كنائس المتطهرين خاصة والبروتستانت الانجليز بصفة عامة . وفي سن السادسة عشرة دخل جون ملتون كلية المسيح في جامعة كمبريدج وهناك أطلق عليه زملاؤه من طلاب الجامعة لقب « سيدة كلية المسيح » لما اشتهر به من رقة البشرة وطول الشعر الضارب بلونه الى حمرة النحاس ، وهو ذلك اللون الذى يسميه العرب « اللون الأصحر » . وفي كلية المسيح ظل جون ملتون يعمل بدأب على مدى سبع سنين .

وبعد أن حصل الطالب النابغ على درجة البكالوريوس ودرجة الاستاذية (الماجستير) في الآداب غادر جامعة كمبريدج ورحل الى قرية هورتون في اقليم بكنجها مشاير ، وهي القرية التى كان والده قد اعتزل عمله وتقاعد فيها . وكان رأى جون ملتون قد استقر بعد تخرجه على أن يفرغ للشعر .

والواقع انه كان قبل مغادرته ، كمبريدج قد كتب قصيدته الجميلة التى عنوانها : « صبيحة يوم ميلاد المسيح » وقد كتب في ذلك العين الى صديق له ردا على رسالة قائلا : أراك تكثر من السؤال عما اشغل به نفسى ، وعما أفكر فيه ؟ وانى بعون الله تعالى مشغول الفكر بالخلود . واغفر لى هذه الكلمة ، فان هى الا هسة ألقى بها فى مسامعك .

أجل أعلم انى أهيب جناحى للتخليق ! واستهواه هدوء حياة الريف ، فجعل من نفسه وفكره مستقرا لجميع الصور الجميلة والأصوات العذبة والأنغام الشجية .. وانصرف الى كتابة

بنظم قصيدته المشهورة « ادوليس » فى رثاء جون كيتس ، كما اقتنى أثره لورد تينسون فى قصيدته « الذكرى » تمجيذا لذكرى « آرثر هالام ».

وكان والد ملتون قد نقل مقره الى «ريدنج» وعاش الشاعر بعد عودته فترة من الزمن بالقرب من كنيسة « سانت برايد » وعن كتب من شارع « فليت » - الذى أضجى اليوم شارع الصحافة فى لندن - وقضى بعض وقته فى تعليم ابنى أخته التى تزلت . ومن هنا انتقل الى بيت فى «الدرجيت ستريت» له حديقة وفيه عدد كبير من الحجرات ومتسع لكتبه الحبيبة اليه ويتوفر له جوار ساكن هادى . والى هذا البيت أتى بزواجه الأولى « ماري باول » وهى بنية فى السابعة عشرة . ووالدها رتشارد باول من المملكين المتعصبين !

وبدأ ملتون حربه بالكتيبات فى سنة ١٦٤١ ولم يهتمها الا فى سنة ١٦٦٠ ، ولم يكن له من موضوع فيها جميعها الا الحرية على اختلاف أنواعها . فدافع عن الحرية الدينية ، وعن حرية التعليم ، وعن الحرية المدنية ، وعن الحرية المنزلية وعن حرية الصحافة والنشر عموما . وقد طبع جانب من هذه الكتيبات والنشرات غفلا من اسم مؤلفها . ولعل أشهر هذه الكتيبات الخمسة والعشرين «خطبة للمسترجون ملتون فى الدفاع عن حرية الطبعة بدون ترخيص ، مقدمة الى برلمان انجلترا» . وهذا هو العنوان الفرعى للكتيب ، أما العنوان الأصلى فهو « أوروباجيتيكا » نسبة الى « أوروباجوس » المحكمة العليا التى كانت تعقد بأثينا قديما فى الهواء الطلق وكانت أحكامها نهائية لا تقبل النقض وسبب هذه النشرة أو الخطبة المطبوعة أن قرارا

شيخوخة العالم المصاب فى بصره وهو الفلكى الذى صحح للناس معطيات أبصارهم وقوم لهم خداعها فى أمر دوران الشمس حول الأرض كما كانوا يزعمون ... وهو لا يدري أن الغد يدخر له مثل هذه الضربة فى ظهر الغيب بأخرة من عمره بعد نضال شبيه بذلك النضال فى حومة السياسة والفكر .

وفى ما هو بمدينة نابولى وصلته الأنباء من وطنه انجلترا أن استبداد حكومة الملك شارل الأول يجبر البلاد الى الثورة العلنية ، وهو يقول لنا بلسانه : « ان الانباء الأسيئة عن وشك نشوب الحرب الأهلية فى انجلترا دعتنى للعودة الى بلادى ، لأننى وجدت من الحقارة أن أطوف بأفاق الدنيا خارج الحدود ووراء البحار طلبا للمتعة الذهنية والثقافة فى حين يقاتل أبناء وطنى ويسفكون دمه فى المعارك على أرض بلادى دفاعا عن الحرية والتماسا لأسبابها ! »

واننا لنجد فى هذه العبارة الموجزة وجها جديدا لجون ملتون الذى كان حتى ذلك الحين عاشق فن وادب ورجل خيال ، فاذا به يتكشف عن رجل عمل ونضال ، ولم يلبث أن شد رحاله عائدا الى انجلترا .. ولكن مامن شئ ينم على أنه فكر لحظة واحدة فى امتشاق حسامه فى صفوف كرومويل وجيش البرلمان ضد الملك والملكية ، فالقلم دائما كان سلاحه . وعندما سنحت له الفرصة انبرى بذلك السلاح المضرب فى يده فكان أفعل من السنان عند احتدام الطعان .

وفى طريق عودته الى انجلترا نظم ملتون قصيدته فى تمجيد ذكرى صديقه « تشالز ديوداتى » الذى وافته النية أثناء رحلة ملتون فى بلاد القارة الأوروبية . وقد اقتنى شيللى أثر ملتون

وكانت الصفحة الأولى من المجلد عبارة عن صورة للمؤلف الشاعر وهو فى سن الحادية والعشرين . وبعد ذلك بأربع سنين انضم جون ملتون صراحة الى صفوف من اصعدوا أمرهم بقطع رأس الملك باصدار كتابه « ايكونوكلاستس » فى الرد على أنصار شارل الأول ، وكتابه « حقيقة الأمر فى حقوق الملوك والحكام » . وقد بلغ من شدة الاقبال على طلب الكتاب الأول انه طبع خمس عشرة طبعة فى غضون اثنى عشر شهرا ، وامسى من أشهر الكتب فى العالم يومئذ .

وفى سنة ١٦٤٩ عين مؤلف هذه الكتب والنشرات السياسية النزائية سكرتيرا لاتينيا لمجلس الشئون الخارجية ، وكانت اللغة اللاتينية هى اللغة الدولية الدبلوماسية كالفرنسية والانجليزية فى أيامنا هذه . فكان هو الذى يتولى ترجمة الوثائق والمذكرات الدبلوماسية من الانجليزية الى اللاتينية ومن اللاتينية الى الانجليزية .

وكان ملتون فى هذه السنين قد تنقل فى مساكن شتى الى أن استقر فى شارع الدوق بوستمنستر ، وهناك كتب رسالة سياسية عنوانها « دفاع عن الشعب الانجليزى » فى سنة ١٦٥٠ ، وهو رد عنيف ساحق على كتيب من تأليف عالم فرنسى مرموق اسمه « سلاما سيوس » دفاعا عن سياسة الملك شارل الأول بطلب من الأمير الذى أضحي فيما بعد ملكا على انجلترا باسم شارل الثانى . وقد كتب ملتون دفاعه بتكليف رسمى من «مجلس الدولة» وهو مايقابل مجلس الرئاسة أو مجلس الوزراء . والحق أن لغة « الدفاع » كانت عنيفة حافلة بالمطاعن الشخصية والسباب ، بيد أن حقوق الشعوب عموما لم تظهر بأجلى من هذا البيان وأقوى من هذه الحجج .

صدر من البرلمان فى سنة ١٦٤٤ يحرم على أى شخص أن ينشر كتابا أو كتيباً أو نشرة أو صحيفة مالم يكن قد صدر له بنشرها ترخيص سابق . وفى دفاع ملتون الحار القوى عن حرية الطبع والنشر والفكر يقول بحق : « ما أكثر من يمشون من البشر عالة وعبثا وكلا على الأرض . أما الكتاب الجيد فعصارة دماء الحياة التى تجرى فى فكره وروح نابغ ، وقد حنطت هذه العصارة واختزنت ذخرا للناس ، ولكى تكون لهم بها حياة تتجاوز آفاق الحياة » . وقد صدر هذا الكتيب بدون ترخيص ، ولم يسجل رسميا فى ديوان المطبوعات ولم يحمل اسم طابعه أو ناشره ، بل اسم مؤلفه الذى تصدى لحمل المسؤولية مفردا .. وقد نشر كتيبه عن حرية الترية والتعليم فى سنة ١٦٤٤ أيضا .

ولم يكن جون ملتون راضيا عن أعماله الشعرية هذه كل الرضا ، بل كان يقول فى التعليق على ذلك : « انى لا أستخدم بكتابتها سوى يدي اليسرى ! » أما يده اليمنى فللشعر دون مساواة ، ميدانه الأثير الذى لا يعدل به شيئا . ولم تكن يمناه مشلولة ولا معطوبة متوفة فى تلك الفترة الشعرية من حياته حاشا . بل هى كالقرد الصقيل المنخور فى قرابه الى حين . وكانت يمناه التى تملك ناصية القريض تستجم الى يوم موعود تتألق فيه آياتها كالنجوم الدرارى .

وفى سنة ١٦٤٥ - وهى السنة التى منى فيها الملك شارل الأول بهزيمته الساحقة فى « نيزبى » صدر مجلد عنوانه : « اشعار من نظم مستر جون ملتون بالانجليزية واللاتينية تم نظمها فى أوقات شتى » . وطبعت فى هذه المجموعة أعمال شبابه الشعرية ومنها « الليجرو » و « بنسيروزو »

عيم - وأنا موزع الأوقات بين الاستجمام والدرس، وأصوات التحيات المنبعثة من الأصدقاء من حولي . ولئن كان قد كتب أنه « ليس بالخيز وحده يحيا الانسان ، بل بكل كلمة تخرج من فم الرب » فما الذى يمننى من الاطمئنان كذلك الى أن بصر الانسان ليس فى باصريه فقط ، بل فى هداية الله وعنايته ، وان فى هذين الكفاية والثناء له عن عينيه ؟ الحق أقول انه مادام الرب ينظر لى ويتعهدنى كما يتعهدنى الآن بالهداية والارشاد ، ويقودنى بيده العلية قدما على امتداد العمر ، فالى عن طيب خاطر - مادامت هذه مشيئته - انزل عن مقلى وامنحهما عطلتهما الكبرى ..

وبصبر عظيم ظل ملتون يكدح وينصب رغم الآفة القاسية واضطراب حياته البيتية : فقد كان زواجه الأول عاثر الجد ، ولم تفهمه بنت السابعة عشرة التى بنى بها وهو فوق الثلاثين ، ولكنه فى سنة ١٦٥٦ - أى بعد عماء بأربع سنين - تزوج امرأة يصفها بأنها قديسة ، وبعد خمسة عشر شهرا قصيرة من السعادة والهناء تزعتها الأقدار منه وتركته وحيدا محزوناً حقا . ومع أن له ثلاث بنات من زوجته الأولى كن يقدمن له العون ما استطعن الا انهن عجوزن عن فهم مزاج والدهن الخاص ، ويبدو أنهن كن كوالدهن عاميات الذوق والعقل، فكن له نعمة تخالطها النعمة والتفويض .

وفى سنة ١٦٥٨ مات بطل ملتون القومى .. مات اوليفر كرومويل . وكان قد شرع فى هذه السنة عينا ينظم ملحمة الكبرى : « الفردوس المفقود » بيد أن ملتون ظل محتفظا بمنصب « السكرتير اللاتينى للشئون الخارجية » الى أن صار فى حكم المقرر نهائيا عودة الملكية .

ولا مراء فى أن انكبابه الشديد على أداء واجبه الرسمى والوطنى فى معركة الحرية الدينية والسياسية والفكرية قد عجل باتهاء ضعف بصره الى فقدان هذه الحاسة كل فقدان . ونراه يسجل ذلك فى دفاعه الثانى عن الشعب الانجليزى قائلا: « لقد خيرت بين نهوضى بواجب أسى وبين فقدان حاسة البصر . ووجدتني عاجزا عن الاصاخة لنصح الطبيب ، وحتى ولو كان النصح موجها من لدن ايسكولا ييوس « أبى الطب » متحدثا الى من قدس أقدابه ! فليس يسعنى الا أن أصدع بأمر وجدانى الداخلى الذى تحدث الى بما تدعونى اليه السماء . فقررت أن استخدم القليل الذى بقى لى من بصرى فى تأدية أعظم خدمة فى مقدورى تأديتها لأمتى . وفى منتصف سنة ١٦٥٢ - وقد بلغ شاعرنا الرابعة والأربعين من عمره - أصيب بالعمى التام، ومنذ ذلك التاريخ لم يعد فى مقدوره أن يعمل الا بمعونة سواه . وقد ظل مع هذا يقوم بواجباته الرسمية . ومن حسن حظ دارسى ترجمة حياته أن هناك خطابا بديعا كان قد ارسله الى صديقه ليونارد فيلاراس الذى كان قد وعده بالتوجه الى « تيفينو » طبيب الميون الفرنسى الكبير بالاستفسار عن مدى امكان شفاء الشاعر من عاهته . وفى هذا الخطاب لانبج ملتون تأثرا ساخطا يلعب الأقدار التى رمت به هذه الآفة القاسية ، بل تلقىه مذعنا فى هدوء وفكاهة حسنة لذلك الظلام الأبدى فى ايمان وجلد :

« أيا كان أمر شعاع الأمل الذى قد يكون مدخرا لى عند طبيبك الشهير ، فالى قد وطنت نفسى على أن حالتى لا شفاء منها وتأهبت للحياة على هذا الأساس .. وقد وجدت الظلام الذى يكتنفنى أيسر على نفسى محملا - بكرم من الله وفضل

فلما كان الخريف التالى شرع فى صمت ينظم
ملحمته الثانية « الفردوس المستعاد » وفيها يتحدث
عن انتصار المسيح على الغواية .

ولم ينشر « الفردوس المفقود » الا فى سنة
١٦٦٧ ، ولم يدر عليه هذا المجلد من الشعر الثمين
الفخم الا اقل القليل : لا أكثر من ستين جنيتها اوفى
سنة ١٦٧١ نشر « الفردوس المستعاد » و« شمشون
الجبار » فى مجلد واحد ، وكان ملتون قد عاد الى
الاقامة بلندن المعتمنة الكثيرة الضباب بعد انتهاء
الوباء وبعد حريقها الكبير فى سنة ١٦٦٦ ، وظل
مقيما بها الى أن وافته منيته فى اليوم الثامن
من شهر نوفمبر سنة ١٦٧٤ عن سبع وستين سنة
تقريبا .

وقد ظل جون ملتون حتى نهاية حياته ينهض
من فراشه فى الساعة الرابعة صباحا فى فصل
الصيف ، وفى الساعة الخامسة صباحا فى وقت
الشتاء .. ويأوى الى الفراش بانتظام فى الساعة
التاسعة ، ويبدأ يومه بالاستماع الى فصل من
الكتاب المقدس يتلى عليه ، ويختتمه بتدخين غليونه
منفردا بنفسه . وفيما بين هذين الوقتين يفكر ويصمم
أعماله ويبلها ويراجعها وينقحها فى فترات متقطعة
صدر النهار ، وفى المساء يسر مع صديقه الودود
أو « أندرو مارفل » الذى كان يعاونه فى عمله
عندما كان « السكرتير اللاتينى للشئون الخارجية »
وكثيرا ما كان يلتبس الترفيه والتسرية بالاصغاء
لأنغام الأرغن أو الباص ، لأن استجابته للموسيقى
كانت عظيمة جدا .

وكانت نظراته الى الحياة دقيقة مرهفة صارمة
كالنغم الموسيقى المضبوط . كان شعاره أن « من
يسيطر على نفسه ويتحكم فى انفعالاته وشهواته
ومخاوفه أحظى من أى ملك على الأرض وأقوى

وقد قبض على ذلك المناضل السياسى الخطير
بقلمه ولسانه ، ولكن يبدو أن الحقد الملكى عليه
لم يكن بعيد الجذور فسرعان ما صدر العفو عنه ،
واقتل ملتون الى شارع « جون » وهناك تزوج
للمرة الثالثة . وتنقل بعدها فى بيتين ، ولما حل
« الطاعون الكبير » فى سنة ١٦٦٥ واجتاح
مدينة لندن هجرها نين من ولوا الادبار من المدينة
المنكوبة ، وأقام فى كوخ بمقاطعة بكنجهام بقرية
« تشالفونت سانت جايلز » (وقد اشترته الأمة
تخليدا لآثاره فى سنة ١٨٨٧) وكانت تسمى فى
ذلك الحين « جايلز تشالفونت » . وقد اختاره
وأعده لاقامته صديق شاب أديب من جماعة
المهترئين (الكويكر) اسمه « توماس الودود » .
وفى ذلك الكوخ ، وفى حجرة صغيرة منخفضة
السقف تضرها أشعة الشمس التى لا يستطيع أن
يرأها أتم جون ملتون اللسعات الأخيرة فى
« الفردوس المفقود » تلك التحفة الغذة التى تعتبر
من أعظم آيات التصوير اللفظى ، نظمها بالشعر
المرسل حول سقوط آدم وحواء وحرمانهما من
نعمة الرب وما ترتب على ذلك من نتائج فقدانها
الجنة .

وكان الصديق توماس الودود يتردد على الشاعر
لقرب مسكنيهما فى الريف ويطلب له فى أعمال
هومر باللغة الاغريقية ، ويسجل التعليقات التى
يتفوه بها ملتون . وذات يوم طلب اليه الشاعر
أن تصنع مخطوط « الفردوس المفقود » ليبدى
الرأى فيه ، وعندما أعادها الشاب اليه وهومفتون
بما قرأ قال له : « انك ياسيدى قلت الكثير عن
الفردوس المفقود ، فماذا عماك قائلا عن الفردوس
المستعاد ؟ » . ولم يرد الشاعر عليه بغير الصمت ،
وتجاهل سؤاله .

سلطانا » وقل بين البشر من كانت حياته صورة مطابقة لفلسفته ومبدئه كجون ملتون في تعلقه بالجمال وشدته على نفسه وسيطرته على زمامها وتجلده الأدبي لطوارق الحدثان التي كأنما احنقها تحديه وجبرته فتعمدته بالامتحان العسير ، فكان لها الكفاء الكريم والقرن الفحل الذي لا يجده له أنف !

٢ - أدبه

ولئن كان جون ملتون الشاعر الوحيد الذي آمن بالتطهر (البيوريتانية) إيماناً حقيقياً وعملياً ، فقد كان في الوقت عينه ذا شخصية قوية جداً بحيث لا يجوز أن نعتبره في المقام الأول مثلاً لتلك العقيدة ، وإنما هو يمثل نفسه وطبيعته الخاصة الفذة قبل كل شيء . فجون ملتون أعظم من جيله كله بحيث لا يمكن ادماجه فيه ولا في أى وجهة محددة من أوجه نشاطه ، فهو شخصية فذة قائمة بذاتها لا تنضوى تحت أى شعار أو عنوان أو مقولة في عصره كله ، وتأثره ودينه لأسلافه جد قليل في نهاية كل حساب ، حتى إزاء من أعلن صراحة اعترافه بفضلهم عليه ، وهم على الأخص سبنسر وجونسون وشيكسبير .. ثم إن له ميدانه الأوحده على اختلاف افانين أدبه ، ألا وهو ميدان المشكلة الخلقية كما تترأى لعقله ووجدانه . وليس كذلك شكسبير بتعدد آفائه الذي يكاد لا يحيط به الحصر . وانه لمرهف الأذن للايقاع الموسيقي المناسب في وقار وجلال ، وليس كذلك شعر جونسون بخشوته الثرية وموسيقاه الوعرة ..

لقد كان ملتون يكتب لروح واحدة يعنيه أمرها وخلصها ، تلك الروح روحه شخصياً . فكان أول شاعر ينشئ عملاً فنياً روحياً يجمع بين كمال

الفن القديم وحرارة الانفعال أو الوجدان الخلقى الصميم الحميم على نحو ما يترأى في الكتاب المقدس بهديه الجديد والقديم . ففي قلبه الكبير نشب الصراع محتدماً بين عبادة الطبيعة كما عاشها الوثني وبين التدين الروحي كما عرفته المسيحية المتطسطة . ومن امتزاج هذين النغمين العميقين قدم لنا ملتون معزوفاته اللفظية الرائعة . وقد تفاوت نسب هذا الامتزاج الثنائي على حسب سنوات عمر ملتون ومراحل حياته الفنية ، إلا أن الامتزاج موجود دائماً . وما من شاعر سواه في الأدب الانجليزي كان عميق التدين الى هذا الحد الكبير وعظيم الحظ من روح الفنان في آن واحد .

ولعل أهم أعمال شبابه قصيدته عن صبيحة ميلاد السيد المسيح ، وهي من أعذب الشعر وأغناه بالموسيقى ، ثم أوبراه على طريقة الأفعنة المسماة « كوموس » وموضوعها أخلاقى في المقام الأول وكل مقومات العمل الدرامى فيها مجمدة أو مكبوتة بحيث تظل الشخصيات عبارة عن فضائل مجردة وأصوات ناطقة بوجهات النظر وليس لها كيان من لحم ودم... وكل ما فيها من الشعر لا يخاطب إلا الأذن والذهن ، ولا يكاد يحرك المشاعر فيما عدا ذلك المشهد الذي تدخل فيه الفتاة الغابة وتنادى أخوتها في أغنيتهما الموجهة الى « الصدى العذب » .. ولكن القارئ لذلك الشعر المترف الذهني لا يتمالك نفسه من الاعجاب الشديد بتلك الترتيبة المتعددة الأصوات والمتغنية بالفضيلة فى أرقى نظم موسيقى النبرات . فهو شعر للقراءة لا للاستماع فى ملاعب التمثيل لفقر المبنى الدرامى أولاً وعدم اتصال الشعر بالقلب مباشرة ، وإنما هو مترزه ومراض للعقل يرجع فيه النظر ويتملاه مستأنياً ومستمتعا بجمال الأسلوب الشفوف كالبلور ، تلك الشفافية

التي يدرك النظر المتأمل انها جاءت نتيجة مراجعات وتشذيب وتصفية متكررة لم تبسق بعدها الا الخلاصة النقية من كل شائبة وكأنها موسيقى خالصة في مقاطعها الرنانة ، سواء في ذلك المواضع المرسلة والمقفاة .

ولم يكن قد انقضى على ظهور مسرحية « العاصفة » لوليم شكسبير أكثر من عشرين سنة عندما ظهرت في الوجود أوبرا الاقنعة « كوموس » لجون ملتون ، ولكن الفارق المعنوي يبدو هائلا بالنسبة لهذه الفترة الوجيزة اذا نحن قارنا شخصية « أريل » الشيكسبيرية بشخصية « الروح الحارس » الملتونية ، فذلك الجنى الذي كان يتدمر تحت نير الانسان قد أدخل مكانه لملاك ذي رسالة خلقية يدرك غايته ولا يمكن أن يجيد به شيء دون تمامها . وكلا الروحين يجادر العالم بعد الفراغ من مهمته بيد أن الملاك الملتوني يصعد الى السماء وسط رؤى ميثولوجية ذات مغزى خلقى وعلى لسانه كلماته الأخيرة عن جمال العفة ، في حين ينطلق الروح الشيكسبيرى لاثدا بالفرار كأنه الفراشة الهائمة ...

وثمة عبرة أخرى. فخرج بها من هذه المقارنة بين الشاعرين العملاقين في هذين العملين وغيرهما من الأعمال أيضا . ففي حين يندمج شيكسبير في مخلوقاته الفنية فلا نراه ، نجد ملتون في حقيقة الأمر الكائن الوحيد الحي بمعنى الكلمة في جميع أعماله الفنية . فبطلته في كوموس هي ملتون بعينه ، وعلى لسانها ينطق ملتون بكل كلمة من كلمات القصيدة وترجم عن تجاربه النفسية من خلال تجاربها ، ويمر عن فتنة الحواس وغوايتها التي عرفها وامتنح بمقاومتها في شبابه .. والمستوى الخلقى في « كوموس » هو مستوى أخلاق ملتون

بغير زيادة ولا نقصان . مستوى رفيع متعال متوحد .. والفضيلة في هذا المستوى متباعدة عن بنى البشر متساوية فوقهم - فضيلة واثقة بذاتها معتدة براسها تتجاهل سواد الناس وجماهيرهم المتردية في الخطايا فلدى ملتون الشاعر مؤلف « كوموس » لا يكون الصفوة المختارة الا قلة قليلة ، كما كان الشأن عند أتباع « كلفين » فالملاك الحارس لا يحرس ولا يراهم بعنايته في هذه المسرحية الشعرية الا أتقياء القلوب دون الاشرار وأنصاف الصالحين وما من شك أن معظم من شهدوا هذه المسرحية قد شعروا - ان هم أحسنوا الفهم - أنهم مستبعدون من زمرة الأخيار الأصفاء !.

وملتون في هذه الفترة من شبابه ، حتى الثلاثين أو بعيدها قليلا ، كان لم يزل سليل عصر النهضة وسماته ظاهرة في أعماله ، واضحة في شغفه بالجمال وتحريره إياه في خشوع الوثنى القديم ..

وقد اندمج بعد ذلك في معترك السياسة بكثير من النشر ، ولم يكتب في تلك المدة الا القليل من المقطعات الشعرية ، الى أن انتهت المرحلة النزالية السياسية بعودة الملكية وصار رهين مجبىه : محبس العزلة عن السلطان في عهد مناوى لمبادئه ومحبس العمى .

وفي هذه الهدأة المتفرغة للفن والثقافة كتب ملتون أعماله الثلاثة الكبرى . ثمرات فترة نضجه الرائع ، وهى الفردوس المفقود (وقد نشر سنة ١٦٦٧) والفردوس المستعاد وشمشون الجبار « وقد نشر معا في سنة ١٦٧١ » فاذا بملتون آخر ، له وجه جديد غير معهود من قبل يتبدى للناس ، ويتربع على القمة بين الخالدين !

يتقبل التاريخ المروى في التوراة تقبل التسليم بصحته وقداسته . بيد أنه يعيد روايته باعتباره مثلاً لثقافة عصره ومعرفة أحوال زمنه وبأسلوب درامى . وكان من نتيجة ذلك أنه قام بعملية « اسقاط » لذاته ومشاعره ومعلوماته وتطلعاته وثقافته على الشخصيات التى صورها وأبرزها فى ملحمة ، سواء فى ذلك المخلوقات الآدمية البدائية والكائنات فوق البشرية ، السماوى منها وغير السماوى .

وكانت النتيجة العجيبة قيام صراع متصل بين إيمانه وطبيعته مما أدى بالقصيدة الى الانحراف عن هدفها والى توزيع التعاطف بين أشخاصها رغم ارادة الشاعر ونيته الأصلية .

والمعزى الاخلاقى الذى يستخلص من سفر التكوين فى التوراة وجوب الازعان لمشينة الخالق سبحانه ، وان عصيانه خطيئة . ولكن ملتون الذى نظم « الفردوس المفقود » ليؤكد هذا المعزى كان مستقل التفكير والسلوك . بل لقد مضى الى أكثر من ذلك فى تأييد موقف الاستقلال الفردى فنادى بالتمرد على سيطرة الكهنة ، بل وسيطرة الملك نفسه ، وأطرى بحرارة الحكم بإعدام الملك ومجد قاتليه . ومعنى هذا انه دون ارادته كان يمكنون نفسه متعاطفا مع الشيطان فى ملحمة ، فالشيطان هو المتمرد الأعظم على السلطة العليا وعدو الرحمن المبين . وبتقوى تكاد تكون آلية تغنى ملتون من شفتيه بمحامد الطاعة والاذعان ولكنه بسويده فؤاده تغنى بأمجاد الحرية وعظمة التمرد على القيد والاصرار على الاستقلال فى الرأى والعمل ! وبذلك كان حتما لامناص منه أن يضع ملتون - وهو لا يدري - أعظم وأعمق جوانب ذاته فى شخصية الشيطان بأنفته وكبريائه ووعورة مزاجه .

كانت محيته الخاصة - فى زواجه ثم عماء - ومحنته العامة فى قضية بلاده وأمته والدفاع عن حريتها ضد الطغيان والتعصب ، ومشاركته فى عمليات التطهر والتنطس ونشر الدعوة اليهما .. كل ذلك جعل مزاجه العقلى يتجه الى الجدل وينطوى دائما على افتراض الصراع والتقابل الثنائى بين الشئ وضده ، وصار بطبعه النزالى المتجهيم يتنكر للعدوبة التى سادت أشعاره فى صباه ، ويرى فى اطراد القافية زينة ينبوعنها طبعه ، وصار ينحو الى موسيقى أشد خشونة وأخفى اتساقا تعتمد كل الاعتماد على الايقاع ، ولذا لم يكتب فى سنوات نضجه شيئا غير الشعر المرسل ، وطرح وراء ظهره مع شبابه المطوى الناصر ألحان الغناء والأهازيج والمقطعات والريفات والموضوعات الخفيفة . وبذلك تخلص الشاعر الأعمى من سمات عصر النهضة التى رأيناها واضحة فى أسلوب شبابه وترك موضوعات الفن الى موضوعات الدين وحدها فتغنى بالخلق وسقوط الملائكة وسقوط الانسان وغزو المسيح للجنة كى يرثها الصالحون من البشر ، وحدثنا عن تضحيات شمشون الذى مات طائعا مختارا عندما تحقق أن موته سيجرمعه موت أعداء بلاده وأمته .

ونخص بالحديث الفردوس المفقود ، وهو أهم أعمال ملتون ويبت القصيد من هذه الدراسة ..

الفردوس المفقود ثمرة تأمل طويل لهذا المتطهر (البيوريتانى) فى صفحات الكتاب المقدس وأسفاره مصورا بالشعر المرسل الفخم تلك الرؤى التى أثارها لديه هذه التأملات ، غير تارك أيما شئ يتوسط بينه وبين الكتاب المقدس ، وبذلك سمح لنفسه وأتاح لها الحرية الكاملة فى تأويله ، ولكن فى إطار الايمان الكامل بما ورد فيه . فهو

والحقيقة أن المخيلة الخلاقة - الشكسيرية
مثلا - التي تخرج المرء من ذات نفسه واطار عصره
ومكونات ثقافته ليستدع أو يتصور كائنات أخرى
غريبة عنه كل الفرايه ، لم تكن من بين مواهب
ملتون الذي كان شديد التركيز في ذاته ومشكلاته
الا أنه كان قادرا على التصور المترامي الآفاق
ولكن قياسا على ذاته لامباينا لها في الصميم .

وبهذه القدرة على التصور البعيد الآفاق
الشمولى النظرة تتميز صوره من الفردوس المفقود،
وتتمايز عن صور داتنى مثلا .. وكثيرا ما وضع
الدارسون جحيم كل منهما موضع المقارنة . فاذا
جحيم داتنى مكون من جزئيات كثيرة التفصيلات،
أما جحيم ملتون فهائل بصورته الكلية التي تطلق
الخيال ولا تقيد ، وبذلك كان أثره في النفس أهول
من جحيم داتنى مرارا كثيرة .. أما صورة خلق
العالم عند ملتون فلا تقل عن صورة جحيمه روعة
وعظمة . فقد استطاع بمخيلته القوية أن يجعل
فصوص سفر التكوين تنبض بالحياة التي تكاد
ترى بالعيان وتلمسها اليدين .

أما وصف الجنة - جنة عدن - فقد قال بعض
الناعين على ملتون انه أشبه بوصف حديقة انجليزية
مترامية من حدائق قصور الريف . وهذه المفارقة بين
براعة وصف جهنم وتخلفه عن ذلك المستوى في
وصف الجنة أن وصف الجحيم تتاج تخيل لا أصل
له من معطيات الحس المألوفة في الدنيا ومن هنا
جاء الابتكار الذي لاحدود له ولا قيود . أما وصف
الجنة فله بالضرورة أصل محسوس في الدنيا ،
والمثل الأعلى لكل بستان أو حديقة لا بد أن يكون
نابعافي تخيله عن مألوف الشخص في الواقع . ومع
هذا كله فجنة ملتون من أبدع الأوصاف الشعرية
الحية وقد غنى والحق يقال بتزيينها بكل مبتكر

لقد رأى ملتون من واجبه ، وهو المؤمن
الصادق ، أن ينظم ملحمة « الفردوس المفقود »
ليبرر طرق الرب أمام البشر ، ولكنه خرج فنيا
بنتيجة أخرى لأن هذه الغاية المنشودة لم تتجارب
مع نوازع قلبه ذات المسارب العميقة التي حفرتها
تجربة حياته النضالية والنزالية ووجدت صدى
وهوى من طبيعة التفرد لديه . واتنا لنراه في هذه
الملحمة الهائلة يحاول ذلك بالخطب البليغة والحجج
الدقيقة بعضها مستقيم وبعضها الآخر منطو
على مغالطات . ولا ترتفع هذه الجوانب من
القصيدة الى المستوى الأعلى ، فالعنصر الشخصى
الذاتى فيها قليل ، وقصاراها أنها جهد تلميذ
أحسن الأخذ عن اللاهوتيين القدامى والمحدثين .
بل لقد أثقل هذا الجانب قصيدته بالمجادلات
الفقهية عن سابق علم الله وعن كنه حرية الارادة
البشرية في اطار علم الله السابق وسالف تقديره
لأفعال الخلق . وهى مباحث ينوء بها أى عمل
فنى ولا مرء .

وأدعى للتناقض والاحساس بعدم الارتياح
أن تأتى هذه المجادلات الدقيقة على لسان كائنين
بدائين مثل آدم وحواء يتسوق المرء أن تكون
فعالهما ثمرة رغبات وأحاسيس مباشرة مهتدين
بالغريزة الغفل وبواعثها الساذجة ، فكيف ومن أين
لهما استخدام أنواع القياس بهذه البراعة الارسطية
والمدرسية (السكولاستية) وهكذا صارت الملحمة
سرحا لآراء عصر ملتون ومعسكرات الفكر
فيه على تعدد مستويات الثقافة ووجهات النظر ،
ما خرج بالجو الاسطورى عن مبناء الحقيقى -
على حد تعبير الناقد الفرنسى العظيم «تين» في حملته
على الفردوس المفقود معتمدا على هذه المفارقة
في بيان أوجه السخف فيها بشئ كثير من المبالغة.

صور به قصة حواء أم البشرية مع آدم + فحواء ملتون فاتنة نزقة كثيرة النزوات والميوعة والانحراف عاجزة عن التفكير السديد ، وفريسة سهلة جدا للمغالطات وأحاييل الغفلة ! ومن واجب الرجل أمام كل حواء ألا يتطامن لها ، بل يشعرها بسلطانه عليها ويصر على هذه المكانة بلا هوادة ، ولم يكن بلاء آدم وائمه الويلل الاثمرة تراخيه وتديله حواء .

ويتمرد ملتون على الاعتقاد السائد بتفضيل البكارة العذرية على الزواج ، فالحب الزوجي الذي يجعل من الرجل والمرأة جسدا واحدا وروحا واحدا هو المثل الأعلى للحب عنده وفي اطار هذا الحب الزوجي يرى الفضيلة الكبرى للرجل والمرأة معا وسعادتهما العظمى أيضا . وهو حب بعيد عن النقيضين على السواء : الفجور البهيمي والرهبانية أو الافلاطونية .

٣ - الفردوس المفقود

وقصة الفردوس المفقود هي قصة خلق آدم وحواء وسقوطهما كما ترويها التوراة في سفر التكوين ، وخلاصتها توشك أن تكون تكريرا معادا بلا زيادة ولا نقصان .. ولذلك فالأوفى بالغرض من هذه الدراسة أن تتبع مشاهد القصة في شذرات مختارة من ملحمة ملتون تفي بالغاية من التعريف بالمضمون ومن ايراد النماذج بنصوصها الكاشفة لخصائص الأسلوب الفني في آن واحد :

✽ تبدأ الملحمة بدعوة يوجهها الشاعر الى عرائس الففن السماوية أن ترشده وتلهمه في صدد :

« أول عصيان بدر من البشر وثمرة تلك الشجرة المحرمة التي جلب مذاقها القاتل لعنة الموت

من بهارج الزينة وأعاجيبها الآخذة بالألباب ، مما يجعل جنته من أبدع أحلام البشر المحبين للطبيعة .

وقد نقل ملتون الى هذه الجنة مأساة الضمير والوجدان ، وصور الانسان فيها حائرا مترددا بين الخير والشر معرضا للفوابة مشفيا على السقوط . وقد أمدته التوراة بعناصر هذه المأساة التي خبرها في حياته . أليست الطبيعة قد نصبت له شراكها في فتنة المرأة وأوشكت بذلك أن تدمر حياته تدميرا ؟ لقد تزوج وهو في الخامسة والثلاثين فتاة ملكية العقيدة متعصبة أشد التعصب ، ثم هجرته هذه الزوجة بعد ذلك فانبرى في غضب شديد يطالب بسن تشريع يبيح الطلاق . ولم تستطع المرأتان اللتان تزوج فيهما بعد ذلك أن تمحوا بحلاوة التوفيق والهناء مرارة نفسه وسخطه الجامح . فظل على اعتقاده أن الخطر الأكبر على روح الرجل كامن في المرأة ، وهو خطر هائل يستمد وباله وجسامته من شدة قابلية الرجل وحساسيته للحب . وبذلك أعاد النظر بما يقرب الرأي السائد في تقديس المرأة وتنزيهاها والتغنى بطهرها ورقتها وسمو مشاعرها . وكان هذا الرأي سائدا منذ المصور الوسطى ، وفي آداب الفرسان ، وبه تغنى الشعراء جميعا من قبله .. حتى لقد صوروا المرأة أنبل بطبيعتها من أن تطلق رغبات الرجل الجسدية ، فهي مخلوق ملائكي أثري لا يناسبه الا الحب الافلاطوني تجفو عن الجسد وان لم يجف الجسد عنها !..

وشتان هذا التصور السائد حينذاك وتصور ملتون ! فالمرأة عنده أقل من الرجل . مخلوق ناقص . مخلوق خطر مالم يحكم الرجل السيطرة عليها بحيث يسد منافذ شرها !

ومن وحى تجربته الأليمة وجد المداد الذي

على العالم ، وكل ما كان من ابتلائنا بفقدان جنة عدن ..

« ألا خبرينا - فالسما في علاها لا تخفى عن ناظريك شيئا ولا الجحيم في مهاويها - ما الذى حدا بجدينا الأولين وقد كانا فى رحاب النعيم ترعاها السماء بأحسن الرعاية والتكريم أن يهبطا فيسقطا من الحظوة الالهية بمخالفتها تحذيره الأوجد لهما ؟ من كان أول من أغواها ليقديها على ذلك التردد المشؤم ؟

« انه الافموان الجهنى ، فهو الذى استشار لواعج عذره زناد الحسد والانتقام فخدع أم البشرية .. وخبرنا كيف دفعت به كبرياؤه الى ما استوجب طرده من السماء ومعه كل أجناده من الملائكة المتمردين ، فصاح به صوت العلى القادر الجبار : الى مهاوى الهلاك التى ليس لها قرار الى شواطئ جهنم وسعيرها مكبلا بأغلال لافكاك منها ، جزاء وفاقا لما اجترأت عليه من تحدى ذى الجلال والانعام !

« ولكن الشيطان لا يأس ، ويجمع أجناده ويقوم فيهم ذات وقت خطيبا فى كبرياء لا تعترف بالهزيمة ، ويستنهض عزائمهم :

« ان الذى يتربع عاهلا فى السماء لم يزل حتى الآن مستقرا على عرشه مؤيدا بسمعته القديمة وبالاذعان وراسخ العادة .. ولكننا نعرف مدى بأسه ، وبأسنا أيضا معروف لنا .. ولم يزل أمامنا أن نحقق أفضل جانب من غاياتنا . وذلك الجانب الأفضل أن نعمل بخطة تامة الاحكام فنصل بالخدعة والختل الى ما لم نصل اليه قدما بالعنف والبطش ! وبذلك يعرف فى خاتمة المطاف على

كل حال أن من يقهر خصمه بالقوة الغاشمة فحسب لم يقهر منه فى الحقيقة الا نصفه !

« وفيما هو يتكلم أيد أقواله بملايين من السيوف خرجت من أفخاذ أجناده فأضاء لمعانها ما حولها من الجحيم ، وارتفع صياحهم وقعقوا بأسلحتهم فى ضراوة على دروعهم الرنانة ، معلنين تحديهم لمملكة السماء»

« وعقد أولياء الشيطان مؤتمرهم الكبير ليتشاوروا فيما يصنعون للاتصبار على الرحمن وتضرب مملكة السماء الى أن استقر رأيهم على مهاجمتها من أضعف نقطة فيها وهى الخليفة الجديدة الانسان .. والى الجنة يرقى ابليس متسللا ويستعرض فى فكره ووصفه جميع مخلوقات الحياة العجيبة الى أن يأتى ذكر الانسان ، ذكر آدم وحواء فى نعيم الفردوس الأعلى :

« هاهما مخلوقان أنبل سائر المخلوقات هناك بكثير من حيث الهيئة: منتصبة قامتها فى استقامة.. فيهما مجد فطرى، وعريهما مهيب فى جلاله وجماله... يبدوان سيدين على كل ماحولهما. أما هو فمجمعول للتأمل والبأس. وأما هى فمجمولة للنعممة والرقعة والرشاقة واللفظ الجذاب ! هو مجمول لله فحسب ، وهى مجمولة لله من خلاله .. وهكذا مرا بى بدا فى يد ، فاذا هما أحب وأحلى زوجين من المخلوقات جمعت بينهما رابطة الحب .. أما هو فأدم أقرب أبناء سلالة الى الله فهو صنعة يده مباشرة . وأما هى فأجمل بنات أحشائها : حواء !

« ويتخذ الشيطان صورة أكثر من حيوان من حيوانات الجنة كى يتاح له الاقتراب منهما وسماع حديثهما ونجوى سرهما ، فيكتشف من أقوال آدم أن التحريم الأوجد الذى قطعه الله عليهما

✱ وخاطبها الافعوان بلسان آدمي ، فاستولى على مسامعها بالثناء والتملق .. وتعجب حواء لأمره وتعجب به ، وتسأله يتفوه حيوان بلفظة البشر ، فأجابها ان ذلك تسنى له بعد أن أكل من ثمرات شجرة معينة ، وبعد أكلها أوحى اليه أن يتوجه الى حواء بالعبادة لأنها ملكة المخلوقات طرا ! ولما طلبت منه أن يرشدها الى تلك الشجرة قادها الى الشجرة المجرمة ، ففزعت . وضحك الشيطان ساخرا من مخاوفها قائلا :

« يامليكة الكون الاتصدقي تلك التهديدات الصارمة بالموت . لن تموتي ! فكيف تموتين ؟ أبالثمرة ؟ حاشا ! بل ستمنحك حياة بالمعرفة . أريد من يتوعذك ؟ انظري الى فقد لست الثمرة المحرمة وتذوقتها وهأنذا حي وقد زادت حياتي عمقا واتساعا بتطلعي الى أسنى مما قدر لي ! أفهل تغلق أمام الانسان أبواب فتحت للحيوان ؟ ان الله لا يمكن أن يعاقبك على ذلك العمل الذي ينافي العدل . ومدى يدك ايتها الالهة البشرية وتذوقي منها ماشئت ! »

✱ وأخذت حواء تحدث نفسها بما سمعته من الأفعوان :

« قيل لنا اننا يوم نأكل من هذه الثمرة الجميلة سيقضى علينا بالموت ! أفهل مات الأفعوان ؟ لقد أكل منها وعاش ، واكتسب معرفة وصار يحذق الكلام والتفكير والتمييز والنقاش ، وهو الذي كان قبل ذلك من العجاوات عقلا ولسانا . أفهل لنا وحدنا وجدت عقوبة الموت ؟ أم علينا وحدنا حرمت هذه الثمرة المباحة للبهائم والأوابد ؟ ها هنا تنمو هذه الشجرة ، وفي ثمرتها شفاء كل داء وهي مليحة في العين شهية تنادى الأكلين ، وتنفىء على أكلها الحكمة وفصل الخطاب . فما يمنعني

الاقتراب من شجرة المعرفة والأكل من ثمراتها أما حواء فكان حديثها كله عن جمالها ، وكيف نظرت أول ما برزت للوجود الى صورتها في صفحة غدير من غدران الجنة فرأت نفسها أجمل الخلق .. أجمل من آدم نفسه ، الى أن اقترب منها آدم : « وأمسكت يدك الحانية بيدي ، واستسلمت .. ! ومن ذلك الحين أدركت كيف يتفوق اللطف والحكمة الصادرة عن الرجل على جمال الشكل ، وعرفت أن الحكمة وحدها هي المتفردة بالجمال الحق ١٠٠ »

✱ ويظهر الملك رفائيل ويجري بينه وبين آدم حديث عن عصيان ابليس يجب له آدم جدا ، والملك يحذره من عصيان الله فيكون مصيره كمصير ابليس ويطرده من الجنة وتحل لعنة الموت على الجنس البشري كله . ويرى تعلقه الشديد بحواء فيحذره من الافراط في الشغف بها فيؤثر ذلك على حصافته وحزمه ويجر الويلات عليه وعليها وعلى سلالتهما جمعاء .

وينتهز ابليس فرصة انشغال رفائيل بذلك الحديث ويتوارى في مكنن حتى اذا كان اليوم التالي سمع حواء تطلب من آدم أن تعمل بعيدا عنه ، لأن قربها منه يشغله عن عمله ويشغلها بما يكون بينهما من نظرات وابتنامات ، وعلى مضض يتركها آدم تبعد عنه الى خيمة كثيرة الشجر تجمع من ثمارها ، وهنا لحق بها الشيطان في ذلك الاطار الرائع من جمال الطبيعة ، فاتخذ صورة الافعوان . وكان الافعوان في الجنة لا يزحف على بطنه بل يسير قائما وله جمال فتان :

« كان له عنق متألق من الذهب الضارب الى الاخضرار ، قائما منتصبا في رشاقة حلقات جسده التي تسير فوق الأعشاب متهادية في جمال يأخذ بالالباب .. »

« وعسى الله الا يؤاخذك بما صنعت ، فما أخاله يرضى أن يغنى أجمل مخلوقاته بهفوة واحدة في لحظة طيش .. ثم انى اخترت طريقى بلا رجعة حيث تصيرين أصير ، فان كنت ميتة فما أطيب نفسى بالموت معك ، والموت معك كالحياة ! فنحن واحد ولسنا بعد اثنين ! »

وبكت حواء سرورا بحبه وعانقته وأتته بشمرة الشجرة المشئومة وأطعمته منها ، فانكشفت لهما مناعم الجسد المتوقدة ، واستسلما لنداء الشهوة الأولى ولما أفاقا أدركا عريهما وأصابهما الخزي فخطفا من أوراق شجر الجنة ليسترا عورتيهما وأصابهما ندم شديد وأخذ ينحى على حواء باللائمة ويرق لهما الله فلا يقضى عليهما بالموت فورا ، بل يكتفى بطردهما الى الأرض حيث يعمرانها ، ويكون الموت أجلا مكتوبا وقدرًا محتوما فى ميقات يعلم الله وحده متى يحين ، ويكتب عليهما وعلى ذريتهما الدأب والعمل والألم ضريبة ذلك الأجل من الوجود الأرضى .

وبكت حواء لفراق الفردوس أحمر البكاء ، ولكن لا راد لقضاء الله :

« وهبط بهما الملك الموكل بهما الى رحاب الأرض من جهة المشرق ثم اختفى .. ووقف جدانا الأولان ينظران بحيرة الى موضع فردوسهما المفقود وذرفا الدمع السخين ، ثم لم يلبثا أن جففا عبراتهما ، وقد أبصرا الدنيا بأسرها بين يديهما ، يختاران منها ما يشاءان للاخلاق الى الراحة ، وقد وعدهما الله فى كامل رحمته ان يسدد خطاهما ويكلاهما بعنايته الصمدانية .. وهكذا شرعا يدا فى يد يضربان معا فى مناكبها ... »

أن أمد يدى اذن وأطعم من مناعمها الروح والبدن معا ؟ .. ومدت يدها الرعناء فى ساعة الشؤم تلك الى الشجرة فاقتطقتها وأكلت منها ، ولاذ الافعوان الغادر بالفرار الى جوف أجمة لقاء .. »

* وذهبت نشوة العمل المندفع ، وشرعت حواء تفكر فيما أقدمت عليه وتتساءل ماذا سيكون تأثير فعلتها على آدم :

« وكيف سأبدو لآدم ؟ أخبره بما طرأ على من تغير ؟ ولكن ماذا لو أن الله رأى ونزلت بى عقوبة الموت ؟ سأفنى وأصير الى المدم ويتزوج آدم حواء أخرى ويعيش هائلا ! وهذا لن يكون ما استطعت أن أحول دونه ! رأى الحازم اذن أن احتال على آدم حتى يشاركنى فعلتى ، ويأكل كما أكلت ، ليشاركنى مصيرى من يؤسسى أو نعمى ! » وهكذا كان أول ما تعلمته حواء من المعرفة الحياة والمكر !

* وما ان عرف آدم منها ما صنعت حتى وقف شاحبا مذهولا ، وكان قد قطف لها عقدا من ورد الجنة فسقط من يده وذبل لساعته من شدة غضبه وحزنه ، وقال لها :

« يا أجمل مخلوق ! يا آخر صنائع الله وابدعها ! يا من كمل فيها كل ما تصوره الفكر والنظر ! أيتها المقدسة الطيبة الحبيبة الرقيقة ! كيف أضعت نفسك وأضعنتى معك بدسيسة من عدو خادع مجهول هكذا على حين غرة ؟ نعم أضعتنى معك ، لأنه لا سبيل لى الا الموت معك ، فكيف لى أن أعيش بدونك ؟ »

* وانصرف آدم بعد قليل الى الترفيه عنها بعد أن رآها دامعة العين :

بعثة جون مري لاستكشاف المحيط الهندي

سيمور سيويل وآخرين

بقلم

الدكتور أنور عبد العليم

عدا بعثة «مباحث» التي قضت في العمل فيه تسعة شهور متواصلة وفيما يلي بيان بهذه البعثات وفقا لترتيبها الزمني :

١ - بعثة السفينة النمساوية الحربية نوفارا (١٨٥٧ - ١٨٥٩) وقد عملت خلال رحلتها حول العالم في الجزء الجنوبي للمحيط الهندي بين جنوب أفريقيا وجزيرتي امستردام وسان بول على خط عرض ٤٠° درجة جنوب خط الاستواء وبين خطي طول ٢٠° - ٧٠° شرقا ثم اتجهت شمالا الى جزيرة سيلان ف ساحل الهند الشرقي بجوار « مدراس » ومن هناك يمت شطر أرخبيل الملايو وجنوب شرقي آسيا . ولهذه البعثة بالذات فضل السبق في العمل في المحيط الهندي وقد نشرت نتائجها في ٧ مجلدات بمعرفة رئيسها القومندان « فون أريير » بين سنوات ١٨٦١ - ١٨٦٩ .

اذا كان العالم قد اهتم في السنوات القليلة الماضية بدراسة المحيط الهندي اهتماما بالغا فقد كانت مصر من أسبق الدول التي فطنت الى هذا الأمر وذلك منذ نيف وثلاثين سنة اذ قدمت الباهرة « مباحث » التي كانت تابعة لمصلحة السواحل والمصايد في ذلك الوقت ببحارتها وضباطها وعليها بعثة مشتركة من علماء مصريين وانجليز لدراسة هذا المحيط . وتركت هذه البعثة أثرا خالدا في تاريخ الكشف العلمي للمحيطات وقلما يخلو مرجع من المراجع العلمية عن المحيط الهندي من ذكر لبعثة السفينة المصرية « مباحث » .

١ - تاريخ الكشف العلمي للمحيط الهندي :

اننا اذا استعرضنا البعثات الشهيرة التي عملت في المحيط الهندي قبل تنفيذ البرنامج الدولي الذي تقدم ذكره لوجدنا أن أغلبها قد عمل لفترات قصيرة نسبية أو مر مرورا عابرا بهذا المحيط فيما

وقد درست المنطقة الوسطى من المحيط الهندي في شبه دائرة محصورة بين جزر شاجوس وموريس وسيشيل ، وبخاصة في أرخبيل شاجوس وقد نشر ستانلي جادنر نتائج هذه البعثة بين سنوات ١٩٠٧ - ١٩٣٦ :

٧ - بعثة السفينة الألمانية « بلانت » (١٩٠٦ - ١٩٠٧) .

وقد درست هذه البعثة قطاعا مارا بشرقي مدغشقر حتى جزيرة سيلان ثم يمت شطر سومطرة وأرخبيل الملايو . وقد نشرت نتائجها عام ١٩٠٩ في خمسة مجلدات ظهرت ببرلين .

٨ - بعثة السفينة الدانمركية « رانا » (١٩٢٨ - ١٩٣٠) .

وقد دارت هذه السفينة حول العالم بتمويل من مؤسسة كارلسبرج الدانمركية خصص لبحوث علوم البحار .

Carlsberg Foundation Oceanographic Funds

وقد زارت البعثة المحيط الهندي خلال رحلتها المذكورة من الجنوب مارة بسواحل مدغشقر وأفريقيا الشرقية وجزر بروفيديانس سيرف وسيشيل والملايدف (١) حتى سيلان ومنها الى سومطرة وأرخبيل الملايو. وقد نشر الاستاذ يوهان شميدت رئيس البعثة نتائجها في تسعة مجلدات بين أعوام ١٩٣٣ - ١٩٦١ في كوبنهاجن .

٩ - بعثة السفينة الهولندية « ويلبرود سنيليوس » (١٩٢٩) .

٢ - بعثة السفينة الانجليزية « تشالنجر » التي طافت حول العالم بين سنوات ١٨٧٢ - ١٨٧٦ م وقد مرت بالجزء الجنوبي للمحيط الهندي مرتين احدهما في عام ١٨٧٣ والثانية في عام ١٨٧٤ .

٣ - بعثة السفينة الألمانية « جازيل » (١٨٧٤ - ١٨٧٦) وقد عملت هي الأخرى في النصف الجنوبي للمحيط الهندي بين رأس الرجاء الصالح واستراليا مارة بجزر امستردام وسان بول ورنيون وموريس .

٤ - بعثة السفينة الألمانية « فالديفيا » المعروفة ببعثة اغوار المحيطات (١٨٩٨ - ١٨٩٩) وقد عملت هذه البعثة في المحيط الهندي مخترة البحر الأحمر ومارة بسواحل الصومال وكينيا وتنجانيقا ، ومن دار السلام اتجهت شرقا حتى جزر سيشيل وشاجوس ثم اتجهت شمالا الى كولمبو في جزيرة سرنديب (سيلان) ومنها الى جزيرة نيكوبار ثم سارت جنوبا فدرست المنطقة الواقعة غربي سومطرة ومنها سارت في خط رأسى تقريبا الى جزر امستردام وسان بول بالقرب من خط ٤٠° جنوب خط الاستواء .

٥ - بعثة السفينة الألمانية « جاوس » (١٩٠٢ - ١٩٠٣) المعروفة أيضا ببعثة القطب الجنوبي .

Gauss Deutsche Südpolar Expedition

وقد عملت هذه البعثة بين خطي عرض ٢٥° - ٥٥° جنوبا بين خطي طول ٢٠° - ٨٠° شرقا في جنوب المحيط الهندي في طريقها الى البحار الجنوبية .

٦ - بعثة السفينة الانجليزية « ميلارك » (١٩٠٥) وتعرف أيضا ببعثة « بيرسي سيلدن » Sea lark Percy sladen Trust Expedition

(1) Providence, Curf, Seychelles & Maladiver Island.

وعملت بالقطاع الشرقى لهذا المحيط حتى جزيرة جاوة ثم واصلت رحلتها فى المحيط الهادى بعد ذلك . وقد نشر الاستاذ هانز بترسون نتائج هذه البعثة بين ١٩٥١ - ١٩٦١ فى عشر مجلدات فى جوتنبرج :

١٢ - بعثة السفينة الدانمركية « جالاتيا » (١٩٥٠ - ١٩٥٢) .

وتعرف أيضا ببعثة الأغوار العميقة وقد دارت حول العالم مهتمة على وجه الخصوص بالبحث عن الحياة فى الأغوار السحيقة وفى المحيط الهندى قامت يبحث القطاع الجنوبى الشرقى بين مدغشقر وساحل أفريقيا ومن زنجبار وأخذت قطاعا مارا بجزر سيشيل حتى سيلان ثم فحصت المنطقة المحاذية لساحل الهند ومنها الى أرخبيل الملايو .

ونشر الاستاذ « بروون » مع الاستاذين جريف « وسبارك » نتائجها عام ١٩٥٦ فى كوبنهاجن

هذه هى أشهر البعثات العلمية التى قامت بالعمل فى المحيط الهندى قبل تنفيذ البرنامج الدولى الأخير لمسح هذا المحيط بوجدير بالذكر أنه فى عام ١٩٥٧ - ١٩٥٨ قامت عدة سفن تابعة لدول مختلفة يبحث هذا المحيط أيضا ضمن برنامج أبحاث « السنة الجغرافية أو الجيوفيزيائية الدولية » ومن بينها بعثات سوفيتية ويابانية . كما قام الفرنسيون ببحوث عديدة حول جزيرة مدغشقر منذ أوائل هذا القرن . كل هذا بالإضافة الى المعلومات التى جمعها قباطنة السفن الحربية التى تنتمى لدول مختلفة أثناء مرورها فى المحيط الهندى ولا يجب أن ننفل أيضا الآثار التى خلفتها بعثة المنطقة القطبية الجنوبية الفرنسية بقيادة الأميرال شاركو (١٩٠٣ - ١٩٠٥) فى الجزء

وقد درست هذه البعثة المنطقة الشرقية من جزر الهند الشرقية (اندونيسيا) كما أجرت عدة بحوث أثناء قدومها من البحر الأحمر مارة بخليج عدن وساحل الصومال الشمالى ومنه رأسا الى جزيرة سومطرة متخذة مسارها على خط الاستواء تقريبا . وقد نشر الاستاذ فان ريل رئيس البعثة نتائجها بين أعوام ١٩٣٦ - ١٩٥٩ بمطابع بريل بليدن فى ستة مجلدات .

١٠ - بعثة السفينة المصرية « مباحث » (١٩٣٣ - ١٩٣٤) Mabahith Expedition

وهى البعثة موضوع هذا المقال وقد ركزت اهتمامها لبحث المنطقة الشمالية الشرقية للمحيط الهندى وقد نشرت أبحاثها فى عشرة مجلدات بين سنوات ١٩٣٥ - ١٩٦٠ بمعرفة المتحف البريطانى للتاريخ الطبيعى بلندن .

١١ - بعثة السفينة السويدية « الباتروس » (١٩٤٧ - ١٩٤٨) Albatross Expedition

وتسمى أيضا ببعثة « الأغوار العميقة » وقد نظم علماء السويد هذه البعثة عقب الحرب العالمية الثانية مباشرة لتكون أول بعثة للكشف الاقيانوسى فى الفترة التى أعقبت الحرب الأخيرة (ويلاحظ أن السويد لم تدخل هذه الحرب ولم يحتلها جنود الألمان كما فعلوا بالدانمرك والنرويج) وقد وجهت هذه البعثة اهتمامها للكشف عن تركيب قاع المحيطات واستخدام أجهزة جديدة لهذا الغرض لجمع عينات الرواسب من تحت قاع المحيط . وقد مرت هذه السفينة بخليج السويس فالبحر الأحمر وخليج عدن كما عملت بالمنطقة الوسطى للمحيط الهندى بين جزر سيشل وسيلان . ومن ثم اتجهت جنوبا الى خط عرض ١٠° جنوب خط الاستواء

الجنوبى من المحيط الهندى ونشرت نتائجها فى
تسعة عشر مجلدا .

وإذا اعتبرنا البحر الأحمر وحده كجزء من
المحيط الهندى نجد أنه قد حظى هو الآخر باهتمام
علماء البحار وخصصت بعثات للعمل فيه نذكر من
بينها بعثات « بولا » النمساوية فى عام ١٨٩٥
وبعثة « مباحث » (ديسمبر ١٩٣٤ - فبراير
١٩٣٥) المصرية وقد نشرت نتائجها جامعة القاهرة
فى مجلد صدر فى عام ١٩٣٩ ثم بعثة كاليبسو
الفرنسية (١٩٥١ - ١٩٥٢) بقيادة القومندان
كوستو ونشرت نتائجها فى عام ١٩٥٥ والأعوام
التي تلتها .

ويتضح من العرض السابق أن بعثة السفينة
مباحث تأتى فى المرتبة العاشرة من ناحية التسلسل
الزمنى لبعثات الكشف العلمية فى المحيط الهندى
ولكنها تتميز عما سبقتها من بعثات بأنها عملت
فى منطقة تكاد لا تشاركها فيها غيرها من البعثات
الأخرى وهى المنطقة الشمالية الشرقية لهذا المحيط
بما فيها سواحل بحر العرب كما أنها كرست وقتا
أكبر لبحث هذه المنطقة وفحصتها من النواحي
الطبيعية والبيولوجية والجيولوجية والهيدروجرافية
على حد سواء ، فلا عجب أن خرجت
هذه البعثة بحصيلة من المعلومات العلمية الجديدة
استأهلت نشرها فى عشرة مجلدات تضم بين
جناياتها عشرات المقالات وآلاف الصفحات بأقلام
المتخصصين فى هذه العلوم ، وإن كان أغلبهم من

الملء الانجليز فان من بينهم أيضا علماء يتسمون
لجنسيات مختلفة . وجدير بالذكر أن التقارير
العلمية للبعثة المذكورة قد شملت بحثين كتبهما
عالمان مصريان هما الدكتور عبد الفتاح محمد (١)
والدكتور محمود رمضان (٢) من أساتذة جامعة
الاسكندرية : والبحث الأول منهما يدور حول بعض
الخواص الطبيعية لمياه المحيط الهندى وأما الثانى
فمن بعض الحيوانات القشرية التى جمعتها البعثة
كما أرسلت البعثة عينات من مياه البحر الى كلية
العلوم بجامعة القاهرة قام بتحليلها فى ذلك الوقت
الدكتور أحمد رياض تركى من أعضاء هيئة تدريس
قسم الكيمياء (رئيس المجلس الأعلى للبحث
العلمى فى الوقت الحاضر) .

٢ - تجهيز البعثة :

فى غضون عام ١٩٣٣ تم اتفاق بين الحكومة
المصرية والحكومة الانجليزية على أن تجهز سفينة
خفر السواحل المصرية « مباحث » لتقوم ببعثة
للكشف العلمى فى المحيط الهندى سميت على اسم
عالم الأحياء الاسكتلندى الشهير السير جون مرى
Sir John Murray
الذى رافق بعثة تشالنجر حول العالم بين سنوات
١٨٧٢ - ١٨٧٦ واشترك فى إصدار تقاريرها
العلمية - وذلك بناء على مباحثات مبدئية تمت
بين جامعتى القاهرة وكمبرج بهذا الشأن على أن
يقدم الجانب المصرى السفينة يبحارتها وملاحيا

(١) رئيس قسم علوم البحار السابق بجامعة
الاسكندرية وعميد الكلية ثم وكيل هذه الجامعة .
(٢) استاذ ورئيس قسم الحيوان بكلية العلوم
بجامعة الاسكندرية ووكيل الكلية .

(١) انظر

Chareot J. (1936-1924) Expedition Antarctique Fran-
çaise (1903-1905), Science Naturelles, documents
scientifiques, Masson et Cie (Paris) (19 volumes).

طاقم السفينة

قبطان : لکھن ماکنزی
ملازم اول : أحمد بدر (المرحوم) ضابط اول
أعلى البحار
ملازم اول : أحمد ثروت (حاليا لواء بحري
بالمعاش) ضابط ثان أعلى البحار

کیر المهندسين: و. جريجز

مهندس ثان : ملازم اول محمود مختار

مهندس ثالث : ملازم اول ادوار مرقس

عامل لاسلکی: لوید جونز

وبحارة السفينة وعمالها جميعهم من المصريين
خلا ثلاثة استبدلوا في الطريق

السفينة

أما السفينة « مباحث » فقد بنيت في نيو كاسل
بانجلترا عام ١٩٢٩ كسفينة لأعمال السواحل
وابحاث المصايد وهي تنتمي للنوع المعروف بسفن
(الجراتى) كانت تعرف وقتئذ فى انجلترا باسمى
« ميرزى » وفيما يلى أبعادها وحمولتها :

الطول = ١٣٨ قدم العرض = ٢٣٦ قدم

حمولة الازاحة = ٦١٨ طن الغاطس = ١٢٥٦

قدم من المقدمة ،

١٤٢٦ من المؤخرة

أثناء التحميل

الوقود = بالفحم السرعة = ١١ عقدة

سعة المخزن = ١٦٠ طن مخزانات المياه

== ۹۰ طن

مدى اللاسلكى = ٣٠٠ ميل قوارب مساعدة

وعلى أن يشترك بعض الباحثين المصريين كأفراد علميين ضمن البعثة ويتولى الجانب الانجليزى تزويد السفينة بالأجهزة والمعدات اللازمة للعمل ويكون ربانها وكذلك رئيس مجموعة العلماء عليها من الانجليز . كما تم الاتفاق أيضا على أن تبقى الأجهزة والمعدات على السفينة ملكا للحكومة المصرية بعد أن تحقق البعثة غرضها وأن تودع نماذج من العينات العلمية لدى الطرف المصرى ومجموعة أخرى تحفظ فى المتحف البريطانى للتاريخ الطبيعى بلندن كما يتولى الطرف الانجليزى نشر التقارير العلمية للبعثة بمعرفة المتحف المذكور .

وفىما يلى التشكيل الرسمى لهذه البعثة :-

الأفراد المليون

رئيس البعثة : اللقنات كولونيل ر.ب سيمور
سيوسل

مساعد رئيس البعثة وكيمائى اول

: دكتور أ. ف طومسون

کیماویان : المسترکاری جیلون

السيد / عبد الفتاح محمد

(من جامعة القاهرة)

بيولوجيان : دكتور حسين فوزي مدير المصائد

١٠٤ ، مصلحة السواحل بالأسكندرية (١)

المسترتوت. ماكان

مساح وملاح : اللقتانت کومان دورو • فارکسون

(١) عميد كلية العلوم الأسبق بجامعة الإسكندرية
ثم تولى مديرا لهذه الجامعة بالنيابة فوكيلا لوزارة
الثقافة والإرشاد ، وقد وكل اليه على السفينة مهمة
طبيب البعثة أيضا .

وقد زودت السفينة بالأجهزة العلمية والأدوات الضرورية لبعثة من هذا النوع في ذلك الوقت وأهمها :

ونش بخارى لسلك الواير (الجـر) بطاريتين سعة ٤٠٠٠ قامة ، ١٠٠٠ قامة (١)

ونش هيدروجرافى بخارى سعة ٣٠٠٠ قامة (السلك) ، ١٠٠٠ قامة

— سلك هيدروجرافى مجدول قطر ٤ مليمتر أطوال مختلفة

— سلك واير اضافى لأعمال جر الشباك وقطره يزيد عن بوصة بأطوال (٣٥٠٠ ، ٢٥٠٠ ، ١٥٠٠ قامة)

— جهاز سير الأعماق وتسجيل تضاريس القاع (اكسوندر) من نوع «أكاديا» .

بالإضافة الى مجسمات للأعماق ، كباشات ، قنينات قلابة لجمع عينات المياه من الأعماق المختلفة ترمومترات لقياس درجات الحرارة على الأعماق المختلفة ، مقياس للتيارات المائية من نوع «إكمان» أجهزة متيورولوجيه (للرصد الجوى) وقرص لقياس درجة شفافية الماء .. الخ

أما الأجهزة البيولوجية فتشمل أنواعا من شباك الجر وشباك البلاكتون والجرافات وأوانى وزجاجات حفظ العينات وأطنان من الفورمالين والكحول .

كل هذا بخلاف الأجهزة الملاحية وأجهزة المسح المغناطيسى وقد استعمل « المتول » أو سلفات المغنيسيوم فى تخدير العينات قبل حفظها فى

(١) القامة = ١.٨٢ متر .

الكحول أو الفورمالين أو فى سائل «بوان» المثبت حتى تبقى على حالتها الطبيعية قدر الامكان .

أما العينات التى كانت تحتوى على أشواك كلسية تذوب فى الحوامض فقد كانت تحفظ فى الكحول وأما عينات البلاكتون فى محلول مخفف من الفورمالين ، وبالنسبة للأسماك فقد كانت تحقن أحيانا بالفورمالين ليتخلل أجسامها حتى لا يتطرق اليها الفساد تحت حرارة الجو الاستوائى . ولما لم يكن ضمن أعضاء البعثة رسام أو مصور فقد كانت ألوان الأحياء البحرية الحية تقارن فى ضوء الشمس بمجموعة من الألوان القاسية المطبوعة وتدون أولا بأول . ولكى لا تتبخر سوائل حفظ العينات فقد كانت تطلع اغطيها بالشمع السائل .

وقيل ابجار السفينة أجريت بعض تعديلات فيها بورش مصلحة الموانى والمنائر بالاسكندرية لتلائم أغراض الرحلة ومن هذه التعديلات ضم أحد قمرات السفينة للمعمل البيولوجى الكيماوى عليها لزيادة حجمه وتحويل قمرتين مفردتين الى قمرة مزدوجة للباحثين المصريين ، وتعديل مخزن الأسماك ليضم مخزنا للفحم سعة ٣٠ طنا مع إضافة ثلاثة وحجرتين للتبريد .

وبذلك أصبحت السفينة مهيأة للقيام بمهمة جديدة أثبتت فيها جدارة فائقة كما ضرب بحارتها وضباطها وعلماؤها أحسن المثل فى تحمل مشاق العمل فى البحار الاستوائية وتحت ظروف قاسية فى البحر لمدة شهور تسعة لم تكن تتخللها فى كثير من الأحوال سوى أيام قليلة أو بعض يوم للراحة وذلك حين ترسو السفينة على الموانى المختلفة للتموين أو لعارض طارىء ، ولم تكن أجهزة تكييف الهواء معروفة فى ذلك الوقت على السفن .

٣ - خط سير السفينة ورحلاتها :

أصاب سوء الطالع السفينة مرة أخرى فتوقفت الشلجة الكهربائي وفقدت البعثة بسبب ذلك تموينها من اللحم الطازج ، وعندما حاول المهندس « جريجز » اصلاحها كاد يخنق بسبب غاز كلوريد الميثيل المستعمل في التبريد ، فاضطرت البعثة الى العودة مرة أخرى الى ميناء عدن حيث مكث هذا المهندس في المستشفى يومين ليستعيد نشاطه وصحته .

وأبحرت السفينة مرة أخرى بعد ذلك في الثالث من اكتوبر نحو الشرق في خليج عدن وامت بحث عدة محطات فيه ثم خرجت منه الى بحر العرب وبعد أن انتهت من محطاتها الهيدروجرافية رقم (٢٢) وكانت على عمق ٣٥٥٦ مترا أصيب « الوثش » الهيدروجرافي بعطب فعادت السفينة أدراجها الى الساحل الافريقي وقضت ليلة ٧ اكتوبر راسية في الموقع المعروف باسم « غبة بنه » شمال رأس « على باش كيل » على هذا الساحل ، كما قضت ليلة ٩ اكتوبر بالقرب من صخرة الفيل على نفس الساحل .

وقد اشغلت البعثة مهمة وعزم لمعرفة الخواص الطبيعية للمياه والقاع في مدخل خليج عدن خلال الاسبوع التالي وأتمت جمع العينات والدراسة من محطات (١٩ - ٣٧) كما أخذت عدة جرفات ناجحة في الجانبين الشمالي والجنوبي لمدخل الخليج المذكور ، ثم عادت مرة أخرى أدراجها الى ميناء عدن فوصلتها يوم ١٧ اكتوبر سنة ١٩٣٣ . ولقد تعرضت الجرافة خلال هذه الرحلة مرة أخرى على القاع عند المحطة رقم ٢٥ فقطع الحبل وفقدت البعثة بذلك جرافة أخرى ، كما لاحظت البعثة المحطة رقم (٢٩) على عمق ٢٠٧٢ مترا بالقرب من الساحل الافريقي أن حبل الجرافة

في تقريره العلمى الأول للرحلة وصف سيمور سيويل خط سيرها منوها بأهم الأعمال التي تمت خلال البعثة ومفصلا لمواقع المحطات العلمية التي جمعت منها العينات وأعماقها وخواصها الهيدروجرافية والطبيعية ونحن نجمل هذا الجزء فيما يلي :

أبحرت السفينة «مباحث» من ميناء الاسكندرية في صباح اليوم الثالث من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٣ الى بورسعيد ثم اجتازت القناة من ميناء بور توفيق على مدخل خليج السويس وهناك انتظرت بضعة أيام ريثما تصل بعض الأجهزة من الخارج . وفي الثامن من هذا الشهر غادرت البعثة الميناء متجهة الى الجنوب في البحر الأحمر وبعد وقفة قصيرة على ميناء الفردقة زار العلماء فيها محطة الأحياء البحرية هناك واصلت السفينة رحلتها الأولى في هذا البحر في جو حار شديد القىظ ، وقد ألفت مراسيها في ليالى متتابعة على جزيرة جبل زخير (يوم ٩/١٥) وحنيش الكبير (١٦ ، ٩/١٧) وبريم (٩/١٨) في أقصى الجنوب . وقد جمعت البعثة بعض الأرصاد العينات من هذا البحر الا أن حظها لم يكن سعيدا فيه ، فقد فقدت أنبوبة لسير الأعماق حين قيامها بعملية من عمليات الجرف على ٢٠٩٤ مترا في المحطة الثالثة لها فقدت الجرافة وحبلها من السلك المتصل بها طوله ٢٨٠٠ متر وكذلك عجلة عداد طول السلك .

ووصلت البعثة الى ميناء عدن يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٣٣ وبذلك تنتهى الرحلة الأولى لها . وتبدأ الرحلة الثانية للبعثة في خليج عدن نفسه حتى جزيرة سومطره المجاورة لساحل الصومال وفي تلك الرحلة

قد لف حول نفسه مرات عديدة ولم تستخرج شيئاً هذه المرة مما يدعو الى الاعتقاد بأن ثمة تيار عميق جارف في تلك المنطقة .

وقد كان لدراسة خليج عدن ومدخله بالتفصيل من الناحية الهيدروجرافية أن وضح للبعثة نظام تبادل كل المياه والتيارات السطحية والعميقة بين الخليج والمحيط ، كما وضح من تسجيلات جهاز سبر الاعماق (الاكوسوندر) وعورة قاع الخليج نفسه . فعلى مجموعة من الجبال ممتدة في اتجاه من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ، بينما الجزء الجنوبى من الخليج نفسه تغتوره قناة عمقها نحو ٢٠٠٠ متر .

وقبل أن تبدأ البعثة رحلتها الثالثة قضت المدة من ١٧ - ٢١ أكتوبر مرة أخرى في ميناء عدن للتموين والراحة واصلاح الأجهزة والاستعداد للرحلة القادمة ثم غادرت هذه الميناء متجهة في محاذاة ساحل العرب الى ميناء كراتشى بالهند وقتئذ (وتبع الباكستان الآن) وعرجت في طريقها على جزر « خوريا موريا » حيث قضت يومين في هذه المنطقة لتبحر شرقاً لدراسة بعض الشعاب المرجانية ولتقضى ليلة ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٣٣ عند رأس مدركة وليلة أول نوفمبر عند رأس مركز ثم تركت البعثة الساحل العربى في ٦ نوفمبر الى كراتشى فتصلها في العاشر منه .

وخلال هذه الرحلة الثالثة تم فحص المحطات من رقم ٣٨ الى ٦١ بالإضافة الى البحوث التى أجريت بواسطة القارب الصغير على الشعاب المرجانية في جزيرة الحلاية من مجموعة جزر خوريا موريا . ويلخص سيمور سيويل أهم نتائج عمل البعثة في منطقة بحر العرب بقوله « ان

المنطقة الجنوبية والجنوبية الشرقية من الساحل العربى تتميز بمنحدر قارى وعر شديد الانحدار تكتنفه صخور جرانيتية .. ولقد اكتشفت البعثة في هذا البحر منطقة متوسطة من المياه تقع بين عمقى نحو ١٠٠ متر ، ١٣٠٠ متر تبدو خالية من الحياة تماماً . (١) بينما توجد أنواع مختلفة من أحياء البحر بين السطح وعمق المائة متر وكذلك بين عمق نحو ١٣٠٠ متر والقاع .

« اما القاع نفسه فيكسوه طين ناعم اخضر اللون يشوبه غاز كبريتور الايدروجين (السام) وبخاصة بالقرب من رأس الحد . كما لم تغر البعثة على طول الساحل العربى على شعاب مرجانية حقيقية ثم أن الشطوط التى فحصناها وكان البعض يعتقد أنها من الشعاب الحقيقية ليست في الواقع كذلك ، وانما تتكون من الليثو ثامنيوم (وهو طحلب متكلس يسهم في بناء الشطوط المرجانية) »

وبعد ان اتمت البعثة اكتشاف هذا الجزء من بحر العرب يمت شطر كراتشى حيث تم اصلاح (الوثش الهيدروجرافى) ثم غادرت البعثة في هذا الميناء في يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٩٣٣ وهدفها العمل في خليج عمان مارة بساحل بلوختان . وأمام هذا الساحل فقدت البعثة شبكة للجر على قاع عمقه ١٧٠٤ متراً ثم واصلت السير غرباً بحذاء هذا الساحل الى الخليج واشتغلت عدة محطات على مدخله ثم اقلت مراسيها أمام مسقط « ودبة ديه » وقلقت راجعة الى رأس الحد لاجراء مزيد من البحوث على طبقى القاع المشبع بغاز كبريتور

(١) يعتبر هنا الكشف فى حد ذاته على جانب كبير من الاهمية

الايدروجين وذلك قبل ان تتخذ سبيلها الى الساحل الهندي مرة أخرى لتزور ميناء بومباي في هذه المرة . وقد قامت البعثة بسح المنحدر القارى الهندي قبل أن تصل بومباي في ٨ ديسمبر من نفس العام .

وفي تلك الرحلة الرابعة التي شملت المنطقة فيما بين كراتشى وبومباي مسحت البعثة المحطات ذات الأرقام من (٦٢ - ٩٠) وخرجت من فحص تلك المحطات بتيجتين هامتين : تتلخص الأولى في أن المنطقة المتوسطة « الجرداء » من البحر تمتد شرقا من الساحل العربى حتى خليج عمان وتقع بين أعماق حدها الأعلى يتراوح بين عمقى ٢٥٠ - ٦٠٠ متر تحت سطح البحر ، وحدها الأدنى خط عمق نحو ١٥٠٠ متر والحد الأعلى نفسه لتلك المنطقة يختلف عن جانبى خليج عمان في السعة .

أما النتيجة الثانية فتتلخص في أن تسجيلات جهاز « الاكوسوندر » قد أوضحت أن قاع تلك المنطقة من بحر العرب تكتنفه سلاسل جبال متعددة ، تمتد الأولى منها للاحية الغرب موازية لساحل بلوخيستان ، وثمة سلسلة ثانية تمتد في اتجاه الجنوب الغربى حتى رأس الحد ، ولكنها لا تصل بتلك الرأس بل تقف منها على مسافة نحو ١٣٧ ميلا فى البحر . وتتميز هذه السلسلة الثانية بوجود فجوة فيها تقع على الناحية الجنوبية الشرقية وعمقها نحو ٣٦٥٨ مترا وهى بذلك تزيد فى العمق بنحو ٢٧٤ مترا عن مستوى قاع الخليج .

وفى الجنوب الشرقى من تلك الفجوة نفسها تقع سلسلة ثالثة من الجبال المغبورة تحت سطح البحر تحول الى هضبة متسعة كلما اقتربت من ساحل الهند .

وتبدأ الرحلة الخامسة للبعثة فى الثالث عشر من شهر ديسمبر عام ١٩٣٣ حيث مسحت السفينة المنطقة التى تقع فى مسارها بين بومباي بالهند ومباسا فى كينيا على الساحل الافريقى . وبذلك تكون البعثة قد اخترقت الجزء الشمالى الغربى للمحيط الهندي للمرة الثانية ولكن من الشرق الى الغرب فى هذه المرة . وبعد مسيرة يومين فى البحر من بومباي فقدت البعثة شبكة أخرى عند المحطة رقم ٩٢ على عمق ٣٧٢٢ مترا، كما فقدت فى مساء يوم ٢١ ديسمبر فى احدى العمليات الهيدروجرافية فى المياه العميقة ست قنينات قلابة من قنينات جمع عينات الماء المعروضة باسم قنينات « اكمان » Bembha . بالإضافة الى أربعة عشر ترمومترا من ترمومترات الأعماق . وفى يوم « عيد الميلاد » نفسه قامت البعثة بعمل أرصاد هيدروجرافية على أكبر الأعماق التى وجدتها حتى ذلك الوقت وهو عمق ينوف على خمسة آلاف متر .

وتناخص نتائج هذه الرحلة فى الأرصاد الهيدروجرافية القيمة التى جمعتها البعثة فيما بين بومباي ومباسا من ثلاث عشرة محطة على طول خط سيرها . وذلك قبل دخول البعثة الساحل الافريقى ليلة ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٣ ورسوها فى ميناء مباسا فجر أول العام الجديد . وكان لابد أن تقضى السفينة بتلك الميناء بضعة أيام أخرى تجدد فيها ما نفذ من حمولتها من الفحم ومن الماء وترق ما تفتق من شباكها وتشحم آلاتها ويلتصم بحارتها وعلماؤها خلالها بعض الراحة من أيام العمل المجهد بالبحر .

ثم استأنفت السفينة بعد ذلك سيرها يوم ٩ يناير سنة ١٩٣٤ فى رحلتها السادسة التى غطت

تبدأن بالقرب من نقطة « ماليندى » على الساحل
الافريقى وتمتدان الى الجنوب بحذاء الجهة
الشرقية لجزيرة مبابا .

وفى صباح يوم ٣٠ يناير استقبل سلطان
زنجبار العلماء والضباط المصريين بصحبة رئيس
البعثة والربان ماكزى وحاملا عادوا من هذه
الزيارة أبعرت المركب فى طريقها الى جزر
سيشيل .

وتبدأ السفرة السابقة للسفينة من زنجبار
وتنتهى فى ميناء كولبو فى جزيرة سرنديب . وعلى
مسيرة يومين من زنجبار فحصت البعثة المحطة رقم
١٢٧ حتى عمق ٤٠٩١ مترا وفى تلك الأثناء كسر
« الوثش الهيدروجرافى » فتوقف العمل
واتجهت السفينة رأسا الى جزر سيشيل وقبل أن
تصلها فحصت البعثة محطتين أخريين فى الطريق
مستعينة فى ازال آلاتها الهيدروجرافية بوئش
الجرافة ثم وصلت جزر سيشيل فى النهاية فى
السادس من شهر فبراير سنة ١٩٣٤ حيث ألفت
السفينة مراسيها فى ميناء فيكتوريا على جزيرة
« ماهى » وحملت نحو خمسين طنا اضافيا من
القمح ثم غادرت هذه الجزيرة فى يوم ٨ فبراير الى
كولبو عن طريق قناة « كارديفا » فى مجموعة
ارخبيل اللاديف حيث كان الجو مواليا للسفر على
الرغم من التيار العكسى الذى كان يعوق سير
السفينة وتمكنت البعثة من الوصول الى كولبو
بعد ظهر يوم ٢٢ فبراير .

وفى تلك الرحلة مرت البعثة فوق سلسلة جبال
كارلسبرج المغورة واكتشفت فيها فرجة عمقها
نحو ١٦٥٠ مترا تقع بين جبلين ، كما تمكنت من
أخذ عينة بالشباك من هذا العمق أخرجت أنواعا

فيها المنطقة فيما بين مبابا وزنجبار . ولم تكن
هذه الرحلة سعيدة لكثيرين من سكان السفينة
وفى ذلك يقول سيورسيويل رئيس البعثة « لم
يكن الجو مواليا بالمرة ، اذ هبت علينا ريح
عاصفة من الشمال الشرقى وواجهنا بحرا مضطربا
وعلى الرغم من سوء الأحوال الجوية فقد واصلنا
العمل مولين اهتمامنا فى أغلب الوقت لفحص مياه
القناة العميقة بين جزيرة زنجبار وجزر مبابا

ومن الجزيرة الأخيرة اتجهنا شمالا للعمل فى
المنطقة المتاخمة للساحل الافريقى نفسه . ثم اتنا
اضطربنا للعودة الى زنجبار فى يوم ١٨ يناير سنة
١٩٣٤ لننزل الى البر كثيرين ممن اصابوا بحمى
الملاريا ومن بينهم المستر « ماكان » وقد اتابهم
هذا المرض اثناء اقامتنا فى مبابا . وفى صبيحة
اليوم التالى اتجهنا نحو الشرق واخذنا عينات
بشباك الجر على عمق ١٢٠٤ مترا ثم واصلنا السير
شرقا وعلى الرغم من حدة الرياح فقد نجحنا فى
جمع عينات أخرى من عمق ٢٩٣١ مترا الا ان
ازدياد الأحوال الجوية سوءا قد اضطربنا للعودة
مرة أخرى الى زنجبار وذلك يوم ٢٤ ديسمبر حيث
ارسلنا الى المستشفى كبير المهندسين جريجىز
والمتر كارى جيلسون للاستحمام .

وفى تلك الرحلة السادسة فحصت البعثة
المنحطات من رقم ١٠٣ الى ١٢٦ ومنها وضح أن
الفونة^(١) غنية كماتين من تسجيلات « الاكوسندر » أن
ثمة دلائل على وجود سلسلتين جبليتين متوازيتين

(١) « الفونة » هى مجموعة الحيوانات التى تعيش
منطقة ما وتقبلها كلمة « الفلورة » بالنسبة للنباتات

شهر ابريل عام ١٩٣٤ في طريقها الى ميناء عدن مرة أخرى . وحالما وصلت السفينة الى خط عرض ٧° شمالا غيرت اتجاه سيرها الى الغرب عبر بحر العرب حيث أخذت البعثة ارسادا هيدروجرافية جديدة وجمعت عينات بالشباك والجرافات ومن بينها جرفة تمت على عمق ٤٧٩٣ مترا .. ومن عجب أن تلك الجرفة لم تخرج حيوانات هذه المرة بل معادن نفيسة تعرف باسم عقد المنجنيز وكانت مختلفة الاشكال والاحجام وقد بلغ وزن ما استخرج في هذه الجرفة وحدها من تلك العقد نحو ١٢٥ كيلوجراما .

ثم عبرت البعثة سلسلة جبال « كارلسبرج » المغمورة مرة أخرى واثبتت أن ثمة جبلين متوازيين فيما بينهما منخفض عميق ترسب فيه عقد المنجنيز فوق رواسب طمي « الفورميفرا »^(١) وحالما عبرت البعثة سلسلة كارلسبرج سارت بمحاذاة جانبها الجنوبي الغربي لمسافة ثم انحرفت لتعبر قناة سومطرة فتدخل خليج عدن مرة أخرى . وفي هذا الخليج أعادت البعثة تكرار أرسادها التي كانت قد جمعتها في فصل الخريف السابق كما جمعت عينات من رواسب القاع وحيوانه ، وذلك قبل أن تدخل ميناء عدن نفسها يوم ٨ مايو سنة ١٩٣٤ . وفي يوم ١٤ مايو تغادر البعثة هذا الميناء للمرة الأخيرة لتبدأ رحلتها العاشرة والأخيرة أيضا

(١) المنخربات (الفوراميفرا) حيوانات اولية مجهرية وحثو الخلية ذات غلاف متكلس (من مادة جيرية) تعيش في البلاتكتون في الطبقات السطحية لياه المحيطات وعند موتها تتساقط أغلفتها المذكورة على قاع المحيط كزواذ المطر ، وعلى مر العصور كونت نوعا مميزا من الرواسب الطينية على قيعان المحيطات يعرف باسم طمي الفوراميفرا أو المنخربات

شتى من حيوان القاع العميق وقطعا من الصخور .. وكانت البعثة حتى وقت رسوها على ميناء كولبو قد تمكنت من فحص المحطات ١٢٧ - ١٣٥ .

وقضت السفينة في ميناء كولبو عقب تلك الرحلة قرابة شهر واحد ، وهي مدة أطول مما تمضيه عادة في الموانئ ، وذلك بالنظر لحاجة السفينة الى صيانة واصلاح ودهان ، وفي تلك الأثناء تمكن « فاركسون » من اجراء بعض المسح المغناطيسى في أرخبيل الملايو من على ظهر قارب تابع لحكومة سيلان .

وتبدأ الرحلة الثامنة من وقت مغادرة السفينة كولبو يوم ١٧ مارس سنة ١٩٣٤ وذلك للعمل في المنطقة الواقعة جنوب شبه القارة الهندية فيما بين جزر الملايدف وأرخيل شاجوس ثم تتجه شمالا لفحص اللاجونات البركانية المحيطة بجزر الملايدف ومن بينها لاجونات : أدو ، ومالى ، وكولومادولو ، ومولاكو ، وهور سبورغ ، وفاديفولو .. وبعد أن استقبل سلطان « الملايدف » أعضاء البعثة تعود السفينة مرة أخرى الى ميناء كولبو فتصله في اليوم الثالث عشر من شهر ابريل سنة ١٩٣٤ .

وفي تلك السفرة أتمت البعثة فحص ٢٢ محطة من بينها عشر محطات أجرى فيها « فاركسون » أرسادا مساحية ومغناطيسية ، كما اكتشفت البعثة لاجونا مغمورا على عمق ٢٣٨ مترا يمثل قمة بركان قديم وذلك في الطرف الغربي لقناة كارديفا ، كما تكهنت البعثة أيضا بوجود تيارمائي تحتى قوى يمر فوق سلسلة جبال الملايدف المغمورة .

وتبدأ الرحلة التاسعة للبعثة من وقت مغادرة السفينة لميناء كولبو في اليوم التاسع عشر من

.. وكان ذلك في أحد أيام عام ١٩٥٣ . وفى يميني أن هذه الرحلة القصيرة الأخيرة ربما كانت آخر عهد للسفينة بجمع العينات من البحر . ولقد كان من رأينا وقتئذ أن تبقى هذه السفينة بالميناء الشرقى بالاسكندرية وتحول لبيت من بيوت الشباب يخصص جزء منه لمتحف بحرى صغير .

٤ - الآثار العلمية لبعثة مباحث :

ليس هناك من شك فى أن الانجازات العلمية التى حققتها بعثة « مباحث » فى الجزء الشمالى الغربى من المحيط قد خلدت اسم هذه البعثة ضمن قائمة البعثات العلمية العالمية التى أماطت اللثام عن كثير من أسرار البحار والمحيطات وساهمت فى تقدم معلوماتنا عنها .

فقد قامت « مباحث » بعشر رحلات رائدة فى هذا الجزء من المحيط كما وضعنا آتفا فحصت خلالها ٢٠٩ محطة عملية دونت أرصادها بدقة على الخرائط ويمكننا اجمال هذه الرحلات فيما يلى :

الرحلة	المنطقة	ارقام المحطات
الرحلة الأولى من البحر الأحمر لعدن	١ - ١٨	
الرحلة الثانية من عدن لعدن	١٩ - ٣٧	
الرحلة الثالثة من عدن لكراشى	٣٨ - ٦١	
الرحلة الرابعة من كراشى الى بمباى	٦٢ - ٩٠	
الرحلة الخامسة من بمباى الى ممباسا	٩١ - ١٠٢	
الرحلة السادسة من ممباسا الى زنجبار	١٠٣ - ١٢٦	
الرحلة السابعة من زنجبار الى كولبو	١٢٧ - ١٣٥	
الرحلة الثامنة من كولبو الى كولبو	١٣٦ - ١٦٥	
الرحلة التاسعة من كولبو الى عدن	١٦٦ - ١٩٦	
الرحلة العاشرة من عدن الى البحر الأحمر	١٩٧ - ٢٠٩	

فتبدأ بالاتجاه جنوبا لتكرر بعض الأرصاد الهيدروجرافية على خط طول ٤٥° شرقا . ثم تنجبه غربا الى بواغاز باب المندب فتفحص مياهه وخواصها وتياراته مرة أخرى ، وتأخذ عينات من القاع بالكماشات فى جنوب البحر الاحمر حيث تنتهى الاعمال العلمية للبعثة فيه بالنظر لمرض الربان ، ثم تغذ السفينة سيرها فى هذا البحر بأقصى ما تستطيع من سرعة نحو الشمال فتصل ميناء السويس فى يوم ٢١ مايو سنة ١٩٣٤ قبيل منتصف الليل بقليل .

وفى هذه السفرة الأخيرة أتمت البعثة فحص المحطات من ١٩٧ الى ٢٠٩ كما دعمت عملها السابق على جانبى بواغاز المندب . ويتضح من البحوث والفحوص التى تمت خلال فصلين مختلفين من فصول السنة فى تلك المنطقة أن هناك تغيرات موسمية واضحة للتيارات البحرية واتجاهها .

وهكذا مرت السفينة فى قناة السويس للمرة الثانية قادمة من الجنوب خلال يومى ٢٢ ، ٢٣ مايو فى طريقها الى ميناء الاسكندرية فوصلتها فى الخامس والعشرين من هذا الشهر من عام ١٩٣٤ حيث كان فى استقبالها جمع وافر من أسر البحارة ورجال البحرية والسواحل والموظفين الرسميين ، كما اقامت جامعة القاهرة فيما بعد لأعضاء البعثة استقبالا خاصا .. أما السفينة فقد عادت لقاعدتها فى ميناء الاسكندرية حيث ظلت فى مرسأها سنين طويلة بعد ذلك ، وأذكر اننى اصطفت طلاب قسم علوم البحار بجامعة الاسكندرية على ظهرها فى رحلة تدريبية لجمع العينات خارج ميناء الاسكندرية بعد عودتها من المحيط الهندى بنحو عشرين عاما

ولقد ظهرت نتائج كل تلك الدراسات فى
المجلدات العشرة التى ضمت التقارير العلمية
للبعثة بأقلام عشرات العلماء وأشرف على
إصدارها المتحف البريطانى للتاريخ الطبيعى بلندن
بين سنوات ١٩٣٥ - ١٩٦٠ .

وليس هنا مجال استعراض تفاصيل تلك
التقارير العلمية بطبيعة الحال ، ولكننا نود أن
نشير بخاصة الى نتيجتين من النتائج الهامة التى
وصلت اليها البعثة لما لها من شأن كبير ، وقد كنا
قد أشرنا اليهما إشارة عابرة فيما تقدم من صفحات.

أما عن النتيجة الأولى فستناول نظام تبادل
التيارات المائية بين البحر الأحمر والمحيط الهندى
عبر بوزاز باب المندب وقبل أن تفعل ذلك يجدر
بنا أن نشير الى أن ثمة جيلا قائما يرتفع من قاع
البحر عند مضيق باب المندب وينتهى على عمق
نحو مائة متر تحت سطح الماء مكونا ما يعرف باسم
« سد باب المندب » وعلى ذلك فلا تتبادل مياه
المحيط ومياه البحر الأحمر الا عن طريق عمق
ضيق يرتفع بنحو مائة متر فوق قمة هذا السد ،
حتى مستوى سطح البحر ويعرف علميا باسم
« عمق السد » أو العمق الحر للماء الذى يتم
التبادل من خلاله . ونظام التبادل المذكور يختلف
فى الصيف عنه فى الشتاء ويتبع الى حد كبير
نظام الرياح السائدة فى كل موسم . ففي فصل
الصيف تدفع الرياح الشمالية مياه البحر الأحمر
السطحية العالية الملوحة عبر مضيق باب المندب
الى خليج عدن وفى نفس الوقت تدخل مياه
المحيط الهندى من فوق سد باب المندب الى
أعماق البحر الأحمر محتفظة بخواصها فى هذا
البحر .

ولقد غطت هذه الرحلات المناطق الآتية من
المحيط الهندى وأثرت معلوماتنا العلمية عنها
وهى : البحر الأحمر - خليج عدن - الساحل
الجنوبى لشبه جزيرة العرب - خليج عمان -
شمال بحر العرب ووسطه - منطقة جزر زنجبار
- جنوب بحر العرب - منطقة جزر الملاديف فى
جنوب غربى سرنديب . ولم تقتصر دراسات البعثة
على فحص خواص المياه وتوزيع درجات الحرارة
والملوحة بين السطح والقاع فحسب ، بل شملت
أيضا دراسة التيارات المائية السطحية والعميقة
ودراسة الحيوانات البحرية وتوزيعها بين السطح
والقاع وعلى قاع المحيط نفسه ومن بينها أنواع
جديدة للعلم تنتمى لثلاث فصائل المملكة الحيوانية .
كما كان للبعثة فضل الكشف عن منطقة
من المياه المتوسطة فى بحر العرب تنعدم فيها
الحياة تقريبا ويشوب قاعها غاز كبريتور
الايدروجين السام .

أما للدراسات الجيولوجية للبعثة فقد تمخضت
هى الأخرى عن اكتشاف سلاسل جبلية على قاع
المحيط وعن كثير من التضاريس الأخرى التى تعتور
قاع ذلك الجزء الشمالى الغربى منه سواء أكانت
هضابا أو منخفضات ، كما حظيت دراسة
اللاجونات البركانية فى منطقة جزر الملاديف بأهمية
خاصة من البعثة التى درست أيضا المجال المغناطيسى
للأرض فى تلك المنطقة .

وللبعثة الفضل فى تسجيل أغوار تنوف على
الخمس الآلاف متر فى هذا المحيط وفى تسجيل
درجات عالية من الحرارة للمياه السطحية (مثل
درجة ٣٣ر٣٣ مئوية عند محطة ١١ فى البحر
الأحمر) .

وأما فى فصل الشتاء فإن الآلة تنعكس ، اذ يدخل تيار مائى سطحى قليل الملوحة من المحيط الهندى الى البحر الأحمر بينما يفيض ماء البحر الأحمر المرتفع الملوحة من الطبقات تحت السطحية للماء منحدرًا من فوق سد باب المندب ليدخل المحيط الهندى وينتشر فيه على الأعماق . وعلى ذلك فلو اخترنا خواص المياه العميقة على جانبى سد باب المندب فى أى وقت لوجدناها تختلف اختلافا كبيرا من حيث توزيع درجات الحرارة والملوحة والخواص الأخرى . فها هو البحر والمحيط يلتقيان على السطح بينما على جانبى السد فى الأعماق يحتفظ كل منهما بخواص مياهه (١) .

وشبهه بذلك ما نجده من نظام تبادل التيارات المائية بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى فوق سد جبل طارق المغمور ، وعمق الماء فوق السد المذكور يبلغ نحو ٣٢٠ مترا أى يزيد على عمقه فوق سد باب المندب المغمور ، وفى تلك الحالة الأخيرة يدخل تيار سطحى مستمر من المحيط الأطلسى الى البحر الأبيض المتوسط وهو تيار أقل ملوحة وحرارة من مياه البحر الأبيض المتوسط بينما تفيض مياه البحر المتوسط الى المحيط الأطلسى منحدرًا من فوق سد جبل طارق وهى مياه ثقيلة مرتفعة الملوحة وتظل تحتفظ بخواصها وهى تسير على شكل تيار عميق فى المحيط الأطلسى لمسافة تزيد على الألف كيلومتر .

(١) قد بدعونا ذلك الى التأمل مرة أخرى فى تفسير الآلة الكريمة (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان) على ضوء هذا الكشف العلمى .

أما النتيجة الثانية الهامة لبعثة مباحث فى اكتشافها لعقد المنجنيز على القاع . وقد كانت أول اشارة لوجود مثل هذه « المناجم » على قيعان المحيطات نتيجة لبعثة تشالنجر الشهيرة حول العالم بين سنوات ١٨٧٢ - ١٨٧٦ م . وها هى « مباحث » تكتشف كيمايات كبيرة منها لأول مرة فى تلك المنطقة من المحيط الهندى . وتحتوى عقد المنجنيز المذكورة على عناصر المنجنيز والنيكل والكوبالت والنحاس والحديد وهى تترسب باستمرار ويبطء من ماء البحر فتكون كتلا فى مثل حجم البرتقالة أو أصغر أو أكبر . ونظرا لما لهذه المناجم على قاع المحيط من آثار اقتصادية بعيدة المدى فقد فكر العلماء جديا فى استغلالها اقتصاديا وبخاصة على قاع المحيط الهادى وقد زاد الاهتمام بها كثيرا عقب بحوث البعثات الدولية فى برنامج السنة الجيوفيزيائية الدولية فى المحيطات (١٩٥٧ - ١٩٥٨) . وتقدر كثافة توزيع ما يوجد من عقد المنجنيز على القاع فى بعض مناطق المحيط الهادى نتيجة لتلك البحوث بمازته نحو ١٠ - ١٥ كيلوجراما فى المتر المربع الواحد من القاع وهى ثروة تزيد بألاف المرات عما هو موجود فى مناجم الأرض كلها من هذه الخامات ثم انها مناجم لا ينضب معينها فهى فى نمو دائم .

وفضلا عن الآثار العلمية التى تركتها بعثة «مباحث» على النطاق الدولى فى سجل كشف الاقيانوس فقد كان لهذه البعثة أيضا آثار محلية جليلة نذكر من بينها زيادة الوعى والاهتمام فى مصر بهذا الفرع الجديد من فروع المعرفة ألا وهو دراسة البحار والمحيطات ، وقد كان لذلك أثره فيما بعد فى انشاء قسم علوم البحار بجامعة الاسكندرية وعلى يد رجلين من رجال البعثة من

منهما بكتابة كثير من الأعمال الأدبية القيمة نذكر
من بينها كتابه بعنوان « حديث السندباد
القديم » .

المصريين وهما الأستاذ الدكتور حسين فوزى
والأستاذ الدكتور عبد الفتاح محمد ، فضلا عن أن
تلك الرحلة على ظهر « مباحث » قد أوحى للأول

* * *

الرامايانا

بقلم : محمد إسماعيل الندي

التاريخ والفكر في الهند ، اذ أنهم استولوا على المناطق الشمالية بعد فتحها وطردها أهلها الى الجنوب كما جلبوا معهم حضارة أوربا القديمة ومنطقة الشرق الأوسط وتقاليدهما بعد أن عاشوا فيهما ردحا طويلا من الزمن . ولكن سرعان ما امتزجت حياتهم وتقاليدهم بأهالي الهند القدماء وظهرت حياة وثقافة جديدتان تتميزان بالخصائص الآرية والمزايا الهندية القديمة على السواء . وقد وضع «رجفيدا» (Reg-veda) أقدم كتاب ديني للآريين ، سجل فيه حياتهم وتقاليدهم وأفكارهم السهلة والساذجة تجاه الكون وخالقه . وهذه الظاهرة تدل على أن الآريين القدامى وجهوا عنايتهم منذ أول قدومهم الى تسجيل أفكارهم ونزعاتهم . ومن ثم توالى بعد « رجفيدا » صدور كتب كثيرة دينية . ولما كانوا في بادئ الأمر قد خاضوا معارك كثيرة واقتحموا بلادا عديدة في شمال الهند ووسعوا رقعة بلادهم من الشرق الى الغرب . فقد ساعدت هذه الأحداث والوقائع على ظهور قصص وأساطير تصور حياتهم

تمتاز الهند بحضارتها الأصيلة وآدابها وفنونها وفلسفتها كاليونان ومصر ، لأنها كانت منبع الحضارة ومهد الثقافة . وقد تفجرت من أرضها ينابيع العلوم والفنون والمعارف التي تتسم بالأصالة وطابعها الخاص . وقد ساهمت في هذا المجال أمم كثيرة وطوائف عديدة نزحت الى الهند في العصور الساحقة واستوطنتها ومن أهمها بل وأكثرها قوة وأثرا وخلودا الأمة الآرية ، التي نزحت من أوربا الى آسيا واحتلت أولا بلاد الفينيقيين ثم ايران في حدود عام ١٥٥٥ ق م تقريبا . ومنها نزحت الى الهند بعد نصف قرن تقريبا . ولقد اختلف المؤرخون في الموطن الأصلي لهؤلاء اذ يرى بعضهم أنهم كانوا من سكان « سيبيريا وتركستان » . وقال آخرون انهم كانوا يقطنون بلاد « بامر » (Pamer) وقال بعضهم : انهم كانوا يسكنون في ألمانيا وبولندا ولكن أرجح الأقوال في هذا الصدد أنهم يقطنون جنوب روسيا (١) .

ومنذ قدوم الآريين الى الهند تغير مجرى

The Anvil of civilization by Leonard Cottrell (١)
p. 112

The History of the World by Rene Sedillot (١)
p. 39.

وعقليتهم وتقاليدهم وبطولتهم وقيمهم المعنوية على أبدع صورة وأجمل مظهر .

ان « الرامايانا » (Ramayana) أول ملحمة أو اسطورة في هذا الصدد تصور المرحلة الأولى من حياة الآرين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد .

وقد عاشت بين فترتي القرن الثاني عشر والعاشر قبل الميلاد في شمال الهند في ولايتي «أتاربراديش» (U.P.) و «وبهار» (Bihar) أسرتان كبيرتان للملوك الآرين وهما «كوسالاس» (Kosalas) «وفيديجاس» (Videhas) وكانت مدينة «أوده» (Oudh) عاصمة «دساراتا» (Dasa-ratha) ملك «كوسالا» . أما مدينة بتنه Patliputra or Patna فقد كانت عاصمة ملك «فيديجاس» الذي زوج ابنته «سيتا» لبطل الأسطورة الابن الأكبر لدساراتا وهو راما (١) .

وإذا كانت « الرامايانا » عبارة عن الأحداث التاريخية التي وقعت في هذه الفترة من الزمان ، فإنها لم تسجل في نفس الوقت على الصورة الحالية . بل مرت بمراحل كثيرة ، لأننا إذا نظرنا الى القصص السنسكريتية القديمة وأساطيرها نجد أنها ظهرت منذ القرن العاشر قبل الميلاد . فقد تناولها الشعراء باعجاب وتقدير ونظموها بالشعر السنسكريتي . وهذه الأشعار لم تسجل في تلك الفترة بل ظلت تحفظها صدور الناس كما كان الحال في كل أمة عاشت في ظل البداوة . وبهذا مرت ملحمة « الرامايانا » التي ظهرت في القرن العاشر قبل الميلاد تقريبا بمراحل عديدة ، وتناقلتها الألسن من جيل الى جيل ومن عصر الى عصر حتى اتخذت هذا اللون البديع الأنيق في القرن الخامس أو

الرابع قبل الميلاد (٢) .

لقد ألفت هذه الملحمة باللغة السنسكريتية الناضجة ولذلك يرى بعض الباحثين أنها ألفت في القرن الخامس قبل الميلاد ، أى بعد مرور مايقرب من ألف سنة على حدوثها، لأنها تصور شطرا من الحياة الاجتماعية والسياسية لهذه الفترة . ويرى الأستاذ (F.W. Thomas) أنها ألفت في القرن الثاني قبل الميلاد تقريبا ، إذ كانت السنسكريتية في ذلك الحين هي اللغة الأدبية والرسمية . وقد ظهرت هذه اللغة بعد قدوم الآرين الى الهند . وهى في الحقيقة فرع من لغات أوروبا القديمة التي نشأت منها اليونانية ثم الانجليزية والألمانية وما الى ذلك . ولذلك تسمى السنسكريتية « اللغة الهندية الآرية » (Indo-European)

كانت السنسكريتية في بادى الأمر لهجة أوروبية تشبه اليونانية القديمة ، تكلم بها الآريون الذين نزحوا الى الهند ، واقتتحوا ولاية بنجاب وقطنوها في أول الفتح . وقد مرت هذه اللغة مع الاختلاط باللغة الأصلية في الهند بعدة تغيرات كما سجلتها عدة كتب دينية هندوكية مثل «رج فيدا» و «يوانيشاد» . ثم زادت رقعة الفتوحات واتسع سلطان الآرين الذى امتد الى عدة مناطق هندية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، واحتلوا أربع ولايات كبرى وهى « بنجاب وأتاربراديش وبهار ومدهيا براديش » . وهذه الولايات الأربع لاتزال حتى اليوم معقل العنصر الآرى ومهد الحضارة الآرية . وقد أخذت هذه اللغة في التطور في نحو ألف سنة . وفي خلال هذه المدة وضعت لها قواعد النحو والصرف والعروض ، وألفت بها الكتب العلمية والأدبية .

Hinduism by M. Sen p. 73 and the Legacy of India p. 63.

The Legacy of India p. 67.

The Ramayana of the Mahabharata by Romech C. Dutt p. 1

(١)

وعلى هذا الأساس يمكن لنا القول بأن الملحمة تصور أحداث القرن العاشر قبل الميلاد ، ولكنها سجلت فى هذا القالب الشعرى فى القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد (٢) .

وهذه الملحمة كثير من الكتب الهندوكية القديمة لا يعرف مؤلفها على وجه التحديد .

وقد جاء فى « الرامايانا » نفسها أن الراهب « والميكي » الذى ساعد «راما» فى محتته فى الغابة والذى شاهد وعاصر جميع مشاهد البطولية هو الذى نظمها بعد عودة «راما» من منفاه الى «أيودهايا» . ففى هذه الآونة لجأت اليه « سيتا » زوجة راما وماتت فى ديره ، لأن راما نقاها الى الغابة . ولذلك أتاحت للراهب فرصة تربية ابنى «راما» اللذين عاشا فى كنفه تربية رهبانية . وقد جال بخاطره فى هذه الفترة الميل الى نظم مشاهد «راما» ومواقفه البطولية كلها بالشعر . فبدأ فى نظمها وقد استغرق هذا العمل منه خمسة وعشرين يوما . كلما قرض «والميكي» مقطعا حفظه ابننا راما فى نفس الوقت . وبهذا حفظا الملحمة كلها والتي تتكون من خمسمائة مقطع ، تتضمن ٢٤٠٠٠ بيت . وقد أقام راما احتفالا دعا فيه الراهب والميكي أيضا . فحضره «والميكي» مع ابنى راما اللذين أنشدا فى هذه الحفلة ملحمة « الرامايانا » كلها . وقد أثارت هذه الملحمة دهشة راما واعجابه ، وكذلك أعرب الشعب عن اعجابه الشديد بها ، وتقديره العظيم لها . فأقبل الناس على حفظها بشوق ورغبة منقطعى النظير . وبهذا احتفظت بها الصدور وتناقلتها الألسن دهرا طويلا الى أن سجلت كتابة فى القرون الأخيرة قبل الميلاد (٣) .

وفى القرن الرابع قبل الميلاد اتسمت هذه اللغة بثلاث خصائص بارزة قسمتها الى ثلاثة فروع أو شعب : أولاها اللغة الكلاسيكية التى تكلم بها رجال الدين والكهنة . وقد توارثها هؤلاء كابران كابر فاحتفظوا بقالها وصياغتها فى حب وتقدير لاحد لهما ، فأصبحت هذه اللغة كبنيان مرصوص بعد تأليف «بانى» (Paini) — النحو الشهير — قواعد نحوية مربوطة لها ، وذلك فى القرن الرابع قبل الميلاد . وثانيها لغة الشعراء والأدباء . وبهذه اللغة ألقت الأساطير الهندية الشهيرة مثل « الرامايانا » و « المهابارتا » . وثالثها لغة عامة المتعلمين والمثقفين السهلة التى ألقت بها معظم أجزاء كتب «الفيدا» كما ألقت بها أيضا كتب العلوم والفنون مثل السياسة والقانون والأدب والفن (١) . وفيما يتعلق بالأبواب والفصول فى ملحمة « الرامايانا » يقول الأستاذ « رومش دوت » (Romesch) — باحث هندوكى شهير فى الآداب السنسكريتية — انها فى الأصل تحتوى على ستة أبواب فقط وتنتهى بعودة الأبطال الى ديارهم بعد مغامراتهم الطويلة لسنين عديدة . ولكن الباب السابع الذى ألف بعد قرون من حدوث وتسجيل هذه الملحمة هو فى الحقيقة معيار جديد للشعر السنسكريتى اذ تلوح فيه ملامح لغة جديدة حديثة ظهرت فى القرون الأخيرة قبل الميلاد .

وخلاصة القول أن الملحمة تحتوى على ستة أبواب أصلية وذيل فى الآخر يكون الفصل السابع ثم تنقسم الملحمة كلها والتي ألقت بالشعر الى ٥٠٠ مقطع أو قصيدة تتضمن ٢٤٠٠٠ بيت .. وبدراسة الباب السابع يظهر لنا بكل وضوح أنه ألف قبل الميلاد اذ نجد فيه بلدانا وأحداثا ومشاهد لم تعرف فى عصر «راما» البطل واخوته بالمرّة .

The Wisdom of India by Lin Yutang p. 123. (٢)

The Wisdom of India by Lin Yutang p. 271. (٣)

The Legacy of India p. 40-41.

(١)

انسان يقرأها كما يلوح فيها وفي كل موقف من مواقفها الصفاء والجمال والصدق والركة والعاطفة والهدف الأساسى فيها هو المرأة والبيت فى حين أننا نجد ملحمة «المهابهارتا» تدور حول الرجل والحرب (٢). وبما أنها أقدم تراث وصل إلينا تتجلى لنا فيها معالم الهند القديمة كلها من حياة شعبها ومجتمعها وتقاليدها ومعتقداتها.

أما الناحية الفنية فيها فهى تعطى بؤادر أولى وأساساً ثابتة للأساطير الهندية التى ظهرت فيما بعد، لأنها تصور الغابات الهندية الشهيرة الممتلئة بالوحوش والحافلة بالأخطار والتى غامر فيها أبطال هذه الملحمة أنفسهم وقضوا فيها سنين عديدة يهيمنون على وجوههم ويخاطرون بأنفسهم ويتنقلون من غابة الى غابة ومن بلد الى بلد من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب حتى جزيرة «سيلان» الشهيرة التى منحت هذه القصة الشهية جوانب انسانية رائعة وبطولة عظيمة ومواقف بين النهرين الشهيرين «الجنجا والجننا» مثل «أوده وقنوج» و«واله آباد» ولكن لا يكاد يبين لنا فى خلال هذه الملحمة أثر المدن الشهيرة الأخرى مثل «دلهى» و«أجينا» اللتين لعبتا دوراً كبيراً فى الأدب السنسكريتى القديم ولا سيما فى ملحمة «المهابهارتا» ومسرحية «شكتلا» (٣) وهذه الظاهرة تدل على أن نطاق هذه الدولة لم يتسع الى هذه المناطق. ومع ذلك يتضح لنا من خلالها معالم الهند كلها مثل طبيعتها الفتاة وجمالها الباهر وأنهارها الجارية وغاباتها المظلمة ووديانها ورعودها وأمطارها وسحبها.

وهذه الملحمة أو الأسطورة تصور الحياة الروحية والقيم المعنوية لدى الهنود فى هذه

The Wisdom of India p. 122.

(٣)

(٤) أنظر مقالنا عن «شكتلا» فى مجلة «تراث الانسانية» الصادرة فى أغسطس سنة ١٩٦٥.

هذه الظاهرة تلقى الضوء على التأليف والتدوين فى الهند فى القرون الخالية، لأننا نفهم أنها كالبلدان المتحضرة الأخرى فى العالم لم تسجل إنتاجها الأدبى والفكرى من أول وهلة، بل تداولت ألسن الناس «الراماياتا» دهراً طويلاً، وحفظتها الصدور زمناً غير يسير، حتى وجهت العناية أخيراً الى تسجيلها فى الكتب بعد أن قطعت الهند مرحلة طويلة فى ميدان العلم والفكر.

ولكن الراماياتا على الصورة الحديثة ليست جهود شاعر أو شاعرين بل ساهم فى أداء هذه المهمة عدد من الشعراء البارزين الذين عاشوا خلال القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد كما هو الشأن للملحمة أخرى شهيرة ألقت بعد الراماياتا وهى «المهابهارتا» (Mahabharata) (١)

ويجدر بنا الآن أن ننظر الى النواحي الأدبية والفنية فى هذه الملحمة. وما من شك فى أنها من أولى نماذج الأدب والقصص فى الأدب السنسكريتى بل الأدب الهندى قاطبة. وهى غنية بالاحداث والمشاهد والحكايات والصور، وتعتبر نواة أولى للأساطير والقصص والمسرحيات السنسكريتية الشهيرة التى ظهرت فيما بعد مثل «نال» (Nala) و«ساوترى» (Savitri) وشكتلا. وهى صادقة فيما تحكى عن نفسها فى موضع من المواضع اذ أنه لم تظهر قصة على وجه هذه الأرض قبل هذه القصة، وهى التى تغذى جميع القصص وتنح القوة لجميع الشعراء وهى درة يتيمة للشعر والشعراء (٢).

إن «الراماياتا» تحمل المثل العليا والأهداف النبيلة والقيم الأخلاقية والأعمال البطولية التى تمثل جوانب انسانية رائعة فيها الدرس والعبرة لكل

(١) أنظر ما جاء فى تقديم:

The Legacy of India p. 67.

The Ramayana of the Mahabharata

(٢)

الفترة من الزمان . فلقد قطع الآريون مراحل عديدة في تطورهم التاريخي والفكري اذ مرت حياتهم حيناً بالمادية البحتة وحيناً آخر بالروحانية المحضة . وبما أن «الراما يانا» تصور أولى مرحلة حياة الآريين في الهند فنرى أن حياتهم تموج بالروحانية والقيم الأخلاقية والمبادئ السامية .

ومن الأهداف الرئيسية فيها أنها تحت الانسان على التضحية وأداء الواجبات نحو الانسانية ويذم الأنانية والحرص على تحقيق الأغراض الشخصية (١) . والسبب في ذلك أن الانسان في كل مكان قطع المرحلة الأولى من الحياة في الايمان بالله وقدرته وجبروته في هذا الكون . ثم ظهر عليه الطغيان والتمرد أخيراً مما حدى به في بعض الأحيان الى الكفر بالله والجري وراء المادية والشهوانية . وقد وقعت الهند في هذا اللون من الحياة في العصور التي تلت «الراما يانا» كما تصورها ملحمة «المهابهارتا» . وهذا هو السبب في أن «كرشن» الشخصية الأسطورية في هذه الملحمة حمل لواء المعارضة ضد هذه الحياة (٢) .

وحينما ننظر الى القيم الروحية والمبادئ السامية في «الراما يانا» نجد أن أحسن ما يتصوره الانسان في هذا المجال الطاعة والخضوع والوفاء والاخلاص والمحبة والتضحيات والعفو والتسامح والكرم وما الى ذلك . وأول ما نصادفه في هذا الصدد أن الملك «دساراتا» يحب ابنه الأكبر راما حباً جماً ، ولكنه يقع في خديعة زوجته الصغيرة الجميلة فيقطع لها العهد على نفى «راما» من البلاد وتولية ابنها «بهارت» العرش . ونجد أنه وفاء

(١) The critical survey of Indian philosophy by Dr. Chandradar p. 41

(٢) قد أوردنا التفصيل في هذا العدد في مقالتنا عن «جيتا» في مجلة «تراث الانسانية» الصادرة في أغسطس سنة ١٩٦٤ .

لعهد والده مع زوجته يترك البلاد ويهيم على وجهه في الغابات فيما يقرب من أربع عشرة سنة ، يعاني فيها الكثير من أنواع العذاب والتعب والارهاق . كل هذا حباً لوالده وطاعة وخضوعاً لمشيئته . وأما «سيتا» زوجته فتطيع زوجها الى حد العبادة وتضرب الأمثلة الرائعة للزوجة المثالية بوفائها واخلاصها وتضحياتها له حتى في أصعب اللحظات حينما يخطفها الملك «راون» ملك سيلان ويرغمها على الزواج منه .

وحينما يرافق راما أخوه «لشن» الى الغابة تصور هذه المشاهد نماذج حية لحب الاخوة بعضهم لبعض ، واخلاصهم وتضحياتهم . وفي ثانياً هذه المصائب والآلام يضطر راما الى اعلان الحرب على راون ملك سيلان لانقاذ زوجته سيتا الوفية من قبضته الظالمة ، ولكن هذه الحرب هي الأخرى تعطى درساً أخلاقياً رائعاً لأنه يتجنب فيها اراقة الدماء ونشر الدمار في أول الأمر ، ويحاول بأقصى ما في وسعه من جهد لايجاد حل سلمي . وحينما تدور رحى الحرب بين الفئتين يحاول راما بأقصى ما يستطيع أن لا تنطفي عليه ثورة الانتقام أو يسيطر عليه غضب أو قهر . فكان كل همه منحصراً في انقاذ زوجته من الملك الطاغية الذي خطفها ووضعها تحت سيطرته ظلماً وطفياناً . تبدو لنا هذه الحرب ومن خلال هذه القيم المعنوية الرائعة حرباً مقدسة وليست حرباً دامية تصورها ملحمة المهابهارتا .

قد ساد الجانب الروحي هذه الملحمة الى حد كبير لأنها تروى على لسان راهب يصف مماركتها ويسرد أحداثها سرداً دينياً مقدساً . ومن أجل هذه الصبغة الروحية والقيم المعنوية فيها يرى الباحث توماس (F.W. Thomas) أنها تمهد السبيل للبوذية التي نشأت بعد ظهور هذه الأسطورة فيما يقرب من ستة قرون لأنه طغى عليها ذلك الجانب

الروحى الذى يلمح فى الرامايانا بأبداع مظاهره وأدق معانيه (١) .

ومن سميات الديانة الهندوكية الآرية بالنسبة الى الديانات السماوية السامية - مثل الاسلام واليهودية والمسيحية - أنها لا تعتقد فى النبوة ولا يوجد فيها هذا التصور بتاتا ، بل تؤمن بنظرية الأوتار أو التجسد وهى ظهور الله سبحانه فى مظهر انساني واتخاذ قلبه لهداية البشرية وارشادها الى فعل الخير فى هذا الكون . وقد نشأت هذه العقيدة لأول مرة فى التاريخ الهندوكى فى الرامايانا لأن « القيدا » - أول كتاب فى الفكر الهندوكى - يؤمن بتعدد الآلهة التى تملك طاقات هائلة فى البر والبحر والشمس والنار والعواصف . وأما كتب « اليوبانيشاد » التى ظهرت فيما بعد فهى تعطى فكرة ناضجة عن الايمان بـ « براهمان » (Brahman) الذى لا مثيل له ولا نظير ولا شبيه اذ هو قوة هائلة تملك السموات والأرض وهذه العقيدة بدون شك تصور أقصى مرحلة للفكر الآرى حيث تزول جميع الآثار الوثنية ويتجلى التوحيد بأبداع مظاهره كالديانات السماوية السامية . ولكن «اليوبانيشاد» لا يمكن تحقيق الاستفادة منه الا للمتعلمين والعلماء فقط ، ولذلك كانت الحاجة ماسة الى عقيدة تتوسط بين الوثنية وبين التوحيد ، تؤمن بها جماهير الشعب الهندوكى التى لم تبلغ مبلغا كبيرا فى مستواها الفكرى ، وهذه هى نظرية الأوتار التى ظهرت لأول مرة فى « الرامايانا » فى شخصية رامابطل الأسطورة . ثم تطورت تطورا كبيرا فى ملحمة أخرى وهى المهابهارتا وذلك فى شخصية كرشن بطل هذه الملحمة . وهذا هو السبب فى اعتقاد جماهير الشعب الهندوكى من الطبقة المتوسطة حتى الآن بأن هؤلاء الأبطال هم الآلهة الذين تقمصوا

الانسان لهدياته فى هذا الكون فى حين يعتقد الفلاسفة والعلماء من الهندوس أن هؤلاء شخصيات خالدة أسطورية فى التاريخ الهندوكى وليسوا من الآلهة أبدا (٢) .

بعد استعراضنا لجوانب عديدة من الرامايانا ينبغى لنا القاء نظرات خاطفة على الجوانب الأخرى مثل المجتمع الهندوكى والتقاليد والمراسيم فيه وعلاقة الشعب بالملك وعلاقة الملك بالشعب وما الى ذلك .

ان هذه الملحمة تصور عصرها تصويرا دقيقا بحيث تتجلى أمامنا جميع مظاهرها من العقائد والتقاليد والمراسيم والحياة السياسية والاجتماعية وتوحى اليها بأننا نعاين أبطال هذه الملحمة ونشاهدهم أمامنا كشخصيات فى نفس العصر والزمن والبيئة . وفى هذا العصر - كما تصور الرامايانا - كان الهنود متمسكين بالقيم الانسانية والمبادئ الروحية السامية والايمان بالأوتار ، وكانوا يبيدين كل البعد عن المادية والأنانية والشهوة النفسية . ومن أهم ظواهر المجتمع فى هذا العصر أن تعدد الزوجات كان شائعا . ومن أجل ذلك نرى الملك دساراتا قد تزوج بما يقرب من أربع زوجات. وهذه الظاهرة هى التى جلبت مشكلات وويلات عدة كنفى رامابطل من بلده وموت دساراتا بسبب ذكريات ابنه الأكبر الذى اختار لنفسه الغربة والنفي من أجل أبيه .

يقول الدكتور «رادها كرشنان» - الفيلسوف الهندوكى الشهير ورئيس جمهورية الهند - : ان هذه الظاهرة فى الرامايانا سيئة للغاية لأنها تفتح المجال لتعدد الأزواج الذى لاخير فيه للانسان أبدا . وقد امتلأت قصور دساراتا بالنساء والحريم ودعا الى الاكتفاء بزوجة واحدة (٣) .

وحينما ننظر الى راما الذى تولى عرش أبيه بعد العودة من المنفى لا نجده مجرد ملك يملك الأرض ويأمر وينهى ، بل نجده بجانب ذلك محبا لشعبه عطوفا عليه ، كأنه أب ممتلىء قلبه بالحنان والشفقة والرحمة على بنيهِ . وكذلك أعرب الشعب عن شكره وتقديره واعجابه به الى حد بعيد حتى اتخذهُ بطلا أسطوريا والها من الآلهة .

وخلاف وصف الراماينا لعصره يبدو لنا أنه عصر ذهبي عاش فيه شعبه ممتعا بما ساد من الطمأنينة والرفاهية والوئام . لأن هؤلاء الملوك سعوا وراء تحقيق رفاهية الشعب وتوفير أسباب الراحة له سواء أكان دساراتا أو راما - بطمل الملحمة الذى اتخذهُ الشعب الها من الآلهة لشدة اعجابه به وتقديره له . كذلك يتجلى راما فى الملحمة كبطل وانسان يتصف بالأخلاق العالية ويحمل قوى معنوية عظيمة .

وبهذا تركت الراماينا أثرا قويا فى نفوس الهندوس واحتلت مكانة الصدارة بين غيرها من الملاحم والأساطير . كما ساهمت مساهمة كبيرة فى رفع معنوية الشعب ومنحه قوة روحية دافقة وإيقاظ شعور الحب والتضحية فى نفوس الهندوس لتقديس وطنهم ومعتقداتهم الدينية وشخصياتهم الأسطورية الخالدة الى حد العبودية .

ينبغى لنا الآن بعد تحليل الراماينا تحليلا دقيقا ووصفها وصفا صادقا أن نقارنها بما يشبهها من الملاحم والأساطير لدى الأمم المتقدمة فى العصور الساقطة . وقد حاول بعض الباحثين وعلى رأسهم (Ramesh.C. Dutt) و (Lin Yutang) مقارنتها بملحمة يونانية شهيرة هى الأوديسه (Odyssey) أن الأوديسه هى إحدى

ملحمتى « هوميروس (١) » الخالدين والأخرى هى « الإلياذة » . وتتكون الأوديسه من أربعة وعشرين نشيدا . يروى لنا الشاعر فى الأناسيد الأولى (١ - ٤) محاولة « تليماخوس » البحث عن أبيه « أودوسيوس » الذى طال غيابه بعد سقوط « طروادة » . فلما وصل الابن الى بلاط « فيلاوس » عرف أن أباه قد وقع أسيرا فى كاليبسو . ثم يصف لنا الشاعر وصول بطل « الأوديسه » الى أهل « فاياكيا » حيث يرحب به الملك (٥ - ١٢) ثم يعود « أودسنيوس » ويعود ابنه الى « إيتاكا » ويتفقدان على تدبير حيلة للالتقام من العشاق الذين ضايقوا « نيلوبا » (Penelope) فى غيبة زوجها (١٣ - ٢١) فيقتلهم « أودسيوس » (٢٢) ثم يكشف عن شخصيته لزوجته ويسترد حكمه ويعيش آمنا فى وطنه (٣).

يقول الاستاذ (Lin Yutang) ان كلا من الراماينا والأوديسه يتناول الغربه والنفس والتشريد ، لأن راما يهيم على وجهه فى الغابات تصاحبه زوجته المخلصة « سيتا » كما يخرج « تليماخوس » فى البحث عن أبيه الذى طال غيابه بعد سقوط طروادة . وثمة تشابه آخر بينهما وهو أن « سيتا » بطلة الأسطورة تقع فى اختبار شديد لوفائها وإخلاصها لزوجها وتخرج بنجاح فى امتحانها ولا يمس شرفها وعفتها خلال هذه الملحمة بشئ . وكذلك فى « الأوديسه » تختبر « نيلوبا » زوجة الملك « أودوسيوس » بعد غيبة زوجها (٤) . وهى

الأخرى تعود الى زوجها بعد أحداث طويلة . وهذه (١) وهو أعظم شعراء اليونان الذى عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد فى آسيا الصغرى فى إحدى المدن الآتية : « أثينا » و « أدنير » و « خيوس » و « كولوفون » . (انظر : الموسوعة العربية الميسرة ص ١٩٢١)

(٢) انظر : « الموسوعة العربية الميسرة » ص ٢٥٧ .

(٣) The Wisdom of India p. 122 — 123.

كهنة هذه الفلسفة (٢) . وهذه الظاهرة هي التي جعلت الضعف والانحلال يدبان في المبادئ التي نادت بها هذه الأساطير الخالدة .

ولكن الهندوس رغم كل التطورات التي طرأت على العقائد الهندوكية وفلسفتها على مرور الزمن يعربون عن تقديرهم وشكرهم للراماينا واعجابهم بها الى حد كبير ، لأنها تتحلى بأعلى آيات القيم والمبادئ . وهذه الملاحم لاتزال تقرأ في المعابد والأماكن المقدسة وفي البيوت ليلا ونهارا للموعظة والعبرة والدرس .

ومن أهم الظواهر في الراماينا والتي جذبت اليها نفوس الهندوس وتملكت وجدانهم وعواطفهم المثل العليا التي تضر بها سينا في هذه الملحمة كأمراة هندوكية مثالية . ولذلك لاتزال تعلق النساء الهندوكيات آمالهن العريضة على سينا ويستعدن ذكرياتها وبطولتها وتضحياتها وحبا المتفاني لزوجها وإخلاصها له ووفاءها ليحايينها في حياتهن الخاصة ويتمثلن في تقديس وعبادة .

قد استوحى عشرات من المفكرين الهندوس وزعمائهم الدينيين في شتى مراحل التاريخ الهندوكي من الراماينا ، ولا يزالون يستمدون منها أصولا ونماذج لحياتهم المعاصرة ويستلهمون منها الدروس والعبر والموعظة في حياتهم الروحية وسلوكهم الشخصي - فقد دعت شخصية راما الأسطورية المثالية الانسان الكامل للهندوس وهو الزعيم الروحي «رامانوجا» (Ramanuja) أن يرفع راية التوحيد في المنطقة الجنوبية في القرن الثاني عشر الميلادي . وكذلك دعا «راماناندا» (Ramananda) - المفكر الهندوكي الشهير في القرن الثالث عشر الميلادي - شعب شمال الهند

الملحمة اليونانية تحمل تلك القوى المعنوية . والأخلاق الانسانية التي تمتاز بها طبيعة الهند وتصورها ملحمة «الراماينا» . ولذلك يقول الأستاذ (Ramesh Dutt) : ان كلا من راما وسيتا يعطى أروع مثال للانسان الكامل الذي نبتغى وجوده في حياتنا ، ويمثل المثل العليا التي تتلسمها ونريدها . وهما يحملان قيما انسانية رائعة اذ تتمثل فيهما البطولة والشجاعة والمصابرة والصمود أمام الصعوبات والمشكلات . وبهذا يضرب كل منهما مثلا رائعة للحياة الفضلى . وهذه الحياة الطيبة هي التي يتطلع اليها الهندوس وتطالب بها دياتهم لتكون في سلوكهم ومعاملاتهم، وتصور نفس هذه الحياة المثالية «الكوميديا الالهية» التي ألفها «دانتى» (Dante) في القرون الوسطى في أوروبا لاعطاء صورة أوروبا الروحية . ان قيمنا الانسانية ربما لا تتلاءم مع القيم القديمة . قبل المسيح وبعده الى القرن الرابع عشر الميلادي الا أننا رغم ذلك نجد أنفسنا في ميسس الحاجة اليها اذ لايمكن لنا التغافل عنها مهما تغيرت الظروف ، لأنها تمثل مبادئ سامية للانسان في فترة من الفترات التاريخية القديمة (١) ان هذه القيم الروحية في «الراماينا» لم تلعب دورها في حياة الهندوس الى أمد بعيد بل سرعان ما طرأ عليها - كسنة هذا الكون - أنواع من التغيرات والتقلبات اذ ظهرت فلسفة جديدة تسمى بالسكريتيية (Vasithnavism) وهي عبارة عن التقاء قدرة الله سبحانه مع الايمان بالله الذي وصل اليه الانسان . وقد نشأت هذه الفلسفة في القرن الثاني قبل الميلاد وأذابت آثار الراماينا والمهابارتا الخالدة التي سيطرت على مجامع قلوب الناس رحا طويلا من الزمن وذلك بفضل جهود

(٢) The Legacy of India p. 369 and A Critical Survey of Indian Philosophy p. 335.

(١) The Ramayana of the Mahabharata p. 159.

القادر البدايوني ترجمته الى اللغة الفارسية في سنة ٩٩٥ هـ - ١٥٨٦ م وأنها في سنة ٩٩٩ هـ - ١٥٩٠ م . كانت هذه الترجمة تتكون من عشرين جزءا ، وأهداها المترجم الى الملك جلال الدين أكبر فسر به الملك سرورا بالغا ، لأنه كان يوجه عناية كبرى الى الحضارة الهندوكية وفلسفتها بدون سابق مثال له في تاريخ الملوك المسلمين الهنود أجمع . وتوجد نسخ خطية كثيرة من هذا الكتاب في معظم مكتبات الهند حتى وقتنا هذا .^(١)

أما في العصور الأخيرة فقد ترجمها الى اللغة البنغالية - لغة الشاعر طاغور - الأستاذ (Krittibas) والى اللغة الهندية الأستاذ (Tulasi Das) والى لغة « مارهااتا - لغة ولاية بمباى - الأستاذ (Sridhar) أما ترجمة «تولاسيداس» الى اللغة الهندية فتعتبر ترجمة قيمة ودراصة علمية دقيقة. ومن أجل ذلك ترجمت دراسته الى اللغة الانجليزية واللغات الأخرى .

كان هذا المترجم معجبا جدا بالراماياتا ومبادئها حتى انه كان يفخر حين يسمى ويلقب بالرجمى اذ لاحت عليه الآثار الرجعية بسبب اعجابه بالراماياتا بكل جوارحه ، ولا يمانه القوى بما ورد فيها من التقاليد والمبادئ والتعاليم .^(٢)

أما العناية بها في العصر الحديث في بلاد أوروبا فقد وجدت في «إيطاليا» أول ما وجدت حيث ترجمها الى اللغة الايطالية الأستاذ (Gorresio) في ١٨٤٣ - ١٨٦٧ م على نفقة ورعاية « شارل البرت » - ملك ساردينا . ثم ترجمها الى الفرنسية الأستاذ (M. Hippolyte) وكذلك ترجمت الى اللغة الانجليزية في مدينة كلكتا بالهند أيام احتلال

الى التوحيد . أما الزعيم الروحي الكبير « كبير داس » (Kabirdas) الذى عاش في نفس القرن تقريبا فقد دعا الى الوحدة بين الهندوس والمسلمين قائلا : ان اله محمد « صلى الله عليه وسلم » هو نفس الاله الذى يتمثل فى شخصية راما وعلى ابن أبى طالب (١) . وهذه كلها اشارات صوفية توحى الينا بأن الله قد تمثل فى شخصية راما كما تعتقد بعض الطوائف من الشيعة فى أن الله برز فى شخصية على بن أبى طالب ، ولا تزال تلتبس من الراماياتا معظم الطوائف الهندوكية - ومن أبرزها « وشنو » (Vishnu) و « سيوا » (Siva) اللتان تشكلان أغلبية ساحقة فى الهند المعمونة الروحية (٢) .

وبعد هذه الجولات الطويلة العريضة والنزهة المستعة فى رياض هذه الملحة الشهيرة يحسن بنا الآن أن نقف وقفة غير يسيرة أمام ترجمتها الى شتى اللغات ، وتعريفها للأمم الأخرى واعجاب الناس بها فى عدد من أقطار هذه الدنيا، وزيادة العناية بها فى الأوساط الأدبية العالمية .

ولعل أقدم ترجمة للراماياتا قد ظهرت مبكرة فى لغة «تامل» أشهر لغات جنوب الهند فى سنة ١١٠٠ م . ثم توالى لها ترجمات كثيرة الى اللغات الهندية الرسمية والشعبية . أما الرسمية فقد ترجمها الشيخ عبد القادر البديوانى الى اللغة الفارسية - وهى اللغة الرسمية الهندية فى العصور الاسلامية كلها - وذلك فى عصر الملك المغولى الشهير « جلال الدين أكبر » الذى ازدهرت فيه العلوم والفنون وشهد أعظم نشاط لحركة الترجمة فى التاريخ الهندى أجمع . لقد بدأ الشيخ عبد

(١) The Ramayana of the Mahabharata p. 162 — 163.

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) نفس المصدر ص ١٦٢ .

(٤) انظر : ميرم تيمورية (باللغة الادبية) للأستاذ السيد صباح الدين عبد الرحمن ص ٦٣ .

The Legacy of India p. 380.

الانجليز في بداية القرن العشرين . وقد أعيد طبع هذه الترجمة في مدينة «بمباي» بمقدمة قيمة للأستاذ (Ramanuju) ثم طبعت هذه النسخة بعناية من الأستاذ (Hemchandra Vidyaranta) في مدينة كلكتا في ١٨٨٥ م . ثم وجه الأستاذ (Ralph Griffith) عنايته الى ترجمة الأجزاء الستة الأولى من الرامايانا الى الشعر الانجليزى ، والأجزاء السابعة وهو الملحق الى النثر الانجليزى (١) . وبهذا وصلت ملحمة الرامايانا الى أوروبا واحتلت مكانة مرموقة في آداب أوروبا حتى أعجب بها أدباء أوروبا ورحبوا بها إعجابا وتقديرا وألماوا بها شرحا وتفسيرا تلخيص «الرامايانا»

بعد أن قمنا بدراسة علمية للملحمة «الرامايانا» وأبدينا مزاياها وخصائصها البارزة ، واستعرضنا مكاتبتها العلمية والأدبية لدى الأدباء والكتاب في العالم ينبغي لنا الآن أن نلخصها لتكون لها في أذهاننا صورة واضحة . وسنحاول هنا أن نلخص ما أورده الأستاذ (Ramesh Dutt) في كتابه (The Ramayana of the Mahabharato) لأنه أشهر باحث في أساطير الهند وآدابها . فقد بذل مجهودا كبيرا في إعداد هذا الكتاب .

يقول في خطته في الكتاب : انه اختار من هذه الملحمة الكبيرة أهم الأحداث والوقائع والمشاهد التي لاغنى عنها ، والتي تعرض الكتاب عرضا صحيحا دقيقا . من بين ٢٤٠٠٠ بيت من أصل الملحمة اختار ٢٠٠٠ بيت فقط رعاية للسهولة والسرعة واقتصادا للوقت . ورتبها في ٨٤ فصلا صغيرا في أسلوب سهل أنيق وأردف كل فصل بملحوظات هامة دقيقة (٢) .

تبدأ الملحمة بوصف مدينة «أيودھيا» عاصمة دساراتا - ووصف جمالها وبهاثها ورفاهية أهلها وإيمان شعبها بالآلهة وأداء طقوسهم الدينية لها . كان الملك موضع الإعجاب والتقدير في البلاد اذ كان يجلس بين يديه ويركع أمامه القساوسة والكهان . كان الملك نموذجا حيا للأخلاق العالية والمبادئ السامية . وكان الشعب في هذا العصر يمارس لزراعة باقتناء البقر والغنى والغلة والذهب . كانت الأخوة والمحبة والمواساة والمساعدة من أهم مميزات هذا الشعب . أما الخداع والمكر والخيانة والسرعة والأخلاق الرذيلة فلم تعرف في هذه البلاد مطلقا . وكذلك لم يشهد هذا العصر التفرقة ولا الفوارق الطبقة بل كانت جميع الطوائف والجماعات تؤدي واجباتها أداء كاملا . وكانت هذه البلاد بعيدة كل البعد عن الممارك واستخدام السيوف والرمح ، بل كانت ترفع دائما شعارات السلم والأمن والطمأنينة . ومع ذلك فقد كانت تحرسها حراسة كاملة من كل جانب الأفيال القوية التي كانت تجلب من غابات الهملايا . كانت أيودھيا عاصمة جميلة عامرة مزودة بالعمارات الفخمة والهيكل العظيمة ومحفوفة بالبساتين والروضات . وطبقا للتقاليد الهندوكية عند اختيار الزوج للأميرات أعلن «جاناك» - ملك فيديحاس - مسابقة في الرماية لاختيار أحسن رام كزوج لابنته «سيتا» . فيتدفق آلاف الأمراء من أطراف الهند وجوانبها على بلاط ملك فيديحاس التي تقع في ولاية بهار . وكان من بينهم «راما» ابن الملك «دساراتا» . وقد عرض الملك «جاناك» على هؤلاء الأمراء الوافدين أداء مهمة شاقة لاختبارهم ، وهي حمل وكسر أقدام وأثقل قوس يملكه من العصور الغابرة . وقد فشل في تنفيذ هذه المهمة كل من حضر هذه المسابقة . وتقدم راما بدوره ، وما أن فتح وشد وتر القوس حتى تحطم القوس في طرفه

(١) The Ramayana of the Mahabharata p. 161.

(٢) The Ramayana of the Mahabharata p. 161.

عين وارتفع منه صوت هائل مدو بلغ غنان السماء ، وصم آذان الناس ، فأغمى على الحاضرين أجمعين ، وتردد صدها فى الجبال والوديان والغابات المحيطة بالمدينة حتى سمعه الناس فى البلدان المجاورة . ثم ساد الهدوء وأفاق الناس من غشيتهم ، فقام الملك يعاقق الأمير «راما» وأعرب عن رغبته المخلصة فى تزويجه من ابنته الجميلة الحبيبة لديه تقديرا لشجاعته وبطولته .

وقد وصل هذا النبأ الى الملك «دساراتا» فى «أيودها»، وكان جالسا ساعتئذ على أربكته وبين يديه وزرائه وقساوسته وندماؤه . فهناك الجميع على بطولة راما وشهرته الفاتكة فى البلاد النائية حتى طار الملك فرحة وسرورا ، وغادر بلاده لحضور حفل زواج زاما الى «قيديحا» . فاستقبله الملك جاناك استقبالا منقطع النظير ، وأنزله منزلة السمع والبصر ، وأدى بمناسبة مقدمة جميع المراسيم الدينية . ثم أعد عدة ضخمة لحفلة الزفاف . فقد غطى السرادق بالأكاليل والباقات من الزهور والروائح والعمود وقرئت الأناشيد المقدسة من «الفيدا» . ثم جلس العريس والعروس بين يدي الكهنة يلتف حولهما آلاف مؤلفة من الناس ومن بينهم الملوك والأمراء والوزراء والندماء ، حتى تم الزواج بمهرجان عظيم . ثم عاد راما مع عروسه سيتا وأهله وذويه الى أيودها .

كان راما يعيش حياة طيبة مع زوجته ويؤدي جميع واجباته الدينية ، لأنه كان راسخ الإيمان بالآلهة . إذ كان يعبدهم ويقدمهم حتى رضى عنه الرهبان والكهنة واحترموه احتراماً بالغا .

ولما بلغ دساراتا من عمره مبلغا كبيرا وضعفت قواه عزم على تتويج ابنه الأكبر راما ليتسولى عرشه . وعقد لهذا الأمر اجتماعا كبيرا حضره جميع أبناء الشعب وأطلعهم على قراره بتولية ابنه راما

العرش . فوافق الجميع على هذا القرار ورضوا به إذ أنهم كانوا يحبون راما حبا جما ويقدمونه تقديسا بالغا . ثم أعدت العدة لتتويج راما فزنت البلاد وزخرفت القصور واحتشدت الجماهير . فقام راما المتدين التقى صلى الى الهة «نارين» الذى خلق جميع المخلوقات ، وقدم له الهدايا ووضعها ، على النار التى أوقدت لهذا الغرض . ثم أخذ ما بقى من النار وأكله بركة وثوبا واعتكف الليلة كلها ساهرا على الحشائش الخضراء التى فرشت بها أرض المعبد يعبد «نارين» ويطلب منه العون والتوفيق . وكذلك فعلت زوجته «سيتا» العفيفة الطاهرة إذ سهرت الليلة وظلت صائمة حتى طلعت الشمس وخرج الآلاف لحضور احتفال التتويج .

وفى غمرة هذه الفرحة والسرور ليوم التتويج ، حدثت حادثة غريبة غيرت مجرى الحياة لكل من فى القصر ، وحطمت الآمال والأمانى ، وحولت الحياة الجميلة الى ويلات ونكبات ومآسى . وهذه المآسى هى التى خلقت أسطورة الراما يانا الخالدة التى تعتبر آية الأدب والفن بين الآداب العالمية . كانت لدساراتا الملك زوجة رابعة تسمى «كايكيا» ملكة «كايكياس» التى أنجبت له ولدا شجاعا سمي «بهارت» فكانت هذه الملكة تحب ابنها وتتفرد بحبه دون الآخرين من أولاد «دساراتا» ، وتحسد راما وتحقد عليه . فلما رأت الزينة والزخارف والبهجة والسرور فى العاصمة كلها بمناسبة الاحتفال بتتويج راما راودت نفسها على أن تحطمها وتحولها الى حطام وخرائب لبناء مجد ابنها «بهارت» وتسويجه ليخلف أباه دساراتا على العرش . لأنه لا أمل هناك فى اعتلاء ابنها بهارت العرش اذا تم تتويج راما ، لأنه كبير أبناء دساراتا ، والذى يستحق العرش ومن يخلفه ابنه أو «لشن» أخوه من أبيه فهو الآخر أقرب

الناس الى راما وسوف ينال منه مالا يناله بهارت .

وقيل افتتاح الحفلة يبحث الملك عن زوجته الرابعة «كايكيا» فلم يجدها فى حرم القصر . فاندesh الملك وزادت حيرته واشتد خوفه لأنه كان يحبها حبا كبيرا ووهب لها قلبه ووجدانه وشعوره وعواطفه وذلك لجمالها الساحر وسنها الصغيرة .

وبعد أن طال البحث عنها اذا هو يراها ملقاة على أرض غليظة تنفجر بكاء وتنهمر الدموع من عينيها . فدهش الملك لهذا المنظر الأليم وانحنى فوقها وحملها على ذراعيه ومسح الدموع من عينيها وسألها عن سر بكائها وألمها وأحضر لها جميع الأطباء والكهنة لمعالجتها . ولكنها مع ذلك تزداد بكاء وألما حتى صار الملك فى غاية الحيرة والخوف ومن شدة العطف عليها حلف على أن يحقق لها جميع طلباتها مهما كانت شاقة وصعبة على أن تفتح فمها وتحكى حكايتها . وحينئذ ابتسمت الملكة وقالت : انك عاهدتني أمام الآلهة على أنجاز كل طلباتي . وطلبى منك الآن هو أن توقف تنويج راما وتنفيه الى الغابات لمدة أربع عشرة سنة وتولى ابنى «بهارت» على العرش . وقع هذا الكلام على قلب دساراتا كصاعقة وأظلمت الدنيا فى عينيه ، فلم يكذبين له شيء ، وفقد وعيه وشعوره . ثم استعادهما بعد مدة ، وطلب منها أن تسحب هذا الطلب ولكنها أبت وأصرت على تحقيق ماوعدها به .

وقد انتهى موعد الاحتفال وارتفعت الشمس ثم ساد الظلام . وفى الصباح الباكر لليوم الثانى حضر «راما» الى أبيه وزوجته «كايكيا» ، ومس رجليهما أدبا واحتراما ثم سأل أباه عن الوجوم السائد على وجهه ، وسأل «كايكيا» عن سكوتها ، فأجابت أن والدك قطع على نفسه وعدا يجب عليك الوفاء به ، وسأخبرك بهذا الأمر اذا وعدتني على

أنجازه خضوعا لوالدك وطاعة له كابن مخلص .. فتعهد لها راما بتحقيق ما وعدها أبوه به . فتقول حينئذ : يجب عليك الآن أن تترك البلاد وتعيش فى الغابات لمدة أربع عشرة سنة وستولى أخوك بهارت الحكم بدلا منك .

يستعد راما للسفر وفاء لوعده أبيه . وهناتجلى المواقف الانسانية الرائعة وهى أن راما بعد قراره واستعداده للخروج من البلاد وللعيش فى الغابات يذهب الى زوجته سينا ويستأذنها وينصحها بالبقاء فى القصر مطيعة وخاضعة لكل من فيه من أبيه وأمه وأخيه بهارت الذى سيتولى العرش بعده وينصحها بخدمة هؤلاء وتوفير وسائل الراحة لهم . ولكنها تأبى الا أن تخرج معه وترافقه أينما ذهب وتشاركه السراء والضراء لأن أبواها علماها هذا الأمر منذ صغر سنهما ، وليست حياتها الا جزءا من حياة زوجها ، وان سعادتها تكمن فى سعادة زوجها وشقاءها فى شقائه .

ثم يذهب الى أخيه «لشمن» ابن ملكة «سوميترا» من والده ليستودعه فاذا هو الآخر مثل «سينا» يلح الحاحا شديدا على مرافقته ومشاركته فى محنته والمحافظة على سينا من الكرب والغم والمغامرة بنفسه من أجلها بسيفه ورمحه . ومع ذلك يحاول «راما» اقناعه بالبقاء لخدمة أبيه وأمه وأهله كلهم ، ولكن «لشمن» لا يرضى بذلك ولا يرى له عيشا فى «أيودهايا» بعد مفارقة أخيه الأكبر فيصحبه هو الآخر فى مغامراته .

ثم يقف الجميع بين يدي ملكة «كوساليا» والدة راما التى تنفجر بكاء من حديثهم ، ثم تتقدم باكية الى «سينا» وتقبل جبينها وتقول لها : انك تركينى لمرافقين زوجك فى محنته . انك سعيدة بهذا القرار ، لأن الزوجة لها أن تضحي من أجل زوجها بكل غال وثمين وتصاحبه فى كل حين وآن ،

مهما واجهت من الصعوبات ، ومهما كانت التضحيات لكي توفر له وسائل الراحة وتزيل عنه الغم والكرب ثم تقرب من ابنها راما وتسجبنه بيديها وتودعه وتدعو له لتوفقه الآلهة في سفره ويسددوا له خطاه ويباركوه ، وينقذوه من الآلام والأخطار .

فلما حل موعد الرحيل جاءت العربية لتركب فيها «سيتا» و «راما» و «لشمن» بعد أن جهزوا جهازا كبيرا لهذا السفر بما يحتاجون من الأسلحة والأغذية والملابس وما الى ذلك . وحضر آلاف من أبناء الشعب الذين كانوا يكونون لراما احتراما بالغا وحبا فائقا ليدعوه . كان المنظر قبل مغادرة القصر مثيرا للغاية . فقد تعالت الصرخات من كل جانب وانحدرت الدموع من عيون الناس . وكان كل واحد يقف مكانه في خشوع وبكاء . ثم حضرت الملكات باقيات صارخات وجاء الملك دساراتا وهو ينفجر بكاء . وما ان وقعت عيناه على راما حتى وقع مغشيا عليه . فأمر راما سائق العربية في أن يسرع بالرحيل لأنه لا يملك القدرة على رؤية هذا المشهد المثير المروع ، ولا يقدر على مشاهدة والده ولا أمه ولا شعبه . وهم على ذلك الوضع فسارت العربية بسرعة تاركة وراءها حياة القصور والجنات والأنهار الى غابات لراحة فيها ولا ضمانا ولا سكون .. وبعد سفر مرهق طويل ولمدة ستة أيام وسط الغابات ألفت هذه القافلة عصا الترحال في موضع من الغابة وتحت ظلال شجرة باحثة عن مسكن مريح لمدة يسيرة من الزمن تسترجع فيه أنفاسها وتستجمع قواها ثم تواصل رحلتها .

صور الشاعر هذه الرحلة الشاقة تصورا صادقا بحيث تمثل أمامنا جميع الصور للغابات والأشجار والطيور والوحوش وكأننا نشاهدها الآن ولا نجد ثمة فرقا بينها رغم مرور آلاف السنين على هذه الصور المتعة ، لأن طبيعة البلاد الفتانة

وجمالها الساحر لم تطرأ عليهما تغيير شامل . فقد وصلوا في اليوم السادس الى جبل صغير يسمى «شتراكوتا» بين نهري «الجنجا» و «الجمنا» بقرب مدينة «اله آباد» والتي اتخذها الهندوس فيما بعد مكانا مقدسا لهم . ويقال : ان هؤلاء قد التفوا هناك بشاعر شهير هو «المقدس والميكى» الذى ألف ملحمة «الراما يانا» كما أسبقنا القول (١) .

وهناك في أيودها لم ينس «ودساراتا» «راما» لحظة واحدة بل ظل ييكى عليه ويتحرق شوقا لرؤياه ويذكره . وكلما مضت الأيام كانت ذكرى راما تزداد شدة وعنف حتى مات دساراتا بهذه الذكريات الحزينة ومن جراء ذلك .

خلال هذه الأحداث كلها لم يعرف «بهارت» الذى أرادت له أمه تولية العرش بدلا من أخيه «راما» شيئا مما حدث ، لأنه كان فى مهمة عسكرية فى بلاد نائية . فلما عاد الى أيودها وجد فيها أحداثا وتطورات لم يتصورها . فقد توفى والده «دساراتا» ونفى أخوه الى الغابات . فدهش بما حدث ، ورفض الجلوس على العرش كما أرادت له أمه وخرج للبحث عن أخيه فى الغابات . وبعد أيام حافلة بالتعب والارهاق وسط الغابات لاح له عن كتب دير لراهب من الرهبان شيد بالأوراق والأغصان على صورة كوخ صغير . فظن أن الراهب الذى فيه سوف يدلّه على أخويه وسيتا . وكان هذا الدير فى الحقيقة بيت سيتا الذى كان يحرسه «لشمن» بسيفه وقوسه حتى لا يصيبها مكروه ، وكان أخوه راما يخرج ويحجى . فدخل بهارت الدير فوجده بيت راما فاتكّب على قدمي أخيه يقبلهما فى حب وحنان لآحد لهما ، وطلب منه العفو وألح عليه فى العودة الى البلاد وتولية العرش . فقام

راما يعاقبه ويقبله ويسأله فى لهفة عن أحوال أبيه وأمه وأم لشنم وأم بهارت وشعب أيودها وكبار رجال السياسة والوزراء . فأخبره بهارت بأن دساراتا قد مات متأثرا بذكراه والبكاء عليه . وأما أمه « كايكيا » فهي أيضا تلوم نفسها على ما فعلت وتقضى أيامها فى بكاء وقلق وندم لأن أنايتها هي التي قضت على حياة دساراتا وجلبت المأساة الكبرى للبلاد كلها . ثم أخبره أن الشعب هو الآخر يذكره ولا ينساه ، كما أن رجال السياسة يذكرونه باستمرار وينتظرون قدومه فنظر اليه . فإذا أمه الملكة « كوساليا » التي رافقته للبحث عن راما قامت بين يديه . وتحركت عواطفها حينما رآته فى ملابس خشنة مصنوعة من الأوراق والأغصان كما رأت كذلك فى نفس هذا المنظر « لشنم » أخاه الوفي وسيتا زوجته المخلصة . ولكن راما أبى العودة الى أيودها قبل مضي أربع عشرة كما قطع والده على نفسه الوعد لزوجه « كايكيا » وذلك إيفاء له ، لأنه تعهد بذلك أمام الآلهة ، وهو الآن فى السماء بين يديها . وحينئذ يقول « جابالي » الفيلسوف الهندى آنذاك الذى كان يشك فى الآلهة وفى الآخرة : « كان عليه أن لا يترك عرشه بسبب الايمان بالأوهام ، لأنه لا يعرف على وجه اليقين أن والده يعيش الآن بين الآلهة فى السماء أم لا ؟ ولكن راما يعلن ايمانه بالآلهة وبالأخرة بحماس واندفاع منقطع النظير ويصر على توفية ما قطع والده على نفسه من التعاهد . ثم ينصح راما أخاه « بهارت » بنصائح غالية لرعاية أهله وشعبه وتوفير وسائل الراحة والرفاهية للناس وبذل كل الجهود فى سبيل سعادتهم وطمانيتهم ، ثم يودع بهارت ومن معه كلا من « راما ولشنم وسيتا » ليستكملوا مدتهم فى الغابات بين البكاء والدموع ، ويحمل بهارت معه - عند عودته -

أحذية راما ليضعها على العرش ويحكم أيودها بالنيابة عنه .

لقد بدأت الآن مرحلة جديدة فى حياة راما . لأنه قرر مغادرة المناطق الشمالية من الغابات حيث يتردد عليه أهله ، وشد الرحال الى الجنوب . فألقى عصا الترحال فى غابة مظلمة بقرب نهر « جود أوارى » الذى يقع الآن على نحو مائة ميل تقريبا من مدينة بمباى . وقد رحب بهم هناك راهب كبير وهو « اجاستيا » وأعد لهم مسكنا بقرب مسكنه . ويذكر أن هذا أول وفد للارين فى جنوب الهند ، إذ أن هذه المنطقة كانت غاصة بالبراديين - السكان الأصليين - ولم يتعرف هؤلاء حتى الآن على الديانة الآرية وتعاليدها . ولعل القدر قد شاء أن تكون محنة راما ورفقائه أول نافذة لتسرب الفكر الآرى الى جنوب الهند .

وفى يوم ما من الأيام صادف راما فى هذه الغابة المخيفة امرأة جميلة رآها واقفة تنظر اليه فى دهشة وتعجب من جماله وشبابه ، ثم تقع فى حبه من النظرة الأولى ، فتقدم اليه ثم تسأله عن اسمه وبلده . فيحكى لها قصته . وهى بدورها تحكى له قصتها وتقول : انها تسمى « سرابا - ناكها » وهى ملكة البلاد ، وأخوها « راون » ملك ميلان وهى انسانة غريبة تستطيع أن تتخذ عدة أشكال . ثم تعرب عن اعجابها الشديد به وحبا المتفانى له وتعرض عليه الزواج ليعيش معها حياة سعيدة فى وسط الغابات ثم تدم أمامه « سيتا » زوجته المخلصة وتظعنهما فى جمالها وكذلك تطعن لشنم وتقول : انه ولد صغير لا يفهم ولا يعقل . ولا يتحمل راما هذه التهم ولا تلك الطعنات الموجهة فى زوجته وأخيه فيقول لها بكل هدوء وبكل صراحة : انه متزوج من سيتا ، وهى زوجة مخلصة الى أقصى حد

يمكن ، ولذلك لا يمكن له الزواج منها . أما لشمن فهو أعزب وفي ريعان شبابه وأنه في مسيس الحاجة الى الزواج والى اتخاذ رفيقة لحياته . وهو مستعد لأن يزوجها منه . فتعرب عن موافقتها على ذلك ولكن «لشمن» يحتقرها ويقول لها : انى خادم راما فهل ترضى بالزواج من خادم؟ فتشور غضبا من هذا الكلام متألة وتهدد بالانتقام من الجميع بسبب هذه الاهانة التى وجهت اليها .

وذات يوم رأت «سيتا» غزالا جميل المنظر يتحلى بأنواع الحلى، ويتزين بأفخر أنواع الزينة مارا أمام بيتها . فنادت لشمن وأمرته باصطياد هذا الغزال والاتيان به اليها . ولكن لشمن منعها من اصطياد مثل هذا الحيوان، لأنه فيه خطرا عليها اذ لعله انسان اتخذ هذا الشكل لخداعها . فلم ترض سيتا بهذا العذر وطلبت من راما مطاردة الغزال واصطيادها . فأسرع راما وراء الغزال فاذا بسيتا تسمع صرخات راما . فتذهب الى لشمن وتلج عليه فى الذهاب لا تقاذ راما ولكنه يرفض مغادرتها ، لأنه على يقين من أن راما لن يسه أذى اذ هو بطل شجاع لا يقدر أحد على ايدائه ، وأن راما قد أمره بحراستها والبقاء بجانبها ، وهذا الغزال وتلك الصرخات ماهى الا أشباح للأرواح الخبيثة التى تهوم على وجهها لتتشر الشقاء على الأبرياء فى الغابة وهنا تمتلىء «سيتا» غضبا على لشمن فتقول له : انك تعاملنى بالمكر والخداع وترادك تفك فى أن يموت راما وتتخذنى زوجة لك . وهذا مستحيل . انى زوجة مخلصه له ، وحينئذ ينفجر لشمن بكاء ويقول لها : انه لا يزال يعتبرها الهة كما يعتبر أخاه الها كذلك ، ومن أعز أمانيه خدمتهما وتوفير وسائل الراحة لهما ، ولكنها تشك فى كلامه فيستعد للذهاب لنجدة راما اذا كان هو فعلا يستنجد به ، فيودعها ويتركها فى حفظ الآلهة ويخرج للبحث عن راما .

مداليل ظلاله على الغابة . فانتبهز «راون» ملك سيلان هذه الفرصة للانتقام من أجل أخته التى أهانها «لشمن» ، ورفض الزواج منها . فجاء اليها على صورة راهب . ولما رآها دهش لجمالها ووقع فى حبها من النظرة الأولى فمدحها وسألها عن اسمها ونسبها . فظنته سيتا راهبا مقدسا لا يكتفم النوايا الخبيثة . فحكته له قصتها وغربتها فى هذه الغابة ثم سألته عن بلده ومدة اقامته فى هذه الغابة وعبادته كراهب مقدس . فقال لها : انه ليس براهب بل هو ملك سيلان وملك الغابات . ثم أعرب عن حبه الشديد لها وعرض عليها الزواج منه على أن تملك سيلان وتحكمها كما تشاء . فلما سمعت سيتا هذا الكلام أمطرتة بوابل من الغضب واجابته معترزة بنفسها وناظرة اليه باحتقار ، انى زوجة مخلصه لراما البطل الشجاع ، والاسان المثالى ، والرجل المقدس كالألهة : ثم حذرته من الاقتراب منها والمساس بها ولكنه أمسكها وحملها على عاتقه ثم أركبها عربته وفريها الى بلاده، وكانت «سيتا» تصرخ وتولول طوال الطريق وتنادى على راما بين اللحظة والأخرى لا تقاذاها ولكن عبثا كانت تناديه وتصرخ عليه ، لأنها اخترقت مجال هذه الغابة واقتربت من جزيرة سيلان غابرة البحار المحيطة بها .

بذل كل من راما ولشمن المستحيل فى البحث عن «سيتا» فى الغابات والأشجار والأنهار حتى وصلا أخيرا الى جبال «ماليا» حيث لقيا «سوجريفا» ملك بلاد «فاناس» . وكان يصحبه قائده وساعده الأيمن «حانومان» (Hanuman) والذى استولى أخوه على عرشه وعلى زوجته ، وطرده من بلاده ليهيم على وجهه فى الغابات والجبال .

استقبل «سوجريفا» كلا من راما ولشمن استقبالا حارا وتحركت عواطفه . حينما سمع قصة راما كلها من أول نفيه من أيودها الى خطف راون

لزوجته المخلصة . ثم اتفق كلاهما على مساعدة الآخر . لقد أصر «سوجريشا» على مساعدة راما وإعادة سيتا اليه كما أقسم راما على مساعدة سوجريشا وإعادة عرشه وزوجته اليه .

وهنا صور الشاعر الحوادث التي وقعت بصور غريبة لانكاد نصدقها في ضوء الحقائق التاريخية . فقد عرض «حانومان» في صورة قرد وكل من في بلاده في سيلان يزاولون السحر والشعوذة . وكذلك لانكاد نصدق عرضه للتقاليد والمراسم والآلهة في منطقة الجنوب على نفس الصورة الآرية ، لأن هذه المنطقة ظلت بعيدة كل البعد عن أفكار الآريين ونزعاتهم وتقاليدهم ومن المؤسف أن الشاعر قد فشل في عرضه شئون هذه المنطقة عرضا صحيحا دقيقا أمينا من ناحية الأفكار والتقاليد ولم له لحماسته في نزعتة الآرية حاول اسباغها بالصبغة الآرية المحضة والبعد عن الحقائق التاريخية .

وطبقا لهذا التعاهد بينهما ذهب «سوجريشا» الى أخيه وحاربه وساعده راما في هذه المهمة حتى كلل سعى سوجريشا بالنجاح وهزم أخاه واستعاد عرشه .

ثم يعد سوجريشا العدة مع راما ولشمن لشن الحرب على «راون» لانقاذ سيتا من قبضته الظالمه . فيرسل عشرة آلاف من رجاله الأبطال الى هذه المهمة ليبحثوا أولا عن مكان راون في الغابات والجبال والأوغال شرقا وغربا وشمالا وجنوبا حتى يطلعوا على مكانه وأسراره للزحف اليه بعدئذ .

فيتوغل هؤلاء الأبطال في الغابات والجبال والأدغال الى جزيرة سيلان حيث يرى «حانومان» - قائد الجيش - «سيتا» حزينه كئيبة باكية تحت حراسة شديدة . وهنا وقف «حانومان» وقص للناس قصة راما كلها بصوت عال مدو حتى استولت

على الناس الدهشة والحيرة لهذه الجراة ساعة الاستماع الى هذه القصة وحتى أن سيتا التي سمعتها دهشت هي الأخرى بها ولم تصدق أذناها كل ما سمعت من «حانومان» وظنت أنها تحلم أو تخيل ولكن حانومان دنا منها وأعطاهها علامة تؤكد لها أنها من زوجها راما ، وأن راما في طريقه الى الزحف نحو سيلان لانقاذها . وحينئذ تطير سيتا فرحا وسرورا ويشرق وجهها نورا وضياء ، وتبتسم شفقتها كما تتفتح البراعم ويعود لها لونهما الباهر فيعود اليها جمالها واشراقها ، ثم تقبل على حانومان وتسأله عن راما وصحته وعيشه بعد خطفها ، ثم عن لشمن وعن أيودها ، فيخبرها بما عنده من أخبار ويطمئنها على أن جيشا جرارا في طريقه الى محاربة «راون» في عقر داره ، ثم يستأذنها في العودة الى راما بعد أن يأخذ منها تذكارا يؤكد سلامتها وشوقها ولهفتها الى راما .

وقد علم «راون» كيف تمكن حانومان من التوغل في البحار والأنهار والوصول الى سيلان ومقابلة سيتا في السجن واحراق جزء كبير من سيلان في هذه المغامرة . فاستدعى وزراءه ومستشاريه ليعقد مجلسا للتشاور معهم حول موضوع حانومان وأخباره ، وعن استعداد راما للزحف نحو سيلان، ومحاربة راون لانقاذ سيتا . فأشار عليه معظمهم بالصدود أمام راما ومحاربه وتوجيه الهزيمة الى جيشه ، الا أن بعض المخلصين له أشاروا عليه بتسليم سيتا الى راما ومسالته ، ولكنه رفض رأيهم متمسكا برأى الأغلبية . وكان من بين هؤلاء المخلصين «بيهشان» «وأخوراون» نفسه وهو «كومباكارانا» فاضطر «بيهشان» بعد رفض رأيه الى مغادرة سيلان والانضمام الى صفوف راما وبهذا أطلع راما على أسرار بالغة الخطورة فيما يتعلق بالحرب مع راوان .

وبعد أن تم الاستعداد زحف راما الى سيلان
يصحبه جيش جرار لم يسبق له مثيل ، واشترك
في هذه المعارك أعظم القواد والأبطال ومن بينهم
أخوه «لشن» البطل . ولما وصلوا الى سيلان
أعلنوا الحرب على راون لاستعادة سينا . وقدواجه
راون القوة بالقوة ودارت بين الفريقين معارك
دامية سقط فيها أعظم القواد والأبطال لراون حين
هجم كل منهما بجيشه بهجمات عنيفة موقعة على
جيش الآخرين ، فقد هجم أخو راون ثلاث مرات
على جيش راما وكذلك فعل « اندراجت » ابن
راون .

سجلت هذه المعارك مشاهد رائعة لايزال
يردها أبناء الهند كملحمة مقدسة . وهذه المعارك
وحدها قد ترجمت الى عدة لغات ومن بينها اللغة
الانجليزية بسبب وصفها الرائع للمعارك والمشاهد
العظيمة للحرب المقدسة . لقد هجم راون مرتين على
لشن وهزمه في كل مرة ولكن لشن لم يقع في
يده . أما راما فقد حارب كبطل من الأبطال وهزم
في كل مرة كل من قابله ولم يذق طعم الهزيمة مرة
من المرات طوال المعارك .

كان ابن راون ساحرا كبيرا . وقد استعرض
الألعاب السحرية في هذه المعارك واختفى عن عيون
راما وأخيه لشن وهزمها مرات عديدة ، ولكنه لم
يستمر في سحره مدة طويلة بل سرعان ما قتله
لشن . وكذلك قتل راون سيف راما أخيرا ، وبقتله
انتهت المعارك وانتصر راما .

وتصف هذه الملحمة ابن الآلهة كلهم كانوا مع
راما في هذه الحرب يساعدونه ويشدون أزره
ويشجعونه . ولذلك انتصر على راون الشرير . ثم
أمر راما بإحراق جثة راون . فوضعت أكوام من
الخشب والصندل والزيت والروائح عليها ، وأشعلت
النيران فيها حتى تحولت جثته الى رماد .

ثم استقبل راما « سينا » ولكنه لم يقربها خوفا
من الاشاعات التي أثارت حول علاقتها براون وذلك
بسبب اقامتها في قصره وسيطرته عليها مدة غير
يسيرة . وقد أدركت سينا هذه الحقيقة ولذلك طلبت
الى لشن اعداد نار حامية لتلقى فيها نفسها حتى
تثبت طهارتها وعفتها . فأعدت النار وألقت سينا
نفسها فيها ولكن « اله النار » حفظها من كل سوء
وخرجت بريئة طاهرة من النار . فتوجه اليها راما
وعانقها . ثم أمر باعداد جهاز السفر الى أيودها
اذ انقضت الأربع عشرة سنة في الغابات وحان بذلك
الرحيل الى بلاده . وقبل مغادرته سيلان سلم سيلان
التي فتحها الى « سوجريثا » الذي ساعده في هذه
المهمة لأنه وعده بذلك أثناء اقامتهما في الغابة أيام
المحنة .

وقد أعدت العدة للرحيل وخرجت القافلة الى
أيودها مارة بالغابات والأنهار التي عاش فيها راما
أيام محنته . ولما وصلت أبناء قدومه الى أيودها
زينت البلاد بأجمل الزينات ، وأقيمت الحفلات
لاستقبال العائدين من الأبطال . ولما دخل راما
عاصمته تدفقت عليه الجماهير من كل جانب ترحب
به وبمن معه ، وتهتف باسمه ، وتقدم له تحياتها
وتهانيتها . فقدمه بهارت الى العرش وأخذ أحدىته .
ثم قدم عليه الناس يهنئونه ويباركون كفاحه ومن
بينهم أمهاته وأخوته جميعا .

انتشرت الاشاعات مرة أخرى حول سينا
واقامتها في سيلان تحت سيطرة راون . فأمرها راما
بمغادرة القصر الى الغابة والاقامة فيها الى أن تعرض
مرة أخرى ما يشبه طهارتها وعفتها . فخرجت من
قصرها الى الغابة ولجأت الى الراهب « الميكي »
ومعها ولداها اللذان رباهما الراهب تربية رهبانية
وفي هذه الغابة ماتت سينا قبل أن يتم بينها وبين راما
لقاء آخر .

حكم راما أيودهيامدة طويلة من الزمان. وعاش الشعب في حكمه عيشة راضية طيبة تسودها الطمأنينة والرفاهية والأمن والسلام . ولم يمسه سوء طوال أيامه في الحكم . وارتفعت قيمهم المعنوية بامتثالهم أمره لأنهم اعتقدوه انسانا مثاليا فحذوا حذوه ذراعا بذراع وشبرا بشبر في الخير والشر ، ثم صيروه شخصية أسطورية والهـا من الآلهة .

واليكم مشهد من أصل « الراما يانا » كنموذج لأسلوب الراما يانا ومنهجه وعرضه . وهذا المشهد في الحقيقة مشوق ومثير يصور حياة راما في الغابة وحضور أخيه « بهارت » اليه ليحمله على المودة الى البلاد . ومن الجدير بالذكر أن ملحمة « الراما يانا » تتكون من نوعين من المقاطع : المقطع الأول يسمى « شاباي » (Chaupai) بالنسكريتيه وهو يتكون من ثمانية أبيات حيث ينتهي الى ختام حديث أو فكرة ثم يليه « دوها » (Doha) وهو النوع الثاني - الذي يتكون من بيتين ككسلة لشاباي .

شاباي (١) ٢٤٠

قام بهارت بين يدي أخيه «راما» وأخيه الآخر ومع صديق له ، ثم وقف صامتا احتراما ، وقلبه خال من كل تفكير يشوبه من فرح أو حزن ، كأنه في عبادة . ثم قال لأخيه : اغفر لي ياسيدي واعف عني ثم وقسح على قدميه قطعة هامة من الخشب .

وقد شعر «لشمن» - المسكين - بالذي يقصده بهارت وخيل اليه أنه في عبادة الآن . ولا يمكنه أن يقترب منه أو يعانقه . فقد أصبح في حيرة شديدة بين شيئين يشده كل منهما الى جانبه : الأول أنه

(١) قد اخترنا هذا الفصل من أصل الراما يانا من ترجمة الباحث الهندوكي الشهير « تولسيداس » (Tulsidas) من الجزء الثاني ص ٧٣٢-٧٣٥ .

ينبغي له أن يقدم خدماته ويؤدي واجباته نحو أخيه راما . والثاني أنه يجب أخاه بهارت أيضا . وهذا الحب يشده هو الآخر اليه شدا غنيا . فأيهما يختار؟ لقد أصبح الآن كطفل يلعب بطيارة ويشدها الى جانبه لتقويم ميزانها . وأخيرا ركع بين يدي راما وقال له : هاهو ذا بهارت جاء اليك ليحيئك . فاستفاق راما من غيبوبته ، وحطم سكوته وقفز الى جانب بهارت راميا كل ما كان في يده من قوس ورمح وجعبة وعباءة .

دوها

هذا الرجل المطوف الرحيم قد وضع يده على قلب أخيه « بهارت » بعد أن فاض قلبه ولم يتمالك عواطفه فعانقه معانقة حارة . وهذا المشهد المثير قد حرك قلوب الناس جميعا .

شاباي ٢٤١

لا يمكن لأحد من الشعراء مهما بلغ أمره أن يصف أو يعبر عن هذا الحب المتفاني ، ولا ذلك اللقاء الحار لأنهما فوق التصور وفوق الأسباب وفوق التفكير وفوق ما يدور بخلد انسان .

وأنا الشاعر لا أستطيع أن أعبر عن مدى جبهما بسبب عجزى كائنات ضعيف . ان الشاعر يبذل جهده ولكنه لا يجد لثل هذا الموقف تشبيها كاملا وكل ما يستطيعه أن يأتي بهذه الكلمات أو تلك التعبيرات لوصف ما يدور في قلبه وصفا صادقا كما أن الراقصة تعرض رقصتها في نطاق محدود لها لاتخرج عنه . والحقيقة أن حب هؤلاء الاخوة كفيض لانهاية له وكبحر لحدود له . ولا يمكن كشف غوامضه حتى لأى كاهن أو ساحر .

ولأجل ذلك لا يمتلك عقلى ما يصور به ولا لسانى ما يعبر به تعبيراً صادقا ومثلى كمثل موسيقار يعجز عن ايجاد نعمات جميلة بوتر من الحشيش . حينما التقى كل من راما وبهارت تساقطت

الآلهة اضطرابا وارتعشت خشية ورهبة ، ولكن سيدهم أيقظهم من سكرتهم الحائرة فقاموا يمشون الأزهار والورود على أولئك الاخوة ويمجدونهم ويقرظونهم .

دوها

رحب راما بـ « شاتروجانا » - شقيق بهارات - ثم بالملاح كما رحب « لشن » بدوره بأخيه بهارت مبديا له حبه وسروره .

شاباي ٢٤٢

ورحب « لشن » بشاتروجانا بكلمات رقيقة صادقة مخلصة ، ثم رحب بالملاح بنفس الطريقة . ثم سلم الاخوة القادمون على كل راهب من الرهبان الموجودين . فدعا لهم الرهبان بالتوفيق والسداد . ثم غمرهم السرور وعمتهم الفرحة بدون حدود . وأخيرا اتجه « بهارت » مع أخيه الى سينا وهما في غاية من الشوق والحنان وركما أمامها حتى مس جبينهما تراب قدميها وأعربا لها عن تقديرهما وشوقهما وطلب بهارت منها العفو . فرفعت سينا جبينهما من التراب وأجلستهما

بجوارها . فأعرب كل منهما عن تقديره وشوقه مرة أخرى . فدعت لهما سينا من أعماق قلبها أذ غمرتها المحبة والعطف نحوهما بغير حدود حتى أصبحت لا تملك الكلمات التي تعبر بها عما يختلج في نفسها نحوهما . فلما رأى بهارت محبة سينا وشوقها له ذهب عنه الروع وعاد له شعوره ووعيه فاطمأن قلبه وهدأ باله واستراح ضميره .

ثم ساد المكان الهدوء والصمت الرهيب ، ولم ينطق أحد بكلمة بل ظل الجميع ساكنا صامتا لأن قلوبهم قد غمرتها الفرحة والبهجة والسرور وأصبحوا كأنهم نسوا أنفسهم . وفي هذه اللحظة حطم الملاح سكوتهم اذ قدم بين أيديهم طلبه بخضوع وأدب موجهها كلامه الى راما .

دوها

يا سيدى ! قد حضرت اليك الملكة - أمك وقائد الجيش والوزير والخدم وجماهير شعب المدينة . وأيضا جاءك الراهب الكبير « واشست » بعد أن عاشوا جميعا في قلق واضطراب وحزن على غيابك زمنا طويلا وهم يطلبون الآن عفوك وكرمك .

فهرس المجلد الرابع
من:

تراث الإنسانية

ويشمل :

- ١ - فهرست الكتب
- ٢ - فهرست المؤلفين
- ٣ - فهرست باسماء الباحثين

الكتب

رقم الصفحة	التفريات أو فلسفة	رقم الصفحة	احاديث الاثنين
٥٩٣ - ٦٠١	البن واليانج	٣٥٤ - ٣٧٣	سانت ييف
١٢٣ - ١٤٩	التمهيد لعلم النفس الاجتماعي	٤١ - ٣٥	احاديث خيالية
٧٨٥ - ٨٠٨	وليم مكدوجال	٢٢٥ - ٢٣٦	سافيدج لاندور
٩١٦ - ٩٢٧	ثلاث مسرحيات	٣ - ٢١	الادارة العلمية
٦١٧ - ٦٣٣	لوبي دى فيجا	٨٢٥ - ٨٤٨	فردريك تابلور
٥٤ - ٧٠	جارجتوا وباتناجرويل	١٩٠ - ٢٠٣	ادب الكاتب
٦١٦ - ٦٠٢	فرانسوا رابليه	١٦٥ - ١٧٨	ابن قتيبة
٨٩٣ - ٨٤٩	الجماعة والمجتمع	٤٠٥ - ٤٢٠	أدولف
٢٣٢ - ٢٣٢	فرديناند تونيز	٤٩٥ - ٥٨٠	بنيامين كونستان
٧٢٤ - ٧٢٤	حول تعليم الخطيب	٨٠٩ - ٨٢٤	آراء جيروم كواينار
٧٨٤ - ٧٦١	كوينتليان	١١٨ - ١٣٢	اناتول فرانس
٧١ - ٨٤	الخراج	٣٨٧ - ٤٠٤	الاشعار الفناية
٩٢٨ -	ابو يوسف	٢٢٤ - ٢٢٤	سافو
٤٢١ - ٤٣٤	الخطط التوفيقية	٣٨٧ - ٤٠٤	اعز مايطلب
	على مبارك	٣٨٧ - ٤٠٤	محمدين تومرت
	الديكاميرون	٣٨٧ - ٤٠٤	اقوال لاوتزو
	جيو فاني بوكاشيو	٣٨٧ - ٤٠٤	لاوتزو
	رحلات جليفر	٣٨٧ - ٤٠٤	البرنسيبيا
	سوفت	٣٨٧ - ٤٠٤	اسحق نيوتن
	رحلات حول العالم	٣٨٧ - ٤٠٤	بعثة المتحدية للكشف للمحيطات
	جيمس كوك	٣٨٧ - ٤٠٤	ويشيل طومسون
	الرد على المنطقين	٣٨٧ - ٤٠٤	تأثير القوى البحرية على التاريخ
	ابن تيمية	٣٨٧ - ٤٠٤	الفريد ميهان
	رسالة منطقية فلسفية	٣٨٧ - ٤٠٤	تاريخ آداب اللغة العربية
	لودلودفيج فتنجشتين	٣٨٧ - ٤٠٤	جورجى زيدان
	الرعاية لحقوق الله	٣٨٧ - ٤٠٤	تاريخ جهانكشاي
	الحارث المحاسبي	٣٨٧ - ٤٠٤	عطا ملك جويني
	رينيه	٣٨٧ - ٤٠٤	تأملات
	شاتوبريان	٣٨٧ - ٤٠٤	مرقس اورليوس
	سيرة الاميرة ذات الهمه	٣٨٧ - ٤٠٤	تحليل الجمال
	سيرة عنترة	٣٨٧ - ٤٠٤	هوجارث
		٣٨٧ - ٤٠٤	تريستان وايزولد
		٣٨٧ - ٤٠٤	جوتفريدفون شتراسبورج

رقم الصفحة	المؤلف	رقم الصفحة	المؤلف
٤٥٠ - ٤٣٥	مبحث فى الفهم الانسانى	٥٣٠ - ٥٠٩	الشاهنشاه
٧٠٨ - ٦٩٢	چونلوك مدام بوقارى	٦٦٧ - ٦٣٤	الفردوسى
٢٦٩ - ٢٥٣	چوستاف فلوير مروج الذهب	٥٦٣ - ٥٥٣	صورة سيدة
٣٠٨ - ٢٨٨	المسعودى معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار	٤٩٤ - ٤٦٧	هنرى جيمس
٥٩٢ - ٥٨٢	لسان الدين بن الخطيب مفاتيح العلوم	٣٢١ - ٣٠٩	عجائب الآثار فى التراجم والاخبار
١٦٤ - ١٥٠	الخوارزمى الملل والنحل	٧٤٢ - ٧٢٥	عبد الرحمن الجبرتى
٦٩١ - ٦٨١	الشهرستانى النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة	١٠٤ - ٩٥	عن الحيرة
٣٥١ - ٣٣٣	ابن تفرى بردى نهاية الارب	٩٤ - ٨٥	چون ستيوارت مل
٤٠ - ٢٢	النورى النيلىونجلىد	١٨٩ - ١٧٩	الصواهل
	الوسيلة الادبية	٥٥٢ - ٥٣١	توماس هاردى
	الحسين بن احمد المرسفى		فن الحب
			اوڤيدىوس
			قصة الاسيرين
			بلادوتوس
			الكشاف
			الزمخشرى
			كليلة ودمنة
			ابن القفص
			اللاؤوكون
			جوتنهولت لسنج

المؤلفون

رقم الصفحة	ابن تفرى بردى	رقم الصفحة
أوجين فرومنتان	النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (٨١٣ - ٨٧٤ هـ) ... ٦٨١ - ٦٩١	دومنيك (١٨٢٠ - ١٨٧٦ م) ٢٧٠ - ٢٨٧
أوفيدىوس	ابن تيمية	فن الحب (٤٣ ق.م - ١٨ م) ٧٢٥ - ٧٤٢
بلاوتوس	الرد على المنطقيين (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) ١٠٥ - ١١٧	قصة الاسيرين (٢٥٤ - ٨٨٤ ق.م) ٩٥ - ١٠٤
بنيامين كونستان	ابن الخطيب = لسان الدين بن الخطيب	بنيامين كونستان
أدولف (١٧٦٧ - ١٨٣٠ م) ... ٨٢٥ - ٨٤٨	ابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ هـ)	أدولف (١٧٦٧ - ١٨٣٠ م) ... ٨٢٥ - ٨٤٨
يوليوس أفيديوس فاسو = أفيديوس	أدب الكاتب (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) ٣ - ٢١	يوليوس أفيديوس فاسو = أفيديوس
تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحكيم بن تيمية الحراني = ابن تيمية	ابن المقفع	تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحكيم بن تيمية الحراني = ابن تيمية
توماس هاردي	كليلة ودمنة (١٠٦ - ١٤٢ هـ) ١٧٩ - ١٨٩	توماس هاردي
العواهل (١٨٤٠ - ١٩٢٨ م) ٣٠٩ - ٣٢١	أبو الحسن المسعودى = المسعودى أبو عبد الله = الحارث المحاسبى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف البلخي الخوارزمى = الخوارزمى أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد = الشهرستاني	العواهل (١٨٤٠ - ١٩٢٨ م) ٣٠٩ - ٣٢١
تيتوس مايكسوس بلاوتوس = بلاوتوس	أبو القاسم = الفردوسى أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى = ابن قتيبة	تيتوس مايكسوس بلاوتوس = بلاوتوس
جوتفريد فون شتراسبوج	أبو يوسف	جوتفريد فون شتراسبوج
تريستان وايزولد (عاش فى أواخر القرن ١٢ وأوائل القرن ١٣) ٥٦٤ - ٥٨١	الخراج (١١٣ - ١٨٢ هـ) ... ٦٠٢ - ٦١٦	تريستان وايزولد (عاش فى أواخر القرن ١٢ وأوائل القرن ١٣) ٥٦٤ - ٥٨١
جوتهولت أفرام لسنج = جوتهولت لسنج	أحمد عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم الفرسى البكرى = النورى	جوتهولت أفرام لسنج = جوتهولت لسنج
جوتهولت لسنج	أسحق نيوتن	جوتهولت لسنج
اللاؤوكون (١٧٢٩ - ١٧٨١ م) ٥٣١ - ٥٥٢	البرنسيبيا (١٦٤٢ - ١٧٢٧) ٤٠٥ - ٤٢٠	اللاؤوكون (١٧٢٩ - ١٧٨١ م) ٥٣١ - ٥٥٢
جورجى زيدان	الفريد ميهان	جورجى زيدان
تاريخ آداب اللغة العربية	تأثير القوى البحرية على التاريخ	تاريخ آداب اللغة العربية
(١٨٦١ - ١٩١٤ م) ... ٨٠٩ - ٨٢٤	(١٨٠٤ - ١٩١٤ م) ... ٨٩٤ - ٩١٥	(١٨٦١ - ١٩١٤ م) ... ٨٠٩ - ٨٢٤
جوستاف فلوير	أناطول فرانس	جوستاف فلوير
مدام بوفارى (١٨٢١ - ١٨٨٠ م) ٦٩٢ - ٧٠٨	آراء جيروم كواينار (١٨٤٤ -	مدام بوفارى (١٨٢١ - ١٨٨٠ م) ٦٩٢ - ٧٠٨
جون ستيوارت مل	(١٩٢٤) ... ١٩٠ - ٢٠٣	جون ستيوارت مل
عن الحرية (١٨٠٦ - ١٨٧٣) ٤٦٧ - ٤٩٤		عن الحرية (١٨٠٦ - ١٨٧٣) ٤٦٧ - ٤٩٤

رقم الصفحة

- عطا ملك جوينى = عطا ملك جوينى
تاريخ جهانكشاي (٦٢٣-٦٨١ هـ) ١١٨ - ١٣٢
علاء الدين عطا ملك جوينى = عطا ملك جوينى
على بن الحسين بن على = المسعودى
على مبارك
الخطط التوفيقية (١٨٢٣)
أو (١٨٢٤ - ١٨٩٣ م) ... ٨٤٩ - ٨٩٣
فرانسوا رابليه
جانتوا وباناجرويل (١٤٩٤ -
١٥٥٣ أو ١٥٥٤ م) ... ٩١٦ - ٩٢٧
فردريك تايلور
الادارة العلمية (١٨٥٦-١٩١٥ م) ٢٢٥ - ٢٣٦
الفردوسى
الشاهنامه (٢٢٠ أو ٢٢٣ هـ) ٥٠٩ - ٥٢٠
فرديناند تونز
الجماعة والمجتمع (٢) ٦١٨ - ٦٣٣
لاوتزو
اقوال لاوتزو
(ورد فى سجلات المؤلف
انه عاش اكثر من ١٦٠ عاما ١٦٥ - ١٧٨
لسان الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن احمد
السلمانى = لسان الدين بن الخطيب
لسان الدين بن الخطيب
معيار الاختيار فى ذكر المعاهد
والديار (٧١٢ - ٧٧٦) ... ٢٨٨ - ٣٠٨
لوى دى فيجا
ثلاث مسرحيات (١٥٦٢-١٦٣٥ م) ٧٨٥ - ٨٠٨
لوى فيلكس دى فيجا اى كاريو = لوى دى فيجا
لودفيج جوزيف يوهان = لودفيج فتجنشتين
لودفيج فتجنشتين
رسالة منطقية فلسفية
(١٨٨٩ - ١٩٥١ م) ... ٧٠٩ - ٧٢٤
ماركوس فاييوس كوينتيليانوس
حول تعليم الخطيب (٣٥ - ٦٨ م) ٥٤ - ٧٠
محمد بن تومرت
اعز ما يطلب (٤٦٩ أو ٤٣٧) أو
٤٩٣ (٥٢٤ هـ) ... ٣٧ - ٢٨٦
محمد بن عبد الله بن تومرت = محمد بن تومرت

رقم الصفحة

- جون لوك
مبحث فى الفهم الانسانى
(١٦٣٢ - ١٧٠٤ م) ... ٤٣٥ - ٤٥٠
جيمس كوك
رحلات حول العالم
(١٧٢٨ - ١٧٧٩ م) ... ٧٤٣ - ٧٦٠
جيوفانى بوكاشيو
الديكاميون (١٣١٣ - ١٣٧٥ م) ٢٣٧ - ٢٥٢
الحارث بن اسعد المحاسبى =
الحارث المحاسبى
الحارث المحاسبى
الرعاية لحقوق الله (المقدالسايع
من القرن الثانى الهجرى - ٢٤٣ هـ) ٧٦١ - ٧٨٤
الحسين بن احمد الموصى
الوسيلة الادبية (٨٨٩) ٤٥١ - ٤٤٦
الخوادمى
مفاتيح العلوم (٣٨٧ هـ) ... ٥٨٢ - ٥٩٢
الزمخشري
الكشاف (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ) ٨٥ - ٩٤
سافو
الاشعار الغنائية (٦١٠-٨٠٠ ق.م) ٦٦٨ - ٦٨٠
سافيدج لاندور
احاديث خيالية (١٧٧٥-١٨٦٥ م) ٤١ - ٥٣
سانت ييف
احاديث الاثنين (١٨٠٤ - ١٨٦٩ م) ٣٥٤ - ٣٧٣
سويقت
رحلات چليفر (١٦٦٧ - ١٧٤٥ م) ٣٢٢ - ٣٣٢
شانويريان
رينيه (١٧٦٨ - ١٨٤٨ م) ... ٧١ - ٨٤
شهاب الدين النويرى = النويرى
الشهرستانى
الملل والنحل (٤٧٩ - ٥٤٨ هـ) ١٥٠ - ١٦٤
عبد الله بن المقفع = ابن المقفع
عبد الرحمن الجبرتى
عجائب الآثار فى التراجم والاخبار
(١٧٥٤ - ١٨٢٥ م) ... ٥٥٣ - ٥٦٣

رقم الصفحة

وليم مكنوچال
التمهيد لعلم النفس الاجتماعى
(١٨٧١ - ١٩٣٨ م) ... ١٣٣ - ١٤٩
وليم هوجارث
تحليل الجمال (١٦٩٧-١٧٦٤ م) ٢٠٤ - ٢٢٤
ويكيل طومسون
بعثة التحدية للكشف العلمى
للمحيطات (١٨٣٠ - ١٨٨٢ م) ٤٩٥ - ٥٨٠
يعقوب بن ابراهيم = ابو يوسف
يوسف بن تفرى بردى = ابن تفرى بردى
يونانان سويقت = سويقت

رقم الصفحة

مرفس اورليوس
تأملات (١٢١ - ١٨٠ م) ... ٣٨٧ - ٤٠٤
المسعودى
مروج الذهب (٣٤٦ هـ - ٢٥٣ - ٢٦٩
مهدى الموحدين = محمد بن تومرت
النويرى
نهاية الارب (٦٧٧ - ٧٢٣ هـ) ٣٢٣ - ٣٥١
هنرى جيمس
صورة سيدة (١٨٤٣-١٩١٧ م) ٦٣٤ - ٦٦٧

الباحثون

رقم الصفحة	الباحثون	رقم الصفحة	الباحثون
٥٩٢ - ٥٨٢	سعيد زايد	٣٥١ - ٣٣٣	ابراهيم الايبارى
٧٦٠ - ٧٤٣	مفاتيح المعلوم	...	نهاية الارب
...	سليم انتون	...	النجوم الزاهرة فى ملوك مصر
...	رحلات حول العالم	٦٦١ - ٦٨١	والقاهرة
...	السيد محمد بدوى	...	ابراهيم سكر
٦٣٣ - ٦١٧	الجماعة والمجتمع	٧٠ - ٥٤	حول تعليم الخطيب
...	صوفى عبد الله	٦٨٠ - ٦٦٨	اشعار غنائية
٣٣٢ - ٣٢٢	رحلات جليفو	احمد حمدى محمود
...	عبد التحليم محمود	٢٢٤ - ٢٠٤	تحليل الجمال
٧٨٤ - ٧٦١	الرعاية لحقوق الله	٢٥٢ - ٥٣١	اللاؤوكون
...	عبد الحميد يونس	...	احمد رشاد
٤٣٤ - ٤٢١	سيرة عنترة	٢٧٨ - ٢٧٠	دومنيك
...	عبد العزيز الشناوى	٨٤٨ - ٨٢٥	ادولف
٨٩٣ - ٤٨٩	الخطط التوفيقية	...	احمد رشيد
...	عزى اسلام	٢٣٦ - ٢٢٥	الادارة العلمية
٧٢٤ - ٧٠٩	رسالة منطقية فلسفية	...	احمد سعيد الدمرداش
...	على ادهم	٤٢٠ - ٤٠٥	البرنسيبا
٢٠٣ - ١٩٠	آراء جيروم كواينار	...	احمد عبد الرحيم ابو زيد
٤٠٤ - ٣٨٧	تأملات مرقس اورليوس	٧٤٢ - ٧٢٥	فن الحب
٧٠٨ - ٦٩٢	مدام بوفارى	...	احمد عبد الرحيم مصطفى
...	على حسنى الخربوطلى	٥٦٣ - ٥٥٣	عجائب الآثار فى التراجم والاخبار
٢٦٩ - ٢٥٣	مروج الذهب	...	احمد فؤاد الاهوانى
٦١٦ - ٦٠٢	الخراج	١٦٤ - ١٥٠	الملل والنحل
...	على درويش	...	احمد محمود الساداتى
٣٧٣ - ٣٥٤	احاديث الاثنين	١٣٢ - ١١٨	تاريخ جهانكشاي
...	على سامى النشار	...	امين الخولى
١١٧ - ١٠٥	الرد على المنطقيين	٩٤ - ٨٥	الكشاف
...	عيسى محمود ناصر	...	انجيل بطرس سمعان
١٨٩ - ١٧٩	كليه ودمنه	٦٦٧ - ٦٣٤	صورة سيدة
...	فؤاد شبل	...	انور عبد العليم
١٧٨ - ١٦٥	١ - اقوال لاوترز	...	بمئة المتحدة للكشف العلمى
...	التفسيرات او فلسفة الين	٥٨٠ - ٤٩٥	للمحيطات
٦٠١ - ٥٩٣	والبيانج	...	حسين فوزى النجار
...	فوزى شاهين	٤٩٤ - ٤٦٧	عن الحرية
٢٥٢ - ٣٣٧	الديكاميرون	...	تأثير القوى البحرية على
...	...	٩١٥ - ٨٩٤	التاريخ

رقم الصفحة

٨٠٨ - ٧٨٥ ثلاث مسرحيات	محمود على مكى
٤٠ - ٢٢	مصطفى ماهر
٥٨١ - ٥٦٤	١ - النبلونجنليد
	٢ - تريستان وايزولد
١٤٩ - ١٣٣	مذيرة حلنى
	التمهيد لعلم النفس الاجتماعى
	نبيلة ابراهيم
	سيرة الاميرة ذات الهمة
	٩٢٨ -
	نظمى لوقا
٥٣ - ٤١	١ - احاديث خيالية
٣٢١ - ٣٠٩	٢ - العواهل
	يحيى الحشاب
٥٣٠ - ٥٠٩	الشاهنامه
	يحيى هويدى
٢٨٦ - ٢٧٤	أعز ما يطلب

رقم الصفحة

٩٢٧ - ٩١٦	كوثر عبد السلام
	جارجتوا وبانتاجرويل
	محمد خلف الله احمد
٢١ - ٣	ادب الكاتب
	محمد سليم سالم
١٠٤ - ٩٥	قصة الاسيرين
	محمد عبد الفنى حسن
٤٦١ - ٤٥١	الوسيلة الادبية
٨٢٤ - ٨٠٩	تاريخ آداب اللغة العربية
	محمد غلاب
٨٤ - ٧١	رينيه
	محمد فتحى الشنيطى
٤٥٠ - ٤٣٥	مبحث فى الفهم الانسانى
	محمد كمال شبانه
	معيان الاختيار فى ذكر المعاهد
٣٠٨ - ٢٨٨	والديار

منافذ بيع مكتبة الأسرة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المبتديان

١٣ ش المبتديان - السيدة زينب
أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة

خلف كلية الإعلام - بالبحر الجامعى
بالجامعة - الجيزة

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع
محطة المساحة - الهرم
مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة

٢٥٧٧٥٠٠٠

ت : ٢٥٧٧٥٢٢٨ داخل ١٩٤
٢٥٧٧٥١٠٩

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة
ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عربى

٥ ميدان عربى - التوفيقية - القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (١) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب - جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقاً - المحلة

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتب بريد المجمع الحكومى - توزيع

دمنهور الجديدة

مكتبة المنصورة

٥ ش السكة الجديدة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظلة الشرقية

مكتبة طلعت سلامة للصحافة والإعلام

ميدان التحرير - الزقازيق

ت : ٠١٠٦٥٣٣٧٣٣٢ - ٠٥٥٢٣٦٢٧١٠